

الرسول محمد ﷺ



الرسول محمد ﷺ

الجزء الأول

الرسالة النبوية

والبشارة بمحمد ﷺ

وإنك لعلى خلق عظيم

إعداد وإشراف

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

شارك في الإعداد

أ ، د محمد إبراهيم عبدالرحمن

رحمه الله تعالى

الشيخ مصطفى بن العدوي

الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر

الشيخ عبداللطيف بن هاجس الغامدي

الأستاذ فؤاد محمد عبدالمنعم

مجدي عبدالباقي الشريف

باحث في الإعجاز العلمي للقرآن والسنة

الأستاذ / سيد سليمان الحلواني

الناشر

شركة كندة للإعلام والنشر

وإنك لعلى خلق عظيم

حقوق التوزيع والترجمة

بتفويض من الرواد للإعلام بجدة

ت ٦٧٠٣٣٣٦ فاكس ٦٧٠٣٣٣٦

يطلب من وكلاء التوزيع

مكتبة كنوز المعرفة بجدة

دار الخزامى للنشر والتوزيع – الأردن

دار رحمة بالأسكندرية

دار المحمدي للنشر بجدة

مؤسسة الرسالة بدولة الإمارات

المجلس العلمي للنشر بالهند

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة

ت: ٤٩٩١٢٥٤ – ٥١٠٨٠٠٤

ت: ٤٩٠٠٦٠٦ – ٤٩٠٠٨٠٨

WWW.ALislamiya 4 book.com

تطلب النسخة المترجمة من

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد

وتوعية الجاليات بشرق جدة

تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية

رقم الإيداع

٤٤٦٤ / ٢٠٠٦

رقم الإيداع الدولي

I. S. B. N

977-6195-00-8

الفهـــرس

الفصل الثالث

الفهـــرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

فاستبقوا الخيرات ٦٧١

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثاني

مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد..

فقد منّ الله تعالى علينا بسيرة الرسول محمد ﷺ، لتكون نوراً للمؤمنين، وهداية للمتقين، ورسالة رحمة للعالمين. وقد وصف ربنا سبحانه نبيه ﷺ- رسول الحق- فقال: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** .

والرسالة المحمدية ختم الله بها رسالاته، وأرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة.

وإن من خير ما بذلت فيه الأوقات، وشغلت به الساعاتُ دراسةَ السيرة النبوية العطرة، والأيام المحمدية الخالدة، ومكارم الأخلاق العظيمة، فهي تجعل المسلم وكأنه يعيش تلك الأحداث العظام التي مرت بالمسلمين، وربما تخيل أنه واحد من أولئك الكرام البررة الذين قامت على عواتقهم صروح المجد ونخوة البطولة.

وبدراسة خلق النبي محمد ﷺ يستعيد المسلمون ثقتهم بأنفسهم، ويوقنون بأن الله تعالى معهم وناصرهم، إن هم قاموا بحقيقة العبودية له والانقياد لشريعته: **﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾** .

وأساس الاستقامة في حسن الخلق كما قال النبي محمد ﷺ: «إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ» .

هذا وقد شرفنا الله عز وجل بنشر هذا الكتاب الذي قام على إعداده نخبة كريمة من العلماء والباحثين وبإشراف فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري الحائز على جائزة العالم الإسلامي في السيرة النبوية .

ونسأل الله تعالى أن يرحم أستاذنا الدكتور محمد إبراهيم عبدالرحمن من الذين شاركوا في إعداد هذه الموسوعة ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وقد توفاه الله قبل صدورها ، لعلها في ميزان حسناته بإذن الله.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل من كل من شارك في إعداد هذه الموسوعة، وأن يجزيهم الجزاء الحسن، وأن ينفع بنشرها وبتوزيعها .

و أتوجه بالشكر والتقدير لكل من: شركة كندة للإعلام والنشر بجدة وصاحبها سعادة الدكتور عبدالله بن مرعي بن محفوظ ، وشركة الرواد للإعلام بجدة وصاحبها سعادة الأستاذ أحمد الزهراني ، شكراً وتقديراً لما حظينا به من خبرة وتشجيع في العمل على النشر والتوزيع والترجمة .

أسأل الله تعالى أن تصل هذه الموسوعة إلى كل بيت ، وأن يستفيد منها كل إنسان على وجه الأرض.

ربي وربكم الله والحمد لله رب العالمين.

الناشر

عبدالباقي الشريف

مقدمة

الحمد لله العليّ الحميد، ذي العرش المجيد، الفعَّال لما يريد، هو الذي يُبدئ ويُعيد، ولا يَفْنَى ولا يَبيد، قهر الخلائق بقدرته فالملوك له عبيد، ووسع الكل برحمته فمن حق عليه عذابه فهو الشقي الطريد، وعلا عليهم بعزته فلا يدانيه مَلَكٌ مُقرَّب ولا يُعجزه شيطانٌ مَريد، وعرَّفهم الهدى والضلال فمنهم ضالٌّ شقي ومهتدٍ سعيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي علمنا التوحيد، وأرشدنا إلى القول السديد، وهدانا ـ بإذن ربه ـ إلى صراط العزيز الحميد، صلى الله عليه وعلى أصحابه ومن سار على نهجهم السديد، وأوى إلى ركنهم الشديد، وبعد :

فمن أشرف منازل العلم وأسعد مقامات البيان الكلام عن المرسلين صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، الذين هم أهدى عباد الله سبيلا، وأقوم خلق الله قيلاً، وأعظم الناس نفعًا للناس وبركةً على الدنيا، فهم حياةُ العالم ونورُه ورحمة الله لعباده.

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في كلمة جامعة وافية صادقة مبينًا اضطرار الناس إلى ما جاء به الأنبياء وبخاصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، يقول: « والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة.

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشد من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده.

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد بن عبد الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»(١). وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»(٢). وهذا المقت كان لعدم هدايتهم بالرسل، فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ، فبعثه رحمة للعالمين ومحجة للسالكين، وحجة على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبته، وتعزيره وتوقيره، والقيام بأداء حقوقه، وسد إليه جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين.

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة؛ وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها؛ وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره؛ ووضع عنه وزره، ورفع ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٥) موصولا، وهو عند الدارمي (١/ ٩)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢) مرسلا، والحديث صححه الألباني ـ رحمه الله ـ كما في «المشكاة» (٣/ ١٦١٥)، وانظر «الصحيحة» (٤٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

حين حُرِّف الكلم وبُدِّلت الشرائع. واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم. وحكموا بين الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وجعله قسيم الجنة والنار وفرق ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته»(٣). أهـ

وإن الدنيا اليوم والعالم كله أعظم ما يكون حاجة إلى ما جاء به محمد ﷺ من الهَدْي العظيم والخُلُق القويم والصراط المستقيم الذي يُرَدُّ به الناس إلى المهيع الحق والصراط السَّوِيِّ الذي انحرفوا عنه بدعوات أرضية وأفكار بشرية ومذاهب فلسفية غير معصومة ولا مأمونة، بل إن التجارب تشهد أنها أضرت أكثر مما نفعت وأفسدت أعظم مما أصلحت؛ لأنها اجتهادات بشرية ليس لها نسب إلى أنوار الوحي وبركات التنزيل، تلك التي لا توهب إلا لخاصة خلق الله المُصْطَفَيْن الأخيار، أعني عباده المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإن أجمع ما يمكن أن يقال هنا: إن التاريخ بأجمعه لم يشهد جسداً آدميًا اجتمعت فيها خصال وأخلاق وسجايا تربو أو تناظر ما تحلَّى به محمد ﷺ من عظيم الخصال وجميل الآداب، ولنقف على عبارات جامعة في وصف أصحابه له الذين دَنَوْا منه وعاينوا أنبل إنسان نفسًا وأعظم بشر خُلُقًا، فتكلموا بإخلاص وصدق بلا تكلف ولا تنميق، وهاك بعضَ ما وصفوا به إمامهم وأسوتَهم كما ورد في الصِّحَاح من دواوين السنة المشرفة:

* **(رحمته)** : قَدِمَ نَاسٌ من الأَعْرابِ عَلَى رسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: أَتُقَبِّلونَ صِبْيَانَكُم؟ فَقَالُوا: نَعَم. فَقَالُوا: لَكِنَّا والله مَا نُقَبِّلُ. فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «وأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ»(٤). [عائشة رضي الله عنها].

(٣) المجموع (١٩/١٠١-١٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٧)، وهو عند البخاري (٥٩٩٨) بنحوه.

* وقبَّلَ النَّبيُّ ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ وعنده الأقرعُ بنُ حابس جالسًا، فقال الأقرعُ: إنَّ لي عشرة من الولَدِ ما قبَّلتُ منهم أحدًا. فنظر إليه النبيُّ ﷺ ثم قال: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرحَمُ»(٥). [أبو هريرة رضي الله عنه]

* **(حلمه)**: ما ضَربَ رسولُ اللهِ ﷺ خادِمًا لَهُ، وَلا امْرَأَةً، وَلا ضَرَبَ بيدِهِ شَيْئًا»(٦). [عائشة رضي الله عنها]

* **(رفقه)**: ما خُيِّر رسُولُ اللهُ ﷺ بيْنَ أمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أيْسَرَهُمَا ما لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ منْهُ(٩). [عائشة رضي الله عنها]

* خَدَمْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سنينَ، واللهِ مَا قَالَ لي لشيء صنعتُه لِمَ صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لم تصنع هذا هكذا(١٠).

[أنس رضي الله عنه]

* **(لينه)**: كَانُوا يَتَحَدثُونَ فَيَأْخُذُونَ في أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ ويَتَبَسَّم ﷺ(١١). [جابر بن سمرة رضي الله عنهما]

* **(حياؤه)**: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً منَ الْعَذْرَاءِ في خِدْرِهَا، وكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ في وَجْهِهِ(١٢). [أبو سعيد الخدري رضي الله عنه]

* **(تواضعه)**: جاءَتْ امْرَأَةٌ كَانَ في عَقْلِهَا شَيءٌ، فَقَالَتْ: يَا رسُولَ اللهِ، إِنَّ لي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلان! انْظُري أَيَّ السِّكَكِ شِئْت، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فَخَلا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا(١٣).

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٧٨٦)، وابن ماجه (١٩٨٤).

(٧) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٨) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(١٠) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(١١) أخرجه مسلم (٢٣٢٢).

(١٢) أخرجه البخاري (٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠).

(١٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

* **(شجاعته)** : كان رسول الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وكان أَشْجَعَ النَّاسِ، ولَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلى الصَّوْتِ، وهُوَ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ فِي عُنُقِه السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا، لم تراعوا»(١٤). [أنس رضي الله عنه]

* كنَّا واللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذي يُحَاذِي به ﷺ(١٥). [البراء بن عازب رضي الله عنه]

(جوده) : أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ غنمًا بَيْنَ جبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ! إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ(١٦).

[أنس رضي الله عنه]

ما سُئِلَ رسُول اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: «لا»(١٧). [جابر بن عبد الله رضي الله عنهما]

* **(صبره)** : أَلَسْتُم في طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُم؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ - التمر الرديء - مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ(١٨). [النعمان بن بشير رضي الله عنهما]

* إِنْ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ، إِنْ هُو إلا التَّمْرُ والمَاءُ(١٩).

* **(مهابته)** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ المَهَابَةُ(٢٠).

[زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها]

(١٤) أخرجه البخاري (٣٠٤٠)، ومسلم (٢٣٠٧).
(١٥) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) واللفظ له.
(١٦) أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(١٧) أخرجه مسلم (٢٣١١).
(١٨) أخرجه مسلم (٢٩٧٧).
(١٩) أخرجه البخاري (٦٤٥٨)، ومسلم (٢٩٧٢).
(٢٠) أخرجه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

* **(مكانته)** : واللهِ! لَقَدْ وَفَدتُ عَلَى المُلوك، ووَفَدتُ عَلَى قَيصَرَ وكِسْرَى والنَّجاشيِّ، والله إِنْ رَأَيْتُ مَلكًا قطُّ يُعظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ محمَّدًا، والله إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَروا أَمْرَهُ، وإذَا تَوضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضوئِه، وإذا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْواتَهم عِنْدَهُ، ومَا يُحِدُّون إِلَيْه النَّظَر تعظيمًا لهُ(٢١).

[عروة بن مسعود رضي الله عنه]

* **(نعته)** : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَزْهَرَ اللَّون، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ، إذا مَشَى تَكَفَّأ، وَلا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً ولا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله ﷺ، وَلا شَمِمْتُ مِسْكَةً ولا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رائحة رَسُولِ الله ﷺ(٢٢). [أنس رضي الله عنه]

ـ ويقول العالم الهندي المسلم شبلي النعماني ـ رحمه الله ـ في بيان حاجة الإنسانية جمعاء إلى إنسان تجتمع فيه خصال الخير كلها:

« كانت الإنسانية منتظرة للإنسان الكامل(٢٣) الذي ليس بملك فقط أو قائد فقط بل زاهد مُتّقٍ أيضًا في الوقت نفسه، وزعيم عام وموجود متواضع مطيع لخالقه مشفق على الخلق كريم قنوع فقير، فهذا الإنسان الكامل الجامع لكل موجودية إنسانية ذروةُ البشرية العليا وأكبر موفقياتها.

وكما أن كل شيء في الدنيا فانٍ، فهذا الإنسان الكامل أيضًا ليس بخالدٍ من حيث المادية، فلهذا يجب أن يسجل ما قاله، وأن يُنْقَل من سلف إلى خلف، وأن يثبت كل ناحية من سجاياه، ويُضْبَط كل عمل من أعماله، ويروى بكل صدق وإخلاص، وأن تُصَوَّر كل حالة من حالاته ومواقفه؛ لأن كل واحد من ذلك منبع

(٢١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٠).

(٢٣) الأوفق أن يقال: المعصوم؛ لأن الكمال لله، والعصمة لرسوله ﷺ كما هو إطلاق الكتاب والسنة والسلف الصالح، ولعله هنا أراد الكمال النِّسبي، أي: بالنسبة إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان، ومع ذلك فالسلف وصفوه ﷺ.

نور لإرشاد البشر في كل زمان وذخر هداية لإدارة الناس في كل وادٍ من أودية الحياة»[٢٤]. أهـ

وما هذا الإنسان المستوفي خصال الخير البشرية إلا محمد رسول الله ﷺ، ولما كانت حاجة الإنسانية جمعاء إلى هذا الإنسان الجامع لخصال الخير على القدر الذي تَبَيَّنَ، فإننا نَزُفُّ إلى العالم كله ـ مسلمين وغير مسلمين ـ أخلاق هذا النبي الكريم التي ضمناها كتابنا هذا الذي سَمَّيْناه:



الرسول محمد ﷺ

وقد رجونا أن تكون هذه الموسوعة الشاملة في أخلاق نبي الإسلام محمد ﷺ مصدر إشعاع لجميع البشر في كل مكان في هذا الزمان الذي طغت عليه المادة وساد فيه الطمع، وعمَّ فيه الظلم والفساد.

وأردنا أن يكون كتابنا هذا جامعًا في بابه، وافيًا بمقصوده، متوسط الحجم بالنسبة لموضوعه، ليسهل اقتناؤه والانتفاع به، عسى أن يأخذ بيد قارئه إلى جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد عهدنا بهذا العمل الشريف إلى زمرة مباركة من العلماء الفضلاء والأساتذة النجباء والآتي ذكرهم، وسنبين عقب هذه الديباجة يحتوى هذا العمل وأقسامه تفصيلا ومن شارك فيه من العلماء والباحثين، ولما كان العمل أعم من أن يخاطب به المسلمون وحدهم فقد هدفنا من بدء العمل أن نصدر الكتاب بعدة لغات ليعم النفع به، وسيكون هذا قريبًا إن شاء الله وشاملا لمعظم اللغات الحية. ولئن كان رسول الله ﷺ ودين الله غنيًا عن عملنا هذا فإن الدنيا كلها والعالم بأسره لأَشَدُّ ما يكون حاجة إلى ما في هذا الكتاب.

(٢٤) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» (ص٥٦).

فهـــذه الرســالة – بين أيدينا – تعــرّف بالإسلام مـن خلال شخصيـــة النبي محمد ﷺ.

وهي مقسمة إلى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول بعنوان :

(السيرة النبوية والبشارة بمحمد ﷺ)

وقد تناولنا فيها مختصر السيرة النبوية من خلال كتابنا « مختصر الرحيق المختوم » وهو من تأليفنا واختصارنا.

ثم تناولنا جانبًا من البشارات بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل وفي كتب الأولين – الرسول الخاتم – وقدمنا فيها رسالتنا بعنوان « البشارة المحمدية في الديانة الهندوسية » ..

الجزء الثاني بعنوان :

(ما أنا عليه وأصحابي)

تناولنا فيه بحثين جليلين ؛ الأول بعنوان : « مكارم الأخلاق في الإسلام »، قدمنا فيه الصفات العظيمة التي تحلى بها النبي محمد ﷺ وأصحابه، وشارك في هذا البحث الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم عبدالرحمن ، والبحث الآخر كان لفضيلة الشيخ الداعية عبد اللطيف بن هاجس الغامدي بعنوان « كف الأذى »، ويتناول أكثر من ٤٠٠ أذى يجب كفها عن الناس، وقد أوصى بكفها الرسول محمد ﷺ.

والجزء الثالث بعنوان :

(الدين الحق بالأدلة القاطعة)

وتناول عدة أبحاث أولها لفضيلة الشيخ مصطفى بن العدوي ، بعنوان « الرسول محمد ﷺ إمام المتقين وأثر سنته في فهم القرآن الكريم ».

والبحث الثاني بعنوان «العلماء يشهدون»، والثالث بعنوان «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وهما للباحث في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة؛ مجدي عبدالباقي شريف.

والبحث الرابع للأستاذ فؤاد عبدالمنعم بعنوان «الإسلام والغرب» والذي تناول الغرب في ثلاثة صور؛ الذين افتروا ، والذين أنصفوا، والذين أسلموا.

وأخيراً ختمنا كتابنا ببيان منهاج النبوة في الدعوة إلى الله لفضيلة الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر .

نسأل الله أن ينفعنا بها ، وينفع إخواننا من المسلمين ، وينفع دعوة الناس إلى الحق المبين ، وأن يتقبل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

صفي الرحمن المباركفوري



الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

الفصل الأول
سيرة النبي
محمد صلى الله عليه وسلم



العالم قبل الإسلام

في القرن السادس الميلادي كانت الدنيا غارقة في ظلمات من الجهل والضلال والبوار، وكان للعرب قبل الإسلام الحظ الأوفر والنصيب الأوفى من تلك الجاهلية؛ فمن الناحية الدينية كان عامتهم مشركين: ﴿**وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّه**﴾ [يونس: ١٨] ﴿**وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلكُونَ لأَنفُسهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣] بل تمادوا في هذا الغَيّ إلى أنهم كانوا يعبدون الحجر، فإذا وجدوا حجراً هو خير منه ألقوا ذلك الحجر، وأخذوا الآخر، فإذا لم يجدوا حجراً جمعوا حثوة من تراب، ثم جاءوا بالشاة فحلبوها عليه، ثم طافوا به[١].

وكانوا بجانب ذلك يحملون أنواعًا من الأوهام والخرافات، من ذلك أنهم كانوا يستقسمون بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش له، فكانوا يختارون من الأقداح ثلاثة أسهم، يكتبون على واحد منها (نعم) وعلى الثاني (لا) ويتركون الثالث غفلا، فإذا أرادوا عملاً من نحو السفر والنكاح وأمثالهما استقسموا بها، فإن خرج (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع غفل أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين، وكانت لهم أزلام فيها المياه والعقول والديات والأنساب وغير ذلك.

وكانت للكهنة والعرافين والمنجمين فيهم جولة وصولة، فقد كانوا يتحاكمون إليهم في أمور دينهم، وفي كثير من أمور دنياهم، ويستسلمون لهم أيّما استسلام، وقد كان هؤلاء الكهنة والعرافون والمنجمون يتعاطون الأخبار عن

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي، انظر الحديث رقم (٤٣٧٧).

الكوائن في المستقبل، ويدّعون معرفة الأسرار، ومنهم من يزعم أن له تابعًا من الجنّ يلقي إليه الأخبار، والمنجم كان يدّعي معرفة حوادث المستقبل بحساب سير النجوم.

وكانت فيهم الطِّيَرَة - بكسر ففتح - وهى التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وعدوه حسنًا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك، وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور، والحيوانات، والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، وهي أنهم كانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة، أي بومة تطير في الفلوات، وتقول: صدى صدى، أو اسقوني اسقوني. فإذا أخذ بثأره سكن واستراح.

كانت العرب بجانب هذه الأوهام والخرافات قائمين ببعض ما ورثوه من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام؛ مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة وإهداء البدن، ولكنهم كانوا قد أحدثوا في ذلك بدعًا، وخلطوه بأنواع من الخرافات.

وكان لليهودية والنصرانية أيضًا دور في سكان جزيرة العرب، فقد وجدت من اليهود عدة قبائل في المدينة المنورة، وخيبر، وتيماء، ووادي القرى، وفدك وغيرها، وقد دانت طائفة من أهل اليمن باليهودية؛ وهم الذين حرقوا نصارى نجران في الأخدود إذ لم يعتنقوا ديانتهم.

أما النصرانية فكان لها أهل وأتباع في نجران، وكانوا يتألفون من مائة ألف مقاتل كلهم على هذا الدين، وقد انتشرت النصرانية في عامة مناطق اليمن أيضًا

بواسطة الأحباش، وكانت العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيئ وغيرهما من العرب المجاورين للرومان أيضًا اعتنقوا النصرانية واختاروها دينًا لهم.

وكانت هذه هي أكبر ديانات العرب قبل الإسلام، ووجد شيء من المجوسية والصابئة أيضًا، وقد أصاب هذه الديانات الانحلالُ والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدّعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر شريعة إبراهيم ونواهيها، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق، وكثرت فيهم المعاصي، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًّا.

أما اليهودية فقد انقلبت رياء وتحكّمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همّهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين، وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها، وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

أما من الناحية السياسة فقد كانت اليمن تحت احتلال الأحباش ثم الفرس، وكانت الحيرة وما حولها من شرق العرب تابعة للفرس منذ أمد بعيد، وأما مشارف الشام وما يجاورها فكان يحكمها آل غسان، وكانوا تابعين للرومان، وأما بقية العرب فكانت مقسمة بين القبائل، وكان يحكم كل قبيلة فيها رئيس مستقل، له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لأي دكتاتور قومي، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب.

أما أحوال هذه المناطق وسكانها فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة ـ ولا سيما الأجانب ـ كان لهم كل الغنم، والعبيد عليهم كل الغرم، وبعبارة أوضح أن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها في ملذاتها وشهواتها، ورغائبها وجورها وعدوانها؛ أما الناس فكانوا في عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألوانًا صامتين، فقد كان الحكم استبداديًّا، والحقوق ضائعة مُهْدَرةً.

وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبذبين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون في أهل العراق، ومرة يدخلون في أهل الشام.

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزية إن غـــوت   غويت وإن ترشد غزية أرشـد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد.

وأما من الناحية الاجتماعية؛ فبينما كانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم كانت في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين المرأة والرجل لا نستطيع أن نعبر عنها إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة، روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء؛ فنكاحٌ منها نكاحُ الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان

الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان. فتسمي من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح [رابع]: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح [أهل الإسلام] اليوم(١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لانستطيع أن نخص منها وسطًا دون وسط، أو صنفًا دون صنف، إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء، والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن

(١) صحيح البخاري ح٥١٢٧، وسنن أبي داود: كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية. وما بين المعقوفين من سنن أبي داود.

تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل، فقال: يا رسول الله إن فلانًا ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «**لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(١).

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى؛ فمنهم من يقول:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنعام:١٥١]، ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [النحل:٥٨ - ٥٩]، ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٣١]، ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير:٨-٩].

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعبس وذبيان، وبكر وتغلب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا. وكانت قواهم متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين

---

(١) أبو داود: باب الولد للفراش. ومسند أحمد ٢/٢٠٧.

الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها، وأحيانًا كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معايشهم.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجُل همتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معايش العرب؛ فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذاك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز ومجنة وغيرها.

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم كان في داخل الجزيرة شيء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعري عامًّا في المجتمع.

هذا، وكانوا يتمتعون بجنب كل ما مضى ببعض الأخلاق الفاضلة التي يقل وجودها في البشر مثل الجود والكرم، والوفاء بالعهد، وعزة النفس والمضي في العزائم، والإباء عن قبول الخسف والضيم، والحلم والأناة والتؤدة والصدق والأمانة، والبعد عن لوثات الحضارة ومكائد الحاضرين من الخداع والكذب والغدر إلا أنهم لم يكونوا يعرفون سبلاً عزيزة يصرفون هذه الأخلاق فيها.

والحاصل أنهم كانوا يعبدون الأصنام، غارقين في الأوهام، متمسكين بالخرافات، يرزحون تحت نير الظلم والعدوان، متحاربين متناحرين، متبعثرين متفانين يأكلون الميتة ويشربون الخمور، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويأكل منهم القوي الضعيف، وتعمهم التعاسة والبوار، ولا يدرون طريق السعادة والفلاح مع تمتعهم ببعض الأخلاق الفاضلة، فكانوا في أقصى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى هذا السبيل، فبعث الله محمداً ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاوة إلى السعادة، فقام بذلك حتى قوّم خط التأريخ وغير مجرى الحياة، وليست الصفحات القادمة إلا صورة مصغرة جداً مما بذل من الجهود وما لاقى من العناء، وما حصل عليه من النتائج المحمودة المشرفة.

وما توفيقي إلا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل.



نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ :

هو أفضل خلق الله وأكرمهم عليه فهو من نسل نبي الله إسماعيل بن نبي الله إبراهيم فهو ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالاتفاق، ولكن لم يعرف بالضبط عدد مَن بين عدنان وإسماعيل عليه السلام ولا أسماؤهم.

وفهر بن مالك - وقيل: النضر بن كنانة - هو الملقب بقريش: ونسبة إليه تعرف ذريته بقبيلة قريش، وهي قبيلة مشهود لها بالشرف، ورفعة الشأن، والمجد الأصيل، وقداسة المكان بين سائر العرب.

وكانت هذه القبيلة متفرقة في أطراف مكة حتى جاء قصي بن كلاب، فتولى الكعبة، وجمع قريشًا فأسكنها في مكة، ومعنى تولى الكعبة أنه كانت إليه حجابتها وسدانتها، فكان بيده مفتاح الكعبة يفتحها لمن شاء، ومتى شاء، وقد أنشأ قصي أيضًا السقاية والرفادة؛ والسقاية: ماء عذب من نبيذ التمر أو العسل أو الزبيب ونحوه، كان يعده في حياض من الأديم يشربه الحجاج، والرفادة: طعام كان يصنع لهم في الموسم. وقد بنى قصي بشمالي الكعبة بيتًا عرف بدار الندوة، وهي دار شورى قريش، ومركز تحركاتهم الاجتماعية، فكان لا يعقد ولا يتم أمر إلا في هذه الدار، وكان بيده اللواء والقيادة فلا تعقد راية حرب إلا بيده. وكان كريمًا وافر العقل، صاحب كلمة نافذة في قومه.

الأسرة النبوية:

١ ـ هاشم ـ تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية؛ نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف، وكان هاشم هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف بن قصي، وكان موسرا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمراً فما سمي هاشماً إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش؛ رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف(١)

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجراً، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام ـ وهي عند أهلها حملت بعبد المطلب ـ فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م، وسمته شيبة؛ لشيبة كانت في رأسه(٢) وجعلت تربيه في بيت أبيها في يثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة.

٢ ـ عبد المطلب ـ ولما صار شيبة ـ عبد المطلب ـ وصيفًا أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثمان سنين سمع به المطلب فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت فقال: إنما يمضي إلى ملك أبيه، وإلى حرم الله. فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب. فقال: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم. فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بردان من أرض اليمن، وكان هو الوارث لمناصب هاشم، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه

---

(١) ابن هشام ١/١٥٧ مع الروض الأنف، وفيه الإيلاف يدل الأصياف.

(٢) ابن هشام ١/١٣٧.

يقيمون، وشرف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم(٣).

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان؛ حفر بئر زمزم، ووقعة الفيل، **وخلاصة الأول** أنه أمر في المنام بحفر زمزم، ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريشٌ عبدَ المطلب، وقالوا له: أشركنا. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد هذيم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا في الطريق، ونفد الماء سقى الله عبد المطلب مطراً، ولم ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة(٤).

وخلاصة الثاني أن أبرهة بن الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة؛ فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة، ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم ـ عدده ستون ألف جندي ـ إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة، وكان في الجيش تسعة فيلة أو ثلاثة عشر فيلا، وواصل سيره حتى بلغ المغمس، وهناك عبأ جيشه، وهيأ فيله، وتهيأ لدخول مكة، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى

(١) ابن هشام ١/١٣٧، ١٣٨ وتعيين السنين من تاريخ الطبري ٢/٢٤٧.

(٢) ابن هشام ١/١٤٢ـ١٤٧.

الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينا هم كذلك، إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص لا تصيب منهم أحداً إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره على قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب، وتحرزوا في رءوس الجبال، خوفًا على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين(١).

وكانت هذه الوقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا ـ عند الأكثر ـ وهو يطابق أواخر أو أوائل مارس سنة ٥٧١م، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته؛ لأنا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين في حين كان أهلها مسلمين، كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ق. م، والرومان سنة ٧٠م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة، وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين وهذا يعني أن الله اصطفى هذا البيت للتقديس. ولا يأتي هذا التقديس إلا بقيام نبي من أهله.

٣ ـ عبد الله والد رسول الله ﷺ أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد

---

(١) ابن هشام ١/٤٣ إلى ٥٦ وتفسير سورة الفيل من كتب التفاسير.

الله، وكان أحب الناس إليه، اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل(١). وقيل: إنه كتب أسماءهم في القداح، وأعطاها قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش، ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها. فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل، فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت مائة فوقعت عليها، فنحرت ثم تركت، لا يرد عنها إنسان ولا سبع، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**». يعني إسماعيل، وأباه عبد الله(٢).

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمراً، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجراً إلى الشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين. وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر(٣). ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٣٩.

(٢) ابن هشام ١/١٥١ إلى ١٥٥، تاريخ الطبري ٢/٢٤٠-٢٤٣.

(٣) ابن هشام ١/١٥٦، ١٥٨، تاريخ الطبري ٢/٢٤٦ والروض الأنف ١/١٨٤.

عفا جانب البطحاء مني ابن هاشم ... وجاور لحداً خارجًا في الغماغم

دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه في التزاحم

فإن تَكُ غالته المنايا وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحمُ[1]

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ[2].

* * *

(١) طبقات ابن سعد ١/١٠٠.

(٢) صحيح مسلم ح١٧٧١ (٣/١٣٩٢)، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤.

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل(١)، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ويوافق ذلك العشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري رحمه الله(٢).

وروي ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمي وغيرهما قريبًا من ذلك(٣).

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له(٤)، واختار له اسم محمد ـ وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب ـ وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون(٥).

وأول من أرضعته من المراضع ـ وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع(٦) ـ ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي(٧).

---

(١) انظر نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ص٢٨ – ٣٥ لمحمود باشا الفلكي ط: بيروت.

(٢) ٢٠ إبريل حسب التقويم الميلادي القديم و٢٢ أبريل حسب التقويم الجديد، وللتفصيل انظر: رحمة للعالمين ١/٣٨، ٣٩، ٢/٣٦٠، ٣٦١.

(٣) مسند أحمد ٤/١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٥/٢٦٢، سنن الدارمي ١/٩، وابن سعد ١/١٠٢.

(٤) ابن هشام ١/١٥٩، ١٦٠، تاريخ الطبري ٢/١٥٦، ١٥٧، وابن سعد ١/١٠٣.

(٥) يقال: إنه ولد مختونًا، (تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤) وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. (انظر زاد المعاد ١/١٨).

(٦) إتحاف الورى ١/٥٧.

(٧) صحيح البخاري ح٢٦٤٥، ٥١٠٠، ٥١٠١، ٥١٠٦، ٥١٠٧، ٥٣٧٢، وتاريخ الطبري ٢/١٥٨ وفي سنده مقال، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/١٥٧.

في بني سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر - وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة، من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث، وأنسية بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث وهي الشيماء - لقب غلب على اسمها - وكانت تحضن رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ.

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يومًا وهو عند أمه حليمة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين؛ من جهة ثويبة ومن جهة السعدية(١).

ورأت حليمة من بركته ﷺ ما قضت منه العجب، وملخص ما روي في ذلك :

أن حليمة لما جاءت إلى مكة كانت الأيام أيام جدب وقحط، وكانت معها أتان كانت أبطأ دابة في الركب مشيا، لأجل الضعف والهزال، وكانت معها ناقة لا تدر بقطرة من لبن، وكان لها ولد صغير يبكي ويصرخ طول الليل لأجل الجوع، لا ينام ولا يترك أبويه ينامان.

فلما جاءت حليمة بالنبي ﷺ إلى رحلها، ووضعته في حجرها أقبل عليه ثدياها بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه ابنها الصغيرحتى روي، ثم ناما.

---

(١) زاد المعاد ١/٩١.

وقام زوجها إلى الناقة فوجدها حافلا باللبن، فحلب منها ما انتهيا بشربه ريًّا وشبعًا، ثم باتا بخير ليلة.

ولما خرجا راجعين إلى بادية بني سعد ركبت حليمة تلك الأتان، وحملت معها النبي ﷺ فأسرعت الأتان، حتى قطعت بالركب، ولم يستطع لحوقها شيء من الحمر.

ولما قدما في ديارهما ـ ديار بني سعد وكانت أجدب أرض الله ـ كانت غنمهما تروح عليهما شباعا ممتلئة الخواصر بالعلف، وممتلئة الضروع باللبن، فكانا يحلبان ويشربان، وما يحلب إنسان قطرة لبن.

فلم يزالا يعرفان من الله الزيادة والخير حتى اكتملت مدة الرضاعة، ومضت سنتان ففطمته حليمة، وقد اشتد وقوي في هذه الفترة.

وكانت حليمة تأتي بالنبي ﷺ إلى أمه وأسرته كل ستة أشهر، ثم ترجع به إلى باديتها في بنى سعد، فلما اكتملت مدة الرضاعة وفطمته جاءت به إلى أمه. قالت حليمة: ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة. قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا(١).

شق الصدر:

وهكذا رجع رسول الله ﷺ إلى بني سعد، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق(٢) وفي السنة الرابعة من مولده على قول المحققين(٣) وقع حادث شق

(١) ابن هشام ١/١٦٢ ـ ١٦٤، تاريخ الطبري ٢/١٥٨، ١٥٩، ابن حبان (الإحسان) ٨/٨٢ ـ ٨٤ وابن سعد ١/١١١ كلهم من طريق ابن إسحاق مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٦٤، ١٦٥، تاريخ الطبري ٢/١٦٠.

(٣) انظر ابن سعد ١/١١٢ ومروج الذهب للمسعودي ٢/٢٨١، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/١٦١، ١٦٢، وعنده على قول ابن عباس كان في السنة الخامسة ١/١٦٢ وقول ابن إسحاق شبه متناقض لأن رعي الغنم لا يتصور من صبي لم يكمل من عمره إلا سنتين. ولا يزال في بداية الثالثة.

صدره، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه - أي جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظِئْرَه(١) - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون - أي متغير اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره(٢).

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين.

ورأت آمنة أن تزور قبر زوجها بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو مترٍ ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهراً ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة(٣).

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان

---

(١) الظئر هي المرضعة، وربما يطلق على زوجها أيضاً.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء ١/١٤٧ ح٢٦١.

(٣) لينظر: ابن هشام ١/١٦٨ وتلقيح الفهوم ص٧.

رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع(١).

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه(٢).

إلى عمه الشفيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها.

يُستَسْقَى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل(٣)

---

(١) ابن هشام ١/١٦٨.

(٢) ابن هشام ١/١٦٩ وتلقيح الفهوم ص٧.

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٥، ١٦، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد عن الطبراني مثل هذه القصة في كتاب علامات النبوة ٨/٢٢٢.

بحيرا الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة ـ قيل وشهرين وعشرة أيام(١) ـ ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام، حتى وصل إلى بصري ـ وهي معدودة من الشام، وقصبة لحوران، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان ـ وكان في هذا البلد راهب عرف ببحيرا، واسمه ـ فيما يقال ـ جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخللّهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا. ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده. ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفاً عليه من الروم واليهود، فبعثه مع بعض غلمانه إلى مكة(٢).

حرب الفجار:

وفي السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت في سوق عكاظ حرب بين قريش ومعهم كنانة، وبين قيس عيلان، تعرف بحرب الفجار(٣)، وسببها أن أحد

---

(١) قاله ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧.

(٢) ينظر جامع الترمذي ٥ /٥٥٠، ٥٥١ ح٣٦٢٠ وتاريخ الطبري ٢ /٢٧٨، ٢٨٩، والمصنف لابن أبي شيبة ١١ /٤٨٩ ح١١٧٨٢، دلائل النبوة للبيهقي ٢ /٢٤، ٢٥، ولأبي نعيم ١ /١٧٠ وإسناده ثابت قوي، ووقع في آخره أن أبا بكر بعث معه ﷺ بلالاً. وهو من الغلط الواضح، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر. قاله ابن القيم في زاد المعاد ١ /١٧، وقد روي في القصة تفاصيل أخرى: رواها ابن سعد في الطبقات (١ /١٢٠) بأسانيد واهية، وذكرها ابن إسحاق بدون إسناد، حكاها عنه ابن هشام ١ /١٨٠-١٨٣، والطبري ٢ /٢٧٧، والبيهقي وأبو نعيم.

(٣) والفجارات (بكسر الفاء) بين هذين الفريقين أربعة، الثلاثة الأول منها كان فيها خصام واشتجار طفيف ثم اصطلحوا بدون قتال، فالأول سببه مماطلة دين كان لقيسي على كناني، والثاني سببه =

بني كنانة واسمه البراض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب ابن أمية لمكانته فيهم سنًا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس، ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي(١).

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش؛ بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة ابن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي، لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلِمَتُه، وشهد هذا الحلفَ رسولُ الله ﷺ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت.

= تفاخر كناني في سوق عكاظ، والثالث سببه تعرض فتيان مكة لامرأة جميلة من قيس، أما الرابع فهو فجار البراض الذي ذكرناه في الكتاب، ولينظر للتفصيل «المنمق في أخبار قريش» ص١٦٠-١٦٤ والكامل لابن الأثير ١/٤٦٧، وهو جعل الثلاثة الأول واحداً.

(١) ابن هشام ١/١٨٤-١٨٧، والمنمق في أخبار قريش ص١٦٤-١٨٥ والكامل لابن الأثير ١/٤٦٨-٤٧٢، قالوا: كانت في شوال، ولا يصح، لأن شهر شوال ليس بالشهر الحرام. وعكاظ خارج عن الحرم، فما هي الحرمة التي انتهكت؟ على أن سوق عكاظ كان يقام من بداية ذي القعدة.

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزومًا وجمحًا وسهمًا وعديًّا فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظُلامته، رافعًا صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي(١).

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنمًا، رعاها في بني سعد(٢)، وفي مكة لأهلها على قراريط(٣)، ويبدو أنه انتقل إلى عمل التجارة حين شب، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبي السائب المخزومي فكان خير شريك له لا يداري ولا يماري، وجاءه يوم الفتح فرحب به وقال: مرحبًا بأخي وشريكي(٤).

وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة.

(١) طبقات ابن سعد ١/١٢٦-١٢٨ نسب قريش للزبيري ص٢٩١.

(٢) ابن هشام ١/١٦٦.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الإجارات، باب رعي الغنم على قراريط ح٢٢٦٢.

(٤) سنن أبي داود ٢/٦١١، وابن ماجه ح٢٢٨٧ (٢/٧٦٨) ومسند أحمد ٣/٤٢٥.

فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام(١).

زواجه بخديجة رضي الله عنها:

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منة، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضي بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة، وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين(٢)، وأصدقها عشرين بكرة، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم؛ ولدت له أولاً القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ سوى فاطمة رضي الله عنها، فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به(٣).

---

(١) ابن هشام ١/١٨٧، ١٨٨.

(٢) وقد حدد المسعودي خروجه ﷺ إلى الشام بأربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام بعد الفجار، وزواجه بخديجة بشهرين وأربعة وعشرين يومًا بعد الخروج إلى الشام. انظر مروج الذهب ٢/٢٧٨.

(٣) ابن هشام ١/١٨٩-١٩١، وصحيح البخاري - فتح الباري ٧/١٠٥ - وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٧.

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة، وذلك لأن الكعبة كانت رضمًا فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرًا قديمًا - للعوادي التي هدمت بنيانها، وصدعت جدارنها، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكةَ سيلٌ عَرِمٌ، انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصًا على مكانتها، واتفقوا على أن لا يُدْخِلوا في بنائها إلا طيبًا، فلا يُدخلوا فيها مهر بغي ولا بيع ربًا ولا مظلمةَ أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا خيرًا. ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شيء تبعه الناس في الهدم في اليوم الثاني، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ في البناء فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنّاءٌ رومي اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يُحكِّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداء، فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضي به القوم.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحِجْر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض، لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمس عشرة ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠م والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠م من أرضية المطاف، والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢م، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٠,٢٥م ومتوسط عرضها ٠,٣٠م وتسمى بالشاذروان، وهي من أصل البيت لكن قريشًا تركتها(١).

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

كان النبي ﷺ قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب والنظر السديد، ونال حظًّا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدامة الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك فيه(٢) وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات

(١) انظر تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ٢/١٩٢ إلى ١٩٧، وتاريخ الطبري ٢/٢٨٩ وما بعده وصحيح البخاري: باب فضل مكة وبنيانها ١/٢١٥ح ٥٨٢، وخبر التحكيم أيضًا في مسند أبي داود الطيالسي، وانظر أيضًا محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٦٤، ٦٥.

(٢) فمثلا كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ أيضًا يصومه في الجاهلية. انظر صحيح البخاري ح٢٠٠٢، مع فتح الباري ٤/٢٨٧.

الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[١]. وكان تحيط به العناية الربانية.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة. فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: إزاري، إزاري. فشد عليه إزاره. وفي رواية: فما رُئِيَتْ له عورة بعد ذلك[٢].

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسًا، وأكرمهم خيرًا، وأبرَّهم عملاً، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه «الأمين» لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق[٣].

* * *

(١) انظر لذلك ابن هشام ١/١٢٨، وتاريخ الطبري ٢/١٦١، وتهذيب تاريخ دمشق ١/٣٧٣، ٣٧٦.

(٢) صحيح البخاري ح١٥٨٢، وفتح الباري ٣/٥١٣ ح٣٨٢٩ فتح الباري ٧/١٨٠، وانظر أيضًا فتح الباري ٣/٥١٧، ومسند أحمد ٣/٢٩٥، ٣١٠، ٣٣٣، ٣٨٠.

(٣) صحيح البخاري ح٣.

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء:

لما قاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة ـ وهو غار لطيف طوله أربع أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد ـ فيقيم فيه شهر رمضان(١). ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

جبريل ينزل بالوحي:

ولما تكامل له أربعون سنة ـ وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل ـ بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أن حجراً بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر ـ ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ـ فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن(٢).

---

(١) يقال: إن عبد المطلب أول من تحنث بحراء، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين جميع الشهر (الكامل لابن الأثير ١٠/٥٥٣).

(٢) قال ابن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري ١/٢٧).

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا(١).

ولنستمع إلى عائشة الصدّيقة رضي الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الوقعة التي كانت نقطة بداية النبوة، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ، قالت عائشة رضي الله عنها:

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء،

(١) اختلف أهل السير اختلافًا كبيرًا في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة، وإنزال الوحي، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان، وقيل: هو شهر رجب، وإنما رجحنا أنه شهر رمضان لقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣] ولأن جواره ﷺ بحراء كان في رمضان، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف.

ثم اختلفت الروايات واختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم، فقيل: هو اليوم السابع، وقيل السابع عشر، وقيل الثامن عشر، وذهب ابن إسحاق وغيره إلى أنه اليوم السابع عشر، وإنما رجحنا أنه اليوم الحادي والعشرون لأن أهل السير كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: فيه ولدت وفيه أنزل علي، وفي لفظ: ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه. (صحيح مسلم ١/٣٦٨، أحمد ٥/٢٩٧-٢٩٩ البيهقي ٤/٢٨٦، ٣٠٠، الحاكم ٢/٢-٦) ويوم الاثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالي، فإذا قارنّا بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] وبين رواية أبي قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمي في وقوع أيام الاثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلاً.

فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ [العلق: ١-٣](١)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: ما لي؟ وأخبرها الخبر، لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(٢). فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أوَ مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي(٣).

---

(١) نزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق:٥].

(٢) الكل: الثقل:، ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وكسب المعدوم هو إعطاء الفقير تبرعاً، والنوائب: الحوادث.

(٣) صحيح البخاري ح٣ وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا ح٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح٢٥٢.

فترة الوحي:

أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أياماً، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك[١]، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنوات أو سنتين ونصفًا فليس بصحيح.

وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيبًا محزوناً تعتريه الحيرة والدهشة، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه:

وفتر الوحي فترة حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنًا عدا[٢] منه مراراً كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًّا. فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[٣].

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية:

قال ابن حجر: وكان ذلك - أي انقطاع الوحي أيامًا - ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العَوْد[٤]، فلما حصل له ذلك وأخذ يرتقب مجيء الوحي أكرمه الله بالوحي مرة ثانية، قال ﷺ: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري هبطت، فلما استبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض،

(١) طبقات ابن سعد ١/١٩٦.

(٢) بالعين المهملة من العَدْو، وهو الذهاب بسرعة، وفي بعض النسخ «غدا» بالغين المعجمة.

(٣) صحيح البخاري ح٦٩٨٢.

(٤) فتح الباري ١/٢٧.

فأتيت خديجة فقلت: «زملوني زملوني، دثروني وصبوا علي ماءاً بارداً». قال: فدثروني وصبوا عليّ ماءاً بارداً، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥] وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمي الوحي وتتابع(١).

وهذه الآيات هي مبدأ رسالته ﷺ، وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي.

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

قام رسول الله ﷺ بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر، بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيسي، ضامنين حفظ كيانها، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به من أهل بيته وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمْع عُرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم

(١) صحيح البخاري: تفسير سورة المدثر، باب ١ - وما بعده ٨/٥٤٤-٥٤٧ ونحوه في صحيح مسلم: كتاب الإيمان ح٢٥٧ (١/١٤٤).

زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي(١) وابن عمه علي بن أبي طالب - وكان صبيًّا يعيش في كفالة الرسول ﷺ - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم للدعوة.

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلاً مألوفًا محببًا سهلاً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة(٢) أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت التميمي، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وحاطب بن الحارث الجمحي، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوه معمر بن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت

---

(١) كان قد أسر ورق، فملكته خديجة، ووهبته لرسول الله ﷺ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته، فاختار عليهما رسول الله ﷺ، فتبناه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال: زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فأبطل التبني. قتل شهيداً يوم مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨ هـ وهو أمير جيش المسلمين.

(٢) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١/٥٣٠.

أبي عوف، ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش عبد الله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن ربيعة القاري، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشي، وصهيب بن سنان الرومي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن أم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما(١).

هؤلاء معروفون بالسابقين الأولين، ويظهر بعد التتبع والاستقراء أن عدد الموصوفين بالسبق إلى الإسلام وصل إلى مئة وثلاثين رجلاً وامرأة، ولكن لا يعرف بالضبط أنهم كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة أو تأخر إسلام بعضهم إلى الجهر بها.

الصلاة:

ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة، قال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعًا، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. انتهى. وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة، أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحي إليه أتاه جبريل، فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه. وقد روى ابن ماجه بمعناه. وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك من أول الفريضة(٢).

---

(١) انظر للتفصيل سيرة ابن هشام ١/٢٤٥ - ٢٦٢ وفي تسميته بعض من سمى نظر.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص٨٨.

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليًّا يصليان مرة فكلمهما في ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات(١).

تلك هي العبادة التي أمر بها المؤمنون، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة، وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأي عين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذي الأرواح، وتحدو بهم إلى جو آخر غير الذي كان فيه المجتمع البشري آنذاك.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي، إلا أنها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيراً حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم.

* * *

(١) ابن هشام ١/٢٤٧ والخبر أيضًا في مسند أبي داود الطيالسي ص٢٦.

الدعوة جهاراً

ولما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرسالة، وتمكينها من مقامها، نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى، وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الدعوة في الأقربين:

دعا رسول الله ﷺ عشيرته بني هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بني عبد المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً، فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به. فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له». ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً». فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد

تصديقًا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا(١).

على جبل الصفا:

وبعد ما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته، وهو يبلغ عن ربه صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا فعلا أعلاها حجراً، ثم هتف: «يا صباحاه». وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم. ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: «يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب».

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش.

فلما اجتمعوا قال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟».

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله ـ أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم

(١) الكامل لابن الأثير ١/٥٨٤، ٥٨٥.

العدو ـ فخشي أن يسبقوه، فجعل ينادي: يا صباحاه». ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخصّ وعمّ فقال: «يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا. يا بني كعب بن مرة! أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني قصي! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا. يا معشر بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئًا. يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا. يا فاطمة بنت محمد رسول الله! سليني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنك من الله شيئًا. غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» أي سأصلها حسب حقها.

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي رد فعل سوى أن أبا لهب واجه النبي ﷺ بالسوء، وقال: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١](١).

(١) صحيح البخاري ح٢٧٥٣، ٣٥٢٥، ٣٥٢٦، ٣٥٢٧، ٤٧٧١ (الفتح ٥/٤٤٩، ٦/٦٣٧، ٨/٣٦٠) صحيح مسلم ١/١١٤، جامع الترمذي: تفسير سورة الشعراء ح٣١٨٤، ٣١٨٥، ٣١٨٦، (٥/٣١٦، ٣١٧) وغيرهم، وقد جمعت حروفهم وألفتها تأليفًا مسلسلا.

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤] فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلي بفناء الكعبة نهاراً جهاراً وعلى رءوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته مزيداً من القبول، ودخل الناس في دين الله واحداً بعد واحد. وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل ذلك. وساءهم ما كانوا يبصرون.

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشًا أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأيًا واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا. قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما

نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه، لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك(١).

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه. فقال لهم: أمهلوني حتى أفكر في ذلك. فظل الوليد يفكر ويفكر حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفًا.

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر «من ١١ إلى ٢٦» وفي خلالها صور كيفية تفكيره، فقال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨-٢٥].

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره(٢).

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب(٣).

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

---

(١) ابن هشام ١/٢٧١ وأخرجه أيضًا البيهقي وأبو نعيم في الدلائل وغيرهما.

(٢) ابن هشام ١/٢٧١.

(٣) روى فعله هذا الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٩٢، ٣/٣٤١ وانظر أيضًا البداية والنهاية ٥/٧٥ وكنز العمال ١٢/٤٤٩، ٤٥٠.

أساليب شتى للكفار والمجرمين لمجابهة الدعوة:

ولما فرغت قريش من الحج فكرت في أساليب تقضي بها على هذه الدعوة في مهدها، وتتلخص هذه الأساليب فيما يلي:

١ ـ السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هزيلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ويصفونه بالسحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه: ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وكانوا كما قص الله علينا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٣].

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك في نفس رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩] وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦] وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالا عليهم فقال: **﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** [الأنعام: ١٠].

٢ ـ إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

وقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر في دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن: **﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾** [الأنبياء: ٥] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار. ويقولون: بل افتراه من عند نفسه. ويقولون: **﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾** [النحل: ١٠٣] وقالوا: **﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾** [الفرقان: ٤] أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه: **﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** [الفرقان: ٥].

وأحيانًا قالوا: إن له جنًّا أو شيطانًا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان. قال تعالى ردًّا عليهم: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾** [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جربتم عليّ كذبًا، وما وجدتم فيّ فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟

وقالوا عن النبي ﷺ: إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعاني، ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر، قال تعالى ردًّا عليهم: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦] فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ليست واحدة منها في النبي ﷺ فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون في دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شئونهم، ثم النبي ﷺ لا يهيم في كل

واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر والشعراء منه؟

وهكذا أبدوا شبهات حول موضوع التوحيد ورسالة النبي ﷺ والبعث بعد الموت، وقد رد القرآن على كل ما أثاروه من الشبهات رداً مفحماً يقنع كل ذي عقل ولب، ولكنهم كانوا مشاغبين مستكبرين يريدون عُلواً في الأرض وفرض رأيهم على الخلق، فبقوا في طغيانهم يعمهون.

٣ ـ الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين:

كان المشركون ـ بجانب إثارة هذه الشبهات ـ يَحُولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلي ويتلو القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر، ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني[١].

(١) ملخصًا من ابن هشام ١/٢٩٩، ٣٠٠، ٣٥٨.

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينة، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦](١).

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئًا فشيئًا لإحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، فلما رأوا أن هذه الأساليب لم تُجْدِ نفعًا قرروا القيام بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار طريق الإيمان من عبيده وتبعهم في ذلك الأذناب والأوباش، فجروا على المسلمين - ولا سيما الضعفاء منهم - ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به(٢).

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخن من تحته(٣).

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيتها، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشف الحية(٤).

وكان صهيب بن سنان الرومي يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول(٥).

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في

(١) الدر المنثور: تفسير سورة لقمان: الآية: ٦ (٥/٣٠٧).

(٢) ابن هشام ١/٣٢٠.

(٣) رحمة للعالمين ١/٥٧.

(٤) أسد الغابة ٤/٤٠٦، وتلقيح فهوم الأثر ص٦٠.

(٥) الإصابة ج٣، ٤/٢٥٥، ابن سعد ٣/٢٤٨.

عنقه، وهو يقول: أحد أحد. وكان أمية يشده شداً ثم يضربه بالعصا، ويلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك: أحد أحد. ويقول: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود. وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه(١).

وكان عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون ـ وعلى رأسهم أبو جهل ـ يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها. ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون، فقال: «صبراً آل ياسر! فإن موعدكم الجنة»، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية ـ أم عمار ـ في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزاً كبيرة ضعيفة، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغطه في الماء حتى كان يفقد وعيه. وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمداً، أو تقول في اللات والعزى خيراً. فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء باكياً معتذراً إلى النبي ﷺ. فأنزل الله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية(٢).

---

(١) ابن هشام ١/٣١٧، ٣١٨، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٦١ تفسير ابن كثير: سورة النحل: الآية: ١٠٦ (٢/٦٤٨).

(٢) ابن هشام ١/٣١٩، ٣٢٠، طبقات ابن سعد ٣/٢٤٨، ٢٤٩ وروى الجزء الأخير العوفي عن ابن عباس، تفسير ابن كثير (المذكور). ولينظر الدر المنثور تفسير الآية: ١٠٦ سورة النحل.

وكان أبو فكيهة ـ واسمه أفلح ـ مولى لبني عبد الدار، وكان من الأزد. فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه في الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله(١).

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، وكان حداداً، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره(٢).

وكانت زنيرة أَمَةً رومية قد أسلمت فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزي؟ فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه. فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد(٣).

وأسلمت أم عبيس، جارية لبني زهرة، فكان يعذبها المشركون، وبخاصة مولاها الأسود بن عبد يغوث. وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، ومن المستهزئين به(٤).

---

(١) أسد الغابة ٥/٢٤٨، والإصابة ٧، ٨/١٥٢ وغيرهما.

(٢) أسد الغابة ١/٥٩١، وتلقيح الفهوم ص٦٠ وغيرهما.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/٢٥٦، وابن هشام ١/٣١٨.

(٤) الإصابة ٧، ٨/٢٥٨.

وأسلمت جارية عمرو بن مؤمل من بني عدي، فكان عمر بن الخطاب يعذبها، وهو يومئذ على الشرك، فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة. فتقول: كذلك يفعل بك ربك(١). وممن أسلمن وعذبن من الجواري النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار(٢)، وممن عذب من العبيد عامر بن فهيرة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول(٣).

واشترى أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الإماء والعبيد رضي الله عنهم وعنهن أجمعين، فأعتقهم جميعًا، وقد عاتبه في ذلك أبوه أبو قحافة وقال: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالاً جلدًا لمنعوك. قال: إني أريد وجه الله. فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦] وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١] وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٤).

وأوذي أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا؛ فقد أخذه نوفل بن خويلد العدوي، وأخذ معه طلحة بن عبيد الله فشدهما في حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين فلم يجيباه، فلم يروعاه إلا وهما مطلقان يصليان، ولذلك سميا بالقرينين. وقيل: إنما فعل ذلك عثمان بن عبيد الله أخو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه(٥).

(١) ابن هشام ١/٣١٩، طبقات ابن سعد ٨/٢٥٦.

(٢) ابن هشام ١/٣١٨، ٣١٩.

(٣) ابن سعد ٣/٢٤٨.

(٤) ابن هشام ١/٣١٨، ٣١٩، طبقات ابن سعد ٨/٢٥٦، وكتب التفسير: الآية المذكورة.

(٥) أسد الغابة ٢/٤٦٨.

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال.

موقف المشركين من رسول الله ﷺ:

وأما بالنسبة لرسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهمًا وقوراً ذا شخصية فذة، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ومع ذلك كان في منعة أبي طالب، وكان من الصعب أن يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشًا ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا في محذور لا تحمد عقباه، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع أبي طالب. ولكن مع نوع من أسلوب التحدي حتى يذعن لما يقولون.

وفد قريش إلى أبي طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا، وردهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه(١) ولكن لم تصبر قريش طويلاً حين رأته ﷺ ماضيًا في عمله ودعوته إلى الله. بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه. حتى قررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

قريش يهددون أبا طالب:

وجاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٥.

هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي! إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذلُه، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته». ثم استعبر وبكى وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً(١) وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسَّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر وقر بذاك منك عيونا(٢)

وأنشد ذلك في أبيات.

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه. هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي بن

(١) ابن هشام ١/١٦٥، ١٦٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٨٨.

نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال: والله ما أنصفتموني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك(١).

ولما فشلت قريش في هذه المفاوضات قررت أن تختار سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ.

اعتداءات قريش على رسول الله ﷺ:

واخترقت قريش ما كانت تتعاظمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعب على غطرستها وكبريائها أن تصبر طويلاً، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشويه والتلبيس والتشويش وغير ذلك، وكان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رءوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش، وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا.

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما(٢).

ولما مات عبد الله - الابن الثاني لرسول الله ﷺ - استبشر أبو لهب، وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر(٣).

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) روى ذلك الطبراني عن قتادة وتفيد رواية ابن إسحاق أن رجال قريش أيضًا سعوا في ذلك. لينظر ابن هشام ١/٦٥٢.

(٣) روى ذلك عن عطاء. تفسير ابن كثير: سورة الكوثر ٤/٥٩٥.

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه[1].

وكانت أمرأة أبي لهب ـ أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان ـ لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة. ثم قالت:

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني[2].

وروى أبو بكر البزار هذه القصة. وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت: (أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق)[3].

(١) كنز العمال ١٢/٤٤٩.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥ـ٣٣٦ وكانت قريش يسمونه ﷺ مذمما، حقداً وغيظاً، وصرف الله بهذا شتمهم عنه، التاريخ للبخاري ١/١١، وصحيح البخاري مع الفتح ٧/١٦٢، ومسند أحمد ٢/٢٤٤، ٣٤٠، ٣٦٩.

(٣) وروى هذه القصة الحاكم في المستدرك ٢/٣٦١ وابن أبي شيبة في المصنف ١١/٤٩٨ ح١١٨١٧ وأبو يعلي في المسند ٤/٢٤٦ ح٢٣٥٨، وإسماعيل الأصبهاني في دلائل النبوة ص٧١ ح٥٤، والطبراني وابن أبي حاتم وغيرهم. وفي السياق شيء خفيف من الاختلاف.

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقًا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته.

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص(١) فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف! أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق(٢).

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه، فقد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)(٣) فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغني شيئًا، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطراً) ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللّهم عليك بقريش! ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: اللّهم عليك بأبي جهل،

---

(١) والد مروان الخليفة الأموي.

(٢) ابن هشام ١/٤١٦.

(٣) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣.

وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط ـ وعد السابع فلم يحفظه ـ فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسولُ الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر(١).

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] قال ابن هشام الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سرًّا، ويؤذيهم(٢).

أما أخوه أُبَيّ بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلي النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًا أنبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل. وأبي بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ(٣).

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣].

وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالاً بما فعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١] إلخ. وكان يمنع النبي ﷺ من الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم، ومرة مر به وهو يصلي عند

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: إذا ألقي على المصلي قذر أو جيفة ١/ ٣٧ ح٢٤٠، ٥٢٠، ٢٩٣٤، ٣١٨٥، ٣٨٥٤، ٣٨٦٠.

(٢) ابن هشام ١/ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) ابن هشام ١/ ٣٦١، ٣٦٢.

المقام فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا. فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨][1] وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] فقال عدو الله أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشى بين جبليها[2].

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، فَهَمّ ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً[3].

هذه صورة مصغرة جداً لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والخسف والجور وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفًا حازمًا ينقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع. وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة وتحقيق الهدف. وهما:

١ - اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزاً للدعوة ومقرا للتربية.

٢ - أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير، وروى نحوه الترمذي: التفسير من سورة اقرأ، الآيتان: ١٧-١٨ ح٣٣٤٩ (٥/٤١٤) وغيره.

(٢) لينظر تفسير ابن كثير ٤/٤٧٧، والدر المنثور ٦/٤٧٨ وغيرهما.

(٣) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ح٣٨ (٤/٢١٥٤).

دار الأرقم:

كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًّا، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله، وهم في أمن وسلام، وليدخل من يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

ومما لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلاً. فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سرًّا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم هريق في الإسلام(١).

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السريةُ والاختفاءُ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاعتداءات في أواسط السنة الرابعة من النبوة أو أواخرها، بداية ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يومًا فيومًا وشهرًا فشهرًا، حتى تفاقمت في أواسط السنة

(١) ابن هشام (١/٢٦٣).

الخامسة، ونبا بهم المقام في مكة، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة **﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: ١٠].

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشيَّ مَلِكَ الحبشة مَلِكٌ عادِل، لا يُظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة؛ فراراً بدينهم من الفتن(١).

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونًا من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ فيهما: «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام»(٢).

كان رحيل هؤلاء تسللاً في ظلمة الليل؛ حتى لا تفطن لهم قريش. خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار(٣).

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين:

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وفيه جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم، فقام فيهم، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تَوَاصَوْا

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي ٩/٩.
(٢) زاد المعاد ١/٢٤.
(٣) زاد المعاد ١/٢٤.

به، من قولهم ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهي خلاب، وكان أروع كلام سمعوه قط، أخذت مشاعرهم، ونسوا ما كانوا فيه، فما من أحد إلا وهو مصغ إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، ثم قرأ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢] ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداً. وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين(١).

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون جهدهم في محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنهم ما كانوا يرددونه هم دائمًا من قولهم: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) جاءوا بهذا الإفك المبين، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب، ويطيلون الدس والافتراء.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقة، بلغهم أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار، وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا، أو في جوار رجل من قريش(٢).

---

(١) روى البخاري قصة السجود مختصراً عن ابن مسعود وابن عباس، انظر باب سجدة النجم، وباب سجود المسلمين والمشركين ١/١٤٦، وباب ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٣.

(٢) ابن هشام ١/٣٦٤، زاد المعاد ١/٢٤، ٢/٢٤.

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسولُ الله ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا.

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً - إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه - وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة(١).

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم. فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يُسلما - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوّداهما بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم، حضرا إلى النجاشي، وقدما له الهدايا، ثم كلماه، فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم إليهم. فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

(١) انظر زاد المعاد ١/٢٤.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبي طالب ـ وكان هو المتكلم عن المسلمين ـ: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء، فقال له جعفر: نعم! فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] فبكى

والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون ـ يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه ـ فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ـ والسيوم: الآمنون بلسان الحبشة ـ من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم ـ والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار(١).

---

(١) ابن هشام ملخصاً ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨.

الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ :

ولما أخفق المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين استشاطوا غضبًا، وانقضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء. بل أرادوا القضاء عليه ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم في مكة كانوا قليلين جدًا، وكانوا إما ذوي شرف ومنعة، وإما محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم، ويبتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان. ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور.

وأما رسول الله ﷺ فقد كان يصلي ويعبد الله أمام أعين الطغاة، ويدعو إلى الله سرًّا وجهرًا منذ أمره الله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا. ولم يكن في الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار، وما كان لأبي طالب من الذمة والاحترام، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم، ومن اجتماع بني هاشم عليهم. إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب في نفوسهم، إذ بدءوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كيانهم الوثني وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ.

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة، من الأحداث التي تشهد القرائن بأنها وقعت في هذه الفترة، أن عتبة بن أبي لهب أتى يومًا رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] وبالذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» وقد

استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتبة إثر ذلك في نفر من قريش، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتبة يقول: يا ويل أمي، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني وهو بمكة، وأنا بالشام، ثم جعلوه بينهم، وناموا من حوله، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه، فضغم رأسه(١).

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان(٢).

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد، ويقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**﴾؟ ثم انصرفوا

---

(١) الاستيعاب والإصابة ودلائل النبوة، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٣٥.

(٢) المرجع الأخير ص١١٣.

عنه، قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط[1]. انتهى ملخصًا.

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط؛ فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديداً. فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾**؟[2].

وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا، وعليه غدائر أربع، فخرج وهو يقول: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾**؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا لا نمس شيئًا من غدائره إلا رجع معنا[3].

إسلام حمزة رضي الله عنه:

خلال هذه الأيام العصيبة أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان إسلامه في أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه في شهر ذي الحجة.

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه حتى نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة عبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك، وأقبل حمزة من القنص متوشحًا قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب

---

(١) ابن هشام ١/٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) صحيح البخاري: باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٤.

(٣) مختصر السيرة: للشيخ عبد الله ص١١٣.

حمزة ـ وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة ـ فخرج يسعى. لم يقف لأحد، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له: يا مصفر استه، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم ـ حي أبي جهل ـ وثار بنو هاشم ـ حي حمزة ـ فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً[١].

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه، ثم شرح الله صدره، فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتز به المسلمون أيّما اعتزاز.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذه الفترة العصيبة أسلم أيضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان إسلامه في ذي الحجة سنة ست من النبوة[٢]. بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه. وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه. فقد أخرج الترمذي عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه[٣].

وبعد إدارة النظر في الروايات يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً.

وخلاصة هذه الروايات، مع الجمع بينها: أنه ـ رضي الله عنه ـ التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي ﷺ قائم يصلي، وقد استفتح سورة الحاقة فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت ـ أي في نفسي ـ هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ

---

(١) ابن هشام ملخصاً ١/٢٩١، ٢٩٢.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١١.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، مناقب عمر بن الخطاب ح٣٦٨١ (٥/٥٧٦).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] قال: قلت: كاهن. قال: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٢، ٤٣] إلى آخر السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي(١).

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، ولكنه بقي مجدًّا في عمله ضد الإسلام.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي(٢)، أو رجل من بني زهرة(٣)، أو رجل من بني مخزوم(٤) فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً. قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه. قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها سورة طه يُقْرئهما إياها ـ وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن ـ فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وسترت فاطمة ـ أخت عمر ـ الصحيفة. وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد. لكن في آخره ما يخالف ذلك. انظر ابن هشام ١/٣٤٦-٣٤٨، ويقرب من هذا أيضًا ما أورده ابن الجوزي عن جابر، وفي آخره أيضًا ما يخالف هذه الرواية، انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص٩-١٠.

(٢) وهذا على رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام ١/٣٤٤.

(٣) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص١٠.

(٤) روى عن ذلك ابن عباس. انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٠٢.

فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديداً. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها ـ وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها ـ فقالت، وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيى، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ ﴿طه﴾ [طه: ١] حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دلوني على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر، فقال: وعمر، افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: أما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم! هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد(١).

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص٧، ١٠، ١١، ابن هشام ١/ ٣٤٣-٣٤٦.

كـان عـمـر رضي الله عنه ذا شكيـمـة لا يرام، وقـد أثار إسلامـه ضـجـة بين المشركين، وشعوراً لهم بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسروراً.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليّ، وقال: أهلاً وسهلاً، ما جاء بك؟ قال جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به(١).

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أي حين أسلمت - إلي خالي - وهو العاصي ابن هاشم - فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت(٢).

وفي رواية لابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي. فخرج إليه وأنا معه، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل إني قد أسلمت، قال: فو الله ما رد عليه كلمة حتى قام عامداً إلى المسجد فنادى [بأعلى صوته] أن يا قريش إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر: - وهو خلفه - كذب، ولكني قد أسلمت [وآمنت بالله وصدقت رسوله]، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطلح أي أعيا عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا(٣).

(١) ابن هشام ١/٣٤٩-٣٥٠.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٨.

(٣) ابن حبان [الإحسان] ٩/١٦ وابن هشام ١/٣٤٨، ٣٤٩ وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٨، ونحوه في المعجم الأوسط للطبراني ٢/١٧٢٥ ح١٣١٥.

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته، يريدون قتله. روى البخاري عن عبد الله ابن عمر قال: بينما هو -أي عمر- في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال له: ما لك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ، قال: لا سبيل إليه، فكر الناس[1] وفي لفظ في رواية ابن إسحاق: والله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه[2].

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب، لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه وقال في آخره - قلت: أي حين أسلمت - يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى! والذي نفسي بيده، إنكم على الحق إن متم وإن حييتم، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرتْ إليّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ (الفاروق) يومئذ[3].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر[4].

---

(١) صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ١/٥٤٥.

(٢) ابن هشام ١/٣٤٩.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٦، ٧.

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٠٣.

وعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به(١).

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر(٢).

ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ:

وبعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أفاق المشركون، وغيروا تفكيرهم في معاملتهم مع النبي ﷺ والمؤمنين. واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً، وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السطة(٣) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١٣.

(٢) صحيح البخاري. باب إسلام عمر بن الخطاب ١/٥٤٥.

(٣) هي المنزلة الرفيعة المهيبة.

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١: ٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

(١) ابن هشام ١/٢٩٣-٢٩٤، وجزء منه في المعجم الصغير للطبراني ١/٢٦٥.

وفي روايات أخرى أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] قال: حسبك حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم فقال ما قال(١).

رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ

وكأن رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبي ﷺ عتبة على اقتراحاته؛ لأنه لم يكن صريحًا في الرفض أو القبول، بل تلا عليه النبي ﷺ آيات لم يفهمها عتبة، فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم، ثم اجتمعوا يومًا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبي ﷺ يدعونه، فجاء مسرعًا يرجو خيراً، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة، وعرضوا عليه نفس المطالب التي عرضها عتبة. ولكنه ﷺ قال لهم: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال.

فانتقلوا إلى نقطة أخرى، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد، ويفجر فيها الأنهار، ويحيي لهم الموتى ـ ولا سيما قصي بن كلاب ـ فإن صدقوه يؤمنون به. فأجاب بنفس ما سبق من الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكًا يصدقه ويراجعونه فيه، وأن يجعل له جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهبٍ وفضة. فأجابهم بنفس الجواب.

---

(١) ابن كثير ٤/٩٥، ٩٦، تفسير الآية المذكورة.

فانتقلوا إلى نقطة رابعة، وطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم السماء كسفًا، كما يقول ويتوعد، فقال: «ذلك إلى الله،إن شاء فعل». فقالوا: أما علم ربك أنّا سنجلس معك، ونسألك ونطلب منك، حتى يعلمك ما تراجعنا به؛ وما هو صانع بنا إذا لم نقبل؟

وأخيراً هددوه أشد التهديد، وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. فقام رسول الله ﷺ عنهم. وانصرف إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته وما طمع من قومه[1].

عزم أبي جهل على قتل رسول الله ﷺ:

ولما انصرف رسول الله ﷺ عنهم خاطبهم أبو جهل في كبريائه وقال: (يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم)، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما

---

(١) ملخص مما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/٢٩٥-٢٩٨) وابن المنذر وابن أبي حاتم (الدر المنثور ٤/٣٦٥، ٣٦٦).

دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه»(١).

مساومات وتنازلات:

ولما فشلت قريش في مفاوضتهم المبنية على الإغراء والترغيب، والتهديد والترهيب، وخاب أبو جهل فيما أبداه رأوا أن يلتقوا به في منتصف الطريق. فيتركوا بعض ما هم عليه، ويطالبوا النبي ﷺ بترك بعض ما هو عليه.

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسولَ الله ﷺ ـ وهو يطوف بالكعبة ـ الأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليدُ بن المغيرة وأميةُ بن خلف والعاصُ ابن وائل السهمي ـ وكانوا ذوي أسنان في قومهم ـ فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] السورة كلها(٢).

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك. فأنزل الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] السورة كلها(٣).

وأخرج ابن جرير وغيره عنه أن قريشاً قالوا لرسول الله ﷺ تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فأنزل الله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤](٤).

---

(١) ابن هشام ١/٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) ابن هشام ١/٣٦٢.

(٣) الدر المنثور ٦/٦٩٢.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري: سورة الكافرون.

حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود :

أغلقت أمام المشركين السبل بعد فشلهم في هذه المفاوضات والمساومات والتنازلات، وتحيروا، فماذا يفعلون، حتى قام أحد شياطينهم: النضر بن الحارث، فنصحهم قائلاً: يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد؛ قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر. لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

فلما نصحهم النضر بن الحارث بذلك كلفوه مع آخر أو آخرين ليذهب إلى يهود المدينة، فأتاهم فقال أحبارهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقول. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثًا عجبًا، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فلما قدم مكة قال: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. وأخبرهم بما قاله اليهود، فسألت قريش رسول الله ﷺ عن الأمور الثلاثة، فنزلت بعد أيام سورة الكهف، فيها قصة أولئك الفتية. وهم أصحاب الكهف، وقصة الرجل الطواف، وهو ذو القرنين، ونزل الجواب عن الروح في سورة الإسراء. وتبين لقريش أنه ﷺ على حق وصدق، ولكن أبى الظالمون إلا كفوراً[١].

هذه نبذة خفيفة مما واجه به المشركون دعوة رسول الله ﷺ، وقد مارسوا كل ذلك جنبًا إلى جنب ولكنهم عادوا خائبين. ولم يبق أمامهم إلا السيف، والسيف

---

(١) ابن هشام ١/٢٩٩-٣٠١.

لا يزيد الفرقة إلا شدة، ولا ينتج إلا عن تناحر يستأصل الشأفة، فتحيروا ماذا يفعلون؟

موقف أبي طالب وعشيرته:

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبة قريش بتسليم النبي ﷺ لهم ليقتلوه، ثم رأى في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته - مثل ما فعله عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وعمر بن الخطاب - جمع بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ فأجابوه إلى ذلك كلهم - مسلمهم وكافرهم - حمية للجوار العربي، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة. إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش(١).

* * *

(١) ابن هشام ١/٢٦٩.

المقاطعة العامة

ميثاق الظلم والعدوان:

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ نبي الله ﷺ والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق (أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل)قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده(١).

تم هذا الميثاق، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم ـ إلا أبا لهب ـ وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم

(١) انظر صحيح البخاري (الفتح ٣/٥٢٩ ح١٥٨٩، ١٥٩٠، ٣٨٨٢، ٤٢٨٤، ٤٢٨٥، ٧٤٧٩، وزاد المعاد ٢/٤٦.

يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًّا وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا شراءها.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب.

نقض صحيفة الميثاق:

مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي المحرم[١] سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار، وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهًا لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي ـ وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيًا بالليل بالطعام ـ فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي ـ وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر، والصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب. ومن يقول: إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام.

الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم. فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثًا. قال قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعًا.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم ابن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة:

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت، والله لا تشق.

فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب. ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، تُشُووِر فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش، فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم). وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم(١).

* * *

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري: باب نزول النبي ﷺ بمكة ١/٢١٦، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ١/٨٤٥، وزاد المعاد ٢/٤٦، وابن هشام ١/٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٤، ٣٧٧، وغيرها.

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويشتد به، وخاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فقاموا بالمفاوضة في آخر وفادتهم إلى أبي طالب.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا، وفي لفظ: فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبي طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم ـ وهم خمسة وعشرون تقريبًا ـ فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف

(١) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: «كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم» فلما قال ذلك توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة؟ ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ماتعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ١-٧][1].

* * *

(١) ابن هشام ١/٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، وينظر أيضًا الترمذي ح٣٢٣٢ (٥/٣٤١). ومسند أبي يعلي ح٢٥٨٣ (٤/٤٥٦) وابن جرير في تفسيره.

عام الحزن

وفاة أبي طالب:

ألح المرض بأبي طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر[١]. وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفي الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: (أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فنزلت: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** [التوبة:١١٣] ونزلت: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** [القصص: ٥٦][٢].

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذي احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح. ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[٣].

---

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١١١.

(٢) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨ ح٣٨٨٤.

(٣) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨ ح٣٨٨٣، ٦٢٠٨، ٦٥٧٢.

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه)(١).

خديجة إلى رحمة الله:

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره(٢).

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: «آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها»(٣).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله هذه خديجة، قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب(٤).

تراكم الأحزان:

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ، وكاشفه قومه بالنكال والأذى، فازداد غمًّا على

---

(١) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨ ح٣٨٨٣، ٦٢٠٨، ٦٥٧٢.

(٢) نص على موتها في رمضان من تلك السنة ابن الجوزي في التلقيح ص٧.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/١١٨.

(٤) صحيح البخاري: باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ١/٥٣٩ ح١٧٩٢، ٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٨، ٣٨١٩، ٣٨٢٠، ٥٢٢٩، ٦٠٠٤، ٧٤٨٤، ٧٤٩٧.

غم، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصرًا، بل آذوه أشد الأذى. ونالوا منه ما لم ينله قومه.

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا، ودخل بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك. قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب(١).

ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سمي بعام الحزن، وعرف به في السيرة والتاريخ.

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ، سودة بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديمًا، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها أخيرًا(٢).

* * *

(١) ابن هشام ١/٤١٦.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٠.

الرسول ﷺ في الطائف

في شوال سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهابًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها.

فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها) إن كان الله أرسلك وقال الآخر: أما وجد الله أحداً غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين (أي صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار. فلما جلس إليه واطمأن،

دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقى من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تلكني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً: (باسم الله)، ثم أكل. فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني، من أهل (نِينَوى). فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: (ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي)، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها. فقال ابنا ربيعة أحدهما للأخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[1].

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

(١) ملخصًا من ابن هشام ١/٤١٩ - ٤٢١.

وقد روى البخاري تفصيل القصة ـ بسنده ـ عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت ـ وأنا مهموم ـ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ـ وهو المسمى بقرن المنازل ـ فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله، وهو قعيقعان ـ قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئًا[1].

وفي هذا الجواب يتجلى ما كان عليه النبي ﷺ من الخلق العظيم. ومن الرحمة على الخلق أجمعين.

وأفاق رسول الله ﷺ، واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عليه من فوق سبع سماوات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أيامًا.

وخلال إقامته ﷺ هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن[2] ذكرهم الله في موضعين من القرآن: في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

(١) صحيح البخاري. كتاب بدء الخلق ح٣٢٣١، ٧٣٨٩ فتح الباري ٦/ ٣٦٠ ومسلم: باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢/ ١٠٩.

(٢) لينظر صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ١/ ١٩٥. ح٧٧٣، ٤٩٢١.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣١].

وفي سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى تمام الآية الخامسة عشرة.

وحقًّا كان هذا نصراً آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون وقد بشرت الآيات بنجاح دعوة النبي ﷺ: ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢]. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٠-١٥].

أمام هذه النصرة والبشارة انقشعت سحابة الكآبة والحزن، وصمم ﷺ على العود إلى مكة، لإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد.

وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشًا، فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن

فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعماً: أمجير أنت أم متابع - مسلم -؟ قال: بل مجير قال: قد أجرنا من أجرت(١).

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له(٢).

* * *

(١) ابن هشام ١/ ٣٨١ مختصراً، وزاد المعاد ٢/ ٤٦، ٤٧.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٧٣.

عرض الإسلام على القبائل

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة - في أواخر يونيو أو أوئل يوليو سنة ٦١٩م - عاد رسول الله ﷺ إلى مكة؛ وقد اقترب موسم الحج، فأتى على القبائل قبيلة قبيلة، يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة للنبوة. وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة - العاشرة - أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به.

القبائل التي عرض عليها الإسلام:

قال الزهري: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم، وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد(١).

وكان عرض الإسلام على هذه القبائل ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة.

المؤمنون من غير أهل مكة:

أما الأفراد فقد أسلم منهم من يأتي:

١ - سويد بن صامت - كان شاعراً لبيباً، من سكان يثرب، يسميه قومه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمراً، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي

---

(١) ابن سعد ١/٢١٦.

معك؟ قال: حكمة لقمان. قال: اعرضها علي. فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: إن هذا لكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليَّ، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل في وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعاث(١). والأغلب أنه أسلم في أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة.

٢ ـ إياس بن معاذ ـ كان غلامًا حدثًا من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة ١١ من النبوة، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين ـ وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج ـ فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم، فجلس إليهم، وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع ـ رجل من الوفد ـ حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال: دعنا عنك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش.

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهلل ويكبر، ويحمد ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلمًا(٢).

٣ ـ أبو ذر الغفاري ـ وكان من سكان نواحي يثرب، ولعله لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضًا، وصار سببًا لإسلامه.

---

(١) ابن هشام ١/٤٢٥ ـ ٤٢٧، والاستيعاب ٢/٦٧٧، وأسد الغابة ٢/٣٣٧.

(٢) ابن هشام ١/٤٢٧، ٤٢٨، ومسند أحمد ٥/٤٢٧.

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل وكلمه، وأتني بخبره، فانطلق، فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابًا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد. قال: فمر بي عليّ. فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم. فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت إلي المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. قال: فمر بي علي فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت لا. قال: فانطلق معي، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت عليّ أخبرتك، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي يكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه. فقال له: أما إنك قد رشدت. هذا وجهي إليه، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض عليّ الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد، وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب عليّ ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار؟ ومتجركم وممركم على غفار. فأقلعوا عني. فلما أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا

الصابئ، فصنع بي ما صنع بالأمس، فأدركني العباس، فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس(١).

٤ ـ طفيل بن عمرو الدوسي ـ كان رجلاً شريفًا ، شاعرًا لبيبًا، رئيس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة في عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا.

يقول طفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا؛ فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله، قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني رجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فعرضت عليه قصة مقدمي، وتخويف الناس إياي، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض علي أمرك، فعرض علي الإسلام، وتلا علي القرآن. فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا.

(١) صحيح البخاري: باب قصة زمزم ١/٤٩٩، ٥٠٠، وباب إسلام أبي ذر ١/٥٤٤، ٥٤٥، ح٣٥٢٢.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجهي. أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلي الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام، لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق(١). ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاءً حسناً، وقتل شهيداً يوم اليمامة(٢).

٥ ـ ضماد الأزدي ـ كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان يرقي من هذا الريح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد...». فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه(٣).

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة ـ يوليو سنة ٦٢٠م ـ وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ.

(١) بل وبعد الحديبية، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، انظر ابن هشام ١/ ٣٨٥.

(٢) ابن هشام ١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٥.

(٣) رواه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ح٤٦ (٨٦٨).

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلي، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة، وكلمهم في الإسلام. وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام(١).

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون. فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب، كلهم من الخزرج وهم:

(١) أسعد بن زرارة (من بني النجار)

(٢) عوف بن الحارث بن رفاعة، ابن عفراء (من بني النجار)

(٣) رافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق)

(٤) قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة)

(٥) عقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب)

(٦) جابر بن عبد الله بن رئاب (من بني عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيًّا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان، سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم(٢).

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: من مُوَالِي اليهود؟ أي حلفائهم، قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا

---

(١) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٥٠ - ١٥٢.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٠، وابن هشام ١/ ٤٢٩، ٥٤١.

عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت قريبًا، والتي لا يزال لهيبها مستعراً، فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ(١).

استطراد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها، وهي بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين(٢).

* * *

(١) ابن هشام ١/٤٢٨ - ٤٣٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٠، صحيح البخاري ١/٥٥١٠ ح٣٨٩٤، ٣٨٩٦، ٥١٣٣، ٥١٣٤، ٥١٥٦، ٥١٥٨، ٥١٦٠ وصحيح مسلم.

الإسراء والمعراج

وبينما النبي ﷺ يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى:

(١) فقيل: كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، واختاره الطبري.

(٢) وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي.

(٣) وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة.

(٤) وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهرًا، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة.

(٥) وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة.

(٦) وقيل: قبل الهجرة بسنة، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة[١].

ورُدَّت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أنْ تفرض الصلوات الخمس. ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء. أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدًا منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدًا.

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة. وفيما يلي نسردها بإيجاز: قال ابن القيم: أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت

(١) وفيه اختلاف أكثر من هذا، انظر فتح الباري ٧/ ٢٤٢، ٢٤٣ ط٢: سلفية شرح باب المعراج، زاد المعاد ٢/ ٤٩.

المقدس، راكبًا على البراق، بصحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه، ورحبا به، وأقرا بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. ثم رفع له البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم

سبعون ألف ملك ثم لا يعودون. ثم أدخل الجنة، فإذا فيها جبال اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. وعرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

ثم عرج به إلى الجبّار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى فقال له: بم أمرك ربك؟ قال: بخمسين صلاة. قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في بعض الطرق ـ فوضع عنه عشراً، ثم أنزل حتى مر بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكني أرضى وأسلم، فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ـ انتهى(١).

وقد جاء في بعض الطرق أن صدره ﷺ شق في هذه المرة أيضًا، وقد رأى النبي ﷺ في هذه الرحلة أموراً عديدة:

عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى أربعة أنهار يخرجن من أصل سدرة المنتهى: نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران هما: النيل والفرات، عنصرهما. والباطنان: نهران في الجنة. ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين. والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد ٢/٤٧، ٤٨، مع زيادات ثبتت في الروايات الصحيحة. وانظر صحيح البخاري ١/٥٠، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٢/٦٨٤، صحيح مسلم ١/٩١-٩٦.

ورأى مالكًا خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلمًا لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعًا من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطؤونهم.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين.

ورأى النساء اللاتي يُدخِلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثُديِّهن.

ورأى عيرًا من أهل مكة في الإياب والذهاب، وقد دلهم على بعير نَدَّ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء(١).

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، سألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، فكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا(٢).

---

(١) المصادر السابقة وابن هشام ١/٣٩٧، ٤٠٢-٤٠٦.

(٢) زاد المعاد ١/٤٨، وانظر أيضًا صحيح البخاري ٢/٦٨٤، وصحيح مسلم ٩٦١، وابن هشام ١/٤٠٢، ٤٠٣.

يقال: سُمي أبو بكر الصديق رضي الله عنه صديقًا؛ لتصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس(١).

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] وهذه سنة الله في الأنبياء، قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال لموسى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣].

* * *

(١) نفس المصدر الأخير ١/ ٣٩٩.

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته في قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالى ـ موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، يوليو سنة ٦٢١م ـ اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ في العام السابق ـ والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب ـ وسبعة سواهم. وهم:

(١) معاذ بن الحارث، ابن عفراء من بني النجار	(من الخزرج)
(٢) ذكوان بن عبد القيس من بني زريق	(من الخزرج)
(٣) عبادة بن الصامت من بني غنم	(من الخزرج)
(٤) يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم	(من الخزرج)
(٥) العباس بن عبادة بن نضلة من بني سليم	(من الخزرج)
(٦) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل	(من الأوس)
(٧) عويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف	(من الأوس)

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج[1].

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه بيعة النساء، أى وفق بيعتهن التى نزلت بعد الحديبية.

---

(١) ابن هشام ١/٤٣١ ـ ٤٣٣.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه».
قال: فبايعته ـ وفي نسخة فبايعناه ـ على ذلك(١).

سفير الإسلام في المدينة:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب، ينشر الإسلام، ويفقههم في الدين، واختاروا لذلك مصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه.

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة، وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يعرف بالمقرئ.

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين ـ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك ـ فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

(١) صحيح البخاري: باب بعد باب حلاوة الإيمان ١/٧، باب وفود الأنصار ١/٥٥٠، ٥٥١، واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى: (إذا جاءك المؤمنات) ٢/٧٢٧، باب الحدود كفارة ٢/١٠٠٣ ح١٨، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٠٥٥، ٧١٩٩، ٧٢١٣، ٧٤٦٨.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتَسَهُّلِه، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن ـ سعد بن معاذ ـ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم. فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ـ وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ـ ليخفروك. فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيد مَنْ وراء منه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أوتقعد فتسمع؟ فإن

رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتَسَهُّلِه، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد ـ وهو الأصيرم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبي ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً».

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل. كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج ـ من السنة الثالثة عشرة عاد مصعب إلى مكة يحمل بشائر الفوز ويقص ما في قبائل يثرب من مواهب الخير ومن القوة والمنعة(١).

* * *

(١) ابن هشام ١/٤٣٥ ـ ٤٣٨ و٢/٩٠ وزاد المعاد ٢/٥١.

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

وقد وصف كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه هذا الاجتماع التاريخي فقال: «خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبًا.

قال كعب: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطاة مستخفين، حتى

اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسائنا؛ نسيبة بنت كعب ـ أم عمارة ـ من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو ـ أم منيع ـ من بني سلمة».

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه: العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على دين قومه ـ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم(١).

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية:

تكلم العباس ليشرح لهم ـ بكل صراحة ـ خطورة المسئولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. فقال:

«يا معشر الخزرج ـ وكان العرب يسمون الأنصار خزرجًا، خزرجها وأوسها كليهما ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه؛ فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت(٢).

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم، وشجاعة مؤمنة، وإخلاص كامل في تحمل هذه المسئولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٠، ٤٤١.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٤١، ٤٤٢.

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً. قال جابر: قلنا: يا رسول الله عَلامَ نبايعك؟ قال:

(١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

(٢) وعلى النفقة في العسر واليسر.

(٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

(٥) وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة[١].

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه «قال كعب: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك مما نمنع أُزُرَنا منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ٣/٣٢٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٩، وصححه الحاكم وابن حبان، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو - أن لا ننازع الأمر أهله - انظر ابن هشام ١/٤٥٤.

(٢) ابن هشام ١/٤٤٢.

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في مواسم سنتي ١١و ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر، ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: «الجنة» قالوا ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه(١).

وفي رواية جابر (قال): فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغر السبعين ـ فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله(٢).

---

(١) ابن هشام ١/٤٤٦.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر ٣/٣٢٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٩.

عقد البيعة:

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة -: فقالوا يا أسعد، أمط عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها[1]، وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل، وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب ابن عمير - فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده[2]. وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة[3].

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولا؛ ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط[4].

اثنا عشر نقيبًا:

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسئولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أخرجوا إليّ منكم اثنى يشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماءهم:

---

(١) نفس المصدرين.

(٢) قال ابن إسحاق: وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال كعب بن مالك: بل البراء بن معرور (ابن هشام ١/٤٤٧) قلت: لعلهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ من الحوار بيعة، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة. والله أعلم.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٢.

(٤) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ٢/١٣١.

نقباء الخزرج:

(١) أسعد بن زرارة بن عدس.

(٢) سعد بن الربيع بن عمرو.

(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

(٤) رافع بن مالك بن العجلان.

(٥) البراء بن معرور بن صخر.

(٦) عبد الله بن عمرو بن حرام.

(٧) عبادة بن الصامت بن قيس.

(٨) سعد بن عبادة بن دليم.

(٩) المنذر بن عمرو بن خنيس.

نقباء الأوس:

(١) أسيد بن حضير بن سماك.

(٢) سعد بن خيثمة بن الحارث.

(٣) رفاعة بن عبد المنذر بن زبير(١).

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين.

قال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم(٢).

---

(١) زبير بالباء الموحدة، وقيل: بالنون. وقد قيل بدل رفاعة، أبو الهيثم بن التيهان.

(٢) ابن هشام ١ /٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الانفضاض، اكتشفها أحد الشياطين، وصاح بأنفذ صوت سمع قط: «يا أهل الأخاشب - المنازل - هل لكم في محمد والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم».

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك». ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم(١).

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا».

فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا(٢).

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

وفي الصباح توجه وفد من زعماء مكة إلى مخيم أهل يثرب، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة، قال الوفد:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»(٣).

وانبعث المشركون من أهل المدينة يحلفون بالله: ما كان من شيء، وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبي ابن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما

(١) ابن هشام ١/٤٤٧، وزاد المعاد ٢/٥١.

(٢) ابن هشام ١/٤٤٨.

(٣) نفس المصدر ١/٤٤٨.

كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا. لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات. ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا يتنطسونه - يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة قد تمت فعلاً. وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد ابن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعًا إلى المدينة(١).

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وكانت تمهيداً لهجرة رسول الله ﷺ والمؤمنين.

* * *

(١) زاد المعاد ٢/٥١، ٥٢، ابن هشام ١/٤٤٨ - ٤٥٠.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة ـ وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته ـ أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن.

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

وبدأ المسلمون يهاجرون، وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم، لما كانوا يحسون من الخطر، وهاك نماذج من ذلك:

(١) **كان من أول المهاجرين أبو سلمة** ـ هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق ـ وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم، فقالوا لا نترك ابننا معها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به. وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها بعد ذهاب زوجها، وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسي، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته، وخرجت تريد المدينة ـ

رحلة تبلغ حوالي خمس مئة كيلو متر تمر بين شواهق الجبال ومهالك الأودية ـ وليس معها أحد من خلق الله. حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء قال: زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة(١).

(٢) **وهاجر صهيب بن سنان الرومي**: بعد رسول الله ﷺ، فلما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فلبغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»(٢).

(٣) **وتواعد عمر بن الخطاب**، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص ابن وائل موضعًا اسمه التناضب فوق سرف، يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش، وحبس عنهما هشام.

ولما قدما المدينة، ونزلا بقباء، قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش ـ وأم الثلاثة واحدة، وهي أسماء بنت مخربة ـ فقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرق لها. فقال له عمر: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه، فقال له عمر: أما إذا قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

---

(١) ابن هشام ١/٤٦٨ ـ ٤٧٠.

(٢) نفس المصدر ١/٤٧٧.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أمي والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهارًا موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا[١].

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك ولكن على رغم ذلك خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضا. وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي - أقاما بأمره لهما - وإلا من احتبسه المشركون كرهًا، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه[٢].

روى البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين: إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر[٣].

* * *

(١) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يومًا: من لي بعياش وهشام؟ فقال الوليد بن الوليد: أنا لك يا رسول الله بهما، فقدم الوليد مكة مستخفيًا، ولقي امرأة تحمل إليهما طعامًا فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور الجدار، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة (انظر ابن هشام ١/٤٧٤-٤٧٦) وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ١/٥٥٨) ح٣٩٢٥.

(٢) زاد المعاد ٢/٥٢.

(٣) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١/٥٥٣ ح٢٢٩٧، ٣٩٠٥، ٥٨٠٧.

في دار الندوة برلمان قريش

كان المشركون يعرفون ما في رسول الله ﷺ من غاية قوة التأثير، وما في أصحابه من العزيمة والفداء، وما في قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة، وما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة لتجارتهم إلى الشام، فأخذوا يبحثون عن أنجح وسيلة لدفع الخطر الذي كان يكمن في تمركز المسلمين بالمدينة.

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م[١] - أى بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار[٢] أخطر اجتماع له في تاريخه، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء على هذا الخطر الداهم، وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش:

(١) أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بني مخزوم.

(٢، ٣، ٤) جبير بن مطعم، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر، عن بني نوفل بن عبد مناف.

(٥، ٦، ٧) شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بني عبد شمس ابن عبد مناف.

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات العلمية التي سجلها العلامة محمد سليمان المنصورفوري في رحمة للعالمين ١/٩٥، ٩٧، ١٠٢، ٢/٤٧١.

(٢) يدل على انعقاد هذا الاجتماع في أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبي ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن في الهجرة. ثم ما رواه البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ جاء أبا بكر في نحر الظهيرة وقال له: - قد أذن لي في الخروج - وسياتي.

(٨) النضر بن الحارث، عن بني عبد الدار.

(٩، ١٠، ١١) أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، عن بني أسد بن عبد العزى.

(١٢، ١٣) نبيه ومنبه ابنا الحجاج، عن بني سهم.

(١٤) أمية بن خلف، عن بني جمح.

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة[1]، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلاً. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم ـ بعد أن يتابعوه ـ حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيًا غير هذا. قال أبو البختري: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله ـ زهيرًا والنابغة ـ ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

---

(١) البتلة: الكساء الغليظ.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام. قال أبو جهل: «والله إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جَلْدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه. فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم».

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره[1].

ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فوراً.

* * *

(١) انظر ابن هشام ١ / ٤٨٠ - ٤٨٢.

هجرة النبي ﷺ

بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى

من طبيعة مثل هذا الاجتماع السري للغاية، وأن لا يبدو على السطح الظاهر أي حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور في خلد أحد أن هناك غموضاً ينبئ عن الشر، وكان هذا مكراً من قريش، ولكنهم ماكروا بذلك الله سبحانه وتعالى، فخيبهم من حيث لا يشعرون. فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ بوحي من ربه تبارك وتعالى، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبين له خطة الرد على قريش فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه(١).

وذهب النبي ﷺ في الهاجرة - حين يستريح الناس في بيوتهم - إلى أبى بكر رضى الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة رضى الله عنها: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخْرِج مَنْ عندك. فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله. قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: نعم(٢).

---

(١) ابن هشام ١/٤٨٢، زاد المعاد ٢/٥٢.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١/٥٥٣ وانظر للهجرة ح٤٧٦، ٢١٣٨، ٢٢٦٣، ٢٢٦٤، ٢٢٩٧، ٣٩٠٥، ٤٠٩٣، ٥٨٠٧، ٦٠٧٩ من صحيح البخاري.

ثم أبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل. وقد استمر في أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأي أمر آخر؛ اتقاء مما قررته قريش.

تطويق منزل الرسول ﷺ :

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد سرًّا لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة « دار الندوة » صباحًا، واختير لذلك أحد عشر رئيسًا من هؤلاء الأكابر، وهم:

(١) أبو جهل بن هشام.

(٢) الحكم بن أبي العاص.

(٣) عقبة بن أبي معيط.

(٤) النضر بن الحارث.

(٥) أمية بن خلف.

(٦) زمعة بن الأسود.

(٧) طعيمة بن عدي.

(٨) أبو لهب.

(٩) أبي بن خلف.

(١٠) نبيه بن الحجاج.

(١١) أخوه منبه بن الحجاج[١].

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج بعد نصف الليل إلى المسجد الحرام، يصلي فيه قيام الليل، فأمر عليًّا رضي الله عنه تلك الليلة أن يضطجع على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه.

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٢.

فلما كانت عتمة من الليل، وساد الهدوء، ونام عامة الناس جاء المذكورون إلى بيته ﷺ سرًا، واجتمعوا على بابه يرصدونه، وهم يظنونه نائمًا حتى إذا قام وخرج يثبوا عليه، وينفذوا ما قرروا فيه.

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبًا لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها(١).

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل في وقت خروجه ﷺ من البيت، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السماوات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [الأنفال: ٣٠].

الرسول ﷺ يغادر بيته:

وقد فشلت قريش في خطتهم فشلاً ذريعًا مع غاية التيقظ والتنبه: إذ خرج رسول الله ﷺ من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾** [يس: ٩]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضى إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن(٢).

---

(١) ابن هشام ١/٤٨٢، ٤٨٣.

(٢) ابن هشام ١/٤٨٣، زاد المعاد ٢/٥٢.

وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً. قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليًّا، فقالوا والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقام علي عن الفراش، فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به(١).

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢/١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م(٢). وأتى إلى دار رفيقه - وأمنّ الناس عليه في صحبته وماله - أبي بكر رضي الله عنه. ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي، ليخرجا من مكة على عجل، وقبل أن يطلع الفجر.

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشًا ستجد في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالاً، فسلك الطريق الذي يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وهو جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه،

---

(١) نفس المصدرين السابقين.

(٢) رحمة للعالمين ١/٩٥ - ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذي أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعًا. وعامة من يكتب في السيرة ربما يختار هذا، وربما يختار ذاك، فكثيراً ما يتخبط في ترتيب الوقائع، ويقع في أغلاط، ونظراً إلى تلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم.

وأيًّا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثور(١).

إذ هما في الغار:

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدّه به، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل، فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت، فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده(٢).

وكمنا في الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد(٣). وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. و(كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل ـ وهو لبن منحتهما ورضيفهما ـ حتى ينعق بها عامر ابن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث(٤). وكان عامر ابن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه(٥).

---

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٦٧.

(٢) رواه رزين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه ثم انتقض عليه (أي رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر مشكاة المصابيح، باب مناقب أبي بكر ٢/٥٥٦.

(٣) انظر فتح الباري ٧/٣٣٦.

(٤) صحيح البخاري ١/٥٥٣، ٥٥٤.

(٥) ابن هشام ١/٤٨٦.

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًّا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، علهم يظفرون بخبرهما(١).

ولما لم يحصلوا من علي على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر، وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدرى والله أين أبي. فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشًا خبيثًا ـ فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها(٢).

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة. كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا ما كان(٣).

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى وبغير عائدة.

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبى الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما، وفي لفظ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما(٤).

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٣٧٤.

(٢) ابن هشام ١/٤٨٧.

(٣) انظر صحيح البخاري ١/٥٥٤.

(٤) صحيح البخاري ١/٥١٦، ٥٥٨، ونحوه عند أحمد ١/٤ ولفظه: قلت للنبي ﷺ وهو في الغار، وقال مرة: ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما. ولم يكن فزع أبي بكر مخافة على نفسه، بل سببه الوحيد هو ما روي أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد =

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة.

في الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي، وكان هاديًا خريتًا ـ ماهرًا بالطريق ـ وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، فلما كانت ليلة الاثنين ـ غرة ربيع الأول سنة ١هـ/١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م ـ جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين، وكان قد قال أبو بكر للنبي ﷺ عند مشاورته في البيت: بأبي أنت يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين، وقرب إليه أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ بالثمن. وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام، فشقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانطلقت بالآخر فسميت ذات النطاقين[1].

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وارتحل معهما عامر بن فهيرة، وأخذ بهما الدليل ـ عبد الله بن أريقط ـ على طريق السواحل.

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالاً على مقربة من شاطىء البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا.

= حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٦٨.

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٣، ٥٥٥، وابن هشام ١/٤٨٦.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال: لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرار، ثم سلك بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفا، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح، ثم سلك بهما مرجح مجاح، ثم تبطن بهما مرجح ذي الغضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم، من بطن أعداء مدلجة تعهن، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما الفاجة، ثم هبط بهما العرج، ثم سلك بهما ثنية العائر - عن يمين ركوبة - حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما على قباء[1]. وهاك بعض ما وقع في الطريق:

(١) روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا من الغد حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة، لها ظل لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدي؛ ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة، قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى، فحلب في قعب كثبة من لبن، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ، يرتوى منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ، فكرهت أن أوقظه فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد

(١) ابن هشام ١ / ٤٩١، ٤٩٢.

أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن للرحيل؟ قلت: بلى، قال: فارتحلنا(١).

(٢)وكان من دأب أبي بكر رضي الله عنه أنه كان ردفًا للنبي ﷺ، وكان شيخًا يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق، وإنما يعني سبيل الخير(٢).

(٣) وفي اليوم الثاني أو الثالث مر بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكان موقعهما بالمشلل من ناحية قديد على بعد نحو ١٣٠ كيلو متراً من مكة، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: أتاذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم - بأبي وأمي - إن رأيت بها حلبًا فاحلبها.

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فتفاجت عليه ودرت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا.

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافًا يتساوكن هزلاً، فلما رأى اللبن عجب، فقال: من أين لك هذا؟ والشاة عازب، ولا حلوبة في البيت؟

(١) صحيح البخاري ١/ ٥١٠.

(٢) روى ذلك البخاري عن أنس ١/ ٥٥٦.

فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد، فوصفته بصفاته الكريمة وصفًا بديعًا كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه - وسننقله في بيان صفاته ﷺ في أواخر الكتاب - فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه — رفيقين حلاً خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر وارتحلا به — وأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لقصيٍّ ما زوى الله عنكم — به من فعال لا يحاذى وسؤدد

ليهْن بني كعب مكان فتاتهم — ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها — فإنكمُ إن تسألوا الشاة تشهد

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها. قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة(١).

(٤) وتبعهما في الصريق سراقة بن مالك. قال سراقة: بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن

(١) زاد المعاد ٢/٥٣، ٥٤، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٩، ١٠، وصححه، ووافقه الذهبي. ورواه البغوي في شرح السنة ١٣/٢٦٤.

تخرج فرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره! فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ ـ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ـ ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتي جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أن قال: أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ(١).

وفي رواية عن أبي بكر قال: ارتحلنا، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جعشم، على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠](٢).

ورجع سراقة فوجد الناس في الطلب فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما هاهنا. وكان أول النهار جاهداً عليهما، وآخره حارسًا لهما(٣).

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٤ ـ وكان مقر بني مدلج بالقرب من رابغ، وتبعهما سراقة حينما كانا مصعدين من قديد ـ زاد المعاد ٢/٥٣ ـ فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما.

(٢) صحيح البخاري ١/٥١٦.

(٣) زاد المعاد ٢/٥٣.

(٥) وفي الطريق لقي النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ومعه نحو ثمانين بيتًا فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد، وعن عبد الله بن بريدة أن النبي ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير، فركب بريدة في سبعين راكبًا من أهل بيته من بني سهم، فلقي النبي ﷺ، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أسلم، فقال: لأبي بكر: سلمنا، ثم قال من بني من؟ قال: من بني سهم. قال: خرج سهمك[١].

(٦) ومر رسول الله ﷺ بأبي أوس تميم بن حجر أو بأبي تميم أوس بن حجر الأسلمي، بقحداوات بين الجحفة وهرشي - بالعرج - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره، فكان هو وأبو بكر على جمل واحد، فحملهما أوس على فحل من إبله، وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود، وقال: اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما، فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة، ثم رد رسول الله ﷺ مسعودًا إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسم إبله في أعناقها قيد الفرس، وهو حلقتان، ومد بينهما مدًا، فهى سمتهم. ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هنيدة من العرج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبر بهم. ذكره ابن ماكولا عن الطبري، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يسكن العرج[٢].

(٧) وفي الطريق - في بطن ريم - لقي رسول الله ﷺ الزبير، وهو في ركب من المسلمين، كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بياضًا[٣].

---

(١) أسد الغابة ١/ ٢٠٩.

(٢) نفس المصدر ١/ ١٧٣، وابن هشام ١/ ٤٩١.

(٣) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ١/ ٥٥٤.

النزول بقباء:

وفي يوم الاثنين، ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة ـ وهى السنة الأولى من الهجرة ـ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء[١].

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة. فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح[٢]. وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

قال ابن القيم: وسمعت الوجبة والتكبير في بني عمر بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: «﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ [التحريم: ٤]»[٣].

قال عروة بن الزبير: فتلقوا رسول الله ﷺ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي ـ وفي نسخة: يجيء ـ أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله

---

(١) رحمة للعالمين ١/١٠٢ ـ وفي هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عامًا كاملاً لا وكس ولا شطط، وتم على نبوته ثلاثة عشر عامًا كاملاً عند من يقول: إنه أكرم بالنبوة في ٩ ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل، وأما من يقول: إنه أكرم بالنبوة في رمضان سنة ٤١ عام الفيل فعنده يتم على نبوته ـ في ذلك اليوم ـ اثنا عشر عامًا وخمسة أشهر و١٨ يومًا أو ٢٢ يومًا.

(٢) صحيح البخاري ١/٥٥٥.

(٣) زاد المعاد ٢/٥٤.

ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك(١).

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبي: إن الله جاء من التيمان، والقدوس من جبال فاران(٢).

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدوم، وقيل: بل على سعد بن خيثمة، والأول أثبت.

ومكث علي بن أبى طالب رضي الله عنه بمكة ثلاثًا حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء، ونزل على كلثوم بن الهدم(٣).

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس(٤). وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان اليوم الخامس ـ يوم الجمعة ـ ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار ـ أخواله ـ فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله(٥)، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذى في بطن الوادي، وكانوا مئة رجل(٦).

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٥.

(٢) صحيفة حبقوق (٣:٣).

(٣) ابن هشام ١/٤٩٣، زاد المعاد ٢/٥٤.

(٤) هذا ما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/٤٩٤)، وفي صحيح البخاري أنه قام بقباء أربعًا وعشرين ليلة (١/٦١) وبضع عشرة ليلة (١/٥٥٥) وأربع عشرة ليلة ١/٥٦٠) وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن القيم، وقد صرح هو نفسه أن نزوله (بقباء كان يوم الاثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢/٥٤-٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومي الدخول والخروج، ومعهما لا يزيد على اثني عشر يومًا إذا كانا من أسبوعين.

(٥) صحيح البخاري ١/٥٥٥، ٥٦٠.

(٦) ابن هشام ١/٤٩٤، زاد المعاد ٢/٥٥.

الدخول في المدينة

ثم سار النبي ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة ـ ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها بالمدينة مختصراً وكان يوماً مشهوداً أغر، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور(١).

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه. فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتْ ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار ـ أخواله ﷺ ـ وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: المرء مع رحله، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده(٢).

---

(١) رجح ابن القيم أن هذه الأبيات أنشدت عند مرجعه ﷺ من تبوك، ووهم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣/١٠) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفي، وقد استنبط العلامة المنصور فوري من إشارات وتصريحات صحف أنبياء بني إسرائيل أن هذا حصل عند مقدمه ﷺ المدينة، وهو استنباط قوي، ولا يستبعد أن تكون هذه الأبيات أنشدت في الموقعين.

(٢) ابن هشام ١/٤٩٤ ـ ٤٩٦، زاد المعاد ٢/٥٥.

وفي رواية أنس عند البخاري، قال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي. قال: فانطلق فَهَيِّئْ لنا مقيلاً، قال: قوما على بركة الله(١).

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر(٢).

قالت عائشة: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان بطحان يجري نجلاً، أي ماءً آجنًا.

وقالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت: يا أباه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردنْ يومًا مياه مجنة ... وهل يَبدُوَن لي شامة وطفيل

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك في صاعها ومدها، وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة(٣).

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٦.

(٢) زاد المعاد ٢/٥٥.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٤/١١٩ ح١٨٨٩، وأيضاً ٣٩٢٦، ٥٦٥٤، ٥٦٧٧، ٣٦٧٢.

وقـد اسـتـجـاب الله دعـاءه ﷺ، فـأري في المنام أن امـرأة سـوداء ثائـرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالمهيعة، وهي الجحفة. وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة.

* * *

الحياة في المدينة

تقدم أن رسول الله ﷺ نزل بالمدينة في بني النجار يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، في موضع المسجد النبوي، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب رضي الله عنه.

بناء المسجد النبوي

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ. فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول:

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل، حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعمده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريبًا من ثلاث أذرع.

وبنى بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب(١).

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمانًا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

وفي أوائل الهجرة شرع الأذان، تلك النغمة العلوية التي تدوي في الآفاق، وتهز أرجاء الوجود، وتعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتنفي كل كبرياء في الكون، وكل دين في الوجود، إلا كبرياء الله، والدين الذي جاء به عبده محمد رسول الله. وقد تشرف برؤيته - أي الأذان - في المنام أحد الصحابة الأخيار عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه، فأقره النبي ﷺ، وقد وافقت رؤياه رؤيا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والقصة بكاملها مروية في كتب السنة والسيرة(٢).

المؤاخاة بين المسلمين

ثم إن النبي ﷺ بجانب قيامه ببناء المسجد، مركز التجمع والتألف، قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلما

---

(١) صحيح البخاري ١/٧١، ٥٥٥، ٥٦٠، زاد المعاد ٢/٥٦.

(٢) رواه الترمذي: الصلاة، بدء الأذان ح١٨٩ (١/٣٥٨، ٣٥٩) وأبو داود وأحمد وغيرهم.

أنزل الله عز وجل ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] رد التوارث، دون عقد الأخوة.

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية.... والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة فيها بينهم، بخلاف المهاجرين مع الأنصار(١) اهـ.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا للإسلام.

وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

روى البخاري: أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: مهيم؟ قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب(٢).

وروي عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا، فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا(٣).

(١) زاد المعاد ٢/٥٦.

(٢) نواة الذهب كانت قيمتها يومئذ خمسة دراهم، وقيل: كان قدرها ربع دينار. صحيح البخاري: باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١/٥٥٣.

(٣) صحيح البخاري: باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل إلخ (مع فتح الباري ٤/٣٣٧، ح٢٠٤٩ وأيضًا ح٢٢٩٣، ح٢٥٢٩، وقصة المؤاخاة مروية من صحيح مسلم حديث ٢٥٢٩، وسنن أبي داود ح٢٩٢٦، والأدب المفرد ح٦٠٨٣، ومسند أبي يعلي ٤/٣٦٦ وغيرها من الكتب.

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه، ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقًا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذةً، وسياسة حكيمة، وحلاً رشيداً لكثير من المشاكل التى كان يواجهها المسلمون، والتى أشرنا إليها.

ميثاق التحالف الإسلامي(١):

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة. وفيما يلي بنودها ملخصاً:

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس.

(٢) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

---

(١) هذا التحالف مرحلة انتقالية تمر بها الأمم أثناء التكون والبناء، قبل التكامل والنضج. قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة». (مسلم: فضائل الصحابة، باب المؤاخاة) قيل لأنس بن مالك: أبلغك أن النبي ﷺ قال: لا حلف في الإسلام؟ فقال: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري. (صحيح البخاري: الكفالة. ح٢٢٩٤، ٦٠٨٣، ٧٣٤٠، ولينظر صحيح مسلم ح٢٥٢٩، وسنن أبي داود ح٢٩٢٦، والأدب المفرد ح٦٠٨٣، ومسند أبي يعلى ٤/٣٦٦).

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

(٥) وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

(٦) ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر.

(٧) ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

(٩) وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

(١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة ـ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

(١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما ينال دماءهم في سبيل الله.

(١٢) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

(١٣) وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول.

(١٤) وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

(١٥) وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(١٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ(١).

---

(١) ابن هشام ١/٥٠٢، ٥٠٣.

معاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلى أهم بنود هذه المعاهدة.

بنود المعاهدة:

(١) أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم - وكذلك لغير بني عوف من اليهود -.

(٢) وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

(٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

(٤) وإن بينهم النصح والنصحية، والبر دون الإثم.

(٥) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

(٦) وإن النصر للمظلوم.

(٧) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(٨) وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

(٩) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

(١٠) وإنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها.

(١١) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

(١٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[١].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ورئيسها ـ إن صح هذا التعبير ـ رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف، وسيأتي ذكر شيء منها.

* * *

(١) انظر ابن هشام ١/٥٠٣، ٥٠٤.

الكفاح الدامي

استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبي

زاد المشركين غيظًا أن فاتهم المسلمون، ووجدوا مأمنًا ومقرًّا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، وإلى أصحابه المشركين، يقولون لهم في كلمات باتة: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم».

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[1].

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه: طريقك على أهل المدينة[2].

---

(١) أبو داود، باب: خبر النضير ٢/١٥٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي ٢/٥٦٣ ح٣٦٣٢، ٣٩٥٠.

قريش تهدد المهاجرين

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: «لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم(١)».

ولم يكن كل هذا مجرد وعيد، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً، أو في حرس من الصحاب. روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا قال: سعد بن أبي وقاص، فقال: له رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام(٢).

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي، بل كان ذلك أمراً مستمراً، فقد روي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل(٣).

ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

---

(١) رحمة للعالمين ١/١١٦.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ح٢٨٨٥ (فتح الباري ٦/٩٥) وح٧٢٣١ (فتح الباري ١٣/٢٣٢). صحيح مسلم: فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقاص ح٤٠ (٤/١٨٧٥).

(٣) جامع الترمذي: تفسير سورة المائدة ح٣٠٤٦ (٥/٢٣٤).

الإذن بالقتال

في هذه الظروف الخطيرة أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يفرضه عليهم قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وبين أن هذا لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وكان الإذن مقتصراً على قتال قريش، ثم تطور حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشاً إلى غيرهم، وذلك في مراحل كما يلي:

(١) المرحلة الأولى: اعتبار مشركي قريش محاربين، لأنهم بدأوا بالعدوان، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم، ويصادروا أموالهم، دون غيرهم من بقية مشركي العرب.

(٢) قتال كل من تمالأ من مشركي العرب مع قريش واتحد معهم، وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش.

(٣) قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع رسول الله ﷺ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء.

(٤) قتال من بادأ بعداوة المسلمين من أهل الكتاب، كالنصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

(٥) الكف عمن دخل في الإسلام، مشركًا كان أو يهوديًا أو نصرانيًا أو غير ذلك، فلا يُتعرَّض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام، وحسابه على الله.

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسي الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجاراتهم، واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

* * *

الغزوات والسرايا قبل بدر[1]

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلا بعد نزول الإذن بالقتال، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها كما أشرنا:

- الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.

- عقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق.

- إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.

- وإنذار قريش عقبى طيشها، حتى تفيق عن غيها الذي لا يزال يتوغل في أعماقها، وعلّها تشعر بالخطر على اقتصادها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة؛ جتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة.

وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز

(١) سرية سيف البحر، في رمضان سنة ١هـ. الموافق مارس سنة ٦٢٣م. أمّر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاث مئة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص[2]. فالتقوا واصطفوا

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة، حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته سرية.

(٢) العيص - بالكسر - مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني ـ وكان حليفًا للفريقين جميعًا ـ بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا.

وكان لواء حمزة أول لوء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيض، وحمله أبو مرثد كناز بن حصين الغنوي.

(٢) سرية رابغ: في شوال سنة ١ من الهجرة ـ أبريل سنة ٦٢٣م. بعث لها رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين فلقي أبا سفيان ـ وهو في مئتين ـ على بطن رابغ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

(٣) سرية الخرار[١]، ثم أرسل في ذي القعدة سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً من المهاجرين إلى الخرار قريبًا من رابغ فلم يلق كيداً.

(٤) غزوة الأبواء أو ودان[٢]، ثم خرج رسول الله ﷺ بنفسه إلى الأبواء أو ودان في صفر سنة ٢هـ في سبعين رجلاً من المهاجرين. فلم يلق أحداً، وعقد ميثاق الأمان والتناصر مع عمرو بن مخشي الضمري. وكانت أول غزوة خرج لها رسول الله ﷺ.

(٥) غزوة بواط[٣]، ثم خرج إلى بواط من ناحية رضوى في ربيع الأول سنة ٢هـ في مئتين من المهاجرين فلم يلق أحداً.

(٦) غزوة سفوان، وفي نفس الشهر أغار كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة، وساق بعض المواشي، فخرج ﷺ في طلبه إلى سفوان من ناحية بدر في سبعين رجلاً من المهاجرين، ولكن كرز أفلت ونجح في الفرار، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

---

(١) الخرار ـ بالفتح فالتشديد ـ موضع بالقرب من الجحفة.

(٢) ودان ـ بالفتح فالتشديد ـ موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً، والأبواء موضع بالقرب من ودان.

(٣) بواط (بالضم) ورضوى جبلان فرعان أصلهما واحد، من جبال جهينة، مما يلي طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد.

(٧) غزوة ذي العشيرة[١]، ثم خرج في جمادى الأولى أو الآخرة سنة ٢هـ إلى ذى العشيرة في مئة وخمسين، أو في مئتين من المهاجرين يعترض عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام ولكنها فاتته قبل أيام، وعقد ميثاق عدم العدوان مع بني مدلج.

(٨) سرية نخلة، ثم بعث في شهر رجب سنة ٢هـ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة بين مكة والطائف في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين، ليأتوا بخبر عير لقريش لكنهم هجموا عليها فقتلوا رجلاً، وأسروا اثنين وساقوا العير، وغضب رسول الله ﷺ على ذلك ولم يرض به فأطلق الأسيرين وأدى دية المقتول.

وكان الحادث في آخر يوم من رجب فأثار المشركون ضجة بأن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام، فأنزل الله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ [البقرة: ٢١٧][٢].

وفي شعبان سنة ٢هـ حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وكان ذلك مما يحبه رسول الله ﷺ وينتظره، وقد انكشف بذلك بعض المخادعين من المنافقين واليهود الذين دخلوا في الإسلام زوراً، فارتدوا وتطهرت صفوف المسلمين منهم.

تلك هى التحركات العسكرية التى قام بها رسول الله ﷺ والمسلمون لحفظ أمن المدينة وأطرافها. ولإشعار قريش بسوء عاقبتها إن لم تكف عن شرها، ولكنها ازدادت في العلو والاستكبار، فلاقت جزاء أمرها في بدر، وكان عاقبة أمرها خسراً.

---

(١) العشيرة، مصغراً، ويقال: العشيراء بالمد، وقيل: العسيرة، بالمهملة، موضع بناحية ينبع.

(٢) ينظر لتفصيل هذه السرايا والغزوات ابن هشام ١/٥٩١-٦٠٥ وزاد المعاد ٣/٨٣ – ٨٥.

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سببها أن رسول الله ﷺ كان بالمرصاد للعير التى فاتته إلى الشام حينما خرج إلى ذي العشيرة. وأرسل لها رجلين إلى الحوراء من أرض الشام ليأتيا بخبرها، فلما مرت بهما العير أسرعا إلى المدينة، فندب لها رسول الله ﷺ المسلمين ولم يعزم عليهم الخروج، فانتدب ٣١٣، أو٣١٤، أو ٣١٧ رجلاً - ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس، و ١٧٠ من الخزرج. لم يتخذ هؤلاء أهبتهم الكاملة. فلم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً فقط.

وعقد رسول الله ﷺ لواءً أبيضَ دفعه لمصعب بن عمير، وكان للمهاجرين علم يحمله علي بن أبي طالب، وللأنصار علم يحمله سعد بن معاذ واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أرسل مكانه من الروحاء أبا لبابة بن عبد المنذر

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد بدراً، وهو موضع على بعد ١٥٥ كيلو متراً جنوب غربي المدينة تحيط به جبال شواهق من كل جانب، وليس فيه إلا ثلاثة منافذ، منفذ في الجنوب، وهو العدوة القصوى، ومنفذ في الشمال وهو العدوة الدنيا ومنفذ في الشرق قريبًا من منفذ الشمال يدخل منه أهل المدينة، وكان طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام يمر من داخل هذا المحيط. وكان فيه المساكن والآبار والنخيل، فكانت تنزل القوافل، وتقيم فيه ساعات وأيامًا. فكان من السهل جداً أن يسد المسلمون هذه المنافذ بعد ما تنزل العير في هذا المحيط، فتضطر إلى الاستسلام، ولكن من لوازم هذا التدبير أن لا يشعر أهل العير بخروج المسلمين

إطلاقًا، حتى ينزلوا ببدر على غرة، ولذلك سلك رسول الله ﷺ ـ أول ما سلك ـ طريقًا آخر غير طريق بدر، ثم تأنى في التقدم إلى جهة بدر.

النذير في مكة وخروج أهلها إلى بدر

أما العير فكان قوامها ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار وكان رئيسها أبا سفيان ومعه نحو أربعين رجلاً فقط، وكان أبو سفيان في غاية التيقظ والحذر يسأل كل غاد ورائح عن تحركات المسلمين حتى علم بخروج المسلمين من المدينة وهو على بعد غير قليل من بدر، فحول اتجاه العير إلى الغرب ليسلك طريق الساحل، ويترك طريق بدر إطلاقًا، واستأجر رجلاً يخبر أهل مكة بخروج المسلمين بأسرع ما يمكن فلما بلغهم النذير استعدوا سراعًا وأوعبوا في الخروج. فلم يتخلف من كبرائهم إلا أبو لهب. وحشدوا من حولهم من القبائل ولم يتخلف من بطون قريش إلا بنو عدي.

ولما وصل هذا الجيش إلى الجحفة بلغتهم رسالة أبي سفيان يخبرهم بنجاته، ويطلب منهم العودة إلى مكة وهمَّ الناس بالرجوع، ولكن أبى ذلك أبو جهل؛ استكبارًا ونخوة، فلم يرجع إلا بنو زهرة. أشار عليهم بذلك حليفهم ورئيسهم الأخنس بن شريق الثقفي، وكانوا ثلاث مئة. أما البقية، وهم ألف فواصلوا سيرهم حتى نزلوا قريبًا من العدوة القصوى خارج بدر في ميدان فسيح وراء الجبال المحيطة ببدر.

المجلس الاستشاري ومواصلة سير المسلمين إلى بدر

أما رسول الله ﷺ فقد علم بخروج أهل مكة، وهو في الطريق، فاستشار المسلمين، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن، ثم قام عمر فتكلم وأحسن، ثم قام المقداد فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسر بذلك.

ثم قال: أشيروا علي أيها المسلمون! فقام سعد بن معاذ رئيس الأنصار وقال: كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، وقال فيما قال: والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. فَسُرَّ رسول الله ﷺ ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم.

الجيش الإسلامي في بدر

ثم تقدم إلى بدر فوصلها في نفس الليلة التى وصل فيها المشركون، فنزل في داخل ميدان بدر قريبًا من العدوة الدنيا، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يتقدم فينزل على أقرب ماء من العدو، حتى يصنع المسلمون حياضًا يجمعون فيها الماء لأنفسهم، ويغورون الآبار، فيبقى العدو ولا ماء له ففعل.

وبنى المسلمون عريشًا يكون مقر قيادته ﷺ وعينوا له حراسًا من شباب الأنصار تحت قيادة سعد بن معاذ.

ثم عبأ رسول الله ﷺ الجيش(١) وتجول في ميدان القتال وهو يشير بيده ويقول: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، غداً إن شاء الله»(٢). ثم بات يصلي إلى جذع شجرة، وبات المسلمون مستريحين تغمرهم الثقة، وكان الله قد أنزل المطر كما قال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

(١) انظر جامع الترمذي: أبواب الجهاد، باب ما جاء في الصف والتعبئة ١/٢٠١.

(٢) رواه مسلم عن أنس، انظر مشكاة المصابيح ٢/٥٤٣.

الجيشان يتراءيان:

وفي الصباح -وهو صباح يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة ٢هـ تراءى الجمعان، فدعا رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذى وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». ثم عدل الصفوف وأمرهم أن لا يبدأوا بالقتال حتى يأتيهم أمره. وقال: إذا أكتبوكم - أى اقتربوا منكم - فارموهم واستبقوا نبلكم[١]، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم[٢]. ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر رضي الله عنه فابتهل إلى الله سبحانه وتعالى ودعاه، وناشده حتى قال: «اللهم إن تُهْلِكْ هذه العصابةَ اليوم لا تُعبد أبداً. اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً». وبالغ في التضرع والابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك.

أما المشركون فاستفتح منهم أبو جهل، فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عنك فانصره اليوم.

المبارزة والقتال

ثم تقدم ثلاثة من أشد فرسان المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وبارزوا المسلمين فخرج ثلاثة من شباب الأنصار، فقال المشركون: نريد بني عمنا، فخرج عبيدة بن الحارث، وحمزة وعليّ، فقتل حمزةُ شيبةَ، وقتل عليٌّ الوليدَ، واختلفت ضربتان بين عبيدة وعتبة، وأثخن كل واحد منهما الآخر ثم كر عليّ وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله فمات بعد أربعة أيام أو خمسة بالصفراء راجعًا إلى المدينة.

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٦٨ ح٣٩٨٤، ٣٩٨٥.

(٢) سنن أبي داود، باب: في سل السيوف عند اللقاء ٢/١٣.

واستاء المشركون بنتيجة المبارزة واستشاطوا غضبًا فهجموا على صفوف المسلمين بعنف، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. والمسلمون ثابتون في أماكنهم، يدافعون عن أنفسهم، ويقولون أحد. أحد.

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ثم رفع رأسه، وقال: أبشر أبا بكر. أتاك نصر الله. هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع - أي على أطرافه الغبار - وكان الله قد أمد المسلمين يومئذ بألف من الملائكة مردفين.

ثم تقدم رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] وأخذ حفنة من الحصباء ورمى بها وجوه المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه». فما من مشرك إلا وأصاب عينيه ومنخريه من تلك الحفنة. وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجوم على المشركين وقال: شدوا، وحرضهم على القتال. فشد المسلمون وهم على نشاطهم. وقد زادهم تحمسًا وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، يقاتل قدامهم، فأخذوا يقلبون الصفوف ويقطعون الأعناق. ونصرهم الله بالملائكة، فكانوا يضربون فوق أعناق المشركين ويضربون منهم كل بنان. فكان ينحدر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتنحدر يد الرجل لا يدري من قطعها، حتى نزلت الهزيمة بالمشركين فلاذوا بالفرار. وأخذ المسلمون يطاردونهم، فيقتلون فريقًا ويأسرون فريقًا.

وكان إبليس قد حضر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم؛ تأييداً للمشركين، وتحريضًا لهم على قتال المسلمين، فلما رأى الملائكة وما يفعلون، نكص على عقبيه، وفر إلى البحر الأحمر، وألقى نفسه فيه.

مقتل أبي جهل:

وكان أبو جهل في عصابة جعلت سيوفها ورماحها حوله مثل السياج، وكان في صفوف المسلمين حول عبد الرحمن بن عوف شابان من الأنصار لم يأمن عبد الرحمن مكانهما، إذ قال له أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل، قال: وما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. وقال الآخر: مثل ذلك. فلما تصدعت الصفوف رآه عبد الرحمن يتجول فأراهما، فابتدراه بالسيف حتى قتلاه؛ ضرب أحدهما ساقه فطاحت رجله كما تطير النوى حين تدق، وأثخنه الآخر حتى تركه وبه رمق. ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ وقال كل منهما: أنا قتلته، فنظر إلى السيفين وقال: كلاكما قتله. وهما معاذ ومعوذ ابنا عفراء وقد استشهد معوذ في نفس الغزوة، وبقي معاذ إلى زمن عثمان. وأعطاه رسول الله ﷺ سلب أبي جهل(1).

وبعد انتهاء المعركة خرج الناس في طلبه فوجده عبد الله بن مسعود وبه رمق فوضع رجله على عنقه، وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غيرك قتلني، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله. قال أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم! وقطع عبد الله بن مسعود رأسه ثم جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ «الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». وقال: «هذا فرعون هذه الأمة».

يوم الفرقان

كانت هذه المعركة معركة بين الكفر والإيمان، قاتل فيها الرجل عمه وأباه، وابنه وأخاه وأدناه، قتل فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاله العاص بن هاشم،

---

(1) انظر لأصل القصة صحيح البخاري ١/٤٤٤، ٢/٥٦٨ ومشكاة المصابيح ٢/٣٥٢.

وواجه فيها أبو بكر ابنه عبد الرحمن، وأسر فيها المسلمون العباس، وهو عم رسول الله ﷺ وهكذا انقطعت فيها صلة القرابة وأعلى الله فيها كلمة الإيمان على كلمة الكفر، فرق بين الحق والباطل، فسمي ذلك اليوم بيوم الفرقان، وهو يوم بدر، اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

قتلى الفريقين

قتل في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً من المسلمين ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار ودفنوا في ساحة بدر ومقابرهم لا تزال معروفة.

أما المشركون فقتل منهم سبعون وأسر سبعون، ومعظمهم كانوا من الصناديد وقد سحبت جثث أربعة وعشرين من صناديدهم وقذفت في قليب - بئر - خبيث مخبث في بدر.

وأقام رسول الله ﷺ في بدر ثلاثة أيام فلما استعد للرجوع جاء القليب وقام على شفته، وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟».

فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكن لا يجيبون»[1].

خبر المعركة في مكة والمدينة

وصل نبأ الهزيمة إلى مكة بفلول المشركين فكبتهم الله وأخزاهم حتى نهوا عن النياحة على القتلى كيلا يشمت بهم المسلمون. وكان الأسود بن المطلب قتل له ثلاثة بنين. فكان يحب أن ينوح، فسمع ليلاً صوت نائحة، فظن الإذن وبعث غلامه، فجاء وأخبر أنها تبكي على بعير أضلته فلم يتمالك أن قال:

(١) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح ٢/٣٤٥.

أتبكي أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

وذلك في أبيات ندب فيها أبناءه.

أما أهل المدينة فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ بشيرين: عبد الله بن رواحة إلى العالية وزيد بن حارثة إلى السافلة. وكان اليهود قد أرجفوا في المدينة بدعايات كاذبة، فلما وصل نبأ الفتح عمت الفرحة والسرور، واهتزت المدينة تهليلاً وتكبيراً، وتقدم رءوس المسلمين إلى طريق بدر يهنئون رسول الله ﷺ.

تقدم الرسول ﷺ إلى المدينة

وتقدم الرسول ﷺ إلى المدينة متوجًا بنصر الله، ومعه الغنائم والأسارى فلما وصل قريبًا من الصفراء نزل حكم الغنيمة فأخذ منها الخمس وقسمها سويًا بين الغزاة. فلما حل بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث، فضرب عنقه علي بن أبي طالب. ولما حل بعرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط فقتله عاصم بن ثابت الأنصاري وقيل: علي بن أبي طالب.

أما رءوس المسلمين الذين خرجوا لتهنئته فلقوه ﷺ بالروحاء، ثم رافقوه يشيعونه إلى المدينة، فدخل فيها مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو. وأسلم بشر كثير، وتظاهر عبد الله بن أبى ابن سلول وزملاؤه بالإسلام.

قضية الأسارى

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة استشار في الأسارى. فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم، وأشار عمر بقتلهم، فقرر رسول الله ﷺ أخذ الفدية، وكانت من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألف درهم. ومن كان منهم يقرأ ويكتب فجعل فديته أن يعلم عشرة غلمان من المسلمين. وأحسن إلى بعض الأسارى فأطلقهم بغير فدية.

وبعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمال فيه قلادة لها. كانت عند خديجة فأدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، فاستأذن الصحابة في إطلاقه بغير فدية، ففعلوا. فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن يخلي سبيل زينب فخلاها فهاجرت إلى المدينة.

وفاة ابنته ﷺ رقية وزواج ابنته أم كلثوم بعثمان

وكانت رقية بنت النبي ﷺ مريضة حين خرج لغزوة بدر، وكانت تحت عثمان ابن عفان رضي الله عنه فأمره أن يتخلف عليها ليمرضها، وله أجر من حضر بدراً ونصيبه، وخلف عليها أيضًا أسامة بن زيد، فتوفيت قبل رجوعه ﷺ قال أسامة: أتانا الخبر - أي بشارة الفتح - حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ.

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة واطمأن بها زوّج عثمان بن عفان رضي الله عنه ابنته الأخرى: أم كلثوم. فلذلك سمي عثمان رضي الله عنه بذي النورين وقد بقيت معه حتى توفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة ودفنت بالبقيع.

التحركات العسكرية بعد بدر

ساء المشركين ومن معهم ما أكرم الله به المسلمين من النصر والفتح، فأخذوا يدبرون مكائد يضرون بها المسلمين وينتقمون بها منهم، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم وأيد المؤمنين بفضله.

غزوة بني سليم بالكُدْر[1]

فحشد بنو سليم لغزو المدينة بعد أسبوع من رجوع المسلمين من غزوة بدر، أو في المحرم سنة ٣هـ فداهمهم المسلمون في منازلهم، وأصابوا غنائم ورجعوا إلى المدينة سالمين[2].

(١) الكدر، بالضم فالسكون. طير في لونها كدرة، وهو ماء من مياه بني سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

(٢) ينظر للتفصيل ابن هشام ٢/٤٣، ٤٤ وزاد المعاد ٢/٩٠.

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ

ثم تآمر عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية على اغتيال النبي ﷺ وجاء عمير لذلك إلى المدينة، فألقي القبض عليه، وأخبره النبي ﷺ بما تآمر به عليه؛ فأسلم(١).

غزوة بني قينقاع

ثم كاشف يهود بني قينقاع بالشر والعداوة فنصحهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس. وصبر رسول الله ﷺ على هذا الجواب فازدادت جرأتهم، حتى أثاروا في سوقهم فتنة قتل فيها رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فحاصرهم رسول الله ﷺ يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ. واستسلموا بعد خمسة عشر يوماً لهلال ذي القعدة فأجلاهم إلى أذرعات الشام، حيث مات أكثرهم بعد قليل(٢).

غزوة السويق

ونذر أبو سفيان بعد غزوة بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ فخرج في مئتي راكب، وأغار بالعريض في ناحية المدينة فقطعوا أسواراً من النخيل، وأحرقوها وقتلوا رجلين وفروا.

وأتى الخبر رسول الله ﷺ فطاردهم، ولكنهم أفلتوا وطرحوا كثيراً من السويق والأزواد ليتخففوا وبلغ المسلمون في مطاردتهم إلى قرقرة الكدر، ولكنهم فاتوا وحمل المسلمون السويق. فسميت بغزوة السويق وبغزوة قرقرة الكدر(٣).

---

(١) ينظر للتفصيل ابن هشام ١/ ٦٦١-٦٦٣.

(٢) ينظر في سنن أبي داود مع عون المعبود ٣/ ١١٥، ابن هشام ٢/ ٤٧ – ٤٩ وزاد المعاد ٢/ ٧١، ٩١.

(٣) ابن هشام ٢/ ٤٤، ٤٥، زاد المعاد ٢/ ٩٠، ٩١.

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب من أثرياء اليهود وشعرائهم، ومن أشد أعداء المسلمين، فكان يهجو رسول الله ﷺ وأصحابه ويشبب بنسائهم، ويمدح أعداءهم، ويحرضهم عليهم. ونزل بعد بدر على قريش، فأغراهم على حرب المسلمين. وأنشد لهم في ذلك أبياتًا وقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً، ولم يعتبر بما حل ببني قينقاع. فقال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟» فانتدب له: محمد بن مسلمة، وعباد ابن بشر، وأبو نائلة، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر، وأميرهم محمد بن مسلمة، وقد استأذن النبي ﷺ أن يقول شيئًا.

ثم أتى كعبًا وقال: إن هذا الرجل - إشارة إلى النبي ﷺ - قد سألنا صدقة، وأنه قد عنانا أي أوقعنا في المشقة والعناء.

فاستبشر كعب، وقال: والله لتملنه. فاستقرضه محمد بن مسلمة طعامًا أو تمرًا واتفق معه على أنه يرهنه السلاح.

وجاءه أبو نائلة فتحاور معه بمثل حوار محمد بن مسلمة، وقال: إن معي أصحابًا على مثل رأيي أريد أن آتيك بهم، فتبايعهم، وتحسن إليهم، فقبل ذلك منه.

وفي الليلة الرابعة عشرة من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ جاءه المذكورون ومعهم السلاح، فنادوه، فقام لينزل وكان في حصنه، وكان حديث عهد بعرس، فقالت له زوجته: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. فلم يبال بقولها ولما نزل ورأى السلاح لم يستنكر لما سبق بينهم وبينه من العهد.

وأخذوا يمشون يتنزهون، ومدح أبو نائلة رائحة عطره، واستأذنه ليشم رأسه. فأذن له في زهو وخيلاء، فشمه وأدخل فيه يده، ثم استأذنه ثانيًا وفعل ما فعل، ثم ثالثًا أيضًا فلما استمكن من رأسه في المرة الثالثة، قال: دونكم عدو الله، فاختلفت

عليه الأسياف دون جدوى. فوضع ابن مسلمة معولاً في ثنته، وتحامل عليه حتى بلغ العانة، فصاح صيحة أفزعت من حوله، وسقط قتيلاً، وأوقدت النيران على الحصون، لكن رجع المسلمون بسلام. وقد خمدت نار الفتنة التي طالما أقلقت المسلمين، وكمنت أفاعي اليهود في أحجاره لفترة من الزمان(١).

سرية قردة وجيعة لقريش

وفي جمادى الآخرة سنة ٣هـ أرسلت قريش عيراً لهم إلى الشام عن طريق العراق، لتخترق نجداً إلى الشام، ولا تمر بقرب المدينة وكان يقودها صفوان بن أمية، وعلم بذلك رسول الله ﷺ فأرسل زيد بن حارثة في مئة راكب فدهمها زيد وهي تنزل على ماء في نجد يسمى بقردة، فاستولى على العير بكل ما فيها، وفر رجال العير بأجمعهم، وأسر الدليل فرات بن حيان فأسلم. وقدرت الغنيمة بمئة ألف، وكانت أوجع ضربة تلقتها قريش بعد غزوة بدر(٢).

* * *

(١) ينظر للتفصيل صحيح البخاري ١/٣٤١، ٤٢٥، ٥٧٧٢ وسنن أبي داود مع عون المعبود ٢/٤٢، ٤٣ وابن هشام ٢/٥١-٥٧ وزاد المعاد ٢/٩١.

(٢) ابن هشام ٢/٥٠، ٥١.

غزو أحد

الجيش المكي إلى أسوار المدينة

بينما كانت قريش تستعد للانتقام من المسلمين بما أصيبت به في غزوة بدر إذا بهم يتلقون ضربة أخرى في القردة، فازدادوا بها غضبًا على غضب، فأسرعوا في الاستعداد، وفتحوا باب التطوع، وحشدوا الأحابيش، وخصصوا الشعراء للإغراء والتحريض، حتى تجهز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل في ثلاثة آلاف بعير ومئتي فرس، وسبع مئة درع، ومعه عدد من النسوة للتحريض وبث روح البسالة والحماس، وكان قائده العام أبا سفيان وحامل لوائه أبطال بني عبد الدار.

تحرك هذا الجيش في غيظه وغضبه حتى بلغ إلى ضواحي المدينة، وألقى رحله في ميدان فسيح على شفير وادي قناة قريبًا من جبل عينين وأحد، وذلك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ٣هـ.

الجيش الإسلامي إلى أحد

ونقل الخبر إلى رسول الله ﷺ قبل نزول الجيش بنحو أسبوع فشكل دوريات عسكرية؛ تحسبًا للطوارئ وحفظًا للمدينة، فلما وصل الجيش استشار المسلمين حول خطة الدفاع. وكان رأيه ﷺ أن يتحصن المسلمون بالمدينة فيقاتل الرجال على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه رأس المنافقين عبد الله بن أبي وكأنه قصد الجلوس في البيت دون أن يتهم بالتخلف. ولكنْ تحمَّس الشباب وألحّوا على المجالدة بالسيوف في مكان مكشوف، فقبل رأيهم، وقسم الجيش إلى ثلاث كتائب: كتيبة للمهاجرين وحمل لواءها مصعب بن عمير، وأخرى للأوس وحمل لواءها أسيد بن حضير، وثالثة للخزرج وحمل لواءها الحباب بن المنذر.

واتجه بعد صلاة العصر إلى جبل أحد فلما بلغ موضع الشيخين استعرض الجيش فرد الصغار، وأجاز رافع بن خديج على صغره، لأنه كان ماهراً في رمي السهام. فقال سمرة بن جندب: أنا أقوى منه. أنا أصرعه فأمرهما بالمصارعة فصرع سمرة رافعاً فأجازه أيضاً.

وفي موضع الشيخين صلى المغرب والعشاء، ثم بات هناك. وعين خمسين رجلاً لحراسة المعسكر، فلما كان في آخر الليل ارتحل قبل الفجر، فصلاها بالشوط، وهناك تمرد عبد الله بن أبي فرجع مع ثلاث مئة من أصحابه وسرى لأجل ذلك الضعف والاضطراب في بنى سلمة وبني حارثة وكادتا ترجعان، ولكن ثبتهما الله. وكان أولاً مجموع عدد المسلمين ألفاً فبقي سبع مئة.

وتقدم رسول الله ﷺ نحو جبل أحد من طريق قصير يترك العدو في جانب الغرب حتى نزل بالشعب عند منفذ الوادي جاعلاً ظهره إلى هضاب أحد، وبذلك صار العدو حائلاً بين المسلمين وبين المدينة.

تعبئة الجيشين

وهناك عبأ الجيش، وعين خمسين رجلاً من الرماة على جبل عينين - وهو الذي يعرف بجبل الرماة - بقيادة عبد الله بن جبير الأنصاري وأمرهم أن يدفعوا الخيل، ويحموا ظهور المسلمين. وأكد لهم أن لا يتركوا مكانهم حتى يأتي أمره سواء انتصر المسلمون أو انهزموا[1].

وعبأ المشركون جيشهم، وتقدموا إلى ساحة القتال تحرضهم نسوتهم، وهن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، ويثرن الأبطال، وينشدن الأبيات:

---

(١) روى ذلك البخاري: كتاب الجهاد ١/ ٤٢٦، وأحمد والطبراني والحاكم (فتح الباري ٧/ ٣٥٠) وابن هشام ٢/ ٦٥، ٦٦.

إن تقــبلوا نعـــانق	ونفـــرش النمـــارق
أو تدبـــروا نفـــارق	فـــراق غـــير وامـــق

ويذكرون أصحاب اللواء بواجبهم قائلات:

ويها بني عبد الدار

ويها حماة الأدبار

ضربًا بكل بتار

المبارزة والقتال

وتقارب الجيشان فطلع طلحة بن أبي طلحة العبدري حاملاً لواء المشركين وأشجع فرسان قريش، ودعا إلى المبارزة وهو على بعير، فتقدم إليه الزبير بن العوام - رضي الله عنه - ووثب وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم أخذه واقتحم به الأرض، وذبحه بسيفه، فكبر النبي ﷺ وكبر المسلمون، ثم انفجر القتال في كل نقطة، وحاول خالد بن الوليد - وهو على فرسان المشركين - ثلاث مرات ليبلغ إلى ظهور المسلمين ولكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه.

وركز المسلمون هجومهم على حملة لواء المشركين حتى قتلوهم عن آخرهم، وكانوا أحد عشر مقاتلاً، فبقي اللواء ساقطًا، وشدد المسلمون هجومهم على بقية النقاط، حتى هدوا الصفوف هدًّا، وحسوا المشركين حسًّا، وأبلى أبو دجانة وحمزة - رضي الله عنهما - في ذلك بلاءً حسنًا.

مصرع حمزة بن عبد المطلب

وأثناء هذا التقدم والانتصار قُتِلَ حمزَةُ بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله - رضي الله عنه - قتله وحشي بن حرب، وكان عبدًا حبشيًّا ماهرًا في قذف الحربة، وقد وعده مولاه جبير بن مطعم بالعتق إذا قتل حمزة؛ لأن حمزة هو الذي قتل عمه

طعيمة بن عدي في بدر، فاختبأ وحشي وراء صخرة يرصد حمزة، وبينما حمزة يضرب رأس سباع بن عرفطة - رجل من المشركين - صوب وحشي إليه الحربة وقذفها وهو على غرة فوقعت في أحشائه وخرجت من بين رجليه، فسقط ولم يستطع النهوض حتى قضى نحبه - رضي الله عنه -(١).

الهزيمة تنزل بالمشركين والرماة يخطئون

ووقعت الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، وفرت النسوة المحرضات، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح ويأخذون الغنائم، وحينئذ أخطأ الرماة، فنزل منهم أربعون رجلاً ليصيبوا من الغنيمة، على رغم ما كان لهم من الأمر المؤكد بالبقاء في أماكنهم. وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة فانقض على العشرة الباقية بجبل الرماة حتى قتلهم، واستدار هذا الجبل حتى وصل إلى ظهور المسلمين، وبدأ بتطويقهم، وصاح فرسانه صيحة عرفها المشركون فانقلبوا ورفعت لواءهم إحدى نسائهم، فالتفوا حوله وثبتوا، وبذلك وقع المسلمون بين شقي الرحى.

هجوم المشركين على رسول الله ﷺ وإشاعة مقتله

وكان رسول الله ﷺ في مؤخرة المسلمين، ومعه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين(٢)، فلما رأى فرسان خالد تطلع من وراء الجبل نادى أصحابه بأعلى صوت: إليّ عباد الله، وسمع صوته المشركون - ولعلهم كانوا أقرب إليه من المسلمين - فأسرعت مجموعة منهم نحو الصوت وهاجمت رسول الله ﷺ هجوماً شديداً، وحاولت القضاء عليه قبل أن يصل إليه المسلمون، فقال ﷺ: «من يردهم عنا وله الجنة؟ - أو - وهو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار فدفعهم وقاتلهم حتى قتل، ثم رهقوه، فأعاد قوله، فتقدم رجل آخر، فدفعهم وقاتلهم حتى قتل، ثم الثالث، ثم الرابع وهكذا حتى قتل السبعة(٣).

(١) صحيح البخاري ٢/٥٨٣ وابن هشام ٢/٦٩ - ٧٢.

(٢) صحيح مسلم ٢/١٠٧.

(٣) انظر صحيح مسلم: باب غزوة أحد ٢/١٠٧.

ولما سقط السابع لم يبق حول رسول الله ﷺ إلا القرشيان طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص[1]، فركز المشركون حملتهم على رسول الله ﷺ حتى أصابته حجارة فوقع لأجلها على شقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وجرحت شفته السفلى، وهشمت البيضة على رأسه فشجت جبهته ورأسه. وضرب بالسيف على وجنته، فدخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، وضُرب أيضًا بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة اشتكى لأجلها أكثر من شهر. وكان قد لبس درعين فلم يتهتكا[2].

وقع كل هذا على رغم دفاع القرشيين الدفاع المستميت فقد رمى سعد بن أبي وقاص حتى نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «ارم فداك أبي وأمي»[3]، وقاتل طلحة بن عبيد الله وحده قتال مجموع من سبق حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحًا ووقى بيده النبي ﷺ فأصيبت أصابعه حتى شلت. ولما أصيبت أصابعه قال: حس. فقال النبي ﷺ: «لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»[4].

وخلال هذه الساعة الحرجة نزل جبريل وميكائيل فقاتلا عنه أشد القتال[5]، وفاء إليه ﷺ عدد من المسلمين فدافعوا عنه أشد الدفاع وكان أولهم أبا بكر الصديق ومعه أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما - وتقدم أبو بكر لينزع حلقة المغفر عن وجه رسول الله ﷺ فالح عليه أبو عبيدة حتى نزعها هو فسقطت إحدى ثنيتيه، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت الثنية الأخرى، ثم أقبلا على طلحة بن عبيد الله فعالجاه وهو جريح[6].

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٢٧، ٢/٥٨١.

(٢) ينظر له صحيح البخاري ٢/٥٨٢ وصحيح مسلم ٢/١٠٨ وفتح الباري ٧/٣٧٣.

(٣) صحيح البخاري ١/٤٠٧، ٢/٥٨٠، ٥٨١.

(٤) صحيح البخاري ١/٥٢٧، ٢/٥٨١، سنن النسائي ٢/٥٢، ٥٣ وفتح الباري ٧/٣٦١.

(٥) صحيح البخاري ٢/٥٨٠ وصحيح مسلم، الفضائل ح٤٦، ٤٧.

(٦) زاد المعاد ٢/٩٥.

وأثناء ذلك وصل إلى رسول الله ﷺ : أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم. وتضاعف عدد المشركين أيضاً واشتدت هجماتهم وقام المسلمون ببطولات نادرة فمنهم من يرمي ومنهم من يدافع ومنهم من يقاتل ومنهم من يقي السهام على جسده.

وكان اللواء بيد مصعب بن عمير فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت فأخذه بيده اليسرى فضربوا عليها حتى قطعت فبرك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو عبد الله بن قمئة، فلما قتله ظن أنه قتل رسول الله ﷺ، لأن مصعباً كان يشبهه ﷺ، فانصرف ابن قمئة، وصاح: إن محمداً قد قتل(١)، وشاع الخبر بسرعة وبإشاعته تخفف هجوم المشركين؛ إذ ظنوا أنهم أصابوا الهدف وبلغوا ما أرادوا.

موقف عامة المسلمين بعد التطويق

ولما رأى المسلمون بداية عملية التطويق تشتتوا وارتبكوا، ولم يصلوا إلى موقف موحد، فمنهم من فر إلى الجنوب حتى بلغ المدينة المنورة، ومنهم من فر إلى شعب أحد ولاذ بالمعسكر، ومنهم من قصد رسول الله ﷺ وأسرع إليه فدافع عنه كما تقدم. وبقي معظم المسلمين في دائرة التطويق ثابتين في أماكنهم يدفعون المطوِّقين ويقاتلونهم، وحيث لم يكن بينهم من يقودهم بنظام فقد حصل في صفوفهم خبط وارتباك، رجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم حتى قتل اليمان والد حذيقة بأيدي المسلمين أنفسهم(٢). فلما سمعوا خبر مقتل النبي ﷺ طار صواب طائفة منهم وخارت عزائمهم واستكانوا، حتى تركوا القتال وتشجع آخرون، وقالوا: موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر ابن هشام ٢/٧٣، ٨٠-٨٣ وزاد المعاد ٢/٩٧.

(٢) انظر لذلك صحيح البخاري ١/٥٩٣، ٢/٥٨١.

وبينا هم كذلك إذ رأى كعب بن مالك رسول الله - ﷺ - وهو يشق الطريق إليهم، فعرفه بعينيه إذ كان وجهه تحت حلق المغفر والبيضة، فنادى كعب بصوت علا: يا معشر المسلمين! أبشروا هذا رسول الله ﷺ فبدأ المسلمون يرجعون إليه حتى تجمع حوله ثلاثون رجلاً من أصحابه، فشق بهم الطريق بين المشركين، ونجح في إنقاذ جيشه المطوق وسحبه إلى شعب الجبل. وقد حاول المشركون عرقلة هذا الانسحاب ولكنهم فشلوا تماماً، وقتل منهم اثنان أثناء هذه المحاولة.

وبهذه الخطة الحكيمة نجا المسلمون، ولكن بعد أن دفعوا الثمن غالياً لما ارتكبه الرماة من الخطأ ومخالفة أمر رسول الله ﷺ.

في الشعب

وبعد ما خرج المسلمون من دائرة التطويق، ونجحوا في التمكن من الشعب حصل بينهم وبين المشركين بعض المناوشات الخفيفة الفردية، ولم يجترئ المشركون على التقدم والمواجهة العامة، وإنما بقوا في الساحة قليلاً، مثلوا خلاله القتلى، فقطعوا آذانهم وأنوفهم وفروجهم، وبقروا بطونهم، وبقرت هند بنت عتبة عن بطن حمزة حتى أخرجت كبده، ولاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والنوف قلائد وخلاخيل(١).

وجاء أبي بن خلف متغطرساً إلى الشعب يزعم أنه يقتل رسول الله ﷺ، فطعنه رسول الله ﷺ بحربة في ترقوته في فرجة بين الدرع والبيضة، فتدحرج عن فرسه مراراً، ورجع إلى قريش وهو يخور خوار الثور، فلما بلغ سرف - قريباً من مكة - مات لأجله(٢).

ثم جاء رجال من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، وعلوا في بعض جوانب الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم

(١) ابن هشام ٢/ ٩٠.

(٢) المستدرك للحاكم ٢/ ٣٢٧ وابن هشام ٢/ ٨٤.

من الجبل(١)، وتفيد الروايات أن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قتل ثلاثة منهم(٢).

وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين وقيل: سبعة وثلاثين، أما المسلمون فقد قتل منهم سبعون: ٤١ من الخزرج، و ٢٤ من الأوس، و ٤ من المهاجرين وواحد من اليهود، وقيل غير ذلك(٣).

وبعد المحاولة الأخيرة الفاشلة من أبي سفيان وخالد بن الوليد أخذ المشركون يستعدون للعودة إلى مكة.

أما رسول الله ﷺ فإنه لما تمكن من الشعب واطمأن فيه، جاءه علي - رضي الله عنه - بماء من المهراس - وهو ماء بأحد - ليشرب منه النبي ﷺ، فوجد له ريحًا فلم يشرب منه، بل غسل به الوجه، وصبه على الرأس، فأخذ الدم ينزف من الجرح، ولا ينقطع، فأحرقت فاطمة - رضي الله عنها - قطعة من حصير، وألصقته، فاستمسك الدم، وجاء محمد بن سلمة بماء سائغ فشرب منه، ودعا له بخير، وصلى الظهر قاعداً، وصلى المسلمون معه قعوداً(٤).

وجاءت نسوة من المهاجرين والأنصار، فيهن عائشة، وأم أيمن، وأم سليم، وأم سليط، فكن يملأن القرب بالماء، ويسقين الجرحى، - رضي الله عنهن - أجمعين(٥).

حوار ومواعدة

ولما استعد المشركون للرجوع تمامًا أشرف أبو سفيان على الجبل، ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال:

(١) ابن هشام ٢/٨٦.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/٩٥.

(٣) انظر ابن هشام ٢/١٢٢ - ١٢٩ وفتح الباري ٧/٣٥١.

(٤) ابن هشام ٢/٨٥، صحيح البخاري ٢/٥٨٤، السيرة الحلبية ٢/٣٠.

(٥) صحيح البخاري ١/٤٠٣، ٢/٥٨١ والسيرة الحلبية ٢/٢٢.

أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، وكان النبي ﷺ هو الذي نهاهم عن الإجابة، فقال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله! إن الذي ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك.

فقال أبو سفيان: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم قال: اعل هبل، فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله أعلى وأجل.

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فقال عمر -رضي الله عنه-: لا سواء. فقتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا.

ثم دعاه أبو سفيان وقال: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمداً؟

قال عمر -رضي الله عنه-: لا. وإنه ليستمع كلامك الآن.

قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر(١).

ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل.

فأمر رسول الله ﷺ أحد أصحابه أن يقول: نعم هو بيننا وبينك موعد(٢).

رجوع المشركين وقيام المسلمين بتفقد الجرحى ودفن الشهداء

ثم رجع أبو سفيان إلى جيشه، وأخذ الجيش في الارتحال، وقد ركب الإبل وجعل الخيل بالجنب، وكان هذا دليل قصدهم لمكة، وكان من فضل الله على المسلمين، إذ لم يكن بين المشركين وبين المدينة من يمنعهم عن الدخول فيها ولكن صرفهم الله الذي يحول بين المرء وقلبه.

---

(١) ابن هشام ٢/٩٣، ٩٤ وزاد المعاد ٢/٩٤ وصحيح البخاري ٢/٥٧٩.

(٢) ابن هشام ٢/٩٤.

فنزل المسلمون إلى ساحة القتال يتفقدون الجرحى والقتلى، وقد نقل بعضهم بعض الشهداء إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بردهم إلى مضاجعهم، ودفنهم في ثيابهم، بغير غسل ولا صلاة، وقد دفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وربما جمع بين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الإذخر، وقَدَّم في اللحد من كان أكثر حفظًا للقرآن، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة(١).

ووجدوا نعش حنظلة بن أبي عامر في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فقال النبي ﷺ: «إن الملائكة تغسله»، وكان من قصته أنه كان حديث عهد بعرس وكان معها إذ سمع المنادي ينادي للحرب، فتركها، وخرج إلى ساحة القتال، وقاتل حتى قتل، وهو جنب، فغسلته الملائكة، فسمي غسيل الملائكة(٢).

وكفن حمزة في برد إن غط رأسه بدت رجلاه، وإن غط رجلاه بدا رأسه، فجعلوا على رجليه الإذخر، وكذلك مصعب بن عمير(٣).

إلى المدينة وفي المدينة

ولما فرغ رسول الله ﷺ والمسلمون من دفن الشهداء، والدعاء لهم، رجعوا إلى المدينة، وقد خرجت نسوة قتل أقاربهن، فلقين رسول الله ﷺ في الطريق، فعزاهن ودعا لهن، وجاءت امرأة من بني دينار قتل زوجها وأخوها وأبوها، فلما نعوا لها سألت عن رسول الله ﷺ فقالوا لها: إنه بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه، فأشاروا لها، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل: أي صغيرة(٤).

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٣/٢٤٨ ح١٣٤٣، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٥٣، ٤٠٧٩.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/٩٤.

(٣) روى ذلك أحمد والبخاري (فتح الباري ٣/٦٨-١٧٠) ح١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٣٩١٤، ٤٠٤٥.

(٤) ابن هشام ٢/٩٩.

وبات المسلمون في حالة الطوارئ، يحرسون المدينة، ويحرسون رسول الله ﷺ، وهم منهكون من الجرح والتعب، والحزن والألم، ورأى رسول الله ﷺ، أنه لا بد من متابعة حركات العدو؛ حتى يناجزه في الميدان لو حاول العودة إلى المدينة.

غزوة حمراء الأسد

فلما أصبح نادى في المسلمين أن يخرجوا للقاء العدو، ولا يخرج إلا من شهد القتال بأحد، فقالوا: سمعًا وطاعة، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وعسكروا هناك.

أما المشركون فكانوا نازلين بالروحاء، بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، يفكرون ويتشاورون في العودة إليها، ويتأسفون على ما فاتهم من الفرصة الصالحة.

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي من المناصحين لرسول الله ﷺ، فجاءه بحمراء الأسد، وعزاه على ما أصابه في أحد، فأمره رسول الله أن يلحق أبا سفيان ويخذله، فلحقهم بالروحاء، وقد أجمعوا ليعودوا إلى المدينة، فخوفهم أشد التخويف، وقال: إن محمداً خرج في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، ولا أرى أن ترتحلوا حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فلما سمعوا هذا خارت عزائمهم، وانهارت معنوياتهم، واكتفى أبو سفيان بحرب أعصاب دعائية، إذ كلف من يقول للمسلمين: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، حتى لا يطارده المسلمون، وعجل على الارتحال إلى مكة.

أما المسلمون فلم يؤثر فيهم هذا الإنذار، بل: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وبقوا في حمراء الأسد إلى يوم الأربعاء، ثم

رجعوا إلى المدينة: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤](١).

* * *

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد وحمراء الأسد من ابن هشام ٢/ ٦٠ - ١٢٩ وزاد المعاد ٢/ ٩١ - ١٠٨ وفتح الباري ٧/ ٣٤٥ - ٣٧٧، ومن صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرها.

أحداث وغزوات بعد أحد

كان لما أصاب المسلمين بأحد أثر سَيِّئ على سمعة المسلمين، فقد تجرأ الأعداء، وكشافوهم بالنزال ووقعت عدة أحداث لم يكن بعضها في صالح المسلمين، ونكتفي هنا بذكر الأهم منها.

بعث الرجيع

في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق، وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي - في قول ابن إسحاق، وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة - استصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مئة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فدفد - وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً. فأما عاصم فأبى من النزول وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجرجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال:

دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً، ولا تبق منهم أحداً، ثم قال:

لقد أجمع الأحزابُ حولي وألَّبُوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجْمع

وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع

إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمع الأحزاب لي عند مضجعي

فذا العرش صبرني على ما يراد بي ... فقد بضعوا لحمي وقد بؤس مطعمي

وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مدمع

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شِقٍّ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْو مُمَزع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه، وكان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث. وكان خبيب قد قتل أباه حارثًا يوم بدر.

وفي الصحيح أن خبيبًا أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئي وهو أسير يأكل قطفًا من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعة صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه ـ وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر ـ فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر ـ الزنابير ـ فحمته

من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته(١).

مأساة بئر معونة

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة.

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو بملاعب الأسنة، قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث معه أربعين رجلاً - في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح - وأمَّرَ عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمعتق ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، وكانوا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم - فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عصية ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

---

(١) ابن هشام ٢/١٦٩، وزاد المعاد ٢/١٠٩، صحيح البخاري ٢/٥٦٨، ٥٨٥.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين. تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح، وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال: لقد قتلت قتيلين لأدينهما، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود[١]، وهذا الذي صار سببًا لغزوة بني النضير، كما سيذكر.

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة[٢] تألمًا شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق[٣] حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه. ففي الصحيح عن أنس قال: دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: عصية عصت الله ورسوله،

---

(١) انظر ابن هشام ٢/١٨٣ إلى ١٨٨، زاد المعاد ٢/١٠٩، ١١٠، صحيح البخاري ٢/٥٨٤، ٥٨٦.

(٢) ذكر ابن سعد أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة (٢/٥٣).

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة (٢/٥٤).

فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نسخ بعد: (بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) فترك رسول الله ﷺ قنوته(١).

غزوة بني النضير

قد أسلفنا أن اليهود يتحرقون على الإسلام والمسلمين، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دسٍّ ومؤامرة، ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتّصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًّا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين(٢). ثم زادت جرأتهم بعد وقعة الرجيع وبئر معونة حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ.

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ـ وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ـ فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا. فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم، ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسول الله ﷺ يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود.

(١) البخاري ٢/٥٨٦ – ٥٨٨.

(٢) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ٣/١١٦، ١١٧ (عون المعبود شرح سنن أبي داود).

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، ولم يجد يهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهَّزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين ـ عبد الله بن أبي ـ بعث إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا. ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم **﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾** [الحشر: ١١] وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي ابن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حَرِجًا بالنسبة للمسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأوا كَلَب العرب عليهم، وفتكهم الشنيع ببعوثهم، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم محفوفًا بالمكاره، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير ـ بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ مهما تكن النتائج.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب كبَّر وكبَّر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وسار إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفي ذلك يقول حسان:

وهان على سراة بني لؤيٍّ حـريق بالبويرة مسـتطير

البويرة اسم لنخل بني النضير، وفي ذلك أنزل الله تعالى: **﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [الحشر:٥].

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً، أو يدفع عنهم شرًّا، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: **﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾** [الحشر:١٦].

ولم يطل الحصار ـ فقد دام ستَّ ليالٍ فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة ـ حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخرَّبوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ست مئة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلام ابن أبي الحقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامين ابن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعًا، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفًا.

وكانت أموال بني النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ، يضعها حيث يشاء، ولم يخمسها؛ لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما. وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله.

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٢٥م. وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: قل: سورة النضير[١].

هذه بخلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة، وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سببًا آخر حول هذه الغزوة، وهو أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن أصاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء - وهو الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً، حتى نلتقي في مكان كذا نصف بيننا وبينكم فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون

(١) ابن هشام ٢/١٩٠ – ١٩٢، زاد المعاد ٢/٧١، ١١٠، صحيح البخاري ٢/٥٧٤، ٥٧٥.

إليه، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا، وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا (أي اليهود) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك النبي ﷺ، فساره، بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدونّي عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل إلا الحلقة - والحلقة: السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، كان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام(١).

غزوة بدر الثانية

وفي شعبان سنة ٤هـ يناير سنة ٦٢٦م خرج رسول الله ﷺ إلى بدر للموعد المقرر بينه وبين أبي سفيان في أحد، ومعه ألف وخمس مئة من الصحابة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، فانتهى إلى بدر، وأقام بها ينتظر المشركين.

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/٣٥٨ - ٣٦٠ ح٩٧٣٣، وسنن أبي داود: كتاب الخراج والفيء والعمارة، باب في خبر النضير ٢/١٥٤.

وأما أبو سفيان، فخرج في ألفين من مشركي مكة، ومعهم خمسون فرسًا، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة ـ ماء في تلك الناحية ـ.

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلاً يفكر في عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عامٌ خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستوليةً على مشاعر الجيش أيضًا، فقد رجع الناس ولم يبدوا أي معارضة لهذا الرأي، وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم في النفوس، وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى(١).

غزوة دومة الجندل

وقد خرج رسول الله ﷺ بعد بدر الموعد بستة أشهر إلى دومة الجندل لتأديب قُطَّاع الطريق، فنزل بساحتهم وتفرق أهلها فمكث خمسة عشر يومًا يَبُثُّ السرايا ويفرق الجيوش: ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق العدو.

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٠٩، ٢١٠، زاد المعاد ٢/١١٢.

غزوة الأحزاب

كاد رسول الله ﷺ والمسلمون يتفرغون لنشر دينهم، وإصلاح أحوالهم، بعد أن ساد الهدوء بفضل ما اتخذه رسول الله ﷺ من الخطط الحكيمة، فلم يحصل بعد غزوة بني النضير أيّة مواجهة تذكر، لفترة تجاوز سنة ونصف سنة، ولكن لم يرق اليهود أن يستريح المسلمون، فهم بعد ما استقروا بخيبر، واطمأنوا بها أخذوا يدبرون المؤامرات، ويتحركون وراء الستار، حتى نجحوا في جلب جيشٍ عرمرمٍ من قبائل العرب ضد أهل المدينة.

يقول أهل السير: إن عشرين رجلاً من ساداتهم وزعمائهم خرجوا إلى قريش، يحرضونهم على غزو المدينة، ووعدوهم بالنصر، فأجابت لهم قريش، ثم ذهبوا إلى غَطَفَان فأجابوا، ثم طافوا في القبائل فأجاب عدد منها، ثم حركوا هؤلاء القوم جميعًا تحت خطة منسقة حتى يصل الجميع إلى أطراف المدينة في زمن واحد.

الشورى وحفر الخندق

وبلغ خبر تجمعهم وتحركهم إلى المدينة فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فأشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ بحفر الخندق، فاستحسنوه واتفقوا عليه.

وحيث إن المدينة تحيط بها اللاّبات أي الحرَّات ـ وهي الحجارة السود ـ من الشرق والغرب والجنوب، ولا تصلح لدخول العساكر إلا جهة الشمال فإن رسول الله ﷺ اختار في تلك الجهة أضيق مكان بين الحرَّة الغربية والشرقية ـ وهو نحو ميل ـ فوصل الحَرَّتين بحفر الخندق في هذا المكان، وبدأ هذا الخندق من جهة المغرب من شمال جبل سلع، ووصله في الشرق برأس ممتد من حجارة الحرة الشرقية عند أطم الشيخين.

وقدوكَّل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا أربعين ذراعًا، واشترك معهم رسول الله ﷺ في حفر الخندق ونقل التراب، وكانوا يرتجزون فيجيب، ويرتجز فيجيبون، وقد كابدوا أثناء حفره أنواعًا من المشقة، ولا سيما شدة البرد، وشدة الجوع، وكان يؤتى لهم بملء كَفٍّ من الشعير، فيصنع بدسم يفوح منها الريح، فيأكلونه، وهو يصعب مروره على الحلق[١]، وشَكَوا إلى رسول الله ﷺ الجوع، وأروه على بطونهم حجراً كانوا قد ربطوه، فأراهم على بطنه حجرين[٢].

بعض الآيات:

وقد وقعت أثناء الحفر بعض الآيات، رأى جابر شدة الجوع في رسول الله ﷺ فلم يصبر: فذبح بهيمة له، وطحنت امرأته صاعًا من شعير، ثم دعا رسول الله ﷺ سرًّا، في نفر من أصحابه، فقام رسول الله ﷺ يجمع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا وشبعوا وما زالت البُرمَة تَغطُّ، والعجين يُخْبَز[٣]، وذهبت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر لأبيه وخاله فبدده رسول الله ﷺ فوق ثوب، ودعا أهل الخندق، فأكلوا ورجعوا، والتمر يسقط من أطراف الثوب[٤].

وعرضت لجابر وأصحابه أثناء الحفر كدية شديدة، فنزل رسول الله ﷺ وضربها بالمِعْوَل، فعادت كثيبًا أهيل[٥]، أي رملاً لا يتماسك، وعرضت للبراء وأصحابه صخرة، فنزل رسول الله ﷺ وقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة بالمعول فقطع قطعة، وخرج منها ضوء، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام وإني لأنظر إلى قصورها الحمراء الساعة، ثم ضرب الثانية وبشَّر بفتح فارس، ثم الثالثة وبشَّر بفتح اليمن، وانقطعت الصخرة[٦].

(١) انظر صحيح البخاري ١/٣٩٧، ٢/٥٨٨، ٥٨٩.

(٢) الترمذي: مشكاة المصابيح ٢/٤٤٨.

(٣) انظر صحيح البخاري ٢/٥٨٨، ٥٨٩.

(٤) ابن هشام ٢/٢١٨.

(٥) انظر: صحيح البخاري ٢/٥٨٨.

(٦) مسند أحمد وسنن النسائي ٢/٥٦.

بين طرفي الخندق

وأقبلت قريش ومن تبعهم في أربعة آلاف، ومعهم ثلاث مئة فرس، وألف بعير، يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فنزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف، فنزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد، وكان قدوم هذا الجيش العرمرم إلى أسوار المدينة بلاءً شديداً ومخيفًا جدًّا، كما قال الله ـ تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] فثبَّت الله المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وجعل النساء والذراري في الآطام، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار.

وبعد أن استقر المشركون وتهيأوا تقدموا نحو المدينة، فلما اقتربوا من المسلمين فوجئوا بخندق عريض يحول بينهم وبين المسلمين فبُهتوا، وقال أبو سفيان: تلك مكيدة ما عرفتها العرب، فأخذوا يدورون حوله في طيش وغضب، يطلبون نقطة يعبرون منها، والمسلمون يرشقونهم بالنبل، حتى لا يقتربوا منه فيتمكنوا من الاقتحام، أو من إهالة التراب وبناء الطريق عليه.

واضطر المشركون إلى فرض الحصار على المدينة بينما لم يكونوا مستعدين له، إذ لم يكن ذلك في حسابهم عند الخروج، فأخذوا يخرجون في النهار يحاولون

عبور الخندق، والمسلمون مجابهون لهم على طول الخط، يناضلون ويرامون بالحجارة: وقد كثف المشركون جهودهم مراراً، وأداموها طول النهار، واضطر المسلمون إلى الاستمرار في الدفاع، حتى فاتت منهم ومن رسول الله ﷺ الصلوات، ولم يتمكنوا من أدائها إلا بعد غروب الشمس، أو قريبًا من ذلك(١)، ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت حينذاك.

وفي أحد الأيام خرج نفر من فوارس المشركين فيهم عمرو بن عبد وُدٍّ، وعكرمة ابن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وغيرهم، فقصدوا مكانًا ضيقًا من الخندق، واقتحموه، وجالت بهم خيلهم في الساحة التي بين الخندق وجبل سلع، فخرج علي بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين، فحال بينهم وبين المكان الذي اقتحموا منه الخندق، فدعا عمرو بن عبد وُدٍّ إلى المبارزة، وكان جريئًا فاتكًا فأغضبه علي حتى نزل من الفرس، فتجاولا وتصاولا حتى قتله علي، وانهزم الباقون وقد ملأهم الرعب حتى ترك عكرمة رمحه، وسقط نوفل بن عبد الله في الخندق فقتله المسلمون.

وأصيب أثناء المراماة عدد قليل من الطرفين، وبلغ عدد قتلى المشركين عشرة، وقتلى المسلمين ستة.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله، فدعا الله أن يبقيه إن كان قد بقي من حرب قريش شيء، وإلا فليعجل موته في هذا الجرح، ثم قال: في دعائه: «ولا تُمِتْنِي حتى تُقِرَّ عيني من قريظة»(٢).

غدر بني قريظة وأثره على سير الغزوة

وكانت قريظة في عهد مع رسول الله ﷺ ـ وقد سبق ذكره ـ فجاء حُيَيٌّ بن أخطب سيد بني النضير أثناء هذه الغزوة إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة

(١) انظر صحيح البخاري ٢/ ٥٩٠.

(٢) انظر صحيح البخاري ٢/ ٥٩١ وابن هشام ٢/ ٢٣٧.

فحسن له الغدر، وأغراه على نقض العهد، فنقض كعب العهد، وقام إلى جانب قريش والمشركين.

وكانت قريظة في جنوب المدينة، والمسلمون في شمالها، ولم يكن من يحول بين قريظة وبين نساء المسلمين وذراريهم، فكان الخطر عليهم شديداً، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ فأرسل مَسلمة بن أسلم في مئتين وزيد بن حارثة في ثلاث مئة لحراسة ذراري المسلمين، وأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في رجال من الأنصار يستجلون له الخبر، فوجدوا اليهود على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: عضل وقارة: «يعني أن قريظة على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع».

وتفطن الناس، فاشتد خوفهم كما قال الله ـ تعالى: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾** [الأحزاب: ١٠، ١١] ونجم النفاق حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال آخرون: **﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾** [الأحزاب: ١٢]، وقالت طائفة منهم: **﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾** [الأحزاب:١٣]، وأراد فريق منهم الفرار فاستأذنوا النبي ﷺ وقالوا محتالين: **﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾** [الأحزاب:١٣]، وما هي بعورة، وقلق رسول الله ﷺ حين بلغه غدرهم، فتقنع بالثوب، واضطجع ومكث هكذا طويلا ثم نهض وقال: الله أكبر وبشر المسلمين بالفتح والنصر.

وأراد أن يرسل إلى عيينة بن حصن ليصالحه على ثلث ثمار المدينة وينسحب هو بغطفان فأبى ذلك سيدا الأنصار: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وقالا: كنا

نحن وهؤلاء على الشرك، ولم يَطمعوا أن يأكلوا منها ثمرة، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوَّب رأيهما.

تخاذل الأطراف ونهاية الغزوة

ولله في خلقة شئون، فقد جاء أثناء هذه الظروف القاسية نعيم بن مسعود الأشجعي، وهو من غطفان، وكان صديقًا لقريش واليهود، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال: أنت رجل واحد، ماذا عسى أن تفعل، ولكن خذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

فذهب نعيم إلى قريظة، فلما رأوه أكرموه، فقال: تعرفون وُدِّي لكم، وخاصة ما بيني وبينكم، وإني محدثكم حديثًا فاكتموه ثناء أثناء عني، قالوا: نعم، قال: قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع، والنضير، وقد ظاهرتم قريشًا وغطفان، وهم ليسوا مثلكم، فالبلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وأما بلدهم وأموالهم ونساؤهم فبعيدة، فهم إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم، وتركوكم ومحمداً ينتقم منكم كيف يشاء، قالوا، فما العمل؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم توجه نعيم إلى قريش واجتمع برؤسائهم، وقال: تعلمون وُدِّي لكم ونصحي إليكم، قالوا: نعم. قال: فإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني، قالوا: نفعل، قال: فإن يهود قد ندموا على نقضهم عهد محمد، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه، فراسلوه أنهم يأخذونِ منكم رهائن ويدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فرضي بذلك، فاحذروهم وإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

وبهذا التدبير الحكيم تشككت النفوس وتشققت، وأرسل أبو سفيان وفداً إلى قريظة يدعوهم إلى القتال غداً، فقالوا: إن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما

أصابنا إلا من التعدي فيه، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم، لكي لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فقالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، وأرسلت قريش إلى اليهود تقول لهم: لا نرهنكم أحداً، واخرجوا للقتال. فقالوا: صدقكم والله نعيم. فخارت عزائم الفريقين وتخاذلوا.

أما المسلمون فكانوا يدعون: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، وابتهل رسول الله ﷺ إلى ربه - عز وجل -: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»(١). فأرسل الله عليهم ريحًا وجنوداً من الملائكة فزلزلوهم وقذفوا في قلوبهم الرعب، وكفأت الريح قدورهم، وقلعت خيامهم، وضربهم البرد القارس حتى لم يقر لهم قرار، وبدءوا يتهيأون للرحيل.

وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة - رضي الله عنه - إليهم، ليأتي بخبرهم، فذهب ودخل بينهم، ثم رجع، ولم يجد مسَّ البرد، بل كأنه في حمام - الذي يغتسلون فيه بالماء الحميم أي الحار - فلما رجع أخبر برحيل القوم ونام. فلما أصبح المسلمون رأوا ساحة القتال من جهة الكفار ليس فيها داع ولا مجيب، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

كانت بداية هذه الغزوة في شوال سنة ٥هـ، ونهايتها بعد نحو شهر في ذي القعدة، وكانت أكبر محاولة قام بها أعداء الإسلام لضرب المدينة، وللقضاء عليها، وعلى الإسلام والمسلمين، ولكن الله خيبهم، ورد كيدهم في نحورهم، وكان فشلهم بمجموع هذه القوات يعني أن الطوائف الصغيرة والمتفرقة أولى أن لا تجترئ على التوجه إلى المدينة، وقد أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: الآن نغزوهم ولا يغزونّا، نحن نسير إليهم(٢).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد ١/٤١١، وكتاب المغازي ٢/٥٩٠.

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٩٠.

غزوة بني قريظة

ورجع رسول الله ﷺ من الخندق ونزع السلاح والثياب، وبينما هو يغتسل في بيت أم سلمة جاءه جبريل -عليه السلام-، وأمره بالنهوض إلى بني قريظة، وقال: إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، أقذف في قلوبهم الرعب، ثم سار في موكبه من الملائكة.

أما رسول الله ﷺ فأعلن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّين العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وقدمه في جماعة إليهم، فلما رأوه سبُّوا الرسول ﷺ وقالوا: قبيحًا، وبادر المسلمون في الخروج، وأدركت بعضهم العصر في الطريق فمنهم من صلى، ومنهم من أخر حتى وصل إلى بني قريظة، وخرج رسول الله ﷺ في موكب المهاجرين والأنصار حتى نزل على بئر من آبارهم اسمها: «أنا».

وألقى الله في قلوبهم الرعب، فتحصنوا في حصونهم، ولم يجترئوا على القتال، وحاصرهم المسلمون بشدة، فلما طال عليهم الحصار أرادوا أن يستشيروا بعض حلفائهم من المسلمين، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة ليستشيروه، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، يريد أنه الذبح، ثم تنبه أنه بإشارته هذه خان الله ورسوله، فمضى على وجهه حتى أتى المسجد النبوي، وربط نفسه بسارية من سواريه، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ، بيده، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له. أما إذ فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه.

ومع طول الحصار انهارت معنويات بني قريظة، حتى نزلوا بعد خمس وعشرين ليلة على حكم رسول الله ﷺ، فاعتقل الرجال، وجعل النساء والذراري بمعزل عنهم في ناحية، وطلب حلفاؤهم الأوس أن يحسن إليهم، كما فعل ببني قينقاع حلفاء الخزرج، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا.

وكان سعد في المدينة للجرح الذي أصابه أثناء غزوة الخندق، فجاءوا به راكباً على حمار، فلما قرب من رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه، وأحاطوا به من جانبيه، يقولون: يا سعد! أحسن في مواليكم، وهو ساكت لا يجيب، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لَوْمَةُ لائم. فلما سمعوا ذلك رجع بعضهم إلى المدينة ونعى إليهم القوم.

ولما نزل سعد، وأُخبر بنزول قريظة على حكمه، حكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية وتُقَسَّم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات.

وقد كان هذا الحكم أيضًا طبقًا لشريعة اليهود، بل أرفق وأرحم من حكم شريعتهم.

وعلى إثر هذا القضاء الذي قضى به سعد بن معاذ أُتي ببني قريظة إلى المدينة، فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم ذهب بهم إلى هذه الخنادق أرسالاً، وضربت أعناقهم فيها، وكانوا أربعمئة، وقيل: ما بين الستمئة إلى السبعمئة.

وقتل معهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكان من زعماء اليهود العشرين الذين حرضوا قريشاً وغطفان على غزوة الأحزاب، ثم كان قد جاء إلى قريظة، وأغراهم على نقض العهد، حتى غدروا بالمسلمين في أحرج ساعة من

حياتهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن يكون معهم يصيبه ما يصيبهم، فكان معهم في حصونهم أثناء الحصار والاستسلام حتى قتل.

وقد أسلم نفر من بني قريظة قبل النزول فلم يتعرض لهم، واستوهب بعضهم فتركوا وأسلموا، وقتلت امرأة من نسائهم؛ لأنها كانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، وجُمعت السلاح والأموال فكانت ألفًا وخمس مئة سيف، وثلاث مئة درع، وألفي رمح، وخمس مئة ترس، وجحفة، وأثاثًا كثيراً، وآنية وجمالاً وشياهًا، فخمس كل ذلك مع النخل والسبي، فأعطى للراجل سهمًا وللفارس ثلاثة أسهم، سهمًا لنفسه وسهمين لفرسه.

وأرسلت السبايا إلى نجد فابتيع بها السلاح، واصطفى النبي ﷺ منها ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، فيقال: إنه تسرَّى بها[١]، ويقال: أعتقها وتزوجها، فتوفيت بعد حجة الوداع[٢].

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة سعد بن معاذ، وكان في خيمة في المسجد النبوي، ليعوده النبي ﷺ من قريب، فمرت عليه شاة فانتقض جرحه، وانفجر من ليلته، فسال الدم الغزير حتى توفي لأجله، وحملت جنازته الملائكة مع المسلمين، واهتز لموته عرش الرحمن[٣].

ومضى على أبي لبابة ست ليال تأتيه امرأته فتحله للصلاة، ثم يعود فيربط نفسه بالجذع، ثم نزلت توبته في بيت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ فبشرته بها، فثار الناس ليطلقوه فأبى حتى يطلقه رسول الله ﷺ، ففعل حين مر به لصلاة الصبح[٤].

---

(١) قاله ابن إسحاق، انظر ابن هشام ٢/٣٤٥.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٢.

(٣) صحيح البخاري ١/٥٣٦، ٥٩١ وصحيح مسلم ٢/٢٩٤ وجامع الترمذي ٢/٢٢٥.

(٤) انظر لتفصيل الغزوتين ابن هشام ٢/٢٣٣ـ٢٧٣ وصحيح البخاري ٢/٥٩٠، ٥٩١ وزاد المعاد ٢/٧٢ـ٧٤.

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

قام المسلمون بعد غزوة بني قريظة بعدة أعمال عسكرية أهمها ما يلي:

مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق

هو تاجر أهل الحجاز، ورئيس يهود خيبر، وأحد كبار المحركين والمؤلبين والممونين للأحزاب على أهل المدينة(1)، فلما تفرغ المسلمون من الأحزاب، وقريظة انتدب لقتله خمسة من رجال الخزرج ليحوزوا شرفًا مثل شرف الأوس حين قتلوا كعب بن الأشرف.

ووصل هؤلاء إلى حصنه في جهة خيبر حين غربت الشمس، فقال قائدهم عبد الله بن عتيك: مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجته، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب.

فدخل عبد الله بن عتيك، وكَمُنَ حتى نام الناس، فأخذ المفاتيح، وفتح الباب ليسهل له الهروب عند الحاجة، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، فكان كلما فتح بابًا أغلقه من داخل حتى لو علم به الناس لا يصلون إليه حتى يقتل أبا رافع، فلما انتهى إلي بيته فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا يدري أين هو، فناداه: يا أبا رافع! قال: من هذا؟ فأهوى نحو الصوت وضربه ضربة بالسيف، وهو دهش، فما أغنت شيئًا، فخرج ثم جاء مَغَيِّراً صوته، كأنه يغيثه، وقال: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه وضربه

(1) انظر فتح الباري ٧/٣٤٣.

ضربة أثخنته، ولم يقتله، فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى أخذ في ظهره، ثم خرج يفتح الأبواب بابًا بابًا، والليل مقمر، وبصره ضعيف، فظن أنه وصل إلى الأرض، فقدم رجله فوقع من السلم، فأصيبت رجله فعصبها بعمامته، واختفى عند الباب، فلما صاح الديك قام رجل على سور الحصن وقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فعرف أنه مات، فأتى أصحابه، ورجعوا، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه ومسح رسول الله ﷺ رجله فكأنه لم يشتكها قط(١).

أسر ثمامة بن أثال سيد اليمامة

كان ثمامة من أشد الناس كراهية لرسول الله ﷺ ولدينه الإسلام حتى خرج متنكرًا في المحرم سنة ٦هـ يريد اغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب(٢) وكان النبي ﷺ قد أرسل محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبًا لتأديب بني بكر بن كلاب في ناحية ضريَّة على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة، فلما كانوا راجعين وجدوا ثُمامة في الطريق فأسروه، وجاءوا به إلى المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فمر به النبي ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه، ثم مر به اليوم الثاني، ودار نفس الحديث، ثم اليوم الثالث كذلك، فقال: أطلقوا ثمامة، فأطلقوه، فاغتسل وأسلم، وقال: والله ما كان على ظهر الأرض من وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان على وجه الأرض من دين أبغض إليَّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليَّ.

وفي العودة ذهب ثمامة إلى مكة معتمرًا فلامته قريش على إسلامه، فقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فلما انصرف

(١) انظر صحيح البخاري ٢/ ٥٧٧.

(٢) السيرة الحلبية ٢/ ٢٩٧.

منع بيع الحنطة لأهل مكة فجهدوا حتى كتبوا إلى النبي ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يسمح ببيع الطعام لهم، ففعل ﷺ(١).

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين كانوا قتلوا المسلمين بالرجيع، وكانوا متوغلين في الحجاز إلى حدود عسفان. فأخَّر رسول الله ﷺ أمرهم، حتى إذا تخاذلت الأحزاب واطمأن من الأعداء استعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخرج إليهم في ربيع الأول سنة ٦هـ، في مئتين من الصحابة ومعهم عشرون فرسًا، وأسرع السير إليهم حتى بلغ بطن غران، واد بين أمج وعسفان، حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم، ودعا لهم، وأقام في ذلك المكان يومين، أما بنو لحيان ففروا في رءوس الجبال، فلم يجد منهم أحداً، وأرسل عشرة فوارس إلى عسفان لتسمع بهم قريش فيدخلهم الرعب، فذهبوا إلى كراع الغميم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع عشرة ليلة.

سرية العيص وإسلام أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ

في جمادى الأولى سنة ٦هـ أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى العيص، في مئة وسبعين راكبًا، يعترضون عيراً لقريش قادمة من الشام، كان يرأسها أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، فأخذها المسلمون، وأخذوا ما فيها، وأسروا رجالها، وأفلت أبو العاص فجاء إلى المدينة، واستجار بزينب، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ أن يرد عليه أموال العير ففعلت، ورد عليه كل شيء، الصغير والكبير والقليل والكثير.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة، فرجع إلى مكة، وأدى الأمانات إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح

(١) صحيح البخاري ح٤٣٧٢ وغيره، فتح الباري ٧/٦٨٨، زاد المعاد ٢/١١٩.

الأول، وذلك بعـد ثلاث سنوات ونيف[1]، ولم تكن آية تحـريم المسلمـات على الكفار نزلت إلى ذلك الوقت، فكان النكاح باقيًا على حاله[2].

هذا، وقد أرسل رسول الله ﷺ عدة سرايا خلال هذه الفترة، كان لها أثر بالغ في كبح جماح العدو، وإخماد شره، واستتباب الأمن وبسط السلام إلى أماكن بعيدة، ثم نقل إليه ﷺ ما أدى إلى قيامه بغزوة بنى المصطلق.

* * *

(١) انظر لذلك سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود: باب: إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

(٢) وممن ذكر هذه السرية في حوادث سنة ٦هـ ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٤٩٨ فانظر للسرايا المذكورة زاد المعاد ٢/ ١٢٠-١٢٢ ورحمة للعالمين ٢/ ٢٢٦.

غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع

بنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وكانت عامة بطون خزاعة ممالئين لرسول الله ﷺ ناصحين له، ولكن كان هذا الفرع منها ممالئًا لقريش، وقد نقل إلى رسول الله ﷺ أنهم يستعدون لقتاله، فبعث بريدة بن الحصيب لتحقيق هذا الخبر، فتأكد لديه صحته، فاستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: غيره، وأسرع في الخروج إليهم، ليباغتهم بالهجوم، ومعه سبع مئة من الصحابة، وكان بنو المصطلق نازلين على ماء يسمى بالمُرَيسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فأغار عليهم وهم غارون(١)، فقتل بعضهم، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وذلك لليلتين من شعبان سنة ٦ هـ، وقيل: ٥ هـ، وكان في السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، فلما قدم ﷺ المدينة أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت، فأعتق المسلمون مئة من أهل بيت بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها(٢).

تلك هي غزوة بني المصطلق بإيجاز، ليس فيها ما يُستغرب، لكن وقعت خلالها حادثتان مؤلمتان استغلهما المنافقون لإثارة الفتن والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وحتى في البيت النبوي:

١ ـ الأولى: قول رأس المنافقين:

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]: وسبب ذلك أن رجلاً من حلفاء المهاجرين وآخر من حلفاء الأنصار ازدحما على ماء

(١) انظر لذلك صحيح البخاري: كتاب العتق ١/٣٤٥ وانظر أيضًا فتح الباري ٥/٢٠٢ و٧/٤٣١.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/١١٢:١١٣، ابن هشام ٢/٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥.

المريسيع، فضرب المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، واجتمع ناس من الطرفين، فبادرهم رسول الله ﷺ وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة»، فعاد الناس إلى رشدهم ورجعوا.

وكانت جماعة من المنافقين قد خرجت في هذه الغزوة لم تخرج من قبل، ومعهم رئيسهم عبد الله بن أبي، فلما بلغه الخبر استشاط غضبًا، وقال: أَوَقَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عُدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمِّن كَلْبك يأكلك، أَمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أراد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ ـ العياذ بالله ـ وأخذ يدبر لذلك الفتن، حتى قال لرفقائه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان معهم حينما قال ما قال شاب مؤمن قوي الإيمان: زيد بن أرقم لم يصبر على هذا الهراء حتى أبلغ الخبر رسول الله ﷺ، فدعا ﷺ ابن أبي، وسأله عن ذلك، فحلف أنه لم يقل شيئًا مما بلغه، فأنزل الله سورة المنافقين، وفضحه إلى يوم الدين[١].

وكان ابن هذا المنافق ـ واسمه أيضًا عبد الله ـ مؤمنًا خالصًا، فوقف على باب المدينة مستلاً سيفه وقال لأبيه رأس المنافقين: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن يأذن له، فخلى سبيله[٢]، وبهذه الحكمة انتهت هذه الفتنة.

---

(١) انظر للتفصيل صحيح البخاري (١/٤٤٩، ٢/٧٢٧-٧٢٩)، وصحيح مسلم حديث (٢٥٨٤)، وجامع الترمذي، حديث (٣٣١٢)، وابن هشام (٢/٢٩٠-٢٩٢).

(٢) ابن هشام (٢/٢٩٢)، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي (ص٢٢٧).

٢ ـ الحادثة الثانية: قول المنافقين بالإفك

وحديث ذلك أن النبي ﷺ نزل في عودته من تلك الغزوة منزلاً حين دنا من المدينة، ثم أذن بالرحيل ليلاً، وكانت معه عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فخرجت لحاجتها، فلما رجعت التمست صدرها فرأت أنها فقدت عِقدها، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه حتى وجدته، وارتحل الجيش، وحملوا هودجها على بعيرها ظنًّا منهم أنها فيه، ولم ينكروا خفة الهودج لكونهم جماعة، ولكونها خفيفة، ورجعت عائشة إلى منازلهم فلم تجد أحداً، فقعدت هناك على أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها إلى هذا المكان فغُلبت عيناها حتى نامت.

وكان أحد الصحابة ـ وهو صفوان بن المعطل السلمي ـ رضي الله عنه ـ قد بات من وراء الجيش، وكان كثير النوم فلم يستيقظ إلا مؤخراً، فسلك سبيل الجيش، فلما تقدم رأى سواد إنسان نائم، فلما قرب منه عرف أنها عائشة؛ لأنه كان رآها قبل الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ لم يقل كلمة غير ذلك، واستيقظت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بسماع صوته، فخمرت وجهها بجلبابها، وقرب صفوان راحلته، وأناخها فركبت، وأمسك هو زمام الناقة يمشي أمامها، حتى وصل إلى الجيش، وهم نازلون نحر الظهيرة.

ولما رأى ذلك عدو الله ابن أبي وجد متنفساً من كرب النفاق والحقد، فاتهمها بالفجور إفكًا وزوراً، وأخذ يستحكي ذلك، ويستوشيه، ويجمعه ويفرقه، ويشيعه ويذيعه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاضوا منه، حتى انخدع عدد من المؤمنين.

ومرضت عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين قدمت المدينة، وطال مرضها نحو شهر، فكانت المدينة تموج بقول أهل الإفك، وهي لا تعلم شيئًا، وإنما كان يريبها أنها لم تكن ترى اللطف الذي كانت تراه من رسول الله ﷺ حين تشتكي، فكان ﷺ يدخل عليها فيسلم ويقول: كيف تيكم؟ ثم يرجع ولا يجلس عندها.

وكان ﷺ طوال هذه الفترة ساكتًا لا يتكلم، فلما استلبث الوحي طويلاً استشار أصحابه فأشار علي بن أبي طالب بفراقها تلويحًا، وأشار أسامة وغيره بإمساكها، وأنها كالتبر الخالص، فقام ﷺ على المنبر واستعذر من رجل بلغ أذاه في أهله ـ وكانت الإشارة إلى عبد الله بن أبي ـ فأظهر سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت الحمية سيد الخزرج، لأن ابن أبي كان منهم، فتثاور الحيان حتى خفضهم رسول الله ﷺ.

وخرجت عائشة ذلك اليوم لحاجتها ليلاً، وقد نقهت من المرض، ومعها أم مسطح فعثرت في مرطها، فدعت على ابنها مسطح، فاستنكرت ذلك عائشة فأخبرتها الخبر، وأن ابنها ممن يقول بقولهم، فرجعت عائشة فاستأذنت رسول الله ﷺ وأتت أبويها، فلما تأكد لديها الخبر جعلت تبكي وتبكي حتى بكت ليلتين ويومًا، لم تكتحل أثناءها بنوم، ولم يرقأ لها دمع حتى ظنت وظن أبواها أن البكاء فالق كبدها.

وجاءها رسول الله ﷺ صباح الليلة الثانية فجلس وتشهد وقال:

أما بعد، يا عائشة! فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

وحينئذ قلص دمعها، وقالت: لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

[يوسف:١٨].

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة! أما الله فقد برأك). فقالت: لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

والذي أنزله الله - تعالى - في براءتها عشر آيات في سورة النور قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [النور:١١] إلى آخر الآية العشرين.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله من براءتها فلما نزل أمر برجلين وامرأة من المؤمنين الخالصين فجلدوا، كل واحد ثمانين جلدة، وهم: حسان بن ثابت: ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، زلت أقدامهم فأفضوا في الإفك، وأما رأس المنافقين الذي تولى كبره، ورفقته، فلم يعاقبوا في هذه الحياة الدنيا(١)، ولكنهم سيقفون بين يدي الله يوم الدين، **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

* * *

(١) انظر للتفصيل صحيح البخاري ١/٣٦٤، ٢/٦٩٦-٦٩٨، وزاد المعاد ٢/١١٣-١١٥، وابن هشام ٢/٢٩٧-٣٠٧.

عمرة الحديبية

الخروج للعمرة والنزول بالحديبية

أُري رسول الله ﷺ في المنام، وهو في المدينة أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلِّقين رءوسهم ومقصرين، فأخبر بذلك المسلمين، وأخبر أنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حوله، فأبطأوا، وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وتخلصوا قائلين: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ٦هـ، في ألف وأربع مئة من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لم يخرج محاربًا لكنْ معتمراً. فلما بلغ ذا الحُليفة قلَّد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة.

ثم سار حتى بلغ عسفان، فجاءه عينه، وأخبره أن قريشًا مجمعون على القتال، وصد المسلمين عن البيت الحرام، وكانت قريش قد نزلوا بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مئتي فارس إلى كراع الغميم، قريبًا من عسفان، ليسد الطريق النافذ إلى مكة، وجمعوا الأحابيش ليعينوهم، فاستشار رسول الله ﷺ هل يهاجم المجتمعين من الأحابيش، أو يقصد البيت، فمن صده يقاتله؟ فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: جئنا معتمرين، لا مقاتلين، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقبل النبي ﷺ هذا الرأي.

ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر، وهم يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم، ثم قرر أن يهجم أثناء صلاة العصر، فأنزل الله صلاة الخوف بين الظهر والعصر ففاتته الفرصة.

وأخذ رسول الله ﷺ طريقًا آخر غير طريقهم فسلك ذات اليمين من أسفل مكة حتى بلغ ثنية المرَّار مهبط الحديبية، فلما بلغها بركت ناقته، فزجرها فلم تقم فقالوا: خلأت القصواء، فقال: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فتقدم حتى نزل بالحديبية.

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ـ وكانوا ناصحين لرسول الله ﷺ فأخبره، أن قريشًا مستعدون لقتاله وصده عن البيت الحرام، فأخبره رسول الله ﷺ أنه ما جاء إلا للعمرة، وما جاء للقتال، وأنه مستعد للهدنة وللصلح، ولكن إن أبت قريش إلا القتال فإنه يقاتلهم حتى تقطع عنقه، أو ينفذ الله أمره.

بين رسول الله ﷺ وقريش

ولما رجع بديل أبلغ ذلك قريشًا، فأرسلوا مكرز بن حفص، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل، فأرسلوا سيد الأحابيش: الحليس بن عكرمة، فلما أشرف على المسلمين قال لهم رسول الله ﷺ: هذا من قوم يعظمون الهدي فابعثوا الهدي في وجهه، ففعلوا واستقبلوه يلبون، فلما رأى الحليس ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، أتحج لخم وجذام وحمير، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكت قريش ورب البيت، إن القوم أتوا معتمرين، فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا: اجلس إنما أنت أعرابي، لا علم لك بالمكايد.

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، فجاء وتكلم، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل، فقال: أي محمد! أرأيت لو استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى أي الهزيمة لك فإني أرى حولك أوباشًا من الناس جديرون أن يتركوك ويفروا، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه! فلم يستطع أن يرد على أبي بكر، لإحسان أبي بكر إليه من قبل.

وكان عروة يأخذ لحية النبي ﷺ ـ حين يتكلم، فكان المغيرة بن شعبة يضرب يده بنعل السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فقال له عروة: أي غدر! ألست أسعى في غدرتك؟.

وكان المغيرة ابن أخي عروة، وكان قتل قوماً وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فلم يقبل منه رسول الله ﷺ إلا الإسلام، وكان عروة يسعى في ذلك؛ فأشار بغدرته إلى هذه القضية.

ورأى عروة تعظيم الصحابة للنبي ﷺ فلما رجع قال لقريش: أي قوم! لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وخلال المفاوضات تسلل في الليل طائفة من شباب قريش الطائشين: سبعون أو ثمانون، فهبطوا من جبل التنعيم إلى معسكر المسلمين، وأرادوا بذلك القضاء على محاولات الصلح، ولكن المسلمين ألقوا عليهم القبض، ثم أطلقهم النبي ﷺ وعفا عنهم، فكان له أثره على إلقاء الرعب في قلوب قريش، وميلهم إلى الصلح، وفي ذلك أنزل الله قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾** [الفتح: ٢٤].

عثمان بن عفان رسولاً إلى قريش وبيعة الرضوان:

وحينئذ قرر رسول الله ﷺ إرسالَ رسول إلى قريش يؤكد لهم أنه ما جاء إلا للعمرة، فأرسل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وأمره أيضاً أن يأتي المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح، وأن الله مظهر دينه حتى لا يستخفي في مكة أحد بالإيمان.

ودخل عثمان ـ رضي الله عنه ـ في مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي، فبلغ الرسالة وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فأبى أن يطوف ورسول الله ﷺ ممنوع.

وحبست قريش عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولعلهم أردوا أن يتشاوروا فيما بينهم، ثم يرسلوه مع الجواب وشاع بين المسلمين أنه قتل. وقتلُ الرسول يعني الإعلان عن الحرب، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك قال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس وهو تحت شجرة، أن يبايعوه على القتال، فثار الناس إليه، وبايعوه ـ بحماس ـ على الموت، وعلى أن لا يفروا، وأخذ رسول الله ﷺ إحدى يديه بالأخرى، وقال: هذه عن عثمان، ولما انتهت البيعة جاء عثمان ـ رضي الله عنه ـ. وأنزل الله في فضل هذه البيعة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]. ومن هنا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

عقد الصلح

وسمعت قريش بهذه البيعة فداخلهم رعب عظيم، وأسرعوا بإرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فجاء، وتكلم طويلاً حتى قبل منه رسول الله ﷺ الشروط الآتية:

١ ـ أن الرسول ﷺ يرجع مع المسلمين هذا العام، ولا يدخل مكة، ويدخلها العام القابل، فيقيم بها ثلاثة أيام، ولا يكون معه من السلاح إلا السيف في القراب.

٢ ـ توضع الحرب بين الفريقين عشر سنين.

٣ ـ من أراد أن يدخل في عهد محمد ﷺ دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

٤ ـ من التجأ من قريش إلى المسلمين يرده المسلمون إلى قريش، ومن التجأ من المسلمين إلى قريش لا ترده قريش إلى المسلمين.

ثم دعا عليًّا وأملى عليه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: ما ندري ما الرحمن. اكتب: باسمك اللهم، فأمره رسول الله ﷺ أن يكتب ذلك، ثم أملى: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال: إني رسول الله وإن كذبتموني. وأمر عليًّا أن يمحو ذلك، ويكتب محمد بن عبد الله، فامتنع علي عن المحو، فمحاه ﷺ بيده الشريفة، وكُتِبَتْ نسختان، نسخة لقريش، ونسخة للمسلمين.

قضية أبي جندل والنساء المهاجرات

وبينما الكتاب يكتب جاء أبو جندل - وهو ابن سهيل بن عمرو؛ ممثل قريش في هذا الصلح - وهو يحجل في قيوده، فطلب سهيل رده، فقال النبي ﷺ إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: إذن لا أقاضيك، فقال ﷺ: «فأجزه لي» قال: لا. وضرب سهيل أبا جندل، وصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال ﷺ: «اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»، وأغرى عمر بن الخطاب أبا جندل ليقتل أباه سهيلاً فلم يفعل.

حل المسلمين من العمرة وحزنهم على قضية الصلح

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال للمسلمين: قوموا فانحروا، فما قام أحد. حتى قالها ثلاث مرات، فما قام أحد، فدخل على أم سلمة وذكر لها ذلك، فأشارت أن يقوم فينحر بُدْنَه ويحلق رأسه، ولا يكلم أحداً، ففعل، وقد نحر جملاً لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، فلما رأى الناس قاموا فنحروا وحلقوا، وكاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وقد نحروا الجمل أو الناقة عن سبعة والبقرة عن سبعة.

وعلى إثر ذلك جاءت نسوة مؤمنات فامتنع عن ردهن كما سيأتي.

وكان حزن المسلمين لسببين اثنين: الأول رجوعهم بغير عمرة، والثاني عدم المساواة بين الطرفين؛ فالمسلمون يردون من جاء إليهم، وقريش لا يردون، فطمأنهم رسول الله ﷺ عن الأول بأنهم سوف يعتمرون العام القادم، فالرؤيا صادقة، وفي هذا الجزء من الصلح مراعاة لمشاعر الفريقين، وطمأنهم عن الثاني بأن من ذهب منا إليهم فقد أبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

وكان قوله ﷺ هذا مبنيًا على نظره البعيد، فإن جماعة من المسلمين لما تَنَزَّلْ في الحبشة، ولم يكن ينطبق عليهم هذا العهد، فكان يمكن اللجوء إليهم للمحبوسين في مكة، لكن ظاهر العهد كان في صالح قريش، فلم يزل له أثر شديد في أعماق مشاعر المسلمين، حتى جاء عمر بن الخطاب، وقال: يارسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبدًا.

ثم انطلق عمر متغيظًا إلى أبي بكر فقال له ما قال لرسول ﷺ، وأجابه أبو بكر بما أجاب به رسول الله ﷺ. ثم قال لعمر: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم أنزل الله ـ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] الآيات. فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقراه إياها فقال: يا رسول الله! أَوَفَتْحٌ هو؟ قال: نعم: فطابت نفسه، ورجع.

ثم ندم عمر ما فرط منه فعمل لأجله أعمالاً: لم يزل يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق حتى رجا الخير.

قضية النساء المهاجرات

وبعد إبرام الصلح، والحل من العمرة، جاءت نسوة مؤمنات فطلب أولياؤهن الكفار من رسول الله ﷺ أن يردهن، فامتنع عن ذلك، بدليل أنهن لم يدخلن في العهد، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فحرم المؤمنات على الكفار، والكافرات على المؤمنين.

فكان رسول الله ﷺ يمتحن هؤلاء المهاجرات بما أُمر به في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]. فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتك ـ كلامًا دون مصافحة ـ ولم يكن يردهن، وطلق المسلمون أزواجهم الكافرات، وفرقوا بين المسلمات وأزواجهن الكفار.

دخول خزاعة في عهد المسلمين وحل قضية المستضعفين

واختارت خزاعة أن يكونوا مع رسول الله ﷺ في هذا الميثاق فدخلوا في عهده ـ وقد كانوا حلفاء بني هاشم من زمن الجاهلية ـ ودخلت بنو بكر في عهد قريش فكانوا هم السبب في فتح مكة، وسيأتي.

أما المسلمون المعذبون في مكة، فانفلت منهم رجل اسمه أبو بصير، وجاء إلى المدينة، فأرسلت قريش رجلين إلى النبي ﷺ ليرده، فرده، فلما نزل بذي الحليفة قتل أبو بصير أحدهما وفر الآخر حتى انتهى إلى النبي ﷺ، وقال: قتل صاحبي وإني لمقتول. وجاء أبو بصير فزجره النبي ﷺ، فعرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى

أتى سيف البحر، أي ساحله، وانفلت أبو جندل فلحق به، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق به، حتى اجتمعت منهم جماعة، وأخذت تعترض كل عير لقريش تخرج إلى الشام، فتهجم عليها وتأخذ أموالها، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم أن يستقدمهم إلى المدينة، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل إليهم فقدموا، وانحلت المشكلة(١).

أثر الصلح

كان لهذا الصلح أثر كبير في تسيير الدعوة الإسلامية، فقد وجد المسلمون فرصة اللقاء بعامة العرب ودعوتهم إلى الله، فدخل الناس في الإسلام بكثرة، وبلغ عددهم في عامين ما لم يبلغ خلال تسعة عشر عاماً، وقد جاء كبار قريش وخلاصتها: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة إلى رسول الله ﷺ، طائعين راغبين، يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويبايعونه على الإسلام، ويبذلون له كل ما يملكون من غالٍ ورخيص، ويفْدونه بالنفوس والأرواح والمواهب، والقدرات، وقد قال رسول الله ﷺ، حينما جاءوا: «إن مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

* * *

(١) انظر لتفصيل عمرة الحديبية وصلحها صحيح البخاري ١/٣٧٨-٣٨١، ٢/٥٩٨، ٦٠٠، ٧١٧ وصحيح مسلم ٢/١٠٤-١٠٦ وفتح الباري ٧/٤٣٩-٤٥٨ وابن هشام ٢/٣٠٨-٣٢٢ وزاد المعاد ٢/١٢٢-١٢٧ وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٣٩، ٤٠.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتمًا من فضة، نقشه: محمد رسول الله، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، رسول سطر، والله سطر، هكذا: (١).

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وفيما يلي نصوص هذه الكتب، وبعض ما نتج عنها:

١ ـ كتابه ﷺ إلى النجاشي: أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة، كتب فيه.

«هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة.

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤]. فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك».

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فلما أخذه النجاشي وضعه على عينيه، ونزل عن السرير، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي ﷺ:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح البخاري ٢/٨٧٢، ٨٧٣.

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت فروقًا، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[١].

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخيبر[٢]. وتوفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتابًا آخر. ولا يُدْرَى هل أسلم أم لا؟[٣].

٢ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر

وكتب النبي ﷺ إلى جريج بن متَّى[٤] الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا**

(١) زاد المعاد ٣/ ٦١.

(٢) ابن هشام ٢/ ٣٥٩.

(٣) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢/ ٩٩.

(٤) هذا على رأي العلامة المنصور فوري في كتابه رحمة للعالمين ١/ ١٧٨، وقال الدكتور حميد الله: «إن اسمه بنيامين». انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكى ص١٤١

﴿نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤](١).

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلي الإنجيل، فكل نبي أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حق من عاج، وختم عليه، ودفع إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم» لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد

(١) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٦١، والذي أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص، ففيه: «فأسلم تسلم يؤتك الله» إلخ، وفيه: «إثم القبط» بدل قوله: «إثم أهل القبط». انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكي ص١٣٦، ١٣٧.

علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دلدل، بقيت إلى زمن معاوية(١)، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري.

٣ ـ الكتاب إلى كسرى ملك فارس

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلي الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولا ندري هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجالاته، أم بعث عبد الله السهمي، وأيًّا ما كان فلما قُرِئَ الكتاب على كسرى مزقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: مزق الله ملكه، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى بَاذَان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فليأتياني به. فاختار بَاذَان رجلين ممن عنده، أحدهما: قهرمانه بانويه، وكان حاسبًا كاتبًا بكتاب فارس. وثانيهما: خرخسرو من الفرس(٢)، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن

(١) زاد المعاد ٣/ ٦١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧.

ينصرف معه إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ، قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتنطلق معي، وقال قولاً توعده فيه، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقياه غداً.

وفي ذلك الوقت كان قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع[1]، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك. فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر. وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء، فخرجا من عنده حتى قدما على بَاذَان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري.

وكان ذلك سبباً في إسلام بَاذَان ومن معه من أهل فارس باليمن[2].

٤ ـ الكتاب إلى قيصر ملك الروم

روى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت

(١) فتح الباري ٨/١٢٧، وتاريخ ابن خلدون ٢/٣٧.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤٧، فتح الباري ٨/١٢٧، ١٢٨.

فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤][١].

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء[٢]، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه.

ثم قال: أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل

(١) صحيح البخاري ١/ ٤، ٥.

(٢) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيلياء - بيت المقدس - من حمص، شكراً لما مَنَّ الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٢/ ٩٩)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز، وصالحوا الروم على تسليم جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر، وردوا إليه الصليب الذي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أي سنة ٧هـ) يضع الصليب في موضعه، ويشكر الله على هذا الفتح المبين.

أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ـ قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة ـ قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابه حين أخرجنا: لقد أمِرَ

أمْر ابن أبي كبشة(١)، إنه ليخافه ملك بني الأصفر(٢)، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام(٣).

هذا ما رآه أبو سفيان من إثر هذا الكتاب على قيصر، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة الكلبي، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئًا، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته، فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى، وهي وراء وادي القرى، في خمس مئة رجل، فشن زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلاً ذريعًا، واستاق نعمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، والسبي مئة من النساء والصبيان.

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي ﷺ احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبي.

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديبية، وهو خطأ واضح، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية. ولذا قال ابن القيم: هذا بعد الحديبية بلا شك(٤).

---

(١) أبو كبشة هو وجز بن غالب الخزاعي جد وهب بن عبد مناف من جهة الأم، ووهب هو جد النبي ﷺ من جهة الأم، كان أبو كبشة مشركًا فذهب إلى الشام فتنصر، فلما خالف النبي ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعيير (دلائل النبوة للبيهقي ١/٨٢، ٨٣، والسيرة النبوية لأبي حاتم ص٤٤). ويقال: إن أبا كبشة كنية لزوج السيدة حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ فهو أبوه من الرضاعة فكانوا ينسبونه إليه تصغيراً. والله أعلم.

(٢) بنو الأصفر هم الروم.

(٣) صحيح البخاري ١/٤، وصحيح مسلم ٢/٩٧-٩٩.

(٤) انظر زاد المعاد ٢/١٢٢، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص٢٩.

٥ ـ الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمرك، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»(١).

٦ ـ الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة

وكتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك.

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامري، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختومًا أنزله وحياه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه ردًا دون رد،

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١، ٦٢، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخذاً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف في كلمة واحدة، ففيه «لا إله غيره» بدل قوله: «لا إله إلا هو».

وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله!، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه. فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبي ﷺ: أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى، يقتل بعدي، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال: أنت وأصحابك، فكان كذلك(١).

٧ ـ الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق

كتب إليه النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك»، واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب رمى به وقال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه، ولم يسلم(٢). واستأذن قيصر في حرب رسول الله ﷺ فثناه عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، ورده بالحسنى.

٨ ـ الكتاب إلى ملك عمان

وكتب النبي ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابني الجلندي، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد. فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول

---

(١) زاد المعاد ٣/٦٣.

(٢) نفس المصدر ٣/٦٣، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤٦.

على الكافرين. فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما [أن تقرا بالإسلام] فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه. قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقًا - فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه. قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد حوار جرى بينهما سأله عبد عما يأمر به النبي ﷺ. فقال: يأمر بطاعة الله وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم. وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه!، ولو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا - تابعًا -.

قال عمرو: إن أسلم أخوك مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، فقال: إن هذا لخلق حسن، ثم سأله عن الصدقة فأخبره بتفاصيلها، فلما ذكر المواشي قال: ما أرى قومي يرضون بهذا.

ثم إن عبداً أوصل عمراً إلى أخيه جيفر فأعطاه الكتاب فقرأه، ثم أعطاه لأخيه، وسأل عمر عما فعلته قريش. فأخبره أنهم أسلموا، وأنه إن أسلم يسلم، وإلا وطئته الخيل وتبيد خضراءه، وأرجأ جيفر أمره إلى غد، فلما كان الغد أبدى القوة والصمود، ولكنه خلا بأخيه واستشاره، فلما كان بعد الغد أسلم هو وأخوه، وخليا بين عمرو وبين أخذه الصدقة، وكانا عونًا على من خالفه(١).

(١) لينظر التفصيل في زاد المعاد ٣/٦٢، ٦٣.

أرسل هذا الكتاب إلى عبد وجيفر بعد فتح مكة. وأما بقية الكتب فقد أرسلت بعد عودته ﷺ من الحديبية.

* * *

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاح رسول الله ﷺ.

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل خيبر، ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث، وروى ذلك مسلم مسنداً من حديث سلمة بن الأكوع. وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية، وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي[1].

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح، وأنا معه بفرس أبي طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه أبا طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ، ثم قمت على أكمة، واستقبلت المدينة، فناديت ثلاثا: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

[خذها] أنا ابن الأكوع والیوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلي فارس جلست في أصل الشجرة، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا في تضايق الجبل علوته، فجعلت

---

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة ذات قرد ٢/٣٠٦، وصحيح مسلم: باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢/١١٣-١١٥، وفتح الباري ٧/٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، وزاد المعاد ٢/١٢٠ ويدل على تأخر هذه الغزوة عن الحديبية حديث آخر رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري: كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها (ح٤٧٥ (١٣٧٤) ٢/١٠٠١).

أرديهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه. حتى أتوا متضايقًا من ثنية، فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قرن، فصعد إليّ منهم أربعة في الجبل، قلت: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر. فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبد الرحمن وأخرم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، فتبعتهم أعدو على رجلي، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجليتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقني رسول الله ﷺ والخيل عشاء، فقلت: يا رسول الله إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مئة رجل استنقذت ما عندهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: يا ابن الأكوع ملكت فاسجح، ثم قال: إنهم ليقرون الآن في غطفان.

وقال رسول الله ﷺ: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة. وأعطاني سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة.

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو(١).

* * *

(١) انظر المصدرين السابقين، وزاد المعاد ٢/١٢٠.

غزوة خيبر

وفي المحرم سنة سبع من الهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، وجاء من تخلف عن الحديبية ليؤذن له فنادى في الناس أن لا يخرجوا معه إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا يعطى لهم منها شيء. فلم يخرج معهم إلا أصحاب الشجرة، وكانوا ألفًا وأربع مئة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري(١).

ثم سلك الادة المعروفة الموصلة إلى خيبر، حتى إذا كان في منتصف الطريق تقريبًا اختار طريقًا آخر يوصله إلى خيبر من جهة الشام ليحول بينهم وبين فرارهم إلى الشام.

وبات الليلة الأخيرة قريبًا من خيبر، ولم تشعر به اليهود، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، ثم ركب هو والمسلمون متجهين إلى مساكن خيبر، أما اليهود فقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ليعملوا في أرضهم وهم لا يعلمون، فلما رأوا الجيش رجعوا هاربين يقولون: محمد، والله محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»(٢).

وخيبر على بعد ١٧١ كيلو مترًا شمالي المدينة وكانت سكانها منقسمة إلى ثلاثة أشطر: النطاة، والكثيبة، والشق، فالنطاة ثلاثة حصون: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير. والشق حصنان: حصن أبي، وحصن النزار. والكثيبة ثلاثة حصون: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن

(١) انظر زاد المعاد ٢/١٣٣ فتح الباري ٧/٤٦٥.

(٢) انظر صحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٣، ٦٠٤.

السلالم، وكانت في خيبر حصون وقلاع أخرى صغيرة لم تكن تبلغ مبلغ هذه الحصون في القوة والمنعة.

فتح النطاة

عسكر رسول الله ﷺ شرقي حصون النطاة بعيداً عن مدى النبل، وبدأ القتال بفرض الحصار على حصن ناعم، وكان حصنًا منيعًا، رفيعًا صعب المرتقى، وكان خط الدفاع الأول لليهود، وفيه بطلهم مرحب الذي كان يعد بألف رجل، فوقعت المراماة بين الفريقين أيامًا. ثم بشرهم رسول الله ﷺ بالفتح، وقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنى أن يعطاها، فلما أصبح قال: أين علي؟ قالوا: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرئ، كأن لم يكن بها وجع، فأعطاه الراية، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم[1].

وكان اليهود قد نقلوا نساءهم وذراريهم إلى حصن الشق ليلاً، وقرروا البروز للقتال في ذلك الصباح، فلما ذهب إليهم علي ـ رضي الله عنه ـ وجدهم متجهزين للقتال، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورفضوا، ودعا مرحبًا إلى المبارزة، وهو يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب　　　شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عامر بن الأكوع، وهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر　　　شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فذهب عامر ليتناول بسيفه ساق اليهودي، وكان سيفه قصيراً، فلم يصل إليه، بل رجع إلى عامر فأصاب

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٥، ٦٠٦.

ركبته فمات بسببه فيما بعد، فقال النبي ﷺ فيه: إن له لأجرين، إنه لجاهد مجاهد وقل عربي مشى بها ـ أي بالأرض ـ مثله.

أما مرحب فبرز له علي وهو يرتجز:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهمُ بالصاع كيل السندره

وضرب رأس مرحب فقتله(1)، ثم خرج أخوه ياسر يدعو إلى المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام، وألحقه بأخيه، ثم دار القتال المرير، قتل فيه عدد من سراة اليهود، وانهارت معنوياتهم، فانكشفوا عن مواقفهم، وتبعهم المسلمون حتى دخلوا الحصن بالقوة، وانهزم اليهود إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن الصعب، وقد غنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الطعام والتمر والسلاح.

ثم حاصر المسلمون حصن الصعب تحت قيادة الحباب بن المنذر، ودام الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ بالفتح والغنيمة، ثم ندب المسلمين بالهجوم فهاجموا بشدة، ووقع البراز والقتال، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة اليهود، وافتتح المسلمون الحصن قبل أن تغرب الشمس، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام، وكان أكثر الحصون طعامًا وودكًا، وأعظمها غناء للمسلمين، وكان المسلمون قبل ذلك في مجاعة شديدة حتى ذبح ناس الحُمُر، فنهى رسول الله ﷺ عن لحومها، وأمر بالقدور فأكفئت، وهي منصوبة على النيران تطبخ فيها تلك اللحوم.

ولاذ اليهود بقلعة الزبير وتحصنوا فيها، وهي ثالث الحصون وآخرها في شطر النطاة، أما المسلمون ففرضوا عليهم الحصار، وفي اليوم الرابع دل يهودي على

(1) صحيح مسلم، باب: غزوة خيبر ٢/١٢٢، وباب غزوة ذي قرد وغيرها ٢/١١٥، وصحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٣.

جداول ماء كان يستقي منها اليهود؛ فقطعها المسلمون عنهم، فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزموا إلى شطر الشق وتحصنوا بحصن أُبي.

فتح الشق

وتبعهم المسلمون حتى حاصروهم، فخرجوا مستعدين لأشد القتال، وبرز أحد أبطالهم يطلب المبارزة فقتل. ثم برز آخر فقتل، قتله أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما قتله أسرع إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه المسلمون، فجرى القتال داخل القلعة ساعة، ثم فر اليهود إلى الحصن الثاني: حصن النزار، وهو آخر الحصنين في هذا الشطر، وغنم المسلمون في حصن أبي أثاثًا كثيراً ومتاعًا وغنمًا وطعامًا.

ثم تقدموا وحاصروا حصن النزار، وكان على رأس جبل لا سبيل إليه، وقد تمنَّع أهله أشد التمنع، وكانوا على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحامه، ولذلك أقاموا فيه مع الذراري والنساء، وقاوموا أشد المقاومة، رميًا بالنبل والحجارة، فنصب المسلمون المنجنيق، فوقع في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى شطر الكتيبة دون أن يعانوا شدة تذكر، ووجد المسلمون غنائم فيها أواني من نحاس وفخار فقال ﷺ اغسلوها واطبخوا فيها.

فتح الكثيبة:

وتقدم المسلمون إلى حصن القموص، أول حصون الكثيبة، فحاصروه أربعة عشر يومًا أو عشرين يومًا.

ثم يقال: إن اليهود طلبوا الأمان.

ويقال: إن المسلمين فتحوا الحصن عنوة، وفر اليهود إلى الحصنين الباقيين: الوطيح والسلالم، فلما سار إليهما المسلمون ليحاصروهما طلب اليهود الأمان على أن يخرجوا من خيبر وأراضيها بنسائهم وذراريهم، فعاهدهم على ذلك، وسمح لهم أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم[1]، إلا الصفراء والبيضاء - أي

---

(١) انظر لذلك سنن أبي داود: باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٢/٧٦.

الذهب والفضة ـ والكراع والحلقة ـ أي الخيل والسلاح، وتبرأ منهم الذمة إن كتموا شيئًا، ثم سلموا الحصون الثلاثة أو الحصنين، فغنم المسلمون مئة درع، وأربع مئة سيف، وألف رمح، وخمس مئة قوس عربية، وصحفًا من التوارة أعطوها لمن طلبها.

وغدر بالعهد كنانة بن أبي الحقيق وأخوه فغيبا كثيراً من الذهب والفضة والجواهر، فبرئت منهما الذمة، وقتلا لغدرتهما، كانت صفية بنت حيي بن أخطب تحت كنانة، فجعلت في السبي.

قتلى الفريقين

وبلغ عدد القتلى من اليهود ثلاثة وتسعين قتيلاً، أما المسلمون فقيل: ١٥، وقيل: ١٦، وقيل: ١٨

قدوم مهاجري الحبشة وأبي هريرة وأبان بن سعيد

ولما رجع مهاجرو الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، اتجه طائفة منهم إلى خيبر، وهم ستة عشر رجلاً فيهم جعفر بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، فوافوا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، وقبل أن يقسمها، فقبل جعفراً وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»(١)، ولما قسم خيبر أعطاهم من الغنيمة(٢)، وأما بقية مهاجري الحبشة فذهبوا مع نسائهم وذراريهم إلى المدينة رأسًا.

ووافاه أيضًا بخيبر بعد أن تم الفتح أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وكان قد جاء إلى المدينة بعد خروجه ﷺ إلى خيبر، فأسلم، ثم استأذن وخرج إلى خيبر، فأعطاه رسول الله ﷺ من غنيمة خيبر.

---

(١) زاد المعاد ٢/١٣٩، المعجم الصغير للطبراني ١/٩١.

(٢) صحيح البخاري ١/٤٤٣ وانظر أيضًا فتح الباري ٧/٤٨٤-٤٨٧.

ووافاه بعد الفتح أبان بن سعيد، وكان قد خرج بسرية إلى نجد، فلما قضى مهمته جاء إلى خيبر، ولم يعط له ولأصحابه من غنيمة خيبر(١).

قسمة خيبر

ولما حصل اليهود على الأمان جاءوا باقتراح جديد قبل أن يتم جلاؤهم. قالوا: يا محمد! دعنا في هذه الأرض، نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم، وتعطينا نصف ما يخرج منها من الثمر والزرع، فرضي بذلك على أن يجليهم منها متى شاء. فبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين سلكوا طريق الشر والخبث.

وقسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، كل سهم مجموعه مئة سهم، فعزل منها النصف، وهو ثمانية عشر سهمًا لنوائب المسلمين، وقسم النصف الباقي، وهو أيضًا ثمانية عشر سهمًا، على الغزاة، فأعطى للراجل سهمًا، وللفارس ثلاثة أسهم، سهمًا له وسهمين لفرسه، وكان الفوارس مئتين فصارت لهم ستة أسهم، والرجّالة ألفًا ومئتين فصار لهم اثنا عشر سهمًا(٢).

وكانت خيبر غنية بالتمر والطعام، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر، ورد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم من النخيل بعدما رجعوا من خيبر إلى المدينة(٣).

شاة مسمومة

وبعدما عاد الهدوء، وذهب الخوف عاد اليهود إلى خبثهم، وتآمروا على قتل النبي ﷺ فأهدوا إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة بواسطة امرأة سلام بن مشكم:

---

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/١٣٧، ١٣٨.

(٣) انظر صحيح البخاري ٢/٦٠٩، وصحيح مسلم ٢/٩٦، وزاد المعاد ٢/١٤٨.

أحد كبرائهم، وقد علمت أن رسول الله ﷺ يعجبه الذراع فأكثرت السم فيه، وتناول منه رسول الله ـ ﷺ ولاكها ثم لفظها وقال: إنها شاة مسمومة، وسأل المرأة واليهود فاعترفوا بجريمتهم، وقالوا: قلنا: إن كان ملكًا نستريح منه، وإن كان نبيًّا لا يضره، فعفا عنهم وعن المرأة، ثم إن بشر بن البراء بن معرور مات من أجل هذا السم فأمر بقتل المرأة قصاصًا(١).

استسلام أهل فدك

كان رسول الله ﷺ قد أرسل محيصة بن مسعود إلى يهود فدك بعد وصوله إلى خيبر؛ ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما سمعوا بفتح خيبر داخلهم الرعب، وطلبوا أن يعامل بهم معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت أرض فدك خالصة لرسول الله ﷺ. ينفق منها على نفسه، ويعول صغير بني هاشم ويزوج أيمهم(٢).

وادي القرى

وسار رسول الله ﷺ بعد خيبر إلى وادي القرى، ودعا أهلها ـ وهم يهود ـ إلى الإسلام، فلم يسلموا ولم يستسلموا، وخرجوا للقتال، وبرز منهم رجل فقتله.

* * *

(١) انظر صحيح البخاري ١/٤٤٩، ٢/٦١٠، ٨٦٠، وفتح الباري ٧/٤٩٧، وابن هشام ٢/٣٣٧، ٣٣٨، وزاد المعاد ٢/١٣٩، ١٤٠.

(٢) ابن هشام ٢/٣٣٧، ٣٥٣.

غزوة ذات الرقاع

ولما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، واطمأن بالمدينة سمع بتجمع البدو من بني أنمار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم في أربع مئة أو سبع مئة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل، على بعد يومين من المدينة، ولقي جمعًا من غطفان، فتقاربوا وأخاف بعضهم بعضًا، ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف، وفي رواية البخاري: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا؛ وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبي ﷺ أربع، وللقوم ركعتان(١).

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا(٢).

وفيه عن جابر: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ فتفرق الناس في الأذى، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا،

(١) صحيح البخاري ١/٤٠٧، ٤٠٨، ٢/٥٩٣.

(٢) صحيح البخاري: باب غزوة ذات الرقاع ٢/٥٩٢، وصحيح مسلم: باب غزوة ذات الرقاع ٢/١١٨.

فإذا عنده أعرابي جالس. فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا. فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ. وفي رواية أبي عوانة: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال الأعرابي: لا، ولكني أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى سبيله، فجاء إلى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس[١].

وفي رواية البخاري: قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث ابن الحارث[٢] قال ابن حجر: ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور، وأنه أسلم: لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين. والله أعلم[٣].

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيئة للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عباداً، وهو قائم يصلي، بسهم فنزعه. ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله هلا نبهتني، قال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها[٤].

وقد استكانت الأعراب بعد هذه الغزوة حتى أسلموا واشتركوا في فتح مكة وغزوة حنين وغيرهما.

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٦٤، وانظر فتح الباري ٧/٤١٦.

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٩٣.

(٣) فتح الباري ٧/٤٢٨.

(٤) زاد المعاد ٢/١١٢، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٠٣ إلى ٢٠٩، زاد المعاد ٢/١١٠-١١٢، فتح الباري ٧/٤١٧ إلى ٤٢٨.

أمرهم بذلك ليري المشركين قوته[1] كما أمرهم بالاضطباع، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون ـ وقد صف المشركون ينظرون إليه ـ فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف:

خلوا بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله	إني رأيت الحق في قبوله
بأن خير القتل في سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله[2]

وفي حديث أنس فقال عمر: يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[3].

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[4].

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي. وقد وقف الهدي عند المروة، قال: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون. ثم بعث ناسًا إلى يأجج، ليقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

---

(١) صحيح البخاري ١/٢١٨، ٢/٦١٠، ٦١١، صحيح مسلم ١/٤١٢.

(٢) اضطربت الأشعار وترتيبها في الروايات فجمعنا بين شتيتها.

(٣) رواه الترمذي، أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر ٢/١٠٧.

(٤) صحيح مسلم ١/٤١٢.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليًّا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، ونزل بسرف فأقام بها.

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة، تنادي، يا عم يا عم، فتناولها عليّ، واختصم فيها عليّ وجعفر وزيد، فقضى النبي ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها كانت تحته.

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلّف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبنى بها بسرف(١).

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء، إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون(٢). وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح(٣).

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا أهمها سرية مؤته، فإليك ذكرها.

* * *

(١) زاد المعاد ٢/ ١٥٢.

(٢) انظر زاد المعاد ١/ ١٧٢، فتح الباري ٧/ ٥٠٠.

(٣) انظر نفس المصدر الأخير.

معركة مؤتة

[جمادى الأولى سنة ٨هـ]

سبق في ذكر كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء أن شرحبيل بن عمرو الغساني كان قد قتل الحارث بن عمير ـ رضي الله عنه ـ، حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ اشتد عليه، فجهز جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة[1]، وعقد لواءً أبيضَ حمله زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير فيدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلوهم، وقال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، فاقتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً، ولا شجرة، ولا تهدموا بناءً[2].

وشيع الجيش إلى ثنية الوداع، ثم ودعه، فسار الجيش حتى نزل معان ـ بجنوب الأردن ـ فبلغهم أن هرقل نازل بمآب في مئة ألف من الروم. وانضم إليهم من متنصرة العرب مئة ألف. فتشاوروا ليلتين هل يكتبون ذلك إلى رسول الله ﷺ ويطلبون منه المدد، أو يقدمون على الحرب؟ فشجعهم ابن رواحة بأن الذي تكرهونه ـ وهي الشهادة ـ إنما خرجتم تطلبونه. ونحن ما نقاتل بعدد ولا قوة

---

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/٦١١، وفتح الباري ٧/٥١١، وزاد المعاد ٢/١٥٥.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص٣٢٧، وأصل الحديث مروي في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجة وغيرها.

وكثرة، إنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. وما هي إلا إحدى الحسنيين، إما الظهور وإما الشهادة، فقالوا: صدق والله ابن رواحة، فتقدموا ونزلوا بمؤتة، وتعبؤوا وتهيؤوا للقتال.

ودارت معركة عنيفة ورهيبة، وعجيبة في تاريخ البشر: ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون جيشًا عرمرمًا - مئتي ألف - ويصمدون في وجهه. وهذا الكم الهائل من المدججين بالسلاح يهجم عليهم طول النهار، ويفقد كثيراً من أبنائه وأبطاله، ولا ينجح في دحرهم.

أخذ راية المسلمين زيد بن حارثة فقاتل وقاتل، ثم قاتل وقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر شهيداً في سبيل ربه، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل وقاتل حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء وعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فلم يزل رافعًا لها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه حتى أبقاها تخفق في جو السماء إلى أن قتل بعد أن أصابته بضع وتسعون من طعنه ورمية، كل ذلك فيما أقبل من جسده[١]، وجاءت نوبة عبد الله ابن رواحة فأخذ الراية وتقدم، واقتحم عن فرسه المعمعة ثم لم يزل يقاتل حتى قتل.

وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أرقم وقال للمسلمين: اصطلحوا على رجل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، وبذلك انتقلت الراية إلى سيف من سيوف الله، وتقدم خالد بن الوليد فقاتل قتالاً منقطع النظير حتى انقطعت في يده تسعة أسياف، وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بالمدينة في نفس اليوم بمقتل القواد الثلاثة، وبانتقال القيادة إلى خالد بن الوليد، وسماه سيفًا من سيوف الله[٢].

---

(١) انظر لذلك صحيح البخاري ٢ / ٦١١ وفتح الباري ٧ / ٥١٢.

(٢) انظر صحيح البخاري ٢ / ٦١١.

وبانتهاء النهار رجع الفريقان إلي مقرهما، فلما أصبحوا غيَّر خالد - رضي الله عنه - ترتيب العسكر، فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، فظن العدو أن المدد قد وصل للمسلمين فداخله الرعب، وبعد مناوشة خفيفة بدأ خالد يتأخر بالمسلمين، فلم يجترئ العدو على التقدم، خوفًا من أن تكون خدعة، فانحاز المسلمون إلى مؤتة ومكثوا سبعة أيام يناوشون العدو، ثم تحاجز الفريقان وانقطع القتال، لأن الروم ظنوا أن الإمدادات تتوالى على المسلمين، وأنهم يكيدون بهم ليجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم التخلص، وبذلك كانت كفة المسلمين راجحة في هذه الغزوة(١).

وقتل في هذه الغزوة اثنا عشر رجلاً من المسلمين، أما عدد قتلى العدو فلم يعرف، إلا أنهم قتلوا بكثرة.

سرية ذات السلاسل

ونظراً لموقف عرب الشام في معركة مؤتة رأى رسول الله ﷺ القيام بعمل حكيم يكفهم عن نصرة الرومان والقيام بجانبهم، فأرسل إليهم عمرو بن العاص - رضي الله عنه - في ثلاث مئة من الصحابة، ومعهم ثلاثون فرسًا ليستألفهم، لأن أم أبيه كانت من قبيلة بلى: إحدى قبائلهم، فإن أَبَوْا فليلقنهم درسًا على قيامهم بجانب الروم، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعًا كبيراً، فاستمد من رسول الله ﷺ فأمده بمئتين من سراة المهاجرين والأنصار، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وكان عمرو بن العاص هو الأمير العام وإمام الصلاة، فدوخ بلاد قضاعة حتى لقي جمعًا، فلما هجم عليهم فروا وتفرقوا.

والسلاسل بقعة وماء وراء وادي القرى، إليها نسبت هذه السرية، لأن المسلمين نزلوا بها، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٨هـ. أي بعد الشهر الذي وقعت فيه معركة مؤتة(٢).

---

(١) انظر فتح الباري ٧/٥١٣، ٥١٤، زاد المعاد ٢/١٥٦.

(٢) انظر ابن هشام ٢/٦٢٣-٦٢٦، وزاد المعاد ٢/١٥٧.

الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة

السبب والاستعداد والإخفاء

وفي رمضان سنة ٨من الهجرة فتح الله تعالى لرسوله ﷺ، مكة المكرمة وهو الفتح الأعظم، أعز الله به دينه ورسوله، وأنقذ به بيته، وبلده، واستبشر به أهل السماء، ودخل به الناس في دين الله أفواجًا.

وسببه أن بني بكر دخلوا مع قريش في عهد الحديبية، وكانت بينهم وبين خزاعة دماء وثارات في الجاهلية اختفت نارها بظهور الإسلام، فلما وقعت هدنة الحديبية اغتنمها بنو بكر، وأغاروا في شهر شعبان سنة ٨هـ على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: الوتير، فقتلوا منهم ما يربو على عشرين، وطاردوهم إلى مكة حتى قاتلوهم فيها، وأعانتهم قريش سرًا برجال وسلاح.

وكانت خزاعة قد دخلت مع المسلمين في عهد الحديبية، وكان قد أسلم عدد منهم، فأبلغوا رسول الله ﷺ الخبر، فقال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه.

وأحست قريش بسوء فعلتها، وخافت نتائجها، فأسرعت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة ليشهد العقد ويزيد في المدة، فلما جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه، فقال: يا بنية! أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم جاء رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد شيئًا، فذهب إلى أبي بكر ليكلم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. فأتى عمر فأبى، وشدد في الكلام، فأتى عليًا فاعتذر وأشار عليه أن يجير بين الناس ويرجع، ففعل.

أما رسول الله ﷺ فتجهز للغزو، وأمر أصحابه بذلك، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة وكتم الخبر، ودعا الله: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها».

وزيادة في الكتمان أرسل أبا قتادة ـ رضي الله عنه ـ في أوائل رمضان إلى بطن أضم على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ليظن الظان أنه يريد هذه الناحية(١).

وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وأعطاه امرأة على جعل، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فأرسل عليًّا والمقداد والزبير ومرثداً الغنوي، وقال: انطلقوا إلى روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فأتوها وطلبوا منها الكتاب، فقالت: ما معي كتاب. فقالوا: لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فأخرجته من عقاصها، فأتوا به رسول الله ﷺ، قال: ما هذا يا حطب؟ فاعتذر أن له في مكة أهلاً وعشيرة وولداً، وليست له فيهم قرابة يحمونهم لأجلها، فأراد أن يتخذ عندهم يداً يحمون بها أهله، ولم يفعله ارتداداً عن الإسلام ولا رضىً بالكفر، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق. فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم(٢).

في الطريق إلى مكة

ولعشر من رمضان سنة ٨هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهًا إلى مكة ومعه عشرة آلاف من المسلمين، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري.

ولما بلغ الجحفة لقيه عمه العباس مع أهله مسلمًا مهاجراً، وبالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية فأعرض عنهما، لأنه

(١) زاد المعاد ٢/ ١٥٠، وابن هشام ٢/ ٢٢٦-٢٢٨.

(٢) ينظر لذلك صحيح البخاري ١/ ٤٢٢، ٢/ ٦١٢ (ح٣٠٠٧، ٣٠٨١، ٣٩٨٣، ٤٢٨٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩).

كان يلقى منهما شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان: ائته من قبل وجهه، وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]. ففعل، فقال ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. فأنشده أبو سفيان أبياتًا مدحه فيها واعتذر عما فعل به سابقًا(١).

ولما بلغ كديداً ورأى أن الصوم شق على الناس أفطر، وأمر الناس بالإفطار(٢)، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران عشاءً، فأمر الجيش فأوقد عشرة آلاف نار، كل على حدته، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وخرج أبو سفيان خائفًا يترقب، ولا يعلم شيئًا، ومعه حكيم بن حزام، وبديل ابن ورقاء، فلما رأى النيران قال: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال بديل: هذه خزاعة، قال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ

وكان العباس ـ رضي الله عنه ـ على بغلة رسول الله ﷺ يتجول، فلما سمع الصوت عرفه فقال: أبا حنظلة؟ فقال: أبا الفضل؟ قال: نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأمي. قال: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباحَ قريش والله!.

قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي. قال: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ، فركب، فلما مر بعمر بن الخطاب رآه فقال: أبو سفيان؟ عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، واشتد إلى رسول الله ﷺ، وركض العباس البغلة فسبق إلى رسول الله ﷺ، ثم دخل

---

(١) زاد المعاد ٢/١٦٢، ١٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦١٣.

عمر واستأذنه في ضرب عنق أبي سفيان، فقال العباس: إني آجرته، وأخذ برأس رسول الله ﷺ وقال: لا يناجيه الليلة أحد دوني. وأكثر عمر، ورسول الله ﷺ ساكت. ثم قال للعباس: اذهب به إلى بيتك. فإذا أصبحت فائتني به.

فلما جاء به في الصبح قال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله».

قال أبو سفيان: ما أحلمك. وأكرمك وأوصلك، لو كان معه إله غيره لأغنى عني شيئًا بعد.

قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن أن تعلم أني رسول الله».

قال: أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء.

فقال العباس: أسلم قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

فقال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

دخول رسول الله ﷺ في مكة المكرمة

وفي الصباح تقدم رسول الله ﷺ إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس! من هذه؟ فيقول: بنو فلان. (مثلاً بنو سليم) فيقول: ما لي ولبني فلان: حتى مرت كتيبة الأنصار يحمل رايتها سعد بن عبادة، فقال: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال: يا عباس! حبذا يوم الذمار.

ثم مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحديد، فقال: سبحان الله ! يا عباس ! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في

المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولاطاقة. لقد أصبح ابن أخيك عظيماً. قال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة. قال: نعم إذن.

ثم أخبر رسول الله ﷺ بمقالة سعد، فقال ﷺ: «كذب سعد. هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة». وأخذ الراية من سعد، ودفعها لابنه قيس.

وبعد مروره ﷺ أسرع أبو سفيان حتى دخل مكة وصرخ بأعلى صوته يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله. وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فأسرع الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ذي طوى أمر خالد بن الوليد قائد الميسرة أن يدخل مكة من أسفلها من طريق كدي، وإن عرض له أحد يحصده حصداً حتى يوافيه على الصفا. وأمر الزبير قائد الميمنة وحامل راية رسول الله ﷺ أن يدخل مكة من أعلاها من كداء، ويغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه رسول الله ﷺ، وأمر أبا عبيدة قائد الرجالة ومن لا سلاح له أن يأخذ بطن الوادي حتى ينزل بمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

ووبشت قريش أوباشًا بالخندمة، قالوا: إن كان لهم شيء كنا معهم، وإلا أعطينا الذي سئلنا. فلما مر بهم خالد حصد اثني عشر منهم في مناوشة خفيفة. وفر الباقون. ثم تقدم خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا، وقتل من رجاله اثنان ضلا الطريق وشذا عنه.

أما الزبير فنصب الراية بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب قبة فيها أم سلمة وميمونة - رضي الله عنهما -، ولم يبرح حتى جاء رسول الله ﷺ، فاستراح قليلاً،

ثم سار، وبجانبه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى دخل المسجد الحرام، وحوله المهاجرون والأنصار، فاستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت وهو على الراحلة، ولم يكن محرمًا، وكان حول البيت ثلاث مئة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]، والأصنام تتساقط على وجوهها.

تطهير الكعبة والصلاة فيها

فلما فرغ من الطواف دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، وأمر بفتحها، ثم أمر بما فيها من الأصنام فأخرجت وكسرت، وأمر بما فيها من الصور فمحيت، ثم دخلها هو وأسامة بن زيد وبلال، فأغلق الباب، واستقبل الجدار الذي يقابله، وهو على بعد ثلاث أذرع، وعن يساره عمود وعن يمينه عمودان، ومن ورائه ثلاثة أعمدة، فصلى ركعتين، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله.

لا تثريب عليكم

ثم فتح الباب، وكانت قريش قد ملأت المسجد الحرام صفوفًا، فأخذ بعضادتي الباب فخطب خطبة بليغة بيّن فيها كثيراً من أحكام الإسلام، وأسقط أمور الجاهلية وأعلن عن ذهاب نخوتها، ثم قال:

«يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم». قالوا: خيرا. أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «لاتثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم نزل وجلس في المسجد الحرام، ورد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم.

البيعة

ثم أتى الصفا فعلا عليه حيث ينظر إلى البيت فرفع يديه يدعو، ثم بايع الناس على الإسلام. ممن أسلم يومئذ أبو قحافة والد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ففرح رسول الله ﷺ بإسلامه، ثم بايع النساء بعد الرجال على: «أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف».

وممن بايع يومئذ من النساء هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، جاءت متنقبة متنكرة خوفًا على نفسها مما كانت قد فعلت بنعش حمزة، فلما تمت لها البيعة قالت: يا رسول الله! ما كان على وجه الأرض خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك، فقال رسول الله: «وأيضًا والذي نفس محمد بيده»[1].

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد جلس أسفل من مجلس رسول الله ﷺ يبلغ الناس ويبايعهم عنه، وكانت بيعة النساء كلامًا بغير مصافحة.

وقد جاء بعض الناس ليبايعوا رسول الله ﷺ على الهجرة فقال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها، لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

أناس أهدرت دماؤهم

وكان رسول الله ﷺ قد أهدر يومئذ دماء أناس عظمت ذنوبهم، وكبرت جرائمهم، فأمر بقتلهم حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب وقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فأما الذين قتلوا فهم: ابن خطل، ومقيس بن صبابة، والحارث بن نفيل، وقينة لابن خطل، أربعة نفر، يقال: وأيضًا الحارث ابن طلاطل الخزاعي، وأم سعد، مع احتمال أن تكون أم سعد هي مولاة ابن خطل، فإذن خمسة أو ستة نفر.

---

(١) انظر لذلك صحيح البخاري ح٣٨٢٥، ٧١٦١ (فتح الباري ٧/١٧٥، ١٣/١٤٨).

وأما الذين أسلموا ـ وكانوا قد هربوا أو اختفوا، ثم استؤمن لهم فجاؤوا وأسلموا ـ فهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وقينة أخرى لابن خطل، أربعة نفر، قيل: وأيضًا كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان. سبعة نفر.

واختفى آخرون خوفًا على أنفسهم دون أن يكون قد أهدرت دماؤهم، منهم صفوان بن أمية، وزهير بن أبي أمية، وسهيل بن عمرو، ثم أسلم هؤلاء كلهم، ولله الحمد.

صلاة الفتح

ودخل رسول الله ﷺ ضحى في بيت أم هانئ بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ، فاغتسل وصلى ثمان ركعات صلاة الفتح، يسلم في كل ركعتين، وكانت أم هانئ قد أجارت حموين لها، وأراد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن يقتلهما، فسألت رسول الله ـ ﷺ، فقال: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ.

بلال يؤذن على ظهر الكعبة

وحان وقت صلاة الظهر فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن على ظهر الكعبة، وكان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الإسلام، وقد راع ذلك المسلمين بقدر ما أغاظ المشركين، والحمد لله رب العالمين.

إقامة رسول الله ﷺ بمكة:

ولما تم فتح مكة تخوف الأنصار أن يقيم بها رسول الله ﷺ لأنها بلده وبلد عشيرته وقومه ـ وذلك حين كان رسول الله ﷺ على الصفا، رافعًا يديه يدعو ـ فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم». فاطمأن الأنصار وذهب خوفهم وفرحوا.

نعم. بقي رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويطهرها من آثار الجاهلية، وقد جدد أنصاب الحرم، ونادى مناديه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

هدم عزى وسواع ومناة

ولخمس وعشرين من رمضان بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا إلى نخلة، ليهدم العزى وهيكلها، فتوجه إليها، وهدّمها، وكانت أكبر أصنامهم.

ثم أرسل عمرو بن العاص في رمضان نفسه لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، كان هيكله برهاط على قرابة ١٥٠ كيلو مترًا شمال شرقي مكة فذهب إليه وهدمه، وأسلم سادنه لما رأى من عجزه.

ثم بعث سعد بن زيد الأشهلي أيضًا في رمضان نفسه إلى مناة في عشرين فارسًا وكانت بالمشلل عند قديد، وهي صنم كلب وخزاعة وغسان والأوس والخزرج، فأتاها وكسرها، وهدم هيكلها.

بعث خالد إلى بني جذيمة

ثم بعث خالد بن الوليد في شهر شوال إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، ومعه ثلاث مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فلما دعاهم إلى الإسلام قالوا: صبأنا، صبأنا، فقتلهم وأسرهم. ثم أمر يومًا أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه ذلك، ولما رجعوا ذكروا ذلك للنبي فرفع يديه وقال مرتين: اللهم أبرأ إليك مما صنع خالد، ثم بعث عليًا - رضي الله عنه - بمال فودى قتلاهم، وأعطى بدل ما ضاع من أموالهم، وفضل فضل فتركه لهم.

وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر لأجل ما فعله خالد، فلما رجعوا وأخبروا رسول الله ﷺ، بذلك قال: «مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أحد ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»[1].

* * *

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٣٨٩-٤٣٧، وصحيح البخاري ج١ كتاب الجهاد وكتاب المناسك ٢/٦١٢-٦١٥، ٦٢٢، وفتح الباري ٨/٣-٢٧، وصحيح مسلم ١/٤٣٧-٤٣٩، ٢/١٠٢، ١٠٣، ١٣٠، وزاد المعاد ٢/١٦٠-١٦٨.

غزوة حنين

ولما تم فتح مكة اجتمعت أشراف قبائل قيس عيلان للشورى، وفي مقدمتها هوازن وثقيف، فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه. ولا ناهية له عنا، فلنغزوه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم للحرب، واختاروا لقيادتها مالك بن عوف النصري، فتحشد جمع كبير، ونزل بأوطاس، ومعهم نساؤهم وذراريهم وأموالهم، وكان فيهم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي، فلما سمع أصوات الصبيان والحيوان سأل مالكًا عن ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، وأشار أن يردهم إلى بلادهم، فلم يقبل مالك رأيه، وجمعهم في وادي أوطاس، وانتقل بالمقاتلين إلى وادي حنين، بجانب وادي أوطاس، ونصب فيه كمائن.

وعلم رسول الله ﷺ بتجمعهم فخرج من مكة يوم السبت السادس من شهر شوال، ومعه اثنا عشر ألف مقاتل، واستعار من صفوان بن أمية مئة درع بأداتها واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

وفي الطريق رأى المسلمون سدرة عظيمة كانت تعلق عليها العرب أسلحتهم ويذبحون ويعكفون عندها، يقال لها: ذات أنواط. فقال بعضهم لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن. لتركبن سنن من كان قبلكم»(١).

---

(١) روى ذلك أحمد في مسنده ٥/٢١٨، والترمذي: كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم (٤/٤١٢).

وقال بعضهم نظراً لكثرة الجيش: لن نغلب اليوم. فشق ذلك على رسول الله ﷺ ولما كان عشية جاء فارس وأخبره بخروج هوازن بظعنهم ونعمهم وشائهم، فتبسم وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله[1].

وفي الليلة العاشرة من شهر شوال سنة ٨هـ وصل رسول الله ﷺ إلى وادي حنين. فعبأ جيشه سَحَرًا قبل أن يدخل فيه، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، وأعطى ألوية القبائل الأخرى. ولبس درعين والبيضة والمغفر، ثم بدأت مقدمة الجيش تنحدر بالوادي، وهي لا تعلم بوجود كمائن العدو فيه، فبينما هي تنحط فيه إذ العدو يمطر عليهم النبال كأنها جراد منتشر، وشد عليها شدة رجل واحد، فاضطربت مقدمة الجيش بهذه المفاجأة، وانكشف عامة من كان فيها من المسلمين، وتبعهم من كان خلفهم، فصارت هزيمة عامة.

وسر ذلك بعض المشركين وبعض حديثي العهد بالإسلام، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال أخ لصفوان: ألا بطل السحر اليوم. وقال له آخر: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبدا. فغضب عليهما صفوان ـ وهو مشرك ـ وعكرمة بن أبي جهل ـ وهو حديث العهد بالإسلام ـ وأقهراهما.

أما رسول الله ﷺ فثبت في قليل من المهاجرين والأنصار، وطفق يركض بغلته ليتقدم نحو العدو، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وأخذ أبو سفيان بن الحارث بلجام بغلته، والعباس بركابه لئلا يسرع نحو العدو، فنزل رسول الله ﷺ عن البغلة ودعا ربه واستنصره، وأمر العباس، وكان جهوري الصوت، أن ينادي أصحابه، فنادى ـ وملأ الوادي بصوته ـ ألا! أين

---

(١) انظر سنن أبي داود: كتاب الجهاد، فضل الحرس في سبيل الله ٢ / ١٠.

أصحاب السمرة؟ فعطفوا نحو الصوت عطفة البقر على أولادها، يقولون: لبيك، لبيك[1]، حتى إذا اجتمع منهم مئة استقبلوا العدو، واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار، ثم إلى بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين، واحدة تلو الأخرى، حتى اجتمع حوله ﷺ جمع عظيم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها، فكر المسلمون واحتدم القتال، فقال ﷺ: «الآن حمي الوطيس» وأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فملأ أعينهم ترابًا، فلم يزل حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً، حتى تفرقوا وهربوا، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، حتى أخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيراً من المحاربين، وجرح يومئذ خالد بن الوليد جراحات بالغة. وأسلم كثير من مشركي مكة لما رأوا من عناية الله برسوله.

مطاردة المشركين

ولما هرب المشركون تفرقوا ثلاث فرق. فرقة لحقت بالطائف، وهم الأكثر، وفرقة لحقت بنخلة. وفرقة عسكرت بأوطاس، فأرسل رسول الله - ﷺ - إلى أوطاس أبا عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - في جماعة من المسلمين، فبددهم، وظفر بما كان معهم من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر الأشعري في هذه المعركة، وخلفه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه -، فرجع مظفراً منصوراً.

وطاردت طائفة من فرسان المسلمين فلول المشركين المنهزمين إلى نخلة، فأدركت دريد بن الصمة، وقتلته.

أمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم والسبي، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف سبي، فجمع ذلك كله بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٠٠.

غزوة الطائف

ثم تقدم إلى الطائف، ومر في الطريق بحصن لمالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ولما وصل إلى الطائف وجد العدو قد تحصن به، ومعه قوت سنة، ففرض عليه الحصار، وكان المسلمون نازلين قريباً من العدو، فرشقهم بالنبال حتى أصيب عدد من المسلمين بجراحات، فارتفعوا إلى محل مسجد الطائف اليوم.

واختار المسلمون عدة تدابير لإرغام العدو على النزول، لكنها لم تنجح، كان خالد بن الوليد يخرج كل يوم يدعوهم إلى المبارزة، فلم يخرج منهم أحد، ونصب عليهم المنجنيق فلم يؤثر. ودخل جمع من أبطال المسلمين تحت دبابتين لينقبوا في جدار الحصن فرمى العدو عليهم قطعات من حديد محماة بالنار، فاضطروا إلى الرجوع، ولم يتمكنوا من نقب الجدار وقطعت أعنابهم ونخيلهم فناشدوا الله والرحم فتركت، ونادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل إليها من الحصن فهو حر، فنزل ثلاثة وعشرون فيهم أبو بكرة، ـ تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة يستقى عليها، فكناه رسول الله ﷺ بأبي بكرة ـ فشق فرار هؤلاء العبيد عليهم.

وطال الحصار دون جدوى ـ فقد دام نحو عشرين يومًا. وقيل شهراً كاملاً ـ فاستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر بالرحيل. وطلب بعض المسلمين أن يدعو عليهم فقال: اللهم اهد ثقيفاً وَأْتِ بهم مسلمين.

تقسيم الغنائم والسبي

وعاد رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة. فمكث بها بضعة عشر يومًا لا يقسم الغنائم، يبتغي أن يقدم هوازن تائبين، فيحرزوا أموالهم وسباياهم، فما جاء أحد، فأخرج الخمس من الغنيمة، وأعطاها لأناس ضعفاء الإسلام، يتألفهم،

ولأناس لم يسلموا بعد، ليحبب إليهم الإسلام، فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الفضة ومئة من الإبل، وأعطى مثل ذلك لابنه يزيد، ثم لابنه الآخر معاوية، وأعطى صفوان بن أمية مئة ثم مئة ثم مئة ـ أي ثلاث مئة ـ من الإبل، وأعطى كلا من حكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كلدة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعلقمة بن علاثة، ومالك بن عوف، والعلاء بن حارثة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وغيرهم مئة مئة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين، وأربعين أربعين، حتى شاع بين الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، فازدحم الأعراب يطلبون منه، حتى ألجأوه إلى شجرة فتعلق بها رداؤه، فقال: ردوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم لا تجدونّي بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا.

ثم أخذ وبرة من سنام بعير وقال: والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة، فرد الناس ما كانوا أخذوه من الغنيمة، ولو كان شيئًا زهيداً.

ثم أمر زيد بن ثابت بتقسيم الغنيمة، والذي يصيب الرجل الواحد بعد إخراج الخمس هو نحو بعير ونصف بعير، وشاتين ونصف شاة وعشرة دراهم، وثلث السبى الواحد، فإذا صرف نصيب الرجل إلى أحد هذه الأشياء، بعد إعطائه عشرة دراهم، يصير له إما أربعة من الإبل فقط، وإما أربعون شاة فقط، وإما ثلثا السبي الواحد فقط.

شكوى الأنصار وخطبة رسول الله ﷺ:

واستغرب الأنصار ما فعله رسول الله ﷺ، حيث أعطى المؤلفة قلوبهم عطايا جزيلة لا تقاس، ولم يعط الأنصار شيئًا، فقال بعضهم: إن هذا لهو العجب، يعطي

قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فأبلغه ذلك سعد بن عبادة رئيس الأنصار، فأمره بجمعهم وحدهم، فلما اجتمعوا أتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال: ألا تجيبونّي يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم، فصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ. وتفرقوا(١).

قدوم وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا ثم قالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، وهن مخازي الأقوام:

---

(١) ابن هشام ٢/٤٩٩، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخاري ٢/٦٢٠، ٦٢١.

فامنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

وذلك في أبيات، فقال: إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إليّ أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا. فقال: إذا صليت الغداة - أي صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا. فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا، فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض. فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك. وكسا رسول الله ﷺ قبطية(١).

---

(١) لينظر في قصة سبي هوازن البخاري مع الفتح ٥/ ٢٠١.

عمرة الجعرانة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم أحرم للعمرة ـ وهي عمرة الجعرانة ـ فاعتمر، ثم قفل راجعا إلى المدينة، فبلغها لست أو ثلاث بقين من ذي القعدة(١).

تأديب بني تميم ودخولهم في الإسلام

وفي المحرم سنة ٩هـ نقلت الأخبار إلى المدينة بأن بني تميم يحرضون القبائل على منع الجزية، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ خمسين فارسًا بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، فهجم عليهم في الصحراء فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًّا، وجاء بهم إلى المدينة، فجاء عشرة من رؤسائهم ورغبوا في المباهاة، فخطب خطيبهم عطارد بن حاجب فأجابه ثابت بن قيس، ثم أنشد شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأجابه حسان بن ثابت، فاعترفوا بفضل خطيب الإسلام وشاعره فأسلموا. فرد عليهم رسول الله ﷺ سباياهم وأحسن جائزتهم.

هدم فلس بني طيئ وإسلام عدي بن حاتم

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في مئة وخمسين رجلاً على مئة بعير وخمسين فرسًا ليهدم صنم بني طيئ المعروف بالفلس، وكان مع علي ـ رضي الله عنه ـ راية سوداء ولواء أبيض فشن الغارة على محلة حاتم الطائي المعروف بالجود والكرم، فأصاب نعمًا وشاة وسباء، وفيها سفانة بنت حاتم الطائي، فلما جاءوا بها إلى المدينة منَّ عليها رسول الله ﷺ فأطلقها بغير فدية، وأكرمها وأعطاها الراحلة، فذهبت إلى الشام، وكان أخوها عدي بن حاتم قد هرب إليها، فقالت له عن رسول الله ﷺ: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٤٨ وانظر لتفصيل هذه الغزوات ـ فتح مكة وحنين والطائف وما وقع خلالها ـ زاد المعاد ٢/١٦٠-٢٠١، وابن هشام ٢/٣٨٩-٥٠١، وصحيح البخاري: أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ٢/٦١٢-٦٢٢، وفتح الباري ٨/٣-٥٨.

راغبًا أو راهبًا، فجاء عدي بغير أمان ولا كتاب، فلما كلم رسول الله ﷺ أسلم مكانه.

وبينا هو عند رسول الله ﷺ جاء رجل يشكو إليه الفاقة، ثم جاء آخر يشكو قطع السبيل، فقال: يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ فلئن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه، وقد رأى عدي خروج الظعينة، وحضر في فتح كنوز كسرى[1].

* * *

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه ١/٥٠٧ ح١٤١٣، ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢.

غزوة تبوك

إن الصراع القائم بين المسلمين والوثنيين كان قد انتهى بعد الفتح بصفة عامة، وكاد المسلمون يستريحون من تعب الحروب وعنائها، ولكن الذي استجد قبل الفتح بقليل هو اتجاه القوات المسيحية المتمركزة في الشام نحو المسلمين، والذي كان من نتائجها معركة مؤتة، وكانت هذه القوات متغطرسة جداً لأجل انتصاراتها المتواصلة ضد الفرس، ففتحت باب اللقاء الدامي بينها وبين المسلمين، كان من نتائجه غزوة تبوك في حياة النبي ﷺ، ثم فتوح الشام في زمن الخلفاء الراشدين.

سبب المعركة

كانت لمعركة مؤتة سمعة سيئة للرومان، وقواتهم، فقد كان لنجاح المسلمين - وهم ثلاثة آلاف فقط - في ردع مئتي ألف من قوات الرومان أثر بالغ في نفوس القبائل العربية المجاورة للشام، وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى الاستقلال، فرأى الرومان أن يقوموا بغزوة حاسمة يقضون بها على المسلمين في عقر دارهم، المدينة المنورة.

تهيؤ المسلمين للقاء الرومان

وسمع رسول الله ﷺ بتجمعهم واستعدادهم، فاستنفر المسلمين من كل مكان، وأعلن عن جهة الغزوة صراحة ليأخذ الناس عدتهم الكاملة؛ إذ كان الزمان زمان حر شديد، وكانت الشقة بعيدة، وكان الناس في عسر وجدب، وقد طابت الثمار، والظلال، فكانوا يحبون المقام فيها.

وحث رسول الله ﷺ الموسرين على تجهيز المعسرين، فتقدم المسلمون بما لديهم، وأول من جاء بماله أبو بكر - رضي الله عنه - جاء بكل ماله، وهو أربعة آلاف

درهم، فقال ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئًا؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بنصف ماله، وأنفق عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها، وأعطى خمسين فرسًا، ويقال: إنه أعطى تسع مئة بعير ومئة فرس، وقد قال فيه النبي ﷺ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وغيرهم بأموال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم، كل على قدره، حتى أنفق بعضهم مدًّا أو مدين، لم يستطع غيره، وأرسلت النساء ما قدرن عليه من الحلي.

وجاءه ﷺ فقراء الصحابة يطلبون أن يحملهم، فقال: ﴿**لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢] فجهزهم عثمان والعباس وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ.

وتكلم المنافقون، فلمزوا من أنفق الكثير، وسخروا ممن أنفق القليل، وسخروا من رسول الله ﷺ على جرأته على لقاء الرومان، فلما سئلوا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، وجاء المعذرون من المنافقين والأعراب واستأذنوا النبي ﷺ في التخلف، محتالين بأعذار شتى فأذن لهم. وتخلف بعض المسلمين المخلصين تكاسلاً.

الجيش الإسلامي في تبوك

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف عليّ بن أبي طالب على أهله، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق، وفرق الرايات على رجال، فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأعطى أسيد بن حضير راية الأوس، والحباب ابن المنذر راية الخزرج، وتحرك من المدينة يوم الخميس ومعه ثلاثون ألف مقاتل

يريد تبوك، وكانت قلة شديدة في الظهر والزاد، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً، وأكل الناس أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير ليشربوا ما في فرشه من الماء.

وبينما الجيش في طريقه إلى تبوك إذ لحقه علي بن أبي طالب، سمع طعون المنافقين فلم يصبر حتى خرج، فرده رسول الله ﷺ وقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.

وكان الناس قد نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود ـ الحجر ـ فاستقوا من بئرها واعتجنوا به، فأمرهم أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة.

ولما مر بتلك الديار ـ ديار ثمود ـ قال لهم أيضًا : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها؛ أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاز الوادي[١].

وفي الطريق كان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، جمع التقديم والتأخير.

ولما نزل تبوك لحقه أبو خيثمة، وكان مؤمنًا صادقًا تخلف بغير عذر، فلما دخل بستانه ـ وكان يومًا شديد الحر ـ وجد زوجتيه قد رشت كل واحدة منهما عريشتها، وهيأت طعامًا وماءً باردًا فقال: رسول الله ﷺ في الحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء مهيأ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ ﷺ، فَهَيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم ركب بعيره، وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يسير حتى صادف رسول الله ﷺ حين نزل بتبوك.

---

(١) انظر لذلك صحيح البخاري: باب نزول النبي ﷺ الحجر ٢/٦٣٧.

عشرون يومًا في تبوك

وعلمت الروم بنزول رسول الله ﷺ في تبوك فخارت عزائمهم، ولم يجترئوا على اللقاء، فتفرقوا في داخل بلادهم، وبقي رسول الله ﷺ عشرين يومًا يرهب العدو ويستقبل الوفود، وقد جاءه يوحنا بن رؤبة حاكم أيلة، وصحبته أهل جرباء وأذرح، وأهل ميناء، فصالحوه على إعطاء الجزية، ولم يسلموا، وكتب رسول الله ﷺ ليوحنا كتابًا فيه الأمان له ولأهل أيلة، وفيه الذمة لسفنهم وسياراتهم في البحر والبر، وفيه حرية التنقل والنزول، وإن من أحدث حدثًا فلا يحول ماله دون نفسه.

وكتب لأهل جرباء وأذرح كتابًا أعطاهم فيه الأمان، وأن عليهم مئة دينار في كل رجب، وصالحه أهل ميناء على ربع ثمارها.

أسر أكيدر دومة الجندل

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، في أربع مئة وعشرين فارسًا، وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فسار خالد حتى إذا كان بمنظر العين في حصنه خرجت بقرة تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر ليصيدها، فتلقاه خالد في خيله، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمان مئة رأس، وأربع مئة درع، وأربع مئة رمح، وأقر بإعطاء الجزية على قضية أيلة وميناء.

العودة إلى المدينة

وبعد عشرين يومًا تحرك رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد استغرق الذهاب والعودة ثلاثين يومًا، فجملة ما غاب رسول الله ﷺ عن المدينة خمسون يومًا.

وفي الطريق مر الجيش بعقبة، فأخذ الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله ﷺ طريق العقبة، ولم يكن معه إلا عمّارٌ، آخذًا بزمام الناقة، وحذيفة بن اليمان،

يسوقها، فتبعه اثنا عشر رجلاً من المنافقين يريدون اغتياله، واقتربوا منه جداً، وهم متلثمون، فبعث رسول الله ﷺ إليهم حذيفة، ليضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فضربها فأرعبهم الله، وأسرعوا بالفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم، وبما أرادوه، فسمي بصاحب سر رسول الله ﷺ.

هدم مسجد الضرار

وكان المنافقون قد بنوا بقباء مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقًا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي لهم فيه، وذلك عندما كان يستعد للخروج إلى تبوك، فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما كان في مرجعه من تبوك، ونزل بذي أوان، وليس بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل عليه السلام بخبر المسجد، فبعث رسول الله ﷺ من أحرقه وهدمه.

استقبال رسول الله ﷺ من قبل أهل المدينة

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه». وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان، والولائد يستقبلونه وينشدون:

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع

حتى دخل ﷺ المسجد فصلى فيه ركعتين وجلس للناس.

المخلفون

وجاء المتخلفون من المنافقين يعتذرون ويحلفون، فقبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء ثلاثة من المؤمنين الصادقين، كانوا قد تخلفوا عنه، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فصدقوا، ولم يعتذروا، فأمرهم

أن ينتظروا حتى يقضي الله فيهم، وأمر المسلمين أن لا يكلموهم، فتغير لهم الناس، وتنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، وأظلمت عليهم الدنيا، فلما تم على ذلك أربعون يومًا أمرهم أيضًا أن لا يقربوا نساءهم، حتى إذا تم خمسون يومًا أنزل الله توبتهم فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ففرح المسلمون، واستبشر المخلفون، فبشروا وأبشروا، وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم في حياتهم.

ونزلت آيات فضحت المنافقين، وكشفت سرائر الكاذبين، وبشرت المؤمنين الصادقين، فالحمد لله رب العالمين(١).

كان رجوعه ﷺ من تبوك في شهر رجب سنة ٩هـ، وتوفي النجاشي أصحمة بن الأبحر ملك الحبشة في هذا الشهر فصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب في المدينة.

ثم توفيت ابنته أم كلثوم - رضي الله عنها - في شهر شعبان سنة ٩هـ فصلى عليها ودفنها بالبقيع، وحزن عليها حزنًا شديداً، وقال لعثمان بن عفان - رضي الله عنه -: «لو كانت عندي ثالثة لزوجتكها».

وفي ذي القعدة سنة ٩هـ توفي رأس المنافقين عبد الله بن أبي، فاستغفر له رسول الله ﷺ وصلى عليه، وقد حاول عمر - رضي الله عنه - أن يمنعه عن الصلاة عليه فأبى، ثم نزل القرآن ينهى عن الصلاة على المنافقين.

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٥١٥-٥٣٧، وزاد المعاد ٣/٢-١٣، وصحيح البخاري ٢/٦٣٣-٦٣٧ و١/٢٥٢، ٤١٤ وغيرها، وصحيح مسلم مع شرحه للنووي ٢/٢٤٦، وفتح الباري ٨/١١٠-١٢٦.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعثه وسراياه لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها... لا يمكن لنا إلا أن نقول: إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأشدهم وأعمقهم فراسة وتيقظا، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير. ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلطة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال. بل أثبت في كل ذلك أن له نوعا آخر من القيادة غير ما عرفتها، وتعرف الدنيا في القواد. ولم يقع ما وقع في أحد وحنين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حنين - أو من جهة معصيتهم أوامره، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية - في أحد -.

وقد تجلت عبقريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبت مجابها للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير، مثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة. أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء

في صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخلية السبيل؛ لنشر الدعوة. كما استطاع أن يتعرف على الصحابة المخلصين وعلى من يبطن النفاق، ويضمر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزورع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين، حتى تقصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهيأ السلاح والكراع والعدة والنفقات. حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله.

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف وتخريب العمران وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذ صارت هذه الحرب - في الإسلام - جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان. فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنصف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوى ضعيفًا حتى يؤخذ منه، وصارت جهاداً في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون

ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًّا، واجعل لنا من لدنك نصيراً، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، فلا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً،... الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا(١). وكان إذا جاء قومًا بليلٍ لم يغر عليهم حتى يصبح، ونهى أشد النهى عن التحريق في النار. ونهى عن قتل الصبي، وقتل النساء وضربهن، ونهى عن النهب حتى قال: إن النهبى ليست بأحل من الميتة. ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة. ولا يبقى سواه سبيل، وقال عند فتح مكة: لا تُجْهِزَنَّ على جريح ولا تتبعن مدبراً ولا تقتلن أسيراً، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال: من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عامًا .. إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهاداً مقدسًا(٢).

* * *

(١) صحيح مسلم ٢/٨٢، ٨٣، والمعجم الصغير للطبراني ١/١٢٣، ١٨٧.

(٢) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعاد ٢/٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨.

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج، ليقيم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك، وذلك تمشيًا منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال، فالتقى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال علي: لا، بل مأمور. ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأجل لهم أربعة أَشْهُرٍ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئًا، ولم يظاهروا عليهم أحداً فأبقى عهدهم إلى مدتهم.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالاً ينادون في الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب، وأنها لا تبدئ ولا تعيد بعد هذا العام(١).

* * *

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٢٠، ٤٥١، ٢/ ٦٢٦، ٦٧١)، زاد المعاد (٣/ ٢٥، ٢٦)، ابن هشام (٢/ ٥٤٣، ٥٤٦).

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

الوفود

كان العرب ينتظرون نتيجة الصراع القائم بين قريش والنبي ﷺ، وكانوا يعتقدون أن الباطل لا يمكن أن يسيطر على المسجد الحرام بالقوة والفتح، ولم تكن قصة أصحاب الفيل عنهم ببعيدة، فلما أكرم الله رسول الله ﷺ بإدخاله في المسجد الحرام وبتسليطه على كفار مكة لم يبق عندهم أدنى شك في كونه رسولاً حقًّا، فبدأت القبائل العربية تتوافد إليه تترى. تؤمن برسالته وتقر بطاعته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا. وخلال فترة قصيرة اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من ساحل البحر إلى سواحل اليمن وعمان، وأخذ النبي ﷺ ينظم أمور هذه البلاد الشاسعة فيرسل الدعاة وينصب الولاة، ويبعث جباة الصدقات، ويوفر ما يحتاج إليه نظام العباد والبلاد من القضاة والعمال، وسنمر بشيء من كل ذلك حسب المقام قريبًا إن شاء الله.

والوفود التي توافدت إلى رسول الله ﷺ يزيد عددها على سبعين وفداً، حسب ما ذكره عامة أهل السير، وقد حاول بعض أهل العلم استقصاء هذه الوفود ـ سواء ثبتت الرواية بها أو لم تثبت ـ فأبلغها قريبًا من مئة وفد.

وكانت الوفادة إليه ﷺ قد بدأت قبل الفتح،وقد توافد إليه البعض في أوائل سنوات الهجرة، بل قد جاءه بعض الوفود قبل الهجرة، إلا أن الوفادة العامة، وفي صورة متوالية مستمرة إنما وقعت بعد الفتح في السنة التاسعة، وقد امتدت إلى السنة العاشرة، بل وإلى ما بعدها أيضًا، ولذلك سميت السنة التاسعة بسنة الوفود.

ومعظم هذه الوفود كان أعضاؤها سادات القبائل، ورؤساءها، ورجالاً من أهل الحل والعقد منها، وربما توافد الرجل وحده أو توافد ومعه رهط صغير.

أما الغرض المطلوب من الوفادة فكان يختلف من وفد إلى وفد، فمنهم من جاء يريد رد السبايا والمأخوذين، كما تقدم في وفد هوازن، ووفد تميم، ومنهم من جاء يريد الأمان لنفسه فقط، أو لنفسه وقومه كليهما، ومنهم من جاء يفاخر ويباهي أو يناظر ويجادل، ومنهم من جاء يطلب رد الجيش الإسلامي كيلا يهجم على قومه، ومنهم من جاء يقر بالطاعة والجزية، ومنهم من جاء يبدي رغبته في الإسلام، ويبدي رجاء ذلك من قومه، ومنهم من جاء مسلماً طائعًا ممثلاً لقومه، يرغب في معرفة تعاليم الإسلام وأحكامه.

وكان رسول الله ﷺ يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، يجيزهم بما يرضيهم، ويرغبهم في الإسلام، ويعلمهم الإيمان والشرائع؛ ليعلموا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي، فقد كانت نتائج هذه الوفادات، مع تنوعها واختلاف أغراضها، إسلام المتوافدين، ثم إسلام قومهم عاجلاً أو بعد فترة قصيرة، ولم يشذ عن ذلك إلا البعض فقط، مثل بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، وفيما يلي نذكر بعض الوفود المهمة.

١ ـ وفد عبد القيس : كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان، يرد المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ، وعلم الإسلام أسلم، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة.

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدي، وكان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه(١).

٢ ـ وفد دوس: كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: اللّهم اهد دوسًا. ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتًا من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به.

٣ ـ رسول فروة بن عمرو الجذامي: كان فروة قائداً عربيًّا من قواد الرومان، عاملاً لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعد ما رأى من جلد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء، وضربوا عنقه(٢).

٤ ـ وفد صداء: جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨هـ، وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثًا من أربع مئة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء. وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي. فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١/٣٣)، فتح الباري (٨/٨٥، ٨٦).

(٣) زاد المعاد (٣/٤٥).

وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مئة رجل في حجة الوداع.

٥ ـ قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى: كان من بين الشعراء، ومن أشعر العرب، وكان يهجو النبي ﷺ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨هـ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فصر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائبًا، وإلا فانج إلى نجاتك. ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب، وأشفق على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل من جهينة، وصلى معه الصبح، فلما انصرف أشار عليه الجهني، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فرضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: نعم. قال :أنا كعب بن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه.

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرهـا، لم يفـد مكبول

قال فيها ـ وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ، ويمدحه:

نُبِّئْتُ أن رسـول الله أوعـدني ... والعفو عند رسـول الله مأمـول

مهلاً هداك الذي أعطـاك نافلة الـ ... ـقـرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تَأْخُذَنِّي بأقـوال الوُشَـاة ولم ... أذنب، ولو كثرت فِيَّ الأقـاويل

لقد أقوم مَقَامًا لو يقـوم بـه ... أرى وأسمع مـا لو يسمـع الفيل

لَظَلَّ يُرْعَـدُ، إلا أن يكـون له ... في كـف ذي نقـامت قيله القيل

حتى وضعت يميني ما أنازعه ... من الرسول بإذن الله تَنْوِيل
فَلهو أخْوَفُ عندي إذ أكلِّمه ... وقيل: إنك منسوب ومسئول
من ضَيْغَمٍ بضراءِ الأرض مَخْدَرُهُ ... في بَطْن عَثَّر غِيلٌ دونَه غِيل
إن الرسول لنورٌ يُسْتَضاء به ... مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا بخير، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه، قال:

يمشون مَشْيَ الجمال الزُّهْرِ يعصمهم ... ضَرْبٌ إذا عَرَّد السُّودُ التَّنَابِيل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له، وتدارك ما كان قد فرط منه في شأنهم، قال في تلك القصيدة:

من سره كَرَمُ الحياة فلا يَزَلْ ... في مِقْنَبٍ من صالحي الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

٦ ـ وفد عذرة: قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩هـ، وهم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن النعمان. قال متكلمهم حين سئلوا «من القوم»: نحن بنو عذرة، إخوة قصي لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًّا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعةَ وبني بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبي ﷺ، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها. وأسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

٧ ـ وفد بلي: قدم في ربيع الأول سنة ٩هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا، وقد سأل رئيسهم أو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة، وسأل عن وقت الضيافة، فقال:

ثلاثة أيام، وسأل عن ضالة الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب، وسأل عن ضالة البعير. فقال: ما لك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه.

٨ ـ وفد ثقيف: كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩هـ، وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام ـ وهو يظن أنهم يطيعونه، لأنه كان سيداً مطاعًا في قومه، وكان أحب إليهم من أبكارهم ـ فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ـ الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا ـ فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فكلموا عبد يليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة. وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان أحدثهم سنًّا.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد، لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيدهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفًا لا يهدمونها بأيديهم أبداً. فقبل ذلك، وكتب لهم كتابًا، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن. وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى

رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائمًا عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة، فإن ثقيفًا لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلامًا، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة، وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال، وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم. فأخذت ثقيفًا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل. وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً لهدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين، ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف، وقالوا أبعد الله المغيرة، قتلته الربة، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله، إنما هي لكاع، حجارة ومدر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها. وأخرجوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه(١).

٩ ـ رسالة ملوك اليمن: وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل ذي رعين وهمدان ومعافر، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي، بعثوه بإسلامهم

(١) زاد المعاد (٣/٢٦-٢٨)، ابن هشام (٢/٥٣٧ إلى ٥٤٢).

ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجلاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل. وجعله على الكورة العلياء من جهة عدن بين السكون والسكاسك، وكان قاضيًا وحاكمًا في الحروب، وعاملاً على أخذ الصدقة والجزية، ويصلي بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على الكورة السفلي: زبيد ومأرب وزمع والساحل، وقال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا. وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ أما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع.

١٠ ـ وفد همدان: قدموا سنة ٩هـ، بعد مرجعه ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان».

١١ ـ وفد بني فزارة: قدم هذا الوفد ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم في بضعة عشر رجلاً جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: اللهم اسق بلادك، وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللّهم اسقنا غيثًا مغيثًا، مريئًا مريعًا، طبقًا واسعًا، عاجلاً غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللّهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء(١).

(١) زاد المعاد (٣/٤٨).

١٢ ـ وفد نجران: (نجران، بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع(١)، وكان يؤلف مئة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية).

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلاً منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران: أحدهم العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثاني السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيهم أو شرحبيل. والثالث الأسقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاورا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح

(١) فتح الباري (٨/ ٩٤).

نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلة: ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله. وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أمينًا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبي ﷺ بعث إليهم عليًا؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين[1].

١٣ ـ وفد بني حنيفة: كانت وفادتهم سنة ٩هـ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب[2] ـ وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة ـ نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار ثم جاءوا إلى النبي ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد النظر في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلي الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً. فلما رأي أن ذلك لا يجدي فيه نفعًا تفرس فيه الشر.

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه أتي بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحي إليه أن انفخهما فنفخهما

---

(١) فتح الباري (٨/٩٤، ٩٥)، وزاد المعاد (٣/٣٨-٤١)، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية وفد نجران، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين. وقد ذكرنا ـ ملخصًا ـ ما ترجح عندنا في هذا الوفد.

(٢) فتح الباري (٨/٨٧).

فذهبا، فأولهما كَذَّابَيْن يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف ـ وقد كان يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ـ جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، والله إني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف[1].

وأخيراً وقع ما تفرس فيه النبي ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكر في أمره حتى ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ، فادعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحل لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، وافتتن به قومه فتبعوه، وأصفقوا معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم. وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: إني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[2].

وعن ابن مسعود: جاء ابن النواحة، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ، فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله؟ فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبي ﷺ: آمنت بالله ورسوله. لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما[3].

كان ادعاء مسليمة النبوة سنة عشر، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢هـ.

---

(١) انظر صحيح البخاري، باب: وفد بني حنيفة، وباب: قصة الأسود العنسي (٢/٦٢٧، ٦٢٨)، وفتح الباري (٨/٨٧ إلى ٩٣).

(٢) زاد المعاد (٣/٣١، ٣٢).

(٣) رواه الإمام أحمد، مشكاة المصابيح (٢/٣٤٧).

قتله وحشي قاتل حمزة، وأما المتنبئ الثاني، وهو الأسود العنسي الذي كان باليمن، فقتله فيروز، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحي فأخبره به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه(١).

١٤ ـ وفد بني عامر بن صعصعة: كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس ـ أخو لبيد لأمه ـ وخالد بن جعفر، وجبار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ، ودار أربد خلفه، واخترط سيفه شبراً، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبي ﷺ فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول: أغدة كغدة البعير، وموتا في بيت السلولية؟.

وفي صحيح البخاري: أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء، فطعن في بيت امرأة فقال: أغدة كغدة البعير، في بيت امرأة من بني فلان؟، ائتوني بفرسي فركب، فمات على فرسه.

١٥ ـ وفد تجيب: قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم، وكان الوفد ثلاثة عشر رجلاً، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي، فدعا

---

(١) فتح الباري (٨/٩٣).

له بذلك. فكان أقنع الناس، وثبت في الردة على الإسلام، وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠هـ.

١٦ ـ وفد طيئ: قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل، فلما كلموا النبي ﷺ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم. وقال رسول الله ﷺ عن زيد: ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه، وسماه زيد الخير.

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن، والأزد وبني سعد هذيم من قضاعة، وبني عامر بن قيس، وبني أسد، وبهراء، وخولان ومحارب، وبني الحارث بن كعب، وغامد، وبني المنتفق، وسلامان، وبني عبس، ومزينة، ومراد، وزبيد، وكندة، وذي مرة، وغسان، وبني عيش، ونخع ـ وهو آخر الوفود، توافد في منتصف محرم سنة ١١هـ في مئتي رجل ـ وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩و ١٠هـ وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ[١].

* * *

(١) انظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها صحيح البخاري (١/ ١٣، ٢/ ٦٢٦–٦٣٠)، وابن هشام (٢٢/ ٥٠١–٥٠٣، ٥١٠–٥١٤، ٥٣٧–٥٤٢، ٥٦٠–٦٠١)، وزاد المعاد (٣/ ٢٦–٦٠)، وفتح الباري (٨/ ٨٣–١٠٣).

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفاً خفيًا انبعث في قلب رسول الله ﷺ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذاً على اليمن سنة ١٠هـ قال له فيما قال: يا معاذ إنها عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى، فبكى معاذ جزَعًا لفراق رسول الله ﷺ، وشاء الله أن يرى رسول الله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ألوانًا من المتاعب بضعة وعشرين عامًا، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة.

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بَشَرٌ كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ[١]. وفي يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل[٢]، فترجل وأدهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بُدْنه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: أتانى الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادى المبارك وقل: عمرة في حجة[٣].

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبيص الطيب يُرى في مفارقه ولحيته، ثم

(١) روى ذلك مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٤.

(٢) انظر لتحقيق ذلك فتح الباري ٨/١٠٤.

(٣) رواه البخاري عن عمر ١/٢٠٧.

استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أَهَلَّ بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما، ثم خرج، فركب القصواء، فأهل أيضًا، ثم أهل لما استقلت به على البيداء.

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذي طوى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠هـ ـ وقد قضى في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى ـ فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل، لأنه كان قارنًا قد ساق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند الحجون، أقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هَدْي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم يحلوا إحلالاً تامًا، فترددوا، فقال: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت، فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة ـ وهو يوم التروية ـ توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ـ خمس صلوات ـ ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مئة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفًا من الناس، فقام فيهم خطيبًا، وألقى هذه الخطبة الجامعة.

«أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا[1].

(١) ابن هشام ٢/٦٠٣.

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا! كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعاً في بني سعد. فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به، كتاب الله(١).

أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أُولي أمركم، تدخلوا جنة ربكم(٢).

وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد» ثلاث مرات(٣).

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية ابن خلف(٤).

(١) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧.

(٢) معدن الأعمال ح١١٠٨، ١٠٠٩ ورواه ابن جرير وابن عساكر.

(٣) مسلم ١/٣٩٧.

(٤) ابن هشام ٢/٦٠٥.

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. لما نزلت بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟»، قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، قال: «صدقت»(١).

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يُصَلِّ بينهما شيئًا، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص.

وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجرحين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله، وكبره، وهلله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جداً.

فدفع ـ من المزدلفة إلى منى ـ قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً. ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة ـ وهى الجمرة الكبرى نفسها، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى ـ فرماها بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غبر ـ وهى سبع وثلاثون بدنة، تمام المئة ـ وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة وابن جرير، انظر تفسير ابن كثير (٢/٥)، والدر المنثور (٢/٤٥٦).

ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلواً فشرب منه(١).

وخطب النبي ﷺ يوم النحر ـ عاشر ذي الحجة ـ أيضًا حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شهباء، وعليّ يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد وأعاد(٢) في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وقال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى؟ قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

«وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

«ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع»(٣).

---

(١) رواه مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧-٤٠٠.

(٢) روى ذلك أبو داود، باب اي وقت يخطب يوم النحر ١/٢٧٠.

(٣) صحيح البخاري، باب الخطبة أيام منى ١/٢٣٤ وغيرها.

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»(١).

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضًا، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس، فقال: «أليس هذا أوسط أيام التشريق»(٢)، وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفي يوم النفر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس.

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله(٣).

آخر البعوث

كان كبرياء دولة الروم قد جعلها تأبى حق الحياة على من آمن بالله ورسوله، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل في الإسلام، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان واليًا على معان من قبل الروم.

(١) رواه الترمذي ٢/٣٨، ١٣٥، وابن ماجه في الحج، مشكاة المصابيح ١/٢٣٤.

(٢) أبو داود: باب - أي يوم يخطب بمنى، ١/٢٦٩.

(٣) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري: كتاب المناسك ج١ و٢/٦٣١، وصحيح مسلم: باب حجة النبي ﷺ، وفتح الباري ج٣ من شرح كتاب المناسك وج٨/١٠٣ إلى ١١٠، وابن هشام ٢/٦٠١ إلى ٦٠٥، وزاد المعاد ١/١٩٦ س٢١٨ إلى ٢٤٠.

ونظرًا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا كبيرًا في صفر سنة ١١هـ . وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب. وتكلم الناس في قائد الجيش لحداثة سنة، واستبطأ في بعثه، فقال رسول الله ﷺ : «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده»[١].

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجرف، على فرسخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق[٢].

* * *

(١) صحيح البخاري: باب بعث النبي ﷺ أسامة ٢/٦١٢.

(٢) المصدر السابق وابن هشام ٢/٦٠٦، ٦٥٠.

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع

ولما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ، وتتضح بعباراته وأفعاله.

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، في حين كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، ودارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، وقال: وهو عند جمرة العقبة: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعيت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»(١).

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع، فاستغفر لهم وقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر. ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى» - وبشرهم قائلاً: «إنا بكم للاحقون».

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري ٢/٥٨٥ مع فتح الباري ٣/٢٤٨ ح١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٤٢، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠.

بداية المرض

وفي اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الاثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع. فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التي يعصب بها رأسه.

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يومًا، وجميع أيام المرض كانت ١٣، أو ١٤ يومًا.

الأسبوع الأخير

وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: «أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟» ففهمن مراده، فأذِنّ له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة، يمشي بين الفضل ابن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع وغمي، فقال: هريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم، فأقعدوه في مخضب، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: «حسبكم، حسبكم».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفًا ملحفة على منكبيه قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إليّ، فثابوا إليه، فقال - فيما قال -:

«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبورا أنبيائهم مساجد» ـ وفي رواية: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١). وقال: «لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد»(٢).

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: «من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه».

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها. فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل، ثم أوصى بالأنصار قائلاً:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم». وفي رواية أنه قال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»(٣).

ثم قال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر. قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا(٤).

ثم قال رسول الله ﷺ: «إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»(٥).

---

(١) صحيح البخاري ١/٦٢، موطأ الإمام مالك ص٣٦٠.

(٢) موطأ الإمام مالك ص٦٥.

(٣) صحيح البخاري ١/٥٣٦.

(٤) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/٥٤٦.

(٥) صحيح البخاري ١/٥١٦.

قبل أربعة أيام

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال ـ وقد اشتد به الوجع ـ : هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده ـ وفي البيت رجال فيهم عمر ـ فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا عنى[1].

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوي. ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو إنفاذ جيش أسامة، أو هي «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

والنبي ﷺ ـ مع ما كان به من شدة المرض ـ كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم ـ يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ـ وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفًا[2].

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد، قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: ضعوا لى ماءً في المخضب، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ ـ ووقع ثانيًا وثالثًا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء ـ فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام[3] ١٧ صلاة في حياته ﷺ، وهى صلاة العشاء من يوم الخميس وصلاة الفجر من يوم الاثنين، وخمس عشرة صلاة فيما بينها[4].

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٢، ٤٢٩، ٤٤٩، ٢/٦٣٨.

(٢) رواه البخاري عن أم الفضل: باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٣٧.

(٣) متفق عليه، مشكاة المصابيح ١/١٠٢.

(٤) البخاري مع الفتح ٢/١٩٣ ح٦٨١ مسلم: كتاب الصلاة ١/٣١٥ ح١٠٠، ومسند أحمد ٦/٢٢٩.

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث مرات أو أربعًا؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر حتى لا يتشاءم به الناس(١)، فأبى، وقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل بالناس(٢).

قبل ثلاثة أيام

قال جابر: سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: ألا لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله(٣).

قبل يوم أو يومين

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويسمع الناس التكبير(٤).

قبل يوم

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده(٥)، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل أرسلت عائشة بمصباحها إلى امرأة من النساء وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن(٦)، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير(٧).

(١) ينظر له البخاري مع الفتح ٧/٧٤٧ ح٤٤٤٥ ومسلم: كتاب الصلاة ١/٣١٣ ح٩٣، ٩٤.

(٢) صحيح البخاري ١/٩٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٢/٢٥٥، مسند أبي داود الطيالسي ص٢٤٦ ح١٧٧٩، ومسند أبي يعلى ٤/١٩٣ ح٢٢٩٠.

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢/١٩٥، ٢٣٨، ٢٣٩ ح٦٨٣، ٧١٢، ٧١٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٢/٢٣٧، وتفيد بعض الروايات أنه تصدق بها ليلة الاثنين أو يوم الاثنين، أي في آخر يوم من حياته.

(٦) طبقات ابن سعد ٢/٢٣٩.

(٧) انظر صحيح البخاري ٢٠٦٨، ٢٠٩٦، ٢٢٠٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٣٨٦، ٢٥٠٩، ٢٥١٣، ٢٩١٦، ٤١٦٧، وفي أواخر المغازي: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة، وعند أحمد فما وجد ما يفتكها به (فتح الباري ٥/١٦٩).

آخر يوم من الحياة

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين ـ وأبو بكر يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. فقال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[١].

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت. ثم دعاها، فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك ـ أي فيما بعد ـ فقالت: سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت[٢].

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين[٣].

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه. فقالت: واكرب أبتاه! فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم[٤].

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيراً. ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

---

(١) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ٢/١١٩٣ ح٦٨٠، ٨٦١، ٧٥٤، ١٢٠٥، ٤٤٤٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٣٨.

(٣) ويدل بعض الروايات على أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته، بل في آخر أسبوع. رحمة للعالمين ١/٢٨٢.

(٤) صحيح البخاري ٢/٦٤١.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر حتى كان يقول: يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم(١).

وقد طرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (وكان هذا من آخر ما تكلم وأوصى به الناس) «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا - (لا يبقين دينان بأرض العرب»(٢).

وأوصى الناس فقال: «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم». كرر ذلك مرارًا(٣).

الاحتضار

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري. وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن - ابن أبي بكر - وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولته فاشتد عليه، وقلت: أُلينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته، فأمره - وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستنًا - وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه، يقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات - الحديث -(٤).

---

(١) نفس المصدر ٢/٦٣٧.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ١/٦٣٤ ح٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٣٤٥٤، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦، وطبقات ابن سعد ٢/٢٥٤.

(٣) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠.

(٤) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠.

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه فأصغت إليه عائشة وهو يقول: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم، الرفيق الأعلى[1].

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ. وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

تفاقم الأحزان على الصحابة

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ[2].

ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه[3].

موقف عمر

ووقف عمر بن الخطاب يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات. لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن

---

(١) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ وباب آخر ما تكلم النبي ﷺ ٢/٣٦٨-٦٤١.

(٢) رواه الدارمي، مشكاة المصابيح ٢/٥٤٧، وعن أنس قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (جامع الترمذي ٥/٥٨٨، ٥٨٩).

(٣) صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤١.

عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات(١).

موقف أبي بكر

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين﴾ [آل عمران: ١٤٤] قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات(٢).

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ. فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخيراً

(١) ابن هشام ٢/٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٤٠، ٦٤١.

اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضى في ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه مغشى بثوب حبرة، قد أغلق دونه الباب أهله.

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس وعليًّا، والفضل وقُثَمَ ابني العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولي. فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره(١). وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسدر، وغسل من بئر يقال لها الغرس لسعد بن خيثمة بقباء، وكان يشرب منها(٢).

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة(٣). أدرجوه فيها إدراجًا.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحداً.

ودخل الناس الحجرة أرسالاً عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله ﷺ أفذاذاً لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان(٤).

---

(١) لينظر ابن ماجه ١/ ٥٢١.

(٢) لينظر في طبقات ابن سعد ٢/ ٢٧٧-٢٨١.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن (فتح الباري ٣/ ١٦٢، ١٦٧، ١٦٨ ح١٢٦٤، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٣٨٧، وصحيح مسلم، الجنائز: باب كفن الميت ح٤٥.

(٤) لينظر موطأ الإمام مالك: كتاب الجنائز، باب: ما جاء في دفن الميت ١/ ٢٣١، وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٨٨-٢٩٢.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي[1] من جوف الليل (وفي رواية: من آخر الليل) ليلة الأربعاء[2].

* * *

(١) جمع مسحاة: ما يجرف به الطين.

(٢) مسند أحمد ٦/٦٢، ٢٧٤، وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى: صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح الباري، وصحيح مسلم، ومشكاة المصابيح: باب وفاة النبي ﷺ، وابن هشام ٢/٦٤٩ إلى ٦٦٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٣٨، ٣٩، ورحمة للعالمين ١/٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المرجع الأخير.

البيت النبوي

(١) كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه، وهي في الأربعين، وهي أول من تزوجها من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعش منهم أحد. وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى. وأما فاطمة فتزوجها عليّ بن أبي طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان يمتاز على أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات؛ لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة، منهن تسع مات عنهن، واثنتان توفيتا في حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة، واثنتان لم يدخل بهما. وها هي أسماؤهن، وشيء عنهن.

(٢) سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بنحو شهر، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو، فمات عنها. توفيت بالمدينة في شوال سنة ٥٤هـ.

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكراً، ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت أحب الخلق إليه،

وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، توفيت في ١٧ من رمضان سنة ٥٧ هـ أو ٥٨هـ ودفنت بالبقيع.

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب: تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ في شعبان سنة ٣هـ. توفيت في شعبان سنة ٤٥هـ بالمدينة، ولها ستون سنة، ودفنت بالبقيع.

(٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤هـ. ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر في آخر ربيع الآخر سنة ٤هـ، فصلى عليها النبي ﷺ، ودفنت بالبقيع.

(٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية: كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فمات عنها في جمادى الآخرة سنة ٤هـ فتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال من نفس السنة، وكانت من أفقه النساء وأعقلهن، توفيت سنة ٥٩هـ، وقيل: ٦٢هـ ودفنت بالبقيع، ولها ٨٤ سنة.

(٧) زينب بنت جحش بن رياب من بني أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ، وكانت تحت زيد بن حارثة - الذي كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ - فطلقها زيد. فلما انقضت العدة أنزل الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: **﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾** [الأحزاب: ٣٧] وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني - وسنأتي على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة. وقيل سنة ٤هـ. وكانت أعبد النساء وأعظمهن صدقة، توفيت سنة ٢٠هـ ولها ٥٣ سنة، وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع.

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها. فقضى رسول الله ﷺ

كتابتها، وتزوجها في شعبان سنة ٦هـ . وقيل: سنة ٥هـ فأعتق المسلمون مئة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ فكانت أعظم النساء بركة على قومها. توفيت في ربيع الأول سنة ٥٦ وقيل ٥٥هـ ولها ٦٥ سنة.

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها. وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه، وأصدقها من عنده أربع مئة دينار، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة. فابتنى بها النبي ﷺ بعد رجوعه من خيبر. توفيت سنة ٤٢هـ أو ٤٤هـ أو ٥٠هـ.

(١٠) صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير من بني إسرائيل، كانت من سبي خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ . وابتنى بها بسد الصهباء على بعد ١٢ ميلاً من خيبر في طريقه إلى المدينة. توفيت سنة ٥٠هـ وقيل: ٥٢هـ. وقيل: سنة ٣٦هـ ودفنت بالبقيع.

(١١) ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧هـ ، في عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح، وابتنى بها بسرف على بعد ٩ أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة ٦١هـ وقيل: ٦٣هـ وقيل: ٣٨هـ ودفنت هناك، ولا يزال موضع قبرها معروفًا.

فهؤلاء إحدى عشرة امرأة تزوج بهن الرسول ﷺ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان، خديجة وزينب أم المساكين ـ في حياته، وتوفي هو عن التسع البواقي.

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما فواحدة من بني كلاب، وأخرى من كندة، وهي المعروفة بالجونية. وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها.

وأما السرارى فالمعروف أنه تسرى باثنتين:

إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذى توفي صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ، في ٢٨ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠هـ وافق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م.

والسرية الثانية هى ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل: بل هي من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجحه ابن القيم، وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة، أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش(١).

هذا، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزوج، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد. قال أنس: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا بعينه قط(٢).

وقالت عائشة: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال؛ ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقال لها عروة: ما كان يعشيكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء(٣). والأخبار بهذا الصدد كثيرة.

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة ـ حسب مقتضى البشرية، وليكون سببًا لتشريع الأحكام ـ فأنزل الله آية التخيير: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ**

(١) انظر زاد المعاد ١/٢٩.

(٢) صحيح البخاري ٢/٩٥٦.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩]. وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا.

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر مع كثرتهن إلا شيئًا يسيراً من بعضهن حسب اقتضاء البشرية، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾ [التحريم:١] إلى تمام الآية الخامسة.

* * *

صفات النبي ﷺ وأخلاقه

كان النبي ﷺ يمتاز من جمال خَلْقه وكمال خُلُقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يحب عادة لم يرزق بمثلها بشر - وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة -.

جمال الخَلْق:

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهي تصفه لزوجها، حين مر بخيمتها مهاجراً -: ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطح، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة، لا تقحمه عين من قصر، لا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند[1].

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٤، والوضاءة: الجمال، أبلج الوجه: مشرقه ومضيئه. الثجلة: كبر البطن أو كبر الرأس. لم تزريه: لم تعبه، والصعلة: صغر الرأس، والوسيم القسيم: الحسن الجميل، والدعج: شدة سواد الحدقة، وفي أشفاره وطف: في شعر أجفانه طول، والصحل: بحة يسيرة، سطح: طول، أحور: شديد بياض العينين في شدة سوادهما، أزج: متقوس الحاجبين، أقرن: ملتقي الحاجبين بين العينين، لا نزر ولا هذر: لا قليل ولا كثير بل هو وسط الكلام، محفود: الذي يخدمه أصحابه ويسرعون إلى امتثال أمره، محشود: الذي يجتمع إليه الناس، ولا مفند: أي لا يفند أحداً، أي لا يهجنه ولا يستقل عقله.

وقـال علي بن أبي طالب ـ وهو ينعت رسـول الله ﷺ ـ: لـم يكـن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط، وكان جعداً رجلاً، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان في الوجه تدوير، وكان أبيض مشرباً، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المسربة، أجرد، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول نعاته: لم أر قبله ولا بعده مثله، ﷺ(١).

وفي رواية عنه: أنه كان ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسربة، إذا مشا تكفأ تكفياً كأنما ينحط من صبب(٢).

وقال جابر بن سمرة: كان ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس العقبين(٣).

وقال أبو الطفيل: كان أبيض، مليح الوجه، مقصداً(٤).

وقال أنس بن مالك: كان بسط الكفين. وقال: كان أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق، ولا آدم، قبض وليس في رأسه ولحيته إلا عشرون شعرة بيضاء(٥).

---

(١) ابن هشام ١/٤٠١، ٤٠٢، وجامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٣ والممغط: المفرط في الطول. الجعد القطط: شديدة الجعودة، وهي التواء وانقباض في الشعر، والسبط: مسترسل الشعر، والمطهم: الممتلئ الجسم، والمكلثم: شديد تدوير الوجه، أهدب الأشفار: طويل شعر الأجفان، جليل المشاش: عظيم رؤوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين، والكتد: الكاهل وما يليه من الجسد، المسربة: خط الشعر من اللبة إلى السرة، أجرد: خال من الشعر، الشثن: الغليظ، تقلع في مشيته: أي شديد المشي، الصبب: ما انحدر من الأرض.

(٢) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٣، والكراديس جمع كردوس: رؤوس العظام، وقيل: ملتقى كل عظمتين ضخمين كالركبتين والمرفقين.

(٣) صحيح مسلم ٢/٢٥٨ ضليع الفم: واسعه، أشكل العين: طويل شق العين، منهوس العقب: قليل لحم العقب.

(٤) نفس المصدر.

(٥) صحيح البخاري ١/٥٠٢، والأبيض الأمهق: كريه البياض كلون الجص.

وقال: إنما كان شيء - أي من الشيب - في صدغيه. وفي رواية: وفي الرأس نبذ(١).

وقال أبو جحيفة: رأيت بياضًا تحت شفته السفلى، العنفقة(٢).

وقال عبد الله بن بسر: كان في عنفقته شعرات بيض(٣).

وقال البراء: كان مربوعًا، بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء، لم أر شيئًا قط أحسن منه(٤).

وكان يسدل شعره أولاً؛ لحبه موافقة أهل الكتاب، ثم فرق رأسه بعد(٥).

قال البراء: كان أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا(٦).

وسئل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر. وفي رواية: كان وجهه مستديراً(٧).

وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة(٨).

وقال جابر بن سمرة: رأيته في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندي من القمر(٩).

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث(١٠).

---

(١) نفس المصدر، وصحيح مسلم ٢/٢٥٩. (٢) صحيح البخاري ١/٥٠١، ٥٠٢.
(٣) نفس المصدر ١/٥٠٢. (٤) نفس المصدر.
(٥) صحيح البخاري ١/٥٠٣. (٦) صحيح البخاري ١/٥٠٢، وصحيح مسلم ٢/٢٥٨.
(٧) صحيح البخاري ١/٥٠٢، وصحيح مسلم ٢/٢٥٩.
(٨) رواه الدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٧.
(٩) رواه الترمذي في الشمائل ص٢، والدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٨.
(١٠) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٦، مشكاة المصابيح ٢/٥١٨.

وقال كعب بن مالك: كان إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر(١).

وعرق مرة وهو عند عائشة رضي الله عنها يخصف نعلاً، وهي تغزل غزلاً، فجعلت تبرق أسارير وجهه، فلما رأته بهتت وقالت: والله لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره من غيرك:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل(٢)

وكان أبو بكر إذا رآه يقول:

أمين مصطفى بالخير يدعو ... كضوء البدر زايله الظلام(٣)

وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان:

لو كنت من شيء سوى البشر ... كنت المضيء لليلة البدر

ثم يقول: كذلك كان رسول الله ﷺ(٤).

وكان إذا غضب احمر وجهه، حتى كأنما فُقِئَ في وجنتيه حب الرمان(٥).

وقال جابر بن سمرة: كان في ساقيه حموشة، وكان لا يضحك إلا تبسمًا. وكنت إذا نظرت إليه قلت: أكحل العينين، وليس بأكحل(٦).

وقال عمر بن الخطاب: وكان من أحسن الناس ثغرًا(٧).

قال ابن عباس: كان أفلج الثنيتين، إذا تكلم رُئِيَ كالنور يخرج من بين ثناياه(٨).

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٠٢.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٣٢٥.

(٣) خلاصة السير ص٢٠.

(٤) خلاصة السير ص٢٠.

(٥) مشكاة المصابيح ١/٢٢، ورواه الترمذي في أبواب القدر: باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢/٣٥.

(٦) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٦.

(٧) صحيح مسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء ٣/١١٠٧، ح١٤٧٩.

(٨) رواه الدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٨.

وأما عنقه فكأنه جيد دمية في صفاء الفضة، وكان في أشفاره عطف، وفي لحيته كثافة، وكان واسع الجبين، أزج الحواجب في غير قرن، بينهما عِرْقٌ يُدِرّه الغضبُ، أقنى العرنين، سهل الخدين، من لبته إلى سرته شعر يجري كالخط، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، سواء البطن والصدر، مسيح الصدر عريضه، طويل الزند، رحب الراحة، سبط القصب، خمصان الأخمصين، سائل الأطراف، إذا زال زال قلعًا، يخطو تكفيًا ويمشي هونًا(١).

وقال أنس: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط أو عرفًا قط، وفي رواية: ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ(٢).

وقال أبو جحيفة: أخذت بيده، فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك(٣).

وقال جابر بن سمرة ـ وكان صبيًا ـ: مسح خدي فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار(٤).

وقال أنس: كأن عرقه اللؤلؤ. وقالت أم سليم: هو من أطيب الطيب(٥).

وقال جابر: لم يسلك طريقًا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه. أو قال: من ريح عرقه(٦).

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده، وكان عند ناغض كتفه اليسرى، جمعًا عليه خيلان كأمثال الثآليل(٧).

---

(١) خلاصة السير ص١٩، ٢٠.
(٢) صحيح البخاري ١/٥٠٣، صحيح مسلم ٢/٢٥٧.
(٣) صحيح البخاري ١/٥٠٢.
(٤) صحيح مسلم ٢/٢٥٦.
(٥) نفس المصدر.
(٦) رواه الدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٧.
(٧) صحيح مسلم ٢/٢٥٩، ٢٦٠ خيلان جمع خال. والثآليل جمع ثؤلول: خراج يكون بجسم الإنسان، صلب مستدير.

كمال النفس ومكارم الأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي.

وكان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفات أدبه الله بها، وكل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا، قالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها(١). وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً.

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فَلَرسُولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(٢). وقال جابر: ما سئل شيئًا قط فقال: لا(٣).

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفرّ عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح،

(١) صحيح البخاري ١/٥٠٣.

(٢) نفس المصدر ١/٥٠٢.

(٣) نفس المصدر ١/٥٠٢.

ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحنظت عنه جولة سواه، قال علي: كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[1]. قال أنس: فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا[2].

وكان أشد الناس حياءً وإغضاءً، قال أبو سعيد الخدري: كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئًا عرف في وجهه[3]. وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض الطرف. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا. وكان أحق الناس بقول الفرزدق:

يغضي حياءً ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك محاوره وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام، وروى الترمذي عن علي أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][4]. وسأل هرقل أبا سفيان، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

---

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض ١/٨٩، ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن.

(٢) صحيح مسلم ٢/٢٥٢، وصحيح البخاري ١/٤٠٧.

(٣) صحيح البخاري ١/٥٠٤.

(٤) مشكاة المصابيح ٢/٥٢١.

وكان أشد الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم، قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان بشرًا من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه(١).

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدبًا، وأبسط الناس خلقًا، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا لعانًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يدع أحدًا يمشي خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خدمه، ولم يقل لخادمه أف قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيرًا لفقره. كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نحن نكفيك. فقال: قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه، وقام وجمع الحطب(٢).

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ؛ قال هند ـ فيما قال ـ: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ـ لا بأطراف فمه ـ ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا، ولم يكن يذم ذواقًا ـ ما يطعم ـ ولا يمدحه،

---

(١) مشكاة المصابيح ٢/ ٥٢٠.

(٢) خلاصة السير ص٢٢.

ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها - سماحة - وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه. يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره.. الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكانًا - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، ويتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن في الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عَيّاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه. قد ترك

نفسه من ثلاث: الرياء والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ[1].

وقال خارجة بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم؛ توقيراً واقتداء به[2].

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير، أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مثنيًا عليه فقال: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [القلم: ٤] وأنت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحببه إلى القلوب، وصيّره قائدًا تهوي إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا في دين الله أفواجًا.

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يُدرَك كنهُه، ولا يسبَر غورُه، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال، استضاء بنور ربه، حتى صار خلقه القرآن؟ اللهم صل على محمد وعلى

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٢١ – ١٢٦، وانظر أيضًا شمائل الترمذي.

(٢) الشفا ١/١٠٧.

آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الأول

الفصل الثاني
محمد ﷺ
في التوراة والإنجيل
وفي كتب الأولين

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فهذه الرسالة شاهد من أهل الكتاب على أنفسهم، من باب قول الله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦].

أما دليلهم إلى الإسلام، فالإسلام يكفيهم من أن يلتفتوا إلى أي شيء آخر.

هذا.. وبين أيديهم ما يرشدهم إلى الاطلاع على أدلة دين الله تعالى، والبينات التي أرسل الله بها رسوله محمداً ﷺ دون إعراض أو تعنت..

رغم ما حرفوه وضيعوه مما استحفظوا من كتاب الله..

وعند قراءتي لنبأ في القرآن الكريم أو السنة المطهرة، فإنني أتذكر قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:٩٣].

وأنا على يقين، بأن هذا النبأ سوف يراه الناس بأعينهم، إن لم يكونوا قد رأوه .. وعند قراءتي لقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

كنت أتمنى أن يضع المنصفون منهم أيديهم على النصوص في الكتب التي قبل القرآن الكريم، والتي يسهل بها رؤية قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

حتى يسّر الله لي الإطلاع على عدد من الكتب التي كتبها علماؤهم الذين أكرمهم الله بنعمة الإسلام؛ مثل كتاب «محمد ﷺ في الكتاب المقدس»

للبروفيسور عبد الأحد داود، وكتاب «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» للبروفيسور موريس بوكاي(١).

فاستخرت الله في كتابة هذا الموضوع؛ وهو من باب:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦].

وإذا سألنا.. لماذا تكفل الله بحفظ القرآن كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، إلى يوم القيامة، وأوكل حفظ الكتب السابقة لأهل كل كتاب، أرسل إليهم؟

فالجواب: أن الكتب السابقة مخصوصة بأقوام مرسلين، وما يضيعه الناس فإن الرسل تأتي من بعدهم ليبينوه لهم، أما القرآن الكريم فهو رسالة الله الخاتمة للناس كافة، والباقية إلى جميع الأجيال إلى قيام الساعة؛ فلا نبي بعد رسول الله محمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]

إن الملايين والملايين الذين أسلموا من أهل الكتاب، وغيرهم يخبرون بالنصوص القاطعة بأن الدين عند الله الخالق هو الإسلام، وأن الرسول محمداً ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، ولا تخلو منه كتب الأولين..

ومن هذه النصوص:

١ - أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام -:

«أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به». [التثنية ١٨:١٨]

---

(١) من أهم مراجع هذا الموضوع: كتاب «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» لابن القيم - وكتاب «ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ» لديدات - وكتاب «إظهار الحق» لوحيد الدين خان - وكتاب «محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» لإبراهيم الخليل (وكان قسيساً وأسلم) - وكتاب «المسيح إنسان أم إله» لمحمد مجدي مرجان (وقد أكرمه الله بنعمة الإسلام).

وهذه النصوص تدلهم على أن هذا النبي ﷺ ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل؛ وهم بنو إسماعيل .

ولذلك كان الأحبار والرهبان (علماء اليهود والنصارى) يعرفون جيداً أن هذا النبي ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام (وهم العرب) ....

وهذا هو السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي ﷺ إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي ﷺ من الأحبار والرهبان(١) .

---

(١) ولأن العرب هم بنو إسماعيل عليه السلام ، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه ممن ذهبوا إلى بلاد العرب؛ انتظاراً للنبي ﷺ ، وترك رغد العيش في بلاد فارس والرومان .

ومن كتاب ديدات « ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ » :

لماذا محمد ﷺ هو النبي الذي مثل موسى عليه السلام، والمبشر به في التوراة والإنجيل؟

كان اليهود ينتظرون إلياً ، ومسيحاً ،ونبيًّا مثل موسى ﷺ ....

وقد سالوا يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) « هل أنت المسيح »، « هل أنت إيليا » ، « هل أنت النبي ﷺ » (يوحنا ١-٢٥) .. وذلك لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً وإيليا ونبياً مثل موسى ﷺ .

١ ـ وإيليا : هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) .

٢ ـ والمسيح : هو عيسى بن مريم عليه السلام (وقد أُطلق اسم المسيح على عدد من الأنبياء، مثل المسيح هارون، والمسيح اليشع، والمسيح داود، والمسيح سليمان، والذين يمسحون الناس والأماكن بالزيت المقدس لتكون مباركة، ويعتقد اليهود أنهم يخلونهم من أيدي الفلسطينيين وغيرهم) [محمد مجدي مرجان في كتابه « المسيح إنسان أم إله » وقد هداه الله للإسلام]

والبشارة في التوراة عن نبيٍّ مثل موسى عليه السلام من وسط إخوة بني إسرائيل (أي من بني إسماعيل)، لا يجوز إجراؤها على عيسى عليه السلام ، لأن عيسى ليس مثل موسى ، ثم إنه ليس من بني إسرائيل ولا من بني إسماعيل ، فقد خلقه الله من مريم بدون أب أصلاً ..

إن النبي المنتظر مثل موسى عليه السلام هو النبي محمد ﷺ كما بالتوراة في سفر أشعيا ٢٩/١٢ « يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له اقرأ هذا، فيقول : لا أعرف الكتابة.. » .

إنه رسول الله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ..

وقد أخبر موسى عليه السلام أنه ﷺ مثله ، وأنه من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل ..

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل عليه السلام ؛ وهم العرب الذين يسكنون برية فاران التي سكنها إسماعيل عليه السلام، وقد نصت التوراة أن إسحاق عليه السلام وأبناءه (بني إسرائيل) هم إخوة لإسماعيل عليه السلام كما جاء في سفر التكوين ١٦/١٢ « وأمام إخوته يسكن.. » هكذا بين =

٢ ـ وقد علموا يقيناً مهبط الوحي للنبي ﷺ ..

كما بنص التوراة: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران». [سفر التثنية ٣٣:٢]

وجبال فاران هي جبال مكة المكرمة؛ هكذا نصت التوراة.

«وأقام إسماعيل في برية فاران». [سفر التكوين ٢١:٢١]

وقد شرفه الله برفع قواعد الكعبة المشرفة مع أبيه إبراهيم عليهما السلام (باتفاق كل الأديان).. .. كما تنص التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى؛ كيف عاش إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام، في برية فاران، والتي تفجرت فيها بئر زمزم بمكة المكرمة، وذلك بالتمام. [بسفر التكوين٢١:١٤-٢١]

«وعاد إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزاً وسقاء من ماء، ودفعه إلى هاجر وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة وجلست مقابلته على مقدار رمية الحجر لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام حيث هو، فقال لها الملك. قومي فاحملي الغلام وشُدِّي يدك به فإني جاعله لأمة عظيمة، وفتح الله عينها فبصرت ببئر ماء، فسقت الغلام وملأت سقاها، وكان الله مع الغلام فتربى وسكن في برية فاران».

= أيديهم أن إخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولذلك أتى رسول الله محمد ﷺ من بني إسماعيل، وليس من بني إسرائيل، كما أخبر موسى عليه السلام..

وكذلك تكون أمة النبي ﷺ الذي من نسل إسماعيل عليه السلام أمة عظيمة كما نصت التوراة «أن الله قال لإبراهيم إني جاعل ابنك إسماعيل لأمة عظيمة إذ هو من زرعك». سفر التكوين ٢١:١٨

وقول الملك لهاجر أم إسماعيل عليهما السلام: «فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة وها أنت تحبلين وتلدين ابناً اسمه إسماعيل» سفر التكوين ١٦: ٨-١١.

٣ ـ إنه النبي ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي .. كما بنص التوراة: «وأجعل كلامي في فمه».. «كلامي الذي يتكلم به باسمي».. فهو لا يتكلم من نفسه، ولكن يتكلم بما يوحي إليه ربه.

ونفس الصفة يخبر بها المسيح عيسى عليه السلام:

«وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به». [يوحنا ١٦:١٢]

وفي نص آخر: «إني ذاهب، وسيأتيكم الفارقليط[1] روح الحق لا يتكلم من نفسه إنما هو كما يُقال له». [يوحنا ١٤، ١٥]

فالذي يأتي بعد المسيح عيسى عليه السلام لا يتكلم من نفسه، إنما كلامه يكون بالوحي (هكذا بين أيديهم)..

وهي نفس بشارة التوراة: «وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

إنه رسول الله محمد ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي، قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

٤ ـ النبي الأمي ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؛ كما بنص التوراة في سفر أشعيا:

«يدفع الكتاب إلى من لا يعرف الكتابة فيقال له اقرأ هذا، فيقول لا أعرف الكتابة». [أشعيا ٢٩:١٢]

فمن هذا النبي الأمي، والأمة التي قال لهم عنها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: «إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها»؟؟

عجيب.. كيف يضلون؟!

(١) الفارقليط: أي المعزي، والمحامي، والكثير الحمد.. وفي كثير من الطبعات الحديثة يحذفون كلمة الفارقليط ويكتبون معناها.. لأن مجموع إعداد حروفها هي: محمد ﷺ.

٥ ـ كذلك يقرءون بين أيديهم عن قول عيسى عليه السلام:

«الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب». [يوحنا ٢٥:١٦]

أ- هل يوجد غير النبي محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى (العالم) كل العالم، وليس لبني إسرائيل خاصة مثل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، والذي قال: «فإني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة».. أو المسيح داود، أو المسيح سليمان، أو المسيح اليشع - عليهم السلام جميعا -.

ب - «**ويسوسكم بالحق**».. فقد مكّن الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يحكم الناس بكتاب الله: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ وكذلك مكّن الله لموسى عليه السلام أن يحكم بين الناس؛ (فيعرفوا البشارة بين أيديهم: «أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك»).

ج - «**ويخبركم بالحوادث والغيوب**» .. إنه رسول الله محمد ﷺ الذي أخبرنا بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة .. [صحيح البخاري]

وقد أخبر المسيح عيسى عليه السلام أن الفارقليط بعده تكون رسالته خالدة وشاملة؛ «إني سائل له أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء». [يوحنا ١٤:١٦]

٦ ـ وهذا الفارقليط الآخر دلتهم عليه مخطوطات البحر الميت[1] بالنص: «إن عيسى كان مسيا المسيحيين وأن هناك مسيا آخر (ومسيا بالآرمية: تعني رسولاً).. .. ولذلك أخبرهم المسيح عيسى عليه السلام قائلاً:

(١) يقول القس أ. باول ديفن (رئيس كنيسة بواشنطن): «إن مخطوطات البحر الميت ـ وهي من أعظم الاكتشافات منذ قرون عديدة ـ قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل..».

(أفلا يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وهذه النصوص تدلهم على أن هذا النبي ﷺ ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل؛ وهم بنو إسماعيل .

ولذلك كان الأحبار والرهبان (علماء اليهود والنصارى) يعرفون جيداً أن هذا النبي ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام (وهم العرب) . . . .

وهذا هو السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي ﷺ إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي ﷺ من الأحبار والرهبان(١) .

---

(١) ولأن العرب هم بنو إسماعيل عليه السلام ، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه ممن ذهبوا إلى بلاد العرب؛ انتظاراً للنبي ﷺ، وترك رغد العيش في بلاد فارس والرومان .

ومن كتاب ديدات « ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ » :

لماذا محمد ﷺ هو النبي الذي مثل موسى عليه السلام، والمبشر به في التوراة والإنجيل؟

كان اليهود ينتظرون إلياً ، ومسيحاً ,ونبيًّا مثل موسى ﷺ . . . .

وقد سألوا يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) « هل أنت المسيح »، « هل أنت إيليا » ، « هل أنت النبي ﷺ » (يوحنا ١-٢٥) .. وذلك لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً وإيليا ونبياً مثل موسى ﷺ .

١ - وإيليا : هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) .

٢ - والمسيح : هو عيسى بن مريم عليه السلام (وقد أُطلق اسم المسيح على عدد من الأنبياء، مثل المسيح هارون، والمسيح اليشع، والمسيح داود، والمسيح سليمان، والذين يمسحون الناس والأماكن بالزيت المقدس لتكون مباركة، ويعتقد اليهود أنهم يخلونهم من أيدي الفلسطينيين وغيرهم) [محمد مجدي مرجان في كتابه « المسيح إنسان أم إله » وقد هداه الله للإسلام]

والبشارة في التوراة عن نبيٍّ مثل موسى عليه السلام من وسط إخوة بني إسرائيل (أي من بني إسماعيل)، لا يجوز إجراؤها على عيسى عليه السلام ، لأن عيسى ليس مثل موسى ، ثم إنه ليس من بني إسرائيل ولا من بني إسماعيل ، فقد خلقه الله من مريم بدون أب أصلاً ..

إن النبي المنتظر مثل موسى عليه السلام هو النبي محمد ﷺ كما بالتوراة في سفر أشعيا ٢٩ / ١٢ « يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له اقرأ هذا، فيقول : لا أعرف الكتابة . . » .

إنه رسول الله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ..

وقد أخبر موسى عليه السلام أنه ﷺ مثله ، وأنه من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل ..

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل عليه السلام ؛ وهم العرب الذين يسكنون برية فاران التي سكنها إسماعيل عليه السلام، وقد نصت التوراة أن إسحاق عليه السلام وأبناءه (بني إسرائيل) هم إخوة لإسماعيل عليه السلام كما جاء في سفر التكوين ١٦ / ١٢ « وأمام إخوته يسكن . . » هكذا بين =

٥ ـ كذلك يقرءون بين أيديهم عن قول عيسى عليه السلام:

«الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب». [يوحنا ٢٥:١٦]

أ- هل يوجد غير النبي محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى (العالم) كل العالم، وليس لبني إسرائيل خاصة مثل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، والذي قال: «فإني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة».. أو المسيح داود، أو المسيح سليمان، أو المسيح اليشع - عليهم السلام جميعا -.

ب - **«ويسوسكم بالحق»**.. فقد مكّن الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يحكم الناس بكتاب الله: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ وكذلك مكّن الله لموسى عليه السلام أن يحكم بين الناس؛ (فيعرفوا البشارة بين أيديهم: «أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك»).

ج - **«ويخبركم بالحوادث والغيوب»** .. إنه رسول الله محمد ﷺ الذي أخبرنا بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة .. [صحيح البخاري]

وقد أخبر المسيح عيسى عليه السلام أن الفارقليط بعده تكون رسالته خالدة وشاملة؛ «إني سائل له أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء». [يوحنا ١٤:١٦]

٦ ـ **وهذا الفارقليط الآخر** دلتهم عليه مخطوطات البحر الميت[١] بالنص: «إن عيسى كان مسيا المسيحيين وأن هناك مسيا آخر (ومسيا بالآرمية: تعني رسولاً).. .. ولذلك أخبرهم المسيح عيسى عليه السلام قائلاً:

(١) يقول القس أ. باول ديفن (رئيس كنيسة بواشنطن): «إن مخطوطات البحر الميت - وهي من أعظم الاكتشافات منذ قرون عديدة - قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل..».

(أفلا يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

«ابن البشر ذاهب، والفارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويفسر لكم كل شيء وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل». [يوحنا ١٤:١٦]

وأقول لمن يريدون الهدى: هو؛ من هو؟ ..

الذي لا يتكلم إلا بالوحي، ويفسر كل شيء، والذي بيّن الله.

به كل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

إنه رسول الله محمد ﷺ الذي يرشد البشرية إلى كل الحق كما بالنص، وبدقة النص؛ يقرءون:

«وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية» [يوحنا ١٦:١٣].

وصدق أصحاب النبي الكرام، حيث تواتر حديثهم:

«حدثنا رسول الله ﷺ بما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فأعلمنا أحفظنا».

[رواه مسلم]

٧ ـ حتمية تحويل لواء الهداية .. إلى أمة أخرى:

تعجب معي كيف يقرءون النصوص بين أيديهم:

«ألم تروا أن الحجر الذي أخره البناءون صار أُسًّا للزاوية من عند الله، كان هذا عجيبًا في أعيننا ومن أجل ذلك أقول لكم إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها ومن سقط على هذا الحجر ينشدخ». [متى ١:٤٢]

٨ ـ وهذه الأمة الأخرى هي الأمة الأمية التي مَنَّ الله عليها، وعلمها برسوله ﷺ كما بنص التوراة: «هم أغاروني بما ليس بإله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضًا أغيرهم بما ليس شعبًا، وبشعب جاهل أغضبهم».

[إصحاح ٣٢ سفر الاستثناء ١١]

هكذا ترجمتهم. وهي الأمة الأمية كما في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

وهكذا مِن أمة جاهلية(١) في ضلال مبين إلى أمة هداية، تحمل لواء هداية البشر إلى خالقها سبحانه، كما أجاب أحد أصحاب النبي ﷺ لملك الفرس حين سأله: من أنتم؟ .. فقال: «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

فكانت أمة الإسلام التي أكرمها الله بحمل لواء هداية البشر إلى خالقهم سبحانه .فيرون بأعينهم ما يقرءونه:

«إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها».

وكما في صحيح البخاري؛ قال رسول الله ﷺ: «مثل المسلمين، واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يومًا إلى الليل، على أجر

---

(١) يقول الأستاذ بشرى زخاري في كتابه (محمد رسول الله): «قد حاول بعض علماء اللاهوت رد هذه الجاهلية إلى الشعب اليوناني ,ولكن من الواضح أن اليونان قبل ظهور المسيح بمئات السنين، كانوا متفوقين في العلوم والفنون ن وكانوا ـ شعباً ـ واقفين على أحكام التوراة وسائر كتب العهد القديم. (عن كتاب التوحيد للزنداني)

ومن ينظر في التاريخ فسيجد الأمة العربية الإسلامية، لم تكن شعباً قبل بعثة النبي ﷺ .. بل قبائل متفرقة متناحرة، بغير ملك أو رئيس.. فيُعرف يقيناً أنها الأمة المذكورة في التوراة والإنجيل، والتي ينتقل لواء الهداية إليها، ويغتاظ بهم الضالون من بني إسرائيل.. حيث يعرفون أن العرب من نسل قيذار الذي من نسل إسماعيل؛ فيقرؤون ويغتاظون: «إن الله مظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبياً، وينزل عليه كتاباً ويملكهم رقابكم، فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال من بني قيذار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين يوقعون بكم، وتكون عاقبتكم إلى النار». إصحاح حزقيال ٢١

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم، فقال :أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم ما شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، واستأجر قوماً أن يعملوا بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليْهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

«... ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها...».

وهكذا أتم الله الدين برسوله محمد ﷺ حيث قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمَّها، إلا موضع لبنة منها، فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون: هلا وضعت تلك اللبنة؟! فكنت أنا تلك اللبنة».

[البخاري ومسلم والترمذي]

إنه رسول الله ﷺ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: «ألم تروا إلى الحجر الذي أخره البناءون صار أسًّا للزاوية من عند الله». [متى٢١:٤٢]

«ومن سقط على هذا الحجر ينشدخ..».

وكما بنص التوراة : «وأن الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أنتقم منه».

هكذا يقرءون بين أيديهم... وليتهم يسمعون: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

٩ ـ نداء ممن هداهم الله للإسلام(١):

تحويل القبلة من بيت المقدس أمر حتمي بعد:

(١) إنه إبراهيم الخليل، الذي كان قسيساً وأسلم والحمد لله (في كتابه: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن).

«يا أهل الكتاب كفاكم دوراناً حول هذا الجبل، واتجهوا إلى الصراط المستقيم أما جاءت تلك المرأة السامرية وأخذت تحاور المسيح ابن مريم حتى قالت له :آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون :إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، قال لها يسوع يا امرأة صدقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون لله، الله روح والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا». [يوحنا ٤:٢٠-٢٣]

ويقول الله في كتابه الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وصدق الله العظيم: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤].

١٠ ـ الامتحان الحاسم:

بعد مناظرة للشيخ ديدات مع أحد القساوسة(١).. كان على أثرها أن دعاه ذلك القسيس ليلقي كلمة في الكنيسة...!!

كتب الشيخ ديدات، تحت عنوان الامتحان الحاسم:

«إلى أتباع عيسى بن مريم عليه السلام أقول: لماذا لا نطبق الامتحان الحاسم الذي أراد عيسى عليه السلام منكم أن تطبقوه على أي شخص يدعي النبوة؟ (إذا كان نبيًا بصدق أم لا).

قال المسيح بن مريم عليه السلام: «من ثمارهم تعرفونهم، أيثمر الشوك عنبًا، أم العليق تينًا؟. كل شجرة جيدة تحمل ثمرًا جيداً، وكل شجرة رديئة تحمل ثمراً

(١) قسيس من الكنيسة الهولندية في جمهورية جنوب إفريقيا ويدعى (فان هيدرن).

رديئًا، فما من شجرة جيدة تحمل ثمراً رديئًا، وما من شجرة رديئة تحمل ثمراً جيداً». [متى ٧:٢٠]

يقول الشيخ: لماذا تهابون من تطبيق هذا الامتحان على تعاليم نبي الله محمد ﷺ؟

فإننا نجد في القرآن الكريم رسالة كاملة متممة لما جاء على لسان موسى وعيسى عليهما السلام ....

ثم استشهد بكتاباتهم أنفسهم من باب ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ..﴾ ومنها: قول برنارد شو: لو أن شخصًا مثل محمد ﷺ تولى الحكم المطلق للعالم لاستطاع أن يعالج مشاكل العالم، ويوفر له السلام والسعادة لأن العالم في أَمَسِّ الحاجة لهما ..

ثم عن مجلة التايمز ١٥/٧/١٩٧٤ دراسة قامت بها لمعرفة آراء الكثيرين من المؤرخين والكتاب ورجالات الجيش والأعمال، حول موضوع: من هو أعظم قادة العالم؟

فكانت دراسة العالم النفساني الأمريكي جولز ماسرمان، عبارة عن وضع ضوابط علمية أساسية(١) ... ثم من خلالها قال ما نصه: «ولعل أعظم قائد في التاريخ هو محمد ﷺ الذي جمع بين الضوابط الثلاثة، وموسى عليه السلام تقريباً جمع بينهم كذلك».

---

(١) الضوابط الأساسية التي وضعها هي:

١ ـ القائد العظيم يوفر الخير والسعادة لأمته.

٢ ـ يوفر نظاماً اجتماعياً متكاملاً يعطي الشعور بالأمان للأمة.

٣ ـ يوفر للأمة معتقدات ومبادئ يؤمنون بها .. ..

(وكل من دخل الإسلام يعلن أنه لم يعرف السعادة إلا بعد إسلامه ـ ويكفينا بلد لا يخاف أصحاب المحلات فيها إذا تركوها مفتوحة، وبين بلد آخر يخاف الرجل على أمواله وهو يمشي وسط الناس – وأما المعتقدات فما أعظم الذي أنزل إلينا من ربنا ..والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة).

وهكذا يشهدون أن محمداً ﷺ وموسى عليه السلام مثل بعضهما . وما زاد قولهم عن قول موسى عليه السلام:

« سيقيم الله لكم نبيًا من إخوتكم مثلي ».

لمن يريدون الهدى:

لقد سجلت التوراة والأناجيل نصوصًا كثيرة عن صفات الذي يأتي بعد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وأن الذي يأتي بعده لا يتكلم إلا بالوحي ويخبر بالحوادث والغيوب ... إلخ

ولكن .. لا بديل من دعاء الخالق سبحانه أن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، فهو سبحانه الذي جعلنا نرى، وهو يرانا دائماً، وهو سبحانه الذي جعلنا نسمع، وهو يسمعنا دائماً؛ فندعوه سبحانه أن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يهدينا إلى رضاه.. فإن رضاه سعادة إلى الأبد..

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾.

فندعوا الخالق سبحانه، هو يهدينا،،[1].

١١ ـ سؤال عميق ممن هداهم الله للإسلام[2]:

لماذا اعتمد أباطرة الرومان فكرة التثليث وعذبوا الموحدين؟؟!

لأنها تتوافق مع وثنيتهم وآراء الفلاسفة لهم...

فكرة الثالوث معدومة في أناجيل متى ولوقا ومرقص ..أما يوحنا فقد كتب خصيصًا لتقريرها وإثباتها بعد أن اتجهت شكاوى الأساقفة إلى يوحنا من اعتراض

---

(١) إنك إذا طلبت من إنسان أن يهديك طريقاً ، فإنه يدلك ، فكيف إذا طلبت من الله سبحانه الكريم.. ! لقد قال الله عز وجل: « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » صحيح مسلم .

(٢) إنه محمد مجدي مرجان ، في كتابه « المسيح إنسان أم إله ».

الجيل الأول من المسيحيين الموحدين عليها، والذين آمنوا بعيسى رسول الله، وآمنوا بكل رسل الله الذين قالوا جميعًا .

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

ثم إن الأناجيل التي نقلت أقوال المسيح وأفعاله وتعاليمه منذ طفولته إلى نهاية بعثته، لم تنقل عنه قولاً واحداً يدعو فيه إلى نفسه أو اعتباره الأقنوم الابن لله (وسبحان الله) بل كل ما قاله : إنه إنسان من خلق الله، وقد جعله الله رسولاً نبيًّا حتى في يوحنا قول عيسى عليه السلام لليهود « تريدون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله . . » ولو يعلم تلاميذه ومرافقوه أنه إله أو ابن إله، لسارعوا إلى عبادته والاتجاه إليه في صلواتهم، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث ، بل في صريح الأناجيل أنهم كانوا يلقبونه بـ « المعلم » و « النبي » . . وما هذه الصفات من صلاته ونومه وأكله وشربه... إلخ إلا شاهد على ذلك .

١٢ ـ كلمة حق يصدع بها من هداهم الله للإسلام ..

إنه لا يستطيع عاقل أن ينكر تضييع أهل الكتاب لما استحفظوا من كتاب الله؛ من التوراة والإنجيل ..

فالتوراة ـ التي يقولون : كتبها موسى ـ تقول لهم : « ولما مات موسى رجل الرب ودفن في أرض معاد » . [سفر التثنية :اصحاح ٣٤]

فكيف يكتب موسى عليه السلام أنه مات ودفن؟! . . .

أما الأناجيل فيكفي نظرة واحدة إلى الأنساب التي ينسبونها للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وتضاربها واختلافاتها(١) . . وكل هذا وهم يقرون أنه ولد من مريم بدون أب أصلاً . . . !!

---

(١) النسب حسب إنجيل متى : داود – سليمان – رحيعام – أبيا – آسا – يهوشافاط – يورام – عريا – يوتام – أجاز – حزقيا – منسا – أمون – يوشيا – يكتيا – شالتئيل – زربابل – ابيهود – الياقيم – عازور – صادق – اكيم – اليهود – العازر – منام – يعقوب – يوسف – عيسى عليه السلام =

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

١٣ ـ الله سبحانه هو الذي يؤيد بالمعجزات:

لقد تكرر في جميع الأناجيل أن عيسى عليه السلام يتجه ويصلي لله تعالى، طالباً أن يؤيده الله، ومن هذه النصوص:

« ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء »(١).

« أخذ السبع خبزات والسمك وشكر (أي صلى) وكسر».

فلمن يشكر ويصلي ؟؟ .. .. إن الناس من حول عيسى عليه السلام وتلاميذه يعرفون جيداً أنه يصلي لله، ويتجه لله سبحانه، والدليل أنهم شكروا الله، وعبدوا الله، ولم يتجه أحد منهم بعبادة للمسيح بن مريم أو أمه عليهما السلام.

١٤ ـ هكذا يفهم الناس من معجزات الرسل أن الله هو الذي يؤيدهم:

ـ « فانتهر يسوع الروح النجس، وشفى الصبي، وسلمه إلى أبيه؛ فبُهت الجميع من عظمة الله ». [لوقا ٩: ٣٧-٤٣]

نعم بهت الناس من عظمة الله، وليس تعظيما للمسيح ابن مريم ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا أنه رسول من الله وأن الله هو الذي يؤيده بالمعجزات. فلذلك يفهم الناس من الرسل أنهم يمجدون الله .

= النسب حسب إنجيل لوقا: داود - ناثان - متانا - مليا - الياقيم - يونان - يوسف - يهوذا - شمعون - لاوي - منات - يوريوم - عازر - يوسي - غير - الودام - موسام - آديملكي - نيري - شالتنيل - زربايل - ريسا - يوحنا - يهوذا - يوسف - شمعي - منتيا - بآت - نجاي - حسلي - ناجوم - عاموس - منتتا - يوسف - نيا - ملكي - لاوي - مثات - غالي - يوسف - عيسى عليه السلام .

(موريس بوكاي في كتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)

(١) تكررت نصوص توجه المسيح عيسى عليه السلام إلى الله تعالى بالدعاء والصلاة، في كثير من المواضع منها؛ في متى: ٥ :١٤-٢١، وفي مرقص ٦ :٢٤-٤٤، لوقا ٩ :٧-١١ يوحنا ٦ :٥-٧.

ـ « فلما رآها يسوع، دعاها وقال لها يا امرأة إنك محلولة من ضعفك، ووضع عليها يديْه ففي الحال استقامت ومجدت الله » . [لوقا ١٣:١١]

نعم مجدت الله ولم تمجد عيسى بن مريم عليه السلام لأن الناس يعرفون أن المعجزات التي على يد عيسى عليه السلام إنما هي تأييد له من الله .

١٥ ـ يتعجبون ويمجدون الله تعالى، أما أتباع الشياطين فإنهم يشركون بالله ..

ـ « حينئذ قال: قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته، فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله » . [متى٩:٨] .. .. نعم مجدوا الله؛ لأنه لم يفهم أحد من أتباع عيسى –عليه السلام– ولا من أعدائه أنه إله أو ابن إله ولكنْ رسول من الله، ومعجزاته تأييد له من الله .

١٦ ـ وهكذا كان الناس يلقبون عيسى عليه السلام:

« يا معلم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلما، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات والمعجزات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه » . [يوحنا ٣:١–٢]

هكذا تقرر كل الأناجيل أن كل الذين عاصروا المسيح ابن مريم عليه السلام يعرفون أنه رسول من الله، عندما يرون المعجزات ويؤمنون بها..

« فلما قام عيسى عليه السلام بإحياء ابنة أرملة نابين؛ أخذ الجميع خوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم » . [لوقا ٧:١١–١٧]

نعم يفهم الناس حين يؤمنون؛ أن عيسى عليه السلام نبي ورسول من عند الله.

وبالتمام عندما رأى الناس معجزات الرسول محمد ﷺ مثل نبع الماء من بين أصابعه، ليملأ كل الجيش آنيتهم (البخاري) لم يَدَّعِ أحد من أصحاب النبي ﷺ أنه

إله أو ابن إله، بل الجميع عظموا الله تعالى.. ولم يقولوا إلا أن محمداً ﷺ رسول من عند الله.

ومن معجزات النبي ﷺ :

في الصحيحين من حديث أنس، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما، وروى الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا :سحرنا محمد، فقالوا :انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال :فجاء السفار فأخبروهم بذلك». [أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود]

ومن عجائب معجزات النبي ﷺ حنين الجذع شوقًا إليه، فقد روى الكثير من الصحابة من طرق كثيرة، كما جاء في البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى نخلة، فقالت امرأة من الأنصار: ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً فلما كان الجمعة رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة، فنزل رسول الله ﷺ وضمها إليه، فجعلت تَئِنُّ أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها، قال القاضي: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، خرَّجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر.

ومن آياته ﷺ : نبع الماء من بين أصابعه ﷺ.. قال القرطبي: نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ قد تكرر في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ، وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: «نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم» انتهى.

وفي الصحيحين عن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوَضوء في إناءٍ، فوضع يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم، وفي لفظ: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى توضأ القوم، فقلت لأنس . كم كنتم؟ قال: ثلاث مئة ..

وفي الصحيحين أيضاً: عن جابر – رضي الله عنه – قال: عطش الناس يوم الحديبية، فأتوا رسول الله ﷺ وبين يديْه ركوة، فقالوا: ليس عندنا ما نتوضأ به، ولا نشرب إلا ما في ركوتك، فوضع ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأنا وشربنا، قيل لجابر :كم كنتم يومئذ؟ قال :لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة.

وموقف آخر في صحيح مسلم: نبع الماء في غزوة بواط أيضًا وفيه قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة، واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناس بالاستقاء، فاستقوا حتى رووا وموقف آخر.. في الصحيحين عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ اطلبوا من معه فضل ماء، فأتي بماء، فصبه في إناء ثم وضع كفه فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام، وهو يأكل.

[أخرجه البخاري والترمذي والنسائي]

وموقف آخر .. روى مسلم في صحيحه عن معاذ – رضي الله عنه – قصة عين تبوك أنهم جاءوها وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك قال ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء، ثم غسل وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس.

وموقف آخر .. في صحيح البخاري في غزوة الحديبية من حديث المسور بن مخرمة، ومروان أنهم نزلوا بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس

تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه .

وروى البخاري ومسلم عن أنس – رضي الله عنه – قال: أصاب الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ .. فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال؛ فادع الله لنا فرفع ﷺ يديه وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها، حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته ﷺ فمُطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي، فقال: يا رسول الله، هدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا فرفع يديه، وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة في مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهراً، ولم يجئ أحد من ناحيته إلا حدّث بالجود.

ومن آياته ﷺ تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه: في الصحيحين عن جابر في حديثه ـ في غزوة الخندق ـ قال: فانكفأت إلى امرأتي فقلت هل عندك شيء، فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديداً، فأخرجت جرابًا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن، فذبحتها وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا، وطحنّا صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ «يا أهل الخندق إن جابراً صنع سؤداً، فحي هلا بكم، وقال ﷺ: «لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى آتي» فأخرجت له عجينًا فبصق فيه، وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم، ولا تنزلوها، وهم ألوف، فأقسم بالله إنهم أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو..

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقال عمر: يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم بالبركة، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة . .».

وفي الصحيحين عن أنس قصة إطعام النبي ﷺ أصحابه وكانوا زهاء ثلاث مئة رجل من (حيس) أرسلت به أم سليم مع أنس، وأنهم أكلوا عشرة عشرة حتى شبعوا، فقال أنس: فما أدري حين وضعت كانت أكثر، أم حين رفعت؟ .

ومن آياته ﷺ إجابة دعائه ﷺ؛ وهذا باب واسع جدا، وإجابة دعوة النبي ﷺ متواتر على الجملة، معلوم ضرورة، وقد جاء في حديث حذيفة: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده، ففي البخاري دعاء النبي ﷺ لأنس رضي الله عنه قال: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيته، قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم على نحو المئة، قال القاضي أبو الفضل: ومن هذا؛ دعاؤه ﷺ لمعاوية بالتمكين في البلاد، فنال الخلافة، ولسعد بن أبي وقاص أن يجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له، ودعا بعز الإسلام بعمر، أو بعمرو بن هشام فاستجيب له في عمر، قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فدعا ﷺ فجاءت سحابة فسقتهم حاجتهم، ثم أقلعت، ودعا في الاستسقاء فسقوا، ثم شكوا إليه ضرر المطر، فدعا فضحوا، وقال للنابغة: لا يفض

الله فاك، فما سقطت له سن، وعاش عشرين ومئة سنة، ودعا لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل «فسمي بعد» الحبر، وترجمان القرآن».

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه، ودعا للمقداد بالبركة فكان عنده غرائر من المال، ودعا لأم أبي هريرة، فأسلمت، ودعا لعلي – رضي الله عنه – أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد..

وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه لما ذهب إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فقال: اللهم نور له، فسطع له نور بين عينيه، فقال: يا رب أخاف أن يقولوا مُثْلة، فتحول إلى طرف سوطه فكان يضيء في الليلة المظلمة فسمي ذا النور، ودعا على مضر فأقحطوا حتى استعطفته قريش فدعا لهم فسقوا، ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه فلم تبق له باقية.

وفي الصحيحين من رواية ابن مسعود في دعائه على قريش حين وضعوا السلى على رقبته وهو ساجد وسماهم قال: فوالذي بعث محمدا بالحق لقد رأيت الذي سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر.

وفي حديث أبي سعيد في غزوة خيبر أن رسول الله ﷺ قال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال فأرسل إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، أخرجه البخاري.

وأصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني تقذرني، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها، قال: اللهم اكسه جمالاً، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى، ومثل ذلك كثير وكثير من تأييدات الله تعالى لرسوله ﷺ .

ومعجزات النبي ﷺ أكثر من أن تُحصى.. ودائماً؛ يفهم الذين رأوها أنها تأييد من الله، فيعظمون الله، ويمجدون الله . . .

ذلك لأنه لا يأتي نبي من الأنبياء، ثم يدّعي شريكا لله ..

قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

نعم ﴿**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ ..

.. وهكذا قال عيسى عليه السلام [كما في متى٥: ١٧-١٨]

«ما جئت لأبطل، بل لأكمل، الحق أقول لكم، قبل أن تزول السماء والأرض لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء.. ..» وهذه هي الحقيقة؛ أن عيسى عليه السلام لم يأت بدين غير دين الأنبياء. بل جاء بما جاء به كل الأنبياء عليهم الصلاة السلام: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾.

وهكذا يؤمن جميع المؤمنين؛ بما أنزل الله تعالى على جميع رسله الكرام . . .

قال الله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٦].

١٧ ـ أمثلة كثيرة تدلهم على أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لم يخالف دينه دين الأنبياء؛

أ ـ اختتان عيسى عليه السلام اتباعًا للتوراة، أما الضالون فإنهم لا يتبعون . . . .

ففي السفر الأول من التوراة الفصل ١٧: ١٠-١١ أن الله قال لإبراهيم: «وأنت عهدي تحفظ أنت ونسلك بعدك لأجيالهم، هذا عهدي الذي تحفظه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك أن يختتن كل ذكر منكم»..

فما معنى هذا النص؟ .. .. أليس صريحا في أن شرع الختان ثابت على ذرية إبراهيم عليه السلام وأتباعه ؟

فكيف يجعلون من شريعة عيسى عليه السلام إبطال الختان لمجرد متابعة دين قسطنطين!! (وقد عمل على تحريف تعاليم المسيح عليه السلام)

ب ـ فكرة توارث الخطيئة مرفوضة في الكتاب المقدس:

في سفر التثنية ٢٤ : ١٦ :.. «لا تقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل».

وفي حزقيال ١٨ : ٢٠ .. «النفس التي تخطئ هي تموت، والابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون» .. فكيف إذن يرى أصحاب الخطيئة غير ذلك ؟ ويقولون: بالخطيئة حبلت بنا أمهاتنا »!! .. .. رغم أن آدم عليه السلام قد اجتباه ربه وتاب عليه، وهو نبي الله .. .. وهكذا

يضطرون ويقرون حجة الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾

[النجم:٣٦-٤١]

١٨ ـ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها :

في يوحنا ١٨ : ٦ .. «لما قال لهم: إني أنا هو، رجعوا إلى الوراء، وسقطوا على الأرض» وهكذا يعرفون أن عيسى عليه السلام ينجيه ربه دائماً .. .. فما الذي حدث؟؟ .. ..

في برنابا ٢١٣ : ٢٤-٢٦ .. «إن واحداً منكم سيسلمني، فأُباع كالخروف، ولكن ويل له، لأنه سيتم ما قاله داود أبونا عنه أنه سيسقط في الهوة التي أعدها للآخرين».

وفي برنابا ٢١٣:٢٤-١٤.. «اعلم يا برنابا أنه سيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وإني على يقين من أن مَن يبيعني يقتل باسمي لأن الله سيبعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي».. .. وهكذا يعرفون ولا ينكرون ؛ أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

١٩ ـ ولا ينكرون أن عيسى عليه السلام معصوم:

ففي يوحنا ٧:٤٤.. «وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه، لكن لم يلق أحد عليه الأيادي».. .. في ٨:٥٩ «فرفعوا حجارة ليرموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا».

وفي ١٠:٢٩ «فطلبوا أيضا أن يمسكوه فخرج من أيديهم».

وذلك لأن الله تعالى كفّ بني إسرائيل عن عبده عيسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ [المائدة:١١١].

والحقيقة واحدة:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

٢٠ ـ الله تعالى لا تدركه الأبصار، حقيقة وردت في كافة الكتب السماوية ..

ففي التوراة أن موسى عليه السلام طلب أن يرى وجه الله فأجابه سبحانه : «لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش» خروج ٢٣:٢٠ كذلك يقرر يوحنا ١:١٨ «الله لم يره أحد».. .. حتى بولس قد أقر بذلك «الله لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» تيموثاوس ٦ : ١٦.

وهكذا يعرفون ولا ينكرون؛ أن الله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

٢١ ـ وأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا أنه إنسان:

فلقد تكرر لفظ «ابن الإنسان» على لسان عيسى عليه السلام؛ ففي متّى: ٨:٣٠، ١١:١٩، ١٢:٣٢–٤٠، ٢٠:٢٨، ٢٤:٣٠ و٢٥:٣١، ٢٦:٢٤. وفي مرقص: ٢:٢٨، ٤:٤١.. وفي لوقا: ٩/٥٦/١٧:٢٤، ٨:٨.. وفي يوحنا ٣:١٣، ٥:٢٧/١٣:٣١، ٦:٢٧.

٢٢ ـ وعيسى عليه السلام رسول الله، لا يصنع إلا ما أمره الله:

في يوحنا ٦:٣٨ يقول عيسى عليه السلام «ما أتيت لأصنع مشيئتي بل مشيئة من أرسلني».. وفي يوحنا ٧:١٦؛ «كما أن تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» فمن أرسل عيسى عليه السلام؟ إن الذي أرسله هو سيده ومولاه، الله سبحانه وتعالى.

٢٣ ـ وهكذا يخبرهم عيسى عليه السلام أنه نبي من أنبياء الله تعالى:

في لوقا ١١:٣٠ «وكما كان يونان (يونس عليه السلام) آية لأهل نينوى، كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل».

.... (الكلام الفصل) ....

إن تلاميذ عيسى عليه السلام الذين كانوا لا يفارقونه الليل والنهار، والذين كانوا يعرفون من أمور عيسى ما لا يعرفه العامة، ماذا عرفوا عن عيسى ؟؟ وماذا حسبوه ؟؟ .. ..

إنه رسول الله إلى بني إسرائيل كما أخبرهم: «إنني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة».

٢٤ - إلى أولئك الذين يشركون بالله: «أفلا تعقلون»

وفي متى ٤ : ١ - ١٠ (كيف أخذ الشيطان عيسى عليه السلام؟ ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عالٍ جداً، و أراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع :اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد).

فلو أنهم يعقلون وهم يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام فبماذا يغريه الشيطان ؟؟

أيغريه بالدنيا، ويكون هو صانعها ؟؟!!

أم يغريه بالناس، ويكون هو خالقهم؟؟!!

إن فشل الشيطان في غواية المسيح عيسى عليه السلام متكرر مع كل الأنبياء.

قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ**

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام لم يصلِّ إلا لله وحده ولم يسجد إلا لله وحده؛ هكذا يتكرر كثيراً بين أيديهم: «وفي تلك الليلة خرج إلى الجبل وقضى الليل كله في الصلاة لله» لوقا /١٢٦.

قال الله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾

[النساء:١٧٢]

ولقد أثنى الله تعالى على الذين يسلمون من أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

انتباه الغفلة

تعليمات الأنبياء ونداء الفطرة

إن الذي يصدق الفطرة ولا يخفيها ؛ يعلم أن له خالقًا عظيمًا ..فالشمس تدل على خالقها.. فهي لا تأتي من نفسها.. والأرض تدل على خالقها فهي لا تأتي من نفسها .

وليس نداء للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة عن خالقهم إلا نداءً واحداً، وهو نداء كل الأنبياء:

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] .

وبالفطرة تتحدد حالة الإنسان ؛ فإن صنع الإنسان شيئًا يوافق الفطرة فإن النفس تطمئن إليه .. وإن صنع شيئًا يخالف الفطرة فإن النفس تضطرب ..

ولذلك جاءت تعليمات الأنبياء موافقة للفطرة ؛ أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر ..وهكذا يعلمهم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: «من ثمارهم تعرفونهم» .. وهكذا أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بعبادة الله وحده، وصلة الأرحام، ونصر الضعيف، وفك الرقاب، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك...(١).

(١) إن الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بدينه دين الإسلام، المبني على الأصول التي اتفق عليها كل الأنبياء والمرسلين .. فدين أصله الإيمان بالله، وثمرته السعي في كل ما يحبه ويرضاه، وإخلاص ذلك كله لله؛ هل يتصور أن هناك دينًا أحسن منه وأفضل؟! .. في دين الله أمر بكل حق، واعتراف بكل صدق، وبكل حقيقة عقلية فطرية نافعة.. ودين الله لا يرد حقًا ولا يصدق كذباً .. يامر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، ومصالح العباد، ويحث على العدل والفضل، والرحمة والخير .. =

﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار».

[صحيح مسلم]

= ويزجر عن الظلم والبغي ومساوي الأخلاق.. ما من خصلة كمال قررها الأنبياء والمرسلون إلا قررها وأثبتها، وما من مصلحة دينية ودنيوية دعت إليها الشرائع إلا وحث عليها.. ولا مفسدة إلا نهى عنها وأمر بمجانبتها؛ إنه دين الله. (كتاب «من محاسن الدين الإسلامي»).

وفي كتب الأولين

قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦].

فرسول الله محمد ﷺ في الكتب التي تقدسها الديانات الأخرى، وإن كان الذي بين أيديهم بقايا من بقايا كلام الأنبياء الأولين.

(١) في كتاب «السامافيدا» أحد الكتب المقدسة لدى البراهمة :

«أحمد تلقى الشريعة من ربه، وهي مملوءة بالحكمة، وقد قُبست من النور كما يقبس من الشمس».

(٢) وفي كتاب «ندا أفستا» :

بشارة عن رسولٍ يوصف بأنه «رحمة للعالمين» «سوشيانت»... ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبو لهب، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفواً أحد(هيج جيزبار ونمار) وليس له أول ولا آخر، ولا ضريع ولا فريع، ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا ولد، ولا مسكن ولا جسد، ولا شكل ولا لون ولا رائحة (حز أخاز وانجام وابنا زود شمس والمننر ويار وپدر ومادر وزن وفرزند وماي سوى ومن آسيا وتنافى ورنك وبواست)..

(٣) وفي الكتب الزرادشتية :

«إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعهُ فارسَ، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، يومئذ يصبحون – وهم أتباع للنبي – رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ

وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم، وإن نبيهم ليكونن فصيحًا يتحدث بالمعجزات».

(٤) وفي كتاب أورو أفيدم (ادهروويدم):

وصف للرسول الذي سيأتي وذكره باسمه: «أيها الناس اسمعوا وعوا يبعث المحمد بين أظهر الناس .. وعظمته تحمد حتى في الجنة ويجعلها خاضعة له وهو المحامد».

(٥) وفي كتاب بفوشيا برانم (بهوش برانم):

«في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم (محامد) الملقب بأستاذ العالم(١) والملك يطهره بالخمس المطهرة». [ج٢ فصل ٣ عبارات ٣ وما بعدها]

(٦) وأيضاً في كتاب بنوشيا برانم؛ وصف لأصحاب النبي ﷺ: «هم الذين يختتنون، ولا يربون القزع، ويربون اللحى، وينادون الناس للدعاء بصوت عال، ويأكلون أكثر الحيوانات إلا الخنزير، ولا يستعملون الدرباء للتطهير بل الشهداء هم المتطهرون، ويسمون بمسليٍّ بسبب أنهم يقاتلون من يلبس الحق بالباطل ودينهم هذا يخرج مني وأنا الخالق». [جزء ٣ فصل ٣ عبارات ٢٧-٢٨]

فمَن أولئك الذين ينادون بالدعاء (الصلاة) بصوت عال (الأذان)؟

إنهم المسلمون؛ يؤذنون كل حين، ويدعون الناس إلى الله خالقهم وخالق كل شيء ..

---

(١) ونفس الصفة أخبر بها المسيح عيسى بن مريم بقوله: «إن أركون العالم سيأتي».. وأركون تعني السيد، والأستاذ .(كتاب هداية الحيارى).

... ومسك الختام ...

يقول الله سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

[آل عمران:٨١]

والحمد لله الذي يسر الهدى لمن أراد الهدى ..

وهكذا ليرى كل إنسان بعينيه أن الله غالب على أمره، وهو القاهر فوق عباده، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

أما أولئك الذين يتولون على وجوههم مدبرين ..

فوالله لا يعجزون الله رب العالمين .

فـ. النهاية الحتمية للأشرار وأعوان الدجال .

أولئك الذين يخفون فطرتهم ويفسقون وينسلخون من أمر الله تعالى في فطرتهم، فإنهم يحاولون جعل مخالفاتهم قانونًا ليسوّغوا لأنفسهم الظلم، ويرون الشبهات لتزيغ قلوبهم عن الحق، ويظنون الظنونَ .. ..

ذلك ليتم كلام الله ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٩].

أولئك الذين يحاربون دين الله، لما فسقوا؛ وقعوا في شبهاتٍ وأباطيل وضلوا عن سبيل الله .. ..

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾

[الزخرف:٣٦]

ولهم أقول ؛ نصيحتي إليكم وأنا حريص عليكم ....

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

[هود:٣]

وأقول لأولئك الذين يتولون: إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. سيحشر الله أئمة الكفر والضلال وأتباع الدجال، ويكون قتلهم شر قتلة.. .. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ [طه:١٢٧].

هكذا أجمل النبي ﷺ : « ثم تغزون الدجال فيفتحه الله ». [رواه مسلم]

وقد أخبر النبي ﷺ أن المسلمين يغزون الدجال وأعوانه من اليهود[١] عند بيت المقدس والذي يكون محاصراً فيه بعض المسلمين[٢].

وقال النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر أو الشجر، فيقول: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود».

[رواه مسلم]

قال النووي رحمه الله : « الغرقد؛ نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس وهناك يكون قتل اليهود». ا.هـ

---

(١) روى الإمام أحمد.. عن النبي ﷺ قال: «أكثر أتباع الدجال، اليهود والنساء» الصحيحة ٣٠٨٠.

(٢) انظر تعليق الشيخ الألباني على صحيح الجامع الصغير.

وهكذا أيضاً أخبر عيسى عليه السلام قائلاً لليهود :

« لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهرقة على الأرض، من دم هابيل الصالح، إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه عند المذبح، إنه سيأتي جميع ما وصفت على هذه الأمة، يا أورشليم التي تقتل الأنبياء وترجم من بعث إليك، أردت أن أجمع بنيك كجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، وكرهت أنت ذلك، سأقفز عليكم بيتكم، وأنا أقول لا تروني الآن، حتى يأتي من يقولون له: مبارك » . [متى ٢٣:٣٣-٣٩]

فأخبرهم عيسى عليه السلام أنهم لابد أن يستوفوا الصاع الذي قدر لهم، وأنه سيقفز عليهم بيتهم أي يخليه منهم، وأنه يذهب عنهم فلا يرونه حتى يأتي من يقولون له مبارك (رسول الله ﷺ)، الذي انتقم بعده لدماء المؤمنين، وهذا نظير قوله في الموضع الآخر: « إن خيراً لكم أن أذهب عنكم حتى يأتيكم الفارقليط، فإنه لا يجيء ما لم أذهب » . .

والفارقليط والمبارك الذي جاء بعد المسيح ابن مريم عليه السلام هو محمد ﷺ الذي شهد له عيسى عليه السلام كما شهد له النبي ﷺ أنه عبد الله ورسوله، وأن الله تعالى يجعل قتل الدجال وأعوانه الأشرار عند بيت المقدس على يد عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين.

[من كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم رحمه الله]

من هو المسيح الدجال وكيف يعصمنا الله من فتنته ؟ ؟

إنه أعور ويدعي الألوهية وهو كاذب، فهو لا يستطيع أن يزيل ما به من عور، ويخرج للبشرية بالرخاء الذي يجعله الله معه فتنة لإيمان الناس، حيث يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت لمن يستجيبون له، ويا لها من فتنة رهيبة حيث إنه يخرج بعد سنين من الجدب الرهيب، حتى إن السنة التي يخرج فيها « يأمر الله الأرض فتحبس نباتها كله، ويكفي المؤمنين التهليل والتكبير والتحميد » .

[الحديث بصحيح الجامع]

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم فتنة من الدجال». [صحيح الجامع الصغير]

وأول هذا الحديث: «يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم فتنة من الدجال». [صحيح الجامع الصغير ٧٨٧٥]

وكيف يعصمنا الله من فتنة الدجال؟

قال رسول الله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف (أو آخرها) عصم من فتنة الدجال». [رواه مسلم]

كما أنه محرم عليه دخول مكة المكرمة والمدينة المنورة (وهما أجمل ما يلوذ إليه المؤمنون آنذاك) عافانا الله جميعاً، آمين..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أول سورة الكهف.

* * *

ونصيحتي لكل مسلم

لقد جعل الله تعالى للهداية أسبابًا، كما جعل للرزق أسبابًا .

ومن أسباب الهداية ؛ الاجتهاد في العمل بما نعلم ، ودعوة الناس إلى الحق كما قال سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

والدعوة إلى الله سبحانه هي سبيل النبي ﷺ ومن اتبعه إلى يوم الدين، كما قال الله سبحانه :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويدعو إلى الله على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان عقلي وشرعي.

ا.هـ

* * * * *

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المبعوث إلى الأحمر والأسود والمبشر به عندهم أجمعين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد فهذه جملة من البشارات عن نبينا محمد ﷺ توجد في كتب الهندوس، لم تخرج حتى الآن إلى عالم العرب فيما أعلم. بينما هي أقوى مما يوجد عند اليهود والنصارى، فاقترح بعض الإخوان جمعها وترتيبها حتى يمكن تقديمها إلى المسلمين وغير المسلمين فقمت بذلك. وبالله التوفيق.

نبذة عن الديانة الهندوسية:

يعترف المتخصصون في الديانات - وفيهم كبار الباحثين من الهندوس - بأن الديانة الهندوسية ديانة عسيرة الفهم جداً، يصعب - بل لا يمكن - التعريف بها وبيان حدودها بالضبط، فإنها لا توجد لها مبادئ ولا معتقدات يمكن أن يقال إن هذه الديانة تبتني عليها، ولا يعرف لها رسول ولا نبي معين، ولا هاد، ولا مرشد خاص يمكن أن ينسب إليه تأسيس هذه الديانة وبداية الدعوة إليها، كما لا يعرف لها مصدر ولا كتاب اتفق الهندوس على أنه الحجة والمرجع الأخير فيها. بل الحقيقة أن هذه الديانة مجموعة هائلة من الأوهام والمعتقدات المتناقضة، ومن الطرق العملية المتضاربة التي توارثها الهندوس واستقوها من منابع شتى في مجال تزكية الروح وتنميتها، ومحاولة الصعود بها إلى مدارج الكمال، حسب هؤلاء المعتقدين المتوهمين وأصحاب الطرق.

هذا جانب كونها فلسفة اجتماعية تضبط حياة الإنسان ضبطًا يبتني على الجور والحيف، وعلى استغلال مواهب وقدرات الضعفاء والمنبوذين ـ باسم الديانة ـ استغلالاً بشعًا قلما يوجد له نظير.

إذ تبتني هذه الديانة أو الفلسفة على تفرقة عنصرية شديدة، وتقسم الإنسان خلقًا على أربع طبقات، أعلاها برهمن ثم الكشتري أوراجفوت ثم ويش وآخرها شودر، وهم الأنجاس المناكيد، والمنبوذون الأرازل، لم يخلقوا إلا لخدمة من فوقهم من الطبقات.

وكان من الممكن معرفة أصل هذه الديانة وحقيقتها بإلقاء نظرة عابرة على تاريخ أهلها، إلا أن تاريخهم أيضًا لا يختلف عن ديانتهم في الجمع بين الغث والسمين، وفي التأرجح بين الحقائق والأساطير.

إلا أن هذه الديانة على رغم كل ذلك لا تزال أكثر الديانات انتشاراً في شبه القارة الهندية ولاسيما في الدولة الهندية. ولهم كتب يقرؤونها في الطقوس والمناسبات، ويعتقدون أنها منزلة من عند الله. وأهم هذه الكتب وأولها الويدات، وهي أربع: (١) رِك ويد (٢) يجرويد (٣) سام ويد (٤) أتهرو ويد، ومعنى الويد: العلم والمعرفة.

وهذه الكتب هي المصادر الأصلية القديمة، ولها شروح وإيضاحات، مثل رسائل البرهمن، وآرن يُك وأُبِنْشد ومَنُوْ سَمُرْتي.

وهم يعتمدون أيضًا على كتب أخرى ألفت في عهد الهندوسية الجديدة، وهي البورنات، وهي ثمانية عشر كتابًا، ثم يعتمدون على كتب ألفت حول رجال أو شخصيات أو حروب وأحداث، وهي تشتمل على كمية ضخمة من المواد الدينية مثل كتاب رامائن، ومها بهارت، وكيتا. وغير ذلك.

وتوجد في هذه الكتب ـ ولا سيما الأصلية منها ـ أنواع من البشارات عن نبينا ﷺ ربما بذكر أسمائه وألقابه، وربما بذكر صفاته وملابساته، وربما بذكر بعض

خصائصه وأحداثه، وربما بذكر آبائه وخلفائه وغير ذلك مما يفيد ويعين أن المراد به هو نبينا محمد ﷺ لا غيره، وقد جمع هذه البشارات وشرحها عدد من علماء الهندوس مع بقائهم على الديانة الهندوسية إلا أنهم مالوا إلى المسلمين ولانوا لهم أكثر من غيرهم.

وإفادة لعامة المسلمين وغيرهم جمعت هذه البشارات من كتبهم، وبينتها ورتبتها، وشرحتها في ضوء المصادر الإسلامية، عسى الله أن يوفق للإسلام من يريد الحق والصدق، ويجعلها وسيلة لذلك ويكتب لنا أجراً في الآخرة. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.



البشارة بـ «نراشنس»

من الأساليب المتبعة في كتب الويدات ـ ولا سيما في رك ويد ـ أنها تختار فرداً من الأفراد المكرمين إما من الملائكة أوالجن أو الإنسان فتخاطبه أو تذكره، مرة بعد مرة، باسمه، وتحمده وتثني عليه بمحامده وأوصافه، وتبين بعض خصائصه وملابساته، وربما تدعوه لقضاء الحاجات وكشف الكربات والبليات، وهذا الذكر والخطاب قد يطول وقد يقصر، فإذا طال اشتمل على مجموعة من التراتيل أو الآيات وقد اصطلح الهندوس على تسمية هذه المجموعة بـ «سوكت» وتسمية التراتيل أو الآيات بـ «منتر» أو «رشا». وإذا قصر فإنه ينتهي في منتر أو منترين فقط، ثم ينتقل البيان إلى موضوع آخر.

وهذا الفرد الذي يثنى عليه في تلك المناتر يكون في معظم الأحوال حسب زعمهم إلهًا من آلهتهم المزعومة، من قبيل الملائكة أو الجن. وقليلاً ما تتناول هذا المديح من البشر لمثل، إلا أنه لا يخلو عنها تماماً.

ومن سيق له المدح والثناء البالغ مع البيان كثير من خصائصه وميزاته شخصية فذة، سميت بـ «نراشنس»، وقد ورد ذكرها في كل من الويدات الأربعة. وفي كتب أخرى مقدسة عند الهندوس. وقد كتب عدد من علماء الهندوس وغيره بحوثًا حول هذه الشخصية الفذة، ودرسوها في ضوء ما ذكر لها من الخصائص والأوصاف، فوصلوا إلى أن المقصود بها هو نبينا محمد ﷺ، وليس غيره.

وفيما يلي نقدم ما ورد فيها مع الشرح والإيضاح والاستنتاج، مراعيًا في كل ذلك سبيل الإيجاز بقدر الإمكان.

كلمة «نراشنس»:

أول ما يعني به الباحث في هذه البشارات هو تسمية هذه الشخصية الفذة ـ بـ «نراشنس»، وهي كلمة سنسكرتية مكونة من لفظين: أولهما «نر» ومعناه الإنسان،

فكأنما أتى به للتنبيه على أن هذه الشخصية التى اختيرت للمدح والثناء هي من جنس البشر، وليست من جنس الملائكة أو الجن كعامة الشخصيات المثنى عليها في الويدات.

واللفظ الثاني من هذه الكلمة «أشنس» ومعناه اللغوي: من يحمد ويثنى عليه بكثرة، فهو مرادف لمحمد مرادفة، وليس بينهما أي فرق سواء أن أحمدهنا بالعربية والآجر بالسنسكرتية.

وقد ظهر بهذا أنه لو لم يكن حول هذه الشخصية أي تفصيل أو بيان في الويدات إلا هذا الاسم المبارك فقط، لكفى وشفى للدلالة على أن هذا بشارة برسالة محمد ﷺ؛ إذ لم يقم في التاريخ الإنساني أحد من الرسل والأنبياء سمي بهذا الاسم سواه ﷺ. ولكن الويدات وفرت لنا تفاصيل أخرى تقطع سبل النقاش والجدال، وتبت البشارة بتة لا مجال فيها لأدنى احتمال. وأكبر مجموعة لهذه التفاصيل هي ما ورد في أتهرو ويد في بابه العشرين، والفصل السابع والعشرين بعد المئة، بينما يوجد بعض البيانات في مناتر أخرى جاءت متفرقة في بقية الويدات والكتب المقدسة عند الهندوس، ونقدم هنا أولاً تلك المجموعة التي وردت في أتهرو ويد، ثم نأتي إلى المناتر المتفرقة حتى يكتمل الموضوع فأولاً صورة هذه المجموعة كما وردت في كتبهم:

इदं बना उप युत नराशंस स्मकवप्यते।
पार्टि सहस्रा नवर्ति च फौरम आ वशमुपु दहाहे ।।१।।

डष्ट्रा यस्य प्रवाहिरणो वधूमन्तो द्विर्दर्श।
वर्म्मा रहस्य नि जिहीपत्ते दिय ईपनारण उपस्पृंश: ।।२।।

एय दपये गमहे शतं निष्काल दश सन:।
वीरिण शतान्यर्दतां सहस्रा दश गोनाम् ।।३।।

वच्यत्य रेभ वच्यत्व वृक्षे न पक्वे शकुन:।
ओष्टे जिह्वा चर्चरीति क्षुरो न भुरिजोरिव ।।४।

प्र रेभ्रासो मजीप्रा वृपा गाव इवेरते।
अयोत पुत्रका एपासमोत वा इवासवते ।।५।।

प्र रेभ घियं भरस्व गोविदं वसुविदम्।
देवत्रमां वाचं कृधीपु न वीरो अत्ता ।।६।।

रान्नो विश्रवजनीनत्य यो दवोमर्त्या अति।
वेश्वानरस्य मुष्टुतिया रणोता परिक्षित: ।।७।।

परिक्षिन्न: क्षेनमकरत्तम आसनमाचरन्।
कुलायं कृरावन कौरव्य: पतिर्वदति जायपा ।।८।।

कतरत त आ हरारिण दधि मन्यां परिस्रुतम्।
जाया पर्ति वि पृच्छति राष्ट्रे राज्ञ: परिज्ञित:।।९।।

अमीव स्वा: प्रजिहीते यव: पक्व: परा त्रिलम्।
जन: स मद्रमेघते राष्ट्रे राज्ञ: परिक्षित: ।।१०।।

इन्द्र: कारुमन्नू वृधदत्तिष्ठ विचरा जनम्।
ममेदुग्रस्य चर्कृधि सर्व इत ते परिरणदारि:।।११।।

इह गाव: प्रजायध्वमिहाश्वा इह पूरुवा:।
इहो सहस्रदक्षिरणेपी पूषा नि वीदति।।१२।।

मोमा इन्द्र गावोरिपन मो आसां गोपती रिषत।
मासाममित्रयुर्जन इन्द्र मा स्तेन ईषत।।१३।।

उप नरं नोनंमसि सूक्तेन वचसा वयं भद्रेरण वचसा वयन्।
चनो दधिष्व नो गिरो न रिश्येम कदाचन।।१४।।

هذه صورة المناتر المشار إليها، وهي واردة في أتهرو ويد باب ٢٠، فصل ١٢٧، منتر أو ترتيلة رقم ١ إلى ١٤ وفيما يلي ترجمتها حسب الترتيب:

١ ـ اسمعوا أيها الناس باحترام. إن نراشنس يحمد ويثني عليه.

ونحن نعصم ذلك المهاجر ـ أو حامل لواء الأمن ـ بين ستين ألف عدو وتسعين عدواً.

٢ ـ يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتي عشرة امرأة.

ويحصل له من علو المنزلة وسرعة المركب أنه يمس السماء ثم ينزل.

٣ ـ إنه أعطى للرسول «مامح» مئة دينار ذهبي وعشر قلائد. وثلاث مئة جواد. وعشرة آلالف بقرة.

٤ ـ بلغ يا أحمد، بلغ. كما تغرد الطيور على شجرة يانعة الثمار.

لسانك وشفتاك تتحرك مثل نصلي المقص.

٥ ـ الحمادون مع محامدهم ـ أو المصلون مع صلواتهم ـ يسرعون إلى الحرب مثل الثور القوي.

وأولادهم في بيوتهم آمنون، البقرات في مرابضها.

٦ ـ يا أحمد، خذ هذا الكلام الحكيم بقوة، فهو أساس البقر والأموال.

وأبلغه إلى المتقين، كما يرمي البطل السهم على الهدف.

٧ ـ هو سيد العالم، قدوس، أفضل البشر.

هدى للناس كافة، معروف لدى الأمم جميعًا، فتغنوا بأفضل الثناء عليه.

٨ ـ هذا المعروف قد بسط الأمن والسلام عندما أخذ الحكم بيده وهو يعمر البيت، وقد كان يذكر هذا كل زوج لزوجته في قومه.

٩ ـ أي شيء آتي لك به؟ الزبادي أو اللبن الخاثر أو العصير المنعش؟

هذا سؤال تسأله الزوجة زوجها بالتفصيل في حكم ذلك الرجل المعروف.

١٠ ـ شعير يانع يخرج من الحرة ويصل إلى السماء.

الإنسان يرتقي في التقوى والخير في حكم ذلك الرجل المعروف.

١١ ـ إن الله أيقظ أحمد: قم واذهب إلى الناس وهنا وهناك وكبرني. إنني أنا الغالب. أنا أعطيك جميع النعم.

١٢ ـ هنا أيها البقرات، هنا أيها الخيول، هنا أيها الناس، تنعموا وتطوروا.

فإن ثمال الفقراء والمتصدق بالآلاف جالس هنا.

١٣ ـ لا، يا رب، لا تهلك هذه البقرات، ولا يهلك راعيها، ولا يغلبهم العدو يا رب، ولا قاطع طريق.

١٤ ـ تنعتني في أدب، بمناقب بطل، بكلمات رائعة، وبكلام في غاية الحسن.

فاقبل قصيدتنا بالحب، ولا نهلك أو نتضرر أبداً.

الشرح والإيضاح لما جاء في هذه التراتيل:

بعد تقديم الصورة والترجمة تناول هذه التراتيل أو المناتر بالشرح والإيضاح ترتيلة بعد ترتيلة.

الترتيلة الأولى:

«اسمعوا أيها الناس باحترام، إن نراشنس يحمد ويثنى عليه، ونحن نعصم ذلك الهاجر ـ أو حامل لواء الأمن ـ بين ستين ألف عدو وتسعين عدواً».

وفي هذا الكلام عدة أمور تلفت نظر الدارس، وهي: أن الخطاب وقع باهتمام خاص، ومنبهًا على لزوم الاحترام، ومثل هذا الاهتام لا يوجد في أماكن أخرى، فهو دليل على عظمة هذه الشخصية، وعظمة ما ورد فيها من البشارة.

وأن هذه الشخصية تتمتع بحمد الناس وثنائهم عليه، وتمتاز على الآخرين بذلك. ولا يعرف في تاريخ البشر إنسان حمده الناس وأثنوا عليه

بمعشار ما أثنوا على محمد ﷺ وحمدوه. فهو الذي امتاز بهذه الخصوصية بين الأنبياء.

وقوله «يحمد ويثنى عليه» بصيغة المستقبل يفيد أن هذا المبشر به لم يكن قد بعث إلى زمن تأليف هذا الويد - أتهرووِيد - وقد اتفقوا على أنه آخر الويدات، ومتأخر جداً عن بقيتها الثلاثة، وقد جاء في أول الويدات وأقدمها تأليفاً ذكر بعض من كان في عهد إسكندر المقدوني أو بعده، وكذا ذكر فيه بعض الأحداث التي وقعت في زمن إسكندر أو بعده، فإذا كان أول الويدات وأقدمها، متأخراً إلى هذا الزمان فلا غرو أن يكون آخرها متأخراً عن زمن عيسى بن مريم عليه السلام فهذه قرينة تبين زمن بعثة هذا الرسول، وأنه لم يكن بعث إلى زمن الويد الرابع والأخير، فهو متأخر عنه قطعاً.

وفي السطر الثاني من المنتر وصف «نراشنس» بـ «كورم» وله معنيان معروفان، أحدهما: المهاجر، والثاني: الذي يبسط الأمن والسلام، وهو يحتمل معنى ثالثاً أيضاً. وهو السيد والرئيس، أي بمعنى القوم بالعربية، فكأن «قرم» و«كورم» لهجتان لكلمة واحدة. والله أعلم.

وأي معنى نختار فإن أولى وأحق من يصدق عليه هذا المعنى هو محمد ﷺ، فإنه هاجر من مكة إلى المدينة، وهو من أبرز الأحداث في تاريخ الأنبياء.

أما بسط الأمن والسلام فيمكن تصوره الخفيف بمقارنة ما كانت عليه جزيرة العرب قبل البعثة وما آلت إليه حين توفي ﷺ، أما قبل البعثة فقد كانت نار الحرب مشتعلة بين الأوس والخزرج بالمدينة من نحو قرن من الزمان، وما كادت تنتهي، كذلك اضطرمت حرب البسوس بين بكر وتغلب فبقيت قائمة أربعين سنة، وذهب ضحيتها سبعون ألف رجل من الفريقين، وشبت نار الحرب بين عبس وذبيان فتركت دخانها يرتفع في الجو، واعتدت يهود اليمن على نصارى نجران، فأحرقوهم

في الأخدود، وهم أحياء، وتحمست نصارى الحبشة للانتقام فاحتلت اليمن، وأذاقت أهلها النكال، وتجرأت حتى قصدت هدم الكعبة المشرفة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، ولم تخرج الحبشة من اليمن حتى احتلتها الفرس، والحاصل أن جزيرة العرب كانت في اضطرابات وأحداث متتابعة، حتى لم تكن القبائل آمنة مطمئنة وهي في مناطقها، ولم يكن أفراد قبيلة منها يخرجون إلى منطقة قبيلة أخرى إلا في الأشهر الحرم، ثم هم لم يكونوا يصبرون عن الحروب والإغارات طويلاً حتى كانوا يعملون بالنسيء، فيقلبون الشهور، فيجعلون الشهر الحرام حلالاً، والحلال حراماً.

فلما ظهر النبي ﷺ عاملوه بمثل ما كانوا يتعاملون به فيما بينهم، ولكن النبي ﷺ عاملهم بطريقة أخرى، فلم يمض إلا نحو ثمانية أعوام حتى صار أولئك المتقاتلون إخوانًا متحابين فيما بينهم. يدافع كل واحد منهم عن الآخر ويفديه بنفسه، وأخذت الظعينة ترتحل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وليس أحد ينظر إليها نظر الريبة والفساد، ولا تخاف على نفسها أحداً إلا الله.

والحاصل أن النبي ﷺ بسط الأمن والسلام في ربوع جزيرة العرب خلال فترة وجيزة، وبينما كانت على شفا حفرة من البوار لأجل التناحر والتقاتل فيما بينها. ولم يحصل ذلك من أحد من الأنبياء غيره.

وأما كونه سيداً مكرمًا، فإنه لم ير مثله في التاريخ، ولم يحصل لأحد من الطاعة والتكريم والتفادي، ما يداني ما حصل لمحمد ﷺ.

يخبر هذا المنتر في مصراعه الأخير أن الله يعصمه بين أعدائه الذين يبلغ عددهم ستين ألفًا وتسعين رجلاً، وقد قال بعض المحققين إن عدد سكان مكة ـ وهم أعداؤه ﷺ ـ كان قد بلغ نحو ستين ألفًا. ولكن هذا قول لم يقم عليه دليل من التاريخ. ولا يخلو عن شيء من المجازفة، حيث إن سكان مكة كان فيهم الرجال

والنساء، والشيوخ والأطفال. ولم يكن كل واحد منهم عدواً له ﷺ، فالذي أراه الصواب هنا هو أن يراد بالأعداء المقاتلون الذين حملوا السلاح، واستعدوا للقتال أو أسهموا في تدابيره.

وباستقراء عدد أعدائه ﷺ من هذا النوع الذين خرجوا أو استعدوا للغزو أو المعركة. يظهر أن عددهم من قريش ومن انضم إليهم، ومن بني غطفان ومن انضم إليهم، كان قد بلغ عشرة آلاف مقاتل. وعدد أعدائه من اليهود من قبائل شتى كان أيضًا عشرة آلاف مقاتل، وعدد أعدائه من النصارى ـ في غزوة تبوك ـ بلغ أربعين ألف مقاتل. فهؤلاء ستون ألفًا، وعدد أعدائه من المنافقين كان تسعين. ثمانون منها بقوا في المدينة أثناء غزوة تبوك، واثنا عشر أو ثلاثة عشر منهم خرجوا إلى تبوك مع النبي ﷺ، وهم الذين هموا بقتله في الطريق، فلم يمكنهم الله من ذلك، ثم وفق الله منهم اثنين أو ثلاثة للتوبة، وبقي منهم عشرة على نفاقهم. وبهذا التحقيق الدقيق يتم مجموع عدد أعدائه ﷺ ستين ألفا وتسعين رجلا بالضبط، والملاحظ أن الله تعالى حفظ محمداً ﷺ بين هذا العدد الهائل المحيط به من الأعداء. ولا يعرف في التاريخ نبي حصل له مثل هذا، إذن فهو المقصود والمبشر به في هذا المنتر.

ملاحظة:

وردت في السطر الثاني من المنتر كلمة «روشم». وهذه الكلمة لها معنيان فهي كما تطلق على العدو تطلق على سكان جزيرة العرب أيضًا. وتكون الترجمة على هذا المعنى الثاني: أن الله يحفظه بين من حوله من العرب، وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأول: أن هذا الرسول المذكور يبعث في بلاد العرب.

الثاني: أن الناس يعادونه ويقاتلونه، ويحاولون القضاء عليه. ولكن الله يخيبهم ويحفظه منهم.

ومعلوم أن محمداً ﷺ هو الذي اختص بهذين الأمرين، ولم يوجد في أحد غيره من الأنبياء والرسل.

الترتيلة الثانية:

«يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتى عشرة امرأة.

ويحصل له من علو المنزلة وسرعة المركب أنه يمس السماء ثم ينزل».

وهذه الترتيلة واضحة جداً في دلالتها على نبوة محمد ﷺ والبشارة به، إذ ما من وصف ذكر فيه. لنراشنس إلا وهو خاص بمحمد ﷺ. وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أن مركب هذا المبشر به (نراشنس) يكون الإبل. وقد كان محمد ﷺ كذلك؛ إذ الإبل كانت هي مركبه الدائم المستمر، فكان ﷺ يركبها في الأسفار والغزوات، وفي كل المناسبات التي كان يحتاج فيها إلى الركوب. وقلما كان يركب مركباً آخر من الحمار والفرس ونحوهما.

والثاني: أن ركوبه الإبل يفيد أن بعثته لاتتأخر إلى زمن السيارات والطائرات، وإنما يبعث في زمن تكون الإبل وأمثالها من الدواب هي المراكب العامة للناس، وهذا يعني أن زمن بعثة هذا الرسول قدمضى، ولا مجال لانتظاره في المستقبل.

الثالث: أنه يولد ويبعث في منطقة صحراوية وفي بلد صحراوي، لأن الإبل إنما تقتنى وتستخدم للركوب في مثل هذه المناطق، ومعلوم أن بلاد العرب كذلك.

الرابع: أن في ركوبه الإبل دلالة أيضاً على أنه لا يولد في الهند، ولا يكون من سلالة البراهمة أو الآريين كما يزعم الهندوس، ولايكون على الشريعة الهندوسية، لأن الشريعة الهندوسية تحرم على رسلهم لحوم الإبل وألبانها، وتحرم على البراهمة ركوبها، وأن البرهمن لو ركب الإبل أو الحمار برضاه - أي بدون إكراه

ـ فإنه يصير نجسًا، وما دام هذا الرسول لا يكون برهمناً فإنه لا يكون آريًا أيضًا. لأن الرسالة والنبوة في الآريين مقتصرة على البراهمة، حسب عقيدتهم.

وإذا تقرر أنه يكون من منطقة صحراوية ولا يكون من الآريين فإن هذا كالصريح في كونه من بلاد العرب. ويؤيده ما سبق في بيان معنى كلمة «روشم» في المنتر السابق.

الخامس: أنه لا يكون أعزب، بل يتزوج النساء، ولا يقتصر على زوجة واحدة، بل يبلغ عدد أزواجه إلى اثنتى عشرة امرأة، وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ. فقد وصل مجموع عدد أزواجه ﷺ إلى اثنتى عشرة زوجة، ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء وغيرهم من الصالحين، وأسماء تلك الأزواج رضي الله عنهن كما يلي:

١ ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

٢ ـ أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

٣ ـ أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها.

٤ ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

٥ ـ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

٦ ـ أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها.

٧ ـ أم الؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

٨ ـ أم المؤمنين ريحانة بنت زيد رضي الله عنها. على اختلاف في كونها سرية.

٩ ـ أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

١٠ ـ أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

١١ ـ أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

١٢ ـ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

ملاحظة:

اختلف الباحثون في ترجمة الفقرة الثانية من السطر الأول لهذه الترتيلة، والترجمة التي اخترناها ـ وهي أن أزواجه تكون اثنتى عشرة امرأة ـ هي التي ذكرها أحد كبار علماء اللغة السنسكرتية في شبه القارة الهندية، وهو ويد بركاش أبادهياي، «في كتابة» نراشنس أور أنتم رشي» ص ١٤، فهو لم يشر إلى احتمال أي معنى آخر سواه.

وذكر البعض الآخر أن ههنا اختلافًا في ضبط اللفظ الأخير من السطر الأول لهذه الترتيلة ففي غالب النسخ: (دوردش) والمعنى على هذه النسخة: تكون له اثنتا عشرة زوجة. وفي بعض النسخ: (دوردرش) بزيادة راء قبل الشين، والمعنى على هذه النسخة: تكون له أزواج، وتكون لركوبه ناقتان جميلتان. وهذا المعنى أيضًا يصدق على محمد ﷺ، ويختص به، فقد كانت له ناقتان جميلتان مخصصتان أو شبه مخصصتين لركوبه ﷺ. وهما: القصواء والعَضْباء، ورد ذكرهما في كثير من المناسبات، مثل الهجرة والحديبية والفتح والحج وغيرها.

وبعضهم جعل كلمة «دوردش» بمعنى العشر مرتين، يعني عشرين، فترجم السطر الأول من الترتيلة بترجمة أخرى، وهي: تكون له عشرون ناقة يركبها هو ويحمل عليها أزواجه. وهذه الترجمة أيضًا تتضمن إثبات أربعة أمور تختص بمحمد ﷺ، وهي:

١ ـ ركوبه الإبل.

٢ ـ امتلاكه عشرين ناقة. ومن العجيب أن أهل السير ذكروا أن النبي ﷺ كانت له عشرون ناقة يستقي لبنها، ويركبها عند الحاجة، ويحمل عليها أزواجه في الأسفار(١).

٣ ـ وأنه لا يكون أعزب، بل يكون له عدد من الأزواج.

٤ ـ وأن أزواجة أيضًا يركبن الإبل، وهذا أيضًا معروف لأزواج محمد ﷺ. إذ لم يخرجن في سفر من الأسفار إلا وهن راكبات الإبل.

وهذه خصائص لم توجد في غير محمد ﷺ.

الخامس: أن في السطر الثاني من الترتيلة إشارة واضحة إلى حادث الإسراء والمعراج فقد ركب فيه النبي ﷺ البراق الذي كان من سرعته أنه كان يضع قدمه عند منتهى طرفه، وأنه علا به إلى السماء، ثم نزل إلى الأرض، كما هو مذكور هنا. وهذا أيضًا لم يحصل إلا لمحمد ﷺ.

الترتيلة الثالثة

«إنه أعطى للرسول« مامح » مئة دينار ذهبي، وعشر قلائد.

وثلاث مئة جواد، وعشرة آلاف بقرة».

وهذه الترتيلة تشتمل على عدة أمور مهمة جدًا تفيد تعيين شخصية المبشر به تعيينا مبتوتًا.

وتلك الأمور هي:

١ ـ التنصيص على أن المذكور في هذا الفصل باسم نراشنس يكون رسولاً.

٢ ـ ويكون اسمه « مامح ». وهذا الاسم ورد في رك ويد. مندل ٥، سوكت ٢٧ منترا. وفيه احتمالان:

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/٤٩٤، ٤٩٥، والمعارف لابن قتيبة ٤٩ والتلقيح لابن الجوزي ص١٤.

الاحتمال الأول:

أن تكون لهجة سنسكرنية لكلمة «محمد» العربية، ولا غرابة في وجود مثل هذا الفرق بين لغتين أو لهجتين لكلمة واحدة، فالكلمة حين تنتقل من لغة فكثيراً مايقع مثل هذه الفروق، وقلما تسلم من بعض التصرفات، مثل يحيى بالعربية، صار يوحنا ويحنس بالعبرية، وكذلك إلياس ويونس بالعربية صارا إيلياه، ويوناه أو يونان بالعبرية.

الاحتمال الثاني:

أن تكون كلمة «مامح» كلمة سنسكرتية خالصة. ويكون المراد بها معناها اللغوي، ولا تكون لهجة سنسكرتية للفظ «محمد» العربي، وهذا اللفظ على هذا التقدير يكون مركبًا من مادتين، الأولى «ما»، ومعناها العظيم، والثانية «مح» ومعناها من يُحمَد ويثنى عليه كثيراً، فيكون معنى مجموع المادتين «محمد العظيم». وهذا يعني أن هذا الاسم السنسكرتي يطابق اسم محمد العربي معنى ويماثله نطقًا ﷺ.

٣ ـ وأن الله يعطي هذا الرسول مئة نشك، ونشك هو الدينار، النقد الذهبي المضروب من الذهب الخالص الذي يلقى وينصع في النار، وهو إشارة إلى نوع خاص من صحابته المخلصين. وهم الذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن عذبوا في الله، وأدخلوا في نار الفتنة والبلاء، فثبتوا واستقاموا على الدين، ولم يتزحزحوا قيد شعرة. مع شدة البلاء الذي تتفطر له القلوب، وتقشعر بسماعه الجلود، وثبت بذلك إخلاصهم لله مثل الذهب الذي ألقي في النار، ونصع طيبه.

ملاحظة:

عدد المهاجرين إلى الحبشة يبلغ إلى واحد ومائة مهاجر. وارتد منهم عبيد الله ابن جحش وتنصر وهلك، فبقي العدد مستقيماً على المئة لا أقل ولا أكثر، فهؤلاء

هم مئة نشك أو دينار ذهبي خالص أعطوا لمحمد ﷺ . وقد قال الكتاب الهندوسي شت بت براهمن - وهو تفسير إلهامي لـ « يجر ويد » عند الهندوس « الذهب استعارة للقوة الروحانية في الإنسان »(١).

٤ - وأن ذلك الرسول يعطى عشر قلائد.

والقلادة أفضل حلي وأنفسها في نظر صاحبها، وتكون أقرب إلى القلب وملاصقة للصدر، وإعطاؤها للرسول إشارة إلي إعطاء عشرة من الصحابه يمتازون بمثل هذه الصفات، وقد أعطي محمد ﷺ عشرة من الصحابة كانوا أفضل الناس وأحبهم إليه، وأعزهم وأكرمهم عليه وعلى ربه، وهم معروفون بالعشرة المبشرة الذين قال ﷺ فيهم:

١ - أبو بكر في الجنة.

٢ - وعمر في الجنة.

٣ - وعثمان في الجنة.

٤ - وعلي في الجنة.

٥ - وطلحة في الجنة.

٦ - والزبير في الجنة.

٧ - وعبد الرحمن بن عوف في الجنة.

٨ - وسعد بن مالك (وهو سعد بن أبي وقاص) في الجنة.

٩ - وسعيد بن زيد في الجنة.

١٠ - وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة(٢).

---

(١) شت بت براهمن، كاند ١٢، برباتك ٩، برهمن ١.

(٢) مسند أحمد ١ /١٨٨، الترمذي: مناقب عبد الرحمن بن عوف ح٣٧٤٧ (٥ /٦٤٧، ٦٤٨) وح٣٧٥٧ (٥ /٦٥١) وسنن أبي داود: السنة، باب في الخلفاء ٢ /٥٦٣ ورواه جمع من أصحاب الحديث.

ملاحظة:

القلادة ترجمة حرفية لكلمة «سراج» السنسكرتية الواردة في المنتر، وتطلق هذه الكلمة في هذه اللغة على السيد والرئيس أيضًا، ولا تخفى مطابقة هذا المعنى للعشرة المبشرين بالجنة، فإنهم كانوا سادات الصحابة وسادات هذه الأمة الإسلامية العظيمة، لااختلاف في ذلك ولاشك ولا نقاش ولا جدال.

٥ ـ وأن ذلك الرسول يعطى ثلاث مئة جواد.

وقد استعمل لتأدية معنى الجواد لفظ «أرون» وهو يطلق على الخيول السريعة التي لا يستخدمها الآريون، بل يستخدمها العرب وغير الآريين، فهذا يعني أن هذا المبشر به لا يكون من الهند، بل يكون من خارج الهند وبخاصة من العرب.

ثم إن لفظ «أرون» ـ الخيل ـ يطلق على الأبطال الشجعان على سبيل المجاز أو الاستعارة، كما هو حاله في اللغة العربية، فالمراد أنه يعطى ثلاث مئة من الأبطال الشجعان الذين امتازوا في القتال والدفاع عنه ﷺ.

وهؤلاء الشجعان هم أصحاب بدر، فإنهم امتازوا بالقتال والدفاع، وقد حصل لهم من الفضل في هذا المجال ما لا يصل إليه غيرهم، ويبدو فضلهم بما رواه البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، ـ أو كلمة نحوها، وعند البيهقي: قال: خيارنا ـ قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة(١) وبما رواه البخاري أيضًا عن ابن عباس أنه قال: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر(٢).

وكان عدد من شهد غزوة بدر من المسلمين ثلاث مئة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً. وقد ألحقوا بالمشركين هزيمة نكراء، وانتصروا عليهم انتصاراً باهراً مع

(١) صحيح البخاري ح٣٩٩٢، مع الفتح ٧/٣٦٢.

(٢) صحيح البخاري ح٣٩٥٤ (الفتح ٧/٣٣٨) وح٤٥٩٥ (الفتح ٨/١٠٨).

أن المشركين كانوا زهاء ألف رجل معروفين بالشجاعة والنجدة والبأس، وقد استشهد في المعركة أربعة عشر رجلاً من الصحابة. وبقي ثلاث مئة يصاحبون رسول الله ﷺ وينصرونه في كل مشهد. وهذا هو العدد المنصوص عليه في هذه الترتيلة.

٦ ـ وأن ذلك الرسول يعطى عشرة آلاف بقرة.

والبقرة حيوان مقدس عند الهندوس، وتطلق على سبيل الاستعارة والتشبيه على الرجل الصالح الحر الكريم الذي لا يعرف الخب والخداع، وأمور الدناءة واللوم، وهذا الإطلاق لايزال معروفًا وعاماً عند الهنود جميعًا: عامتهم وخاصهم ومسلمهم وكافرهم.

فالمراد بعشرة آلاف بقرة هم الصحابة الذين رافقوا رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة. وفي التعبير عنهم بالبقرة تصوير صادق لما كانوا عليه من الصدق والصلاح، والقداسة والعفاف، والكرم والتقوى وتزكية النفس والروح، مع البعد عن كل كبير وصغير مما يعد الخداع واللؤم. والحق أن عين الإنسان لم تقع على جماعة أزكى مثلهم سوى الأنبياء والرسل. وقد ورد إطلاق البقرة عليهم وتشبيههم بها في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، فقدروى البخاري في رؤيا رآها النبي ﷺ حول بعض ما وقع في غزوة أحد أنه قال: ورأيت فيها ـ أي في تلك الرؤيا ـ بقراً، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد(١).

الترتيلة الرابعة:

«بلغ يا أحمد، بلغ، كما تغرد الطيور على شجرة يانعة الثمار.

لسانك وشفتاك تتحرك مثل نصلي المقص».

(١) صحيح البخاري ح٣٦٢٢، ٤٠٨١، ٧٠٣٥.

خوطب في هذا المنتر رجل سمي بـ «ريبهـ» وهو يدل على المعنى لوصفي، وترجمته الحرفية «أحمد». وحيث إن الخطاب موجه إلى شخص خاص، فإن هذا اللفظ اكتسب العلمية، وصار من أعلام الصفة. فهو عَلَم يدل على أن المسمى بهذا الاسم يكثر حمد الله سبحانه وتعالى، ومعلوم أن النبي ﷺ كان اسمه أحمد، وكان متصفا بمعناه، أي إنه كان يكثر حمد الله سبحانه وتعالى كثرة لم يبلغها أحد.

ثم إنه أمر أحمد هذا ـ المذكور في هذا المنتر ـ بالتبليغ أي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وتبليغ دينه إلى عباده، وشبه هذا العمل بتغريد الطيور على شجرة يانعة الثمار. ولا شك أن هذا تشبيه بليغ جامع لعدة جوانب:

فتلاوة القرآن هي الأساس في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢] وقال ﴿**رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [الطلاق: ١١]. وقال عن المؤمنين: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال: ٢] وقال عن الكفار، وهو يذكر ما يواجهونه يوم القيامة من التوبيخ: ﴿**أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ [الجاثية: ٣١] والآيات في هذا المعنى كثيرة تبين أن الأصل والأساس في الدعوة إلى الله وإقامة حجته هي تلاوة القرآن وبيان معناه، وقد عقد مراراً اجتماع عالمي للأديان في الهند واليابان وغيرهما من البلاد، وعرض كل صاحب ديانة شيئًا مما لديه من دينه، فلما جاءت نوبة المسلم لم يزد على أن تلا آيات من كتاب الله، مراعيًا قواعد التجويد وإيقاعات الفواصل، ولما سمع الحاضرون القرآن! لم يملكوا إلا أن فاضت أعينهم بدموع غزيرة دون أن يفهموه. ولا شك أن تشبيه تلاوة القرآن بتغريد الطيور من أروع التشبيه وأبلغه، فكل ما يعرف في

تغريد الطيور من الترنم واللذة والفرحة والسرور، والطمأنينة والهدوء، والأخذ بنفس السامع، وما إلى ذلك، فهو موجود في تلاوة القرآن.

وكون هذه الطيور على شجرة يا نعة الثمار إشارة إلى أن هذه الدعوة تقوم في وقت يكون الجو كامل التهيؤ والاستعداد لقبولها، والناس أحوج ما يكونون إليها، فيدخلون فيها أفواجًا، كما أن الثمار تقطف بمجموعها حين يتم ينعها.

والدعوة التي قام بها محمد رسول الله ﷺ كانت كذلك تمامًا، فإنها قامت في وقت كان الناس غارقين في بحر الظلمات، يعانون كل نوع من الضلال والخسف والجور، ينتظرون رجلاً ينقذهم مما هم فيه. فلما قام محمد ﷺ بالدعوة إلى الله لم يتريثوا إلا بقدر ما يوصلهم إلى اليقين بنبوته، فلما لاحت لهم معالم الحق والصدق عليها، دخلوا في دين الله أفواجًا.

وتشبيه دعوة الإسلام بشجرة يا نعة الثمار موجود في كلام الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وقريب من هذا التشبيه يوجد في الإنجيل أيضًا، وسيأتي قريبًا.

وأما قوله في السطر الثاني من الترتيلة: «لسانك وشفتاك تتحرك مثل نصلي المقص» فإن نصلي المقص حين يتحركان يفصلان الثوب ويقطعانه، ففيه بيان أن الذي يتلوه أو يتكلم به هو كلام فصل. لا لبس فيه ولا غموض. وأن ما يقوله حق خالص، يقع كما يقول.

ولا شك أن القرآن **﴿قَوْلٌ فَصْلٌ﴾** وقع - وسيقع - كل ما جاء فيه، **﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾** - **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [فصلت: ٤١، ٤٢].

وكـان النبي ﷺ أيضـًا يتكلم بجـوامع الكلـم، وبكلام فـصل، كـأنه كلمـات نظمن يتحدرن، ولا يقول شيئًا إلا جاء مثل فلق الصبح.

الترتيلة الخامسة:

«الحمادون مع محامدهم - أو المصلون مع صلواتهم - يسرعون إلى الحرب مثل الثور القوي.

وأولادهم في بيوتهم آمنون مثل البقرات في مرابضها».

وهذه الترتيلة تشتمل على عدة نقاط يحسن التنبية عليها. وهي:

١ - أن أصحاب هذا الرسول وأمته يعرفون بالحمادين والمصلين، وواضح جدًّا أن ذلك لا يكون إلا لالتزامهم بالحمد والصلاة، ولإكثارهم منهما، وامتيازهم بهما.

ومعلوم أن أمة محمد ﷺ هم الحمادون المسلمون بذلك، وسببه، كما ورد عن كعب الأحبار، أنهم يحمدون الله في كل سراء وضراء، وفي كل منزلة[١]. وهم المصلون الملتزمون بالصلوات في المدن والقرى، والفلوات والبحار، والمكثرون منها والظاهرون بها في كل مكان.

٢ - وأنهم يلتزمون بالحمد والصلاة أثناء الحروب أيضًا، وهذه خاصية لم توجد في أي قوم آخر سوى أمة محمد ﷺ. فهي التي تكثر حمد الله وذكره ودعاءه والتضرع إليه. وتلتزم بالصلوات أثناء القتال والحروب - وهذه الصلاة تعرف بصلاة الخوف - وتتجافى جنوبهم عن المضاجع في الليل مهما أنهكتهم الحرب في النهار، فهم كما وصفهم أحد الرومان: رهبان الليل وفرسان النهار[٢].

٣ - وأنهم لا يكونون جبناء يخافون الخوض في الحروب، بل يكونون أبطال الوغى وشجعان المعارك، كلما يسمعون هيعة أو فزعة للحرب يطيرون إليها،

---

(١) سنن الدارمي: المقدمة ١/٥، ٦.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣/٦٠٢.

ويقاتلون بالبسالة القصوى كما يقاتل الثور القوي. والثور عند الهندوس رمز لغاية القوة والشجاعة.

ومعلوم أن أصحاب محمد ﷺ كانوا أشجع الناس في تاريخ البشر. هاجمهم الشجعان المعروفون في الأمم بقوات تتضاعفهم أضعافًا مضاعفة. فلم يحصدوا إلا الفشل والخسران، وكان النصر حليف المؤمنين.

٤ ـ وعندما يخرج هؤلاء في الحروب يأمن أولادهم وذراريهم في البيوت كما تأمن البقرات في مرابضها.

وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ وأصحابه، فإنه ﷺ غزا العدو وخرج من المدينة أكثر من عشرين مرة، وبقيت المدينة خالية ليس فيها من يدافع عن الشيوخ والأطفال، والنساء والمعذورين، في حين كانت المدينة محاطة بالأعداء، وكان بإمكانهم، ومن الفرصة الذهبية لهم، أن يهاجموا المدينة أثناء غيابه ﷺ، لا سيما وقد كان لهم طابور خامس في داخل سكنها وبيوتها، وهم المنافقون، إلا أن أحداً من العدو لم يجترئ على ذلك، ولا لمرة واحدة، وبقي ذراري المسلمين وأولادهم آمنين مطمئنين لا يخشون أحدا إلا الله.

وفي حديث طويل لأبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع النبي ﷺ قبل عسفان. فأقام بها ليالي، فقال الناس: والله ما نحن ههنا في شيء، وإن عيالنا لخلوف، وما نأمن عليهم. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: ما هذا الذي بلغني من حديثكم؟ ـ ثم ذكر حبه للمدينة وتحريمه إياها ودعاءه لها، ثم قال: ـ «ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها» ثم قال للناس: ارتحلوا، فارتحلنا، فأقبلنا إلى المدينة، فوالذي يحلف به ما وضعنا رحالنا حين دخلنا المدينة حتى أغار علينا بنو عبد الله بن غطفان. وما يهيجهم قبل ذلك شيء(١).

---

(١) صحيح مسلم: الحج ح٤٧٥ (٢/١٠٠١، ١٠٠٢).

فهذا يفيد أن المدينة أثناء الغزوات كانت محروسة من قبل الملائكة، ولم يكن الأولاد والذراري يخافون أحداً إطلاقاً.

الترتيلة السادسة:

«يا أحمد، خذ هذا الكلام بقوة. فهو أساس البقر والأموال.

وأبلغه إلى المتقين، كما يرمي البطل السهم على الهدف».

الخطاب هنا وجه إلى «ريبهـ» وقدمنا أن معناه أحمد. وأما الكلام المحكي الذي أمره بأخذه بقوة فهو القرآن الكريم الذي يترنم به عند تلاوته كتغريد الطيور، وهو الكلام الفصل الذي يتحرك به اللسان والشفتان مثل المقص، وسمي هنا بالكلام الحكيم لأنه مليء بالحكمة، وأسلوب الخطاب والأمر الموجود في هذه الترتيلة هو الأسلوب الذي يخاطب به الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ...﴾

وقوله «فهو أساس البقر والأموال» يحتمل معنيين: الأول؛ أن العمل بهذا الكلام سبب لتوفر الأموال والبركة فيها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

والثاني أنه أساس الغلبة والحكم، - مع كونه أساس النجاح في الآخرة - وقد تكرر هذا المعنى في القرآن في شتى الأساليب، أي أنه أساس الغلبة والحكم وإرث الأرض، وشهد بصدق ذلك التاريخ الإسلامي الطويل. فكلما عمل به المسلمون نالوا الغلبة والحكم والعز والشرف في الدنيا، وكلما اتخذوه مهجوراً ذلوا وهانوا واستكانوا، وإنما عبر عن ذلك بكونه أساس البقر والأموال. لأنها إنما تجبى بعد الغلبة وقيام الحكم.

أما السطر الثاني من هذه الترتيلة فهو يبين أن هدف هذا الكلام الحكيم ومقصوده المتقون؛ كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهم الذين يستفيدون بهذا

الكتاب وهذا الكلام الإلهي. وهو حينما يصل إليهم يداخل قلوبهم ويؤثر فيها كما يؤثر السهم في الرمية، وهو يتضمن أيضًا أن هذا الكلام سوف يجد آذانًا صاغية، وقلوباً واعية، ولا يذهب هملاً لاغية، فهذا السطر الأخير يطابق لما جاء في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي قوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ وأمثال ذلك.

الترتيلة السابعة:

«هو سيد العالم، قدوس، أفضل البشر.

هُدًى للناس كافة، معروف لدى الأمم جميعًا، فتغنوا بأفضل الثناء عليه».

وهذه الترتيلة تتضمن عدداً من صفات محمد ﷺ:

فهو سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، ولم يبلغ أحد في السؤدد والسيادة ما بلغ هو في هذه الدنيا، وأما يوم القيامة فإنه يكون حامل لواء الحمد، ويكون آدم ومن بعده من الأنبياء تحت لوائه.

وأما قداسته وأفضليته فإنه كان على أعلى قمة من سمو الروح، ونقاء القلب، وطهارة النفس، وقوة العزيمة، ونظافة الأخلاق، وكرم الشمائل، وجمال الشيم، وغير ذلك من كل ما يتعلق بتقوى الله ومكارم الأخلاق وفضائل النفوس، فلم يبلغ شأنه أحد. وما سبق له نظير، ولم يلتحق به مثيل. فلا شك أنه كان قدوسًا وأفضل البشر.

وكونه هدى للناس كافة يعني بعثته إلى الناس جميعًا، وقد كان الأنبياء والرسل يبعثون إلى قومهم خاصة، ومحمد ﷺ هو الرسول الوحيد الذي أرسل إلى الناس عامة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [٣٤:٢٨]

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وغير ذلك من الآيات والأحاديث والدلائل.

وكونه معروفًا لدى جميع الأمم يحتمل معنيين:

الأول: أن توجد عنه البشارات لدى جميع أمم المرسلين. فيكون بذلك معروفًا لديهم ينتظرون مجيئه وبعثته، وقد حصل هذا لمحمد ﷺ، فقد وجدت عنه البشارات عند كل أمة تنتسب إلى دين من الأديان، وتدعى بوجود كتاب أو تعليمات جاءبها رسول من عند الله، حسب عقيدتهم، فكان بذلك معروفًا لديهم، فلما جاءهم فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، والذي كفر به ولم يدخل في دينه ﷺ فهو لا يزال ينتظر مجيء ذلك الرسول الموعود، ومعظم هؤلاء الكفار يعرفونه ثم ينكرون. وإذا سألهم أحد من عامتهم يتجاهلون. يؤثرون بذلك الحياة الدنيا، ويا ليتهم عرفوا أن الآخرة خير وأبقى.

وأما المعنى الثاني: فهو أن دعوة ذلك الرسول المبشر به هنا تبلغ جميع الأمم. ويدخل في دينه الناس من كل أمة. ومحمد ﷺ معروف لدى جميع الأمم بهذا المعنى أيضًا. فلم يبق بيت مدر ولا وبر إلا دخل فيه الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل. كما ورد في الحديث(١).

وقوله: «فتغنوا بأفضل الثناء عليه» صيغة أمر يشمل نوعًا من الخبر، وهو أن الناس يثنون عليه بأفضل الثناء، وقد تم هذا أيضًا لمحمد ﷺ، فقد أثنى عليه رجال من كل أمة، بأفضل ثناء لم يثنوا بمثله على أحد حتى ولا على رسلهم وأنبيائهم، فضلاً عن الآخرين ولعل ذلك يكون متضمنا معنى الصلاة عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

الترتيلة الثامنة:

«هذا المعروف قد بسط الأمن عندما أخذ الحكم بيده، وهو يعمر البيت، وقد كان يذكر هذا كل زوج لزوجته في قومه».

(١) مسند أحمد ٤/١٠٣، ٦/ ٤ مستدرك الحاكم ٤/ ٤٣٠، ٤٣١.

السطر الثاني هذا يحتمل ترجمة أخرى، وهي: «وقد كان قومه يبني البيت، يذكر هذا كل زوج لزوجته».

وعلى هذه الترجمة الثانية فيه إشارة واضحة إلى ما حدث عند بناء بيت الله من اختلاف رؤساء القبائل في وضع الحجر الأسود في مكانه، وما حكم به محمد ﷺ في تلك القضية، وما أتى به من الحل الحصيف عندما تحاكموا إليه، فإنه وضع الحجر الأسود في رداء، وأمر الرؤساء بأخذ أطرافه، حتى إذا رفعوه إلى مكانه أخذه ووضعه في موضعه، فنال الجميع بذلك شرف رفعه ورضوا به. وكان لقضائه الحكيم هذا أثر بالغ في النفوس، وداخلهم بذلك سرور عظيم، حيث نالوا الشرف المطلوب، ونجوا من الحرب الزبون التي كادت تأكل الأخضر واليابس، فكان حديث حكمه هذا، وحكمته هذه، موضوع حديث كل بيت وكل زوج وزوجته.

أما على الترجمة الأولى فيمكن أن يراد بعمارة البيت، ويأخذ الحكم أثناءها نفس قضية الحجر الأسود المذكورة، ويمكن أن يراد بالعمارة العمارة المعنوية، وهي تطهيره وتنظيفه من الأصنام والصور. ومن كل ما هو من قبيل الذنوب والآثام، وإعداده وتهيئته لعبادة الله وحده، وقد وقع هذا عند فتح مكة، فإنه ﷺ بعد ما تمكن من الدخول في مكة، وأخذ حكمها بيده، قام بتطهير البيت من كل ما يتعلق بالشرك وأدناس الجاهلية، وفي نفس الوقت أعلن عن العفو العام لأهل مكة، ولم ينتقم منهم على ما سبق، بل قال لهم: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا وأنتم الطلقاء». فبسط بذلك الأمن والسلام. وأدخل الفرحة والسرور العظيم في كل بيت منهم، فكان من الطبيعي أن لا يبقى أهل بيت من قومه إلا وهم يذكرون هذه المنة الجسيمة، والكرم العظيم، وأن يصير ذلك هو موضوع حديث كل بيت وكل زرج وزوجته. ومهما كان فالحادث المشار إليه في هذه الترتيلة ينطبق تماماً على محمد ﷺ. ولا ينطبق إلا عليه.

الترتيلة التاسعة:

«أي شيء آتي لك به؟ الزبادي أو اللبن الخاثر أو العصير المنعش؟

هذا سؤال تسأله الزوجة زوجها بالتفصيل في حكم ذلك الرجل المعروف».

وهذا يدل على كثرة الأموال، وتوفر أسباب الحياة لعامة الناس في حكم ذلك الرسول المذكور باسم نراشنس، ولا يحصل هذا إلا ببسط الأمن وإقامة العدل. وقد تم الأمران ـ وتبعهما وفرة المال وكثرة أسباب الحياة ـ في عهد محمد ﷺ، وعهد خلفائه الراشدين، بحيث لم يكن يرجى أدنى شيء منه نظراً إلى ما كان عليه وضع بلاد العرب قبل الإسلام، فإن الناس كانوا يعانون الضيق الشديد في العيش، حتى كانوا يقتلون أولادهم لأجل الفقر والإملاق، وكانوا في اقتتال دائم وتناحر مستمر، فانقلب ـ في حكم محمد ﷺ ـ الخوف أمناً، والضيق فرجًا، والظلم عدلاً لم يقم له نظير في التاريخ.

الترتيلة العاشرة:

«شعير يانع يخرج من الحفرة ويصل إلى السماء.

الإنسان يرتقي في التقوى والخير في حكم ذلك الرجل المعروف».

خروج الشعير من الحفرة ووصوله إلى السماء يطابق تمامًا للمثل الذي ذكر في الإنجيل لملكوت الله، وذكر في القرآن لمحمد ﷺ ومن معه من الصحابة.

أما الإنجيل فيحكي عن المسيح عليه السلام أنه قال: «هكذا ملكوت الله. كأن إنسانًا يلقي البذار على الأرض وينام، ويقوم ليلاً ونهاراً، والبذار يطلع وينمو، وهو لا يعلم كيف؟ لأن الأرض من ذاتها تأتي بثمر، أولاً نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحًا ملآن في السنبل، وأما متى أدرك الثمر فللوقت يرسل المنحل، لأن الحصاد قد حضر».

وقال: «بماذا نشبه ملكوت الله، أو بأي شيء نمثله؟ مثل حبة خردل متى زرعت في الأرض فهي أصغر جميع البزور التي على الأرض. ولكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول. وتصنع أغصاناً كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتأوى تحت ظلها».

هذا ما ورد في الإنجيل من التشبيه المماثل لتشبيه الترتيلة المذكورة، وأما القرآن الكريم فقد قال في سورة الفتح مشيراً إلى هذا التشبيه ومصححاً لما وقع فيه من الخطأ؛ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد جاء هذا المعنى أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]

ويستفاد مما سبق أن ما ورد في السطر الأول من الترتيلة هو تشبيه لدعوة محمد ﷺ، وبيان لكيفية ظهورها من مكة ـ سرة الأرض ـ وانتشارها في بلاد العالم.

وأما ما جاء في السطر الثاني من الترتيلة فهو أيضًا عين ما حصل في عهد محمد ﷺ وجماعته، فقد نشأت جماعة الصحابة على الخير والتقوى وارتقت حتى وصلت إلى مكان لم يبلغه غيرهم، ولم تشاهد في التاريخ جماعة تماثلهم أو تقربهم في ذلك، فضلا عن التفوق أو التساوي.

ملاحظة:

تتضمن التراتيل الثلاث الأخيرة أن هذا الرسول الموعود المبشر به باسم «نراشنس» يكون حاكمًا لبلده، وهو يباشر الحكم بنفسه، وهذه خصيصة امتاز

بها محمد ﷺ. ولم توجد في أحد غيره من الأنبياء إلا لبعض أنبياء بني إسرائيل الذين لا يمكن صرف البشارة إليهم، وهم غير مطابقين لها بالاتفاق.

الترتيلة الحادية عشرة:

«أن الله أيقظ أحمد؛ قم واذهب إلى الناس هنا وهناك.

وكبرني، إنني أنا الغالب، أنا أعطيك جميع النعم».

وفي هذه الترتيلة عدة نقاط:

الشخص الذي خوطب من الله سبحانه وتعالى مذكور باسم «كاروم» ومعناه لغة: من يكثر الحمد والثناء على ربه سبحانه وتعالى. فهو بمعنى أحمد، ومرادف له. فإذن هذا المخاطب هو محمد ﷺ، فإنه لم يسم باسم أحمد أو محمد من الأنبياء إلا هو.

الخطاب والأحوال المذكورة في هذه الترتيلة مطابقة تمامًا لما حصل لمحمد ﷺ، فإنه ﷺ كان راجعًا من حراء بعد إتمام جواره فنودي فنظر فرأى جبريل عليه السلام جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، وهو ﷺ في بطن الوادي، في طريقه إلى بيته، فلما رآه ملئ منه رعبًا، فلما وصل إلى بيته قال لخديجة: زملوني، دثروني، فزملوه واضطجع فنزل عليه الوحي: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ الآيات فهذا إيقاظ له وأمر له بالقيام والذهاب هنا وهناك، لتبليغ دين الله والدعوة إليه.

وهنا مطابقة عجيبة بين ما حصل لمحمد ﷺ وأوحي إليه في هذا الوقت. وبين ما ذكر في هذه الترتيلة من الويد. وفيما يلي مقارنة بسيطة بينهما:

ما جاء في الويد	ما جاء في القرآن
«إن الله أيقظ أحمد»	﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (وهذا خطاب للنائم ليستيقظ)
«قم واذهب إلى الناس هنا وهناك»	﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (والإنذار إنما يتم بالذهاب إلى الناس هنا وهناك)
«وكبرني» (فاهجر ما يعبد من دوني»	﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾
«أنا أعطيك جميع النعم». (أى فلا تطلب من قومك جزاء إحسانك)	﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ومثله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾
«إنني أنا الغالب» (أي ففارق قومك: ولا تخفهم، اصبر في سبيلي).	﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

ويظهر بهذه المقارنة أن البيانين متفقان تمامًا في المعاني والمطالب مع اتفاقهما في كثير من الألفاظ، ولم يحصل إعطاء النبوة والرسالة وإنزال الوحي في مثل هذه الظروف لأحد، ولا نزل الوحي بمثل هذه الكلمات على أحد سوى محمد ﷺ.

الترتيلة الثانية عشرة:

«هنا أيها البقرات، هنا أيها الخيول، هنا أيها الناس، تنعموا وتطوروا. فإن ثمال الفقراء والمتصدق بالآلاف جالس هنا».

هذه الترتيلة تدل على حصول التنعم وسرعة التطور في كل الجهات بفضل دعوة هذا المبشر به، وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ. فالتطور والتقدم الذي كان يتم قبله ﷺ خلال قرون بدأ يتم في أيام حكم الإسلام في مدة سنوات. وكان هذا التطور والتقدم في كل مجال: في العلوم والفنون، وفي الحرف والصناعات، وفي الزروع والأنهار، وفي الوسائل والأسباب، وفي الآلات والحيوان، لا تجد جانبا من الجوانب إلا وقد تطور تطوراً لايقاس، وفي عهده (ﷺ) وعهد خلفائه الراشدين تنعم الإنسان والحيوان بفضل ما وجد فيه من الأمن والعدل والرخاء.

وقد تناول السطر الأخير وصفين مما امتاز به النبي ﷺ من الصفات، وهي كونه ثمال الفقراء والمتصدق بالآلاف. وما أشهر ما قاله أبو طالب فيه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمة للأرامل!

ملاحظة:

يمكن أن يراد بالبقرات والخيول معناهما المجازي، بمثل ما تقدم، فالبقرات هم أصحاب الصلاح والتقوى، والخيول هم الشجعان المقاتلون، ويكون المراد بالناس عامتهم بما فيهم المسلم والكافر. وقد تمتع الجميع في أيام محمد ﷺ من الأمن والعدل والرخاء.

الترتيلة الثالثة عشرة:

«لا يا رب، لا تهلك هذه البقرات، ولا يهلك راعيها. ولا يغلبهم العدو ـ يا رب ـ ولا قاطع طريق».

هذا دعاء، وفيه نوع من الإشعار بأن الله يحفظ المسلمين حتى لا يتمكن العدو من إهلاكهم وإهلاك رسولهم، ولا يتمكن الشيطان من قطع الطريق عليهم، فالعدو هو المشرك، وقاطع الطريق هو الشيطان.

وقد دعا محمد ﷺ أيضاً بمثل هذا الدعاء فقال: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، و«اللهم لاتسلط علينا من لا يرحمنا». فتقبل الله دعاءه حتى لم يتضرر المسلمون ولا رسولهم. ولم يهلكوا مع كثرة محاولات العدو بل كفى الله المؤمنين القتال. فأنجز وعده. ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده.

الترتيلة الرابعة عشرة:

«نتغنى في أدب بمناقب بطل، بكلمات رائعة، وبكلام في غاية الحسن. فاقبل قصيدتنا بالحب، ولا نهلك أو نتضرر أبداً».

وهذا حسن الختام لما جاء حول الرسول المبشر به من البيان في هذا الموضوع من أتهرو ويد وفيه إشارة لمن يؤمن بالويد أن يؤمن بهذا الرسول الموعود إذا جاء ويتأدب معه، ويلتزم بمدحه والصلاة عليه، حتى لا يتضرر أو يهلك، وأنه إن اختار موقفًا غير هذا فإنه يخسر ويهلك. وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم. قال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**.

هذه أربعة عشر منتراً أو ترتيلة وردت في مكان واحد: في الباب العشرين من أتهرو ويد، وليعرف أن كل باب يتضمن عدداً من مجموعات المناتر أو التراتيل. وأن كل مجموعة منها تعتبر بمنزلة الفصل، وتسمى بـ «سوكت»، والفصل الذي يشتمل على المنناتر السالفة يسمى بـ «كنتاب سوكت» وهو فصل يهتم به الهندوس اهتماماً كبيراً جداً، فمن المقرر عندهم في مناسبات الطقوس والعبادات والأضاحي أن يجتمع سبعة عشر رجلاً من نساكهم، ويقرأوا هذه المناتر، ويرددوها لفترات طويلة. وهذا يدل على أنهم مأمورون بحفظ هذه المناتر وضبطها في ذاكرتهم، حتى لا يغفلوا عما جاء فيها.

وكلمة «كنتاب» معناها: الغدد الداخلية التي تكون في البطن، فتسمية هذه المجوعة بهذا الاسم تعتبر إشارة إلى أن هذه المجموعة تشتمل على أسرار خفية ومهمة مثل غدد البطون. أو أنها تشتمل على أمور وأسرار تحدث وتظهر في منطقة تعتبر بمنزلة البطن من جسد الإنسان. ومعلوم أن مكة المكرمة هي سرة الأرض، فهي موضع ظهور ما جاء من الأسرار في هذه المناتر، والسر الإلهى الذي ظهر من هذا المكان هو طلوع شمس نبوة محمد ﷺ المذكور في هذا الفصل باسمه: «نراشنس» (محمد) وباسمه: «ربيهـ» و«كاروم» (أحمد) وبصفاته وخصائصه ومتعلقاته التي لا تصدق لا مفردة ولا مجموعة إلا على محمد ﷺ.

ولكلمة «كنتاب» معنى آخر، وهو المطهر والمزكي من الذنوب. والمنحي من الآلام. وهذه أيضًا من الصفات التي امتاز بها محمد ﷺ. فإنه كان يطهرهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فكان في كل ذلك تزكية الناس وتطهيرهم من الذنوب، وكان يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فكان هو ﷺ منجيًا ومنقذاً لهم من الآلام، فمحمد ﷺ هو المراد والمبشر به في هذا الفصل وفي هذه البشارة.

هذا ما جاء في أتهرو ويد من التراتيل أو المناتر المجموعة في مكان واحد في البشارة عن «نراشنس» - وقد ورد بعض التراتيل أو المناتر في أماكن متفرقة من بقية الويدات. وفيما يلي نقدم الأهم منها:

يقول رك ويد - وهو أول الويدات الأربعة وأقدامها - في ١ /١٣ /٣:

والمعنى:

«أيها الحبيب نراشنس. حلو اللسان، وصاحب القرابين، إني أتوسل بقرابينك».

وهذا المنتر من أهم المناتر عند الهندوس، وهم يقرؤونه أثناء العبادة، وقد وصف فيه نراشنس بوصفين خاصين؛ أحدهما «بريه» ومعناه: محبوب أو محبب بين الناس، أي الذي يحبه العامة والخاصة، والثاني: «مدهوجهوا»، ومعناه: حلو المنطق، وعذب الكلام.

وقد كان محمد ﷺ متصفا بالوصفين بأكمل ما يمكن، فهو أحب الناس إلى القلوب في تاريخ البشر، فلم يوجد أحد في التاريخ أحبه قومه مثل ما أحب الصحابة والمسلمون بخاصة والناس عامة، محمداً ﷺ. يقول عروة بن مسعود ممثل

المشركين في الحديبية: والله لقد وفدت على الملوك: على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه؛ تعظيماً .....(١).

بل كان الصحابة يحبونه إلى حد أن تقطع أعناقهم ولا يخدش له ﷺ ظفر. ولا يزال المسلمون كذلك، لايستطيعون أن يسمعوا فيه مكروهًا، ولا يحتملون ذلك مهما غلا الثمن، وليس ذلك إلا حبًّا وتعظيمًا له. ومن آثار حبه أن العلماء كتبوا في أحواله وسيرته من الكتب والمقالات ما لا يعلم عدده إلا الله سبحانه وتعالى.

أما الصفة الثانية فإن محمداً ﷺ معروف بحلو منطقه وعذوبة كلامه، وصفه بذلك كل من تطرق إلى هذا الوصف، وصفته أم معبد الخزاعية فقالت: حلو المنطق، فصل، لا نزر ولاهذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن(٢) وكان قد أوتي جوامع الكلم، ونصاعة البيان، وفصل الخطاب. يرتاع له السامع، ويصغي له القريب والبعيد، وكان إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير.

هذا عدا ما جاء به من عند الله. وهو القرآن الكريم الذي لم يوجد ـ ولن يوجد ـ كلام أحلى ولا أعذب منه، بل ولا مثله أبداً.

ورد في رك ويد ١/١٠٦/٤:

'नराशंस वाजिंन वाजयन्निह क्षयद्वीरं पूणरणं सुम्नैरीमहे।
रथं न दुर्गाद् वसवः सुदानवो विश्वस्मान्नो अंहसो
निष्पिपर्तन।।' -ऋग्वेद १/१०६/४

(١) صحيح البخاري ٢٧٣١، ٢٧٣٢ (فتح الباري ٥/٣٨٩).

(٢) المستدرك للحاكم ٣/٩.

والمعنى:

«نحمد ونثني على «نراشنس» العظيم، والهادي الكبير، اخرج واظهر يا صاحب الكرم حتى تطهرنا من الذنوب، وتعبر بعربتنا في الطريق الوعرة».

وصف نراشنس في هذا المنتر بأنه يزكي الناس ويطهرهم من الذنوب، وهذه صفة امتاز بها محمد ﷺ. وقد خصها إبراهيم عليه السلام بالذكر لما دعا الله أن يبعث في آل إسماعيل رسولاً منهم، حيث قال: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٩] وقد نوه الله بذكر هذه الصفة لمحمد ﷺ، وامتن بها على المؤمنين، فقال: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** [الجمعة: ١٢] وقال: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** [آل عمران: ١٦٤].

وقد أتى محمد ﷺ في باب تزكية النفوس وتطهيرها من الذنوب جملة وتفصيلاً بما لم يأت بمثله أحد غيره، حتى إن كان المذنب ليأتي إليه يقدم نفسه ليطهر من الذنوب، وكان يعرف أن معنى تطهيره هو قتله رجماً، ولكن مع ذلك كان يصر على تطهيره حتى كان يجود بنفسه.

‘नराशंस: प्रतिधामान्यडन् तिस्रो दिव: प्रति मह्ना स्वार्चि।
-ऋग्वेद संहि २/३/२।।

وقد وصف نراشنس في هذا المنتر بكلمة «سورتي» وهي كلمة مكونة من لفظين: أحدهما؛ «سو» ومعناه الحسن والجمال. الثاني: «أرتي» ومعناه: الجميل الذي يشع من وجهه النور.

ومعلوم أن محمداً ﷺ كان أحسن الناس وجهًا، يعلو وجهه النور والبهاء، وإذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثنيتيه.

وأما ملؤه البيوت بنوره فإن محمداً ﷺ جاء بالقرآن، وهو النور المبين الذي أنزله الله عليه، وقد ملأ به البيوت، فقد وصل هذا الكتاب وما في هذا الكتاب من نور الحق والعدل إلى كل بيت، واستفاد به المسلم والكافر، وانتهى ليل الظلم والخسف والجور المظلم الذي كان محيطًا بالعالم.

ولا يستبعد أن يكون المراد بملئه البيوت بنوره عموم مدحه والثناء عليه. وقد حصل لمحمد ﷺ هذا الشرف أيضًا حصولاً لا مزيد عليه.

ورد في رك ويد ٥/٥/٢:

'नराशंस सुपूदतीमं यज्ञमदाम्य:।
कविर्हि मधुहस्त्य:।।' -ऋग्वेद सहिता ५/५/२।

وصف نراشنس في هذا المنتر بأنه يكون «كويا» وهي كلمة سنسكرتية مكونة من لفظين: أحدهما «ك» - بالفتح - وهو يطلق على الله سبحانه وتعالى، والثاني: «وي» وهو يدل على الارتباط الخاص، فمعنى «كوي» من حيث الاشتقاق هو من يكون بينه وبين الله سبحانه وتعالى ارتباط خاص.

وبتعبير آخر هو من يكون من خواص ربه سبحانه وتعالى، ومن المقربين إليه.

وأما من حيث اللغة والإطلاق الويدي فإنه يطلق على كل من:

١ - عرف ربه سبحانه وتعالى حق المعرفة.

٢ ـ وأطلعه الله على أمور من الغيب فأخبر بها الناس.

٣ ـ وآتاه الله علماً فاق به الجميع حتى الملائكة، فكأنه ملك العالم الروحاني.

فوصف «نراشنس» بكلمة كوي» يعني أنه يكون جامعًا لهذه الصفات. وقد كان محمد ﷺ:

* أعرف الناس بالله وأتقاهم له.

* وأطلعه الله على أمور من الغيب فأخبر بها الناس وهي كثيرة جداً، ومعروفة.

* وأما علمه ﷺ فلا يوازيه علم أحد، فقد كان أعرف الناس بالله وحقوقه من العبادات ونحوها، وبتهذيب النفوس وتزكيتها، وبالأخلاق والآداب والسلوك، وبالحلال والحرام، وبتنظيم الأسرة والمجتمع، وبأمور المعاش، وبسياسة البلاد، وبالسلم والحرب، وبالعدالة الفردية والاجتماعية، وبخلق هذا الكون، وبالملائكة والجن والشياطين، وبما كان وما يكون، وبالموت وما بعد الموت، وبالقيامة والحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك.

وفي ختام الكلام على بشارة «نراشنس» نرى من الأحسن أن نعيد مرة أخرى خلاصة ما تقدم من الخصائص والصفات والظروف والملابسات لهذه الشخصية الفذة، وتلك الخصائص كما يلي:

١ ـ تسميته بـ«نراشنس». ومعناه: محمد.

٢ ـ خطابه بـ«ريبهـ» ومعناه: أحمد.

٣ ـ مخاطبته أيضاً بـ«كاروم» ومعناه: أحمد.

٤ ـ وهو يكون حلو اللسان وعذب المنطق يتكلم بكلامٍ فصل، لا لبس فيه ولا غموض.

٥ ـ ويكون أجمل الناس وجهًا.

٦ ـ ويكون هادياً كبيراً، ورسولاً مقدسًا، أفضل البشر، سيد العالم، يبعث إلى الناس كافة وتعرفه جميع الأمم.

٧ ـ وهو يطهر الناس ويزكيهم من الذنوب.

٨ ـ ويطلعه الله على أمور من الغيب فيخبر بها الناس.

٩ ـ وهو يُحمَد ويثنى عليه بكثرة.

١٠ـ ويكون مهاجراً.

١١ ـ ويحمل لواء الأمن ويبسط السلام.

١٢ ـ ويعصمه الله بين ستين ألف عدو وتسعين عدواً.

١٣ ـ وتكون مركبه الإبل. (وقد مضى زمان ركوب الإبل).

١٤ ـ وتكون له اثنتا عشرة زوجة. (وهذا هو عدد أزواج محمد ﷺ).

١٥ ـ ومركبه يكون من السرعة بحيث يصل إلى السماء ثم ينزل. (وقد وقع هذا في الإسراء والمعراج.).

١٦ ـ ويعطيه الله مئة دينار من الذهب الخالص. (وهو عدد مهاجري الحبشة).

١٧ ـ ويعطيه عشر قلائد. (وهم العشرة المبشرون بالجنة).

١٨ ـ ويعطيه أيضًا ثلاث مئة جواد. (وهم أصحاب بدر.)

١٩ ـ وكذلك يعطيه عشرة آلاف بقرة. (وهو عدد الصحابة الذين شهدوا فتح مكة).

٢٠ ـ وهو يقوم بالغزوة وقتال الملحدين الظالمين الفاجرين.

٢١ ـ وأصحابه حمّادون، ومصلون يلتزمون بالحمد والصلاة حتى أثناء الحروب.

٢٢ ـ ويقاتلون بشجاعة بالغة.

٢٣ ـ وذراريهم وأولادهم يكونون في غاية الأمن والاطمئنان في بيوتهم أثناء الحروب.

٢٤ ـ وهو يعطي كلامًا حكيمًا يكون هدى للمتقين. ويقع منهم موضع القبول مثل وقوع السهم من الهدف، ويكون التمسك به سببًا للحصول على الملك وجباية الأموال، وتشبه تلاوته بتغريد الطيور على شجرة يانعة الثمار. (وكل هذه الصفات صفات القرآن الكريم على أصدق ما يمكن).

٢٥ ـ تظهر له حكمة بالغة عند بناء بيت الله، تفضي إلي بسط الأمن وفرحة الناس. (وفيه إشارة إلى حكمه في قصه الحجر الأسود).

٢٦ ـ يبسط أمنا يسر الجميع عندما يأخذ الحكم ويعمر بيت الله بتطهيره عن الأصنام، وبدء عبادة الله فيه. (وفيه إشارة إلى ما وقع عند فتح مكة).

٢٧ ـ يحصل الأمن والرخاء في العيش أيام حكمه وحكم أصحابه.

٢٨ ـ ويتقدم الإنسان أيام حكمه في سبيل الخير والتقوى.

٢٩ ـ يشبه أمره بزرع يبدأ من بذر، ثم ينمو حتى يصير شجرة باسقة تعلو في السماء.

٣٠ ـ بيان عجيب لما حصل عند بداية رسالته ﷺ بنزول ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾.

٣١ ـ وهو يكون ثمال اليتامى، عصمة للأرامل. يتصدق بالآلاف، ويتنعم أيام حكمه الإنسان والحيوان.

٣٢ ـ وفي الأخير دعاء له ولأمته بالسلامة من الأعداء وقطاع الطرق، وإهداء بمديح في غاية الحب والأدب.

ولا نحتاج إلى بيان أن هذه الخصائص والميزات. والظروف والأوضاع التي اختص بها محمد ﷺ ولم يتصف بها أحد غيره في تاريخ البشر. فهو ﷺ هو المقصود والمراد بهذه الأخبار والبشارات بلا ريب.

* * *

البشارة بـ «كلكي أوتار»

هذه بشارة عظيمة متواترة عند الهندوس، وبيانها يحتاج إلى شرح بعض معتقدات الهندوس، فأقول: إن الهندوس يعتقدون أن هذه الدنيا مرتبة على أربعة عهود، أو أربع دورات زمنية، كل دورة منها تمتد إلى آلاف السنين، وأن كل دورة لاحقة أقصر من سابقتها بقدر ربع الدورة الأولى. وتلك الدورات الأربع هي:

١ ـ ست يك أو ستيه جك: (   )

«ست» بفتح فسكون تاء، وربما تشدد مع اشمام التاء، ويك أو جك بضم الأول وسكون الكاف الفارسي (والكاف الفارسي يوافق تمامًا للهجة القاف عند الحجازيين ولهجة الجيم عند المصريين).

وست بمعنى الحق، ويك أو جك معناه الدنيا أو العالم، فمعنى مجموع الكلمتين: عالم الحق، وهو عالم أو عهد من الزمان لم يكن فيه غم ولا هم ولا حزن حسب عقيدة الهندوس.

٢ ـ ترت يك، أو تريتا جك: (   )

بكسر فسكون فتاء أو بإضافة ياء قبل التاء وألف بعد التاء.

وقد بدأ العهد حسب عقيدة الهندوس حين دب إلى الناس داء الحرص والشح والانحطاط الخلقي.

٣ ـ دوابر يك، أو دوابر جك: (   )

بضم الدال وتخفيف الواو وفتح الباء الفارسي وسكون الراء.

وقد بدأ هذا العهد حين قوى الشر وازداد.

٤ ـ كل يك، أو كل جك: (   )

كل بفتح فسكون، معناه السواد والظلام، سمي هذا العهد بذلك لانتشار الضلال، وغلبة الشر والفساد فيه، بحيث كأنه قد غشي العالم الإنساني وتركه مظلمًا مسودًّا، لا نور فيه ولا ضياء.

والهندوس يقولون: إن الدورات الزمنية الثلاث الأولى قد مضت، وإننا اليوم نعيش في الدورة الرابعة والأخيرة، وهي كل يك، وأن هذه الدورة سوف تنتهي بقيام الساعة، فيفنى العالم ويفنى كل شيء.

أما بداية «كل يك» فإنهم يعتبرونها ويحسبونها من طوفان نوح عليه السلام، وكلهم اختلفوا عن الآخرين في عدد السنوات والشهور، لأنهم جعلوا مقدار السنة ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات، و١٢ ثانية، ونصف ثانية ونصف نصفها، ثم جزء من هذا النصف الأخير، وبذلك زادوا على مقدار السنة الشمسية الحقيقية نحو ٢٤ دقيقة، ثم جعلوا السنة الأولى من هذا التقويم سنة الصفر، فجاءت النتيجة بالفرق الواضح في عدد السنوات والشهور بين هذا التقويم وبين تقويمات أخرى لطوفان نوح عليه السلام، وإلا فإن تقويم «كل يك» موافق لتقويم طوفان نوح في عدد الأيام حسب رأي المحققين.

ثم إن كتب الهندوس تصرح بأن الله تعالى أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين في كل من هذه الدورات الزمنية الأربع، وأنهم جاؤوا في هذه الدنيا فأدوا دورهم في هداية العباد وإصلاح الفساد، ثم انتقلوا إلى مقامهم عند ربهم، وقد صرح بعض كتبهم بأن عدد كبار الرسل وأعاظم المرسلين أربعة وعشرون رسولاً، بعث منهم ثلاثة وعشرون، ولم يبق إلا الواحد والأخير.

والبشارة بهذا الرسول الأخير ـ خاتم الأنبياء والمرسلين ـ أمر متواتر عند الهندوس، وهم لا يزالون ينتظرونه ويرقبون مجيئه، ويسمونه بـ «كلكي أوتار» وذلك لأمرين اثنين:

الأول: أنه آخر نبي وأعظم رسول يبعث في هذا العهد: عهد «كل يك» فنسب إلى العهد الزمني الذي يبعث فيه، وإنما خص بهذه النسبة مع أن عدداً من الرسل سواه أيضًا قد بعثوا في هذا العهد، لأنه أعظمهم وخاتمهم، ويمتاز عليهم بعظمته وعموم بعثته وكونه خاتم النبيين.

الثاني: أن معني «كلكي» من يغسل السواد ويزيله، و«كلكي أوتار» يبعث حين يسود الجو لغلبة الضلال والظلام ولعموم الفساد والانحلال، فيخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، فهو يغسل السواد ويزيله من المجتمع البشري ويزكيه ويطهره تطهيراً.

والبشارات حول «كلكي أوتار» كثيرة ومتواترة، وقد تناولت من خصائصه وميزاته وأوصافه والظروف المحيطة به ما لا يترك أدنى مجال للشك في معرفته إذا جاء فلندرس تلك البشارات، وبالله التوفيق.

اسم كلكي أوتار:

ورد في كتاب بهوشيه بوران يرتي: «أن الرسول الذي يولد في «كل يك» اسمه «سرو أنما».

ومعنى «أنما» الذي يحمد ويثني عليه، ومعنى «سرو» أكثر من غيره أو أكثر من الجميع. فمعنى «سرو أنما» الذي يحمد ويثني عليه أكثر من غيره أو أكثر من الجميع. وهو نفس معنى محمد، فهما كلمتان مرادفتان، إحداهما بالسنسكرتية والأخرى بالعربية.

اسم والده ووالدته:

ورد في كتاب كلكي بوران، أدهياي ٢، شلوك ١١:

‘सुमत्यां विष्णुयशसा गर्भमाधत्त वैष्णवम्।

-कल्कि पुराण, अध्याय २, श्लोक ११

المعنى:

* إن كلكي أوتار يولد من «سومتي» لرجل اسمه «ويشنو ويش».

ومعنى سومتي: آمنة، وأما ويشنو ويش فهو مجموع كلمتين، فوشنو معناه: الله. و«ويش» معناه: عبد، فمعنى مجموع الكلمتين: عبد الله.

وقد ورد بيان اسم والده ـ وأنه ويشنو ويش ـ أيضًا في كتاب «كلكي بوران» أدهياي ٢، شلوك ٤، وبهاكوت بوران ١٢/٢/١٨.

أسرته ومكان ولادته:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/١٨:

'शम्भलग्राममुख्यस्य ब्राह्मणस्य महात्मनः।
भवने विष्णुयशसः कल्किः प्रादुर्भविष्यति।।'

كما ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ٤:

'शम्भले विष्णुयशसो गृहे प्रादुर्भवाम्यहम्।
-कल्कि० अध्याय २, श्लोक ४

والمعنى:

* إن كلكي أوتار يولد في «شنبل غرام» لـ«ويشنو ويش» في بيت سيدهم ورئيسهم الديني.

و«شنبل» معناه: الأمين، أو الآمن، و«غرام» معناه: البلد والقرية. فـ«شنبل غرام» معناه: البلد الأمين أو البلد الآمن، ومعلوم أن مكة المكرمة هي البلد الأمين. وأن الأمن صفة لازمة لها شرعًا وعرفًا وقدراً، أما العرف فقد جرى ـ حتى في زمن الجاهلية ـ بالامتناع عن القتال فيها، حتى إن الرجل ربما كان يجد ويقدر على قاتل

أبيه في حدود حرم مكة فلم يكن يهيجه، بل لم يكن يقول له: أف. ثم جاء الإسلام فحرم القتال فيها أشد التحريم، فصار ذلك شرعًا، وأما قدراً فلأنه لم يقصد هذا البلد الأمين جبار بسوء إلا قصمه الله. ولا تجد في العالم كله قرية أو مدينة أو منطقة حصل لها من الأمن معشار ما حصل لمكة المكرمة. حتى لم يعرف باسم البلد الأمين إلا مكة.

وكانت سيادة أهل مكة ورئاستهم الدينية إلى هاشم بن عبد مناف، ثم انتقلت بعد وفاته إلى أخيه المطلب ثم إلى عبد المطلب بن هاشم ثم لم تزل في أولاده حتى جاء الإسلام.

وقد اتضح بهذا أن الخصائص الثلاث المذكورة في الترتيلتين السابقتين اجتمعت في محمد ﷺ وانطبقت عليه تمام الانطباق، (بينما لم يحصل شيء منها لأحد غيره) فقد ولد ﷺ في شنبل غرام (البلد الأمين) مكة المكرمة، وولد لـ « ويشنوويش » أي عبد الله. وولد في بيت سيدهم ورئيسهم الديني، وهو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان هو السيد والرئيس الديني لأهل مكة حين ولادته ﷺ. وكان عبد المطلب هو وليه وكفيله ﷺ من أول يومه حيث ولد يتيمًا.

تاريخ ولادته:

ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ١٥:

द्वादश्यां शुक्लपक्षस्य माधवे माधवे मासि माधवम्।
जातो दहशतु: पुत्र पितरौ हुष्टमानसौ।।'
-कल्कि पुराण, द्वितीय अधयाय १५वां श्लोक।

المعنى:

* أن كلكي أوتار يولد في اليوم الثاني عشر في شهر « بيساك ».

وشهر بيساك أحد الشهور المعروفة المستعملة عند الهندوس حتى الآن، ولا يزال يسمى بهذا الاسم في جميع تقويماتهم الهندية.

وكان مولد محمد ﷺ حسب التقويم الهندوسي في اليوم الثاني عشر من شهر بيساك، سنة ٦٢٨ بكرمية. وقد وافق ذلك يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول عام الفيل، وكان ذلك أقدس يوم عند الهندوس حسب تقويمهم وعقيدتهم.

زمانه:

سيأتي أن «كلكي أوتار» يركب الفرس والبعير، ويحمل معه السيف، يكبت به أعداء الدين، وهذا يعني أنه يولد ويبعث في زمن يستخدم فيه الفرس والبعير للركوب، والسيف للقتال، وقد مضى هذا العهد قبل قرون طويلة، فالزمن الذي نحن فيه هو زمن السيارات والطائرات، وزمن القذائف والصواريخ. فلا مجال لانتظاره في هذا الزمان، أو في الأزمنة القادمة. وإنما يبحث عنه في ضوء خصائصه وميزاته في الزمان الغابر.

ومعلوم أن محمداً ﷺ بعث في مثل ذلك الزمان: زمن ركوب الفرس والبعير والقتال بالسيف، ولم يمض عليه قرن أو نحو قرن حتى تطورت الظروف، وظهرت البندقية وعجلات الركوب وغير ذلك.

وفاة أبيه وأمه:

ورد في كلكي بوران، وبهاكوت بوران، سكند ١٢: أن والد كلكي أوتار يموت قبل ولادته، وأما أمه فهي أيضاً تموت في زمن قريب من مولده.

وهذا عين ما حدث لأبوي محمد ﷺ، فإن والده عبد الله توفي قبل أن يولد محمد ﷺ. وأما والدته فقد توفيت بعد مولده بست سنوات فقط.

زواجه وزوجته:

ورد في نفس الكتابين المذكورين أن كلكي أوتار يتزوج سيدة سالمل ديب، ويتولى زواجه أحد أعمامه وثلاثة من إخوانه.

أما سالمل ديب فهو يطلق عند قدامى الهندوس على جزيرة العرب وأرض كنعان. وحيث إن أرض كنعان لم يوجد فيها من يصدق عليه شيء مما تقدم ومما يأتي من أوصاف كلكي أوتار فلم يبق إلا جزيرة العرب، وكانت قريش هم سادات أهل الجزيرة، وخديجة سيدة نسائهم، فإذن هي سيدة جزيرة العرب، وقد تزوجها محمد ﷺ.

وقد تولى هذا الزواج عمه أبو طالب، وقام بتنظيم شئونه ثلاثة من أبنائه: جعفر وطالب وعقيل، وهم إخوانه ﷺ من جهة العم. وإطلاق كلمة الأخ على ابن العم شائع في عرف الهند حتى إلى هذا الزمان.

ذهابه إلى غار في جبل وتلقيه العلم من ملك:

ورد في كلكي بوران أن كلكي أوتار يذهب إلى غار في جبل، ويتلقى هناك العلم من برشو رام.

ومعلوم أن محمداً ﷺ كان يذهب إلى جبل «حراء» ويجاور ويتعبد في غار في هذا الجبل، وبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل عليه السلام بوحي الله سبحانه وتعالى، وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الآيات، فكان كهذا هو تلقيه للعلم لأول مرة، ثم استمر هذا التلقي إلى آخر حياته.

أما «برشو رام» فهو اسم ملك من الملائكة عند الهندوس، ومن أعماله أنه يأتي بالعذاب على أعداء الدين من الكفار والملحدين، فلا نحتاج إلى بيان أنه هو جبريل عليه السلام بعينه في لسان اليهود والنصارى والمسلمين، ومن أسماء جبريل عليه السلام روح القدس، وهو معنى برشو رام أيضاً.

دعوته، وإيذاء المشركين إياه، وهجرته ثم عودته وفتحه لبلده:

ثم يقول كلكي بوران: إنه يبدأ الدعوة إلى دين الله في قريته «شنبل غرام» (البلد الأمين) الواقعة في سالمل ديب (جزيرة العرب) فيعاديه أهل هذه القرية ويؤذونه حتى يهاجر إلى مدينة أخرى واقعة في جهة الشمال تحيط بها الجبال، ثم يعود بعد مدة إلى قريته، ومعه السيف فيفتحها، ويفتح البلاد كلها.

ومطابقة هذه البشارة لحياة نبينا محمد ﷺ واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار، فإنه بدأ الدعوة إلى دينه في قريته «مكة المكرمة»، وهي «شنبل غرام» أي البلد الأمين، وتقع في جزيرة العرب وهي سالمل ديب. فلما بدأ الدعوة عاداه أهل بلده مكة المكرمة، حتى اضطر إلى الهجرة، فهاجر منها إلى المدينة المنورة، وهي في جهة الشمال من مكة المكرمة، على بعد أكثر من أربع مئة كيلومترٍ. وهي مدينة تحيط بها الجبال والحرات من جميع جوانبها، وفي السنة الثامنة من الهجرة عاد النبي ﷺ إلى مكة المكرمة ومعه السيف والجند، ففتح مكة وأقام فيها حكم الله، وكان فتح مكة مفتاحًا لفتح بلاد العرب كلها.

البراق والمعراج:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/١٩، ٢٠ (وسوف نقدم صورتها) وفي غيرهما أيضًا:

«أن كلكي أوتار يعطى فرسًا طياراً أسرع من البرق، فيركبه ويسير به في الأرض والسموات السبع».

وهذا بيان واضح لقصة الإسراء والمعرج، وهو أيضًا مما أعطي محمد ﷺ واختص به، فقد أعطاه الله البراق ليلة الإسراء والمعراج، وهو بين الفرس والحمار، وكان أسرع من البرق، يضع قدمه عند منتهى طرفه، فركبه النبي ﷺ وأسري به عليه من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السموات السبع.

وركوب كلكي أوتار على البراق أمر محكم عند الهندوس، يقول مؤلف كتاب جكت كرو سرور عالم إن في البيوت المنحوتة في جبال «ألور» قريبًا من أورنغ آباد عدة بيوت مخصصة لآلهة الهندوس الأنثى حسب زعمهم، ويرجع تاريخها إلى ما قبل ألفي سنة، ومن هذه البيوت بيت برقم ١٦، ويسمى بـ «رنغ محل» فيه تماثيل كبار الرسل، وأمام كل منهم صورة مركبه، وكلكي أوتار هو الرسول العاشر، وليس له تمثال، وقد نحت له مركبان في السقف ينطبق عليها وصف البراق تمامًا. (من كتاب ويدك دهرم أور نبي أكرم ﷺ، أي الديانة الويدية والنبي ﷺ، تاليف: سلام الله صديقي من بنارس/ الهند).

حمله السيف، وقتاله ضد الشياطين والملحدين وكبته أعداء الدين:

جاء في نفس المصدر والموضع السابقين: أن كلكي أوتار يقاتل أعداء الدين بالسيف، ويكبتهم ويكبت عشرات الملايين من الأشرار والخبثاء المتسترين بزي الملوك والحكام.

وقد حصل هذا كله للنبي ﷺ، فقد قاتل أعداء الدين بالسيف، وهزمهم في المعارك، وغلبهم في الحروب، وكبت منهم الأشرار والكفار الملحدين. وأرغم الرؤوساء والسادات والحكام والملوك بمن تحت أيديهم على قبول الحق والخضوع لحكم الرب، ولم يحصل هذا لغيره. ومعاركه وحروبه وغزواته ﷺ معروفة لا تحتاج إلى البيان:

نصرته بالملائكة في الحروب:

ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ٧:

यात यूयं भुवं देवाः स्वांशावतरणे रताः।

-कल्कि पुराण, अध्याय २, श्लोक ७।

أي «إن كلكي أوتار ينصر بالملائكة في الحروب».

وهذا أيضًا وقع لمحمد ﷺ، فقد نصره الله بالملائكة في غزوة بدر، ثم في غزوة أحد، فقد قاتل عنه ﷺ يومئذ جبريل وميكائيل أشد القتال، والكفار مطوقون به، ثم جاءت جنود الملائكة في غزوة الأحزاب، حتى هزموا الكفار، ثم جاء جبريل إلى النبي ﷺ، وهو في بيته، فأمره بالخروج إلى بني قريظة، وتقدمه إليهم في موكب من الملائكة، ونزلت الملائكة أفواجًا في غزوة حنين.

تأييده بأربعة خلفاء:

ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ٥:

'चतुर्भिर्भ्रातृभिर्देव करिष्यामि कलिक्षयम्।
-कल्कि पुराण, अध्याय २, श्लोक

يعني «أن كلكي أوتار يكبت الشياطين بأربعة مساعدين أو مؤيدين».

وقد أعطي محمد ﷺ أربعة خلفاء كانوا وزراءه ومساعديه في كل ما قام به من أمور الدين من الدعوة والجهاد وغير ذلك، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، فلما انتقل النبي ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى قاموا بأمره وخلفوه واحداً بعد واحد، فقضوا على الشياطين، وكبتوا أعداء الدين، ورفعوا لواء الإسلام والمسلمين، وبلغوا الإسلام إلى أقصى الأرضين. فأبو بكر رضي الله عنه قضى على المرتدين في داخل الجزيرة العربية، ثم واجه الفرس والرومان، ومهد طريق الإسلام إلى بلادهما، ثم خلفه عمر رضي الله عنه فقضى على الفرس في العراق والعجم، وقضى على الرومان في مصر والشام، ثم خلفه عثمان رضي الله عنه، فنسج على منواله، حتى تغلغل في أفريقية غربًا، وفي خراسان وما وراء النهر شرقًا، ثم خلفه علي بن أبي طالب، والفتن على أوجها، فقام لها قيامًا لا ضعف فيه، حتى

ظهرت فتن العقائد بجنب الفتن السياسية فصمد لها حتى قضى على المارقين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وبهذه الجهود المتواصلة من هؤلاء الخلفاء الأربعة تم كبت عشرات الملايين من الشياطين والمردة من أعداء الدين المتمثلين في الملوك والوزراء والنواب والأمراء، والحكام والأركان، والخدم والحواشي، والجنود والقوات، والعساكر والأذناب، والطبول والأبواق، وغير ذلك ممن كانوا مسيطرين على المجتمع البشري، وسائقين له إلى أي جهة شاءوا، فلما زالت هذه العقبات دخل السعداء من عامة الناس وخاصتهم في دين الله أفواجًا، وشهدت الدنيا من الخير والبركة والسعادة والنور، والعبادة والعدالة والقيام بالحق، والأمن والسلامة والطمأنينة والرخاء ما لم يسبق له نظير في التاريخ، وما لم يجد أحد في نفسه همة اللحوق به من غير المسلمين.

سيادته للعالم:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/١٩، (الآتي قريبًا) في وصف كلكي أوتار» لفظ جكت بتي» ومعناه «سيد العالم». وهذا الوصف يستلزم أيضًا أن يكون مبعوثًا إلي العالم كله، وإلى الناس كافة.

ومحمد ﷺ هو سيد العالم كله، فقد بعث إلى الناس كافة، وإلى الشعوب كلها، ودعا إلى دينه الأحمر والأسود، وآمن به الناس من جميع العالم بدون أي استثناء، وبفضل دينه ودعوته ومجتمعه الذي أنشأه عرف الناس من حقوق البشر وكرامته وحريته ما لم يكونوا يعرفونه من قبل، وخرجوا بفضله مما كانوا فيه من الظلم والحيف والجور، والشقاوة والفساد، وتمتعوا بتلك الحرية والكرامة والحقوق، واتخذوها أمورًا أساسية تدور عليها رحى المعيشة والحياة، فالناس كلهم مدينون له، والعالم كله مرتهن بفضله وإحسانه، وكلهم يمشون في طريق أناره هو، اعترفوا بذلك أم أبوا. وإنما يخالفونه فيما يثقل عليهم من أمور الدين أما ما ينفعهم من

حقوق الدنيا فإنما تعلموه مما جاء به محمد ﷺ . فإذن محمد ﷺ هو سيد العالم كله في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، فقد أخبر أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر.

ختم النبوة والرسالة عليه:

ورد في بها كوت بوران، برتهم اسكند، أدهياي ٣، شلوك ٢ :

«أن عدد كبار الرسل أربعة وعشرون، وأن كلكي أوتار هو آخرهم وخاتمهم».

ومعلوم أنه لم يرسل رسول ولا نبي ادعى ختم النبوة والرسالة على نفسه إلا محمد ﷺ ، ولم يأت بعده أحد ادعى لنفسه النبوة أو الرسالة إلا وقد ثبت أنه دجال كذاب.

حسنه وبهاؤه:

ورد في صفات كلكي أوتار - في بهاكوت بوران ١٢ / ٢ / ٢٠، الآتي قريبًا - أنه يكون جميلاً باهر الجمال، لا مثال له، وقد كان محمد ﷺ كذلك. فإنه كان أحسن الناس وجهًا، وأجملهم منظرًا، وأضوؤهم محيًا. وهو مفصل في الأحاديث، وانظر طرفًا منه في كتابنا الرحيق المختوم، وفي كتابنا روضة الأنوار.

طيب رائحته:

ورد في بهاكوت بوران ١٢ / ٢ / ٢١ :

'अथ तेषां भविष्यन्ति मनांसि विशदानि वै।
वासुदेवाङ्गरागातिपुण्यगन्धानिलस्पृशाम्।'
-भागवतपुराण, द्वादश स्कन्ध, द्वितीय अध्याय, २१ वां श्लोक।

أي «يفوح من جسد كلكي أوتار أطيب ريح يعطر الهواء وينشئ الفرحة في النفوس».

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن جسد محمد ﷺ وعرقه كانا يفوحان طيبًا. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما مسست حريراً ولاديباحًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط، أو عرقًا قط - وفي رواية -: ما شممت عنبراً قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح أو عرق رسول الله ﷺ[١].

وقال أبو جحيفة رضي الله عنه: أخذت بيده (ﷺ) فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك[٢].

وقال جابر بن سمرة رضي الله عنه، - وكان صبيًّا -: مسح (ﷺ) خدي فوجدت ليده برداً أو ريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار[٣].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كأن عرقه اللؤلؤ. وقالت أم سليم رضي الله عنها: هو - أي عرقه ﷺ - من أطيب الطيب[٤].

وقال جابر رضي الله عنه: لم يسلك - أي النبي ﷺ - طريقًا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه، من طِيبِ عَرْفِه، أو قال: من ريح عَرَقِه[٥].

جمعه لصفات الخير:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/٢٠، ١٩ (وقد تكررت الإشارة إليهما) عن كلكي أوتار ما يلي:

'अश्वमाशुगमरुह्य देवदत्त जगत्पति।
अःसिनासघुदमनमुष्टेश्वगुरणमन्दित।'
'विचरन्नाशुना क्षोण्यां हयेना प्रतिवद्युति:।
नृपलिंङ्गच्छदों दस्यून्कोटिशो निहनिष्यति।।'
-भागवतपुराण 12-2-19-20

(١) صحيح البخاري ح٣٥٦١ (فتح ٦/٦٥٤) مسلم: السفضائل ح٨١ (٤/١٨١٤).

(٢) صحيح البخاري ح٣٥٥٣ (فتح ٦/٦٥٣).

(٣) صحيح مسلم: الفضائل ح٨٠ (٤/١٨١٤).

(٤) مسند الدارمي ١/٣٢.

(٥) مسند الدارمي ١/٣٢.

والمعنى :

« أن سيد العالم المتصف بالصفات الربانية الثمان يركب فرسًا يطير سرعة، يعطيه له الملائكة. وهو يكبت الملحدين الظالمين بالسيف.

وإن صاحب الجمال الباهر يركب ذلك الفرس السريع ويطوف في الأرض، ويكبت أو يهلك عشرات الملايين من الشياطين المتسترين في زي الحكام.

وهاتان الترتيلتان تفيدان أن كلكي أوتار يتصف بما يلي من الخصائص والصفات، وهي أنه :

* يكون سيد العالم.

* ويحمل السيف، وهذا يعني أنه يغزو ويقاتل.

* ويكبت أعداء الدين من مردة الحكام والشياطين.

* ويعطى له نوع خاص من الفرس.

(وقد تقدم الكلام حول كل من هذه الخصائص الأربع قريبًا).

ويتصف بثمان صفات ربانية مقدسة، وقد ورد في كتاب « مها بهارت » بيان هذه الصفات وهي :

‘अष्टौ गुरण: पुरुषं दीपयन्ति
प्रज्ञा च कौल्यं च दम: श्रुतुंच।
पराक्रमाश्चबहूभाषिता च’
दानं यथाशक्ति कृतज्ञता च’।।

أما شرح هذه الصفات فكما يلي :

١ ـ بركيا، أي الاطلاع على أمور الغيب والإخبار بها.....

٢ ـ كلينتا، أي الانتساب إلى أسرة عالية ونسب عال....

٣ ـ إنذرية دمن، أي الغلبة على النفس..........

٤ ـ رشوتكيان، أي تلقي الوحي والنبوة..........

٥ ـ براكرم، وهو أن يكون قوي الجسد..........

٦ ـ بهو بهاشتا، أي التقليل من الكلام..........

٧ ـ دان، أي الجود والسخاء والتصدق بالمال..........

٨ ـ كرتكتا، أي الحكمة وبعد النظر ودقته..........

هذه هي الصفات الربانية الثمان عند الهندوس، والتي وردت في جملة خصائص كلكي أوتار في الترتيلة التي نحن فيها.

والذي يعرف سيرة محمد ﷺ يعرف أنه أعلى وأولى من اتصف بهذه الصفات الربانية، وفيما يلي إيضاح شيء من ذلك.

اطلاعه على أمور الغيب وإخباره بها:

معلوم أن الله تعالى أطلع محمداً على كثير من أمور الغيب فأخبر بها أصحابه وأمته، وهي مذكورة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فمن أمور الغيب هذه ما يتعلق بالخلق مثل خلق السموات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب والملائكة والأرواح والجن والإنس، لا سيما خلق آدم وما أحاط به من الأحداث التي وقعت قبل الخلق وبعده، ومنها ما يتعلق بالأحداث التي وقعت في الأيام الخالية، من آلاء الله أو أيامه، مثل ما حدث لقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب مدين وآل فرعون وغيرهم من النكال والعذاب، وما أنعم الله سبحانه وتعالى به على الأنبياء والمرسلين وعلى عباده الصالحين.

ومنها التنبؤات التي تتعلق بالمستقبل. وهي كثيرة ومتنوعة، فمنها ما وقع في حياته ﷺ، ومنها ما وقع بعده قريبًا، ومنها ما وقع بعده من القرون الطويلة، ومنها

ما ينتظر وقوعه في الأيام القادمة. وذلك مثل التنبؤات عن غلبة الروم على الفرس، وعن غلبة المسلمين على الكفار والمشركين، وظهور الإسلام على الدين كله، وجعل المسلمين خلفاء الأرض، وفتحهم اليمن والشام ومصر والعراق وغير ذلك، واغتنامهم كنوز كسرى وقيصر، وقتالهم خوزا وكرمان والحبشة والرومان والبربر والأتراك، ومثل ظهور المهدي وخروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجال، وقضاء المسلمين على اليهود والنصارى، ومثل خروج يأجوج ومأجوج، وظهور أشراط الساعة الصغرى والكبرى، ومثل أخبار القيامة والجنة والنار، وما إلى ذلك.

فكل ذلك من أمور الغيب الذي لا يدرك بالحس الظاهر والباطن قبل الوقوع، وقد أطلع الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على كل ذلك، فأخبر بها هو أصحابه وأمته، ودوّنها أهل العلم في الكتب والأسفار، وهي لا تزال موجودة فيها، وقد وقع كثير منها بعد تدوينها في الكتب بسنوات أو بقرون.

علو النسب:

معلوم أن محمداً ﷺ كان أعلى الناس حسبًا ونسبًا، فإنه كان من أعز قبيلة في العرب، وهي قريش، ثم من أعز عشيرة في قريش، وهم آل قصي، ثم من أعز بطن في آل قصي، وهم بنو عبد مناف ثم من أعز وأشرف فخذ في بني عبد مناف، وهم بنو هاشم، ثم من أشرف جد في بني هاشم، وهو عبد المطلب، وأما والده فكان أشرف أولاد عبد المطلب، وقعت عليه القرعة ليذبح لله، ثم فدى بمئة من الأبل، فكان هذا شرفًا اختاره الله له، ولم يقع في نصيب أحد غيره، والحاصل أن محمداً ﷺ كان أعلى الناس نسبًا، وأعزهم وأشرفهم حسبًا.

الغلبة على النفس:

وهذه صفة تتجلى في البعد عن الفواحش، والعفة في النفس والمال، والعفو عند المقدرة بدل الانتقام، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يلتزم بها الرجل مع وجود مغريات على الشر، وقدرة عليه.

وقد كان محمد ﷺ أملك الناس لنفسه وإربه، لم يقرب فاحشة قط مع كثرة الدواعي والمغريات في المجتمع الذي كان يعيش فيه، ومع عدم وجود أي مانع منها سوى كرم النفس أو خشية الله، وكذلك لم ينتقم لنفسه قط مع كثرة ما أوذي به وشدته، ومع قدرته التامة على الانتقام. وقد كان على أعلى قمة في التطهر والتزكي، وفي العفو عند المقدرة، وكان أبعد الناس عن كل سوء، وأعفه عن كل ما يريب من الأموال والأعمال.

وكان يعلم أصحابه الغلبة على النفس فيقول: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب»(١). ويقول أيضًا: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٢).

تلقي الوحي والنبوة:

وهذا وصف معروف لمحمد ﷺ ليس في حاجة إلى البيان إطلاقًا.

كونه قوي الجسد:

وقد كان النبي ﷺ قوي الجسد، صارعه ركانة بن عبد يزيد مرتين أو ثلاثًا فصرعه النبي ﷺ في كل مرة، وكان ركانة مصارعًا معروفًا بالقوة والجلادة، قلما

---

(١) صحيح البخاري ح٦٤٥٧٤ (الفتح ١١/٣١٤) وح٦٨٠٧ (الفتح ١٢/١١٥) جامع الترمذي ح٢٤٠٨ (٤/٦٠٦) الزهد: باب ٦٠، مسند أحمد ٥/٣٣.

(٢) صحيح البخاري ح٦١١٤ (الفتح ١٠/٥٣٥) صحيح مسلم: البر والصلة ح١٠٦ - ١٠٨ (٤/٢٠١٤).

يضاهيه أحد، فصار سببًا لإسلامه، ومن مظاهر قوته ﷺ أيضًا أنه كان يسافر طويلاً، ويقاتل الأبطال ويتقدم الشجعان، ويخلف الفرسان، ويكبت الجلد القوي من أصحاب الطغيان، بينما هو في النصف الأخير من الخمسينات، بل كان قد جاوز الستين من عمره، لم يكن يتوانى ويتكاسل عن مثل هذه الأعمال الشاقة التي تطلب المزيد من القوة، وهذا دليل على امتيازه بالقوة الجسدية.

التقليل من الكلام:

معلوم أن النبي ﷺ كان قليل الكلام، قال هند بن أبي هالة: كان يخزن لسانه إلا عما يعنيه(١). وقال خارجة بن زيد: كان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة(٢).

وكان يعلم أصحابه التقليل من الكلام ويحثهم عليه فيقول: إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام(٣).

ويقول: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن من أبعد الناس من الله القلب القاسي(٤).

الجود والسخاء والتصدق بالمال:

وهذه صفة امتاز بها محمد ﷺ من بين البشر، فقد كان من أجود الناس، وأكثرهم صدقة في سبيل الله، لم يوجد له نظير في التاريخ، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وقد شرع الله الزكاة، وجعلها أحد الأركان الخمسة للإسلام، وهو نظام للصدقات لا يوجد له مثيل في الأديان، وحل لمشكلة الفقر بحيث لا يدانيه شيء مما لدى الأقوام.

---

(١) شمائل الترمذي ح٣٣٠ ص١٦٢، طبع: دار الحديث للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) الشفاء للقاضي عياض ١/١٧٧.

(٣) مسند أحمد ١/٢٠١.

(٤) جامع الترمذي ح٢٤١١ (٤/ص٦٠٧).

الحكمة وبعد النظر:

(وهو أن يعمل الرجل ما يعمل، وهو يدقق النظر في عواقبه ومآله).

وهذه صفة تتجلى في كل تصرفاته ﷺ. فحياته ﷺ كانت محاطة بالأخطار، مليئة بالأحداث والوقائع من الحرب والسلم، والدعوة والجهاد، والعقود والمواثيق، وإرسال البعثات واستقبال الوفود، وغير ذلك، وكان يقضي ليله ونهاره وهو يعامل الناس معاملات فردية واجتماعية في شتى أنواع المجالات، لكن لا تجد له ﷺ أي أخطاء في التخطيط والتدبير والتطبيق، بل تجد له نجاحًا ودقة نظر بَالِغَيْن إلى حد الإعجاز، وقد تجلت حكمته وبعد نظره ﷺ في قضية الحجر الأسود قبل النبوة.

والحاصل أن الصفات الربانية الثمان المقدسة المذكورة في كتب الهندوس لـ «كلكي أوتار» كلها وجدت في محمد ﷺ بأحسن وأكمل ما يكون، وذلك بجنب صفات وخصائص وميزات أخرى ذكرتها تلك الكتب لـ «كلكي أوتار» فهي أيضًا كلها موجودة في النبي ﷺ، فإذن «كلكي أوتار» عند الهندوس هو محمد ﷺ، وليس غيره، وموجز هذه الصفات أن كلكي أوتار:

١ ـ اسمه «سروأنما» ومعناه محمد.

٢ ـ واسم والده «ويشنو ويش» ومعناه عبد الله. (وهو اسم والد النبي ﷺ).

٣ ـ واسم والدته «سومتي» ومعناه آمنة. (وهو اسم والدة النبي ﷺ).

٤ ـ يولد في «شنبل غرام» ومعناه البلد الأمين أو البلد الآمن. (وهو اسم مكة المكرمة).

٥ ـ وشنبل غرام يقع في «ساملل ديب» وهي جزيرة العرب.

٦ ـ ويولد في بيت سيدهم ورئيسهم الديني. (وقد ولد في بيت عبد المطلب، وكان هو الرئيس الديني لأهل مكة).

٧ - ويولد في الثاني عشر من شهر بيساك في القرن السابع البكرمي. (وقد ولد محمد ﷺ سنة ٦٢٨ بكرمية في نفس التاريخ والشهر).

٨ - يموت والده قبل الولادة، ووالدته بعد الولادة قريبًا. (وقد ولد النبي ﷺ يتيمًا بعد وفاة والده، وتوفيت والدته وهو ابن ست سنين).

٩ - يتزوج سيدة سالمل ديب. (وكانت خديجة - زوجته ﷺ - سيدة نساء العرب).

١٠ - يذهب إلى غار في جبل ويتلقى هناك العلم من برشورام. (وكان النبي ﷺ يذهب إلى غارٍ في جبل حراء، فتلقى هناك الوحي من جبريل. واسمه برشورام عندهم).

١١ - يبعث في زمان ركوب الفرس والبعير والقتال بالسيف. (وبعث محمد ﷺ في مثل هذا الزمان. وقد انتهى هذا العهد وجاء عهد السيارات والطائرات والصواريخ).

١٢ - يدعو إلى الله فيؤذيه أهل بلدته، فيهاجر منها إلى مدينة في الشمال محاطة بالجبال، ثم يعود فيفتح بلدته بالسيف. (وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ، دعا فأوذي فهاجر إلى المدينة - واسمها إذ ذاك يثرب - وهي في شمال مكة، ومحاطة بالجبال، ثم رجع إلى مكة وفتحها بقوة السيف).

١٣ - يعطى له فرس طيار، فيسير عليه في الأرض والسموات. (وقد أعطي النبي ﷺ البراق ليلة المعراج، فأسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات).

١٤ - يقوم بالغزوات ويقاتل بالسيف. (وكلاهما معروفان من النبي ﷺ).

١٥ - يحارب الشياطين ويكبت أعداء الدين. (وقد فعل).

١٦ ـ يمده الله وينصره بالملائكة في الحروب. (وقد أمد الله محمداً بالملائكة، ونصر بهم في عدة غزوات).

١٧ ـ يكون له أربعة خلفاء يساعدونه في نشر الدين وكبت أعدائه (وقد خلف محمداً ﷺ أربعةٌ خلفاء أدوا دورهم في نصر الدين وكبت أعدائه).

١٨ ـ وهو يكون سيد العالم. (وقد كان).

١٩ ـ يختم عليه النبوة والرسالة، ويكون عليه خاتم النبوة. (وقد كان محمد ﷺ متصفًا بالأمرين. ختمت عليه النبوة والرسالة. وكان على غضروف كتفه خاتم النبوة).

٢٠ ـ يكون أحسن الناس وأجملهم وجهًا. (وكان محمد ﷺ كذلك).

٢١ ـ وتكون لجسده رائحة طيبة تعطر الجو وتنشئ الفرحة فيمن يشمها من الناس. (وكان في محمد ﷺ هذا الطيب).

٢٢ ـ ويكون متصفًا بثمان صفات ربانية مقدسة. (وقد مضت قريبًا بالتفصيل).

هذا هو كلكي أوتار المبشر به عند الهندوس، والمذكور في كتبهم بهذه الصفات الواضحة والخصائص البينة، وهل يبقى بعد ذلك أدنى شك في كون المراد به محمداً ﷺ؟ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، «ومن يضلل الله فما له من هاد».

* * *



البشارة باسم محمد أو أحمد ﷺ
في الويد وذكر غزوة الأحزاب

قدمنا أن أهم الكتب الدينية عند جمهور الهندوس هي كتب الويدات التي يعتقدون فيها أنها كتب سماوية نزلت من عند الله سبحانه وتعالى. وقد وردت في هذه الكتب بشارات باسم محمد أو أحمد صراحة، أو وردت باسم سنسكرتي يرادف محمداً، أو أحمد معنى، مع اشتمال تلك البشارة على صفات وخصائص لم توجد إلا في محمد ﷺ. فمن ذلك بشارة في أتهرو ويد في الباب العشرين، فصل ٢١ تراتيل ٦، ٧، ٩، وهي كما يلي:

ते त्वा मदा अमदन्त तानि वृष्ण्या ते सोमासी नमया यदिन्द्र परावति निर्हयी नमुचि नाम मायिनम्
वृत्रहत्येषु सत्पते । ॥७॥
यत्त कारवं दश वृत्राणयप्रति बर्हिष्मते नि सहस्त्रानि त्वंताज जनराज्ञां द्विर्दशाबन्धुना सुश्रवासेपजग्मुपः।
वर्हयः ॥६॥ पष्टिं सहसा
युधा युधमुप घेदेपि धृष्णुया पुरा पुरं समिदं नवर्ति नव श्रुतां नि चक्रेणा रथ्या दुष्पदावृणाक्
हंस्योजसा। ॥९॥
अथर्व वेद काण्ड २०। २१।६-७,९

المعنى:

* يارب الصادقين، لقد سرك السارون ببطولاتهم وأناشيدهم الغرامية في حرب العدو. حين هزمت لعبدك «أحمد» عشرة آلاف عدو بغير قتال.

* تخرج من حرب إلى حرب أخرى بشجاعة، وتفتح قلعة بعد قلعة بقوة.

إنك يا إندر - أي إنك أيها القوي العزيز - قتلت مع حبيبك الراكع العدو المبعد المخادع - أو الناقض للعهد - المعروف باسم «نموشي».

* إنك يا إندر (أيها القوي العزيز) مع يتيم معروف «بمحمد» زلزلت وقلبت بمركبك الحربي الذي لا يغلب، عشرين رئيساً وستين ألفًا وتسعة وتسعين عدواً.

والترتيلة الأخيرة وردت أيضًا في رك ويد ١ /٥٣/ ٩ .

هذه التراتيل الثلاث تذكر غزوة الأحزاب، وتبين ما وقع فيها، وتتناول عدداً من جوانبها بدقة غريبة، وفيما يلي نوضح ما جاء فيها نقطة بعد نقطة.

١ ـ وصفت الترتيلة الأولي المقاتلين في هذه الغزوة ـ وهم الصحابة رضي الله عنهم ـ بالصدق حيث قال: يا رب الصادقين. وهذا (أي الصدق وصف امتازوا به في حياتهم كلها، ولا سيما في هذه الغزوة، حتى إن الله سبحانه وتعالى حين ذكر موقفهم وصمودهم في هذه الغزوة اختار لهم صفة الصدق ووصفهم بها، قال تعالى ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [٢٣: ٣٣] وقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [٢٤: ٣٣].

٢ ـ وهذه الترتيلة وصفت الصحابة أيضًا بالشجاعة والبطولة، ومعلوم أن الصحابة كانوا معروفين بشجاعتهم وبطولتهم في كل موقف، وقد تجلى وصفهم هذا في هذه الغزوة بخاصة. يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢: ٣٣].

٣ ـ ووصفتهم الترتيلة أيضًا بأنهم يرددون أناشيد غرامية، وقد كان الصحابة يرددون في هذه الغزوة ـ وهم يحفرون الخندق ـ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا ... وإن أرادو فتنة أبينا

وكانوا يرفعون أصواتهم على قولهم «أبينا» ويكررونها.

وكانوا يرددون أيضًا.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبـــداً

وكان النبي ﷺ يجبيهم على ذلك، ويدعو لهم، ويقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصـــار والمهاجـــرة

فكانت تغمرهم الفرحة والسرور، ويزدادون نشاطًا، ويكررون الأبيات مرة بعد مرة.

٤ ـ ووصفتهم الترتيلة أيضًا بأنهم سروا الله تعالى بأناشيدهم وبطولاتهم. وفعلاً حصل ذلك للصحابة في هذه الغزوة، ويبدو ذلك جليًّا بما وعدهم الله من الأجر العظيم بعد أن وصفهم بأعلى صفات الإيمان. (لتنظر سورة الأحزاب).

٥ ـ ووصفت الترتيلة قائد هذه الغزوة بوصفين خاصين:

الأول: «كارو» وترجمته الحرفية «أحمد» وسياق الترتيلة واضح جداً في كونه علمًا لهذا القائد.

الثاني: «ورهشمت» ومعناه: العابد أو العبد. ويبدو أن في إيراد هذا اللفظ والوصف إشارة إلى كثرة عبادة هذا القائد وشدة اهتمامه بها أثناء هذه الغزوة. ومعلوم أن النبي ﷺ قد أكثر من العبادة والدعاء في هذه الغزوة، حتى إنه دعا على الكفار لشدة تأسفه حين شغلوه عن الصلاة الوسطى، بينما لم يكن من شيمته ﷺ الدعاء على أحد، مهما آذاه.

ثم في وصفه بهذا الوصف (العبد) إشارة إلى أنه مع هذا الفتح العظيم لا يختار لنفسه أن يكون ملكًا وإنما يختار أن يكون عبداً، وقد خير الله تعالى النبي ﷺ بين أن يكون عبداً وأن يكون ملكًا فاختار أن يكون عبداً، فكان يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد.

وقد يراد بكلمة «ورهشمت» معنى آخر، وهو من يعلو وجهَه النورُ والبهاء، وقد كان النبي ﷺ يمتاز بهذا الوصف أيضًا. وقد تكرر ذلك مرارًا.

٦ ـ وتخبر هذه الترتيلة أن الله تعالى هزم عشرة آلاف عدو بغير قتال. وهذه هي نتيجة غزوة الأحزاب بعينها، كان عدد العدو عشرة آلاف، وقد اضطروا إلى الفرار دون أن يقع ما يسمى بالقتال. كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥: ٣٣].

٧ ـ واللفظ الذي اختير لخطاب الله سبحانه وتعالى في الترتيلة الثانية هو لفظ «إندر». وهو في الحقيقة صفة من صفات الله تعالى تدل على معنى القوة والغلبة والقهر والغضب والنقمة، وأنه الذي تكون معه العواصف والرياح، والصواعق والرعد، يتصرف فيها كيف يشاء، فيهلك بها من يشاء وينصر بها من يشاء، فكأنه عبارة عما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢، ١٣].

ولما دب الشرك في الهندوس، وعمت الأوثان وكثرت الآلهة عندهم جعلوا «إندر» إسمًا لإله هو رمز القوة والمنعة والقهر والغضب، تواكبه العواصف والرياح، والصواعق والرعد، يهلك بها العدو وينصر بها أهل الصدق والتقوى. أي إنهم اخترعوا لهذه الصفات ذاتًا غير الله، وهي في الحقيقة صفات لله.

فمخاطبة «إندر» في هذه الترتيلة، ووصفه بأنه هزم العدو بغير قتال، معناه أنه هزمهم بالعواصف والصواعق والرعد، وهذا هو ما حصل بعينه في غزوة الأحزاب. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] والقوي العزيز مع هذه الصفات هو معنى «إندر».

٨ ـ وقوله في هذه الترتيلة الثانية: «تخرج من حرب إلى حرب أخرى...» أراد بهذه الحرب الثانية غزوة بني قريظة، فقد خرج لها رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب مباشرة، ولم يمكث في البيت إلا ريثما اغتسل، وجاءه جبريل وأمره بالخروج إلى بني قريظة. فكان خروجه من حرب إلى حرب.

وذكر من أحداث هذه الحرب الثانية أنه يفتح قلعة بعد قلعة. وهذا هو ما حدث بعينه في غزوة بني قريظة، فإنهم كانوا متحصنين في قلاع وحصون فنزلوا عنها وتركوها للمسلمين. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

أما غزوة الأحزاب فكان العدو فيها في ساحة مفتوحة، ولم تكن هناك قلاع ولا حصون.

٩ ـ ووصفت الترتيلة قائد هذه الغزوة بأنه حبيب الله، وملتزم بالركوع، ويعني بذلك أنه يكثر من الصلاة ويمتاز بها. والإشارة بالركوع إلى الصلاة معروفة حتى في تعبير القرآن. ولا شك أن محمداً ﷺ هو أحب عباد الله إليه وأكثرهم عبادة له.

١٠ ـ هذا، وقد وصفت الترتيلة العدو بأنه مبعد ومخادع وناقض للعهد.

وقد كان العدو في هذه الغزوة هم اليهود، وهم معروفون بهذه الخلال الثلاث، فقد أبعدهم الله من رحمته، وضرب عليهم الذلة والمسكنة حتى باءوا بغضب من

الله، وأما اتصافهم بالمكر والخداع ونقض العهد فإن حياة اليهود مملوءة بها طوال تاريخهم الطويل، وكانوا قد نقضوا أثناء غزوة الأحزاب أيضًا عهداً وميثاقًا مؤكداً كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فغدروا شر غدر في أحرج ساعة في حياة المسلمين، ولما شك رسول الله ﷺ فيهم، وبعث إليهم رجالاً يتعرفون على جلية الأمر وجدوهم على أخبث ما يكونون، وقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا بكل صراحة ووقاحة: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

وقد اختار الويد لبيان وصفهم هذا كلمة «ماينيم» وهي تطلق على شيء يكون في ظاهره جيداً وفي الحقيقة رديئًا خبيثًا، وكان هذا هو حال اليهود تماماً. ومن الطرائف أنهم وصفوا بذلك مراراً في مجموعة الكتاب المقدس عند أهل الكتاب، فقد شبهوا فيها بالفضة المغشوشة وبالأفاعي وأولاد الأفاعي، وبالقبر المجصص المبيض في الظاهر، والمليء بالقيح والصديد والنتن في الباطن.

١١ ـ وذكر في هذه الترتيلة أيضًا أن هذا العدو يسمى بـ «نموشي» وهذه الكلمة لها معنيان في اللغة السنسكرتية، الأول: الممسك البخيل. والثاني: المستحق للعقاب.

ومعلوم أن اليهود على رأس قائمة البخلاء الممسكين في شعوب العالم، وكانوا قد استحقوا العقاب ومنوا به بعد بعثة محمد ﷺ.

وقد أطلق لفظ «نموشي» أيضًا في رك ويد وغيره على روح خبيثة تحول ـ حسب عقيدة الهندوس ـ بين السماء والأرض، وتتغلب على السحاب فتمنعه من هطول الأمطار على الأرض، ومعلوم أن اليهود بذلوا كل ما أمكن لهم من الجهد ليحولوا بين الوحي الذي نزل على محمد ﷺ وبين وصوله إلى الناس. والوحي مشبه بالمطر في الكتب السماوية وفي لغة أهل العلم والدين، وهذا التشبيه موجود في القرآن وفي الأحاديث النبوية أيضًا.

١٢ ـ ثم تتناول هذه الترتيلة نتيجة هذه الحرب، فتقول إنها تسفر عن قتل الأعداء، ولا تنتهي بهزيمتهم فحسب، وهذه بعينها هي النتيجة التي أسفرت عنها غزوة بني قريظة، فإنها لم تنته بهزيمتهم بل إنهم استسلموا وحَكَّموا حليفهم سعد ابن معاذ رضي الله عنه فحكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم. فقتلوا كلهم أجمعون، ولم يبق إلا الذراري والنساء.

١٣ ـ وفي الترتيلة الأخيرة وصف قائد الغزوة بلفظ «أبندهونا» وهو يطلق على اليتيم ومن لا ولي له من الأرامل والمساكين.

١٤ ـ وسمي هذا القائد باسم «سشروا» ومعناه: الذي يحمد ويثني عليه بالثناء الجميل بكثرة. فهو مرادف للفظ «محمد».

١٥ ـ وذكر في هذه الترتيلة الأخيرة أن عدد أعدائه ستون ألفًا وتسعة وتسعون. وقد تقدم أن عدد أعداء محمد ﷺ الذين خرجوا للقضاء عليه، أو واجهوه في صورة جيش مقاتل يبلغ ستين ألفًا عشرة آلاف من قريش وغطفان ومن انضم إليهما من قبائل أخرى، وعشرة آلاف من اليهود من قبائل شتى وفي أماكن متفرقة. وأربعون ألفًا من الروم في غزوة تبوك.

وقد تقدم أيضًا أن عدد المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك كان ثمانين، والذين حضروا منهم في تبوك كانوا ثلاثة عشر، فهؤلاء ثلاثة وتسعون، وقد قام أربعة رجال بمحاولات فردية لاغتيال النبي ﷺ، واثنان من اليهود جاهراً بعداوة النبي ﷺ إلى حد الخبل والجنون من غير أن يقودا جيشًا أو يحضرا قتالاً، وهما كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق، فهؤلاء ستة، وبضمهم إلى عدد المنافقين يصير العدد تسعة وتسعين.

وقد أعذر الله ثلاثة من المنافقين وثلاثة من محاولي الاغتيال، ووفقهم للتوبة والإسلام، وأهلك واحداً بالصاعقة، واغتيل اليهوديان في بيتهما، فبقي العدد تسعين، ولعل هذا هو السر في عدهم مرة تسعين ومرة تسعة وتسعين.

١٦ ـ وذكر في هذه الترتيلة أيضًا عدد رؤساء هؤلاء الأعداء وقوادهم، وأنهم عشرون قائدًا ورئيسًا، وهذا هو عدد مجموع قواد الجيوش التي واجهت النبي ﷺ أو قاتلته في غزواته، وفيما يلي قائمة لهؤلاء القواد والرؤساء مع بيان الغزوات التي قادوها.

اسم القائد	اسم القبيلة التي قادها	اسم الغزوة أو الغزوات	ملحوظات أخرى
١ ـ أبو جهل	قريش ومن معها	بدر الكبرى سنة ٢هـ	قتل في نفس الغزوة
٢ ـ أبو سفيان	قريش ومن معها	أحد سنة ٣ والأحزاب سنة ٥ هـ	أسلم يوم الفتح
٣ ـ سيد بني قينقاع	بنو قينقاع	غزوة بني قينقاع سنة ٢هـ	أجلي مع قومه
٤ ـ حيي بن أخطب	بنو النضير	غزوة بني النضير سنة ٤هـ	قتل مع قريظة
٥ ـ عيينة بن حصن الفزاري	بنو فزارة	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم قبل الفتح
٦ ـ عوف بن مالك	بنو هوازن	الأحزاب سنة ٥هـ	
٧ ـ طليحة بن خويلد الأسدي	بنو أسد	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم ثم تنبأ ثم أسلم
٨ ـ أبو الأعور السلمي أو أبوه	بنو سليم	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم بعد حنين
٩ ـ عامر بن الطفيل	بنو عامر	الأحزاب سنة ٥هـ	مات في غدة طاعون
١٠ ـ الحارث بن عوف	بنو مرة	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم بعد تبوك

١١ ـ مسعود بن رخيلة	بنو أشجع	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم وحسن إسلامه
١٢ ـ كعب بن أسد	بنو قريظة	غزوة بني قريظة سنة ٥هـ	قتل مع قومه عقب الغزوة
١٣ ـ الحارث بن أبي ضرار	بنو المصطلق	غزوة المريسيع سنة ٥ أو ٦هـ	أسلم عقب الغزوة
١٤ ـ عبد الرحمن الفزاري	بنو فزارة	غزوة ذي قرد سنة ٧هـ	قتل في نفس الغزوة
١٥ ـ مرحب اليهودي	يهود النطاة والشق	غزوة خيبر سنة ٧هـ	قتل في نفس الغزوة
١٦ ـ كنانة بن أبي الحقيق	يهود الكتيبة	غزوة خيبر سنة ٧هـ	قتل عقب الغزوة
١٧ ـ سيد اليهود	يهود وادي القرى	غزوة وادي القرى سنة ٧هـ	
١٨ ـ سيد محارب وخصفة	بنو محارب وخصفة	غزوة ذات الرقاع سنة ٤ أو ٧هـ	
١٩ ـ مالك بن عوف النصري	بنو ثقيف وهوازن	غزوة حنين وطائف سنة ٨هـ	أسلم بعد حنين
٢٠ ـ عظيم من عظماء الروم	الروم	غزوة تبوك سنة ٩هـ	

هذا، ولا نجد في التاريخ أي رسول آخر ـ عدا محمداً ﷺ ـ ينطبق عليه ما جاء في هذه التراتيل. فهو المبشر به فيها اسماً ووصفاً. ولله الحمد.

البشارة بـ «محمد» ﷺ

في الويد وذكر غزوة فتح مكة

كما تناولت الويدات قصة غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، كذلك تناولت قصة فتح مكة أيضًا وذكرتها أحيانًا مع التصريح باسمه ﷺ، وأحيانًا بغير هذا التصريح، فمما صرحت فيه باسمه ﷺ ما جاء في رك ويد ٥ /٢٧ /١، وصورته كما يلي:

अनस्वन्ता सतपतिममिहे मे गवा चेतिष्टो असुरो मघीनः।
त्रैवृष्णी अग्रे दशभिः सहसैवेश्रानवरः त्र्यरुणाश्चकते।।
ऋग्वेदः म० ५ । सू० २७ । १ ।।

المعنى:

«إن صاحب العظمة والحق «مامح» - محمد - الحكيم القوي الجواد شرفني بكلامه.

وإن رحمة للعالمين امتاز بعشرة آلاف من أصحابه ذوي البأس والحسنات».

* وقد قدمنا أن «مامح» لهجة سنسكرتية للفظ محمد، وبمعنى محمد تمامًا.

* والصفات المذكورة له - وهي الحكمة والقوة والعظمة والجود والالتزام بالحق - كلها من صفات محمد ﷺ.

* وأما كونه «رحمة للعالمين» فإنه وصف امتاز به غاية الامتياز حتى صار لقباً له ﷺ.

* وأما امتيازه بعشرة آلاف من الصحابة فإنه ميزة له اختص بها من بين الأنبياء، وهذا العدد من الصحابة هو الذي كان معه في غزوة الفتح الأعظم: فتح مكة المكرمة، وقد ذكر الله تعالى ما لهم من المنزلة الرفيعة بين المسلمين لأجل ميزتهم هذه فقال: **﴿لا يَسْتَوِي منكُم مَّنْ أَنفَقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾**.

* وأما صفة البأس والحسنات فنظراً إلى تركيب العبارة والكلام يحتمل أن تكون للنبي ﷺ، ويحتمل أن تكون للصحابة، ولانحتاج إلى بيان أن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم كانوا يمتازون بشجاعتهم وبمحاسن أعمالهم.

* وأول كلمة في هذه الترتيلة هي «أنسونتا» ومعناها اللفظي: صاحب العربة، وهو في عرف الويد يطلق على السيد الرئيس، والزعيم القائد، صاحب العظمة والأبهة، لأن هؤلاء كانوا يخرجون ويظهرون في مسيراتهم الخاصة على عربات خاصة، وبين المواكب.

والحاصل أن هذه الترتيلة تبشر بمحمد ﷺ بأسمائه وصفاته وأصحابه وأهم غزواته.

ومما ورد من ذكر مكة في الويد بدون التصريح باسمه ﷺ ما جاء في أتهرو ويد كاند (باب) ٢٠، سوكت (فصل) ١٣٧، منتر (تراتيل) ٧، ٨، ٩، وهي موجودة أيضاً في رك ويد مندل (باب) ٨، سوكت ٩٦، منتر ١٣ - ١٥، وفي سام ويد، بورم آشك، أدهياى (باب) ٣، كهند (فصل) ١٠، منتر ١، وصورة هذه التراتيل كما يلي:

अवद्रप्सो अंशुमतीमतिष्टदियान: कृष्णी दशभि: सहसै: ।
आवत तमिन्द्र: शच्च धमन्तमप स्नेहितीर्नृमणा अघत।।७।।
द्रप्समपश्यं विषुणी चरन्तमुपह्वरे नद्या अंशुमत्या: ।
नभी न कृष्णमवतस्थिवांसमिष्यासि वो वृपण्णी युध्यताजो।।८।
अघ द्रप्सी अंशुमत्या उपस्थंधारवत तन्वं तित्विषाण:।
विशी अदेवीरम्या ३ चरन्तोर्वृहस्पतिना युजेन्द्र: ससाहे।।९।।
अथर्व-वेद काण्ड २० । १३७ । ७-९

المعنى:

* استقر القمر الأسود في نهر أنشومتي، يتقدم إندر (القوي العزيز) الشجاع المحفوظ مع عشرة آلاف بقوة، وقد ألقى سلاحه جانبًا وهو ينفخ في بوق (الفتح).

* رأيت القمر مثل سحاب أسود يتحرك على بعد عند الشاطئ المنحدر لأنشومتي حتى غرق فيه. أيها الأبطال، أرسلكم إلى الأمام، اذهبوا وقاتلوا في الحرب.

* ثم اختار القمر جرمه المنور في حضن أنشومتي، وقد غلب إندر مع ربه على من قام ضده من المشركين.

وفيما يلى إيضاح بعض النقاط من هذه المناتر:

١ - يزعم الهندوس أن «أنشومتي» اسم نهر ينزل فيه القمر في أواخر كل شهر حين يذهب نوره ويسود، فيغتسل فيه، فيعود إليه البياض والنور، ثم يرجع إلى السماء ويطلع على الأفق مرة أخرى.

واستعيرت هذه الصورة هنا لبيان ظهور دين الله من جديد بعد أن كان قد سرى إليه التحريف، واختفت تعليماته، فالدين هو القمر، وسريان التحريف فيه

واختفاء تعليماته هو اسوداد القمر واختفاؤه في النهر. وظهور هذا الدين من جديد هو طلوع القمر وإشراقه من جديد بعد خروجه من النهر.

بعد هذا القدر من الإيضاح أقول: إن هذه هي الظروف والأوضاع التي كانت محيطة بظهور نبوة محمد ﷺ، فقد بعثه الله بعد فترة من الرسل، وقد تحرف في هذه الفترة الدين، واختفى شيئًا فشيئًا حتى اختفى تمامًا فعمت الظلمات، واسودت الآفاق كلها، ثم أرسل الله محمداً ﷺ، فبدأ بالدعوة، وأخذ يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكأن الدين كان هو قمراً قد اسود واختفى، ثم طلع واستنار بدعوة محمد ﷺ.

٢ ـ وقد رأى وقد سمع قائل هذه التراتيل أثناء غياب القمر وطلوعه ما يأتي من الأحداث:

أ ـ سمع قائلاً يأمر الأبطال بالتقدم إلى الأمام والخوض في الحروب.

ب ـ رأى غلبة إندر، ـ وهو هنا الشجاع المحفوظ قائد هؤلاء الأبطال ـ فرأى أنه تغلب واستولى على أعدائه المشركين بنصرة ربه سبحانه وتعالى. وهذا يعني أن هذا القائد يكون موحداً لله، وأعداؤه يكونون مشركين. وفيه إشارة لطيفة إلى أن هذا الاختلاف هو الذي يكون سبب نشوب الحرب بينهما. وانطباق هذا على محمد ﷺ معلوم بالضرورة.

ج ـ ورأى أن هذا القائد الشجاع المحفوظ يتقدم مع عشرة آلاف مقاتل. ومعلوم أن عدد المقاتلين الذين حضروا فتح مكة عشرة آلاف صحابي. وأما كون النبي ﷺ شجاعًا ومحفوظًا فقد بيناه مراراً، وهو معروف لا يحتاج إلى البيان.

د ـ ورأى أنه أثناء نفخه في بوق الفتح ألقى السلاح جانبًا، وهذا يعني أنه لم يستخدم السلاح، بل حصل له الفتح بدون قتال. وهذا عين ما حصل أثناء فتح مكة. فإنه ﷺ لم يستعمل في أهلها السلاح لا أثناء الفتح ولا بعدها، بل قال: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

والحاصل أن كل ما تقدم في هذه المناتر تنطبق على محمد ﷺ، ولا تنطبق إلا عليه، فقد كان الدين مختفياً قبل ظهوره، ثم بدأ في الطلوع والظهور شيئًا فشيئًا حتى قويت أنواره بعد استقراره بالمدينة وإيمان أهلها ونصرتهم له ﷺ. ثم أذن الله لهم في القتال، ثم أمرهم بذلك وقال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ فخرجوا وتقدموا إلى ساحات القتال، وخاضوا المعارك والحروب ضد المشركين. فغلبوهم وألحقوا بهم الهزيمة تلو الهزيمة، وكان أعظم هذه الحروب والمعارك والفتوح هو فتح مكة المكرمة، وقد تقدم إليها النبي ﷺ مع عشرة آلاف من أصحابه، وحصلت له الغلبة بدون القتال. وبدون أن يستعمل السلاح فيهم ليغلبهم أو ينتقم منهم، بل ألقى السلاح جانباً كما ذكرنا.



البشارة بمحمد ﷺ

في بهوشية بوران

من المصادر الأساسية عند الهندوس كتب تعرف باسم «بوران» (puran) وهي ثمانية عشر كتابًا، منها «بهوشية بوران» ومعنى بهوشيه: الإخبار عن الأحداث الكائنة في المستقبل. وفي الفصل الثالث من الباب الثالث من القسم الثالث من هذا الكتاب، المعروف بـ«برتي سرك» وردت بشائر مفصلة وصريحة عن النبي ﷺ. وهي تبتني على مكاشفة رآها وخوطب فيها «مهرشي وياس» - مؤلف الويدات - على لسان الملائكة جسب عقيدتهم جاء في تراتيل هذا الفصل من ٥ إلى ٨ ما يلي:

एतस्मिन्नन्तरे म्लेच्छ आचार्य्येण समन्तिः ।
महामद इति ख्यातः शिप्यशखासमन्तिः ।। ५ ।
नृपश्चैव महादेवं मरुस्थलनिवासिनम्।
गङ्गाजलैश्च संस्नाप्य पञ्चगव्यसमन्वितैवः ।
चंदनादिभिरभ्यर्च्य तुष्टपव मनसा हरत् ।। ६ ।।
भोजराज उवाच--नमस्ते गिरिजानाथ मरुस्थनिवासिने ।
त्रिपुरासुरनाशाय बहुमायाप्रवर्तिने ।। ७ ।।
म्लेच्छैर्गुप्ताय शुद्धाय सच्चिदानन्दरूपिणे ।
त्वां मां हि किंकरं विद्धि शरणार्थमुपागतम।।

المعنى:

* وإذا بمعلم روحاني من غير الآريين، معروف باسم محمد قد أتى مع أصحابه.

* وقام الملك بهوج بتعظيم ذلك القديس العظيم ساكن بلاد العرب، بصميم قلبه، فغسله بماء نهر غنغا (كنكا) وبالمطهرات الخمسة، وقدم إليه الهدايا من الصندل وغيره.

* وقال له الملك بهوج: سلام لك يا مفخرة السلالة البشرية، ويا ساكن أرض العرب، ويا معطى القوة الكثيرة لضرب الشياطين.

* إنك قد حفظت من الأعداء المناكيد، فيا أيها المقدس، مظهر الذات المطلق، والسيد الكامل، إنني من عبدك، فاعتبرني آتيًا إلى قدميك.

وهذه التراتيل الأربع (٥ ـ ٨) فيها بشارات بينات واضحات بنبينا محمد ﷺ، لا تقبل أي تأويل، فقد اشتملت على عدة أمور لا تصدق إلا عليه، وهي:

أ ـ التنصيص على اسمه محمد. (ﷺ) ولم يأت أحد من الرسل في العالم كله يسمى بمحمد غير نبينا ﷺ.

ب ـ ثم التنصيص على أنه لا يكون من الآريين. ولازم هذا أنه لا يكون من بلاد الهند.

ج ـ ثم التنصيص على أنه يكون من بلاد العرب، ولم يكن من بلاد العرب إلا محمد ﷺ.

د ـ ومن خصائصه أن يحفظ ويعصم من أعدائه، ومعلوم أن الله تعالى عصم محمداً ﷺ في مواطن كثيرة، وفي أخطر ظروف.

هـ ـ ومن خصائصه أيضًا أنه يكون مزكى ومطهَّراً بجميع المطهرات. وقد كان محمد ﷺ معصومًا عن الخطايا والذنوب. مطهراً من كل ما يعد عيبًا في الخلق والدين وفي كل مجال.

و ـ ومن خصائصه أن يعطى القدرة الكثيرة لضرب الشياطين. ومعلوم أن الإنسان إنما يقدر على ضرب الشياطين إذا التزم بالعبادات والأعمال الصالحة وتلاوة

القرآن، وذكر الله، وذكر كلماته التامة، وهي القرآن الكريم، والأوراد والأذكار الواردة في الأحاديث الثابتة. فإنها هي الحصن الحصين لدفع مردة الجن وضرب الشياطين. وقد أعطي النبي ﷺ كل ذلك بكثرة لا تخفى.

ز - ومن خصائصه أيضاً أن يكون مفخرة السلالة البشرية، وقد كان محمد ﷺ كذلك، فقد:

مضت الدهور وما أتين بمثله　　　ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

ح - قصة الملك بهوج مع هذا المعلم الروحاني، وهي من عجائب ما ذكر في هذه البشارة. فإنه اسم لملك من ملوك الهند، وتعرف الآن مدينة في غجرات / الهند، باسمه، وقد تأخر زمانه عن تأليف هذا الكتاب بقرون وقد وجد هذا الملك في زمن النبي ﷺ.

وقصته أنه كان ملكاً يحكم قطعة من سواحل غرب الهند في زمن النبي ﷺ. وفي إحدى الليالي رأى فجأة أن القمر منشق فلقتين فاستغرب جداً واحتار، وسأل البراهمة الموجودين عنده - وهم مشائخ الديانة الهندوسية - عن صاحب هذه المعجزة الغريبة، فراجعوا الويدات والبورانات، ثم قالوا: لا نجد هذه المعجزة إلا لآخر الرسل وخاتم الأنبياء فقط، فسألهم عن هذا الرسول، فقالوا: إنه يولد في شعب في البلد الأمين، في بيت رئيس العباد، ويسمى بـ «نراشنس» (محمد) ويكون له أربعة خلفاء واثنتا عشرة زوجة. فلم يزل الملك يسأل ويبحث عن «نراشنس» هذا حتى عرف أنه ظهر بمكة والمدينة. فرجع إلى أهل بيته وأخبرهم جميعاً أنه اختار دين نراشنس (محمد) فاستشاطوا غضباً، وسلبوه ملكه، وأجلوه مع ملكته - زوجته - إلى الصحاري والغابات. فقضى بقية حياته فيها، يذكر نراشنس (محمداً) ويعبد ربه[١].

---

(١) ذكر هذه القصة الدكتور «كملا كانت، تيواري» من سكان بنارس / الهند، في كتابه: كل يك كـ أنتم رشي (خاتم النبيين للعالم الأخير) ص٥، باللغة الهندية، طبع بنارس، الهند، وقد أخذ هذا التفصيل من كتاب: «أنتم إيشور دُت» (آخر رسل الله) ص٩٧، تأليف: بندت دهرم وير، أبادهياي، طبع: برنتنك بريس، دريا كنج / دهلي، سنة ١٩٢٧م.

ثم يقول صاحب المكاشفة في تراتيل من عشر إلى ثلاث عشرة:

म्लेच्छैस्सुदूषिता भूमिर्बाहीका नाम विश्रुता ।
आर्य्यधर्मो हि नैवात्र वाहीके देशदारुणे ।। १० ।।
वभूवात्र महामायी योऽसौ दग्धो मया पुरा ।
त्रिपुरो वलिदैत्येन प्रेषितः पुनरागतः ।। ११ ।।
अयोनिः स वरो मतः प्राप्तवान्दैत्यवर्द्धनः ।
महामद इति ख्यातः पैशाचकृतितत्परः ।। १२ ।।
नागन्तव्यं त्वया भूप पैशाचे देशधूर्तके ।
मत्प्रसादेन भूपाल तव शुद्धि प्रजायते ।। १३ ।।

المعنى:

* إن الأنجاس قد أفسدوا الأرض المعروفة باسم العرب، فلا يوجد في بلاد العرب دين الآريين.

* قد كان فيها من قبل شيطان مضل فأهلكته، وقد جاء مبعوث ذلك العدو القوي مرة أخرى.

* إن الذي حصل مني على لقب «برهما» واشتهر بـ«محمد» مشتغل بإصلاح أولئك الأعداء الكفار، وهدايتهم وفلاحهم.

* أيها الملك، لا تذهب إلى بلاد الكفار الحمقى، إنك ستزكى ههنا بفضلي.

ثم يقول في أواخر هذا البيان:

रात्रौ स देवरूपश्च वहुमायाविशारदः।
पैशाचं देहमास्थाय भजराजं हि सोऽब्रवीत् ।। २३ ।।
आर्य्यधर्मो हि ते राजन्सर्वधर्मोत्तमः स्मृतः ।
ईशाज्ञया करिष्यामि पैशाचं धर्मदारुणम् ।। २४ ।।
लिङ्गच्छेदी शिखाहीनः श्मश्रु धारी स दूषकः ।
उच्चालापी सर्वभक्षी भविष्यति जनो मम ।। २५ ।।
विना कौलं च पशवस्तेषां भक्ष्या मता मम ।
मुसलेनैव संस्कारः कुशैरिव भविष्यति ।। २६ ।।
तस्मान्मुसलवन्तो हि जातयो धर्मदूषकाः ।
इति पैशाचधर्मश्च भविष्यति मया कृतः ।। २७ ।।

المعنى :

* إن ذلك الحكيم، صاحب السيرة الملكوتية، وصاحب لبسة غير لبسة الآريين، قال للملك بهوج ليلاً.

* أيها الملك! إن دين الآريين أعلى من جميع الأديان، ولكنني بإذن الله العظيم أنفذ الدين القيم الذي هو دين أكلة اللحوم.

* إن متبوعي مختون، ليس له زر من الشعر[1] وهو ذو لحية، وصاحب انقلاب، وصاحب صوت رفيع ـ صوت الآذان ـ يأكل من كل ما هو حلال.

* يأكل من جميع بهيمة الأنعام، ولا يأكل الخنزير، وتزكية أصحابه بالحروب، بدل النبات المقدس.

* وهم لأجل قتالهم ضد قوات الكفار والملحدين يسمون بالمسلمين. وإن دين هؤلاء القوم أكلة اللحوم، إنما يكون من قبلي.

ومع وضوح معاني هذه التراتيل ومصداقيتها نسجل النقاط مرة أخرى مع إيضاح بعض الجوانب :

أ ـ فالرسول المصلح المبشر به، اسمه « محمد ».

ب ـ ومقره بلاد العرب.

ج ـ ودينه غير دين الآريين ـ أي غير الدين الهندوسي ـ ولكنه دين الله القيم.

د ـ وهو مختون، والهندوس لا يختتنون.

هـ ـ ولا يكون في رأسه زر من الشعر، بينما هذا من شعار الهندوس.

---

(١) من شعار دين الهندوس الخاص بهم أنهم يتركون في وسط الرأس مجموعة من الشعر، لا يحلقونها ولا يقطعونها، فتمتد وتطول عن بقية الشعر، وتصير مثل زر الطربوش، وهم يسمونها « شوتي » و« شركي » بضم الأول وسكون الثاني في اللفظين.

و ـ ويرفع صوته بالآذان، وليس في غير دين محمد ﷺ أذان أو شعار يرفع له الصوت مثل الأذان، فالهندوس شعارهم البوق مثل اليهود، والنصارى لهم الناقوس، والمجوس وبعض الفرق من الهندوس شعارهم النار.

ز ـ وهو يكون من أكلة اللحوم، يأكل من جميع البهائم، ويأكل من كل ما هو حلال، ولا يأكل الخنزير.

والهندوس لا يأكلون اللحم إطلاقًا، بل يرون أكله من فساد الدين. وبعضهم يأكلون، ولكن لا يأكلون من جميع البهائم، بل يأكلون من بعضها ويقدسون بعضها الآخر، مثل البقر. فإنهم جعلوها إلهًا لهم، وكذلك رهبانهم لا يأكلون من جميع ما هو حلال، ولو كان من جنس غير الحيوان، مثل الحبوب والبقول والفواكه، فإنهم لا يأكلون كثيراً منها، ويرون ذلك من لوازم الدين، أما اليهود فقد حرم عليهم كثير من الطيبات، وأما النصارى فقد أحلوا أخبث الموجودات، فإذن هذا الرسول بهذه الصفة ليس إلا محمداً ﷺ.

ح ـ وهو يدعو الكفار والملحدين إلى الحق ويقاتلهم على ذلك، ويكون هذا القتال هو تزكية لأصحابه.

ط ـ وأصحابه يسمون بالمسلمين.

واختصاص هذه الخصائص والصفات والميزات بمحمد ﷺ من بديهيات السيرة والتاريخ، ومعلوم لكل من له أدنى إلمام بذلك، لا يحتاج إلى تفصيل ولا تعليق، فقد وجد في النبي ﷺ كل ما سبق، فهو الذي وردت فيه هذه البشارة قطعًا. وذلك قبل مولده. فالحمد لله رب العالمين.

البشارة بمحمد ﷺ

في كتاب كوسوامي تلسي داس

معروف أن «رام» اسم لأحد رجال الهندوس المقدسين، وهم يعدونه أحد كبار آلهتهم المزعومة. وله قصة غرامية حربية سجلها عدد من الهندوس، ودونوا حولها كتبًا ضخمة، ومن أوائل هذه الكتب وأشهرها كتاب «رامائنش لرجل يعرف باسم «والميكى» أو «بالميكى» وكان هذا الرجل قبل ميلاد المسيح عليه السلام بزمان، حسب ما يقولون، فلما طال الزمان، وتغيرت اللغة، وصعب على الدارسين فهم الكتابه نقله أحد شعرائهم: «كوسوامي تلسي داس» إلى اللغة الهندية السائدة في زمانه، والمعروفة باللغة الشرقية فيما بين الهنود، وقد استفاد في تدوين القصة من مصادر أخرى، وزاد على الأصل زيادات، وضمن الكتاب مباحث قيمة وجدوها في كتب أخرى معترف بها عند الهندوس، ومن ذلك أنه تناول بشارة وردت في الفصل السادس من الباب الثاني عشر من كتاب «سنغرام بوران» فسجل تلك البشارة في لغته وأخلد ذكرها عند الهندوس، و«سنغرام بوران» كتاب يعد من تأليف «ويد وياس» مؤلف كتب الويدات.

ويعرف كتاب «تلسي داس» هذا باسم «رام شرت مانس» وهو كتاب يمتاز بالدقة والأناقة في التعبير، يقول فيه تلسي داس عن البشارة المشار إليها، والتي بشر الله بها حبيبه «شنمك» عن الرسول القادم والدين القادم. حسب ما يقوله مؤلف الكتاب:

यहां न पक्षपात कछु राखहूं ।
वेद पुराण संत मत भखहूं ।।

संवत् विक्रम दोउ अनङ्गा ।
महांकोक नस चतुर्पतङ्ग ।।

राजनीति भव प्रीति दिखावै
आपन मत सबका समझावै

सुरन चतुसुदर शतचारी
तिनको वंश भयो अतिभारी

तव तक सुंदरमाद्दिकोंया
बिना महामद पारन होए।

तबसे मानहु जन्तु भिखारी
समलथ नाम एहि व्रत धारी

हरः सुंदर निर्माण क होई
तुलसी वचन सत्य सच सोई

المعنى:

* هنا لا أنحاز إلى أحد، وإنما أقول ما قاله الأحبار والرهبان في ضوء الويد والبوران.

* إنه يولد في القرن السابع البكرمي، ويطلع - أو يشرق - في ظلام دامس مع أنوار شموسه الأربع.

* ويبين دينه لكل أحد بالحكمة والسياسة، فيبشر وينذر حسب ما تقتضيه الظروف.

* ويكون له أربعة خلفاء قدوسيين، وبتأييدهم ونصرتهم يكثر جداً عدد المؤمنين.

* ومنذ يظهر دينه وكلامه فلا نجاة لأحد بدون محمد.

* إن الإنسان والحيوان والحشرات كلهم يقتربون إلى الله باسم ذلك الرسول سيد العالم.

* ثم لا يولد له مثيل ولا نظير، وإن ما يقوله تلسي داس لحق صادق.

هذا، وقد اختلفت النسخ ببعض الفوارق البسيطة حول بعض الكلمات بدون تغيير للمعنى، بينما وجد في بعض النسخ ثلاثة أبيات زائدة، بعد البيت الأول. وهي:

देश अरब में भरकत्ता सुहाई ।
सो थल भूमि गत्-सुनो-खकराई ।।

वर्ष सहस्त्र दस सुन्द्रम होई ।
तेहू के बाद न पाये कोई।।

शम्भु समत ताकर होई ।
सुन्द्रम देश थमत सोई।।

इन का अनुवाद यह है:

وترجمة هذه الأبيات الثلاثة كما يلي:

*إلى عشرة آلاف سنة تكتمل مرتبة الرسالة فلا يحظى بها أحد بعدها.

* يتألق نجم في بلاد العرب، ويكون لهذه الأرض شأن مغتبط.

* تظهر منه الخوارق والمعجزات، ويقال له إنه ولي الله.

ومعاني ودلالات هذه الأبيات السابقة كلها واضحة جداً، ولكن لا بأس أن نشير إلى بعض النقاط إشارة عابرة لمزيد الإيضاح. فنقول:

أ - إن هذه البشارة تخبر بولادة المبشر به في القرن السابع البكرمي، وقد ولد محمد ﷺ سنة ٦٢٨ بكرمية، وهو تقويم معروف عند الهندوس، يعملون به إلى هذا اليوم، فمولده ﷺ مطابق تماماً لما ورد في هذه البشارة.

ب - طلوعه أو شروقه في ظلام دامس يعني ظهوره حين تشتد ظلمات الجاهلية، وقد كان ظهور محمد ﷺ في مثل هذه الظروف.

ج - شموسه الأربع هم خلفاؤه الأربعة: (١) أبو بكر (٢) وعمر (٣) وعثمان (٤) وعلى رضي الله عنهم أجمعين. وهم الذين عبر عنهم في البيت الرابع بأربعة

قدوسيين. وقد كان كل منهم منار الرشد وعلم الهداية والنور، وبفضل تأييدهم ونصرتهم وقيامهم بأمر الإسلام بعده ﷺ كثر عدد المسلمين كثرة لاتعد ولاتحصى.

د ـ هو يدعو إلى دينه بالتبشير والإنذار. وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾**.

ه ـ كونه سيد العالم، لا نظير له. معروف.

و ـ وفوق كل هذه النقاط التصريح باسمه: محمد ﷺ، وباسم بلاده: العرب.

فهذه بشارة من البشائر الواضحة جداً بنبينا محمد ﷺ، ولا تزال تحتفظ بها كتب الهندوس المعترف لديهم دينياً وعلمياً، فلله الحمد.

مكة المكرمة والكعبة المشرفة

مع قصة ذبيح الله في كتاب اتهرو ويد

للكعبة المشرفة ومكة المكرمة بيان لطيف ووصف غريب في كتاب اتهرو ويد، أحد الكتب المقدسة عند الهندوس، ففيه سوكت (فصل) طويل، موضوعه قصة «برش ميدهـ» أي ذبح الإنسان على وجه التقرب إلى الله، يخبر الفصل عن إنسان عظيم قدم ليذبح لله سبحانه وتعالى، وهذا الفصل يقرأ ويتلى في مناسبات شتى لذكر هذا الحادث الجليل.

وقد ذكروا أن اسم هذا الذبيح «أتهروا» واسم والده «برهما» وأن أتهروا كان بكر أبيه، ثم كان له أخ آخر أصغر منه، اسمه «أنكر»، أو «انكرسي».

وهذه الصفات تصدق تمامًا على إسماعيل عليه السلام، فاسم والده إبراهيم، (عليه السلام). ولفظ برهما قريب جدًا من لفظ إبراهيم، وليس بينهما إلا فرق اللهجتين، ومعلوم أن إسماعيل كان بكر أبيه، ثم كان له أخ صغير ولد بعده بأعوام،وهو إسحاق عليه السلام.

ومن الطرائف أن كلمة «أتهروا» معناها: منبع الماء العذب. و«أنكر» أو «أنكرسي» معناه منبع الماء الأجاج، فهما اسمان وصفيان يشيران إشارة لطيفة إلى خصائص الشعبين: بني إسماعيل، وبني إسرائيل، فبنو إسماعيل هم العذب الفرات لما اتصفوا به من المروءة والتقوى، والجود والكرم والشجاعة والشهامة والشرف والنبل، والسماحة وسعة الصدر، والقيام بكل ما هو من عمل الخير، مع إيمانهم بالله وبأعظم رسول لله، مع قيامهم بالدعوة إلى الله، وبذلهم كل غال ورخيص في سبيل الله، أما بنو إسرائيل فلا شك أنهم هم الماء الأجاج، لما اتصفوا به

من الخبث والدهاء، والمكر والحسد، والجبن والخور، والشح والبخل، وضيق الصدر والانغماس في الشر، والقيام بالمؤامرات السرية والجهرية ضد المجتمع البشري بجانب تحريفهم لكتاب الله، وصدهم عن سبيل الله، وقتلهم الأنبياء والرسل.

بعد هذا القدر من الإيضاح نقدم ما جاء حول هذا الموضوع، فأولاً صورة ما جاء في أتهرو ويد: كاند (باب) ١٠، سوكت (فصل) ٢، تراتيل ٢٦ - ٣٣:

मूर्धानमस्य संसीव्याथर्वा हृदयं च यत् ।
मस्तिष्कादूर्ध्वः प्रैरयत् पवमानोधि शीर्षतः ।। २६ ।।

तद् वा अथर्वणाः शिरो देवकोशः समुब्जितः ।
तत् प्राणो अभि रक्षति शिरो अन्नमथे मनः ।। २७ ।।

ऊर्ध्वो नु सृष्टा ३ स्तिर्यङ् नु सृष्टाः सर्व दिशः पुरुष आ
बभूवा ३।
पुरं यो ब्रह्मणों वेद यस्याः पुरुष उच्यते ।। २८ ।।

यो वै तां ब्रह्मणो वेदामृतेनावृतां पुरम् ।
तस्मै ब्रह्मं च ब्राह्माश्च चक्षुः प्राणं प्रजां ददुः ।। 29 ।।

न वै। तं चक्षुर्जहाति न प्राणो ज़रसः पुरः ।
पुरं यो ब्राह्मणो वेद यस्याः पुरुष उच्यते ।। 30 ।।

अष्टाचक्रा नवद्वारा देवानां पूर्योध्या ।
तस्यां हिरण्ययः कोशः स्वर्गोज्योतिषावृतः ।। 31 ।।

तस्मिन् हिरणपये कोशे त्र् यरे त्रिप्रतिष्टिते।
तस्मिन् यद् यक्षामात्यमन्वत् तद् वै ब्रह्मविदी बिदुः ।।32।।

प्रभ्राजमानां हरिणीं यशसा संपरीवृताम् ।
पुरं हिरणययीं ब्रह्मा विशेशापराजिताम् ।।33।।

अथर्व-वेद काँड १० । २ । २६-३३

والمعنى:

* إن أتهروا خاط رأسه بقلبه.

والقداسة كانت تفوح أو تتحرك من فوق رأسه وجبهته. (٢٦)

* وإن موضع رأس أتهروا مهبط للملائكة ومغلق بإحكام. تحفظه الملائكة والرأس والحبوب والقلب. (٢٧)

* إنه وإن كان قد بنى مرتفعًا، وبنى معوجًا، ولكن الله متجل في أطرافه.

وإن العارف يعرف أنه حرم الله، ولأجله يدعى الله. (٢٨)

* الذي يعرف حرم الله هذا، المعمور بالحياة.

فإن الله يعطيه البصيرة والحياة والأولاد. (٢٩)

* لا تتفارق البصيرة والحياة قبل الهرم.

الرجل الذي يعرف حرم الله هذا، لأن الله هو الذي يدعى هناك. (٣٠)

* هي مدينة الملائكة، غير محاربة ولا مغزوة، بها ثمانية حواجز أو جبال، وتسعة أبواب أو أنقاب.

فيها كنز للحياة الأبدية، وتحيط بها أنوار البركات النورانية. (٣١)

* إن ذلك البيت الذي هو كنز السعادة الأبدية، وذو العمود الثلاثة والثلاثة.

هناك الإله الذي هو روح الكل، ويعرف ذلك من يعرف الله. (٢٣)

* تحيط به أنوار البركات السماوية.

جاء برهما وأقام بهذه القرية التي لا تفتح. (٣٣)

الشرح والإيضاح:

ونستحسن في الشرح والإيضاح أن نأخذ هذه التراتيل واحدة واحدة، ونبين ما فيها من المعاني والإشارات.

فالترتيلة الأولى: (رقم: ٢٦)

تصف الذبيح وتبين تسليمه لأمر الله، وتمدح قداسته وتقواه، فمعنى «خاط رأسه» أنه رضي بأمر الله ظاهرًا وباطنًا، فرضي بقلبه وخضع رأسه ليذبح، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [٣٧، ١٠٣].

ومعنى «تحرك القداسة والتقوى من فوق الجبهة والرأس» أنه لم يكن يريد بذلك إلا مرضاة الله سبحانه وتعالى، وامتثال أمره، فهو يفيد المعنى المذكور في قول الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام أنه لما: **﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** [٣٧: ١٠٢] وجوابه هذا يفيد أنه كان حليماً، صالحًا، صادق الوعد، وكان عند ربه مرضيًا. وبما جاء من عنده راضيًا، وكان ورعًا تقيًّا.

والترتيلة الثانية: (رقم: ٢٧)

تصف موضع هذا الذبيح، وقد وصفته بالأوصاف الآتية:

١ ـ أنه مهبط للروح أو الأرواح، والروح جبريل، والأرواح الملائكة، ونزول جبريل والملائكة بمكة المكرمة، وبتعبير آخر: كون مكة المكرمة مهبط جبريل والملائكة معلوم لا يحتاج إلى البيان. جاء ذلك في القرآن ووردت به الآحاديث الصحيحة الثابتة.

٢ ـ وأنه مغلق بإحكام، أي لا يصل إليه أعداء الدين، ولا يسيطرون عليه، وهذا وصف اختصت به مكة المكرمة، والكعبة المشرفة، فلم يقصده ـ ولن يقصده ـ جبار إلا قصمه الله، وهي بكة، تبك أعناق الجبابرة، ولم يحصل هذا الوصف أو الشرف لأي بيت أو قبيلة أو مدينة مقدسة سوى بيت الله الحرام ومكة والمكرمة.

٣ ـ أن هذا المكان يحفظه أربعة أنواع من الحفظة، وهي:

أ ـ الملائكة: ووجود الملائكة حول الكعبة وحرم مكة وحفظهم لها مذكورة في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ. كما أشرنا.

ب ـ الرأس: والمراد به يمكن أن يكون قصة الذبيح العظيم، ويكون المعنى أن الله تعالى ضمن حفظ هذا المكان إلى يوم القيامة لأجل هذه التضحية العظيمة التي وقعت في هذا المكان، وبلغت الغاية القصوى في طاعة الله وطلب مرضاته.

ويمكن أن يكون المراد بالرأس الركوع والسجود في الصلاة، لأن الرأس هو موضع تمثل العبادة والخضوع في الركوع والسجود، أي إن العبد يكون في حالة أقصى غاية التذلل والخضوع حين يخفض رأسه أمام الله، وحين يضعه ساجداً على الأرض، فيكون المعنى أن الله ضمن حفظ هذا المكان لدوام الركوع والسجود، والطاعة والعبادة فيه، وهذا هو حال المسجد الحرام بمكة المكرمة، لا تدخل فيه في أي ساعة من ليل أو نهار إلا وتجد الناس طائفين عاكفين، ركعًا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا.

ج ـ الحبوب: وهو أيضًا يحتمل معنيين:

الأول: أن الرزق من الحبوب يصل إلى هذا المكان دائمًا، فلا يضطر أهلها إلى هجرته وتركه خاوياً مع أنه واد غير ذي زرع، لا ماء فيه ولا نبات، وقد أدام الله لأهل مكة الرزق طوال آلاف السنين بحيث لم يضطروا إلى الهجرة لأجل الجوع والفقر، مع كونها منطقة جافة، لا زرع فيها ولا نبات.

الثاني: أن تكون الحبوب إشارة إلى الصدقة، والمعنى أن الموجودين في هذا المكان يلتزمون بالصدقة والإنفاق في سبيل الله، وبذلك يحل عليهم رضوان الله، فهو يحفظهم من كل مكروه ويصونهم من كل عدو.

وهذه هي أحوال أهل مكة والنازلين فيها، فإنهم لم يزالوا ملتزمين بالصدقة والإنفاق في سبيل الله ـ مهما كانت الظروف ـ من غابر الزمان إلى هذه الأيام. وبصورة قلما يوجد لها نظير في العالم.

د ـ القلب: وواضح أن المراد به الإيمان والإخلاص، أي إن الناس يتجهون ويتوجهون إلى هذا المكان بقلوب مؤمنة مخلصة خاشعة لله، فالله يحفظ هذا المكان لأجل ذلك.

وهذا أيضًا لا ينطبق انطباقًا حقيقيًّا إلا على مكة والكعبة، فالمصلون في الدنيا كلها يتوجهون إلى هذا المكان كل يوم في صلواتهم، ولا يريدون بذلك إلا الله،

ومـلايين الـناس يتـجـهـون إلى هـذا المكان في كل عـام للحج والعـمـرة والزيارة ولا يريدون بها إلا الله.

ملاحظة:

فسر بعض الباحثين الرأس بإسماعيل، والقلب بإبراهيم عليهما السلام، وعلل ذلك بأن إسـمـاعيل عليـه السـلام خضع برأسـه للتضحـيـة والذبح، وإبراهيـم عليـه السلام خضع بتضحية قلبه في سبيل رضى الله، وفسر الحبوب بدعاء إبراهيم عليه السلام لأهل هذا المكان بقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ...﴾.

أما الترتيلة الثالثة: (رقم: ٢٨)

فتصف مركز العبادة الذي بناه صاحبا قصة هذا الذبح: إبراهيم وإسـمـاعيل عليهـما السلام، وهو الكعبة المشرفة، وقد ذكرت من أوصافها الظاهرة أنها مرتفعة ومعوجة، ومن أوصافها الباطنة أنها حرم الله، وأن الله متجل في أطرافه. وهذا بيان جامع لأوصاف الكعبة المشرفة:

لأن بناءها مرتفع بأضعاف ما يكون الارتفاع لمثل هذه البنايات.

لأن هذا البناء معوج من الداخل والخارج، غير متساوي الأضلاع، فجداره الشامي أقل من أربعة عشر ذراعًا، في حين أن جداره المقابل - وهو الجدار اليماني - أكثر من أربعة عشر ذراعًا بنحو ثلثي ذراع. وكذلك طول الجدار الشرقي نحو ثمانية عشر ذراعًا وسدس ذراع، بينما الجدار الغربي ثمانية عشر ذراعًا وثلث ذراع ومثل هذا الاعوجاج موجود في ارتفاع السقف بين جهة وجهة[1].

هذا من ناحية مقارنة جدران البيت نفسه بعضها ببعض، وهناك اعوجاج آخر من ناحية مقارنة البيت بالجهات الأربع المعروفة، فإنه ليس على خط مستقيم نظرًا إلى هذه الجهات، بينما جرت العادة في البنايات بمراعاة الاستقامة من هذه الناحية،

(١) لينظر العقد الثمين ١/٥٣ – ٥٥.

ثم هو معـوج أيضًا نظرًا إلى اتجاه وادى إبراهيم الذي يقع فيـه بيت الله. ونظرًا إلى اتجاه المساكن المبنية في مكة من قديم الزمان.

وكأن القائل يريد أن يقول بعد إشارته إلى اعوجاج بناء بيت الله: إن هذا البناء وإن كانت لا توجد فيه دقة فنية، ولكنه في مكان مقدس لأجل صفاته المعنوية، وهي أن الله متجل في أطرافه ولا يدعى في هذا المكان إلا الله، لا صنم ولا تمثال، ولا جن ولا ملك، ولا أي خرافة أخرى. ولأجل ذلك تكفل الله بحفظ هذا المكان، وعرف بين الناس بحرم الله. ولعل هنا إشارة إلى كون إبراهيم حنيفا أي معوجا عن المعوج فصار مستقيما.

أما الترتيلة الرابعة: (رقم: ٢٩)

والترتيلة الخامسة: (رقم: ٣٠)

فتصفان العارفين لحرمة هذا الحرم ـ وهم المؤمنون المخلصون ـ بأنهم فائزون بالبصيرة، وحائزون لسعادة الدنيا والأخرة. ويمكن أن تكون معرفة هذا الحرم إشارة إلى حجه، أى إن الذي يحج هذا الحرم، وهو يؤمن بأنه حرم الله، أي يحج إيمانًا واحتسابًا فهو يحوز السعادة والخير طول حياته وبعد وفاته، ويبقى على بصيرة لأنه متمسك بتوحيد الله.

والترتيلة السادسة: (رقم: ٣١)

تصف مكة المكرمة وصفًا دقيقًا يميزها من بقية مدن العالم، فقد تناولت من أوصافها أنها:

١ـ مدينة الملائكة، وهذا وصف لا يعرف إلا بالوحي وإخبار الأنبياء، وقد عرف هذا الوصف بهذا الطريق لمكة المكرمة.

٢ـ غير مغزوة ولا محاربة. وهذا وصف انفردت به مكة المكرمة، فإن مكة لم يغزها ولم يحاربها أحد، بل لم يقصدها من جبار إلا قصمه الله، وقصة أصحاب

الفيل معروفة. أرادوا غزوها فأهلكهم الله قبل أن يدخلوا حدود مكة، ولا يعرف في الدنيا كلها أي مدينة مقدسة أخرى إلا وقد تسيطر عليها أعداؤها.

٣ - بها ثمانية حواجز وتسعة أنقاب. وهذا هو وضع مكة المكرمة تمامًا، تحيط بها ثمانية أجبل وينفذ إليها تسعة طرق. فأما الجبال الثمانية فهي:

١ - جبل أبي قبيس.

٢ - جبل الخندمة.

٣ - جبل أذاخر.

٤ - جبل قعيقعان.

٥ - جبل الكعبة.

٦ - جبل العافر وله أسماء أخرى وهي: ثبير، ذو أعاصير، جبل عمر، جبل الناقة وجبل الزنج.

٧ - جبل أجياد ويعرف أيضًا بجبل القلعة.

٨ - جبل المصافي ويعرف جزؤه الشمالي بسبع بنات.

هذه الجبال الثمانية هي التي تحيط بوادي الكعبة وبمكة المكرمة القديمة. (انظر الخريطة).

أما منافذ مكة ومداخلها الطبيعة فهي تسعة من قديم الزمان، وفيما يلي بيانها:

١ - طريق أجياد الصغير، بين جبل أبي قبيس وجبل سبع بنات.

٢ - طريق بئر بليلة بين جبل المصافي وجبل أجياد القلعة، يخرج إلى جبل ثور.

٣ - طريق المسفلة، بين جبل أجياد القلعة وجبل عمر (جبل العافر).

٤ - طريق جبل الكعبة، بين جبل عمر وجبل الكعبة.

٥ ـ طريق جدة من جهة الشبيكة وجرول، بين جبل الكعبة وجبل قعيقعان.

٦ ـ طريق ريع الكحل، جنوب جبل الكحل.

٧ ـ طريق حي العتيبية الغربي، شمال جبل الكحل.

٨ ـ طريق أذاخر، غرب جبل أذاخر.

٩ ـ طريق المعابدة، بين جبل الخندمة وشرقي جبل أذاخر، وهو الطريق الرئيسي إلى منى وعرفات من قديم الزمان.

والحاصل أن الصفات المذكورة في هذه الترتيلة كلها تنطبق على مكة المكرمة انطباقًا كاملاً، ولا توجد أي مدينة في الدنيا كلها تنطبق عليها هذه الصفات.

أما الترتيلة السابعة: (رقم: ٣٢)

فتصف بيت الله الكعبة بنوعين من الصفات، الأول أنه كنز السعادة الأبدية، وبيت الإله الحق، وعبر عن الإله الحق بروح الكل، لأنه خالق كل شيء وهذه صفات معنوية لبيت الله، ومن خصائصه المعروفة بالضرورة ..... والثاني أن هذا البيت ذو الأعمدة الثلاثة والثلاثة، أي أنه ذوستة أعمدة، وهذا وصف مادي لبيت الله، وهو في الواقع ذو ستة أعمدة، ثلاثة في صف وثلاثة في صف آخر.

وأما الترتيلة الأخيرة: (رقم: ٣٣)

فهي بعد وصف بيت الله بأنه محاط بأنوار البركات السماوية ذكر وصفين مهمين له، وهما:

١ ـ إقامة برهما بهذه القرية.

٢ ـ وكون هذه القرية غير مفتوحة.

وبرهما اسم أطلق في اصطلاح الويدات أحيانًا على الله سبحانه وتعالى، وأحيانًا على بعض عباده المقربين، ولم يستبعد عدد من الباحثين أن يكون هو هنا اسم إبراهيم عليه السلام.

فـإن أردنا المعنى الأول، أي الله، فـالمراد بإقـامـتـه فـي هذه القـرية أن هذا البـيت وهذه القرية مركز عبادته، ومهبط وحيه ودينه، ومنطلق دعوتـه ورسالته، وإن أردنا به إبراهيم عليه السلام فالأمر واضح، فإنه أسكن ابنه البكر إسماعيل عليه السلام بهذه القرية، وجعلها منطلق دعوته، حتى بنى بها بيت الله الحرام، وجعله المركز الرئيسي لعبادة الله في الأرض، وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج فطفقوا من ذلك الوقت يأتون إليه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

أما كون هذه القرية غير مفتوحة فمعلوم أن مكة المكرمة هي القرية الوحيدة التي لم يسيطر ـ ولن يسيطر ـ عليها الأعداء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ملاحظة:

مما يلفت نظر الباحثين من أهل العلم والفضل أن معابد وهياكل الهندوس الأصلية والكبيرة كلها مبنية في اتجاه الكعبة المشرفة، وهم يتوجهون إليها أثناء العبادة، ولا يعرفون سر هذا الاتجاه والتوجه، بل يعدونه من الأسرار التي لم تكشف بعد.

* * *

أسماء أخرى لمكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الهندوس

للهندوس مدن وأماكن مقدسة يزورنها للتبرك والتعبد، ويقيمون بها أعياداً واحتفالات في كل عام مرة أو مرتين، يؤدون فيها طقوسًا وعبادات هي من صميم دينهم، وسبب لغفران آثامهم وذنوبهم، حسب إيمانهم وعقيدتهم. وقد ورد في كتبهم المقدسة من الويدات والبورانات وغيرها ذكر مكان من تلك الأماكن المقدسة، لم يعرفوا حتى الآن موقعه بالضبط، بينما هو أقدس مكان في نظرهم. ولزيارته عندهم فضل لا تبلغه زيارة أي مكان آخر، وقد صرحوا بأن هذا المكان المقدس ليس في داخل الهند. وذكروا له عدة أسماء تدل على عدد من الصفات الموجودة فيه. وتلك الأسماء هي:

١ ـ إلاسبد أو إلاياسبد.	१- इलास्पद या इलायास्पद
٢ ـ نابها برتهويا.	२- नाभा प्रथिव्या
٣ ـ نابهي كمل.	३- नाभी कमल
٤ ـ آدي بشكر تيرتهـ.	४- आदि पुष्कर तीर्थ
٥ ـ داور كابن.	५- दारू कावन
٦ ـ مكتيشور.	६- मक्तेश्वर

وإذا دققنا النظر في هذه الأسماء يتبين لنا كثير مما يحتار فيه الهندوس. ففيما يلي نشرح هذه الكلمات، ونبين معانيها الحق حتى تستبين السبيل.

إلاسبد أو إلاياسبد :

هي كلمة سنسكرتية مركبة من لفظين: أحدهما «إلا» أو «إلايا» بكسر الهمزة وتخفيف اللام، وكلاهما بمعنى «الله». وإلا، وإلايا، وإيل، وإيليا، وإيليه كلها كلمات سنسكرتية يطلق على الله سبحانه وتعالى، كما أن الألفاظ الثلاثة الأخيرة وكذلك إله، وإلواه، وإلوهيم، وإلهيا، تطلق عليه سبحانه وتعالى في العبرية، وعدد منها في العربية أيضًا.

وأما «سبد» فالسين فيه زائدة للرابطة، و«بد» معناه البيت والمكان، فمعنى «إلاسبد» بيت الله أو بلد الله.

نابها برتهويا :

هذا الاسم مركب من كلمتين: أولاهما: نابها، ومعناها: السرة التي تكون في البطن، وثانيتهما: برتهيوبا: ومعناها الأرض، ولا تزال هذه الكلمة تطلق على هذا المعنى في عامة لغة أهل الهند. فمعنى مجموع الكلمتين: سرة الأرض.

يقول رك ويد ٤/ ٢٩/ ٣ ـ وقد جمع بين الاسمين: إلاسبد، ونابها برتهيويا ـ:

أي إن بيت إلهنا في سرة الأرض.

ومزيد التفصيل في الاسم التالي. وهو:

نابهي كمل :

وهذا الاسم أيضًا مكون من كلمتين: إحداهما «نابهي» بمعنى السرة مثل «نابها» وثانيتهما: «كمل»، وهي نيلوفر، ونيلوفر اسم زهرة بيضاء جميلة معروفة، وتكثر في الهند في الترع ومناقع المياه، وللهندوس علاقة خاصة بهذه الزهرة تنبئ عن إعجابهم بها، وتقديرهم ـ بل تقديسهم ـ لها، فمعنى «نابهى كمل» زهرة السرة أو سرة الزهرة.

وقد ذكر في بدم بوران أن هذا هو المكان المقدس الذي بدأ منه خلق الكون.

وقد جاء في «هري ونش بوران» لبندت «شري رام شرما» ٢/٤٩٩ - ٥٠١ بعض التفاصيل لهذا المعنى، يقول:

«إن الله لما أراد أن يخلق هذا الخلق خلق زهرة نيلوفر هذه، وفيها صفات كل الأرض، ثم صار ما خرج من رحمها من الأوراق جبالاً، وفي وسط هذه الجبال جمبوديب، (جزيرة ماء الحياة) وهو مركز العبادات العظيمة والأعمال الصالحة، وإن أوراق هذه الزهرة كأنها هي ما في داخل الأرض من الجبال والمعادن، ومن الصعب جداً معرفة هذا المكان، وهو مليء من غير الآريين، وفي أسفل مكان تحت هذه الزهرة مكان الشياطين، وأسفل منه جهنم، والذي في جنب نيلوفر من الشعرات المتينة يقال لها مركز الوحدة، والذي يوجد في أرجائه الأربعة من المياه يقال لها البحور الأربعة. هكذا أخبر الأنبياء السابقون أصحاب العلوم العظيمة، وإن زهرة السرة هذه هي أصل بداية العالم، منها خرجت الجبال والأنهار، ودحيت بلاد الأرض»(١).

وهذا البيان لا يحتاج إلى تعليق كبير أو توضيح كثير، فمكة المكرمة هي المعروفة باسم «سرة الأرض» من قديم الزمان. وقد ثبت علميًّا وجغرافيًّا وطبوغرافيًّا أنها هي سرة الأرض في الواقع. فإذن الكعبة المشرفة هي زهرة سرة الأرض، وهو بيت الله الذي عبر عنه بـ«إلاسبد» ومعلوم أن موقعه في وسط الجبال، وقد أحاطت البحور بهذا البلد من جوانبه الأربعة. أما الشعرات المتينة في جنبه فهي المسجد الحرام وحرم مكة ومشاعر الحج، ولا شك أنها مركز الوحدة، فكل صنف من الناس يتوجهون إليها من كل بقعة في العالم، وهم كلهم في لباس واحد، مرددين كلمات وشعارات موحدة، فيجتمعون ويقيمون في مكان واحد، ويمسون

---

(١) من كتاب «اكر اب بهى نه جاكــ تو» لشمس نويد عثماني، ص١٥٦، مع شيء من التلخيص.

ويصبحون في حالة واحدة، ويقومون في صف واحد، سواء العاكف فيه والباد، فلا تجد في العالم كله من مظاهر الوحدة ما يدانيه، فضلاً عن أن يساويه.

ثم إن هذا المكان هو الذي نودي منه بالمساواة بين الأسود والأحمر من الناس، وبالتخلي عما يخالف الوحدة البشرية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** ومن هذا المكان نودي بكلمة التوحيد التي هي أساس توحيد الكلمة، فهذا المكان هو مركز الوحدة في العالم.

هذا، وقد ورد من بعض الصحابة والتابعين ومن بعدهم بعض ما يدل على بداية خلق هذه الدنيا من مكة المكرمة، ومن تحت الكعبة المشرفة، وأن الكعبة المشرفة كانت في صورة تقارب صورة الزهرة المذكورة، فقد روي عن عبد الله بن عباس(١) وعبد الله بن عمر(٢) وكعب الأحبار(٣) ومجاهد(٤) وعطاء(٥) وابراهيم النخعي(٦) ما يفيد أن الله خلق الكعبة المشرفة قبل الأرض بزمان ثم دحا الأرض من مكة من تحت الكعبة المشرفة. وأفادت رواية كعب الأحبار أن الكعبة كانت غثاء على الماء قبل خلق السموات والأرض(٧). بينما نجد رواية ابن عباس أكثر أيضاحًا منها. تقول هذه الرواية: إنه لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض بعث الله تعالى ريحًا هفافة، فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة. فدحا الله الأرضين من تحتها، فمادت ثم مادت،

---

(١) رواه الطبراني في تاريخه ١/٤٩ وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/٢٠٥.

(٢) أيضا رواه الطبراني في تاريخه ١/٤٩.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١/٣١.

(٤) نفس المصدر السابق ١/٣٢.

(٥) الدر المنثور ٨/٤١٢.

(٦) نفس المصدر ٨/٤١٢.

(٧) أخبار مكة للأزرقي ١/٣١.

فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس. فلذلك سميت مكة أم القرى(١).

والخشفة (بفتحتين) حجارة تنبت في الأرض نباتًا، وتروى: «خشعة» (بضم فسكون) وهي أكمة لاطئة بالأرض، وقيل: ما غلبت عليه السهولة، أي ليس بحجر ولاطين(٢).

أقول: فما أشبه التعبيرات الثلاثة عن أصل الكعبة: زهرة نيلوفر، والغثاء، والخشفة أو الخشعة، فإنها كلها تشير إلى شكل واحد، وهو أنها كانت بيضاء جميلة ناعمة رخوة، فالأمر كما قال القائل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

آدي بشكر تيرتهـ:

هي مجموعة مكونة من ثلاث كلمات سنسكرتية: إحداها: آد، أو آدي، ومعناها: الأول والأقدم، والثانية: «بشكر»، ومعناها: الرب، والثالثة: «تيرتهـ»، معناها: المكان المقدس الذي يزار للتعبد فيه والتبرك به، فيكون حاصل معنى هذه المجموعة: آدي بشكر تيرتهـ: أول بيت الرب الذي وضع للعبادة والزيارة.

وهذه صفة بيت الله الكعبة، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقد جاء في «بدم بوران» في فضل هذا البيت:

«إن الذي يتمنى في قلبه أن يخدم هذا البيت فإنه يتطهر من الذنوب جميعًا.... والذي يزور هذا البيت فإنه يستحق ثوابًا لا نهاية له،..... وإنه أول

(١) نفس المصدر ١/٣٢.

(٢) النهاية لابن الأثير ملخا ٢/٣٤، ٣٥.

وأقدم بيت من بيوت الزيارة والعبادة، وبزيارة بيت الرب القديم هذا، وبالاغتسال هناك تحصل النجاة»(١).

«وإن هذا البيت سر من أسرار الأنبياء»(٢).

داروكابن:

تردد المحققون في تعيين معنى هذا الاسم، والأغلب أنه مركب من ثلاثة ألفاظ، أولها: «دار» أو «دارو»، وهو يطلق على المرأة، وآخرها: «بن» ومعناه: الصحراء، واللفظ الذي في الوسط يفيد معنى الربط، فيكون المعنى مقاربًا لـ«أم القرى» أو مطابقًا له، وهو في عقيدة الهندوس مكان مقدس وضع للعبادة والزيارة، يقول «رك ويد» ٣/١٥٥/١٠:

«أيها العابد، إن داروكابن الواقع في بلد بعيد، قريبًا من ساحل البحر، ليس من صنع البشر، فاعبد ربك فيه، وتدخل الجنة برحمته».

ودلالة هذا الكلام واضحة جدًا، فإن مكة هي أم القرى، وهي تقع بين الصحاري والجبال، بعيدة عن الهند، قريبًا من ساحل البحر الأحمر، واتفقت المصادر الإسلامية أن تحريمها وتقديسها ليس من صنع البشر، بل هو من صنع الله، فقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال وهو يدعو: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** [إبراهيم: ٣٥] وأمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: **﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [البقرة: ١٢٥ ومثله في سورة الحج: ٢٦] وقال النبي ﷺ في خطبة الوداع: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس(٣).

---

(١) مجلة «كليان» الصادرة من غور كفور، عدد أكتوبر ١٩٤٤م ص٩٦.

(٢) نفس المجلة ص٩٥ (بواسطة كتاب شمس نويد عثماني ص١٥٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب العلم ح١٠٤.

مكتيشور:

هذا الاسم مجموع كلمتين: مكة، وإيشور.

أما كلمة مكة فكان من الطبيعي أن يحتار حولها الباحثون إذا جهلوا البلد الأمين، أو إذا لم يعترفوا بالحقيقة، وهي مكة المكرمة المعروفة في العالم أجمع. ولا يوجد مكان آخر سمي بهذا الاسم في العالم كله، ولعل هذا هو السبب الذي اضطر العالم الإنجليزي «سير مونير وليمس» أن يقول باعتراف واضح في معجمه اللغوي: سنسكرت إنجليزي: The City of Macca , Yagya أي هذه بلدة مكة، موضع الهدي والأضاحي.

وأما كلمة «إيشور» فمعناها: الله، فصار مجموع الكلمتين: مكتيشور: مكة الله، أو موضع تقديم الهدي والأضاحي لله.

والدلالة واضحة على كلا المعنيين، ومما لا يحتاج إلى البيان أن مكة المكرمة هي أكثر موضع في العالم لتقديم الهدي والأضاحي إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد صرحت مجلة «كليان» الهندوسية بأن هذا المكان ليس في بلاد الهند(١).

---

(١) عدد يناير عام ١٩٨٠م ص٢٢٥ (من كتاب العثماني ص١٥٨).



أسماء محمد ﷺ وألقابه

في كتب الهندوس

وفي الأخير نرى أن نسجل تلك الأسماء والألقاب التي وردت في كتب الهندوس أثناء الأخبار والتبشير عن النبي ﷺ، وتلك الأسماء إما سنسكرتية يطابق معناها تماماً للأسماء العربية، كأنها ترجمة حرفية لها، وإما عربية، ولا تختلف في التلفظ عن لهجاتها العربية إلا بقدر ما يوجد من الفوارق بين اللهجات أو أقل منها، وإليكم تلك الأسماء والألقاب.

أ-اسم محمد وما يرادفه (ﷺ)

١ ـ موحمد، محامد، محمد

ورد هذا الاسم العربي الصريح في بهوشيه بران قسم ٣، باب ٣، فصل ٣، منتر ٥، ١٢، ١٤، ١٨، وفي شريمد بها كود: مهاتم بران ٢ : ٧٦، وفي ألله أبنشد، وفي سنغرام بران: سكند ١٢، كاند ٦، من ترجمة تلسي داس.

٢ ـ مامح

ورد هذا الاسم في أتهرو ويد: باب ٢٠، فصل ١٢٧، منتر ٣، وفي رك ويد: باب ٥، سوكت ٢٧، منتر ١ . وقد تقدم، وتقدم الكلام فيه.

٣ ـ نراشنس

هذا الاسم أكثر أسمائه ﷺ وروداً في بشارات الهندوس، وقد ورد حوله من المدح والثناء مع ذكر الصفات وبيان الخصائص والميزات ما لا يترك مجالاً لأدنى

شك في كون المراد به محمداً ﷺ، وقد تقدم ذكر هذه الصفات والخصائص والميزات. وهناك بَيَّنّا معناه اللغوي وأن هذا اللفظ ترجمة حرفية للفظ «محمد» ﷺ.

وقد حاول أهل العلم من الهندوس وغيرهم استقراء هذا الاسم في كتبهم المقدسة فذكروا أنهم وجدوه في واحد وثلاثين موضعاً.

٤ ـ سشروا

ورد هذا الاسم في أتهرووید، كاند ٢٠، سوكت ٢١، منتر ٩، وفي رك ويد، مندل ١، سوكت ٥٣، منتر ٩.

ومعنى هذا اللفظ في السنسكرتية: من يحمد ويثنى عليه كثيراً، فهو مرادف وترجمة حرفية للفظ «محمد» ﷺ.

٥ ـ سرو أنما

هذا اللفظ أيضاً. بمعنى محمد، وقد تقدم في ذكر كلكي أوتار.

ب ـ أحمد وما يراد فه (ﷺ)

٦ ـ أحمد، أيمد، أحمت

ورد هذا الاسم العربي الصريح في رك ويد ٨/٦/١٠، وفي سام ويد /٦/٨ ٢، وفي أتهرو ويد ٢٠/١٢٦/١٤.

وورد في يجرويد ٣١/١٨ بلفظ «أحمت» بالتاء بدل الدال، وإبدال التاء بالدال كثير في اللهجة السنسكرتية وفي اللهجات الهندية إلى هذا اليوم.

٧ ـ ريبهـ

ورد هذا الاسم في أتهرو ويد ٢٠/١٢٧/٦، ٤ وهي كلمة سنسكرتية، ومعناها الحرفي: «أحمد». وقد تقدم.

٨ ـ كارو، وكارم، وكيري

ورد الاسم الأول في أتهرو ويد ٢٠ / ٢١ / ٦، وورد الاسم الثاني أيضًا في أتهرو ويد ٢٠ / ١٢٧ / ١١ وكلاهما بضم الراء، أم الاسم الثالث فقد ورد في رك ويد ٢ / ٢١ / ٦، وهو بالياء الخفيفة بعد الراء تقرأ بمثل الإمالة.

والأسماء الثلاثة كلها مشتقة من مادة واحدة، وتدل على معنى واحد، وهو من يكثر الحمد والثناء على ربه، فهو بمعنى «أحمد» تمامًا.

ج ـ الألقاب التي صارت علماً لمحمد ﷺ

٩ ـ أكنـ ويشوانر

ورد هذا اللقب في رك ويد ٥ / ٢٧ / ١، ومعناه «رحمة للعالمين» وقد وصف به «رك ويد» الرسول «مامح»، ومامح هو محمد ﷺ، كما تقدم وكونه رحمة للعالمين أمر معروف مسلم لا مجال للجدال فيه.

١٠ ـ أنتم أوتار

ورد هذا اللقب في بهاكوت بوران: برتهم اسكند، أدهياى ٣، شلوك ٢٥، وفي مواضع أخرى.

وهذا اللقب مجموع كلمتين: «أنتم»، ومعناه الأخير. و«أوتار» وهو يطلق على الأنبياء والرسل، فمعنى مجموع الكلمتين: آخر الرسل أو النبين. ومعلوم أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين الذي لا نبي بعده.

١١ ـ جكت بتي

ورد هذا اللقب في بهاكوت بران ٢١ / ٢ / ١٩ . وهو أيضًا مجموع كلمتين: «جكت»، ومعناه العالم، و«وبتي»، ومعناه السيد والرئيس. أي سيد العالم

ورئيسه، ومعلوم أن النبي ﷺ هو سيد البشر وسيد ولد آدم وقد مضى هذا المعنى.

١٢ ـ ورت دهاري

ورد هذا اللقب في «رام شرت مانس» ترجمة تلسي داس لرامائن. وهو أيضًا مجموع كلمتين: «ورت» ومعناه؛ العالم، و«دهاري» ومعناه؛ السيد المحافظ، فهو بمعنى اللقب السابق.

١٣ ـ سمد رادوت عربن

ورد هذا اللقب في رك ويد ١/١٦٣/١ في وصف آخر الأنبياء، ومعناه؛ الرسول العربي صاحب ختم النبوة، وصدق هذا على محمد ﷺ معلوم ومن بديهيات السيرة، فهو رسول عربي، وآخر الأنبياء، وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده ﷺ، وكان عند غضروف كتفه اليسرى.

١٤ ـ السراج المنير

ورد هذا اللقب في رك ويد ٧/٩/٢، وورد معناه في يجر ويد ٣١/١٨، وفي سام ويد ٢/٦/٨، وفي شري مد بهكوت، مهاتم بوران ٢/٧٦ .

* * *

أبيات متفرقة ورد فيها أحد هذه الأسماء أو الألقاب

وفيما يلي نورد تلك الأبيات أو التراتيل المتفرقة التي ورد فيها أحد أسمائه ﷺ أو ألقابه، فأولاً نقدم ماورد فيها اسمه أحمد (ﷺ).

أحمد

ورد هذا الاسم المبارك في سام ويد ٢/٦/٨، وصورته كما يلي:

अहमद और सिराज मुनीरः

सामवेद प्रपाठक २, वशती ६, मंत्र ८ इस प्रकार है

अहमिधि पितुः परिमेधामृतस्य जग्रह। अहं सूर्य इवाजनि।।
सामवेद । प्र0 2 । द0 ६ मं0 ८ ।।

المعنى:

إن أحمد نال من ربه شريعة مملؤة بالحكمة، وأنا أستنير بها مثل الشمس.

وقد ترجم بعضهم: إن أحمد أول من قدم الهدي أو الضحية، وصار مثل الشمس البازغة المنيرة، ومهما كان فإن اسم أحمد موجود في هذه الترتيلة، وعلى سبيل العَلَم. وفيه لقبه السراج المنير أيضاً.

ملاحظة:

لفظ أحمد صريح في المنتر الأول، مطابق تماماً للهجته العربية، سوى علامة الكسرة على الميم بدل الفتحة، وفي المنتر الثاني تبدلت الحاء ياء، وهذه اللهجة -

وهي تبديل الحاء ياء في التلفظ أو الكتابة أو كليهما - عامة في كثير من مناطق شبه القارة الهندية.

ورد في يجر ويد ١٨/٣١ ما يلي:

यजुर्वेद सूक्त ३१, मंत्र १८ इस प्रकार है

वदाहमेत पुरुष महान्तमादित्यवण तम

प्रस्तात......यनाय

والمعني:

إن أحمد عظيم، منبع لجميع العلوم، يكشف الظلمات كالشمس البازغة. وإنما تحصل الغالبة على الموت بعد معرفة هذا السراج المنير، ولاسبيل للنجاة إلا هو.

وهذا المنتر ورد فيه لفظ «أحمت» على سبيل العلم، وقد بدلت الدال فيه تاء، وهذا أيضًا عام في اللهجات الهندية حتى إلى هذا الزمان. وفيه لقبه السراج المنير أيضًا.

محمد

جاء في شري مد بهاكوت، مهاتم بوران ٢/٧٦:

अज्ञान हेतु कृत मोहमदान्धकार नाश

विधायं हि तदो दयत्ते विवेक:

والمعنى:

إذا جاء موعد فيضان الحق على الإنسان بطلوع الخير الاجتماعي في عهود الحياة التي لا نهاية لها فإن الظلمات تكشف بمحمد، ويشرق نور الفهم والحكمة.

السراج المنير

وقد اتضح من المناتر السابقة أن وصف النبي ﷺ بالحكمة والنور، وتشبيهه بالشمس البازغة التي عبر عنها في القرآن الكريم بالسراج المنير، وصف معروف له في الويدات والكتب الهندوسية الأخرى. حتى إنها استغنت أحيانًا بذكر هذا الوصف عن ذكر اسمه ﷺ. ومن ذلك ما ورد في رك ويد ٧/٩/٢، يقول هذا المنتر:

स सुक्रतुर्यो वि दुरः पणोनां पनानो अर्क पुरुभोजसंनः।
होता मन्द्रो विशां ममुनास्तिरस्तमो दृदशे राम्याणाम् ।।

والمعنى:

ما أعظم حكمة الحكيم الذي كسر أبواب المطففين، وأظهر لنا سراجًا منيرًا، يطعم أناسًا لا يحصون.

وهو عظيم وهدى للناس. يريد لهم الخير، وهو ولي مخلص لهم، إنه أشرق وكان الليل في ظلامه.

«المطففين» في هذا المنتر ترجمة لكلمة «بنينون» وهي في الحقيقة تطلق على لئيم شحيح جشع محتكر، يأكل الربا، ولا يهمه إلا نفع نفسه، وواضح أن الإشارة بهذا كله إلى اليهود، لأنهم هم الذين يتصفون بهذه الصفات الذميمة الخسيسة. ومعلوم عن اليهود أنهم كانوا قد بذلوا كل جهدهم ليحبسوا وحي الله ورسالته داخل بيوتهم، وأغلقوا عليها الباب إغلاقًا محكمًا، حتى لا تنتقل النبوة والرسالة من بيوتهم إلى بيت آخر، ولا يظهر رسول ولا نبي من سلالة غير سلالة بني إسرائيل. فأبى الله إلا أن يكسر أبوابهم المغلقة، وينقل الوحي والرسالة منها إلى محمد ﷺ، وهو من بني إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

أما وصفه بأنه يطعم أناسًا لا يحصون، فالظاهر أن المراد بالطعام غذاء الروح، وهو الوحي والدين، وهو سبب حياة الروح، كما أن الطعام سبب الحياة المادية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾.

وأما قوله «أناس لا يحصون» ففيه إشارة إلى كثرة أمته، وأنها لا تحصى كثرة، وأما وصفه بالعظمة فإن هذه صفة معترف بها للنبي ﷺ عند العدو والصديق. وأما كونه «هدى للناس..» ففيه بيان وتنبيه على عموم رسالته لجميع الناس.

وأما «شروق هذا السراج المنير وكان الليل في ظلامه» فهو يحتمل معنيين: الأول بيان ما حصل عند بداية الوحي والرسالة، فإن الوحي جاء إلى النبي ﷺ في أواخر أوقات الليل قبل طلوع الفجر. فكان الليل في بقية ظلامه.

الثاني أنه بعث على فترة من الرسل حين كان الظلام والضلال منتشراً بل سائداً على العالم كله، كان الناس يتخبطون في دياجير الكفر والشرك والعصيان، والظلم والبغي والفساد والعدوان، ولم يكن من ينقذهم عن ذلك، ويخرجهم إلى نور الحق والعلم واليقين، والعدل والصلاح.

هذا، وبذلك انتهى ما أردت تسطيره في هذا الفصل، وبالله التوفيق.

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. آمين.

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الأول

فهـــرس

الموضـوعات





الرسول محمد ﷺ

الجزء الثاني

الفصل الأول

مكارم الأخلاق

في الإسلام

وإنك لعلى خلق عظيم

الرسول محمد ﷺ

الجزء الثاني

ما أنا عليه

وأصحابي ﷺ



إعداد وإشراف

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

شارك في الإعداد

أ ، د محمد إبراهيم عبدالرحمن

رحمه الله تعالى

الشيخ مصطفى بن العدوي

الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر

الشيخ عبداللطيف بن هاجس الغامدي

الأستاذ فؤاد محمد عبدالمنعم

مجدي عبدالباقي الشريف

باحث في الإعجاز العلمي للقرآن والسنة

الأستاذ / سيد سليمان الحلواني

الناشر

شركة كندة للإعلام والنشر



حقوق التوزيع والترجمة

بتفويض من الرواد للإعلام بجدة

ت ٦٧٠٣٣٣٦ فاكس ٦٧٠٣٣٣٦

يطلب من وكلاء التوزيع

مكتبة كنوز المعرفة بجدة

دار الخزامى للنشر والتوزيع – الأردن

دار رحمة بالأسكندرية

دار المحمدي للنشر بجدة

مؤسسة الرسالة بدولة الإمارات

المجلس العلمي للنشر بالهند

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة

ت: ٤٩٩١٢٥٤ – ٥١٠٨٠٠٤

ت: ٤٩٠٠٦٠٦ – ٤٩٠٠٨٠٨

WWW.ALislamiya 4 book.com

تطلب النسخة المترجمة من

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد

وتوعية الجاليات بشرق جدة

تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية

رقم الإيداع

٤٤٦٤ / ٢٠٠٦

رقم الإيداع الدولي

I. S. B. N

977-6195-00-8

١ مكارم التوحيد

هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحيد.

قال الإمام ابن تيمية: «والتوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، كما قال الله: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ [الزخرف:٤٥] وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾

[الأنبياء:٢٥]

١ ـ قال الله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨].

◈ **والشاهد**: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾.

◈ **والمعنى**: يخبر تعالى ـ وهو الجبار عز وجل ـ أنه شهد أنه لا إله إلا هو وأن الملائكة وأولي العلم يشهدون كذلك، شهادة علم وحق، قامت على مبدأ الحضور الذاتي والفعلي، وأنه تعالى قائم في الملكوت كله، علويه، وسفليه بالعدل، فلا رب غيره ولا إله سواه، العزيز في ملكه وخلقه، الحكيم في تدبيره وتصريفه، فلا يضع شيئًا في غير موضعه اللائق به، فرد بهذه الشهادة على باطل نصارى نجران، ومكر اليهود، وشرك العرب، وأبطل كل باطلهم سبحانه وتعالى.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾

[المؤمنون:١١٥ ـ ١١٧]

◈ **والشاهد**: ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾.

◈ **والمعنى**: أي إن الله تعالى يوبخ ويؤنب الناس على إنكارهم للبعث، أنكر تعالى عليهم حسبانهم وظنهم أنهم لم يخلقوا للعبادة وإنما خلقوا للأكل والشرب والنكاح، كما هو ظن كل الكافرين، وأنهم لا يبعثون ولا يحاسبون ولا يجزون بأعمالهم، فتعالى الله الملك الحق، أي عن العبث وعن كل مالا يليق بجلاله وكماله وقوله. ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾. أي لا معبود بحق إلا هو ﴿**رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾. أي مالك العرش الكريم ووصف العرش بالكرم سائغ كوصفه بالعظيم، والعرش سرير الملك، وهو كريم لما فيه من الخير، وعظيم إذ هو أعظم من الكرسي، والكرسي وسع السموات والأرض، ولم لا يكون العرش كريمًا وعظيمًا ومالكه جل جلاله هو مصدر كل كرم وخير وعظمة.

٣ ـ وقال جل شأنه: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

◈ **والشاهد**: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾.

◈ **والمعنى**: أي لا معبود بحق إلا هو، عالم الغيب والشهادة، أي السر والعلن، الموجود والمعدوم والظاهر والباطن، وهو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء الرحيم لعباده المؤمنين، الملك الذي له ملك السموات والأرض، والمدبر للأمر في الأرض والسماء، القدوس الطاهر المنزه، عن كل نقص وعيب عن الزميل والصاحبة والولد، السلام ذو السلامة من كل نقص، مفيض السلام على من شاء من عباده، المؤمن المصدق رسله بما آتاهم من المعجزات، المصدق عباده المؤمنين فيما يشكون إليه مما أصابهم، ويطلبونه ما هم في حاجة إليه من

رغائبهم وحاجاتهم، المهمين على خلقه، الرقيب عليهم، المتحكم فيهم، لا يخرج شيء من أعمالهم وتصرفاتهم عن إرادته وإذنه، العزيز الغالب على أمره، الذي لا يمانع فيما يريده، الجبار للكل على مراده وما يريده، المتكبر على خلقه وله الكبرياء في السموات والأرض والجلال والكمال والعظمة.

« سبحان الله عما يشركون » تنزه تعالى بنفسه عما يشرك به المشركون من عبدة الأوثان والأصنام، وغيرها من كل ما عبد من دونه سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾. المقدر للخلق البارئ له المصور له الصورة التي أراد أن يوجده عليها، ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. وهي مئة اسم إلا اسمًا واحداً كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في صحيح البخاري وأسماؤه متضمنة صفاته وكل أسمائه حسنى، وكل صفاته عليا، فنزه عن صفات المحدثين، يسبح له ما في السموات والأرض من مخلوقات وكائنات، أي ينزهه ويقدسه عما لا يليق؛ وكمال حياته. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الغالب على أمره في جميع تدبيره.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: « لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن، قال له: إنك تقدم على قوم، من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس ». [متفق عليه]

٢ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى ». [متفق عليه]

٣ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاجٌّ. فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى النبي ﷺ: كيف أصنع؟ قال: «اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي» فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء. نظرت إلى مد بصري بين يديه، من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به، فأهلّ بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» وأهّل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئًا منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته، قال جابر ـ رضي الله عنه ـ لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ....». الحديث..

٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم وفد نجران فقالوا لرسول الله ﷺ، صف لنا ربك. أزبرجد؟ أم ياقوت؟ أم فضة؟.

فقال: إن ربي ليس من شيء، وأنه خلق الأشياء، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

فقالوا: هو واحد وأنت واحد، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. قالوا: زدنا من الصفة قال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. فقالوا: وما الصمد؟ قال: الذي يصمد الخلق إليه في الحوائج. فقالو: زدنا. فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾. كما ولدت مريم، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾. كما ولد عيسى، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. يريد: نظيراً من خلقه».

[رواه أحمد والترمذي والحاكم صححه]

والخلاصة

أن التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولي وعملي.

فالتوحيد القولي: مثل سورة الأخلاص، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

والتوحيد العملي: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. ولذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر وركعتي الطواف. أو بآية ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:١٣٦] وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران:٦٤] فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام، وفيهما الإيمان القولي والفعلي، فقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾. يتضمن الإيمان القولي والإسلام، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾. يتضمن الإسلام والإيمان العملي، فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإسلام والإيمان وهما في هاتين الآيتين. قاله الإمام ابن تيمة رحمه الله في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

* * *

٢ مكارم معرفة الله

◆ هي إدراك معرفة الله عز وجل بصفاته الواجبة له، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، معرفة صحيحة ناشئة عن الأدلة اليقينية .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: الرب تعالى يدعو عباده في القرآن الكريم إلى معرفته من طريقين:

١ ـ النظر في مفعولاته .

٢ ـ التفكر في آياته وتدبرها فتلك وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... الآية﴾. [آل عمران: ١٩٠].

الثاني: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ... الآية﴾ [النساء:٨٢].

وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩].

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده، وقدرته، ومشيئته، وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختيارى من معدوم، أو موجود لا قدرة له ولا حياة، ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان

والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصريف الرياح والسحاب والمياه دليل على إمكان المعاد.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [النمل: ٩٣].

والشاهد: **﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾**.

والمعنى: وقل الحمد لله، أمرني أن أحمده على كل ما وهبني من نعم لا تعد ولا تحصى ومن أجلها إكرامه لي بالرسالة التي شرفني بها على سائر الناس فالحمد لله والمنة له، **﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾**. أي وأعلم هؤلاء المشركين أن الله ربي سيريكم آياته في مستقبل أيامكم وقد أراهم أول آية في بدر، وثاني آية في الفتح وآخرها عند الموت يوم تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وتقول ذوقوا عذاب الحريق، وقوله تعالى: **﴿وَمَا رَبُّكَ﴾**. أي وما ربك الذي أكرمك وفضلك أيها الرسول **﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**. أيها الناس مؤمنين وكافرين، وصالحين، وفاسدين، وسيجزي كلاً بعمله، وذلك يوم ترجعون إليه، نفس الآية وعد ووعيد.

٢ ـ وقال تعالى: **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

والشاهد: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

والمعنى: هذا حوار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعنة الجبار، لما قال موسى: إني رسول رب العالمين، في أول الحوار قال فرعون مستفسراً في عناد ومكابرة: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. أيْ أيّ شيء هو أو من أي جنس من الأجناس المخلوقة، فأجابه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. أي خالق السموات والأرض وخالق ما بينهما، ومالك ذلك كله ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. بأن كل مخلوق لابد له من خالق خلقه، وهو أمر لا تنكره العقول.

وهنا قال فرعون في استخفاف وكبرياء لمن حوله من رجال دولته وأشراف قومه: ألا تستمعون، كأن ما قاله موسى أمر عجب أو مستنكر فعرف موسى ذلك، فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾. أي خالقكم وخالق أبائكم الأولين، الكل مربوب له خاضع لحكمه وتصرفه، اغتاظ فرعون فقال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، أراد أن ينال موسى؛ لأنه أغاظه بقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾. فرد موسى أيضًا قائلاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. أي رب الكون كله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. أي ما تخاطبون به ويقال لكم، وفي هذا الجواب ما يتقطع له قلب فرعون.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣ ـ ٥٤].

والشاهد: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

والمعنى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾. الدالة على صدقنا وصدق رسولنا ﷺ فيما أخبرناهم به ودعوناهم إليه من الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء وذلك في

الآفاق أي من أقطار السموات والأرض مما ستكشف عنه الأيام من عجائب تدبيره ولطائف صنعه، وفي أنفسهم أيضاً أي في ذواتهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. من ذلك فتح القرى والأمصار، وانتصار الإسلام كما أخبر به القرآن، ووقعة بدر وفتح مكة من ذلك إلى الآن من كشوفات في الآفاق وفي أنفسهم مما أشار إليه القرآن ما هو أعجب من ذلك، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟ إن هذا توبيخ لهؤلاء المكذبة بإعلامهم أن شهادة الله كافية في صدق محمد ﷺ، وما جاء به - إن الله هو المخبر بذلك والآمر بالإيمان به فكيف يطالبون بالآيات على صدق القرآن ومن نزل عليه، والله المرسل للرسول ﷺ وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علماً وقدرة وعزة وسلطاناً.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلاف، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراجه فيه نوره. فأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المدنية غلبت عليه الأخرى غلبت عليه» .[رواه أحمد في المسند]

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ «إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيعون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» . [رواه البخاري]

والخلاصة

أن معرفة الله عز وجل هي أرفع المعارف وأرقاها؛ إذ بها يتفاضل الخلق أجمعين.

كما قال ابن تيمية رحمه الله، أصل التفاضل بين الناس، إنما هو معرفة الله ومحبته، وإذا كانوا يتفاضلون فيما يعرفون من المعروفات فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته أعظم.

❊ ❊ ❊

٣ مكارم التأمل

هو تدقيق النظر في الكائنات بغرض الاتعاظ بالتذكر، قال الكفوي: التأمل هو استعمال الفكر(١).

وقال ابن القيم: أما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود لإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر؛ قال الله تعالى: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** [ص:٢٩]

١ ـ قال الله تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة].

◆ **والشاهد من الآية قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.**

◆ **والمعنى**: كما قال الجزائري:

لما أوجب الله على العلماء بيان العلم والهدى، وحرم كتمانهما، أخبر أنه الإله الواحد الرحمن الرحيم، وأن هذا أول ما على العلماء أن يبينوه للناس، وهو توحيده تعالى في ربوبيته، وعبادته وأسمائه وصفاته، ولما سمع بعض المشركين تقرير هذه الحقيقة: وإلهكم إله واحد، قالوا: هل من دليل ـ يريدون على أنه لا إله إلا الله، فأنزل الله هذه الآية **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾** الآية وهي ست آيات كونية، كل آية برهان ساطع ودليل قاطع على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته، وهي كلها موجبة لعبادته وحده دون من سواه.

---

(١) لسان العرب.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠].

◈والشاهد من الآية ﴿أَوَ لَمْ يرَ﴾ يقول صاحب أيسر التفاسير (ومازال السباق الكريم في تقرير التوحيد ووجوب تنزيه الله تعالى عن صفات النقص والعجز فقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الكافرون بتوحيد الله وقدرته وعلمه ووجوب عبادته ـ إلى مظاهر قدرته وعلمه وحكمته في هذه المخلوقات العلوية والسفلية؛ فالسموات والأرض كانتا كتلة واحدة من سديم فخلق الله تعالى منها السموات والأرض كذا أن السماء تتفتق بإذنه عن الأمطار، والأرض تتفتق عن النباتات المختلفة الألوان والروائح والطعوم والمنافع، وأن كل شيء حي في هذه الأرض من إنسان وحيوان ونبات هو من الماء، أليست هذه كلها دالة على وجود الله ووجوب عبادته وتوحيده فيها؟).

٣ ـ وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ [طه:١٢٨].

◈والشاهد من الآية ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُم﴾ أفلم يَبِنْ لهم والمعنى: أفلم يهد لأهل مكة المكذبين المشركين أي أغفلوا فلم يهد لهم أي يتبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي أهلكنا العديد من أهل القرون الذين هم يمشون في مساكنهم ذاهبين جائين كثمود، وأصحاب مدين والمؤتفكات أهلكناهم بكفرهم ومعاصيهم فيؤمنوا ويوحدوا ويطيعوا فينجوا ويسعدوا.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن

يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

[الحج:٥].

❖ الشاهد من الآية ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ لما ذكر تعالى بعض أحوال القيامة وأهوالها، وكان الكفر بالبعث الأخير هو العائق عن الاستجابة للطاعة وفعل الخير، نادى الله تعالى الناس مرة أخرى ليعرض عليهم أدلة البعث العقلية لعلهم يؤمنون.

ثم يقول بعد ذلك الجزائري: إن الذين خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة يوجب العقل قدرته على إحيائهم بعد موتهم؛ إذ ليست الإعادة بأصعب من البداية..

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء. والشاهد [قعد فنظر إلى السماء].

٢ - وعن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر(١).

(١) الدرر المنثورة ٢/٤٠٩.

والخلاصة

كما قال ابن القيم: أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب والزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر الفكر في مصالح العباد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد العباد، وفي طرق اجتنابها فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار.

ويليها أربع: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها.

* * *

٤ مكارم التذكر

هو تَفَعُّلٌ من الذكر وهذا الوزن يفيد التدرج والارتقاء شيئًا فشيئًا.

قال ابن القيم: والتذكر تَفَعُّلٌ من الذكر وهو ضد النسيان وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب.

١ ـ قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]

والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليتذكروا فيتعظوا فيؤمنوا ويطيعوا.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

والشاهد من الآيات قوله تعالى: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي وقت يتذكر فيه وجاءكم النذير ﷺ فلم تجيبوا وأصررتم على الشرك والمعاصي.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٣].

والشاهد من الآية الذكرى أو قوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾.

والمعنى: أي من أي وجه يكون لهم التذكر، والحال أنهم قد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وقالوا: معلم مجنون؟.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ وقال الرسول ﷺ : « تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ فقال: لا، قالوا: تذكر، قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أن يُنظروا المعسر، ويتجاوزوا عنه قال: قال الله: تجوزوا عنه ».

[البخاري ومسلم واللفظ له]

٢ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد، فقال: « رحمه الله لقد ذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا ».

[البخاري ومسلم]

والخلاصة

أن التذكر كما قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

أي تذكروا عقاب الله عز وجل وثوابه ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعانوا بالله ورجعوا إليه من قريب[١].

* * *

(١) مجلد ٢ ص: ٢٩٠.

٥ مكارم الإسلام

هو إظهار القبول والخضوع لما أتى به محمد ﷺ.

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ: اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره، فهل هو منفصل عنه يوجد دونه، أو مرتبط به يلازمه، فقيل: إنهما شيء واحد، وقيل: إنهما شيئان لا يتواصلان، وقيل: إنهما شيئان، ولكن يرتبط أحدهما بالأخر.

والحق أن في هذا ثلاثة مباحث:

مبحث عن موجب اللفظين في اللغة، ومبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع ومبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١].

- **والشاهد**: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ**﴾.

- **والمعنى**: لما ذكر تعالى في الآيات التي سبقتها مواقف إبراهيم عليه السلام السليمة الصحيحة عقيدة وإخلاصًا وعملاً صالحًا وصدقًا ووفاءً فوضح بذلك ما كان عليه إبراهيم من الدين الصحيح، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ**﴾. تلك الملة الحنيفية الواضحة السهلة، اللهم لا أحد يرغب عنها إلا عبد جهل قدر نفسه، ولم يعرف لها حقها في الطهارة والصفاء والإكمال والإسعاد، وضمن هذا الخبر ذكره تعالى إنعامه على إبراهيم عليه السلام و ما تفضل به عليه من الاصطفاء في الدنيا، والإسعاد في الآخرة في جملة

الصالحين، وأن ذاك الاصطفاء تم لإ براهيم عليه السلام عند استجابته لأمر ربه بالإسلام حيث أسلم ولم يتردد.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والشاهد: ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

والمعنى: أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وتدعي كل طائفة منكم أنه كان على دينها مع أن اليهودية ما كانت إلا بعد نزول التوراة، والنصرانية ما كانت إلا بعد نزول الإنجيل، وإبراهيم كان قبل نزول الكتابين بمئات السنين، ما لكم تقولون بما لا يقبل ولا يعقل أفلا تعقلون؟ ثم وبخهم بما هم أهله قائلاً: لم تحاجون فيما ليس لكم به علم.

ثم أكذبهم بعد أن وبخهم فقال: ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا وإنما كان حنيفًا موحدًا مطيعًا لربه مسلمًا له ولم يكن من المشركين.

٣ ـ وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٩، ٢٠].

والشاهد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾. ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾.

والمعنى: يخبر تعالى بعد أن شهد أنه لا إله إلا هو سبحانه، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾، أي الدين الحق الذي لا يقبل تعالى دينًا سواه، هو الإسلام القائم على مبدأ الانقياد الكامل لله تعالى بالطاعة، والخلوص التام من سائر

أنواع الشرك فقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ﴾. في حكمه وقضائه الإسلام، وما عداه فلا يقبله ولا يرضاه ثم أخبر تعالى عن حال نصارى نجران. والمجادلين لرسوله ﷺ في شأنه تأليه عيسى بالباطل فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. يتوعد تعالى ويهدد كل من يكفر بآياته الحاملة لشرائعه فيجحدها ويعرض عنها، فإنه تعالى يحصي عليه ذنوب كفره وسيئات عصيانه ويحاسبه بها ويجزيه وإنه لسريع الحساب؛ لأنه لا يشغله شيء عن آخر ولا يعيبه إحصاء ولا عدد، ثم يلتفت بالخطاب إلى رسول ﷺ قائلاً له: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾، يريد وفد نجران النصراني فاختصر الحجاج معهم بإظهار موقفك المؤيس لهم داعيًا إياهم إلى الإسلام الذي عرفوه وأنكروه حفاظًا على الرئاسة والمنافع بينهم فقل لهم: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾. أيضًا أسلم وجهه لله فليس فينا شيء لغير الله وقلوبنا وأعمالنا وحياتنا كلها لله فأسلموا أنتم يا أهل الكتاب ويا أميون ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾. وأعرضوا فلا يضرك إعراضهم، إذ ما كلفت إلا البلاغ وقد بلغت، أما الحساب والجزاء فهو إلى الله تعالى البصير بأعمال عباده العليم بنياتهم وسوف يجزيهم بعلمه ويقضي بينهم بحكمه وهو العزيز الحكيم.

٤ ـ وقال جل شأنه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥، ١٢٦].

- **والشاهد**: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾.
- **والمعنى**: أعلم الله تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك، يهدي

من يشاء برحمته ويضل من يشاء بعدله، وأن لكل من الهداية والإضلال سننًا تتبع في ذلك؛ فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقًا علم تعالى ذلك منه وسهل له طرقها وهيأ له أسبابها. ومن ذلك أنه يشرح صدره لقبول الإيمان وأنواره، فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد؛ ومن طلب الغواية ورغب فيها صادقًا علم الله تعالى ذلك منه فهيأ له أسبابها وفتح له بابها فجعل صدره ضيقًا حرجًا لا يتسع لقبول الإيمان وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقاد.رهذه سنته في الهداية والضلال.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن المقداد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لرسول الله ﷺ: «أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يديّ بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله. أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله». فقال: يارسول الله! إنه قطع إحدى يدي؛ ثم قال ذلك بعدما قطعها، فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فإن قتلته، فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال». [متفق عليه]

٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: «اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض، ومن فيهن ولك الحمد، أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق. ووعدك الحق، ولقاؤل حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت،

وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت». [متفق عليه]

٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: إن الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن الإسلام هو القبول والخضوع لما أتى به رسول الله ﷺ.

وهو كما قال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، وحج البيت سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والإسلام سهم، وقد خاب من لا سهم له(١). وقد عز من تمسك بالإسلام فلا عز إلا عز الله تعالى.

* * *

(١) المصنف لابن أبي شيبة.

٦ مكارم الإيمان

هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

قال الراغب الأصفهاني -رحمه الله-: الإيمان يستعمل تارة في القرآن اسمًا للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ ويصف به كل من دخل في شريعته، مقرًّا بالله وبنبوته، وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصادق والعمل الصالح: إيمان، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي يحصل معه الأمن(١).

١ - قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

والشاهد: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى: يخبر تعالى المؤمنين أن ما أصابهم يوم أحد عند التقاء جمع المؤمنين وجمع المشركين في ساحة المعركة كان بقضاء الله وتدبيره، وعلته إظهار المؤمنين على صورتهم الباطنية الحقة، وأنهم صادقون في إيمانهم. ولذا قال تعالى: وليعلم المؤمنين؛ علمَ انكشافٍ وظهور، كما هو معلوم له في الغيب وباطن الأمور.

٢ - وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) بصائر ذوي التمييز.

◈ والشاهد: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾.

◈ والمعنى: يخبر تعالى أنه ليس من شأنه أن يترك المؤمنين على ما هم عليه؛ ففيهم المؤمن الصادق في إيمانه، والكاذب فيه وهو المنافق، بل لابد من الابتلاء بالتكاليف الشاقة منها كالجهاد، والهجرة والصلاة والزكاة، وغير الشاقة من سائر العبادات حتى يميز الخبيث من الطيب، حتى يميز الكاذب وهو المنافق من المؤمن الصادق وهو الطيب الروح. وذلك أن الله لم يكن من سنته في خلقه أن يطلعهم على الغيب فيميز المؤمن من المنافق، والبار من الفاجر، وإنما يبتلي بالتكاليف، وبناءً على هذا فآمنوا بالله ورسوله ﷺ حقَّ الإيمان فإنكم إن آمنتم صادق الإيمان واتقيتم معاصي الرحمن كان لكم بذلك أعظم الأجور وهو الجنة دار الحبور والسرور.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

◈ والشاهد: ﴿قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾.

◈ والمعنى: بعد أن ذكر تعالى في الآيات التي سبقتها أن الخسران لازم لمن كذب بآيات الله، وأن الذين وجب لهم العذاب لإحاطة ذنوبهم بهم لا يؤمنون لفقدهم الاستعداد للإيمان، ذكر هنا ما يخص به أهل مكة على الإيمان وعدم الإصرار على الكفر والتكذيب فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا﴾. أي فهلا أهل قرية آمنوا فانتفعوا بإيمانهم فنجوا من العذاب اللازم لمن لم يؤمن أي لِمَ لا يؤمنون وما المانع من إيمانهم؟ وهذا توبيخ لهم، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فلم نهلكهم بعذاب استئصال وإبادة شاملة؛ لأنهم لما رأوا أمارات العذاب بادروا بالتوبة ومتعناهم إلى حين، ومتعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم فمال أهل أم القرى لا يتوبون كما تاب أهل نينوى من أرض الموصل وهم قوم يونس عليه السلام؟.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان».

[متفق عليه]

٢ ـ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخديه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال: رسول الله ﷺ : «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه!، قال فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت... الحديث». [متفق عليه]

٣ ـ وقال ﷺ : «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً». [رواه مسلم]

٤ ـ قال الرسول ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان». [رواه مسلم]

٥ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، ـ لمحمد ﷺ ـ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له، انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله

به مقعداً من الجنة فيراهما جميعًا. وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقول: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه من الثقلين». [متفق عليه]

٦ - ويقول ﷺ: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلي بعض؟ قال: ياعائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض». [متفق عليه]

٧ - وعن أبي - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منه شاةً، فطلبه الراعي فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راع غيري؟ وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت إني لم أخلق لهذا ولكنى خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله، قال النبي ﷺ: فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الإيمان: اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، وأنه يزيد وينقص كما اتفق أهل السنة والجماعة، وأن زيادته ذكر الله وخشيته، ونقصانه، النسيان والغفلة وأن الله تعالى اسمه المؤمن.

قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى: «المؤمن» وهو الذي يصدق عباده وعده، فهو من الإيمان (بمعنى) التصديق، أو يؤمنهم في القيامة من عذابه، فهو من الأمان، والأمن الذي هو ضد الخوف.

* * *

٧ مكارم الإحسان

فعل الحسن «فعل الإنسان ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسنًا به».

قال المناوي: الإحسان إسلام ظاهر، يقيمه إيمان باطن، يكمله إحسان شهودي.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ الإحسان من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وهذه المنزلة هي لب الإيمان وروحه وكماله، وهي جامعة لما عداها من المنازل، فجميعها منطوية فيها، ومما يشهد لهذه المنزلة قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾. إذًا الإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق، وهي أن تعبد الله كأنك تراه.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجد:٧]

- **والشاهد**: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.
- **والمعنى**: الذي أحسن خلق كل مخلوق خلقه، أي جود خلقه وأتقنه وحسنه، وبدأ خلق الإنسان من طين أي وبدأ خلق آدم من طين وهو الإنسان الأول.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

- **والشاهد**: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.
- **والمعنى**: بعد إقامة الحجة على المشركين في عبادتهم غير الله وتقليدهم لآبائهم في الشرك والشر والفساد، قال تعالى مرغبًا في النجاة داعيًا إلى الإصلاح ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾. أي يقبل بوجهه وقلبه على ربه يعبده متذللاً له خاضعًا لأمره ونهيه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. أي والحال أنه محسن في

عبادته إخلاصًا فيها لله، واتباعًا في أدائها لرسول الله ﷺ: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾. أي قد أخذ بالطرف الأوثق فلا يخاف انقطاعًا أبدًا، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. يخبر تعالى أن مرد الأمور كلها لله تعالى؛ يقضي فيها بما يشاء. فليفوض العبد أموره كلها لله إذ هي عائدة إليه فيتخذ بذلك له يدًا عند ربه.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

والشاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

والمعنى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾. أي أن الله يأمر في الكتاب الذي أنزله تبيانًا لكل شيء، يأمر بالعدل وهو الإنصاف ومن ذلك أن يُعبَد الله بذكره وشكره؛ لأنه الخالق المنعم وتترك عبادة غيره؛ لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم بشيء. ولذا فسر هذا اللفظ بلا إله إلا الله، ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾. وهو أداء الفرائض واجتناب المحرمات مع مراقبة الله تعالى في ذلك؛ حتى يكون الأداء على الوجه المطلوب إتقانًا وجودة، والاجتناب خوفًا من الله وحياءً منه.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والشاهد: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

والمعنى: بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أنه يدعو إلى دار السلام ذكر جزاء من أجاب الدعوة ومن لم يجبها. فقال للذين أحسنوا فآمنوا وعبدوا الله بما شرع ووحدوه تعالى في عبادته وربوبيته وأسمائه وصفاته، الحسنى وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم في دار السلام، وأنهم إذا بعثوا ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

كما يكون ذلك لمن لم يجب دعوة الله تعالى، وقرر جزاءهم ووضحه بقوله ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحد حي؟» قال: نعم، بل كلاهما. قال: أفتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما». [متفق عليه]

٢ ـ قال الرسول ﷺ: إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

[رواه مسلم]

٣ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بالله فأجيروه، ومن أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه».

والخلاصة

إن الإحسان هو فعل ما ينفع الناس؛ بحيث يصير الإنسان حسناً. وجمع ذلك ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: خمساً، لهن أحسن من الدهم الموقفة، لا تكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه، قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك، وإن السفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام.

٨ مكارم العبادة

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ التحقيق بمعنى قوله (إني عبدك): التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفًا ورجاءً، وفيه أيضًا: أني عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً حيًّا وميتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح، وفيه أيضًا: أن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده، وفيه أيضًا، أنك أنت الذي مننت عليّ بكل ما أنا فيه، من نعمة فذلك كله من إنعامك على عبدك، وفيه أيضًا: أني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشوراً، فإن صح له شهود ذلك فقد قال: إني عبدك حقيقة[١].

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

والشاهد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

والمعنى: لما ذكر الله المؤمنين المفلحين، والكافرين الخاسرين، ذكر المنافقين وهم الأخسرون وهم في الظاهر بين الفئتين، ثم على طريقة الالتفات نادى الجميع بعنوان الناس ليكون نداءً عامًّا للبشرية جمعاء في كل مكان وزمان، وأمرهم بعبادته ليقوا أنفسهم الخسران، معرفًا لهم نفسه، ليعرفوه بصفات الجلال والكمال؛ فيكون ذلك أدعى لاستجابتهم له فيعبدونه عبادة تنجيهم

---

(١) الفوائد.

من عذابه وتكسبهم رضاه وجنته، وختم نداءه لهم بنهيهم عن اتخاذ شركاء له يعبدونهم معه، مع علمهم أنهم لا يستحقون العبادة؛ لعجزهم عن نفعهم أو ضرهم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

والشاهد: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾.

لما جاءت البينة وهي نبي آخر الزمان باتفاقهم جميعًا على انتظاره تفرقوا فآمن بعض وكفر بعض، في حين أنهم ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾. في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم، وكذا في القرآن وعلى لسان نبيه محمد ﷺ ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾. أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ بأن يؤدوها في أوقاتها بشروطها وأركانها، وآدابها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي أوجب الله في الأموال لصالح الفقراء والمساكين ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي وهذا هو دين الملة القيمة المستقيمة الموصلة للعبد إلى رضا الرب وجنات الخلد بعد إنجائه من العذاب والغضب.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢]

والشاهد: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

المعنى: أخبر تعالى أن عبده ورسوله المسيح عليه السلام لن يستنكف أبدًا أن يعبد الله وينسب إليه بعنوان العبودية فيقال عبد الله ورسوله، حتى الملائكة المقربون منهم فضلا عن غيرهم لا يستنكفون عن عبادة الله تعالى وعن لقب العبودية فهم عباد الله وملائكته، ثم توعد تعالى كل من يستنكف عن عبادته ويستكبر عنها من سائر الناس بأنه سيحشرهم جميعًا ويحاسبهم على أعمالهم.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والشاهد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾.

والمعنى: شرف الله من آمن به وصدق برسالة رسله بلقب عبادي، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، وشرفهم أيضًا بالمناجاة لأنها لا تكون إلا للقريب، وتتميز بخفض الصوت، وأعلى شرفهم أن استجاب لدعاء عباده فقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وليس عليهم إلا أن يدعو، ويستجيبوا لربهم بالإيمان به وبطاعته في أمره ونهيه وبذلك يتم رشدهم ويتأهلون للكمال والإسعاد في الدارين؛ الدنيا والأخرة.

٥ ـ وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨].

والشاهد: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

والمعنى: وما زال سياق تقرير عقيدة البعث وهي العقيدة التي بني عليها كل إصلاح يراد للإنسان بعد عقيدة الإيمان بالله تعالى ربًا وإلهًا، فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾. أعمي أولئك المنكرون بلقاء الله يوم القيامة، فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى حجم السماء الواسع العالي الرفيع الكائن فوقهم وقد رفع بلا عمد ولا سند، وقد زينه خالقه بكواكب نَيِّرة وأقمار منيرة وشموس مضيئة، ولم ير في السماء من تصدع ولا شقوق ولا تفطر الحياة كلها أليس القادر على خلق السماء قادراً على إحياء موتى خلقهم وأماتهم بقدرته؟ أليس القادر على الخلق ابتداءً وعلى الإماتة ثانية بقادر على إحياء من خلق وأمات؟

كل ذلك زيادة بصيرة واعتبار وتفكر لمن شرف بلقب عبد ولقب منيب، فهو منيب إلى طاعة الله رجّاعٌ إلى الله.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : « قال الله ـ عز وجل ـ أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ». [متفق عليه]

٢ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: « كان رسول الله ﷺ إذا رفع من الركوع قال: ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما بينهما. وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ».

[رواه مسلم]

٣ ـ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: « كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: « يا معاذ بن جبل » قلت: لبيك رسول الله وسعديك ـ ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل. قلت: لبيك رسول الله وسعديك ـ ثم سار ساعة. ثم قال: يا معاذ بن جبل ـ قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ ـ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » ثم سار ساعة، ثم قال: يامعاذ بن جبل ـ قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: أن لا يعذبهم ».

[متفق عليه]

٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سئل عن استسقاء رسول الله ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً متواضعًا حتى أتى المصلى فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع وصلى ركعتين كما كان يصلى في العيد ». [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]

والخلاصة

أن العبادة هي كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ تجمع بين أصلين: غاية الحب وغاية الذل والخضوع ؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابداً له. ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محبًا خاضعًا. ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم. بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ـ منكرون لكونه إلهًا وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا الإقرار غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب ولم يخرجوا به عن الشرك[1].

والعبادة هي الصفة التي ينبغي أن تكون لازمة للعبد في جميع أوقاته وأحيانه، إذ بها يوصف أنه عبد، وهي الوظيفة التي لا بد من التوظف بها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

* * *

(١) مدارج السالكين.

٩ مكارم تعظيم الحرمات

تعظيم الحرمات هو العلم بوجوبها والقيام بحقوقها.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

[الحج: ٣٠]

◈ والشاهد: ﴿يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾.

◈ والمعنى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ منكم ﴿حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ فلا ينتهكها ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ أي ذلك التعظيم لها باحترامها وعدم انتهاكها خير له ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يوم يلقاه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

والشاهد: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾.

والمعنى: المراد من الناس في قوله: ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ أي العرب قبل الإسلام، ومعنى قيامًا أن مصالحهم قائمة على وجود البيت يحج ويعتمر ويأمن الآتي إليه والداخل في حرمه، وكذا ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ وهي أربعة أشهر: القعدة والحجة ومحرم ورجب، وكذا ﴿الْهَدْيَ﴾ وهو ما يهدي إلى الحرم من الأنعام، وكـذا ﴿الْقَلائِدَ﴾ جمع قلادة وهي ما يقلده الهدي إشعاراً بأنه مهدى إلى

الحرم، وكذا ما يقلده الذاهب إلى الحرم نفسه من لحاء شجر الحرم إعلامًا بأنه آت من الحرم أو ذاهب إليه فهذه الأربعة: البيت الحرام، والشهر الحرام، والهدي، والقلائد، كانت تقوم مقام السلطان بين العرب، فتحقق الأمن والرجاء في ديارهم، وخاصة سكان الحرم من قبائل قريش، فهذا من تدبير الله تعالى لعباده، وهو دال على علمه وقدرته وحكمته، ولذا قال بعد ذلك: **﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾**.

٣ - وقال تعالى: **﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [التوبة: ١١٢].

❖ **والشاهد: ﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾.**

❖ **والمعنى**: لما ذكر الله أوصاف أهل البيع الذين اشترى الله سبحانه منهم أنفسهم وأموالهم، فقال **﴿التَّائِبُونَ﴾** أي من الشرك والمعاصي، **﴿الْعَابِدُونَ﴾** وهم المطيعون لله طاعة ملؤها المحبة لله تعالى والتعظيم له والرهبة منه، و**﴿الْحَامِدُونَ﴾** لله تعالى في السراء والضراء وعلى كل حال، **﴿السَّائِحُونَ﴾** وهم الصائمون كما في الحديث (سياحة أمتي الصيام) والذين يخرجون في سبيل الله لطلب علم أو غزو أو تعليم أو دعوة إلى الله تعالى ليُعبد ويوحَّد ويطاع في أمره ونهيه، **﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾** أي المقيمون الصلاة المكثرون من نوافلها كأنهم دائمًا في ركوع وسجود، **﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾** وهو الإيمان بالله وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله ﷺ **﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾** وهو الكفر به تعالى والشرك في عبادته ومعصية رسوله محمد ﷺ، و**﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾** بالقيام عليها وعملها بعد العلم بها.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ في حجة الوداع: «ألا أي شهر تعلمون أعظم حرمة؟» قالوا: ألا شهرنا هذا. قال: «ألا أي بلد تعلمون أعظم حرمة؟» قالوا: ألا بلدنا هذا. قال: «ألا أي يوم تعلمون أعظم حرمة؟» قالوا: ألا يومنا هذا. قال: «فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ (ثلاثًا)» كل ذلك يجيبونه: ألا نعم، قال: «ويحكم أو ويلكم لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». [متفق عليه من خطبة الوداع]

٢ ـ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟، فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟» فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

والخلاصة

أن تعظيم الحرمات أو تعظيم محارم الله هو اجتناب ما أُمر المرء باجتنابه في حال إحرامه، تعظيمًا منه لحدود الله أن يواقعها وحرمه أن يستحلها، وهي درجات كما قسمت درجات:

١ـ تعظيم الأمر والنهي، بحيث لا يعارضا بترخص ولا تشدد.

٢ـ تعظيم الحكم أن يُبغى له عوج أو يدافَع بعلم أو يُرضى بعوض.

٣ـ تعظيم الحق سبحانه وهو أن لا يجعل دونه سببًا، ولا يرى عليه حقًّا، أو ينازع له اختياراً.

وإذا علم ذلك يلزمك اليقين بأن الموصل إلى الله هو الله. ولا يتوصل إلى رضاه إلا به، ما دل على الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه، ولا يرى لأحد من الخلق حقًّا على الله، بل الحق لله على خلقه.

فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد هو ما اقتضاه جوده وبره وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه(١).

* * *

(١) بعض كلام ابن القيم في مدارج السالكين.

١٠ مكارم الصلاة

الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة. على تفصيل لدى المذاهب.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والناس في الصلاة على مراتب خمس:

إحـدها: مرتبة الظالـم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقض من وضوئها ومواقيتها وحدوها وأركانها.

الثانية: مرتبة من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثـالثـة: مرتبة من يحافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

والرابعـة: مرتبة من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامسة: مرتبة من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ـ عز وجل ـ ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له ممتلئًا من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ـ عز وجل ـ قرير العين به ـ فالقسم الأول معاقب والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب والخامس مقرب، من ربه ـ عز وجل.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

◈والشاهد: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾.

◈والمعنى: يفتح الله باب الرجاء لهم فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾. أي يعملون بحرص وشدة بما فيه من الأحكام والشرائع ولا يفرطون في شيء من ذلك، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾، وأن الله تعالى سيجزيهم على إصلاحهم لأنفسهم ولغيرهم أعظم الجزاء وأوفره، لأنه تعالى لا يضيع أجر المصلحين.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]

◈والشاهد: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.

◈والمعنى: يرشد تعالى: أن العاقل يسبق إلى الخير ثم يدعو إليه، ويأمر بالاستعانة بهذين الكنزين وهما الصبر والصلاة؛ حتى يقدر المسلم على مواجهة الحقيقة والتصريح بها وهي الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في دينه، ثم يعلمهم أن هذه المواجهة صعبة شاقة على النفس، لا يقدر عليها إلا المخبتون لربهم الموقنون بلقاء الله والرجوع إليه.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

◈والشاهد: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

◈والمعنى: لما جاء الذين تخلفوا وتابوا، فعزموا على إعطاء رسول الله ﷺ الأموال التي شغلتهم، فقال الرسول ﷺ: إني لم أومر بذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأخذ صدقة هؤلاء التائبين لأنها ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من ذنوبهم ومن أو ضار الشح في نفوسهم ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أيها الرسول ﴿وبِهَا﴾ بقبولك لها ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم بخير، ﴿إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾. وهى هنا بمعنى الدعاء، فإذا دعا لهم سكنت قلوبهم وفرحوا، واختلف هل هي الصلاة على المتصدق باقية أو انتهت بوفاة رسول الله ﷺ؟ والصحيح أنها باقية. «فمن أخذ صدقة متصدق يصلي عليه اقتداءً برسول الله ﷺ» أي رحمة لهم وطمأنينة في نفوسهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. لأقوالهم لما قدموا صدقتهم وقالوا: خذها يا رسول الله، عليم بنياتهم وبواعث نفوسهم فهم تائبون توبة صدق وحق.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: «فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين، في الحضرو السفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر».

[متفق عليه]

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا». [متفق عليه]

٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». [متفق عليه]

٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ، فقلت يا رسول الله: بأبي أنت وأمي، رأيت سكوتك بين التكبير والقراءة، ما تقول، قال: «أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد».

[متفق عليه]

والخلاصة

أن الصلاة صلة بين العبد وربه، وهي الدعاء وهي الرحمة وهي عماد الدين، ولذا فقد اهتم العلماء بهذا الركن من أركان الإسلام، فقد وصفوا الهيئات والشروط والأركان.

فذكروا في الهيئات: عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أحفظكم لصلاة رسول الله ﷺ، رأيته إذا كبر جعل يديه حذاء منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه، ثم هصر ظهره، فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار مكانه، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما، واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة، فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب اليمنى، وإذا جلس في الركعة الآخرة قدم رجله اليسرى ونصب الأخرى وقعد على مقعدته». [رواه البخاري]

وشروط الصحة هي: النية، الإسلام، العقل، التمييز، الوضوء أو الطهارة (من الحدثين)، ستر العورة، ودخول الوقت، استقبال القبلة. لذا لا تصح الصلاة إلا بطهارة، ولا يصح الفرض إلا بدخول الوقت، ويكون بعد ذلك الأذان والإقامة.

وكانت صفة القراءة في الصلاة كالآتي:

يقرأ بعد دعاء الاستفتاح ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ويقرأ سورتين في الركعتين، يطول في الأولى ويقصر في الثانية، ويسمع الآية أحيانًا.

وفي حديث المسيء صلاته قال: إذا قمت إلى الصلاة، فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها».

[متفق عليه]

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «علمني رسول الله ﷺ التشهد، كفي بين كفيه، كما يعلمني السورة من القرآن، وفي لفظ فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد صالح، في السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهداً أن محمداً عبده ورسوله، ثم يتخير من المسألة ما شاء». [متفق عليه]

وهي في الجماعة أفضل، وهي السنة التي أمر بها الرسول ﷺ وواظب عليها.

قال الرسول ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة» [متفق عليه]

الذكر في الصلاة ودبر الصلاة :ـ

كان ﷺ إذا ركع قال: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي» وإذا رفع قال: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد» وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت ولك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» ثم يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت». [رواه مسلم]

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن رَفْعَ الصوتِ بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة، كان على عهد النبي ﷺ». [متفق عليه]

أما عن جبر السهو في الصلاة: فعن عبد الله بن بحينة، قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين من بعض الصلوات، ثم قام فلم يجلس، فقام الناس معه، فلما قضى صلاته ونظرنا تسليمه: كبر فسجد سجدتين وهو جالس قبل التسليم ثم سلم». [متفق عليه]

* * *

١١ مكارم الزكاة

الزكاة اسم لأخذ شيء مخصوص من مال مخصوص على أوصاف مخصوصة لطائفة مخصوصة.

قال الفيروزآبادى: الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى. ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ هذه المادة عامة في زكاة الأموال والأبدان، وزكاة النفس وطهارتها إشارة إلى ما يكون حلالاً لا يستوضح عقباه، ومنه الزكاة لما يخرجه الإنسان لما يكون فيه من رجاء البركة أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعًا، فإن الخيرين موجودان فيها، وقرن الله تعالى الزكاة بالصلاة في القرآن تعظيمًا لشأنها.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

[المؤمنون: ١ ـ ٤]

◈ **والشاهد**: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.

◈ **والمعنى**: يخبر تعالى وهو الصادق الوعد بفلاح المؤمنين وقد بين تعالى في آية آل عمران ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ معنى الفلاح، وهو الفوز بالنجاة من النار، ودخول الجنة ـ ووصف هؤلاء المؤمنين المفلحين بصفاتٍ مَنْ جمعَها متصفًا بها فقد ثبت له الفلاح وأصبح من الوارثين الذين يرثون الفردوس يخلدون فيها، ومن هذه الصفات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي أداؤهم لفريضة الزكاة الواجبة من أموالهم الناطقة والصادقة، مثل المواشي والنقدين والحبوب والثمار، وفعلهم لكل ما يزكي النفس من الصالحات.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

والشاهد: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

والمعنى: فما أعطيتم من هبات وهدايا تريدون بها أن يرد عليكم بأكثر مما أعطيتم فهذا العطاء لايربو عند الله ولا يضاعف أجره بل ولا يؤجر عليه، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أي صدقات تريدون بها وجه الله ليرضى عنكم ويغفر لكم ويرحمكم ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ أي هؤلاء الذين ينفقون ابتغاء وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي الذين يضاعف لهم الأجر والثواب.

٣ ـ وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

والشاهد: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾.

والمعنى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ﴾ أي يأت الله تعالى مؤمنًا به كافرًا بالطاغوت ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ بشرائعه فأدى ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ أي الفرائض واجتنب المناهي ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ﴾ جزاء إيمانهم وعملهم الصالح ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾، أي الدرجات العليا في ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ أي تتطهر بالإيمان وصالح الأعمال بعد تخليه عن الشرك والخطايا والذنوب.

٤ ـ ويقول سبحان: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

والشاهد: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

◈ والمعـنـى: مثل ما أنعمت عليكم بإرسال رسولي ﷺ، الذي يزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من أمور الدين والدنيا معًا، فاثبتوا على قبلتكم الحق لأتم نعمتي عليكم بهدايتكم إلى أحسن الشرائع وأقواها، ولأهيئكم لكل خير وكمال.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤٩].

◈ والشاهد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

◈ والمعنى: يتساءل الله متعجبًا والأمر يدعو إلى العجب، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، إذ المفروض أن المرء لا يزكي نفسه حتى يزكيه غيره فاليهود والنصارى قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى وقالت اليهود: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات إلى غير ذلك من الدعاوى الباطلة، ولما أنكر تعالى عليهم هذا الباطل الذي يعيشون عليه فعاقهم عن الإيمان والدخول في الإسلام وأخبر تعالى أنه عز وجل هو الذي يزكي من يشاء من عباده، وذلك بتوفيقه إلى الإيمان وصالح الأعمال التي تزكو عليها النفس البشرية فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أي أقل قليل فلا يزاد في ذنوب العبد ولا ينقص من حسناته، ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتعجب من حال هؤلاء اليهود والنصارى وهم يكذبون على الله تعالى، ويختلقون الكذب بتلك الدعاوى التي تقدمت آنفًا. وكفى بالكذب إثمًا مبينًا يغمس صاحبه في النار.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

والشاهد: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والمعنى: بين الله تعالى من لهم الزكاة أو مصارف الزكاة، حتى لا يكون لأحد الطعن فيها، لذا كان ﷺ إذا طلب منه يقول: «إذا وجدنا لك في الزكاة أعطيناك»، وهي محصورة في الأصناف الثمانية:

١ ـ الفقراء: وهم المؤمنون الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم الضرورية من طعام وشراب وكساء ومأوى.

٢ ـ المساكين: وهم الفقراء الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم.

٣ ـ الموظفين فيها من سعاة جباة وأمناء وكتاب وموزعين.

٤ ـ والمؤلفة قلوبهم: وهم من يرجى نفعهم للإسلام والمسلمين لمناصبهم وشوكتهم في أقوامهم.

٥ ـ وفي الرقاب: وهو مساعدة المُكاتَبين على تسديد أقساطهم ليتحرروا، أما شراء عبد بالزكاة وتحريره فلا يجوز لأنه يعود بالنفع على دافع الزكاة؛ لأن ولاء المعتوق له.

٦ ـ الغارمين: وهم من ترتب عليهم ديون بسبب ما أنفقوه في طاعة الله تعالى على نفسه وعائلته.

٧ ـ في سبيل الله: وهو تجهيز الغزاة.

٨ ـ ابن السبيل: وهم المسافرون ينزلون ببلد وتنتهي نفقتهم فيحتاجون.

وقوله ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي هذه الصدقات وقسمتها على هذا النحو جعله الله تعالى فريضة لازمة على عباده المؤمنين. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بخلقه وأحوالهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقسمته، فلذا لا يجوز أبداً مخالفة هذه القسمة فلا

يدخل أحد فيعطى من الزكاة وهو غيرِ مذكور في هذه الآية، وليس شرطًا أن يعطي كل الأصناف فقد يعطي المرءُ زكاته كلها في الجهاد أو في الفقراء والمساكين أو الغارمين أو المكاتبين وتُجْزِئُه وإن كان الأولى أن يقسمها بين الأصناف المذكورة، من وجد منها إذ قد لا توجد كلها في وقت واحد.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال: «بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم». [متفق عليه]

٢ - عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت: يارسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير، الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»، قال ثم تلا: **﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [السجدة: ١٦، ١٧]. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذورة سنامه؟»، قلت: بلي يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذورة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟». قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كف عليك هذا». فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟، فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو علي مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟».

[رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]

٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال، قال النبي ﷺ : «ليس فيما دون خمس أواق، وليس دون خمس ذوو صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة» [متفق عليه]

والخلاصة

أن الزكاة هي النمو الحاصل عن بركة الله تعالى. ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية.

وقال الشعبي: «من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه» وبها يتزن ميزان المجتمع؛ إذ جعلها الله تعالى تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما بين ذلك رسول الله ﷺ. فبها يحصل الأمن والأمان الاجتماعي وبها تحصل البركة ويمتحن المؤمن في ماله الذي استخلفه الله عليه، وبها يحل التراحم بدلاً من التحاسد.

* * *

١٢ مكارم الصيام

هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات يومًا كاملاً بنية الصيام من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد: الصوم (الصيام) هو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار، والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها؛ إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وتلك حقيقة الصوم.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والشاهد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

والمعنى: لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وأصبحت دار إسلام، أخذ التشريع ينزل ويتوالى، ففي الآيات التي سبقت هذه الآية كان حكم القصاص والوصية ومراقبة الله في ذلك، وكان من أعظم ما يكون في المؤمن من ملكة التقوى الصيام، فأنزل الله تعالى فرض الصيام في السنة الثانية للهجرة فناداهم بعنوان الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وأعلمهم أنه كتب عليهم الصيام كما كتبه على الذين من قبلهم من الأمم السابقة وعلل ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي ليعدكم به للتقوى التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، لما في الصيام من مراقبة الله تعالى.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

◈ والشاهد: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

◈ والمعنى: لما ذكر تعالى في الآيات التي سبقت هذه الآية قتال المنافقين متى يجوز ومتى لا يجوز ناسب ذكر قتل المؤمن الصادق في إيمانه خطأ وعمداً وبيان حكم ذلك أنه لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا في حال الخطأ أما في حال العمد فلا يكون ذلك منه ولا يتأتى له وهو مؤمن لأن الإيمان نور يكشف عن مدى قبح جريمة قتل المؤمن، وماوراءها من غضب الله تعالى وعذابه، فلا يقدم على ذلك اللهم إلا في حال الخطأ فهذا وارد وواقع، وحكم من قتل خطأ أن يعتق رقبة ذكراً كانت أو أنثى مؤمنة وأن يدفع الدية لأولياء القتيل إلا أن يصدقوا بها فلا يطالبوا بها ولا يقبلوها، والدية مئة من الإبل أو ألف دينار ذهب أو اثنا عشر ألف درهم فضة.

فإن كان القتيل مؤمنًا ولكن من قوم هم عدو للمسلمين محاربين فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير؛ إذ لا تعطى الدية لعدو يستعين بها على حرب المسلمين، وإن كان القتيل من قوم كافرين، وهو مؤمن أو كافر ولكن بيننا وبين قومه معاهدة، على القاتل تحرير رقبة، ودية مسلمة إلى أهله، فمن لم يجد الرقبة صام شهرين متتابعين فذلك توبته. لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بما يحقق المصلحة لعباده حكيمًا في تشريعه فلا يشرع إلا ما كان نافعًا غير ضار، ومحققًا للخير في الحال والمال.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «عن رسول الله ﷺ قال: إن الله تبارك وتعالى فرض صيام رمضان عليكم، وسننت لكم قيامه فمن صامه وقامه احتساباً خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه». [رواه النسائي وأحمد]

٢ ـ عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ، إذ أتته امرأة، فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت، قال: وجب أجرك وردها عليك الميراث، قالت يا رسول الله! إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: صومي، قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجي عنها».
[رواه مسلم]

٣ ـ وقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

[متفق عليه]

٤ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر فيه صياماً من شعبان.

والخلاصة

أن الصيام فرض فرضه الله على المؤمن البالغ العاقل المستطيع المقيم ورخص لغير المستطيع والمسافر بالفطر والقضاء، وأنه إمساك عن الشهوة (فرج وبطن) نهاراً كاملاً، وأن رسول الله سن قيام ليله، وأنه ـ أي صيام الفرض ـ في شهر واحد من السنة وهو رمضان.

وسن لنا رسول الله صيام عاشوراء، والاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر عربي، الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وبين أن خير الصيام صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وحض على صيام يوم عرفة لمن لم يكن حاجًّا، ومع يوم عاشوراء صيام ثمانية أيام من المحرم.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحمايتها من التخليط الجالب للمواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستضراع المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها. ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات؛ فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

* * *

١٣ مكارم الحج والعمرة

أولاً الحـــج : هو قصد بيت الله إقامة للنسك فإن قصدها في غير وقت الحج كانت عمرة، وإن كان وقت الحج بنية الحج كانت حجة.

ثانيًا العمرة : هي الزيارة.

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ في الإحياء: إن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين، فعلى كل حاج ومعتمر أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلتزم نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع، ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه، كما ينبغي أن يلتمس رفيقًا صالحًا محبًا للخير معينًا عليه، إن ذكر الله أعانه، وإن جبن شجعه، وإن عجز قواه، وإن ضاق صدره صبره.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ١٥٨].

الشاهد : **﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾**.

والمعنى : يخبر تعالى مقررًا فرضية السعي بين الصفا والمروة، ودافعًا ما توهمه بعض المؤمنين من وجود إثم في السعي بينهما نظرًا إلى أنه كان في الجاهلية على الصفا صنم يقال له نائلة يتمسح به من سعى بين الصفا والمروة، فقال الله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾** يعني السعي بينهما عبادة من عبادات الله إذ تُعُبِّدَ بالسعي بينهما نبيَّه إبراهيم وولدُه إسماعيلُ والمسلمون من ذريتهما، فمن حج البيت لأداء فريضة الحج أو اعتمر لأداء واجب العمرة فليسع بينهما أداءً لركن الحج والعمرة ولا إثم عليه في كون المشركين كانوا

يسعون بينهما لأجل الحجرين ثم أخبر تعالى واعداً عبادة المؤمنين أن من يتطوع منهم بفعل خير من الخيرات يجزه به ويثيبه عليه، لأنه تعالى يشكر لعباده المؤمنين أعمالهم الصالحة، ويثيبهم عليها، لعلمه بتلك الأعمال ونيات أصحابها.

٢ - وقال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٧ - ١٩٩].

والشاهد: ﴿الآيات﴾.

والمعنى: يبين أحكام الحج والعمرة فأخبر تعالى أن له أَشْهُرًا معلومات وهي: شوال والقعدة وعشر ليال من الحجة، فلا يُحرم بالحج إلا فيها، وأن من أحرم بالحج يجب عليه أن يتجنب الرفث والفسوق والجدال؛ حتى لا يفسد حجه أو ينقص أجره، وانتدب الحاج إلى فعل الخيرات من الصدقة وغيرها. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ ولازِمُه أنه يثيب عليه ويجزي به. وأمر الحجاج أن يتزودوا لسفرهم في الحج بطعام وشراب يكفّون به وجوههم عن السؤال فقال: وتزودوا، وأرشدهم إلى خير الزاد وهو التقوى. ومن التقوى عدم سؤال الناس أموالهم والعبد غير محتاج، وأمرهم بتقواه عز وجل، أي الخوف منه حتى لا يعصوه في أمره ونهيه فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ والله أحق أن يتقى لأنه الواحد القهار، ثم أباح لهم الاتجار أثناء وجودهم في مكة ومنى فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد رزقًا حلالاً بطريق التجارة المباحة

ثم أمرهم بذكر الله تعالى في مزدلفة بصلاة المغرب والعشاء والصحيح فيها وذلك بعد إفاضتهم من عرفة بعد غروب الشمس، فقال عز من قائل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ثم ذكرهم بنعمه هداية لهم بعد الضلال الذي كانوا فيه وانتدابهم إلى شكره، وذلك بالإكثار من ذكره، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

ثم أمرهم بالمساواة في الوقوف بعرفة والإفاضه منها فليقفوا كلهم بعرفات، وليفيضوا جميعًا منها.

٣ - وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

[آل عمران: ٩٦، ٩٧]

◈ والشاهد: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

◈ والمعني: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فإنه متضمن الرد على اليهود الذين قالوا: إن بيت المقدس هو أول قبلة شرع للناس استقبالها فلِمَ يعدل محمد ﷺ وأصحابه عنها إلى استقبال الكعبة؟ وهي متأخرة الوجود فأخبر تعالى: أنه أول بيت وضع للناس هو الكعبة لا بيت المقدس وأنه جعله مباركًا يدوم بدوام الدنيا والبركة لا تفارقه فكل من يلتمسها بزيارته، وحجه والطواف به يجدها ويحظى بها، كما جعله هدى للعالمين، فالمؤمنون يأتون حجاجًا وعماراً فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية، والمصلون في مشارق الأرض ومغاربها يستقبلونه في صلاتهم، وفي ذلك من الهداية للحصول على الثواب وذكر الله والتقرب إليه أكبر هداية، ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ يريد في المسجد الحرام دلائل واضحات منها مقام إبراهيم

وهو الحجر الذي كان يقوم عليه أثناء بناء البيت، حيث بقي أثر قدميه عليه، مع أنه صخرة من الصخور، ومنها زمزم والحجر والصفا والمروة، وسائر المشاعر كلها آيات ومنها الأمن التام لمن دخله فلا يخاف غير الله تعالى: **﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾** ثم إن الأمن له، والعربُ يعيشون في جاهلية جهلاء وفوضى لا حدَّ لها. ولكن الله جعل في قلوبهم حرمة الحرم وقدسيته ووجوب أمن كل من يدخله ليحجه أو يعتمره، **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾**. لما ذكر تعالى البيت الحرام وما فيه من بركات وهدايات وأيات ألزم عباده المؤمنين به وبرسوله ﷺ، بحجه ليحصل لهم الخير والبركة والهداية ففرضه بصيغة **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾** وهي أبلغ صيغ الإيجاب واستثنى العاجزين بسبب مرض أو خوف أو قلة نفقة، وهم ذوو الأعذار.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي ـ رضي الله عنه ، قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو بعرفة، فجاء ناس أو نفر من أهل نجد فأمروا رجلاً فنادى رسول الله ﷺ: كيف الحج؟ فأمر رسول الله ﷺ رجلاً فنادى: الحج يوم عرفة، من جاء قبل صلاة الصبح من ليلة جمع فتم حجه، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه». [رواه أبو داود والترمذي]

٢ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ «وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح فقال اذبح ولا حرج، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي. قال: ارم ولا حرج، فما سئل النبي ﷺ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج». [متفق عليه]

٣ ـ قال الرسول ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» قيل ومابره؟ قال: إطعام الطعام وطيب الكلام». [رواه أحمد]

٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: وقت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام: الجحفة، ولأهل نجد: قرن المنازل، ولأهل اليمن: يلملم، فهن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فمهله من أهله، وكذاك، حتى أهل مكة يهلون منها». [متفق عليه]

٥ ـ وتلبية رسول الله ﷺ: «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الحج والعمرة، قصد بيت الله بنية وإحرام من الميقات وعدم قرب الطيب والمخيط والنساء.

وهما ينفيان الفقر كما ينفى الكير الخبث.

ودعا أعرابي بمكة: اللهم لا تمنعني خير ما عندك بسوء ما عندي، وإن كنت لم تقبل تعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصاب على المصيبة.

* * *

١٤ مكارم الصدق

هو استواء السر والعلانية والظاهر والباطن بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ والصدق ثلاثة: قول وعمل وحال.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقيته. كما فعل أبو بكر رضي الله عنه.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء (مدخل صدق ومخرج صدق، ولسان صدق، وقدم صدق، ومقعد صدق) هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩]

◈ **والشاهد**: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

◈ **والمعنى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ باتباع أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم، وهم صادقون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم تكونوا مع الصادقين في الآخرة مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وسائر النبين والصديقين والشهداء والصالحين.

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠].

◈ والشاهد: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

◈ والمعنى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾. من رحمتنا وجعلنا ﴿لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾. وقوله تعالى عنهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾. هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله، حيث جعل الله تعالى لهم لسان الصدق في الآخرة فسائر أهل الأديان الإلهية يثنون على إبراهيم وذريته بأطيب الثناء وأحسنه وهو لسان الصدق العلي الرفيع الذي حظي به إبراهيم وولداه إكرامًا من الله تعالى وإنعامًا عليهم جزاء صدق إبراهيم وصبره وبالتالي هجرته للأصنام وعابديها.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦].

◈ والشاهد: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾.

◈ والمعنى: أي الذين يؤمنون بيوم القيامة للبعث والجزاء وبالتالي حدث لهم الإشفاق والخوف من عذاب الله عند عروض خاطر المعصية بترك واجب أو فعل محرم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب. وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا. ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة. والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ـ ورؤيا تحزين من الشيطان. ورؤيا

مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس». [متفق عليه]

٢ ـ قال الرسول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا».

[متفق عليه]

٣ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ في حديث الحج المشهور، قال: فلما قدمنا أمرنا النبي ﷺ أن نحل، وقال: «أحلوا وأصيبوا من النساء» قال جابر ولم يعزم عليهم، ولكن أحلهن لهم، فبلغه أنا نقول لما لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس أمرنا أن نحل إلى نسائنا، فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المذي قال: ويقول جابر بيده هكذا وحركها، فقال رسول الله ﷺ: قد علمتم أني أتقاكم لله وأصفاكم وأبركم ولولا هديي لحللت كما تحلون فحلوا، فلو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت. فحللنا وسمعنا وأطعنا». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الصدق مطابقة الظاهر والباطن والسر والعلانية، وعلامته طمأنينة القلب إليه.

وهدايته إلى البر والجنة وفيه النجاة، وأنه يؤثر في القلب، وفيه صحبة النبيين والشهداء.

١٥ مكارم الأمانة

الأمانة كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الدين، وآكدها الودائع، وآكد الودائع كتم الأسرار.

قال النيسابوري. في هامش الطبري: الأمانة هي الطاعة وهي التكليف، ثم ذكر أن التكليف هو الأمر بخلاف ما في الطبيعة، وهذا النوع ليس في السموات والأرض والجبال [(ألا وهو الاختيار) فليس للسموات والأرض اختيار واختار آدم الاختيار للمخلوق عليه من الطاعة الفطرية فبذلك كان ظلومًا جهولاً، واختارت الكائنات عدم الاختيار فارتاحت من عناء الحساب على الاختيارات] لأن السموات لا يطلب منها الهبوط، والأرض لا يطلب منها الصعود ولا الحركة، والجبال لا يطلب منها السير، وكذلك الملائكة مهتمون بالتسبيح والتقديس.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

◆ الشاهد: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

◆ والمعنى: لما أمر الله تعالى بالإشهاد والكتابة في البيوع والسَلَم والقروض في الآيات السابقة، أمر هنا ـ عند تعذر الكتابة لعدم وجود كاتب أو أدوات الكتابة ـ بالرهن، وذلك بأن يضع المدين رهنًا لدى دائنه، عوضًا عن الكتابة يستوثق به دينه، هذا في حال عدم ائتمانه والخوف منه، وأما إن أمن بعضهم بعضًا فلا بأس بعدم الارتهان.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

◆ والشاهد: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

◆ والمعنى: لا تخونوا بإظهار الإيمان والطاعة، ومخالفتهما في الباطن وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون عظيم جريمة الخيانة وآثارها السيئة على النفس والمجتمع.

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧-١٨].

◆ الشاهد: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

◆ والمعنى: ادفعوا إليّ عباد الله بني إسرائيل وأرسلوهم معي، إني لكم رسول أمين: أي رسول الله إليكم أمين على وحيه ورسالته.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إن الله يبغض الفحش والتفحش، والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يخون الأمين ويؤتمن الخائن حتى يظهر الفحش والتفحش. وقطيعة الأرحام وسوء الجوار والذي نفس محمد بيده إن مثل المؤمن لكمثل القطعة من الذهب، نفخ عليها صاحبها فلم تغير ولم تنقص، والذي نفس محمد بيده إن مثل المؤمن لكمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيباً ووقعت فلم تكسر ولم تفسد»، قال وقال: «ألا إن لي حوضاً ما بين ناحيتيه كما بين أيلة إلى مكة» أو قال: «صنعاء إلى المدينة، وإن فيه من الأباريق مثل الكواكب، هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل. من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً». [رواه أحمد وابن ماجه]

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث. فقال بعض

القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: «أين أراه السائل عن الساعة؟ قال هأنا يارسول الله. قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». [رواه البخاري]

٣ - عن أبي زرارة عدي بن عميرة الكندي - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة، قال فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله اقبل عني عملك، قال: وما لك؟ قال سمعتك تقول كذا، وكذا قال: وأنا أقول الآن. من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عن انتهى.

والخلاصة

أن الأمانة خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وفي الأمانة:

١ - حب الناس وحب الله ، وهي محور الدين، وهي الخلق الذي إن لم يتصف به الإنسان فليس بمؤمن.

وبالأمانة تحفظ الأعراض، والأموال والأجسام، وبالأمانة قامت السموات والأرض.

* * *

١٦ مكارم الزهد

هو ترك راحة الدنيا؛ طلبًا لراحة الآخرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

والشاهد من الآية ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

قال الجزائري في تفسيره: (أي لا تتطلع ناظرًا إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنختبرهم فيه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي ما لك عند الله من أجر ومثوبة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خيرٌ في النوع وأبقى في المدة، واختيار الباقي على الفاني مطلب العقلاء.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

والشاهد من الآية ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾.

وإذا سمع المؤمنون أولئك من أهل الكتابين اللغو من سفهاء الناس أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ،ولا إلى قائله وأجابوا قائلين ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي نتائجها حيث نجزى بها و﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، اتركونا إنا ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ لما في ذلك من الأذى والضرر الناتج عن سلوك أهل الجهل بالله تعالى ومحابّه ومكارهه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك» [رواه ابن ماجة وصححه الألباني].

٢ - وقال ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة» [رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم].

٣ - وعن عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت.

[رواه مسلم: ٢٩٥٨]

والخلاصة

كما أجملها الإمام الغزالي - رحمه الله - الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها إلى ما هو خير منها، علمًا بأن المتروك حقير بالإضافة إلى المأخوذ [بستان العارفين: ٤٢].

* * *

١٧ مكارم الرضا

«هو سرور القلب بمر القضاء».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه ـ لاسيما إذا قام بواجبها ومستحبها ـ فإن الله يرضى عنه، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله، كما قال في الحديث الذي رواه البخاري: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته... الحديث.

وذلك أن الرضا نوعان:ـ

أحدهما الرضا بفعل ما أُمر به وترك ما نهى عنه، ويتناول ما أباحه الله من غير تعد محظور.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩].

وهذا الرضا واجب، ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [االتوبة:٥٨،٥٩].

النوع الثاني: الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل، فهذا رضًا مستحب في أحد قوليّ العلماء وليس بواجب، وقد قيل: واجب والصحيح أن الواجب هو الصبر. [من الفتاوي ١٠/ ٦٨١-٦٨٣]

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

والشاهد: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

قال صاحب أيسر التفاسير: إن الرجل المؤمن الذي تضمنته هذه الآية هو صهيب بن سنان الرومي أبو يحيى، إذ المشركون لما علموا به أنه مهاجر إلى المدينة ليلحق بالرسول ﷺ وأصحابه قالوا: لن تذهب بنفسك ومالك لمحمد ﷺ فلن نسمح لك بالهجرة إلا إذا أعطيتنا مالك كله فأعطاهم كل ما يملك وهاجر فلما وصل المدينة ورآه رسول الله ﷺ قال له: «ربح البيع أبا يحيى ربح البيع» والآيات وإن نزلت في صهيب رضي الله عنه لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فصهيب مثل الخير والكمال لكل من يتصف بصفاته.

وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

والشاهد قوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

قال الجزائري في أيسر التفاسير في تفسير هذه الآية: يهدي به الله تعالى من اتبع رضوانه وذلك بالرغبة الصادقة في الحصول على رضوان الله عز وجل بواسطة فعل مَحَابّه وترك مَسَاخِطه من كل معتقد وقول وعمل يهديه به سبل السلام أي طرق السعادة والكمال.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين: حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجلاً من قريش المئة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر بدمائهم، قال أنس: فحدث بذلك رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى

الأنصار فجمعهم في (قبة من أدم) فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديثٌ بلغني عنكم فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثةٌ أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟، فقال رسول الله ﷺ: إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به». فقالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا قال: فإنكم ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض، قالوا: سنصبر.

[رواه البخاري ومسلم واللفظ له]

٢ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» [رواه مسلم].

والخلاصة

جمعها ابن القيم في مدارج السالكين بعد أن ساق حديثين:ـ

الأول:ـ قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً».

والثاني:ـ قوله: «من قال حين يسمع النداء رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً غفرت له ذنوبه».

قال رحمه الله: الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربع فهو الصديق حقًا، وهي

سهلة بالدعوى باللسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان.

ويستمر رحمه الله قائلاً: فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه.

والرضا بنبيه رسولاً يتضمن تمام الانقياد به والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه.

وأما الرضا بدينه فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى رضي كل الرضا ولم يَبْقَ في قلبه حرج من كلمة وسلم له تسليماً ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواه أو قول مقلده أوشيخه وطائفته.

* * *

١٨ مكارم الكرم

هو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النفع (كما في تهذيب الأخلاق).

قال الجرجاني في التعريفات: هو إفادة ما ينبغي لا لغرض فمن يهب المال لغرض جلبًا للنفع، أو خلاصًا عن الذم فليس بكريم، فالكريم من يوصل النفع بلا عوض.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]

◈ **والشاهد من الآية ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.**

◈ **والمعنى:** إن كانت علة هذا التكذيب من هؤلاء المشركين هي إنكارهم للبعث والجزاء ـ وهو كذلك ـ فلِمَ لا ينظرون إلى الأرض الميتة بالقحط ينزل الله تعالى عليها ماءً من السماء فتحيا به بعد موتها؟ فينبت الله فيها من كل زوج أي صنف من أصناف النباتات كريم أي حسن، أليس في ذلك آية على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم للحساب والجزاء؟ فلِمَ لا ينظرون؟.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

◈ **والشاهد: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.**

◈ **والمعنى:** لما حرم الله تعالى الشرك ونهى عنه رسوله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أمر بالتوحيد فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي حكم

وأمر ووصى ألا تعبدوا إلا إياه أي بألا تعبدوا إلا الله عز وجل وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأوصى بالوالدين وهما الأم والأب إحسانًا وهو برهما وذلك بإيصال الخير إليهما وكف الأذى عنهما، وطاعتهما في غير معصية الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي إن يبلغ سن الكبر واحد منهما الأب أو الأم أو يكبران معًا وأنت حي موجود بينهما في هذه الحال يجب أن تخدمهما خدمتهما لك وأنت طفل فتغسل بولهما وتطهر نجاستهما وتقدم لهما ما يحتاجان إليه ولا تتضجر أو تتأفف من خدمتهما كما كانا هما يفعلان ذلك معك وأنت طفل تبول وتخرأ وهما يغسلان وينظفان ولا يتضجران أو يتأففان ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أي جميلاً سهلاً لينًا يشعران معه بالكرامة والإكرام لهما (١).

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «أنا أول الناس خرجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر». [رواه الترمذي وقال حسن غريب في الصحيح ومعناه]

٢ - وقال الرسول ﷺ: «إن الكريم يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها».

[رواه الحاكم وصححه العراقي]

٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قيل للنبي ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم، قالوا يانبي الله ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: أفعن معادن العرب تسألونني؟ قالوا: نعم، قال: فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». [رواه البخاري ومسلم]

(١) أيسر التفاسير ص: ٧٩٨.

والخلاصة

كما لخصها الإمام الغزالي وهو يفسر اسم الله الكريم يقول: والكريم من أسماء الله تعالى، هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب، ولا يضيع من لاذ به والتجأ ويغنيه عن الوسائط والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق وذلك لله سبحانه فقط.

* * *

١٩ مكارم الجود

الجودة إفادة ما ينبغي لا لعوض ولا لغرض.

وقال الجرجاني: الجود صفة مبدأ إفادة ما ينبغي لا لعوض، فلو وهب واحد كتابه (لمن هو) من غير أهله أو من أهله لغرض دنيوي أو أخروي لا يكون جواداً.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

والشاهد من الآيات قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ﴾.

والمعنى: أن الله تعالى يحب من عبده أن يعبده ويشكره ليكرمه في دار كرامته يوم لقائه، وإعلام الله تعالى عباده بأنه بالمرصاد يراقب أعمالهم دلالته على أنه يخوفهم من معاصيه، ويرغبهم في طاعته واضحة، فتلخص من ذلك أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر وأنه يحب لهم الشكر فأما الإنسان فماذا يحب وماذا يكره.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ﴾ [وهو المشرك وأكثر الناس مشركون] ﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ [أي اختبره] ﴿رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ [بالمال والولد والجاه ونعمه بالأرزاق والخيرات لينظر الله هل يشكر أو يكفر] ﴿فَيَقُولُ﴾ مفاخراً ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [أي فضلني على غيري لما لي من فضائل ومزايا لم تكن لهؤلاء الفقراء] ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ﴾ [ضيق] ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [لينظر الله تعالى هل يصبر العبد المختبر أو يجزع] ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [أي أذلني فأفقرني].

وقوله تعالى ﴿كَلَّا﴾ لا فارتدعوا أيها المكابرون الذين يقيسون الأمور كلها بمقاييس المادة.

فالله جل جلاله يوسع الرزق؛ اختباراً للعبد هل يشكر نعم الله عليه فيذكرها ويشكرها بالإيمان والطاعة. ويضيق الرزق امتحانًا هل يصبر العبد لقضاء ربه أو يجزع، وإنما أنتم أيها الماديون ترون أن في التوسعة إكرامًا وفي التضييق إهانة، كلا ليس الأمر كذلك، ونظريتكم المادية هذه أتتكم من حبكم الدنيا واغتراركم، بها ويشهد بذلك إهانتكم لليتامى وعدم إكرامهم لضعفهم وعجزهم أمامكم وعدم الاستفادة المادية منهم، وشاهد آخر أنكم لا تحضون أنفسكم ولا غيركم على طعام المساكين وهم جياع أمامكم(١).

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

◆ **والشاهد من الآيات** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي جاد بما عنده.

◆ **والمعنى**: فأما من أعطى حق الله في المال فأنفق وتصدق في سبيل الله واتقى الله تعالى فآمن به وعبده ولم يشرك به(٢).

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «هل منكم من أحد أطعم اليوم مسكينًا؟ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: دخلت المسجد فإذا أنا بسائل يسأل، فوجدت كسرة خبز في يد عبد الرحمن فأخذتها منه فدفعتها إليه». [رواه أبو داود]

٢ ـ وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يومًا

(١)، (٢) أيسر التفاسير.

فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقك في شيء أبداً». [رواه أبو داود وحسّنه الألباني]

والخلاصة

أن الجود إفادة ما ينبغي لا لغرض ولا عوض كما كان يفعل ﷺ كما وصفته عائشة رضوان الله عليها كان أجود ما يكون في رمضان، وأعلى الجود الجود بالنفس كما قال الشاطبي في الموافقات.

* * *

٢٠ مكارم الرجاء

تأمل الخير وقرب وقوعه.

قال ابن القيم - رحمه الله - الرجاء وهو النظر إلى سعة رحمة الله.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

◈ **والشاهد من الآية:** ﴿وَتَرْجُونَ﴾.

◈ **والمعنى:** لا تضعفوا في طلب العدو لإنزال الهزيمة به، ولا تتعللوا في عدم طلبه بأنكم تألمون لجراحاتكم ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ من النصر والمثوبة العظيمة ﴿مَا لا يَرْجُونَ﴾ فأنتم أحق بالصبر والجلد والمطالبة بقتالهم حتى النصر عليهم.

٢ - وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

◈ **الشاهد:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو﴾.

◈ **والمعنى:** يأمل وينتظر لقاء ربه؛ خوفًا منه وطمعًا فيه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو مؤمن موقن ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، فإن الشرك محبط للعمل مبطل له، وبهذا يكون رجاؤه صادقًا وانتظاره صالحًا صائبًا.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟» قال فسكتوا: فقال ذلك ثلاثًا، فقال رجل: بلى. يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا، قال: «خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره؛ وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره».

[رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]

٢ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة». [رواه الترمذي وقال: حسن]

والخلاصة

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ الرجاء هو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه: البر المحسن فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم، والمعرفة بالله: هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات(١).

(١) مدارج السالكين ١/٤٣ ـ ٤٤.

٢١ مكارم الورع

هو ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأشق.

قال الراغب: الورع عبارة عن ترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا. وقال ابن تيمية: هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو ما يعلم تحريمه وما يشك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله وكذلك الاحتيال بفعل ما يشك في وجوبه لكن على هذا الوجه(١).

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

◈ والشاهد من الآية ﴿تَذَكَّرُوا﴾.

◈ والمعنى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى ربهم فلم يشركوا به أحداً ولم يفرطوا في الواجبات ولم يغشوا المحرمات هؤلاء ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ بأن نزغهم بالإثارة من غضب أو شهوة تذكروا أمر الله ونهيه ووعده ووعيده، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ يرون قبيح المعصية وسوء عاقبة فاعلها فكفوا عنها ولم يرتكبوها.

٢ - وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

◈ والشاهد: قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

---

(١) الفتاوى ١٠/٥١١-٥١٢.

والمعنى: هذه الآية نزلت لما قال أصحاب الرسول ﷺ: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾ وهو القرآن ﴿**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**﴾ أى يشبه بعضه بعضًا فى حسن اللفظ وصحة المعانى، ﴿**مَّثَانِيَ**﴾ أى يثنى فيه الوعد والوعيد والأمر والنهي والقصص، ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ أي عند سماع آيات الوعيد ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ**﴾ عند سماع آيات الوعد وتطمئن قلوبهم إذا سمعن الأدلة والحجج والبراهين ﴿**إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ أي القرآن وذكر الله بوعده ووعيده وأسمائه وصفاته.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع».

[الحاكم وقال على شرطهما ووافقه الذهبي]

٢ - عن وابصة بن معبد صاحب رسول الله ﷺ قال: جئتُ إلى رسول الله ﷺ أسأله عن البر والإثم، فقال: «جئت تسأل عن البر والإثم؟». قلت والذي بعثك بالحق ما جئتك أسألك عن غيره، فقال: «البر ما انشرح له صدرك والإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك عنه الناس» [رواه أحمد (٤/٢٢٧)]

والخلاصة

ما نقله ابن القيم رحمه الله عن شيخه ابن تيمية رحمه الله قال: تمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية فقد يدع

واجبات ويفعل محرمات ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعًا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة العباد وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق ـ الذي يجب سماعه ـ من الورع[1].

* * *

(١) الفوائد ١٠/٥١٢ .

٢٢ مكارم البشاشة

البشاشة طلاقة الوجه، أو هي سرور يظهر في الوجه يدل به على ما في القلب من حب اللقاء والفرح بالمقابلة.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

[القيامة: ٢٢، ٢٣]

والشاهد: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾.

والمعنى: قال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ أي مضيئة مشرقة لأن أرواح أصحابها كانت في الدنيا مشرقة بنور الإيمان وصالح الأعمال.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

والشاهد: كلمة ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

والمعنى: تعرف حسنه وبريقه وتلألؤه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم».

[رواه ابن ماجة وقال في الزوائد صحيح]

٢ ـ وقال ﷺ: «كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك» [رواه الترمذي وقال حسن وأصله عند البخاري]

والخلاصة

كما قال ابن مفلح ـ رحمه الله تعالى ـ على المسلم أن ينزه نفسه عن كل وصف مذموم شرعًا أو عقلاً أو عرفًا كـ (غل وحقد وحسد ونكد وغضب وعجب وخيلاء ورياء وهوى وغرض سوء وقصد رديء ومكر وخديعة) ومجانبة كل مكروه لله تعالى، وإذا جلست مجلس علم أو غيره فاجلس بسكينة ووقار وتَلَقَّ الناسَ بالبشرى والاستبشار(١).

* * *

(١) الآداب الشرعية (٣/٥٥٦).

٢٣ مكارم حسن الخلق

هو سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال.

◈ قال الغزالي - رحمه الله - في الإحياء: الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [ن: ٤].

◈ **والشاهد**: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

◈ **والمعنى**: هذا أيضًا داخل في حيز المقسم عليه وهو أن النبي محمداً ﷺ لعلى خلق عظيم، أي أدب عظيم؛ حيث أدبه ربه، فكيف لا يكون أكمل الخلق أدبًا وسيرةً؟ وما خوطب به في القرآن من مثل ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، ومثل ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ ومثل ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ إلى غير ذلك من الآداب الرفيعة التي أدب الله بها رسوله مما جعله أكمل الناس أدبًا وخلقًا - وقد سئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، وقال هو عن نفسه أدبني ربي فأحسن تأديبي، وقال: «إنما بعثت لأكمل مكارم الأخلاق».

٢ - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٤].

والشاهد: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

والمعنى: بشر الله تعالى أهل الإيمان بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. ثم ثنى بالبشرى الثانية فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. وهذه ثلاثة شروط:

١ ـ دعوته للحق (إلى الله تعالى).

٢ ـ عمل الصالحات.

٣ ـ فاخر بالإسلام معتزاً به.

ويدخل في هذا أولاً: الرسل، وثانيًا: العلماء، وثالثًا: المجاهدون، ورابعًا: المؤذنون، وخامسًا: الدعاة الهداة المهديون.

وقال ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ هذا تقرير إلهي يجب أن يعلم وهو أن الحسنة لا تستوي مع السيئة وأن السيئة لا تستوي مع الحسنة؛ فالإيمان لا يساوى بالكفر، والتقوى لا تساوى بالفجور، والعدل لا يساوى بالظلم.

كما أن جنس الحسنات لا يتساوى، وجنس السيئات لا يتساوى، بل يتفاضل؛ فصيام رمضان لا يتساوي بصيام رجب أو محرم تطوعًا، وسيئة قتل المؤمن لا تستوي مع شتمه أو ضربه، وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. أي بعد أن عرفت يا رسولنا عدم تساوي الحسنة مع السيئة إذًا فادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن من غيرها ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ قد انقلب في بره بك واحترامه لك واحتفائه بك كأنه ابن عم لك يحبك ويحترمك ولما كانت هذه الخصلة وهي الدفع بالتى هي أحسن لا تتأتى إلا لذوي الأخلاق الفاضلة والنفوس الكاملة الشريفة.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله ـ عز وجل ـ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشمه وظلمه. ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إن الله ـ عز وجل، لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث.». [رواه احمد]

٢ ـ وقال الرسول ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد». [رواه مسلم]

٣ ـ عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم بها لله».

[متفق عليه]

والخلاصة

أن حسن الخلق هو نتاج حسن الباطن وهو البشاشة في اللقاء وبذل المعروف وكف الأذى.

وفيه كثرة الحياء ـ وقلة الأذى، وكثرة الإصلاح، وصدق اللسان، وقلة الكلام، وكثرة العمل، وقلة الزلل، قلة الفضول ويصير وصّالاً، بارًا وقورًا صبورًا شكورًا، رضيًا حليمًا، رفيقًا عفيفًا شفيقًا، وليس خلاف ذلك.

٢٤ مكارم التبتل

هو الانقطاع إلى الله في العبادة وإخلاص النية انقطاعًا يختص به ـ أو هو الانقطاع عن النكاح.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: التبتل يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً، لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس، المزاحمة لمراد الرب منه، وعن التفات قلبه إلى سوى الله، خوفًا منه، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكرًا فيه، بحيث يشغل قلبه عن الله.

والاتصال: لا يصح إلا بعد الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حبًّا وخوفًا ورجاءً، وإنابة وتوكلاً(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٨].

والشاهد: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾.

والمعنى: دم على ذكره ليلاً ونهاراً على أي وجه من تسبيح وتهليل وتحميد وانقطع إليه في العبادة وفي طلب الحاجة وفي كل ما يهمك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

والشاهد: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

والمعنى: يخبر تعالى رسوله بأنه تعالى مالك السموات والأرض وما بينهما والمتصرف فيهما فكل شيء له بيده وفي قبضته، وعليه فاعبده أيها الرسول بما أمرك واصطبر وتحمل لها المشاق فإنه لا إله إلا هو.

---

(١) مدارج السالكين ٣١.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أُذن له لاختصينا. [رواه البخاري ومسلم]

وهذا في شأن التبتل المذموم.

ومن أقوال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ قال: أخلص له إخلاصًا. [رواه الطبراني]

والخلاصة

يقول العلامة النيسابوري: فصّل المولى أشرف الأعمال عند قيام الليل في شيئين: ذكر اسم الرب، والتبتل إليه والانقطاع إلى الله بالكلية، والأول مقام السالك والثاني مقام المشاهد، فالأول كالأثر والثاني كالعين(١).

* * *

(١) غرائب القرآن ـ هامش الطبري ٢٩/ ٧٠.

٢٥ مكارم البكاء

هو إراقة الدموع من أثر الخوف من الله أو للتعبير عن حزن في الفؤاد.

وقد ذهب العلماء إلى القول بأن البكاء إنما يكون عند تلاوة القرآن، يقول القرطبي: ينبغي لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة: «ألم» تنزيل قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك وإن قرأ «خروا سجداً وبكيًا» قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك»(١).

١ - قال الله تعالى: ﴿قُلْ آمنُوا به أَوْ لا تُؤْمنُوا إنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ من قَبْله إذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأَذْقَان سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

◆ **والشاهد**: ﴿وَيَخِرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُونَ﴾.

◆ **والمعنى**: عندما يسمعون القرآن لا يسجدون فحسب بل يخرون يبكون ويزيدهم سماع القرآن وتلاوته خشوعًا في قلوبهم واطمئنانًا في جوارحهم؛ لأنه الحق سمعوه من ربهم.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]

◆ **والشاهد**: قوله تعالى: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾.

◆ **والمعنى**: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ في الدنيا بما يحصل لهم من مسرات ظاهراً ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ في الآخرة، يوم القيامة لما ينالهم من الحرمان والعذاب، وذلك كان ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الشر والفساد.

---

(١) تفسير القرطبي ١١/٨١.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «طوبى لمن ملك نفسه ووسعه بيته وبكى على خطيئته».

[رواه الطبراني في الأوسط والصغير وحسن إسناده]

٢ - وقال ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم».

[الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه]

٣ - وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فبماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم ير اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ».

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وأبو دواود وابن ماجه]

والخلاصة

كما استخلصها يزيد بن ميسرة: والبكاء من سبعة أشياء: البكاء من الفرح، والبكاء من الحزن، والفزع، والرياء، والوجع، والشكر، وبكاء من خشية الله، فذلك الذي تطفئ الدمعة منها أمثال البحور من النار(١).

* * *

(١) رواه ابن نعيم في الحلية ١٠/١١٨.

٢٦ مكارم العلم

هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، قال الكفوي: المعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك ولهذا المعنى متعلق هو المعلوم، وله تابع في الحصول يكون وسيلة إليه في البقاء وهو الملكة، وقد أطلعه لفظ العلم على كل منها إما حقيقة عرفية، أو اصطلاحية أو مجازاً مشهورة؛ وقال في موضع آخر: العلم يقال لحصول صورة الشيء عند العقل وللاعتقاد الجازم الثابت والإدراك الكلي والإدراك المركب.

١ - قال الله عز وجل: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٩].

والشاهد قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فمن أدلة وجوده سبحانه، الإحياء بعد الموت، والإماتة بعد الإحياء، ومن أدلة كرمه وقدرته أن خلق الناس في الأرض جميعًا لتوقف حياتهم عليه، وخلق السموات السبع، وهو مع ذلك كله علمه محيط، بكل شيء سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

٢ - وقال تعالى: **﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾** [الأنعام: ٣].

والشاهد: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

والمعنى: يخبر تعالى أنه المعبود بحق في السموات وفي الأرض لا إله غيره ولا رب سواه **﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾** من خير وشر، فهو تعالى

(١) الكليات ٦١١.

فوق عرشه، بائن من خلقه، ويعلم سر عباده وجهرهم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرهبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإنابة إليه وعبادته والتوكل عليه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». [رواه مسلم ١٦٣١]

٢ ـ وقال ﷺ: «ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ـ أو كلمة نحوها ـ وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء».

[رواه الترمذي ٢٣٢٥، وأصله في مسلم]

والخلاصة

قال ابن الجوزي - رحمه الله - في بيان العلم الذي هو فريضة على كل مسلم: اختلفت عبارات الناس في بيان العلم المفروض، والصحيح أن يقال: هو علم معاملة العبد لربه وهو يدخل في باب الاعتقاد والأفعال.

وهذا العلم المفروض ينقسم إلى قسمين: فرض عين: وهو ما يتعين وجوبه على الشخص من توحيد الله ومعرفة أوامره وحدوده في العبادات والمعاملات التي يحتاج إليها، وفرض كفاية: وهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام الدنيا. كالطب والحساب وأصول الصناعات، وكالفلاحة والحياكة والحجامة، فلو خلا البلد عَمَّن يقوم بهذه العلوم والصناعات أثم أهل البلد جميعًا، وإذا قام بها واحد فقط وكفاهم سقط الإثم عن الباقين، والتعمق في مثل هذه العلوم يعد فضلة، لأنه يستغنى عنه.

ومن العلوم ما يكون مباحًا، كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، ومنها ما يكون مذمومًا، كعلم السحر والطلسمات. وأما العلوم الشرعية فكلها محمودة، وتنقسم إلى: أصول، فروع، مقدمات ومتممات(١).

* * *

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة.

٢٧ مكارم الاعتبار

هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالاتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها.

وقيل الاعتبار هو التدبر وقياس ما غاب على ما ظهر.

قال الجرجاني: الاعتبار: أن يرى الدنيا للفناء، والعاملين فيها للموت، وعمرانها للخراب، وقيل: الاعتبار: اسم من العبرة، وهي رؤية فناء الدنيا كلها باستعمال النظر في فناء جزئها(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦].

والشاهد: ﴿لَعِبْرَةً﴾.

والمعنى: أي حالاً تعبرون بها من الجهل إلى العلم.. من الجهل بقدرة الله ورحمته ووجوب عبادته بذكره إلى العلم بذلك والمعرفة به، فتؤمنوا وتوحدوا وتطيعوا، وبيّن وجه العبرة العظيمة فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي بطون الذكور من الأنعام من بين فرث ودم لَبَنًا فسبحان ذي القدرة العجيبة والعلم الواسع والحكمة التي لا يقادر قدرها؛ اللبن يقع بين الفرث والدم، فينتقل الدم إلى الكبد فتوزعه على العروق لبقاء حياة الحيوان، واللبن يساق إلى الضرع والفرث يبقى أسفل الكرش، ويخرج اللبن خالصًا من شائبة الدم وشائبة الفرث، فلا يرى ذلك في لون اللبن، ولا يشم في رائحته، ولا يوجد في طعمه؛ بدليل أنه سائغ للشاربين، فلا يغص به شارب ولا يشرق به، حقًّا! إنها

(١) التعريفات ٣٠.

عبرة من أجلّ العبر تنقل صاحبها إلى نور العلم والمعرفة بالله في جلاله وكماله، فتورثه محبة الله وتدفعه إلى طاعته والتقرب إليه.

٢ - وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[يوسف: ١١١].

والشاهد: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

والمعنى: أي كان في قصص الرسل مع أممهم بذكر أخبارهم وتلبيات أحوالهم من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين عبرة يعتبر بها المؤمنون فيثبتون على إيمانهم ويواصلون تقواهم لربهم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون. تُصُدِّق الليلة على زانية. قال اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون، تُصُدِّق على غني، قال الحمد لله على غني، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق. فأصبحوا يتحدثون، تُصُدِّق على سارق. فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق. فأتى. فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت. أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها - ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته».

[رواه مسلم ١٠٢٢]

٢ - وقال ﷺ: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإن فيها عبرة».

[رواه أحمد والحاكم]

والخلاصة

قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله أن من مال إلى العاجلة، وآثر الحياة الدنيا، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده، ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرد قوله، وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة.

والطريق الثاني: أن يعرف أن الأبقى هو أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين(١).

* * *

(١) الإحياء ٤/٤٢٥-٤٢٦.

٢٨ مكارم داوم الذكر

هو قول سبحان الله وفي التنزيل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

قال ابن حجر: التسبيح يعني قول سبحان الله، ومعناه: تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص، فيلزم نفي الشريك، والصاحبة والولد وجميع الرذائل؛ ويطلق التسبيح ويراد به جميع ألفاظ الذكر وجماع معناه.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

◈ **والشاهد** ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

◈ **والمعنى**: قال أبو إسحق: قيل إن كل ما خلق الله يسبح بحمده وإن صرير السقف وصرير الباب من التسبيح، فيكون على هذا الخطاب للمشركين وحدهم ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلم لا نفقه منه إلا ما عَلَّمَنَاه، قال: وقال قوم ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي ما من دابة إلا وفيها دليل أن الله ـ عز وجل ـ خالق حكيم مبرأٌ من الأسواء ولكنكم أيها الكفار، لا تفقهون أثر الصنعة في هذا المخلوقات، وقال أبو إسحق: وليس هذا بشيء؛ لأن الذين خوطبوا بهذا كانوا مقرين بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض ومن فيهن، فكيف يجهلون الخلقة وهم عارفون بها؟ قال الأزهري: ومما يدلك على تسبيح هذه المخلوقات تسبيحًا تُعُبِّدَتْ به، قول الله ـ عز وجل ـ للجبال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]. ومعنى أوبي: سبحي مع داود النهار كله إلى الليل، ولا يجوز معنى أمر الله ـ عز وجل ـ للجبال بالتأويب إلا تعبداً لها، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

تر أنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨]. فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها.

٢ ـ وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١،٤٢].

والشاهد قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

والمعنى: هذا النداء الكريم من رب رحيم يوجه إلى المؤمنين الصادقين ليعلمهم ما يزيد به إيمانهم ونورهم، ويحفظون به من عدوهم وهو ذكر الله، فقال تعالى لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ لا حد له ولا حصر؛ إذ هو الطاقة التي تساعد على الحياة الروحية. ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ بصلاة الصبح وصلاة العصر. وبقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر دبر كل صلاة من الصلوات الخمس.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون، ولا يتغوطون ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس». [رواه مسلم ٢٨٣٥]

٢ ـ وقال الرسول ﷺ: «إن لله ـ تبارك وتعالى ـ ملائكة سيارة، فضلاً يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وصف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال: فيسألهم الله عز وجل، وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك

ويحمدونك ويسألونك. قال: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك. قال ومِمّ يستجيروني؟ قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقول: قد غفرت لهم. فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. قال: فيقولون ملك من الملائكة: رب، فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم! قال فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم». [رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم]

والخلاصة

أن التسبيح ورد في القرآن على نحو من ثلاثين وجهًا، منها للملائكة ومنها لنبينا محمد ﷺ، ومنها لغيره من الأنبياء، ومنها للحيوانات والجمادات، ومنها للمؤمنين خاصة، ومنها لجميع الموجودات.

أما التي للملائكة:

١ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦].

٢ـ دعوة الملائكة في حال الخصومة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]

٣ـ تسبيحهم الدائم من غير سآمة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

٤ـ تسبيحهم المعرى عن الكسل ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]

٥ـ تسبيحهم المقترن بالسجدة ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٦ـ تسبيحهم المقترن بتسبيح الرعد على سبيل السياسة والهيبة ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

٧ـ أن حملة العرش والكرسي في حال الطواف بالعرش والكرسي مستغرقون في التسبيح والاستغفار ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وأما التي لنبينا محمد ﷺ :

١ـ تسبيح مقترن بسجدة اليقين والعبادة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩]

٢ـ تسبيح في طرفي النهار مقترن بالاستغفار ﴿اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

٣ـ تسبيح في بطون الدياجر والخلوة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٦].

٤ـ تسبيح في الابتداء والانتهاء حال العبادة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

٥ـ تسبيح بالطلوع والغروب لأجل الشهادة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

٦ـ تسبيح دائم لأجل الرضا والكرامة ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]

٧ـ تسبيح لطلب المغفرة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

وأما التي للأنبياء:

فالأول لزكريا علامة على ولادة يحيى ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾

[آل عمران: ٤١]

٢- في وصيته لقومه محافظة على وظيفة التسبيح ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

٣- في موافقة الجبال، والظباء والحيتان، والطيور لداود في التسبيح ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

٤- في نجاة يونس من ظلمات البحر وبطن الحوت ببركة التسبيح ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

أما التي لخواص المؤمنين:

١- أمر الله تعالى لهم بالجمع بين الذكر والتسبيح ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

٢- في ثناء الحق تعالى على قوم إذا ذكروا الله تجدهم سجدوا له وسبحوا ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

٣- في أناس يتخذون في المساجد مجالس ويواظبون على التسبيح والذكر ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]

أما التي في الحيوانات والجمادات:

١ـ في أن كل نوع من الموجودات مشتغل بنوع من التسبيحات **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾** [الإسراء: ٤٤].

٢ـ في أن الطيور في الهواء مصطفة لأداء ورد التسبيح **﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾** [النور: ٤١].

وأما التي للعامة:

١ـ على العموم في تسبيح الحق على الإحياء والإماتة **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** [الحديد: ١، ٢].

٢ـ في أن كل شيء في تسبيح الحق على إخراج أهل الكفر وإزعاجهم **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾** [الحشر: ١، ٢].

٣ـ أن الكل في التسبيح، ومن خالف فعله مستحق للذم والشكاية **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾** [الصف: ١، ٢].

٤ـ في أن التسبيح للقدس والطهارة **﴿سَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾** [الجمعة: ١].

٥ـ في أن الكل في التسبيح على تحسين الخلقة والصورة.

٦ـ في الملامة والتعيير من أصحاب ذلك النسيان بعضهم لبعض من جهة التقصير في تسبيح الحق تعالى.

٢٩ مكارم ترتيل القرآن

ويراد بترتيل القرآن: تلاوته تلاوة تبين حروفها ويتأنى في أدائها ليكون أدنى إلى فهم المعاني.

قال ابن حجر: يراد بترتيل القرآن تلاوته تلاوة تبين حروفها ويتأنى في أدائها ليكون (ذلك) أدنى إلى فهم المعاني.

وهو القراءة بتؤدة واطمئنان وإخراج كل حرف من مخرجه وإعطاؤه حقه ومستحقه مع تدبر المعاني.

مراتب التلاوة: ثلاث: هي

الترتيل والحدر والتدوير وأضاف بعضهم مرتبة رابعة هي التحقيق، وزاد آخرون مرتبة خامسة أطلقوا عليها (الزمزمة) وقد جاء في القرآن الكريم الحث على الترتيل خاصة وهو أفضل الأنواع.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

◈ **والشاهد قوله:** ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾.

◈ **والمعنى:** فاثبتوا على قبلتكم الحق لأتم نعمتي عليكم بهدايتكم إلى أحسن الشرائع وأقومها، ولأهيئكم لكل خير وكمال مثل ما أنعمت عليكم بإرسال رسولي ﷺ يتلو عليكم آياتي ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

◈ والشاهد أيضًا ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾.

◈ **والمعنى**: يمن الله على العرب وبالأخص المؤمنين ببعثه الرسول ﷺ فيهم، يتلو عليهم آيات الله فيؤمنون ويكملون في إيمانهم ويزكيهم من أوضار الشرك وظلمة الكفر بما يهديهم به.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد. ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل. فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله. ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت لكم: سأقرأ ثلث القرآن. ألا إنها تعدل ثلث القرآن». [رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم]

٢ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم» فقرأت سورة النساء حتى أتيت على هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]. قال: «حسبك الآن»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. [متفق عليه]

والخلاصة

قول كعب ـ رضي الله عنه ـ عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وينابيع العلم وأحدث الكتب بالرحمن عهداً وقال في التوراة: (يا محمد) إني منزل عليك توراة حديثة تفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

[رواه الدارمي]

٣٠ مكارم الرحمة

هي إرادة إيصال الخير.

قال الجوهري: الرحمة: الرقة والتعطف، وتراحَمَ القومُ: رحِم بعضهم بعضًا. (الصحاح للجوهري).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

والشاهد: ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾.

والمعنى: فلولا فضل الله عليكم من أنه رحمكم وصبر عليكم لكنتم من الخاسرين.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام:١٣٣].

والشاهد: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾.

والمعنى: ﴿الْغَنِيُّ﴾ سبحانه عن كل ما سواه فغناه تعالى ذاتي ليس بمكتسب كغنى غيره ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ صاحب الرحمة العامة التي تشمل سائر مخلوقاته والخاصة بالمؤمنين من عباده.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ وقال الرسول ﷺ: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه ـ أو صاحبه ـ: يرحمك الله، فإذا قال يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم». [رواه البخاري ومسلم]

٢ ـ وقال ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي». [رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم]

والخلاصة

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس من شق عليك في إيصال مصالحك، ورفع المضار عنك. فمن رحمة الأب بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه الرحمة مقرونة بجهل ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين، تسليط أنواع البلاء على العبد، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته: من رحمته به.

* * *

٣١ مكارم اليسر

اليسر هو عمل فيه لين وسهولة وانقياد أو هو رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمر من الأمور.

قال الجوهري: يقال يسره الله لليسرى: أي وفقه لها.

١ - قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والشاهد: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾.

والمعنى: أن الله تعالى وضع أصلاً لشريعته وهو التيسير، ودرأ الحدود بالشبهات؛ فما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

٢ - وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]

والشاهد: ﴿يَسَّرْنَاهُ﴾

والمعنى: سهلناه، سهلنا قراءته عليك إذ أنزلناه بلسانك.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «اهجوا قريشًا. فإنه أشدّ عليها من رشق النبل» فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: «اهجهم» فهجاهم فلم يرض. فأرسل إلى كعب بن مالك فهجاهم فلم يرض كذلك، فأرسل إلى حسان ثابت. فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه - فجعل يحركه - فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم. فقال

رسول الله ﷺ: «فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا. حتى يلخص لك نسبي» فأتاه حسان. ثم رجع فقال: يارسول الله قد لخص لي نسبك. والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة: لحسان، إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله، وقالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى وأشفى».

فقال مما قال حسان:

وقال الله: قد يسّرت جنداً هم الأنصار عرضتها اللقاء

٢ ـ وقال ﷺ: «إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها وتيسير رحمها».

[رواه أحمد الحاكم وقال على شرط مسلم]

والخلاصة

كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: جمع الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل[1].

* * *

(١) إغاثة اللهفان ١/١٥٨.

٣٢ مكارم الشجاعة

الشجاعة هي الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف مع الاستهانة بالموت.

قال ابن حزم - رحمه الله -: هي بذل النفس للذَّوْد عن الدين أو الحريم أو عن الجار المضطهد أو عن المستجير المظلوم، وعمن هُضم ظلماً في المال والعرض، وسائر سبل الحق سواء قل من يعارض أو كثر(١).

وقال الأبشيهي - رحمه الله تعالى -: اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ومَنْ فقدها لم تكمل فيه فضيلة. ويُعبر عنها بالصبر وقوة النفس.

قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب. والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه:

والوجه الأول: إذا التقى الجمعان. وتزاحف العسكران وتكاحلت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارز.

والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت يكون رابط الجأش، ساكن القلب، حاضر اللب، لم يخالطه الدهش، ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لأموره.

والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة، ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويزجي الضعيف، ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حمله، ومن كبا به فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة.

---

(١) مداواة النفس.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

والشاهد: ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ أي لا تنهزموا أمامهم فتفروا فتولوهم أدباركم.

والمعنى: كان الحديث عن غزوة بدر، ولا يزال السياق في الحديث عن هذه الغزوة وما فيها من جلائل النعم، وفيض الحكم، ففي أولى هذه الآيات ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي أنتم وإياهم زاحفون إلى بعضكم البعض ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ أي لا تنهزموا أمامهم فتعطوهم أدباركم فتمكنوهم من قتلكم، إنكم أحق بالنصر منهم، وأولى بالظفر والغلب؛ إنكم مؤمنون وهم كافرون فلا يصح منكم انهزام أبداً.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٩]

والشاهد: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تضعفوا ولا تحسّروا.

والمعنى: لما حدث ما حدث من انكسار المؤمنين بسبب عدم الصبر والطاعة اللازمة للقيادة، ذكر الله تعالى الأحداث مقرونة بفقهها لتبقى هدى وموعظة للمتقين المؤمنين ثم ذكر من بينها ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا فتقعدوا عن الجهاد والعمل، ولا تحزنوا على ما فاتكم من رجالكم، ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون لأعدائكم المنتصرون عليهم، وذلك فيما مضى وفيما هو آت مستقبلاً بشرط إيمانكم وتقواكم.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

◈ والشاهد: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي اقتلوهم قتل الشجعان لا يهابون الموت.

◈ والمعنى: لما طهرت الجزيرة من الشرك وأصبحت دار إسلام وهذا في أخريات حياة النبي ﷺ وذلك بعد غزوة تبوك أمر الله تعالى المؤمنين بأن يواصلوا الجهاد في سبيله بعد وفاة النبي ﷺ، وأرشدهم إلى الطريقة التي يجب أن يتبعوها في ذلك وهي: أن يبدءوا بدعوة وقتال أقرب كافر منهم والمراد به الكافر المتاخم لحدودهم كالأردن أو الشام أو العراق مثلاً فيعسكروا على مقربة منهم ويدعوهم إلى خصلة من ثلاث: الدخول في الإسلام أو قبول حماية المسلمين لهم بدخولهم البلاد وضرب الجزية على القادرين منهم مقابل حمايتهم وتعليمهم وحكمهم بالعدل والرحمة الإسلامية أو القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم فإذا ضمت أرض هذا العدو إلى بلادهم وأصبحت لهم حدود أخرى فعلوا كما فعلوا أولاً وهكذا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فتسعد البشرية في دنياها وآخرتها.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله ـ عز وجل ـ وثلاثة يبغضهم الله ـ عز وجل ـ أما الذين يحبهم الله ـ عز وجل ـ فرجل أتى قوما فسألهم بالله ـ عز وجل ـ ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه فتخلفه رجل بأعقابهم، فأعطاه سرًّا، لا يعلم بعطيته إلا الله ـ عز وجل ـ والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به نزلوا، فوضعوا رءوسهم، فقام رجل يتملقني، ويتلو آياتي، ورجل كانوا في سرية فلقوا العدو فهزموا، فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح الله له. والثلاثة الذين يبغضهم الله ـ عز وجل ـ الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم». [رواه النسائي والحاكم وصحيح على شرط الشيخين]

٢ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس ولقد فزع أهل المدينة، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس وقال: «وجدناه بحراً». [متفق عليه واللفظ للبخاري]

٣ ـ عن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه. ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين. فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس! نادِ أصحاب السَّمُرة» فقال عباس: وكان رجلاً صيّتًا فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك يا لبيك. فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال: ثم قصرت الدعوة إلى بني الحارث بن الخزرج! فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس» قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار. ثم قال: «انهزموا ورب محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى. قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصيات. فمازلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً. [متفق عليه]

والخلاصة

قالت الحكماء: أصل الخيرات كلها في ثبات القلب، ومنه تستمد جميع الفضائل وهو الثبوت والقوة على ما يوجبه العدل والعلم. والجبن غريزة يجمعها سوء الظن بالله تعالى، والشجاعة يجمعها حسن الظن بالله تعالى[1].

* * *

(١) سراج الملوك ٢/٦٦٧ .

٣٣ مكارم الشهامة

الشهامة هي الحرص على ما يوجب الذكر الجميل في العظائم. وقال بعضهم هي الحرص على الأمور العظام توقعًا للذكر الجميل. وقال الفراء: الشهم من كلام العرب الحمول الجيد القيام بما حُمِّل، الذي لا تلقاه إلا حمولاً طيب النفس بما حمل وفي الحديث: كان شهمًا أي نافذًا في الأمور ماضيًا.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه. عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فائتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه على أجل مسمى. فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبه يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا. فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر. فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت كفى بالله كفيلاً، فرضي بك وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بذلك. وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس إلى مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال. فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله مازلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما

وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كتبت إليّ بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بالألف دينار راشداً. [رواه البخاري]

٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر، يتوارى فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة. قال: فعرض على رسول الله ﷺ فردّه فبكى فأجازه، فكان سعد ـ رضي الله عنه ـ يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة. [أخرجه البزار ورجاله ثقات]

٣ ـ عن سليمان بن بلال ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعًا الخروج معه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فأمر أن يخرج أحدهما فاستهما، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد ـ رضي الله عنهما ـ إنه لابد لأحدنا أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا. فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد ود[١].

والخلاصة

أن الشهامة هي مفتاح الخير كله، إليك ما فتح الله به على المعتصم لما استغاثت به امرأة وقالت: وامعتصماه، فبلغه الخبر فركب لوقته وتبعه الجيش، ففتح عمورية.

(١) أسد الغابة ٢ / ٢٧٥ .

٣٤ مكارم اليقين

هو سكون الفهم مع ثبات الحكم(١).

قال أبو بكر الوراق ـ رحمه الله ـ اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين مشاهدة، ويقين دلالة. يريد بيقين الخبر، سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به، ويقين الدلالة ما هو فوقه وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلة على ما أخبر به وهذا كعامة الأخبار بالإيمان والتوحيد وهو القرآن، فإنه سبحانه مع كونه أصدق القائلين الصادقين يقيم لعباده الأدلة والبراهين على صدق أخباره، فيحمل لهم اليقين من الوجهين، من جهة الخبر ومن جهة التدليل، فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة، وهي يقين المكاشفة بحيث يكون المخبر به كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين وهذا أعلى أنواع اليقين(٢).

١ ـ قال الله تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** [المائدة: ٥٠].

والشاهد: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

والمعنى: أنكر الله تعالى على اليهود طلبهم حكم أهل الجاهلية حيث لا وحي ولا شريعة من عند الله وإنما العادات والأهواء والشهوات معرضين عن حكم الكتاب والسنة حيث العدل والرحمة، فقال: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾**. ثم أخبر تعالى نافيًا أن يكون هناك حكم أعدل ولا أرحم من حكم الله تعالى للمؤمنين به الموقنين بعدله تعالى ورحمته فقال: ومن أحسن من الله حكمًا، لقوم يوقنون؟».

ولا يرى ذلك إلا من نور الله قلبة باليقين.

(١) الراغب في المفردات.

(٢) مدارج السالكين ٢/٤١٨.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١]

◆ والشاهد: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

◆ والمعنى: أي ﴿وَفِي الأَرْضِ﴾ وما خلق الله فيها من مخلوقات من جبال وأنهار وزروع وضروع وأنواع الثمار، وإنسان وحيوان، ﴿آيَاتٌ﴾ أي دلائل وعلامات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وكلها موجبة له التوحيد ومقررة لقدرته على البعث الآخر والجزاء، وكون هذه الآيات ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ مبني على أن الموقنين ذوو بصائر وإدراك لما يشاهدون في الكون فكلما نظروا إلى آية في الكون ازداد إيمانهم وقوي فبلغوا اليقين فيه، فأصبحوا أكثر من غيرهم في الاهتداء والانتفاع بكل ما يسمعون ويشاهدون، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ أي وفي أنفسكم أيها الناس من الدلائل والبراهين المتمثلة في خلق الإنسان وأطواره التي يمر بها من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى طفل إلى شاب فكهل، وفي إدراكه وسمعه وبصره ونطقه إنها آيات أخرى دالة على وجود الله وتوحيده وقدرته على البعث والجزاء والتفكر فيها والنظر فيها يؤدي إلى اليقين بالله، وقوله: ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾. توبيخ لأهل الغفلة والإعراض عن التفكر والنظر؛ إذ لو نظروا بأبصارهم متفكرين ببصائرهم لاهتدوا إلى الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

◈والشاهد: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

◈والمعنى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾. أي لم نجعلهم بشراً ولا جنًّا حتى لا يرحموا أهل النار بخلاف ما لو كانوا بشراً فقد يرحمون بني جنسهم ولو كانوا جنًّا كذلك. وما يعلم جنود ربك إلا هو، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾. أي كونهم تسعة عشر ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ليزدادوا ضلالاً وكفراً وقدتم هذا فإن أبا جهل قد فتن بهذا العدد وازداد ضلالاً وكفراً وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. أي أخبرنا عن عددهم ليستيقن الذين أوتوا الكتاب لموافقة القرآن لما عندهم في كتابهم، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ فوق إيمانهم عندما يرون أن التوراة موافقة للقرآن الكريم كشاهد له. ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. أي حتى لا يقعوا في ريب وشك في يوم من الأيام لما اكتسبوا من المناعة بتضافر الكتابين على حقيقة واحدة.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة». [رواه البخاري]

٢ ـ عن عبد الله بن حبيش الخثعمي ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ: «سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة»

قيل: فأي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل، قيل: فأي الهجرة أفضل؟، قال: من هجر ما حرم الله عز وجل. قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من جاهد المشركين بماله ونفسه؟ قيل: فأي القتل أفضل؟ قال: من أهريق دمه وعقر جواده». [رواه أبو داود]

ورواه النسائي - وقال السيوطي في معناه: «والمراد تصديق بلغ حد اليقين بحيث لا يبقى معه أدنى توهم لخلافه».

والخلاصة

أن اليقين، مِلاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عرف الله، وبالعقل عقل عن الله[1].

وباليقين: تدرك المشتهيات في الدنيا والآخرة وبه يزيد المسلم من ربه قربًا، ويزداد خضوعًا واستكانة.

* * *

(١) (بصائر ذوي التميز) أبو بكر الوراق.

٣٥ مكارم أكل الطيبات

الطيب : هو ما أفتاك قلبك أن ليس فيه جناح.

قال ابن القيم - رحمه الله - اختار الله سبحانه من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه، واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب، فالطيب من كل شيء هو، مختاره تعالى. وأما خلقه تعالى، فعام للنوعين، وبهذا يُعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب ولا يرضى إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئن قلبه إلا به، فله من الكلام الكلم الطيب الذي لا يصعد إلى الله - تعالى - إلا هو وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال، والتفحش في اللسان والبذاء والكذب والغيبة والنميمة والبهت وقول الزور، وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يألف من الأعمال التي أجمعت على حسنها الفطر السليمة مع الشرائع النبوية، وزكتها العقول الصحيحة، فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ويؤثر مرضاته على هواه، ويتحبب إليه جهده وطاقته، ويفعل بالناس ويعاملهم بما يحب أن يفعلوا به، ويعاملوه به، ويدعهم مما يحب أن يدعوه منه، وينصحهم بما ينصح به نفسه، ويحكم لهم بما يحب أن يحكم له به، ويحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه، ويكف عن أعراضهم، ولا يقابلهم بما نالوا من عرض، وإذا رأى لهم حسنًا أذاعه، وإذا رأى لهم سيئًا كتمه، ويقيم أعذارهم ما استطاع فيما لا يبطل شريعة، ولا يناقض لله أمرًا ولا نهيًا(١).

---

(١) زاد المعاد الأول.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

والشاهد: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من الحلال.

المعنى: بعد أن أكرم الله تعالى عيسى عليه السلام ووالدته بما أكرمهما به من إيوائهما إلى ربوة ذات قرار ومعين خاطب عيسى عبده ورسوله قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلال فكان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه إذ كانت تغزل الصوف بأجرة فكانا يأكلان من ذلك أكلاً من الطيب كما أمرهم الله تعالى.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

والشاهد: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ أي من جيد أموالكم وأصلحها.

والمعنى: بعد ما رغب تعالى عباده المؤمنين في الإنفاق في سبيله في الآية السابقة ناداهم بإخراج زكاة أموالهم من جيد ما يكسبون.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب، إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم». [متفق عليه واللفظ لمسلم]

٢ - وقال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أُعطي أو منع». [رواه البخاري]

٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الكسب كسب العمل إذا نصح» أي إذا أخلص وصدق. [رواه أحمد ورواته ثقات]

والخلاصة

يكفي شرفًا في أكل الطيب أن الله سبحانه أمر به المؤمنين كما أمر به المرسلين، وجعله الله محل رضاه، وقرر الرسول ﷺ أنه مفتاح قبول الدعاء، فأطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والطيب طيب الكسب وليس طيب المطعم، روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه قال يومًا: إني أكلت حمصًا وعدسًا فنفخني، فقال له بعض القوم: يا أمير المؤمنين إن الله يقول في كتابه ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فقال عمر: هيهات ذهبت به إلى غير مذهبه، إنما يريد به طيب الكسب ولا يريد به طيب الطعام(١).

* * *

(١) الدر المنثور.

٣٦ مكارم الإخلاص

هو ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى.

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص: الخلاص من هذين - وفي رواية عنه: والإخلاص: أن يعافيك الله منهما(١).

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

◈ والشاهد: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾.

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

◈ والمعنى: يخبر تعالى أنه وحده أنزل الكتاب أي القرآن العظيم بالحق في كل ما جاء فيه ودعا إليه من العقائد والعبادات والأحكام وعليه فاعبد الله مخلصاً له الدين أي العبادة فلا تعبد معه غيره فإن العبادة لا تصلح لغيره أبداً، ألا لله الدين الخالص، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي شركاء يعبدونهم ويقولون، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، والدين الخالص أي الذي ليس فيه شرك من رياء أو أن تجعل لبعض دينك مع الله شريك.

وقوله: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾. أي تقريباً ويشفعوا لنا عند الله في قضاء حوائجنا هؤلاء يحكم الله بينهم في ما هم فيه مختلفون مع المؤمنين الموحدين

(١) مدارك السالكين.

وذلك يوم القيامة وسيجزي بعدله كلاً بما يستحق من إنعام وتكريم أو شقاء وتعذيب.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

والشاهد: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

والمعني: وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾. أي إذا غشي المشركين موج وهم على ظهر السفينة فخافوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. أي دعوا الله وحده ولم يذكروا آلهتهم، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ بفضله ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾. فلم يغرقوا ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾. أي في إيمانه وكفره لا يغالي في كفره ولا يعلن عن إيمانه، وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ القرآنية والكونية وهي مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لألوهيته، ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار بالعهود ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم لا خير فيه البتة والعياذ بالله تعالى من أهل الغدر والكفر.

٣ ـ وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

والشاهد: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

والمعنى: لما تساءل المشركون فقالوا للرسول ﷺ انسب لنا ربك وصفه لنا فقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾، أي لمن سألوك ذلك، ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي ربي هو الله أي الإله الذي لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة إلا له، أحد في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له نظير ولا مثيل في ذلك؛ إذ هو خالق الكل ومالك الجميع فلن تكون المحدثات المخلوقات كخالقها ومحدثها الله أي المعبود، الذي لا معبود بحق إلا هو، ﴿الصَّمَدُ﴾ أي السيد المقصود في قضاء الحوائج الذي استغنى عن كل خلقه وافتقر الكل إليه، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي لم يكن

له ولد؛ لانتفاء من يجانسه، إذ الولد يجانس والده، والمجانسة منفية عنه تعالى؛ إذ ليس كمثله شيء، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لانتفاء الحدوث عنه تعالى، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ولم يكن أحد كفوًا له، ولا مثيلاً ولا نظيراً ولا شبيهاً؛ إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلذا هو يعرف بالأحدية والصمدية فالأحدية: هي أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا﴾ ولا شبيه ولا نظير، والصمدية: هي أنه المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه في وجوده وبقائه كل ما عداه، كما يعرف بأسمائه، وصفاته وآياته.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقًّا من قلبه إلا حُرم على النار» فقال له عمر به الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «أنا أحدثك ما هي؟ هي كلمة الإخلاص التي أعز الله ـ تبارك وتعالى ـ بها محمداً ﷺ وأصحابه، وهي كلمة التقوى التي ألاص عليها نبي الله ﷺ عمه أبا طالب عند الموت، شهادة أن لا إله إلا الله».

[(رواه أحمد) قال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح]

٢ ـ عن عائشة زوج النبي ﷺ ـ رضي الله عنها ـ قالت سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات». [رواه الترمذي]

٣ ـ عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك

الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق والجنة حق، والنار حق والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الإخلاص، هو التبري عن كل ما دون الله تعالى، وقال ابن القيم - رحمه الله - العمل بغير إخلاص، ولا امتداد كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه[1].

وهو سر القبول، وعليه قام الدين، وبالإخلاص وفت القلوب من خالقها.

* * *

(١) الفوائد.

٣٧ مكارم التقوى

التقوى هى حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات.

قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ «تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال؛ خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام»(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

◈ **والشاهد**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾.

◈ **والمعنى**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي ربهم فلم يشركوا به أحداً ولم يفرطوا في الواجبات ولم يغشوا المحرمات هؤلاء ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ بأن نزغهم بإثارة الغضب أو الشهوة فيهم ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أمر الله ونهيه ووعده ووعيده ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ يرون قبح المعصية وسوء عاقبة فاعلها فكفوا عنها ولم يرتكبوها.

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ٥ ـ ١٧].

(١) الدر المنثور للسيوطي.

والشاهد: الآيات.

والمعنى: بعد أن قرر سبحانه أن أعمال الناس مختلفة من الحسنات الموجبة للسعادة والكمال في الدارين ومن السيئات الموجبة للشقاء في الدارين أي دار الدنيا ودار الآخرة، وبناءً على هذا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ حق الله في المال فأنفق وتصدق في سبيل الله. ﴿وَاتَّقَى﴾ الله تعالى فآمن به وعبده ولم يشرك به. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ التي هي الخلف أي العوض المضاعف. الذي واعد به تعالى من ينفق في سبيله بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وفي قول رسوله ﷺ: «ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا» ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ نهيئه ﴿لِلْيُسْرَى﴾ أي للحكمة وحق العمل بما يرضاه الله منه في الدنيا ويثيبه عليه في الآخرة بالجنة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والشاهد: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والمعنى: تضمنت الآية دعوة كريمة ونصيحة غالية ثمينة للأمة الرحيمة بأن تصبر على الطاعات وعلى الشدائد والملمات فتصابر أعداءها حتى يسلموا أو يسلموا القياد لها، وترابط بخيولها وآلات حربها في حدودها وثغورها مرهبة عدوها حتى لا يطمع في غزوها ودخول ديارها، وتتقي الله تقوى تكون سببًا في فوزها وفلاحها، بهذه الرحمة الربانية.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ

لأَكَلُوا من فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

والشـاهـد: ﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾.

والمعنى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من يهود ونصارى ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﷺ وبما جاء من الدين الحق وعملوا به، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الكفر والشرك وكبائر الذنوب الفواحش، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. فلم يؤاخذهم ولم يفضحهم بها ولأدخلهم جنات النعيم، وهذا وعد الله تعالى اليهود والنصارى فلو أنهم آمنوا واتقوا لأنجزه لهم قطعًا وهو لا يخلف الميعاد ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ اتقوا ربهم بأنهم ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يشمل القرآن الكريم، ومعنى ﴿أَقَامُوا﴾ ذلك آمنوا بالعقائد الصحيحة الواردة في تلك الكتب وعملوا بالشرائع السليمة والآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة التي تضمنتها تلك الكتب لو فعلوا ذلك لبسط الله تعالى عليهم الرزق وأسبغ عليهم النعم ولأصبحوا في خيرات وبركات تحوطهم من كل جانب.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

[رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]

٢ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا». [رواه الترمذي وحسنه الألباني]

٣ - عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قال: «إن كان النبي ﷺ ليقوم، أو يصلي حتى ترم قدماه، أو ساقه فيقال له: لم تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً». [رواه البخاري]

والخلاصة

إن التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.

وعلامات أهل التقوى هي من رضي بالقضاء وصبر على البلاء وشكر على العطاء، وصدق في اللسان، ووفى بالوعد والعهد وتلا لأحكام القرآن، وإنما الإمام سوق من الأسواق فإن كان من أهل الحق حمل إليه أهل الحق حقهم، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم.

* * *

٣٨ مكارم العدل

هو الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: أن الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

◈ والشاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾.

◈ والمعنى: يأمر الله في الكتاب الذي أنزله تبيانًا لكل شيء بالعدل وهو الإنصاف، ومن ذلك أن يعبد الله بذكره وشكره لأنه الخالق المنعم وتترك عبادة غيره لأن غيره لم يَخْلُق ولم يَرْزُق ولم يُنْعِم بشيء، ولذا فسر هذا اللفظ بلا إله إلا الله، ﴿وَالإِحْسَانِ﴾ وهو أداء الفرائض واجتناب المحرمات مع مراقبة الله تعالى في ذلك حتى يكون الأداء على الوجه المطلوب إتقانًا وجودة والاجتناب خوفًا من الله حياءً منه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

◈ والشاهد: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

◈ والمعنى: ما زال السياق الكريم في طلب تأديب المسلمين وتربيتهم وإعدادهم

للكمال الدنيوي والأخروي، فيرشد الله تعالى المسلمين إلى كيفية علاج مشكلة النزاع المسلح بين المسلمين الذي قد يحدث في المجتمع الإسلامي بحكم الضعف الإنساني، من الوقت إلى الوقت وهو مما يكاد يكون من ضروريات الحياة البشرية، وعوامله كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، فقال تعالى: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ﴾** أي جماعتان **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾** ولو كان ذلك بين اثنين **﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾** بالقضاء على أسباب الخلاف وترضية الطرفين بما هو حق وخير وليس هذا بصعب مع وجود قلوب مؤمنة وهداية ربانية وقوله: **﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾** أي اعتدت إحدي الطائفتين بعد الصلح **﴿عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾** بأن رفضت حكم الله الذي قامت المصالحة بموجبه **﴿فَقَاتِلُوا﴾** مجتمعين **﴿الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾** أي إلى الحق، **﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾** في حكمكم دائمًا وأبدًا.

٣ ـ وقال تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [النحل: ٩٧].

◈ **والشاهد**: **﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ﴾**.

◈ **والمعنى**: هذا وعد الله لأهل الإيمان والعمل الصالح، الإيمان الحق الذي يدفع إلى العمل الصالح، ولازم ذلك أنهم تخلوا عن الشرك والمعاصي، أن يحييهم في الدنيا حياة طيبة لا خبث فيها فيها قناعة وطيب طعام وشراب ورضا، هذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة والجزاء يكون بحسب أحسن عمل عملوه من كل نوع.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ عز وجل ـ وكلتا يديه يمين». [رواه مسلم]

٢ ـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالعدل أين كنا، لا نخاف في الله لومة لائم». [رواه النسائي]

٣ ـ قال الرسول ﷺ: ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته». [متفق عليه]

٤ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب.

[رواه أبو داود والترمذي والنسائي]

والخلاصة

أن العدل من أكبر نعم الله على المرء وهو عدم الظلم، وهذا العدل هو الذي قام عليه الدين لنا، قال ربعي بن عامر رضي الله عنه ـ لرستم قائد الفرس لما سأله ما جاء بكم؟: قال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي».

* * *

٣٩ مكارم المساواة

المساواة هي العدل في المعاملة بان لا يأخذ من صاحبه إلا ما يعطيه ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله.

قال أحمد شوقى: واصفًا الرسول ﷺ في همزيته:

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى　　فالكل في حق الحياة سواء

فلو انّ إنسانًا تخير ملة　　ما اختار إلا دينك الفقراء

قال ابن القيم: كيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق؟ جاء في الأثر قول الله عز وجل: «ابن آدم ما أنصفتني، خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك وكم تتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح»(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا﴾ الآية [النساء: ١٣٥].

والشاهد: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾.

والمعنى: أي كونوا قوامين بالعدل شهداء لله؛ إذ بشهادتكم ينتقل الحق من شخص إلى آخر حيث، اقامكم الله ربكم شهداء له في الأرض تؤدى بواسطتكم الحقوق إلى أهلها، وبناء على هذا فأقيموا الشهادة لله ولو شهادتكم على أنفسكم أو الوالدين لكم أو أقرب الناس إليكم وسواء كان المشهود عليه غنيًا أو فقيرًا فلا يحملنكم غنى الغني أو فقر الفقير على تحريف الشهادة أو كتمانها، فالله تعالى ربهما أولى بهما وهو يعطي بشهادتكم

---

(١) زاد المعاد.

فأقيموها وحسبكم ذلك واعلموا أنكم إن تلووا ألسنتكم بالشهادة تحريفًا لها خروجًا بها عن أداء ما يترتب عليها أو تعرضوا عنها فتتركوها أو تتركوا بعض كلماتها فيفسد معناها ويبطل مفعولها فإن الله بعملكم ذلك وبغيره خبير وسوف يجزيكم به فيعاقبكم في الدنيا أو في الآخرة ألا فاحذروا.

٢ ـ قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

والشاهد: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

والمعنى: ما زال السياق في ذكر قصة داود عليه السلام للعظة والاعتبار وتثبيت فؤاد النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ﴾. وقلنا له بعد توبته يا داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾. خلفت من قبلك من الأنبياء تدبر أمر الناس ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾. أي العدل الموافق لشرع الله ورضاه، لا تتبع الهوى وهو ما تهواه نفسك دون ما هو شرع الله ﴿فَيُضِلَّكَ﴾. أي اتباع الهوى يضلك عن سبيل الله المفضية بالعباد إلى الإسعاد والكمال وذلك أن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الإلهية انتظمت بها مصالح العباد فنفعت العامة والخاصة أما إذا كانت على وفق الهوى وتحصيل مقاصد النفس للحاكم لا غير أفضت إلى تخريب العالم بوقوع الهرج والمرج بين الناس وفي ذلك هلاك الحاكم والمحكومين.

٢ ـ وقال جل شأنه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

[الممتحنة: ٨]

والشاهد : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

والمعنى : ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ولم يضايقوكم لإخراجكم أن تبروهم أي بالإحسان إليهم بطعام أو كسوة أو إركاب وتقسطوا أي تعدلوا فيهم بأن تنصفوهم وهذا عام في كل الظروف الزمانية والمكانية وفي كل الكفار والشروط الماضية في الآية.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : « وهو على المنبر: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب : فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها ». [رواه البخاري]

٢ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: « من يردهم عنا وله الجنة » أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضًا . فقال: « من يردهم عنا وله الجنة »، أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل: فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة. فقال رسول الله ﷺ : « ما أنصفنا أصحابنا ». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الإنصاف هو توأم العدل والقسط وعليه قام الدين ولم يفرق بين غني وفقير، ولا كبير وصغير ولا شريف ووضيع ولا بين قوى وضعيف وإليك من

خطبة أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ. «القوى فيكم عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه» وها هو نموذج للإنصاف. عن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر، قالت: كيف وجدتم ابن صديح في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف الرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدله مكانه بعيراً، ولا غلام إلا أبدل مكانه غلامًا، قالت: إنه لا يمنعني قَتْلُه أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ إني سمعته يقول: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه.

ووجه الإنصاف أنها رضي الله عنها أنصفت من قتل أخاها محمد بن أبي بكر.

* * *

٤٠ مكارم الوفاء

الوفاء هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء(١).

قال الراغب: الوفاء بالعهد: إتمامه وعدم نقض حفظه وهو صدق اللسان والفعل معًا.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

◈ والشاهد: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ﴾ أي حافظوا على طرف المعادلة هذا تكن لكم هذه النتيجة المرجوة التي فرضها الله على نفسه.

◈ والمعنى: الوفاء بالعهد إتمامه. وعهد الله عليهم أن يبينوا أمر محمد ﷺ ويؤمنوا به، فإن أنتم فعلتم أوف بعهدكم، أتم لكم عهدكم بإدخالكم الجنة بعد إكرامكم في الدنيا وعزكم فيها.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣، ٤].

◈ والشاهد: ﴿فَأَتِمُّوا﴾ أي وفوا، وأوفوا، وأكملوا.

◈ والمعنى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ من شروط المعاهدة ﴿شَيْئًا﴾ ولم يعاونوا عليكم أحداً لا برجال ولا بسلاح ولا حتى

(١) التعريفات.

بمشورة ورأي فهؤلاء لم يبرأ الله تعالى منهم ولا رسوله ﷺ، وعليه ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي مدة أجلهم المحدد بزمن معين فوفوا لهم ولا تنقضوا لهم عهداً إلا أن ينقضوه هم بأنفسهم، أو تنتهي مدتهم حينئذ إما الإسلام وإما السيف إذ لم يبق مجال لبقاء الشرك في دار الإسلام وقبته.

٣ ـ ويقول سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

◆ **والشاهد**: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا﴾ أي هي أصل أتموا إذا وعدتم وعاهدتم ولا تخلوا.

◆ **والمعنى**: أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بالعهد فعلى كل مؤمن بايع إماماً أو عاهد أحداً على شيء أن يفي له بالعهد ولا ينقضه. (إذ لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له) كما في الحديث الشريف.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «أوفوا بحلف الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ولا تُحدثوا حلفًا في الإسلام». [رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

٢ ـ عن علي بن الحسين: أنهم حين قدموا المدينة من عند يزيد بن معاوية لقيه المسور بن مخرمة فقال له: هل لله إليّ من حاجة تأمرني بها؟ قال: فقلت له لا. قال له: هل أنت معطي سيف رسول الله ﷺ؟ فإني أخاف أن يغلبك القوم عليه، وأيم الله؛ لئن أعطيتنيه لا يخلص إليه أبداً، حتى تبلغ نفسي، إن عليّ بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل على فاطمة، فسمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس في ذلك، على منبره هذا، وأنا يومئذ محتلم، فقال: «إن فاطمة مني، وإني أتخوف أن تفتن في دينها» قال: ثم ذكر صهراً له من بني عبد

شمس، فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن. قال: حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي وإني لست أحرم حلالا ولا أحل حرامًا ولكن، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكانًا واحدًا أبدًا. [متفق عليه]

٣ - وعن أم هانئ ابنة أبي طالب - رضي الله عنها - قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه فقال: «من هذه؟» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحبًا بأم هانئ» فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمان ركعات ملتحفًا في ثوب واحد. فقلت: يا رسول الله زعم ابن أمي عليّ، أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان ابن هبيرة فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء» قالت أم هانئ: وذلك ضحى. [متفق عليه]

والخلاصة

فالوفاء قيمة إنسانية وأخلاقية كبيرة لأنه يثري دعائم الثقة في الأفراد ويؤكد أواصر التعاون في المجتمع.

* * *

٤١ مكارم كتمان السر

« كتمان السر» كلمتان: « كتمان » أي صبر في إمساك الضمير « والسر» وهو الحديث المكتم في النفس.

قال الجاحظ: ومنها كتمان السر وهذا الخلق مركب من الوقار وأداء الأمانة، فإن إخراج السر من فضول الكلام وليس بوقور من تكلم بالفضول.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٨٣].

والشاهد: **﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾**.

والمعنى: لما أمر الله بالإشهاد والكتابة في البيوع والسلم والقروض في الآيات التي سبقت هذه الآية أمر هنا بالاستعاضة عن الكتابة بالرهن وذلك بأن يضع المدين رهناً لدى دائنه عوضاً عن الكتابة يستوثق به دينه هذا في حال عدم ائتمانه والخوف منه، وأما إن أمن بعضهم بعضاً فلا بأس بعدم الارتهان.

٢ ـ وقال الله تعالى: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾** [الإسراء: ٣٤].

والشاهد: **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾**.

والمعنى: أي وكما وصاكم به أن توفوا بعهودكم التي بينكم وبين ربكم وبينكم وبين سائر الناس مؤمنهم وكافرهم فلا يحل لكم أن لا توفوا بالعهد وأنتم قادرون على الوفاء بحال من الأحوال، وقوله **﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾** تأكيداً للنهي عن نكث العهد إذ أخبر تعالى أن العبد سيسأل عن عهده الذي لم يوف به يوم القيامة ومثل العهد سائر العقود.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» . [رواه الطبراني وصححه الألباني]

وقال ﷺ : «إن أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثم ينشر سرها» . [رواه مسلم (١٤٣٧)]

والخلاصة

أن كتمان السر أمانة وعهد ووعد وقد حث الشارع على الوفاء بهذه العهود وحفظ تلك الأمانات .

* * *

٤٢ مكارم العفة

العفة هي الكف عما لا يحل ويجمل.

قال الجاحظ: هي ضبط النفس عن الشهوات وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أَوَدَ الجسم ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف في جميع الملذات وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائه وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه، ولا يحرس النفس والقوة أقل منه، وهذه الحال هي غاية العفة.

وللعفة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم، فأما العفة عن المحارم فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني: كف اللسان عن الأعراض، فأما ضبط الفرج عن الحرام فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة واضحة، وأما كف اللسان عن الأعراض فلأن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكف وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف، وزاجر صادٍّ، تلبط بمعّارّه، وتخبط بمضاره، وأما العفة عن المآثم فنوعان أيضًا. أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة. فأما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف، ويؤول إن استمر إلى فتنة تحيط في الغالب بصاحبها فلا تنكشف إلا وهو مصروع، وأما الاستسرار بالخيانة فضعة؛ لأنه بذُلِّ الخيانة مهين، ولقلة الثقة به مستكين، وقد قيل: من يَخُنْ يَهُنْ، هذا ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زوراً، ولا يبديه من العفة غروراً، فينتهك الزور وينكشف الغرور، فيكون هتكه للتدليس أقبح، ولمعرة الرياء أفضح(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

والشاهد: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي يكف عن الأكل من مال اليتيم.

والمعنى: نهى الله تعالى أن يأكلوا أموال اليتامى إسرافًا ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ ويريد لا تأكلوا أموال يتاماكم أيها الولاة والأوصياء، بطريق الإسراف وهو الإنفاق الزائد على قدر الحاجة، والمبادرة هي المسارعة قبل أن يرشد السفيه وينقل إليه المال، ثم أرشدهم إلى أقوم الطرق وأسدها في ذلك فقال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا﴾ فليكف عن مال اليتيم ولا يأكل منه شيئًا، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

والشاهد: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي أن لا يضعن ثيابهن خير لهن من الأخذ بالرخصة.

والمعنى: والتي قعدت عن الحيض والولادة لكبر سنها بحيث أصبحت لا ترجو نكاحًا ولا يرجى منها ذلك فهذه ليس عليها إثم ولا حرج في أن تضع خمارها من فوق رأسها، أو عباءتها من فوق ثيابها التي على جسمها حال كونها غير متبرجة أي مظهرة زينة لها لخضاب اليدين والأساور في المعصمين والخلاخل في الرجلين وغيرذلك؛ فما هو زينة يجب ستره، ومن لازمت

(١) أدب الدنيا والدين ٣٨٤ـ ٣٩٠.

خمارها وعجارها ولم تظهر للأجانب كاشفة وجهها ومحاسنها خير لها حالاً ومآلاً وحسبها أن يختار الله لها فما اختاره لها لن يكون إلا خيراً في الدنيا والآخرة فعلى المؤمنات، أن يخترن ما اختار الله لهن.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ وقال رسول الله ﷺ: «من استغنى أغناه الله ـ عز وجل ـ ومن استعف أعفه الله ـ عز وجل ـ ومن استكفى كفاه الله ـ عز وجل ـ ومن سأل وله قيمة أوقية، فقد ألحف» فقال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وهو راوي الحديث: ناقتي الياقوتة خير من أوقية فرجعت ولم أسأله. [رواه النسائي وصححه الألباني]

٢ ـ وقال الرسول ﷺ: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة».

[رواه أحمد والبيهقي، وصححه الألباني]

٣ ـ عن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديثي عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ثم قال: «ألا تباينعون رسول الله؟». قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس وتطيعوا (وأسر كلمة خفية) ولا تسألوا الناس شيئًا. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم. فما يسأل أحداً يناوله إياه». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن العفة جامعة لمعاني الخير كله، إذ هي عفة النظر وعفة السمع وعفة في مطعم وعفة في فرج وعفة عن كل ما يغضب الله تعالى وأخذ لكل ما يحبه الله ويرضاه.

قال أبو عمرو بن العلاء ـ رحمه الله تعالى ـ كان أهل الجاهلية لا يُوفِدُون إلا من كانت فيه ست خصال وتمامها في الإسلام سابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبنيان، والحسب، وفي الإسلام زيادة العفاف(١).

* * *

(١) الآداب الشرعية.

٤٣ مكارم النزاهة

النزاهة هي الترفُّع عن المطامع الدنية ومواقف الريبة.

قال الماوردي: النزاهة نوعان: أحدهما: النزاهة عن المطامع الدنية والثاني: النزاهة عن مواقف الريبة.

فأما المطامع الدنية، فلأن الطمع ذل، والدناءة لؤم، وهما أدفع شيء للمروءة، وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع، أي شين وعيب».

والباعث على ذلك شيئان: الشّره، وقلة الأنفة، فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيراً، لأجل شرهه، ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيراً، لقلة أنفته، وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدراً. ولا يرى المال أعظم خطراً، فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنمًا وليس لمن كان المال عنده أجلّ، ونفسه عليه أقل، إصغاءٌ لتأنيب ولا قبولٌ لتأديبٍ، وحسم هذه المطامع شيئان: اليأس والقناعة، وقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث من روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى فإن ما عند الله لا يدرك ما عنده إلا بطاعته» فهذا شرط، وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم، والوقوف بين حالتي سلامة وسقم، فتتوجه إليه لائمة المتوهمين، ويناله ذلة المريبين، وكفى بصاحبها موقفًا، إن صح افتضح، وإن لم يصح امتهن، وقد قال النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

والداعي إلى هذه الحال: الاسترسال، وحسن الظن، والمانع منهما شيئان: الحياء والحذر. وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة(١).

١ - قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والشاهد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا داعي للتردد فالله يحب المتوكلين الواثقين فيما عند الله.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾

[الذاريات: ٢١-٢٣]

والشاهد: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي بعد قسم العزيز الجبار على هذا الأمر ينبغي على كل مؤمن مُسَلِّم أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرقٍ من أرز، فذهب وتركه، وأني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فَسُقْها، فقال لي:

(١) أدب الدنيا والدين.

إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة، فقال الآخر: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عنهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنّا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا. فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ، وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمئة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المئة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا». [متفق عليه واللفظ للبخاري]

٢ ـ عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». [متفق عليه واللفظ للبخاري]

٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إني لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فأُلقيها». [متفق عليه واللفظ للبخاري]

والخلاصة

أن النزاهة وصف للمؤمن التقي الورع، الذي يترك جزءاً من الحلال مخافة الوقوع في الحرام ويترك مجالس اللهو، ومجالس اللعب، حتى ينعم بما عند الله من النعيم، ولله قول محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان، أسكنوهم بياض المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي[1].

* * *

(١) في كتاب الورع لابن أبي الدنيا.

٤٤ مكارم العزة

العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب.

قال ابن منظور: العز خلاف الذل، وفي الحديث قال ﷺ لعائشة: «هل تدرين لِمَ كان قومك رفعوا باب الكعبة؟» قالت: لا، قال: «تعززاً ألا يدخلها إلا من أرادوا، أي تكبراً وتشدداً على الناس»، والعز في الأصل القوة والشدة والغلبة.

وقال الإمام الغزالي: العزيز: هو الخطير الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز، فكم من شيء يقل وجوده، ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه، لم يسم عزيزاً، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه، لم يسم عزيزاً، كالشمس، مثلاً فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك والنفع عظيم في كل منهما، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما، فلا بد إذن من اجتماع المعاني الثلاثة (ليصح الوصف بالعزة) ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان، والكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد، إذ لا أقل من الواحد، ويكون بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هذا إلا لله تعالى.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

- **والشاهد**: قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب ذو العزة التي لا تغلب، الحكيم في كل خلقه وفعله وسائر تصرفاته.
- **والمعنى**: يخبر الجبار عز وجل أنه شهد أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون كذلك شهادة علم وحق قامت على مبدأ الحضور الذاتي والفعلي

وأنه تعالى قائم في الملكوت كله، علويه وسفليه، بالعدل فلا رب غيره ولا إله سواه، العزيز في ملكه وخلقه، الحكيم في تدبيره وتصريفه فلا يضع شيئًا في غير موضعه اللائق به، فردّ بهذه الشهادة على باطل نصارى نجران ومكر اليهود، وشرك العرب، وأبطل كل باطلهم سبحانه وتعالى.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]

والشاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالبًا يعذب من يستحق العذاب.

والمعنى: ذكر الله تعالى الوعيد والوعد، والوعيد لأهل الكفر والوعد لأهل الإيمان فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يريد يدخلهم نار جهنم يحترقون فيها ويصطلون بها كلما تهرأت وسقطت بدلهم الله تعالى فوراً جلوداً غيرها ليتجدد ذوقهم للعذاب وإحساسهم به، إن الله غالب لأنه العزيز الغالب لا يعجز عن إنفاذ ما توعد به أعداءه، كما أنه الحكيم في تدبيره يعذب أهل الكفر به والخروج عن طاعته، هذا هو الوعيد المتضمن في الآية.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]

والشاهد: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وجب تسبيح الله تعالى وتنزيهه على كل المخلوقات لأنه الغالب القادر، الحكيم المتصرف في ملكه بحكمته.

والمعنى: يخبر تعالى في هذه الآية عن وجوده وعظمته من قدرة وعلم وحكمة ورحمة وتدبيره وملكه ومردّ الأمور إليه وكلها من مظاهر الربوبية الموجبة للألوهية فأولاً: تسبيح كل شيء في السموات والأرض أي تنزيهه عن نقص كالزوجة والولد والشريك والوزير المعين والعجز والجهل، ثانيًا إنه

تعالى العزيز ذو العزة التي لا ترام العظيم الانتقام، الحكيم في تدبير ملكه فلا شيء في خلقه هو عبث أو لهو أو باطل.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى يفطر والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين». [رواه الترمذي وقال: حديث حسن]

٢ ـ وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله ـ عز وجل ـ السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟». [متفق عليه واللفظ لمسلم]

٣ ـ قال الرسول ﷺ: «يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، من نازعني فيهما ألقيته في جهنم». [رواه مسلم]

والخلاصة

فالعزة المطلقة لله جل وعلا والكبرياء المطلق له وحده، وعزته سبحانه عزة فيها رحمة؛ إذ إنه العزيز الرحيم، وعزة بحكمة؛ إذ إنه العزيز الحكيم وعزة بعلم؛ إذ إنه العزيز العليم وعزة بقوة؛ إذ إنه القوي العزيز، وعزة بانتقام؛ إذ إنه العزيز ذو الانتقام وعزة بحمد إذ إنه العزيز الحميد، وعزة بمغفرة، إذ إنه العزيز الغفور، وعزة بهبة؛ إذ إنه العزيز الوهاب، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن عزة الله عز وجل: إن عزة المولى سبحانه متضمنة لهذه الأنواع السابقة

كلها وهي:

١ـعزة القوة. ٢ـعزة الامتناع. ٣ـعزة القهر والغلبة لكل الكائنات.

فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك فيها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله ـ تعالى ـ وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

٤٥ مكارم الشرف

الشرف هو العلو والمكان العالي.

قال أبو اسحاق الزجاج: أشرف آية في القرآن آية الكرسي. وقد شرفه وشرف عليه وشرفه، جعل له شرفًا. وشارفت الرجل: فاخرته أينما أشرف، وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان عاديان أصابا فريقة غنم بأفسد من حب المرء المال والشرف لدينه».

١ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

والشاهد: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي شرفنا بني آدم.

والمعنى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي فضلناهم بالنطق والعقل والعلم واعتدال الخلق...

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

أي إنه لشرف لك ولقومك.

والمعنى: كما ذكر سبحانه: ﴿واذكر في الكتاب مريم... الآية﴾.

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم... الآية﴾.

﴿واذكر في الكتاب موسى... الآية﴾.

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل... الآية﴾.

﴿واذكر في الكتاب إدريس... الآية﴾.

والشاهد ﴿واذكر﴾ وشرف في الكتاب فلان.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والشاهد: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي أشرفكم وأحسنكم.

والمعنى: ينادي الله الناس وهو آخر نداءات الله تعالى في هذه السورة وهو أعم من النداء بعنوان الإيمان قال: يأيها الناس من آدم وحواء باعتبار الأصل كما أن كل آدمي مخلوق من أبوين أحدهما ذكر والآخر أنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، وبطونًا وأفخاذًا وفصائل، كل هذا لحكمة التعارف فلم يجعلكم كجنس الحيوان لا يعرف الحيوان الآخر ولكن جعلكم شعوبًا وقبائل وعائلات وأسرًا لحكمة التعارف المقتضى للتعاون؛ إذ التعاون بين الأفراد ضروري لقيام مجتمع صالح سعيد فتعارفوا وتعاونوا ولا تتفرقوا لأجل التفاخر بالأنساب؛ فإنه لا قيمة للحسب والنسب إذا كان المرء هابطًا في نفسه وفاسدًا في سلوكه إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل عليه السلام: عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي عنه وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس» [رواه الطبرني بإسناد حسن].

٢ ـ عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال: مر على النبي ﷺ يهودي محممًا مجلودًا. فدعاهم ﷺ قال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أن ناشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركنا

وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف وعلى الوضيع. فجعلنا التحميم والجلد وتركنا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيي أمرك وإذ أماتوه». فأمر به فرجم. فأنزل الله ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ**﴾ [المائدة: ٤١]

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» [رواه مسلم].

والخلاصة

أن الشرف هبة من الله؛ إذ إنها توهب من الوهاب إلى من يستحقه ولا يورثه النسب فإن الله قال: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. وإليك قول ابن القيم رحمه الله الموضح لذلك: قال في وصف إرادة الله رب العالمين: يا محمد! أنت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان، أبو طالب إذا سئل عن اسمه قال: عبد مناف، وإذا انتسب افتخر بالآباء وإذا ذكرت الأموال عد

الإبل، وسلمـان إذا سئل عن اسمه قـال: عـبد الله، وعـن نسبـه قـال: ابن الإسلام، وعن ماله قال: الفقر، وعن حانوته قال: المسجد، وعن كسبه قال: الصبر، وعن لباسه قال: التقوى والتواضع، وعن وساده قال: السهر، وعن فخره قال: سلمان منا وعن قصده قال: يريدون وجهه، وعن سيره قال: إلى الجنة وعن دليله في الطريق قال: إمام الخلق وهادي الأئمة(١).

* * *

(١) أدب الدنيا والدين.

٤٦ مكارم الأدب

الأدب هو رياضة النفوس ومحاسن الأخلاق ويقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل، ولهذا كان الأدب استخراجاً لما في الطبيعة من الكمال من القول إلى الفعل.

وقال رحمه الله في أنواع الأدب: أنواع الأدب ثلاثة: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسول الله ﷺ وأدب مع خلقه.

١ - قال الله تعالى: **﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٢٤].

والشاهد: ﴿الآية﴾.

والمعنى: يأدب الله الخلق، بخلق محمود وهو أن لا يجعلوا الله سبحانه عرضة لإيمانهم بكثرة الحلف وغيره وهذا أدب مع الله، وأوصافه وكماله.

٢ - وقال تعالى: **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة: ١١٨].

والشاهد: ﴿الآية﴾.

والمعنى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي من مات منهم على الشرك بأن تصليه نارك فأنت على ذلك قدير **﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾** أي لمن مات على التوحيد فتدخله جنتك فإنه لذلك أهل فإنك أنت العزيز الغالب على أمره الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه فلا ينعّم من أشرك به ولا يعذّب من أطاعه وحده. وذلك عدل منه سبحانه ومقدرة.

٣ - وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا**

وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩]

٤ - وقال سبحانه في الأدب مع الرسول ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

٥ - وقال في الأدب العام مع الخلق: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦].

٦ - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

٧ - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٨].

وفي التربية:

٨ - قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا

وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢-١٩].

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات، قال: «لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن الخمر، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله ـ عز وجل ـ وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبًا، وأخفهم في الله». [رواه أحمد]

وآداب أدب رسول الله بها أصحابه كثيرة وألزمهم بها منها:

١ـ آداب الطعام:

«إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل ويشرب بشماله». [رواه مسلم]

«يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك».

٢ـ آداب دخول البيوت والخروج منها والجلوس فيها.

٣ـآداب مجالس العلم.

٤ـآداب الطريق.

٥ـآداب الأخوة في الله.

وآداب لو عددناها شملت البحث كله.

والخلاصة

أن الأدب هو كمال الخلق، وهو رياضة النفس لتتحلى بمكارم الأخلاق وعلى ذلك فإن الأدب كما أوردنا: أدب مع الله وأدب مع رسول الله ﷺ ثم أدب مع الخلق. وقد قيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وأدب الدعوة إلى الله هو تتمة الأدب وأهمه؛ لأنه يجمع به أنواع الآدب كلها:

قال الماوردي رحمه الله: اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب، لأن لمحمودها أضداداً مقابلة، يساعدها هوى مطاع، وشهوة غالبة، فإن أغفل تأديبها تفويضًا إلى العقل أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع، أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلاً، لأن الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعةٌ، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة، ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيماً، ولو كان العقل مغنيًا عن الأدب لكان أنبياء الله عن الأدب مستغنين، وبعقولهم مكتفين[1].

(١) أدب الدنيا والدين.

٤٧ مكارم المروءة

المروءة هي مراعاة الأحوال أن تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق.

قال زياد لبعض السادة، ما المروءة فيكم؟ قال: اجتناب الريب فإنه لا ينبل مريب، وإصلاح الرجل ماله فإنه من مروءته، وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فإنه لا ينبل من احتاج إلى أهله ولا من احتاج أهله إلى غيره.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا**﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

والشاهد: ﴿**مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا**﴾.

والمعنى: وحين ورد موسى عليه السلام ماء مدين وهو بئر يسقي منها الناس مواشيهم وجد عليه أي على الماء ﴿**أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ**﴾. أي جماعة كبيرة يسقون أنعامهم ومواشيهم ﴿**وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ**﴾. وهما بنتا شعيب عليه السلام وهما يمنعان ماشيتهما من الاختلاط بمواشي الناس، فسألهما لا تطفلاً وإنما تلطفًا و حالهما دعاه إلى سؤالهما لأنه رأى الناس يسقون مواشيهم ويصدرون فوجًا بعد فوج والمرأتان قائمتان على ماشيتهما تذودانها عن الحوض حتى لا تختلط ولا تشرب فسألهما لذلك قائلا: ما خطبكما أي ما شأنكما فأجابتاه قائلتين: ﴿**لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ**﴾. لضعفنا وعدم رغبتنا في الاختلاط بالرجال: ﴿**وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾. لا يقوى على سقي هذه الماشية بنفسه فنحن نسقيها ولكن بعد أن يصدر الرعاء ويبقى في الحوض ماء

نسقى به، فلما علم عذرهما سقى لهما ماشيتهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

والشاهد: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾.

والمعنى: أنه بعد أن أخذ يوسف أخاه بالسرقة ولم يقبل استرحامهم له بأخذ غيره بدلاً عنه انحازوا ناحية يفكرون في أمرهم وهو ما أخبر به تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾. أي يئسوا ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾. أي اعتزلوا يتناجون في قضيتهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾. وهو روبيل مخاطبًا إياهم ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾. يذكرهم بالميثاق الذي أخذه يعقوب عليهم لما طلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين لأن عزيز مصر طلبه ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي وذكرهم بتفريطهم في يوسف يوم ألقوه في غيابة الجب وباعوه بعد خروجه من الجب، ومن هنا قال لهم ما أخبر تعالى به: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء؛ استحياءً منه، فآذاه أناس من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده. إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل. فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا

أحسن ما خلقه الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]

٢ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات. فأعطت كل واحدة منهما تمرة. ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها. فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ: فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار». [متفق عليه]

٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال عندي خير. يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك: وإن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال، أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب إلى المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد والله، ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة فما ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ». [متفق عليه]

والخلاصة

أن المرءوة خلق المسلم وهي تقواه لله تعالى وهي صلة الرحم ولكل شيء مروءة:

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه.

ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: بذله في مواقعه المحمودة عقلاً وعرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان والبذل: تعجيله وتيسيره، وتوفيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه.

وهي للإنسان نفسه، وللخلق، ولله سبحانه.

* * *

٤٨ مكارم الحلم

الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب.

يقال حلم فلان عن فلان إذا لم يقابله على إساءته ولم يجازه عليها.

فالله عز وجل حليم عن عباده، لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم ويمهلهم بعد المعصية ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام ويقبل توبتهم بعد ذلك(١).

قال الإمام أبو حامد الغزالي (في المقصد الأسنى) الحليم: هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاتّقاد.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

١ ـ قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

والشاهد: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يقول المفسرون يستهزئ أهل مدين بشعيب فيقولون أصلاتك وعلاقتك بربك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ ثم يتهكمون فيقولون إنك لأنت المتصف بالحلم فأنت الصبور الحليم، الرشيد الذي لا يأمر بغي، بل يأمر بالخير دائماً.

٢ ـ ويقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥].

والشاهد: وصف الله تعالى لإبراهيم عليه السلام وهو خليل الرحمن ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ أي إن إبراهيم رقيق القلب حليم لا يعاجل بالعقوبة

(١) استقامة الأسماء الزجاجي..

فأراد تأخير العذاب عنهم لعلهم يتوبون، وكان أواهًا ضارعًا يكثر من قول آه إذا رأى أو سمع ما يسوء ومنيبًا أي توابًا رجاعًا إلى ربه في كل وقت، ولما ألح إبراهيم في مراجعة الملائكة قالوا له: يا إبراهيم أعرض عن هذا؛ إنه قد جاء أمر ربك أي بهلاك القوم.

٣ - وقال تعالى: واصفًا نفسه بالحلم والرحمة والصبر على العصاة. **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [يونس: ١١].

والشاهد: تأخير العقوبة وهذا من الحلم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة». [رواه الترمذي وقال: حسن غريب]

٢ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البردة من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء. [متفق عليه]

قال لقمان الحكيم: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاعة إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه(١).

ويصف عمر رضي الله عنه أبا بكر فيقول: كان أبو بكر - رضي الله عنه - يوم السقيفة أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري الآمال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت. [رواه البخاري]

(١) من الإحياء للغزالي.

والخلاصة

فالحلم كما قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: الحلم منه ما يكون سجية طبعًا ومنه ما يكون تجربة وتكلفًا، ومنه ما يكون مركبًا منهما معًا. وأول الحلم: المعرفة ثم التثبت ثم العزم ثم التصبر، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الصمت والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن لمن أساء فأما من أحسن إلى المحسن، وحلم عمن لم يؤذه، فليس ذلك بحلم ولا إحسان، والناس بالنسبة للمرء ضروب ثلاثة: رجل أعز منك ورجل أنت أعز منه ورجل ساواك في العز.

وللحلم دوافع تدفع إليه:

١ـ الرحمة للجهال.
٢ـ الترفع عن السباب.
٣ـ القدرة على الانتصار.
٤ـ الاستهانة بالمسيء.
٥ـ الاستحياء من جزاء الجواب.
٦ـ التفضل على الساب.
٧ـ استنكاف الساب وقطع السباب.

وفي الحلم رد للسفيه عن الأذى   وفي الحزم إغراء فلا تك أخرقًا(١)

وقد أورد الغزالي في الإحياء أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعود ذلك صار ذلك اعتياداً فلا يهيجه الغيظ. وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهذا هو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ويكون ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفًا ويعتاد ذلك حتى يصير خلقًا مكتسبًا.

(١) بتصرف من كتاب روضة العقلاء.

٤٩ مكارم الحياء

الحياء هو انقباض النفس من شيء وتركه حذراً عن اللوم فيه(١).

وفي التهذيب ذكر الجاحظ: الحياء من قبيل الوقار وغض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه، وهو عادة محمودة ما لم تكن عن عِزّ، ولا عاجز.

وقال الإمام النووي - رحمه الله -: قال الجنيد - رحمه الله -: الحياء رؤية الآلاء (النعم) ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى حياءً ومعنى هذه العبارة أن الحياء: حالة للنفس تتولد من رؤية أمرين هما: رؤية النعم من ناحية ورؤية التقصير من ناحية أخرى وهذا التصور خاص بالحياء من المولى عز وجل.

ومن صفات الله تعالى - الحيي - سبحانه وتعالى يستحيي حياء لا نستطيع تكييفه ولا تشبيهه فهو كما أخبر سبحانه وكما أخبر نبيه ﷺ يستحيي من عبده إذا رفع يديه بالسؤال أن يردهما صفراً، فهو الكريم، وحياؤه حياء كرم وبر وجود، ويستحيي أن يعذب شيبة في الإسلام.

١ - قال الله تعالى: **﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [القصص: ٢٥].

◆ **والشاهد:** **﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾** أي واضعة كم درعها على وجهها؛ حياءً وقد قال عمر رضي الله عنه: إنها ليست سلفعًا من النساء خراجة ولاجة، وبلغت الرسالة المختصرة وكأنها برقية وبها (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) وهذا مثال حياء النساء.

---

(١) الجرجاني في التعريفات.

وأما عن حياء النبي ﷺ :

٢ ـ قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٣].

والشاهد : ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾.

والمعنى : لما أكلوا طعام الوليمة التي صنعها الرسول ﷺ بعد زواجه من زينب بنت جحش، وكان الحجاب ما فرض بعد على النساء مكثوا بعد انصراف الناس يتحدثون فقام رسول الله ﷺ وخرج أمامهم لعلهم يخرجون فما خرجوا وتردد رسول الله ﷺ على البيت فيدخل ويخرج واستحيا ﷺ أن يقول لهم هيا اخرجوا. فأنزل عليه هذه الآية.

٣ ـ وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة : ٢٦].

والمعنى : لا يمنعه حياؤه سبحانه أن يضرب مثلاً مثل البعوضة أو ما دونها، ولا يستبقي.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إن لكل دين خلقًا وخلق الإسلام الحياء». [رواه ابن ماجة]

٢ ـ وقال ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت». [رواه البخاري]

٣ ـ وعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء»، فغضت أم سلمة ـ تعني وجهها ـ وقالت: يا رسول الله، أو تحتلم المرأة؟ قال: «نعم، تربت يمينك فبم يشبهها ولدها».

[متفق عليه]

٤ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل لم قلت كذا وكذا؟ ولكنه يعم فيقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟». [رواه ابن أبي الدنيا]

٥ ـ وصدق أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها. [متفق عليه]

٦ ـ عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين استحيوا من الله فوالذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب الغائط في الفضاء متقنعًا بثوبي استحياءً من ربي عز وجل. [رواه ابن أبي الدنيا]

والخلاصة

فالحياء خير كله وهو من الدين بل هو الدين وهو أصل الخير قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وخلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً

وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخلق لم يُقْر الضيف ولم يوف بالوعد، ولم تؤد الأمانة ولم تقض لأحد حاجة، ولا تحري الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل رحمًا ولا بر له والدًا، فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي، وهو حياء فاعلها من الخلق. فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها، ثم قال رحمه الله: إن للإنسان آمرين وزاجرين: آمرًا وزاجرًا من جهة الحياء، فإذا امتنع من فعل كل ما يشتهي فله آمرًا وزاجرًا من جهة الهوى والطبيعة، فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره، أطاع آمر الهوى والشهوة ولابد[1].

* * *

(١) مدارج السالكين.

٥٠ مكارم دعوة الناس

هي دعوة الناس إلى الإسلام بالقول والعمل.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى يصل إليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء[1].

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

[النحل: ١٢٥]

والشاهد: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

والمعنى: يخاطب الرب تعالى رسوله تشريفًا وتكليفا ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي دينه وهو الإسلام، سائر الناس وليكن دعاؤه ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ التي هي القرآن الحكيم، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وهي مواعظ القرآن وقصصه وأمثاله وترغيبه وترهيبه، ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي الطريقة الخالية من السب والشتم والتعريض بالسوء فإن ذلك أدعى لقبول الخصم الحق وما يدعى إليه.

٢ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[فصلت: ٣٣]

والشاهد: ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. هذه شروط ثلاثة:

الأول: دعوته إلى الله تعالى بأنه يعبد فيطاع ولا يُعْصى ويذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر.

---

(١) التفسير القيم.

الثاني: وعمل صالحًا فأدى الفرائض واجتنب المحارم.

والثالث: وفاخر بالإسلام معتزًا به.

وقال إنني من المسلمين، فلا أحد أحسن قولاً من هذا الذي ذكرت شروط كماله، ويدخل في هذا أولاً الرسل وثانيًا العلماء وثالثًا المجاهدون ورابعًا المؤذنون وخامسًا الدعاة الهداة المهديون.

٣ ـ وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** [الأنفال: ٢٤].

◆ **الشاهد**: **﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** ينادي الرب تبارك وتعالى خلقه الذين آمنوا ويشرفهم بندائه ليكرمهم بما يأمرهم به أو ينهاهم عنه تربية لهم وإعدادًا لهم لسعادتهم في الدارين فيقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية **﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** فيه إشعار بأن أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ مثل النواهي لا تخلو أبدًا مما يحيي المؤمنين أو يزيد حياتهم أو يحفظها عليهم ويدعو المولى سبحانه إلى سرعة الاستجابة لأن الله تعالى قادر على أن يحول بين المرء وما يشتهي والمرء وقلبه.

من أقوال الرسول ﷺ

كانت لرسول الله ﷺ رسائل إلى أهل الجوار من المشركين وأهل الكتاب يدعوهم إلى دين الله، وكانت له ﷺ بعثات.

من البعثات:

١ ـ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ في حديث هجرة الحبشة ومن كلام جعفر بن أبي طالب في كلامه مع النجاشي ملك الحبشة، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ

الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله، لنوحده، ونعبده ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قال: فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به، واتبعناه.. [الحديث رواه أحمد]

وكذلك بعثة معاذ إلى أهل اليمن:

ومثل الرسائل، رسالته إلى هرقل ملك الروم، ورسالته لكسرى وغيرهما.

٢ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: الدار: الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس. [رواه البخاري]

والخلاصة

إن الدعوة إلى الله أصبحت ضرورة ملحة للناس كافة.

أولاً: لحاجة الناس إلى الدعوة.

ثانيًا: للقيام بالواجب المنوط على أكتاف الدعاة.

وليست الأولى بأحق من الثانية.

وصدق ابن القيم حين أورد: الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الأذى، ويبصرون بكتاب الله وأهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال قد هدوه - بفضل الله - بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، يغلبونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا، فما نسيهم ربك، وما كان ربك نسيًّا، جعل قصصهم هدى، وأخبر عن حسن مقالاتهم، فلا تقصر عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

٥١ مكارم النصيحة

النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له لوجوه الخير إرادة وفعلاً، وتشمل النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

قال ابن رجب الحنبلي: إن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، ولذلك فإنه ينبغي أن تكون سراً فيما بين الآمر والمأمور، وأما الإشاعة وإظهار العيوب فهو مما حرمه الله ورسوله، ومن حب إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

◆ **والشاهد**: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

◆ **والمعنى**: لقد أبيتم إلا تكذيبي وردّ قولي والإصرار على الشرك والفساد حتى هلكتم، فكيف أحزن ولا معنى للحزن والأسف على مثلكم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

◆ **والشاهد**: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾.

أي إن نصحي لا ينفعكم بمعنى أنكم لا تقبلونه مهما أردت ذلك وبالغت فيه إن كان الله جل جلاله يريد أن يغويكم لما فرط منكم وما أنتم عليه من عناد وكفر ومجاحدة ومكابرة؛ إذ مثل هؤلاء لا يستحقون هداية الله تعالى بل الأولى بهم الضلالة حتى يهلكوا ضالين فيشقوا في الدار الآخرة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ...﴾ [التحريم: ٨].

الشاهد: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ وهو أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بنداء كريم من رب العالمين، بالتوبة العاجلة النصوح التي لا يعود صاحبها إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

٢ ـ وعن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعيته فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة». [متفق عليه]

٣ ـ قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق». [متفق عليه]

قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يوصي ابنه عبد الملك بعد ما تولى الخلافة: أما بعد: فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنت، وإن من أحق من رعى ذلك وحفظه عني أنت، وإن الله تعالى له الحمد قد أحسن إلينا إحسانًا كثيرًا بالغًا في لطيف أمرنا وعامته إلى أن قال له: وإني لأعظك بهذا، وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم نفسه، ويكمل في الذي خلقه له لعبادة ربه، إذًا تواكل الناس الخير،

وإذًا يرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستحلت المحارم وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض، فلله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

* * *

٥٢ مكارم التعليم

هو أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفي منه شيئًا ولا يكتم بحال من الأحوال ولا تحمله رهبة على أن يكتم بعضًا مما أوحي إليه وأمر بإبلاغه للناس.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]. قيل معناه: أظهر التبليغ؛ لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفًا من المشركين، ثم أمر بإظهاره في هذه الآية، وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ أول من أظهر إسلامه وقال: لا نعبد الله سراً، وفي ذلك نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فدلت الآية على رد قول من قال: إن النبي ﷺ كتم شيئًا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة، ودلت على أنه ﷺ لم يسر إلى أحد شيئًا من أمر الدين، لأن المعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك ظاهراً، ولولا هذا ما كان من قوله عز وجل: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧] وقيل: بلغ ما أنزل إليك في أمر زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها وقيل غير هذا والصحيح، القول بالعموم.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والشاهد: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ وإن تولوا وأعرضوا فلا يضرك إعراضهم، إذ ما كلفت إلا البلاغ وقد بلغت، أما الحساب والجزاء فهو إلى الله تعالى البصير بأعمال عباده العليم بنياتهم وسوف يجزيهم بعلم ويقضي بينهم بحكم وهو العزيز الغالب على أمره الحكيم.

وفي صفة التبليغ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي الواضح الذي ليس معه شبهه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢، ٩٣].

والشاهد: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ﴾.

أولا: البلاغ وظيفة الأنبياء.

ثانيًا: الرسالات كلها تبلغ «اعبدوا الله» فكأنها رسالة واحدة.

ثالثًا: الكفر برسالة يوجب الكفر بكل الرسائل لأن الإيمان لمن آمن بكل ما جاء من عند الله.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

والشاهد: ﴿هَٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ إعلام، وإعلان وإرشاد وإنذار ولينذروا به.

وهذا القرآن بلاغ للناس من رب الناس قد بلغه إليهم رسول رب الناس ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي بما فيه من العظات والعبر والعرض لألوان العذاب وصنوف الشقاء لأهل الإجرام والشر والفساد ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ أي بما فيه من الحجج والدلائل والبراهين ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي معبود واحد لا ثاني له وهو الله جل جلاله فلا يعبدوا معه غيره إذ هو وحده الرب والإله الحق وما عداه فباطل.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ـ ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. قال: «فأي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس البلدة؟» قلنا: بلى قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم .... الحديث ثم قال: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت». [رواه مسلم]

٢ ـ قام رسول الله ﷺ بالخيف من مني فقال: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم». [رواه ابن ماجة]

٣ ـ عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله»، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعّار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه

ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم» قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن التبليغ وظيفة الأنبياء كلفهم الله بها ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وورثها العلماء بإذن من الله ورسوله وقد أشهد الرسول ﷺ الناس «ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟، اللهم اشهد».

* * *

٥٣ مكارم الاستئذان

هو فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعًا شرعًا.

قال قتادة في معنى ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ هو الاستئذان ثلاثًا فمن لم يؤذن له فليرجع. أما الأولى: فليسمع الحيّ، وأما الثانية: فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا، ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر(١).

١ - قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

[النساء: ٦٤]

الشاهد: ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

والمعنى: بعد تقرير خطأ وضلال من أراد أن يتحاكما إلى الطاغوت كعب بن الأشرف اليهودي وهما اليهودي والمنافق في الآيات التي سبقت هذه الآية أخبر سبحانه في هذه الآية أنه تعالى ما أرسل رسولًا من رسله المئات إلا وأمر المرسل إليهم بطاعته واتباعه والتحاكم إليه وتحكيمه في كل ما يختلفون فيه وذلك أمره وقضاؤه وتقديره فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن.

٢ - وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

---

(١) من تفسير ابن كثير.

والشاهد: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمعنى: يُعَلِمُ الله رسوله والمؤمنين هذا الأدب الجم، أنه إذ كان الناس في أمر جامع كجمعة أو اجتماع لحرب أو أي أمر مجتمع فيه، لم يذهبوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذن لمن يشاء، ويعرض سبحانه على المنافقين، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وعرف أنه خلاف فعل المؤمنين هو فعل المنافقين.

٣ - قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

[الأحزاب: ١٣]

والشاهد: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾.

والمعنى: أي يطلبون الإذن لهم بالعودة إلى منازلهم بالمدينة بدعوى أن بيوتهم عورة أي مكشوفة أمام العدو وهم لا يأمنون عليها وأكذبهم الله تعالى في قولهم فقال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ما يريدون بهذا إلا الفرار من وجه العدو.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده.........الحديث» إلى أن يقول ﷺ: «فيأتوني، فأنطلق حتى استأذن على ربي فيؤذن، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء، ثم يقال أرفع رأسك ......الحديث»

[متفق عليه]

٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صدته، فلما استأذن عمر فمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، فدخل عمر ـ ورسول الله ﷺ يضحك ـ فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب» قال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ فقلن: نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «إيهًا، يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط إلا سلك فجًا غير فجك». [رواه البخاري]

٣ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إن النبي ﷺ كان يومًا يحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ أن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال: أولست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع، فأسرع وبذر، فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: (دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء)، فقال الأعرابي: يا رسول الله، لا تجد هذا إلا قرشيًا أو أنصاريًا فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله ﷺ. [رواه البخاري]

والخلاصة

أن أدب الاستئذان، من الآداب التي أدب بها الله تعالى عباده قد رتب الله استئذان الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ...... الآية﴾ وقال تعالى في الذين بلغوا الحلم ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقال في أمر استئذان الناس على الآخرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ...... الآية﴾.

* * *

٥٤ مكارم إفشاء السلام

هو نشره سراً أو جهراً.

قال الغزالي: السلام هو الذي تسلم ذاته عن العيب وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، حتى إذا كان كذلك، لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه وصادرة منه.

وقال ابن منظور: السلام - عز وجل - اسم من أسمائه لسلامته من النقص والفناء، وقيل معناه: أنه سلم مما يلحقه الغير من آفات الغَيرِ والفناء، وأن الباقي الدائم الذي يفني الخلق ولا يفنى وهو على كل شيء قدير.

١ - قال الله تعالى: **﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الحشر: ٢٣].

◈ **والشاهد**: أنه اسم من أسماء الله تعالى.

◈ **والمعنى**: ذو السلامة من كل نقص الذي لا يطرأ عليه النقص المصدق رسله بالمعجزات.

٢ - وقال الله تعالى: **﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾** [ق: ٣٤].

أي ادخلوا الجنة بسلام أي مسلماً عليكم وسالمين من كل خوف كالموت والمرض والألم والحزن وزوال النعمة بعد يوم الخلود، وهذا هو يوم الخلود.

٣ - وقال تعالى: **﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾**

[مريم: ٣٣]

◈ **والشاهد**: **﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ﴾**.

والمعنى: أنه أخبر عليه السلام أن عليه السلام التام والأمان يوم ولد فلم يقربه شيطان ويوم يموت فلا يفتن في قبره ويوم يبعث حيًا فلا يحزنه الفزع الأكبر ويكون من الآمنين السعداء في دار السلام.

٤ ـ وقال الله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

والشاهد: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

والمعنى: أن نعيم الجنة روحاني وجسماني، أما الجسماني يحصلون عليه بقولهم: سبحانك اللهم والروحاني يحصلون عليه بسلام الله تعالى عليهم وملائكته وهذا معنى تحيتهم فيها سلام وإذا فرغوا من المآكل والمشارب قالوا: الحمد لله رب العالمين.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة». [رواه أبو داود وصححه الألباني]

٢ ـ وقال رسول الله ﷺ: «أعجز الناس من عجز عن الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام». [رواه الطبراني في الأوسط]

٣ ـ عن أبي واقد الليثي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على رسول الله ﷺ سلما، فأما أحدهما، فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الآخر فأدبر ذاهبًا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن السلام اسم من أسماء الله تعالى وأمر سبحانه بإفشائه وسن الرسول ﷺ له سنن وآداب وجعله تحية المسلمين وهو فوق ذلك تحية أهل الجنة.

فإنه ﷺ كان يسلم على الصغير والكبير والنساء والعبيد وكان يأمر أن يسلم الماشي على الجالس والراكب على الماشي والقليل على الكثير، وسن له صيغة وهي السلام عليكم أو السلام عليكم ورحمة الله أو يزيد وبركاته.

وأمر الله تعالى بالصلاة والسلام على النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦].

والسلام من أسماء الجنة فهي دار السلام.

* * *

55 مكارم الصلح

مأخوذ من الصلح: والصلح: عقد يرفع النزاع وهو بمعنى المصالحة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضى الله سبحانه ورضى الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب قاصداً للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨].

◈ والشاهد: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

◈ والمعنى: لا نكلف المرسلين إلا بحمل البشارة بالنجاة ودخول الجنة، لمن آمن وعمل صالحًا والنزارة لمن كفر وعمل سوءاً ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

◈ والشاهد: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

◈ والمعنى: أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يآخذهم باللغو في أيمانهم وهو أن يحلف الرجل على الشيء يظنه كذا فيظهر على خلاف ما ظن، أو أن يجري على لسانه ما لا يقصده من الحلف كقوله، لا والله، وبلى والله، فهذا مما عفا الله عنه لعباده فلا إثم فيه ولا كفارة تجب فيه، ونهى الله تبارك وتعالى عباده

(١) من أعلام الموقعين.

المؤمنين أن يجلعوا الحلف به مانعًا من فعل الخير وذلك كأن يحلف العبد أن لا يتصدق على فلان أو أن لايكلم فلانًا أو أن لا يصلح بين اثنين.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

◈ **والشاهد**: ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

◈ **والمعنى**: واعد الله تعالى موسى أن يناجيه بجبل الطور وجعل له الموعد الذي يلقاه فيه شهراً ثلاثين يوماً وكانت شهر القعدة وزادها الله عشراً من أول الحجة فتم الميقات أربعين ليلة. وعند خروجه عليه السلام استخلف في بنى اسرائيل أخاه هارون وأوصاه بالإصلاح، ونهاه عن اتباع المفسدين، والإصلاح هنا بمعنى الرفق.

٤ ـ وقال سبحانه ـ ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

◈ **والشاهد**: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

◈ **والمعنى**: ويفتح الله باب الرجاء فيقول: (والذين يمسّكون بالكتاب) أي يعملون بحرص وشدة بما فيه من الأحكام والشرائع ولا يفرطون في شيء من ذلك وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين. ومعنى هذا أنهم مصلحون إن تمسكوا بالكتاب وأقاموا الصلاة، وأن الله تعالى سيجزيهم على إصلاحهم لأنفسهم ولغيرهم أعظم الجزاء وأوفره، لأنه تعالى لا يضيع أجر المصلحين.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا ».

[رواه مسلم]

٢ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول: والله لا أفعل فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: « أين المُتألي على الله لا يفعل المعروف؟ فقال: يارسول الله فله أي ذلك أحب ». [رواه البخاري]

٣ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: « توفي أبي وعليه دين فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاء فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: إذا جددته فوضعته في المربد اذنت رسول الله ﷺ. فجاء ومعه أبو بكر وعمر فجلس عليه ودعا بالبركة ثم قال: « ادع غرمائك فأوفهم » فما تركت أحداً له على أبى دين إلا قضيته وفضل ثلاثة عشر وسقًا: سبعة عجون وستة لون، فوافيت مع رسول الله ﷺ المغرب فذكرت ذلك له فضحك فقال: ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما فقالا: لقد علمنا ـ إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع ـ أنه سيكون ذلك ». [رواه البخاري]

والخلاصة

إن الإصلاح خير كله إذ قال ربنا تبارك وتعالى: «والصلح خير وقال: اتركوا هذين حتي يصطلحا وسوى بينهما وبين المشركين في عدم الغفران، إذ تأخر غفران ذنوبهما حتى يصطلحا.

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - إذا أتاك رجل ليشكو إليك رجلاً فقل يا أخي اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو ولكن أنتصر كما أمرني الله - عز وجل - قل: فإن كنت تحسن تنتصر مثلاً بمثل وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب أوسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام الليل على فراشه، وصاحب الانتصار يقلب الأمور[1].

* * *

(١) حلية الأولياء.

٥٦ مكارم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هو الأمر بكل خير والنهي عن كل شر. أو هو الدلالة على الخير والمنع عن الشر.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه **﴿وَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: ٦٣].

فينبغي لطلب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله ـ عز وجل ـ أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه، وعلى الآمر بالمعروف أن يخلص نيته ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته لأن الله تعالى قال: **﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**. وقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾**. وقال تعالى: **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** واعلم أن الأجر على قدر النصب ولا يتركه أيضاً لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقاً ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته. ثم قال: لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه الأمر والنهي لا القبول، كما قال عز وجل: **﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾**.

وعلى الآمر الناهي أن يكون كامل الحال ممتثلًا ما يأمر به مجتنبًا ما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر، قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [آل عمران: ١١٠].

والشاهد: **﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾** أي أنتم خير أمة **﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾** بشرط **﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**.

٢ ـ وقال تعالى لرسوله ﷺ: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩]

والشاهد: **﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾**.

والمعنى: علَّم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يحاج المشركين لإبطال باطلهم في عبادة غير الله تعالى والإشراك به عز وجل علم في هذه الآية أسمى الآداب وأرفعها وأفضل الأخلاق وأكملها فقال: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** أي خذ ما سهل من أخلاق الناس وتيسر لهم فعله، ولا تطالبهم بما لا يملكون أو بما لا يعلمون أمرهم بالمعروف وأعرض عن الجاهلين منهم لا تعنفهم ولا تغلظ القول لهم فقد سأل ﷺ جبريل عليه السلام عنها فقال: تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك.

٣ ـ وقال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ٩٠].

◆والشاهد: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

◆والمعنى: أي إن الله يأمر في الكتاب الذي أنزله تبيانًا لكل شيء، يأمر بالعدل وهو الإنصاف ومن ذلك أن يعبد الله بذكره وشكره لأنه الخالق المنعم وتترك عبادة غيره لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم بشيء والإحسان وهو أداء الفرائض واجتناب المحرمات مع مراقبة الله في ذلك حتى يكون الأداء على الوجه المطلوب اتقانًا وجودة والاجتناب خوفًا من الله حياءً منه، وينهى عن الفحشاء (جميعها) والمنكر غير المستساغ لدى الطباع السلمية والبغي (الظلم).

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

[رواه الترمذي وقال: حديث حسن وحسنه الألباني]

٢ - وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة» قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: «فليأمر بالخير» أو قال: «بالمعروف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيمسك عن الشر، فإنه له صدقة».

[متفق عليه واللفظ للبخاري]

٣ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». [رواه مسلم]

والخلاصة

كما جمعها الإمام الغزالي - رحمه الله - إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطبت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخزق، وخربت البلاد وهلكت العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلاقي هذه الفترة، وسد هذه الثملة إما متكلفًا بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الدائرة ناهضًا بأعبائها ومستثمراً في إحيائها، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها.

* * *

٥٧ مكارم الولاء والبراء

والولاء ضد البراء، **والولاء**: هو التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا، لمن يتخذه الإنسان وليًا.

والبراءة: هي انقطاع العصمة.

قال ابن حجر: والمراد لولي الله العالم بالله تعالى المواظب على طاعتة المخلص في عبادته وقيل إن لفظ الموالاة مشتق من الولاء، وهو الدنو والتقرب والولاية ضد العداوة، والولي عكس العدو، والمؤمنون أولياء الرحمن، والكافرون أولياء الطاغوت والشيطان، لقرب الفريق الأولى من الله بطاعته وعبادته، وقرب الفريق الثاني من الشيطان بطاعتهم أوامره وبعدهم عن الله بعصيان ومخالفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: على المؤمن أن يعادي في الله ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه ـ وإن ظلمه ـ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية. وإذا اجتمع في الرجل الواحد: خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾**

[آل عمران: ١٤٩ ـ ١٥٠]

والمعنى: إن المنافقين لما رؤوا هزيمة المؤمنين في أحد قالوا في المؤمنين: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد ﷺ نبيًا لما قتل إلى آخر ما من شأنه أن يقال في تلك الساعة الصعبة من الاقتراحات التي قد كشف عنها هذا النداء

الإلهي للمؤمنين وهو يحذرهم من طاعة الكافرين فأنزل سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. فلا شك أن الكافرين قد طالبوا المؤمنين بطاعتهم بتنقيذ بعض الاقتراحات التي ظاهرها النصح وباطنها الغش والخديعة، فنهاهم الله تعالى عن طاعتهم في ذلك وهذا النهى وإن نزل في حالة خاصة فإنه عام في المسلمين على مدى الحياة فلا يحل طاعة الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم وفي كل ما يأمرون به أو يقترحونه، ومن أطاعهم ردوه عن دينه إلى دينهم فينقلب: يرجع خاسراً في دنياه وآخرته والعياذ بالله، ثم أمر سبحانه بطاعته تعالى إذ هو أولى بذلك لأنه ربهم ووليهم ومولاهم فهو أحق بطاعتهم من الكافرين فقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾.

فأطيعوه ولا تطيعوا أعداءه وإن أردتم أن تطلبوا النصر بطاعة الكافرين فإن الله تعالى خير الناصرين فاطلبوا النصر منه بطاعته فإنه ينصركم.

٢ - وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

والمعنى: علّم الله سبحان رسوله ﷺ ما يقوله إغاظة لأولئك المنافقين وإخباراً لهم بما يسؤهم فقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾. أى من حسنة أو سيئة وما يكتبه ربنا لنا لن يكون إلا خيراً لأنه مولانا، ونحن مؤمنون وعلى ربنا متوكلون.

٣ - قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

[الممتحنة: ٤]

والمعنى: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ـ من أصنام وأوثان «كفرنا بكم فلم نعترف لكم بوجود يقتضي مودتنا ونصرتنا لكم وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء بصورة مكشوفة لاستار عليها لأننا موحدون وأنتم مشركون لأننا مؤمنون وأنتم كافرون وسوف تستمر هذه المعاداة وهذه البغضاء بيننا وبينكم حتى تؤمنوا بالله وحده ربًا وإلهًا لارب غيره ولا إله سواه إذًا فأتسوا أيها المسلمون بإمام الموحدين إبراهيم عليه السلام اللهم إلا ما كان من استغفار إبراهيم لابنه فلا تأتسوا به فتستغفروا الموتاكم فإن إبراهيم قد ترك ذلك لما علم أن أباه لا يؤمن وأنه يموت كافراً.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: إن الله قال: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددى عن المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته». [رواه البخاري]

٢ ـ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذا راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا، أو قبري «فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: إن أولى الناس لي المتقون من كانوا وحيث كانوا». [رواه أحمد]

٣ ـ وعن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: « لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر ـ اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. الهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها». [رواه مسلم]

والخلاصة

إن الولاء والبراء هو حياة قلب المؤمن إذا لا يكون مؤمنًا إلا من أحب في الله وأبغض في الله وهي أوثق عرى الإيمان ورحمه الله الإمام ابن تيمية إذ يقول: ليس للقلوب سرور ولا لذة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهى ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين، أما شقها الثاني .محمد رسول الله: فمعناه تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر ومن هنا كانت لا إله إلا الله ولاءًا وبراءًا نفيًا وإثباتًا.

* * *

٥٨ مكارم الشكر

هو عرفان الإحسان ونشره.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين: الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة..

ومن الأسماء الحسنى المتصف بها الله تعالى الشكور. وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بغير عد ولا حساب. ومن شكره أنه يجزي بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وقد يجزي الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الأجل، وليس عليه حق واجب بمقضي أعمال العباد، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرمًا منه وجوداً، والله لا يضيع أجر العاملين إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى(١). شرح الشافية الكافية.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١].

والشاهد: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾.

والمعنى: أمر تعالى المؤمنين بذكره وشكره ونهاهم عن نسيانه وكفره لما في ذكره بأسمائه وصفاته ووعده ووعيده من موجبات محبته ورضاه، ولما في شكره بإقامة الصلاة وأداء سائر العبادات من مقتضيات رحمته وفضله، ولما في نسيانه وكفران من التعرض لغضبه وشديد عقابه وأليم عذابه.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

❖ **والشاهد**: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

❖ **والمعنى**: أن حقيقة الخلق هذه حقيقة لا تنكر، الله الذي أخرجنا من بطون أمهاتنا بعد أن صورنا في الأرحام ونمانا حتى صرنا بشراً ثم أذن بإخراجنا، وخرجنا لانعلم شيئًا قط، هذه أية القدرة الإلهية والعلم والإلهي والتدبير الإلهي، فهل للأصنام شيء من ذلك؟ والجواب لا، وثانيًا جعل الله تعالى لنا الأسماع والأبصار والأفئدة نعمة أخرى، إذ لولا ذلك ما سمعنا ولا أبصرنا ولا عقلنا وما قيمة حياتنا يومئذ، إذ العدم خير منها. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. كشف كامل عن سر هذه النعمة وهى أن جعلنا نسمع ونبصر ونعقل ليكلفنا فيأمرنا وينهانا فنطيعه بامتثال أوامره واجتناب نواحيه وذلك شكره منا مع ما في ذلك الشكر من خير، إنه إعداد للسعادة في الدارين، فهل من متذكر يا عباد الله؟.

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٥].

❖ **والشاهد**: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾. أي كان إنجاؤهم إنعامًا منا عليهم ورحمة منا بهم، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾. أي كهذا الإنجاء أي من العذاب الدنيوى نجزى من شكرنا فأمن بنا وعمل صالحًا طاعة لنا وتقربًا إلينا.

٤ ـ وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

❖ **والشاهد**: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

❖ **والمعنى**: ولما ذكر تعالى إنعامه على آل داود وشكرهم له أخبر أنه قليل من عباده من يشكر إنعامه عليه ذكر أولاد سبأ وأنه أنعم عليهم بنعم عظيمة

وأنهم ما شكروها فأنزل بهم نقمته وسلبهم نعمته وذلك جزاء لكل كفور؛ لقد كان لسبإٍ وهم الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، ومن أنمار جنعم وبجيلة ومن أولاد سبأ أربعة سكنوا في الشام وهم: لخمه وجدام وغسان وعاملة، وأبوهم سبأ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾. أي في مسكنهم علامة على قدرة الله وإفضاله على عباده وهى ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾. الوادي أي جنتان عن يمين الوادي وأخرى عن شماله كلها فواكه وخضر، تسقى بماء سد مأ رب ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾. أي قلنا لهم كلوا من رزق ربكم ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾. أي هذا الإنعام بالإيمان به وبرسله وطاعته وطاعة رسله. وقوله ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾. أي هذه بلدة طيبة وهي صنعاء اليمن مناخها طيب وتربتها طيبة لا يوجد بها وباء ولا الهوام ولا حشرات ولا العقارب ونحوها، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾. يغفر ذنوبكم متى أذنبتم وتبتم واستغفرتم. ولكن أبطرتهم هذه النعمة فكفروها ولم يشكروا.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «خصلتان من كانت فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن لم تكن فيه لم يكتبه الله شاكرًا ولا صابراً من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً. [رواه الترمذي وقال حسن]

٢ ـ قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة: يا ابن آدم حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء وجعلتك تربع وترأس، فأين شكر الله؟».

[رواه مسلم]

٣ ـ وقال ﷺ: «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح، وأنواعه ثلاثة :ـ شكر القلب وشكر اللسان وشكر سائر الجوارح. وقواعده خمس: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته والثناء عليه بها وألا يستعملها فيما يكره.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ عليكم بملازمة الشكر على النعم فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم».

* * *

٥٩ مكارم الثناء

هو الكلام الجميل وقل: هو الذكر بالخير. قال الزجاج: سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه(١).

١ ـ قال الله تعالى: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

والمعنى: من المناسبات التي قيلت في نزول هاتين الآيتين: أن الرسول ﷺ لما أخبر أصحابه أن ملك أمته سيبلغ كذا وكذا في أحاديث صحاح سخر اليهود والمنافقون من إخبار الرسول ﷺ بذلك مستبعدن له غاية البعد لجهلهم وكفرهم فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين ضمن الرد على نصارى نجران فأمره أن يقول: **﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾**. الآية أمره أن يقول ذلك ليعطيه ما وعده به من اتساع ملك أمته حتى يشمل ملك فارس والروم وليرد على ضلال النصارى في تأليه عيسى عليه السلام، إذ المعبود بحق المستحق للعبادة والتأليه دون سواه من هو مالك الملك كله، ويتصرف فيه وحده يؤتي منه ما يشاء لمن يشاء، وينزع ممن أعطاهم ما شاء متى شاء لا يحول دون تصرفه حائل، ولا يقف دون إعطائه أو نزعه واقف، يعز الذليل متى شاء ويذل العزيز متى شاء واقف بيده الخير لا بيد غيره يفيضه على من يشاء، ويمنعه عمن شاء وهو على كل شيء قدير. يولج الليل في النهار فلا يبقى ليل ويولج النهار في الليل فلا يبقى

(١) التفسير الكبير.

نهار، مظهر من مظاهر القدرة الموجبة لألوهيته وطاعته ومحبته، ويدخل ساعات من الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار، ويدخل ساعات من النهار في الليل فيطول، مظهر من مظاهر الحكمة والقدرة والرحمة، يخرج الحي من الميت الإنسان من النطفة والنبتة من الحبة ويخرج الميت من الحي النطفة من الإنسان الحي والبيضة من الدجاجة، والكافر الميت من المؤمن الحي، والعكس كذلك، هذه مظاهر ربوبيته المستلزمة لألوهيته فتقرر أنه الإله الحق، لا رب غيره ولا إله سواه، وبذلك تأكد أمران: الأول: أن الله قادر على إعطاء رسوله ﷺ ما وعده لأمته، وقد فعل، والثاني: إن عيسى لم يكن إلا عبداً مربوباً لله بالعبودية وشرفه بالرسالة وأيده بالمعجزات.

٢ ـ وقال تعالى: **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾**

[النساء: ٤٥]

والشاهد: **﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾**.

والمعنى: والله أعلم بأعدائكم الذين يودون ضركم ولا يودون نفعكم، أخبركم بهم لتعرفوهم وتجتنبوهم فتنجوا من مكرهم وتضليلهم، **﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾**. لكم تعتمدون عليه وتفوضون أمركم إليه وكفى بالله نصيراً ينصركم عليهم وعلى غيرهم فاعبدوه وتوكلوا عليه.

٣ ـ قال تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا**

وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٥].

أخبر تعالى أنه أعلم بالظالمين المستحقين للعقوبة وهو سبحانه أعلم بالصغيرة والكبيرة وهو عز وجل يعلم أكثر من ذلك فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ودليل ذلك أنه عنده مفاتح الغيب أي خزائن الغيب وهو الغيب الذي استأثر بعلمه فلا يعلمه سواه، ويعلم ما في البر والبحر وهذا من عالم الشهادة، إضافة إلى ذلك أن كل شيء كان أو يكون من أحداث العالم قد حواه كتاب له اسمه اللوح المحفوظ، وهو ما نزل عليه قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. وما كتبه قبل وجوده فقد علم إذًا عالم الغيب والشهادة وأحصى كل شيء علمًا، فكيف إذًا لا يعبد ولا يرغب ولا يرهب منه وأين هو في كماله وجلاله من أولئك الأموات من أصنام وأوثان؟ ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾. حال نومكم إذ روح النائم تقبض ما دام نائمًا ثم يرسل إليه عند إرادة الله بعثه من نومه أي يقظته، وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾. أي في النهار المقابل وعلة هذا أن يقضى ويتم الأجل الذي حدده تعالى للإنسان يعيشه وهو مدة عمره طالت أو قصرت وهو معنى ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾. لا محالة وذلك بعد نهاية الأجل، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾. بعلم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. من خير وشر ويجازيكم بذلك وهو خير

الفاصلين. وفي الآية الثالثة يخبر تعالى عن نفسه أيضًا تقريرًا لعظيم سلطانه الموجب له بالعبادة والرغبة والرهبة إذ قال مخبراً عن نفسه . وهو القاهر فوق عباده ذو القهر التام والسلطان الكامل على الخلق أجمعين.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والشاهد: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

والمعنى: أي محصين لأعمال العباد لعلمنا المحيط بكل شيء قدرتنا التي لا يعجزها شيء ـ ألا فلنتق الله أيها العقلاء!!

٥ ـ وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ وقال الرسول ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثًا غير تام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ قل: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل. فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي وإذا قال: ما لك يوم الدين. قال: مجدنى عبدي (وقال مرة): فوض إليّ عبدى. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين قال: هذا بينى وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». [رواه مسلم]

٢ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء. قالت: فغرت يومًا فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشرق قد أبدلك الله - عز وجل - بها خيراً منها قال: ما أبدلني الله - عز وجل - خيراً منها - قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله - عز وجل - ولدها إذ حرمني أولاد النساء». [رواه أحمد]

٣ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». [رواه مسلم]

٤ - عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ ، إذا رفع مائدته قال: الحمد لله كثيراً طيبًا مباركًا فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». [رواه البخاري]

والخلاصة

والثناء على الله هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه تعظيمه فلا بد فيه من اقتران الإرادة بالخير بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد. قال الشافعي: رحمه الله تعالى: أحب أن يقدم المرء حمد الله تعالى والثناء عليه سبحانه وتعالى والصلاة على رسول الله ﷺ.

* * *

٦٠ مكارم الاعتصام

هو الاستمساك بالكتاب والسنة والتمسك بعهد الله على عباده وهو الإيمان والطاعة.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ الاعتصام نوعان اعتصام بالله واعتصام بحبل الله ـ قال الله تعالي: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]. ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله؛ فإنه عصمة من الضلالة، والاعتصام به سبحانه. يعصمه من الهلكة، فإن السائر إلى الله كا لسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

والشاهد: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾.

◈**والمعنى**: أرشد الله عباده إلى الاعتصام بدين الله وبشر المعتصمين بالهداية إلى طريق السعادة وأمرهم بالتمسك بالإسلام عقيدة وشريعة ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأرشدهم إلى ذكر نعمته تعالى عليهم بالألفة والمحبة التي كانت ثمرة هدايتهم للإيمان والإسلام، بعد أن كانوا أعداء متناحرين مختلفين فألف بين قلوبهم فأصبحوا بها إخوانًا متحابين متعاونيين كما كانوا قبل نعمة الهداية إلى الإيمان على شفا جهنم لومات أحدهم يومئذ لوقع فيها خالداً أبداً، وكما أنعم عليهم وأنقذهم من النار مازال يبين لهم الآيات الدالة على طريق الهداية الداعية إليه ليثبتهم على الهداية ويكلمهم فيها.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

◈**والشاهد**: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ٢٢].

◈**والشاهد**: ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾. والمعنى بعد إقامة الحجة على المشركين في عبادتهم غير الله وتقليدهم لآبائهم في الشرك والشر والفساد. قال تعالى مرغبًا في النجاة داعيًا إلى الإصلاح: ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ**﴾. أي يقبل بوجهه وقلبه على ربه يعبده متذللاً له خاضعًا لأمره ونهيه ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾. أي والحال أنه محسن في عبادته إخلاصًا فيها لله. واتباعًا في أدائها لرسوله ﷺ ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ**﴾. أي قد أخذ بالطرف الأوثق فلا يخاف انقطاعًا أبدًا وقوله تعالى: ﴿**وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾. يخبر تعالى أن راد الأمور كلها لله تعالى يقضي فيها بما يشاء فيفوض العبد أموره كلها لله إذ هي عائدة إليه فيتخذ بذلك له يدًا عند ربه.

٤ ـ وقال الله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

◈ والشاهد: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾.

◈ والمعنى: أي استمسك يا رسولنا بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك إنك على طراط مستقيم وهو الإسلام الذي لا شقي من تمسك به فعاش عليه ومات عليهم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال». [رواه مسلم]

٢ ـ عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا، بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقليه: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به فحث على كتاب الله، ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتى، أذكركم الله في أهل بيتى، أذكركم الله في أهل بيتى، أذكركم الله في أهل بيتى». [رواه مسلم]

والخلاصة

فإن الاعتصام بالله وبدينه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الاستعانة به سبحانه والاستمساك بدينه وشرعه.

وقال ابن بطال: لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله، أو في سنة رسوله، أو في إجماع العلماء على معنى في أحدهما. [فتح الباري]

* * *

٦١ مكارم الولاء والبراء

هي حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى أو هي بذل المستطاع في أمر المطاع.

قال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالى: **﴿أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾** [النازعات: ٤٠]. ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفرلها في الآخرة.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾** [الكهف: ٢٨].

والشاهد: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾**.

والمعنى: أن الله تعالى يوجه الرسول الله ﷺ أن لا يقبل من المشركين أن يبعد الفقراء كبلال، وصهيب وغيرهما ليجلسوا إليه ويسمعوا منه، وأمره أن يحبس نفسه مع أولئك الفقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم في صلاتهم في الصباح والمساء لا يريدون بصلاتهم وتسبيحهم ودعائهم عرضًا من أعراض الدنيا وإنما يريدون رضا الله ومحبته بطاعته في ليلهم ونهارهم. ولا تعد عيناك عنهم أي لا تتجاوز ببصرك هؤلاء المؤمنين الفقراء إلى أولئك الأغنياء تريد مجالستهم للشرف والفخر.

٢ ـ قال الله تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾** [الشمس: ٧ ـ ٩].

◈والشاهد: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

◈والمعنى: أي خلقها وسوى خلقها، وألهمها، أي بين لها الخير والشر أي ما تعلمه من الصالحات ما تجنبه من المفسدات فأقسم تعالى بأربع من مخلوقاته العظام وبنفسه وهو العلي العظيم على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾. وهو المقسم عليه وهو أن من وفقه الله وأعانه فزكى نفسه أي طهرها بالإيمان والعمل الصالح مبعداً لها عما يدنسها من الشرك والمعاصي فقد أفلح بمعنى فاز يوم القيامة وذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة لأن معنى الفوز لغة هو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب وأن من خذله الله تعالى لما له من سوابق من الشر والفساد فلم يزكي نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ودسها أي دسها أخفاها وأضمحلها بما أفرغ عليها من الذنوب وما غطاها من آثار الخطايا والآثام فقد خاب بمعنى خسر في آخرته فلم يفلح فخسر نفسه وأهله وهو الخسران المبين.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن سبرة بن أبي فاكه - رضي الله عنه - قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، قعد في طريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؛ فعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتزر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعدله بطريق الجهاد، فقال: تجاهد، فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد، قال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، وإن غَرِق كان حقًا على الله أن

يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ».

[رواه النسائي وصحيحه ابن حبابه]

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله ـ عز وجل ـ: « أنا عند ظن عبدي به، وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكري في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم. وإن تقرب إليّ شبراً، تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا. وإن أتاني يمشي أتيته هروله ». [متفق عليه]

٣ ـ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ: « إذا صلى، قام حتى تفطر رجلاه، فقالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: « يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ». [متفق عليه]

والخلاصة

أن مجاهدة النفس رياضات مطلوبة، يتخطى بها من درجة إلى درجة، ولها أوجه وهي القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات.

ومن قلة الكلام السلامة من الآفات. ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات. وليس على عبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء، والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام

فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيتها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات، كالفرس الفاره في الميدان وكالملك المتنزه في البستان[١].

* * *

(١) إحياء علوم الدين.

٦٢ مكارم الاجتماع

هو أن يجتمع المسلمون على كتاب الله وسنة رسول ﷺ.

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. إن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة، روى عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في الآية الكريمة أن حبل الله هو الجماعة، وقال: «القرطبى»: يجوز أن يكون المعنى: ولا تفرقوا متابعين الهوى والأغراض المختلفة بدليل قولة تعالى بعد ذلك: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. وليس في الآية دليل على تحريم الاختلاف في الفروع؛ لأن الاختلاف يتعذر معه الائتلاف والجمع، وليست كذلك مسائل الاجتهاد، لأن الاختلاف فيها يسبب إستخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابة ـ رضوان الله عليهم، يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متألفون». [تفسير القرطبي (٤/ ١٥٩)]

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

◈ **والشاهد:** ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

◈ **والمعنى:** ومن يشاقق (يعادي ويقاطع ويحاد) الرسول ﷺ من بعد ما تبين له أن رسول الله ﷺ حقًا جاء بالهدى ودين الحق، ثم هو مع معاداته للرسول ﷺ يخرج من جماعة المسلمين ويتبع غير سبيلهم ـ هذا الشقى الخاسر ـ قوله ما قوله: أي نتركه لكفره وضلاله خذلانًا له في الدنيا ثم نصله نار جهنم يحترق فيها، وبئس المصير، جهنم يصير إليها المرء ويخلد فيها.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

والشاهد: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

والمعنى: جمع الله بين القلوب المتنافرة المنطوية على الإحن والعداوات ولأقل الأسباب وأتفهها، لقد كان الأنصار يعيشون على عداوة عظيمة فيما بينهم حتى إن حربًا وقعت بينهم مائة وعشرون سنة فلما دخلوا الإسلام اصطلحوا وزالت كل الآثار التي سببتها العداوة والبغضاء وأصبحوا جسمًا واحداً من فعل هذا سوى الله تعالى؟ اللهم لا أحد، ولذا قال تعالى لرسوله ﷺ ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. أي من مال صامت وناطق ﴿مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه...... الحديث». [متفق عليه]

٢ ـ عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمي». [متفق عليه]

٣ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال: «أو صيكم بأصحابي، ثم

الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشوا الكذب، حتى يحلف الرجل ولا يستخلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا وكان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن» . [رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

والخلاصة

أن الاجتماع (جمع كلمة المسلمين على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ) من أسمى القيم التي جاءت بالإسلام، وروحه لذا قال الإمام الشافعي في الأم أحب كراهية من كره الصلاة في المسجد الذي فيه إمام راتب بعد الجماعة الأولى خلف إمام آخر - إنما كان لتفرقة الكلمة، وأن يرغب الرجل عن الصلاة خلف إمام جماعة فيخلف هو من أراد عن المسجد في وقت الصلاة، فإذا قضيت دخلوا فجمعوا، فيكن في هذا اختلاف وتفرق كلمة .

* * *

٦٣ مكارم الألفة

هي ميلان القلب إلى المألوف.

قال الماوردي: إن الألفة الجامعة هي إحدى القواعد المهمة التي يصلح بها حال الإنسان، وذلك أن الإنسان المقصود بالأذية محسود بالنعمة، فإذا لم يكن آلفًا مألوفًا تخطفته أيدى حاسديه، وتحكمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تصف له مدة فإذا كان ألفًا مألوفًا انتصر بالألفة على أعادية، وامتنع من حاسديه، فسلمت نعمته منهم، وصفت له مدته (فعيشته) عنهم، وإن كان صفو الزمان عسراً وسلمه خطراً.

١ - قال الله تعالى: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال: ٦٢-٦٣].

◈ والشاهد: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾**.

◈ والمعنى: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾**. أي بالميل إلى السلم والجنوح إليها **﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾**. أي كافيك إنه **﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾**. أي في بدر **﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾**. أي جمع بين تلك القلوب المتنافرة المنطوية على الإحن والعداوات وكانت نعمة الإسلام هي سبب ذلك التأليف وتلكم الألفة وهي التي تحدث عنها ربنا فقال **﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾**.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

والشاهد: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾.

والمعنى: ما زال السياق في عرض مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية وهي الموجبة لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾. أي ألم ينته إلى علمك يا رسول الله أن الله يزجي سحباً أي يسوقه برفق وسهولة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾. أي يجمع بين أجزائه فيجعله ركامًا أي متراكمًا بعض على بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾. أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. أي من فتوقه وشقوقه. والخلال جمل خلل كجبال جمع جبل وهو الفتوح بين أجزاء السحاب وهو مظهر من مظاهر القدرة والعلم.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾. أي ينزل برداً من جبال البرد المتراكمة في السماء فصيب بذلك البرد من يشاء فيهلك به زرعه أو ماشيته، ويصرفه عن من شاء من عباده فلا يصيبه شيء من ذلك وهذا مظهر آخر من مظاهر القدرة واللطف الإلهي.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «بعث عليّ ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي ﷺ بذهبية، فقسمها بين الأربعة: الأفزع بن جابر الحظلي ثم الجاشعي، وعينيه بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني ثبها، وعلقة بن علاثة العامري، أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطس صنادير أهل نجد ويدعنا، قال: «إنما أتالفهم، فأقبل رجل غائر العنينين مشرف

الوجنتين، نائيء الجبين، كث اللحية محلوق، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: من يطع الله إذا عصيت؟ يأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنونى؟ فسأله رجل قتله - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولى قال: إن من ضئضئ هذا - أو: في عقب هذا - قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». [متفق عليه]

والخلاصة

إن الألفة يضعها الله في قلوب عباده المؤمنين يَألفون ويُألفون ويتحابون، ولا يتنافرون، وهي من علامة حب الله أن وضع للعبد القبول في الأرض وهى تؤدي إلى الاجتماع والجماعة وإذا ألفك الناس وحبوك فلست من المنافقين لأن المؤمن، من يألف يألف، ولا خير في ....

* * *

٦٤ مكارم الإخاء

هو المساواة والمعادلة

قال ابن حجر في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. يعنى في التوادد وشمول الدعوة.

وقد آخى النبي ﷺ بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعالي ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعليّ لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من فقبل البعثة واستمر، وكذا مؤاخاه حمزة وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاهم.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

◆ والشاهد: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

◆ والمعنى: لما نزل قول الله في سورة النساء: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون﴾. خاف المؤمنون والمؤمنات من هذا الوعيد الشديد وفضل من كان في بيته يتيم يكفله فصل طعامه وشرابه وحصل بذلك عنت ومشقة كبيرة وتساءلوا عن المخرج فزلت هذه الآية وبينت لهم أن المقصود هو إصلاح مال اليتيم وليس هو فصله أو خلطه فقال تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾. مع الخلط خير من الفصل مع عدم الإصلاح ودفع الحرج في الخلط فقال: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾. والأخ يخالط أخاه في ماله، وأعلمهم أنه تعالى يعلم المفسد لمال اليتيم من المصلح له ليكونوا دائماً على حذر، وكل حماية لمال اليتيم الذي فقد والده، ثم زاد الله في مننه عليهم برفع الحرج في المخالطة فقال

تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾. أي أبقاكم في المشقة المترتبة على فصل أموالكم عن أموال يتاماكم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

والشاهد: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

والمعنى: أي أن الله تعالى يبين ويوضح أحكام المشركين الذين أسلموا بيّن الحجج والبراهين على توحيد الله تعالى وتقرير نبوة رسول ﷺ. وعلى الأحكام الشرعية في الحرب السلم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء. فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا ـ أنظروا هذين حتى يصطلحا ـ أنظروا هذين حتى يصطلحا». [رواه مسلم]

٢ ـ وقال ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولايبع بعصكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله أخوانًا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات. بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه». [متفق عليه]

٣ ـ وقال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا

والآخرة ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا الآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكنية وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». [رواه مسلم]

٤ ـ وفي الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وذكر، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه الحديث». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الإخاء خصلة أحبها الله للمؤمنين وحض عليها رسوله ﷺ وهي موصلة للمنابر المنيرة يوم القيامة، وهي مقياس التقوى.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه».

وقال ابن الحسن الوراق: وقد سأل أبا عثمان عن الصحبة، قال: «هي مع الله بالأدب، ومع الرسول ﷺ بملازمة العلم واتباع السنة، ومع الأولياء بالاحترام والخدمة، ومع الإخوان بالبشر والانبساط وترك وجوه الإنكار عليهم، ما لم يكن خرق شريعة أو هتك حرمة ـ قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. والصحبة مع الجهال بالنظر إليهم بعين الرحمة، ورؤية نعمة الله عليك إذ لم يجعلك مثلهم، والدعاء لله أن يعافيك من بلاء الجهل». [آداب العشرة]

٦٥ مكارم التناصر

هو التعاون على النصر.

قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي ـ رحمه الله تعالى ـ دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر فقلت: السلام عليكم ورحمة الله بركاته، فرد على السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرمني إكرامًا جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً عليًا شامخًا، وأنزلك منزلاً شريفًا باذخًا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك فلا يرض أن يكون أمر أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان قال الله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكرًا﴾.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ تنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوابة: ٤٠].

والشاهد: ﴿إِلاَّ تنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

والمعنى: أي إن خذلتموه ولم تخرجوا معه في هذا الظرف الصعب فقد نصره الله تعالى في ظرف أصعب منه، نصره في الوقت الذي أخرجه الذين كفروا ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾. أي هو وأبو بكر لا غير ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾. أي غار ثور، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾. لما قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا يا رسول الله ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾. فسكنت نفسه واطمأن وذهب الخوف من قلبه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾. وهو

دعوتهم إلى الشرك، وجعلها سفلى مغلوبة هابطة، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾. كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾. الغالبة الظاهرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾. غالب لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾. في تصرفه وتدبيره، ينصر من أراد نصره بلا ممانع ويهزم من أراد هزيمته بلا مغالب.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

◆ والشاهد: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

◆ والمعنى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾. يا رسول: ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾. كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام فجاءوا أقوامهم بالبينات والحجج النيرات كما جئت أنت قومك فكذبت تلك الأقوام رسلهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾. فأهلكناهم ونجينا الذين آمنوا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ألا فلتعتبر قريش بهذا وإلا فستحل بهم نقمة الله فيهلك الله المجرمين وينجى رسوله ﷺ والمؤمنين كما هي سنته في الأولين والحمد لله رب العالمين.

٣ ـ وقال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

فدعا ربه أني مغلوب فانتصر لي يا ربي، فاستجاب الله تعالى له ففتح. أبواب السماء بماء منهمر.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قالت: تحجزة أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره». [رواه البخاري]

٢ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جاء رجل مستصرخ إلى النبي ﷺ فقال: جارية له يا رسول الله!، فقال: «ويحك مالك؟»، قال: شراً، أبصر لسيده جارية له فغار فجب ذاكيره فقال رسول الله ﷺ: وعليّ بالرجل. فطُلب فلم يقدر عليه فقال رسول الله ﷺ: اذهب فأنت حر» فقال: يا رسول الله على من نصرته؟ قال: «على كل مؤمن» أو قال: كل مسلم».

[رواه أبو داود وحسن الألباني]

٣ ـ قال الرسول ﷺ: الدين النصيحة: «ثلاث مرات، قالوا: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولكتابه، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، المسلم أخو المسلم، لا يخذله ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى هاهنا بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، إن أحدكم مرآة أخيه: فإن رأى به أذى فليمطه عنه». [رواه الترمذي وقال حسن]

٤ ـ عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء: يا أبا عمارة أقررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه وخفافهم حسراً، ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبني نضر، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل فاستنصر، وقال: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم صفهم». [متفق عليه]

والخلاصة

فإن التناصر خلق المسلم الذي عرف أن لا يقام مجتمع إلا بتناصر وتكاتف، والتناصر والتعاون يساعد على انتشار الحق وهزيمة الباطل، وهو العامل على انتشاء المحبة بين المؤمنين وهو القوة المانعة التى أمر بها عباده في قوله: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخليل﴾**.

ويكفي التناصر مدحًا أنه مرضاة للرب عز وجل.

* * *

٦٦ التعاون على البر والتقوى

هو مؤازرة وإعانة المسلم أخاه في فعل الخيرات وتجنب المعاصي:

قال الماودوي - رحمه الله تعالى: تنقسم أحوال من دخل في عداد الإخوان أربعة أقسام؛ منهم من يعين ويستعين، ومنهم من لا يعين ولا يستعين، ومنهم من يستعين ولا يعين، ومنهم من يعين ولا يستعين.

فأما المعين والمستعين فهو معارض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ماله كالمقرض يستعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور في معونته، ومعذور في استعانته، فهذا أعدل الإخوان.

وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره، فهو لا صديق يرجى، ولا عدو يخشى، وإذا كان الأمر كذلك فهو كالصورة الممثلة، يروقك حسنها، ويخونك نفعها، فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره، وإن كان باللوم أجدر.

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كَلٌّ، ومهين مستذل، قد قطع عن الرغبة وبسط فيه الرهبة، فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن، وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند إقلاله، ويستقل عند استقلاله فليس لمثله في الإخاء خط، ولا في الوداد نصيب.

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع، مشكور الصنع، وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء، فلا يرى ثقيلاً في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة. فهذا أشرف الإخوان نفسًا وأكرمهم طبعًا، فينبغى لمن أوجد له الزمان مثله، وقل أن يكون له مثل؛ لأنه البر الكريم والدار اليتيم، أن يثنى عليه خنصره، ويعض عليه

بنواجذه ويكون به أشد ضنًّا منه بنفائس أمواله وسن ذخائره؛ لأن نفع الإخوان عام، ونفع المال خاص، ومن كان أعم نفعًا فهو بالادخار أحق، ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه إذا رضي سائر أخلاقه وحمد أكثر شيمه؛ لأن اليسير مغفور والكمال معوز. [أدب الدنيا والدين (٢١١-٢١٣)]

١ - قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [الأنفال: ٤٥-٤٦].

◆ **والشاهد**: **﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾**.

◆ **والمعنى**: هذا النداء الكريم موجه إلى المؤمنين وقد أذن لهم في قتال الكافرين وبدأ بسرية عبد الله بن جحش - رضي الله عنه - وثنى بهذه الغزوة غزوة بدر الكبرى، فلذا هم في حاجة إلى تعليم رباني وهداية إلهية يعرفون بموجبها كيف يخوضون المعارك ينتصرون فيها، وفي هذه الآيات تعليم عال جداً لخوض المعارك والانتصار فيها متعاونين على الخير والبر وهو الجهاد في سبيل الله؛ **أولها**: الثبات في وجه العدو والصمود في القتال حتى لكأن المجاهدين جبل شامخ لا يتحرك **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾**. أي جماعة مقاتلة **﴿فَاثْبُتُوا﴾**.

ثانيها: ذكر الله تعالى، تهليلاً وتكبيراً وتسبيحًا ودعاءً وضراعة ووعداً ووعيداً **﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**. أي تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الأخرة بعد النجاة من الهزيمة والمذلة في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة.

٢ - وقال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا**

حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

◆ والشاهد: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

◆ والمعنى: أمر الله عباده بالتعاون على البر والتقوى، أي على أداء الواجبات والفضائل، وترك المحرمات والرذائل، ونهاهم عن التعاون على ضدها فقال: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً. قالت: فغرت عليه. فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «مالك يا عائشة أغرت؟». فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد جارك شيطاك؟».قالت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: «ومع كل إنسان». قال: «نعم». قالت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم إلا أن الله أعانني عليه حتى أسلم». [رواه مسلم]

٢ ـ عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى فجأه الحق، وهو في غار، حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد،

ثم أرسلني». فقال: اقرأ. قال: قلت: «ما أنا بقارئ». حتى قال في الثالثة، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. فرجع رسول الله ﷺ ترتجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: «أي خديجة، مالي». وأخبرها الخبر، قال: «لقد خشيت على نفسي». قالت له خديجة: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتى ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي عم اسمع من ابن أخيك. قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ﷺ، ياليتني معك حين يخرجك قومك. قال رسول الله ﷺ: «أوَ مخرجي هم؟». قال ورقة: نعم؛ لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. [متفق عليه]

٣ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله تعالى؟ أي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن تمشي مع أخ في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد ـ يعني مسجد المدينة ـ شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيام، ومن

مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام». [رواه الطبراني وصححه الألباني]

٤ - عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أعمر بطنه أو اغبر بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا — ولا تصدقـا ولا صلينا

فأنزلن سكينـة علينا — وثبت الأقـدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا — إذا أرادوا فتنـة أبينـا

ويرفع بها صوته: «أبينا أبينا». [متفق عليه]

والخلاصة

أن التعاون على البر والتقوى جماع كل خير وهو أمر الله تعالى الذي أوجبه على عباده المؤمنين، وهو البعد النفسي والعملي لكل فرد حتى يعشر أنه ليس مفرداً بل هو جماعة، يسعى بذمتهم أدناهم، وذلك الشعور ينزع الغل والحقد والحسد من الصدور، فإن ما وصل إليه أخى يصيبنى وما وصلت إليه يصل إلى أخي إن أراد.

* * *

٦٧ حسن العشرة

هو المعاملة الحسنة للأزواج وهو عامة للناس أجمعين وقد قال الله تعالى: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**.

قال الإمام القرطبي: إذا تعلقت العشرة بعامة الناس فقد قالوا: إذا أردت حسن العشرة فَالقْ عدوك وصديقك بالطلاقة، ووجه الرضا والبشاشة، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد.

ولا تشجع أحداً على الظلم، وإذا خاصمت فأنصف، وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك، وتفكر في حاجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلى من وراءك، وأهدئ غضبك وتكلم، وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك.

١ ـ قال الله تعالي: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**

[النساء: ١٩]

◈ **والشاهد: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.**

◈ **والمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾**. بينت هذه الآية بطلان ما كان شائعًا بين الناس قبل الإسلام من الظلم اللاحق بالنساء، فقد كان الرجل إذا مات والده على زوجته ورثها أكبر الأولاد من غيرها، فإن شاء زوجها وأخذ مهرها، وإن شاء استبقاها حتى تعطيه ما يطلب منها من

مـال. فـأنزل الله هذه الآيـة، فـبطل ذلك الحكم الجـاهلي بحكم الله في الآية الكريمة، وأصبحت المرأة إذا مات زوجها اعتدت في بيت زوجها، فإذا انقضت العدة ذهبت حيث شاءت ولها مالها وماورثته من زوجها أيضًا، وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. أي: يا عبـاد الله عليكم بحسن العـشرة مع الزوجـات بالمعروف وهو العـدل والإحسـان، وإن فـرض أن أحـداً منكم كـره زوجته وهي لم تأت بفاحشة مبينة، فليـصبر عليهـا ولا يطلقـهـا، فلعل الله تعالى يجعل في بقائها في عصمته خيراً كثيراً له نتيجة الصبر عليها وتقوى الله تعالى فيها وفي غيرها، فقد يرزق منها ولد ينفعه، وقد يذهب من نفسه ذلك الكره ويحل محله الحب والمورة، والمراد أن الله تعالى أرشد المؤمن إن كره زوجته أن يصبر ولا يطلق لما في ذلك من العاقبة الحسنة؛ لأن الطلاق بغير موجب غير صالح ولا مرغوب للشارع، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]

والشاهد: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

والمعنى: ومن حججه وأدلته الدالة على وجوده وعلمه ورحمته المستوجبة لعبادته وتوحيده فيها، الدالة أيضًا على قدرته على البعث والجزاء خلقه لكم أيها الناس من أنفسكم ـ أي من جنسكم الآدمي ـ أزواجًا أي زوجات لتسكنوا إليها بعامل التجانس، إذ كل جنس من المخلوقات يطمئن إلى جعل بين الزوجين مودة، أي: محبة ورحمة، أي شفقة إلا إذا ظلم أحدهما الآخر، فإن تلك المودة وتلك الرحمة قد ترتفع حتى يرتفع الظلم ويسود العدل والحق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي دلائل وحجج واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ باستعمال عقولهم في النظر والفكر، فإنهم يجدون تلك الأدلة على قدرة الله

وعلمه ورحمته وكلها مقتضية لتوحيد الله ومحبته وطاعته بفعل محابه وترك مساخطه، مع تقرير عقيدة البعث والجزاء التى أنكرها المجرمون المكذبون، قال الرسول ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ، فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . [رواه مسلم]

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « للعبد الصالح أجران » . فوالذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله، والحج وبر أمي: لأحبب أن أموت وأنا مملوك. ولم يكن يحج أبو هريرة حتى ماتت أمه، لصحبتها » . [متفق عليه]

٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودى. فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكى فقال: « ما يبكيك؟ » . قالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودى. فقال النبي ﷺ : « إنك لابنة وإن عمك نبي وإنك لتحت نبي، فقيم تفخر عليك؟ » .

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب]

والخلاصة

أن حسن العشرة المعاملة بالمعروف والإحسان لأن الله أمر بها، ورضيها خلقًا للمسلمين، وهو الجنة الأولى في الدنيا، فبها تكون المودة والرحمة وهناء العيش وأرغده، وبها وعليها ينبت الولد ويرتع ويأمن في خلالها.

وتزداد الألفة بين طبقات المجتمع إذ هو ينعم في أسباب الخير والرحمة.

٦٨ حسن المعاملة

هو الدين والنظام الذي فرضه تعالى على عباده وسنة نبيه وسار عليه.

قال النووي ـ رحمه الله ـ : والمساقاة (المعاملة) على إطلاقها أن يدفع الرجل إلى آخر شجرة ليقوم بسقيها وعمل سائر ما يحتاج إليه بجزء معلوم له من ثمره. وقيد الشافعي ـ رحمه الله ـ بقوله: «على ما يكلف الرفق بالعامل وصاحب العمل».

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والشاهد: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

والمعنى: أي من حسن المعاملة انتظار المدين إلى أن ييسر الله عليه فيعطيكم رأس مالكم الذي أخذ منكم ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾. وأن تصدقوا على المعسر بترك مالكم عليه فذلك خير لكم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

الشاهد: ذم الله وتوعده للمطففين.

والمعنى: قال أحد الأنصار ـ رضي الله عنه ـ كنا أسوأ الناس كيلاً حتى أنه ليكون لأحدنا مكيالان؛ مكيال يشترى به ومكيال آخر يبيع به، وما إن نزلت فينا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. حتى أصبحنا أحسن كيلاً ووزنًا، فالويل (وهو واد في جهنم) للذين إذا اشتروا منهم يأخذون كيلهم وافيًا، وكذا إذا وزنوا ﴿إِذَا اكْتَالُوا﴾. أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾. أي: ينقصون.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». [رواه مسلم]

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهم به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ : «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: أعطوه سنًّا مثل سنه». قالوا: يا رسول الله إلا أمثل من سنه. قال: «أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاءً». [متفق عليه]

وقال رسول الله ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليرح أحدكم ذبيحته وليحد شفرته».

[رواه مسلم]

والخلاصة

أن حسن المعاملة هي أداء الواجب على أكمل وجه، وأمرنا أن نعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به.

وحسن المعاملة دعوة وهي من شيم رسول الله ﷺ، فعل رجل يؤثر في ألف رجل، وكلام ألف رجل لا يؤثر في رجل..

* * *

٦٩ مكارم الستر

هو إخفاء عيوب المسلم.

قال ابن حجر في «فتح الباري»: **(ستر مسلما)** أي رآه على قبيح فلم يظهره للناس، وليس في هذا ما يقتضي ترك الإنكار عليه فيما بينه وبين، ومن الستر أيضًا أن يستتر الإنسان إذا وقع منه شيء. وقال: والذي يظهر أن الستر محله في معصية قد انقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها فيجب عليه الإنكار وإلا رفعه إلى الحاكم.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [فصلت: ٢٢].

والشاهد: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ** ﴾.

والمعنى: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ** ﴾ تستخفون أن تتركوا محارم الله بل كنتم تجاهرون بذلك لعدم إيمانكم بالبعث والجزاء.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٥].

والشاهد: ﴿ **جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾.

والمعني: يخبر تعالى رسوله ﷺ أنه إذا قرأ القرآن على المشركين ليدعوهم به إلى الله تعالى ليؤمنوا به ويعبدوه وحده جعل الله تعالى بينه وبين المشركين حجابًا ساترًا أو مستورًا لا يُرى، وهو حقًّا حائل بينهم وبين الرسول ﷺ حتى لا يسمعوا القرآن الذي يُقرأ عليهم فلا ينتفعون به، وهذا الحجاب ناتج عن شدة بغضهم للرسول ﷺ وكراهيتهم لدعوته، فهم لذلك لا يرونه ولا يسمعون قراءته.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جائتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليّ النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «من ابتلى من البنات بشيء، فأحسن إليهن كن له ستراً من النار». [متفق عليه]

٢ ـ قال الرسول ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه فيبيت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه». [متفق عليه]

٣ ـ قال النبي ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأن ينظر إليها».

[رواه البخاري]

والخلاصة

أن الستر هو إخفاء معايب المسلمين.

وأنه من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله، ومن أسمائه سبحانه الستير، كما ورد في السنة.

وأن في الستر علاج للمجتمعات يشفى أسقامها، إذا قال الله تعالى في حادثة الإفك: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾ [النور: ١٢].

وقال تعالى: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم**﴾ وحفظ الفرج هنا الاستتار.

٧٠ حسن الظن

هو أخذ طرفي الشك بصفة الرجحان، وقال ابن العربي: الظن تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر[١]. [أحكام القرآن]

قال الكفوى (معنى الظن في القرآن):

عن مجاهد قال: كل ظن في القرآن فهو يقين، وهذا يشكل في كثير من الآيات. وقال الزركشري: للفرق بينهما - أي الظن بمعنى اليقين والظن بمعنى الشك - ضابطان في القرآن:

١ - أنه حيث وجد الظن محموداً مثاباً عليه فهو اليقين، وحيث وجد مذموماً متوعداً عليه بالعذاب فهو الشك.

٢ - أن كل ظن يتصل به «أن» المخففة فهو شك، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]. وكل ظن يتصل به «أنّ» المشددة فهو يقين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾. والمعنى في ذلك أنّ «أنّ» المشددة للتأكيد، فدخلت في اليقين، والمخففة بخلافها فدخلت في الشك.

١ - قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) أحكام القرآن.

◈ **الشاهد:** ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ﴾.

◈ **والمعنى:** إنه لما خرج طالوت بالجيش أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم في سيرهم هذا إلى قتال عدوهم بنهر ينتهون إليه وهم في حر شديد وعطش شديد، ولم يأذن لهم في الشرب منه إلا ما كان من غرفة واحدة، فمن أطاع ولم يشرب فهو المؤمن، ومن عصى وشرب غير المأذون به فهو الكافر، ولما وصلوا إلى النهر شربوا منه يكرعون كالبهائم إلا قليلاً منهم، وواصل طالوت السير، فجاوز النهر هو ومن معه، ولما كانوا على مقربة من جيش العدو، وكان قرابة مائة ألف قال الكافرون والمنافقون: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾. فأعلنوا انهزامهم، وانصرفوا فارين، وقال المؤمنون الصادقون وهم الذين قال الله فيهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. فكان المعنى في يظنون الذين أيقنوا أنهم ملاقوا الله.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

هذه الآية في حادثة الإفك وملخصها ما يلي:

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ أن رسول الله ﷺ بعد أن فُرض الحجاب على النساء والمؤمنات خرج إلى غزوة بني المصطلق أو المريسيع، ولما كان عائداً منها وقارب المدينة النبوية نزل ليلاً وارتحل، ولما كان الرجال يرحلون النساء على الهوادج وجدوا هودج عائشة ـ رضي الله عنها ـ فظنوها فيه موضوعة على البعير، وساقوه ضمن الجيش ظانين أن عائشة فيه وما هي فيه؛ لأنها ذكرت عقداً لها سقط منها في مكان تبرزت فيه، فعادت تلتمس عقدها، فوجدت الجيش قد رحل، فجلست في مكانها

لعلهم إذا افتقدوها رجعوا إليها، ومازالت جالسة تنظر حتى جاء صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه، وكان الرسول ﷺ قد عينه في الساقة - وهم جماعة يمشون وراء الجيش بعيداً عنه حتى إذا تأخر شخص أو ترك متاعا أو ضاع شيء يأخذونه ويصلون به إلى المعسكر - فنظر فرآها من بعيد، فأخذ يسترجع - أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون - آسفًا لتخلف عائشة عن الركب، قالت رضي الله عنها: فتجلببت ثيابي وغطيت وجهي، وجاء فأناخ راحلته، فركبتها وقادها بي حتى انتهينا إلى رسول الله ﷺ في المعسكر، وما إن رأى أُبيٌّ لعنة الله عليه حتى قال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وروج للفتنة، فاستجاب له ثلاثة أنفار، فرددوا ما قال؛ وهم حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

وقد حض الله على حسن الظن بالمسلمين، فقال ﴿**ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾.

٢ - قال الرسول ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا، تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». [متفق عليه]

٣ - عن عتبان بن ملك - رضي الله عنه - وهو ممن شهد بدراً، قال: كنت أصلي لقومي بني سالم، وكان يحول بيني وبينهم واد إذا جاءت الأمطار، فيشق عليَّ اجتيازه قبل مسجدهم، فجئت رسول الله ﷺ، فقلت له: إني أنكرت بعدي، وإن الوادي الذي بيني وبين قومي يسيل إذا جاءت الأمطار، فيشق عليَّ اجتيازه، فوددت أنك تأتي فتصلي من بيتي مكانًا اتخذه مصلى. فقال رسول الله ﷺ: «سأفعل». فغدا عليَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - بعدما

اشتد النهار، فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له، فلم يجلس حتى قال: «أين تحب أن تصلي من بيتك؟». فأشرت له إلى المكان الذي أحب أن أصلي فيه، فقام رسول الله ﷺ، فكبر وصففنا وراءه، فصلى ركعتين ثم سلم وسلمنا حين سلم، فحبسته على ضرير يصنع له، فسمع أهل الدار أن رسول الله ﷺ في بيتي، فثاب رجال منهم حتى كثر الرجال في البيت، فقال رجل: ما فعل مالك؟ لا أراه. فقال رجل منهم: ذاك رجل منافق لا يحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل ذاك؛ ألا تراه قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله؟». فقال: الله ورسوله أعلم ......الحديث». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن حسن الظن هو السريرة النقية للمسلمين بعضهم لبعض؛ تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾. ولقوله ﷺ: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئًا؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وفيه أن حسن الظن من كمال الإيمان، وفيه سلامة الصدر، وهو لا يأتي إلا عن معرفة قدر الله ومدى مغفرته ورحمته.

* * *

٧١ بــر الوالديــن

هو الإحسان إلى الوالدين والتعطف عليهما والرفق بهما والرعاية لأحوالهما وعدم الإساءة إليهما وإكرام صديقهما.

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن برالوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام.

ومن برهما والإحسان إليهما أن لا يقول لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، وأن يكون الولد في خير ذلة في أقواله وسكناته ونظره، ولا يحد إليهما بصره، فإن تلك نظرة الغاضب، ومن برهما الترحم عليهما، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، ومن برهما صلة أهل برهما.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

والشاهد: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

والمعنى: أمر الله تعالى المؤمنين أن يعبدوه بغاية الذل وغاية الحب والتعظيم ويوحدوه، والإحسان إلى الوالدين، وذلك بطاعتهما في المعروف وإسداء الجميل لهما، ودفع الأذى عنهما، وكذا الأقرباء، واليتامى، والمساكين والجيران مطلقًا أقرباء أو أجانب، والصاحب الملازم الذي لا يفارق كالزوجة والمرافق في السفر والعمل والتلمذة والطلب ونحو ذلك من الملازمة التي لا تفارق إلا

نادراً، إذ الكل يصدق عليه لفظ الصاحب بالجنب وكذا ابن السبيل وما ملكت اليمين من أمة أو عبد، والمذكورون الإحسان إليهم آكد وإلا فالإحسان معروف يبذل لكل الناس كما قال تعالى: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾، وقال: ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً** ﴾ دال على أن منع الإحسان الذي هو كف الأذى وبذل المعروف ناتج عن خلق البخل والكبر وهما من شر الأخلاق.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [لقمان: ١٤].

والشاهد: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ** ﴾.

والمعنى: عهد الله تعالى إلى الإنسان آمراً إياه ببر والديه أي أمه وأبيه، وبرهما بذل المعروف وكف الأذى عنهما وطاعتهما في المعروف، وقوله تعالى: ﴿ **حَمَلَتْهُ** ﴾ أي الإنسان ﴿ **أُمُّهُ** ﴾ أي والدته ﴿ **وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** ﴾ أي ضعفاً على ضعف وشدة على أخرى، وهي آلام وأتعاب الحمل والطلق والولادة والإرضاع، فلهذا تأكد برها فوق بر الوالد مرتين.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ وفي الحديث الصحيح: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». وقوله: ﴿ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ أي فطام الولد من الرضاع في عامين، فأول الرضاع ساعة الولادة وآخره تمام الحولين، ويجوز فصله في خلال العامين، وقوله: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ هذا الموحى به وهو أن يشكر لله تعالى وذلك بطاعته تعالى فيما يأمره به وينهاه عنه، وذكره بقلبه ولسانه. وقوله: ﴿ **وَلِوَالِدَيْكَ** ﴾ إذ هما قدما معروفاً وجميلاً فوجب شكرهما، وذلك ببرهما

وصلتهما، وطاعتهما في غير معصية الله ورسوله ﷺ؛ لأن طاعة الله كشكره قبل طاعة الوالدين وشكرهما. وقوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع بعد الموت، وهذه الجملة مؤكدة لواجب شكر الله تعالى وبر الوالدين لما تحمله من الترغيب والترهيب، فالمطيع إذا رجع إلى الله أكرمه والعاصي إذا رجع أهانه - وما دام الرجوع إليه تعالى حتمياً فطاعته بشكره وشكر الوالدين متأكدة متعينة.

٢ - عن معاوية بن حيدة - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله! من أبر؟ قال: «أمك». قال: قلت: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب». [رواه الترمذي وقال: حديث حسن]

٣ - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم».

وفي رواية: كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرَادٍ ثم من قرن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول.... وذكر الحديث، ثم قال: «له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فاستغفر لي. فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إليّ. قال: فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، قال: تركته رث البيت، قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول.... الحديث، فأتى أويساً، فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح، فاستغفر لي. فأعاد عليه، فقال مثل ما

قال، ثم قال: لقيت عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه، قال: أسير وكسوته بردة. فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأويس هذه البردة؟. [رواه مسلم]

٤ ـ عن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ـ ثلاثًا ـ وإن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب». [رواه ابن ماجه وصححه الألباني]

٥ ـ عن أبي الطفيل ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ يقسم لحمًا بالجعرانة وأنا غلام شاب، فأقبلت امرأة، فلما رآها رسول الله ﷺ بسط لها رداءه فقعدت عليه، فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته. [أخرجه أبو داود والحاكم]

والخلاصة

فإن بر الوالدين من أعظم الأعمال بعد الصلاة، وهي أعظمها بعد توحيد الله تعالى، والبر بالوالدين هو الإحسان إليهما، ويكفيك قول الرسول ﷺ في الصحيح: «رغم أنف ـ ثلاثًا ـ، من أدرك أحد والديه أو كليهما ولم يدخلاه الجنة».

وفي بر الوالدين زيادة في العمر، والستر في الدنيا والآخرة، والشرف في الآخرة وحسن السيرة في الدنيا.

* * *

٧٢ صلة الرحم

هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام. قال القاضي عياض: لاخلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة؛ فمنها واجب ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعًا، ولو قصر عما يقدر عليه، وينبغي له لا يسمى واصلاً.

١ - قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ٩٠].

والشاهد: **﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾**.

والمعنى: فالله تعالى يأمر في كتابه الذي أنزله تبيانًا لكل شيء بالعدل وهو الإنصاف، ومن ذلك أن يعبد الله بذكره وشكره؛ لأنه الخالق المنعم وترك عبادة غيره؛ لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم بشيء، ولذا فسر هذا اللفظ بلا إله إلا الله **﴿وَالإِحْسَانِ﴾**. والإحسان مصدر أحسن إحسانًا وهو متعد بنفسه؛ نحو: أحسنت كذا. ومتعد بحرف الجر؛ نحو: أحسنت إلى فلان. أي: أوصلت إليه ما ينفعه أو دفعت عنه ما يضره، وهو أداء الفرائض واجتناب المحرمات مع مراقبة الله عز وجل. وقوله: **﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾**. أي: ذوى القرابات حقوقهم من البر والصلة، هذا مما أمر الله تعالى به في كتابه.

٢ - وقال تعالى: **﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾**

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠].

والشاهد: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾.

والمعنى: هذه مقارنة بين شخصيتين؛ الأولى حمزة بن عبد المطلب، والثانية أبو جهل المخزومي، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾. وهو حمزة بن عبد المطلب، فعمل بما علم، واستقام على منهجه في عقيدته وعباداته ومعاملاته وسلوكه، هذه الشخصية كمن هو أعمى، لم يعلم الحق ولم يؤمن به، ولم يعمل بما أنزل الله وهو أبو جهل المخزومي، والجواب قطعًا لا يستويان ولا يكونان في ميزان واحد، إنما يتذكر أولوا الألباب، أي: يتعظ بمثل هذه المقارنة أصحاب العقول المدركة للحقائق والمفرقة بين المتضادات كالحق والباطل، ووصف الله أؤلو الألباب الذين يتصفون بهذه الصفات: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾. إذ لادين لمن لا عهد له.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾. من الإيمان والإسلام و الإحسان والأرحام.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ أورد البخاري في «الأدب المفرد» أن الرسول ﷺ قال: «احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم فإن لا بعد بالرحم إذا قربت وإن كانت بعيدة، ولا قرب بها إذا بعدت وإن كانت قريبة، وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها، تشهد له بصلة إن كان وصلها وعليه بقطيعة إذا كان قطعها».

[رواه الحاكم وقال على شرط الشيخين]

٢ ـ قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب. قال: فذاك لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا ابن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾» [محمد: ٢٢ ـ ٢٤].

٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال لما نزلت هذه الآية: «﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلا لها». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن صلة الرحم أن تحسن إلى الأقارب أو ذوي الأرحام، ومن الإحسان الوصل ومن الوصل، أن تمنع عنهم الشر.

وفي صلة الرحم مرضاة للرب، وتقوية لأواصر العلاقات الاجتماعية بين الناس، تجلب سعة الرزق والبركة فيه، وتؤدي إلى طول العمر، وهي من كمال الإيمان إذ أن من وصل وصل بفضل الله ومن قطع قطع بعدل الله.

٧٣ مكارم الخشوع

هو الخضوع والانقياد للحق.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ قال الفخر الرازى في «تفسيره» ـ والحق أن الخشوع تارة يكون من فعل القلب كالخشية، وتارةً من فعل البدن كالسكون. وقيل: لابد من اعتبارهما. وقال غيره: هو معنى يقوم بالنفس يظهر عنه سكون في الإطراف يلائم مقصود العبادة.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]

◆ **والشاهد**: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

◆ **والمعنى**: يخبر تعالى وهو صادق الوعد بفلاح المؤمنين، وقد بين تعالى في آية «آل عمران» معنى الفلاح وهو الفوز والنجاة من النار ودخول الجنة، ووصف هؤلاء المؤمنين المفلحين بصفات من جمعها متصفًا بها، فقد ثبت له الفلاح وأصبح من الوارثين الذين يرثون الفردوس يخلدون فيها، وتلك الصفات هي:

١ـ الخشوع في الصلاة بأن يسكن فيها المصلي فلا يلتفت فيها برأسه ولا بطرفه ولا بقلبه مع رقة قلب ودموع عين، وهذه أكمل حالات الخشوع في الصلاة، ودونها أن يطمئن و لا يلتفت برأسه ولا بعينه ولا بقلبه في أكثرها.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

◈والشاهد: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

◈والمعنى: ألم يأن للذين آمنوا بالله ربًّا وإلهًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً وبوعد الله ووعيده صدقًا، ألم يحن الوقت لهم أن تخشع قلوبهم، فتلين وتطمئن إلى ذكر الله وتخشع كذلك ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. في الكتاب الكريم، فيعرفون المعروف ويأمرون به ويعرفون المنكر وينهون عنه إنها لموعظة إلهية عظيمة، وزادها عظمة أن تنزل إلى أصحاب رسول الله تستبطئ قلوبهم، فكيف بمن بعدهم: ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾. اي من قبل البعثة المحمدية وهم اليهود والنصارى، فطال عليهم الأمد وهو الزمان الطويل بينهم وبين أنبيائهم فلم يذكروا ولم يرشدوا، فقست قلوبهم من أجل ذلك، وأصبح أكثرهم فاسقين عن دين الله خارجين عن شرائعه لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

◈والشاهد: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

◈والمعنى: أن هذه الآية نزلت في النجاشي عندما صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب لما مات، فانتقد المنافقون ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وجاء في وصفهم ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾. أي خاضعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً كسائر اليهود والنصارى حيث يحرفون كلام الله ويبدلونه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم يؤت كبيرة، وذلك ادهر كله». [رواه مسلم]

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ :«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». [رواه مسلم]

٣ ـ عن على بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. اصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». وإذا ركع قال: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي». وإذا رفع قال: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد». وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين». ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما

أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الخشوع هو الخضوع والانقياد للحق، وهو روح الصلاة، وهو في القلب مكانه وعلى الجوارح أثره، ويحصل الخشوع بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية فضل كل ذي فضل عليك، ولقد خشع عروة بن الزبير في الصلاة، فكان من الأطباء أن قطعوا بعض ساقه ولم يشعر وما تضور ولا اختلج، فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد في رجله، فقال: اللهم لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً، فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت.

* * *

٧٤ مكارم الخشية

هي خوف يشوبه تعظيم.

قال الراغب: الخشية هي خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقوله سبحانه: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، أي: لمن خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

- والشاهد: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾.
- والمعنى: هذا نداء عام لكل البشر يدعوهم فيه ربهم تعالى ناصحًا لهم بأن يتقوه بالإيمان به وبعبادته وحده لا شريك له، وأن يخشوا يومًا عظيمًا فيه من الأهوال والعظائم ما لا يقادر قدره بحيث: ﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾. إذ كل واحد لا يريد إلا نجاة نفسه، فيقول: نفسي نفسي. وهذا لشدة الهول، يوم لا يغني أحد عن أحد شيئًا ولو كان أقرب قريب، وهو يوم آتٍ لا محالة، حيث وعد الله به الناس ووعد الله حق، والله لا يخلف الميعاد.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

◈ **والشاهد**: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ﴾.

◈ **والمعنى**: أي هؤلاء الأنبياء السابقون طريقتهم التي سنها الله لهم هي أنهم ينفذون أمر الله ولا يتلفتون إلى الناس يقولون ما يقولون، ويخشون ربهم فيما فرض عليهم ولا يخشون غيره ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً﴾. أي حافظًا لأعمال عباده ومحاسبًا عليها ومجاز بها.

٣ ـ وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

◈ **والشاهد**: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

◈ **والمعنى** لما قال أصحاب الرسول ﷺ: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾. وهو القرآن ﴿كِتَاباً مُّتَشَابِهاً﴾. أي يشبه بعضه بعضًا في حسن اللفظ وصحة المعانى ﴿مَّثَانِيَ﴾. أي يثنى فيه الوعد والوعيد والأمر النهي والقصص، ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. أي عند سماع آيات الوعيد فيه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾. إذا سمعوا آيات الوعد وتطمئن قلوبهم إذا سمعوا حججه وأدلته. وقوله: ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾. أي القرآن وذكر الله بوعده ووعيده وأسمائه وصفاته، ويشهد له قوله تعالى من سورة «الرعد». ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، أي: ذلك المذكور وهو القرآن الكريم هدى الله إذ هو الذي أنزله وجعله هاديًا.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا وأوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت، فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا فذروه في اليم. ففعلوا، فجمعه الله فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له». [متفق عليه]

٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله». [رواه الترمذي وقال حسن]

٣ ـ عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: وعظنا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة....». [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]

٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إني لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها». [متفق عليه]

والخلاصة

فإن الخشية خوف يشوبه تعظيم لله عز وجل، وأن للخائف عشر مقامات منها؛ الحزن اللازم، والهم الغالب، والخشية المقلقة، وكثرة البكاء، والتضرع في الليل والنهار، والهرب من مواطن الراحة، ووجل القلب[1].

وفيها النجاة من عذاب الله والفوز بالجنة، والأنس بما عند الكريم من فضل ومناجاة - إذ إن العبادة لا تكون سهلة يسيرة إلا على الخاشعين - والأمن من الفزع الأكبر، وعلو المنزلة عند الله تعالى، إذ يعافي الخائف من عذابه من أن يقع في المعاصي.

* * *

(١) حلية الأولياء.

٧٥ مكارم الخوف

هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

قال ابن رجب الحنبلي في كتابه «التخويف من النار»: إن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة على عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر - سبحان - في كتابه ذكر النار؛ وما أعده فيها لأعدائه من العذاب والنكال، وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال، إلى غير ذلك مما فيها من العظائم والأهوال، ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبه ويرضاه، واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه، فمن تأمل كتاب الله وأدار فكره فيه وجد من ذلك العجب العجاب، وكذلك السنة الصحيحة التي هي مفسرة ومبينة لمعاني الكتاب، وكذلك سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

[النحل: ٤٩ - ٥١]

◆ والشاهد: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

◈ **والمعنى**: أنه لله يسجد. أي: يخضع وينقاد لما يريده الله تعالى من إحياء أو إماتة أو صحة أو مرض أو خير أو غيره من دابة، أي: من كل ما يدب من كائن على هذه الأرض ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾. على شرفهم يسجدون وهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم، ومالهم يخافون ربهم من فوقهم إذ هو العلي الأعلى وكل الخلق تحته، ويفعلون ما يؤمرون فلا يعصون ربهم ما أمرهم، إذا كان هذا حال الملائكة فما بال هؤلاء المشركين يلجون في الفساد والاستكبار.

وقوله: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. أي ارهبوني وحدي ولا ترهبوا سواي، إن بيدي كل شيء وليس بيد غيري شيء فأنا المحيي المميت، الضار النافع، يوبخهم على رهبتهم غيره سبحان وتعالى من لا يستحق أن يرهب لعجزه وعدم قدرته على أن ينفع أو يضر.

٢ ـ وقال تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾** [هود: ١٠٣].

◈ **والشاهد**: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾**.

◈ **والمعنى**: إن في أخذ الله تعالى للأمم الظالمة وتعذيبها بأشد أنواع العذاب آية، على أن من عذب في الدنيا قادر على أن يعذب في الآخرة، فالمؤمنون بلقاء الله تعالى يجدون فيما أخبر الله به من هلاك الأمم الظالمة آية هي عبرة لهم، فيواصلون تقواهم لله تعالى حتى يلاقوه وهم به مؤمنون ولأوامره ونواهيه مطيعون.

٣ ـ وقال تعالى: **﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾** [ق: ٤٥].

◈ والشاهد: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

◈ والمعنى: أن الله يقوله تسلية للرسول ﷺ، وفيه تهديد لكفار قريش. وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾. أي: بذى قوة وقدرة فائقة يجبرهم بها على الإيمان والاستقامة، وعليه فمهمتك ليست الإجبار وأنت عاجز عنه، وإنما هي التذكير ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾. إذاً من يخاف وعيدى وهم المؤمنون الصادقون والمسلمون الصالحون.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا».

[رواه مسلم]

٢ ـ عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟». قال: والله يا رسول الله أني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف». [رواه الترمذي وقال النووي: إسناده حسن]

٣ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه». [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]

٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها، أنها ذكرت النار فبكت، فقالت: يا رسول الله، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن

فلا يذكر أحد أحداً؛ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم».

[رواه أحمد وأبو داود]

٥ - وعنها أيضًا - رضي الله عنها - قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الخوف من المقامات العلية، وهو من لوازم الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة فقال: «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمنون».

وفيه: أن من كان متصفًا بالخوف كان مؤمنًا كامل الإيمان، وكانت نفسه طاهرة، ويجعل المسلم مخلصًا في عمله، منتهيًا عن المعاصي لا يقربها.

* * *

٧٦ مكارم الرهبة

هي مخافة مع تحرز واضطراب.

قال النيسابوري: «الرهبة هي الخوف، والخوف إما من العقاب وهو نصيب أهل الظاهر، وإما من الجلال وهو وظيفة أرباب القلوب، والأول يزول والثاني لا يزول، ومن كان خوفه في الدنيا أشد كان أمنه يوم القيامة أكثر، وبالعكس(١). [غرائب القرآن المنشور بها من تفسير الطبري]

١ - قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

والشاهد: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

والمعنى: أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما سكت عنه الغضب، أي: ذهب عنه أخذ الألواح التي ألقاها من شدة الغضب، وأخبر تعالى أن في نسخة تلك الألواح: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. وهم المؤمنون المتقون، وخصوا بالذكر؛ لأنهم الذين يجدون الهدى والرحمة في نسخة الألواح؛ لأنهم يقرؤون ويفهمون ويعلمون؛ وذلك لإيمانهم وتقواهم.

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٤]

❖ الشاهد: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

❖ والمعنى: فإن يصبر أعداء الله الذين شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم فالنار مثوى لهم، أي: مأوى لهم لا يخرجون منها أبداً، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين، أي: إن يطلبوا العتبى أي الرضا فيرضى عنهم فيدخلوا الجنة ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾. أي: فما هو بحاصل لهم أبداً، فهم إذاً بشر التقديرين والعياذ بالله تعالى من حال أهل النار.

٣ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

❖ والشاهد: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

❖ والمعنى: هذا نداء الله إلى عباده المؤمنين يعظهم وينصح لهم في أن يقوا أنفسهم وأهليهم من زوجة وولد، ناراً عظيمة وقودها، أي: ما توقد به الناس من المشركين والحجارة التي هي أصنامهم التي كانوا يعبدونها يقون أنفسهم بطاعة الله ورسوله، تلك الطاعة التي تزكي أنفسهم وتؤهلهم لدخول الجنة بعد النجاة من النار.

٤ - وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦].

◈ والشاهد: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾.

◈ والمعنى: بعد ما بين تعالى جزاء الأتقى، وجزاء من بخل واستغنى قال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: خوفتكم نارًا ﴿تَلَظَّى﴾ أي تتوقد التهابًا ﴿لا يَصْلاهَا﴾ لا يدخلها ولا يصطلي بحرها خالدًا فيها أبدًا ﴿إِلاَّ الأَشْقَى﴾ أي الأكثر شقاوة وهو المشرك، وقد يدخلها الشقي من أهل التوحيد ويخرج منها بتوحيده، حيث لم يكذب ولم يقول، ولكن فجر وعصى وما أشرك وتولى.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاثة طرائق راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا».

[متفق عليه]

٢ - وعن أبي هرير رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة سقطت، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟». قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها». [رواه مسلم]

٣ - عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: صلى رسول الله ﷺ يومًا، صلاة، فأطال فيها، فلما انصرف قلنا - أو قالوا -: يا رسول الله، أطالت اليوم الصلاة. قال: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله عز وجل لأمتي ثلاثًا فأعطاني اثنين ورد عليّ واحدة؛ سألته أن لا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها،

وسألته أن لا يهلكهم غرقًا فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بنيهم فردها عليّ». [رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح]

والخلاصة

أن الرهبة هي مخافة مع تحرز واضطراب.

وفيها سبب سعادة العبد في الدنيا والآخرة، وحسن الخلق وطهارة النفس والعزوف عن التنافس في الدنيا، وهي تثمر كمال الإيمان وحسن الإسلام.

* * *

٧٧ مكارم السكينة

هي نور في القلب يسكن إليه شاهده ويطمئن.

قال ابن القيم رحمه الله: هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة الخوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٤].

والشاهد: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى: أي هو الله المنعم عليك بما ذكر لك الذي أنزل السكينة، أي: الطمأنينة على قلوب المؤمنين من أصحابك ـ وكان عددهم ألفًا وأربعمائة صحابيٍّ ـ أنزل السكينة عليهم بعد اضطراب شديد أصاب نفوسهم، دل عليه قول عمر رضي الله عنه للرسول ﷺ: ألست نبيًا حقًا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذًا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري». قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه ـ أي سر على نهجه ولا تخالفه ـ فوالله إنه لعلى الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال: بلى. قال: فهل أخبرك أنه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

- **والشاهد**: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾.
- **والمعنى**: إن خذلتموه ولم تخرجوا معه في هذا الظرف الصعب فقد نصره الله تعالى في ظرف أصعب منه، نصره الله تعالى إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين أي: هو وأبو بكر لا غير، إذ هما في الغار. أي: غار ثور ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾. لما قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا يا سول الله: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾. فسكنت نفسه واطمأن وذهب الخوف.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

- **والشاهد**: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.
- **المعنى**: أي أتت بنت الرجل الصالح موسي عليه السلام فقالت الرسالة المختصرة؛ لأنها الحيية ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. وقد ورد ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ﴾. أي: أخبره بشأنه كله من قتله القبطي خطأ ،وطلب السلطان له، ونصح مؤمن آل فرعون له بالخروج من البلاد، ووصوله إلى ماء مدين، قال له شعيب عندئذ: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. يعني: فرعون وحكومته، وهذا ما يعرف الآن باللجوء السياسي، فاطمأن وسكن وأحس بالنجاة.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن البراء - رضي الله عنه - قال: كان رجل يقرأ سورة «الكهف»، وعنده فرس مربوط بشطنيه فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنوا، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن». [رواه البخاري ومسلم]

٢ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا». [متفق عليه]

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا». [متفق عليه]

والخلاصة

أن السكينة هي نور في القلب يسكن إليه ويطمأن، قال ابن القيم - رحمه الله -: جاء في صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: إني باعث نبيًا أميًّا، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال الخنا - قول الفحش -، أجعل السكينة لباسه والبر شعاره»(١).

وفيها: أنها تؤدي إلى اللطف في معاملة الناس، وهي الخشوع والاطمئنان، وهي محل الرضا بالله ومن الله، وهي صفة الأنبياء والعلماء وتنزل بها الملائكة.

(١) في مدارك السالكين.

٧٨ مكارم الطمأنينة

هي السكون بعد الانزعاج (سكون أمن فيه استراحة أنس).

قال الفيروزآبادى: الطمأنينة والسكينة كل منهما تستلزم الأخرى؛ ودرجات الطمأنينة، طمأنينة القلب بذكر الله، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء، والطمأنينة، سكون أمن فيه استراحة أنس، والسكينة تكون: حيناً بعد حين، والطمأنينة لا تفارق صاحبها وكأنها نهاية السكينة.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

◈ والشاهد: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

◈ والمعنى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾. أولئك الذين أنابوا إليه تعالى إيماناً وتوحيداً فهداهم إليه صراطاً مستقيماً، هؤلاء تطمئن قلوبهم، أي: تسكن وتستأنس بذكر الله وذكر وعده وذكر صالحي عباده محمد ﷺ وأصحابه، ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. أي قلوب المؤمنين، أما قلوب الكافرين فإنها تطمئن لذكر الدنيا وملاذها، وقلوب المشركين تطمئن لذكر أصنامهم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

◈ والشاهد: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾.

والمعنى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾. إلى صادق وعد الله ووعيده في كتابه وعلى لسان رسوله، فآمنت واتقت وتخلت عن الشرك والشر، فكانت مطمئنة بالإيمان وذكر الله، قريرة العين بحب الله ورسوله وما وعدها الرحمن، ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى جواره في دار كرامته حال كونك راضية ثواب الله لك مرضيًا عنك من قبل مولاك.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون».

[رواه أحمد وفي الصحيح أوله]

٢ ـ وقال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]

٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على رسول الله ﷺ فرد السلام، قال: «ارجع فصل فإنك لم تصل». فرجع الرجل فصلى كما كان يصلي، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك السلام» ثم قال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل». حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا، علمني. قال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها». [متفق عليه] (وهذا الحديث معروف بالمسيء صلاته).

والخلاصة

أن الطمأنينة هي السكينة بعد إزعاج، وأنها دأب الصالحين، وأنها سمت المؤمن الذي أيقن أن الله ربه وعلم به، والرسول ﷺ أعلمه أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما عجله الله لم يكن لأحد حول ولا قوة أن يؤخره، وما أخره لم يكن لأحد أن يعجله.

وأن في الطمأنينة دليل الوقار، وعلامة الحياء، وهي سبب من أسباب سعادة الإنسان، وهي إشارة إلى قدر اليقين وصحة الدين، وهي بالخشوع ركن من أركان الصلاة، كما بين ﷺ في حديث المسيء صلاته.

* * *

٧٩ مكارم العفو

هو كف الضرر مع القدرة عليه

قال الغزالي: والعفو صفة من صفات الله تعالى، وهو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر، وحظ العبد من ذلك لا يخفى وهو أن يعفو عن كل من ظلمه، بل يحسن إليه كما يرى الله تعالى محسنًا في الدنيا على العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة، بل ربما يعفوعنهم بأن يتوب عليهم، وإذا تاب عليهم محا سيئاتهم، وإذا التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وهذا غاية المحو للجناية.

١ - قال الله تعالى: **﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾** [النساء: ١٤٩].

◈ **الشاهد**: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾**.

◈ **والمعنى**: انتدب الله تعالى عباده المؤمنين إلي فعل الخير في السر أو العلن، وإلى العفو عن صاحب السوء، فقال: **﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾**، فسيكسب فاعل الخير خيرًا أبداه أو أخفاه، وسيعفو عن صاحب العفو حينما تزل قدمه، فيجني بيده أو بلسانه ما يستوجب به المؤاخذة، فيشكر الله تعالى له عفوه السابق فيعفو عنه، فإن الله كان عفوًا قديرًا.

٢ - وقال تعالى: **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ**

عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والشاهد: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

والمعنى: أخبر تعالى أنه من رحمته بخلقه وحكمته في تصرفه لا يكلف الله نفسًا إلا ما تتسع له طاقتها وتقدر على فعله، ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير فتجزى خيرًا ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر فتجزى به شرًّا، إلا أن يعفو عنها ويغفر لها، فقال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وعلمهم كيف يدعونه ليقول لهم قد فعلت، كما صح به الخبر، فقال قولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفعلاً قد عفا عنهم في النسيان والخطأ وخفف عنهم في التشريع، فما جعل عليهم في الدين من حرج وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم، ونصرهم على الكافرين بالحجة والبيان وفي المعارك بالسيف والسنان، فله الحمد والمنة وهو الكبير المتعال.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

والشاهد: ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

والمعنى: بعد أن بين الله تعالى باطل أهل الكتاب الموجودين في المدينة وما هم عليه من شر وسوء، دعاهم وهو ربهم وأرحم بهم من أنفسهم إلى سبيل نجاتهم وكمالهم، دعاهم إلى الإيمان برسوله ﷺ وكتاب ذلك الرسول الذي ما اتبعه أحد وندم وخزي، والكتاب الذي ما ائتم به أحد وضل أو شقي، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ أي محمد ﷺ يبين لكم بوحينا ﴿كَثِيراً﴾ من مسائل الشرع والدين التي تخفونها خشية الفضيحة، لأنها حق جحدتموه، وذلك كنعوت النبي الأمي ﷺ وصفاته حتى لا يؤمن به الناس، وكحكم الرجم في التوراة وما إلي ذلك ﴿وَيَعْفُو﴾ يترك كثيراً لم يذكر لعدم الداعي إلى ذكره ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ﴾ من الله ربكم نور هو رسولنا محمد ﷺ وكتاب مبين وهو القرآن؛ إذ بين كل شيء من أمور الدين والدنيا، وكل ما تتوقف سعادة الإنسان وكماله عليه في الدنيا والآخرة :-

٤ - وقال جل شأنه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

◆ والشاهد : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾.

◆ والمعنى : كانت عادة الجاهلية التفاضل بين الشريف والأشرف والعزيز والأعز، فيقتل الحر بالعبد، والرجل بالمراة، فنزلت هذه الآية تبطل ذلك الزعم من المشركين، وتقرر مبدأ المساواة في الإسلام، فقال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلا يقتل بالرجل رجلان، ولا بالمرأة رجل ولا امرأتان، ولا بالعبد حر ولا عبدان، فمن تنازل له أخوه وهو ولي الدم عن القصاص إلي الدية أو العفو مطلقًا، فليتبع ذلك ولا يقل لا أقبل إلا القصاص، بل عليه أن يقبل ما عفى عنه أخوه، من قصاص أودية أو عفو،

وليطلب ولي الدم الدية بالرفق والأدب، وليؤدي القاتل الدية بإحسان بحيث لا يماطل ولا ينقص منها شيئًا.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:١٨٦] وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة] فكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو عنهم ما أمر الله به......الحديث. [رواه البخارى]

٢ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه». [رواه مسلم]

٣ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «صعد النبي ﷺ المنبر وكان آخر مجلس جلسه متعطفًا ملحفة على منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس! إليّ». فثابوا إليه، ثم قال: «أما بعد، فإن هذا الحي من الأنصار يقلون ويكثر الناس، فمن ولي شيئًا من أمة محمد صلى اله عليه وسلم فاستطاع أن يضر فيه أحداً، أو ينفع فيه أحداً، فليتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم». [رواه البخاري]

٤ - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: كأنى أنظر إلي النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». [متفق عليه]

والخلاصة

أن العفو هو كف الضرر مع القدرة عليه، والعفو من صفات الله تعالى، أحب الله من عفى وأجزل له العطاء، فهو سبحانه عفو كريم يحب العفو.

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديًا يوم القيامة فينادي: من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس.

ولذا قالوا: ليس الحليم من ظلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم، حتى إذا قدر عفى.

* * *

٨٠ مكارم السماحة

هي الجود عن كرم وسخاء.

قال الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ: «أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه»(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- **والشاهد**: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.
- **والمعنى**: يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين، وذلك حين أراد بعض الأنصار إكراه من تهود أو تنصر من أولادهم على الدخول في دين الله، ولذا فإن أهل الكتابين ومن شابههم تؤخذ منهم الجزية ويقرون على دينهم، فلا يخرجون منه إلا باختيارهم وإرادتهم الحرة، أما الوثنيون والذين لادين لهم سوى الشرك والكفر، فيقاتلون حتى يدخلوا في الإسلام إنقاذاً لهم من الجهل والكفر وما لازمهم من الضلال والشقاء.

ثم أخبر تعالى أنه بإنزال كتابه وبعثه رسوله ﷺ ونصره أوليائه قد تبين الهدى من الضلال والحق من الباطل، وعليه فمن يكفر بالطاغوت ـ وهو الشيطان الذي زين عبادة الأصنام ـ ويؤمن بالله فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقد استمسك من الدين بأمتن عروة وأوثقها، ومن يصر على

(١) المستطرف.

الكفر بالله والإيمان بالطاغوت، فقد تمسك بأوهى من خيط العنكبوت، والله سميع لأقوال عباده عليم بنياتهم وخفيات أعمالهم وسيجزي كلاً بكسبه.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

◈ الشاهد: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

◈ والمعنى: أخبر تعالى المؤمنين أن يلتزموا السماحة والصبر؛ لأنه خوفهم الله به ويهددهم بأن حكمًا عدلاً هو الله سيحكم بينهم، وعندها يعلمون من هو المحق ومن هو المبطل، فقال: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعة ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من التوحيد والطاعة وترك الشرك والمعاصي ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أخرى ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ وبهذا كنا متخاصمين نحتاج إلى من يحكم بيننا إذًا ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

٣ ـ وقال الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

◈ والشاهد: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

◈ والمعنى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أي فإنه ذلك الدين الحق الذي هو الإسلام الذي شرعه الله لكم ووصى به نوحًا وأوحاه إليك، فادع جميع الناس عربهم وعجمهم، فإن دين الله الذي لا يقبل دينًا سواه، ولا يكمل الإنسان في أخلاقه ومعارفه وآدابه، ولا يسعد في الدارين إلا عليه كما أمرك ربك، فلا تزغ عنه ولا تعدل به غيره، فإنه الصراط المستقيم، الذي لا يزيغ عنه إلا هالك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وأعلمهم في صراحة ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾

وقل لهم: أمرني ربي لأعدل بينكم في الحكم إذا تحاكمتم إليّ. كما أني لا أفرق بينكم إذ أعتبركم على الكفر سواء، فكل من لم يكن على الإسلام الذي كان عليه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، والذي عليه أنا وأصحابي اليوم فهو كافر من أهل النار.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى». [رواه البخاري]

٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة». [رواه البخاري]

٣ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمع رسول الله ﷺ: صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهم يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله إلا أفعل. فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «أين المتألي على الله، لا يفعل المعروف؟». فقال: أنا يارسول الله! فله أي ذلك أحد». [متفق عليه]

٤ - عن البراء - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ لما أراد أن يعتمر أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فاشترطوا عليه أن لا يقيم بها إلا ثلاث ليالي، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح، ولا يدعومنهم أحداً، قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم عليّ بن أبي طالب، فكتب:

هذا ما قاضى عليه محمد ﷺ. فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولتابعناك، ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فقال: «أنا

والله محمد بن عبد الله، وأنا والله رسول الله». قال: وكان لا يكتب، قال: فقال لعلي: «امح رسول الله». فقال عليّ: والله لا أمحوه أبداً، قال: «فأرنيه». قال: فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيده، فلما دخل ومضت الأيام أتوا عليًا، فقالوا: مر صاحبك فليرتحل. فذكر ذلك عليّ - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ، فقال: «نعم». فارتحل. [متفق عليه]

والخلاصة

إن السماحة هي الجود عن كرم وسخاء، ومن مظاهر السماحة، طلاقة الوجه واستقبال الناس بالبشر وحسن الصحبة والمعاشرة، ومبادرة الناس بالتحية، إذن فكيف تكون عندك سماحة؟

١ - التأمل فيما يرغب في هذا الخلق

٢ - التأمل فيما يحذر من ضد هذا الخلق.

٣ - الرضا بالقضاء.

* * *

٨١ الصبر والمصابرة

هي حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه(١).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: قد ذكر الله الصبر في كتابه الكريم في أكثر من تسعين موضعًا، وقرن بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لابد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر، كما قال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، وبه يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقوامًا يجعلهم للناس قادة ﴿أئمة يهتدون بهم﴾ وينتمون إلى رأيهم.

فجعل البحث عن العلم جهاد، ولا بد للجهاد من صبر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. [البصائر]

والمصابرة هي زيادة في الصبر، أو كما فسرها ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿اصبروا وصابروا﴾ اصبروا في الله وصابروا بالله، أي: الصبر في طاعة الله، والمصابرة تكون في الاستعانة بالله.

(١) قول الراغب.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

◈ والشاهد: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.

◈ والمعنى: يكشف تعالى للمؤمنين عن هذا الكنز في المعونة، ألا وهو الصبر والصلاة، ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾، يستطيع المؤمن أن يواجه الحقيقة والتصريح بها وهي الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في دينه، ثم يعلمهم أن المواجهة شاقة وصعبة على النفس لا يقدر عليها إلا المخبتون لربهم الموقنون بلقاء الله والرجوع إليه.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

◈ الشاهد: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

◈ والمعنى: أنكر تعالى على المؤمنين ظنهم أنهم بمجرد إيمانهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا بالجهاد والشدائد تمحيصاً لهم وإظهاراً للصادقين منهم في دعوى الإيمان والكاذبين فيها، كما يظهر الصابرين الثابتين والج

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

◈ والشاهد: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

◈ والمعنى: يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمؤمنين: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويعلمهم معللا أمره إياهم بالتقوى بأن ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بالطاعة المطلوبة

الجنة، كما يعلمهم أنهم إذا لم يقدروا على الطاعة بين المشركين، فليهاجروا إلى أرض يتمكنون فيها من طاعة الله ورسوله ﷺ، فيقول: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي فهاجروا فيها ويشجعهم على الهجرة لأجل الطاعة، فيقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ أي: على الاغتراب والهجرة لأجل طاعة الله والرسول ﷺ: ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بلا كيل ولا وزن ولا عد وذلك لأنه فوق ذلك.

٤ - وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

◆ والشاهد: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

◆ والمعنى: يأمر الله رسوله أن يصبر على ما يلقى من أذى قومه من تكذيب وأذى، وأمره بالثبات لذلك كما ثبت أولوا العزم من قبلك، أولوا العزم هم محمد ﷺ، نوح، إبراهيم، موسى، وعيسى بن مريم، ومن الجائز أن يكون عدد أولي العزم أكثر من ذكر، وقوله: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لما أمره بالصبر نهاه عن استعجال العذاب؛ لقوله فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾. ولا تستجعل العذاب لهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ تعليل لعدم استعجال العذاب؛ لأنه قريب جداً إنهم يوم ينزل بهم ويرونه كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار؛ وقوله تعالى: بلاغ أي هذا القرآن وما حواه من تعليم وبيان للهدى تبليغ للناس، وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ينفي تعالى هلاك غير الفاسقين عن أوامره الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك». قال: فادعه. وقال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربه في حاجتي هذه لتقضي لي، اللهم فشفعه فيّ». [رواه الترمذي، حسن صحيح]

٢ ـ عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى ـ عليه السلام ـ خطيباً في بنى إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى أي رب! كيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتا في مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثمّ. فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام ـ حوتًا في مكتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتل حتى خرج من المكتل فسقط في البحر، قال: وأمسك الله عنه جريه الماء حتى كان مثل الطاق فكان للحوت سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، ونسي صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى ـ عليه السلام ـ قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ـ قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في الحبر عجباً، قال موسى: ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصًا، قال: يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة، فرأى

رجلاً مسجى عليه بثوب فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: إني بأرضك السلام؛ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه. قال له موسى - عليه السلام - : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً........الحديث». [متفق عليه]

٣ - قال الرسول ﷺ : «ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً وإنه لا يعاقبهم». [متفق عليه]

٤ - عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنو لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد». [رواه الترمذي وقال: حسن غريب]

٥ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يارسول الله إنك توعك وعكًا شديداً. قال: «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم». قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال: «أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى - شوكة فما فوقها - إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الصبر هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع.

وهو يأتي بالتصبر، فإن الصبر بالتصبر كما إن العلم بالتعلم. قال ابن تيمية رحمه الله : ذكر الله تعالى في كتابه : الصبر الجميل، والصفح الجميل والهجر الجميل.

الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل هو الذي لاعتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه.

وهو صمام الاتباع والامتناع.

* * *

٨٢ مكارم البر

هو الصلاح أو هو الخير أو هو حسن الخلق.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: لفظ البر إذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾، وأيضًا فإن البر إذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى، والتقوى إذا أطلقت كان مسماها مسمى البر، ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ فعطف التقوى على البر، وعطف الشيء على الشيء في القرآن الكريم وسائر الكلام يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراكهما في الحكم الذي ذكر لهما، وقد يكون مسماه إذا أطلق هو مسمى الإيمان؛ فقد روى أنهم سألوه عن الإيمان، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى.... الآية﴾. وقد فسر البر بالإيمان، وفسر بالتقوى وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

◈ **والشاهد**: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

◈ **والمعنى**: يخبر تعالى عباده المؤمنين الراغبين في بره تعالى وإفضاله بأنه ينجيهم من النار، ويدخلهم الجنة بأنهم لله يظفروا بمطلوبهم من بر ربهم حتى ينفقوا من أطيب أموالهم وأنفسها عندهم وأحبها إليهم، ثم أخبرهم مطمئنًا لهم على إنفاقهم أفضل أموالهم بأن ما ينفقون من قليل أو كثير نفيس أو خسيس هو به عليم وسيجزيهم به، وبهذا حبب إليهم الإنفاق ورغبهم فيه، فجاء أبو

طلحة رضي الله عنه يقول: يارسول الله إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن من أحب أموالي إليّ بيرحاء (حديقة)، فاجعلها حيث أراك الله يارسول الله. فقال له ﷺ: «مال رابح - أو رائج - اجعلها في أقربائك». فجعلها في أقربائة حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنه أجمعين.

٢ - قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

والشاهد: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.

والمعنى: قرر تعالى إباحة المعاملة مع المسالمين الذين ليسوا محاربين، وبأي أسلوب لم يخرجوكم من دياركم، فحكم معاملتهم الإباحة، والمعاملة معهم بالبر أي بالإحسان إليهم بطعام وكسوة أو إركاب، وتقسطوا أي: تعدلوا فيهم بأن تنصفوهم، وهذا عام في كل الظروف الزمانية والمكانية وفي كل الكفار.

٣ - وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ١٨ - ٢٢].

والشاهد: الآيات.

والمعنى: بعد أن ذكر تعالى كتاب الفجار وما ختم له به، ذكر كتاب الأبرار وما ختم له به، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي حقًّا إن كتاب الأبرار - وهو جمع بر أو بار وهو المؤمن الذي بر ربه بطاعته في أداء فرائضة واجتناب نواهيه وكان صادقًا في ذلك كتاب أعمال هؤلاء الأبرار - في عليين وما أدراك يا رسولنا: ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ إنه موضع في أعلى الجنان، كتاب مرقوم، يريد كتاب الأبرار الموضوع في عليين كتاب مرقوم بأمان من الله لصاحبه من النار والفوز بالجنة، ويشهد

هذا الكتاب المقربون من كل سماء، يحضرونه ويحفظون له ويشهدون بما فيه من الأمان لصاحبه من النار والفوز بالجنة، إن الأبرار وأصحاب الكتب الموزعة في عليين لفي نعيم، يريد يوم القيام والنعيم هو نعيم الجنة وهذا لون منه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحري الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا». [متفق عليه]

٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن عمر بن الخطاب أصاب أرضًا بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه، فما تأمرني؟ قال: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها». قال: فتصدق بها عمر أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث وتصدق بها في الفقراء وفي القربة وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف ولا جناح على وليها أن يأكل نها بالمعروف ويطعم غير متمول.

[متفق عليه]

٣ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع كثير المال فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فأنظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله في أهلك، فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سمن أو أقط، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء رسول الله ﷺ، وعليه وضر من صفرة، فقال له رسول الله ﷺ «مَهْيَم».

قال: تزوجت امرأة من الأنصار .قال: «ماسُقت فيها؟». قال: وزن نواة من ذهب ـ أو نواة من ذهب ـ فقال: «أولم ولو بشاة». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن البر اسم جامع لكثير أو لكل صفات الخير.

وللبر نوعان: صلة، ومعروف

فأما الصلة، فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحدودة، لغير عوض مطلوب.

والثاني: وهو المعروف، وينقسم نوعين؛ قولاً وعملاً، فالقول: فهو طيب الكلام وحسن البشر، والتودد بجميل القول: وأما العمل، فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة في النائبة وفي البر خصال الخير كله، وفي ضده وهو الفجور خصال الشر كله والبر يُدخل الناس الجنة، وبضده تكون النار.

* * *

٨٣ كفالة اليتيم

هي أن تقوم بأمره ومصالحه وتربيته والإحسان إليه.

قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث - يعني قول الرسول ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» - أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك».

١ - قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

◆ والشاهد: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

◆ والمعنى: قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾. أي: عند علماء بنى إسرائيل وصلحائهم وفي حضرتهم، وهم يقترعون على (النذيرة) مريم من يكفلها: فرموا بأقلامهم في النهر فمن وقف قلمه في الماء كان كافلها بأذن الله فألقوا أقلامهم، تلك الأقلام التي كانت تكتب الحق، والهدى لا الباطل والضلال.

ففاز بكفالتها بإذن الله تعالى زكريا عليه السلام، وهو الذي حظي بالقيام بمصالحها.

٢ - قال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

◆ والشاهد: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾.

◆ والمعنى: لما أمر الله تعالى بصلة الأرحام وحرّم قطعها في الآية التي قبلها، أمر في هذه الآية أوصياء اليتامى أن يعطوا اليتامى أموالهم إذا بلغوا سن الرشد

وآنسوا منهم رشداً، فقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ ونهاهم مُحَرِّمًا عليهم أن يستبدلوا أموال اليتامى الجيدة بأموالهم الرديئة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾. لما في ذلك من أذية اليتيم في ماله ونهاهم أيضًا أن يأكلوا أموال اليتامى مخلوطة مع أموالهم، كما في ذلك من أكل مال اليتيم بغير حق.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢].

والشاهد: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

والمعنى: أرأيت يا رسولنا الذي يكذب بالدين وهو الجزاء في الآخرة على الحسنات والسيئات، فهو ذاك الذي يدع اليتيم أي يدفعه بشده عن حقه، ولا يعطيه إياه احتقاراً له وتكبراً عليه، ولا يحض على طعام المسكين، أي ولا يحث ولا يحض نفسه ولا غيره على طعام الفقراء والمساكين وذلك ناتج عن عدم إيمانه بالدين أي بالحساب والجزاء في الدار الآخرة، وهذه صفة كل ظالم مانع للحق لا يرحم ولا يشفق، إذ لو آمن لرحم وأشفق.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن زينب امرأة عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ فقال: «تصدقن ولو من حليكن». وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها، فقالت لعبد الله: سل رسول الله ﷺ أيجزئ عني أن أنفق عليك وعلى أيتام في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله ﷺ. فانطلقتُ إلى النبي ﷺ فوجدتُ امرأة من الأنصار على الباب، حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال، فقلنا: سل النبي ﷺ: أيجزئ عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري؟ وقلنا: لا تخبر بنا ـ فدخل عليه فسأله، فقال:

«من هما؟». قال: زينب. قال: «أي الزيانب؟». قال: امرأة عبد الله. قال: «نعم لها أجران؛ أجر القرابة وأجر الصدقة». [متفق عليه]

٢ - عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾. انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفصل له الشيء من طعامه، فيجلس له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. [رواه ابو داود والنسائي]

والخلاصة

أن كفالته اليتيم من أعظم القربات إلى الله؛ إذ جعل فاعلها بجانب النبي ﷺ في الجنة.

وفيها من الأمور المستحبة والفاضلة ما يحص عليها منها :-

البركة التي تحل على البيت الذي فيه يتيم.

وأن يخرج هذا النبت الذي ليس له عائل سويًا قويمًا يستفاد منه.

وهي أيضًا تزكي المال وتطهره.

* * *

٨٤ كفالة المشورة

هي استنباط المرء الرأى من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور الجزئية التي يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها(١).

قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام من لايستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا مالا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. قال أعرابي: ما غبنت قط حتى يغبن قومي. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل شيئًا حتى أشاورهم. وقال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكُتَّاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها، وكان يقال: ما ندم من استشار. وكان يقال: من أعجب برأيه ضل.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- **والشاهد**: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.
- **والمعنى**: هذه تتمت الآداب والنتائج المترتبة على غزوة أحد، يخبر تعالى عما وهب رسوله ﷺ من الكمال الخلقي الذي هوقوام الأمر، فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: فبرحمة من الله رحمناهم بها لنت لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ﴾ أي: قاسيًا جافًا جافيًا قاسي القلب غليظ ﴿لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي:

---

(١) الراغب.

تفرقوا عنك، وحرموا بذلك سعادة الدارين، وبناءاً على هذا، اعف عنهم (المسيئين) واستغفر لذنبهم وشاور ذوى الرأى منهم، وإذا بدا لك راجح المصلحة، فاعزم على تنفيذه متوكلاً على ربك، فإنه يحب المتوكلين، والتوكل الإقدام.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

◆ والشاهد: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

◆ والمعنى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ عندما ناداهم ودعاهم لكل ما طلبه منهم، والذين أقاموا الصلاة فأدوها على وجهها المطلوب لها من خشوع، مراعين شرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها، والذين أمرهم شورى بينهم، أي: أمرهم الذي يهمهم في حياتهم أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً يجتمعون عليه ويتشاورون فيه ويأخذون بما يلهمهم ربهم بوجه الصواب فيه.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن الزبير رضي الله عنه أنه خاصم رجلاً من الأنصار، قد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله! أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق، ثم احبس حتى يبلغ الجدر». فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: والله

ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

٢ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «من تقوّل عليّ مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشده فقد خانه، ومن أفتى بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه».

[رواه أحمد والحاكم وصححه]

٣ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن معاذ، فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغمام لفعلنا. قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى وصلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش، وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه؟ فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه. فقال: نعم أنا أخبركم؛ هذا أبو سفيان. فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف، قال: والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان». قال: ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا. قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

والخلاصة

أن الشورى أو المشاورة هي طلب سديد الرأي من الغير، وهي تذهب ما في النفوس من مظنة الاستبداد بالرأي. قال الشافعي - رحمه الله -: إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبهه على ما يفعل عنه، ويدله على ما لا يستحضره من الدليل لا ليقلد المشير فيما يقوله، فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ.

وتختلف الشورى عن الديمقراطية، إذ الشورى في مشاورة العلماء الأتقياء المخلصين من رجال الأمة، أما الديمقراطية فتعتمد على عدد الآراء من عامة الناس وهذا خطأ.

وتنتفي الشورى بالنص القاطع الذي ليس فيه رأي.

* * *

٨٥ كفالة الاستخارة

هى طلب خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما.

قال ابن أبي حمزة - رحمه الله تعالى: الاستخارة في الأمور المباحة، وفي المستحبات إذا تعارضا في البدأ بأحدهما، أما الواجبات وأصل المستحبات والمحرمات والمكروهات كل ذلك لا يستخار فيه».

١ - قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢١٦]

◆ والشاهد: ﴿تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

◆ والمعنى: يخبر تعالى رسول ﷺ وعباده المومنين بأن فرض عليهم قتال المشركين والكفار، وهو يعلم أنه مكروه لهم بطبعهم لما فيه من الآلام والأتعاب وإضاعة المال والنفس، وأخبرهم أن ما يكرهونه قد يكون خيراً، وأن ما يحبونه قد يكون شراً، من ذلك الجهاد فإنه مكروه لهم وهو خير لهم لما فيه من عزتهم ونصرتهم ونصرة دينهم مع حسن الثواب وعظم الجزاء في الدار الآخرة، كما أن ترك الجهاد محبوب لهم وهو شر لهم؛ لأنه يشجع عدوهم على قتالهم واستباحة بيضتهم وانتهاك حرمات دينهم مع سوء الجزاء في الدار الآخر، وهذا الذي أخبرهم تعالى به من حبهم لأشياء وهي شر لهم، وكراهيتهم لأشياء وهي خير لهم هو كما أخبر لعلم الله به قبل خلقه، والله يعلم وهم لا يعلمون، فيجب التسليم لله تعالى في أمره وشرعه مع حب ما أمر به وما شرعه واعتقاد أنه خير لا شر فيه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والشاهد: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

والمعني: أمر الله تعالى عباده المؤمنين بمعاشرة الزوجات بالمعروف وهو العدل والإحسان، فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وإن فرض أن أحداً منكم كره زوجته وهي لم تأت بفاحشة مبينة فليصبر عليها ولا يطلقها، فلعل الله تعالى يجعل في بقائها في عصمته خيراً كثيراً له نتيجة الصبر عليها وتقوى الله تعالى فيها وفي غيرها، فقد يرزق منها ولداً ينفعه وقد يذهب من نفسه ذلك الكره ويحل محله الحب والمودة، والمراد أن الله تعالى أرشد المؤمن إن كره زوجته أن يصبر ولا يطلق، لما في ذلك من العاقبة الحسنة؛ لأن الطلاق بغير موجب غير صالح ولا مرغوب للشارع، وكم من أمر يكرهه العبد ويصبر عليه فيجعل الله تعالى فيه الخير الكثير.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ويسره لي، وإن

كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، ويسمي حاجته». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن الاستخارة هي طلب خير الأمرين لمن احتاج إلى أحدهما، والاستخارة مفتاح الخير كله. قال بعض الأدباء: ما خاب من استشار وما ندم من استخار».

ولو لم يوجد في الاستخارة إلا الاتباع لكفى، والاستخارة خير وبركة.

* * *

٨٦ كفالة الدعاء

هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له.

قال يحيى الغساني - رحمه الله - أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام، فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم، فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا، اللهم إنا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا. وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا، اللهم إنا أرقاؤك فاعتقنا. وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا، اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا ﴿فسقوا﴾(١).

١ - قال الله تعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾** [البقرة: ١٨٦].

◈ **والشاهد**: **﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾**.

◈ **والمعنى**: ورد أن جماعة من الصحابة سألوا النبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى قوله: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾** ومعنى المناجاة المكالمة بخفض الصوت، والمناداة برفع الصوت، وإجابة الله دعوة عبده قبول طلبه وإعطاؤه مطلوبه، وما على العباد إلا أن يستجيبوا لربهم بالإيمان به وبطاعته في أمره ونهيه وبذلك يتم رشدهم ويتأهلون للكمال والإسعاد في الدارين: الدنيا والآخرة.

٢ - وقال تعالى: **﴿لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) من كتاب الأذكار للنووي.

◈ الشاهد: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

◈ والمعنى: أخبر تعالى أن له الأسماء الحسنى، لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وأمر تعالى عباده أن يدعوه بها ؛ بيا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا رب، يا حي، يا قيوم، وذلك عند سؤالهم إياه وطلبهم منه، كما يتركوا أهل الزيغ والضلال الذين يلحدون في أسماء الله، فيؤلونها أو يعطلونها أو يشبهونها، أمر عباده المؤمنين به أن يتركوا هؤلاء له ليجزيهم الجزاء العادل على ما كانوا يقولون ويعملون؛ لأن جدالهم غير نافع فيهم ولا مجد للمؤمنين ولا لهم.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

◈ والشاهد: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾.

◈ والمعنى: أراد الله تعالى هداية أولئك الذين يعدلون بربهم أصنامًا وأحجاراً، فيقول الله تعالى لرسوله ﷺ: قل لأولئك الذين يعدلون بنا الأصنام: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني إن أتاكم عذاب الله اليوم انتقامًا منكم أو أتتكم الساعة وفيها عذاب يوم القيامة، أغير الله تدعون ليقيكم العذاب ويصرفه عنكم إن كنتم صادقين في أن آلهتكم تنفع وتضر، تقي السوء وتجلب الخير؟ والجواب معلوم أنكم لا تدعونها ليأسكم من إجابتها بل الله وحده هو الذي تدعونه فيكشف ما تدعون به إن شاء، وتنسون عندها ما تشركون به من الأصنام، فلا تدعونها ليأسكم من إجابتها وضعفها وحقارتها.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝٤١

تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٤١].

والشاهد: ﴿أَدْعُوكُمْ﴾. ﴿تَدْعُونَنِي﴾. (ليس له دعوة).

والمعنى: هذه الآيات تضمنت إرشادات ونصائح مؤمن آل فرعون، فقد قال ما أخبر به تعالى عنه: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أي: من النار، وذلك بالإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي وتدعونني إلى النار، وذلك بدعوتكم لي إلى الشرك والكفر، تدعونني لأكفر وأنا أدعوكم لتؤمنوا بالعزيز الغفار، لا جرم أن ما تدعونني إليه، ليس له دعوة، أي: ليس له حق يوجب له العبادة، وإنه لايستجيب له دعاء أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، وفي النهاية إن مردنا إلى الله أي لا محالة نرجع إليه فالواجب أن نؤمن به ونعبده ونوحده مادام رجوعنا إليه، وفي النهاية إن المسرفين هم أصحاب النار.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني. فإنه لا مُسْتَكْرِهَ له». [رواه البخاري]

٢ - عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: اللهم اغفر لي، أودعا استجيب له، فإن توضأ قبلت صلاته».

[رواه البخاري]

٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشة فليأخذ داخلة إزاره، فينفض بها فراشه وليسم الله، فإنه لا يعلم ما خلف بعده على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن، وليقل: سبحانك اللهم ربي بك وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». [متفق عليه]

٤ - وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت. أستغفرك وأتوب إليك». وإذا ركع قال: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي». وإذا رفع قال: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد». وإذا سجد قال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين. ثم يكون من آخر التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الدعاء هو العبادة، إذ قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وللدعاء آداب وأوقات يستحب فيها:

ومن الآداب: أن يكون على طهارة، أن يستقبل القبلة، أن يكون حاضر القلب، أن يرفع يديه متخشعًا، أن يدعو بصوت خافت، أن يبدأ الدعاء بالحمد ثم الصلاة على الرسول ﷺ، ثم يختمه بالصلاة على الحبيب ﷺ.

ومن أوقات الاستجابة: بين الأذان والإقامة والثلث الأخير من الليل و آخر ساعة يوم الجمعة، وأوقات المطر، وعند المريض، وفي السفر.

* * *

٨٧ كفالة الابتهال

هو أن تمد يديك إلى الله بالدعاء مخلصاً متضرعاً.

١ ـ قال الطبرى في تفسير قوله تعالى: ﴿بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فمن جاء لك يا محمد في المسيح عيسى بن مريم، ويعني بقوله: ﴿بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾. الذي بينته لك في عيسى أنه عبد الله وقوله سبحانه: «ثم تبتهل» ثم نلتعن ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ منا ومنكم في أنه عيسى ـ عليه السلام ـ الطبري.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

- **والشاهد**: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾.

- **والمعنى**: لما أكثر النصارى على رسول الله ﷺ من التردد والمجادلة أرشده ربه تعالى إلى طريق التخلص منهم وهو المباهلة بأن يجتمعوا ويقول كل فريق: اللهم العن الكاذب منا، ومن كان كاذباً منهم يهلك على الفور، فقال له ربه جل شأنه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي: هلم وندع أبناءنا، وخرج في الغد رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، إلا أن النصارى عرفوا الحق وخافوا إن لاعنوا هلكوا فهربوا، من الملاعنة ودعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبوا

ورضوا بالكفر إبقاءاً على زعامتهم ودنياهم، ورضوا بالمصالحة فالتزموا بأداء الجزية للمسلمين والبقاء على دينهم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه». [رواه مسلم]

٢ ـ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ، وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم؛ منهم السيد وهو الكبير والعاقب، وهو الذي يكون بعده، وصاحب رأيهم، فقال رسول الله ﷺ لهما: «أسلما». قال: قد أسلمنا قبلك. قال: «ما أسلمتما»، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما، يمنعكم من الإسلام ثلاث فيكما؛ عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولداً». ونزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ.....الآية﴾ فلما قرأها عليهم قالوا: ما نعرف ما تقول. ونزل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، يقول: من جادلك في أمر عيسى من بعد ما جاءك من العلم من القرآن ﴿فقل تعالوا﴾ يقول نجتهد في الدعاء أن الذي جاء به محمد هو الحق، وأن الذي يقولون هو الباطل. فقال لهم إن الله قد أمرنا إن لم تقبلوا هذا أن نباهلكم. فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهم ببعض ـ قال السيد للعاقب: قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل، ولئن لاعنتموه ليستأصلكم، وما لاعن قوم قط نبيًّا، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم إلا إلف دينكم فواعدوه وارجعوا إلى دياركم (بلادكم).

وقد كان رسول الله ﷺ خرج ومعه عليّ والحسن والحسين وفاطمة، فقال رسول الله ﷺ: «إن أنا دعوت فأمِّنوا أنتم، فأبوا أن يلاعنوه، وصالحوه على الجزية».

[من سيرة ابن هشام وأصله رواه البخاري]

٣ ـ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمده الله بالملائكة.

والخلاصة

أن الابتهال هو مد اليدين إلى الله بالدعاء مخلصًا متضرعًا، وفيه كمال الذل لله تعالى، وهو مظهر من مظاهر الإنكسار والخشوع بين يدى الله سبحانه وتعالى.

وفيه كثرة الإلحاح بالسؤال، وفيه الثقة بأن لا أحد يستطيع الإجابة إلا الله، فهو الصمد سبحانه.

٨٨ كفالة القنوت

هو لزوم الطاعة مع الخضوع.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: القنوت الذي يعم المخلوقات أنواع؛ أحدها طاعة كل شيء لمشيئته وقدرته وخلقه (قد لا يشعر به القانت) والمراد بقنوته هنا مُسَيَر، وكونه مدبراً مصرفًا تحت مشيئة الرب.

الثاني: وهو (يشعر به القانت) وهو اعترافهم كلهم بأنهم مخلوقون مربوبون.

الثالث: أنهم يضطرون إليه وقت حوائجهم فيسألونه ويخضعون له.

والرابع: أنهم يسلمون له ويخضعون طوعًا أو كرها.

الخامس: أنهم خاضعون للجزاء الإلهي في الدنيا والآخرة.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾** [البقرة: ١١٥، ١١٦].

◈ **والشاهد**: **﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾**.

◈ **والمعنى**: يخبر تعالى ردًا على اليهود الذين انتقدوا أمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، مؤذنًا بجواز صلاة من جهل القبلة أو خفيت عليه إلى أي جهة كانت، فأخبر تعالى أن له **﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾** خلقًا وملكًا وتصرفًا، يوجه عباده إلى الوجهة التي يشاءوها شرقًا أو غربًا، فلا اعتراض عليه ولا إنكار، وأن الله تعالى محيط بالكائنات؛ فحيثما توجه العبد في صلاته فهو متوجه إلى الله تعالى، إلا أنه تعالى أمر بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة، فمن عرف جهتها لا يجوز له أن يتجه إلا إليها.

وكل الكائنات في السموات والأرض يعلمها ربنا كما خلقها وعليه رزقهم وذلت لعظمته كل المخلوقات، لذلك قال: ﴿كُلٌّ لَّه قَانِتُونٌ﴾.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾

[الزمر: ٩]

◈ والشاهد: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾.

◈ والمعنى: أمن هو مطيع لله ورسوله ﷺ في أمرهما ونهيهما آناء الليل، أي: ساعات الليل تراه ساجداً في صلاته وفي نفس الوقت هو يحذر عذاب الآخرة ويسأل الله تعالى أن يقيه منه، ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وهي الجنة أن يجعله الله من أهلها أهذا خير أم ذلك الكافر الذي قيل له: تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار. والجواب معلوم للعقلاء.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٠]

◈ والشاهد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً﴾.

◈ والمعنى: لما أشكل المشركون على أنفسهم بأنهم على ملة أبيهم إبراهيم حتى لا يدخلوا الإسلام، وهو أبو الأنبياء باني البيت وشارع المناسك ومحرم الحرم، واليهود والنصارى كذلك يدعون أنهم على ملة إبراهيم، فأصر الجميع على أنه متبع لملة إبراهيم، فمن باب إبطال الباطل وإزاحة ستار الشبه وتنقية الحق والدين الحق ذكر تعالى جملة من حياة إبراهيم الروحية والدينية كمثال حي ناطق لكل عاقل، إذا نظر إليه عرف هل هو متبع لإبراهيم يعيش على ملته أو هو على غير ذلك، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا صالحًا جامعًا لخصال الخير، يقتدي به كل راغب في الخير وأنه كان قانتًا، أي: مطيعًا لربه فلا يعصي له أمرًا ولا نهيًا، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، من تبعك على هذا الأمر؟ قال: «حر وعبد». قلت: ما الإسلام؟ قال: «طيب الكلام وإطعام الطعام». قلت: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة». قال: قلت: أي الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده». قال: قلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن». قال: قلت: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قال: قلت: أي الهجرة أفضل؟ قال: «أن تهجر ما هجر ربك عز وجل».

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المجاهد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد». [رواه مسلم]

٣ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: صليت مع النبي ﷺ ليلةً فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء. قيل له: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ». [متفق عليه]

والخلاصة

أن القنوت هو لزوم الطاعة مع الخشوع، وهو سمت الصالحين المخلصين، وهو دليل صلاح العبد واستقامته وهو الموصل لرضا الله على عباده، وهو باب من أبواب اللجوء إلى الله.

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، قال: من القنوت الركوع، والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح من رهبة الله.

٨٩ الضراعة والتضرع

هي الخضوع والتذلل، والتضرع دعاء الله بضراعة. قال عون بن عبد الله: بينا رجل في بستان بمصر في فتنة ابن الزبير مكتئبًا، معه شيء ينكت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح له صاحب مسحاة، فقال له: يا هذا ما لي أراك مكتئبًا حزينًا؟ قال: فكأنه ازدراه، فقال: لا شيء. فقال صاحب المسحاة: أللدنيا فإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة أجل صادق يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحق والباطل. فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه، قال: فقال: لما فيه المسلمون، قال: فإن الله سينجيك بشفقتك علي المسلمين، وسل، فمن ذا الذي سأل الله ـ عز وجل ـ فلم يعطه؟! ودعاه فلم يجبه؟! وتوكل عليه فلم يكفه؟! أو وثق به فلم ينجه؟ قال: فعلقت للدعاء: اللهم سلمني وسلم مني فتمحلت ولم تصب منه أحداً.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

والشاهد: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

والمعنى: يناقش الله تعالى المشركين العادلين بربهم، فيقول لرسوله ﷺ قل لهم: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إذا ضل أحدكم طريقه في الصحراء ودخل عليه ظلام الليل، أو ركب البحر واضطربت نفسه من الخوف يدعو من؟ إنه يدعو الله وحده لعلمه أنه لا ينجيه إلا هو يدعوه ويتضرع إليه جهرًا وسرًا قائلاً: وعزتك لئن أنجيتنا من هذه الهلكة التي حاقت بنا لنكونن من الشاكرين لك، ثم إذا أنجاكم استجابة لدعائكم وأمنتم المخاوف وعدتم فجأة إلى الشرك به بدعاء غيره.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

[المؤمنون: ٧٥، ٧٦]

◈ **والشاهد**: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

◈ **والمعنى**: يخبر تعالي ويكشف سوء حال المشركين المكذبين، أنه لو رحمهم وكشف ما بهم من ضر أصابهم من قحط وجدب وجوع ومرض لا يشكرون الله، بل يتمادون في عتوهم وضلالهم وظلمهم يعمهون، حيارى يترددون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وهي سنوات الجدب والقحط بدعوة الرسول ﷺ، وما أصابهم من قتل وجراحات وهزائم في بدر، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما ذلوا لربهم وما دعوه ولا تضرعوا إليه، بل بقوا على طغيانهم في ضلالهم ومرد هذا ظلمة النفوس الناتجة عن الشرك والمعاصي.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا ـ وقال ثلاثًا أو نحو هذا ـ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك». [رواه الترمذي وقال: حسن]

٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ، قال: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه. فقال واحد منهم، اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز، فذهب وتركه، وأني عمدت إلى ذلك الفرق

فزرعته، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً وذكر الثاني، وذكر الثالث. وتلحظ ما فيها من تفرغ وتبتل وتذلل حتى أزاح الله الصخرة وخرجوا يمشون.

٣ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً متواضعًا، حتى أتى المصلى، فلم يخطب خطبتكم هذه ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير وصلى ركعتين كما يصلي في العيد». [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح]

٤ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ، فصلى رسول الله ﷺ بالناس فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأول، ثم سجد فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الثانية مثل ما فعل في الأولى، ثم انصرف وقد انجلت الشمس، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا». ثم قال: يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». [متفق عليه]

والخلاصة

أن التضرع والتذلل والخضوع في الدعاء كان صفة رسول الله ﷺ في حاله مع الله في الدعاء، وفي التضرع الخلاص والنجاة من البأس والضرر. وفيه القرب إلي الله لمن لزم هذا الحال.

* * *

٩٠ مكارم الاتباع

هو أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: باب ما أبان الله لخلقه من فرضه على رسوله اتباع ما أوحى إليه، وما شهد له به من اتباع ما أمر به، وأنه ﷺ هاد لمن اتبعه، ثم ساق الآيات الدالة على هذه المعاني، ومنها قوله تعالى: **﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليمًا حكيمًا﴾**، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعلمون خبيراً، وقوله تعالى: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾**.

وما سن رسول الله ﷺ فيما ليس لله فيه حكم فبحكم الله سنه، وكذلك أخبرنا الله في قوله: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾** [يونس: ٣٥].

- والشاهد: **﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾**.
- والمعنى: قل لهم **﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾**؟ والجواب لا يوجد؛ لأنها لا تتكلم ولا تعلم إذاً فقل لهم الله يهدى إلى الحق أي بواسطة نبيه ﷺ ووحيه وآياته، وقل لهم: **﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾** والجواب معروف الذي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ممن

لا يهتدى إلا أن يهدى، إذًا لم لا تتقون الله فتوجدوه وتؤمنوا برسوله ﷺ وكتابه فتهتدوا، وتتركوا آلهتكم التي لا تهدى إلى الحق؟ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: أي شيء ثبت لديكم في ترك عبادة الله لعبادة غيره من هذه الأوثان، ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: حكم هذا تحكمون به؟ وهو اتباع من لا يهدي وترك عبادة من يهدي إلى الحق.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

◈ **والشاهد**: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

◈ **والمعنى**: ينفي تعالى أن تكون حال المتبع لرضوان الله تعالى بالإيمان به ورسوله ﷺ وطاعتهما بفعل الأمر واجتناب النهي، كمال المتبع لسخط الله تعالى بتكذيبه تعالى وتكذيب رسول الله ﷺ ومعصيتهما بترك الواجبات وفعل المحرمات فكانت جهنم مأواه وبئس المصير جهنم.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

◈ **والشاهد**: ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ﴾.

◈ **والمعنى**: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أي: ويوم القيامة فينشرون يدعوهم الداعي هلموا إلي أرض المحشر، فلا يميلون عن صوته يمنة ولا يسرة، وهو معني لا عوج له، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: ذلت وسكنت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وهو صوت خفي كأصوات خفاف الإبل إذا مشت.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاة. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم (وفي البخاري على مهلهم)، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق». [متفق عليه]

٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني». [رواه مسلم]

٣ ـ وقال الرسول ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لُقَطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه».

[رواه أبو داود وصحيحه الألباني]

٤ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، فقال النبي ﷺ: «إني اتخذت خاتمًا من ذهب». فنبذه، وقال: «إني لن ألبسه أبدًا» فنبذ الناس خواتيمهم». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن الاتباع: التأسي بالرسول ﷺ في الأقوال والأفعال.

والاتباع دليل محبة الله عز وجل ورسوله ﷺ، وللمحبة طرفان هما المحب والمحبوب، وفيما يتعلق بمحبة الله عز وجل ،فإن طرفيها هما محبة العبد لربه ومحبة الرب لعبده، ودليل الأولى هي اتباع المصطفى ﷺ، أما الثانية فهي ثمرة ذلك الاتباع، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

* * *

٩١ القدوة الحسنة

هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا وإن سارًا وإن ضاراً.

قال القرطبي: واختلف في هذه الأسوة بالرسول ﷺ هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين: أحدهما على الإيجاب حتى يقوم الدليل على الاستحباب. الثاني: على الاستحباب حتى يقوم الدليل على الإيجاب، ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

- والشاهد: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.
- والمعنى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المسلمون، أي: من مؤمنين صادقين، ومنافقين كاذبين في رسول الله محمد ﷺ أسوة حسنة أي: قدوة صالحة فاقتدوا به في جهاده وصبره وثباته، فقد جاع حتي شد بطنه بعصابة وقاتل حتى شج وجهه وكسرت رباعيته، ومات عمه، وحفر الخندق بيديه وثبت في سفح سلع أمام العدو قرابة شهر فائتوا به في الصبر والجهاد والثبات ﴿إن كنتم ترجون﴾ أي: تنظرون ما عنده من خير في مستقبل أيامكم في الدنيا والآخرة وترجون اليوم الآخر أي ترتقبونه وما فيه من سعادة وشقاء، ونعيم مقيم، أو حجيم وعذاب أليم، وتذكرون الله تعالى كثيراً في كل حالاتكم وأوقاتكم، فاقتدوا بنبيكم ﷺ فإن الاقتداء به واجب لا يسقط إلا عن عجز والله المستعان.

٢ - وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

◆ والشاهد: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

◆ والمعنى: يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقتدي بأولئك الأنبياء المرسلين في كمالاتهم كلها حتى يجمع ﷺ كل كمال فيهم، فيصبح بذلك أكملهم على الإطلاق، وكذلك كان وقوله تعالى في ختام الآية الكريمة: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يأمره تعالى أن يقول لأولئك العادلين بربهم الأصنام والأوثان المكذبين بنبوته وكتابه، ما أسألكم علي القرآن الذي أمرت أن أقرأه عليكم لهدايتكم ﴿أَجْرًا﴾ أي: مالاً مقابل تبليغه إياكم ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للعالمين يتعظون بها إن هم ألقوا أسماعهم وتجردوا من أهوائهم وأرادوا الهداية ورغبوا فيها.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعًا، وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة وقال: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة». [رواه النسائي]

٢ - عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، أنه بات ليلة عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالة ابن عباس قال: فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في منام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة « آل عمران »، ثم قام إلى شنٍّ معنقة، فتوضأ

منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي، قال ابن عباس: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع ﷺ يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذنه اليمنى يفتلها، فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر. ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج فصلى الصبح». [متفق عليه]

٣ـ قال الرسول ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبله إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، من جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الأسوة الحسنة هي الاقتداء واقتفاء أثر النبي ﷺ في الأقوال والأفعال والهيئات.

﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ ففي التأسي برسول الله ﷺ الهداية، وفيها وبها دخول الجنة.

وهي دليل الحب لله ولرسوله ﷺ.

* * *

٩٢ مكارم الطاعة

هي الامتثال ظاهراً، والرضا باطناً لحكم الله ورسوله وما يقوله من دعا إلى ذلك(١).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] قال: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهوَ الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلموا لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.

١ - قال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

- والشاهد: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

- والمعنى: لما اضطربت نفوس المؤمنين لقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ فلما قولوا سمعنا وأطعنا ولا تكونوا كاليهود: قالوا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ فلما قالوا صادقين أنزل الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ فأخبر عن إيمانهم مقروناً بإيمانهم بنبيهم ﷺ تكريماً لهم وتطميناً، وأخبرهم تعالى أن لرحمته بهم وحكمته في تصرفه في خلقه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي ما تتسع له طاقتها وتقدر على فعله إن لها ما كسبت من الخير

(١) التعريفات للجرجاني.

فتجزى به خيراً وعليها ما اكسبت من الشر فتجزى به شراً إلا أن يعفو عنها ويغفر لها.

٢ - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

◈ والشاهد: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

◈ والمعنى: لما أمر تعالى ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانات التي هي حقوق الرعية، وبالحكم بينهم بالعدل أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ أولاً ثم بطاعة ولاته ثانيًا، والطاعة لأولي الأمر مقيدة بما كان معروفًا للشرع أما في غير المعروف فلا طاعة في الاختيار لحديث: «إنما الطاعة في المعروف» «ولا طاعة لمخلوق في معطية الخالق» وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فهو خطاب عام للولاة والرعية فمتى حصل خلاف في أمرين من أمور الدين والدنيا وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله الله ﷺ فبما حكما فيه وجب قبوله حلواً كان أو مراً، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. يريد ذلك الرد والرجوع بالمسائل والقضايا المختلف فيها إى الكتاب والسنة هو خير حالاً ومآلاً، لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة متحابة متعاونة.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

◈ والشاهد: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

◈ والمعنى: لما قال بعض الصحابة: يا رسول الله ما ينبغى لنا أن تفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا، رفعت فوقنا فلم نرك فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ

وَالرَّسُولَ... الآية﴾ وما أنعم الله تعالى عليهم هو الايمان بالله تعالى ومعرفته عز وجل ومعرفة محابه ومساخطه والتوفيق لفعل المحاب وترك المساخط هذا في الدنيا، وأما ما أنعم به عليهم في الآخرة فهو الجوار الكريم في دار النعيم.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة». [رواه البخاري]

٢ ـ وقال الرسول ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل: يارسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا. ما أقاموا فيكم الصلاة، ولا تنزعوا يداً من طاعة». [رواه مسلم]

٣ ـ قال النبي ﷺ: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية. يغضب لعصبة أو يدعو إلي عصبة. أو ينصر عصبة، فقتله جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى، من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه».

[رواه مسلم]

٤ ـ لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ: قال: «ما هذا يا معاذ؟ قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فودرت في نفسي أن فعل ذلك بك، فقال رسول الله ﷺ، فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة تسجد لزوجها. واللذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه».

[رواه الترمذي،حديث حسن]

والخلاصة

أن الطاعة هي الامتثال ظاهراً، والرضا باطناً.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح من معاملة ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عن الخوص في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعمتي الإقبال عليه والإنابة إليه.

* * *

٩٣ الحكم بما أنزل الله

الحكم بما أنزل الله: هو خطاب الله تعالى المتعلقة بفعل المكلف من حيث كونه كذلك (بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع).

قال الإمام الشافعي في «الرسالة»: ومن البيان المشار إليه في الآية من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ما سنه رسول الله ﷺ مما ليس فيه نص حكم إذ قد فرض الله في كتابه طاعة نبيه ﷺ والانتهاء إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله ﷺ فبفرض الله قبل.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

- **والشاهد**: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

- **والمعنى**: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحكم بين من يتحاكمون إليه بما أنزل عليه من القرآن فقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ونهاه أن يتبع أهواءهم فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وحذره من أن يتبع بعض أراءهم فيترك بعض ما أنزل الله عليه، وأعلمه أن اليهود إن تولوا أي أعرضوا عن قبول حكمه وهو الحكم الحق العادل فإنما يريد الله تعالى أن ينزل بهم عقوبة نتيجة ما قارفوا من الذنوب وما ارتكبوا من الخطايا فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وندد بأعدائه حيث أخبر أن أكثرهم فاسقون أي عصاة خارجون عن طاعة الله تعالى ورسله.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

والشاهد: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾.

والمعنى: يأمر الله نبيه ﷺ ليقول: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي على علم يقيني من وجوب الإيمان بالله ووجوب الدعوة إلى ذلك، وكذبتم أنتم بهذا كله وبالعذاب إذ أدرتكم به وأنا ما عندي ما تستعجلون به من العذاب، ولو كان عندى لحل بكم وانتهى أمركم، ولكن الحكم لله ليس لأحد غيره، وقد قص عليكم أخبار السابقين المطالبين رسلهم بالعذاب ورأيتم كيف حل بهم العذاب، ويقص الحق وهو خير الفاصلين.

٣ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

والشاهد: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

والمعنى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أمور الدين والدنيا أيها الناس فحكمه إلى الله تعالى هو الذي يحكم فيه بالعدل فردوه إليه سبحانه وتعالى فإنه يقضي بينكم بالحق، وهنا أمر رسول ﷺ، أن يقول للمشركين ذلكم المذكور بصفات الجلال والكمال الحكم العدل الذي يقضي ولا يقضى عليه، الله ربي الذي ليس لي رب سواه عليه توكلت ففوضت أمري إليه واثقًا في كفايته وإليه وحده أنيب أي أرجع في أموري كلها.

٤ ـ وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٨ - ٥١].

والشاهد: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

والمعنى: إنما كان قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، أي لم يكن للمؤمنين الصادقين من قول يقولون إذا دعوا إلى كتاب الله ورسوله ليحكم بينهم إلا قولهم سمعنا وأطعنا فيجيبون الدعوة ويسلمون بالحق قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الناجحون في دنياهم وآخرتهم دون غيرهم من أهل النفاق.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨].

- والشاهد: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾.

- والمعنى: وتتوالى إنعامات الله على من يشاء من عباده، وفي ذلك تقرير لنبوة نبيه محمد ﷺ التي كذبت بها قريش فقال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي واذكر يا نبينا داود وسليمان ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي اذكرهما في الحرث الذي ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي رعت فيه ليلاً بدون راع فأكلته وأتلفته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ حاضرين لا يخفى علينا ما حكم به كل منهما، إذ حكم داود بأن يأخذ صاحب الحرث الماشية مقابل ما أتلفته لأن المتلف يعادل قيمة الغنم التي أتلفته، وحكم سليمان بأن يأخذ صاحب الحرث الماشية يستغل صوفها ولبنها وسخللها فإذا ردت إليه كرومه كما كانت أخذها ورد الماشية لصاحبها لم ينقص منها شيء، هذا الحكم هو الأصح، بإخبار الله تعالى.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾

[الطور: ٤٨]

◈ **والشاهد**: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

◈ **والمعنى**: واصبر لحكم ربك وقضائه بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين، ولا تخف ولا تحزن فإنك بأعيننا أي بمرأ منا، نراك ونحفظك وجمع لفظ العين على أعين مراعاة لنون العظمة وهو المضاف إليه بأعيننا وسبح بحمد ربك أي قل سبحان الله وبحمده حين تقوم من نومك ومن مجلسك ومن الليل أيضًا فسبحه بصلاة المغرب والعشاء والتهجد وكذا إدبار النجوم أي بعد طلوع الفجر فسبح بصلاة الصبح وغيرها.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر». [متفق عليه]

٢ ـ وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد». [متفق عليه]

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: اقض بيننا بكتاب الله، وقال الآخر وهو أفقههما أجل يا رسول الله، فاقض بيننا بكتاب الله، وأذن لي أن أتكلم. قال: تكلم، قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا، قال مالك والعسيف الأجير، زنى بامرأته، فأخبروني أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاةٍ وجاريةٍ لي، ثم إني سألت أهل العلم

فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريبه عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ، أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، أما غنمك وجاريتك فرد عليك، وجلد ابنه مائة وغربه عاماً، وأمر أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها، فاعترفت فرجمها». [متفق عليه]

والخلاصة

أن الحكم بما أنزل الله هو سياسة الناس والقضاء بينهم وتدبير أمورهم طبقًا للأحكام الشرعية.

ومن أسمائه تعالى: الحكم والحكيم، وهو سبحانه أحكم الحاكمين وهو الحكيم له الحكم.

ويتضمن الحكم بما أنزل الله أيضا الحكم بما أجمعت عليه الأمة أو قيس على حكم جاء به الكتاب أو أوردته السنة.

وللحكم الشرعي نوعان: تكليفي ووضعي ولكل منهما أقسام:

أقسام التكليفي:

١) الإيجاب. ٢) الندب. ٣) التحريم.

٤) الكراهة. ٥) الإباحة.

أقسام الوضعي المتعلق بأفعال العباد المكلفين، الطلب والتخيير وخطاب الوضع.

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ... آية**﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم

الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.

* * *

٩٤ مكارم القوة

هي تمكن الكائن الحيّ من الأفعال الشاقة، فإن كان الكائن نباتًا سميت قوته قوة طبيعية، وإن كان حيوانًا سميت قوته قوة نفسائية وإن كان إنسانًا سميت قوته قوة عقلية، والقوى العقلية باعتبار إدراكها للكليات تسمى القوة النظرية، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية من أدلتها بالرأي تسمى القوة العملية.

قال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]. بقوة أي بعمل ما فيه.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]

- **والشاهد**: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.
- **والمعنى**: أمر الله بكتب ﴿الأَلْوَاحِ﴾، فكتب فيها من أمور الدين والدنيا موعظة لقومه من أمر ونهي وترغيب وترهيب، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إلى بيان وتفصيله، قال الله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم وجد وذلك بالعمل بحلالها وحرامها فعلاً وتركًا. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ أيضًا ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بما هو عزائم فيها وليس برخص، تربية لهم وتعويداً لهم على تحمل العظائم لما لازمهم من الضعف والخور دهرًا طويلاً.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

◈ والشاهد: ﴿الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

◈ والمعنى: لما تقرر أن إله الناس ومعبودهم واحد ولا يستحق ذلك إلا الله بين أن مع هذا البيان والوضوح يوجد أناس يتخذون من دون الله آلهة أصنامًا ورؤساء ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ كحبهم لله تعالى أي يسوون بين حبهم وحب الله تعالى، كما أخبر تعالى أنه لو يرى المشركون عند معاينتهم العذاب يوم القيامة لرأوا أمرًا فظيعًا يعجز الوصف عنه، واعلموا أن القوة لله وأن الله شديد العذاب.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

◈ والشاهد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

◈ والمعنى: بمناسبة انتهاء معركة بدر وهزيمة المشركين فيها، وعودتهم إلى مكة وكلهم تغيظ على المؤمنين وفعلاً أخذ أبو سفيان يعد العدة للانتقام، وما كانت غزوة أحد إلا نتيجة لذلك هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بإعداد القوة وبذل الطاقة وما في الوسع، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي فقال: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثًا، ثم يخبر تعالى عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بإعداد القوة على اختلافها بأن رباطهم للخيل وحبسها أمام دورهم معدة للغزو والجهاد عليها، يرهب أعداء الله من الكافرين والمنافقين أي يخوفهم حتى لا يفكروا في غزو المسلمين وقتالهم، وهذا ما يعرف بالسلم المسلح وهو أن الأمة إذا كانت مسلحة قادرة على القتال يرهبها أعداؤها فلا يحاربونها.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «أتاني رسول الله ﷺ وبي وجع قد كاد يهلكني، فقال رسول الله ﷺ امسح بيمينك سبع مرات وقل: «أعوذ بعزة الله وقوته من شر ما أجد» قال: فقلت ـ فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم». [رواه مسلم]

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

[رواه مسلم]

والخلاصة

أن القوة هي تمكن الكاذن الحي من الأفعال الشاقة.

وأن الله أمر بها في الطاعة، وأمر بها استعداد للعدو وهي من الأشياء التي مدحها رسول الله ﷺ في المؤمن أن يكون قويًا.

* * *

٩٥ مكارم الثبات

هو عدم احتمال الزوال بتشكيك المشكك.

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: وقيل معنى «يثبت الله» يديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصرا

١ - قال الله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٥].

◈ والشاهد: ﴿**وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾.

◈ **والمعنى**: لما ذكر الله تعالى خيبة المنافقين أموالهم رياء الناس محذراً المؤمنين من ذلك ذكر تعالى مرغباً في النفقة التي يريد بها العبد رضا الله وما عنده من الثواب الأخروى فقال ضاربًا لذلك مثلاً: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾ أي تحققًا وتيقنًا منهم بأن الله تعالى سيثيبهم عليها مثلهم في الحصول على ما أملوا من رضا الله وعظيم الأجر، كمثل ربوة بمكان مرتفع عالٍ أصابها مطر غزير فأعطت ثمرها، ضعفي ما يعطيه غيرها من البساتين ولما كانت هذه الجنة بمكان عال مرتفع فإنها يصبها المطر الغزير فإن الندي والمطر اللين الخفيف كافٍ في سقيها وريها حتى تؤتي ثمارها مضاعفًا مرتين.

٢ - وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾ [الفرقان: ٣٢].

◈ والشاهد: ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾.

◆ **والمعنى**: وقال المكذبون بالبعث المنكرون للنبوة المحمدية المشركون بالله آلهة من الأصنام هلا نزل عليه القرآن مرة واحدة مع بعضه بعضًا لا مفرقًا آيات وسوراً أي كما نزلت التوراة جملة واحدة والإنجيل والزبور وهذا من باب التعنت منهم والاقتراحات التي لا معنى لها إذ هذا ليس من شأنهم ولا مما يحق لهم الخوض فيه، ولكنه الكفر والعناد. ولما كان هذا مما قد يؤلم الرسول ﷺ رد تعالى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أنزلناه كذلك منجمًا ومفرقًا لحكمة عالية وهي تقوية قلبك وتثبيته لأنه كالغيث كلما أنزل أحيا موات الأرض وازدهرت به ونزوله مرة بعد مرة أنفع من نزول المطر دفعة واحدة.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك، وقال والميزان بيد الرحمن يرفع أقوامًا ويخفض آخرين إلى يوم القيامة». [رواه ابن ماجة]

٢ ـ وقال الرسول ﷺ: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها» قالوا: يا رسول الله! كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم». [رواه مسلم]

٣ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته، وكان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة، قالت: وما رأيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتى الصباح وما صام شهراً متتابعًا إلا رمضان». [رواه مسلم]

والخلاصة

الثبات: هو عدم احتمال الزوال بتشكيك المشكك قال الحسن البصري - رحمه الله تعالى - السنة - والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي. فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع آأهل الاتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا وفي الثبات دليل على كمال التوكل على الله.

وفيه قوة في الجهاد، وقوة في التأسي برسول الله ﷺ.

* * *

٩٦ مكارم المجاهدة

هي بذل الجهد في قتال الكفار، أو مجاهدة الشيطان والفساق والكفار.

أما مجاهد النفس: فعلى تعلم أمور الدين ثم على العمل بها ثم على تعليمها. ومجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد والمال واللسان والقلب.

قال ابن القيم رحمه الله ـ لما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج.

١ ـ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١١١].

- **والشاهد**: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ**﴾.
- **والمعنى**: لما ذكر الله تعالى حال المتخلفين عن الجهاد ذكر فضل الجهاد ترغيبًا فيه وفيما أعد لأهله فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ... الآية**﴾ وهذا هو الثمن الذي أعطى الله تعالى فيه الثمن وهو الجنة، وقوله: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ**﴾ أي أعداء الله المشركين ﴿**وَيُقْتَلُونَ**﴾ أي يستشهدون في

معارك القتال وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً وأحق حقًا أي أثبته في الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرأن تقريراً له وتثبيتًا، وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد مطلقًا أوفى بعهده إذا عاهد من الله تعالى.

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

- **والشاهد**: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.
- **والمعنى**: وهذه من أوائل ما نزل في شأن قتال المشركين وهي متضمنة الأذن لرسول الله ﷺ والمؤمنين بقتال من يقاتلهم والكف عمن يكف عنهم وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمة الله ليعبد وحده. الذين يقاتلونكم واقتلوهم حيث تمكنتم منهم، وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم أيها المهاجرون من دياركم، ولا تتحرجوا من القتل، فإن فتنهم للمؤمنين لحملهم على الكفر بالاضطهار والتعذيب أشد من القتل.

٣ ـ وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

- **والشاهد**: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾.
- **والمعنى**: هذه الآية نزلت في غزوة تبوك فقد بلغ النبي ﷺ أن هرقل ملك الروم قد جمع جموعه لحرب الرسول ﷺ، فأعلن النبي ﷺ التعبئة العامة، وكان الزمن صيفًا حاراً وبالبلاد جدب ومجاعة، وكان ذلك في شوال من سنة تسع، وسميت هذه الغزوة بغزوة العسرة فاستحث الرب تعالى المؤمنين ليخرجوا مع نبيهم ﷺ لقتال أعدائه الذين عزموا على غزوه في عقر داره

فأنزل تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ والقائل هو رسول الله ﷺ: ﴿انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي اخرجوا للجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لأجل رضاه سبحانه وتعالى وما عنده من نعيم مقيم، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي شيء يجعلكم لا تنفرون وأنتم المؤمنون طلاب الكمال والإسعاد في الدارين. وقوله: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي تباطأتم عن الخروج راضين ببقائكم في دوركم وبلادكم ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ أي ما كل ما يوجد فيها من متاع على اختلاف أنواعها بالنسبة إلى ما في الآخرة من نعيم مقيم في جوار رب العالمين تافه لا قيمة له، فكيف تؤثرون القليل على الكثير والفاني على الباقي.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - في حديث معاذ الطويل. قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». [رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

٢ - قال الرسول ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالمًا مع أجر أو غنيمة» (متفق عليه).

٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم» (رواه الترمذي وقال حسن صحيح).

٤ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما

أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفس بيده، لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا ثم أُقتل ، ثم أحيا ثم أُقتل» . [رواه البخاري]

والخلاصة

أن مجاهدة الأعداء هي بذل الجهد في قتال الكفار .

وللجهاد أقسام: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: أقسام الجهاد أربعة: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

١ ـ جهاد النفس: أربع مراتب: مجاهدتها على تعلم الهدى ودين الحق ثم مجاهدتها على العمل. والدعوة، ثم الصبر.

٣ ـ جهاد الشيطان: قال تعالى: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾** ولجهاد الشيطان ـ كما يقول ابن القيم ـ مرتبتين:

الأولى: جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك .

والثانية: جهاده على ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات فالمرتبة الأولي يكون بعدها اليقين والثانية يكون بعدها الصبر، قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾**

[السجدة: ٢٤]

الثالثة: جهاد الكفار والمنافقين ومن في حكمهم: أربعة مراتب .

١ ـ القلب واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان، وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فعلى

ثلاث مراتب: اليد إذا قدر، اللسان إذا عجزت اليد، ثم بالقلب إذا عجز اللسان.

حكم الجهاد: جهاد النفس في ذات الله تعالى وجهاد الشيطان فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد.

أما جهاد الكفار والمنافقين ومن في حكمهم من أهل البدع، فهو فرض كفاية قد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

* * *

٩٧ علو الهمة

هو استصغار مادون النهاية من معالي الأمور(١).

قال الشيخ/ محمد أحمد المقدم.

ولعلو الهمة مجالات خمس : طلب المعلم، العبادة والاستقامة البحث عن الحق، الدعوة إلي الله تعالى، والجهاد في سبيل الله وسنوجز القول في هذه المجالات كما يلي :

المجال الأول : طلب العلم : يتمثل علو الهمة في طلب العلم في :

١ـ غيرة على الوقت.

٢ ـ عزم يبلي الليل والنهار.

٣ ـ الحرص على الاغتراف من العلوم.

٤ ـ الغوص في البحث لا تحول بينه وبين نفائس العلوم وعورة المسلك.

٥ ـ ألسنة مهذبة لا تقع في لغو ولا مهاترة.

١ ـ قال الله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧].

❖ والشاهد : ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾.

❖ المعنى : هذه الآيات تضمنت لوحة مشرقة يهتدي بضوئها الهداة الدعاة إلى الله عز وجل إذ هي تمثل عرض حال قدمه نوح لربه عز وجل هو خلاصة دعوة

---

(١) وسائل الإصلاح ـ للخضر حسين.

دامت قرابة تسعمائة وخمسين سنة ولنصغ إلى نوح عليه السلام وهو يشكو إلى ربه ويعرض عليه ما قام به من دعوة إليه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ وهم أهل الأرض كلهم يومئذ ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ أي بالليل والنهار إذ بعض الناس لا يمكنه الاتصال بهم إلا ليلاً. فلم يزدهم دعائي لهم إلى عبادتك وحدك إلا فراراً مني ومما أدعوهم إليه، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم بأن يستغفروك ويتوبوا إليك لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما أقول لهم، واستغشوا ثيابهم أي تغطوا بها حتى لا يروني ولا ينظروا إلى وجهي كراهة لي وبغضًا فيّ، وأصروا على الشرك والكفر إصراً متزايداً.

٢ - وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٦-١٩].

◈ **والشاهد**: ﴿اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

◈ **والمعنى**: وقالوا أي ﴿المشركون﴾ لما نزل ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ الآيات من سورة الحاقة. قال غلاة الكافرين، كأبي جهل وغيره استهزاءاً، ربنا عجل لنا قطنا أي كتابنا لنرى ما فيه من حسنات وسيئات قبل يوم القيامة والحساب. والجزاء وهم لا يؤمنون ببعث ولا جزاء، وإنما قالوا هذا استهزاءاً فقال الله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إن أواب، أي القوة في دين الله، وهو رجاع إلى الله تعالى، اذكره لتتأسى به في صبره وقوته في الحق، ﴿إنا سخرنا﴾ الأيات بيان لإنعام الله تعالى على داود ليتعظم الرغبة في الاقتداء به، والرغبة إلى الله تعالى فيما لديه من إفضالات. إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. أي إذا سبح داود في المساء من بعد العصر إلى المغروب وفي الإشراق وهو وقت الضحى سبحت الجبال معه أي رددتْ تسبيحه كرامة له،

والطير محشورة أي وسخرنا الطير مجموعة تردد التسبيح معه، كل من الجبال والطير أواب، رجاع بالتسبيح.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: «ماذا عندك ياثمامة؟» فقال: عندي خير، يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتُرك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك، إن تنعم، تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله لا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ والله ما كان من بلد أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا، والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ». [متفق عليه]

٢ - عن سعد - رضي الله عنه - قال: «رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني

أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول الله ﷺ فرده، فبكى فأجازه، فكان سعد - رضي الله عنه - يقول فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره فقتل وهو ابن ست عشرة سنة». [رواه الطبراني]

والخلاصة

أن علو الهمة استصغار ما دون النهاية، وهي دأب الصالحين إذ أنهم ما استحقوا ذلك إلا بعلو همتهم وصبرهم على متاعب الطريق.

الأمثلة في علو الهمة في أنواع كثيرة:

١ - في طلب العلم «وموسى عليه السلام لما صحب الرجل الصالح.

٢ - في العبادة والاستقامة: ومثله داود عليه السلام خير الصيام صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا خير القيام قيام داود كان يقوم نصف الليل وينام ثلثه ويقوم سدسه.

٣ - في البحث عن الحق: كل الذين تقصوا أثر بعثة النبي ﷺ في انتظاره ليؤمنوا به، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

٤ - علو الهمة في الدعوة: ومثاله سيد الدعاة محمد ﷺ ثم نوح عليه السلام ثم الأمثل فالأمثل.

٥ - الجهاد في سبيل الله: ومثاله أيضًا سيد المجاهدين محمد ﷺ ثم موسى ثم الأمثل فالأمثل.

* * *

٩٨ مكارم الوقار

هو الإمساك عن فضول الكلام والعبث وكثرة الإشارة والحركة، فيما يُستغنى عن التحرك فيه، وقلة الغضب، والإصغاء عند الاستفهام، والتوقف عن الجواب والتحفظ من التسرع، والمباكرة في جميع الأمور.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ على قدر المعرفة يكون تعظيم الرب ـ تعالى ـ في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالاً، وقد ذم الله ـ تعالى من لم يعظمه حق عظمته ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته، وأقوال السلف تدور على هذا، فقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه».

١ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨، ٩].

والشاهد: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

والمعنى: يبين الله تعالى بعض ما أنعم به على رسوله ﷺ فيقول تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ لله تعالى بالوحدانية والكمال المطلق له عز وجل وشاهداً على هذه الأمة التي أرسلت فيها وإليها عربها وعجمها ومبشراً لأهل الإيمان والتقوى بالجنة ونذيراً لأهل الكفر والمعاصي أي مخوفًا لهم من عذاب الله يوم القيامة، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أرسلناه كذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بمعنى تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ بمعنى تجلوه وتعظموه وهذه واجبة لله ولرسوله الإيمان والتعزير والتوقير، وأما التسبيح والتقديس فهو لله تعالى وحده ويكون بكلمة سبحان الله وبالصلاة وبالذكر ولا إله إلا الله، وبدعاء الله وحده

وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي تسبحون الله ﴿بُكْرَةً﴾ أي صباحًا ﴿وَأَصِيلاً﴾ أي مساءًا (عشية).

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

[نوح: ١٠ ـ ١٤]

- **والشاهد**: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.
- **والمعنى**: ينكر تعالى على الذين لم يؤمنوا بالله وحده وأشركوا واتخذوا آلهة، ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي ما دهاكم، أي شيء جعلكم لا ترجون لله وقاراً لا تخافون عظمته وقدرته وكبرياءه. ولفت نظرهم إلى مظاهر قدرته تعالى فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقارة في أهل الغنم». [متفق عليه]

٢ ـ قال الرسول ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال، يغفر له أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ـ ويشفع في سبعين من أقاربه».

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب]

والخلاصة

أن الوقار: هو الإمساك عن فضول الكلام، والعبث وكثرة الإشارة والحركة، فيما يستغنى عن التحرك فيه، وقلة الغضب والإصغاء عند الاستفهام، والتوقف عن الجواب والتحفظ من التسرع والمباكرة في جميع الأمور.

وقال الإمام النووى رحمه الله ـ: الفرق بين السكينة والوقار أن السكينة هي التأني في الحركات واجتناب العبث، والوقار في الهيئة كغض البصر، وخفض الصوت وعدم الالتفات.

وفي الوقار البعد عن الرذيلة، وفيه إدراك معاني العز والشرف.

٩٩ حسن السمت

هو حسن الصورة والسريرة، وأن يوصف مَنْ هذه صفته بالخير والصلاح.

قال عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا، حكيمًا حليمًا عليمًا سكيتًا، وينبغى لحامل القرآن أن لا يكون جافيًا، ولا غافلاً، ولا صخابًا، ولا صياحًا ولا حديداً»(١).

١ ـ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

◈ والشاهد: ﴿أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾.

◈ والمعنى: أي قابلت مكرهن بمكر أعظم منه فأعدت لهن حفلة طعام وشراب فلما أخذن في الأكل يقطعن بالسكاكين الفواكه كالأترج وغيره، أمرته أن يخرج عليهن ليرينه فيعجبن برؤيته فيذهلن عن أنفسهن ويقطعن أيديهن بدل الفاكهة التي يقطعنها للأكل وبذلك تكون قد دفعت عن نفسها المعرة والملامة، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي ما هذا إلا ملك كريم وذلك لجماله وما وهبه الله تعالى من حسن جمال في خَلقه وخُلقه وهنا قالت، فذاكلن الذي لمتنني فيه.

---

(١) حلية الأولياء.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ : «إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» . [رواه أبو داود وأحمد، قال أحمد شاكر إسناده صحيح]

٢ ـ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان الناس ينتابون يوم الجمعة من منازلهم والعوالي فيأتون في الغبار يصبهم الغبار والعرق، فيخرج منهم العرق، فأتى النبي ﷺ إنسان منهم، وهو عندي فقال النبي ﷺ : لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا» . [متفق عليه]

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول : صبحكم ومساكم. ويقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقول بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول : أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله. وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ» . [رواه مسلم]

والخلاصة

أن حسن السمت هو حسن الصورة والسريرة، وهو اتباع الهدى في الحركة والسكن.

وقال ابن الجوزي رحمه الله ـ الكمال عزيز، والكامل قليل الوجود. فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن، وحسن صورة الباطن، وصورة البدن

تسمى خَلقًا، وصورة الباطن تسمى خُلقًا، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت، واستعمال الأدب، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع، والأخلاق، فالطبائع: العفة والنزاهة والأنفة من الجهل، ومباعدة الشر، والأخلاق: الكرم والإيثار وستر العيوب، وابتداء المعروف والحلم عن الجهل»(١).

وفي السمت الحسن أو حسن السمت كمال الإيمان ورجاحة العقل وفيه احترام الآدمية والواجب العام.

* * *

(١) صيد الخاطر.

١٠٠ حفظ الفم

الصمت: هو إمساك عن قول الباطل دون الحق.

وحفظ اللسان: هو صون اللسان عن الكذب، والغيبة والنميمة وقول الزور، وغير ذلك مما نهى عنه الشارع الحكيم.

قال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على مالم أقل، وقال آخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال ثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ [مريم: ٢٦].

◆ والشاهد: ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾.

◆ **والمعنى**: بين تعالى لمريم (رضي الله عنها) أن تأكل وتشرب وتفرح بوليدها ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا**﴾ أي فسألك عن حالك أو عن ولدك فلا تكلميه واكتفي بقولك: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**﴾ أي صمتًا ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ هذا كله من قول عيسى لها أنطقه الله كرامة لها ليذهب عنها حزنها وألمها النفس من جراء الولادة وهي بكر لم تتزوج.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ [آل عمران: ٤١].

◆ والشاهد: ﴿**أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا**﴾.

◈ **والمعنى**: لما سأل زكريا عليه السلام ربه آية على الحمل (أي علامة) يستدل بها علي وجود الحمل ليستقبل النعمة بالشكر فأجابه ربه قائلاً: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ يريد أنك تصبح وأنت عاجز عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، فلا تقدر أن تخاطب أحداً إلا بالإشارة وهي الرمز فيفهم عنك، وأمره تعالى أن يقابل هذا الإنعام بالشكر التام.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ «عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب، وعمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: ألا إن الله ـ عز وجل ـ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».

[متفق عليه]

٢ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «يا رسول الله إن البكر تستحي، قال: رضاها صمتها». [متفق عليه]

٣ ـ قال الرسول ﷺ: «من حسن إسلام المرء، تركه مالا يعنيه».

[رواه مالك والترمذي، وصححه الألباني]

٤ ـ عن عبد الله بن أبي أوفي ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجة». [رواه النسائي وصححه الألباني].

والخلاصة

أن حفظ الفم هو صون اللسان أن ينطق مادون الحق وأن لا يكذب.

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة للشيطان في استغواء الإنسان.

واللسان رحب الميدان، ليس له مراد، ولا لمجاله منتهى وحد. له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرض العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار علي مناضرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخش غائلته في عاجله وآجله ـ ذلك أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال ﷺ : من صمت نجا». [رواه الترمذي]

* * *

١٠١ حفظ الفرج

هو التعفف عن الحرام.

قال ابن القيم رحمه الله ـ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، فتكون نظرة ثم خطرة ثم خطوة ثم خطيئة، ولهذا قيل: من حفظ الأربعة أحرز دينه، اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات.

١ ـ قال الله تعالى: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** [النور: ٣٠].

◈ **والشاهد**: **﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾**.

◈ **والمعنى**: إن لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر، للرجال والنساء فقوله تعالى: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾** أي مر يا رسولنا المؤمنين بأن يحفظوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجه فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب وقوله: **﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾** أي أطهر لنفسوهم من نوافل العبادات **﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر، وحفظ الفرج إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

٢ ـ وقال تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**

فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

- **والشاهد**: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾.
- **والمعنى**: بيّن الله تعالى رحمته في الترخيص لعباده المؤمنين لمن لم يستطع نكاح الحرائر لقلة ذات يده، مع خوفه العنت الذي هو الضرر في دينه بالزنا، أو في بدنه بإقامة الحد عليه رخص له أن يتزوج المملوكة بشرط أن تكون مؤمنة، وأن يتزوجها بإذن مالكها وأن يؤتيها صداقها وأن يتم ذلك على مبدأ الإحصان الذي هو الزواج بشروطه لا السفاح، الذي هو الزنى العلني المشار إليه بكلمة ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ ولا الخفي المشار إليه بكلمة ﴿وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي أخلاء.

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت». [رواه أحمد في المسند وصححه الألباني]

٢ - وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - «أن فتى من قريش أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله! ائذن لي في الزنا. فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا: مه مه، فقال: ادنه. فدنا منه قريبًا فقال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله! جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: افتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: افتحبه لأختك؟ قال:

لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «افتحبه لعمتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء».

[رواه أحمد ورجالة رجال الصحيح]

٣ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا أحدكم أعجبته المرأة، فوقعت في قلبه، فليعمد إلى امرأته فليواقعها، فإن ذلك يرد ما في نفسه». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن حفظ البصر هو التعفف عن الحرام.

ولحفظ البصر أهمية عظمى بالنسبة للفرد والمجتمع، لأن حفظ الفرج وغض البصر والعفة عن المحارم يؤدي إلى تماسك بنيان المجتمع وحفظ الأنساب، والعصمة من الأمراض التي جعلها الله عقابًا دنيويًا يفتك بالمذنب الذي لا يرجع من قريب ويتأله على الله، ولا يرضى بما قسمه الله له من فرج حلال، ونظر حلال.

وتحفظ الفروج بالآتي: بالعفة ويأتي تحتها: الزواج وغض البصر. والصوم لمن لم يقدر على الزواج.

* * *

١٠٢ مكارم الفطنة

هي التنبه للشيء الذي يقصد معرفته.

حدّث الشعبي قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقالت أشكو إليك خير أهل الدنيا إلا رجل سبقه بعمل أو عمل مثل عمله، يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم أخذها الحياء فقالت: أقلني أمير المؤمنين. فقال جزاك الله خيراً فقد أحسنت الثناء. قد أقلتك. فلما ولت، قال كعب بن سور: يا أمير المؤمنين؟ لقد أبلغت إليك الشكوى، فقال: ما اشتكت؟ قال: زوجها، قال: عليّ بالمرأة وزوجها، فجيء بهما، فقال لكعب. اقض بينهما. قال: أأقض وأنت شاهد؟ قال: إنك قد فطنت ما لم أفطن إليه قال: فإن الله يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] صم ثلاثة أيام وأفطر يومًا عندها. وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة، فقال عمر: لهذا أعجب إليّ من الأول، فرحله بدابة وبعثه قاضيًا.

١ - قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣].

- **والشاهد**: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.
- **والمعنى**: فمكث الهدهد غير بعيد أي زمنًا قليلاً، وجاء فقال في تواضع رافعًا عنقه مرصيًا زنبه وجناحيه ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وسبأ قبيلة من قبائل اليمن، والنبأ اليقين الخبر الصادق الذي لا شك فيه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٣-٨٨].

والشاهد: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ﴾.

والمعنى: يخبر الله تعالى نبيه عن ذي القرنين في سورة الكهف إجابة للمشركين الذين سألوا عنه لاختبار النبي ﷺ: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أي سأقرأ عليكم من أمره وشأنه العظيم ﴿ذِكْرًا﴾ أي خبرًا يحمل الموعظة والعلم والمعرفة، وقد مكن الله له في الأرض بالملك والسلطان، وأعطاه من كل شيء يحتاج إليه فيها سببًا إلى ذلك، وموضع الفطنة في القصة أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي بالشرك والكفر فسوف نعذبه بالقتل والأسر، ثم يرد إلى ربه بعد موته فيعذبه عذابًا نكرًا أي فظيعًا أليمًا، وأما من أسلم وحسن إسلامه فله جزاء على إيمانه وصالح أعماله الحسنى أي الجنة في الآخرة.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالس، إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تجلس؟ قال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى

السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، وأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى في السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، قال: يا محمد، فيم كنت أجالسك وآتيك؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة، قال: وما رأيتني فعلت؟ قال: رأيتك تشخص ببصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه، وتركتني فأخذت تنغض رأسك أنك تستفقه شيئًا يقال لك، قال: وفطنت لذلك؟ قال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله آنفًا وأنت جالس»، قال رسول الله؟ قال: نعم، قال: فما قال لك؟، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً». [رواه أحمد، وقال أحمد شاكر إسناده صحيح]

٢ ـ قال النبي ﷺ: «بينما أمرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحدهما، فقالت هذه لصاحبتها، إنما ذهب بابنك أنت. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى: لا، يرحمك الله هو ابنها، فقضى للصغرى». [رواه مسلم]

والخلاصة

أن الفطنة هي التنبه للشيء الذي يقصد معرفته.

قال الأبشيهي: يستدل على رجاحة عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق، وإعراض عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه عاراً أو يورثه سوء السمعة» وفي الفطنة: كلما كنت أكثر فطنة كنت أقرب من الله، وفيها المحبة للفرد الفطن من المجتمع ومن الأفراد وهي سبب سببه الله حتى لا تقع في مأزق، وإن وقعت خرجت منه بفضل الله.

* * *

١٠٣ مكارم اليقظة

هي كمال التنبه والتحرز عما لا ينبغي.

قال ابن القيم رحمه الله ـ: اليقظة أول منازل العبودية، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أقوى إعانتها على السلوك، فمن أحسن بها فقد أحسن ـ والله ـ بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه وتيقظ شمر بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، فأخذ في أهبة السفر وانتقل إلى منزلة العزم وهو العقد الجازم على الشيء، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل، وبحسب كمال انتباهه ويقظته تكون عزيمته، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده، فإنا استيقظ أوجبت اليقظة الفكرة وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملاً.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨].

- **والشاهد**: ﴿تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾.
- **والمعنى**: أي إنك إذا نظرت إليهم تظنهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ أي منتبهين لأن أعينهم متفتحة وهم رقود نائمون لا يحسون بأحد ولا يشعرون، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة اليمين ﴿وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ جهة الشمال، حتى لا تعدو التربة على أجسادهم فتبليها.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾

[النساء: ٧١]

◈ والشاهد: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا﴾.

◈ والمعنى: انظر صفة الحذر.

٣ - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ.... الآية﴾ [الأعراف:١٧٩] وقال الرسول ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان». [رواه البزار وأحمد وأبو يعلي]

من أقوال الرسول ﷺ

١ - وقال الرسول ﷺ: «إذا قاتل أحدكم أخاه، فليتق الوجه». [متفق عليه]

٢ - وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - يقول جاءت ملائكة... الحديث في وصف النبي ﷺ وفيه» إن العين نائمة والقلب يقظان وقال رسول الله ﷺ: إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيبه إلا بشق الأنفس، وجعل الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم».

[رواه أبو داود]

والخلاصة

أن اليقظة كمال التنبه والتحرز عما لا ينبغي، وهي ضد الغفلة وفي الغفلة الخسران المبين، وفي اليقظة ودوام الذكر الفلاح المبين.

قال العزي: إن العبد إذا نهض من ورطة الغفلة واستنار قلبه برؤية نور التنبيه فأوجب له ملاحظة نعمة الله الباطنة والظاهرة وكلما صدق قلبه وطرفه فيها شاهد عظمتها وكثرتها فيئس من عدها والوقوف على حدها»(١).

---

(١) تهذيب مدارج الساكين.

١٠٤ حق الجار

هو امتثال الوصية بالجار بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة، كالهدية، والسلام وطلاقة الوجه عند اللقاء، وتفقد حاله، ومعاونته فيما احتاج إليه إلى غير ذلك، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو معتوية.

قال ابن حجر - رحمه الله - واختلف في حق الجوار: فجاء عن عليّ - رضي الله عنه - من سمع النداء فهو جار، وقيل من صلى معك صلاة الصبح في المسجد فهو جار، وعن عائشة رضي الله عنها - حد الجوار أربعون داراً من كل جانب.

١ - قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

- **والشاهد:** ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾.
- **والمعنى:** يأمر الله تعالى المؤمنين بعبادته وتوحيده وبالإحسان إلى الوالدين وذلك بطاعتهم في المعروف وإسداء الجميل لهم، ودفع الأذى عنهم، وكذا الأقرباء، واليتامى والمساكين والجيران مطلقًا أقرباء أو أجانب وصح في الإحسان إلى الجار العديد من الأحاديث منها «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، ووصى أيضًا بالصاحب الملازم الذي لا يفارق كالزوجة والمرافق في السفر والعمل والتلمذة والطلب ونحو ذلك من الملازمة التي لا تفارق إلا نادراً إذ الكل يصدق عليه لفظ الصاحب بالجنب، وكذا ابن السبيل، وما ملكت اليمين من أمة أو عبد والمذكورون الإحسان إليهم آكد

وإلا فالإحسان معروف يبذل لكل الناس كما قال الله تعالى: ﴿**وقولوا للناس حسنًا**﴾، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف». [رواه مسلم]

٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه من جداره». ثم يقول أبو هريرة مالي أراكم عنها معرضين؟ والله لأرمين بها بين أكنافكم». [متفق عليه]

والخلاصة

أن حق الجار قد خصه الإسلام بكثير حتى قال الرسول ﷺ، ولا يزال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ في الإحياء: ـ يُمن المسكن سعتة وحسن جوار أهله، وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله».

وقال: وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا مصهب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما

ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

* * *

١٠٥ تفريج الكربات

هو كشف الهم وإذهاب الغم ورفع الضرر عن كل مسلم (إيمانًا واحتسابًا).

قال الحسن: «أرسل إليّ الحجاج فقلت: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين فقال الحجاج» والله لقد أرسلت إليك وأنا أريد قتلك فلأنت اليوم أحب إليّ من كذا وكذا. وفي لفظ سل حاجتك» (فضل الصمد).

١ ـ قال الله تعالى: **﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾** [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

والشاهد: **﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾**.

والمعنى: يخاطب الله المشركين عن طريق سيد البشر ﷺ فيقول: قل لهم **﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾**. إذا ضل أحدكم طريقه في الصحراء ودخل عليه ظلام الليل، أو ركب البحر فغشية ظلمة السحاب والليل والبحر واضطربت نفسه من الخوف يدعو من؟ إنه يدعو الله وحده لعلمه أنه لا ينجيه إلا هو يدعوه ويتضرع إليه جهراً وسراً قائلاً وعزتك لئن أنجيتنا من هذه الهلكة التي حاقت بنا لنكون من الشاكرين لك ثم إذا أنجاكم استجابة لدعائكم وأمنتم المخاوف عدتم فجأة إلى الشرك به بدعاء غيره وفي الآية الثانية يأمر تعالى الرسول بأن يجيب المسئولون بقوله: **﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾**. أي من تلك الحالة التي اضطربت لها نفوسكم وخشيتم فيها الهلاك وينجيكم أيضًا من كل كرب ثم مع هذا يا للعجب أنتم تشركون به تعالى أصنامكم ـ قل لهم يا

رسولنا أن الله الذي ينجيكم من كل كرب هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من السماء فوقكم أو من الأرض تحتكم أو يخلط إليكم أمركم فتتنازعوا فتختلفوا.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

الشاهد: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

والمعنى: أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾. أي يبعده والسوء هو كل ما يسوء المرء من مرض وجوع وعطش وقحط وجدب ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾. جعل جيلاً يخلف جيلاً وهكذا الوجود خلف لمن سلف وسيكون سلفًا لمن خلف ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾. والجواب لا إله مع الله ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. أي ما تتعظون إلا قليلاً بما تسمعون وترون من آيات الله.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ قال الرسول ﷺ: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه».

وإليك دعاء الكرب أو الدعاء إذا نزل الكرب:

٢ ـ كان يقول ﷺ: لا إله إلا الله العظيم الحليم: لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم». [متفق عليه]

٣ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ: فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقام وكبر وصف الناس وراءه. فاقترأ رسول الله ﷺ قراءة طويلة ثم كبر فركع ركوعًا طويلاً، ثم رفع رأسه فقال:

« سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد » ثم قام فاقترأ قراءة طويلة، هي أدنى من القراءة الأولى ثم كبر فركع ركوعًا طويلاً هي أدنى من الركوع الأول ثم قال: « سمع الله لمن حمده. ربنا ولك الحمد » ثم سجد ثم فعل في الركعة الأخرى مثل ذلك. حتى استكمل أربع ركعات. وأربع سجدات واجلت الشمس قبل أن ينصرف. ثم قام فخطب الناس. فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: إن الشمس والقمر آتيان من آيات الله. لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتموها فافزعوا إلى الصلاة وقال أيضًا: فصلوا حتى يفرج الله عنكم».

[متفق عليه]

٣ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ «قال توفي أبي وعليه دين، فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبوا، ولم يروا أن فيه وفاء، فأتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له فقال: إذا جددته فوضعته في المربد آذنت رسول الله ﷺ. فجاء ومعه أبو بكر وعمر، فجلس عليه ودعا بالبركة ثم قال: ادع غرماءك فأوفهم فما تركت أحداً له على أبي دين إلا قضيته، وفضل ثلاثة عشر وسقًا، سبعة عجوة وستة لون، فوافيت مع رسول الله ﷺ والمعرب فذكرت ذلك له، فضحك فقال: ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما فقالا: لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك». [رواه البخاري]

والخلاصة

أن تفريج الكربات هو كشف الهم وإزالة الغم ورد السوء عن عباد الله إيماناً واحتساباً، وفيه أن الله يجازي باليسير منه الكثير لأن الكريم الذي لا يضاهى عطاؤه عطاء ومن أدعية تفريج الكرب كما علم رسول الله ﷺ أصحابه «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم.

وفيه أن الله يجيب كل من دعاه وهو سبحانه أسرع إجابة لمن كان حاله «داعياً في السراء والضراء» ذاكراً في السر والعلن مستعيناً بالله في كل أمره، مجتنبا لكل محرم، متحرياً في مطعمه ومشربه وملبسه.

* * *

١٠٦ عيادة المريض

هي الزيارة والافتقاد (التفقد) للمريض وهو ما اتصف بالمرض.

قال ابن حجر: ويلحق بعيادة المريض تعهده وتفقد أحواله والتلطف به، وربما كان ذلك ـ في العيادة ـ سببًا لوجود نشاطه وانتعاش قوته.

حكم عيادة لمريض:

وعيادة المريض سنة وإعادتها نافلة، قال الجمهور هي في الأصل ندب، وقد تصل إلى الوجوب في حق بعض دون بعض وعن الطبري أنها (العيادة للمريض) تتأكد في حق ترجى بركته وتسن فيمن يراعى حاله، وتباح في غير ذلك.

روى البخاري في صحيحه: (وعودوا المريض..........) وقد استدل بذلك على مشروعية العيادة في كل مريض رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا، مسلمًا أو كافرًا أيًا كان مرضه.

قال ابن حجر في فتح الباري: واستثنى بعضهم الأرمد لكون عائده قد يرى ما لا يراه هو، قال: وهذا الأمر خارجي قد يأتي مثله في بقية الأمراض كالمغمى عليه، وقد جاء في عيادة الأرمد حديث زيد بن الأرقم أعادني رسول الله من وجع كان بعيني، وفي ذلك رد لمن زعم أن لا يعاد منه وثبوت العيادة فيه يدل على ثبوتها فيما هو أشد منه.

آداب الزيارة:

هي آداب أي زيارة من التلطف في الطرقة وإعلام عن نفسك، وتحين الوقت المناسب وعدم استقبال الباب وغيره ولعيادة المريض زيادة:

١ـ بث الأمل وإشاعة الفرحة في نفس المريض.

٢ـ الدعاء له بالمأثور وطلب الدعاء منه.

٣ـ عـدم الكلام بما يروع المريض في ذكـر أحـوال المرضى وتهـويل آثار المريض وغيرها.

١ ـ قال الله تعـالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

والشاهد: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وقد خفف الله عن المريض وغير المستطيع عموماً في كل أنواع العبادات ورعاه فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وذلك لتعذر استعمال الماء

وفي الصيام: في أمر استطاعة الصيام.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة: ١٨٥]

وفي الحج والجهاد وباقي العبادات.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

هذا هو الشعـار الذي شـمل جـميع الأمة وخص المعـذورين منهـا بالعناية والترخيص.

ورفع عنهم الحرج فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

والشاهد: لما خاف أصحاب الأعذار من مريض وغيره وبكوا خوفًا أنزل الله الآية تخفيفًا عليهم ورأفة بهم.

٢ - قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

من أقوال الرسول ﷺ

١ - قال الرسول ﷺ: «خمس تجب للمسلم على أخيه رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز» [رواه مسلم].

٢ - وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» [رواه مسلم].

٣ ـ وقال ﷺ في ثواب من عاد مريضًا: «أيما رجل يعود مريضًا فإنما يخوض في الرحمة، فإذا قعد عند المريض غمرته الرحمة» قال الراوي: فقلت يا رسول الله، هذا للصحيح الذي يعود المريض، فالمريض ماله؟ قال: «تحط عنه ذنوبه».

٤ ـ وقال ﷺ في بركة الزيارة بالنسبة للمريض: «ما من عبد مسلم يعود مريضًا لم أجله فيقول سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك، إلا عوفي». [رواه أبو داود وأحمد].

والخلاصة

أن الله يحب عيادة المريض ويأمر بها وقد أمر بها الرسول ﷺ ووضح ثوابها وآدابها وقد أجملها الإمام أبو حامد الغزالي فقال: من حقوق المسلم على المسلم، أن يعود مرضاهم. . . .، وأدب العائد خفة الجلسة وقلة السؤال، وإظهار الرقة والدعاء بالعافية، وغض البصر عن عورات الموضع، وعند الاستئذان لا يقابل الباب، ويدق برفق، ولا يقول: أنا، إذا قيل له: من؟ ولا يقول: يا غلام، ولكن يحمد ويسبح. [إحياء علوم الدين]

ولا أستطيع ترك كلام الإمام الشافعي من رقته وحلاوته:

مـــرض الحبيب فعـــدتـــه ... فمرضت من حذري عليه

فأتى الحبيب يعـــودنـــي ... فشفيت من نظـــري إليـــه

* * *

١٠٧ تكريم الإنسان

هو تفضيله في خلقه على أحسن صورة وأكملها وفي أن يجعل له سمعًا وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله، وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية. [ابن كثير التفسير]

ولمعنى التكريم أنواع:

١- تكريم الله للإنسان.

٢- تكريم الإنسان لنفسه.

٣- تكريم الإنسان لأخيه الإنسان.

أما النوع الأول: وهو تكريم ا ^ للإنسان:

ويتمثل في أن الله سبحانه خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأودعه العقل الذي يميز به الأشياء وجعل فيه الاختيار والتكلف وسخر له المخلوقات وأرسل إليه الرسل لهدايته حتى لا يضل فيعذب، وأحبه سبحانه وذكره في الملأ الأعلى وحفظه وجعله عبداً لله وحده وليس لأحد غير الله فيه شيئًا (أي تحريره من الأسباب) ووعده بالثواب بعد الموت في الآخرة إذ أعد للطائعين جنة عرضها السموات والأرض.

ثانيًا: تكريم الإنسان لنفسه:

وهو بالاختيار الأمثل إذ أكرمك الله وسواك وحررك فلا أقل من أن تكون عبداً له وحده، ثم يكون منهجه ما يحب الله ويرضاه، ويأخذ بأسباب الحياة.

ثالثًا: تكريم الإنسان لأخيه الإنسان.

١- الإحسان إليه.

٢ـ حسن الظن به.

٣ـ حسن معاملته.

٤ـ النصح له.

ودرجات الإنسان الآخر هي:

١ـ الوالدان.

٢ـ الإخوان والأخوات، والصاحبة والأبناء.

٣ـ الأقارب.

٤ـ المسلمون.

٥ـ الذين على غير الملة (وهم أهل كتاب).

٦ـ المشركون.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

والشاهد: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ وهذه تكريم الله للإنسان.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

والشاهد: تسخير الكون كله للإنسان إذ خلق الله الإنسان وخلق له كل شيء ثم أمره بعبادته وحده.

وخلقه في أحسن صورة فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

◈ **والشاهد**: ﴿**فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ وهذه منة عظيمة إذ جعله ليس كالحيوانات، بل هو سميع، بصير، عاقل مخير، يستعمل يده، ورجله، وينام ليس كالبهائم، جعله في أحسن تقويم.

٣ ـ وقال الله ـ سبحانه ـ حفظ الإنسان فقال: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾ [المائدة: ٣٢].

والشاهد: تحريم الدم والعرض والمال.

من أقوال الرسول ﷺ

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم» قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسأل، قال: «أفعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». [رواه البخاري]

٢ ـ عن عمرو بن يحيى بن سعيد قال: أخبرني جدي، أن أبان بن سعيد أقبل إلى النبي ﷺ: فسلم عليه، فقال أبو هريرة: يا رسول الله هذا قاتل ابن قوقل. وقال أبان لأبي هريرة: واعجبًا لك وبر تدأدأ من قدم ضأن، ينعي عليّ امرأ أكرمه الله بيدي، ومنعه أن يهينني بيده. [رواه البخاري]

٣ ـ وعن خارجة بن زيد بن ثابت، أن أم العلاء ـ امرأة من نسائهم ـ بايعت الرسول ﷺ، أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت

الأنصار على سكنى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله........ الحديث.

[رواه البخاري]

وفيه إكرام آخر وقد تفرد به الإنسان وأصبح المعنى الذي يتبادر للذهن عند سماع تكريم الإنسان ألا وهو (الغسل والتكفين والدفن) وهذا من إكرام الله للإنسان ومن إكرام الإنسان لأخيه الإنسان.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

٤ - وقال ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هزيل، وربا الجاهلية موضوع وأول ربًا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، .... الحديث». [رواه مسلم]

٥ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب. وفي نفسي أن أذهب لما أمرني ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا

رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك فقال: «يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟» قلت: نعم أنا ذاهب يا رسول الله.

[رواه مسلم]

والخلاصة

أن الله فضل بني آدم بما أوردنا وأمر بتكريم الإنسان لنفسه وللآخرين، ويروى عن زيد بن أسامة أن الملائكة قالت: ربنا أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك فأعطناه في الآخرة؟ فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له كن فيكون[1].

* * * * *

(١) (غرائب القرآن). وذلك موقوف.





الرسول محمد ﷺ

الجزء الثاني

الفصل الثاني

كف الأذى

أكثر من ٤٠٠ أذى يجب كفهم عن الناس

تمهيد

قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نَوى، فمن كانت هِجرتهُ إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبُها، أو إلى امرأةٍ يَنكِحُها، فَهِجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليه»(١).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «كلُّ المُسلم على المسلم حرامٌ ؛ دمه، ومالُه، وعرضه»(٢).

الحمد لله العزيز الجبار، القوي القهار، مكوِّر الليل على النهار، عالم الخفيات والأسرار، خلق الخلق بقدرته، ودبَّر معاشهم بحكمته، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة بمنَّته، وأضعف ملكهم بقوته، وأذلَّ سلطانهم بعزَّته، فهم في أمسِّ الحاجة إليه، وأعظم الرغبة فيه، فحياتهم ومماتهم في قبضته، يكلؤهم بحفظه، ويحرسهم بعنايته، ويغمرهم بفضله، ويقهرهم بعظمته، يغفر زلاَّتهم ويستر سوءاتهم، ويمدهم بعنايته، يتفضل على من يشاء منهم برحمته فيدخلهم في رحمته، ويعاقب من يشاء منهم بنقمته، فويلٌ لهم من نقمته!

وسع سمعه الأصوات، وأحاط علمه بالمغيبات، فالكون وما فيه في قبضته، والدنيا وما فيها وعليها في حوزته، والآخرة وما يقع فيها تحت سطوته، فسبحانه من إله!

(١) صحيح البخاري (١) (١/٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤) (٤/٢٥٦٤).

لا خير إلا منه، ولا فضل إلا من لدنه، بيده الخلق والأمر، وله الملك والقهر، ومنه الثواب والأجر، أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ورغَّب في الخير وحذَّر من الشَّر، وحثَّ على بذل المعروف وكف الأذى عن البشر .

والصلاة والسلام على خير الورى، وأفضل من وطئ الثرى، أكرم الخلق على الخالق، وأعظم العبيد لدى الحميد المجيد، سيد ولد آدم، غُرَّة البشر، وشفيع الخلائق يوم المحشر، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، عليه المعتمد، وإليه المرد، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، هادي البشرية بسنته، ومعادي الوثنية بملَّته، أبان الطريق، وأوضح المسالك، وأنار الدروب، فأشرقت الدنيا ببعثته، وطابت الحياة بطلعته، فصلَّى عليه الإله!

أما بعد :

فقد اختلف الناس في الطباع؛ لاختلافهم في الرغبات والأطماع، وتباينوا في الأخلاق لتباين الأمزجة والأذواق، وتفرقوا في الميول والمأمول لتفرق الأصل الذي خُلقوا منه ونتجوا عنه .

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن خلق آدم قبضة قَبضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدرِ الأرض، فجاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسود، وبين ذلك، والسَّهلُ، والحزن، والخبيث، والطيِّب»(١) .

وما دام المرء مع غيره يساكنه ويجالسه، ويعامله ويؤانسه، ويسابقه وينافسه، فالتصادم أمر لازم، و المواجهة أكيدة للمخالفات العديدة .

ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى بما قال واش أو تكلم حاسد(٢)

(١) صحيح سنن أبي داود ـ بتحقيق الألباني (٣٩٢٦) (٣/٨٨٧) وصحيح سنن الترمذي (٢٣٥٥) (٣/٢٠).

(٢) أبو العلاء المعري.

والخلق أخلاط، والناس أجناس، والبشر ليسوا على حدٍّ سواء:

الناس أخلاقهم شتى وإن جبلوا ... على تشابه أرواح وأجساد

للخير والشر أهل وكلوا بهما ... كل له من دواعي نفسه هاد(١)

فمنهم جالبٌ للخير، موسوم به، ومنسوب له، ومعروف بفعله، وحريص عليه، وداع إليه، ومرغب فيه، قد عفَّ نفسه عن أذى الناس، وكفَّ يده عن التعدي عليهم والإساءة إليهم، وهذا هو المسلم حقًّا والمؤمن صدقاً.

فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(٣).

ومنهم - عياذاً بالله - معروفٌ بالشرِّ، موصوف بالأذى، ديدنُه التعدي، وطبعه الإساءة، قد كثر شاكوه، وقلَّ شاكروه، لأنه نصب راية التعدي والجور، والظلم والقهر، فخاف الناس شرّه، واتَّقوا ضرره، وتحاذروا خطره...

وإنما الناس؛ مُستريح من العناء، ومُستراَح من عنائه وبلائه وإيذائه، فعن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه - أنَّه كان يُحدِّثُ أنَّ رسولَ الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ، فقال ﷺ: «مستريحٌ ومُستراحٌ منهُ»، قالوا: يا رسول الله! ما المُستريحُ والمُستراحُ منه؟ قال ﷺ: «العبدُ المؤمنُ يستريحُ مِن نصبِ الدنيا وأذاها إلى رحمةِ الله عزَّ وجلَّ، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منهُ العبادُ والبلادُ والشَّجرُ والدَّوابُّ»(٤).

---

(١) الخريمي.

(٢) صحيح البخاري (١٠) (١/١٠).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢١١٨) (٢/٣٣١).

(٤) صحيح البخاري (٦٥١٢) (٧/٢٤٦).

كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع   وما ترى بشراً لم يؤذه بشر(١)

وفي هؤلاء حقَّ قـول الحقِّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

وعن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضيَّق منزِلاً، أو قطعَ طريقاً، أو آذى مؤمناً، فلا جهادَ له»(٢).

ومنهم عوانٌ بين ذلك، فتارة إلى هؤلاء وتارة إلى أولئك، وأيّهما غَلبَ عليه، نُسبَ إليه.

فسعداً لمن كان مفتاح خير مغلاق شر!

وتعساً لمن كان مفتاح شر مغلاق خير!

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإنَّ من الناس ناساً مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»(٣).

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عند الله خزائنُ الخير والشرِّ، مفاتيحُها الرِّجال، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، وويلٌ لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير»(٤).

والواجب المتحتم على كلِّ مسلم؛ كفُّ الأذى عن البرايا، وحبس النفس

(١) محمد الخطابي.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، للسيوطي ـ تحقيق الألباني (٦٣٧٨) (٢/١٠٩٠).

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٣٢) (٣/٣٢٠).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الجامع (٤١٠٨) (٢/٧٥٥).

عن السوء، ثم المندوب المحبوب لمن أراد رضى الله وقُربه، وأجره وحُبَّه؛ الصبر على البلايا، واحتمال أنواع الرزايا، والرد على الخطايا بالعطايا، وعلى الظلم بالحلم.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانَةَ إلى من ائتَمَنَكَ، ولا تخن من خانك»(١).

و عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»(٢).

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما ضممت إليَّ سلاح رسول الله ﷺ وجدت في قائم سيف رسول الله ﷺ رقعة فيها: «صِل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحقَّ ولو على نفسِك»(٣).

وهذا - والله - من شيم الكرام، وطبائع العظام، وأخلاق الأماجد من الناس، قال أبو عبد الله الجدلي: سألت عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح(٤).

فعليك بالرد على الإساءة بالسماحة، والمدافعة بالتي هي أحسن؛ بالرد الهين والقول اللين.

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٠١٩) (٢/٦٧٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في أخبار أصبهان، انظر: السلسلة الصحيحة (٨٩١) (٢/٥٨٢).

(٣) رواه أبو عمرو بن السماك في حديثه، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩١١) (٤/٥٤٢).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٦٤٠) (٢/١٩٦).

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم، أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على آذاهم»(١).

وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبر على أذاهم، أعظمُ أجراً من المؤمنِ الذي لا يُخالط الناس، ولا يصبر على أذاهُم»(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

[إبراهيم:١٢]

ومن علم أن الجنة جزاء الصبر، لم يُغلها المهر!

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر(٣)

ومن مسَّه الناس بنُصبٍ وعذاب، فليتذكر ما أُوذي به ربُّ الأرباب، وله بذلك مبلغ السلوى وإن عظمت البلوى و فحشت الشكوى، فليس أحدٌ أصبر على أذى من الله تعالى.

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ - أو ليس شيء - أصبرَ على أذى سمعَهُ من الله؛ إنهم ليدعونَ له ولداً، وإنه ليُعافيهم ويرزُقُهم»(٤).

وليتأمل حلم الله على من عصاه، وسِتره على من خالف أمره، وصبره على من تعدَّى حدوده، فخير الله إليهم نازلٌ، وشرّهم إليه صاعد، ولم يقطعه عنهم

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٠٣٥) (٢/٣٠٦).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٥٧) (٢/٣٧٣).

(٣) أبو فراس الحمدتني.

(٤) صحيح البخاري (٦٠٩٩) (٧/١٢٥).

لعصيانهم، ولم يحجبه عنهم لتمردهم، وإنما يمهلُ عاصيهم، ويُملي لظالمهم، ويصبرُ على جحود معرضهم، ويغفر زلاَّت مسيئهم، فسبحانه من رحيم حليم!

فهو أرحمُ بهم من أنفسهم، وأكرمُ معهم من أقاربهم، وأحلم عليهم من ذوي رحمِهم، والله رؤوف بالعباد.

وليتذكر كم عانى الأنبياء الأصفياء - عليهم الصلاة والسلام - من صنوف الأذى ما لا يخطر ببال ولا يُوصف بحالٍ، مع أنَّهم جاءوا بالنور من ربهم ليُخرجوا الناس من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة، وليسوقوهم إلى جنة عرضها السموات والأرض، ولم يسألوا الناسَ أجراً، ولم يطلبوهم مغرماً، فلحقهم من أجل ذلك أذى كثيرٌ، وعذابٌ كبيرٌ، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأنعام:٣٤]

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لمَّا قسَّم النبي ﷺ قسمة حنينٍ قال رجلٌ: ما أرادَ بها وجه الله! فأتيتُ النبي ﷺ فأخبرتُه، فتغيَّر وجهه، ثم قال ﷺ: «رحمةُ الله على موسى لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوذي أحدٌ ما أوذيتُ في الله»(٢).

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوذيَ أحدٌ ما أوذيتُ»(٣).

ومادمنا في دار الكمد والنكد، والتعب والنصب، والمشاكل والقلاقل، فلا بدَّ من الصبر على زلأَّت الناس، والإعراض عن جهالاتهم، والإغضاء عن هفواتهم، وحسن مداراتهم، وعند الله يجتمع الخصوم!

---

(١) صحيح البخاري (٤٣٣٥) (٥/١٢٦).

(٢) أخرجه الديلمي وأبو نعيم في الحلية، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٢٢) (٥/٢٥٩).

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل وابن عساكر، انظر: صحيح الجامع (٥٥٦٧) (٢/٩٧٥).

ما دمتَ حيًّا فدارِ الناس كلَّهُم ... فإنما أنت في دار المداراة(١)

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ شرَّ النَّاسِ منزلةً عند الله مَن تركَهُ النَّاسُ اتِّقاءَ فُحشِهِ»(٢).

وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: أنّ رجلاً استأذنَ على النبي ﷺ فلمّا رآهُ، قال: «بئس أخُو العشيرةِ، وبئسَ ابنُ العشيرةِ». فلمّا جلسَ تطلَّقَ النبي ﷺ في وجههِ وانبسطَ إليهِ فلماّ انطلقَ الرَّجُلُ، قالت له عائشة: يا رسول الله! حين رأيت الرَّجلَ قلتَ لهُ كذا وكذا، ثمَّ تطلَّقتَ في وجههِ وانبسطت إليهِ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشةُ متى عهدتني فاحِشاً؟ إنَّ شرَّ النَّاسِ عند الله منزلةً يوم القيامةِ من تركهُ النَّاسُ اتِّقاء شرِّهِ»(٣).

وعن المِسورَ بن مخرمَةَ ـ رضي الله عنه ـ أنه قالَ: قدِمَت على رسولُ الله ﷺ أقبيةٌ، فقال لي أبي مخرَمةُ: انطلق بنا إليه عسى أن يُعطينا منها شيئاً، قال: فقام أبي على البابِ فتكلَّمَ، فعرفَ النبيُّ ﷺ صوتَهُ ـ وفي رواية البخاري(٤): وكان في خُلُقه شيءٌ ـ فخرجَ ومعهُ قباءٌ، وهو يُريهِ محاسِنَهُ، وهو يقولُ ﷺ: «خَبَأتُ هذا لكَ، خبأت هذا لك»(٥).

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد ـ رضي الله عنه ـ جالس فترك رسول الله ﷺ رجلا هو أعجبهم إليَّ، فقلت: يا رسول الله! مالك عن فلان؟ فو الله إني لأراه مؤمناً. فقال: «أو مسلماً». فسكتُّ قليلا ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي فقلت: مالك عن فلان؟

---

(١) أبو سليمان الخطابي.

(٢) صحيح البخاري (٦١٣١) (٧/١٣٤).

(٣) صحيح البخاري (٦٠٣٢) (٧/١٠٧).

(٤) صحيح البخاري (٦١٣٢) (٧/١٣٤).

(٥) صحيح مسلم (١٠٥٨) (٢/٦٠٣).

فوالله إني لأراه مؤمناً . فقال: «أو مسلماً» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: «يا سعد! إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يكبه الله في النار»(١).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألتُ النبيَّ ﷺ عن الجدرِ أمِنَ البيتِ هُوَ؟ قال ﷺ: «نعم». قلتُ: فما لهم لم يُدخِلُوهُ في البيت؟ قال ﷺ: «إنَّ قومَكِ قصُرت بهم النَّفقةُ». قلتُ: فما شأنُ بابِه مُرتفعاً؟ قال ﷺ: «فعلَ ذلك قومُكِ ليُدخِلوا من شاؤُوا ويمنعوا من شاؤُوا، ولولا أنَّ قومَكِ حديثٌ عهدُهم بالجاهليَّةِ فأخاف أن تُنكِرِ قُلُوبُهُم أن أُدخلَ الحِجْرَ في البيتِ وأن أُلصِقَ بابَهُ في الأرضِ»(٢).

ومن الناس من يُذكر بشرِّه، ويحذَّر من خطره، حتى بعد موته وانصرام أمره!

فتراه يموت ويظل أذاه مستمرًّا من بعده، يلحق به في قبره، تتبعه ألسنة الشاكين، ودعوات المتضررين، وسيئات المتبعين، إلى يوم بعثه ونشره.

فهنيئًا لمن مات وماتت سيئاته معه!

ومن عجز عن فعل الخير وبذل المعروف، فلا أقلَّ من أن يكفَّ شرَّه عن الخلق، فلا يلحقهم أذاه، ولا يمسَّهم سوؤه، وتلك ـ لو يعلم المعتدون ـ صدقة منهم على أنفسهم، ورحمة ـ منهم ـ بهم!

فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُفَّ شرَّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٢٧) (١/٩٩).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٤٣) (٨/٤٧٩).

(٣) صحيح مسلم (٨٤) (١/٨٦).

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الناس مؤمن يجاهدُ في سبيل الله بنفسه وماله، ثم مؤمنٌ في شِعبٍ من الشِّعاب يتَّقي الله ويدعُ الناس من شرِّه»[1].

«فلا يشاورهم ولا يخاصمهم بل ينفرد بمحل بعيد عنهم، لأن من خالط الأنام قلَّما يسلم من ارتكاب الآثام»[2].

وإذا عجزت عن الخيرات تفعلها ... فلا يكن دون ترك الشر إعجاز[3]

وفي النفس شغلٌ عن كل شغلٍ!

المرء إن كان عاقلاً ورعاً ... أشغله عن عيوبهم ورعه

كما السقيم المريض يشغله ... عن وجع الناس كلهم وجعه

عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «طُوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته»[4].

وليس بضائري ما قد أتوه ... إذا ما الله أصلح ما لديَّه

على ربي حسابهم إليه ... تناهى علم ذلك لا إليه[5]

«فإن ضعفتَ عن الخير، فامسك عن الشر، وإن كنت لا تستطيع أن تنفع الناس فامسك عنهم ضرك، و إن كنت لا تستطيع أن تصوم فلا تأكل لحوم الناس»[6].

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٨٨) (٧/١٢٣).

(٢) فيض القدير - المناوي (٢/٦٤).

(٣) أبو العلاء المعري.

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير وأبو نعيم في الحلية، انظر: صحيح الجامع (٣٩٢٩) (٢/٧٢٩).

(٥) الرياشي.

(٦) تنبيه الغافلين - السمرقندي (١/١٧٩).

ودعهم مما تُحبُّ أن يدعوك منه !

فعن أبي المنتفق ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اعبدِ الله، لا تشرك به شيئاً، وأقم الصلاةَ المكتوبةَ، وأد الزكاةَ المفروضةَ، وحُجَّ واعتمر، وصم رمضانَ، وانظر ما تُحبُّ للناس أن يأتوهُ إليكَ فافعلهُ بهم، وما تكرهُ أن يأتوهُ إليكَ فذرهم منهُ»(١).

ولَمَّا علمَ الرحمة المهداة والنعمة المسداة ـ ﷺ خطورة الأمر وعظمة الوزر، وجلالة الخطب وفداحة الذنب، جعل يستعيذ بالله من أن يجر السوء للناس، أو يسبب لهم ما يؤذيهم في دينهم أو دنياهم، أو يظلمهم ويتعدى عليهم.

فكان من دعائه عند خروجه من منزله ما روته أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما خرج النبي ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء، فقال: «اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أَجهل أو يُجهل عليَّ»(٢).

ومن أذكار الصباح والمساء ما ذكره عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! علمني ما أقول إذا أصبحت، وإذا أمسيت، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر قل: «اللهمَّ فاطرَ السماوات والأرض عالم الغيبِ والشهادة لا إله إلا أنت ربَّ كلِّ شيء ومليكَهُ أعوذُ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ الشيطانِ وشركِهِ وأن أقترفَ على نفسي سوءاً أو أجُرَّهُ إلى مسلم»(٣).

وكان من جملة دعائه ورجائه ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذُ بك من الفقر، وأعوذ بك من القلَّة والذلَّة، و أعوذ بك أن أظلم أو أُظلم»(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (١٠٣٩) (١/٢٣٨).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٨٤٨) (٢/٩٥٩).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٧٩٨) (٢/١٧٢).

(٤) صحيح سنن النسائي (٥٠٤٦) (٣/١١١١).

فيا باغيَ الخير؛ كُفَّ كفَّكَ عن الأذى، وأمسك لسانكَ عن السوء، واخطم خُطاك عن الخطأ، واحفظ بطنك من التخليط، ونقِّ قلبكَ من كلِّ دغلٍ، وأحجم بجوارحك عن جرح الناس، وكن ذكراً حسناً، وخبراً يروق للناس جميلاً!

والمرء في الدنيا حديث سائرٌ   تقضي الرفاق بها مدى أوقاتها

فاختر لنفسك ما يقال ضحى غدٍ   إذ تُطلب الأخبار عند رواتها(١)

استعملنا الله وإياك في طاعته، وسخرنا في مرضاته، وجنبنا أسباب سخطه ونقمته، بفضله وجوده ومِنَّته، والحمد لله على نعمته.

(١) علي بن المقرب.

الهدف من هذا الفصل

لَمّا رأيتُ القومَ قد ضعفت أواصرهم، ورقَّت روابطهم، وخفَّت محبتهم، وانقطعت وشائجهم، ولم أدرِ برأس من أعصب هذه الجناية، وبعنق من أعلِّق تلك الغواية، فتلمستُ السبب، وتعقبت العلَّة، وسبرت أحوال الناس، ونقَّبت في سجل حياتهم، وفتَّشت بين دفتي معاشهم، فرأيت ما أدهشني! وأبصرت ما آلمني!

فالبعض قد سَلِمَ اليهود والنصارى من آذاه، ولم يسلم منه إخوانُه المسلمون في دينهم وأموالهم وأعراضهم ودمائهم، وغير ذلك مما يطول شرحه، ويصعب وصفه، ويتعذر بسطه، والحال يغني عن المقال، والواقع يكفي عن السؤال!

فعجباً لمن سلم منه الأعداء ولم يسلم منه الأصدقاء والأقرباء!!

قال سفيان بن الحصين: كنت جالساً عند إياس بن معاوية، فمرَّ رجل، فنلتُ منه، فقال: اسكت! ثمَّ قال لي: يا سفيان: هل غزوت الروم؟ قلت: لا. قال: هل غزوت الترك؟ قلت: لا. قال: سلِمَ منك الروم، وسلم منك الترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟!(١).

وفي أخرى، قال: كنت عند إياس بن معاوية وعنده رجل، تخوفت إن قمت من عنده أن يقع فيَّ، قال: فجلست حتى قام، فلما ذكرته لإياس، قال: فجعل ينظر في وجهي، فلا يقول شيئاً حتى فرغت، فقال لي: أغزوت الديلم؟ قلت: لا، قال: فغزوت السند؟ قلت: لا، قال: فغزوت الهند؟ قلت: لا، قال: فغزوت الروم؟ قلت: لا، قال: فسلم منك الديلم، والسند، والهند، والروم، وليس يسلم منك أخوك هذا؟!(٢).

---

(١) تنبيه الغافلين ـ السمرقندي (١/١٧٨).

(٢) شعب الإيمان ـ البيهقي (٥/٣١٤) والبداية والنهاية ـ ابن كثير (٩/٣٣٦).

وخلصتُ إلى أنَّ أهم سببٍ لهذه الهوَّة السحيقة، والفجوة العميقة في علاقات الناس ببعضهم، هو أن البعضَ منهم لم يكف شرَّه عنهم، ولم يمنع آذاه لهم، جهلاً منه ونسياناً، وحباً لنفسه، وإيثاراً لمصلحته، وحفاظاً على أمر دنياه، وغفلة عن شأن آخرته، و ذلك لضعف إيمانه، ورقَّة يقينه، وقلَّة دينه، وضعف الوازع في قلبه، وغياب الرادع من عقله .

ولذا رأيت ـ من باب إنكار المنكر وتحذير البشر من الشر ـ أن أجمع بين دفتي هذا الكتاب بعض أسباب الشرور، وأنواع الأذى، وأصناف السوء، حتى نكون على علمٍ بها، وحذرٍ منها، وبُعدٍ عنها، لشناعة عقابها وسوء عاقبتها، وفي العلم دفعٌ لجحافل الجرم!

وكما أن المسلم متعبد بفعل المأمور، فهو كذلك متعبدٌ بترك المحظور، وكما أنه ملزمٌ بفعل الخير فهو ملزمٌ بالكفِّ عن الشر، والاحتساب في كلِّ ما يأتي ويذر، وعند الله يكون المستقر، فيضاعف لمن شكر، ويعوِّض من صبر، ويعاقب من تجاوز وكفر، والله لن يضيع أجر من أحسن عملاً .

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: ربِّ ذاك عبدُكَ يريد أن يعملَ سيئةً (وهو أبصرُ به) فقال: ارقُبُوهُ. فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة. إنما تركها من جرَّايَ»(١) .

والحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، وتجنب الأذى ناتجٌ عن معرفة آثاره وثماره، والوقوف على أخطاره وأضراره .

قال حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني(٢) .

---

(١) صحيح مسلم (١٢٩) (١٠٩/١).

(٢) صحيح البخاري (٧٠٨٤) (٤٢٩/٨).

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه[1]

والله المسؤول - وهو خير مأمول - أن يصلح أحوال المسلمين، ويؤلف بين قلوبهم، ويجمع كلمتهم، ويوحد صفهم، ويربط بينهم برباط الإيمان والتقوى والعروة الوثقى.. إن ربي على كل شيء قدير، و بالإجابة جدير، نعم المولى ونعم النصير...

(١) ابو فراس الحمداني.



قبح الأذى وسوء الاعتداء

ومن رحمة الله الخالق بالخلق، وعنايته بهم، ورعايته لهم، ولعلمه ـ سبحانه ـ بقبح الأذى عندهم، وعاقبته عليهم، وسوئه لديهم، منع ما يؤدي إلى جلبه لهم، أو جرِّه إليهم، أو التعدي به عليهم، وليست تلك الحماية والرعاية والعناية خاصّة بالناس فقط، بل شملت الملائكة والحيوان والجان والجماد، وإليك نزر يسير وأمثلة قليلة من هذه الحقيقة الجليلة، لندرك بعدها قبح الأذى، فيكون بيننا وبينه بُعد المشرقين وطول الخافقين!

فقد نُهينا عن الإفساد في الأرض بغير الحق وإتلاف ما ينفع، وإفساد ما فيه نفع للبلاد والعباد.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وحتَّى الجمادات الهامدات أصابت من العطف واللطف ما يفوق الوصف، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: إن النبيَّ ﷺ كان يقوم يوم الجمعة فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد، فيخطب الناس، فجاءه رومي، فقال: ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه وكأنك قائم؟ فصنع له منبراً له درجتان، ويقعد على الثالثة، فلما قعد نبيُّ الله ﷺ على ذلك المنبر خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد؛ حزناً على رسول الله ﷺ.

وفي رواية: فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشارِ[١] وفي أخرى: حنَّت الخشبة حنين الواله[٢].

فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر، فالتزمه وهو يخور، فلما التزمه رسول الله ﷺ سكن.

وفي رواية: فضمَّهُ إليه، تَئنُّ أنينَ الصبي الذي يُسكَّنُ[٣].

ثم قال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده! لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة حزناً على رسول الله ﷺ. فأمر به رسول الله ﷺ فدفن[٤].

و نُهينا عن إيذاء عباد الله الطائعين من ملائكته المقربين، حتى لو كان ذلك بالرائحة الكريهة والمظهر القبيح ...

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من هذه البقلة ؛ الثوم والبصل والكُرَّاث، فلا يقربنا في مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذَّى مما يتأذى منه بنو آدم»[٥].

وعن أمِّ أيوب الأنصاري - رضي الله عنها - قالت: نزل علينا رسول الله ﷺ فتكلَّفنا له طعاماً فيه بعض البقول، فقال لأصحابه: «كُلوا ؛ فإني لست كأحد منكم؛ إنِّي أخاف أن أوذي صاحبي»[٦].

وأمرنا أن نُطهِّر أفواهنا بالسواك حتى لا تتأذى ملائكة الرحمن من الروائح الكريهة التي يمكن أن تكون في الفم، فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -

(١) صحيح البخاري (٣٥٨٥) (٤/٥٣٦).
(٢) صحيح موارد الظمآن لزوائد ابن حبان (٤٧٨) (١/٢٧٢).
(٣) صحيح البخاري (٣٥٨٤) (٤/٥٣٦).
(٤) أخرجه البخاري في التاريخ والدارمي وغيرهما، انظر: السلسلة الصحيحة (٢١٧٤) (٥/٢٠٦).
(٥) صحيح مسلم (٥٦٤) (١/٣٣٠).
(٦) صحيح موارد الظمآن لزوائد ابن حبان - للألباني (٢٧٨) (١/١٩٩).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبدَ إذا تسوَّكَ ثم قامَ يُصلي، قام المَلَكُ خلفَه، فيستَمعُ لقراءته، فيدنو منه حتى يضعُ فاه على فيه، فما يخرجُ من فيه شيءٌ من القرآن إلا صارَ في جوفِ الملكِ، فطَهِّروا أفواهكم»(١).

ونُهينا عن البصاق تجاه القبلة لما فيه من أذيَّة لربِّ البريَّة وللملائكة المقربين، فعبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: أمر رسول الله ﷺ رجلاً يصلي بالناس صلاة الظهر، فتفل في القبلة وهو يصلي للناس، فلما كان صلاة العصر؛ أرسل إلى آخر، فأشفق الرجل الأول، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أنزل فيَّ؟ فقال ﷺ: «لا، ولكنك تَفلتَ بين يديكَ، وأنتَ تؤُمُّ الناسَ، فآذيتَ اللهَ وملائكتَه»(٢).

وفي رواية عن السائب بن خلاّد: أن رجلاً أمَّ قوماً، فبصق في القبلة؛ ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فقال ﷺ حين فرغ: «لا يُصلي لكم هذا». فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم، فمنعوه، وأخبروه بقول رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله فقال ﷺ: «نعم إنَّك آذيتَ الله ورَسُولَه»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ كان يحب العَرَاجين، ولا يزال في يده منها، فدخل المسجد، فرأى نخامة في قبلة المسجد، فحكَّها، ثم أقبل على الناس مغضباً، فقال ﷺ: «أيَسُرُّ أحدكُم أن يبصَقَ في وجهِهِ؟ إنَّ أحدَكُم إذا استقبل القبلة فإنما يستقبل ربَّهُ جلَّ وعز، والمَلَكُ عن يمينه، فلا يتفل عن يمينه، ولا في قبلته، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه..»(٤).

---

(١) رواه البزار وغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢١٥) (١/٢٠٤) وفي الصحيحة (١٢١٣) (٣/٢١٤) بلفظ مقارب.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٧٦) (٧/١١٢٤).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٥٦) (١/٩٥) وصحيح موارد الظمآن لزوائد ابن حبان (٢٩١٩) (١/٢٠٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٥٥) (١/٩٥).

ونُهينا أن نبقى متلطِّخين بالجنابة دون تخفيف الحدث الأكبر بالطهارة الصغرى على الأقل، حتى لا نؤذي الملائكة بالقذارة فهم يحبُون الطهارة والنظارة.

فعن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا تقربُهُمُ الملائكة: جيفَةُ الكافر، والمتضمِّخُ بالخَلُوقِ، والجنب إلا أن يتوضأ»(١).

قال الحافظ ـ رحمه الله: المراد بالملائكة هنا هم الذين ينزلون بالرحمة والبركة، دون الحفظة، فإنَّهم لا يفارقونه على حال من الأحوال، ثم قيل: هذا في كلّ مَن أخّر الغسل لغير عذر؛ ولعذر إذا أمكنه الوضوء فلم يتوضّأ، وقيل: هو الذي يؤخِّره تهاوناً وكسلاً، ويتخذ ذلك عادة(٢).

ونُهينا أن نؤذي الجنَّ فيما أعطاهم مولاهم من بقايا طعامنا، فلا يجوز لنا أن نستنجي بعظم أو روث، لأن العظم طعامهم، والروث طعام دوابِّهم، فتأمل، تعجب!

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني داعي الجنِّ، فذهبتُ معَهُ، فقرأتُ عليهِم القرآن» قال: فانطلقَ بنا فأرَانا آثارَهُم وآثارَ نيرانِهم، وسألوه الزّاد، فقال: «لكُم كلُّ عظمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه يقعُ في أيديكُم، أوفرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بعرةٍ علفٌ لدوابِّكُم». فقال رسولُ الله ﷺ: «فلا تستنجُوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانِكُم»(٣).

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تستَنْجُوا بالرَّوثِ ولا بالعِظام، فإنه زادُ إخوانِكُم من الجنِّ»(٤).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٥٢٢) (٢/٧٨٨).
(٢) صحيح الترغيب والترهيب (١/١٨٤).
(٣) صحيح مسلم (٤٥٠) (١/٢٧٨) مختصراً.
(٤) صحيح سنن الترمذي (١٨) (١/٨).

ومن حرص النبيِّ ﷺ على أن لا نؤذي إخواننا من المسلمين الجنِّ، نهانا عن قتل الحيات في البيوت قبل أن نحرِّج عليها ثلاثاً حتى لا نؤذي عوامر البيوت من الجنِّ المسلمين، فأيّ رحمةٍ أعظم من هذه الرَّحمة؟!

فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: أنه سمع النبيَّ ﷺ يخطُب على المنبر، يقول: «اقتُلوا الحيَّاتِ واقتلوا ذا الطُّفيتين والأبترَ، فإنَّهما يطمسانِ البصَرَ ويَستسقِطان الحَبَل».

قال عبد الله: فبينا أنا أُطاردُ حيَّةً لأقتُلَها، فناداني أبو لبابة: لا تقتُلها. فقلتُ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أمرَ بقتلِ الحيات. قال: إنَّه ﷺ نهى بعدَ ذلك عن ذواتِ البيوت، وهي العوامر (١).

وعن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه دخل على أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - في بيته، قال: فوجدته يُصلِّي، فجلستُ أنتظره حتى يقضي صلاتَهُ، فسمعتُ تحريكاً في عراجينَ في ناحية البيت، فالتفتُّ فإذا حيَّةٌ، فوثبت لأقتلها، فأشار إليَّ: أن اجلس. فجلستُ، فلمَّا انصرفَ أشارَ إلى بيتٍ في الدَّار. فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم. قال. كان فيه فتىً منّا حديثُ عهد بعُرسٍ. قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذنُ رسول الله ﷺ بأنصافِ النهار فيرجعُ إلى أهله، فاستأذنه يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «خُذ عليكَ سِلاحَكَ، فإني أخشى عليك قُريظةَ». فأخذ الرَّجلُ سلاحه، ثم رجع فإذا امرأتُهُ بين البابين قائمةً، فأهوى إليها الرُّمحَ ليطعنها به، وأصابتهُ غَيرةٌ. فقالت لهُ: اكفُف عليك رُمحَكَ، وادخُلِ البيتَ حتى تنظُر ما الذي أخرجني. فدخلَ فإذا بحيَّةٍ عظيمةٍ مُنطَويةٍ على الفراش، فأهوى إليها بالرُّمح فانتظَمَها به، ثُمَّ خرجَ فركزَهُ في الدَّارِ، فاضطربت عليه، فما يُدرى أيُّهما كان أسرعَ مَوتاً؛ الحيَّةُ أم الفتى؟ قال:

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٩٨) (٤/٤٣٨).

فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادعُ الله يحييه لنا. فقال ﷺ: «استغفروا لصاحبكم» ثم قال ﷺ: «إنَّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوهُ ثلاثةَ أيامٍ، فإن بدا لكم بعدَ ذلك فاقتُلُوهُ فإنما هو شيطانٌ»(١).

ومن عرف مساءة الإيذاء، ووقف على مغبَّةِ الاعتداء لم يتجرأ على بذله لحيوان بهيم فكيف بإنسانٍ كريم؟!

قال الفضيل بن عياض: والله !ما يحلُّ لك أن تُؤذيَ كلباً ولا خنزيراً بغير حقٍّ، فكيف تُؤذي مسلماً(٢).

وتأمل معي بعض النصوص الشرعية في حُرمة إيذاء الحيوان، لندرك أن ديننا العظيم وشريعتنا الغرَّاء جاءت بحفظ الحقوق ورعاية المخلوق، حتَّى للدواب العجماوات والبهائم الرُّتَّع والطيور المحلِّقات في الفضاء المُتَّسع!

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فَجَعَ هذهِ بولدها؟! رُدُّوا ولَدَها إليها».

ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «مَن حَرقَ هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنَّهُ لا ينبغي أن يُعذِّبُ بالنَّارِ إلا ربُّ النار»(٣).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ فلَدَغتهُ نملة، فأمرَ بجَهازِهِ فأُخرجَ من تحتها، ثمَّ أمرَ ببيتِها فأُحرقَ بالنار، فأوحى الله إليه: فهَلا نملةً واحدة؟»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٣٦) (٤/١٤٠١).

(٢) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي (٨/٤٤٣).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٢٣٢٩) (٢/٥٠٨).

(٤) صحيح البخاري (٣٣١٩) (٤/٤٤٢).

فلا ظلم ولا هضم و لو قيد أُنْمُلة، حتَّى لو كان على نملة!

وعن سهل بن الحنظلية، قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتَّقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكُلُوها صالحة»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم أن تتخذوا ظهور دَوابِّكُم منابرَ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشقِّ الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم»(٢).

وخرج رسول الله ﷺ في حاجة فمرَّ ببعير مناخ على باب المسجد من أول النهار، ثم مرَّ به آخر النهار وهو على حاله، فقال: «أين صاحب هذا البعير؟!» فابتغي فلم يوجد، فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها صحاحاً، واركبوها سماناً» كالمتسخط آنفاً(٣).

وعن عبد الله بن جعفر، قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، .. فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جملٌ، فلمَّا رأى النبي ﷺ حَنَّ وذَرَفَت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراهُ فسَكَتَ، فقال: «مَن ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتَّقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكَكَ الله إياها، فإنه شكى إليَّ أنك تجيعه وتُدئبه»(٤).

وعن يعلى بن مُرَّةَ ـ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ جالساً ذاتَ يومٍ، إذ جاءَ جملٌ يُخَبِّبُ حتى ضَرَبَ بِجِرانه بين يديه، ثمَّ ذرفت عيناهُ، فقال: «ويحك! انظُر لمن هذا الجملُ، إنَّ له لشأناً». قال: فخرجتُ ألتمسُ صاحبهُ، فوجدتُه لرجلٍ من الأنصارِ، فدعوتُه إليه، فقال: «ما شأنُ جملك هذا؟». فقال: وما شأنُه؟ قال: لا

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٢٢١) (٢/٤٨٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٢٣٨) (٢/٤٨٨).

(٣) رواه ابن حبان وأحمد، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢) (١/٣١).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٢٢٢٢) (٢/٤٨٥) وأصله في مسلم.

أدري والله ما شأنُه، عملنا عليه ونَضحنا عليه حتَّى عَجِزَ عن السِّقاية، فأتمرنا البارحةَ أن نَنحَره ونُقسِّمَ لَحمَهُ. قال: «فلا تفعَل، هبهُ لي أو بِعنيهِ». قال: بل هو لك يا رسولَ الله .قال: فوسمه بميسِم الصدقةَ ثُمَّ بعثَ به.

وفي رواية، قال: بل أهبُهُ لكَ، وإنَّه لأهلِ بيتٍ ما لهم معيشَةٌ غيرهُ، فقال: «أما إذ ذكرتَ هذا من أمرِه، فإنه شكا كثرةَ العَملِ، وقِلَّة العلفِ، فأحسِنوا إليه»(١).

وبلغت الرحمة بالحيوان منتهاها حتى إذا احتاج الإنسان إلى قتلها والاستفادة مما لابُدَّ له منها، أمره بالإحسان إليها، ومنعه من التعدي عليها ..

فلا يؤذيها برؤية ما يحزنها ويجلب الخوف لها..

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما: قال: مرَّ رسول الله ﷺ على رجلٍ واضعٍ رجلَه على صفحة شاة، وهو يُحِدُّ شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، قال: «أفلا قبل هذا؟ أوَ تريد أن تميتها موتات؟!».

وفي رواية، قال: «أتريد أن تُميتَها موتات؟! هلا أحددت شفرتك قبل أن تُميتَها موتاتٍ؟! هلا أحددت شفرتك قبل أن تُضجعَها»(٢).

ونهى عن إطالة وقت الذبح والتمادي فيه والتمهُّل في إيقاعه، وإنما يجهز عليها بعد التجهُّز لها، فعن ابن عمر -رضي الله عنها- قال: أمر النبيُّ ﷺ بحَدِّ الشِّفار، وأن توارى عن البهائم، وقال: «إذا ذبح أحدكم فليُجهز»(٣).

ونهى عن ذبحها للعبث واللعب والمتعة والتسلِّي، فإنها أمَّة تُسبِّح الله تعالى، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظم الذنوب عند

---

(١) رواه أحمد في المسند ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٧٠) (٢/٥٥٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم في المستدرك ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٠٩٠) (١/٦٣١).

(٣) رواه ابن ماجه ، السلسلة الصحيحة (٣١٣٠).

الله رجلٌ تزوج امرأةً؛ فلما قضى منها حاجته طلَّقها وذهب بمهرها، ورجلٌ استعمل رجلاً فذهب بأُجرته، وآخر يقتل دابَّةً عبثاً»(١).

وعن ابن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، إلا سأله الله عزَّ وجلَّ عنها». قيل: يا رسولَ الله! وما حقها؟ قال: «يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي بها»(٢).

ونهى عن شقِّ جلودها وقطع آذانها وجدع أنوفها لأنه تعذيب لها..

فعن مالك بن نضلة - رضي الله عنه - قال: أتيت النبيَّ ﷺ فقال: «هل تُنتجُ إبلُ قومِك صِحاحاً آذانها، فتعمد إلى الموسى فتقطع آذانها، وتشقُ جلودها، وتقول: هذه صُرم (٣)، فتحرمها عليك وعلى أهلك؟» قلتُ: نعم. قال: «فكلٌّ ما آتاك الله حِلٌّ، ساعِدُ الله أشدُّ من ساعدِك، وموسى الله أحَدُّ من موساك»(٤).

وحرَّم أذية الحيوانات للتسلي عليها واللعب بها وقتلها بتعذيبها..

فعن سعيد بن جبير قال: مر ابن عمر - رضي الله عنهما - بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئةٍ من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر - رضي الله عنهما - تفرَّقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله ﷺ: «لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا»(٥).

وعنه - رضي الله عنهما - أنه دخل على يحيى بن سعيد وغلام من بني يحيى رابط دجاجة يرميها، فمشى إليها ابن عمر - رضي الله عنهما - حتى حلَّها، ثم أقبل

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٩٩) (٢/٧٣٦).

(٢) رواه النسائي والحاكم، انظر: صحيح الترغيب (١٠٩٢) (١/٦٣١).

(٣) كان أهل الجاهلية يوقفونها لأصنامهم ويحرمونها على أنفسهم، فيسيبونها ليس لها راع، وهي (البحيرة) المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(٤) رواه ابن حبان، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٠٩٣) (١/٦٣٢).

(٥) صحيح مسلم (١٩٥٨) (٣/١٢٣٢).

بها وبالغلام معه، فقال: ازجروا غلامكم على أن يَصبِرَ هذا الطير للقتل، فإني سمعت النبي ﷺ نهى أن تُصبرَ بهيمة أو غيرها للقتل»(١).

ومنع من التحريش بينها، كمهارشة الكلاب، ومصارعة الدِّيكة والثيران...

وندب إلى رحمتها، واللطف بها، والعطف عليها..

فعن معاوية بن قرة عن ابيه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله! إني لأذبح الشاة فأرحمها . وفي رواية، قال: إنِّي آخذُ شاةً وأريدُ أن أذبَحَها فأرحَمُها؟(٢) قال ﷺ: «والشاةُ إن رَحمتَها رحمك الله»(٣).

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة»(٤).

وكم الناس عن هذا غافلون، لا يتورَّعون عن أذية البهائم لأنَّهم لا يشعرون بألمها، ولا يُحسُّون بوجعها، فيتمادون في تعذيبها، وإيقاع الأذى بها!

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو غُفرَ لكم ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثيراً»(٥).

فإن كانت هذه الرحمة والحنان والشفقة مع الحيوان البهيم والحيوانات الرُّتع، فما الواجب مع الإنسان الذي كرَّمه الله على سائر المخلوقات؟

بل كيف بالمسلم الموحِّد، والمؤمن الصادق؟!

بل كيف بأولياء الله وأحبائه وأصفيائه؟!

إن الأمر يحتاج منا إلى مراجعة حقيقية لكثير من علاقاتنا بمن حولنا على ضوء هذه النصوص العجيبة...

---

(١) صحيح البخاري (٥٥١٤) (٦/٥٨١).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٤) (٢/٥٥٢).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في الصغير، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٦) (١/٣٣).

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد وتمام في الفوائد، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧) (١/٣٤).

(٥) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٥١٤) (٢/٢٧).

منهج هذا الفصل

جمعت في هذا الفصل بعضاً من صنوف الشر والأذى التي يجب على المسلم أن يكف عنها، فلا يقرب منها، ولم أحصها عدداً لكثرتها، وفي ذلك ما لا يخفى من الابتلاء والتمحيص من الله لعباده، فقد حفَّت النار بالشهوات، وكثرت حولها الظلمات، ليتميز الخبيث من الطيب، وليعلم الله - وهو العليم - من ينصره ويخشاه بالجلاء والخفاء، وعند القدرة على البطش والإيذاء، وتلك رحى البلاء!

* قرأت الكتب الستَّة كلها - بفضل الله وكرمه - وما وقع تحت يدي من كتب العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ومن هذه الكتب جميعاً جاءت مادة هذا الكتاب.

* وضعت تحت كل باب حديثاً أو أكثر لمعانٍ جليلة أو دلالات خفيةٍ، تزيد الموضوع نوراً وبهاء وإشراقاً وجلاء، ولم أجمع كلَّ ما ذُكر من آيات وأحاديث وآثار تحت كل باب بغية الاختصار، ولو أني فعلت ذلك لتضاعف الحجم عمَّا هو واقع، ولاتسع الخرق على الراقع!

* جمعت من صحاح الأحاديث وحسنها - دون سقيمهما - ما فيه الغُنية عن غيره والكافية عمَّا سواه، وفي بزوغ الشمس بالصباح ما يغنيك عن وهج المصباح!

* عدلت - في بعض المواقع - عن روايتي البخاري ومسلم - رحم الله علماء المسلمين سلفاً وخلفاً - إلى من هو دونهما لزيادة فائدة في متن الحديث أو فقهه.

* خرَّجت الأحاديث ولم أسهب في التخريج حتى لا أخرج عن هدف الكتاب وهو الاختصار - ما أمكن - فاقتصرت على نسبة الحديث إلى واحدٍ من كتب السنة وهو في غيره بدلاً من تتبع مواضعه، وجمع رواياته - وإن كان هو

الأولى ـ دفعاً لطول الكتاب، وحرصاً على تحقيق هدفه الذي من أجله جمع وطبع ووزع .

* نقلت في الروايات التي في غير «الصحيحين» قول العلامة المحقق محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ محدث عصره ومحقق زمانه، وأحلت على كتبه المفيدة السديدة إلى تحقيقاته الكافية الشافية، وقد أحلتك على مليء، ومن أُحيل على مليء فليتبع!

* رتبت الكتاب على ما درج عليه علماؤنا ـ رحم الله الجميع ـ على هيئة كتب، وتحت كل كتاب فصول وأبواب، ثم رتبتها هجائيًّا على حسب عنوانها الذي يدل عليها .

* شرحت بعض المبهمات الغامضة، وبينت بعض المفردات الصعبة، من غير توسع في الشرح أو تشعب في الطرح، والمرجع في ذلك لكتب الشروحات، ففيها الكفاية لمن أراد الهداية .

* ذكرت بعض الشواهد والشوارد من حياة سلفنا الصالح تحت بعض الأبواب، ولم أطل النفس في ذلك خشية الإطالة، فاقتصرت على الشواهد والكلمات القصيرة في بعض الأبواب دون غيرها، وكتب التراجم والسير مليئة بالجواهر والدرر والعظات والعبر، فإليها أشير وألفت النظر!

وعلى الله نتوكل وبه نستعين، وبه نصول ونجول ونسأله القبول، فبسم الله نبدأ، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى :

كتاب الإيمان

١ - الإحداث في الدين ودعوة الناس إليه:

١ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١).

١ - ٢ - عن جرير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٢).

١ - ٣ - عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرمٌ ما بين عائرٍ إلى كذا، من أحدثَ فيها حدثاً أو آوى مُحدثا فعليه لعنة الله والملائكةِ والناس أجمعينَ، لا يقبلُ منه صرفٌ و لا عدل»(٣).

والصرف هو الفريضة والعدل التطوع. وقال الحسن: الصرف النافلة والعدل الفريضة. وقال الأصمعي: الصرف التوبة والعدل الفدية»(٤).

ومن أعظم الحدث تعطيل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإحداث ما خالفهما، ونصر من أحدث ذلك والذب عنه، ومعاداة من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٧١٨) (٣/١٠٨٢).

(٢) صحيح مسلم (١٠١٧) (٢/٥٨٣).

(٣) صحيح البخاري (١٨٧٠) (٢/٥٧٧).

(٤) المعلم بفوائد مسلم - المازري (٢/٧٨).

(٥) فتاوى إمام المفتين - ابن القيم - ص٢١٩.

٢ ـ إقامة الكفار في جزيرة العرب لغير حاجة أو لإقامة دائمة:

٢ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا المشركينَ من جزيرةِ العربِ»(١).

٢ ـ ٢ ـ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتَّى لا أدعَ إلا مُسلماً»(٢).

٢ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لئن عِشتُ ـ إن شاء الله ـ لأُخرِجنَّ اليهودَ والنصارى مِن جزيرةِ العرب»(٣).

٣ ـ الاستهزاء بالمؤمنين الملتزمين بدينهم:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾ [المطففين:٢٩].

٣ ـ ١ ـ عن زيد بن أسلم ومحمد بن وهب، قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فذهب عوف ـ رضي الله عنه ـ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ونتحدث بحديث الركب، نقطع به عنا الطريق. فأنزل الله(٤): ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾

[التوبة:٦٥]

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٥٣) (٣/٣٥٨).

(٢) صحيح مسلم (١٧٦٧) (٣/١١١٢).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٣٠٩) (٢/١١٩).

(٤) أسباب النزول ـ الواحدي ـ ص٢١٢.

٤ - إضلال الناس في دينهم:

قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

قال قتادة: أي ذنوبهم وذنوب الذين يضلونهم بغير علم(١).

٤ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(٢).

٤ - ٢ - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذابا يوم القيامة رجلٌ قتل نبياً أو قتله نبيٌّ، أو رجل يضلُّ الناس بغير علمٍ، أو مصورٌ يصوِّر التماثيلَ»(٣).

وما أكثر جند إبليس وأعوانه وزبانيته وخدَّامه، الداعين على أبواب جهنم! بدعايات منمقة، وشعارات مزركشة، ملمسهم الناعم ينسيك سمَّهم الزُّعاف، يخفون في أنفسهم مالا يُبدون لك، وكل الذي يبغون؛ صدك عن دين الله القويم، وإضلالك عن صراط الله المستقيم .

٥ - إيواء المُحدِث:

٥ - ١ - عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنَ اللهُ من ذبحَ لغير الله، ولعن الله من آوى مُحدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيَّر منار الأرض»(٤).

---

(١) كتاب الأهوال - ابن أبي الدنيا - ص٢٧٢ رقم٢٦٩.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٧٤) (٤/١٦٣٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الكبير والبزار، انظر: السلسلة الصحية (٢٨١) (١/٥٠٧)

(٤) صحيح مسلم (١٩٧٨) (١/١٢٤٥).

٦ ـ البناء على القبور والغلو فيها لفتنة الناس بها :

٦ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدا» . قالت : ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا[١] .

٦ ـ ٢ ـ عن أبي الهياج الأسدي ـ رحمه الله ـ قال : قال لي علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : «أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته»[٢] .

٦ ـ ٣ ـ عن ثمامة بن شفي ، قال : كنا مع فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ بأرض الروم (برودس) فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسُوِّي ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٣] .

٦ ـ ٤ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : نهى رسول الله ﷺ أن يُجصَّص القبرُ ، وأن يُقعَدَ عليه ، وأن يُبنى عليه[٤] .

٧ ـ تبجيل وتعظيم أهل المنكر والشر :

قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]

قال تعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] .

٧ ـ ١ ـ عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قال الرجل للمنافق : يا سيِّد فقد أغضب ربَّه تبارك وتعالى»[٥] .

---

(١) صحيح البخاري (١٣٣٠) (٢/٤٠٤) .
(٢) صحيح مسلم (٩٦٩) (٢/٥٥٥) .
(٣) صحيح مسلم (٩٦٨) (٢/٥٥٥) .
(٤) صحيح مسلم (٩٧٠) (٢/٥٥٦) .
(٥) أخرجه الحاكم وأبو نعيم في أخبار أصبهان ، انظر : السلسلة الصحيحة (١٣٨٩) (٣/٣٧٨) .

٧ ـ ٢ ـ عن أبى سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»(١).

٨ ـ تبديل أحكام الله والرضا به:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦]

٨ ـ ١ ـ عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي اطرح هذا الوثن». وسمعته يقرأ في سورة (براءة): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. فقلت: إنا لسنا نعبدهم؟! قال: «أمَا إنَّهم لم يكونوا يعبدُونهم، ولكنَّهم كانُوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّمُوا عليهم شيئاً حرَّموه، فتلك عِبادَتُهُم»(٢).

٨ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ أنه جاء إلى النبي ﷺ، فلما سمع النبيَّ ﷺ يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: يا رسول الله! إنا لم نتخذهم أرباباً. قال: «بلى، أليس يحلُّون لكم ما حرَّم عليكم فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحلَّ الله فتحرمونه؟». فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم»(٣).

٩ ـ تفريق كلمة المسلمين ومفارقة جماعتهم:

٩ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإنه ليس أحدٌ من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتةً جاهليَّةً»(٤).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٩٥٢٩) (٢٨٥/٢).

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ والترمذي في السنن والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣) (٨٦١/٧).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه والطبري في تفسيره والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه، انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ـ ص٢٠ رقم ٦.

(٤) صحيح مسلم (١٨٤٩) (١١٧٤/٣).

٩ - ٢ - عن عرفجة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّه ستكونُ هَنَاتٌ وهَنَاتٌ، فمن أراد أن يُفرِّق أمر هذه الأمَّةِ وهيَ جميعٌ فاضربُوهُ بالسيف، كائناً من كانَ»(١).

٩ - ٣ - وعن عرفجة - رضي الله عنه - قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر يخطب الناس، فقال: «إِنَّهُ سيكونُ بعدي هَنَاتٌ وهنات، فمن رأيتُمُوهُ فارق الجماعةَ، أو يريدُ يُفرِّقُ أمرَ أمَّةِ محمدٍ ﷺ كائناً من كان، فاقتُلُوهُ، فإنَّ يدَ الله على الجماعةِ، فإنَّ الشيطانَ مع من فارقَ الجماعةَ يركُضُ»(٢).

١٠ - تكفير أحد من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله وتقم عليه الحجة:

١٠ - ١ - عن ثابت بن الضحاك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ولعنُ المؤمنِ كقتله، ومن رمى مُؤمناً بكُفرٍ فهو كقتلهِ»(٣).

١٠ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»(٤).

١١ - التكهن للناس:

١١ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سأل رسول الله ﷺ عن ناس عن الكهان؟ فقال: «ليس بشيء» فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقا. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجني في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٢) (٣/١١٧٥).

(٢) صحيح سنن النسائي (٣٧٥٣) (٣/٨٤٤).

(٣) صحيح البخاري (٦١٠٥) (٧/١٢٧).

(٤) صحيح مسلم (٦٠) (١/٧٩).

(٥) صحيح البخاري (٥٧٦٢) (٧/٣٦).

١١ - ٢ - عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن[١].

١١ - ٣ - عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من تطير ولا من تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو تسحر أو تسحر له»[٢].

١١ - ٤ - عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يلجَ الدَّرجات العُلى مَن تَكهَّنَ أو تُكُهِّنَ لهُ، أو رجعَ مِن سفرٍ تَطيُّراً»[٣].

١٢ - التنجيم للناس:

١٢ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن اقتَبَسَ عِلماً مِن النُّجُوم، اقتَبَسَ شعبةً مِن السِّحرِ، زادَ ما زاد»[٤].

١٢ - ٢ - عن طلحة بن مصرف - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أتخوَّفُه على أمتي آخر الزمان ثلاثاً؛ إيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر، وحيفَ السلطان»[٥].

١٣ - تنفير الناس من الدين:

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦].

١٣ - ١ - عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»[٦].

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٦٩٠) (٢/٢٠٨).

(٢) أخرجه البزار والطير أنى، انظر: السلسة الصحيحة (٢١٩٥) (٥/٢٢٨).

(٣) رواه تمام في الفوائد والطبراني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢١٦١) (٥/١٩٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٣٣٠٥) (٢/٧٣٩).

(٥) رواه أبو عمر الداني في السنن الواردة في الفتن، انظر: السلسلة الصحيحة (١١٢٧) (٣/١١٨).

(٦) صحيح مسلم (١٧٣٢) (٣/١٠٩٣).

١٣ ـ ٢ ـ عن انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « يسِّروا ولا تُعسِّروا، وسَكِّنُوا ولا تُنفِّرُوا »(١).

ولا يكون التنفير من الدين بالالتزام بما جاء عن الله تعالى وبما أثر عن رسوله ﷺ على فهم سلف هذه الأمة، وإنما يكون ذلك بالغلظة مع الناس، والتشديد عليهم فيه، وأخذهم بالقسوة التي في غير موضعها، والتطبيق الخاطئ لبعض أحكام الشرع الحنيف. أقول ذلك لأن بعضا من الناس إذا خالفت أهواءهم المنحرفة، وصادمت رغباتهم المنحلة، شنعوا عليك بالتنفير من الدين، وحاكوا ضدك المكائد، يبغونك تطرح شيئا من أمر الله لتوافقهم على مواقفهم، وودوا لو تدهن فيدهنون!

١٤ ـ تيئيس الخطيب للناس من رحمة الله تعالى:

١٤ ـ ١ ـ عن جندب ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً قال: والله لا يغفر لفلان. وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»(٢).

١٤ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كان رجلان في بني إسرائيل مُتواخيينِ، فكان أحدهما يُذنبُ والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خَلِّني وربي أَبُعثتَ عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك ـ أو لا يدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: كنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

---

(١) صحيح مسلم (١٧٣٤) (٣/١٠٩٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٢١) (٤/١٦٠٦).

* قال أبو هريرة - رضي الله عنه: والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت وآخرته[(١)].

* و قالت عائشة - رضي الله عنها - لعبيد بن عمير: إياك وإملال الناس وتقنيطهم[(٢)].

* وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: ألا أنبئكم بالفقيه كلَّ الفقه؟ قالوا: بلى. قال: من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه[(٣)].

١٥ - الدعوة بدعوى الجاهلية:

مثل الدعوة للعصبية القبلية أو الإقليمية أو العرقية أو الحزبية، ونحو ذلك.

١٥ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثةٌ؛ مُلحِدٌ في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنَّةَ الجاهلية، و مُطَّلِبُ دمِ امرئٍ بغير حقٍّ ليُهريقَ دمه»[(٤)].

١٥ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرجَ من الطاعةِ وفارقَ الجماعةَ فماتَ، ماتَ ميتَةً جاهليَّةً، ومن قاتلَ تحتَ راية عُمِّيَّةٍ، يغضبُ لعَصَبةٍ أو يدعو إلى عَصبَةٍ، أو ينصرُ عَصَبةً فقُتلَ، فقتلةٌ جاهليَّةٌ، ومن خرجَ على أُمَّتي، يضربُ برَّها وفاجِرها ولا يَتحاشَ من مُؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهدَه، فليس مِنِّي ولستُ منه»[(٥)].

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٠٩٧) ٣/٩٢٦).

(٢) الآداب الشرعية - ابن مفلح (٢/٩٩).

(٣) جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر (١٥٠٩) (٢/٨١١).

(٤) صحيح البخاري (٦٨٨٢) (٨/٣٥٨).

(٥) صحيح مسلم (١٨٤٨) (٣/١٤٧٦).

١٥ - ٣ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قُتل تحت راية عمِّية يدعو إلى عصبيَّة أو يغضب لعصبية، فقتلته جاهلية»(١).

١٦ - دفن الموتى في المساجد:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١]

١٦ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقُم منه: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ». لولا ذلك أُبرزَ قبرُهُ، غير أنه خَشي أن يُتَّخذَ مسجداً(٢).

١٦ - ٢ - عن جندب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ألا وإنَّ من كان قبلَكُم كانوا يتَّخذونَ قُبورَ أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتَّخذوا القبورَ مساجد، إنِّي أنهاكُم عن ذلك»(٣).

١٧ - السؤال بوجه الله تعالى وعدم الإجابة به:

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]

١٧ - ١ - عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من يُسأل بوجه الله ثم منع سائله، ما لم يسأله هجرًا»(٤).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٣١٩٠) (٢/٣٥١).

(٢) صحيح البخاري (١٣٩٠) (٢/٤٢٤).

(٣) صحيح مسلم (٥٣٢) (١/٣١٦).

(٤) أخرجه ابن عساكر والطبراني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٩٠) (٥/٣٦٣).

ومكمن الأذى فيه أن يجيبك لما لا تهوى نفسه ، وما فيه مشقة عليه أو ضرر به؛ خوفًا من الوقوع في الإثم مع ما فيه من تعدٍ على الله واستهانة به سبحانه .

١٨ ـ سبُّ أصحاب رسول الله:

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحشر:١٠].

وقال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح:٢٩].

١٨ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا، ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»[١].

١٨ ـ ٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبَّ أصحابي، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٢].

١٨ ـ ٣ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنَ الله من سبَّ أصحابي»[٣].

---

(١) صحيح مسلم (١٥٤٠) (٤/١٥٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني، انظر: صحيح الجامع (٦٢٨٥) (٢/١٠٧٧) قال الألباني: حسن.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٤٠) (٥/٤٤٦).

١٩ ـ الكذب المتعمد على الرسول:

١٩ ـ ١ ـ عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذبَ عليَّ عامداً فليتبوأ مقعده من النار»(١).

١٩ ـ ٢ ـ قال رسول الله ﷺ: «من روى عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(٢).

١٩ ـ ٣ ـ عن سالم عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الذي يكذِبُ عليَّ يُبنى له بيت في النار»(٣).

وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى أنَّ الكذب على رسول الله ﷺ كفر ينقل عن المِلَّة، ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله ﷺ في تحليل حرام أو تحريم حلال كفر(٤).

٢٠ ـ المجاهرة بالمعصية أمام الناس:

٢٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يُصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»(٥).

ولا يخفى ما في ذلك من تزيين المنكر والدعوة إليه والترغيب فيه، مما قد يُغري ضعاف الإيمان بالوقوع فيه والإلمام به، ويؤذي الصالحين بسماع من يتباهى بمقارفة الذنوب، ويتبجح بمعصية رب العالمين.

---

(١) صحيح البخاري (١١٠) (١/٤٤).

(٢) صحيح مسلم (٤) (١/٢٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦١٩) (٤/١٥٣).

(٤) الكبائر ـ الذهبي ـ ص٦١.

(٥) صحيح البخاري (٦٠٦٩) (٧/١١٧).

٢١ ـ محبة وقوع الناس في المعاصي:

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢].

٢١ ـ ١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»(١). وفي رواية: «لنفسه من الخير»(٢).

٢٢ ـ المراء في دين الله تعالى بجهل أو لنصرة باطل:

٢٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «المراء في القرآن كُفرٌ»(٣).

٢٢ ـ ٢ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حبُّ الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أُمرتُم أو لهذا خُلقتُم؟ تضربونَ القرآنَ بعضَهُ ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلَكُم».

قال: فقال عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه(٤).

(١) صحيح البخاري (١٣) (١/١١).

(٢) صحيح سنن النسائي (٤٦٤٤) (٣/١٠٣٢).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣٨٤٧) (٣/٨٧٠).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٦٩) (١/٢١).

٢٣ ـ معاداة أولياء الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨]

قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

٢٣ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»(١).

يعني: فقد أعلمته بأني محارب له حيث كان محاربا لي بمعاداته أوليائي(٢).

٢٣ ـ ٢ ـ عن عائذ بن عمرو، أن أبا سفيان ـ رضي الله عنه ـ أتى على سلمانَ ـ رضي الله عنه ـ وصُهيبٍ ـ رضي الله عنه ـ وبلالٍ ـ رضي الله عنه ـ في نفرٍ، فقالوا: والله ما أخذَت سُيُوفُ الله مِن عُنُقِ عدُوِّ الله مأخَذَها. قال: فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه: أتقُولونَ هذا لشيخ قُريشٍ وسيِّدِهِم؟ فأتَى النَّبيَّ ﷺ فأخبَرَهُ، فقال ﷺ: «يا أبا بكرٍ لعلَّكَ أغضَبتَهُم، لئن كُنتَ أغضبتَهُم لقد أغضَبتَ ربَّكَ». فأتاهُم أبو بكرٍ، فقالَ: يا إخوتاه! أغضَبتُكُم؟ قالوا: لا، يغفرُ اللهُ لك يا أُخيَّ(٣).

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢) (٧/٢٤٣).
(٢) جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ـ ص ٤٣٧.
(٣) صحيح مسلم (٢٥٠٤) (٤/١٥٤٦).

كتاب أعمال القلوب

٢٤ ـ اتهام الناس في نواياهم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

٢٤ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال خالد بن الوليد رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: كم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟! قال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر أن أنقِّبَ على قلوب الناس ولا أشق بطونهم»(١).

٢٤ ـ ٢ ـ عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّة، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله. فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال: «أقال: لا إله إلا الله. وقتلته؟!». قال: قلت: يا رسول الله! إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه». حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ(٢).

٢٤ ـ ٣ ـ عن عمران بن الحصين ـ رضي الله عنه ـ قال: شهدت رسول الله ﷺ وقد بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين، فلما لقوهم قاتلوهم قتالاً شديداً فمنحوهم أكتافهم، فحمل رجل من لحمتي على رجل من المشركين بالرمح، فلما غشيه، قال: أشهد أن لا إله إلا الله إنِّي مسلم. فطعنه فقتله، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! هلكت. قال: «وما الذي صنعت؟». مرَّة أو مرتين. فأخبر بالذي صنع، فقال له رسول الله ﷺ: «فهلاً شققت عن بطنه فعلمت ما فيه».

---

(١) صحيح مسلم (١٠٦٤) (٢/٦١٠).

(٢) صحيح مسلم (٩٦) (١/٩٢).

قال: لا يا رسول الله. فسكت عنه رسول الله ﷺ فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات، فدفناه.

فأصبح على ظهر الأرض، فقالوا: لعلَّ عدواً نبشه. فدفناه، ثم أمرنا غلماننا يحرسونه، فأصبح على ظهر الأرض، فقلنا: لعلَّ الغلمان نعسوا. فدفناه، ثم حرسناه بأنفسنا، فأصبح على ظهر الأرض، فألقيناه في بعض الشعاب، فأخبر النبي ﷺ وقال: «إن الأرض لتقبل من هو شرٌّ منه، ولكن الله أحبَّ أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله»(١).

وذلك مثل اتهامهم بالنفاق في معتقدهم، والرياء في أعمالهم، وسواد القلب وخبثه في سلوكهم، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله، ولم يطلع عليه سواه، فنحن لنا الظاهر، والله تعالى يتولى السرائر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

٢٥ ـ احتقار المسلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

وقال تعالى: ﴿...وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٣١].

٢٥ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»(٢).

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٣١٧٥) (٢/٣٤٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤) (٤/١٥٦٤).

٢٥ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المُسلمُ أخو المُسلم، لا يخُونُهُ ولا يَكذِبُهُ ولا يَخذُلُهُ، كلُّ المُسلمِ على المُسلمِ حرامٌ؛ عِرضُهُ ومالُه ودَمُهُ، التقوى هَهُنا ـ وأشار إلى القلب ـ بحسبِ امرئ مِن الشَّرِّ أن يحتَقِرَ أخاهُ المُسلمَ»(١).

ينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينيه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهزاء بمن عظَّمه الله(٢).

٢٦ ـ بغض أهل بيت رسول الله:

قال تعالى **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** [الإحزاب:٣٣]

٢٦ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»(٣).

٢٧ ـ بغض الأنصار:

قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر:٩].

٢٧ ـ ١ ـ عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»(٤).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٥٧٢) (٢/١٨٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي (٢١٣/٦).

(٣) أخرجه الحاكم وابن حبان، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٨٨) (٦٤٣/٥).

(٤) صحيح مسلم (٧٥) (١/٨٣).

٢٧ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»(١).

٢٨ - بغض المسلمين وكراهيتهم:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات:١٠].

٢٨ - ١ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا و لا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»(٢).

والمذموم منه ما كان في غير الله تعالى(٣).

فأما البغض في الله فهو من أوثق عرى الإيمان، وليس داخلا في النهي(٤).

٢٩ - التعاظم على الناس:

قال تعالى: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [لقمان:١٨].

٢٩ - ١ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(٥).

٢٩ - ٢ - عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجلٍ يتعاظمُ في نفسه، أو يختال في مشيته، إلا لقي الله عزَّ وجلَّ وهو عليه غضبان»(٦).

---

(١) صحيح مسلم (٧٦) (١/٨٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٦٥) (٧/١١٦).

(٣) فتح الباري - ابن حجر (١/٤٩٨).

(٤) جامع العلوم والحكم - ابن رجب - ص ٤٠٠.

(٥) صحيح مسلم (٩١) (١/٨٩)

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم وأحمد، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٧٢) (٥/٣٤٢).

٢٩ ـ ٣ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن من جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»(١).

٣٠ ـ حسد المسلم:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ..﴾ [النساء:٣٢].

وقال تعالى: ﴿لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣].

وقال تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

٣٠ ـ ١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسّسوا ولا تجسَّسوا ولا تحاسدوا ولا تدابَرُوا ولا تباغضوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً»(٢).

٣٠ ـ ٢ ـ عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم؛ الحسدُ والبغضاءُ، هيَ الحالقةُ؛ لا أقولُ تحلقُ الشعرَ ولكن تحلقُ الدين»(٣).

٣٠ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمعانِ في النَّار مُسلمٌ قَتَلَ كافرًا، ثم سدَّد وقارب، ولا يجتمعان في جوف مؤمنٍ غبارٌ في سبيل الله وفيحُ جهنَّم، ولا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ الإيمانُ والحسد»(٤).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٠٢٥/٣) (٢/٣٠٤) وقال الألباني: حسن.

(٢) صحيح البخاري (٦٠٦٤) (٧/١١٦).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٠٣٨) (٢/٣٠٧).

(٤) صحيح سنن النسائي (٢٩١٢) (٢/٦٥٢).

٣٠ - ٤ - وعن ضمرة بن ثعلبة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزالُ النَّاسُ بخيرٍ ما لم يتحاسَدُوا»(١).

٣٠ - ٥ - عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينُوا على إنجاحِ الحوائج بالكتمانِ، فإنَّ كل ذي نعمة محسود»(٢).

٣١ - الحقد على المسلم:

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحشر:١٠].

وقال تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ..**﴾ [الأعراف:٤٣].

٣١ - ١ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الناس كل مخموم القلب، صدوق اللسان». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال ﷺ: «التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غلَّ ولا حسد»(٣).

كتاب العلم:

٣٢ - إشغال أهل العلم والفضل بما لا فائدة فيه:

قال تعالى: ﴿**..وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ..**﴾ [الأحزاب:٥٣].

قال إسماعيل بن حكيم: وهذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء.

وقال ابن أبي عائشة: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم(٤).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٨٦) (٧/١١٥٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير والروياني في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٥٣) (٣/٤٣٦).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٩٧) (٢/٤١١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي (١٤/١٤٦).

ومن الأذى المكوثُ عندهم لوقت طويل دون فائدة كبيرة، وإشغالهم عن المهمات العظيمة التي يصبون إلى تحقيقها لنفع الإسلام والمسلمين، بطول الحديث فيما لا ينفع، وطلب العون منهم فيما يمكن أن يقوم به غيرهم ممن هم دونهم، فإن وقتهم عزيز، وأعمارهم أغلى من أن تُهدر فيما لا يذكر.

٣٣ - إهانة أهل العلم وعدم احترامهم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

٣٣ - ١ - عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من إجلالِ الله إكرامَ ذي الشيبةِ المسلم، وحاملِ القرآنِ غيرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكرامَ ذي السُّلطانِ المقسِطِ»(١).

٣٣ - ٢ - عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من أُمَّتي من لم يُجلَّ كبيرَنا، ويَرحم صغيرَنا، ويعرِف لعالمنا»(٢).

٣٣ - ٣ - عن عبد الله بن بُسر - رضي الله عنه - قال - قال رسول الله ﷺ: «إذا كُنتَ في قومٍ؛ عشرين رجلاً أو أقلَّ أو أكثرَ، فتصفَّحتَ وجوهَهم فلم ترَ فيهم رجلاً يُهابُ في الله عز وجل، فاعلم أن الأمر قد رقَّ»(٣).

٣٤ - التباهي على الناس بالعلم وزعم الإحاطة به:

٣٤ - ١ - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهرُ الإسلامُ حتى تَختَلفَ التُّجارُ في البحر، وحتى تَخوضَ الخيلُ في سبيل الله، ثم يظهرُ قومٌ يقرءون القرآن، يقولون: من اقرأُ منّا؟ من أعلمُ منا؟ من أفقه منا؟».

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٠٥٣) (٣/٩١٨).

(٢) رواه أحمد في المسند، والطبراني والحاكم، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٠٢) (١/١٥٢).

(٣) رواه أحمد في المسند والكبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٠٤) (١/١٥٢).

ثم قال لأصحابه: «هل في أولئك مِن خيرٍ؟!». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «أولئك منكم من هذه الأمّة، وأولئك هم وقودُ النارِ»(١).

٣٤ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنّه قام بمكةَ من الليل، فقال: «اللهم هل بلَّغتُ؟». ثلاث مرات، فقامَ عمرُ بن الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ وكان أوَّاهاً، فقال: اللهم نَعَم، وحرَّضتَ وجَهَدتَ ونَصحتَ فقال: «ليَظهرنَّ الإيمانُ حتى يُرَدَّ الكفرُ إلى مواطنه، ولَتُخاضَنَّ البحارُ بالإسلام، وليأتينَّ على الناسِ زمانٌ يتعلمون فيه القرآن، يتعلَّمونَه ويَقرءونَه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلِمنا، فمن ذا الذي هو خيرٌ منا؟ فهل في أولئك من خيرٍ؟!». قالوا: يا رسولَ الله، مَن أولئك؟ قال ﷺ: «أولئك منكم، وأولئك هم وَقودُ النار»(٢).

٣٥ ـ تعسير تعليم القرآن الكريم بأخذ الأجرة الباهظة عليه وغيرها:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

٣٥ ـ ١ ـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: عَلَّمتُ ناساً من أهل الصُّفَّةِ القرآن والكتابة، فأهدى إلي رجل منهم قوساً، فقلت: ليست بمال وأرمي بها في سبيل الله. فسألت رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إن سرَّكَ أن تُطَوَّقَ بها طَوقاً مِن نارٍ فاقبَلها»(٣).

٣٥ ـ ٢ ـ عن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: علمت رجلاً القرآن، فأهدى إليَّ قوساً، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إن أخَذتَها أخذتَ قوساً من نارٍ» فرددتها(٤).

(١) رواه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، (١٣٦) (١٦٦/١).
(٢) رواه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب (١٣٧) (١٦٧/١).
(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٥٠) (٨/٢).
(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٥١) (٨/٢).

٣٥ ـ ٣ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ على تعليم القرآن قوساً، قلده الله قوساً من نار يوم القيامة»(١).

٣٥ ـ ٤ ـ عن معاوية ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه»(٢).

٣٦ ـ الحديث بكل ما سمع:

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

٣٦ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرءِ إثماً أن يحدِّث بكلِّ ما سمع»(٣).

٣٦ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال»(٤).

٣٦ ـ ٣ ـ عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأدَ البناتِ، ومنعاً وهاتِ، وكره لكم؛ قيلَ وقالَ، وكثرةَ السؤالِ، وإضاعةَ المالِ»(٥).

---

(١) رواه أبو محمد المخلدي في الفوائد وابن عساكر في تاريخ دمشق، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٦) (١/٤٥٧).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح المعاني وأحمد والطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٦٠) (١/٤٦٥).

(٣) صحيح مسلم (٥) (١/٢٤).

(٤) صحيح مسلم (١٧١٥) (٣/١٠٨٠).

(٥) صحيح مسلم (٥٩٣) (٣/١٠٨١).

٣٧ ـ الحديث للناس بما لا يفقهون:

قال عليٌّ ـ رضي الله عنه: حدَّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّبَ الله ورسوله(١).

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما أنت محدِّثٌ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة(٢).

وقال هشام بن عروة، قال لي أبي ـ رضي الله عنهما: ما حدَّثتُ أحداً بشيءٍ من العلم قط لم يقبله عقله إلا كان ضلالاً عليه(٣).

٣٨ ـ حرمان الناس من أحاديث رسول الله ﷺ بإنكارها بعد ثبوتها:

قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

٣٨ ـ ١ ـ عن أبي رافع أسلم ـ رضي الله عنه ـ مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ألفينَّ أحدكُم مُتَّكئاً على أريكته يأتيه أمرٌ مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري. ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعنَاه»(٤).

٣٨ ـ ٢ ـ عن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل عَسى رجلٌ يَبلُغُهُ الحديثُ عنِّي وهو مُتَّكئ على أريكتِه، فيقول: بيننا وبينَكم كتابُ الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناهُ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناهُ، وإنَّ ما حرَّم رسولُ الله ﷺ كما حرَّمَ الله»(٥).

٣٨ ـ ٣ ـ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوتيتُ الكتابَ وما يعدِلُه، ـ يعني مثله ـ يوشكُ شبعانُ على أريكته، يقول: بيننا وبينكم هذا

(١) صحيح البخاري (١/٥٠).

(٢) صحيح مسلم (١/٢٥).

(٣) صحيح مسلم في المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، سير أعلام النبلاء.

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢١٤٥) (٢/٣٣٩).

(٥) صحيح سنن الترمذي (٢١٤٦) (٢/٣٣٩).

الكتابُ، فما كانَ فيه من حلالٍ أحلَلناه، وما كان فيه من حرامٍ حرَّمناه، ألا وإنه ليس كذلك»(١).

٣٩ ـ رد النصيحة والموعظة:

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ [البقرة:٢٠٦].

٣٩ ـ ١ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الكلامِ إلى الله أن يقولَ العبدُ: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك، وإنَّ أبغض الكلام إلى الله أن يقولَ الرجلُ للرجلِ: اتَّق اللهَ. فيقول: عليك نفسك»(٢).

٣٩ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ذُكِّرتُم بالله فانتهُوا»(٣).

٤٠ ـ السكوت عن قول الحق:

قال تعالى: ﴿**فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة:١٣].

وقال تعالى: ﴿**فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾ [المائدة:٤٤].

٤٠ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يَمنَعنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَهُ»(٤).

---

(١) رواه عباس الترقفي في حديثه، انظر: السلسة الصحيحة (٢٨٧٠) (٦/٨٧١).

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة والبيهقي في الشعب، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٩٣٩) (٦/١٠٥٥).

(٣) رواه البزار، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣١٩) (٣/٣٠٩).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٣٧) (٢/٣٦٨).

٤٠ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّبُ من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحقٍ أو يذكِّر بعظيم»(١).

٤١ ـ عدم التثبت في الأخبار عند نقلها:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات:٦].

وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ، أي: خبر، أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فيحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق، بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند سماعه خبر الفاسق التثبت والتبين(٢).

٤٢ ـ الغلظة في غير موضعها في تعليم الناس والإنكار عليهم:

٤٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه وأهريقوا على بوله سجلا من ماء ـ أو ذنوبا من ماء ـ فإنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين»(٣).

٤٢ ـ ٢ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»(٤).

٤٢ ـ ٣ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت»(٥).

---

(١) رواه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٨) (/١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ـ السعدي (٧/١٣٠).

(٣) صحيح البخاري (٢٢٠) (١/٧٦).

(٤) صحيح مسلم (١٤٧٩) (٢/٨٩٤).

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٧٥) (٣/٣٦٣).

٤٣ ـ الفتوى بغير علم:

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

٤٣ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»(١).

٤٣ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن أُفتِيَ بغير علمٍ كانَ إثمُهُ على مَن أفتَاهُ، ومن أشارَ على أخيه بأمرٍ يعلمُ أنَّ الرشدَ في غيرِه فقد خانَهُ»(٢).

٤٣ ـ ٣ ـ عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجَّه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل، فمات .فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبرَ بذلك، فقال ﷺ: «قَتَلوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، ألا سألوا إذا لم يَعلَمُوا، فإنما شفاء العِيِّ السؤالُ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر ـ أو يعصب ـ على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»(٣).

---

(١) صحيح البخاري (١٠٠) (١/٤١).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣١٠٥) (٢/٦٩٦).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣٢٥) (١/٦٨).

٤٤ ـ كتم العلم عمن يحتاجه:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ [البقرة:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران:١٨٧].

٤٤ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن علمٍ فكتمَهُ، أَلجمَهُ الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامةِ»(١).

٤٤ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه، إلا أُتي به يوم القيامة مُلجماً بلجام من نار»(٢).

٤٤ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثلُ الذي يتعلَّمُ العلمَ ثمَّ لا يحدِّثُ به، كمثلِ الذي يكنزُ الكنزَ فلا ينفقُ منه»(٣).

وهذا في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافراً يريد الإسلام يقول: علمني ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن يرى رجلاً حديث العهد بالإسلام لا يحسن الصلاة وقد حضر وقتها، يقول: علموني كيف أصلي؟ وكمن جاء مستفتياً في حلال أو حرام، يقول: أفتوني وأرشدوني، فإنه يلزم في مثل هذه الأمور أن لا يمنعوا الجواب عما سألوا عنه من العلم، فمن فعل ذلك آثماً مستحقاً للوعيد والعقوبة، وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرورة بالناس إلى معرفتها(٤).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣١٠٦) (٢/٦٩٦).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٠) (١/٤٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٧٩) (٧/١٤٠١).

(٤) معالم السنن ـ الخطابي (٤/١٧١).

٤٥ ـ مماراة الناس بالعلم وحب الظهور عليهم:

٤٥ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب العلمَ ليجاري به العلماءَ وليماري به السفهاءَ، وليصرفَ به وجوهَ الناس إليه، أدخلهُ اللهُ النارَ»(١).

٤٥ ـ ٢ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلَّموا العلمَ لتُباهوا به العلماء، ولا لِتُمَاروا به السُّفهاء، ولا تَخيَّرُوا به المجالسَ، فمن فعلَ ذلكَ فالنَّارُ النَّارُ»(٢).

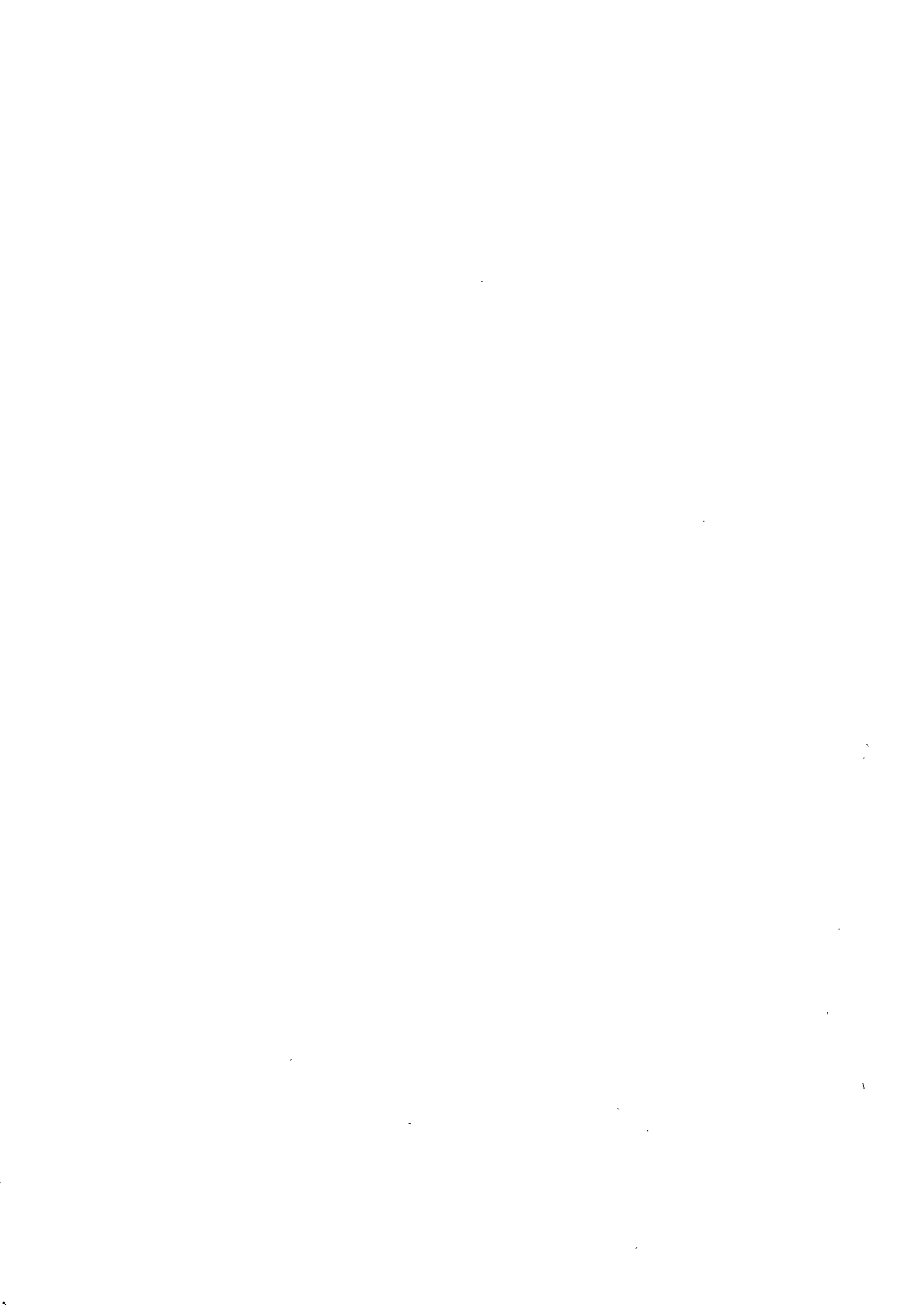
٤٥ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن تعلَّم مِمَّا يُبتغى به وجهُ الله عزَّ وجلَّ لا يتَعلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرفَ الجنَّة يوم القيامة»(٣). يعني ريحها.

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢١٣٨) (٢/٣٣٧).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٧) (١/٤٨).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣١١٢) (٢/٦٩٧).



كتاب الطهارة

٤٦ ـ البول في الماء الراكد:

٤٦ ـ ١ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: نهى ﷺ أن يبالَ في الماء الراكد(١).

٤٦ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « يبولنَّ أحدُكُم في الماء الدائمِ ثمَّ يغتسِلَ منه»(٢).

٤٦ ـ ٣ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبولنَّ أحدكُم في الماء الناقعِ»(٣).

٤٧ ـ التخلي (قضاء الحاجة) في طريق الناس أو ظلِّهم أو مواردهم:

٤٧ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا اللاعِنين». قالوا: وما اللاعِنانِ يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلَّى في طُرُقِ الناسِ أو في ظِلِّهم»(٤).

٤٧ ـ ٢ ـ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقوا الملاعنَ الثَّلاثَ؛ البرازَ في المَواردِ، وقارعةِ الطريقِ، والظِّلِّ»(٥).

٤٧ ـ ٣ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزِلوا على جوادِّ الطُّرقِ، ولا تقضوا عليها الحاجات»(٦).

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١) (١/١٩٨).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٦٣) (١/٦١).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٥) (١/٦١).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٩) (١/١٩٠).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢١) (١/٨).

(٦) صحيح سنن ابن ماجه (٣٠٤٠) (٢/٣١٢).

٤٧ ـ ٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقوا الملاعِنَ الثلاث؛ أن يقعدَ أحدكم في ظلٍّ يُستظلُّ فيه، أو في طريقٍ، أو في نقعِ ماءٍ»(١).

ومعناه: اتقوا الفعلين الجالبين للعن، وذلك أن من فعلهما لُعِنَ وشُتِم(٢).

وربما المقصود: أي اتقوا الفعلين الملعون فاعلهما، من باب إسناد الفاعل للمفعول، والمراد من الظل: الموضع الذي يستظلُّه الناس، واتخذوه محلَّ نزولهم، **وليس كلُّ ظلٍّ يحرمُ القعودُ للحاجة فيه**(٣).

٤٨ ـ القرب من الناس حين التخلي في غير بنيان:

٤٨ ـ ١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان إذا أرادَ البرازَ انطلَقَ حتى لا يراهُ أحدٌ(٤).

٤٨ ـ ٢ ـ عن أبي يعلى بن مرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا ذهب إلى الغائط أبعد(٥).

٤٨ ـ ٣ ـ عن عبد الرحمن بن أبي قُرادٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: حججت مع النبي ﷺ فذهب لحاجته فأبعد(٦).

ومعنى أبعد: أي أمعن في الذهاب(٧).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع (١١٣) (١/٨٤).

(٢) شرح السنة ـ البغوي (١/٣٨٣).

(٣) شرح السنة ـ البغوي (١/٣٨٤).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٢) (١/٤).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٦) (١/٥٩).

(٦) صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٧) (١/٦٠).

(٧) شرح السنة ـ البغوي (١/٣٧٣).

٤٩ ـ كشف العورة عند قضاء الحاجة:

٤٩ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ كان إذا أراد حاجة لا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض[١].

٤٩ ـ ٢ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تَغوَّطَ الرَّجُلان، فلْيتَوارَ كلٌّ واحدٍ منهما عن صاحبه، ولا يتحدَّثان على طَوفِهِما، فإنَّ الله يمقُتُ على ذلك»[٢].

٤٩ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخرج اثنان إلى الغائط فيجلسان يتحدثان كاشفين عن عورتهما، فإن الله يمقت على ذلك»[٣].

(١) صحيح سنن أبي داود (١١) (١/٦).

(٢) رواه جماعة، انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٢٠) (٧/٣٢١).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٥٦) (١/١٧٥).



كتاب المساجد

٥٠ ـ إقامة الحدود في المساجد:

٥٠ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُقامُ الحُدُودُ في المساجِدِ»(١).

٥٠ ـ ٢ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن إقامة الحد في المساجد(٢).

٥٠ ـ ٣ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: نهى ﷺ عن جَلدِ الحدِّ في المساجدِ(٣).

٥١ ـ إنشاد الضالة في المسجد:

٥١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمعَ رجلاً ينشدُ ضالةً في المسجد فليقل: لا ردَّها الله عليك؛ فإنَّ المساجد لم تُبنَ لهذا»(٤).

٥١ ـ ٢ ـ عن بريدةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا صلَّى قامَ رجلٌ فقال: مَن دعا إلى الجملِ الأحمرِ؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا وجَدتَ، إنَّما بُنيتَ المساجدُ لِما بُنيَت لهُ»(٥).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٠٥) (٢/٨٩)

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٠٦) (٢/٨٩)

(٣) رواه ابن ماجه، انظر: صحيح الجامع (٦٩٥٢) (٢/١١٦٨).

(٤) صحيح مسلم (٥٦٨) (١/٣٣٢).

(٥) صحيح مسلم (٥٦٩) (١/٣٣٢).

يؤخذ منه منع السُّؤَّال من الطُّوَّاف في المسجد(١).

وقد كره بعض السلف المسألة في المسجد، وكان بعضهم لا يرى أن يتصدق على السائل المعترض في المسجد(٢).

٥٢ ـ البزاق في المسجد:

٥٢ ـ ١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «البُصاقُ في المسجد خَطيئةٌ، وكفَّارتُها دفنُها»(٣).

٥٢ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل في هذا المسجد فبزقَ فيه أو تنخَّمَ فليحفر فليدفنه، فإن لم يفعل فليبزق في ثوبه ثم ليخرج به»(٤).

٥٣ ـ البيع في المسجد:

٥٣ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم من يَبيعُ أو يبتاعُ في المسجدِ، فقولوا: لا أربحَ اللهُ تجارتكَ. وإذا رأيتُم من ينشُد ضالةً، فقولوا: لا ردَّها اللهُ عليك»(٥).

٥٣ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الشراء والبيع في المسجد، وأن تُنشَدَ فيه ضالة، وأن ينشد فيه شعر، ونهى عن التحلُّق قبل الصلاة يوم الجمعة(٦).

(١) المعلم بفوائد مسلم ـ النارزي (١/٢٨٠).

(٢) معالم السنن ـ الخطابي (١/١٢٤).

(٣) صحيح مسلم (٥٥٢) (١/٣٢٦).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٥٢) (١/٩٤).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١ـ٦٦) (٢/٣٤).

(٦) صحيح سنن أبي داود (٩٥٦) (١/٢٠١).

٥٤ ـ تخريب المساجد والسعي في منع الذكر فيها:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

٥٤ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتَّخذوا المساجدَ طُرُقاً إلا لذكرٍ أو صلاةٍ»(١).

٥٥ ـ تقذير المساجد وتنجيسها:

٥٥ ـ ١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذه المساجدَ لا تصلُحُ لشيءٍ من هذا البولِ والقذرِ، إنَّما هيَ لذكرِ الله عزَّ وجلَّ والصلاةِ وقراءةِ القرآنِ»(٢).

٥٥ ـ ٢ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «عُرِضت عليَّ أعمالُ أُمتي حَسَنها وسيِّئها، فوجدتُ في محاسنِ أعمالها الأذى يُماطُ عن الطريقِ، ووجدتُ في مساوئ أعمالها؛ النُّخاعَةَ تكونُ في المسجدِ لا تُدفَنُ»(٣).

٥٦ ـ تناشد الأشعار فيها وفتنة المصلين بالانشغال بها:

٥٦ ـ ١ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن تناشد الأشعار في المساجد، وعن البيع والشراء فيه، وأن يتحلق الناس فيه يوم الجمعة قبل الصلاة(٤).

٥٦ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع، وعن تناشد الأشعار في المساجد(٥).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر في تاريخ دمشق، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٠١) (٣/٣).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٥) (١/١٩٩).
(٣) صحيح مسلم (٥٥٣) (١/٣٢٦).
(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٦٥) (١/١٠٣).
(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٦٠٧) (١/١٢٥).

٥٧ ـ جلب ما يؤذي الناس إلى المساجد :

٥٧ ـ ١ ـ عن أبي بُردَة عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال : «مَن مرَّ في شيءٍ من مساجِدنا أو أسواقنا بنبلٍ فليأخُذ على نِصالِها، لا يعقِر بكفِّه مسلماً»(١).

٥٧ ـ ٢ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : إن رجلاً مرَّ بأسهُمٍ في المسجد قد أبدى نُصُولَها، فأُمِرَ ـ الآمر رسول الله ﷺ ـ أن يأخُذَ بِنُصُولها كي لا يخدِشَ مُسلماً(٢).

٥٨ ـ حجز مكان معين في المسجد :

٥٨ ـ ١ ـ عن عبد الرحمن بن شبل ـ رضي الله عنه ـ قال : نهى ﷺ عن نقرةِ الغُرابِ، وافتراش السَّبعِ، وأن يوطِّن الرجلُ المكان في المسجد كما يوطِّن البعيرُ»(٣).

وآفة ذلك فتنة الرياء وحب محمدةَ الناس، ومن أضراره حرمان المسلمين من ذلك المكان بحجزه عنهم، وأخذه منهم من دون تَبكيرٍ له أو مبادرةٍ إليه.

٥٩ ـ الدخول إلى المسجد بالروائح الكريهة :

٥٩ ـ ١ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا، وليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته»(٤).

٥٩ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من أكل من هذه البقلة ؛ الثوم والبصل والكُرَّاث، فلا يقربنا في مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذَّى مما يتأذى منه بنو آدم»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٢) (١/١٤٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٦١٤) (٤/١٦٠٢).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٧٦٨) (١/١٦٣).

(٤) صحيح البخاري (٨٥٥) (١/٢٥٧).

(٥) صحيح مسلم (٥٦٤) (١/٣٣٠).

٥٩ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنَّ مسجدنا، ولا يؤذينا بريح الثُّوم»(١).

ومثله كلُّ رائحة كريهة يتأذى منها الناس في البدن أو الملبس.

٦٠ ـ رفع الصوت في المسجد والتشويش على المصلين:

٦٠ ـ ١ ـ عن السائب بن يزيد، قال: كنت قائماً في المسجدِ فحصَبني رجلٌ، فنظرتُ فإذا عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئتُهُ بهما، قال: من أنتُما ـ أو من أين أنتما؟ ـ قالا: مِن الطائف. قال: لو كنتما من أهلِ البلدِ لأوجَعْتُكما، ترفعانِ اصواتَكما في مسجدِ رسول الله ﷺ(٢)!

٦٠ ـ ٢ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السِّترَ وقال ﷺ: «ألا إن كلكم مُناج ربَّهُ، فلا يؤذينَّ بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة». أو قال: «في الصلاة»(٣).

٦٠ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربَّه، فلا ترفعوا أصواتكم بالقرآن فتؤذوا المؤمنين».

٦٠ ـ ٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُصلي يُناجي ربّه، فلينظر بمَ يناجيه، ولا يجهر بعضُكم على بعضٍ بالقرآن»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٥٦٣) (١/٣٢٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٠) (١/١٥١).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١١٨٣) (١/٢٤٧).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (١٩٥١) (١/٣٩٤).

٦١ ـ زخرفة المساجد بما يفتن المصلين:

٦١ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ بتشييدِ المساجدِ»(١).

٦١ ـ ٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يَتَباهى النَّاسُ في المساجدِ»(٢).

٦١ ـ ٣ ـ وعنه رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «مِن أشراطِ الساعة أن يتباهىِ الناسُ في المساجد»(٣).

٦١ ـ ٤ ـ وعنه رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ نهى أن يَتباهى الناسُ في المساجد»(٤).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لتزخرفنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ القومَ إذا زينوا مساجدهم فسدت أعمالهم.

ومر ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بالكوفة على مساجد منقوشة، فقال: من بنى هذا؟ أنفق مالَ الله في معصية الله.

وكان يقول: سيأتي بعدكم قوم يرفعون الطين ويضيعون الدين(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٣٢) (١/٩٠).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٣٢) (١/٩١).

(٣) صحيح سنن النسائي (٦٦٥) (١/١٤٨).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، انظر: صحيح الجامع (٦٨١٦) (٢/١١٥٢).

(٥) كتاب الحوادث والبدع ـ أبو بكر الطرطوشي ـ ص٧٦.

كتاب الأذان والصلاة

٦٢ ـ إخلال الإمام بصلاة المأمومين:

٦٢ ـ ١ ـ كان سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ يقدم فتيان قومه، يصلون بهم، فقيل له : تفعل ولك من القدم ما لك ؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الإمامُ ضَامنٌ، فإن أحسنَ فلهُ ولهُم، وإن أساء، يعني، فعليه ولا عليهم»[١].

٦٢ ـ ٢ ـ عن أبي علي الهمداني، أنه خرج في سفينة فيها عقبة بن عامر الجهني ـ رضي الله عنه ـ فحانت صلاة من الصلوات، فأمرناه أن يؤمنا، وقلنا له: إنك أحقنا بذلك، أنت صاحب رسول الله ﷺ . فأبى، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أمَّ الناسَ فأصابَ فالصَّلاةُ لهُ ولهُم، ومن انتَقصَ مِن ذلك شيئاً فعليه ولا عليهم»[٢].

٦٣ ـ اشتراط المؤذن الأجرة على أذانه:

٦٣ ـ ١ ـ عن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: إن من آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً[٣].

٦٣ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، اجعلني إمام قومي. قال ﷺ : «أنتَ إمامُهُم، واقتَدِ بأضعَفِهِم، واتَّخذ مُؤذناً لا يأخذُ على أذانِهِ أجراً»[٤].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٨٠١) (١/١٦١).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٨٠٢) (١/١٦٢).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٧٢) (١/٦٧).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٩٧) (١/١٠٧).

٦٤ ـ إطالة الصلاة من الإمام دون مراعاة أحوال الناس :

٦٤ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا صلَّى أحدُكُم للنَّاس فليُخَفِّف، فإنَّ فيهمُ الضَّعيفَ والسَّقيمَ والكبيرَ، وإذا صلَّى أحدُكم لنفسهِ فليُطوِّل ما شاءَ»(١).

٦٤ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رجلٌ : يا رسول الله، إنِي لأتأخَّرُ في الصلاة في الفجر ممَّا يُطيلُ بنا فلانٌ فيها. فغضبَ رسولُ الله ﷺ ما رأيتهُ غضِبَ في موضعٍ كان أشدَّ غضباً منه يومئذٍ، ثمَّ قال : «يا أيُّها الناسُ، إنَّ منكم مُنفِّرينَ، فمن أمَّ الناسَ فليتجوَّز، فإنَّ خلفَهُ الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ»(٢).

٦٤ ـ ٣ ـ عن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ قال : كان آخر ما عهِد إليَّ النبي ﷺ حين أمَّرني على الطائف، قال لي : «يا عثمان، تجاوز في الصلاةِ واقدُرِ الناسَ بأضعفِهِم، فإنَّ فيهمُ الكبيرَ والصَّغيرَ والسقيمَ والبعيدَ وذا الحاجةِ»(٣).

٦٥ ـ إمامة الزائر لقوم دون إذنهم :

٦٥ ـ ١ ـ عن مالك بن الحويرث ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَن زارَ قوماً فلا يؤمَّهُم، وليَؤمَّهُم رجلٌ مِنهُم»(٤).

٦٥ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا زارَ أحدُكُم قوما فلا يُصلِّيَنَّ بِهم»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٧٠٣) (١/٢١٤).

(٢) صحيح البخاري (٧٠٤) (١/٢١٤).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٨٠٦) (١/١٦٢).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٥٥٦) (١/١١٨).

(٥) صحيح سنن النسائي (٧٥٩) (١/١٧٠).

٦٦ ـ إمامة قوم وهم له كارهون لعيب فيه:

٦٦ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يقبلُ الله منهم صلاة؛ مَن تقدَّمَ قوما وهُم لهُ كارهونَ»(١).

٦٦ ـ ٢ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا تُجاوزُ صلاتُهم آذانَهُم؛ العبدُ الآبقُ حتَّى يرجعَ، وامرأة باتت وزوجُها عليها ساخط، وإمامُ قومٍ وهم له كارهون»(٢).

يكون هذا الوعيد في الرجل ليس من أهل الإمامة فيقتحم فيها ويتغلب عليها حتى يكره الناس إمامته(٣).

٦٧ ـ تضييع المؤذن لأمانة الأذان للصلاة:

٦٧ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإمامُ ضامنٌ والمُؤذِّنُ مُؤتَمنٌ، اللهمَّ أرشد الأئمةَ، واغفر للمؤذِّنينَ»(٤).

٦٧ ـ ٢ ـ عن ابن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خيارَ عِباد الله الذينَ يرعُونَ الشمسَ والقمرَ والنُّجومَ والأَظلّة لذكرِ الله عزَّ وجلَّ»(٥).

٦٧ ـ ٣ ـ عن أبي محذورة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمناءُ المسلمينَ على صلاتهم وسُحورِهم المؤذنونَ»(٦).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٥٥٤) (١/١١٨).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٩٥) (١/١١٣).

(٣) معالم السنن ـ الخطابي (١/١٤٦).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٧٠) (١/٦٧).

(٥) أخرجه ابن شاهين في الأفراد والبزار في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٤٠) (٧/١٢٩٩).

(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، انظر: صحيح الجامع (١٤٠٣) (١/٢٩٧).

٦٨ ـ تقحم الإمامة والخطابة ممن ليس من أهلها :

٦٨ ـ ١ ـ عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً خطَبَ عند النبيِّ ﷺ فقال: مَن يُطعِ اللهَ ورسُولَه فقد رشَدَ، ومَن يَعصهما فقد غَوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئسَ الخطيبُ أنتَ، قُل: ومَن يَعصِ اللهَ ورسُولَهُ»(١).

٦٨ ـ ٢ ـ عن أبي سهلة السائب بن خلاَّد ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أمَّ قوماً فبصق في القبلة، ورسول الله ﷺ ينظر، فقال رسول الله ﷺ حين فرغ: «لا يُصلِّي لكم». فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم فمنعوه، وأخبروه بقول رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «نَعَم، إنَّك آذيتَ اللهَ ورسوله»(٢).

٦٩ ـ دعاء الإمام لنفسه دون المصلين:

٦٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لرجلٍ يُؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ أن يُصلِّيَ وهو حقنٌ حتى يَتَخفَّفَ، ولا يحلُّ لرجلٍ يُؤمنُ بالله واليوم الآخرِ أن يَؤمَّ قوماً إلا بإذنِهم، ولا يختَصُّ نفسَهُ بدعوةٍ دُونَهُم، فإن فعلَ فقد خَانَهُم»(٣).

٦٩ ـ ٢ ـ عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ لامرئ أن ينظرَ جوف بيتِ امرئ حتى يستأذنَ، فإن نظرَ فقد دخلَ، ولا يَؤمُّ قوماً فيخُصُّ نفسَه بدعوةٍ دونهم، فإن فعلَ فقد خانهم، ولا يقومُ إلى الصلاة وهو حقن»(٤).

٧٠ ـ قطع الصفوف في الصلاة:

٧٠ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم،

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٠) (٢/٤٩٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٥٦) (١/٩٥).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٨٢) (١/٢٠).

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٩٣) (١/١١٣).

ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفا وصله الله، و من قطع صفا قطعه الله »(١).

٧٠ - ٢ - وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن وصَلَ صفّاً وصَلَهُ الله، ومن قطعَ صفًّا قَطَعَهُ الله عزَّ وجلَّ »(٢).

٧١ - المرور بين يدي المصلي:

٧١ - ١ - عن أبي جهيم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « لو يعلمُ المارُّ بين يدي المصلِّي ماذا عليه، لكان أن يقفَ أربعينَ خيراً له من أن يمُرَّ بين يديهِ »(٣).

(١) صحيح سنن أبي داود (٦٢٠) (١/١٣١).

(٢) صحيح سنن النسائي (٧٨٩) (١/١٧٧).

(٣) صحيح البخاري (٥١٠) (١/١٦١).



كتاب الجمعة

٧٢ ـ إشغال الناس عن سماع الخطبة باللغو وغيره :

٧٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قُلتَ لِصاحِبِكَ: أنصت يومَ الجمعةِ والإمامُ يَخطُبُ، فقد لغوتَ»(١).

٧٢ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يَحضرُ الجُمعةَ ثلاثةُ نفرٍ؛ رجلٌ حضرَها يلغُو، وهو حظُّهُ منها، ورجلٌ حضرها يدعُو، فهو رجلٌ دعَا اللهَ عزَّ وجلَّ، إن شاء أعطاهُ وإن شاء منَعه، ورجلٌ حضرها بإنصاتٍ وسُكوتٍ ولم يتَخطَّ رقبةَ مُسلمٍ، ولم يُؤذِ أحداً، فهي كفَّارةٌ إلى الجمعة التي تليها وزيادةُ ثلاثةِ أيَّامٍ، وذلك بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: **﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾** [الأنعام: ١٦٠](٢).

٧٢ ـ ٣ ـ عن أوس بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مَن غَسَّلَ واغتَسلَ، وغدا وابتَكرَ، ودنا من الإمامِ، ولم يلغُ، كان لهُ بكلِّ خُطوةٍ عملُ سنةٍ؛ صيامُها وقيامُها»(٣).

٧٣ ـ إطالة الخطبة دون حاجة من الخطيب وتقصير الصلاة:

٧٣ ـ ١ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٨٥١) (٢/٤٨٨).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٩٨٤) (١/٢٠٧).

(٣) صحيح سنن النسائي (١٣٠٨) (١/٢٩٩).

(٤) صحيح البخاري (٦٤١١) (٧/٢١٧).

٧٣ - ٢ - عن أبي اليقظان عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ طُولَ صلاةِ الرَّجلِ وقصرَ خُطبتهِ مئِنَّةٌ من فِقهه، فأطيلوا الصَّلاةَ وأقصِروا الخُطبةَ، وإنَّ من البيانِ سحراً»(١).

٧٣ - ٣ - عن عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - قال: أمرنا رسول الله ﷺ بإقصار الخطب(٢).

٧٣ - ٤ - عن جابر بن سمرة السوائي - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ لا يطيلُ الموعظة يوم الجمعة، إنما هُنَّ كلمات يسيرات(٣).

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: لا تبغضوا الله إلى عباده. فقيل: كيف ذلك أصلحك الله؟ قال: يجلس أحدكم قاصًّا - أي واعظاً - فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه، ويقوم أحدكم إماماً فيطول على الناس حتى يبغِّض إليهم ما هم فيه(٤).

٧٤ - انبعاث الرائحة الكريهة منه دون اغتسال لها:

٧٤ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كان الناسُ ينتابُونَ الجُمعةَ من منازلهم من العوالي، فيأتونَ في العباء، ويصيبهُم الغبارُ، فتخرجُ منهُمُ الريحُ، فأَتَى رسولَ اللهِ ﷺ إنسانٌ منهم وهو عندي، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو أنَّكُم تطَهَّرتُم ليومِكُم هذا؟!»(٥).

٧٤ - ٢ - عن القاسم بن محمد بن أبي بكر، أنهم ذكروا غسل الجمعة عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: إنما كان الناس يسكنون العالية فيحضرون الجمعة

(١) صحيح مسلم (٨٦٩) (٢/٤٩٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٩٧٨) (١/٢٠٦).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٩٧٩) (١/٢٠٦).

(٤) الآداب الشرعية - ابن مفلح (٢/٩٩).

(٥) صحيح مسلم (٨٤٧) (٢/٤٨٦).

وبهم وسخ، فإذا أصابهم الرَّوح سطعت أرواحهم فيتأذى بها الناس، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «أَولاَ يغتَسِلُونَ!»(١).

٧٤ - ٣ - عن جابر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «على كلِّ رجُلٍ مُسلمٍ في كُلِّ سبعةِ أيَّامٍ غُسلُ يوم وهو يومُ الجمعةِ»(٢).

٧٤ - ٤ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا يومُ عيدٍ جعله الله للمسلمين، فمن جاءَ إلى الجمعةِ فليغتَسل، وإن كان طيبٌ فليَمسَّ منهُ، وعليكم بالسِّواكِ»(٣).

٧٥ - تخطي الرقاب يوم الجمعة:

٧٥ - ١ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من اغتسلَ يومَ الجمعة، ومسَّ من طيب امرأته إن كان لها، ولبِسَ من صالحِ ثيابه، ثم لم يَتَخَطَّ رقابَ الناس، ولم يَلغُ عند الموعِظةِ، كان كفارةً لما بينهما، ومن لغا وتخطى رقابَ الناسِ كانت له ظهراً»(٤).

٧٥ - ٢ - عن عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - قال: كنتُ جالساً إلى جانبه يوم الجمعة، فقال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أي اجلس فقد آذيت وآنيت»(٥).

٧٥ - ٣ - عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكل متَّكئاً ولا على غِربالٍ، ولا تتخذنَّ من المسجد مصلىً لا تصلِّي إلا فيه، ولا تَخَطَّ رقابَ الناس يوم الجُمعَةِ، فيجعلَكَ الله لهم جِسراً يوم القيامةِ»(٦).

---

(١) صحيح سنن النسائي (١٣٠٦) (١/٢٩٨).

(٢) صحيح سنن النسائي (١٣٠٥) (١/٢٩٨).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٩٠١) (١/١٨١).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٣٣٥) (١/٧١).

(٥) صحيح سنن النسائي (١٣٢٦) (١/٣٠٢).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٢٢) (٧/٣٢٦).

٧٦ـ التفريق بين اثنين يوم الجمعة:

٧٦ـ ١ ـ عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن اغتسلَ يومَ الجمعةِ، وتطَّهر بما استطاع من طُهرٍ، ثمَّ ادَّهنَ أو مسَّ من طيبٍ، ثم راحَ فلم يفرِّق بين اثنين، فصلَّى ما كُتِبَ له، ثم إذا خرجَ الإمامُ أنصتَ، غُفرَ له ما بينه وبين الجمعةِ الأخرى»(١).

٧٧ـ الحضور للجمعة بلباس المهنة المتَّسخة:

قال تعالى: ﴿.. خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..﴾ [الأعراف: ٣١].

٧٧ـ ١ ـ عن محمد بن يحيى بن حبان، أن رسول الله ﷺ قال: «ما علَى أحدِكُم إنِ وَجَدتُم أن يَتَّخِذَ ثوبينِ ليومِ الجُمعةِ سوى ثوبي مِهنَتِه؟»(٢).

٧٧ـ ٢ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «من اغتَسَلَ يومَ الجمعةِ فأحسنَ غُسله، وتطهَّر فأحسنَ طُهُوره، ولبسَ من أحسنِ ثيابِه، ومسَّ ما كتبَ الله لهُ من طيب أهله، ثم أتى الجُمعةَ، ولم يلغُ، ولم يُفرِّق بين اثنين، غُفرَ لهُ ما بينهُ وبين الجمعةِ الأخرى»(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٩١٠) (١/٢٧٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٩٥٣) (١/٢٠١).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٩٠٠) (١/١٨١).

كتاب الجنائز

٧٨ ـ الجلوس على القبر :

٧٨ ـ ١ ـ عن أبي مرثد الغنوي ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَجلِسُوا على القُبُورِ ولا تُصلُّوا إليها »(١) .

٧٨ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر »(٢) .

٧٩ ـ سب الأموات :

٧٩ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكم فدعوهُ لا تقَعُوا فيه »(٣) .

٧٩ ـ ٢ ـ عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء »(٤) .

٧٩ ـ ٣ ـ عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال : نهى ﷺ عن سبِّ الأمواتِ(٥) .

٧٩ ـ ٤ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تذكروا هالككم إلا بخير »(٦) .

---

(١) صحيح مسلم (٩٧٢) (٢/٥٥٦).

(٢) صحيح مسلم (٩٧١) (٢/٥٥٦).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٩٦٠) (٣/٩٢٦).

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢/١٩٠) (١٦١٤).

(٥) أخرجه الحاكم ، انظر : السلسلة الصحيحة (٢٣٩٧) (٥/٥٢٠).

(٦) صحيح سنن النسائي (١٨٢٧) (٢/٤١٧).

٧٩ ـ ٥ ـ وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضَوا إلى ما قدَّموا»(١).

٨٠ ـ قضاء الحاجة على القبور:

٨٠ ـ ١ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أمشيَ على جمرةٍ أو سيفٍ، أو أخصِفَ نَعلي بِرِجلي، أحبُّ إليَّ مِن أن أمشيَ على قبر مُسلمٍ، وما أُبالي أوَسطَ القبور قضيتُ حاجتي أو وسطَ السُّوقِ»(٢).

٨١ ـ كسر عظم الميت:

٨١ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «كسرُ عَظمِ الميِّتِ ككسرِهِ حيًّا»(٣).

فحرمة المسلم ميتاً كحرمته حياً، فلا يجوز إيذاؤه في جسده ولا التعدي عليه في بدنه.

٨٢ ـ المشي على القبور بالنعل:

٨٢ ـ ١ ـ عن بشير بن الخصاصية مولى رسول الله ﷺ، أنَّ النبي ﷺ رأى رجلاً يمشي بين القبور في نعلين، فقال: «يا صاحِبَ السِّبتيَّتَينِ اخلَع سِبتيَّتيكَ»(٤).

٨٢ ـ ٢ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أمشيَ على جمرةٍ أو سيفٍ، أو أخصفَ نعلي برجلي، أحبُّ إليَّ مِن أن أمشيَ على قبر مُسلمٍ»(٥).

---

(١) صحيح سنن النسائي (١٨٢٨) (٢/٤١٧).
(٢) صحيح سنن ابن ماجه (١٢٧٧٣) (١/٢٦١).
(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١٣١٠) (١/٢٦٩).
(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٢٧٤) (١/٢٦١).
(٥) صحيح سنن ابن ماجه (١٢٧٣) (١/٢٦١).

٨٣ - نبش قبور الموتى :

٨٣ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : إن رسول الله ﷺ لعنَ المُختَفي والمُختَفية[١].

والمختفي هو نبَّاش القبور[٢] وهو من الاختفاء، الاستخراج أو من الاستتار؛ لأنه يسرق في خفية.

٨٤ - نشر ما يظهر من سوء على بدن الميت من غاسله :

٨٤ - ١ - عن أبي رافع - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «من غسل مسلماً فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة، ومن حفر له فأجنّه أجرى عليه كأجر مسكن أسكنه إياه إلى يوم القيامة، ومن كفنه كساه الله يوم القيامة من سندس وإستبرق الجنة»[٣].

٨٤ - ٢ - عن أبي أمامه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «من غسل ميتًا فستره، ستره الله من الذنوب، ومن كفنه كساه الله من السندس»[٤].

---

(١) أخرجه البيهقي ، انظر : السلسلة الصحيحة (٢١٤٨) (٥/١٨١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير (٢/٥٦).

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي ، انظر : أحكام الجنائز ، للألباني ص ٥١ رقم ٣٠.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ، انظر : السلسلة الصحيحة (٢٣٥٣) (٥/٤٦٧).

كتاب الزكاة والصدقة

٨٥ ـ أخذ ولي أمر المسلمين كرائم أموالهم في الزكاة :

٨٥ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لَمَّا بعثَ رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له فيما قال: « ... فأخبرهم أنَّ الله قد فرضَ عليهم زكاةً تُؤخذُ مِن أموالهم وتُردُّ على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخُذ منهم، وتَوَقَّ كرائمَ أموالِ الناس »(١).

والمراد نفائس الأموال من أي صنف كان(٢).

٨٦ ـ إعطاء المحتاجين ما لا ينفع :

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾**

[البقرة:٢٧٦]

وقال تعالى: **﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾** [آل عمران:٩٣].

٨٦ ـ ١ ـ عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ ـ وبيده عصا، وقد علَّقَ رجل قُنوَ حَشف، فجعل يطعن في ذلك القنو، فقال: « لو شاء ربُّ هذه الصدقةِ تصدَّقَ بأطيبَ مِن هذا، إنَّ ربَّ هذه الصدقةِ يأكُلُ حشفاً يوم القيامة »(٣).

---

(١) صحيح البخاري (١٤٥٨) (١/٣٠٢).

(٢) فتح الباري ـ ابن حجر (٣/٣٢٣).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١٤١٨) (١/٣٠٢).

٨٦ - ٢ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُطعِموا المساكينَ مما لا تأكلون»(١).

٨٧ - الحض على عدم إطعام المسكين:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [الحديد:٢٤]، [النساء:٣٧].

وآفته؛ أنه لا يبخل بماله فقط، بل إنه ليبخل بمال غيره كذلك، فإذا رأى من سيتصدق في وجوه الخير، فتَّ في عضديه، وبخَّلهُ وبكَّتَهُ، واختلق له المعاذير واصطنع له الحيل، وخوَّفه الفاقة والإملاق، حتى يدع البذل والإنفاق.

٨٨ - الطعن في نيَّات المتصدِّقين:

٨٨ - ١ - عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: أُمرنا بالصدقة، قال. كُنَّا نُحاملُ. قال: فتَصدَّقَ أبو عقيلٍ بنصفِ صاعٍ، قال: وجاء إنسانٌ بشيءٍ أكثر منه. فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعلَ هذا الآخرُ إلا رياءً. فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ...﴾ [التوبة:٧٩](٢).

٨٩ - المن بالعطية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى...﴾

[البقرة:٢٦٤]

وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٢٦) (٥/٥٥٢).

(٢) صحيح مسلم (١٠١٨) (٢/٥٨٥).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ...﴾ [البقرة:٢٦٢].

٨٩ ـ ١ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم». قال: فقرأها رسول الله ثلاث مرات. قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «المنَّانُ، و المُسبلُ إزارَهُ، والمنفقُ سلعتَهُ بالحلف الكاذب»(١).

٨٩ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنة منانٌ، ولا عاقٌ، ولا مدمنُ خمر»(٢).

٩٠ ـ منع الإعارة:

قال تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٧].

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك.

وقال عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: أعلاها الزكاة المعروفة، وأدناها عارية المتاع(٣).

٩١ ـ منع الزكاة عن أهلها:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤، ٣٥].

٩١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاه اللهُ مالاً فلم يؤدِّ زكاتَه، مُثِّل له مالُه يومَ القيامةِ شُجاعاً أقرعَ له زبيبتان، يطوِّقُه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزِمتيه، يعني شدقيه، ثم يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزكَ». ثم تلا

(١) صحيح مسلم (١٠٦) (١/٩٦).

(٢) صحيح سنن النسائي (٥٢٤١) (١/١١٤٨).

(٣) معالم التنزيل ـ البغوي (٤١/٥٣٢) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»(١).

٩١ - ٢ - عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجلٍ يكونُ له إبلٌ أو بقرٌ أو غنمٌ لا يُؤدِّي حقَّها، إلا أُتي بها يومَ القيامة أعظمَ ما يكونُ وأسمنَه، تطأه بأخفافها، وتنطحُه بقرونها، كلما جازت أخراها رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضى بين الناسِ»(٢).

٩١ - ٣ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ قلوبُهم قلوبُ الأعاجم، حب الدنيا سُنَّتُهم سُنَّةُ الأعراب، ما آتاهم من رزقٍ جعلوه في الحيوان، يرونَ الجهاد ضرراً، والزكاةَ مَغرماً»(٣).

٩١ - ٤ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مانع الزكاة يوم القيامة في النار»(٤).

٩٢ - منع الفضل عن الجار وغيره:

٩٢ - ١ - عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنَّك أن تَبذُلَ الفضلَ خيرٌ لك، وإن تُمسكهُ شرٌّ لكَ، ولا تُلامُ على كفافٍ، وابدأ بمن تعُولُ، واليد العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (١٤٠٣) (٢/٤٣٠)

(٢) صحيح مسلم (٩٨٧) (٢/٥٦٦).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٥٧) (٧-٢/١٠٧٥).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الجامع (٥٨٠٧) (٢/١٠١١).

(٥) صحيح مسلم (١٠٣٦) (٢/٥٩٢).

٩٢ ـ ٢ ـ عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من جارٍ متعلِّقٍ بجاره، يقول: يا رب سل هذا لمَ أغلق عنِّي بابَه ومنعني فضلَهُ؟»(١).

٩٣ ـ منع فضل الماء أو الكلأ:

قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ**﴾ [الملك: ٣٠]

٩٣ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يومَ القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ رجلٌ كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجلٌ بايع إمامه لا يُبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي وإن لم يُعطه منها سخط، ورجلٌ أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجلٌ. ثم قرأ: ﴿**إن الذين يشترون بعهد او وأيمانهم ثمناً قليلاً**﴾(٢) زاد في رواية: «يقول الله له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضلَ ما لم تعمل يداك»(٣).

ومعناه: أن أصحاب الماشية إذا مُنعوا الماء لم يردوا عليه، وإذا لم يردوا عليه امتنعوا من رعي ما حوله لعدم الشرب، فيكون منعه الماء قصداً لمنع الكلأ الذي لا حق له فيه إضراراً بالمسلمين ومنعاً لهم من حقوقهم، وذلك غير جائز(٤).

٩٣ ـ ٢ ـ عن رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون شركاء في ثلاثٍ؛ في الكلأ والماء والنار»(٥).

---

(١) صحيح الأدب المفرد ـ ص ٦٧ رقم ٨١.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٥٨) (٣/١٠٧).

(٣) صحيح البخاري (٢٣٦٩) (٣/١١١).

(٤) المعلم بفوائد مسلم ـ المازري (٢/١٩٠).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢٩٦٨) (٢/٦٦٥).

٩٣ - ٣ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُمنعُ فضلُ الماء ولا يُمنَعُ نقعُ البئر»[١]. ونقع البئر أي فضل مائها.

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠١٠) (٢/٦٥).

كتاب الأموال

٩٤ ـ الأثرة وحب امتلاك الأشياء دون الناس:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

٩٤ ـ ١ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُم ستَرونَ بعدي أثرةً وأُموراً تُنكِرونَها». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «أدُّوا حقَّهُم، واسألُوا الله الذي لَكُم»(١).

٩٤ ـ ٢ ـ عن أسيد بن حضير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُم ستَرَونَ بعدي أثرة فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض»(٢).

٩٥ ـ أخذ أرض الغير بغير حق:

٩٥ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقِّهِ، خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين»(٣).

٩٥ ـ ٢ ـ عن أبي أمامة الحارثي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتطعَ أرضاً ظالماً، لقيَ الله وهو عليه غضبان»(٤).

٩٥ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً ظلماً، جاء يوم القيامة يحملُ تُرابها إلى المحشر»(٥).

(١) صحيح البخاري (٧٠٥٢) (٨/٤٢٢).

(٢) صحيح مسلم (١٨٤٥) (٣/١١٧١).

(٣) صحيح البخاري (٢٤٥٤) (٣/١٤١).

(٤) صحيح مسلم (١٣٩) (١/١١٤).

(٥) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٢) (١/٤٢٢).

٩٥ ـ ٤ ـ عن يعلي بن مرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما رجل ظلم شبراً من الأرض كلفه الله عزَّ وجلَّ أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين، ثم يطوقه إلى يوم القيامة حتى يقضى بين الناس»(١).

٩٥ ـ ٥ ـ عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «أعظمُ الغُلولِ عندَ الله عزَّ وجلَّ ذراعٌ من الأرضِ، تجدونَ الرجلين جارينِ في الأرضِ أو في الدارِ، فيقتطعُ أحدُهُما من حظِّ صاحِبِهِ ذراعاً، إذا اقتَطَعَهُ؛ طُوِّقَهُ من سبعِ أرضِينَ»(٢).

ولا فرق بين أن يغصب ذلك من حق مسلم معين أو مما هو مشترك بين الناس كالطرق ونحوها(٣).

قلت: بل يكثر الخصماء والغرماء يوم القيامة!

٩٦ ـ أخذ شيء من المال المشاع (المشترك):

قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

٩٦ ـ ١ ـ عن عدي بن عميرة الكندي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعملناهُ منكم على عملٍ، فكتمنا مِخيطاً فما فوقهُ، كان ذلك غُلولاً يأتي به يوم القيامة» فقام إليه رجلٌ أسودٌ، من الأنصار. كأنِّي أنظرُ إليه، فقال: يا رسول الله! اقبل عنِّي عمَلَك. قال ﷺ: «وما لك؟» قال: سمعتُكَ تقولُ كذا وكذا. قال ﷺ: «وأنا أقولُهُ الآنَ؛ من استعملناه منكم على عملٍ، فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتيَ منه أخذ، وما نُهيَ عنه انتهى»(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه وأحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٠) (١/٤٢٩).

(٢) رواه أحمد في المسند والطبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٦٩) (٢/٣٨٠).

(٣) تنبيه الغافلين ـ السمرقندي ـ ص ٢٥٥.

(٤) صحيح مسلم (١٨٣٣) (٣/١١٦٤).

٩٦ - ٢ - عن عدي بن عميرة الكندي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعملناهُ منكم على عملٍ، فكتمنا مخيطاً فما فوقَهُ، كان غُلولاً يأتي به يوم القيامة»(١).

٩٦ - ٣ - عن بريدة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ استعملناه على عملٍ فرَزقناه رزقاً فما أخذَ بعدَ ذلكَ، فهو غُلُولٌ»(٢).

٩٦ - ٤ - عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أدُّوا الخيطَ، والمخيط، فما فوقُ ذلك، فما دُون ذلك، فإن الغُلول عارٌ على أهله يوم القيامة وشنار، ونارٌ»(٣).

٩٧ - أخذ مال المسلم بغير إذنه:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٦٠، ١٦١].

٩٧ - ١ - عن حذيفة الرقاشي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلم إلا بطيبِ نفسٍ منه»(٤).

٩٧ - ٢ - عن أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لمسلم أن يأخذ عصا بغير طيب نفس منه»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٨٣٣) (٣/١١٦٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٥٥٠) (٢/٥٦٨).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٠٠) (٢/١٣٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند والدار قطني والبيهقي، انظر: إرواء الغليل (١٤٥٩) (٥/٢٧٩).

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه، انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام - للألباني - ص٢٦٢ رقم (٤٥٦).

٩٧ - ٣ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «حرمة مال الإنسان كحرمة دمه»(١).

٩٧ - ٤ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليسَ شيء يقربُكم إلى الجنة إلا قد أمرتُكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتُكم عنه، إن روحَ القدس نفث في روعي: أن نفساً لا تموتُ حتى تستكملَ رزقَها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّكم استبطاءُ الرزقِ أن تطلبوه بمعاصي اللهِ، فإن الله لا يُدرَكُ ما عنده إلا بطاعته»(٢).

٩٨ - أخذ متاع المسلم بدون علمه:

٩٨ - ١ - عن يزيد بن سعيد - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يأخذ أحدكم متاع صاحبه لاعباً ولا جاداً، فإذا أخذ أحدكم عصا صاحبه، فليردها إليه»(٣).

سواءً كان ذلك مازحاً أو جاداً، لما يترتب عليه من إيغار الصدور، وإيقاد العداوات، وبث الخصومات، ومعظم النار من مستصغر الشرر!

٩٩ - استقراض المال دون نية الإرجاع:

٩٩ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ أموالَ الناسِ يُريدُ أداءَها، أدَّ الله عنه، ومن أخذها يُريدُ إتلافها أتلفهُ الله»(٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، انظر: غاية المرام - ص٢٠٤ رقم (٣٦٣).

(٢) رواه أبو بكر الحداد في المنتخب وابن مردوية في (ثلاثة مجالس)، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦) (٦-٢/٨٦٥).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٧٥٤) (٢/٢٣١).

(٤) صحيح البخاري (٢٣٨٧) (٣/١١٦).

٩٩ ـ ٢ ـ عن محمد بن جحش، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرفع رأسه إلى السماء، ثم وضع راحته على جبهته، ثم قال: «سبحان الله! ماذا نُزِّلَ من التشديد» فسكتنا وفزعنا، فلما كان من الغد سألته: يا رسول الله! ما هذا التشديد الذي نُزِّل؟ قال ﷺ: «والذي نفسي بيده! لو أنَّ رجُلاً قُتلَ في سبيل الله، ثُمَّ أحييَ، ثُمَّ قُتل، ثم أحييَ، ثم قُتل، وعليه دينٌ، ما دخلَ الجنَّةَ حتى يُقضَى عنهُ دَينُهُ»(١).

٩٩ ـ ٣ ـ عن صهيب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما رجل تديَّن ديناً، وهو مجمعٌ أن لا يوفِّيَهُ إياهُ لقيَ الله سارقاً»(٢).

٩٩ ـ ٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «نفسُ المؤمنِ مُعلَّقةٌ بدينه، حتى يُقضى عنه»(٣).

١٠٠ ـ إعطاء السفهاء الأموال:

قال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٥].

١٠٠ ـ ١ ـ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ يدعُون فلا يُستجاب لهم: رجلٌ كانت تحته امرأةٌ سيئة الخُلقِ فلم يُطلِّقها، ورجلٌ كان له على رجل مال فلم يُشهد عليه، ورجل آتى سفيهاً مالَه وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾»(٤).

---

(١) صحيح سنن النسائي (٤٣٦٧) (٣/٩٦٩).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (١٩٥٤) (٢/٥٢).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١٩٥٧) (٢/٥٣).

(٤) رواه ابن شاذان في المشيخة الصغرى والحاكم، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٠٥) (٤/٤٢٠).

١٠١ ـ أكل أموال الناس بالربا :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨، ٢٧٩] .

وقال تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦] .

١٠١ ـ ١ ـ عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «لعنَ رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكلهُ، وكاتبهُ، وشاهديه» . وقال : «هم سواء»(١) .

١٠١ ـ ٢ ـ عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إيَّاك والذنوبَ التي لا تُغفرُ، (وفي رواية : وما لا كفَّارة من الذنوبِ)، فمن غَلَّ شيئاً أُتيَ به يوم القيامة، وآكل الربا؛ فمن أكلَ الرِّبا بُعثَ يومَ القيامة مجنوناً يتخبطُ، ثم قرأ : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] »(٢) .

١٠١ ـ ٣ ـ عن عبد الله بن حنظلة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «دِرهمُ رباً يأكلهُ الرجُلُ، وهوَ يعلمُ، أشدُّ عندَ اللهِ من ستَّةٍ وثلاثينَ زنيةً»(٣) .

١٠١ ـ ٤ ـ عن عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أبوابَ الرِّبا اثنان وسبعُون حُوباً (٤)، أدناهُ كالذي يأتي أُمَّهُ في الإسلام»(٥) .

---

(١) صحيح مسلم (١٥٩٨) (٣/٩٨٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير والخطيب في التاريخ ، انظر : السلسلة الصحيحة (٣٣١٣) (٧-٢/٩١٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط والدار قطني ، انظر : السلسلة الصحيحة (١٠٣٣) (٣/٢٩).

(٤) أي ؛ سبعون ضرباً من الإثم .انظر : النهاية (١/٤٥٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ، انظر : صحيح الجامع (١٥٣١) (١/٣١٩).

١٠٢ ـ أكل أموال الناس بالميسر والقمار:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا...﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

١٠٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حلفَ، فقال في حلفه: واللَّاتِ والعُزَّى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لِصاحبه: تعالَ أقامركَ، فليَتَصدَّق»(١).

١٠٣ ـ تبذير مال اليتيم من كافله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...﴾

[الأنعام:١٥٢]

١٠٣ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السَّبعَ الموبقات». قالوا يا رسول الله! وما هُنَّ؟ قال: «الشِّركُ بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّمَ الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتَّولي يومَ الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافلات»(٢).

١٠٣ ـ ٢ ـ عن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل من مال يتيمك غير مُسرفٍ، ولا مبادرٍ، ولا مُتأثِّلٍ»(٣).

(١) صحيح البخاري (٤٨٦٠) (٦/٣٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٢٧٦٦) (٣/٢٦٤).

(٣) صحيح سنن النسائي (٣٤٢٩) (٢/٧٧٩).

١٠٣ - ٣ - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: لا أجد شيئاً، وليس لي مال، ولي يتيم له مال، قال ﷺ: «كُل مِن مالِ يتيمِكَ، غير مُسرفٍ ولا مُتأثِّلٍ مالاً، ولا تقي مالَكَ بمالِهِ»(١).

١٠٣ - ٤ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ! إنِّي أُحرِّجُ حقَّ الضَّعيفينِ؛ اليتيم والمرأةِ»(٢).

١٠٤ - التصرف في أموال الله بغير حق وحرمان أهلها منها:

١٠٤ - ١ - عن خولة بنت عامر الأنصارية - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ رجالاً يتخوَّضون في مال الله بغير حقٍّ، فلهم النار يوم القيامة»(٣).

١٠٤ - ٢ - وعن أبي الوليد، قال: سمعت خولة بنت قيس - وكانت تحت حمزة بن عبد المطلب - تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوة، من أصابَهُ بحقِّه بُورِكَ لهُ فيه، ورُبَّ مُتخوِّضٍ فيما شاءت به نفسهُ مِن مالِ الله ورسولِهِ، ليسَ له يومَ القيامةِ إلاَّ النَّارُ»(٤).

١٠٤ - ٣ - عن المستورد بن شداد - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من كان لنا عامِلاً فليكتَسِب زوجةً؛ فإن لم يكن لهُ خادمٌ فليكتَسِب خادِماً، فإن لم يكن له مسكنٌ فليكتَسِب مسكناً، من اتَّخذَ غيرَ ذلك فهو غالٌّ أو سارقٌ»(٥).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٩٨) (٢/١١٣).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٦٧) (٢/٢٩٨).

(٣) صحيح البخاري (٣١١٨) (٣/٣٨٠).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٩٣٤) (٢/٢٨٠).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢٥٥٢) (٢/٥٧٨).

١٠٥ ـ تغيير منار الأرض:

١٠٥ ـ ١ ـ عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنَ اللهُ من لعن والديه، ولعن اللهُ من ذبح لغير الله، ولعن اللهُ من آوى مُحدثاً، ولعن اللهُ من غيَّر منارَ الأرضِ»(١).

١٠٥ ـ ٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعونٌ من سبَّ أباهُ، ملعونٌ من سبَّ أمَّهُ، ملعونٌ من ذبَحَ لغير الله، ملعونٌ من غيَّرَ تُخومَ الأرضِ، ملعونٌ من كمَّهَ أعمى عن طريقٍ، ملعونٌ من وقعَ على بهيمةٍ، ملعونٌ من عمِلَ بعمل قومِ لوطٍ»(٢).

١٠٦ ـ الرشوة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

١٠٦ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: عن رسول الله ﷺ الرَّاشيَ والمُرتَشيَ»(٣).

١٠٧ ـ ردُّ المال الذي يأتي من غير مسألة ولا إشراف نفس:

١٠٧ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أن رسولَ الله ﷺ كان يُعطي عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ العطاءَ، فيقولُ لهُ عُمرُ: أعطِهِ، يا رسولَ الله! أفقرُ إليه منِّي. فقال لهُ رسولُ الله ﷺ: «خُذهُ فتَموَّلهُ أو تصدَّق به، وما جاءكَ من هذا المالِ وأنت غيرُ مُشرفٍ ولا سائلٍ، فخذه، وما لا، فلا تُتبِعهُ نَفسَكَ»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (١٩٧٨) (٣/١٢٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع (٥٨٩١) (٢/١٠٢٤).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٠٧٣) (٢/٣٦).

(٤) صحيح مسلم (١٠٤٥) (٢/٥٩٧).

١٠٨ ـ سؤال الناس أموالهم من غير حاجة:

١٠٨ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتَطِبَ أحدُكُم حُزمةً على ظهرِهِ خيرٌ من أن يسألَ أحداً فيُعطيهُ أو يمنعه»(١).

١٠٨ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزالُ الرَّجلُ يسألُ الناسَ، حتى يأتي يومَ القيامةِ وليسَ في وجهه مُزعةُ لحمٍ»(٢).

١٠٨ ـ ٣ ـ عن سهل بن الحنظلية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل شيئاً وعنده ما يُغنيه، فإنما يستكثرُ من جمر جهنَّم» قالوا: وما يُغنيه؟ قال ﷺ: «قدرُ ما يغدِّيه ويعشيه»(٣).

١٠٨ ـ ٤ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناسَ وله ما يُغنيه، جاء يوم القيامة ومسألتُه خموشٌ، أو خُدوشٌ أو كُدوحٌ» قيل: وما الغنى؟ قال: «خمسون درهماً، أو قيمتُهما من الذهب»(٤).

١٠٨ ـ ٥ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يَغدُوَ أحدُكُم فيَحتَطِبَ على ظهرِهِ فيَتَصدَّقَ منهُ ويستَغني به عن الناسِ، خيرٌ لهُ مِن أن يسألَ رجلاً أعطاهُ أو منَعَهُ ذلك، فإنَّ اليدَ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى، وابدا بمن تَعُولُ»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٧٤) (٣/١٢).

(٢) صحيح مسلم (١٠٤٠) (٢/٥٩٤).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١٤٣٥) (١/٣٠٦).

(٤) صحيح سنن أبي داود (١٤٣٢) (١/٣٠٥).

(٥) صحيح سنن الترمذي (٥٤٧) (١/٢٠٨).

١٠٩ ـ الشح والبخل بالمال والخير عن الغير :

قال تعالى: ﴿... وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

١٠٩ ـ ١ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقوا الظُّلم، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ من كان قبلَكُم، حَمَلَهُم على أن سَفكوا دماءَهم، واستحلُّوا محَارِمَهم»(١).

١٠٩ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «شرُّ ما في رجلٍ؛ شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع»(٢).

١٠٩ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ﷺ: «لا يجتمعُ غُبارٌ في سبيل الله، ودُخانُ جهنَّم في جوف عبدٍ أبداً، ولا يجتمعُ الشُّحُ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ أبداً»(٣).

١٠٩ ـ ٤ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ منجياتٌ، فقال: ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاع، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسِه. وثلاثٌ منجياتٌ: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضبِ والرِّضا»(٤).

١٠٩ ـ ٥ ـ عن قرة بن إياس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند النبي ﷺ فذكُرَ عنده الحياءُ، فقالوا: يا رسول الله! الحياءُ من الدين؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل الدِّينُ كلُّه». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الحياءَ والعفافَ والعيَّ ـ عيَّ اللسان، لا

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٨) (٤/١٥٨٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢١٩٢) (٢/٤٧٧).

(٣) صحيح سنن النسائي (٢٩١٣) (٢/٦٥٢).

(٤) أخرجه البزار والعقيلي، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) (٤/٤١٢).

عيٌّ القلبِ، والفقهَ من الإيمانِ، وإنهن يزدنَ في الآخرةِ، وينقُصنَ من الدنيا، وما يَزدنَ في الآخرةِ أكثرُ مما يَنقُصنَ من الدنيا . وإنَّ الشُّحَّ والعجزَ والبذاء من النفاق، وإنهن يَزدنَ في الدنيا، وينقصنَ من الآخرة، وما يَنقُصنَ من الآخرةِ أكثر مما يَزدنَ من الدنيا»(١).

١١٠ ـ ضرب الأمكاس على الناس:

١١٠ ـ ١ ـ عن أبي الخير، قال: عرض مَسلمةُ بن مخلدٍ ـ وكان أميراً على مصر ـ على رويفع بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن يولِّيه العُشور، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ صاحبَ المكسِ في النَّار»(٢).

والمكسُ: الضَّريبَةُ التي يأخذها الماكِسُ، وهو العشَّارُ(٣).

١١٠ ـ ٢ ـ عن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ﷺ: «تُفتَحُ أبوابُ السماءِ نصفَ الليلِ، فينادي مُنادٍ: هل مِن داعٍ فيُستَجابَ لهُ؟ هَل مِن سائلٍ فيُعطى؟ هَل مِن مكروبٍ فيُفَرَّجَ عنهُ؟ فلا يَبقَى مسلمٌ يدعو بدعوةٍ؛ إلا استَجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ له، إلا زانيةً تَسعَى بِفَرجِها أو عَشَّاراً»(٤).

١١١ ـ عدم إعطاء الأجير حقه:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

١١١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة؛ رجلٌ أعطى بي ثمَّ غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعطه أجره»(٥).

---

(١) رواه الطبراني وأبو الشيخ في الثواب، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣٠) (٣/٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٠٥) (١١٩٩/٢-٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير ـ (٣٤٩/٤).

(٤) رواه أحمد والطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٩١) (٦١٠/٢).

(٥) صحيح البخاري (٢٢/٧٠) (٣/٧٠).

١١١ ـ ٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظم الذنوب عند الله رجلٌ تزوج امرأةً؛ فلما قضى منها حاجته طلَّقها وذهب بمهرها، ورجلٌ استعمل رجلاً فذهب بأُجرته، وآخر يقتل دابَّةً عبثاً»(١).

١١٢ ـ مطل الغني:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]

١١٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مطلُ الغنيِّ ظلمٌ، فإذا أُتبعَ أحدكم على مليءٍ فليتَّبع»(٢).

١١٢ ـ ٢ ـ عن الشريد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُّ الواجدِ يُحلُّ عِرضَهُ، وعُقُوبَتَهُ»(٣).

أي؛ تأخيره أداء الدين من وقت إلى آخر بغير عذر(٤).

١١٣ ـ منع الفضل من المال عن ذوي القرابات:

١١٣ ـ ١ ـ عن جرير بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن ذي رَحِمٍ يأتي ذا رَحِمِهِ، فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه، فيبخل عليه؛ إلا أخرج اللهُ له من جهنم حيَّةً يقال لها: شجاعٌ يَتَلَمَّظُ، فَيُطَوَّقُ به»(٥).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٩٩) (٢/٧٣٦).

(٢) صحيح مسلم (١٥٦٤) (٣/٩٦٩).

(٣) صحيح سنن النسائي (٤٣٧٢) (٣/٩٧٠).

(٤) تحفة الأحوذي ـ المباركفوري (٤/٤٤٥).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط والكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٤٨) (٦-١/١٠٤).

٢-١١٣ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما رجلٍ أتاه ابن عمه يسأله من فضله، فمنعه؛ منعه الله فضله يوم القيامة»[1].

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٨٩٧) (٥٣٦/٢).

كتاب البيوع والتجارات

١١٤ ـ احتكار السلعة لرفع سعرها على الناس :

١١٤ ـ ١ ـ عن معمر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يحتَكِرُ إلاَّ خاطئٌ»(١).

١١٤ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنِ احتكرَ حُكرةً يريدُ أن يُغلي بها على المسلمين؛ فَهو خاطئ»(٢).

١١٥ ـ إخفاء عيب السلعة عند البيع :

١١٥ ـ ١ ـ عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يتفرَّقا، فإن صَدَقَا وبَيَّنا؛ بورك لهما في بيعِهما، وإن كَتَما وكذبا مُحِقَت بركةُ بيعِهِما»(٣).

١١٥ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ على صُبرَةِ طعامٍ، فأدخلَ يدَهُ فيها، فنالت أصابِعُهُ بللاً. فقال رسول الله ﷺ : «ما هذا يا صاحبَ الطعام؟!» قال : أصابتهُ السماءُ يا رسول الله! قال : «أفلا جعلته فوقَ الطعامِ حتى يراه الناسُ؟ من غشَّ فليسَ مني»(٤).

١١٥ ـ ٣ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «المسلمُ أخو المسلمِ، ولا يحلُّ لمسلمٍ باع من أخيه بيعاً فيه عيبٌ إلا بيَّنه له»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٦٠٥) (٣/٩٩٥).

(٢) أخرجه أحمد وابن عدي ، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٦٢) (٧-٢/١٠٨٧).

(٣) صحيح البخاري (٢٠٧٩) (٣/١٤).

(٤) صحيح مسلم (٨٦) (١/٨٧).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (١٨٢٣) (٢/٢٢).

١١٥ ـ ٤ ـ عن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لأحدٍ يبيع شيئاً إلا بيَّنَ ما فيه، ولا يحلُّ لمن عَلِمَ ذلك إلا بيَّنه»(١).

١١٥ ـ ٥ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ يخرجُ إلينا، وكنَّا تُجَّاراً، وكان يقولُ: «يا معشرَ التُّجارِ! إيَّاكم والكذبَ»(٢).

١١٥ ـ ٦ ـ عن عبد الرحمن بن شبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ التُّجَّارَ همُ الفُجَّارُ». قالوا: يا رسول الله! أليسَ قد أحلَّ الله البيعَ؟ قال: «بلى؛ ولكنَّهُم يحلفونَ فيأثَمونَ، ويحدِّثون فيكذِبونَ»(٣).

١١٦ ـ الإكراه على البيع:

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾** [النساء:٢٩].

١١٦ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما البيعُ عن تراضٍ»(٤).

١١٦ ـ ٢ ـ عن حنيفة الرقاشي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل مال امرئٍ مسلم إلا عن طيب نفس»(٥).

١١٦ ـ ٣ ـ عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يأخذَ عصا أخيه بغيرِ طيبِ نفسٍ منهُ»(٦).

قال ذلك لشدَّةِ ما حرَّم الله من مال المسلمِ على المسلم.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٧٧٤) (٢/٣٣٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٧٩٣) (٢/٣٤٦).

(٣) رواه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٧٨٦) (٢/٣٤٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٧٨) (٢/١٣).

(٥) أخرجه الدار قطني وأحمد وأبو يعلى والبيهقي، انظر: إرواء الغليل (١٤٥٩) (٥/٢٧٩).

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٧١) (٢/٣٨١).

١١٧ - إنفاق السلع بالحلف الكثير أو الكاذب:

١١٧ - ١ - عن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - أنَّ رجلاً أقامَ سلعةً وهو في السُّوق، فحلَفَ بالله لقد أعطي بها ما لم يُعطَ ليُوقعَ فيها رجلاً من المسلمينَ، فنزلت: ﴿إنَّ الَّذين يَشْتَرُونَ بعَهْد الله وَأَيْمَانهمْ ثَمنًا قَليلاً أُوْلَئكَ لا خَلاقَ لَهُمْ في الآخرَة وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا ينظُرُ إلَيْهمْ يَوْمَ الْقيَامَة وَلا يُزَكِّيهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ﴾ [آل عمران:٧٧]»(١).

١١٧ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلفُ مَنفقةٌ للسِّلعة، مَمحقةٌ للبَركة»(٢).

١١٧ - ٣ - عن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إيّاكم وكثرةَ الحلفِ في البيعِ، فإنّه يُنَفِّقُ ثمَّ يَمحَقُ»(٣).

١١٧ - ٤ - عن الحارث بن البرصَاءِ - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ في الحج بين الجمرتين، وهو يقول: «مَن اقتَطعَ مالَ أخيه بيمينٍ فاجرةٍ؛ فليتبوأ مقعَدَهُ من النارِ»(٤).

١١٧ - ٥ - عن ثعلبة بن أبي صُعير - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن اقتَطعَ مالَ مسلمٍ بيمينٍ كاذبةٍ؛ كانت نُكتَةً سوداءَ في قلبِه لا يُغيِّرها شيءٌ إلى يومِ القيامةِ»(٥).

١١٧ - ٦ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: مرَّ أعرابيٌّ بشاةٍ، فقلتُ: تبيعُها بثلاثة دراهم؟ فقال: لا والله، ثمَّ باعَها، فذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ فقال: «باعَ آخرتَهُ بدنياهُ»(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٨٨) (٣/١٧).

(٢) صحيح البخاري (٢٠٨٧) (٣/١٧).

(٣) صحيح مسلم (١٦٠٧) (٣/٩٩٥).

(٤) رواه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٣٤) (٢/٣٦٨).

(٥) رواه الحاكم، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٣٨) (٢/٣٧٠).

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٧٩٢) (٢/٣٤٥).

١١٧ - ٧ - عن سلمان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ أُشيمطٌ زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»(١).

١١٨ - بيع الأرض المشتركة دون عرضها على الشريك:

١١٨ - ١ - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّفعَةُ في كُلِّ شِركٍ في أرضٍ أو ربعٍ أو حائط، لا يصلُحُ أن يَبيعَ حتَّى يعرضَ على شريكِهِ فيأخُذَ أو يَدَعَ. فإن أبى فشريكُهُ أحقٌّ به حتَّى يؤذِنَهُ»(٢).

١١٨ - ١ - وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانَ منكُم شريكاً في ربعَةٍ أو نخلٍ، فليسَ لهُ أن يبيعَ حتَّى يُؤذِنَ شريكهُ، فإن رضيَ أخذهُ، وإن كرهَ تَركَهُ»(٣).

١١٨ - ٢ - وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم كانت له أرض أو نخل، فلا يبعها حتى يعرضها على شريكه»(٤).

١١٩ - بيع ما حرم الله على الناس وما فيه إعانة على معصية:

قال تعالى: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢].

١١٩ - ١ - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: أنه سمع النبي ﷺ يقول وهو بمكة عامَ الفتح: «إنَّ الله ورسوله حرَّمَ بيع الخمرِ، والميتةِ والخنزيرِ، والأصنامِ» فقيل: يا رسولَ الله! أرأيتَ شُحومَ الميتةِ فإنها يُطلى بها السُّفنُ، ويُدهنُ بها الجُلودُ، ويستصبحُ بها الناسُ؟ فقال: «لا، هوَ حرامٌ». ثم قالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «قاتلَ اللهُ اليهودَ، إنَّ الله لما حرَّم شحومها جَمَلوهُ ثمَّ باعوهُ فأكلوا ثمنه»(٥).

(١) أخرجه الطبراني في الطبير والبيهقي في الشعب، انظر: صحيح الجامع (٣٠٧٢) (١/٥٨٩).

(٢) صحيح مسلم (١٦٠٨) (٣/٩٩٦).

(٣) صحيح مسلم (١٦٠٨) (٢/٩٩٥).

(٤) صحيح سنن النسائي (٤٣٨٢) (٢/٩٧١).

(٥) صحيح البخاري (٢٢٣٦) (٣/٥٩).

١١٩ ـ ٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ جالساً في الركن، قال: فرفع بصره إلى السماء فضحك، فقال: «لعنَ اللهُ اليَهُودَ ـ ثلاثاً ـ إنَّ اللهَ حرَّمَ عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا أثمانها، وإن الله إذا حرَّم على قوم أكل شيء، حرم عليهم ثمنه»(١).

لما في ذلك من تيسير المنكر، ونشر أسباب الشر، والتعاون على المعصية، والتناصر على ما يسخط الله تعالى.

كبيع آلات اللهو والنرد والشِّطرنج فلا يصح، وكذلك بيع العصير ممن يتخذه خمراً، والسلاح في الفتنة(٢) وغيره كثير.

١٢٠ ـ بيع الرجل على بيع أخيه:

١٢٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبع حاضرٌ لبادٍ، ولا تناجشوا، ولا يبع الرجلُ على بيع أخيه، ولا تسألِ المرأة طلاقَ أختها لتكفأ ما في إنائها ولتنكحَ، فإنما لها ما كتبَ اللهُ لها»(٣).

وذلك بأن يبذل للبائع زيادة في الثمن أو للمشتري زيادة في المثمن ليفسخا ويعقدا معه بعد التواجب، فهو حرام(٤).

١٢١ ـ بيع ما ليس عنده:

١٢١ ـ ١ ـ عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ قال: نهاني رسول الله ﷺ عن بيعِ ما ليسَ عندي(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٩٧٨) (٢/٦٦٧).

(٢) بلغة الساغب ـ محمد بن أبي القاسم الحراني ـ ص ١٧٥.

(٣) صحيح البخاري (٢٧٢٣) (٣/٢٤٠).

(٤) بلغة الساغب وبغية الراغب ـ الحراني ـ ص ١٧٥.

(٥) صحيح سنن الترمذي (٩٨٧) (٢/٧).

أي ما ليس حاضراً عندك، ولا غائباً في ملكك وتحت حوزتك(١).

١٢١ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله! الرجل يسألني البيع وليس عندي، أفأبيعه؟ قال ﷺ: «لا تَبع ما ليسَ عندكَ»(٢).

١٢١ - ٣ - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ بيعُ ما ليسَ عِندَكَ، ولا ربحُ ما لم يُضمن»(٣).

١٢٢ - بيع المغنيات ونشر فسادهنَّ:

١٢٢ - ١ - عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع المُغنِّيات، وعن شرائهن، وعن كسبهن، وعن أكل أثمانهن(٤).

١٢٢ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبيعوا القَينات، ولا تشتروهُنَّ، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارةٍ فيهنَّ، وثمنُهن حرامٌ، وفي مثلِ هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [لقمان:٦] إلى آخر الآية»(٥).

١٢٢ - ٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ نهى عن كسبِ الزَّمّار(٦).

١٢٣ - تسعير الطعام بما يشقُّ على المشتري أو يضر بالبائع:

١٢٣ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً جاء، فقال: يا رسول الله! سَعِّر؟ فقال ﷺ: «بل أدعو» ثم جاءه رجل، فقال: يا رسول الله ! سعِّر ! فقال

(١) نيل الأوطار - الشوكاني (٥/١٥٥).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٨٠) (٢/١٣).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٨٢) (٢/١٣).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٦١) (٢/١٠).

(٥) صحيح سنن الترمذي (٢٥٥٣) (٣/٨٩).

(٦) أخرجه أبو بكر الخلال في الأمر بالمعروف، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٧٥) (٧-٢/٨١١).

ﷺ : «بل الله يخفض ويرفع، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة»(١).

١٢٣ - ٢ - عن أنس بن مالك -رضي الله عنه - قال: غلا السِّعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! قد غلا السعر، فسعِّر لنا. فقال ﷺ : «إنَّ الله هو المُسعِّرُ القابضُ الباسِطُ الرَّازقُ، إنِّي لأرجو أن ألقى ربِّي وليسَ أحدٌ يطلُبُني بمظلِمَةٍ في دمٍ ولا مالٍ»(٢).

١٢٣ - ٣ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: لو قَوَّمت يا رسول الله! قال: «إنِّي لأرجُو أن أُفارِقَكُم، ولا يَطلُبني أحدٌ مِنكُم بمظلِمةٍ ظلَمتُهُ»(٣).

١٢٤ - تصرية الضروع عند البيع:

١٢٤ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تَلَقَّوُا الركبان للبيع، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضرٌ لبادٍ، ولا تصُروا الإبلَ و الغنم، ومن ابتاعها، فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر»(٤).

١٢٤ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تَصُرُّوا الإبلَ والغنم .....»(٥).

والمصراةُ التي صُرِّي لبنها وحقن فيه وجمع فيه فلم يحلب أياماً(٦).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٩٤٤) (٢/٦٦٠).
(٢) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٨٧) (٢/١٥).
(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١٧٨٨) (٢/١٥).
(٤) صحيح البخاري (٢١٥٠) (٣/٣٧)
(٥) صحيح البخاري (٢١٤٨) (٣/٣٦).
(٦) صحيح البخاري (٣/٣٦).

١٢٤ - ٣ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بَاعَ أحَدُكُمُ الشَّاةَ أو اللَّقحَةَ فلا يُحفِّلْهَا»[١].

١٢٥ - الزيادة في ثمن السلعة دون قصد شرائها (النَّجش):

١٢٥ - ١ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «نهى النبي ﷺ عن النَّجشِ»[٢].

١٢٥ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُتلقَّى الرُّكبان لبيعٍ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا..»[٣].

قال الترمذي: النجش أن يأتي الرجل الذي يبصر السلعة إلى صاحب السلعة فيستام بأكثر مما تسوى، وذلك عندما يحضره المشتري، يريد أن يغتر المشتري به، وليس من رأيه الشراء، إنما يريد أن ينخدع المشتري بما يستام، وهذا ضرب من الخديعة[٤].

١٢٦ - الشروط المحرمة في البيع وغيره مما يضر بالناس:

١٢٦ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قال: قال رسول الله -: «ما بالُ أقوامٍ يشتَرِطونَ شُروطاً ليست في كتاب الله؟ مَنِ اشتَرَطَ شَرطاً ليسَ في كتاب الله فليسَ لهُ وإن اشتَرطَ مائةَ شرط»[٥].

١٢٦ - ٢ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون عند شروطِهم، ما وافق الحق من ذلك»[٦].

---

(١) صحيح سنن النسائي (٤١٧٨) (٣/٩٣٤).

(٢) صحيح مسلم (١٥١٦) (٣/٩٣٤).

(٣) صحيح مسلم (١٥١٥) (٣/٩٣٤).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٠٥٠) (٣/٣٠).

(٥) صحيح البخاري (٢٧٣٥) (٣/٢٥١).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الجامع (٧٦١٦) (٢/١١٣٨).

١٢٨ ـ عدم وضع الجوائح على من أصيب بها :

١٢٨ ـ ١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : أمر النبي ﷺ بوضعِ الجوائحِ(١) .

١٢٨ ـ ٢ ـ عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «لو بعتَ من أخيكَ ثمراً، فأصابتهُ جائحةٌ؛ فلا يحلُّ لك أن تأخذَ منه شيئاً، بم تأخذُ مالَ أخيكَ بغير حقٍّ؟»(٢) .

١٢٨ ـ ٣ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إِن لَم يُثمِرها اللهُ، فبمَ يَستَحِلُّ أحدُكُم مَالَ أخيه؟»(٣) .

عن عطاء، قال : الجوائح : كل ظاهر مفسد؛ من مطر، أو بردٍ، أو جراد، أو ريح، أو حريق(٤) .

١٢٧ ـ عدم الوفاء بالشروط المعتبرة شرعاً :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ [المائدة:١] .

١٢٧ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «الصلحُ جائزٌ بين المسلمينَ إلا صُلحاً أحلَّ حراماً، أو حرَّمَ حلالاً» . وقال ﷺ : «المُسلمونَ على شُرُوطِهم»(٥) .

١٢٧ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «المسلمون عند شروطهم»(٦) .

---

(١) صحيح مسلم (١٥٥٤) (٣/٩٦٥) .

(٢) صحيح مسلم (١٥٥٤) (٣/٩٦٤) .

(٣) صحيح مسلم (١٥٥٥) (٣/٩٦٥) .

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢/٦٦٤) .

(٥) صحيح سنن أبي داود (٣٠٦٣) (٢/٦٨٥) .

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وغيره ، انظر : السلسلة الصحيحة (٢٩١٥) (٢/٩٩٢-٦) .

١٢٧ - ٣ - عن رافع بن خديج - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون عند شُروطِهم فيما حلَّ»(١).

١٢٩ - نقص المكيال والميزان:

قال تعالى: ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ...﴾ [هود:٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...﴾ [هود:٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين:٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء:٣٥].

١٢٩ - ١ - عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعشَرَ المُهاجرينَ! خَمسٌ إذا ابتُليتُم بِهِنَّ، وأعوذُ بالله أن تُدركوهُنَّ:

لم تَظهَر الفاحِشةُ في قومٍ قطُّ، حتَّى يُعلِنوا بها، إلاَّ فشا فيهمُ الطَّاعُونُ والأوجاعُ التي لم تكن مضت في أسلافِهمُ الذين مضوا.

ولم يَنقُصُوا المكيالَ والميزانَ، إلاَّ أُخِذُوا بالسِّنينَ وشِدَّةِ المئونةِ وجورِ السُّلطانِ عليهم.

ولم يَمنعُوا زكاةَ أموالهم، إلاَّ مُنِعُوا القطرَ من السَّماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا.

ولم يَنقُضُوا عهدَ الله وعهد رسوله، إلاَّ سَلَّطَ الله عليهم عدُوًّا مِن غيرهم، فأخَذُوا بعضَ ما في أيديهم.

وما لم تَحكُم أئمَّتُهم بكتاب الله، ويتَخَيَّروا مِمَّا أنزلَ الله، إلاَّ جَعَلَ الله بأسَهُم بينَهُم»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٧٦١٥) (١١٣٨/٢).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٤٦) (٣٧٠/٢).

كتاب النكاح والبيت والخدمة

١٣٠ - إدخال أهل المعاصي والمخنثين إلى البيوت :

١٣٠ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : لعنَ النبيُّ ﷺ المُخنَّثين من الرِّجالِ، والمُترجِّلاتِ من النِّساءِ، وقال : « أَخرجُوهُم من بيوتِكُم »(١).

١٣١ - تحليل المطلقة ثلاثاً لزوجها :

١٣١ - ١ - عن جابر بن عبد الله، وعن الحارث، عن عليٍّ - رضي الله عنه - قالا : أن رسول الله ﷺ لعن المحلِّل والمحلَّل له(٢).

١٣١ - ٢ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له(٣).

١٣١ - ٣ - عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبرُكُم بالتَّيسِ المُستعار؟ » قالوا : بلى، يا رسول الله. قال : « هُو المُحلِّلُ، لعنَ الله المُحلِّلَ والمُحلَّلَ لهُ »(٤).

١٣٢ - تخبيب الزوجة على زوجها والخادم على أهلها :

١٣٢ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن خبَّبَ زوجةَ امرئٍ، أو مملُوكَهُ فليسَ منَّا »(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٣٤) (٧/٣٤٤).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٨٩٣) (٢/٣٢٦).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٨٩٤) (٢/٣٢٦).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٥٧١) (١/٣٢٦).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٤٣٠٧) (٣/٩٧١).

١٣٢ ـ ٢ ـ عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منَّا من حلف بالأمانةِ، ومن خبَّبَ على امرئٍ زوجتهُ، أو مملوكهُ فليس منا»(١).

١٣٢ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن خبَّبَ خادماً على أهله، فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس منا»(٢).

١٣٣ ـ التفريق بين الوالدة وولدها في سبيٍ وغيره بغير حق:

١٣٣ ـ ١ ـ عن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من فرَّق بين والدةٍ وولدها، فرَّق اللهُ بينه وبين أحبته يوم القيامة»(٣).

١٣٤ ـ تكليف المملوك والخادم بما لا يطيق:

١٣٤ ـ ١ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إخوانُكُم وخَوَلُكُم. جعلهم الله تحتَ أيديكُم، فمن كانَ أخوهُ تحتَ يديهِ فليُطعمهُ ممَّا يأكُلُ، وليُلبسهُ ممَّا يلبسُ، ولا تُكلِّفُوهُم ما يَغلِبُهُم، فإن كلَّفتُمُوهُم فأعينوهُم»(٤).

١٣٥ ـ الخِطبة على خِطبة أخيه المسلم:

١٣٥ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال: نهى رسول الله ﷺ أن يبيعَ حاضرٌ لبادٍ، ولا تناجشوا، ولا يبيعُ الرَّجلُ على بيعِ أخيهِ، ولا يخطُبُ على خِطبةِ أخيه، ولا تسألُ المرأةُ طلاقَ أُختِها لتكفأ ما في إنائها»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسة الصحيحة (٣٢٥) (١/٥٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند وابن حبان، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٤) (١/٥٨٠).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٠٣٢) (٢/٤٢).

(٤) صحيح مسلم (١٦٦١) (٣/١٠٣٩).

(٥) صحيح البخاري (٢١٤٠) (٣/٣٤).

١٣٥ - ٢ - عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ أخو المؤمنِ، فلا يحلُّ للمؤمنِ أن يبتاعَ على بيع أخيه، ولا يخطُبَ على خِطبةِ أخيهِ حتَّى يذَرَ»(١).

١٣٥ - ٣ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبع الرَّجلُ على بيعِ أخيه، ولا يخطُب على خِطبة أخيه، إلاَّ أن يأذَنَ له»(٢).

١٣٦ - الدعاء على الخدم:

١٣٦ - ١ - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءٌ فيستجاب لكم»(٣).

١٣٧ - سؤال المرأة زوجها طلاق ضرَّتها بغير حق:

١٣٧ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قال: ... ولا تسألُ المرأةُ طلاقَ أُختِها لتكفأ ما في إنائها»(٤).

١٣٧ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها، ولتنكح، فإنما لها ما قُدِّرَ لها»(٥).

١٣٨ - المبالغة في مهور النساء بما يشق على الخاطب:

١٣٨ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنِّي تزوَّجتُ امرأةً من الأنصارِ، فقال له النبيُّ ﷺ: «هل نظرتَ إليها؟ فإنَّ

---

(١) صحيح مسلم (١٤١٤) (٢/٨٣٨).

(٢) صحيح مسلم (١٤١٢) (٢/٨٣٧).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١٣٦٥) (٢/٢٨٥).

(٤) صحيح البخاري (٢١٤٠) (٣/٣٤).

(٥) صحيح البخاري (٥١٥٢) (٦/٤٦٥).

في عيونِ الأنصار شيئاً» قال: قد نظرتُ إليها. قال ﷺ: «على كم تزوَّجتها؟» قال: على أربعِ أوقٍ. قال له النبيُّ ﷺ: «على أربعِ أواقٍ؟! كأنَّما تنحِتُونَ الفضَّةَ من عُرضِ هذا الجبلِ!»(١).

١٣٨ - ٢ - عن أبي حدرد الأسلمي - رضي الله عنه - أنه أتى النبيَّ ﷺ يستعينه في مهر امرأة، فقال ﷺ: «كم أمهرتها؟» فقال: مائتي درهم. فقال ﷺ: «لو كنتم تَغرِفونَ مِن بطحانَ ما زِدتُم»(٢).

١٣٨ - ٣ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «من يمنِ المرأة: تسهيلُ أمرها، وقِلَّةُ صداقها»(٣).

١٣٨ - ٤ - عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ النِّكاحِ أيسَرُهُ»(٤).

* عن أبي العجفاء السلمي، قال: خطبنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال: ألا لا تُغالوا بِصدُقِ النساء، فإنها لو كانت مَكرُمَةً في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها النبيُّ ﷺ ما أصدَقَ رسول الله ﷺ امرأة من نسائه، ولا أُصدِقَت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٣٢٣) (٢/٨٤٣).

(٢) أخرجه الحاكم وأحمد ، انظر :السلسلة الصحيحة (٢١٧٣) (٥/٢٠٥).

(٣) صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (١٠٥٠) (١/٥٠٤).

(٤) صحيح سنن أبي داود (١٨٥٩) (٢/٣٩٨).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢/٣٩٦).

كتاب الأيمان والشهادات والوصايا

١٣٩ ـ امتناع الشاهد من شهادته لاستيفاء الحقوق :

قال تعالى : ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا . . .﴾ [البقرة:٢٨٢] .

وقال تعالى : ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣] .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٤٠] .

١٣٩ ـ ١ ـ عن طارق بن شهاب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن بين يدي الساعة تسليمَ الخاصة، وفشوَّ التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم»[١] .

١٤٠ ـ امتناع الكاتب من الكتابة لحفظ الحقوق :

قال تعالى : ﴿وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة:٢٨٢] .

أي : ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس[٢] .

قال الحسن : ذلك واجب عليه في الموضع الذي لا يُقدر على كاتب غيره، فيضر صاحب الدين إن امتنع، فإن كان كذلك فهو فريضة، وإن قُدِر على كاتب غيره، فهو في سَعَة إذا قام به غيره[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم ، انظر :السلسلة الصحيحة (٦٤٧) (٢/٢٥٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير (١/٣٤٢) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي (٢/٢٤٨) .

١٤١ ـ تعديل من لا يعرف حاله:

١٤١ ـ ١ ـ عن سليمان بن حرب، قال: شهد رجل عند عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال له عمر: إني لست أعرفك، ولا يضرك أني لا أعرفك، فائتني بمن يعرفك، فقال رجل: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين. قال: بأي شيء تعرفه فقال: بالعدالة. قال: هو جارك الأدنى تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه قال: لا. قال: فعاملك بالدرهم والدينار الذي يستدل بهما على الورع قال: لا. قال: فصاحبك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق قال: لا. قال: فلست تعرفه، ثم قال للرجل: ائتني بمن يعرفه[١].

١٤٢ ـ الحلف باليمين الفاجرة لإحقاق باطل:

قال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧].

١٤٢ ـ ١ ـ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين ليقتطع بها مالا لقي الله وهو عليه غضبان»[٢].

١٤٢ ـ ٢ ـ عن أبي أمامة الحارثي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، و حرم الله عليه الجنة، و إن كان قضيباً من أراك»[٣].

١٤٢ ـ ٣ ـ عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين مصبورة كاذباً متعمداً فليتبوأ بوجهه مقعده في النار»[٤].

---

(١) أخرجه العقيلي والبيهقي ، انظر: إرواء الغليل (٢٦٣٧) (٨/٢٦٠).

(١) صحيح البخاري (٢٦٧٣) (٣/٢٢٠).

(٣) صحيح مسلم (١٣٧) (١/١١٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٢٧٧٨) (٢/٦٢٥).

١٤٢ ـ ٤ ـ عن الأشعث بن قيس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتطع أحد مالاً بيمينه، إلا لقي الله وهو أجذم»(١).

١٤٢ ـ ٥ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس شيء أطيع الله فيه أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وليس شيء أعجل عقابًا من البغي وقطيعة الرحم، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع»(٢).

١٤٢ ـ ٦ ـ عن معاوية ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع رحمًا، أو حلف على يمين فاجرة رأى وبالها قبل أن يموت»(٣).

١٤٢ ـ ٧ ـ عن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتطعَ مالَ امرئٍ مسلمٍ؛ بيمينٍ كاذبةٍ؛ كانت نُكتةً سوداءَ في قلبه، لا يغيّرها شيءٌ إلى يوم القيامة»(٤).

١٤٣ ـ شهادة الزور:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠].

١٤٣ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» ـ وكان متكئاً فجلس ـ فقال: «ألا وقول الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٧٨٠) (٢/٦٢٦).

(٢) اخرجه البيهقي في السنن الكبرى، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٧٨) (٢/٧٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي، انظر السلسة الصحيحة (١١٢١) (٣/١١٤).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٦٤) (٧-٢/١٠٩١).

(٥) صحيح البخاري (٢٦٥٤) (٣/٢١٠).

شاهد الزور قد ارتكب عظائم؛

أحـــدهـا: الكذب والافتـراء، والله يقـول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾ [غافر:٢٨].

وثانيها: ظلم الذي شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله وعرضه وروحه.

وثالثـهـا: أنه ظلم الذي شهد له؛ بأن ساق إليه المال الحرام، فأخذه بشهادته ووجبت له النار، قال رسول الله ﷺ: «من قضيت له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[١].

ورابعها: أنه أباح ما حرم الله و عصمه من المال والدم والعرض؛ قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[٢]،[٣].

١٤٤ ـ عدم الإشهاد على الدين:

١٤٤ ـ ١ ـ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ يدعُون فلا يُستجاب لهم: رجلٌ كانت تحته امرأةٌ سيئة الخُلقِ فلم يُطلِّقها، ورجلٌ كان له على رجل مال فلم يُشهد عليه، ورجل أتى سفيهاً مالَه وقد قال الله عز وجل: ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ**﴾»[٤].

١٤٥ ـ عدم كتابة الوصية لمن له أو عليه حقٌّ للناس:

١٤٥ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حقُّ امرئٍ لهُ شيءٌ يُوصي فيه يَبيتُ ليلَتينِ إلاَّ وصيَّتُهُ مكتوبةٌ عندَه»[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٨٠) (٣/٢٢٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤) (٤/١٥٧٧).

(٣) الكبائر ـ الذهبي ـ ص ٨٠.

(٤) رواه ابن شاذان في المشيخة الصغرى والحاكم، انظر :السلسلة الصحيحة (١٨٠٥) (٤/٤٢٠).

(٥) صحيح البخاري (٢٧٣٨) (٣/٢٥٣).

١٤٦ ـ قبول شهادة ذي الغمر[١] على أخيه:

١٤٦ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ ردَّ شهادة الخائن والخائنة، وذي الغِمرِ على أخيه، ورد شهادة القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم[٢].

١٤٦ ـ ٢ ـ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجوزُ شهادةُ خائنٍ ولا خائنةٍ، ولا محدودٍ في الإسلام، ولا ذي غمرٍ على أخيه»[٣].

١٤٦ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجوزُ شهادة ذي الظِنة، ولا ذي الحِنَة»[٤].

وذي الحِنَة أي العداوة[٥].

١٤٧ ـ قذف المسلم بما يشينه:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٢].

١٤٧ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[٦].

---

(١) قال أبو داود: الغمر الحِنَةُ والشحناء. انظره في صحيح سنن أبي داود (٢/٦٨٦).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٠٦٧) (٢/٦٨٦).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١٩١٦) (٢/٤٤).

(٤) أخرجه الحاكم والبيهقي، انظر: إرواء الغليل (٢٦٧٤) (٨/٢٩٠) حاشية.

(٥) فيض القدير ـ المناوي (٦/٣٩١).

(٦) صحيح مسلم (٢٥٨١) (٤/١٥٨٥).

١٤٧ - ٢ - عن معاذ بن أنس الجهني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من حما مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شينه به. حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»[١].

١٤٨ - مضارة الكاتب والشاهد:

قال تعالى: **﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [البقرة:٢٨٢].

قيل معناه؛ لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يُملى، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتمها بالكلية[٢].

ورُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله: معنى الآية بأن يُدعى الشاهدُ إلى الشهادة والكاتبُ إلى الكتب وهما مشغولان، فإذا اعتذرا بعذرهما أخرجهما وآذاهما، وقال: خالفتما أمر الله، ونحو هذا من القول فيضرّ بهما[٣].

ومعناه: أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شُغل مهم، فيقولان: نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا، فيقول الداعي: إن الله أمركما أن تُجيبا، ويَلِحّ عليهما، فيشغلهما عن حاجتهما، فنُهي عن ذلك، وأُمر بطلب غيرهما[٤].

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٦) (٣/٩٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (١/٣٤٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي (٣/٢٦٢).

(٤) معالم التنزيل - البغوي (١/٢٧٠).

كتاب القصاص والجراحات

١٤٩ ـ الإشارة بالحديد هازلاً أو عامداً:

١٤٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار»(١).

١٤٩ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه»(٢).

١٤٩ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشار على أخيه بحديدة، لعنته الملائكة»(٣).

فهذا قد استحق اللعن بالإشارة، فما ظنك بالإصابة؟!

وإنما يكون اللعن عليها إذا كانت إشارة تهديد سواء كان مجداً فيه أو لاعباً(٤).

١٥٠ ـ الاعتداء على الغير:

١٥٠ ـ ١ ـ عن قُهيد الغفاري، قال: سأل سائل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن عدا عليَّ عادٍ؟ فقال له النبي ﷺ: «ذكِّرهُ بالله ثلاثَ مرَّاتٍ؛ فإن أبى

(١) صحيح مسلم (٢٦١٧) (٤/١٦٠٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٦١٦) (٤/١٦٠٣).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٧٥٥) (٢/٢٣١).

(٤) عارضة الأحوذي ـ ابن العربي (٦/٩).

فقاتلهُ، فإن قتلكَ؛ فأنت في الجنة، وإن قتلتهُ؛ فإنَّه في النَّار. يعني: العادي على الغير(١).

١٥١ ـ تعاطي السيف غير مغمود:

١٥١ ـ ١ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً(٢).

١٥١ ـ ٢ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سل أحدكم سيفاً لينظر إليه فأراد أن يناوله أخاه، فليغمده، ثم يناوله إياه»(٣).

١٥٢ ـ الطلب في قتل المسلم بغير حق:

١٥٢ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس ثلاثاً: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، و مطلب دم امرئ بغير حق؛ ليهريق دمه»(٤).

١٥٢ ـ ٢ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تواجهَ المُسْلمانِ بسيفيهما فكلاهُما في النَّار». قيل: فهذا القاتِلُ فما بالُ المقتُولِ؟ قال: «إنَّهُ أراد قتلَ صاحبِهِ»(٥).

١٥٣ ـ قتل الذمي والمعاهد بغير حق:

قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٤]

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي في السنن، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٤٧) (٦/٧٤٦-٢-٧).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٧٥٦) (٢/٢٣١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند والطبراني والحاكم، انظر: صحيح الجامع (٦٠٤) (١/١٦٥) وقال الألباني: حسن

(٤) صحيح البخاري (٦٨٨٢) (٨/٣٥٨).

(٥) صحيح البخاري (٧٠٨٣) (٨/٤٢٨).

١٥٣ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيره سبعين عاماً»(١).

١٥٣ - ٢ - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسًا معاهدة بغير حلها، حرم الله عليه الجنة: أن يشم ريحها»(٢).

١٥٣ - ٣ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً في غير كهنة، حرم الله عليه الجنة»(٣).

١٥٣ - ٤ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن قتلَ مُعاهداً، لهُ ذمَّةُ الله وذِمَّةُ رسُولِهِ، لم يرح رائحةَ الجنَّةِ، وريحُها ليُوجدُ مِن مسيرةِ سبعينَ عاماً»(٤).

١٥٤ - قتل المسلم أو التسبب فيه:

قال تعالى: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾** [النساء:٩٣].

١٥٤ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني العبدُ حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارق حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربَ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمنٌ، ولا يقتُلُ حين يقتُلُ وهو مؤمنٌ»(٥).

١٥٤ - ٢ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»(٦).

---

(١) صحيح سنن النسائي (٤٤٢٤) (٣/٩٨٥).

(٢) صحيح سنن النسائي (٤٤٢٣) (٣/٩٨٥).

(٣) صحيح سنن النسائي (٤٤٢٢) (٣/٩٨).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٦٧) (٢/١٠٦).

(٥) صحيح البخاري (٦٨٠٩) (٧/٣٣٤).

(٦) صحيح البخاري (٦٨٦٢) (٧/٣٣٥).

١٥٤ ـ ٣ ـ عن ابن الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركا، أو مؤمنا قتل مؤمنا متعمدا»(١).

١٥٤ ـ ٤ ـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل مؤمنا فاغتبط بقتله، لم يقبل الله منه صرفاً، ولا عدلاً»(٢).

قوله: فاعتبط قتله يريد أنه قتله ظلما لا عن قصاص(٣).

١٥٤ ـ ٥ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أهل السماء و الأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبهم الله عز و جل في النار»(٤).

١٥٤ ـ ٦ ـ وسئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عمن قتل مؤمنا متعمداً ثم تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى فقال ابن عباس: وأنى له التوبة سمعت نبيكم ﷺ يقول: «يجيء متعلقا بالقاتل تشخب أوداجه دماً، يقول: سل هذا فيم قتلني؟»(٥).

١٥٤ ـ ٧ ـ عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»(٦).

١٥٤ ـ ٨ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يخرُجُ عُنقٌ مِنَ النار يتكلَّمُ يقولُ: وُكِّلتُ اليومَ بثلاثةٍ: بكلِّ جبَّارٍ عنيدٍ، ومن جعلَ مع الله إلهاً آخر، ومن قَتَل نفساً بغير حقٍّ، فينطوي عليهم، فيقذِفُهُم في غمرات جهنَّم»(٧).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٥٨٨) (٣/٨٠٤).

(٢) صحيح سنن ابن داود (٣٥٨٩) (٣/٨٠٤).

(٣) معالم السنن ـ الخطابي (٣/٣١٥).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١١٢٨) (٢/٥٧).

(٥) صحيح سنن النسائي (٤٥٢٢) (٣/١٠٠).

(٦) صحيح سنن ابن ماجة (٢١٢١) (٢/٩٢).

(٧) رواه أحمد في المسند والطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٥١) (٢/٦٣٤).

١٥٥ ـ كشف نصال السهم في الأماكن العامة وما يمكن أن يؤذي الناس:

١٥٥ ـ ١ ـ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مرَّ في شيء من مساجدنا أو أسواقنا بنبل فليأخذ على نصالها؛ لا يعقر بكفه مسلمًا»(١).

١٥٥ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مر أحدكم في مسجدنا، أو في أسواقنا، ومعه نبل، فليمسك على نصالها بكفه؛ أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٢) (١/١٤٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٦١٥) (٤/١٦٠٣).

كتاب الحدود

١٥٦ - إظهار الفاحشة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

١٥٦ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت راجماً أحداً بغير بينة، لرجمت فلانة، فقد ظهر منها الريبة في منطقها وهيئتها ومن يدخل عليها»(١).

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: القائلُ الفاحشةَ، والذي يُشيع بها في الإثم سواء(٢).

وعن شبيل بن عوف، قال: كان يقال: من سمع بفاحشة فأفشاها، فهو كالذي أبداها(٣).

١٥٧ - تعطيل الحدود:

١٥٧ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَتَلَ في عِمِّيًّا أو رمياً يكون بينهم بحجر أو سوط فعقله عقل خطأ، ومن قَتَلَ عمداً فقود يديه، فمن حال بينه وبينه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٤).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة (٢٠٧٣) (٢/٨٢).

(٢) صحيح الأدب المفرد - ص ١٣٣ رقم (٢٤٧).

(٣) كتاب الصمت - ابن أبي الدنيا ص١٥٧ رقم (٢٦١).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٣٨٣٨) (٣/٨٦٧).

١٥٧ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قُتِلَ في عِمِّيًّا في رمي يكون بينهم بحجارة أو بالسياط أو ضرب بعصا فهو خطأ، وعقله عقل الخطأ، ومن قُتِلَ عمداً فهو قود، ومن حال دونه فعليه لعنة الله وغضبه، لا يقبل منه صرف ولا عدل»(١).

١٥٧ - ٣ - عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أقيمُوا حُدودَ الله في القريب والبعيد، ولا تأخُذكُم في الله لومةُ لائمٍ»(٢).

١٥٧ - ٤ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ: «إقامةُ حَدٍّ مِن حُدودِ الله، خيرٌ مِن مَطرِ أربعينَ ليلةً في بلادِ الله عزَّ وجلَّ»(٣).

١٥٨ - الزنا بمحارم الناس:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٤-٧].

١٥٨ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٤).

١٥٨ - ٢ - عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من توكَّلَ لي ما بين رجليه وما بين لحييه، توكَّلتُ له بالجنة»(٥).

١٥٨ - ٣ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر الزنا والرِّبا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»(٦).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٨٠٣) (٣/٨٦٠).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٥٨) (٢/٧٨).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٥٦) (٢/٧٨).

(٤) صحيح البخاري (٦٨١٠) (٧/٣٣٥).

(٥) صحيح البخاري (٦٨٠٧) (٧/٣٣٤).

(٦) أخرجه الطبراني والحاكم، انظر: صحيح الجامع (٦٧٩) (١/١٧٨).

١٥٨ ـ ٤ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنى العبدُ خرج منهُ الإيمانُ فكانَ فوقَ رأسهِ كالظلَّة، فإذا خرجَ من ذلك العملِ عادَ إليه الإيمانُ»(١).

١٥٨ ـ ٥ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظرُ اللهُ يومَ القيامةِ إلى الشيخِ الزاني ولا إلى العَجوزِ الزانيةِ»(٢).

١٥٨ ـ ٦ ـ عن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ﷺ: «تُفتَحُ أبوابُ السماءِ نصفَ الليلِ، فينادي مُنادٍ: هل مِن داعٍ فيُستَجابَ لهُ؟ هَل مِن سائلٍ فَيُعطي؟ هَل مِن مكروبٍ فيُفَرَّجَ عنهُ؟ فلا يَبقَى مسلمٌ يدعو بدعوةٍ إلا استَجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ له إلا زانيةً تَسعَى بِفَرجِها أو عَشَّاراً»(٣).

١٥٨ ـ ٧ ـ عن فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تسأل عنهم؛ رجل فارقَ الجماعة وعصى إمامه وماتَ عاصياً، وأمَةٌ أو عبدٌ آبقٌ من سيده فماتَ، وامرأة غابَ عنها زوجها وقد كفاها مؤنة الدنيا؛ فخانته بعده...»(٤).

١٥٨ ـ ٨ ـ عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان، فأخذا بِضَبعيَّ، فأتيا بي جبلاً وعِراً، فقالا لي: اصعد. حتى إذا كنت في سواء الجبل، فإذا أنا بصوت شديد، فقلت: ما هذه الأصوات؟! قال: هذا عُواء أهل النار.

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢١١٧) (٢/٣٣٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٧٥) (١١٢٣/٢-٧).

(٣) رواه أحمد والطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٩١) (٦١٠/٢).

(٤) صحيح موارد الظمآن (٤٥) (١/١١٣).

ثم انطلقا بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم، مُشَقّقةٍ أشداقُهم، تسيل أشداقُهم دماً، فقلت: من هؤلاء؟! قيل: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلّةِ صومهم.

ثم انطلق بي؛ فإذا أنا بقوم أشدّ انتفاخاً وأنتنه ريحاً، وأسوئه منظراً، فقلت: من هؤلاء؟! قيل: الزانون والزواني.

ثم انطلق بي؛ فإذا أنا بنساء ينهش ثُدِيَّهُنَّ الحيّاتُ، قلت: ما بال هؤلاء؟! قيل: هؤلاء اللاتي يمنعن أولادَهنَّ ألبانهنَّ.

ثم انطلق بي، فإذا أنا بغلمانٍ يلعبون بين نهرين، قلت: من هؤلاء؟! قيل: هؤلاء ذراري المؤمنين.

ثم أشرفا بي شرفاً؛ فإذا أنا بثلاثة يشربون من خمرٍ لهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى وهم ينتظرونَك»[1].

١٥٨ ـ ٩ ـ عن عبد الله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم الزِّنا والشهوةُ الخفيَّةُ»[2].

١٥٩ ـ السرقة:

١٥٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»[3].

١٥٩ ـ ٢ ـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: كُنّا عند رسولِ الله ﷺ في مجلسٍ، فقال: «بايعوني على أن لا تُشركُوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنُوا»[4].

(١) صحيح موارد الظمآن (١٥٠٩) (٢٠٠/٢) وانظر: السلسلة الصحيحة (٣٩٥١) (١٦٦٩/٣-٧).

(٢) رواه الطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٩٠٩) (٦١٠/٢).

(٣) صحيح البخاري (٦٧٨٣) (٣٢٧/٨).

(٤) صحيح البخاري (٦٧٨٤) (٣٢٨/٧).

١٥٩ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، و لا ينتهبُ نهبة ذات شرف يرفع الناس إليها أبصارهم وهو مؤمن»[١].

١٥٩ ـ ٤ ـ عن سلمة بن نعيم الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما هي أربع؛ لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا ولا تزنوا»[٢].

١٦٠ ـ الشفاعة في تعطيل الحدود:

١٦٠ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن قريشاً أهمَّهم شأنُ المرأةِ المخزوميةِ التي سرقت، فقال: ومن يكلِّمُ فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يَجترئُ عليه إلا أُسامةُ بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ !فكلمهُ أُسامةُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أتشفعُ في حدٍّ من حُدودِ الله؟». ثم قام فاختطَبَ، ثم قال: «إنما أهلكَ الذين قبلَكم أنهم كانوا إذا سرق فيهمُ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وأيمُ الله، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرقت لقَطعتُ يَدَها»[٣].

١٦٠ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن حالَت شفاعتُه دونَ حدٍّ من حدودِ الله، فقد ضادَّ الله في أمره، ومَن ماتَ وعليه دَينٌ فليسَ ثمَّ دينارٌ ولا درهمٌ، ولكنَّها الحسناتُ والسيئاتُ، ومن خاصَم في باطلٍ وهو يعلمُ، لم يزَل في سَخَط الله حتَّى يَنزِعَ، ومن قالَ في مؤمنٍ ما ليسَ فيه حُبِسَ في رَدغَةِ الخَبالِ حتَّى يأتيَ بالمخرَجِ مِمَّا قالَ»[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٥٧) (١/٧٦).

(٢) كتاب السنة ـ لابن أبي عاصم ـ تحقيق الألباني (٩٧٠) (٢/٤٥٦) قال الألباني: صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٧٥) (٤/٥٠٦).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٠٩) (٢/٣٥٣).

١٦١ ـ فعل فاحشة قوم لوط في أبناء المسلمين:

قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

١٦١ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجد تموهُ يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

١٦١ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً، أو امرأة في الدُّبر»(٢).

١٦١ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في الذي يعمل عمل قوم لوط. قال: «ارجُموا الأعلى والأسفلَ، ارجُموهُما جميعاً»(٣).

١٦١ ـ ٤ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ على أُمَّتي عَمَلُ قومِ لوطٍ»(٤).

١٦١ ـ ٥ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استَحلَّت أمتي خمساً فعليهمُ الدمارُ: إذا ظَهر التلاعُنُ، وشربوا الخمورَ، ولبسوا الحريرَ، واتخذوا القِيانَ، واكتفى الرجالُ بالرجالِ، والنساء بالنساء»(٥).

١٦٢ ـ قذف المحصنات:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...﴾ [النور:٤].

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٧٤٥) (٣/٨٤٤).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٩٣٠) (١/٣٤١) وقال الألباني: حسن.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٧٦) (٢/٨٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٧٧) (٢/٨٣).

(٥) رواه البيهقي، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٥٤) (٢/٤٦٧) ورقم (٢٣٨٦) (٢/٦٠٨).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣-٢٥].

١٦٢ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، و قتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق، وأكل الرِّبا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(١).

١٦٢ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(٢).

١٦٢ - ٣ - عن عمير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الكبائر تسعٌ؛ أعظمهنَّ إشراك بالله، وقتل النفس بغير حق، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، والفرار يوم الزحف، وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام، قبلتكم أحياء وأمواتا»(٣).

١٦٣ - قطع الطريق والإفساد في الأرض:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٣].

---

(١) صحيح مسلم (٨٩) (١/٨٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٨١) (٤/١٥٨٥).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٢٤٩٩) (٢/٥٥٥).

١٦٣ - ١ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قدِمَ على النبيِّ ﷺ نفرٌ من عُكلٍ فأسلمُوا، فاجتَوَوُا المدينةَ، فأمرهُم أن يأتُوا إبِلَ الصَّدقةِ فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعَلُوا فصَحُّوا فارتدُّوا وقتلوا رُعاتَها واستاقوها، فبَعَثَ في آثارهم، فأُتيَ بهم، فقطَعَ أيديهم وأرجُلَهُم وسمَلَ أعيُنهم ثمَّ لم يحسِمَهُم حتَّى ماتوا»[١].

(١) صحيح البخاري (٦٨٠٢) (٦/٣٣٢).



كتاب الأقضية

١٦٤ ـ أخذ الهدايا على القضاء:

١٦٤ ـ ١ ـ عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن استعملناهُ على عملٍ فرزقناهُ رِزقاً، فما أخذَ بعد ذلك فهو غُلولٌ»(١).

١٦٤ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنَ رسولُ الله ﷺ الراشي والمرتشي في الحُكمِ»(٢).

١٦٤ ـ ٣ ـ عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هدايا العمال؛ غلول»(٣).

١٦٥ ـ الاستعجال في إصدار الأحكام دون حاجة:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١].

وقال تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧].

١٦٥ ـ ١ ـ عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة»(٤).

١٦٥ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن سرجس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «التؤدة، والاقتصاد، والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة»(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٥٥٠) (٢/٥٦٩).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٠٧٣) (٢/٣٦).

(٣) أخرجه أحمد وابن عدي والبيهقي، انظر: إرواء الغليل (٢٦٢٢) (٨/٢٤٦).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٥) (٣/٩١٣).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٤٠٢٥) (١/٥٧٨).

١٦٥ ـ ٣ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»(١).

١٦٦ ـ استعمال من لا يوثق في دينه:

١٦٦ ـ ١ ـ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «لن نستعمِلَ، أو لا نستعمِلُ على عَمَلِنا مَن أرادَهُ»(٢).

١٦٦ ـ ٢ ـ عن عياض الأشعري، قال: أن أبا موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ وفد إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ومعه كاتب نصراني، فأعجب عمر ـ رضي الله عنه ـ ما رأى من حفظه، فقال: قل لكاتبك يقرأ لنا كتاباً، قال: إنه نصراني، لا يدخل المسجد. فانتهره عمر ـ رضي الله عنه ـ وهمَّ به، وقال: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تدنوهم، إذ أقصاهم الله، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله عزَّ وجلَّ(٣).

١٦٧ ـ اشتراط ما لا يجوز في المعاملات:

١٦٧ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما بال أُناسٍ يشترطُونَ شُرُوطاً ليست في كتاب الله؟ مَنِ اشترطَ شرطاً ليسَ في كتاب الله، فليسَ لهُ، وإن شَرَطَ مائةَ مرَّةٍ، شرطُ الله أحقُّ وأوثقُ»(٤).

١٦٧ ـ ٢ ـ عمرو بن عوف المزني ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصُّلحُ جائزٌ بين المسلمين إلا صُلْحاً حرَّمَ حلالاً أو أحلَّ حراماً، والمسلمون على شروطهم، إلا شرطاً حرَّم حلالاً، أو أحلَّ حراماً»(٥).

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده والبيهقي في سننه، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٩٥) (٤/٤٠٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٠٥٤) (٢/٦٨٣).

(٣) أخرجه البيهقي، انظر: إرواء الغليل (٢٦٣٠) (٨/٢٥٥).

(٤) صحيح مسلم (١٥٠٤) (٢/٩٢١).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١٠٨٩) (٢/٤١).

١٦٨ ـ التعزير بأكثر من عشرة أسواط:

١٦٨ ـ ١ ـ عن أبي بُردة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُجلدوا فوقَ عشرةِ أسواطٍ، إلا في حدٍّ من حدود الله»(١).

١٦٨ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعزرُوا فوقَ عشرةِ أسواطٍ»(٢).

١٦٩ ـ تولي القضاء ممن ليس من أهله:

١٦٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن وليَ القضاء، أو جُعلَ قاضياً بين الناسِ، فقد ذُبحَ بغيرِ سِكِّين»(٣).

١٦٩ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليوشِكَنَّ رجلٌ أن يتمنَّى أنَّه خرَّ من الثُّريَّا ولم يَلِ من أمرِ الناسِ شيئاً»(٤).

١٧٠ ـ الجور في الحكم بين الناس:

١٧٠ ـ ١ ـ عن ابن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الله معَ القاضِي ما لم يَجُر، فإذا جارَ تخلَّى عنهُ ولزمهُ الشيطان»(٥).

١٧٠ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله مع القاضي، ما لم يَجُر، فإذا جارَ وكلَهُ إلى نفسِه»(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٥٠) (٧/٣٤٨).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٠٨) (٢/٨٩).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٠٦٧) (٢/٣٥).

(٤) رواه ابن حبان، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢١٨٠) (٢/٥١٨).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١٠٦٩) (٢/٣٥).

(٦) صحيح سنن ابن ماجه (١٨٧٠) (٢/٣٣).

١٧١ ـ الحكم دون الاستماع للمتخاصمين:

١٧١ ـ ١ ـ عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضينَّ، حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول؛ فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء»(١).

١٧١ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تقاضى إليكَ رجلانِ، فلا تقضِ للأوَّل حتى تسمَعَ كلامَ الآخرِ، فسوفَ تدري كيفَ تقضي»(٢).

وما أكثر من يأتي إلى القضاة وهو يمسح دموع التماسيح الكاذبة بيديه الملوثة بالإثم، وهو من البراءة براء، كاخوة يوسف ـ عليه السلام ـ الذين جاءوا أباهم عشاء يبكون!!

فيجب على القاضي، ومن يحكم بين الناس ألاَّ يستعجل في الحكم حتى لا يزل ويضل.

١٧٢ ـ الحكم بجهل بين الناس:

١٧٢ ـ ١ ـ عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «القُضاةُ ثلاثةٌ: واحدٌ في الجنة، واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق، فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»(٣).

١٧٢ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «القُضاةُ ثلاثةٌ؛ اثنانِ في النار، وواحدٌ في الجنَّة؛ رجلٌ علِمَ الحقَّ فقضَى به فهو في الجنَّة، ورجلٌ قضى للناس على جهلٍ فهو في النار، ورجلٌ جارَ في الحُكمِ فهو في النار»(٤).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٠٥٧) (٦٨٤/٢).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٠٧٠) (٣٦/٢).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣٠٥١) (٦٨٢/٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٨٧٧٣) (٣٤/٢).

١٧٣ ـ الحكم بين الناس بهوى:

قال تعالى: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا...﴾ [النساء:١٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦]

وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ [المائدة:٤٨].

١٧٣ ـ ١ ـ عن أبي الأعور الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أخافُ على أُمَّتي إلا ثلاثاً: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوىً متَّبعٌ، وإمامُ ضلالٍ»(١).

١٧٤ ـ خداع الحاكم في الخصومة ليحكم له بالباطل:

١٧٤ ـ ١ ـ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمع رسول الله ﷺ خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها»(٢).

١٧٤ ـ ٢ ـ وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكم تختصمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُم أن يكونَ ألحنَ بحُجَّته من بعضٍ، فأقضي له على نحوٍ ممَّا أسمعُ منه، فمن قطَعتُ لهُ من حقِّ أخيه شيئاً، فلا يأخُذهُ، فإنما أقطعُ له به قطعة من النارِ»(٣).

١٧٥ ـ الخصومة في الباطل:

١٧٥ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن حالت شفاعتُهُ دون حدٍّ من حُدُودِ الله فقد ضادَّ الله، ومن خاصمَ

(١) أخرجه البزار في مسنده والدولابي في الكنى، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٣٧) (٧/٧١٣-٢-٧).

(٢) صحيح البخاري (٧١٨١) (٨/٤٥٩).

(٣) صحيح مسلم (١٧١٣) (٣/١٠٨٧).

في باطلٍ وهو يعلَمُهُ، لم يزل في سخطِ الله حتى ينزعَ عنه، ومن قال في مُؤمن ما ليس فيه أسكنهُ الله ردغَةَ الخبال حتى يخرج مما قال»(١).

١٧٥ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن حالَت شفاعتُه دونَ حدٍّ من حدودِ الله ؛ فقد ضادَّ الله في أمره، ومَن ماتَ وعليه دَينٌ فليسَ ثمَّ دينارٌ ولا درهمٌ، ولكنَّها الحسناتُ والسيئاتُ، ومن خاصَم في باطلٍ وهو يعلمُ ؛ لم يزَل في سَخَط الله حتَّى يَنزِعَ، ومن قالَ في مؤمِنٍ ما ليسَ فيه حُبِسَ في رَدغَةِ الخَبالِ، حتَّى يأتيَ بالمخرَجِ مِمَّا قالَ»(٢).

١٧٦ ـ الفجر في الخصومة:

١٧٦ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٣).

١٧٧ ـ القسوة في الحكم على من يستحق الرحمة:

١٧٧ ـ ١ ـ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن النبي ﷺ أتي بامرأة قد زنت، فقال: «مِمَّن؟!» قالت: من المُقعَد الذي في حائط سعد، فأرسل إليه فأتي به محمولاً، فوضع بين يديه فاعترف، فدعا رسول الله ﷺ بإثكال(٤) فضربه، ورحمه لزمانته وخفف عنه(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٠٦٦) (٢/٦٨٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٠٩) (٢/٣٥٣).

(٣) صحيح مسلم (٥٨) (١/٧٧).

(٤) هو عذق النخلة بما فيه من الشماريخ .

(٥) صحيح سنن النسائي (٥٠٠٠٢) (٣/١٠٩٩).

١٧٧ ـ ٢ ـ عن سعيد بن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان بين أبياتنا رجل مُخدَجٌ ضعيف، فلم يُرَع إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها، فرفع شأنه سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ﷺ فقال: «اجلِدُوهُ ضَربَ مئةِ سوط». قالوا: يا نبي الله! هو أضعف من ذلك، لو ضربناه مئة سوط مات. قال: «فَخُذُوا لهُ عِثكَالاً فيه مئة شِمرَاخ، فاضربُوه ضربةً واحدة»(١).

١٧٨ ـ القضاء في الأمر بقضاءين:

١٧٨ ـ ١ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقضِينَّ أحدٌ في قَضاء بقَضاءين، ولا يقضِي أحدٌ بينَ خصمينِ وهو غَضبان»(٢).

١٧٩ ـ القضاء وهو غضبان:

١٧٩ ـ ١ ـ عن عبد الرحمن بن أبي بكرةَ، قال: كتبَ أبي وكتبتُ له إلى عبيدِ الله بن أبي بكرة وهو قاض بسجستان: أن لا تحكُم بين اثنين وأنتَ غضبانُ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يحكُم أحدٌ بين اثنينِ وهو غضبان»(٣).

وكذلك ما يؤثر عليه في حكمه من الجوع والخوف والعطش والاضطراب الذي يخرجه عن طوره واستقراره النفسي.

١٨٠ ـ معاقبة الجماعة بذنوب الأفراد:

قال تعالى: **﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** [المائدة: ٨].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٨٧) (٢/٨٥).

(٢) صحيح سنن النسائي (٥٠١١) (٣/١١٠٢).

(٣) صحيح مسلم (١٧١٧) (٣/١٠٨٢).

١٨٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ فلَدغتهُ نملة، فأمرَ بجَهازِهِ فأُخرِجَ من تحتها، ثمَّ أمرَ ببيتِها فأُحرِقَ بالنار، فأوحى الله إليه: فهَلا نملةً واحدةً؟»(١).

١٨١ ـ معاقبة المرء بجرم غيره:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم:٣٦-٣٩].

١٨١ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كُفَّاراً يضربُ بعضُكُم رقاب بعضٍ، لا يؤخذُ الرَّجلُ بجنايةِ أبيه، ولا جناية أخيه»(٢).

١٨١ ـ ٢ ـ عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، في حجة الوداع: «ألا لا يجني جَانٍ إلا على نفسه، لا يجني والدٌ على ولده، ولا مولودٌ على والدِهِ»(٣).

١٨١ ـ ٣ ـ عن أسامة بن شريك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجني نفسٌ على أُخرى»(٤).

---

(١) صحيح البخاري (٣٣١٩) (٤/٤٤٢).

(٢) صحيح سنن النسائي (٣٨٤٦) (٣/٨٦٣).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٦٠) (٢/١٠٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٦٣) (٢/١٠٣).

كتاب الولاية والإمارة

١٨٢ ـ إسناد الأمر إلى غير أهله:

١٨٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ، جاءهُ أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّثُ. فقال بعضُ القوم: سمعَ ما قال فكرِهَ ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه، قال ﷺ: «أينَ أُراهُ السائلُ عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله. قال: «فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتَظرِ الساعة» قال: كيفَ إضاعَتُها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهله فانتظرِ الساعةَ»[١].

١٨٣ ـ إعانة الوالي على ظلمه:

قال تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

١٨٣ ـ ١ ـ عن كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّهُ ستَكُونُ بعدي أمراء، مَن صدَّقَهُم بكَذِبِهِم، وأعانَهُم على ظُلمِهِم، فليسَ مِنِّي، ولستُ مِنهُ، وليسَ بِوارِدٍ عليَّ الحوضَ. ومن لم يُصَدِّقهُم بِكَذِبِهم ولم يُعنهُم على ظُلمِهِم فهُوَ مِنِّي وأنا مِنهُ، وهوَ وارِدٌ عليَّ الحَوضَ»[٢].

١٨٣ ـ ٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أعانَ على خُصُومَةٍ بِظلمٍ أو يُعينُ على ظُلمٍ، لم يَزل في سَخَطِ الله حتَّى يَنزِعَ»[٣].

(١) صحيح البخاري (٥٩) (١/٢٦).

(٢) صحيح سنن النسائي (٣٩٢٣) (٢/٨٨٢).

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (١٨٧٨) (٢/٣٥).

١٨٣ ـ ٣ ـ عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ وأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ عليكم أُمراءُ يُقرِّبون شِرارَ الناس، ويُؤخِّرونَ الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك مِنكم، فلا يكونَنَّ عريفاً ولا شُرطِيًّا، ولا جابياً، ولا خازناً»(١).

١٨٤ ـ إغلاق الباب دون ذوي الحاجة:

١٨٤ ـ ١ ـ عن عمرو بن مرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من إمامٍ يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسكنة إلا أغلقَ الله أبواب السماء دون خلَّته وحاجته ومسكنته»(٢).

١٨٤ ـ ٢ ـ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن وليَ من أمر الناسِ شيئاً، فاحتجبَ عن أُولي الضعفِ والحاجةِ؛ احتجبَ الله عنه يومَ القيامةِ»(٣).

١٨٤ ـ ٣ ـ عن أبي الشمَّاخ الأزدي، عن ابن عمٍّ له من أصحاب النبي ﷺ، أنه أتى معاوية ـ رضي الله عنه ـ فدخل عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولي أمرَ الناسِ، ثم أغلق بابَهُ دون المسكين والمظلوم وذي الحاجة، أغلق الله تبارك وتعالى أبوابَ رحمتِهِ دون حاجته، وفقره أفقر ما يكون إليها»(٤).

١٨٥ ـ إهانة السلطان ومن ولاّه الله على الناس:

١٨٥ ـ ١ ـ عن زياد بن كُسيب العدوي، قال: كنت مع أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ تحت منبر ابن عامر، وهو يخطب وعليه ثياب رقاق، فقال لأبي هلال: انظروا

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٧٩٠) (٢/٤٨٥).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٠٧١) (٢/٣٦).

(٣) رواه أحمد في المسند والطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٠٩) (٢/٥٢٧).

(٤) رواه أحمد وأبو يعلى، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢١٠) (٢/٥٢٨).

إلى أميرنا يلبس ثياب الفُسَّاق. فقال أبو بكرة: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أهان سلطان الله في الأرض أهَانَهُ الله»(١).

١٨٥ - ٢ - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض، فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله»(٢).

١٨٦ - تأمير الصبيان والسُّفهاء على الناس:

١٨٦ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعوَّذُوا بالله من رأسِ السبعين وإمارَةِ الصبيان»(٣).

١٨٦ - ٢ - عن عابس الغفاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال خصالاً ستاً؛ إمرةَ السفهاء، وكثرة الشرط، وقطيعة الرحم، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، ونشواً يتخذون القرآن مزاميراً، يقدمون الرجل ليس بأفقههم ولا أعلمهم، ما يقدِّمونه إلا ليغنِّيَهم»(٤).

١٨٦ - ٣ - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنَّ النبيَّ ﷺ قال لكعب بن عجرَةَ: «أعاذكَ الله من إمارَةِ السُّفهاءِ». قال: وما إمارةُ السفهاء؟ قال ﷺ: «أُمراءُ يكونون بعدي، لا يهتدون بهديي، ولا يستنُّونَ بسنَّتي، فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظُلمهم، فأولئك ليسوا منِّي ولستُ منهم، ولا يَرِدُون عليَّ حوضي، ومن لم يصدِّقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون عليَّ حوضي..»(٥).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٨١٢) (٢/٢٤٥).

(٢) كتاب السنة - ابن أبي عاصم - ص ٤٧٨ رقم (١٠٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٩١) (٧-١/٥٧٩).

(٤) أخرجه أحمد والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٧٩) (٢/٧١٠).

(٥) رواه أحمد في المسند والبزار، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٤٢) (٢/٥٤٠).

١٨٧ ـ تحميل الرعية ما لا تطيق:

سواء كان ذلك في الولاية العامة والولايات الخاصة، والوظائف والأعمال.

١٨٧ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»(١).

١٨٨ ـ تقصير الوالي فيما يجب عليه لرعيته:

١٨٨ ـ ١ ـ عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً ثم لم يجهد لهم وينصح، فالجنة حرام عليه»(٢).

١٨٩ ـ تولية المرأة على الرجال في الولايات العامة وما يترتب عليه مفسدة:

١٨٩ ـ ١ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد نفَعني الله بكلمةٍ أيَّامَ الجملِ لَمّا بلغَ النبيَّ ﷺ، أنَّ فارساً مَلَّكُوا ابنةَ كِسرى، قال: «لَن يُفلحَ قومٌ ولَّوا أَمرَهُمُ امرأَةً»(٣).

١٨٩ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: عصمني الله بشيء سمعته من رسول الله ﷺ لَمّا هلك كسرى، قال: «من استخلفوا؟». قالوا: ابنته. فقال ﷺ: «لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوا أمرَهُم امرأةً»(٤).

١٩٠ ـ الجور والظلم في الولاية:

قال تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

(١) صحيح مسلم (١٨٢٨) (٣/١١٥٩).

(٢) صحيح مسلم (١٤٢) (١/١٢٦).

(٣) صحيح البخاري (٧٠٩٩) (٨/٤٣٤).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٨٤٧) (٢/٢٥٦).

١٩٠ ـ ١ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك، إلا أتى اللهَ عز وجل مغلولاً يوم القيامة يده إلى عنقه، فكه بره، أو أوبقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة»(١).

١٩٠ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفانِ مِن أُمَّتي لن تنالهُما شفاعتي؛ إمامٌ ظلومٌ غَشومٌ، وكلُّ غالٍ مارِقٌ»(٢).

١٩٠ ـ ٣ ـ عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن شئتُم أنبأتُكُم عنِ الإمارة وما هي؟». فناديتُ بأعلى صوتي: وما هيَ يا رسولَ الله! قال: «أوَّلُها ملامةٌ، وثانيها ندامةٌ، وثالثُها عذابٌ يومَ القيامة إلا عدَل»(٣).

١٩٠ ـ ٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ويلٌ للأمراء، ويلٌ للعُرفاء، ويلٌ للأُمناء، ليتمنَّينَّ أقوامٌ يوم القيامة أن ذوائبهم معلقةٌ بالثريا يُدَلدَلُون بين السماء والأرض، وأنهم لم يلوا عملاً»(٤).

* قال أعرابي وقد ذكر جور عامل من العمال: والله لئن عُزّوا بالظلم في الدنيا ليُذلَّنّ بالعدل في الآخرة، ولقليل باقٍ خير من كثير فانٍ، وإنما يكون العدم يوم يكون الندم(٥).

١٩١ ـ الدعاء من الولاة على الرعية ومنهم على ولاتهم:

١٩١ ـ ١ ـ عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيارُ أئمَّتكُمُ الذين تُحبُّونهُم ويُحبُّونكم، ويُصلُّون عليكُم وتُصلُّون عليهم،

(١) رواه أحمد، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢١٧٥) (٢/٥١٦).
(٢) رواه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢١٨) (٢/٥٣٢).
(٣) رواه البزار والطبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢١٧٣) (٢/٥١٥).
(٤) رواه ابن حبان والحاكم، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢١٧٩) (٢/٥١٧).
(٥) مساوئ الأخلاق وذمومها ـ الخرائطي ص٢٨٨ رقم (٦٦٠).

وشرار أئمَّتكُم الذين تبغضونَهُم ويبغضونَكُم، وتلعنُونَهُم ويلعنُونَكُم». قيل: يا رسول الله! أفلا نُنابِذُهُم بالسَّيف؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من وُلاتِكُم شيئاً تكرهونه، فاكرهُوا عملَهُ، ولا تنزعُوا يداً من طاعةٍ»(١).

١٩٢ ـ عدم التأمير في السفر إذا كانوا جماعة:

١٩٢ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجَ ثلاثةٌ في سَفَر فليُؤمِّرُوا أحدَهُم»(٢).

إنما أمر بذلك ليكون أمرهم جميعاً ولا يتفرق بهم الرأي ولا يقع بينهم خلاف فيعنتوا(٣).

١٩٣ ـ غش الرعية وعدم النصح لهم والصدق معهم:

١٩٣ ـ ١ ـ عن أبي يعلى معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبدٍ يسترعيه اللهُ رعيَّةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرعيَّته إلا حرَّم اللهُ عليه الجنة»(٤).

١٩٣ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير يلي أمر المُسلمينَ، ثم لا يجهدُ لهم وينصحُ لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة»(٥).

١٩٣ ـ ٣ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن وليَ مِن أمور المسلمين شيئاً فغشَّهُم، فهو في النَّار»(٦).

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٥) (٣/١٧٧).
(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٢٧٢) (٢/٤٩٤).
(٣) معالم السنن ـ الخطابي (٢/٢٢٦).
(٤) صحيح مسلم (١٤٢) (١/١١٦).
(٥) صحيح مسلم (١٤٢) (١/١١٦).
(٦) رواه الطبراني في الأوسط والصغير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٠٦) (٢/٥٢٦).

١٩٣ ـ ٤ ـ عن عبد الله بن مغفلٍ المزني ـ رضي الله عنه ـ قال: أشهدُ لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من إمامٍ ولا والٍ باتَ ليلةً سوداءَ غاشًّا لرعيَّته، إلا حرَّمَ الله عليه الجنَّة»(١).

١٩٤ ـ معصية الإمام الجائر فيما يأمر به من الحق:

١٩٤ ـ ١ ـ عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعته»(٢).

١٩٤ ـ ٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن نزع يداً من طاعته لقي الله يوم القيامة لا حجة له»(٣).

١٩٥ ـ مفارقة المسلمين وتفريق جماعتهم:

١٩٥ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال ـ قال رسول الله ﷺ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإنه ليس من أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية»(٤).

١٩٥ ـ ٢ ـ عن عرفجة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، وأراد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»(٥).

---

(١) رواه الطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٠٧) (٢/٥٢٦).

(٢) صحيح مسلم (١٤٤٨٢) (٣/١٤٨١).

(٣) صحيح مسلم (١٤٧٩) (٣/١٤٧٨).

(٤) صحيح البخاري (٧٠٥٤) (٧/١٣).

(٥) صحيح مسلم (١٨٥٢) (٣/١٤٨٠).



كتاب اللقطة

١٩٦ ـ أخذ لقطة الحاج ومكة إلا لمعرف:

١٩٦ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُعضدُ عِضاهُها، ولا يُنفَّرُ صيدُها، ولا تحلُّ لقطتُها إلا لمنشدٍ»[١].

١٩٦ ـ ٢ ـ عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي ـ رضي الله عنه ـ قال: «نهى ﷺ عن لقطة الحاج»[٢].

١٩٧ ـ استحلال لقطة المعاهد إلا أن يستغني عنها:

١٩٧ ـ ١ ـ عن المقدام بن معدي كرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوتيتُ الكتابَ وما يعدلُه، ويوشكُ شبعانُ على أريكته يقولُ: بيننا وبينكم هذا الكتابُ، فما كانَ فيه من حلالٍ أحلَلناه، وما كان فيه من حرامٍ حرّمناه. ألا وإنه ليس كذلك، ألا لا يحلّ ذو نابٍ من السباع، ولا الحمار الأهليّ، ولا اللقطة من مالِ معاهدٍ، إلا أن يستغني عنها، وأيّما رجلٍ أضافَ قوماً فلم يُقروه فإن له أن يُعقّبهم بمثل قِراه»[٣].

١٩٨ ـ إيواء الضالة واللقطة دون تعريفها:

١٩٨ ـ ١ ـ عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آوى ضالة فهو ضال ما لم يعرفها»[٤].

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٣٣) (٣/١٣٢).

(٢) صحيح مسلم (١٧٢٥) (٣/١٠٨٨).

(٣) رواه عباس الترقفي في حديثه، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٧٠) (٦-٢/٨٧١).

(٤) صحيح مسلم (١٧٢٥) (٣/١٠٨٨).

١٩٨ - ٢ - عن الجارود بن المعلى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ضالة المسلم حرق النار»(١).

إذا التقط لقطة عازما على تملكها بغير تعريف فقد فعل محرماً، ولا يحلُّ له أخذها بهذه النية، فإذا أخذها لزمه ضمانها سواء تلفت بتفريطه أو بغير تفريطه ولا يملكها(٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند والدارمي، انظر: السلسة الصحيحة (٦٢٠) (٢/١٨٥)

(٢) المغني - ابن قدامة (٦/١١).

كتاب الهدية والهبة

١٩٩ ـ أخذ الهدية على الشفاعة:

١٩٩ ـ ١ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من شفع بشفاعة فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الرِّبا»(١).

٢٠٠ ـ رد الهدية:

٢٠٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو دعيتُ إلى ذراعٍ أو كراع لأجبت، ولو أهديَ إليَّ ذراع أو كراع لقبلت»(٢)

٢٠٠ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أجيبوا الداعي، ولا تردوا الهدية، ولا تضربوا المسلمين»(٣).

٢٠١ ـ العودة في الهبة:

٢٠١ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يرجع في قيئه»(٤).

٢٠١ ـ ٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لرجل أن يعطي عطيَّة أو هبة فيرجع فيها، إلا الوالد فيما يعطى ولده، ومثل الذي يعطى العطيَّة، ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل، فإذا شبع قاء ثم عاد في قيئه»(٥).

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٠٢٥) (٢/٦٧٦).
(٢) صحيح البخاري (٢٥٦٨) (٣/١٨١).
(٣) صحيح الأدب المفرد ـ ص ٨٠ رقم (١١٧).
(٤) صحيح البخاري (٢٥٨٩) (٣/١٨٨).
(٥) صحيح سنن أبي داود (٣٠٢٣) (٢/٦٧٦).

٢٠٢ ـ قبول العمال للهدايا :

٢٠٢ ـ ١ ـ عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهديَ إليَّ. فقام النبيُّ ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، قال : « أما بعد : فإني أستعمل الرجل منكم، فيقول: هذا لكم وهذا لي! أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا، والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حق إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرض أحداً فيكم لقي الله يحمل بعير له رغاء، أو بقرة خوار، أو شاة تيعر ». ثم رفع يديه، فقال : « اللهم هل بلغت »(١).

٢٠٢ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « هدايا العمال غلول »(٢).

فيحرم أخذها من العامل ويحرم دفعها إليه؛ إذا كان في ذلك إهدار حق من صاحبه، أو أخذ ما ليس له، أو رفعه فوق منزلته التي يستحق، أو لتغير حكم، أو تبديل حق، أو غير ذلك مما له دور في ظلم الناس وسلب حقوقهم، فالنفس مفطورة على حب من أحسن إليها، والتغاضي عن زلات من جاد عليها.

٢٠٣ ـ قبول الهديَّة على الشفاعة :

٢٠٣ ـ ١ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَن شفَعَ شفاعةً لأحدٍ فأُهديَ له هديةً عليها فَقَبِلَها؛ فقد أتى باباً عظيماً مِن أبوابِ الربا »(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٧٩) (٨/٣٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند والبيهقي ، انظر: إرواء الغليل (٢٦٢٢) (٨/٢٤٦).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣٠٢٥) (٢/٦٧٦).

كتاب الجهاد والقتل

٢٠٤ ـ الاستعانة بالمشركين على المسلمين:

٢٠٤ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ أنها قالت: خرجَ رسولُ الله ﷺ قِبلَ بدرٍ، فلمّا كان بحرَّةِ الوبرةِ أدركَهُ رجلٌ قد كان يُذكر منه جُرأةٌ ونجدةٌ، ففرحَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ حين رأوهُ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئتُ لأتَّبعكَ وأصيبَ معك. قال له رسول الله ﷺ: «تُؤمنُ بالله ورسوله؟» قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعينَ بمشركٍ»(١).

٢٠٤ ـ ٢ ـ وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن رجلاً من المشركين لحق بالنبيِّ ﷺ ليقاتل معه، فقال: «ارجِع، إنَّا لا نستعينُ بمشركٍ»(٢).

٢٠٥ ـ ترك الجهاد في سبيل الله:

٢٠٥ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ماتَ ولم يَغزُ، ولم يُحدِّث به نفسهُ، ماتَ على شُعبةٍ من نفاقٍ»(٣).

٢٠٥ ـ ٢ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»(٤).

٢٠٥ ـ ٣ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يغزُ أو يُجهِّز غازياً أو يَخلُف غازياً في أهلِهِ بخيرٍ، أصابَهُ الله سبحانه بقارِعةٍ، قبلَ يومِ القيامة»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٨١٧) (٣/١١٥٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٣٧٢) (٢/٥٢٢).

(٣) صحيح مسلم (١٩١٠) (٣/١٢٠٥).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٢١٨٦) (٢/٤٧٥).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٣١) (٢/١٢٣).

٢٠٦ ـ تعذيب الكفَّار بالنَّار:

٢٠٦ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ في بعثٍ، فقال: «إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار»، ثم قال رسولُ الله ﷺ حين أردنا الخروجَ: «إني أمَرتُكم أن تُحرقوا فلاناً وفلاناً، وإنَّ النارَ لا يُعذِّبُ بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتُلوهما»(١).

٢٠٦ ـ ٢ ـ عن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ أن عليّاً ـ رضي الله عنه ـ حرَّقَ قوماً، فبلغَ ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ فقال: لو كنتُ أنا لم أحرِّقهم، لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تُعذِّبوا بعذاب الله»، ولقتَلتُهم كما قال النبيُّ ﷺ: «من بدَّلَ دينَهُ فاقتلوه»(٢).

٢٠٧ ـ التفريق بين السَّبي دون حاجة:

٢٠٧ ـ ١ ـ عن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن فرَّق بين والدَةٍ وولَدِها، فرَّقَ الله بينه وبين أحِبَّته يومَ القيامة»(٣).

قال أبو عيسى: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم؛ كرهوا التفريق بين السَّبي بين الوالدة وولدها، وبين الولد والوالد، وبين الإخوة(٤).

٢٠٨ ـ حمل السلاح على المسلم:

٢٠٨ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا»(٥).

(١) صحيح البخاري (٣٠١٦) (٣/٣٤٦).
(٢) صحيح البخاري (٣٠١٧) (٣/٣٤٦).
(٣) صحيح سنن الترمذي (١٢٧١) (٢/١٠٩).
(٤) صحيح سنن الترمذي (٢/١١٠).
(٥) صحيح البخاري (٦٨٧٤) (٨/٣٥٥).

٢٠٨ - ٢ - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفان فالقاتل والمقتول في النار». فقلت: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّه كان حريصاً على قتل صاحبه»(١).

٢٠٨ - ٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُشيرُ أحدُكُم على أخيه بالسِّلاحِ فإنَّه لا يدري لعلَّ الشيطانَ ينزِعُ في يدِهِ، فيقعُ في حُفرةٍ منَ النَّار»(٢).

٢٠٨ - ٤ - عن سلمة بن الاكوع - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلَّ علينا السيف، فليس منا»(٣).

٢٠٨ - ٥ - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شهَرَ المسلمُ على أخيهِ سِلاحاً؛ فلا تزالُ ملائكةُ اللهِ تلعنُه حتَّى يَشِيمَهُ عنه»(٤).

٢٠٩ - خيانة الغازي في أهله:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

٢٠٩ - ١ - عن بريدة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إلا وُقِفَ له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء. فما ظنُّكم؟!»(٥).

٢٠٩ - ٢ - عن بريدة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «حرمة نساء المهاجرين على القاعدين في الحرمة كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف

(١) صحيح البخاري (٣١) (١/١٦).
(٢) صحيح البخاري (٧٠٧٣) (٨/٤٢٦).
(٣) صحيح مسلم (٩٩) (١/٩٤).
(٤) أخرجه البزار في مسنده، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٩٧٣) (١٧٠٠/٣-٧).
(٥) صحيح مسلم (١٨٩٧) (٣/١١٩٨).

رجلاً من المهاجرين في أهله إلا نصب له يوم القيامة فيقال: يا فلان هذا فلان فخذ من حسناته ما شئت» ثم التفت النبي إلى أصحابه، فقال: «ما ظنكم ترون يدع له من حسناته شيئًا».

٢٠٩ - ٣ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثلُ الذي يجلسُ على فِراشِ المغيبةِ؛ مثلُ الذي ينهَشُه أسودُ مِن أساوِدِ يوم القيامةِ»(١)،(٢).

٢١٠ - الغلول:

قال تعالى: ﴿... وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

٢١٠ - ١ - عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ماتَ وهو بريء من الكبر والغُلُول والدَّين دخلَ الجنة»(٣).

٢١٠ - ٢ - عن عُبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوم حنين إلى جنب بعيرٍ من المقاسم، ثم تناول شيئاً من البعير، فأخذ منه قَرَدَة - يعني وَبَرة - فجعل بين أصبعيه، ثم قال: «يا أيها الناس! إنَّ هذا مِن غنائمِكُم، أدُّوا الخيطَ والمِخيطَ، فما فوقَ ذلك، فما دُون ذلك، فإنَّ الغلولَ عارٌ على أهلهِ يوم القيامةِ وشنارٌ ونارٌ»(٤).

٢١١ - الفرار من الزحف والانكشاف للعدو:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

---

(١) رواه الطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٥) (٢/٦١٦).

(٢) صحيح سنن النسائي (٢٩٩١) (٢/٦٧٢).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٢٧٨) (٢/١١١).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٠٠) (٢/١٣٩).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦-١٧].

٢١١ - ١ - عن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها الناسُ! لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسلوا الله العافيةَ، فإذا لقيتُموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحتَ ظِلالِ السُّيوف»(١).

٢١١ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، و قتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق، وأكل الرِّبا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٢).

٢١٢ - القتال دون إذن الوالدين إذا كان الجهاد فرض كفاية:

٢١٢ - ١ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يستأذنهُ في الجهادِ، فقال: «أحيٌّ والداكَ؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهِد»(٣).

٢١٢ - ٢ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن، هل لك أحد باليمن»؟ قال: أبواي. قال: «أذنَا لكَ ؟» قال: لا! قال: «ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لكَ فجاهِد، وإلاَّ فبرَّهُما»(٤).

(١) صحيح البخاري (٢٩٦٦) (٣/٣٣٠).

(٢) صحيح مسلم (٨٩) (١/٨٨).

(٣) صحيح البخاري (٣٠٠٤) (٤/٣٤١).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٢٢٠٧) (٢/٤٨١).

٢١٢ - ٣ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني جئت أريد الجهاد معك، أبتغي وجه الله والدار الآخرة، ولقد أتيتك وإن والد ليبكيان، فقال ﷺ: «ارجع إليهما، فأضحكهُما كما أبكَيتَهُما»(١).

٢١٢ - ٤ - عن معاوية بن هجاهمة السلمي - رضي الله عنه - قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله !إني كنت أريد الجهاد معك، أبتغي بذلك وجه الله، والدار الآخرة. قال: «ويحَكَ! أحَيَّةٌ أمُّكَ!» قلت: نعم! قال: «ارجِع فَبَرَّها " ثم أتيته من الجانب الآخر، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أريد الجهاد معك، أبتغي بذلك وجه الله، والدار الآخرة. قال: «ويحَكَ! أحَيَّةٌ أمُّكَ!» قلت: نعم! قال: «ارجِع فَبَرَّها» ثم أتيته من أمامه، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أريد الجهاد معك، أبتغي بذلك وجه الله، والدار الآخرة. قال: «ويحَكَ! أحَيَّةٌ أمُّكَ!» قلت: نعم! يا رسول الله، قال: «ويحك! الزَم رِجلَها، فَثَمَّ الجنَّةُ»(٢).

٢١٣ - القتال عصبية:

٢١٣ - ١ - عن جندب بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قُتل تحت راية عميَّة، يدعو عصبية أو ينصر عصبية؛ فقتلته جاهلية»(٣).

٢١٣ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرجَ من الطاعةِ، وفارقَ الجماعةَ، فماتَ، ماتَ ميتةً جاهليَّةً، ومن قاتلَ تحتَ رايةٍ عُمِّيَّةٍ، يغضبُ لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصبَةٍ، أو ينصرُ عَصَبَةً، فقُتلَ، فقتلةٌ جاهليَّةٌ،

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٤٢) (٢/١٢٦).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٤١) (٢/١٢٥).

(٣) صحيح مسلم (١٨٥٠) (٣/١١٧٥).

ومن خرجَ على أُمَّتي، يضربُ برَّها وفاجِرها، ولا يَتحاشَ من مُؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهدَهُ، فليس مِنِّي ولستُ منه»(١).

٢١٤ ـ قتل الأطفال والنساء لغير مصلحة شرعية:

قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠].

٢١٤ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: وُجدت امرأةٌ مقتُولةٌ في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتلِ النساءِ والصبيان(٢).

٢١٤ ـ ٢ ـ عن رباح بن ربيع ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً، فقال: «انظر عَلامَ اجتَمعَ هؤلاء!» فجاء، فقال: على امرأة قتيل. فقال: «ما كانت هذه لِتُقاتِلَ». قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ فبعث رجلاً، فقال: «قُل لخالدٍ لا يقتُلَنَّ امرأةً، ولا عَسيفاً»(٣).

٢١٤ ـ ٣ ـ عن حنظلة الكاتب ـ رضي الله عنه ـ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناس، فأفرجوا له، فقال: «مَا كانت هذه تُقاتلُ فيمن يُقاتِلُ» ثم قال لرجل: «انطلق إلى خالدِ بن الوليد، فقل له: إن رسولَ الله ﷺ يأمُرُكَ، يقولُ: لا تقتُلنَّ ذُرِّيَّةً ولا عَسيفاً»(٤).

٢١٤ ـ ٤ ـ عن صفوان بن عسَّال ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فقال: «سِيرُوا باسم الله، وفي سبيل الله، قَاتِلوا مَن كفرَ بالله، ولا تمثُلُوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تَغلُّوا، ولا تَقتُلُوا وليداً»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٨٤٨) (٢/١١٧٤).

(٢) صحيح البخاري (٣٠١٥) (٤/٣٤٥).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٢٣٢٤) (٢/٥٠٧).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٩٤) (٢/١٣٧).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٠٦) (٢/١٤٠).

٢١٥ ـ المثلة :

٢١٥ ـ ١ ـ عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال : « كان نبيُّ الله ﷺ يحدثنا عن الصدقة، وينهانا عن المثلة »(١).

٢١٥ ـ ٢ ـ عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال : « نهى ﷺ عن المثلة »(٢).

المثلة؛ تعذيب المقتول بقطع أعضائه وتشويه خلقه قبل أن يقتل أو بعده، وذلك مثل أن يجدع أنفه أو أذنه أو يفقأ عينه(٣).

٢١٦ ـ نقض العهد :

٢١٦ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « .. ومن خرجَ على أُمَّتي، يضربُ برَّها وفاجِرها، ولا يَتحاشَ من مُؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهدَهُ، فليس مِنِّي ولستُ منه »(٤).

٢١٦ ـ ٢ ـ عن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن كان بينهُ وبين قومٍ عهدٌ فلا يَحُلَّنَّ عَهداً، ولا يَشُدَّنَّهم حتَّى يمضي أمَدُهُ أو يَنبِذَ إليهم على سَواء »(٥).

٢١٦ ـ ٣ ـ عن أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ قال : بعثتني قريش إلى رسول الله ﷺ فلما رأيت رسول الله ﷺ ألقى في قلبي الإسلام، فقلت : يا رسول الله ! إني والله لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ : « إنِّي لا أخِيسُ بالعهدِ، ولا أحبِسُ

(١) صحيح أبي داود (٢٣٢٢) (٢/٥٠٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٦٧٢) (٣/٨٢٦).

(٣) معالم السنن ـ الخطابي (٢/٢٤٢).

(٤) صحيح مسلم (١/٨٤٨) (٣/١١٧٤).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١٢٨٥) (٢/١١٤).

البُـرُد، ولكن ارجِع، فإن كـان في نفسِكَ الذي في نفسِكَ الآنَ، فـارجِع». قـال: فذهبت، ثم اتيت النبيَّ ﷺ فأسلمت(١).

٢١٧ ـ النهبة:

٢١٧ ـ ١ ـ عن كليب، عن رجل من الأنصار، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس حاجة شديدة و جهد، و أصابوا غنماً فـانتـهبـوها، فإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قـوسه فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل اللحم بالتراب، ثم قال ﷺ: «إن النهبة ليست بأحل من الميتة»(٢).

٢١٧ ـ ٢ ـ عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من انتهب نهبة، فليس منا»(٣).

٢١٧ ـ ٣ ـ عن ثعلبة بن الحكم ـ رضي الله عنه ـ قـال: أصـبنا غنمًا للعـدو. فانتـهبناها. فنصبنا قدورنا. فمر النبي ﷺ بالقدور. فأمر بها فأكفئت. ثم قال ﷺ: «إن النهبة لا تحل»(٤).

(١) صحيح سنن أبي داود (٢٣٩٦) (٢٥٢٧).
(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٣٥٤) (٢/٥١٦).
(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٣١٨٠) (٢/٣٤٩).
(٤) صحيح سنن ابن ماجة (٣١٨١) (٢/٣٤٩).

كتاب الأشربة

٢١٨ ـ تأخير دورُ من له حقٌّ في الشراب بعد غيره:

٢١٨ ـ ١ ـ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسولَ الله ﷺ أُتيَ بشراب، فشَرِبَ منه، وعن يمينه غُلامٌ وعن يسارِهِ الأشياخُ، فقال للغلامِ: «أتأذنُ لي أن أُعطيَ هؤلاء؟» فقال الغلامُ: والله يا رسولَ الله! لا أُوثِرُ بنصيبي منكَ أحداً! قال: فَتَلَّهُ رسولُ الله ﷺ في يدِه(١).

٢١٨ ـ ٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: أن رسولَ الله ﷺ أُتيَ بلبنٍ قد شيبَ بماءٍ، وعن يمينه أعرابيٌّ، وعن شِمالِهِ أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ فشربَ ثم أعطى الأعرابيَّ، وقال: «الأيمنَ فالأيمنَ»(٢).

٢١٨ ـ ٣ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُتي رسول الله ﷺ بلبن، وعن يمينه ابن عباس، وعن يساره خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ فقال رسول الله ﷺ لابن عباس: «أتأذنُ لي أن أسقيَ خالداً!» قال ابن عباس: ما أحب أن أوثر بسُؤرِ رسول الله ﷺ على نفسي أحداً. فأخذ ابن عباس، فشرب وشرب خالد(٣).

٢١٨ ـ ٤ ـ عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: زارنا رسول الله ﷺ فبات عندنا؛ والحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ نائمان، فاستسقى الحسن ـ رضي الله عنهما ـ فقام رسول الله ﷺ إلى قربة لنا، فجعل يعصرها في القدح، ثم يسقيه،

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٢٠) (٦/٦٠٩).

(٢) صحيح البخاري (٥٦١٩) (٦/٦٠٩).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٦٦) (٢/٢٥٠).

فتناوله الحسين - رضي الله عنهما - ليشرب فمنعه، وبدأ بالحسن، فقالت فاطمة - رضي الله عنها: يا رسول الله !كأنه أحب إليك ؟ فقال: «لا، ولكنه استسقى أول مرَّة» ثم قال: «إنِّي، وإيَّاكِ، وهذين، وهذا الرَّاقد - يعني: عليَّاً - يومَ القيامة في مكان واحدٍ، يعني: فاطمةَ وولديها: الحسن والحسين - رضي الله عنهم[1].

٢١٩ - التنفس في الإناء:

٢١٩ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفَّس في الإناء»[2].

٢١٩ - ٢ - عن أنس - رضي الله عنه -: قال: كان ﷺ إذا شربَ تنفَّسَ ثلاثاً، ويقولُ: " هُوَ أروى، وأبرأُ، وأمرأُ»[3].

٢١٩ - ٣ - عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شَرِبَ أحَدُكُم فلا يَتَنَفَّس في الإناء»[4].

٢١٩ - ٤ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: أنَّ النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجل: القذاة أراها في الإناء؟ فقال: «أهرقها »، فقال: فإني لا أروى من نفس واحد ؟ قال: «فأبِنِ القدحَ إذاً عن فيك»[5].

٢٢٠ - الحلب من شاة الغير دون إذنه:

٢٢٠ - ١ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُبَنَّ أحدٌ ماشيةَ امرئٍ بغير إذنه، أيحبُّ أحدكم أن تؤتى مشربتهُ فتكسرَ خزانتُه

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣١٩) (٧-٢/٩٤٢).

(٢) صحيح البخاري (٥٦٣٠) (٦/٦١١).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٢٨) (٣/١٢٧٥).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٥٤٠) (٢/١٧٣).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١٥٣٨) (٢/١٧٢).

فيُنتقَل طعامُه؟ !فإنما تخزُن لهم ضروعُ مواشيهم أطعماتِهم، فلا يحلُبنَّ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه»[١].

٢٢٠-٢ - وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلب أحد ماشية أحد إلا بإذنه»[٢].

٢٢١ - الشرب في آنية الذهب والفضة لكسر قلوب الفقراء:

٢٢١ - ١ - عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشرَبوا في آنية الذَّهبِ والفضَّةِ، ولا تَلبَسُوا الحريرَ والدِّيباجَ، فإنَّها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[٣].

٢٢١ - ٢ - عن أمِّ سلمةَ - رضي الله عنها - قالت: أن النبي ﷺ قال: «الذي يشربُ في آنيةِ الفضَّةِ إنما يُجرجرُ في بطنِهِ نارَ جهنَّمَ»[٤].

٢٢٢ - الشرب من في السقاء:

٢٢٢ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «نهى ﷺ عن الشرب من فيِّ السِّقاء»[٥].

٢٢٢ - ٢ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «نهى رسول الله ﷺ عن اختناثِ الأسقِيةِ»[٦]. يعني أن تُكسرَ أفواهها ويُشربَ فيها.

٢٢٢ - ٣ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «نهى ﷺ أن يشرب من فيِّ السقاء، لأن ذلك يُنتنه»[٧].

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٣٥) (٨/١٣٣).

(٢) صحيح مسلم (١٧٢٦) (٣/١٠٨٨).

(٣) صحيح البخاري (٥٦٣٣) (٦/٦١٢).

(٤) صحيح البخاري (٥٦٣٤) (٦/٦١٢).

(٥) صحيح البخاري (٥٦٢٩) (٦/٦١١).

(٦) صحيح البخاري (٥٦٢٥) (٦/٦١١).

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٤٠٠) (١/٦٨٦).

٢٢٣ ـ صنع الخمر للناس وحملها إليهم وبيعها عليهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

٢٢٣ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ شرابٍ أسكَرَ فهو حرامٌ»(١).

٢٢٣ ـ ٢ ـ عن أبي عامر الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: "لَيكُونَنَّ مِن أُمَّتي أقوامٌ يستَحِلُّونَ الحِرَ والحريرَ والخمرَ والمعازِف»(٢).

٢٢٣ ـ ٣ ـ عن أبي عمر يحي النَّخعيِّ، قال: سألَ قومٌ ابنَ عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ عن بيعِ الخمرِ وشرائها والتِّجارةِ فيها؟ فقال: أَمُسلِمونَ أنتمُ؟ قالوا: نعم. قال: فإِنَّهُ لا يصلحُ بيعُها، ولا شِراؤها، ولا التِّجارةُ فيها(٣).

٢٢٣ ـ ٤ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لُعِنَت الخَمرُ على عَشرَةِ أوجُهٍ: بِعينِها، وعاصِرِها، ومُعتَصِرِها، وبائعها، ومُبتاعِها، وحامِلِها، والمحمولةِ إليهِ، وآكلِ ثَمنِها، وشَارِبها، وسَاقيهَا»(٤).

٢٢٣ ـ ٥ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: أوصاني خليلي ﷺ: «لا تشرَبِ الخمرَ، فإنَّها مِفتاحُ كُلِّ شَرٍّ»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٨٥) (٦/٦٠٠).

(٢) صحيح البخاري (٥٥٩٠) (٦/٦٠١).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٠٤) (٣/١٢٤٦).

(٤) صحيح سنن ابن ماجة (٢٧٢٥) (٢/٢٤٣).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧١٧) (٢/٢٤١).

٢٢٣ - ٦ - وعنه - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنَّةَ مُدمِنُ خمرٍ»(١).

٢٢٣ - ٧ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مُدمِنُ الخمرِ كعَابِدِ وثَنٍ»(٢).

٢٢٣ - ٨ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن شرِبَ الخمرَ في الدنيا ولم يتُب؛ لم يشرَبها في الآخرة، وإن أُدخِلَ الجنَّة»(٣).

٢٢٣ - ٩ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الخمر أمُّ الفواحش، وأكبرُ الكبائر، من شَرِبها وقعَ على أُمِّه وخالتهِ وعَمَّتهِ»(٤).

٢٢٣ - ١٠ - عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الخمرُ أُمُّ الخبائث، ومن شربها لم يقبلِ الله منه صلاةً أربعين يوماً، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية»(٥).

٢٢٣ - ١١ - وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ملكاً من مُلوكِ بني إسرائيلَ أخذَ رجلاً فخيَّرَهُ بين أن يشرَبَ الخمرَ، أو يقتُلَ نفساً، أو يزني، أو يأكلَ لحمَ خنزيرٍ، أو يقتُلُوه إن أبى. فأختارَ الخمرَ، وإنَّه لَمَّا شربَ الخمرَ لم يمتنِع من شيءٍ أرادوه منه»(٦).

٢٢٣ - ١٢ - وعنه - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من وضَعَ الخمرَ، ومن أدمنَ على شربِها، سُقيَ من الخبالِ»(٧).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٢٠) (٢/٢٤١).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٢٠) (٢/٢٤١).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٦٣٥) (٦-١/٢٨١).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٥٣) (٤/٤٦٨).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط والواحدي في الوسيط، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٥٤) (٤/٤٦٩).

(٦) رواه الطبراني والحاكم، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٧٠) (٢/٦٠٢).

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٦٥٩١) (٢/١١٢١).

٢٢٤ ـ النفخ في الشراب:

٢٢٤ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجلٌ: القذاةُ أراها في الإناء؟ فقال: «أهرقها». قال: إنِّي لا أروى من نفس واحد؟ قال: «فأبن القَدَحَ إذاً عن فيكَ»(١).

٢٢٤ ـ ٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ﷺ: قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُنفخَ في الإناء(٢).

قال الجزري: إنما نهى عنه من أجل ما يخاف أن يبدر من ريقه فيقع فيه فربما شرب بعده غيره فيتأذى به(٣).

لأن النفخ إنما يكون لأحد معنيين؛ فإن كان حرارة الشراب فليصبر حتى يبرد، وإن كان من أجل قذى يبصره فيه فليمطه بإصبع أو بخلال أو نحوه، ولا حاجة به إلى النفخ فيه بحال(٤).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٥٣٨) (٢/١٧٣).

(٢) صحيح سنن ابن ماجة (٢٧٦٩) (٢/٢٥١).

(٣) تحفة الأحوذي ـ المباركفوري (٩/٦).

(٤) معالم السنن ـ الخطابي (٣/٢٥٥).

كتاب الأطعمة

٢٢٥ ـ الإقران في التمر وما شابهه دون الإذن:

٢٢٥ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل مع قوم تمراً، فلا يقرن إلا أن يأذنوا له»(١).

٢٢٥ ـ ٢ ـ عن جبلةَ ابن سحيمٍ، قال: كان ابنُ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ يرزُقنا التَّمرَ، قال: وقد كان أصابَ الناسَ يومئذٍ جَهدٌ، وكنَّا نأكُلُ فيمرُّ علينا ابنُ عُمرَ ﷺ ونحنُ نأكلُ، فيقولُ: لا تُقارِنُوا. فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى عَنِ الإقرانِ(٢).

وفي معنى التمر؛ الرطب، وكذا الزبيب، والعنب، ونحوهما، لوضوح العلة الجامعة(٣).

٢٢٦ ـ الإكراه على الطعام:

٢٢٦ ـ ١ ـ عن عطية بن عامر الجهني؛ قال: سمعت سلمان ـ رضي الله عنه ـ وأُكرِه على طعام يأكله، فقال: حسبي، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أكثرَ الناسِ شبعاً في الدنيا، أطولَهُم جُوعاً يوم القيامة»(٤).

٢٢٧ ـ الأكل مما يلي الناس من الطعام الواحد:

٢٢٧ ـ ١ ـ عن عمرو بن سلمة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت غلاماً في حِجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام! إذا أكلت، فقل: بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٥٥) (٣/١٤١).

(٢) صحيح مسلم (٢٠٤٥) (٣/١٢٨٧).

(٣) فتح الباري ـ ابن حجر (٩/٥٧٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٠٦) (٢/٢٣٧).

(٥) صحيح البخاري (٥٣٧٦) (٦/٥٣٩).

٢٢٧ - ٢ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كانَ ﷺ إذا أكلَ الطَّعامَ أكلَ ممَّا يليه(١).

٢٢٨ - الأكل من وسط الطعام وأعلاه دون حافاته:

٢٢٨ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم طعاماً، فلا يأكل من أعلى الصَّحفَةِ، ولكن ليأكل من أسفلها؛ فإن البركة تنزل من أعلاها»(٢).

٢٢٨ - ٢ - وعنه - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «إنَّ البركةَ تنزِلُ وسطَ الطَّعام فكُلُوا مِن حافتيهِ ولا تأكُلوا مِن وسطه»(٣).

٢٢٨ - ٣ - وعنه - رضي الله عنهما -: قال رسول الله ﷺ: «إذا وُضِعَ الطَّعَامُ، فَخُذوا مِن حافتِهِ، وذرُوا وسَطَهُ. فإنَّ البركَةَ تَنزِلُ في وسَطِهِ»(٤).

٢٢٨ - ٤ - عن عبد الله بن بُسر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ أُتي بقصعة. فقال رسول الله ﷺ: «كُلُوا مِن جوانبها، ودعُوا ذُروتَها، يُبارك فيها»(٥).

٢٢٨ - ٥ - عن سلمى - رضي الله عنها - قالت: «كانَ ﷺ يكرهُ أن يُؤخَذَ من رأسِ الطعامِ»(٦).

٢٢٩ - إيذاء الناس بالروائح الكريهة:

٢٢٩ - ١ - عن عبد العزيز، قال: قيلَ لأنسٍ - رضي الله عنه: ما سمعتَ النبيَّ ﷺ يقولُ في الثُّومِ؟ فقال: «مَن أكلَ فلا يقربَنَّ مَسجِدَنا»(٧).

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٠٦٢) (٥/٩٤).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٢٠٦) (٢/٧١٩).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٤٧٤) (٢/١٥٩).

(٤) صحيح سنن ابن ماجة (٢٦٥٠) (٢/٢٢٦).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٤٨) (٢/٢٢٦).

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٢٥) (٧-١/٣٣٧).

(٧) صحيح البخاري (٥٤٥١) (٦/٥٦٠).

٢٢٩ ـ ٢ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أكلَ ثُوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو ليعتزل مَسجِدنا»(١).

٢٣٠ ـ التفرق على الطعام وعدم الاجتماع عليه:

٢٣٠ ـ ١ ـ عن وحشِيٍّ بن حرب، عن أبيه، عن جده: أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله! إنا نأكل ولا نشبع. قال: «فلعلكم تفترقون»؟ قالوا: نعم! قال: «فاجتمعوا على طعامكم، واذكُروا اسم الله عليه، يُبارَك لكُم فيه»(٢).

٢٣٠ ـ ٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلوا جميعاً ولا تَتَفرَّقوا؛ فإن طعامَ الواحدِ يكفي الاثنين، وطعامَ الاثنين يكفي الأربعةَ»(٣).

٢٣١ ـ التقصير في إكرام الضيف:

٢٣١ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(٤).

٢٣١ ـ ١ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ: قال رسول الله ﷺ: «لا خيرَ فيمن لا يُضيفُ»(٥).

٢٣٢ ـ التكلف للضيف فوق القدرة:

٢٣٢ ـ ١ ـ عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتكلفنَّ أحدٌ لضيفهِ ما لا يقدرُ عليهِ»(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٥٢) (٦/٥٦٠).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣١٩٩) (٢/٧١٧).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢١٣٢) (٢/٥٠٠).

(٤) صحيح البخاري (٦١٣٩) (٧/١٣٦).

(٥) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٣٤) (٥/٥٦١).

(٦) أخرجه أبو نعيم في أخبار اصبهان والخطيب في التاريخ والديلمي، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٤٠) (٥/٥٦٨).

عن شقيق، قال: دخلت أنا وصاحب لي على سلمان ـ رضي الله عنه ـ فقرب إلينا خبزاً وملحاً، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلف، لتكلفت لكم. فقال صاحبي: لو كان في ملحنا سعتر، فبعث بمطهرته إلى البقال، فرهنها، فجاء بسعتر، فألقاه فيه، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا. فقال سلمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة عند البقال»[١].

* قال جعفر بن محمد: أثقل إخواني عليَّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي[٢].

* عن محمد بن سيرين: قال: كانوا يقولون: لا تكرم صديقك بما يشق عليه وبما يكره[٣].

٢٣٣ ـ الجشاء عند الامتلاء من الطعام:

٢٣٣ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: تجشأ رجل عند النبي ﷺ فقال رسول الله ـ: «كُفَّ عنّا جُشاءَكَ، فإنَّ أكثركم شبعاً في الدنيا أطولُهم جُوعاً يوم القيامة»[٤].

٢٣٣ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنهما ـ قال: تجشأ رجل عند النبي ـ فقال النبي ﷺ فقال: «كُفَّ جُشاءك عنّا. فإنَّ أطولَكُم جُوعاً يومَ القيامةِ، أكثَرُكُم شبعاً في دارِ الدنيا»[٥].

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: إذا تجشى الرجل ينبغي أن يرفع وجهه إلى فوق لكيلا يخرج من فيه رائحة يؤذي بها الناس[٦].

---

(١) أخرجه الحاكم، انظر السلسلة الصحيحة (٢٣٩٢) (٥/٥١١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ـ ابن قدامة المقدسي ص١٠٤.

(٣) الزهد ـ أحمد بن حنبل ـ ص ٣٧٢.

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٠١٥) (٢/٣٠٣).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٠٥) (٢/٢٣٧).

(٦) الآداب الشرعية ـ ابن مفلح (٢/٣٤٦).

٢٣٤ ـ جوع الجار وهو شبعان:

٢٣٤ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»(١).

٢٣٤ ـ ٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من باتَ شبعان وجارُهُ جائعٌ إلى جنبِهِ وهوَ يعلمُ به»(٢).

٢٣٥ ـ دعوة الأغنياء إلى الوليمة دون الفقراء:

٢٣٥ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ الطّعامِ طعامُ الوليمةِ؛ يدعى لها الأغنياءُ ويُتركُ الفقراءُ، ومن تَرَكَ الدَّعوةَ فقد عصى الله ورسوله»(٣).

٢٣٥ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ الطعامِ طعامُ الوليمة. يُمنَعُها من يأتيها، ويُدعى إليها من يأباها، ومن لم يُجب الدعوةَ فقد عصى الله ورسوله»(٤).

٢٣٦ ـ عدم التسمية من أحد الآكلين إذا اجتمعوا على طعام:

٢٣٦ ـ ١ ـ عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: إنا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً، فجاءت جارية كأنما تُدفَع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذَ رسولُ الله ﷺ بيدها، ثمَّ جاء أعرابي كأنَّما يُدفَعُ، فأخذ بيده، فقالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّيطانَ ليستحلُّ الطعامَ أن لا يُذكرَ اسمُ الله عليه، وإنَّه جاءَ بهذه الجاريةِ ليستَحِلَّ بها، فأخذتُ بيدها، فجاءَ بهذا الأعرابيِّ ليَستحلَّ بهِ، فأخذتُ بيدِهِ، والذي نفسي بيدِهِ إنَّ يدهُ لفي يدي مع يديهِما»(٥).

---

(١) صحيح الأدب المفرد ـ ص ٦٧ رقم (٨٢).

(٢) أخرجه البزار في سننه والطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٥٥٠٥) (٢/٩٦٧).

(٣) صحيح البخاري (٥١٧٧) (٦/٤٧١).

(٤) صحيح مسلم (١٤٣٢) (٢/٨٥٥).

(٥) صحيح مسلم (٢٠١٧) (٣/١٢٧٠).

٢٣٧ - ٢ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّهُ لو سَمَّى لَكَفَاكُم»(١).

٢٣٧ - عَيْب طعام الناس:

٢٣٧ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: قال: ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط؛ إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه(٢).

٢٣٧ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ عابَ طعاماً قَطٌّ. كان إذا اشتهاهُ أكلَهُ، وإن لم يشتَهِهِ سكتَ(٣).

قال ابن بطال: وهذا من حسن الأدب، لأن المرء قد لا يشتهي الشيء ويشتهيه غيره، وكلُّ مأذون في أكلهِ من قِبلَ الشرعِ ليس فيه عيب(٤).

٢٣٨ - مرافقة المدعو للوليمة دون إذن الداعي:

٢٣٨ - ١ - عن أبي مسعود الأنصاري - رضي الله عنه - قال: كانَ رجلٌ من الأنصارِ، يُقالُ لهُ أبُو شُعيبٍ، وكان لهُ غُلامٌ لحَّامٌ، فرأى رسولَ الله ﷺ فعرَفَ في وجهه الجُوعَ. فقال لغُلامه: ويحَك! اصنعَ لنا طعاماً لخمسة نفرٍ، فإني أُريدُ أن أدعُو النبيَّ ﷺ خامسَ خمسةٍ. قالَ: فصنعَ، ثمَّ أتى النبيَّ ﷺ فدعاهُ خامسُ خمسةٍ، واتَّبعَهُم رجلٌ، فلمَّا بلغَ البابَ قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هذا اتَّبعنا، فإن شئتَ أن تأذنَ لهُ، وإن شئتَ رجَعَ» قال: لا، بل آذنُ لهُ يا رسولَ الله(٥).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٥١٤) (٢/١٦٧).

(٢) صحيح البخاري (٥٤٠٩) (٦/٥٤٨).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٦٤) (٣/١٢٩٩).

(٤) فتح الباري - ابن حجر (٩/٥٤٨).

(٥) صحيح مسلم (٢٠٣٦) (٣/١٢٨٠).

كتاب اللباس والزينة

٢٣٩ - إيذاء النفوس بلباس ثياب الشهرة:

٢٣٩ - ١ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لبِسَ ثوبَ شُهرَةٍ ألبسَهُ اللهُ يوم القيامة ثوباً مثله، ثمَّ يُلهبُ فيه النَّار»(١).

٢٣٩ - ٢ - وعنه - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لَبِسَ ثوبَ شُهرَةٍ ألبسَهُ اللهُ، يومَ القيامةِ، ثَوبَ مذلَّةٍ»(٢).

٢٤٠ - التباهي على الناس وكسر قلوبهم بفضول اللباس:

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:٧٩].

٢٤٠ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظرُ اللهُ يومَ القيامةِ إلى مَن جرَّ إزارَهُ بطراً»(٣).

٢٤٠ - ٢ - عن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي قال: ذكَرَ أصحابُ رسول الله ﷺ يوماً عندهُ الدُّنيا: فقال رسول الله ﷺ «ألا تَسمَعُونَ؟ ألا تسمعون؟ إنَّ البَذَاذَةَ منَ الإيمانِ»(٤).

٢٤٠ - ٣ - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلوا واشربوا وتصدَّقوا والبَسُوا، ما لم يُخالطهُ إسرافٌ أو مخيَلةٌ»(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٣٩٩) (٢/٧٦١).

(٢) صحيح سنن ابن ماجة (٣٣٩٩) (٢/٢٨٤).

(٣) صحيح البخاري (٥٧٨٨) (٧/٤٤).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٣٥٠٧) (٢/٧٨٤).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٠٤) (٢/٢٨٤).

البذاذة هي: رثاثةُ الهيئةِ وتركُ فاخرِ اللباس[1].

٢٤٠ - ٤ - عن ضمرة بن ثعلبة - رضي الله عنه - أنه أتى النبيَّ ﷺ وعليه حُلَّتانِ من حُلَلِ اليمن، فقال ﷺ: «يا ضَمرةُ! أترَى ثوبيكَ مُدخليكَ الجنة؟» فقال: لئنِ استغفرتَ لي يا رسولَ اللهِ! لا أقعدُ حتى أنزِعَهُما عنِّي. فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ! اغفر لضَمرةَ بن ثَعلبةَ»[2].

٢٤١ - التبرج من النساء لفتنة الرجال:

قال تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٢٤١ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفانِ مِن أهلِ النارِ لم أرَهُما. قومٌ معهُم سياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربُونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مميلاتٌ مائلاتٌ، رءوسهن كأسنمة البُختِ المائلةِ لا يدخلنَ الجنةَ، ولا يجدنَ ريحهَا، وإنَّ ريحها ليُوجدُ مِن مسيرةِ كذا وكذا»[3].

٢٤١ - ٢ - عن أبي أذينة الصدفي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «خير نسائكم الودُودُ الولودُ، المواتية، المواسية؛ إذا اتَّقينَ اللهَ، وشرُّ نسائكم المُتبرِّجاتُ المتخيلات، وهنَّ المنافقات، لا يدخل الجنة منهنَّ إلا مثلُ الغراب الأعصم»[4].

---

(١) رياض الصالحين - النووي ص ٢٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ وأحمد والبزار ، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٠١٨) (٤٣/١-٧).

(٣) صحيح مسلم (٢١٢٨) (٣/١٣٣٩).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن ، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٤٩) (٤/٤٦٤) والأعصم : هو أحمر المنقار والرجلين ، وهو كناية عن قلة من يدخل الجنة من النساء ، لأن هذا الوصف في الغربان قليل .

٢٤٢ ـ تطيب النساء في مجامع الرجال:

٢٤٢ ـ ١ ـ عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا استعطرَتِ المرأةُ فمرَّت على قومٍ ليجدوا ريحَها، فهي كذا وكذا» قال: قولاً شديداً(١). وفي رواية، قال: «فهي زانيةٌ»(٢).

٢٤٢ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه لقيَتهُ امرأة وجد منها ريح الطيب ينفح ولذيلها إعصار(٣)، فقال: يا أمَةَ الجبَّارِ، جئتِ من المسجد؟ قالت: نعم! قال: وله تطيبت؟ قالت: نعم! قال: إني سمعت حِبِّي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تُقبَلُ صلاةٌ من امرأة تطيَّبت لهذا المسجدِ، حتَّى ترجعَ فتَغتَسِلَ غُسلَهَا من الجَنابَةِ»(٤) وفي رواية، قال: «إذا خرجتِ المرأةُ إلى المسجد فلتغتسل من الطِّيب، كما تغتسل من الجنابة»(٥).

٢٤٢ ـ ٣ ـ عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجدَ الله، وليخرجن تَفِلات»(٦).

٢٤٣ ـ كشف العورة لإحداث الفتنة:

٢٤٣ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضى الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»(٧).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٢٣٨) (٢/٣٦٣).

(٢) صحيح سنن النسائي (٤٧٣٧) (٣/١٠٤٩).

(٣) له غبار ترفعه الريح.

(٤) صحيح سنن أبي داود (٣٥١٧) (٢/٧٨٧).

(٥) صحيح سنن النسائي (٤٧٣٨) (٣/١٠٤٩).

(٦) صحيح سنن أبي داود (٥٩) (١/١١٣) وتفلات بمعنى؛ تاركات الطيب. النهاية (١/١٩١).

(٧) صحيح مسلم (٣٣٨) (١/٢٢٢).

٢٤٣ - ٢ - عن المسور بن مخرمة - رضي الله عنه - قال: حملت حجراً ثقيلاً، فبينما أمشي فسقط عني ثوبي، فقال لي رسول الله ﷺ: «خُذ عليك ثوبَكَ، ولا تمشُوا عُراةً»(١).

٢٤٣ - ٣ - عن جرهد - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ مرَّ به وهو كاشف عن فخذه، فقال النبي ﷺ: «غطِّ فخذَكَ، فإنَّها من العورة»(٢).

٢٤٣ - ٤ - عن يعلى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَراز، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ حليم، حييٌّ، ستِّيرٌ، يُحبُّ الحياء والسِّترَ، فإذا اغتسلَ أحدُكُم، فليَستَتر»(٣).

٢٤٣ - ٥ - عن جابر بن صخر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا نُهينا أن تُرى عوراتُنا»(٤).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٣٩٠) (٢/٧٥٩).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٢٤٥) (٢/٣٦٤).

(٣) صحيح سنن النسائي (٣٩٣) (١/٨٧).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٠٦) (٤/٢٨١).

كتاب الاستئذان والمجالس

٢٤٤ ـ إتيان البيوت بأوقات غير مناسبة:

٢٤٤ ـ ١ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيُّ ﷺ لا يَطرُقُ أهلَهُ، كان لا يدخُلُ إلا غُدوةً أو عشيَّةً(١).

٢٤٤ ـ ٢ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا مع رسولِ الله ﷺ في غزاةٍ، فلما قدمنا المدينةَ ذهبنا لندخُلَ، فقال: «أَمهِلُوا حتَّى ندخلَ ليلاً (أي عِشاءً) كي تمتَشطَ الشعثَةُ، وتستحِدَّ المُغيَبةُ»(٢).

٢٤٥ ـ إدخال المخنثين على النساء في البيوت:

٢٤٥ ـ ١ ـ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وعندي مخنَّثٌ، فسمعه يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله! أرأيتَ إن فتحَ الله عليكم الطائفَ غداً فعليك بابنة غيلان، فإنها تُقبلُ بأربعٍ وتدبر بثمانٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَدخُلنَّ هؤلاء عليَكُنَّ»(٣).

٢٤٥ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ أُتي بمخنث، قد خضب يديه ورجليه بالحناء! فقال النبيُّ ﷺ: «ما بال هذا؟» فقيل: يا رسول الله! يتشبه بالنساء، فأمر فنفي إلى النقيع، فقالوا: يا رسول الله! ألا نقتله؟ فقال: «إني نهيت عن قتل المصلين»(٤).

---

(١) صحيح البخاري (١٨٠٠) (٢/٥٥٣).

(٢) صحيح مسلم (٧١٥) (٣/١٢١٢).

(٣) صحيح البخاري (٤٣٢٤) (٥/١٢١).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤١١٩) (٣/٩٣١).

قال أبو أسامة: والنقيع ناحية عن المدينة، وليس البقيع.

٢٤٦ ـ الاستلقاء بين الناس بأوضاع تجلب السوء أو تكشف العورة:

٢٤٦ ـ ١ ـ وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن اشتمال الصَّمَّاء، والاحتباء في ثوبٍ واحدٍ، وأن يرفعَ الرَّجلُ إحدى رجليه على الأخرى، وهو مستلقٍ على ظهره(١).

٢٤٦ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ رسول الله ﷺ على رجل مضطجع على بطنه، فغمزه برجله، وقال: «إنَّ هذه ضِجعة لا يحبُّها الله»(٢).

٢٤٧ ـ الاستماع لكلام الناس وهم كارهون:

٢٤٧ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تحلَّمَ بِحُلُمٍ لَم يَرَهُ كُلِّفَ أن يعقدَ بين شعيرتين، ولن يفعَلَ، ومن استَمَعَ إلى حديثِ قومٍ وهم لهُ كارهونَ أو يفرُّونَ منه صُبَّ في أُذُنه الآنُكُ(٣) يومَ القيامةِ، ومن صَوَّرَ صُورةً عُذِّبَ وكُلِّف أن ينفخَ فيها وليسَ بنافخٍ»(٤).

فليس للإنسان أن يسترق السمع من دار غيره، ولا أن يستخبر من صغار دار أو جيرانها ليعلم ما يجري في بيت جاره(٥).

٢٤٨ ـ الإطالة المخلَّة في الكلام بالمجالس:

٢٤٨ ـ ١ ـ عن أبي ظبية، أن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال يوماً ـ وقام رجل فأكثر القول ـ فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد رأيتُ ـ أو أمرتُ ـ أن أتجوَّزَ في القولِ؛ فإنَّ الجَوازَ هو خيرٌ»(٦).

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٩٩) (٣/١٣٢٣).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٢٢١) (٢/٣٥٩).

(٣) الآنك هو: الرصاص الأبيض، انظر: النهاية (١/٧٧).

(٤) صحيح البخاري (٧٠٤٢) (٨/٤١٦).

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر ـ الهيثمي (٢/٢٦٨) بتصرف.

(٦) صحيح سنن أبي داود (٤١٨٧) (٣/٩٤٥).

٢٤٩ ـ إقامة الرجل من مجلسه بغير رضاه:

٢٤٩ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا يُقيمنَّ أحدُكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا»(١).

٢٤٩ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنهما ـ قال: نهى ﷺ أن يُقامَ الرجلُ من مقعده، ويجلس فيه آخر(٢).

٢٥٠ ـ الإلحاح في الاستئذان أكثر من ثلاث:

قال تعالى: ﴿.. وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٨].

٢٥٠ ـ ١ ـ عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذنَ أحدُكُم ثلاثاً فلم يُؤذن لهُ فليرجِع»(٣).

٢٥٠ ـ ٢ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن أبا موسى ـ رضي الله عنه ـ استأذن على عمر ـ رضي الله عنه ـ ثلاثاً، فلم يؤذن له، فانصرف. فأرسل إليه عمر: ما ردَّك؟ قال: استأذنت الاستئذان الذي أمرنا به رسول الله ﷺ ثلاثاً، فإن أُذنَ لنا دخلنا، وإن لم يؤذن لنا، رجعنا. قال عمر: لتأتيني على هذه ببينة أو لأفعلنَّ. فأتى مجلس قومه، فناشدهم، فشهدوا له، فخلَّى سبيله(٤).

٢٥١ ـ بذل السلام للمعرفة فقط:

٢٥١ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال ﷺ: «تُطعمُ الطعامَ، وتقرأُ السلامَ على من عرفتَ ومَن لم تعرِف»(٥).

(١) صحيح البخاري (٦٢٦٩) (٧/١٧٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٢٧٠) (٧/١٧٨).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٤٥) (٧/١٦٩) مختصراً.

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٩٨٩) (٢/٣٠٢).

(٥) صحيح البخاري (٦٢٣٦) (٧/١٦٦).

٢٥١ - ٢ - عن طارق بن شهاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة تسليمَ الخاصة، وفشوَّ التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم»(١).

٢٥١ - ٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أعجزُ الناسِ من عجِزَ في الدُّعاءِ، وأبخلُ الناسِ من بَخِلَ بالسَّلامِ»(٢).

٢٥١ - ٤ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراطِ السَّاعةِ أن يمُرَّ الرَّجلُ في المسجد، لا يصلِّي فيه ركعَتين، وأن لا يُسلِّمَ الرَّجلُ إلا على من يعرفُ»(٣).

٢٥٢ - التفريق بين اثنين في المجلس دون إذنهما:

٢٥٢ - ١ - عن عبدة، عن أبيه، عن جده - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلس بين رجُلينِ إلاَّ بإذنِهما»(٤).

٢٥٢ - ٢ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبيَّ ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يُفرِّق بين اثنين، إلا بإذنهما»(٥).

٢٥٣ - تقذير الساحات حول البيوت:

٢٥٣ - ١ - عن عامر بن سعيد عن أبيه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تطهِّر أفنيتها»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم، انظر: السلسلة الصحيحة (٦٤٧) (٢/٢٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧١٤) (٣/٣٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٥٨٩٦) (٢/١٠٢٥).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٠٥٤) (٣/٩١٨).

(٥) صحيح سنن الترمذي (٢٢١٠) (٢/٣٥٦).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٦) (١/٤١٩).

٢٥٣ - ٢ - عن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «طيبوا ساحاتكم؛ فإن أنتن الساحات ساحات اليهود»(١).

٢٥٤ - التناجي بين اثنين دون الثالث:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [المجادلة: ٩-١٠].

٢٥٤ - ١ - عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانوا ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث»(٢).

٢٥٤ - ٢ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثةً، فلا يَتَناجى رجُلانِ دونَ الآخَرِ، حتَّى تختَلِطُوا بالنَّاسِ، من أجل أن ذلك يُحزنه»(٣).

وكذلك الجماعة عندنا لا يتناجونَ دون الواحد لوجود العلّه في ذلك، لأنه قد يقع في نفسه أنّ الحديث عنه بما يكره(٤).

٢٥٥ - الجلوس بين الرجل وابنه في المجلس:

٢٥٥ - ١ - عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلسِ الرجلُ بين الرجلِ وابنِه في المجلسِ»(٥).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الجامع (٣٩٤١) (٢/٧٣٠).

(٢) صحيح البخاري (٦٢٨٨) (٧/١٨٣).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٩٠) (٧/١٨٤).

(٤) المعلم بفوائد مسلم - المازري (٣/٩٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٥٥٦) (٧-٣/١٥١٣).

٢٥٦ ـ الجلوس بين الرجلين بدون إذنهما :

٢٥٦ ـ ١ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال : نهى رسول الله ﷺ أن يجلسَ الرَّجلُ بين الرَّجُلَين إلا بإذنِهِما(١) .

٢٥٧ ـ الجلوس مكان الرجل في صدر بيته :

٢٥٧ ـ ١ ـ عن أبي مسعود الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « .. ولا يُؤمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجلَ في سُلطَانِهِ، ولا يقعُد في بيته على تكرِمَتِهِ إلاَّ بإذنِهِ »(٢) .

٢٥٧ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن حنظلة الغسيل ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « الرجلُ أحقُّ بصدر دابته، وصدر فراشه، وأن يَؤمَّ في رَحله »(٣) .

٢٥٨ ـ الجلوس مكان القائم العائد بدون إذنه :

٢٥٨ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ووهب بن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : « إذا قام الرجل من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به »(٤) .

٢٥٩ ـ الخلوة بالمرأة الأجنبية :

٢٥٩ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال : « لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم » . فقام رجل، فقال : يا رسول الله! مرأتي خرجت حاجة واكتتبت في غزوة كذا وكذا . قال : « ارجع فحج مع امرأتك »(٥) .

---

(١) رواه أبو الحسن السكري في الفوائد والبيهقي في السنن ، انظر : السلسلة الصحيحة (٢٣٨٥) (٥/٥٠٠) .

(٢) صحيح مسلم (٦٧٣) (١/٣٨٩) .

(٣) أخرجه الدارمي والبزار والطبراني في الكبير ، انظر : السلسلة الصحيحة (١٥٩٥) (٤/١٢٦) .

(٤) صحيح مسلم (٢١٧٩) (٤/١٣٦٨) .

(٥) صحيح البخاري (٥٢٣٣) (٦/٤٩٠) .

٢٥٩ - ٢ - عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»(١).

٢٥٩ - ٣ - عن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «... ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»(٢).

٢٥٩ - ٤ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ؛ فلا يَدخلِ الحمامَ إلا بمئزر، مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ ؛ فلا يُدخلِ حليلَتَه الحمَّام، مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ ؛ فلا يشربِ الخمرَ، مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ؛ فلا يجلس على مائدةٍ يُشربُ عليها الخمرُ، مَن كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ؛ فلا يخلُونَّ بإمرأةٍ ليسَ بينَه وبينَها مَحرم».

٢٦٠ - خيانة الجليس والوشاية به:

٢٦٠ - ١ - عن جابر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول ﷺ: «إذا حدث الرجل بحديثٍ ثم التفت فهي أمانةٌ»(٣).

لأنه إذا إلتفت دلَّ ذلك على أنه كره سماعه، فهذا صار أمانة عند الذي أخبر به(٤).

٢٦٠ - ٢ - عن وابصة الأسدي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «تكونُ فتنةٌ؛ النائم فيها خيرٌ من المضطجع، والمضطجعُ فيها خيرٌ من القاعدِ، والقاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الراكبِ، والراكبُ خيرٌ من المُجري، قتلاها كلُّها في النار» قال: قلتُ: يا رسول الله! ومتى

(١) صحيح البخاري (٥٢٣٢) (٦/٤٩٠).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٧٥٨) (٢/٢٣٢).

(٣) صحيح سنن أبو داود (٤٠٧٥) (٣/٩٢٢).

(٤) عارضة الأحوذي - ابن العربي (٨/١١٧).

ذلكَ؟ قال: «ذلكَ أيامَ الهَرجِ» قلتُ: ومتى أيامُ الهرجِ؟ قال: «حينَ لا يأمنُ الرجلُ جليسَهُ» قال: فبمَ تأمُرني إن أدركتُ ذلكَ الزَّمانَ؟ قال: «اكفُف نَفسكَ ويدَكَ، وادخل دارَكَ». قال: قلتُ: يا رسول الله! أرأيتَ إن دخلَ عليَّ داري؟ قال: «فادخل بيتَكَ». قال: قلتُ: يا رسول الله! أرأيتَ إن دخلَ عليَّ بيتي؟ قال: «فادخل مسجدَكَ، واصنع هكذا - وقبضَ بيمينه على الكوعِ - وقل: ربِّي اللهُ؛ حتى تموتَ على ذلك»(١).

٢٦٠ - ٣ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما المجالس بالأمانة»(٢).

٢٦١ - الدخول على الناس دون استئذان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

٢٦١ - ١ - عن كلدة بن حنبل: أن صفوان بن أمية، بعثه إلى رسول الله ﷺ بلَبنٍ وجِدَايَةٍ وضَغَابيسَ، والنبيُّ ﷺ بأعلى مكة، فدخلت ولم أسلِّم، فقال: «ارجع، فقل: السلام عليكم» وذاك بعد ما أسلم صفوان بن أمية(٣).

٢٦١ - ٢ - عن ربعيّ، قال: حدثنا رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبيِّ ﷺ وهو في بيت، فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرُج إلى هذا! فَعلِّمهُ الاستئذان، فقال له قل: السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل(٤).

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٥٤) (٧٦٩/٢-٧).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ، انظر: صحيح الجامع (٢٣٣٠) (٤٦١/١).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٣١١) (٩٧٢/٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٣١٢) (٩٧٢/٣).

٢٦٢ ـ رد الوسائد والدهن :

٢٦٢ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ لا تُردُّ؛ الوسائدُ، والدُّهنُ، واللبنُ »(١) .

٢٦٣ ـ ركوب صدر دابة الرجل بغير إذنه :

٢٦٣ ـ ١ ـ عن أبي بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما النبيُّ ﷺ يمشي، إذ جاءه رجل ومعه حمارٌ، فقال: يا رسول الله! اركب، وتأخر الرجل، فقال رسول الله ﷺ : « لا، أنتَ أحقُّ بِصدر دابَّتِكَ، إلا أن يجعَلَهُ لي » قال: قد جعلته لك، قال: فركب(٢) .

٢٦٤ ـ عدم الإفصاح عن الاسم أو الكنية عند طرق الباب :

٢٦٤ ـ ١ ـ عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتيتُ النبي ﷺ في دينٍ كان على أبي، فدقـقتُ البابَ، فقال: « من ذا؟ » فقلتُ: أنا . فقال: « أنا ! أنا!! »(٣) كأنَّه كرهها .

٢٦٥ ـ قطع حديث المتناجيين بدون إذن :

٢٦٥ ـ ١ ـ عن سعيد المقبري ـ رحمه الله ـ قال: جلست إلى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ومعه رجل يحدثه، فدخلت معهما، فضرب بيده صدري، وقال: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: « إذا تناجىَ اثنان فلا تَجلِس إليهما حتى تستأذِنَهُما »(٤) .

٢٦٦ ـ قطع حديث الناس المشروع :

٢٦٦ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا قلت للناس أنصتوا وهم يتكلمون، فقد ألغيت على نفسك »(٥) .

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٢٤١) (٢/٣٦٣) وقال الألباني: حسن .

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٢٢٥) (٢/٣٦٠).

(٣) صحيح مسلم (٢١٥٥) (٣/٣٥٣).

(٤) أخرجه أحمد ، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٩٥) (٣/٣٨٤).

(٥) أخرجه أحمد في المسند ، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٠) (١/٢٧٨).

* عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: إذا رأيت قوماً يتحدثون فلا تقطع حديثهم(١).

٢٦٧ - القيام من مجلس الرجل دون إذنه:

٢٦٧ - ١ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زار أحدكم أخاهُ فجلسَ عنده، فلا يقومنَّ حتَّى يستأذنهُ»(٢).

٢٦٨ - محبة أن يتمثل الناس له قياماً:

٢٦٨ - ١ - عن معاوية - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»(٣).

٢٦٩ - النظر إلى محارم الناس:

٢٦٩ - ١ - عن جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنهما - قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة؟ فأمرني أن أصرف بصري(٤).

٢٦٩ - ٢ - عن بريدة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي! لا تُتبعِ النظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ لك الأُولى، وليس لكَ الآخِرةُ»(٥).

٢٧٠ - النظر لدواخل البيوت بغير إذن:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

---

(١) مساوئ الأخلاق - الخرائطي - ص ٢٤٣ رقم (٥٤٥).

(٢) أخرجه ابو الشيخ في تاريخ أصبهان، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٢) (٣٠٤).

(٣) صحيح سنن ابي داود (٤٤٥٧) (٣/٩٨٢).

(٤) صحيح مسلم (٢١٥٩) (٣/١٣٥٥).

(٥) صحيح سنن الترمذي (٢٢٢٩) (٢/٣٦١).

٢٧٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لو أنَّ امرأً اطّلع عليكَ بغير إذنٍ، فخذفته بحصاةٍ، ففقأت عينه، لم يكن عليكَ جُناحٌ»(١).

٢٧٠ ـ ٢ ـ عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعلَ الإذنُ مِن أجل البصَرِ»(٢).

٢٧٠ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: أنَّ رجلاً اطَّلعَ في حُجرٍ في باب رسولِ الله ﷺ ومع رسولِ الله ﷺ مِدرىً يحُكُّ به رأسَهُ، فلما رآهُ رسولُ الله ﷺ قال: «لو أعلمُ أنَّك تنتظِرني لطعنتُ به في عينك» وقال: «إنما جُعلَ الإذنُ مِن أجلِ البصرِ»(٣).

١٧٠ ـ ٤ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجلٍ كشَفَ ستراً، فأدخلَ بصرهُ قبل أن يؤذَن له ؛ فقد أتى حداًّ لا يحلُّ له أن يأتيه، ولو أن رجلاً فقأ عينه لهُدِرت، ولو أن رجلاً مرَّ على بابٍ لا سترَ له، فرأى عورةَ أهله فلا خطيئةَ عليه، إنما الخطيئةُ على أهل المنزلِ»(٤).

٢٧١ ـ الوقوف أمام الباب عند الاستئذان:

٢٧١ ـ ١ ـ عن عبد الله بن بسر ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بابَ قومٍ لم يستقبلِ البابَ من تلقاءِ وجهه، ولكن من رُكنه الأيمن أو الأيسرِ، فيقولُ: السلامُ عليكم، السلام عليكم»(٥).

(١) صحيح البخاري (٦٩٠٢) (٨/٣٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٦٩٠١) (٨/٣٦٥).

(٣) صحيح مسلم (٢١٥٦) (٣/١٣٥٤).

(٤) رواه أحمد، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٢٨) (٣/٣٥).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٤٣١٨) (٣/٩٧٤).

٢٧١ - ٢ - عن هزيل، قال: جاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب مُستَقبِلَ الباب، فقال له النبي ﷺ: «هكذا - عنك - أو هكذا؛ فإنما الاستئذان مِنَ النّظرَ»(١).

٢٧١ - ٣ - عن عبد الله بن بُسر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ - يقول: «لا تأتوا البيوتَ من أبوابها، ولكن ائتوها من جوانبها، فاستأذِنوا، فإن أُذن لكم فادخُلوا، وإلا فارجعوا»(٢).

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٣١٠) (٣/٩٧٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٣١) (٣/٣٧).

كتاب الطب والمرض والرقى

٢٧٢ - إدخال السليم على السقيم:

٢٧٢ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُورِدُوا الْمُمرضَ على المصِحِّ»(١).

٢٧٢ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا المجذومَ، كما يُتقى الأسدُ»(٢).

٢٧٣ - إكراه المريض على الطعام:

٢٧٣ - ١ - عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم»(٣).

٢٧٤ - الامتناع من الاغتسال للمعيون:

٢٧٤ - ١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته، وإذا أستغسلتم فاغسلوا»(٤).

٢٧٤ - ٢ - عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - قال: مرَّ عامر بن ربيعة - رضي الله عنه - بسهل بن حنيف - رضي الله عنه - وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة. فما لبث أن لبطَ به، فأتي به النبي ﷺ فقيل له: أدرك سهلا صريعاً. قال: «من تتهمون به؟». قالوا: عامر بن ربيعة.

(١) صحيح البخاري (٥٧٧٥) (٧/٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير، انظر: صحيح الجامع (١١١) (١/٨٣).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٦٦١) (٢/٢٠٢).

(٤) صحيح مسلم (٢١٨٨) (٤/١٣٧٢).

قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟! إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة». ثم دعا بماء فأمر عامر أن يتوضأ، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره، وأمره أن يصبَّ عليه. وأمره أن يكفأ الإناء من خلفه(١).

٢٧٥ - الترامي بالحجارة الصغيرة:

٢٧٥ - ١ - عن عبد الله بن مغفل المزني - رضي الله عنه - قال: نهى رسول الله ﷺ عن الحذف، وقال: «إنه لا يقتل صيداً، ولا ينكي عدواً، وإنه يفقأ العين، ويكسر السن»(٢).

٢٧٦ - التطبب بغير معرفة:

٢٧٦ - ١ - عن ابن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطبب ولم يعلم منه طبٌّ، فهو ضامن»(٣).

قال ابن القيم: هو يدل بمفهوم على أنه إذا كان طبيبا، وأخطأ في تطبيق، فلا ضمان عليه(٤).

قلت: بلا تعدي ولا تفريط.

٢٧٧ - الخروج من أرض الوباء:

٢٧٧ - ١ - عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعونُ رِجسٌ أرسل على طائفة من بني إسرائيل - أو على من كان قبلكم - فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تَقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرُجوا فِراراً منه»(٥).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٢٨٢٨) (٢/٢٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٦٢٢٠) (٧/١٦١).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٦٢٢٠) (٣/٨٦٦).

(٤) فتاوى إمام المتقين - ابن القيم - ص ٢٠٦.

(٥) صحيح البخاري (٣٤٧٣) (٤/٥٠٥).

٢٧٧ - ٢ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرني أنه عذابٌ يبعثهُ الله على من يشاء، وأنَّ الله جعلَهُ رحمةً للمؤمنين، ليس من أحدٍ يقعُ الطاعون، فيَمكثُ في بلده صابراً محتسباً يعلم أنهُ لا يُصيبهُ إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجرِ شهيد(١).

٢٧٧ - ٣ - وعنها - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الفرارُ من الطاعُونِ كالفرار من الزَّحف»(٢).

٢٧٨ - سحر الناس وتعليمهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾

[البقرة: ١٠٢]

٢٧٨ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا المُوبِقاتِ ؛ الشركُ بالله والسِّحرُ»(٣).

٢٧٨ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٤).

٢٧٨ - ٣ - عن عمرو بن حزم - رضي الله عنه - أن رسولَ الله ﷺ كتبَ إلى أهل اليمنِ بكتابٍ فيه الفرائضُ، والسننُ، والدياتُ، فذكر فيه: «وإن أكبرَ الكبائرِ عندَ الله يومَ القيامة: الإشراكُ بالله، وقتلُ النفسِ المؤمنةِ بغير الحقِّ، والفرارُ يوم

(١) صحيح البخاري (٣٤٧٤) (٤/٥٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند وابن سعد ، انظر : السلسلة الصحيحة (١٢٩٢) (٣/٢٨١).

(٣) صحيح البخاري (٥٧٦٤) (٧/٣٧).

(٤) صحيح مسلم (٨٩) (١/٨٨).

الزحف في سبيل الله، وعقوقُ الوالدين، ورمي المحصنةِ، وتعلّمُ السحرِ، وأكلُ الربا، وأكلُ مالِ اليتيم»(١).

٢٧٩ ـ السعي في قطع نسل المسلم وقلة نسله:

٢٧٩ ـ ١ ـ عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: ردَّ رسولُ الله ﷺ على عُثمانَ بن مظعونٍ ـ رضي الله عنه ـ التَّبتُّلَ، ولو أذنَ له لاختَصينا(٢).

٢٧٩ ـ ٢ ـ عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبتُ امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: «تزوَّجُوا الودُودَ الولُودَ، فإني مكاثرٌ بكُمُ الأُمَمَ»(٣).

٢٧٩ ـ ٣ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائكم الوَدُودُ الولُودُ، المواتية، المواسية؛ إذا اتَّقينَ الله ...»(٤).

٢٧٩ ـ ٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إخصاء في الإسلامِ»(٥).

٢٨٠ ـ عدم الدعاء بالبركة عند رؤية ما يستحسن:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ...﴾ [الكهف:٣٩]

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ...﴾ [القلم:٥١].

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٣٤١) (٢/١٢١).

(٢) صحيح البخاري (٥٠٧٣) (٦/٤٤٠).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١٨٠٥) (٢/٣٨٦).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٤٩) (٤/٤٦٤).

(٥) رواه البيهقي في السنن، انظر: صحيح الجامع (٧١٦٦) (٢/١٢٠٣).

٢٨٠ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته، إذا أستغسلتم فاغسلوا»[١].

٢٨٠ ـ ٢ ـ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ عامر بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ بسهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة. فما لبث أن لبِطَ به، فأتي به النبي ﷺ فقيل له: أدرك سهلا صريعاً. قال: «من تتهمون به؟». قالوا: عامر بن ربيعة.

قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟! إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة». ثم دعا بماء فأمر عامر أن يتوضأ، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره، وأمره أن يصبَّ عليه. وأمره أن يكفأ الإناء من خلفه[٢].

٢٨٠ ـ ٣ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «العينُ تُدخلُ الرجلَ القبرَ، والجملَ القِدرَ»[٣] وفي رواية، قال: «تستنزِلُ الحالق»[٤].

٢٨٠ ـ ٤ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس. (يعني بالعين)[٥].

٢٨١ ـ فتح الفم وعدم تغطيته حال العطاس:

٢٨١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده، أو ثوبه، على فيه، وخفض، أو غض بها صوته[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٢١٨٨) (٤/١٣٧٢).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٨٢٨) (٢/٢٦٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية والخطيب في تاريخه، انظر: السلسلة الصحيحة (١٢٤٩) (٣/٢٥٠).

(٤) أخرجه الحاكم وأحمد والطبراني في الكبير، انظر: السلسة الصحيحة (١٢٥٠) (٣/٢٥١).

(٥) أخرجه الطيالسي في مسنده وابن أبي عاصم في السنة، انظر: السلسلة الصحيحة (٧٤٧) (٢/٣٨٤).

(٦) صحيح سنن أبي داود (٤٢٠٧) (٢/٩٤٨).

٢٨١ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ: «كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه، وغض بها صوته»(١).

٢٨١ - ٣ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عطسَ أحدكم فليضع كفيهِ على وجههِ، وليخفض صوتهُ»(٢).

٢٨٢ - فكُّ السِّحر بالسِّحر:

٢٨٢ - ١ - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: سُئل رسول الله ﷺ عن النُشرَةِ، فقال: «هوَ مِن عملِ الشَّيطانِ»(٣).

٢٨٣ - كثرة الزيارة دون ما يستدعي ذلك:

٢٨٣ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «زر غبا تزدد حباً»(٤).

٢٨٤ - المبالغة في ختان الفتيات حتى الإنهاك:

٢٨٤ - ١ - عن أم عطية الأنصارية - رضي الله عنها - أن امرأة كانت تَختِنُ بالمدينة، فقال لها النبي: «لا تُنهِكي، فإنَّ ذلك أحظى للمرأةِ، وأحبُّ إلى البَعلِ»(٥).

٢٨٤ - ٢ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ لأم عطية: «إذا خفضت فأهشمي، ولا تنهكي، فإنه أَسرى للوجه، وأحظى للزوج»(٦).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٢٠٥) (٢/٣٥٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب، انظر: صحيح الجامع (٦٨٥) (١/١٧٩).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣٢٧٧) (٢/٧٣٣).

(٤) أخرجه الزاد والطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الجامع (٣٥٦٨) (١/٦٦٧).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٤٣٩١) (٣/٩٨٩).

(٦) رواه الدولابي والخطيب في التاريخ، انظر: السلسلة الصحيحة (٧٢٢) (٢/٣٥٣).

٢٨٥ ـ مداواة المريض بما يضرُّه:

٢٨٥ ـ ١ ـ عن عبد الرحمن بن عثمان: أن طبيباً سأل النبي ﷺ عن ضِفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها(١).

٢٨٥ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث. يعني: السُّمَّ(٢).

٢٨٦ ـ معالجة المريض بالحرام:

٢٨٦ ـ ١ ـ عن طارق بن سويد الحضرمي ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! إن بأرضنا أعناباً نعتصرها، فنشرب منها؟ قال: «لا» فراجعته، قلت: إنَّا نستشفي به المرض؟ قال: «إنَّ ذلك ليسَ بشِفاء، ولكنَّه داء»(٣).

٢٨٦ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تداوى بحرامٍ لم يجعلِ اللهُ له فيه شفاءً»(٤).

٢٨٦ ـ ٣ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقَ الداءَ والدواءَ، فتداوَوا، ولا تَتَداووا بحرامٍ»(٥).

٢٨٦ ـ ٤ ـ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: اشتكت ابنة لي، فنبذت لها في كوز، فدخل النبي ﷺ وهو يغلي، فقال: «ما هذا؟» فقلت: إنَّ ابنتي اشتكت، فنبذنا لها هذا، فقال ﷺ: «إنَّ الله لم يجعل شفاءكم في حرام»(٦).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٢٧٨) (٢/٧٣٣).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٨٥) (٢/٢٥٥).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٨٢٩) (٢/٢٦٣) وهو في مسلم

(٤) أخرجه أبو نعيم في الطب، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٨١) (٢/٨٩٢-٦).

(٥) رواه الدولابي، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٣٣) (٤/١٧٤).

(٦) صحيح موارد الظمآن (١١٧٢) (٢/٣٠).

كتاب آفات اللسان

٢٨٧ ـ اتهام المسلم ظاهر السلامة بالفسق والعداوة لله تعالى :

٢٨٧ ـ ١ ـ عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر ؛ إلا ارتدَّت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك»(١) .

٢٨٧ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ادَّعى لغير أبيه وهو يعلم فقد كفر، ومن ادّعى قوماً ليس منهم فليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلاً بالكفر ـ و قال : يا عدوَّ الله، وليس كذلك إلا حار عليه»(٢) .

٢٨٨ ـ إدعاء ما ليس له :

٢٨٨ ـ ١ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : «من ادعى ما ليس له ؛ فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار»(٣) .

٢٨٩ ـ أذية الجار باللسان :

٢٨٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال : «اذهب فاصبر» فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال ﷺ : «اذهب فاطرح متاعك في الطريق» . فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه : فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره فقال له : ارجع لا ترى مني شيئا تكرهه(٤) .

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٤٥) (٧/١١٠) .

(٢) صحيح مسلم (٦١) (١/٧٩) .

(٣) صحيح مسلم (٦١) (١/٧٩) .

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٢٩٣) (٣/٩٦٩) .

٢٨٩ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله! إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير فيها، هي من أهل النار»، قال: و فلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأتور من الإقط ولا تؤذي أحداً، فقال الرسول ﷺ: «هي من أهل الجنة»(٢).

٢٩٠ - إزعاج الناس برفع الصوت دون حاجة أو بحرام:

قال تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

[لقمان: ١٩]

أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه.

قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم(٣).

ومن أعظم ذلك من يرفع صوته ويستعلى بمعصيته أمام الملأ، دون وازع من دين أو رادع من حياء، كمن يرفع صوت المذياع بأصوات الغناء الفاجر الخليع، فيؤذي به مشاعر المؤمنين الصالحين، ويسمعهم ما كفُّوا أسماعهم عنه وعفُّوا آذانهم منه، فيلحقه دعاؤهم في الدنيا، ويزداد عليه شهودا منهم يوم القيامة.

فيا لله كيف غرر إبليس بأتباعه !! واستفزهم بصوته !!

وما استعلى أهل الباطل بمعاصيهم إلا عند سكوت أهل الحق عن دعوتهم والأخذ على أيديهم، فالواجب المتحتم على كل مسلم أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وليأخذ على يد السفيه فيأطره على الحق أطراً حتى لا يكون بسكوته شيطانا أخرس، وليحذر الحياء من بذل الخير عند من لم يستحي من ممارسة الشر.

---

(٢) صحيح الأدب المفرد - ص ٦٩ رقم (٨٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (٣/٤١٧).

ومن ابتلى بذلك فعليه بخير الهدى:

٢٩٠ - ١ - عن نافع، قال: سمع ابن عمر - رضي الله عنهما - مزماراً، فوضع إصبعيه على أذنيه، ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافع هل تسمع شيئا؟ قال: فقلت: لا! قال: فرفع إصبعيه من أذنيه، وقال: كنت مع النبي ﷺ - فسمع مثل هذا! فصنع مثل هذا[1].

٢٩١ - الاستطالة في عرض المسلم بغير الحق:

٢٩١ - ١ - عن سعد بن زيد - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن من أربى الربا الاستطالة في المسلم بغير الحق»[2].

٢٩١ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أربى الربَا شَتمُ الأعراض»[3].

٢٩١ - ٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أهون الربا كالذي ينكح أمه، وإن أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه»[4].

٢٩٢ - إضحاك الناس بما لا يجوز:

٢٩٢ - ١ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ - قال: «ألا هل عسى رجلٌ منكم أن يتكلَّم بالكلمة يُضحكُ بها القومَ؛ فيسقُطُ بها أبعدَ مِنَ السماء، ألا عسى رجلٌ يتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحكُ بها أصحابَهُ؛ فيسخَطُ الله بها عليه؛ لا يرضَى عنه حتَّى يُدخِلَهُ النارَ»[5].

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤١١٦) (٣/٩٣٠).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٥٠٨١) (٣/٩٢٣).

(٣) رواه الهيثم بن كليب في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٣٣) (٣/٤١٨).

(٤) أخرجه أبو الشيخ في التوسع، انظر: صحيح الجامع (٢٥٣١) (٢/٢٥٣١) وقال الألباني: حسن.

(٥) رواه أبو الشيخ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٧٧) (٣/٩٥).

٢٩٣ ـ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ...﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ...﴾ [النساء: ٣٧].

٢٩٣ ـ ١ ـ عن عبد الرحمن ابن حسنة ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلقت أنا وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي ﷺ فخرج ومعه دَرَقَةٌ، ثم استتر بها، ثم بال، فقلنا: انظروا إليه يبول كما تبول المرأة، فسمع ذلك، فقال ﷺ: «ألم تعلمُوا ما لقيَ صاحبُ بني إسرائيل؟ كانوا إذا أصابَهُمُ البولُ قطعُوا ما أصابَهُ البولُ منهم، فنهاهُم، فعذِّبَ في قبرِه»(١).

٢٩٤ ـ بهت المسلم بما ليس فيه:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

٢٩٤ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله؛ فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه؛ لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه؛ أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»(٢).

٢٩٤ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس ليس لهن كفارة ؛ الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبهت المؤمن، والفرار من الزحف، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق»(٣).

(١) صحيح سنن أبي داود (١٦) (١/٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٠٦٦) (٢/٦٨٦).

(٣) أخرجه أحمد في السند، انظر: صحيح الجامع (٣٢٤٨) (١/٦١٧).

٢٩٥ ـ التشدق في الكلام والثرثرة :

قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

٢٩٥ ـ ١ ـ عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عزَّ وجلَّ يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه، تخلل الباقرة بلسانها»(١).

٢٩٥ ـ ٢ ـ عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ قال :قال رسول الله ﷺ : «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة ؛ أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة ؛ الثرثار ون، والمتشدقون، والمتفيهقون»(٢).

والثرثار : هو كثير الكلام، والمتشدق : هو الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم .

٢٩٥ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الرجلَ ليتَكلَّمُ بالكلمةِ لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعينَ خريفاً في النَّار»(٣).

٢٩٥ ـ ٤ ـ عن بلال بن الحارث المزني ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : «نَّ أحدكُم ليتكلَّمُ بالكلمةِ من رضوانِ الله ما يظنُّ أن تبلغَ ما بلغت فيكتبُ الله لهُ بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنَّ أحدكُم ليتكلَّمُ بالكلمةِ من سخط الله ما يظنُّ أن تبلغَ ما بلغت فيكتبُ الله لهُ بها سخطه إلى يوم يلقاه»(٤).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤١٨٥) (٢/٦٨٦).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٦٤٢) (٢/١٩٦).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٨٨٤) (٢/٢٦٨).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٨٨٨) (٢/٢٦٩).

٢٩٥ ـ ٥ ـ عن فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «شرار آمتي الذين غذوا بالنعيم، الذين يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام»(١).

٢٩٦ ـ تشويه سمعة المسلم:

٢٩٦ ـ ١ ـ عن معاذ بن أنس الجهني ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حمى مؤمناً من منافق بعث الله ملكًا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلمًا بشيء يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»(٢).

٢٩٧ ـ تعيير المسلم بذنوبه التي تاب منها:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا...﴾ [النساء: ٩٤].

٢٩٧ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زَنتِ الأَمةُ فَتَبيَّنَ زناها فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثمَّ إذا زنت فليجلدها ولا يُثرِّب، ثم إذا زنت الثالثةَ فليَبِعها ولو بحبلٍ من شعر»(٣).

قال الحسن البصري: كنا نُحدَّث أنه من عيَّر أخاه بذنب قد تاب إلى الله منه ابتلاه الله عز وجل به(٤).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾ [الحجرات: ١١] قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يُعيَّر بما سلف(٥).

(١) أخرجه أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في الجوع، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٩١) (٤/٥١٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٦) (٣/٩٢٤).

(٣) صحيح البخاري (٢١٥٢) (٣/٣٧).

(٤) الزهد ـ أحمد بن حنبل ـ ص ٣٤٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي (١٦/٢١٥).

٢٩٨ ـ تكذيب الصادق:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

٢٩٨ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات، يصدَّق فيها الكاذبُ، ويكذبُ فيها الصادقُ، ويؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضةُ». قيل: وما الرويبضةُ؟ قال: «الرجلُ التافهُ؛ يتكلم في أمر العامة»[١].

٢٩٩ ـ التنابز بالألقاب:

٢٩٩ ـ ١ ـ عن أبي جبيرة بن الضحاك ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم علينا رسول الله ﷺ وليس منَّا رجلٌ، إلا وله اسمان، أو ثلاثةٌ. فجعل النبي ﷺ يقول: «يا فلان» فيقولون: مه يا رسول الله! إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١][٢].

قال القرطبي: أي بئس أن يسمى الرجلُ كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته، قاله ابن زيد. وقيل: المعنى أن من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق[٣].

واتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان له صفة كالأعمش والأعمى والأعرج والأحول والأبرص و الأشج والأصفر والأحدب والأصم والأزرق والأفطس و الأشتر و الأثرم و الأقطع والزَّمِن والمقعد والأشل، أو كصفةٍ لأبيه أو أمه أو غير ذلك مما يكره، واتفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لا يعرفه إلا بذلك[٤].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٦١) (٢/٣٧٤).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٦١) (٢/٣٧٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي (١٦/٢١٥).

(٤) الأذكار ـ النووي ـ ص ٢٦٠.

٣٠٠ ـ التناجي بالمعاصي والعدوان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

٣٠١ ـ الجدال والمراء بغير حق أو فيما لا فائدة فيه:

قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿... وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

٣٠١ ـ ١ ـ عن أبي أمامه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أُتوا الجدل»(١).

٣٠١ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(٢).

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ، وإما المعنى، وإما في قصد المتكلم(٣).

قال مسلم بن ياسر: إيَّاكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته(٤).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٥٩٣) (٣/١٠٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠١٥) (٣/٩١١).

(٣) إحياء علوم الدين ـ الغزالي (٣/١٢٦).

(٤) كتاب الصمت ـ ابن أبي الدنيا ـ ص ١٠٠ رقم (١٢٥).

٣٠٢ ـ الحديث بكل ما سمع:

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

٣٠٢ ـ ١ ـ عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يُحدِّثَ بكل ما سمع»(١).

٣٠٢ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى حرَّم عليكم: عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٢).

٣٠٣ ـ الخيانة في الدلالة والنصح:

٣٠٣ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الخير في غيره فقد خانه»(٣).

٣٠٣ ـ ٢ ـ عنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المستشار مُؤتَمنٌ»(٤).

٣٠٤ ـ الدعاء على العاصي بما يزيد في غوايته:

٣٠٤ ـ ١ ـ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن رجلا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك النبي ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٥) (١/٢٤).

(٢) صحيح مسلم (٥٩٣) (٣/١٠٨١).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٣١٠٥) (٢/١٨٩).

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٢٦٣) (٢/٣٦٩).

(٥) صحيح البخاري (٦٧٨٠) (٧/٣٢٧).

٣٠٤ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أن رسول الله ﷺ أُتي برجل قد شرب الخمر، فقال ﷺ: «اضربوه». قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله! فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا: اللهمَّ! اغفر له، اللهمَّ ارحمه»(١).

٣٠٥ - الدعاء على المسلم بالغضب والنار:

٣٠٥ - ١ - عن سمرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بالنار»(٢).

قال الطيبي: أي لا تدعوا على الناس بما يبعدهم الله من رحمته إما صريحًا كما تقولون: لعنة الله عليه! أو كناية كما تقولون: عليه غضب الله أو أدخله الله النار!(٣).

٣٠٦ - سباب المسلم وشتمه وتعييره:

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

٣٠٦ - ١ - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «سِبابُ المسلم فسوق، وقتاله كفر»(٤).

٣٠٦ - ٢ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المؤمن كالمشرك على هلكة»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٦٧٨١) (٧/٣٢٧).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٦٠٩) (٢/١٨٩).

(٣) تحفة الاحوذى – المبار كفوري (٦/٩٤).

(٤) صحيح مسلم (٦٤) (١/٨٠).

(٥) أخرجه البزار، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٧٨) (٤/٤٩٩).

٣٠٦ - ٣ - عن جابر بن سليم الهجمي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ الله! ولا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه، ودعه يكون وباله عليه، وأجره لك، ولا تسبنَّ أحداً»(١).

٣٠٦ - ٤ - عن عياض بن حمار - رضي الله عنه - قال: قلتُ: يا نبيَّ الله! الرجلُ يَشتُمني وهو دوني، أعليَّ مِن بأسٍ أن أنتصِرَ منه؟ قال ﷺ: «المستبَّانِ شيطانانِ يتهاتَرانِ، ويتكاذَبانِ»(٢).

٣٠٧ - السخرية بالمسلم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

[المؤمنون: ١١٠-١١١]

وقال تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء(٣).

٣٠٧ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني: قصيرة - فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر

(١) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسة الصحيحة (٧٧٠) (٢/٤١٢).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٨١) (٣/٧٥).

(٣) إحياء علوم الدين – الغزالي (٣/١٤٠).

لمزجتـه» قالت: وحكيت له إنساناً، فقال: «ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا»(١).

٣٠٨ ـ الغيبة:

قال تعالى: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

٣٠٨ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت يا رسول الله! إن صفية امرأة، وقالت بيدها هكذا! كأنها تعني: قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزج بها ماء البحر لمزج».

٣٠٨ ـ ٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمِشُونَ وجُوهَهُم وصُدُورَهُم!

فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»(٢).

٣٠٨ ـ ٣ ـ عن المطلب بن عبد الله بن حنطب ـ رضي الله عنه ـ عن الرسول الله ﷺ قال: «الغيبة أن تذكر الرجل بما فيه من خلفه»(٣).

٣٠٨ ـ ٤ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنَّهما ليعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ، أمَّا أحدُهما فيُعذَّبُ في البول، وأما الآخرُ فيعذَّبُ في الغيبةِ»(٤).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٠) (٣/٩٢٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٢) (٣/٩٢٣).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ وابن المبارك في الزهد، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٩٢) (٦٤٥/٢-٦).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٩) (٦٢/١).

٣٠٨ ـ ٥ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند النبيِّ ﷺ ـ فقامَ رجلٌ، فوقَع فيه رجلٌ مِن بعدِه، فقال النبيُّ ﷺ: «تَخلَّل!» فقال: ومما أتخلَّل؟ ما أكلتُ لحماً!

قال: «إنَّك أكلتَ لحمَ أخيكَ»(١).

٣٠٨ ـ ٦ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ فارتفعت ريحٌ مُنتِنةٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أتدرونَ ما هذه الريحُ؟ هذه ريحُ الذين يغتابونَ المؤمنينَ»(٢).

٣٠٨ ـ ٧ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وعمر ـ رضي الله عنه ـ رجل يخدمهما، فناما، فاستيقظا، ولم يهيئ لهما طعاماً، فقال أحدهما لصاحبه: إنَّ هذا ليوائم نوم بيتكم. فأيقظاه فقالا: ائت رسول الله ﷺ فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، وهما يستأدمانك. فقال: «أقرِهما السلام، وأخبرهما أنهما قد ائتدما!».

ففزعا، فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله! بعثنا إليك نستادمك، فقلت: قد ائتدما. فبأي شيء ائتدمنا؟ قال ﷺ: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأَرى لَحمَهُ بين أنيابِكما» ـ يعني لحم الذي اغتاباه ـ قالا: فاستغفر لنا. قال: «هو فليستغفر لكما»(٣).

٣٠٨ ـ ٨ ـ عن يعلى بن سيابة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه عَهِد النبيَّ ﷺ وأتى على قبرٍ يُعَذَّبُ صاحبُهُ، فقال ﷺ: «إنَّ هذا كان يأكُلُ لُحومَ الناسِ». ثُمَّ دعا بجريدةٍ

---

(١) رواه أبو بكر بن شيبة والطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٣٧) (٣/٧٨).

(٢) رواه أحمد وابن أبي الدنيا، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٤٠) (٣/٧٩).

(٣) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق والضياء المقدسي في المختارة، انظر السلسلة الصحيحة (٢٦٠٨) (٦-١/٢١١).

رَطبَةٍ فوضَعَها على قبره، وقال ﷺ: «لعلَّه أن يُخفَّفَ عنه ما دامت هذه رطبةً»(١).

وهي ذكر الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته وحركته وبشاشته وخلاعته وعبوسه وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو رأسك أو نحو ذلك.

أما البدن فكقولك: أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر.

وأما الدين فكقولك: فاسق، سارق، خائن، ظالم، متهاون، في الصلاة، متساهل في النجاسات، ليس باراً والده، لا يضع الزكاة موضعها، لا يتجنب الغيبة.

وأما الدنيا: فقليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير الكلام أو النوم، ينام في غير وقته، يجلس في غير موضعه.

وأما المتعلق بوالده فكقولك: أبوه فاسق، أو هندي، أو نبطي، أو زنجي، أو إسكافي، أو بزاز، أو نحاس، أو نجار، أو حداد، أو حائك.

وأما الخلق فكقولك: سيئ الخلق، متكبر، مراء، عجول، جبار، عاجز، ضعيف القلب، متهور، عبوس، خليع، ونحوه.

وأما الثوب: فواسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب، ونحو ذلك، ويقاس الباقي بما ذكرناه، وضابطه؛ ذكره بما يكره(٢).

---

(١) رواه أحمد والطبراني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٤٢) (٣/٨٠). قال الحافظ: وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة مشهورة في الصحاح وغيرهما عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- وفي أكثرها [أنهما يعذبان في النميمة والبول [والظاهر أنه اتفق مروره ﷺ مرة بقبرين يعذب أحدهما في النميمة، والآخر في البول، ومرة أخرى بقبرين يعذب أحدهما في الغيبة والآخر في البول، والله أعلم. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣/٨٠).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٠٣٤) (٢/٣٠٦).

* مرَّ عمرو بن العاص - رضي الله عنه - على بغل ميت قد انتفخ فوقف عليه، فقال: لأن يأكل أحدكم من هذا فيملأ جوفه خير له من أن يغتاب أخاه[1].

* ومن استمع إليها فلم ينكر على قائلها عند استطاعته، ولم يذب عن عرض أخيه، أو لم يقم عند عجزه، فهو شريكه في الإثم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] [2].

٣٠٩ - الفحش والبذاءة في القول والفعل:

٣٠٩ - ١ - عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «الحياءُ والعِيُّ شُعبتانِ من الإيمانِ، والبذاءُ والبيانُ شُعبتانِ من النِّفاقِ»[3].

٣٠٩ - ٢ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء»[4].

٣٠٩ - ٣ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»[5].

٣٠٩ - ٤ - عن قُرَّة المزني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحياءَ، والعفافَ والعِيَّ - عِيَّ اللسانِ لا عيَّ القلبِ - والفقهَ ؛ من الإيمانِ، وإنَّهنَّ يزدنَ في الآخرةِ وينقُصنَ من الدُّنيا، وما يزدنَ في الآخرةِ أكثرُ مما ينقُصنَ من الدُّنيا، وإنَّ

---

(١) الأذكار - النووي - ص ٢٩٩.

(٢) مساوئ الأخلاق ومذمومها - الخرائطي - ص ١٠١ رقم (٢٠٢).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٦٥٠) (٢/١٩٩).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٦١٠) (٢/١٨٩).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١٦٠٧) (٢/١٨٩).

الشُّحَّ والفُحشَ والبذاءَ من النفاقِ، وإنَّهنَّ يَنقُصنَ من الآخرةِ، ويزدنَ في الدنيا، وما يَنقُصنَ من الآخرةِ أكثرُ مما يَزِدنَ من الدُّنيا»(١).

٣٠٩ ـ ٥ ـ عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الفُحشَ والتَّفحُّشَ ليسا من الإسلامِ في شيءٍ، وإنَّ أحسنَ الناسِ إسلاماً أحسنُهم خُلُقاً»(٢).

٣٠٩ ـ ٦ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الفحشُ رجلاً لكان رجلاً سوءاً»(٣).

* قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه: ألام أخلاق المؤمن؛ الفحش.

والفحش كل ما خرج عن مقداره حتى يستبح، ويدخل في القول والفعل والصفة(٤).

فأما حَدُّهُ وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها، ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها(٥).

٣١٠ ـ كثرة الخصومة مع الناس حتى تصبح عادة:

قال تعالى: **﴿... وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾** [مريم: ٩٧].

وقال تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾** [البقرة: ٢٠٤].

---

(١) أخرجه الفسويُّ في المعرفة والبيهقي في الشعب، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٨١) (١١٣٩/٢-٧).

(٢) رواه أحمد والطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٥٣) (١١/٣).

(٣) رواه الطبراني في الصغير والأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٥٣٧) (٦٣/٢).

(٤) فتح الباري ـ ابن حجر (٤٦٧/١٠).

(٥) إحياء علوم الدين ـ الغزالي (١٣١/٣).

٣١٠ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم»(١).

٣١٠ - ٢ - عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا ضلَّ قومٌ بعد هُدى كانوا عليه، إلا أوتُوا الجَدَلَ، ثم تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»(٢).

٣١١ - الكذب على الناس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

٣١١ - ١ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(٣).

٣١١ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاثاً؛ إذا حدَّث كذب، وإذا وعد خلف، وإذا أؤتمن خان»(٤).

٣١١ - ٣ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما كانَ من خُلُقٍ أبغضَ على رسولِ الله ﷺ مِنَ الكذب، وما اطَّلعَ على أحدٍ من ذلك بشيءٍ فيخرجَ مِن قلبِهِ، حتى يعلمَ أنَّه قد أحدثَ توبةً»(٥).

(١) صحيح البخاري (٧١٨٨) (٨/٤٦١).
(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٥٩٣) (٣/١٠٣).
(٣) صحيح البخارى (٦٠٩٤) (٧/١٢٤).
(٤) صحيح البخارى (٦٠٩٥) (٧/١٢٤).
(٥) رواه أحمد والبزار، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٤١) (٣/١٢٦).

٣١٢ ـ الكذب لإضحاك القوم:

٣١٢ ـ ١ ـ عن معاوية بن حيدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»(١).

٣١٢ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! إنك تداعبنا ؟! قال ﷺ: «نعم، غير أني لا أقول إلا حقاً»(٢).

٣١٢ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤمنُ العبدُ الإيمانَ كُلَّهُ حتَّى يترُكَ الكذبَ في المُزاحَةِ، والمراءَ وإن كان صادقاً»(٣).

٣١٣ ـ لعن المسلم:

٣١٣ ـ ١ ـ عن ثابت بن الضحاك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ومن لعن مؤمنا فهو كقتله..»(٤).

٣١٣ ـ ٢ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»(٥).

٣١٣ ـ ٣ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينا وشمالا فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان لذلك أهلا وإلا رجعت إلى قائلها»(٦).

---

(١) صحيح الترمذي (١٨٨٤) (٢/٢٦٨).

(٢) صحيح الشمائل المحمدية – الترمذي - ص١٢٦ رقم (٢٠٢).

(٣) رواه أحمد والطبراني ، انظر :صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٣٩) (٣/١٢٦).

(٤) صحيح البخارى (٦٠٤٧) (٧/١١١).

(٥) صحيح مسلم (٢٥٩٨) (٤/١٥٩٢).

(٦) صحيح سنن أبى داود (٤٠٩٩) (٣/٩٢٧).

٣١٣ ـ ٤ ـ عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسَ المؤمِنُ بالطّعَّانِ ولا باللعَّانِ ولا الفاحِشِ ولا البذِيٍّ»(١).

٣١٣ ـ ٥ ـ عن جرموز بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «أوصيك أن تكون لعاناً»(٢).

٣١٣ ـ ٦ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجت اللعنة من في صاحبها نظر، فإن وجدت مسلكاً في الذي وجهت إليه، وإلا عادت إلى الذي خرجت منه»(٣).

٣١٤ ـ المدح للرجل بما يفتنه وبما ليس بحق:

٣١٤ ـ ١ ـ عن أبى موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ قال: سمع رسول الله ﷺ: «رجلاً يُثني على رجلٍ و يطريه في المدح، فقال: «أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل»(٤).

٣١٤ ـ ٢ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: مدَح رجلٌ رجلاً عند النبيِّ ﷺ قال، فقال: «ويحَك! قَطَعتَ عُنُقَ صاحبكَ، قَطَعتَ عُنُقَ صاحبكَ» مراراً «إذا كان أحدُكُم مادحًا صاحِبهُ لا محالَةَ، فليقُل: أحسبُ فُلاناً، والله حسيبُه، ولا أزكي على الله أحداً»(٥).

٣١٤ ـ ٣ ـ عن المقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجههم التراب»(٦).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٦١٠) (٢/١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسة الصحيحة (١٧٢٩) (٤/٣٠٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند والبيهقي في الشعب، انظر: السلسة الصحيحة (١٢٦٩) (٣/٢٦٤).

(٤) صحيح البخارى (٦٠٦٠) (٧/١١٤).

(٥) صحيح مسلم (٣٠٠٠) (٤/١٨١٦).

(٦) صحيح مسلم (٣٠٠٢) (٤/١٨١٦).

٣١٤ - ٤ - عن معاوية - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والتمادح؛ فإنه الذبح»(١).

المداحون هم: الذين اتخذوا مدح الناس عادة وجعلوه بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتنه(٢).

٣١٥ - نقل الأخبار بين الناس بلا فائدة:

٣١٥ - ١ - عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم عليكم: عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم؛ قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٣).

٣١٥ - ٢ - عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس مطية الرجال زعموا»(٤).

٣١٦ - النميمة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾

[القلم: ١٠-١١]

٣١٦ - ١ - عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتَّات»(٥).

٣١٦ - ٢ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مرَّ النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير» ثم قال: «بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر بوله»(٦).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٣٠١٧) (٢/٣٠٨).

(٢) معالم السنن - الخطابي (٣/١٠٣).

(٣) صحيح مسلم (٥٩٣) (٣/١٠٨١).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤١٥٨) (٣/٩٣٩).

(٥) صحيح البخاري (٦٠٥٦) (٧/١١٣).

(٦) صحيح البخارى (١٣٧٨) (٢/٤٢٠).

٣١٦ - ٣ - وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام»(١).

٣١٦ - ٤ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة القالة بين الناس»(٢).

٣١٦ - ٥ - عن أسماء بنت يزيد - رضي الله عنها - قالت: قال ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «الذين إذا رؤوا ذكر الله، أفلا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون البرآء العنت»(٣).

٣١٦ - ٦ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّكم إليَّ ؛ أحاسِنُكم أخلاقاً، الموَطَّؤونَ أكنافاً، الذين يألفونَ ويؤلَفون، وإنَّ أبغَضَكُم إليَّ؛ المشَّاؤونَ بالنميمةِ، المفَرِّقونَ بين الأحِبَّةِ؛ الملتمسونَ للبُرآءِ العيبَ»(٤).

الفرق بين الفتان والنمام أن النمام الذي يحضر القصة فينقلها، والفتان الذي يتسمع من حيث لا يعلم به ثم ينقل ما سمعه(٥).

* روي أن رجلاً نمَّ عند عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فقال له: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] وإن كنت صادقاً ؛ فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١](٦).

---

(١) صحيح مسلم (١٠٥) (١/٩٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٠٦) (٤/١٥٩٧).

(٣) صحيح الأدب المفرد - ص ١٢٣ رقم (٢٤٦) وقال الألباني: حسن.

(٤) رواه الطبراني في الصغير والأوسط، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٥٨) (٣/١٣).

(٥) فتح الباري - ابن حجر (١٠/٤٨٨).

(٦) تنبيه الغافلين - ابن النحاس - ص ١٧٢.

٣١٧ ـ هجاء القبيلة لهجاء رجل:

٣١٧ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها، ورجل انتفى من أبيه وربى أمه..»(١).

٣١٧ ـ ٢ ـ وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الناس جرماً إنسان شاعر يهجو القبيلة بأسرها، ورجل ينتفي من أبيه»(٢).

لأن القبيلة لا تخلو من عبد صالح، فهاجي الكل قد تورط في الكذب(٣).

٣١٨ ـ الولع بعيب الناس عجبا وفخراً:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ..﴾ [الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

٣١٨ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل: هلك الناس؛ فهو أهلكهم»(٤).

معنى هذا الكلام أن لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساويهم، ويقول: قد فسد الناس وهلكوا، ونحو ذلك من الكلام، يقول ﷺ: إذا فعل الرجل ذلك فهو أهلكهم وأسوؤهم حالاً مما يلحقه من الإثم في عيبهم والإزراء بهم و الوقيعة فيهم، وربما أدَّاه ذلك إلى العجب بنفسه، فيرى أن له فضلا عليهم وأنه خير منهم فيهلك(٥).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه (٣٠٢٩) (٢/٣١١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، انظر: السلسلة الصحيحة (٧٦٣) (٢/٤٠٢).

(٣) فيض القدير ـ المناوي (٢/١٠).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٢٣) (٤/١٦٠٦).

(٥) معالم السنن ـ الخطابي (٣/١٢٢).

قال مالك: وأما الذي يقول ذلك على جهة التَّحزُّن فليس من ذلك في شيء، إنما المكروه من قال ذلك طعناً وتنقصاً، وقد أدركتُ الناس وهم يقولون: ذهب الناس[1].

(١) كتاب الجامع - أبو محمد القيرواني - ص ١٧٦.

كتاب البر والصلة

٣١٩ ـ إخافة أهل المدينة النبوية وإرادتهم بالسوء:

٣١٩ ـ ١ ـ عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَكيدُ أهلَ المدينةِ أحدٌ إلا انماعَ كما يَنماعُ المِلحُ في الماء»(١).

٣١٩ ـ ٢ ـ عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أرادَ أهلَ المدينةِ بدَهمٍ أو بسُوءٍ، أذابَهُ اللهُ كما يَذوبُ المِلحُ في الماء»(٢).

٣١٩ ـ ٣ ـ عن جابر بن عبد الله عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخافَ أهلَ المدينة أخافَهُ الله»(٣).

٣١٩ ـ ٤ ـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخِفه، وعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل»(٤).

٣١٩ ـ ٥ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخافَ أهلَ المدينةِ، فقد أخافَ ما بين جَنبيَّ»(٥).

٣٢٠ ـ اختصاص الأغنياء بالصحبة دون الفقراء وطردهم:

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) صحيح البخاري (١٨٧٧) (٢/٥٧٩).

(٢) صحيح مسلم (١٣٨٧) (٢/٨١٨).

(٣) أخرجه ابن حبان وابن عساكر، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٠٤) (٥/٣٨٢).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط وابن عساكر في تاريخه، انظر: السلسلة الصحيحة (٥١) (١/٦٢٠).

(٥) أخرجه أحمد في المسند، والبخاري في التاريخ، انظر: صحيح الجامع (٥٩٧٨) (٢/١٠٣٦).

٣٢٠ - ١ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: مرَّ الملأُ من قريشٍ على رسول الله ﷺ وعندَه صهيب - رضي الله عنه - وبلالٌ - رضي الله عنه - وعمارٌ - رضي الله عنه - وخبّابٌ - رضي الله عنه - ونحوهُم من ضعفاء المسلمينَ، فقالوا: يا محمَّدُ! اطردهم، أَرضيتَ هؤلاء من قومك، أفنحنُ نكونُ تَبَعاً لهؤلاء؟ !أهـؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ !فَلَعلَّكَ إن طردتَهم أن نأتيك! قالَ: فنزلت: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الانعام: ٥٢]»(١).

٣٢١ - إخفار ذمّة المسلم:

٣٢١ - ١ - عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ذمَّةُ المسلمينَ واحدةٌ، فمن أخفَرَ مسلماً فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعينَ، لا يُقبلُ منه صَرفٌ ولا عدلٌ»(٢).

٣٢١ - ٢ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «ذمَّةُ المسلمينَ واحدةٌ، فإن جارَت عليهم جائرةٌ ؛ فلا تُخفِرُوها؛ فإن لكل غادرٍ لواءً يُعرَفُ به يوم القيامة»(٣).

٣٢٢ - إرادة الإلحاد في الحرم:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥].

---

(١) أخرجه أحمد واللبزار وابن جرير في التفسير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٩٧) (٧-٢/٨٧٤).

(٢) صحيح البخاري (١٨٧٧) (٢/٥٧٧).

(٣) أخرجها أبو يعلى في مسنده والطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٩٤٨) (٧-٣/١٦٦٢).

٣٢٢ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثةٌ: مُلحِدٌ في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنَّةَ الجاهلية، ومُطَّلبُ دمِ امرئٍ بغير حقٍّ؛ ليُهريقَ دمه»(١).

٣٢٢ ـ ٢ ـ عن عمير ـ رضي الله عنه ـ قال: أن رجلاً سأله، فقال: يا رسول الله! ما الكبائر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هُنَّ تسعٌ؛ الشركُ بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النفسِ التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولي يومَ الزحفِ، وقذف المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ، وعقوقُ الوالدينِ المُسلمينِ، واستحلالُ البيتِ الحرام، قبلتكم أحياءً وأمواتاً»(٢).

٣٢٢ ـ ٣ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكبائرُ: الإشراكُ بالله، وقذفُ المُحصنة، وقتلُ النفسِ المؤمنةِ، والفرارُ يومَ الزَّحفِ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وعقوقُ الوالدينِ المسلمينِ، وإلحادٌ بالبيتِ؛ قبلتكم أحياءً وأمواتاً»(٣).

٣٢٣ ـ إرادة أهل مكة بسوء:

قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

٣٢٣ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا البلدَ حَرَّمهُ اللهُ يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، فهوَ حرامٌ بحرمةِ الله إلى يوم القيامة، و إنَّهُ لم يَحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قَبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهُوَ

(١) صحيح البخاري (٦٨٨٢) (٨/٣٥٨).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٤٩٩) (٥٥٦/٢).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، انظر: صحيح الجامع (٤٦٠٢) (٨٤٤/٢).

حرامٌ بحرمةِ الله إلى يومِ القيامة لا يُعضدُ شوكُهُ، ولا يُنفرُ صَيدُهُ، ولا يُلتَقطُ لُقَطَتَهُ إلاَّ من عرَّفها، ولا يُختَلى خَلاهُ»(١).

٣٢٤ ـ استنقاص الضعفاء والفقراء وعدم احترامهم:

٣٢٤ ـ ١ ـ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال لرجلٍ عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجلٌ من أشراف الناس: هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكحَ، وإن شفَعَ أن يُشفَّعَ. قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مرَّ رجلٌ فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله! هذا رجلٌ من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يُشفعَ، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرضِ مثل هذا»(٢).

٣٢٤ ـ ٢ ـ عن مصعب بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ: «وهل تنصرون وترزقون إلاَّ بضعفائكم، بصلاتهم ودعائهم»(٣).

٣٢٤ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ: «رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»(٤).

٣٢٥ ـ إسلام المسلم لأعدائه:

٣٢٥ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يُسلِمُهُ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(٥).

(١) صحيح مسلم (١٣٥٣) (٢/٨٠٥).

(٢) صحيح البخاري (٦٤٤٧) (٧/٢٢٨).

(٣) صحيح البخاري (٢٨٩٦) (٣/٣٠٦).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٢٢) (٤/١٦٠٦).

(٥) صحيح مسلم (٢٥٨٠) (٤/١٥٨٥).

٣٢٦ ـ الإضرار بالناس:

٣٢٦ ـ ١ ـ عن أبي صِرمَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضَارَّ أضرَّ الله بِهِ، ومَن شَاقَّ شَقَّ الله عَليهِ»(١).

٣٢٦ ـ ٢ ـ عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرار»(٢).

٣٢٧ ـ إضلال الأعمى:

٣٢٧ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من كَمَهَ أعمى عن السبيل»(٣).

أي دله على غيرها، وألحق به البصير الجاهل(٤).

فكيف بمن أضلَّ عن طريق الله أو صراطه المستقيم(٥)!!

٣٢٧ ـ ٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعونٌ من سبَّ أباهُ، ملعونٌ من سبَّ أمَّهُ، ملعونٌ من ذبَحَ لغير الله، ملعونٌ من غَيرَ تُخومَ الأرضِ، ملعونٌ من كَمَّهَ أعمى عن طريقٍ، ملعونٌ من وقعَ على بهيمةٍ، ملعونٌ من عمِلَ بعمل قومِ لوطٍ»(٦).

٣٢٨ ـ إعانة الشيطان على المسلم:

٣٢٨ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أُتيَ النبي ﷺ برجُلٍ قد شَرِبَ، فقال ﷺ: «اضربوه». فمنّا الضاربُ بيدهِ، والضاربُ بنعلهِ، والضاربُ

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة (١٨٩٧) (٢/٣٩).

(٢) صحيح سنن ابن ماجة (١٨٩٥) (٢/٣٩).

(٣) صحيح الأدب المفرد ـ ص ٣٣٢ رقم (٦٨٥).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر ـ الهيتمي (٢/٩٧).

(٥) فتاوى إمام المفتين ـ ابن القيم ـ ص ٢٢٠.

(٦) أخرجه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع (٥٨٩١) (٢/١٠٢٤).

بثوبه، فلما انصرفَ، قال بعضُ القومِ: أخزاكَ اللهُ. قال ﷺ: «لا تقولُوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان»(١).

٣٢٨ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ أُتيَ برجلٍ قد شربَ الخمرَ. فقال: «اضربوه» فمنا الضاربُ بيده، والضاربُ بثوبه، والضارب بنعله. ثمَّ قال: «بكتوه» فأقبلوا عليه يقولونَ: ما اتَّقيتَ اللهَ، ما خشيتَ اللهَ، وما استحييتَ من رسولِ الله ﷺ. فقال بعض القومِ: أخزاكَ اللهُ. قال ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطانَ، ولكن قولوا: اللهمَّ اغفر له، اللهمَّ ارحمه»(٢).

٣٢٩ - الإعانة على غير الحق:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

[المائدة: ٢]

وقال تعالى: ﴿.. رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

[القصص: ١٧]

وقال تعالى: ﴿.. فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

٣٢٩ - ١ - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن نَصرَ قومَه على غير الحقِّ، فهو كالبعير الذي رُدِّيَ، فهو يُنزَعُ بذنبه»(٣).

معناه أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينزع بذنبه ولا يقدر على خلاصه(٤).

(١) صحيح البخاري (٦٧٨١) (٧/٣٢٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٧٥٩) (٣/٨٤٧).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٢٧٠) (٣/٩٦٤).

(٤) معالم السنن - الخطابي (٣/١٣٨).

٣٢٩ - ٢ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعانَ على خصومة بظلم، أو يُعين على ظلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزِع»(١).

٣٢٩ - ٣ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعانَ ظالماً ليُدحضَ بباطلهِ حقاً، فقد برئت منهُ ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ رسُولِهِ»(٢).

٣٣٠ - إعجاب المرء بنفسه واتِّباعه هواه:

قال تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤٩].

٣٣٠ - ١ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ منجياتٌ، فقال: ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاع، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسِه.

وثلاثٌ منجياتٌ: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضبِ والرِّضا»(٣).

٣٣٠ - ٢ - عن أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء»(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢١) (٣/١٩).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الجامع (٦٠٤٨) (٢/١٠٤٥).

(٣) أخرجه البزار والعقيلي، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) (٤/٤١٢).

(٤) أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الصغير، انظر: كتاب السنة - ابن أبي عاصم - ص ١٢ رقم (١٤).

٣٣١ ـ الانتساب إلى غير أبيه :

٣٣١ ـ ١ ـ عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلمُ أنَّهُ غيرُ أبيه، فالجنَّة عليه حرامٌ»(١) .

٣٣١ ـ ٢ ـ عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس مِن رجلٍ ادَّعى لغير أبيه ـ وهو يَعلمهُ ـ إلا كفرَ، ومِن ادعى قوماً ليس له فيهم نسبٌ فليَتبوأْ مقعَدهُ من النار»(٢) .

٣٣١ ـ ٣ ـ عن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من أعظم الفِرى أن يدَّعي الرجلُ إلى غير أبيه . . »(٣) .

٣٣١ ـ ٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ترغبوا عن آبائِكُم، فمن رَغِبَ عن أبيه فهو كُفرٌ»(٤) .

٣٣١ ـ ٥ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَن ادَّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة»(٥) .

٣٣١ ـ ٦ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من انتَسبَ إلى غير أبيه، أو تولَّى غير مَواليه، فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين»(٦) .

---

(١) صحيح البخاري (٦٧٦٧) (٧/٣٢٣) .

(٢) صحيح البخاري (٣٥٠٨) (٤/٥١٤) .

(٣) صحيح البخاري (٣٥٠٩) (٤/٥١٤) .

(٤) صحيح مسلم (٦٢) (١/٧٨) .

(٥) صحيح سنن أبي داود (٤٢٦٨) (٣/٩٦٤) .

(٦) صحيح سنن ابن ماجه (٢١١٣) (٢/٩٠) .

٣٣٢ ـ الانتصار للنفس حال الغضب :

٣٣٢ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين قطُّ إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد النَّاسِ منهُ، وما انتقمَ رسولُ الله لنفسهِ في شيءٍ قطُّ إلا أن تُنتهكَ حُرمةُ اللهِ فينتقِمَ بها للهِ[١] .

٣٣٢ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه – قال : بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نزلَ ملك من السماء يكذِّبُهُ بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكُن لأجلس، إذ وقع الشيطان »[٢] .

٣٣٣ ـ الانتفاء من ولده ليفضحه :

٣٣٣ ـ ١ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من انتفَى من ولَدِهِ ليفضَحه في الدُّنيا ؛ فضَحَه اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوس الأشهادِ، قِصاصٌ بِقِصاصٍ »[٣] .

٣٣٤ ـ إيذاء المسلمين في طرقهم :

٣٣٤ ـ ١ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن آذى المسلمين في طُرُقِهم، وجَبت عليهِ لعنَتُهُم »[٤] .

٣٣٥ ـ بخس النَّاس أشياءهم :

قال تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ . . .﴾ [الأعراف : ٨٥] .

---

(١) صحيح البخاري (٦١٢٦) (٧/١٣٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٩٤) (٣/٩٢٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الكبير والصغير ، انظر : السلسلة الصحيحة (٣٤٨٠) (١٤٠٣/٣-٧).

(٤) أخرجه الطبراني وأبو نعيم في أخبار أصبهان ، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٩٤) (٣٧٢٩/٥).

وقال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال محمد بن سيرين: ظلماً لأخيك أن تذكر فيه أسوأ ما تعلم منه، وتكتم خيره(١).

وليس ذلك البخس مقصوراً على أموالهم، وإنما يتعداه إلى ما سواه؛ من بخسهم في أعراضهم وأعمالهم وجهودهم وسمعتهم واستحقاقاتهم، وغير ذلك مما فيه نقص لحقهم وتقصير فيما لهم.

٣٣٦ ـ البغي على المسلم:

قال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[النحل: ٩٠]

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ٣٣].

٣٣٦ ـ ١ ـ عن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تَواضعُوا حتَّى لا يبغي أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخر أحدٌ على أحدٍ»(٢).

٣٣٦ ـ ٢ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذَنبٍ أجدرَ أن يُعجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبهِ العُقُوبَةَ في الدنيا، معَ ما يدَّخرُ لهُ في الآخرة مثلُ البغي وقَطيعَةِ الرَّحم»(٣).

---

(١) الزهد ـ وكيع بن الجراح (٤٥٦) (٣/٧٧٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥) (٤/١٧٤٢).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٠٩٨) (٣/٩٢٧).

٣٣٦ - ٣ - عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظننتم فلا تُحقِّقوا، وإذا حسدتُم فلا تبغُوا، وإذا تطيَّرتُم فامضُوا؛ وعلى الله فتوكلوا، وإذا وزنتُم فأرجحُوا»(١).

٣٣٦ - ٤ - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي والعقوق»(٢).

٣٣٦ - ٥ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسَ ممَّا عُصيَ اللهُ به هو أعجلُ عِقاباً من البغي، وما من شيءٍ أُطيعَ اللهُ فيه أسرعُ ثواباً من الصِّلَةِ، واليمينُ الفاجِرةُ تدعُ الديارَ بلاقعَ»(٣).

٣٣٧ - تأويل الرؤى بهوى أو بجهل أو بسوء:

٣٣٧ - ١ - عن أبي رزين العُقيلي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رُؤيا المؤمنِ جزء من ستة وأربعينَ جُزءاً من النُّبوَّة، وهي على رِجلِ طائرٍ ما لم يُحدِّث بها، فإذا تُحُدِّثَ بها سَقَطَت» قال: وأحسبه قال -: «ولا تُحدِّث بها إلا لبيباً أو حبيباً»(٤).

٣٣٧ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤيا على رجلِ طائرٍ ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرت وقعَت، والرؤيا جزءٌ من سِتَّةٍ وأربعين جُزءاً من النُّبوَّة، لا يقُصُّها إلا على وادٍّ أو ذي رأي»(٥).

٣٣٧ - ٣ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرؤيا تقع على ما تعبَّر، ومثل ذلك مثل رَجلٍ رفع رِجله فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحاً أو عالماً»(٦).

---

(١) أورده السيوطي في الجامع الصغير والكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٩٤٢) (١٦٤٩/٣-٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (١١٢٠) (١١٢/٣).

(٣) رواه البيهقي، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٣٦) (٣٦٨/٢).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٨٥٨) (٢٦٠/٢).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (١٣٦٢) (٣٤٢/٢).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (١٢٠) (١٨٦/١).

٣٣٨ ـ تتبع عورة المسلم وفضحه:

٣٣٨ ـ ١ ـ عن أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبِعوا عوراتهم؛ فإنه من تتَّبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورتَه، ومن تتَّبع الله عورته، يفضحْه ولو في جوف بيته»(١).

٣٣٨ ـ ٢ ـ عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكَ إن اتبعتَ عورات الناس أفسدتَهُم أو كِدتَ تُفسِدهُم»(٢).

٣٣٨ ـ ٣ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سترَ عورةَ أخيه المسلم، سترَ الله عورتَهُ يومَ القيامة، ومن كشفَ عورَةَ أخيه المسلم، كشفَ الله عورته حتَّى يفضَحَهُ بها في بيتِهِ»(٣).

٣٣٩ ـ التجسس على المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا..﴾ [الحجرات: ١٢].

٣٣٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجسَّسُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدَابرُوا، ولا تَبَاغَضُوا، وكونوا عِبادَ الله إخواناً»(٤).

فإن ترتَّب على جسِّه وهنٌ على الإسلام وأهله، وقتل المسلمين، وسبي وأسر ونهب، أو شيء من ذلك؛ فهذا ممن سعى في الأرض فساداً وأهلك الحرث والنسل، وتعين قتله، وحق عليه العذاب(٥).

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٣) (٣/٩٢٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٨) (٣/٩٢٤).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢٠٦٣) (٢/٧٩).

(٤) صحيح البخاري (٦٠٦٤) (٧/١١٦).

(٥) الكبائر ـ الذهبي ص ١٦٩.

٣٣٩ ـ ٢ ـ عن معاوية ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعرضُوا عنِ الناسِ، ألم ترَ أنكَ إنِ ابتغيتَ الريبةَ في الناس أفسدتهم، أو كدتَ تفسدهم»(١).

٣٤٠ ـ تخوين الأمين:

٣٤٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات، يصدَّق فيها الكاذبُ، ويكذبُ فيها الصادقُ، ويؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضةُ». قيل: وما الرويبضةُ؟ قال: «الرجلُ التافهُ؛ يتكلم في أمر العامة»(٢).

٣٤٠ ـ ٢ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراطِ الساعة: الفحشُ والتَّفحُّشُ، وقطيعة الرَّحم، وتخوينُ الأمينِ، وائتمانُ الخائن»(٣).

٣٤١ ـ التدخل فيما لا يعنيه:

قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾ [النساء: ١١٤].

٣٤١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يَعنيه»(٤).

٣٤١ ـ ٢ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: استشهد رجلٌ منا يوم أحدٍ، فوجد على بطنه صخرة مربوطةٌ من الجوع، فمسحت أمُّه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئاً

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (١٠٤٩) (١/٢٣٩).

(٢) صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٦١) (٢/٣٧٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٩٠) (٥/٣٦٣).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٨٨٦) (٢/٢٦٨).

لك يا بني الجنةَ !فقال النبيُّ ـ ﷺ : «ما يدريك؟ !لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضرُّه»(١).

وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال(٢).

قال عمر بن عبد العزيز: من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلاَّ فيما يعنيه(٣).

وقال معاوية لرجل: ما بقي من حلمك ؟ قال: لا يعنيني ما لا يعنيني(٤).

٣٤٢ ـ ترويع المسلم:

٣٤٢ ـ ١ ـ عن ابن أبي ليلى، قال :حدَّثنا أصحابُ محمدٍ ﷺ أنَّهم كانوا يسيرونَ معَ رسول الله ﷺ فنامَ رجلٌ منهم، فانطلقَ بعضهم إلى حبلٍ معه، فأخذه، ففزعَ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يروِّعَ مسلماً»(٥).

٣٤٣ ـ التشبع والتحلي بما لم يعطَ:

قال تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

٣٤٣ ـ ١ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ امرأةً قالت: يا رسول الله! أقولُ: إنَّ زوجي أعطاني ما لم يُعطيني؟ فقال رسول الله ﷺ : «المتشبع بما لم يُعط، كلابس ثوبي زور»(٦).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا وابو يعلى ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨٣) (٣/٩٧).

(٢) إحياء علوم الدين ـ الغزالي (٣/١٢٣).

(٣) جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ـ ص ١٣٧.

(٤) كتاب الصمت ـ ابن أبي الدنيا ـ ص ٩٦ رقم (١١٧).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٤١٨٤) (٢/٩٤٤).

(٦) صحيح مسلم (٢١٢٩) (٣/١٣٣٩).

٣٤٤ ـ تصوير ذوات الأرواح على ما يحتاجه الناس في حياتهم:

٣٤٤ ـ ١ ـ عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أشدَّ النَّاس عذاباً عِند الله يومَ القيامةِ المُصوِرونَ»[١].

٣٤٤ ـ ٢ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها اشترت نُمرُقَةً فيها تصاويرُ فقامَ النبي ﷺ بالبابِ فلم يدخُل، فقلتُ: أتُوبُ إلى الله ممَّا أذنبتُ، قال: «ما هذه النُّمرُقَةُ؟» قلتُ: لتجلسَ عليها وتَوسَّدَها، قال: «إنَّ أصحابَ هذه الصُّورِ يُعذَّبُونَ يومَ القيامةِ، يُقالُ لهُم: أحيُوا ما خَلقتُم، وإنَّ الملائكةَ لا تدخلُ بيتاً فيه الصُّوَرُ»[٢].

٣٤٥ ـ التعدي على حرمة الجار:

٣٤٥ ـ ١ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله !أي الذنب أعظم ؟ قال: «أن تجعَلَ لله نداً، وهو خلَقَكَ» قلت: ثم ماذا ؟ قال: «أن تقتُلَ ولَدَكَ خَشيَةَ أن يَطعَمَ معكَ» قلت: ثم ماذا ؟ قال: «أن تُزانيَ بحليلَةِ جَارِكَ»[٣].

٣٤٥ ـ ٢ ـ عن المقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره، ولأن يسرق الرجل من عشر أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره»[٤].

٣٤٦ ـ تعذيب الناس:

٣٤٦ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفانِ من أهلِ النارِ لم أرَهُما: قومٌ مَعهُم سِياطٌ كأذنابِ البقرِ يضرِبونَ بها النَّاس، ونساءٌ

(١) صحيح البخاري (٥٩٥٠) (٧/٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٧) (٧/٨٧).

(٣) صحيح مسلم (٨٦) (١/٨٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٦٥) (١/٩٦).

كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ رؤوسُهُنَّ كأسنمةِ البُختِ المائلةِ لا يدخُلنَ الجَنَّةَ، ولا يَجدنَ ريحها، وإنَّ ريحها لَتُوجدُ من مَسيرَةِ كذا وكذا»(١).

٣٤٦ - ٢ - عن هشام بن حكيم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُعذبُ الذين يُعذبونَ النَّاسَ في الدنيا»(٢).

٣٤٦ - ٣ - عن خالد بن الوليد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناسِ عذاباً عند الله يومَ القيامة أشدُّهم عذاباً للناس في الدنيا»(٣).

٣٤٦ - ٤ - عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في هذه الأمة في آخر الزمان رِجالٌ معهم سياط كأنها أذنابُ البقر، يغدون في سخط الله، ويَرُوحُون في غَضبِه»(٤).

٣٤٧ - التعسير على الناس:

في كل ما يتعلق بدينهم ودنياهم.

٣٤٧ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه، وأهريقوا على بوله سجلا من ماء - أو ذنوبا من ماء - فإنما بعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا معسرين»(٥).

٣٤٧ - ٢ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يسِّروا ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»(٦).

---

(١) صحيح مسلم (٢١٢٨) (٣/١٣٣٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٦١٣) (٤/١٦٠٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند والحميدي والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٤٢) (٣/٤٢٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند والحاكم والطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٩٣) (٤/٥١٧).

(٥) صحيح البخاري (٢٢٠) (١/٧٦).

(٦) صحيح مسلم (١٧٣٣) (٣/١٠٩٣).

٣٤٨ ـ التفاخر بالأحساب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٣٤٨ ـ ١ ـ عن عياض بن حمار المجاشعيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ أوحى إليَّ: أن تواضَعوا حتى لا يَفخَرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغيَ أحدٌ على أحدٍ»(١).

٣٤٨ ـ ٢ ـ عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لم يدعهنَّ الناس: الفخرُ في الأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»(٢).

٣٤٩ ـ التكبر على الناس:

قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

٣٤٩ ـ ١ ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار؛ فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فَقَضَى الله بينهما إنكِ الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنكِ النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها»(٣).

٣٤٩ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قلبِهِ مثقالُ حَبَّةٍ مِن خردَلٍ مِن كِبرياء»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥) (٤/١٧٤٢).

(٢) صحيح مسلم (٩٣٤) (٢/٥٣٦).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٦) (٤/١٧٣٣).

(٤) صحيح مسلم (٩١) (١/٨٩).

٣٥٠ ـ جحد فضل المحسن وعدم شكره عليه:

٣٥٠ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر اللهَ من لا يشكر الناس»(١).

٣٥٠ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لا يشكُرِ النَّاسَ لا يَشكُرِ الله»(٢).

٣٥٠ ـ ٣ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مَن أبلى بلاء فذكَرَهُ فقد شَكَرَهُ، وإن كتمَهُ فقد كَفَرَهُ»(٣).

٣٥١ ـ الجفاء مع الناس:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٣٥١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار»(٤).

٣٥١ ـ ٢ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ الضعفاء المظلومون. ألا أنبئكم بأهل النار؟ كلُّ شديد جعظري»(٥).

٣٥٢ ـ الجلب على الخيل يوم الرهان:

٣٥٢ ـ ١ ـ عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا جلَب ولا جنَب في الرهان»(٦).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٦) (٣/٩١٣).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٥٩٢) (٢/١٨٥).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٠٢٩) (٣/٩١٤).

(٤) صحيح سنن الترمذي (١٦٣٤) (٢/١٩٥).

(٥) أخرجه الطيالسي وأحمد، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٣٢) (٢/٦٤١).

(٦) صحيح سنن أبي داود (٢٢٤٩) (٢/٤٩٠).

٣٥٢ ـ ٢ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من جَلبَ عل الخيل يوم الرهان، فليس منَّا»(١).

معناه: أن يجتمع قوم فيصطفوا وقوفاً من الجانبين ويجلبوا فنهوا عن ذلك، وأما الجنب فيقال أنهم كانوا يجنبون الفرس حتى إذا قاربوا الأمد تحولوا عن ذلك المركوب الذي قد كده الركوب إلى الفرس الذي لم يركب فنهي عن ذلك(٢).

٣٥٣ ـ خداع الأطفال وتعويدهم على الكذب:

٣٥٣ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عامر ـ رضي الله عنه أنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «ومَا أردت أن تعطيه؟» قالت: أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة»(٣).

٣٥٤ ـ خذلان المسلم وقت حاجته:

٣٥٤ ـ ١ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئٍ يَخذُلُ امرءاً مسلماً في موطن يُنتقصُ فيه من عِرضِه، وينتهكُ فيه من حُرمَته، إلا خذله الله تعالى في موطنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَه، وما من أحدٍ ينصُرُ مسلماً في موطنٍ يُنتقصُ فيه من عِرضه، وينتهكُ فيه من حُرمتهِ، إلا نصره اللهُ في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرتَهُ»(٤).

٣٥٥ ـ خيانة الأمانة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

---

(١) أخرجه الطبراني، انظر صحيح الجامع (٦١٩١) (٢/١٠٦٥). وقال الألباني: حسن.

(٢) معالم السنن ـ الخطابي (٢/٢٢٢).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤١٧٦) (٣/٩٤٣).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب والسنن الكبرى، انظر: صحيح الجامع (٥٦٩٠) (٢/٩٩٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٣٥٥ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذَبَ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»(١).

٣٥٥ - ٢ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا؛ حفظ امانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة»(٢).

٣٥٥ - ٣ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخرُهُ الصلاة»(٣).

٣٥٥ - ٤ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ لهُ»(٤).

* قال ابن عباس - رضي الله عنهما: الأمانات الأعمال التي ائتمن الله تعالى عليها العباد(٥).

٣٥٦ - خيانة المسلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٩٥) (٧/١٢٥).

(٢) رواه ابن وهب في الجامع وأحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٧٣٣) (٢/٣٧٠).

(٣) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والضياء في المختارة، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٣٩) (٤/٣١٩).

(٤) كتاب الإيمان /أبي بكر بن أبي شيبة /ص ١٨ رقم (٧) وأخرجه أحمد في المسند وابن حبان في صحيحه، انظر صحيح الجامع (٧١٧٩) (٢/١٢٠٥).

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر - الهيتمي (١/٤٤٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

٣٥٦ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المُسلمُ أخُو المُسلمِ لا يَخُونُهُ ولا يَكذِبُهُ ولا يَخذلهُ، كلُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ حرامٌ: عِرضُهُ ومَالُهُ ودَمُهُ. التَّقوىَ هَهُنا. بِحَسبِ امرئ مِنَ الشَّرِّ أن يحتَقِرَ أخاهُ المُسلِمَ»(١).

٣٥٦ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أنِّي أعُوذُ بِكَ من الجوعِ، فإنَّهُ بئسَ الضَّجِيعُ، وأعُوذُ بكَ مِنَ الخِيَانَةِ، فإنَّها بِئسَتِ البِطَانَةِ»(٢).

٣٥٦ - ٣ - عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجلَ اللهُ تعالى لصاحبه العقوبةَ في الدنيا مع ما يدَّخره له في الآخرةِ من قطيعةِ الرَّحمِ، والخيانةِ، والكذب، وإنَّ أعجل الطاعةِ ثواباً لَصلةُ الرحمِ، حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليكُونوا فجرةً، فتنمو أموالهم، ويكثُرُ عددُهم، إذا تواصلوا»(٣).

٣٥٧ - الخيلاء في الباطل:

٣٥٧ - ١ - عن جابر بن عتيك الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنَ الغيرَةِ ما يُحبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُبغِضُ اللهُ عزَّ وجلَّ، فأمَّا الغيرَةِ التي يُحبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ فالغيرةُ في الرِّيبةِ، وأما الغيرة التي يُبغضَ اللهُ عزَّ وجلَّ، فالغيرةُ في غير ريبةٍ.

والاختيالُ الذي يُحب اللهُ عز وجلَّ: اختيال الرَّجُلِ بنفسه عندَ القتال، وعندَ الصَّدَقة. والاختيال الذي يُبغضُ اللهُ عزَّ وجلَّ: الخُيَلاء في الباطِلِ»(٤).

---

(١) صحيح سنن الترمذي (١٥٧٢) (٢/١٨٠).

(٢) صحيح سنن النسائي (٥٠٥١) (٣/١١١٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٥٧٠٥) (٢/٩٩٥).

(٤) صحيح سنن النسائي (٢٣٩٨) (٢/٥٤٠).

٣٥٨ ـ ذو الوجهين (التلون في المعاملة):

٣٥٨ ـ ١ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «تجد من شرِّ النَّاس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»(١).

٣٥٨ ـ ٢ ـ عن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار»(٢).

٣٥٨ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً»(٣).

* عن عريب الهمداني، قال: قلت لابن عمر ـ رضي الله عنهما: إنا إذا دخلنا على الأمراء زكيناهم بما ليس فيهم، فإذا خرجنا دعونا عليهم. قال ابن عمر: كنا نعد ذلك على عهد رسول الله «النفاق».

* قال أناس لابن عمر ـ رضي الله عنهما: إنا ندخُلُ على سلاطيننا فنَقُولُ لَهم خِلافَ ما نَتَكَلَّمُ إذا خرجنا مِن عِندهِم. قال: كُنّا نَعُدُّها نِفاقاً(٤).

٣٥٩ ـ رد الريحان والطيب:

٣٥٩ ـ ١ ـ عن أنس رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ كان لا يَرُدُّ الطيبَ(٥).

٣٥٩ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عُرِضَ عليه ريحانٌ فلا يردّهُ؛ فإنه خفيف المحمل، طيّبَ الرِّيحَ»(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٧١٧٩) (٨/٤٥٨).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٧٨) (٣/٩٢٢).

(٣) صحيح الأدب المفرد ـ ص ١٣٠ رقم (٢٣٨).

(٤) صحيح البخاري (٧١٧٨) (٨/٤٥٨).

(٥) صحيح البخاري (٢٥٨٢) (٣/١٨٤).

(٦) صحيح مسلم (٢٢٥٣) (٤/١٤٠٩).

٣٦٠ ـ الرعي في زروع الغير بغير إذنهم وإفسادها عليهم :

٣٦٠ ـ ١ ـ عن مُحَيِّصة، أن ناقة البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ دخلت حائط رجل فأفسدته، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل(١).

٣٦٠ ـ ٢ ـ عن حرام بن مُحَيِّصَةَ الأنصاري، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال : كانت له ناقة ضارية، فدخلت حائطاً فأفسدت فيه، فكُلِّمَ رسول الله ﷺ فيها، فقضى : أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت مَاشِيَتُهُم بالليل(٢).

٣٦١ ـ رفع الإنسان فوق منزلته :

٣٦١ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان من قبلكم بالغلو في الدين»(٣).

٣٦١ ـ ٢ ـ عن عبد الله بن الشخير ـ رضي الله عنه ـ قال : انطلقت في وفد بني عامر، على رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا. فقال : «السيد الله تبارك وتعالى». قلنا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال ﷺ : «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجيرنكم الشيطان» (٤) .

٣٦٠ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «احبب حَبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بَغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»(٥).

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٠٤٧) (٦٨١/٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٣٠٤٨) (٦٨١/٢).

(٣) صحيح سنن النسائي (٢٨٦٣) (٦٤٠/٢).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤٠٢١) (٩١٢/٣).

(٥) صحيح سنن الترمذي (١٦٢٥) (١٩٣/٢).

٣٦٠ ـ ٤ ـ عن الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناسُ لا ترفعُوني فوقَ قدري، فإنَّ الله اتَّخذني عبداً قبل أن يتَّخذني نبيّاً»(١).

٣٦٢ ـ رفع الصوت بالعطاس:

٣٦٢ ـ ١ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض أو غض بها صوته(٢).

٣٦٢ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ النبي ﷺ كان إذا عطسَ غطّى وجهَه بيدِه أو بثوبه، وغضَّ بها صوتَه(٣).

٣٦٢ ـ ٣ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عطسَ أحدكم فليضع كفيهِ على وجههِ، وليخفض صوتهُ»(٤).

٣٦٣ ـ الريبة فيمن ظاهره الصلاح:

٣٦٣ ـ ١ ـ عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعرضُوا عن الناس، ألم ترَ أنك إن ابتغيت الريبة في الناس أفسدتهم، أو كدت تفسدهم»(٥).

٣٦٤ ـ سوء الخلق:

٣٦٤ ـ ١ ـ عن أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي في الآخرة أحاسنُكم أخلاقاً، وإن أبغضَكم

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٥١) (٦-١/١٠٦).
(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٢٠٧) (٢/٩٤٨).
(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٢٠٥) (٢/٣٥٥).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب، انظر: صحيح الجامع (٦٨٥) (١/١٧٩).
(٥) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٨) (٣/٩٢٤).

إليَّ وأبعدكم منِّي في الآخرة أسوءُكم أخلاقاً، المتشدِّقون المتفيهقون الثرثارون»(١).

٣٦٥ ـ سؤال الناس الخدمة مع القدرة عليها:

٣٦٥ ـ ١ ـ عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يَتكفّل لي أن لا يسألَ الناسَ شيئاً، أتَكفَّل له بالجنَّة»(٢).

٣٦٥ ـ ٢ ـ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل الناسَ شيئاً ولا سوطكَ، وإن سقط منك حتى تنزلَ إليه فتأخذه»(٣).

٣٦٦ ـ الشماتة بالمسلم:

قال تعالى: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا..﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قيل: هذا في الشامت.

٣٦٦ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يتعوَّذُ من جهدِ البلاءِ، ودَركِ الشقاء، وسوءِ القضاء، وشَماتَةِ الأعداء(٤).

٣٦٧ ـ الصخب بالأسواق:

٣٦٧ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يبغضُ كلَّ جعظريٍّ جوّاظ، سَخابٍ في الأسواق، جيفةٍ بالليل حمارٍ بالنهار، عالمٍ بالدنيا جاهلٍ بالآخرة»(٥).

---

(١) صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (١٦١١) (٢/٢٤٤).

(٢) صحيح أبي داود (١٤٤٦) (١/٣٠٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٨٠٤) (١/٣٤٢).

(٤) صحيح البخاري (٦٣٤٧) (٧/٢٠٠).

(٥) أخرجه البيهقي في سننه، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٤) (١/٣٣٠).

٣٦٧ - ٢ - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الناسِ قرني الذي أنا منهم، ثمّ الذين يلونَهم، ثم الذين يلونهم، ثم ينشأُ أقوامٌ يفشُو فيهم السِّمَنُ، يشهدُون ولا يُستشهَدون، ولهم لَغَطٌ في أسواقِهم»(١).

٣٦٨ - الضحك من الضرطة:

٣٦٨ - ١ - عن عبد الله بن زمعة - رضي الله عنه - قال: نهى النبيُّ ﷺ أن يضحكَ الرجلُ مما يخرجُ من الأنفس»(٢). وقال: «لم يضحك أحدهم مما يخرج منه؟!».

٣٦٨ - ٢ - وعنه - رضي الله عنه - قال: نهى ﷺ عن الضحِكِ من الضَّرطة(٣).

٣٦٩ - ضرب المسلم الأجير أو غيره ظلماً:

٣٦٩ - ١ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما ضربَ رسولُ الله ﷺ بيده شيئاً قط إلاّ أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضربَ خادماً ولا امرأةً(٤).

٣٦٩ - ٢ - عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «...إنَّا قد نُهينا عن ضربِ أهلِ الصلاةِ»(٥).

٣٦٩ - ٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضربَ بسوطٍ ظُلماً، اقتُصَّ منه يوم القيامةِ»(٦).

* عن أبي ليلى، قال: خرج سلمان - رضي الله عنه - فإذا علف دابته يتساقط من الآريِّ - مربط الدواب أو معلفها - فقال لخادمه: لولا أنّي أخاف القِصاص - أي في الآخرة - لأوجعتك(٧)!

---

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٣١) (١٢٧٦/٢-٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٤٢) (١١٠/٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، انظر: صحيح الجامع (٦٨٩٦) (١١٦١/٢).

(٤) صحيح مسلم (٧٩).

(٥) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٢٨) (٤١٤/٣).

(٦) صحيح الأدب المفرد - ص ٨٩ رقم (١٣٧).

(٧) صحيح الأدب المفرد - ص ٨٨ رقم (١٣٤).

٣٧٠ ـ ضرب الوجه :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ [الإسراء: ٧٠].

٣٧٠ ـ ١ ـ عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه»(١). وفي رواية : «فلا يلطِمنَّ الوجهَ».

٣٧٠ ـ ٢ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : نهى النبي ﷺ عن الوسمِ في الوجه والضربِ في الوجهِ(٢).

٣٧١ ـ الطعن في النسب :

٣٧١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «اثنتانِ في النَّاس هُما بهم كفرٌ الطعن في الأنساب والنِّياحةُ على الميِّتِ»(٣).

٣٧١ ـ ٢ ـ عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لم يدعهنَّ الناس؛ الفخرُ في الأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»(٤).

٣٧٢ ـ الطمع فيما في أيدي الناس :

٣٧٢ ـ ٢ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «ما ذِئبانِ ضارِيانِ في حظيرةٍ يأكُلانِ ويُفسِدانِ؛ بأضرَّ فيهما من حُبِّ الشرفِ وحُبِّ المالِ في دينِ المرءِ المسلم»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٢٦١٢) (٤/١٦٠٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، انظر: صحيح الجامع (٦٩٢٠) (٢/١١٦٥).

(٣) صحيح مسلم (٦٧) (١/٨١).

(٤) صحيح مسلم (٩٣٤) (٢/٥٣٦).

(٥) رواه البزار ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٥٢) (٣/٢٦٨).

٣٧٣ ـ الظلم:

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

٣٧٣ ـ ١ ـ عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنهُ قال: «يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحرَّماً فلا تَظالَمُوا ...»(١).

٣٧٣ ـ ٢ ـ عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ يُملي للظَّالم، فإذا أخذَهُ لم يُفلتهُ». ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»(٢).

يملي: يمهل ويُؤخِّر ويطيل المدة(٣).

٣٧٣ ـ ٣ ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلمَ، فإنَّ الظُلمَ ظُلُماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشحَّ، فإن الشحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»(٤).

٣٧٣ ـ ٤ ـ عن خزيمة بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلومِ، فإنها تُحملُ على الغمام، يقول الله: وعزَّتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حينٍ»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) (٤/١٥٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٨٣) (٤/١٥٨٥).

(٣) المعلم بفوائد مسلم ـ المازري (٣/١٦٦).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٧٨) (٤/١٥٨٥).

(٥) رواه البخاري في التاريخ والدولابي والطبراني، انظر: السلسلة الصحيحة (٨٧٠) (٢/٥٥٣).

٣٧٣ - ٥ - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»(١).

٣٧٤ - ظلم المعاهد:

٣٧٤ - ١ - عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم - رضي الله عنهم - عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»(٢).

٣٧٥ - ظن السوء بالمسلم دون ما يوجبه:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]

أي لا تظنوا بأهل الخير سوءاً إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

٣٧٥ - ١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث، ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تنافسوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(٤).

٣٧٥ - ٢ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فقال: «مرحباً بكِ من بيت، ما أعظمَك وأعظمَ حرمَتكِ! ولَلمؤمنُ أعظمُ حرمةً عند الله منك، إنَّ الله حرَّم منكِ واحدةً، وحرَّمَ من المؤمنِ ثلاثاً؛ دمَه ومالَه وأن يُظنَّ به ظنَّ السُّوءِ»(٥).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٨٧١) (٢/٥٥٥).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٦٢٦) (٢/٥٩٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي (١٦/٢١٧).

(٤) صحيح البخاري (٦٠٦٦) (٧/١١٦).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٢٠) (٧-٢/١٢٤٨).

٣٧٦ - عدم رحمة الناس:

٣٧٦ - ١ - عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحم الناسَ»(١).

٣٧٦ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنزَعُ الرَّحمةُ إلا مِن شقيٍّ»(٢).

٣٧٦ - ٣ - عن عمرو بن حبيب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خاب عبد وخسر لم يجعل اللهُ تعالى في قلبه رحمةً للبشر»(٣).

٣٧٦ - ٤ - عن جرير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما يرحمُ اللهُ من عباده الرُّحماء»(٤).

٣٧٦ - ٥ - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم». قالوا: كلنا يرحم. قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة»(٥).

٣٧٦ - ٦ - عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لن تؤمنوا حتَّى تراحموا». قالوا: يا رسول الله كلُّنا رحيمٌ. قال: «إنَّه ليس رحمة أحدكم صاحبَهُ، ولكنَّها رحمةُ العامَّة»(٦).

٣٧٧ - عدم نصرة المظلوم:

٣٧٧ - ١ - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرَ بعبد من عبادِ الله أن يضربَ في قبره مائه جلدةٍ، فلم يزل يسألُ ويدعو حتى

(١) صحيح البخاري (٧٣٧٦) (٨/٥٢٠).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٥٦٨) (٢/١٨٠).

(٣) أخرجه الدولابي وابن عساكر في تاريخ دمشق، انظر: السلسلة الصحيحة (٤٥٦) (١/٧٤٠).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: صحيح الجامع (٢٣٨١) (١/٤٦٩) وقال الألباني: حسن.

(٥) أخرجه الحافظ العراقي في الأمالي وابن المبارك في الزهد، انظر: السلسلة الصحيحة (١٦٧) (١/٢٧٠).

(٦) رواه الطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٥٣) (٢/٥٤٨).

صارت -جلدة واحدة، فجُلدَ جلدةً واحدةً، فامتلأ قبرُه عليه ناراً، فلما ارتفع عنه وأفاق قال: على ما جلدتموني؟ قالوا: إنك صليت صلاةً واحدةً بغير طهورٍ، ومررتَ على مظلومٍ فلم تنصرُه»(١).

٣٧٨ ـ العنف في غير وجهه:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٣٧٨ ـ ١ ـ وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ، ويُعطي عليهِ ما لا يُعطي على العُنف، وما لا يُعطي على ما سواه»(٢).

٣٧٨ ـ ٢ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مَن أعطى حظَّهُ مِن الرِّفقِ فقد أعطى حظَّهُ من الخيرِ، ومن حُرِمَ حظَّهُ من الرفقِ فقد حُرِمَ حظَّهُ من الخير»(٣).

٣٧٨ ـ ٣ ـ عن حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبِّئكُم بأهلِ الجنَّة؟ كُلُّ ضعيفٍ مُتضَعَّف، ألا أُنبئكُم بأهل النار؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبِرٍ»(٤).

٣٧٨ ـ ٤ ـ عن معدان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيقٌ يحبُّ الرِّفقَ ويرضاهُ، ويعين عليه ما لا يُعينُ على العنف، فإذا ركبتم هذه الدواب العُجمَ فنزِّلوها منازلها، فإن أجدبت الأرضُ فانجوا عليها؛ فإنَّ الأرض تُطوى بالليل

(١) أخرجه الدولابي في مشكل الآثار، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٧٤) (٦٤٠/١-٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٩٣) (١٥٩٠/٤).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٦٣٧) (١٩٥/٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٢٣) (٣٩٥/٢).

مـا لا تطوى بالنهـار، وإياكم والتـعـريسَ بالطريق، فـإنه طريقُ الدوابِّ، ومـأوى الحيَّاتِ»(١).

٣٧٨ ـ ٥ ـ عن أبي أمـامـة ـ رضي الله عنه ـ قال: قـال رسـول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ ـ يحبُّ الرفقَ ويرضاهُ، ويعُينُ عليه ما لا يُعينُ على العُنفِ»(٢).

٣٧٩ ـ الغدر:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقـال تعـالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً...﴾ [النحل: ٩١].

٣٧٩ ـ ١ ـ عن ابن عـمـر ـ رضي الله عنهـمـا ـ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إذا جـمعَ اللهُ الأولينَ والآخـرينَ يومَ القـيـامـةِ، يُرفعُ لكـلِّ غـادرٍ لواءٌ، فـقـيـل: هذه غـدرةُ فُلان ابن فلان»(٣).

٣٧٩ ـ ٢ ـ عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قـال رسـول الله ﷺ: «ذمة المسلمين واحـدة يسـعى بهـا أدناهم، فـمن أخـفـر مـسلمـاً فعليـه لعنة الله والملائكـة والناس أجـمعين، لا يقبل الله منهم يوم القيامة عدلاً ولا صرفاً»(٤).

٣٧٩ ـ ٣ ـ عن عـمرو بن الحمق الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ قال: قـال رسـول الله ﷺ: «من أمَّن رجلاً على دمه، فقتله فإنه يحمل لواء غدرٍ يوم القيامة»(٥).

٣٧٩ ـ ٤ ـ وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قـال رسـول الله ﷺ: «إذا اطمأن الرجلُ إلى الرجل، ثمَّ قتلهُ بعدما اطمأن إليه، نُصِبَ لهُ يومَ القيامةِ لواءُ غدرٍ»(٦).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٧٠) (٢/٣٦٤).

(٢) رواه الطبراني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٦٨) (٣/١٦).

(٣) صحيح مسلم (١٧٣٦) (٣/١٠٩٥).

(٤) مسلم (٢/٩٩٨).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢١٧٧) (٢/١٠٧).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الجامع (٣٥٧) (١/١٢٦).

٣٨٠ ـ الغضب بغير سبب :

٣٨٠ ـ ١ ـ عن سليمان بن صرد ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما احمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ : «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان. ذهب عنه ما يجد». فقالوا: إن النبي ﷺ قال: «تعوذ بالله من الشيطان» فقال: وهل بي جنون؟(١).

٣٨٠ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «ليس الشديدُ بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(٢).

٣٨٠ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ : أوصني . قال: «لا تغضب» فردَّدَ مراراً، قال: «لا تغضب»(٣).

٣٨٠ ـ ٤ ـ عن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: أنَّه سأل رسولَ الله ﷺ : ما يُباعِدُني من غضبِ الله عز وجل؟ قال : «لا تَغضَب»(٤).

٣٨٠ ـ ٥ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رجلٌ لرسول الله ﷺ : دُلَّني على عملٍ يُدخِلُني الجنَّة ؟ قال رسولُ الله ﷺ : «لا تَغضَب، ولك الجنَّة»(٥).

٣٨٠ ـ ٦ ـ عن جارية بن قدامة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله! قل لي قولاً ينفعني الله به. قال ﷺ : «لا تَغضب»(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٢) (٦/٣٣٧).

(٢) صحيح البخاري (٦١١٤) (٧/١٣٠).

(٣) صحيح البخاري (٦١١٦) (٧/١٣٠).

(٤) رواه أحمد وابن حبان ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٤٧) (٣/٤٥).

(٥) رواه الطبراني ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٤٩) (٣/٤٦).

(٦) رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير وأحمد ، انظر : صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٤٨) (٣/٤٦).

٣٨١ ـ غوائل الجار و بوائقه :

٣٨١ ـ ١ ـ عن أبي شريح ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « واللهِ لا يؤمنُ، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن؛ الذي لا يأمنُ جارُهُ بوائقهُ »(١).

٣٨١ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخلُ الجنةَ من لا يأمنُ جارُه بوائقَه »(٢).

والبائقة هي : الداهية والشيء المهلك والأمر الشديد الذي يوافي بغتة(٣).

٣٨١ ـ ٣ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « أوَّل خَصمينِ يومَ القيامةِ جَارانِ »(٤).

٣٨٢ ـ فتح باب الشر على الناس :

٣٨٢ ـ ١ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مِن النَّاسِ مَفاتِيحَ للخير، مغاليقَ للشَّر، وإنَّ من الناسِ مفاتيحَ للشَّرِّ، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعلَ اللهُ مفاتيح الخيرِ على يديهِ، وويلٌ لمن جعل اللهُ مفاتيح الشرِّ على يديه »(٥).

٣٨٣ ـ الفجور في الخصومة :

٣٨٣ ـ ١ ـ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يدعها : إذا ائتُمن خان، وإذا حدَّث كذبَ، وإذا عاهَدَ غدَرَ، وإذا خاصَمَ فجرَ »(٦).

---

(١) صحيح البخاري (٦٠١٦) (٧/١٠٣).

(٢) صحيح مسلم (٤٦) (١/٦٩).

(٣) فتح الباري ـ ابن حجر (١٠/٤٥٧).

(٤) رواه أحمد والطبراني ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٥٧) (٢/٦٨١).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (١٩٤) (١/٤٦).

(٦) صحيح البخاري (٣٤) (١/١٧).

٣٨٤ ـ فضيحة المسلم :

٣٨٤ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال رسول الله ﷺ : « من سَتَرَ عورَةَ أخيه المُسلم، سَترَ اللهُ عَورتَهُ يومَ القيامةِ. ومن كشَفَ عورةَ أخيهِ المُسلِم، كشفَ اللهُ عَورتَهُ حتَّى يَفضَحَهُ بها في بيتهِ »(١).

٣٨٤ ـ ٢ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان من دعائه ﷺ : « اللهمَّ إني أعوذُ بك من جارِ السُّوءِ، ومن زوجٍ تشيِّبني قبلَ المشيبِ، ومن ولدٍ يكونُ عليَّ ربّاً، ومن مالٍ يكونُ عليَّ عذاباً، ومن خليلٍ ماكرٍ عينُه تراني، وقلبُه يرعاني ؛ إن رأى حسنةً دفنَها، وإذا رأى سيئةً أذاعَها »(٢).

٣٨٥ ـ قطع السِّدر بلا حاجة :

قال تعالى : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

٣٨٥ ـ ١ ـ عن عبد الله بن حبشي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صَوَّبَ الله رأسهُ في النَّار »(٣).

سئل أبو داود، عن معنى هذا الحديث؟ فقال: هذا حديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة، يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها، صوب الله رأسه في النار(٤).

وقيل المقصود هو: سدر الحرم .

٣٨٥ ـ ٢ ـ فعن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار (يعني من سدر الحرم) »(٥).

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة (٢٠٦٣) (٢/٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء والديلمي في الفردوس ، انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٣٧) (٧-١/٣٧٧).

(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٣٦٤) (٣/٩٨٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٣/٩٨٤).

(٥) انظر : السلسلة الصحيحة (٦١٤) (٢/١٧٣).

٣٨٦ـ قطع الطريق على المسلمين:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ...﴾

[المائدة: ٣٣]

٣٨٦ـ ١ ـ عن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضيَّق منزِلاً، أو قطعَ طريقاً، أو آذى مؤمناً، فلا جهادَ له»(١).

٣٨٧ ـ قلة الحياء من الناس:

٣٨٧ ـ ١ ـ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ممَّا أدركَ النَّاسُ من كلامِ النُّبُوَّةِ الأولى؛ إذا لم تَستَحِ فاصنَع ما شِئتَ»(٢).

٣٨٨ ـ الكيد بالمسلم والتحريش به في غيبته عند عدوه:

٣٨٨ ـ ١ ـ عن المستورد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «من أكل بمسلم أكلةً؛ فإن اللهَ يُطعمه مثلها من جهنم، ومن كُسيَ برجل مسلم، فإن الله عزَّ وجلَّ يكسوه من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام رياءٍ وسمعة؛ فإن الله يقوم به مقام رياء وسمعة يوم القيامة»(٣).

(١) أخرجه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع (٦٣٧٨) (٢/١٠٩٠).
(٢) صحيح البخاري (٦١٢٠) (٧/١٣١).
(٣) صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٤) (٣/٩٢٣).

قال ابن القيم: ومعنى الحديث أنه إذا توصل إلى ذلك، وتوسل إليه بأذى أخيه المسلم من كذب عليه أو سُخرية أو همزة أو لمزة أو غيبة، والطعن عليه، والازدراء به والشهادة عليه بالزور، والنيل من عرضه عند عدوه، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس(١).

قلت: رحمك الله، وهل رأيت حال الكثير منا اليوم؟! يبيعون دينهم بدنيا غيرهم كيداً بالصالحين ومكراً بالدعاة المخلصين وحسداً للعلماء العاملين، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً !! ألا كبرت كلمة تخرج من أفوههم إن يقولون إلا كذباً !!

٣٨٩ ـ اللؤم والمراوغة في معاملة الناس:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

٣٨٩ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ غِرٌّ كريمٌ، والفاجرُ خِبٌّ لئيم»(٢).

٣٩٠ ـ المبادرة بالعقوبة دون تريث:

٣٩٠ ـ ١ ـ عن عباد بن شراحبيل، قال: قدمت مع عمومتي المدينة، فدخلت حائطاً من حيطانها، ففركت من سنبله، فجاء صاحب الحائط، فأخذ كسائي وضربني، فأتيت رسول الله ﷺ أستعدي عليه، فأرسل إلى الرجل، فجاؤوا به، فقال: «ما حَمَلَكَ على هذا» فقال: يا رسول الله! إنه دخل حائطي فأخذ من سنبله، ففركه، فقال رسول الله ﷺ: «ما علَّمتَهُ إذ كان جاهلاً، ولا أطعَمتهُ إذ كان جائعاً، اردد عليه كِساءه»(٣).

(١) فتاوى أمام المتقين ـ ابن القيم ص ٢١٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤٠٠٦) (٣/٩٠٩).

(٣) صحيح سنن النسائي (٤٩٩٩) (٣/١٠٩٧).

٣٩١ ـ المشاحنة:

٣٩١ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تُفتح أبوابُ الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفر لكلِ عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا»(١).

٣٩٢ ـ المعاملة بالمثل في السوء والخطأ:

قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

٣٩٢ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»(٢).

٣٩٢ ـ ٢ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»(٣).

٣٩٣ ـ معاملة الناس بما يكره أن يعاملوه به:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

٣٩٣ ـ ١ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٤). وفي رواية «من الخير»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٥) (٤/١٥٧٧).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٠١٥) (٢/١٩).

(٣) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في أخبار أصبهان، انظر: السلسلة الصحيحة (٨٩١) (٢/٥٨٢).

(٤) صحيح البخاري (١٣) (١/١١).

(٥) صحيح سنن النسائي (٤٦٤٤) (٣/١٠٣٢).

٣٩٣ - ٢ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « ... فمن أحبَّ أن يُزحزحَ عن النار ويُدخل الجنَّة، فلتأته منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحبُّ أن يُؤتى إليه ... »(١).

٣٩٣ - ٣ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب »(٢).

٣٩٣ - ٤ - عن أبي المنتفق - رضي الله عنه - قال: أتيت مكة، فسألت عن رسول الله ﷺ؟ فقالوا: هو بعرفة، فأتيته؛ فذهبت أدنو منه فمنعوني، فقال: « اتركوه ». فدنوت منه، حتى إذا اختلفت عنق راحلته وعنق راحلتي، فقلت: يا رسول الله! نبئني بما يباعدني من عذاب الله ويدخلني الجنة؟ قال ﷺ: « تعبدُ اللهَ ولا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ المكتوبةَ، وتؤدِّي الزكاةَ المفروضة، وتصومُ رمضانَ، وتحجّ وتعتمرُ، وانظر ما تحبُّ من الناسِ أن يأتُوه إليكَ؛ فافعله بهم، وما كرهتَ أن يأتوه إليكَ؛ فذرهم منه »(٣).

٣٩٤ - المكر بالمسلم وخداعه:

قال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

٣٩٤ - ١ - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « من غشَّنا فليسَ منَّا، والمكرُ والخِداعُ في النارِ »(٤).

---

(١) صحيح مسلم (١٨٤٤) (٣/١١٧١).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٨٧٦) (٢/٢٦٦)، وقال الألباني: حسن.

(٣) أخرجه الدولابي في الكنى، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٥٠٨) (٧-٣/١٤٥٩).

(٤) أخرجه ابن حبان والطبراني وأبو نعيم في الحلية، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٥٨) (٣/٤٨).

٣٩٥ ـ منع الجار غرز خشبته على الجدار المشترك:

٣٩٥ ـ ١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعُ جارٌ جارَهُ أن يغرِزَ خَشَبَةً في جداره»(١).

٣٩٦ ـ نشر الأغاني الخليعة والأفلام الخبيثة بين المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٥].

٣٩٦ ـ ١ ـ عن أبي عامر الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليكونن من أُمتي أقوام يستحلّون الحرى والحرير والخمر والمعازف، ولينزلَنَّ أقوام إلى جنب عَلَم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة، فيقولون: ارجع إلينا غداً، فَيُبَيِّتُهم الله، ويضع العلم، ويمسخ الآخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»(٢).

٣٩٦ ـ ٢ ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة؛ مزمار عند نعمة، ورنَّة عند مصيبة»(٣).

٣٩٦ ـ ٣ ـ عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أُمتي قذف، ومسخ، وخسف».

قيل: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت المعازف، وكثرت القيان، وشربت الخمور»(٤).

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٦٣) (٣/١٤٣).

(٢) صحيح البخاري (٥٥٩٠) (٦/٦٠١).

(٣) تحريم آلات الطرب ـ الألباني ص٥٠.

(٤) تحريم آلات الطرب ـ الألباني ص ٦٨

٣٩٦ ـ ٤ ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ بيع المغنيات، ولا شراؤهنّ، ولا تجارة فيهنّ، وثمنهنّ حرام ـ وقال: ـ إنما نزلت هذه الآية في ذلك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٥]. حتّى فرغ من الآية»(١).

٣٩٧ ـ نقض العهد:

قال تعالى: ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

٣٩٧ ـ ١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم، وما ظهرت فاحشة في قوم قط إلا سلط الله عز وجل عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر»(٢).

٣٩٨ ـ هجران المسلم وقطع العلاقة به:

٣٩٨ ـ ١ ـ عن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحلُّ لمُسلمٍ أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ، يلتَقيانِ فَيَصُدُّ هذا ويَصُدُّ هذا، وخَيرُهُما الذي يَبدأُ بِالسَّلامِ»(٣).

٣٩٨ ـ ٢ ـ عن أبي خراش السلمي ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن هجرَ أخاه سنة فهو كسفك دمه»(٤).

٣٩٨ ـ ٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار»(٥).

---

(١) تحريم آلات الطرب ص ٦٨.

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٧) (١/١٦٩).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٣٧) (٧/١٦٦).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤١٠٧) (٣/٩٢٨).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٤١٠٦) (٣/٩٢٨).

٣٩٨ـ ٤ ـ عن هشام بن عامر الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يحل لمسلم أن يصارم مسلماً فوق ثلاث، فإنهما ناكبان عن الحق ما داما على صرامهما، وإن أولهما فيئاً يكون كفارته عند سبقه بالفيء، وإن ماتا على صِرامهما لم يدخلا الجنة جميعاً أبداً، وإن سلَّم عليه فأبى أن يقبل تسليمه وسلامه، رد عليه الملك ورد على الآخر الشيطان»(١).

٣٩٨ـ ٥ ـ عن فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : «من هَجَرَ أخاه فوقَ ثلاثٍ فهو في النارِ إلا أن يتداركَهُ الله برحمته»(٢).

٣٩٨ـ ٦ ـ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «لو أنَّ رجلينِ دخلا في الإسلام فاهتجرا ، لكانَ أحدُهما خارجاً من الإسلامِ حتَّى يرجعَ»(٣) يعني: الظالم.

فإذا حاول المسلم إصلاح ما بينه وبين أخيه وألقى السلام عليه، ثم صدَّ ذلك عنه وندَّ عن الرد عليه، فلا يهولنَّه ذلك فقد برئت ذمته وباء بالإثم من جفاه.

٣٩٨ـ ٧ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة، فإذا لقيه سلّم عليه ثلاث مرارٍ كلُّ ذلك لا يرُدُّ عليه، فقد باء بإثمِه»(٤).

وما من قطيعة تكون إلا كانت بسبب الذنوب والتقصير في حقِّ علام الغيوب.

٣٩٨ـ ٨ ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «ما توادَّ اثنانِ في الله فيفرَّقُ بينهما إلا بذنبٍ يُحدثُهُ أحدهما»(٥).

(١) صحيح الأدب المفرد ـ ص ١٥٨ رقم (٣١١).

(٢) رواه الطبراني ، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٦١) (٣/٥١).

(٣) أخرجه البزار في مسنده ، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٩٤) (٧-٢/٨٦٧).

(٤) صحيح سنن أبي داود (٤١٠٥) (٣/٩٢٨).

(٥) أخرجه أحمد في المسند وأبو نعيم في الحلية ، انظر : السلسلة الصحيحة (٦٣٧) (٢/٢٣٣).

٣٩٩ - وضع الأخيار ورفع الأشرار:

٣٩٩ - ١ - عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب وفي رواية: أشراط الساعة أن ترفع الأشرارُ، وتوضع الأخيارُ، ويُفتح القولُ، ويُخزن العملُ، ويقرأُ بالقومِ المَثناةُ، ليس فيهم أحدٌ ينكرها. قيل: وما المثناةُ؟ قال: «ما استُكتِبَ سوى كتابِ الله عزَّ وجلَّ»(١).

٣٩٩ - ٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا تقومُ السَّاعةُ حتّى يظهرَ الفُحشُ والبُخلُ، ويُخَوَّنُ الأمينُ، ويُؤتمنُ الخائنُ، ويهلِكَ الوعولُ، وتظهرَ التُّحوتُ». قالوا: يا رسول الله! وما الوعولُ والتُّحوت؟ قال: «الوعُولُ: وجوهُ الناسِ وأشرافُهم، والتُّحوتُ الذين كانوا تحتَ أقدام الناسِ لا يُعلمُ بهم»(٢).

٤٠٠ - وضع الأذى في الطريق وأذية المارين به:

٤٠٠ - ١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات». قالوا: يا رسول الله! ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدث فيها. فقال رسول الله: «أما إذا أبيتم فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكفّ الأذى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»(٣).

٤٠٠ - ١ - عن حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من آذى المسلمين في طُرقهم وجبت عليه لعنتُهم»(٤).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٨٢١) (٧٧٥/٢-٦).

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ والحاكم والطبراني في الأوسط، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢١١) (٦٣٩/١-٧).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٢٩) (١٦٤/٧).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في أخبار أصبهان، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٩٤) (٣٧٢/٥).



خاتمة الفصل

فهذا ما يسَّر الله جمعه في هذا الفصل الذي جمع ووعى كثيراً من المحرمات والمنهيات والمكروهات والمخالفات، وما ينبغي للمسلم الحذر منه والبعد عنه، والتورع فيه، وترك ما فيه بأس إلى ما ليس فيه .

والذي ينبغي عليك ـ أخي المسلم ـ أن تعمل بما تعلم، فقد عرفتَ ؛ فالزم، وقل : آمنت بالله، ثم استقم!

ومن اجترح خطيئة، أو ألمَّ بذنب، أو أحدث أذى، فالواجب عليه أن يتخفَّفَ من أحماله، ويتقلَّل من أثقاله، قبل أن يأتي بها فوق ظهره كأمثال الجبال، أو تأتي في ديوان أعماله وميزان أفعاله، ولو كانت كالذرِّ الصغير والخردل الحقير، فالدواوين منشورة، والموازين منصوبة، والخطوات والخطرات مكتوبة، وإلى الله تصير الأمور، وبين يديه يجتمع الخصوم .

قال تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ – ٢٦] .

وحقوق العباد مبنيَّة على المشاحّة فيما بينهم، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «الظلمُ ثلاثةٌ، فظلمٌ لا يتركه اللهُ، وظلمٌ يُغفر، وظلمٌ لا يغفر، فأما الظلمُ الذي لا يُغفر، فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلمُ الذي يُغفر، فظلم العبد فيما بينه وبين ربِّه، وأما الظلم الذي لا يُترَك، فظلمُ العباد، فيقتص الله بعضهم من بعض»[1] .

وردُّ الحقوق هنا أيسر من ردِّها هناك، حيث لا فِكاك . . لا فِكاك!

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٢٧) (٤/٥٦٠) .

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتُؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتَّى يُقادَ للشاةِ الجلحاءِ من الشاة القرناء»[١].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقضى الله بين خلقِه الجنِّ والإنسِ والبهائم، وإنَّه ليَقيدُ يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى، قال الله: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾»[٢].

فلنبادر بردِّ الحقوق إلى أهلها، وإرجاع المظالم إلى أصحابها، ولنسعَ في التسامح والتصالح قبل أن تذهب الدنانير والدراهم، ويكون القصاص من الحسنات، أغلى كنوز العبد في يوم القيامة ...

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللهُ منها، فإنه ليس ثمَّ دينارٌ ولا درهم مِن قبلِ أن يؤخذ لأخيهِ من حسناتِه، فإن لم يكن لهُ حسناتٌ أُخذ مِن سيِّئاتِ أخيهِ فطرحت عليهِ»[٣].

وعن عبد الله بن أُنيس ـ رضي الله عنه ـ أنّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «يحشُر الله العبادَ يوم القيامة عُراةً غُرلاً بُهماً». قال: قلنا: وما بُهماً؟ قال ﷺ: «ليس معهم شيءٌ، ثُمَّ يناديِهم بصوتٍ يسمعُه مَن بعدَ كما يسمعُه من قَرُب: أنا الديَّان، أنا الملك، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار وله عندَ أحدٍ من أهل الجنَّة حقٌّ؛ حتى أَقُصَّهُ منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخلَ الجنّة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقُصَّه منه، حتى اللَّطمَةَ».

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٢) (٤/١٥٨٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٦٦) (٤/٦٠٦).

(٣) صحيح البخاري (٦٥٣٤) (٧/٢٥٢).

قال: قلنا: كيفَ، وإنما نأتي عراةً غُرلاً بُهماً؟! قال ﷺ: «الحسناتُ والسيِّئات»(١).

فالآن ..الآن، قبل فوات الأوان!

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رجلاً قعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله !إنَّ لي مملوكين ؛ يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال ﷺ: «يُحسَبُ ما خَانُوكَ وعصَوكَ وكذَّبوكَ، وعقَابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابك إيَّاهم بقدرِ ذُنُوبهم كان كفافاً لا لكَ ولا عليكَ، وإن كان عِقابُك إياهُم دونَ ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابُك إيَّاهُم فوقَ ذُنُوبهم اقتُصَّ لهم منكَ الفضلُ».

قال: فتنحى الرجل، فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ أما تقرأ كتابَ الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقال الرجل: والله! يا رسول الله، ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم(٢).

ومن وقع عليه شيء من الأذى فليحسن الظنَّ بأخيه المسلم، ويلتمس له الأعذار، وليقبل منه الإعتذار، وليغفر لمن آذاه، ويسامح من تعدَّى عليه، لتُسلَّ سخائم النفوس، وتعالج أدواء القلوب، وتُمحى عظائم الذنوب ..

قال الله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) رواه أحمد في المسند، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٠٨) (٣/٤٢٧).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٢٥٣١) (٣/٧٧).

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ [النساء: ١٤٩].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعهُ اللهُ»(١).

وعن جرير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يغفِر لا يُغفر له، ومن لا يتب لا يُتب عليهِ»(٢).

وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجلٍ يُجرحُ في جسدهِ جِراحةً، فيتصدَّقُ بها، إلاَّ كفَّر الله عنه مثلَ ما تصدَّقَ بهِ»(٣).

وعن رجلٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ عن النبيِ ﷺ قال: «مَن أُصيبَ بشيءٍ في جسده، فتركَهُ لله عزَّ وجلَّ؛ كان كفَّارةً له»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أنَّ النبي ﷺ قال: «ارحموا تُرحموا، واغفِروا يُغفَر لكُم»(٥).

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى عفُو يُحبُّ العفوَ»(٦).

أفلا نحبُّ ما أحبَّ الله؟! بلى، والله!

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٨) (٤/١٥٨٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: السلسلة الصحيحة (٤٨٣) (١/٧٩٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٧٣) (٥/٣٤٣).

(٤) رواه أحمد، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٦١) (٢/٦٤٠).

(٥) رواه أحمد، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٦٥) (٢/٦٤١).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: صحيح الجامع (١٧٧٩) (١/٣٦٦).

فاللهَ أسأل أن يتجاوز عنَّا، ويتقبل منَّا، ويجعلنا في عباده الصالحين، وأن يسلك بنا سبيل المتَّقين، وأن يختم لنا بالعاقبة الحُسنى والمردِّ الجميل، وأن يغفر لمن آذانا أو آذيناه، ويسامح من تعدَّى علينا أو تعدَّينا عليه، ويتجاوز عمَّن أساء إلينا أو أسأنا إليه، وأن يغفر لآبائنا وأمهاتنا وزوجاتنا وذرياتنا وجميع قرابتنا والمسلمين أجمعين، إن ربنا على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على النبي الأمِّي محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً !!

* * * * *





الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

الجزء الثاني

الفصل الثالث
فاستبقوا الخيرات



ما أحلى الجوائز وما أغلاها عندما تكون من الله ربنا..

تعم فوائدها في حياتنا الدنيا ، وتدوم فوائدها إلى الأبد..

وقد ذكرت هنا جائزتين جائزتين.. وليس ذلك حصراً للجوائز ، ولكن لإلقاء الضوء على هذا الأمر العظيم الفائدة..

فالفرق بين المؤمنين وغيرهم هو الرغبة فيما عند الله ..

فاللهم أعطنا ولا تحرمنا.. آمين .

ولسوف تنطلق من هذه الجوائز إلى جوائز أخرى لا تنتهي :

١ ـ عندما نتوضأ :

عندما نتوضأ فإن الله تعالى يعطينا جائزتين؛

الجائزة الأولى : يغفر لنا جميع ما تقدم من الذنوب .

والجائزة الثانية : يفتح لنا أبواب الجنة الثمانية .

قال رسول الله ﷺ : «من توضأ هكذا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه» .

وقال ﷺ : «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل مِن أيها شاء»[١] .

٢ ـ عندما نحبب الناس في الدين ، فإن الله تعالى يعطينا جائزتين:

الجائزة الأولى : يفتح لنا سبل الخيرات .

والجائزة الثانية : ينجينا من مهالك الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

---

(١) رواهما مسلم.

وقال الله تعالى: ﴿تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠].

٣ ـ وعندما نقرأ آية الكرسي بعد كل صلاة، فإننا نحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: أن الله تعالى يحفظنا طول الحياة.

والجائزة الثانية: لا يكون بيننا وبين الجنة إلا لقاء الله.

ففي الحديث: «يجير الإنس من الجن آية الكرسي»(١).

وقال رسول الله: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت»(٢).

٤ ـ برّ الوالدين وصلة الرحم:

وعندما نبر الوالدين ونصل الرحم، فإن الله تعالى يعطينا جائزتين؛ الجائزة الأولى: يبسط لنا في أرزاقنا

والجائزة الثانية: ينسأ لنا في أعمارنا

قال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»(٣).

٥ ـ حسن معاملة الأهل:

عندما نحسن معاملة أبنائنا وتربيتهم؛ فإننا نحصل على جائزتين.

الأولى: تطيب حياتنا وحياة أبنائنا.

والثانية: تستمر حسناتنا بعد مماتنا.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾

[النحل:٩٧]

---

(١) الصحيحة ٣٢٤٥.

(٢) الصحيحة ٩٧٢.

(٣) البخاري.

وقال رسول الله ﷺ : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له»(١).

٦ ـ وعندما نرفق بأهلنا ؛ فإن الله تعالى يعطينا جائزتين:

الجائزة الأولى : نكون من خير الناس

والجائزة الثانية : تمتلئ حياتنا بالخيرات

قال رسول الله ﷺ : «خيركم خيركم لأهله»(٢).

وقال ﷺ : «إن الله إذا أراد بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»(٣).

٧ ـ حجاب المرأة :

المرأة التي تحتجب من دون محارمها ، فإن الله تعالى يعطيها جائزتين.

الجائزة الأولى : تكون من خير النساء

والجائزة الثانية : تُعرف بالعفة والمهابة

قال : «خير صفوف النساء آخرها»(٤).

وقال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾**

[الأحزاب:٥٩]

٨ – الودود، العؤود على زوجها :

الزوجة المحبة لزوجها، والتي هي سكنٌ ودواءٌ له تفوز بجائزتين:

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) ابن حبان، الصحيحة ٢٨٥ .

(٣) الصحيحة٥٢٣ .

(٤) صحيح مسلم.

الجائزة الأولى: تطيب حياتها وحياة بيتها في الدنيا.

والجائزة الثانية: يكون عملها هذا بإيمانها سبب نعيمها في الجنة.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العؤود على زوجها التي إذا آذت أو أوذيت جاءت حتى تأخذ بيد زوجها ثم تقول: والله لا أذوق غمضًا حتى ترضى»(١). فلا تنام إلا وزوجها راضٍ عنها.

٩ ـ الصلوات المكتوبات:

عندما نحافظ على الصلوات المكتوبات فإننا نحصل على جائزتين.

الجائزة الأولى: أن الله تعالى ينجينا من الحريق..

والجائزة الثانية: يكون لنا عهد عند الله أن يدخلنا الجنة..

قال رسول الله ﷺ: «تحترقون تحترقون فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة فمن أتى بهن لم ينتقص من حقهن شيئًا للقادرين، كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة»(٣).

(١) السلسلة الصحيحة ٢٨٧.

(٢) صحيح الترغيب.

(٣) المسند ج١ ص١٩٢، الصحيحة ٩٦٧.

١٠ - وعندما نقوم بالتسبيحات بعد الصلوات فإننا نحصل على جائزتين.

الجائزة الأولى: لا نخيب في حياتنا أبداً.

والجائزة الثانية: لا يكون أحد أفضل منا إلا من يصنع مثلنا.

قال رسول الله ﷺ: «معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة»(٢).

١١ - وعندما نقول: سبحان الله وبحمده مئة مرة؛ فإن الله تعالى يعطينا جائزتين.

الجائزة الأولى: يغفر لنا ما تقدم من الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر.

والجائزة الثانية: يغرس لنا مئة شجرة في الجنة..

قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة»(٤).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أخرجه الطبراني،الصحيحة٦٤ .

١٢ ـ من صلى الضحى أربع ركعات، فإن الله تعالى يعطيه جائزتين:

الأولى: كفاه الله حتى آخر النهار.

الثانية: كان أجره كأجر المعتمر.

قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: ابن آدم صل لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره»(١).

وقال الرسول ﷺ: «من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة؛ فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه، فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر الصلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»(٢).

فائدة في صلاة التوبة:

قال الرسول ﷺ: «ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له»(٣).

١٣ ـ الدعاء في كل شيء:

عندما ندعو الله في كل شيء، فإننا نحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: يكون كل شيء في حياتنا عبادة.

والجائزة الثانية: لا نتعب في أي شيء.

قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»(٤).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) صحيح الترغيب.

(٣) صحيح الترغيب.

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح.

١٤ ـ ذكر الله دائماً:

عندما نذكر الله دائماً ؛ فنتكلم عن الله في الناس،ونتكلم مع الله في نفوسنا، فإننا نحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: نكون من أقوى الناس وأحسنهم؛ لأن الله تعالى يكون معنا..

والجائزة الثانية: نتشرف بذكر الله لنا.

قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «وأنا معه إذا ذكرني»[٢]. [رواه البخاري]

وقال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

١٥ ـ وعندما نكثر من الصلاة على النبي ﷺ فإن الله تعالى يعطينا جائزتين:

الجائزة الأولى: أن الله تعالى يكفينا ما أهمنا.

والجائزة الثانية: أن الله تعالى يغفر لنا ذنوبنا.

ففي الحديث: عن كعب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت». قال: قلت: الربع. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قلت: النصف. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قال: قلت فالثلثين. قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها. قال: «إذًا تكفى همك ويغفر لك ذنبك»[١].

١٦ ـ طلب العلم:

عندما نستمر في تعلم أمور ديننا، فإن الله تعالى يعطينا جائزتين:

الجائزة الأولى: نكون على سبيل النجاة دائماً.

والجائزة الثانية: أن الله تعالى يسهل لنا طريقاً إلى الجنة.

---

(١) صحيح الترغيب.

عن علي رضي الله عنه قال: الناس ثلاث؛ عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعقٍ، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم. «كنز العمال».

وقال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»(١).

١٧ ـ عندما نؤدي الزكاة فإننا نحصل على جائزتين.

الجائزة الأولى: تكون برهاناً ودليلاً على الإيمان.

والجائزة الثانية: تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

قال رسول الله ﷺ: «والصدقة برهان»(٢).

وقال ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»(٣).

فائدة:

قال رسول الله ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط عليهم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني ٢٦٨٢.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سنن ابن ماجه، الصحيحة ٣٩٧٣.

عدوًّا من غيرهم، فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم»(١).

١٨ ـ من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، فإنه يحصل على جائزتين

الأولى : أن الله تعالى يقبلها بيمينه.

الثانية : أن الله تعالى يربيها له حتى تكون مثل الجبل .

قال رسول الله ﷺ : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل»(٢).

١٩ ـ من يستغني عن سؤال الناس، فإنه يحصل على جائزتين:

الأولى : يغنيه الله .

الثانية : تضمن له النبي ﷺ بالجنة .

قال رسول الله ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»(٣).

وقال رسول الله ﷺ : «من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً؛ أتكفل له الجنة»(٤). وعند ابن ماجه قال: «لا تسأل الناس شيئاً». قال: فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب، فلا يقول لأحد: ناولنيه. حتى ينزل فيأخذه .

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح.

فوائد عظيمة :

- «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»(١).

- «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»(٢).

- «أيما رجل أتاه ابن عمه يسأله من فضله فمنعه ، منعه الله فضله يوم القيامة»(٣).

٢٠ ـ عندما يهل علينا رمضان، فإن الله تعالى يعطينا جائزتين:

الجائزة الأولى: يفتح الله أبواب الجنة.

والجائزة الثانية: تُغلق أبواب النيران.

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين»(٤).

٢١ - ومن صام شهر رمضان ، فإنه يحصل على جائزتين:

الأولى: له في كل يوم دعوة مستجابة.

الثانية: يدخل الجنة من باب الريان.

قال النبي ﷺ: «إن لله تبارك وتعالى عتقاء في كل يوم وليلة ـ يعني في رمضان ـ وإن لكل مسلم في كل يوم دعوة مستجابة»(٥).

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح الترغيب.

(٤) البخاري.

(٥) صحيح الترغيب.

وقال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، ولا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد»[١].

فوائد عظيمة :

- «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢].

- «من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر»[٣].

- سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية»[٤].

- وسُئل ﷺ عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «يكفر السنة الماضية»[٥].

- «من صام من كل شهر ثلاثة أيام ، فذلك صيام الدهر»[٦].

- «ليس الصيام من الأكل والشرب ، إنما الصيام من اللغو والرفث ، فإن سابك أحد أو جهل عليك، فقل: إني صائم، إني صائم»[٧].

٢٢ - وعندما نتابع بين الحج والعمرة ، فإننا نحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: أن الله تعالى ينفي عنا الفقر إلى الأبد.

والجائزة الثانية: كذلك ينفي عنا الذنوب.

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) صحيح الترغيب.
(٧) صحيح الترغيب.

قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»(١).

٢٣ ـ وعندما نشرب من ماء زمزم فإننا نحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: شفاءً من الأسقام.

والجائزة الثانية: تحقيق ما نتمناه حين نشربها.

قال رسول الله ﷺ: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم؛ فيه طعام طعم وشفاء سقم»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له»(٣).

فائدة: قال رسول الله ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كان له أجر بكل نفس مؤمنة»(٤). وزاد في «كنز العمال»:

«ويكونوا لك شفعاء يوم القيامة».

٢٤ ـ وعندما نتحاب في الله، ونتجالس ونتزاور في الله، فإننا نحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: وجبت لنا محبة الله.

والجائزة الثانية: نكون في ظل الله يوم القيامة.

قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»(٥). وقال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(٦).

---

(١) سنن النسائي والترمذي، وصححه الألباني ١٢٠٠.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٦٩.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١١٢٣.

(٤) الصحيحة ٦٠٢٦.

(٥) الصحيحة ٤٣٣١.

(٦) رواه مسلم.

٢٥ ـ مَن يسّر على معسر ، فإنه يحصل على جائزتين:

الأولى : أن الله تعالى ينجيه من كرب يوم القيامة .

الثانية : له في كل يوم صدقة، فإذا حل الدَّين له في كل يوم صدقتان.

قال رسول الله ﷺ : «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر أو يضع عنه »(١).

وقال النبي ﷺ : «من أنظر معسراً، فله كل يوم صدقة قبل أن يحل الدَّين، فإذا حل الدَّين فأنظره بعد ذلك فله كل يوم مثليه صدقة»(٢).

فائدة عظيمة :

قال النبي ﷺ : «إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان. فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل. وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان. فهو ونيته، فوزرهما سواء»(٣).

٢٦- عندما نصلى أربعين يومًا في جماعة مع التكبيرة الأولى، فإن الله تعالى يعطينا جائزتين:

الجائزة الأولى : براءة من النار.

الجائزة الثانية : براءة من النفاق .

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح الترغيب .

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قال رسول الله ﷺ: «من صلى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، كتب له براءتان؛ براءة من النار وبراءة من النفاق»(١).

٢٧ ـ من أتى صلاة الجماعة فلم يدركها، فإن الله تعالى يعطيه جائزتين:

الجائزة الأولى: يعطيه مثل أجر من صلاها وحضرها.

الجائزة الثانية: غفر له كمن صلاها .

قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»(٢).

٢٨- من صلى العشاء والصبح في جماعة، فإنه يحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: كأنما صلى الليل كله.

الجائزة الثاني: نجا من سوء الظن.

قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظن»(٤).

٢٩ ـ من صلى الصبح في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، يعطيه الله جائزتين:

الجائزة الأولى: كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة.

الجائزة الثانية: أحب من عتق أربعة من ولد إسماعيل.

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح مسلم.

(٤) صحيح الترغيب.

قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصبح في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس، أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل»(٢).

فائدة:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وإنه كاد أن يبطئ بهن، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم. فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذب. فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ، وقعدوا على الشُّرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأد إلي. فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟

وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرةٌ فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) صحيح الترغيب.

وأمركم بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عُنُقه، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال :أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم .

وأمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبدُ لا يُحرِزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » .

قال النبي ﷺ : « وأنا آمرُكم بخمس، أمرني الله بهن؛ السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبرٍ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم » .

فقال رجل: يا رسول الله: إن صلى وصام؟ فقال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله التي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله »(١) .

٣٠ ـ من صلى النافلة في البيت ، أعطاه الله جائزتين:

الجائزة الأولى: جعل الله في بيته خيراً

الجائزة الثانية: فاز بيته بنعمة الحياة.

قال رسول الله ﷺ : «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت »(٣) .

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

٣١ ـ من بات طاهراً متوضئاً ، فإنه يحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: وكّل الله به ملكاً يدعو له بالمغفرة .

الجائزة الثانية: ما سأل الله شيئاً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه.

قال رسول الله ﷺ: «من بات طاهراً بات في شعاره ملكٌ، فلا يستيقظ إلا قال الملكُ: اللهم اغفر لعبدك فلان؛ فإنه بات طاهراً»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يبيت طاهراً فيتعار من الليل، فيسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة؛ إلا أعطاه الله إياه»[٢].

٣٢ ـ من قرأ آية الكرسي قبل نومه حتى يختم تمامها، فإنه يحصل على جائزتين:

الجائزة الأولى: لا يزال عليه من الله حافظ.

الجائزة الثانية: لا يقربه شيطان حتى يصبح.

كما بالحديث الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه: « ... إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي حتى تختم آخرها ، فلا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح »[٣].

٣٣ ـ من قام الليل وأيقظ أهله، فإن الله سبحانه يعطيهم جائزتين:

الجائزة الأولى: أن الله تعالى يتفضل عليهم برحمته.

الجائزة الثانية: أن يكتبهم الله من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) صحيح الترغيب.

(٣) صحيح البخاري.

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا، أو صلى ركعتين جميعًا، كتبا في الذاكرين والذاكرات»(٢).

٣٤ ـ هدية صلاة التسابيح:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال الرسول ﷺ للعباس بن عبد المطلب: «يا عباس يا عماه ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك ، ألا أفعل لك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله ذنبك أوله وآخره ، وقديمه وحديثه ، وخطأه وعمده ، وصغيره وكبيره ، وسره وعلانيته ؟ عشر خصال ؛ أن تصلي أربع ركعات ، تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة في كل أول ركعة فقل وأنت قائم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تهوي ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات ، إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تستطع ففي كل جمعة مرة ، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة ، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»(٣).

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) صحيح الترغيب.

(٣) صحيح الترغيب.

٣٥ ـ من اغتسل يوم الجمعة وخرج مبكراً ماشياً واستمع وأنصت، فإنه يحصل على جائزتين:

الأولى: كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها.

والثانية: حرمه الله على النار.

قال رسول الله ﷺ: «من غسل يوم الجمعة واغتسل، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، فاستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة عمل سنة، وأجر صيامها وقيامها»(١).

وعن يزيد بن أبي مريم قال: لحقني عبادة بن رفاعة بن رافع وأنا أمشي إلى الجمعة، فقال: أبشر. فإن خطاك هذه في سبيل الله. وقال رسول الله ﷺ: «من اغبرت قدماه في سبيل الله؛ فهما حرام على النار»(٢).

٣٦ ـ عندما نقرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فإننا نحصل على جائزتين..

الأولى: أضاء لنا من النور ما بين الجمعتين.

الثانية: أضاء لنا من النور بيننا وبين البيت العتيق.

قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة؛ أضاء له من النور ما بين الجمعتين»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق»(٤).

---

(١) صحيح الترغيب.

(٢) صحيح الترغيب.

(٣) صحيح الترغيب.

(٤) صحيح الترغيب.

خاتمة

قال رسول الله ﷺ : «من قال إذا أصبح، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً . فأنا الزعيم لآخذن بيده حتى أدخله الجنة»(١).

* * * * *

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن.



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثاني

فهرس الموضوعات





الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الأول

إمام المتقين ﷺ

وأثر سنته في فهم القرآن الكريم



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الدين الحق

بالأدلة القاطعة

وإنك لعلى خلق عظيم

إعداد وإشراف

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

شارك في الإعداد

أ . د محمد إبراهيم عبدالرحمن

رحمه الله تعالى

الشيخ مصطفى بن العدوي

الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر

الشيخ عبداللطيف بن هاجس الغامدي

الأستاذ فؤاد محمد عبدالمنعم

مجدي عبدالباقي الشريف

باحث في الإعجاز العلمي للقرآن والسنة

الأستاذ / سيد سليمان الحلواني

الناشر

شركة كندة للإعلام والنشر

وإنك لعلى خلق عظيم

حقوق التوزيع والترجمة

بتفويض من الرواد للإعلام بجدة

ت ٦٧٠٣٣٣٦ فاكس ٦٧٠٣٣٣٦

يطلب من وكلاء التوزيع

مكتبة كنوز المعرفة بجدة

دار الخزامى للنشر والتوزيع - الأردن

دار رحمة بالأسكندرية

دار المحمدي للنشر بجدة

مؤسسة الرسالة بدولة الإمارات

المجلس العلمي للنشر بالهند

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة

ت: ٤٩٩١٢٥٤ - ٥١٠٨٠٠٤

ت: ٤٩٠٠٦٠٦ - ٤٩٠٠٨٠٨

WWW.ALislamiya 4 book.com

تطلب النسخة المترجمة من

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد

وتوعية الجاليات بشرق جدة

تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية

رقم الإيداع

٤٤٦٤ / ٢٠٠٦

رقم الإيداع الدولي

I. S. B. N

977-6195-00-8

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران:١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

وبعد:

فهذا شيءٌ من الحديث عن رسول الله ﷺ وسنته المباركة الميمونة!

شيءٌ من مناقب هذا النبي الكريم وشيء من فضائله وبعض خصائصه.

ثم تذكيرٌ ببعض الوارد من الأوامر بطاعته ﷺ والحث على اتباع سنته والتحذير من مخالفته وعصيان أمره.

ثمَّ مزيدُ بيانٍ لأثر سنته في فهم القرآن، من إيضاح المجمل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتفسيرُ ما أشكل، وإضافات في أبواب المباحات والمحرمات، ودفع الاشتباه وإيضاح القصص، إلى غير ذلك مما لا يكاد يُفهم ويتضح إلا بسنة رسول الله ﷺ.

فهذه رسالة تذكير بهذا كله، نسأل الله أن يجعلنا وقارئيها من المتذكرين المنتفعين بالذكرى الموقرين لنبيهم محمد ﷺ.

وهذه حقيقةٌ يجب أن تدرك، وإقرارٌ يتحتم الإقرار به:

إننا مهما كتبنا من كتب، ومهما سطرنا من سطور، ومهما تكلمنا من كلمات فلن نفي بحق هذا الرسول ﷺ علينا.

إن المِداد لينفد، وإن الأوراق لتنتهي وما أتينا على جزء من مائة جزء من فضائلِ هذا النبي الكريم وجميل خصاله وكريم فعاله وحسن سجاياه!!!

إن العقل ليعجز عن وصف هذا النبي الكريم، ووصف بعض محاسنه فضلا عن جلها فضلا عن كلها!!

إن اللسان يكلّ وإن العمر لينقضي، وما وفينا رسولنا الكريم جزءاً من حقه علينا.

فالعفو ياربنا والمعذرة يا ربنا فقد خلقتنا ضعفاء لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولا قوة لنا إلا بك، ولا حول لنا إلا بك، فنسألك اللهم أن تغفر لنا تقصيرنا في امتثال أمرك بتوقير هذا النبي وتعزيره، وتسبيحك بكرةً وأصيلا.

نسألك يا ربنا يا من مننت علينا ببعثة هذا النبي الكريم فينا وإلينا أن تجازي نبينا محمداً ﷺ عنا خير الجزاء وأن تؤتيه الوسيلة والفضيلة وأن تبعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد.

ونسألك يا ربنا فضلا منك ونعمةً ورحمةً منك بنا أن تحشرنا مع نبينا محمد ﷺ وأن تسقينا من حوضه شربة هنيئةً مريئةً لا نظمأ بعدها أبداً، كما نسألك اللهم أن تشفعه فينا.

ونسألك اللهم ربنا أن تثبتنا على سنته وأن تلزمنا هديه وطريقته وترزقنا من سمته الحسن سمتًا حسنًا، ومن هديه القاصد هديًا قاصداً، ومن خلقه العظيم خلقًا عظيمًا، وأن ترزقنا الإخلاص في القول والعمل وسلامة المعتقد.

ونسألك اللهم ربنا أن تحشرنا مع نبينا الكريم في أعلى جنة الخلد التي أعدت للمتقين.

وإلى موضوع بحثنا، وبالله التوفيق، وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

إن نبينا محمداً ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمه آمنة بنت وهب، أرسله الله عزَّ وجل للخلق بشيراً ونذيراً على فترة من الرسل[١]، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٩].

ولقد اصطفى الله سبحانه وتعالى هذا النبي الكريم، وفضله على سائر الأنبياء والمرسلين:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من وَلَدِ إسماعيل، واصطفى قُريشاً من كِنَانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٢].

وأخرج الإمام أحمد بسندٍ حسنٍ عن ابن مسعود رضي الله عنه[٣] قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ.

إنه صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم[٤]:

فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة، وأوَّلُ من ينشق عنه القبر وأول شافعٍ وأول مُشَفَّعٍ»[٥].

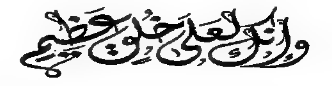
(١) فقد كانت هناك فترةٌ زمنية لم يرسل فيها رسول ولم يبعث فيها نبي، تلك الفترة التي بين عيسى ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام ويسميها العلماء (زمن الفترة).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٦).

(٣) أحمد في المسند (١/٣٧٩).

(٤) وفي البخاري (حديث ٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) (أنا سيد الناس يوم القيامة ...).

(٥) أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧٨).



وفي رواية عن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أُمرت لا أفتح لأحدٍ قبلك»(١).

إنه شاهد ومبشر ونذير:

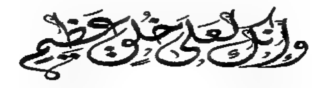
قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾** [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

أخرج البخاري(٢) من طريق عطاء بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجَل. والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتُك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضَهُ الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عُمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غلفاً».

إن الوسيلة منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله يرجوها رسولنا محمد ﷺ لنفسه:

أخرج مسلم(٣) في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلَّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة».

(١) مسلم (حديث ١٩٧).
(٢) البخاري (حديث ٢١٢٥).
(٣) مسلم (حديث ٣٨٤).



لقد كان هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس(١).

لقد كان أحسن الناس خُلُقًا(٢).

به ختم النبيون:

قال الله تعالى: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾** [الأحزاب: ٤٠].

إنه صاحب الشفاعة العظمى:

لقد قال عليه الصلاة والسلام: «لكل نبيٍّ دعوةٌ فأُريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي نُصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاةُ فليُصل، وأُحلَّت لي المغانم ولم تحلَّ لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»(٤).

إنه أول من يدخل الجنة وأول من تفتح له:

أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يُشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»(٥).

---

(١) أخرج ذلك البخاري (حديث ٢٩٠٨) ومسلم (٢٣٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) مسلم (حديث ٢٣١٠)، وكذا فانظر البخاري (حديث ٣٥٤٩) ومسلم عقيب حديث (٢٣٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٤٧٤) ومسلم (حديث ١٩٨).

(٤) البخاري (حديث ٣٣٥) ومسلم (حديث ٥٢).

وهذه الشفاعة المذكورة في الحديث يفسرها ما ورد في الحديث المتفق عليه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: مسلم (١٩٤).

(٥) مسلم (حديث ١٩٦).

لقد شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع الله له ذكره:

أما المراد بشرح الصدر؛ فمن العلماء من قال: إنه شق صدره ﷺ الذي تم - على ما سيأتي بيانه إن شاء الله - وهو صغير، وأيضًا ليلة الإسراء، ومن العلماء من قال: إن المراد بشرح الصدر توسيعه وجعله رحيبًا فسيحًا يسع التكاليف التي يكلف بها صلوات الله وسلامه عليه، ويقبلها بارتياح واطمئنان وهدوء، ويتحمل في سبيلها ما يصيبه من أذى وبلاء بصدرٍ رحبٍ وصفحٍ وعفوٍ ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ ومن المعلوم أن الصدر إذا كان منشرحًا لشخصٍ مثلاً فإن كل أقواله تدخل فيه، وإذا كان الصدر متبرمًا متضايقًا من شخص فلا يكاد يصل أيٌّ قول من قوله إلى الصدر، بل يرد الصدر كل ما يصدر من هذا الشخص فعليه إن كان الله سبحانه وتعالى قد شرح صدر شخصٍ للإسلام فتدخل كل التكاليف وكل الأوامر والنواهي إلى صدر هذا الشخص وهو مرتاح لها متسع لقبولها، كما قال عز وجل: **﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾** [الأنعام:١٢٥].

وبدء طريق الهداية يكون بشرح الصدر، ومن ثم دعاء موسى ﷺ لما كلفه الله بالذهاب إلى فرعون أن دعا الله فقال: **﴿... رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾** [طه:٢٥، ٢٦]

وقد شرح صدر رسول الله ﷺ مرتين:

الأولى منهما: وهو صغير يلعب مع الغلمان كما في «صحيح مسلم»(١) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم

(١) أخرجه مسلم (ص ١٤٧).

لأَمَــهُ[١] ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني: ظئره)[٢] فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون[٣].

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

والثانيــة: ليلة المعراج كما في «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطستٍ من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه...» الحديث[٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ :

فهي كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ [الفتح: ٢].

أما رفع ذكر النبي ﷺ فذلك من وجوه، منها ما يلي:

إيتاؤه القرآن وإنزاله عليه وبعثه لخير أمة أخرجت للناس، فقد قال تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: شرف لك ولقومك.

ولا ينعقد لأحدٍ إسلام إلا بالاعتراف برسالته ﷺ والإقرار بها بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فجاء ذكر النبي ﷺ والشهادة برسالته من أركان الإسلام.

ويُدوِّي هذا الاسم الكريم اسم محمد ﷺ خمس مرات في اليوم والليلة في الأذان، وكذلك عند إقامة الصلاة.

---

(١) لأَمَهُ: ضمه وجمع بعضه إلى بعض.

(٢) ظئره: أي: مرضعته.

(٣) منتقع اللون: أي متغير اللون.

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٩) ومسلم (حديث ١٦٣).

ورب العزة سبحانه وملائكته يصلون على هذا النبي الكريم محمد ﷺ، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب:٥٦].

وكرر اسمه في القرآن في عدة مواطن ﷺ، بل وجعلت في القرآن سورة باسمه عليه الصلاة والسلام، وكما أسلفنا فالقرآن كله نزل عليه؛ قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾** [الحجر:٨٧].

وبَشَّرت به الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

واسمه يُذكر في كل خطبة وفي خطبة النكاح والتشهد في الصلاة كذلك.

وفي الجملة: فقد ملأ ذكره الجميل السموات والأرضين، وجعل الله له لسان صدق في الأولين والآخرين، وجعلت أمته - كما أسلفنا - خير الأمم وأكثر أهل الجنة، فصلوات ربي وسلامه عليه آناء الليل وأطراف النهار في الدنيا وفي الآخرة عليه أفضل صلاة وأتم تسليم وأزكاه، وما أجمل وأحسن هذه الأبيات المنسوبة إلى حسان رضي الله عنه حيث قال في وصف النبي ﷺ والثناء عليه:

أغرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من إسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

لقد وجده الله يتيمًا فآواه وضالاً فهداه وعائلاً فأغناه:

أما كونه كان يتيمًا فآواه، فوجه ذلك: أن الله سبحانه وتعالى قيَّد له عمه أبا طالب يحوطه ويرعاه ويمنعه ممن أراده بسوء، ويحنو عليه ويدافع عنه.

وكذلك قيَّد الله له غير أبي طالب أيضًا، فقيَّد الله له المطعم بن عدي فنزل النبي ﷺ في جواره.

وقيَّد الله له العموم من حفظه بإذن الله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما كونه كان ضالاً فهداه الله، فلأهل العلم في ذلك جملة أقوال، ذكر الرازي منها عشرين، وأشهر هذه الأقوال ما يلي:

القول الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، كما قال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾** [الشورى:٥٢]، وكما قال تعالى: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾** [يوسف:٣].

القول الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام كان قد ضل في شعاب مكة وهو صغير فرده الله سالمًا.

القول الثالث: أنه سبحانه وجده في قومٍ ضلال فهداهم الله به. والله تعالى أعلم.

أما كونه كان عائلاً فأغناه الله:

فمن العلماء من قال: إن هذا الغنى يتمثل فيما فتحه الله عليه من الفتوحات والكنوز، وما منَّ الله به عليه من الغنائم وتحليلها له، لكن هذا القول قد ردَّه بعض العلماء متعللين بأن السورة مكية والفتوحات إنما كانت بعد الهجرة.

ومن العلماء من قال: إن المراد بالغنى هنا: غنى النفس والقناعة، فقد قنعه الله بما آتاه.

ومن أهل العلم من قال: إن الله عز وجل أغناه بما وهبته له خديجة بنت خويلد وأعطته من مالها، والله أعلم.

لقد أعطاه الله الكوثر ومنَّ عليه بالحوض المورود:

أما الكوثر، فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن المراد بالكوثر: نهر في الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ، وستأتي الأحاديث صريحة في ذلك.

ومن العلماء من قال: إن الكوثر هو حوض رسول الله ﷺ وهذا القول قول قوي أيضاً ويجمع بينه وبين الأول أن النهر حوض[1] كما في «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه.. وفيه أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الكوثر؟». فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم...». الحديث[2].

وقد صحح القرطبي - رحمه الله - القول القائل بأن الكوثر هو النهر أو الحوض، قال: لأنه ثابت عن النبي ﷺ نص في الكوثر.

وقال الطبري في «تفسيره» بعد أن ذكر جملة أقوال للعلماء في الكوثر:

وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هو اسم للنهر الذي أعطيه رسول الله ﷺ في الجنة، وصفه الله بالكثرة لعظم قدره، وإنما قلت ذلك أولى الأقوال في ذلك لتتابع الأخبار عن رسول الله ﷺ.

قلت: وقد ذكر بعض العلماء أقوالاً أُخر في الكوثر[3]، فمنهم من قال: إن الكوثر هو الخير الكثير الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ فيدخل فيه النهر والحوض والنبوة والقرآن وكثرة الأتباع والأصحاب والأمة وتخفيف الشرائع و... إلى غير ذلك، والأولى هو ما قدمناه وهو الذي عليه جماهير العلماء أن الكوثر هو النهر، وهو الذي فسره به رسول الله ﷺ.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان» - بعد أن أورد جملة أحاديث تبين أن الكوثر نهر أُعطِيَه النبي ﷺ في الجنة -: فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو

---

(١) وقد جمع الرازي بأن قال: ووجه التوفيق بين هذا القول وبين القول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع.

(٢) أخرجه مسلم (حديث رقم ٤٠٠).

(٣) ذكر القرطبي منها ستة عشر قولا.

النهر الذي في الجنة فيتعين المصير إليها وعدم التعويل على غيرها، وإن كان معنى الكوثر هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسره بما هو أعم ما ثبت عن النبي ﷺ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي.

لقد أنزل الله عليه خير كتاب، كتابًا مهيمنًا على سائر الكتب من قبله.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

كتاب يهدي للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

بخير لغة، ألا وهي لغة العرب.

قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

وبعثه في خير قرن.

قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»[١].

وفي «الصحيحين» أيضًا من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»[٢].

وفي رواية عند مسلم[٣]: «خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم...».

---

(١) البخاري (حديث ٣٦٥٠) ومسلم (حديث ٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ٣٦٥١) ومسلم (حديث ٢٥٣٣).

(٣) مسلم (حديث ٢٥٣٤).

وذلك في خير البلاد، ألا وهي مكة المكرمة.

فقد قال رسول الله ﷺ لمكة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(١).

عند خير البقاع، وذلك عند المسجد الحرام.

إن هذا النبي الكريم أمنة لأصحابه:

أخرج مسلم(٢) في «صحيحه» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: «ما زِلتُمْ ها هُنا». قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلِّي معك العشاء قال: «أحسنتُم: أو أصبتُم» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفعُ رأسَه إلى السماء فقال: «النجومُ أَمَنَةٌ للسماءِ فإذا ذهبت النجومُ أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمَنَةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمَنَةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون»(٣).

إن هذا النبي دعوة إبراهيم عليه السلام وبشارة عيسى عليه السلام:

«ورأت أمه نوراً خرج منها أضاءت له قصور الشام»(٤).

وإنه دعوة إبراهيم عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٠٥) وعبد بن حميد في المنتخب (حديث ٤٩٠).

(٢) مسلم (حديث ٢٥٣١).

(٣) قال النووي رحمه الله (شرح مسلم ص٣٩١): (وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون): معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

(٤) انظر مسند أحمد (٥/٢٦٢) فقد ورد ذلك بإسناد يُحسن لشواهده.

إنه بشارة عيسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

إن أمته خير الأمم، وأصحابه خير الأصحاب:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران:١١٠].

قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسير الآية: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنكم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله عزَّ وجل»(٢).

وقال ﷺ: «نحن الآخرون، ونحن السابقون يوم القيامة»(٣).

وفي رواية: «نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق»(٤).

لقد زكَّى الله لهذا النبي الكريم فؤاده، فقال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١].

وزكَّى له عقله، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾

[الطور:٢٩]

وزكَّى الله له لسانه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

---

(١) البخاري (٤٥٥٧).

(٢) صحيح، أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (حديث ٤٠٩) وأحمد (٥/٣، ٥).

(٣) البخاري (حديث ٣٤٨٦) ومسلم (حديث ٨٥٥).

(٤) مسلم (حديث ٨٥٦).

وزكّى له بصره، فقال: سبحانه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧].

وزكّى له سمعه؛ إذ قال سبحانه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

وزكّى الله له خُلُقه، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

لقد نفى الله عنه كل سيئ وقبيح، وأثبت له كل جميل وكريم:

وأقسم ربنا على ذلك، إذ قال سبحانه: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١-٤].

أخرج مسلم[١] في «صحيحه» من طريق هشام بن عامر قال: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلُق نبي الله ﷺ كان القرآن.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

ومعنى هذا: أنه ـ عليه السلام ـ صار امتثال القرآن ـ أمرًا ونهيًا ـ سجية وخلقًا تطبَّعه، وترك طبعه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم، والشجاعة والصفح، والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في «الصحيحين»[٢] عن أنس قال: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط. ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا مسست خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

---

(١) مسلم (حديث ٧٤٦).

(٢) انظر البخاري (٦٠٣٨، ٦٩١١)، ومسلم ،حديث ٢٣٠٩).

وقال البخاري(٢): حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله، حدثنا إسحاق ابن منصور، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خَلْقًا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير.

والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل».

وقال الإمام أحمد(٣): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهدي، عن عروة وعن عائشة، قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل.

إنه منة وتفضل من أعظم منن الله علينا:

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾

[آل عمران: ١٦٤]

لقد أرسله الله لتزكيتنا وتطهيرنا!!

لقد أرسله الله لتعليمنا الكتاب والحكمة وإنقاذنا من الجهالات والضلالات.

قال تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٥١].

---

(٢) البخاري (حديث ٣٥٤٩).

(٣) صحيح، أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٢).

لقد أرسل هذا الرسول الكريم رحمة للعالمين:

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧].

إنه بأمته رؤوف رحيم:

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨].

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على هذا النبي خير ثناء، ودافع عنه خير دفاع:

نفى الله عنه الجنون، فقال: ﴿**مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم:٢].

ونفى الله عنه الكهانة، فقال: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ**﴾ [الطور:٢٩].

ونفى عنه الوصف بأنه شاعر؛ إذ قال الله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ [يس:٦٩].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الحاقة:٤١-٤٢].

لقد نفى الله عنه الكذب والافتراء: فقال سبحانه: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

وقال تعالى: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾

[الإسراء:٧٣-٧٥]

ولقد نفى الله عنه التهم، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤] قيل: المعنى ليس هذا النبي ﷺ بمتهمٍ فيما يُخبر به عن الله عزَّ وجل.

وقيل: وما هو ببخيل أي: لا يضن بالإخبار عن الله عزَّ وجل بكل ما يقرب منه سبحانه ومن جنته، وأخبر بكل ما نتجنب به النار إلى غير ذلك مما كُلِّف به عليه الصلاة والسلام.

ولقد أكرم الله نبيه ﷺ إكرامًا حسنًا وأنزله منزلة حسنة:

فمن صور هذا الإكرام ما ذكره العلامة الشنقيطي حيث قال:

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]. مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ [البقرة:٣٥]، وقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٤]. وقوله ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]. ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا﴾ [هود:٤٨]. وقوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥] وقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص:٢٦].

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وقوله: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد:٢]. وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾

[الفتح:٢٩]

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي: أخلصها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة

والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢] أي: لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض.

ومن ذلك الإكرام:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

ومن صور هذا الإكرام والثناء الحسن:

أن الله عز وجل يصلي على هذا النبي وكذا ملائكتُهُ، ويأمرنا ربنا بالصلاة عليه والتسليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

واقرأ هذه الآيات وانظر إلى ما فيها متدبراً متأملا، واستمع قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٢١٧ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩].

كذلك فتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤].

ولما زعم المشركون أن الله عزَّ وجل قد قلى رسول الله ﷺ وهجره أقسم الله تبارك وتعالى على أنه ما ودَّعه وما قلاه قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:١-٥].

أما سبب نزولها هو: ما أخرجه البخاري(١) ومسلم من حديث جندب ابن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا؛ فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣].

ولقد أقسم الله عزَّ وجل بحياة رسول الله ﷺ، وفي هذا مزيدٌ من الإكرام والتعظيم:

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

قال القاضي عياض في كتاب «الشفا»: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وقال: ومعناه وبقائك يا محمد. وقيل: وعيشك. وقيل: وحياتك.

وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمدٍ ﷺ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيره.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٩٥٠) ومسلم (١٧٩٧ ص١٤٢٢).

وانظر إلى جميل الخطاب وجميل الملاطفة: في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

وكذا جميل الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وانظر إلى هذا الإكرام والحفظ:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧].

ولقد خصَّه الله بخصائص، فقد أوتي جوامع الكلم، وكان يرى من وراء ظهره في الصلاة، وكذا فعيناه تنامان ولا ينام قلبه، وقد كانوا يتحدثون أنه صلوات الله وسلامه عليه أوتي قوة ثلاثين في الجماع، وكذلك قوله: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني..». إلى غير ذلك من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه.

وكلٌّ ما اختص به ﷺ فلابد وأن يكون بنصٍّ.

وكذلك فانظر إلى توقير صحابة رسول الله ﷺ لرسولهم الكريم، يصف هذا التوقير رجلٌ كان عند وصفه كافراً ا وهو عروة بن مسعود الثقفي الذي أرسل من قبل قومه ناصحاً لهم ومشيراً عليهم، فانظر إلى كلماته بعد أن رجع من عند رسول الله ﷺ، وهو ينقل لقومه خبر ما رأى ففي الصحيح(١): أنه (أي: عروة بن مسعود الثقفي) قال لأصحابه: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على

(١) البخاري (حديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلكًا قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له.

وانظر إلى عظيم حق هذا النبي الكريم ﷺ على أمته:

في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

ومن صور الإكرام والإجلال والتقدير: النهي عن التقدم بين يديه ورفع الصوت فوق صوته:

فالتقدم بين يديه ورفع الصوت فوق صوته صلوات الله وسلامه عليه مؤذنٌ بإحباط الأعمال وذهاب ثوابها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾

[الحجرات:١، ٢]

لقد أرشدت هذه الآيات الكريمة إلى أدبٍ نتأدب به مع نبينا ﷺ.

أدب مع رسول الله ﷺ: فلا نتقدم بين يديه بأمرٍ، ولا نرفع شيئًا فوق سُننه، ولا نرفع صوتًا فوق صوته، ولا نقدم شرعًا على شرعه صلوات الله وسلامه عليه.

أدب مع رسول الله ﷺ في ندائه كما قال ربنا: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات:٢].

أدب مع رسول الله ﷺ استُفيد من قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] فيُلزمنا ذلك بأن نتهم آراءنا دائمًا،

ونقدم قول رسولنا محمد ﷺ في كل وقتٍ وحينٍ فهو - صلوات الله وسلامه عليه - بالمؤمنين رؤوف رحيم.

أدب مع رسول الله ﷺ في ترك المن عليه بإسلامنا، بل يجب علينا أن نثني عليه ونصلي عليه ونسأل ربنا له أعلى الدرجات وأفضل المقامات؛ إذ جعله الله سببًا في هدايتنا صلوات الله وسلامه عليه.

أما عن معنى الآية الكريمة: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات:١] فللآية الكريمة جملةُ معانٍ:

الأول: لا تعجلوا بقضاء أمرٍ من الأمور قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله.

الثاني: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

الثالث: لا تتقدموا بقولٍ أو بفعلٍ ولا تعجلوا به حتى تعلموا قول الله وقول رسول الله ﷺ.

الرابع: لا تقدموا رأيًا حتى تطَّلِعوا على الكتاب والسنة وتعلموا هل فيهما شيء بخصوص الأمر الذي تريدونه أم لا؟

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في الشيخين الكريمين الجليلين المُبشرين بالجنة صاحبي رسول الله ﷺ، أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وليس في سبب النزول أنهما خالفا رسول الله ﷺ، ولا أنهما عصيا أمره، وإنما تناقشا فيما بينهما بأمرٍ وأشار كل واحد منهما بأمرٍ واختلفا وارتفعت أصواتهما في حضور النبي ﷺ والنبي ﷺ لم يتكلم، ففيهما نزل ما نزل.

أخرج البخاري(١) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة،

(١) البخاري (حديث ٤٣٦٧).

فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١]، حتى انقضت».

وأخرج البخاري(١) أيضًا من طريق ابن أبي مليكة(٢) قال: كاد الخَيِّران أن يهلكا ـ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ـ لما قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي الحنظلي أخي بني مُجاشع، وأشار الآخرُ بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٢، ٣].

قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير: فكان عمر بعدُ ـ ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر ـ «إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار، لم يُسمعه حتى يستفهمه».

ولقد طمأن الله نبيه ﷺ وأراح له باله:

لقد كان النبي ﷺ يُقلِّب بصره في السماء راجيًا الله عزَّ وجل أن يوجهه إلى الكعبة يصلي إليها بدلاً من توجهه إلى بيت المقدس.

فسبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة:١٤٤].

---

(١) البخاري (٧٣٠٢).

(٢) وهذا صورته صورة المرسل، وقد ورد عند الترمذي (٣٢٦٦) من طريق مؤمل بن إسماعيل: حدثنا نافع ابن عمر بن جُميل الجمحي، حدثني ابن أبي مليكة، حدثني عبد الله بن الزبير.. فصرح ابن أبي مليكة بتحديث ابن الزبير له فاتصل السند بذلك، لكن مؤمل في حفظه شيء إلا أن الحديث تشهد له الرواية الأولى التي قدمناها. والله أعلم.

ما أخرجه البخاري[١] في «صحيحه» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت وأنه صلى ـ أو صلاها ـ صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة فداروا كما هم قِبَل البيت وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوَّل قبلَ البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [البقرة:١٤٣].

وصدقت عائشة رضي الله عنها إذ قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك وذلك عند نزول قول الله تعالى: **﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾** [الأحزاب:٥١].

أخرج البخاري[٢] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: **﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾** [الأحزاب:٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يُسارع في هواك.

إنه لا ينعقد لأحدٍ إسلام إلا بالشهادة لهذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة:

لقد أخذ الله ميثاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا بهذا النبي ﷺ:

قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾** [آل عمران:٨١].

(١) البخاري (حديث ٤٤٨٦).

(٢) البخاري (حديث ٤٧٨٨).

إنه شهيد على أمته يوم القيامة وأمته شهداء على سائر الأمم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

أخرج البخاري(١) ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. والوسط: العدل.

لقد أذهب الله الرجس عن أهل بيته وطهرهم تطهيراً:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

ولقد أيَّد الله سبحانه وتعالى هذا النبي الكريم بطائفة من الآيات والمُعجزات الدالة على صدقه وصدق نبوته، وأنه رسولٌ من عند الله عزَّ وجل:

وكان ولا يزال القرآن الكريم أعظم معجزةٍ أوتيها نبيٌّ من الأنبياء.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(٢).

---

(١) البخاري (مع الفتح ٣/٢٢٨) ومسلم (مع النووي ٧/١٨).

(٢) صحيح أخرجه البخاري (حديث ٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

ولقد أيدّ الله هذا النبي الكريم بمعجزات أخر :

كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر، والبركة في الماء القليل والشراب القليل، وحنين الجذع له وأدب الحيوان معه، وإتيان الأشجار إليه، وتسليم الأحجار عليه، وشفاء عدد من الأمراض على يديه بدون دواء حسيٍّ، وتحقُّق ما أخبر به ﷺ، والانتقام ممن عانده وخالف أمره، إلى غير ذلك من المعجزات دلالة على صدقه وصدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

ولقد أنزل الله على هذا النبي الكريم خير كتاب وأمره بالبلاغ :

إذ قال سبحانه : **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾** [الأنعام:٦٧].

فبلَّغ الرسول خير بلاغ وأدى حق أداء وأشهد أصحابه على ذلك بقوله : «ألا هل بلَّغت؟» فشهدوا له بالبلاغ فأشهد ربه على ذلك بقوله : «اللهم فاشهد»[١].

وصدقت عائشة رضي الله عنها، إذ قالت[٢] : من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئًا مما أُنزل عليه فقد كذب، والله يقول : **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾** الآية [الأنعام:٦٧].

وأخرج البخاري[٣] من حديث أنس رضي الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول : «اتق الله وأمسك عليك زوجك». قال أنسٌ : لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه.

ولقد امتنَّ الله على هذا النبي الكريم بهديٍ هو خير الهدي وأكمله وأجمله وأحسنه وصدق النبي ﷺ فقد كان يقول إذا خطب : «.. وخير الهدي هدي محمد ﷺ»[٤].

---

(١) انظر البخاري (حديث ١٠٤، ١٠٥).

(٢) البخاري (حديث ٤٦١٢).

(٣) البخاري (حديث ٧٤٢٠).

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ(١) وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين».

وهذا مثله مع الأنبياء من قبله ﷺ:

أخرج البخاري ومسلم(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وُضعت هذه اللبنة؟». قال: «فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النبيين».

وأخرجا أيضًا من حديث جابر(٣) رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كرجلٍ بنى دارًا فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنةٍ فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللَّبنة!».

وكما أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أُرسلت لتطاع كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [النساء:٦٤]. فكذلك أمرنا الله بطاعة هذا النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، في جملة من المواطن من كتاب ربنا؛ قال الله تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾** [الأنفال:٢٠]

وقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** [محمد:٣٣].

---

(١) البخاري (أثر ٧٢٧٧).

(٢) البخاري (حديث ٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) البخاري (٣٥٣٤) ومسلم (٢٢٨٧).

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

والآيات في هذا الصدد كثيرة.

ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]

وقد أخرج البخاري ومسلم(١) من طريق علقمة قال: لعن عبد الله(٢) الواشمات والمتنمصات والمُتفلّجات للحسن المُغيرات خلق الله. فقالت أم يعقوب: ما هذا؟ قال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله. قالت: والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته. فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم - وفي رواية بكثرة سؤالهم - واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»(٣).

وهذا مثل رسول الله ﷺ مع من أطاعه أو عصاه:

أخرج البخاري(٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين

(١) البخاري (مع الفتح ١٠/٣٧٧) ومسلم (٤/٨٣٦) وغيرهما.

(٢) هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٨٨) ومسلم (حديث ١٣٣٧) ومطلعه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجلٌ: أكُلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم؛ لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم...» الحديث. لفظ مسلم.

(٤) البخاري (حديث ٧٢٨١).

نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبَعثَ دَاعِيًا، فمن أجاب الدّاعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أوِّلوها له يَفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمدٌ ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس».

وأخرج مسلم[1] هذا الحديث عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجَنَادِبُ[2] والفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وهو يَذُبُّهُنَّ عنها، وأنا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تفلَّتُون[3] مِنْ يَدي».

وفي «الصحيحين»[4] من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العُرْيَان[5] فالنجاء[6]، فأطاعه طائفة من قومه، فأَدْلَجُوا[7] فانطلقوا على مهلتهم[8]، وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم

(١) مسلم (حديث ٢٢٨٥).

(٢) قال بعض أهل العلم: الجنادب هذا الصرار الذي يشبه الجراد، وقيل: له أربعة أجنحة كالجرادة وأصغر منها يطير ويصرّ بالليل صرًّا شديداً.

(٣) أي: تهربون مني.

(٤) البخاري (حديث ٧٢٨٣) ومسلم (حديث ٢٢٨٣) واللفظ له.

(٥) (أنا النذير العريان) قال العلماء: أصله: أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بما دهمهم. وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم. وهو طليعتهم ورقيبهم.

(٦) (فالنجاء) أي: انجو النجاء، أو اطلبوا النجاء.

(٧) (فادلجوا) معناها: ساروا من أول الليل. يقال: أدلجت أدلج إدلاجًا، كأكرمت أكرم إكرامًا والاسم الدُّلجة. فإن خرجت بالليل قلت: ادّلجت ادّلج ادّلاجًا بالتشديد. والاسم الدُّلجة بضم الدال.

(٨) (على مهلتهم) هكذا هو في جميع نسخ مسلم.

الجيش فأهلكهم واجتاحهم[1]، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحق».

وعندهما أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال[2]: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أُمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذٌ بحُجَزِكُمْ[3]: وأنتم تَقَحَّمُون[4] فيه».

ومن شأن أهل الإيمان إذا دُعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [النور:٥١].

قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب:٣٦].

ثمَّ فليُعلم إن طاعة هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من طاعة الله عزَّ وجل:

قال الله تعالى: ﴿**مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [النساء:٨٠].

وطاعته سبب الهداية والفلاح:

قال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾ [النور:٥٤].

وفي طاعته حياة القلوب:

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال:٢٤].

---

(١) (اجتاحهم) استأصلهم.

(٢) البخاري (حديث ٦٤٨٣) ومسلم (حديث ٢٢٨٤).

(٣) الحجزة: هي معقد الإزار والسراويل.

(٤) تقحمون: التقحم هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت.

وطاعته سبب للرحمة:

قال تعالى: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ...﴾** [براءة: ٧١].

وطاعته سبب لدخول الجنة:

قال تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [النساء: ١٣].

وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ[(١)] قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

إن طاعته سبب الفوز العظيم:

قال تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾** [الأحزاب: ٧١].

وإن اتباعه ﷺ فيه كلُّ خير، وكل فضل وكل بركة:

فنحظى بمحبة ربنا باتباعنا رسوله ﷺ، وتغفر لنا ذنوبنا؛ قال تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** [آل عمران: ٣١].

وصدق أهل العلم الذين قالوا: إن هذه الآية حاكمةٌ على من ادعى محبة الله عزَّ وجل، فلا يُتصور أن شخصًا يحب الله عزَّ وجل ثم هو يعصي نبي الله ﷺ ويخالف أمره.

وصدق الشاعر في قوله:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

---

(١) البخاري (حديث ٧٢٨٠).

وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

التحذير من إيذاء النبي ﷺ أو مشاقته:

إن الذين يؤذون هذا النبي الكريم ويطعنون فيه مُرتكبو كبيرة من أعظم الكبائر بل هم كفارٌ ملعونون.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء:١١٥].

إن الذلّة والصغار يلازمان من خالف أمر رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

[المجادلة:٥]

وإن عصيان هذا النبي الكريم ومخالفة أمره مُؤذِنٌ بالعذاب الأليم:

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وعصيانه سبب الضلال المبين:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وعصيانه سبب دخول الجحيم عياذًا بالله منها:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]

ولقد نفى الله الإيمان عمَّن لم يُحكِّموا رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم، وأقسم بنفسه على ذلك:

قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

لقد توعد الله سبحانه وتعالى من عاند نبيه ﷺ بأليم العقاب:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾ [التوبة:٦٣]

وأذكِّر بعقوبة من عاند رسول الله ﷺ وخالف أمره:

أخرج البخاري(١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رجل نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له. فأماته الله، فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه.

(١) البخاري (حديث ٣٦١٧).

فحفروا له فأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر. فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه.

ثم بعد هذا الموجز عن نبينا محمد ﷺ وشيءٍ من فضائله ومناقبه والأمر بطاعته والتحذير من معصيته ومخالفة أمره، نردف ذلك ببيان آخر ألا وهو:

إن قول رسول الله ﷺ وحي يوحى:

قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ**﴾ [النجم:٣-٥].

لقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه[١] ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه..».

وقال عليه الصلاة والسلام: «من رغب عن سنتي فليس مني»[٢].

وعند أبي داود بسندٍ صحيح[٣] من طريق سفيان عن أبي النضر عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه فيقول: لا ندري، ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه».

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتأسي بهذا النبي الكريم:

إذ قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب:٢١].

---

(١) صحيح وأخرجه أبو داود (٤٦٠٤) والترمذي بنحوه (٢٦٦٤).
وعنده من الزيادة وإن ما حرَّم رسول الله ﷺ كما حرَّم الله.

(٢) البخاري (حديث ٥٠٦٣) ومسلم (حديث ١٠٤١).

(٣) أبو داود (حديث ٤٦٠٥) وإسناده صحيح.
وقد رواه سفيان عن ابن المنكدر مرسلا، كما عند الترمذي.

فخيرُ أسوة لنا هو نبينا محمد ﷺ، نتأسى به في أقواله! كما نتأسى به في أفعاله!

نتأسى به في هديه ودلِّه وقصده، كما نتأسى به في عموم سيره وسلوكه!!

نتأسى به في كلامه كما نتأسى به في سكوته!!

إنَّ سنة رسول الله ﷺ خير السنن، وهديه أكمل الهدي، وسيرته خير السِّير!

ولقد حث رسول الله ﷺ على اتباع سنته وبيّن أنها من أعظم المخارج من الفتن وحذّر عليه السلام من محدثات الامور

فقد قال ﷺ في موعظته البليغة التي ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة»(١).

وقال صلوات الله وسلامه عليه في الحديث المتفق عليه: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»(٢).

وفي رواية لمسلم(٣): «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

* * *

(١) صحيح بشواهده، وقد أخرجه أبو داود (٤٦٠٧).

(٢) البخاري (حديث ٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٣) مسلم (عقب الحديث السابق).

السنة والقرآن

إن سنة رسول الله ﷺ تبين كتاب الله عز وجل خير بيان وتوضحه خير إيضاح وتُجلّيه خير تجلية، وتفسره خير تفسير.

إن نبيًّا كريمًا أُنزل عليه القرآن هو بلا شك أعلم الناس بتأويله وتنزيله، وحلاله وحرامه ومحكمه ومتشابهه.

إن سنة رسول الله ﷺ تبين ما أُجمل وتوضح فَهْمَ كتاب الله عزَّ وجل.

إنها أحيانًا تُقيّد المُطلق، وتخصص العام.

إنها تستثني أموراً، وتضيف أموراً أُخر.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [النحل:٤٤].

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: فالرسول ﷺ مبينٌ عن الله عزَّ وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يُفصله.

قلت(١): ويجدر بي هاهنا أن أسوق أمثلةً دالةً على أهمية السنة لفهم كتاب الله عزَّ وجل، وكيف أنها تضيف أموراً وتستثني أموراً أُخر، وتوضح المشكل وتزيل الالتباس.

فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) القائل هنا هو مصطفى ....

إن سنة رسول الله ﷺ توضح ما أجمل في كل الأبواب:

ففي باب قضاء الحاجة: كيف نقضي حاجتن؟، فلا نستقبل القبلة أو نستدبرها ولا ستعمل اليمين، وكيف نستجمر؟ وكوننا نستتر عند قضائها، والتحذير من ارتداد البول إلى غير ذلك، كله بينته سنة رسول الله ﷺ.

وكذا الوضوء الذي أمرنا به عند القيام للصلاة:

هل نتوضأ عند كل قيام لكل صلاة، أم نتوضأ إذا قمنا إلى الصلاة ونحن على غير وضوء؟

وهل تسبق الوضوء نية؟ وهل فيه تسمية؟ والمضمضة والاستنشاق؛ فهل نتمضمض ونستنشق، وما الذكر عقب الوضوء، وما نواقض هذا الوضوء؟

وكذا توابع الوضوء: من المسح على الخفين، والمسح على الجورب وتوقيت ذلك المسح، فكل ذلك مفصلٌ في سنة رسول الله ﷺ.

وكذا الغُسل الذي أُمرنا به في مواطن: كيف نغتسل؟ ومن أي شيءٍ نغتسلِ؟ جلُّ ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا الأذان الذي يُنادى به للصلوات: كيف الأذان؟ وما وقته؟ وما ألفاظه وأحكامه وفضائله وآدابه؟ كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا الصلاة: فقد أمرنا الله عزَّ وجل أمرًا عامًّا بالصلاة إذ قال: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٣].

وقال سبحانه: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ**﴾ [العنكبوت:٤٥].

لكن كيف نُصلي؟ وبم نفتتح الصلاة، وبم نقرأ، وكيف نركع؟ وماذا نقول في الركوع، وماذا نقول في السجود؟ وكم سجدة في كل ركعة؟ وكيف نتشهد؟ وكيف نخرج من الصلاة؟ والظهر كم ركعة والعصر كم ركعة، وكذا المغرب والعشاء والصبح؟!!!

لقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وكذا فقد قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] **فكيف نصلي الجمعة**، وكيفية الخطبة، وعلى من تجب، وعلى من لا تجب؟ وكذا كل ما يتعلق بالجمعة.

فصفة صلاة الجمعة: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ وعموم ما يتعلق بالجمعة بينته سنة رسول الله ﷺ.

وصفة صلاة العيدين: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ.

وصفة صلاة الاستسقاء: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ.

وصفة صلاة الكسوف: بيّنتها سنة رسول الله ﷺ.

والجنائز وما ورد فيها من أحكام: بيّنتها السُّنة المباركة، فغسل الميت لم يرد صريحًا في كتاب الله، ومن ثم كيف يُغسّل؟ وكذا كيفية الصلاة على الجنازة.

وكيفية الكفن وكيفية الدفن، وفضل الدعاء للميت، وكيفية الصفوف في الصلاة على الجنازة.

وكذا النهي عن النياحة ولطم الخدود وشق الجيوب والنهي عن الدعاء بدعوى الجاهلية كل ذلك بيّنته سنة رسول الله ﷺ.

وكذا أمرُ الزكاة، كيف نُزكي؟ وكم نزكي؟ وما مقدار النصاب؟ وما وقت الزكاة؟ وممن تؤخذ؟ وأين تصرف؟

كل ذلك مُجمل في كتاب الله مفصلٌ في سنة رسول الله ﷺ.

وكذا الصيام، ما المحظور علينا فيه؟ وما المباح لنا؟ وصوم أيام معلومة معينة غير الفريضة لم يرد ذكر صريح في كتاب الله عزَّ وجل، ولكن السنة بينت ذلك، كصوم يوم عاشوراء وصوم يوم عرفة وكذا صوم الاثنين والخميس والثلاثة البيض من كل شهر، وفضل كل ذلك مبينٌ في السنة.

وكـذا النهي عن صـوم يوم النحـر وأيام التـشـريـق ويوم الفطر وإفراد الجـمـعـة بالصوم.

وكـــذا الحـــجُّ، فقد أجمل ذِكره في كتاب الله عز وجل وفصلته سنـة رســول الله ﷺ تفصيلاً.

فلم تُبين في كتاب الله مواقيتُ الحج المكانية ولا الزمانية وبيّنت في سنة رسول الله ﷺ.

ولم تُذكر تفصيلاً أقسام الحج (الإفراد، والقران والتمتع) وذُكر ذلك في السنة.

ولم يُذكر في كتاب الله ما يلبسه المحرم وما لا يلبسه، وذكر ذلك في السنة.

وكذا الحائض ماذا تصنع في حجها وعمرتها؟ فقد بُيّن ذلك في السنة.

وكيف الطواف؟ ومن أين نبدأ؟ وإلى أين ننتهي؟ وكم شوط نطوف؟ وكم شوط نسعى بين الصفا والمروة؟ والجمع بين الصلوات بعرفات ومزدلفة والصلاة بمزدلفة ورمي الجمار وطواف الوداع وغير ذلك من التفاصيل، كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا البيوع ما يحلُّ منها وما يحرم، وبيع الغرر والملامسة والمنابذة والنجش، وبيع الثمر قبل بُدوّ صلاحه والغرر في البيوع وبيع التصاوير وتحريم التجارة في الخمر وبيع الميتة والأصنام وثمن الكلاب، فأحكام ذلك كله مبينة في سنة رسول الله ﷺ.

وكذا أنواع الربا: كربا الفضل وربا النسيئة، كل ذلك أوضحته سنة رسول الله ﷺ.

وكذا الوكالة في البيوع وفي غيرها، كل ذلك بينته السُّنة.

والديون وأحكامها والمزارعة والحرث والشرب والمساقاة.

وأحكام الصُّلح وأحكام اللقطة وأحكام الوقف والوصايا.

وكذا **الجهاد وأحكامه**، والغنائم وقسمتها والأسرى وما يتعلق بهم وأنواع التحالفات والعهود والجزية والموادعة، كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا **الصحابة وفضائلهم والمغازي والسِّير**، كل ذلك مبينٌ في السُّنة.

وكذا **أبواب النكاح والطلاق والخلع والنشوز والخطبة**، ما يتعلق بذلك فتفصيلاته أوضحتها سنة رسول الله ﷺ.

والمحرمات من الرضاع والنسب، كل ذلك موضح بالسنة، والمعاشرة الزوجية بتفصيلاتها وحق الزوجة على زوجها والزوج على زوجته.

والعِدد والإحداد والإيلاء والهجران، كل ذلك بُينت أحكامه بالسنة المباركة.

والأطعمة والأشربة وما يتعلق بهما من أحكام، وكذا الذبائح والصيد والأضاحي والعقائق، كل ذلك وضحت أحكامه بالسنة المباركة الميمونة.

وكذا **أحكام المرضى والرقى والتعاويذ، وأحكام اللباس وأبواب الأدب والسلام والاستئذان والشفاعات والهدايا والرشوة**، كل ذلك مبينٌ بسنة رسول الله ﷺ.

وكذا **صيغ الأذكار والدعوات، والمستحب والمكروه والمحرم والواجب، وكذا التعاويذ والحروز**، كل ذلك مبينٌ بالسُّنة.

والتفصيلات في أبواب الأيمان والنذور والكفارات، كل ذلك أوضحته السُّنة.

والمواريث والدّيات والحدود والقصاص والأحكام والغصب والإكراه والحيل، كل ذلك أوضحته السنة وبينت المحظور والجائز.

وثمّ مثال من أبواب الحدود: ألا وهو قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].

فمن أين تقطع اليد؟ وفي كم تقطع اليد؟

إن اليد تقطع في ربع دينارٍ فصاعداً[١] كما ورد عن رسول الله ﷺ.

وأبواب الفتن وأشراط الساعة، وأبواب التوحيد، وما يتعلق به، كل ذلك أوضحته السنة المباركة الميمونة.

ففي الجملة، نقول: إن سنة رسول الله ﷺ توضح ما أُجمل في الكتاب العزيز وتبينه بياناً شافياً وتُفصله تفصيلاً:

فصلوات ربي وسلامه على نبيه وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

فكيف يتسنى لشخصٍ بعد هذا البيان أن يهجر سنة نبيه محمد ﷺ أو يتخلى عنها أو يزهد الناس فيها؟! إنه لا يتجاسر على ذلك إلا زنديق يريد الانفصام من الدين والتخلي عنه والطعن فيه.

وكما أن سنة رسول الله ﷺ تبين ما أُجمل من آي الكتاب العزيز، فإنها أيضاً أصلٌ من أعظم الأصول لتفسير آياته، فكتاب الله يُفسرِّ بعضه بعضاً، وكذا تفسره سنة رسول الله ﷺ.

وها هي آيات فسرها رسول الله ﷺ:

قد ورد عن رسول الله ﷺ في تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والضالين بأنهم النصارى[٢]:

فقد ورد ذلك في حديث يحسن إسناده على أقل الأحوال بمجموع طرقه كما يصحح لشواهده أخرجه أحمد[٣] والترمذي[٤] وغيرهما[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) و(٦٧٩٠).

(٢) مع أن الكفار عموماً مغضوب عليهم وضالون، ولكن اليهود اختصوا بمزيد من الغضب والنصارى وصفوا بالضلال.

(٣) أحمد في المسند (٤/ ٣٧٨ - ٣٧٩).

(٤) الترمذي (٢٩٥٤).

(٥) انظر سنن سعيد بن منصور (١٧٩) وتفسير الطبري وغيرهما.

وكذلك توضيح الفدية التي هي من صيام أو صدقة أو نسك:

فالصيام هنا لم يبن قدره، ولكن أوضحت السُّنة أنه صيام ثلاثة أيام، وكذا الصدقة فهي إطعام ستة مساكين، والنسك ذبح شاة.

أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: وقف عليَّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً، فقال: «يؤذيك هوامُّك؟». قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك» - أو قال: «احلق» - قال: فيَّ نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ...﴾ [البقرة:١٩٦] إلى آخر الآية. فقال النبي ﷺ: «صم ثلاثة أيام أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستة أو انسك بما تيسر».

وكذلك تفسير اعتزال النساء أثناء المحيض هل هو اعتزال كل شيء منها، بل واعتزالها مطلقًا أم أنه قد استثنيت من ذلك أمور؟

أوضحت سنة رسول الله ﷺ المراد بالاعتزال.

فقد أخرج مسلم(٢) في «صحيحه» من حديث أنسٍ رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت(٣)، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ(٤)﴾ [البقرة:٢٢٢] إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيءٍ إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. فجاء أُسيد بن حُضير وعبَّاد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، فلا نُجامعهن؟ فتغير وجه رسول

(١) البخاري (حديث ١٨١٤) ومسلم (١٢٠١).

(٢) مسلم (حديث ٣٠٢).

(٣) (ولم يجامعوهن في البيوت) أي: لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد.

(٤) (المحيض) المحيض الأول المراد به الدم. والثاني قد اختلف فيه: قيل: إنه الحيض ونفس الدم. وقال بعض العلماء: هو الفرج. وقال آخرون: هو زمن الحيض.

الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما(١)، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد(٢) عليهما.

وكذا ما ورد في تفسير الصلاة الوسطى في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨] بأنها صلاة العصر:

أخرج مسلم في «صحيحه»(٣) من حديث عبد الله(٤) رضي الله عنه قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر، حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا». أو قال: «حشا الله أجوافهم وقبورهم نارًا».

وعند مسلم(٥) من حديث علي رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ، يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا». ثم صلاها بين العشاءين، بين المغرب والعشاء.

وكذا توضيح مفاتيح الغيب: في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] فقد بين النبي ﷺ المراد بها:

وذلك فيما أخرجه البخاري(٦) في «صحيحه» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**». [لقمان:٣٤].

وكذلك الآية التي إذا أتت: ﴿لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] أوضحتها سنة رسول الله ﷺ.

---

(١)، (٢) (قد وجد عليهما) أي: غضب عليهما. ولم يجد عليهما أي: لم يغضب.

(٣) انظر صحيح مسلم (حديث ٦٢٨).

(٤) هو ابن مسعود.

(٥) في طرق (حديث ٦٢٧).

(٦) البخاري (حديث ٤٦٢٧).

أخرج البخاري ومسلم(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها». ثم قرأ الآية.

وعند مسلم(٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يومًا: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إن هذه الشمس تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت. فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت. فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك، تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي، طالعة من مغربك. فتصبح طالعة من مغربها». فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين **﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾** [الأنعام:١٥٨]».

وكذلك فسَّر النبي ﷺ الأشهر الحرم، المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]:

أوضحها النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة(٣) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعةٌ حرم، ثلاث متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضر(٤) الذي بين جمادي وشعبان».

(١) البخاري (حديث ٤٦٣٦) ومسلم (١٥٧).

(٢) مسلم (حديث ١٥٩).

(٣) البخاري (حديث ٤٦٦٢) ومسلم (حديث ١٦٧٩).

(٤) أي: شهر رجب المعروف، وقد كانت قبيلة مُضر تعظمه وتعتقد حرمته ولا تؤخره ولا تُدمه.

وكذا في تفسير التثبيت بالقول الثابت، في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فقد فُسر التثبيت[١] هنا بتوفيق المؤمن للنطق بالشهادتين عند سؤال الملكين له في القبر.

أخرج البخاري[٢] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]».

وكذلك تفسير السبع المثاني بالفاتحة:

وذلك فيما أخرجه[٣] البخاري في «صحيحه» من حديث أبي سعيد بن المعلي قال: قال رسول الله ﷺ: «.. الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وأخرج البخاري[٤] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

وكذا إيضاح المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء:٧٨]:

بأن ملائكة الليل والنهار يشهدونه:

وذلك فيما أخرجه الترمذي[٥] من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء:٧٨] قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

---

(١) وإن كان التثبيت بالقول الثابت يدخل فيه أيضاً أكثر من ذلك.

(٢) البخاري (حديث ٤٦٩٩). (٣) البخاري (حديث ٤٧٠٣).

(٤) البخاري (حديث ٤٧٠٤). (٥) الترمذي (حديث ٣١٣٥)، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وهذا سند صحيح(١).

وكذا الوارد عن رسول الله ﷺ في تفسير المعيشة الضنك المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طـه:١٢٤] بأنها عذاب القبر:

أخرج ذلك ابن أبي حاتم وكما نقله عنه الحافظ ابن كثير رحمه الله.

قلت(*): وسنده هنالك حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «فإن له معيشة ضنكًا» قال: «عذاب القبر»(٢).

وقد قال الحافظ ابن كثير أيضًا: إسناده جيد(٣).

وكذلك فسر النبي ﷺ مستقر الشمس: في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨] بأن مستقرها تحت العرش.

أخرج البخاري ومسلم(٤) في «صحيحهما» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾** [يس:٣٨] قال: «مستقرها تحت العرش».

وقد ورد هذا الحديث في «الصحيحين» بلفظ آخر، فأخرج البخاري ومسلم(٥) من طريق إبراهيم التيمي عن أبيه، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالسٌ، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر! هل تدري أين تذهب

---

(١) وقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الصبح» يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

(*) القائل هو: مصطفى...

(٢) مع أن العيشة الضنك قد تكون في الدنيا والآخرة أيضًا.

(٣) وأورد له الحافظ ابن كثير طرقًا أُخر مع بيان وجوه إعلالها.

(٤) البخاري (٤٨٠٣) ومسلم في طرق حديث (١٥٩).

(٥) البخاري (حديث ٧٤٢٤) ومسلم في طرق حديث (١٥٩).

هذه؟». قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها: ارْجعي من حيث جئتِ. فتطلع من مغربها». قال: ثم قرأ في قراءة عبد الله: «وذلك مستقرٌ لها».

وكذلك بيان كيفية شهادة الأركان على الإنسان يوم القيامة: وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠]:

فقد فسر النبي ﷺ كما بصحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟». قال: قلنا : الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب! ألم تُجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه[٢]: انطقي. قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل[٣]».

كذلك تفسير الغيبة: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]:

فقد أخرج مسلم[٤] في «صحيحه» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه، فقد بهتّه[٥]».

(١) مسلم (حديث ٢٩٦٩).
(٢) الأركان هي الجوارح (اليد والرجل.. ونحو ذلك).
(٣) أناضل أي: أُدافع وأجادل.
(٤) مسلم (حديث ٢٥٨٩).
(٥) البهتان: الباطل.

وكذا السنة في بيان معاني بعض الكلمات كالوارد عن رسول الله ﷺ في تفسير الصور: بأنه قرنٌ ينفخ فيه:

أخرج الترمذي(١) بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ يُنفخ فيه».

وقد فسَّر النبي ﷺ الكوثر: بأنه نهرٌ في الجنة أعطاه الله إياه(٢):

ففي الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « .. أتدرون ما الكوثر؟». فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجل، عليه خيرٌ كثيرٌ، وهو حوضٌ تردُ عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم..». الحديث(٣).

وقد فسر النبي ﷺ الغاسق إذا وقب: بالقمر(٤):

في حديثه لعائشة رضي الله عنها إذ قال لها وقد نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا؛ فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»(٥).

إن هناك نصوصًا من كتاب الله عز وجل قد تفهم على غير وجهها فتوضح سنة رسول الله ﷺ المراد منها:

---

(١) الترمذي (حديث ٢٤٣٠).

(٢) وإن كان من العلماء من فسَّر الكوثر بالخير الكثير، فالنهر من الخير الكثير الذي أعطاه الله نبيه محمداً ﷺ، وذلك كقوله ﷺ الحج عرفة، فالوقوف بعرفات من أعمال الحج بلا شك، بل هو أعظم أعماله، إلا أنه لا ينفي ما عداه من الأعمال.

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٤٠٠).

(٤) وإن كان من أهل العلم من فسَّر الغاسق إذا وقب بالليل إذا دخل، وهو تفسير عام يدخل فيه ما يذكره النبي ﷺ من أن الغاسق إذا وقب القمر (أي: إذا ظهر). فإن دخول الليل يستصحب ظهور القمر، وهذا وذاك يُتعوذ بالله مما يكون معهما في الليل من شرور وآثام.

(٥) أخرجه الترمذي (٩/٣٠٢) مع التحفة، وأحمد في مسنده (٦/٦١، ٢٠٦، ٢٣٧) وقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح (٨/٧٤١).

فالذي أُنزل عليه القرآن أعلم بتأويله من غيره بلا شك، فعلى سبيل المثال:

قد يُفهم قول الله عزَّ وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧، ٨] **مع قول النبي ﷺ**: «ليس أحدٌ يحاسب إلا هلك».

لقد أوضح رسول الله ﷺ المراد بالحساب اليسير وبيّن أنه العرض:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة[١] رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك». قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك أليس يقول الله عز وجل: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾** [الانشقاق:٧، ٨] قال: «ذاك العرض، يُعرضون، ومن نوقش الحساب هلك».

وللعلماء في تفسير العرض أقوال منها؛ أن المراد بالعرض عرض الناس على الميزان، ومنها: أن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها.

وأصحها: عرض أعمال العبد عليه بين يدي الله ثم مغفرتها له، ودل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[٢] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربِّه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف؟ فيقول أي رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم. فيُعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيُنادى بهم على رءوس الخلائق: الذين كذبوا على ربهم».

وكمثال آخر في هذا الصدد ما فهمه صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم من قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

---

(١) وأخرجه البخاري (حديث ٤٩٣٩) ومسلم (حديث ٢٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤١) ومسلم (حديث ٢٧٦٨).

وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، ففهم بعضهم أن الظلم هنا على عمومه ومن ثمَّ سألوا أيُّنا لم يظلم نفسه يا رسول الله؟

فأوضح لهم رسول الله ﷺ أن المراد بالظلم هنا هو الشرك:

ففي «الصحيحين»(١) من حديث عبد الله(٢) رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لأبيه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]».

وكذا دفعُ ما قد يردُ من اشتباه على البعض من قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم:٢٨] وقد كان بين مريم وهارون زمنًا طويلاً.

فقد يقول قائل: كيف ومريم ابنة عمران وأخت هارون، وموسى بن عمران وأخو هارون، وقد كان بينهما مئات السنين فما وجه الجواب؟ فنقول، وبالله التوفيق: إن سنة رسول الله ﷺ دفعت هذا الإشكال وأزالت هذا الغموض.

ففي «صحيح مسلم» من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرءون: يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١].

---

(١) البخاري (حديث ٣٣٦٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (حديث ١٢٤) واللفظ له.

(٢) عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) مسلم (حديث ٢١٣٥).

فظاهر الآية الكريمة يفيد أن القصر فقط يكون عند خوف الفتنة من أهل الكفر.

لكن سنة رسول الله ﷺ أوضحت أن القصر لعموم المسافرين:

أخرج مسلم[1] في «صحيحه» من طريق يعلي بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ﴿**فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فقد آمن الناس!.

فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته».

وعند البخاري[2] من حديث حارثة بن وهب، قال: صلى بنا النبي ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة:١٥٨].

فالآية الكريمة قد يظهر منها أن من سعى بين الصفا والمروة لا إثم عليه، وفقط، ولكن السعي بين الصفا والمروة دائرٌ بين الركنية والوجوب كما هو معلوم.

أخرج البخاري ومسلم من طريق عروة عن عائشة قال: قلت: أرأيت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة:١٥٨]؛ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما فقالت عائشة: بئسما قلت يا بن أختي؛ إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت، فلا جناح عليه ألا يطوّف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهلَّ لها

(١) مسلم (حديث ٦٨٦).

(٢) البخاري (١٠٨٣).

يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨]، قالت عائشة: ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما(١).

كذلك سنة رسول الله ﷺ تستثني من الآيات أموراً، وتضيف إليها إضافات:

فعلى سبيل المثال:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢].

بيّنت سنة رسول الله ﷺ أن هناك مَلابِسَ مستثناةً وحُليًّا مستثناة، فقد قال رسول الله ﷺ في شأن الذهب والحرير: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حلٌّ لإناثها»(٢).

وكذا الوارد في نهي المرأة على لبسة الرجل، ونهي الرجل عن لبسة المرأة، والنهي عن تشبه بعضهم ببعض.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣].

استثنى من الميتة ميتتين، فهما لنا حلال ألا وهما السمك والجراد، واستثنى من الدم الكبد والطحال، كما في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما(٣)، وكذا

---

(١) البخاري (حديث ١٦٤٣) وفي غير موضع، ومسلم (حديث ١٢٧٧).

(٢) صحيح بمجموع طرقه، وقد أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥)، والنسائي ببعض (٥١٤٤) (٨/١٦٠) وأحمد (١/١١٥).

(٣) الطبري بإسناد صحيح موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنه وله حكم المرفوع (أثر ١٢٧٠٠).

أُحلَّت لنا ميتة البحر؛ لحديث النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»(١). وذلك في شأن البحر.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام:١٤٥].

فأضيف إلى هذه المحرمات محرماتٌ أُخر وذلك بسنة رسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ حرَّم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير(٢).

فحرِّمت بذلك الكلاب والسباع والصقور والنمور والعقارب والحيات.

وكذا فقد نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الإنسية(٣).

وكذا قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد مع اليمين، إضافة إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ففي «صحيح مسلم»(٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد.

وكذلك فالسنة توضح ما أجمل من القصص القرآني:

ومن ذلك إيضاح الإجمال المذكور في قوله تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾** [ص:٤١].

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داود (حديث ٨٣) والترمذي (حديث ٦٩) وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا. وأخرج البخاري (٥٥٣٠) ومسلم (١٩٣٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه نهى النبي ﷺ عن كل ذي مخلب من السباع.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٢١٦) ومسلم (حديث ١٤٠٧).

(٤) أخرجه مسلم (حديث ١٧١٢).

فقد أوضح ذلك رسولنا محمد ﷺ فيما أخرجه ابن حبان[٣] وأبو يعلى والطبري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أيوب نبي الله لما لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله وأرجع بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢] فاستبطأته فبلغته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى والله على ذلك، ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: إني أنا هو، وكان له أندران أندر القمح وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت».

ونحوه ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

فقد ورد في تفسير ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حييًّا ستيرًا لا يرى

---

(٣) إسناده صحيح، أخرجه ابن حبان (٢٠٩١) موارد ص٥١١ وقال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء ورفعه غريب جدًّا.

(١) البخاري (حديث ٣٤٠٤) وفي عدة مواطن ومسلم (٣٣٧) وهو عند مسلم في موطنين.

من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون: وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه. فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا**﴾».

وكذا في أمر الزكاة، إذ الله قال: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ [الأنعام:١٤١].

بينت سنة رسول الله ﷺ: «أن لا صدقة فيما دون خمس أوسق»(١).

* * *

(١) البخاري (حديث ١٤٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا (لي فيما دون خمس أوسق صدقة..) ومسلم (حديث ٩٧٩).

وأخيراً

فهذه سنة رسول الله ﷺ مع كتاب الله عزَّ وجل فكيف يزعم شخصٌ أنه قرآنيٌ ثم يهجرُ سنة نبيه ﷺ ؟!

إن هذه الدعوة التي يدّعيها أقوام فيزعمون أنهم قرآنيون ثم هم يهجرون سنة نبينا محمد ﷺ إنها دعوة كاذبةٌ في أصلها، فالقرآني المتبع للقرآن مُلزم ـ بنص القرآن الكريم ـ باتباع هذا النبي الكريم، كما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

وكما تقدم من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] إلى غير ذلك من الآيات.

ثم فضلاً عن أنها دعوة كاذبة، فهي أيضًا ستارٌ للانسلاخ من الدين وغطاءٌ للتحلل من التكاليف الشرعية!!!

ألا ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]

* * *

وبين يدي الختام

فهذا رسولنا قد تقدم بيان بعض مناقبه وبعض فضائله، وبيان بعض ما له علينا من الحق، وبيان أثر سنته في فهم القرآن وسائر الأحكام، ثم هذا مزيدُ بيان لحق خير الأنام عليه الصلاة والسلام، فنقول وبالله التوفيق وابتداءً:

فحقٌّ لله علينا أن نشكره على ما امتن علينا به من بعثة النبي ﷺ فينا وإلينا، فلله الحمد حمداً طيبًا مباركًا فيه، لله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وصلوات الله وسلامه على نبي الله إبراهيم إذ دعا لنا فاستجاب الله دعاءه، لقد قال الخليل عليه السلام: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** [البقرة:١٢٩].

فجزى الله خليل الرحمن خيراً على دعوته، الحمد لله رب العالمين.

أما حق نبينا محمد ﷺ فلن نستطيع حصره والإتيان عليه، فصلوات ربي وسلامه عليه، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فنقول وبالله التوفيق: -

إن من حق هذا النبي الكريم علينا أن نؤمن به ونرضى به نبيًّا ورسولاً.

إن من حق هذا النبي علينا أن نتبعه حق الاتباع ونتأسى به حق التأسي ونقتدي بهديه حق الاقتداء؛ امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى، إذ قد أمرنا بطاعته وحثنا على التأسي به، كما قد تقدم.

من حقه علينا أن ندافع عن سنته ونكون أنصاراً له ولدينه وسنته وشريعته، فديننا دينه وشرعنا شرعه، رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً.

من حقه علينا أن نحمل عنه ما علمناه ونبلغه الناس؛ إذ النبي ﷺ قد قال: «بلغوا عني ولو آية»(١).

وقال: «نَضَّرَ الله امْرَأً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها»(٢).

من حق هذا الرسول علينا أن نقدم محبته على محبة أهلينا، وأبنائنا وبناتنا، وآبائنا وأمهاتنا، بل على محبة أنفسنا.

أخرج البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(٣).

إن آراءنا وأقوالنا لو اختلفت مع قول رسول الله ﷺ لا يسعنا إلا أن نقدم قول الرسول على أقوالنا ورأي الرسول على آرائنا، فاختياره لنا خيرٌ من اختيارنا لأنفسنا، ويكفينا ما تقدم ذكره من كتاب الله عزَّ وجل إذ قال عن نبيه ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ولنعلم أن اختياره لنا خيرٌ من اختيارنا لأنفسنا قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] أي: لنزلت بكم المشقة ولحلَّ بكم العنت.

وانظر إلى ما كان من عمر رضي الله عنه يوم الحديبية، وهو يرقب قضية الصلح بين رسول الله ﷺ والمشركين وينظر بنود الاتفاقية ويرى فيها تنازلات كثيرة من

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٦١).

(٢) صحيح متواتر.

(٣) البخاري (حديث ٦٦٣٢).

المسلمين للمشركين، مع أن أحوال المسلمين الحربية والعسكرية آنذاك كانت أحسن بكثير من أحوالهم من قبل من ناحية العَدد والعُدد.

إن عمر ينظر إلى تعنت سهيل بن عمرو وهو يقول: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب باسمك اللهم!! ينظر عمرُ إليه كذلك وهو يقول: لا تكتب محمد رسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فإننا لا نقر لك بالرسالة!! ينظر إلى الاتفاقية وفيها: أنه لا يأت أحدٌ من المشركين مُسلمًا إلى رسول الله ﷺ إلا ويرده النبي ﷺ للمشركين وإن أتى أحدٌ من المسلمين إلى المشركين مرتدًّا فلا يرجعوه إلى المسلمين، فيرى عمر من وجهة نظره أن هذه التنازلات لا ينبغي أن تكون، ويراجع النبيَّ ﷺ في ذلك، ويراجع أبا بكر في ذلك، ولكن كان رأي رسول الله ﷺ هو الأسَدُّ والأرشدُ والأقوم والأصح!!

فكم من شخصٍ قد أسلم بعد هذا الصلح، لقد أسلم آلاف من المشركين ودخلوا في دين الله أفواجًا.

ومن هؤلاء الذين أسلموا وحسن إسلامهم جدًّا سهيلُ بن عمرو نفسه، وقد أبلى بلاءً حسنًا في الإسلام بعد ذلك!!

لقد حُقنت دِماءٌ، وأُنقذ أقوام من النار، كانوا سيدخلونها إذا ماتوا على الشرك.

وهذا شيء عن هذا الصلح وما كان فيه:

أخرج البخاري[1] من حديث المسور بن مخرمة ومروان قصة صلح الحديبية وفيه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هِي؟ ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت

(١) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله». فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنّا أُخذنا ضُغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردّ إلى المشركين وقد جاء مُسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: «إنَّا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أُصالحك على شيءٍ أبدًا. قال النبيُّ ﷺ: «فأجره لي». قال: ما أنا بمجيره لك. قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله. قال فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فَلِمَ نُعطى الدَّنِيَّة في دِيننا إذًا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت: أوليس كنت تُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟». قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوِّف به. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فَلِمَ نُعطى الدنية في ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطوِّف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

ومن حق هذا النبي الكريم علينا أن نمتثل أمره بعدم الغلو فيه: إذ قد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

فهو صلوات الله وسلامه عليه بشرٌ كسائر البشر كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت:٦].

وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر..»، وقال أيضًا: «وأنسى كما ينسى البشر...».

فلا يجوز لنا أن ننزله منزلة الرب سبحانه وتعالى، فنبينا محمد ﷺ عبدٌ لله مطيعٌ له، ثم إنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

فرسولنا عبد لله كسائر عبيد الله؛ إذ قال الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

إننا كمسلمين ولله الحمد، يختلف موقفنا من نبينا ﷺ عن موقف الكفار منه.

إننا نقرّ لهذا الرسول ﷺ بالرسالة ونفتخر بذلك ونسأل الله الثبات على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٤٥).

ومن ثمَّ فنحن نعتقد صحة كل ما فعله نبينا ﷺ فكلٌ ما فعله صحيح ونتهم آراءنا، وندفع في وجه خصومنا بكل قوة.

فجوابنا الأصيل على كل ما يثار حول هذا الرسول الكريم من شبهات يطرحها أهل الباطل، أن تقول: إنه رسول الله ولا يعصي ربَّه عزَّ وجل، كما قد قال الصديق أبو بكر لعمر رضي الله عنه.

فهذا جوابنا الأصيل، وإن كانت ثمَّ أجوبة أُخرى تُلتمس!!

فرضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً.

ومن حقه علينا صلوات الله وسلامه عليه أن نوقره عند ذكره، فلا نذكره باسمه المجرد بل نذكره بكل جميل؛ نذكره بقولنا: رسول الله ﷺ، نذكره بنبي الله ﷺ، نذكره بـ سيد ولد آدم، نذكره بـ خاتم النبيين ﷺ... إلى غير ذلك من جميل الألفاظ، إذ الله قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾

[النور:٦٣]

من حق هذا النبي الكريم علينا أن نكثر من الصلاة والسلام عليه امتثالاً لأمر الله عـزَّ وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]. ويتأكد حقه في الصلاة عليه عند ذكره صلوات الله وسلامه عليه.

من حقه علينا أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة.

من حقه علينا أن نذب عنه وندافع عن سنته، فحقه علينا أعظم من حق والدينا، ومن تمام الإيمان أن نقدم محبتنا له على محبتنا لأنفسنا.

من حقه علينا أن نقدم قوله على قول غيره من البشر؛ فلا يُقدم قول ولا فعل ولا رأي صاحب مذهب ولا شيخ ولا عالم، ولا رئيس ولا ملك ولا وزير على قول رسول الله ﷺ.

ثم إن من حقه علينا أن نخلفه في أهل بيته بخير، إذ قد أوصى فقال: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[1].

إن حقه علينا لا يأتي عليه الحصر، فنسأل الله أن يتجاوز عن تقصيرنا في توقير هذا النبي الكريم، وعن تقصيرنا في نصرة سنته، وعن تقصيرنا في الصلاة عليه وعن تقصيرنا في عموم حقوقه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته وعلى صحبه ومن سلك طريقته واتبع سنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

* * *

(١) مسلم (حديث ٢٤٠٨).



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الثاني

العلماء يشهدون



تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ..

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

سيريكم الآية بعد الآية فتشاهدونها وتعرفونها في كتاب الله فتكون الدلالة والحجة البينة نوراً لمن اتبعها وحجة على من جحدها.. ولكل نبأ في كتاب الله تحقيق بميقات أقّته الله له، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٦٧]

وهذه الدلائل يريها الله للناس في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا القرآن العظيم هو رسالة خالقهم إليهم كما وعد سبحانه في كتابه المجيد: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

ولقد أنزل الله سبحانه هذا الوعد المجيد، قبل أن يفكر الإنسان في غزو الآفاق أو التعرف على أسرار نفسه، حتى إذا رأى الإنسان آيات الله في الكون، ثم عرفها في كتاب الله؛ يعلم أن الذي أنزل القرآن المجيد هو الله الخالق لهذا الوجود، وأن سعادتنا في الدنيا والآخرة؛ بحسن اتباعنا لتعليمات الخالق سبحانه، وقد فطرنا عليها.

وفي هذا الفصل:

بعض ما رآه الناس حديثاً وعلموه يقيناً..

وآيات من القرآن تحكي ما علموه تفصيلاً ..

فيتأكدوا أن القرآن هو الحق المبين ..

وما يطلبه هذا من وقفة يقفها المسلم للخالق سبحانه ..

ـ يمكنك مشاهدة أقوال العلماء بالصفحات التالية بالصوت والصورة في شريط فيديو «إنه الحق» إنتاج هيئة الإعجاز العلمي بالقرآن والسنة بمكة المكرمة وفي أسطوانة برنامج «الأدلة القاطعة» إنتاج شركة خليفة بالقاهرة.

ـ وعلى الموقع الإلكتروني:

www.islam-guide.com/truth

هدية إلى علماء الإسلام:

قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»(١).

ولما كان النبي محمد ﷺ هو آخر الأنبياء، فقد أعطاه الله من الآيات التي يؤمن على مثلها الناس إلى قيام الساعة..

ومادة هذا الفصل شيء من ذلك.. ..

فالناس عندما يعرفون الحقائق العلمية ويفرحون بها، فإن هذه الحقائق هي التي تقودهم إلى الله سبحانه ..

فمن كل طريق وفي أي مجال؛ الأدلة القاطعة التي تقود إلى الله.. ..

من العلوم الحديثة باختلاف مجالاتها .. من كتب الأولين وفي التوراة والإنجيل؛ الدليل إلى الإسلام.

(١) صحيح البخاري ٦٧٣٢ .

لذلك فإن علماء الإسلام يكونون مسرورين، عندما يبينون للناس أن الذي يرونه ويصلون إليه من حقائق موافقٌ لما أُنزل إليهم من ربهم..

وهكذا كان النبي ﷺ مسروراً عندما رأى الناس ما أوحي إليه من ربه سبحانه؛ كما في صحيح مسلم ٥٢٣٥ عن تميم الداري من رؤية الجساسة والدجال: «........ فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال ليلزم كل إنسان مصلاه ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ ...... لأن تميماً الداري الذي كان رجلاً نصرانيًّا فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي أحدثكم عن المسيح الدجال».

وإن رؤيتنا لكلمات الله وكلمات النبي ﷺ أمرٌ قد وعدنا الله تعالى به، كما قال سبحانه:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(١).

ذلك لنعلم أن وعد الله حق، وأن ما توعدون لآت.

والحمد لله الذي أوحى لرسوله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام وأهله وذلاً يذل به الكفر»(٢).

هذا وليت المخلصين يسمعون.. ما في صحيح مسلم ٤٩٦٧

«اذهب إلى أرض كذا وكذا، فإن فيها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم .. ..» فينبغي لمن عرف الحق، وأراد التوبة أن يجدكم لتعينوه على طاعة الله . . .

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ في تفسير قول الله تعالى ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾. قال: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين.. قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ تفسير ابن كثير.

(٢) رواه أحمد، السلسلة الصحيحة رقم٣ .

ظواهر في السماء

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ١٢٥].

لماذا ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾؟؟ ..ماذا في السماء؟؟

الحمد لله الذي كشف عن آياته، فرأى الإنسان بعلم اليقين، انخفاض ضغط الهواء ونسبته كلما ارتفعنا عن سطح الأرض وأن من يصَّعَّد في السماء يكون تنفسه ،وحيث تضغط عضلة الحجاب الحاجز (الموجودة بين البطن والصدر) على الرئتين فتنقبضان بشدة، وهنا يضيق صدر الإنسان، من أجل ذلك كان من الضروري عمل ملابس خاصة بالفضاء. . .

فمن أخبر النبي ﷺ بهذا ؟؟

إنه الله سبحانه الذي أنزل القرآن بعلمه، ويسوق عباده لوعده المجيد: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وعندما ترجمت هذه الآية : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى «يوشيدي كوزان»[١] اندهش بشدة وأخذ يستمع إلى آيات وآيات تشير إلى ما يعرف جيداً من العلوم الحديثة، ثم قال: «إن المتحدث بالقرآن يعلم كل شيء وبكل دقة وتفصيل ..».

وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦].

---

(١) مدير مرصد طوكيو.

وبعد .. ..

ففي الحديث القدسي؛ قال الله عز وجل:

« يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم »(١).

ولذلك يخبرنا القرآن عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧].

فاللهم اهدنا إليك صراطًا مستقيمًا، آمين.

(١) رواه مسلم ٤٦٧٤.

تطورات الجنين في بطن أمه

قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]

وهكذا أراد الله للإنسان أن يعلم هذه التطورات، فكانت المفاجأة العجيبة لعلماء التشريح والأجنة، وعلى رأسهم كيث. إل. مور الكندي[١] وهو من أشهر علماء الأجنة، فلم يكن يصدق أن هذه الكلمات هي آيات القرآن الكريم.. وعندما تأكد له أن هذه هي آيات القرآن، ذهب يبحث عن إمكانية أن يكون هذا مصادفة.. فلما رأى خمسة وعشرين نصاً عن تفاصيل تطورات الجنين في بطن أمه لم يتردد في أن يكون عالمًا شجاعًا معلنًا عن رأيه بوضوح حيث قال: «إن هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد ﷺ من عند الله، وإن هذا يثبت لي أن محمداً رسول الله..».

وبعد.. ..

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤].

أي: لماذا لا تعظمون ربكم سبحانه؟!!

---

(١) رئيس قسم التشريح بجامعة تورنتو بكندا، ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء التشريح والأجنة، وكتابه: Developing Human والذي ترجم لثمان لغات، قد حاز على جائزة أحسن كتاب ألفه مؤلف واحد.
والحمد لله طبع من هذا الكتاب طبعات عديدة بالإضافة الإسلامية بعنوان:
Developing Human with Islamic Additions وينتشر الآن بين يدي العلماء.

وهكذا يمكن لكل إنسان أن يرى بعينيه آيات ربه سبحانه يرى النطفة، ثم يرى الجنين وهو متعلق بسقف الرحم..

ثم يرى بعد ذلك - كما يصف كيث. إل. مور - كأنك أمسكت بقطعة من الطين الصلصال ووضعتها تحت أضراسك، حيث يشبه الجنين شيئًا ممضوغًا .. ويرى هذه المضغة مخلقة وغير مخلقة.. ..

فسبحان القائل: **﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ....﴾** والقائل سبحانه: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [فصلت:٥٣].

سبحانك يا ربنا ولك الحمد .. ..

بل إن الله تعالى قد يسَّر للإنسان ليرى منشأه من تراب ..

(بتحليل جسم الإنسان وجد أنه يتكون من عدد من العناصر، كلها ضمن مكونات القشرة الأرضية .. (تراب) (.. من تراب..) فيعلم الإنسان عظيم قدرة الله سبحانه الذي خلق كل هذا البشر من قطعة تراب: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾** [الروم:٢٠].

وهنيئاً لمن تدبر هذا الوعد المجيد:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[النمل:٩٣]

أي سيريكم دلائل وحدانيته .. لتعلموا أن الأمر كله لله، فهو سبحانه الذي وعد، وهو سبحانه الذي يسوق عباده لوعده؛ يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن هو الحق المبين..

فنعلم يقينا أن القوة لله جميعًا، وأن الأمر كله لله، فلا نجعل أي شيء ندًّا مساويًا في صدورنا لله ربنا سبحانه خالقنا وخالق كل شيء، سواء بفتنة رغبة، أو بفتنة رهبة.

الجنين في مرحلة المضغة:

قال الله سبحانه في وصف المضغة: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥].

وعن هذا الإعجاز المجيد: وقف مارشال جونسون[١]، وهو يشرح ما بداخل المضغة بعد إجرائه تشريحاً لها، ويقول: إن الجزء رقم (١) قد تخلقت فيه بعض أجهزة الجسم، أما الجزء (٢) فلم يتخلق فيه شيء .ومن هنا؛ عندما نصف هذه المضغة، أنها مخلقة فقط أو غير مخلقة فقط، فهذا وصف غير علمي.

إذن لا يمكن أن أصفها وصفاً علميا إلا بما وصفه الله في القرآن: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

ولذلك لم يبق إلا أن نقول: إن محمدا ﷺ رسول من عند الله.

وبعد .. . في كل آية نرى أن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه .. فالمضغة في نفسها؛ مخلقة وغير مخلقة ..

وإن تمت أو سقطت؛ فحالتاها مخلقة وغير مخلقة..

الجنين بعد ٤٢ ليلة:

قال رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال أي رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء»[٢].

سبحان الله، وسبحان الله.. ..

الحمد لله الذي علم الإنسان وبين له، أن ما ينطق به رسول الله ﷺ هو الوحي من عند الله سبحانه؛ فلا يظهر الشكل الآدمي في الجنين إلا مع بداية الأسبوع السابع.. .. وهنا نعرف معنى قول النبي ﷺ: «فصورها ..».

---

(١) مدير معهد دانيال.

(٢) رواه مسلم ٤٧٨٣ .

ولقد اهتم «جولي سيمبسون»(١)، وكذلك «تي في إن بارسان»(٢) اهتما بهذا الحديث، وبحديث آخر؛ «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما»(٣). وبقول الله سبحانه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٩] أي أن الإنسان مقدر بكل صفاته في هذه النطفة؛ فمثلاً لون الشعر ولون الجلد محدد في الجينات التي تحملها الكروموسومات...

وبعد دراستهما المتأنية وقف الأول في أحد المؤتمرات قائلاً: «إن بإمكان الدين أن يقود العلم قيادة ناجحة، وإن هذا مما يدل على أن القرآن هو كلام الله».

أما الثاني فكان من تعليقه ما يلي: «إن محمداً ﷺ الأمي والذي يصرح بتصريحات علمية مدهشة، لا يمكن أن يأتي بهذا مصادفة، ولكن لابد أن يكون هذا إلهامًا ووحيًا قاده إلى هذه البيانات».

وفي هذا الموضوع أحب أن أنبه إلى ملاحظة مهمة: هل معنى قول الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٢٤] أنه لا يعلم ما في الأرحام إلا الله؟؟

يقول الرسول ﷺ: «فيقول ملك أي ربّ أذكرٌ أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء»(٤). أي إن الملائكة الموكلين يعرفون ما في الأرحام، ومن شاء الله من خلقه(٥).

إذن ما هو الشيء الذي يخص الأرحام ولا يعلمه إلا الله؟؟

إنه ما تغيض الأرحام، كما بالحديث: «مفاتيح الغيب خمسة...» إلى قوله: «ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله..» أي ما تسقطه(٦).

(١) أستاذ أمراض النساء والولادة بجامعة نورث بوسطن بشيكاغو.

(٢) رئيس قسم التشريح بمينيتوبا بكندا، ومؤلف مشهور في علم أمراض النساء.

(٣) البخاري (٢٩٦٩).

(٤) مسلم٤٧٨٣ .

(٥) ابن كثير.

(٦) رواه البخاري ٦٨٣١ .

وقوله : ما تسقطه هو قول ابن عباس رضي الله عنهما .

فلا يعلم ما يكون في الأرحام وما تغيضه الأرحام إلا الله .

وتتجلى هذه المعجزة لكل أطباء العالم، الذين يعرفون أن الرجل حين يأتي أهله، فإن حجم الرحم ينقص، ليعود كما كان وقد اكتسب ما شاء الله له من نُطَفِ الذكورة أو نُطَفِ الأنوثة.. .. وهنا لا يمكن لأحد أن يعرف أيّ النُطَفِ تستقر في الرحم، وأيّ النُطَفِ يُسقطها .. وقد جعل الله ذلك من الحركات اللاإرادية ..

فسبحان الذي يُقِرّ في الأرحام ما يشاء ..

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « ماء الرجل أبيض و ماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا، فعَلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله و إذا عَلا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله »(١) .

فقد يفتح الله سبحانه على الإنسان معرفة ما يؤثر به ماء المرأة على النطفة وما يؤثر به ماء الرجل في النطفة، ولكن ليس للإنسان أن يحدد على سبيل القطع ما يمسكه الرحم أو ما يسقطه من النُطَفِ.. .. فكثيراً ما تغوص النطفة في الرحم ثم لا يرى لها وجود أو أثر..

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٥٠٠ .

الشعور بالإحراق إنما يكون بالجلد

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾

[النساء:٥٦]

وبعد أكثر من أربعة عشر قرنا من نزول هذه الآية فإليك بيان «تاجاثات التيلاندي»[١] من أشهر علماء العالم في علم التشريح حيث يبين أن شعور الإنسان بألم الإحراق يزول بمجرد أن ينضج الجلد الخارجي وذلك لأن الجلد إذا حـرّق بالنار (وكان الحرق عميقاً) دمّر عضو الإحساس بالإحراق..

وقبل أن يدّعي ملحد أن شعوره بألم النار من عذاب الله يزول بعد لحظات، فإنهم يفاجئون بهذه الآية تصفع وجوههم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

وهنا كانت الدهشة العجيبة للبروفيسور تاجاثات لهذه الآية وبعد دراسته لمعجزات القرآن ـ والتي استمرت لمدة سنتين ـ وقف في أحد المؤتمرات وهو يشرح دقائق عجيبة مما وصل إليها العلم الحديث موجودة في كتاب الله سبحانه، ثم اختتم كلمته قائلاً: «إن هذا يثبت لي يقيناً أن آيات القرآن جاءت لمحمد ﷺ من الخالق العليم بكل شيء، وأرى أنه قد آن الوقت لأن أعلن أنه: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقد أصبحت مسلماً من الآن».

(١) تاجاثات تاجاسن: عميد كلية الطب بجامعة تشان ماي بتيلاند.

وبعد .. ..

فمن يخشى الله ؟؟ قبل أن يفوت الأوان، ويأتي يومٌ يقال فيه للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وتأمل ماذا قالوا: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

ولو أنهم كانوا من المصلين ؛ لنالوا الجزاء العظيم، كما قال النبي ﷺ: « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة »(١).

(١) صحيح الترغيب ٣٧٠ .

البحر العميق.. وما البحر العميق ؟؟

قال الله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠].

ما هذا ؟!.. إنه حديث عن البحر العميق!!

بحر لجي: أي بحر عميق(١)

لقد اكتشف علماء البحار، البحر العميق تحت البحر السطحي على أعماق مختلفة تصل إلى مئات الأمتار عمقاً، تحت المحيطات الكبيرة ..

والبحر العميق له موجٌ يغشاه.. ومن فوق هذا الموج؛ موج آخر (وهو موج البحر السطحي)، ثم من فوق الموج العلوي السحاب .. وظلمة البحر العميق تامة تامة.

ومن فوقها طبقات من الظلام: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

فأول طبقة من المياه تمتص اللون الأحمر وما تحته فيحدث في الضوء ظلمة .. ثم الطبقة الثانية تمتص البرتقالي فتكون الظلمة أشد، ثم الطبقة الثالثة تمتص الأصفر، فتكون الظلمة أشد، ثم يُمتص الأخضر فتكون الظلمة أشد وأشد، وهكذا حتى تكون الظلمة تامة تامة في البحر العميق .. فتأمل!!

وهنا نجد ما يشهد به علماء البحار:

«لابد وأن يكون القرآن الكريم من الله»(٢).

---

(١) بحر لجّي: أي بحر عميق (قاله قتادة رضي الله عنه.. تفسير ابن كثير).

(٢) من أقوال البروفيسور هيل، وهو من أكبر علماء البحار.

وبعد .. ..

بهذا الإعجاز العجيب يصف الله تعالى أحوال الكافر، حيث أنه يخالف فطرته وصوت عقله وضميره فيقع في ظلم فوق ظلم حتى يصير في ظلام تام، كما قال تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] .

فإن عاد إلى ربه وآمن فله هذه الآية : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] .

وبالاستغفار وذكر الله مثل قول (لا إله إلا الله) تبدد كل ظلمة في القلب، ويجلى كل صدأ عليه ..

برازخ البحار المالحة

قال الله سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:١٩-٢٢].

ولأن المرجان لا يخرج إلا من البحار المالحة، علمنا أن الحديث هنا عن كل بحرين مالحين يلتقيان يكون بينهما برزخ، وأن البحرين لا يبغي أحدهما على الآخر.

والبرازخ بين البحار المالحة لا ترى بالعين المجردة، وإنما التقطتها الأقمار الصناعية بالاستشعار الحراري.

والبرزخ لا يسمح لمياه أحد البحرين أن تنتقل للآخر إلا بعد تخليها عن صفات البحر الأول واكتسابها صفات البحر الآخر.

وهذه البرازخ تذهب وتجيء وتضطرب مع حركة المياه

وكل ما سبق يدخل في المعنى اللغوي لكلمة (مرج) فتأمل !!

وعندما ترجمت هذه الآية للبروفيسور «هيل»(١) قال: «إنه من المثير جداً أن أجد مثل هذا النوع من المعلومات موجوداً في آيات القرآن الكريم، لهذا أعتقد أنه لا بد وأن يكون القرآن الكريم من الله».

وبعد .. ..

قال رسول الله ﷺ: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»(٢).

(١) من أكبر علماء البحار.

(٢) متفق عليه.

ومن اتقى ؛ نال رضوان الله سبحانه وفاز بنعيم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] .

وفي الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس»(١) .

وملخص التقوى:

١ ـ أن يكون حبك لله تعالى أشد من أي شيء، لأنه لا جميل ولا فضل لأحد عليك في نعمة الحياة أو مقوماتها إلا لله سبحانه خالق كل شيء (فتحب طاعة الله أشد من كل شيء) .

٢ ـ وأن يكون خوفك من الله أشد من أي شيء، لأن الله سبحانه هو النافع والضار (فتفعل الطاعات وتجتنب المحرمات وتجعل بينك وبينها وقاية) .

---

(١) ابن ماجه والترمذي وحسنه الألباني.

يا أيها الناس

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

فكما ترون بأعينكم آيات الله وموعوداته حقاً، كذلك ترون غداً بأعينكم الجنة وأهل التقى والإيمان يتنعمون، وترون النار وأهل الفجور والكفران يتعذبون.

ويا لها من حسرة على المكذبين.. فقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣١،٣٢].

والله؛ إن الذي يجحد نعم الله عليه، بدءاً من نعمة الحياة ومقوماتها؛ من مأكولات بأنواعها، ومشروبات بأنواعها، وأنفاس يستمر بها حيًّا، وأعضاء يتحرك بها، وكل متعة ينعم فيها ...... إلخ؛ لا يمكن أن يكون من الذين يعقلون..

ولذلك يخبرنا الله سبحانه عن أولئك: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤].

وبعد.. .. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً﴾ [الفرقان:١٥-١٦].

فالجنة الجنة، لمن كان دينه خالصاً لله رب العالمين، ولم يتولَّ عن دين الله بعرَض من الدنيا قليل.. فقد أمرنا الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١].

ودينك ؛ هو إخلاص العبادة لله وحده سبحانه، ودعوة الناس لذلك دونما جاهلية أو عصبية لأشخاص أو أوطان كما يخبرنا الله سبحانه : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ...﴾ وليس لغير الله .

فلنستقم إلى الله، كما أمر الله سبحانه، لا كما في تصور أو تخيل أي إنسان , كما قال الله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ..﴾ . نعم كما أمرت ..

ولا يكون ذلك إلا بالتعلم « .. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة »(١) .

والعلم لا يؤتي ثمرته إلا إذا اقترن بالعمل ..

ويعين العبد على العمل الصالح ملازمة جماعة المسجد، كما قال الله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] .. .. وكما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:١٨] وقد قال النبي ﷺ : « عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »(٢) .

وهنيئاً لمن كانوا متبعين بإحسان لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهذا هو الطريق لرضوان الله، كما قال سبحانه : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١٠٠]

(١) رواه مسلم ٤٨٦٧ .

(٢) صحيح الجامع ٥٧٠١ .

صحراء العرب ترجع خضراء

قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهاراً». أي: بساتين وأنهاراً(١)..

يظهر من الحديث الشريف أن صحراء العرب كانت من قبل أرضًا خضراء، وأنها ستعود كذلك..

فماذا أراد الله لعلماء الجيولوجيا أن يتعلموا اليوم؟؟

وجه هذا السؤال للبروفيسور كرونر (من أكبر علماء الجيولوجيا).

هل كانت أرض العرب خضراء؟

قال: نعم، في العصر الجليدي السابق منذ آلاف السنين.

هل ستعود أرض العرب خضراء؟

قال بالتأكيد.. إنها حقيقة علمية .. .. كيف هذا؟

قال: لعلك تلاحظ هذه العواصف الثلجية التي تقصف المدن الشمالية من العالم في كل شتاء، والتي تزيد باستمرار من معدل قصفها سنة عن الأخرى، وساق أدلة علماء الجيولوجيا التي تؤكد هذه الحقيقة العلمية ..

فماذا بعد اطلاعه على حديث رسول الله ﷺ ؟

قال : ـ وبعد مناقشة عنيدة ـ «إن الوسائل العلمية الحديثة الآن يمكنها في وضوح إثبات ما قاله محمد ﷺ وأعتقد أن ما أخبر به محمد ﷺ لا يمكن أن يكون إلا بوحي من الله».

---

(١) صحيح مسلم (١٦٨١).

أخفض منطقة على سطح الأرض

قال الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾.

وسبحان الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم !!

﴿أَدْنَى﴾: تعني أقرب، وأخفض ..

سئل بارما[1] ما أخفض مكان على سطح الأرض؟

فأتى بمجسم للأرض حيث السهم على مكان بجوار البحر الميت[2] مكتوب عليه أخفض منطقة على سطح الأرض (وهو المكان الذي هزمت فيه الدولة الرومانية القديمة من الفرس).

وبعد أن استمع إلى ترجمة هذه الآية ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾.

اندهش.. وتساءل.. وناقش.. وحاور.. واستمع إلى آيات وآيات تشير إلى ما يعلم جيداً من العلوم الحديثة ثم قال: «نعم إن ذلك يقود إلى أن الله قد أرسل هذا عن طريق النبي محمد ﷺ».

وبعد.. ..

فهلا آن أن نقرأ كتاب الله ونتدبره؟! وقد قال النبي ﷺ: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»[3].

---

(١) المشرف على الاحتفال المئوي لعلماء الجيولوجيا بأمريكا.

(٢) ينخفض مستوى مياه البحر الميت عن جميع بحار الأرض بـ ٣٨٠ متراً.

(٣) صحيح الجامع الصغير ١١٦٥ .

.... أحيطكم علماً ....

إن ما يعيشه العالم اليوم من انفجار معرفي ؛ هو تحقيق دقيق لوعدِ الله المجيد : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] .

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال:٥٩] .

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] .

.... وعلى الأمة ....

الأخذ بكل أسباب القوة، تنفيذاً لأمر الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾.

فقط تكليف الله سبحانه للأمة؛ ما تستطيعه.. أما الذي لا تستطيعه، فإن الله يتكفل به..

وكذلك على الفرد «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»(١).

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧-٩].

*****

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٦٥٠ .



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الثالث

ما فرطنا في الكتاب من شيء



تمهيد

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾

آيات لمن يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، مع تعليق مختصر، وقد اخترت واختصرت ، ومثل ذلك كثير وكثير، ولا يحصيه إلا الله ..

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١].

من كل طريق وفي أي مجال ؛ من علوم الفضاء ، من علوم البحار ، من علوم الطب .... الطريق إلى الله.

وقد أرسل الله رسوله محمداً ﷺ نبيا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، في فترة من الزمن لم يكن يعلم معاصروها شيئاً من المعارف الحديثة ..

ألا لنعلم أن وعد الله حق ، وأن ما توعدون لآت ..

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٦].

كيف تمهدت الأرض للحياة؟

قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:١-٦].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾؟..

إن بلايين الأشياء قد تآلفت وترتبت في نظام محدد حتى تكون الأرض ممهدة للحياة عليها، وإذا اختل شيء من هذه الأشياء فإن الحياة تتدمر تدميراً.. إلا أن يشاء الله..

فمثلاً؛ المسافة بين الأرض والشمس لو أنها أكبر من وضعها الحالي، أو أنها أصغر من وضعها الحالي لدُمِّرَت الحياة على كوكب الأرض تدميراً.

حتى إن وزن ذرة الأكسجين، لو كان أكثر من وزنها الحالي لتدمرت الحياة، ولو كان وزنها أقل من وزنها الحالي لانتهت الحياة، ويمكنك في ذلك أن تعدد الكثير والكثير، مثل: وجود الماء، وخواص الماء، ووجود الغلاف الجوي، ونسب مكوناته، وخواص الأكسجين للتنفس... إلخ...

نعد بلايين من الأشياء وبلايين لا نحصيها من نعم الله تعالى حتى تكون (الأرض مهاداً) ممهدة للحياة عليها.. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨].

نعمة الله في خلق الجبال

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

قد أراد الله للإنسان أن يكتشف علاقة الجبال بتثبيت القشرة الأرضية، وأن الجبال تزيد من عزم القصور الذاتي للأرض فلا يحدث أن تميد أو تضطرب.. فتأمل، وقل الحمد لله رب العالمين.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

وبالطريقة الحديثة في تصوير الجبال (هولوجرافي) وجد أن تحت كل جبل جذرا له.. فمثلاً جذر جبال الهيمالايا حوالي ٤٫٥ مرة من ارتفاعه (.. وتد..).

من نعم الله تعالى في السماء والأرض

يقول الله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.

حيث تُرجِّع السماء ما يصعد من بخار في صورة مطر، وتعكس إشعاعات كونية حتى لا تضر بالحياة على الأرض فتأمل!!! وقل الحمد لله رب العالمين.

ويقول سبحانه: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾.

عرف الناس أن قارات العالم ناتجة من تصدعات عنيفة في الأرض، وأن التصدع قائم ولا يزال في قاع البحار وفي باطن الأرض وينتج منه براكين وزلازل..

وهذه التصدعات بمثابة المتنفس لغليان المعادن في باطن الأرض، وإلا لانفجر كوكب الأرض بكل ما فيه.. إلا أن يشاء الله تعالى..

الأرض ليست على خريطة المجرة

يقول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

عندما قدَّر الله للإنسان أن يرى الآيات في الآفاق، تبين له أن الكون رهيب الاتساع، بل إن الكون في اتساع مستمر رؤيةً لقول الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

فإذا رسمت خريطة للمجرة، فإن الشمس لا تظهر سوى نقطة على هذه الخريطة، فأين الأرض؟ والتي تكبرها الشمس بمليون مرة؟

هذا وإن المجرة واحدة من مجرات كثيرة في الكون.

وهنا يتأكد للإنسان أن الدنيا لا تساوي في ملكوت الله جناح بعوضة ..! فهل للإنسان أن يتكبر ويبيع آخرته بدنياه إلا إن كان من الذين لا يعقلون!

ورغم صغر الأرض في الكون

فقد جعلها الله موسوعة للأحياء والأموات

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

[المرسلات: ٢٥-٢٦]

إن ملايين وملايين الأحياء من الأجيال المتعاقبة، كفيلة بموتها أن يترم بها كوكب الأرض، وألا تدع فرصة لحيّ بالعيش على الأرض، ولكن من رحمة الله تعالى أن جعل الأرض كفاتا؛ تستوعب الأحياء والأموات، بما يدعوك لرؤية عجيب قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته سبحانه.. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

والآن يرى الإنسان أن مكونات جسده من عناصر الأرض، وأنها تعود مرة أخرى إليها بموته وتحلل جسده ثم يخرجنا الله تعالى من الأرض تارة أخرى ﴿..وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ..﴾ [الروم:٢٧] قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] وإذا كان الإنسان يرى بعينيه مكونات جسده من الأرض، وأنها تعود للأرض، فسوف يرى نفسه وقد أخرجه الله منها تارةً أخرى، ليقف بين يدي الله ويسأله «عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به»[1].

(١) السلسلة الصحيحة ٩٤٦.

الدورات العجيبة على كوكب الأرض

يعرف الناس الآن أن للمكونات الغذائية من كربون، وهيدروجين، ونيتروجين، وأكسجين، وماء ،... إلخ دورة تبدأ ثم تعود من حيث بدأت ، فمثلاً ينزل النيتروجين مع المطر إلى التربة الزراعية ، حيث يستخدمه النبات في إنتاج الغذاء الذي يأكله الإنسان ، ثم بعد موته يتحلل الجسد، ويتصاعد النيتروجين حيث ينزل (في مركبات) مع المطر ، مرة أخرى، وهكذا .

وهنا يرى الإنسان بعينيه ما أمره الله أن يراه :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩ ، ٢٠] .

الدورة المائية

قال الله تعالى : **﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾** [الواقعة:٦٨-٧٠] .

إن الماء العذب الذي نشربه ، ينزل مطراً من السحاب ، والذي تكوّن أصلاً من البخار الصاعد من البحار المالحة وغيرها .. .. ولو شاء الله لجعل الماء كما كان في أصله .

﴿أُجَاجًا﴾ : أي ماءً مالحاً كما كان **﴿.. فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ..﴾** .

وبعد الدراسات والدراسات ، عن البخر من المحيطات والبحار المالحة ، وغيرها ، وتكوّن السحب ، وسقوط الأمطار، علم الناس أن الماء العذب الذي يشربون منه آت من الماء الملح الأجاج الذي هو أصله..

وهكذا نعلم أن ماء المطر الذي ينزل من السماء هو أصلاً ماء الأرض.. كما قال الله تعالى : **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ..﴾** نعم **﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾**، لأن الماء الذي ينزل من السماء قد جاء من الأرض ، والسماء ترجّعه مرة أخرى ، في صورة هذا المطر الذي نراه ..

إذا خرجت نهاراً من الغلاف الجوي ، فالدنيا ظلام

قال الله تعالى : **﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾** [الحجر:١٥].

وكلمة : سُكِّرت ، أي غُيِّبت ، فلا يكادون يبصرون. وهذا الذي رآه الإنسان اليوم؛ أن الفضاء ظلام دامس، وأن الشمس تظهر قرصًا أَحْمَرَ لا يضيء لأحد في السماء.

ولكن ما بال ضوء النهار على الأرض؟؟

إنه الغلاف الجوي ، والذي جعله الله تعالى يُبصرنا الضياء ، قال الله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾** [الإسراء:١٢].

السماء في اتساع مستمر

قال الله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

يقول موريس بوكاي (وقد أسلم والحمد لله)، في كتابه القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم الحديث: «إن توسع الكون أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث، ذلك مفهوم قد ثبت اليوم تماماً، ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذي يتم به هذا التوسع .. .. فتأمل !!

تقرير هيئة الأرصاد العالمية

ينحني لآيات القرآن المجيد آيات قرآنية يرونها ويفسرونها تفسيراً

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢].

قالوا: وقسموا الرياح في البحر إلى أربعة أقسام:

أ - قسم يسمى (النسمة) وهي الريح الطيبة، وهي التي يحبها ويفرح بها البحَّارة في كل العالم، وتكون سرعتها من ١ : ٦ عُقَدٍ.

ب - ثم إن كانت الرياح ساكنة؛ قالوا: يحدث ذلك في لحظات تكون محصلة سرعة الرياح صفراً، تركد فيها السفن الشراعية، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣].

ج – فإذا زادت سرعة الرياح عن ٦ عقد، فماذا يكون؟

فقالوا: إنها تضايق البحارة ، لأن ضغط الهواء هنا يكون مرتفعًا ويضغط على الماء ، فإذا عاد الماء كما كان يأتي الموج على السفن من كل مكان !! لذلك تسمى هذه الرياح بالعواصف، فيرون بأعينهم قول الله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢].

د – فماذا إن زادت سرعة الرياح عن ٦٥ عقدة؟

قالوا: إنها سرعة رهيبة للرياح ، لا تحتملها السفن بل إنها تحطم أضخم السفن تحطيما ، ونادرا جدا ما يحدث ذلك ، ولذلك تسمى (قاصفة)..

ألا يخافون قول الله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم﴾ [الإسراء:٦٩].

إنه ليس بعد القاصفة إلا الغرق المحقق..

أنواع السحب الممطرة

(١) السحاب الطبقي. (٢) السحاب الركامي. (٣) السحاب المعصر.

فإذا أتى هواء بارد واصطدم بهواء ساخن فإن منطقة الهواء البارد يتكون فيها سحب ركامية ، ومنطقة الهواء الساخن يتكون فيها سحب طبقية.. ويكون السحاب الذي على شكل برج رأسه لأسفل وقاعدته لأعلى (في شكل عصارة تعصر).

أولا: السحاب الطبقي:

لا ينزل المطر من السحاب الطبقي إلا إذا كان قطعًا فوق بعضها ، وأخذ مساحة كبيرة (أي بسط في السماء).. وهذا الذي نقرؤه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

[الروم:٤٨]

فهذا النوع لا يصاحبه رعد ولا برق..

ثانيا: السحاب الركامي:

ويأخذ هذا السحاب في المرحلة الأولى شكل قزع، ثم يتحرك نحو خط يسمى (خط التجمع) حيث يتجمع السحاب وتتولد طاقة بسبب التكثف، والذي ينشأ عنه التراكم.

أما المرحلة الثانية فيزيد التراكم حتى يصير السحاب كالجبال، وهنا يكون السحاب الركامي قد تكون، وينزل المطر المصحوب بالرعد والبرق، وهذا النوع من السحاب هو الذي يكون مصحوباً بالبرق.

فتأمل معي قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣]

وبعد دراسات ضخمة عرف الإنسان أن البرق لا يتكون إلا في السحاب الذي على شكل جبال، والذي فيه بَرَد..

ثالثا السحاب المعصر:

والسحاب من هذا النوع لا ينزل منه المطر دفعة واحدة بل ينزل متقطعا في دفعات، وكل دفعة تأخذ فترة زمنية، ويكون نزول الماء صبًّا، ويكثر هذا النوع في المناطق الاستوائية، حيث تجد الأشجار كثيفة ومتشابكة، رؤية لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾

[النبأ: ١٤-١٦]

وويل لمن يجحدون نعمة الله..

هل تعلم أن هناك حجارة يتفجر منها أنهار

يوجد أنواع من الصخور بكميات مثل الجبال ، يكون بها شعيرات مملوءة بالمياه ، فإذا حدث تشقق في هذه الصخور، وكان هذا التشقق متباعداً ، فإن كميات ضخمة من المياه تخرج بتدفق مكونة أنهاراً (وفي الباكستان والهند نهر يخرج بهذه الطريقة) .. فتأمل قول الله تعالى عن قسوة قلوب الضالين من بني إسرائيل : **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [البقرة:٧٤] .

الاكتشاف الضخم «اهتزازة براون

اكتشف علماء الزراعة أن حبيبات الأرض الزراعية ، تتركب من صفائح (شرائح) معدنية .. وهذه الصفائح تكون هشّة على بعضها، فإذا سقط المطر انتقلت الشحنات الكهربية التي تحملها قطرات المطر إلى حبيبات الأرض الزراعية فتهتز الصفائح المكوِّنة لهذه الحبيبات ، ويكون هذا الاهتزاز سبباً في توسعة المجال للماء فيتخلل مكونات الحبيبات ، فيكبر حجمها جداً استعداداً لعمليات الإنبات .. .. وهذه الاهتزازة التي تسبق تخلل الماء للحبيبات سميت «اهتزازة براون ..» .

وهنا تكون بهجتنا ، عندما نتدبر قول ربنا سبحانه :

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٥-٧].

سر مادة اليخضور

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩].

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا !!)

فأي شيء هذا الخَضِر ؛ الذي يخرج منه الحب والثمار والأعناب والزيتون ...إلخ؟؟

إنه مادة اليخضور، والتي تقوم وحدها بعملية البناء الضوئي الذي يتكون به الغذاء لتكوين كل ثمرة وكل حبة، وسبحان الله رب العالمين.. ..

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

نعمة الوضوء

مع زيادة البشر، وزيادة كميات النفايات والفضلات ، تزداد الميكروبات والبكتريا المرضية ، والتي تجد من الجلد مسلكًا إلى جسم الإنسان.. .. فكانت رحمة الله سبحانه بأن شرع الوضوء لهذه الأمة العظيمة .

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٦].

نعمة التيمم

وما البديل إن لم نجد الماء ؟

لقد عرف الناس أن الماء يطهّر الجلد من البكتريا المرضية التي تعلق به ، فماذا إن لم نجد الماء؟؟

إنه الغبار ؛ ذلك الصعيد الطيب.. .. فقد اكتُشف أنه يخلل البكتريا ويوقف نموها ، و إلا لتكاثرت البكتريا بدرجة تطمس وجه الأرض تمامًا ، فكان تشريعًا من الله تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦].

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

احذروا لحوم الجلاّلة

القط من أطهر الحيوانات ، ولكنه يحمل مرضاً لا ينتقل إلا من برازه والذي يأتي إليه بعض الحيوانات مثل الخنزير، أو الجلاّلة وهي الأنعام أو الدجاج الذي يتغذى على القاذورات ، فيصاب آكلها بأمراضٍ خطيرة..

وهنا نعرف من حكمة الحديث الشريف: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الجلاّلة وألبانها»(١).

ولا تُأكل حتى تُحبس عن النجاسة أياماً يطيب فيها لحمها ولبنها ..

أمراض خطيرة مثل البلهارسيا وأسباب انتشارها

إن مرض البلهارسيا الذي يصيب كثيرا من الناس في العالم ، له ثلاث حلقات أساسية:

الأولى: أن مريضًا يبول في الماء فينزل مع بوله بعض البلهارسيا.

الثانية: أن يكون الماء راكداً، لأن قواقع البلهارسيا لا تستطيع التواجد إلا في ماء راكد.

الثالثة: أن يأتي إنسان صحيح (غير مريض) ويغتسل في هذا الماء ..

الله أكبر.. إنهم يفسرون حديث النبي ﷺ تفسيراً!

قال رسول الله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد، ثم يغتسل منه»(٢).

أمراض خطيرة لم تعهدها البشرية ؛ كيف تظهر كلما ظهرت الفاحشة بشكل مزعج في مكان ما ، فإن الناس يُفاجأون بمرض جديد يداهمهم ، ويكون خطر وبائه طاعونًا يهدد مَن يذهب ومَن يجيء ، فهل عرفت السر؟؟

هكذا يقف البروفيسور (تي . في . إن . بارسان) بانبهار عجيب وهو يحدث بحديث رسول الله ﷺ: «وما ظهرت الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها، إلا وفشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»(٣).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني، إرواء الغليل ٢٥٠٣ .

(٢) سنن النسائي، صححه الألباني برقم ٢٢١ .

(٣) الصحيحة ١٠٦ .

هدية فيها شفاء

في حديث النبي ﷺ : «عليكم بهذه الحبة السوداء ، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام »[١]. والسام : الموت .

ولقد يسَّر الله تعالى للدكتور أحمد القاضي[٢] إعداد بحث في الحبة السوداء ، حيث اكتشف أنها تزيد كفاءة جهاز المناعة بنسبة ٧٢٪ وجهاز المناعة قد خلقه الله تعالى في الإنسان ليقاوم كافة أنواع الأمراض ، إلا السام ..

وفي الحديث : « فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله تعالى »[٣] .

ولو قال النبي ﷺ فإن فيها الشفاء ، لألغى بها كل دواء .. لكنّ النبي ﷺ قال : « فإن فيها شفاءً من كل داء .. » وهذا ما يحدث في تقوية جهاز المناعة الذي يتصدى لكل داء .

وبالطبع لا يمنع استعمال الحبة السوداء من تناول أي دواء حلال .

وإذا مرضتُ فهو يشفين

أخرج ابن ماجة وغيره من حديث ابن مسعود : « عليكم بالشفاءيْن العسل والقرآن » . صححه الألباني موقوفاً.

قال ابن القيم : فتكون قد جمعت بين الدواء الأرضي والدواء السماويّ .

---

(١) الصحيحة ٨٦٣ .

(٢) د. أحمد القاضي : مدير مستشفى أكير كلينيك بولاية كاليفورنيا ، وهو عالم مصري جليل .

(٣) صحيح الجامع الصغير ٥١٦٤ .

وفي صحيح البخاري أن فاتحة الكتاب «رقية» وقد رقى بها أحد أصحاب النبي ﷺ رجلاً لدغته عقرب فبرئ «كأنما نشط من عقال»(١).

وقال النبي ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: بسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(٢).

قال الصحابي راوي الحديث فقلته فذهب عني ما أجد.

وقال النبي ﷺ: «من عاد مريضًا لم يحضره أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»(٣).

علاج الوجع كما فعل النبي ﷺ:

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن أن النبي ﷺ عوَّذ رجلا به وجع، وكان لمم - أي طرف من جنون - فعوَّذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول سورة البقرة، والآيتين ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...**﴾ ١٦٣، ١٦٤ من سورة البقرة وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، والآية ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ...**﴾ ١٨ من آل عمران والآية ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ...**﴾ ٥٤ من الأعراف، وآخر سورة «المؤمنون» ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...**﴾ (١١٦-١١٨) والآية «﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا**﴾ سورة الجن، وعشر آيات من أول سورة الصافات والثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد والمعوذتين، فقام الرجل كأنما لم يشكُ قط».

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٧١٢٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٣٨٩٣.

(٣) صحيح الجامع الصغير ٥٧٦٦.

شفاء من السحر:

أخرج ابن أبي حاتم عن ليث قال: «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر، تقرأ على إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور: ﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن او سيبطله إن او لا يصلح عمل المفسدين ويحق او الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس:٨١-٨٢]، ﴿فوقع الْحَقُّ وبطل ما كانوا يعملون ﴿١١٨﴾ فغلبوا هُنالك وانقلبوا صاغرين ﴿١١٩﴾ وأُلقي السحرة ساجدين ﴿١٢٠﴾ قالوا آمنا برب العالمين﴾ [الأعراف:١١٨-١٢١]، ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه:٦٩].

لتسهيل الولادة:

أخرج ابن السني عن فاطمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دنا ولادتها، أمر أن يقرأ عندها: آية الكرسي، و﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، تُعوِّذ بالمعوذتين.

خلاصة في المعوذات

أخرج الترمذي والنسائي: «كان رسول الله يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات فأخذ بها وترك ما سواها» فقد اشتملت من جوامع الدعاء التي تعم أكثر المكروهات من الحسد والسحر وشر الشيطان ووسوسته، وغير ذلك، ولهذا كان ﷺ يكتفي بها.

وفي صحيح الكلم الطيب عن النبي ﷺ أنه قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين ثلاث مرات حين تصبح وحين تمسي يكفيك الله من كل شيء»(١).

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٩٠٢.

كيف يهلك الإنسان بصيحة؟

قال الله تعالى: ﴿إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:٢٩].

الآن يعرف الإنسان أن للصوت ترددات مختلفة، فإذا زاد تردد الصوت عن ٢٠ ألف ذبذبة في الثانية فإن الأذن لا تستقبل هذا الصوت. لماذا؟؟

لأنه خطر على الإنسان استقبال تردد فوق ذلك، أي أنه من رحمة الله تعالى ألا تستقبل الأذن الأصوات الرهيبة ذات الترددات العالية جدا، ذلك لأن استقبالها يصيب الجهاز العصبي بشلل، بما يسمى (بالسكتة العصبية).

وهكذا يخبر النبي ﷺ عمن يتهاون في دين الله، فإذا دخل القبر وعذب صرخ صرخة يسمعها كل شيء، إلا الثقلان (الإنس والجن) ولو سمعاه لصعقا.

ولكن إن غضب الله تعالى على قرية قد فسقت عن أمره سبحانه، ثم أراد الله ـ سبحانه أن يهلكهم بصيحة فإنهم يستقبلون تلك الصيحة، ولا يستطيعون الهرب منها، ويكون فيها هلاكهم.. (معاذ الله).

﴿إن كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

ثم يبعثهم الله بقدرته.. ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾.

نداء الفطرة

قال تعالى: ﴿وَإذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

[الأعراف:١٧٢]

في فطرة كل إنسان أن له خالقًا عظيمًا كريمًا ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ .. فإذا كان الإنسان يحتاج إلى الغذاء دل على وجود الغذاء، وإذا كان الإنسان يحتاج إلى الماء دل على وجود الماء، لأن الله الذي خلقنا كريم، له يتركنا هملا، بل هيأ لنا مقومات حياتنا، ومهد لنا الأرض مستقراً ومتاعًا إلى حين؛ ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .. أما الخلود الذي ينشده الإنسان فهو خلود الآخرة، حيث يعطي الله الخلود الدائم بنعيم أبدي لمن شكر نعماءه، وخلود دائم بعذاب أبدي لمن كفر نعماءه، وتخلى عن تكريم الله له، لأن الله كرمه إنسانًا، ثم نكص ولم يرد، فيقال يوم القيامة: «يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»(١).

اللهم اجعلنا من أهل الجنة .. ونعوذ بك يا ربي من النار. آمين.

* * * * *

(١) صحيح الجامع الصغير ١٩٤٦ .



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الرابع

الإسلام والغرب

(الذين افتروا - الذين أنصفوا - الذين أسلموا)

تمهيد

الحمد الله الهادى إلى صراط مستقيم والداعي إلى الدين القويم، يقذف في القلوب النور، ويشرح لدينه الصدور، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.. وبعد..

فإن الدين الإسلامي هو الدين الذي شرعه الله للبشرية جمعاء، وهو دين جميع الأنبياء.. قال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾**

[الشورى: ١٣]

وهو الدين الفطري الذي لا ينافي الآراء القوية، ولا تغم حكمته على العقول السليمة وهو لا يكلف العقل الإيمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به.. قال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج: ٧٨].

وليس في الإسلام من العقائد ما يقف حجر عثرة في سبيل تقدم الإنسان ورقيه وهو الدين الذي يظل البشرية جميعًا تحت مظلة الإخاء البشري لوحدة الأصل الذي منه نشأوا.. قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾** [النساء: ١].

وهو الدين الذي يناسب كل البيئات والعصور، وتشمل تعاليمه ومفاهيمه ومقاصده مختلف جوانب الحياة سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية.

وقد صيغت هذه المفاهيم بصورة كلية، وفي أصول عامة، وأطلق لأهل العصور والبيئات المختلفة حرية الحركة لوضع النماذج التي تتناسب معها، ذلك أنه دين عالمي.

والشريعة الإسلامية ليست أفكاراً فلسفية نظرية، وإنما هي شريعة تطبيقية، الإنسان إزاءها مسئول عن كل صفاته، حيث إن الإسلام يصلح القلوب ويصلح المعيشة.

ويستمد هذا الدين حيويته وانتشاره وقدرته على البقاء من هذه المرونة، وتلك القدرة على العطاء المستمر، ومن هذا التطابق مع الفطرة الإنسانية، ومن كونه بطابعه الإنساني في الإخاء البشري يحرر الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان فيرفع إصر عبودية النفس وعبودية الفكر.

ولذا فهو كما يقول «مسيو هانوتو» ـ المعروف بعدائه للإسلام ـ الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر، وأيضًا يقول لورانس براون ـ ذو حيوية مدهشة وقدرة على التوسع والإخضاع.

ويشير ألكسندر دي فال في كتابه «التطرف الإسلامي في أوربا» إلى الإحصائيات التي تقول: إن هناك (٦٣) شخصًا أوربيًا يعتنقون الإسلام يوميًّا، وأن دولة مثل فرنسا ستصبح إذا استمر الحال على ما هو عليه غضون ٢٠ عامًا جمهورية إسلامية.

هذه الحيوية وهذه القدرة على الإخضاع تجعل أعداء الإسلام يعملون له حسابًا ويخشونه أشد الخشية، ولذلك يحاولون إضعافه والتشكيك فيه، وتشويه صورته حتى يزهدوا قومهم في اعتناقه ويضعفوا من تمسُّك أهله به.

يقول «أشعيا بومان» في مقاله في مجلة «العالم الإسلامي التبشيرية»: «إن شيئًا من الخوف من الإسلام يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف

أسباب منها أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عدديًّا بل يزداد اتباعه باستمرار ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد».

وقد أدى هذا الخوف من حيوية هذا الدين إلى تكثيف الحملات ضده، وضد أتباعه على مر العصور: حملات فلكية، لتشويه صورة كتابه، وصورة نبيه، وصوره أتباعه وتشويه تاريخه، وحملات مسلحة لإخضاع أهله والسيطرة عليهم وإذلالهم ونهب ثرواتهم.

إلا أن قوة الحق في هذا الدين، استطاعت أن تنفذ إلى قلوب ذوي الفِطَرِ السليمة والعقول الناضجة، والفهم المستنير، فلم يتأثروا بحملات الجهال وافتراءاتهم وإنما نظروا إلى الأمر نظرة إمعان وتفحص، وتخلوا عن إرادة البغي، وإهمال العقل، والتقليد الأعمى فهداهم الله إلى الحق وشرح صدوهم للإسلام.

ونحن في بحثنا هذا نتناول نماذج لمفكرين غربيين أسلموا.. وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده:

لماذا يلقى إسلام الفكرين الغربيين بالذات اهتمامًا... ولماذا يلفت انتباهنا؟

١ ـ لأنهم نشأوا وتربوا في بيئة تخالف تقاليد المسلمين وعاداتهم.

٢ ـ وهذه البيئة التي نشأوا وتربوا فيها تحمل تراثًا قديمًا من العداوة للإسلام وأهله.

٣ ـ وهذا التراث من العداوة جعل صورة المسلم مشوهة، وقد روج لهذه الصورة المشوهة وسائل الإعلام والثقافة ومناهج التعليم، فضلاً عن المؤسسات الدينية، ممثلةً في الكنيسة.. إلا أن الإسلام فيه من عناصر القوة والحيوية ما يجعله يفرض نفسه على كل من يدرسه بحياد وموضوعية وكل من لديه رغبة في الوصول إلى الحقيقة التي بها يطمئن قلبه ويرتاح باله.

٤ ـ أن المفكر الذي يسلم عن اقتناع يصبح درعًا قويًّا يدافع عن الدين وسط إخوانه وذويه وهو الخبير بلغتهم والأدرى بالمداخل التي يصل بها إلى قلوبهم والأقدر على تعرية الباطل الذي كان يمارسه معهم قبل هدايته.

٥ ـ وإسلام هؤلاء يكون له أثر في تصحيح فكر المستغربين من بني جلدتنا من باب «وشهد شاهد من أهلها».

أهمية البحث في هذا الموضوع في الآونة الحاضرة:

ويكتسب البحث في هذا الموضوع أهمية في الآونة الحاضرة من الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية حيث يتعرض الإسلام إلى هجمة شرسة يحمل لواءها سياسيون ومفكرون وإعلاميون ورجال دين مسيحيون حيث ينقلون الصورة المشوهة للإسلام إلى المسلمين لتحويلهم عن دينهم أو على الأقل لزعزعة الإيمان في قلوبهم لأن قوة تمسك المسلمين بدينهم خطر على الباطل وأهله في كل مكان في المعمورة. وإبراز تلك النماذج التي اهتدت إلى الإسلام رغم حملات التشويه المستمرة والتي ترجع جذورها إلى نهاية الحروب الصليبية، يبرز جوانب العظمة في الإسلام التي دعت هؤلاء لإعلان إسلامهم، ومن ثم ينجذب إلى الإسلام أنصار جدد ويزداد ثبات أهل الإيمان على دينهم.

ويبرز من خلال تلك الصورة المشوهة والمظلمة التي يرسمها كتاب ومفكروا الغرب للإسلام والمسلمين شعاعٌ من نور يتمثل في آراء المنصفين والمحايدين منهم الذين تحلّوا بالأمانة العلمية والتي كانت عاملاً من العوامل المساعدة في فهم بعض جوانب الإسلام من جانب هؤلاء الذين أعلنوا إسلامهم.

ومن ثم سينقسم بحثنا إلى أربعة مباحث:

* المبحث الأول: الصورة المشوهة للإسلام لدى الغرب.

* المبحث الثاني: آراء المحايدين والمنصفين من مفكري الغرب في الإسلام.

* المبحث الثالث: نماذج لمفكرين غربيين أسلموا.

* المبحث الرابع: الإسلام دين المستقبل.

* الخاتمة: نلخص فيها ما توصلنا إليه من نتائج وما يضيفه هذا البحث في مجال الدراسات الإنسانية عن الإسلام وكيف يحتل المكانة اللائقة به في العالم، وكيف يجذب إليه أنصاراً ومعتنقين جدداً في كل أنحاء المعمورة.

والله اسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المبحث الأول

الصُّورَةُ المُشَوَّهَةُ للإسلام لَدَى الغَرْبِ

لقد تعرّض المسلمون ونبيهم وقرآنهم إلى حملات من التجريح والادعاءات الباطلة، وما لم يتعرض له غيرهم، وحملات العداء والكراهية هذه من قبل الغرب، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، هذا التشويه استمر منذ القرن الثاني عشر حتى اليوم؛ وشارك في ذلك مئات من من المستشرقين وعلماء الإلهيات والفلسفة والتاريخ والأدباء ورجال الدين.

وقد جعل بعض الكتاب الغربيين حملاتهم المعادية للنبي ﷺ وعقيدته على شكل قصائد شعرية أو على شكل مناظرات من نسج الخيال بن رجال الدين الإسلامي والمسيحي(١).

وما نورده في هذا الفصل نقطة من بحر الكراهية الزاخر في الغرب ضد الإسلام، وهو بمثابة «العينة» التي نكتفي بها للتدليل على المقصود.

ولهذه الصورة المشوهة عناصرها ونتائجها العملية في العلاقة بين الغرب المسيحي وبين المسلمين على مستوى الدول وعلى مستوى الأقليات المسلمة في دول الغرب، وهناك أسباب لرسم هذه الصورة المشوهة منها ما يرجع إلى الخبرة التاريخية ومنها ما يرجع إلى ممارسات المسلمين ومنها ما يرجع إلى ما يتمتع به الدين الإسلامي من مقومات ذاتية تثير مخاوف الغرب.

---

(١) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية ـ الكويت، ١٩٨٠، ص ٢١ – ٢٢.

أولا : عناصر الصورة المشوهة :

١ ـ ربط الإسلام بالتطرف والإرهاب :

يقول المستشرق الألماني جبرنوت روتر «إن الغرب يربط الإسلام بالتطرف والعنف فكل المسلمين متطرفون وكلهم لديهم استعداد لتكفير وقتل من يخالفهم في الرأي[١].

يضيف أن فكرة أن الإسلام قائم على الغزو والفتح والعدوان هي فكرة سيطرت على العقل الغربي عمومًا منذ القرون الوسطى حتى اليوم لم يطرأ عليها تغيير[٢].

وقد كان فشل الأوربيين في هزيمة الحضارة الإسلامية الأقوى في الحروب الصليبية، سببا في أن يعمدوا إلى تشويه صورة المسلمين كأسلوب لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم، وقد دفعهم الخوف والقلق من الحضارة الأقوى إلى تعريف الإسلام تعريفًا ضيقًا، فصوروه على أنه دين يملؤه العنف والشهوة. وأقد أثرت هذه النظرة في بعض زعماء الإصلاح الديني والفكري في أوربا حيث قال مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح البروتستنتي : إن الإسلام حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح، ولا يمكن جلبها للمسيحية، لأنها مغلقة أمام المنطق، ولكن يمكن فقط مقاومتها بالسيف[٣].

ويقول جون اسبوسيتو في كتابه «الخطر الإسلامي أسطورة أم حقيقة» الذي أصدرته جامعة اكسفورد بنيويورك «لماذا نقلل من شأن الإسلام؟» ربما كان ذلك بسبب الجهل، لأن ما يكتب بإنصاف وموضوعية عن الإسلام في الغرب محدود... ولأن وسائل الإعلام الغربية ترسم صورة مخيفة ومكروهة عن

---

(١) رجب البنا : الغرب والإسلام، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٦٤.

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٥.

(٣) سامي هاشم : صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥ ـ ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، ص١١.

المسلمين، وبعد أن كانت صورة المسلم هي صورة البدوي، وتعدد الزوجات والحريم، أصبحت صورته الآن الإرهابي المدجج بالسلاح المحارب للغرب(١).

٢ ـ ربط الإسلام بالتخلف:

والغرب ينظر إلى المسلمين على أنهم متخلفون وأن الدين الإسلامي ذاته دين تخلف(٢).

ففي عام ١٩٨٩ صدر كتاب «نهاية التاريخ» لفيلسوف الغرب في فوكوياما الأمريكي يقول فيه إن الإسلام هو السبب في تخلف المسلمين وأنه وراد فشل المسلمين في التفوق علمياً أو صناعيًا أو اقتصادياً وأنه لم يبق للإسلام وللمسلمين إلا استخدام أسلحة الفاشيين وهي العنف، وقد يكون التعبير عنها بتوجيه هذا العنف إلى مظاهر التفوق والتقدم في الغرب(٣).

وفي عام ١٩٩١ صدر كتاب «الإسلام والعصر الحديث» للأب جان كلود بارو بباريس، وفيه يشير إلى المكانة التي أصبح يحتلها الإسلام في الساحة العالمية، وفي فرنسا بصورة خاصة، ثم يتحدث عن كذب «الأسطورة الذهبية» التي تقول إن الإسلام دين تقدمي وأنه دين تسامح، ويسخر من الزعم بأن الإسلام أنجب حضارات كبرى، ويقول إن القرآن كتاب شديد الملل، والإسلام قائم على السلاح وليس على العبادة والتأمل، وهو ضد أي تقدم، وضد حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، ثم يوصي الحكومة الفرنسية بأن تعيد تعليم الملايين الثلاثة من المسلمين الفرنسيين لإزالة الخرافات الإسلامية من أذهانهم(٤).

وقال الباحث الفرنسي جاك أوستروي في كتابه «وجه الاقتصاد الإسلامي» أن عقيدة الجبر عند المسلمين هي التي أضعفت فعاليتهم الاقتصادية وأن تحريم الربا من

---

(١) د. محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥، ص٢٨٨ – ٢٨٩ .

(٢) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٤٥ .

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(٤) المرجع السابق، ص ٢٧٣ .

عوائق التنمية الاقتصادية، وأن عقيدة البعث كعقيدة القدر معوقة لاقتصاد الإسلام[١].

ويحاول المفكرون الغربيون: والمستشرقون إشاعة فرية أن التخلف الحضاري للشعوب الإسلامية سببه تمسكهم بالدين وأنه ليس أمامهم إذا أرادوا أن يتغلبوا على هذا التخلف إلا أن يتخلصوا من تعاليم دينهم أولا، وأن ينحوا الإسلام بعيداً عن شئون حياتهم اليومية، ليكون قضية شخصية يمارس الإنسان طقوسه وشعائره إذا أراد ذلك في بيته أو في المسجد وكفى، ويقارن هؤلاء بين تقدم الغرب وتأخر الشرق ويدعون أن تقدم الغرب كان سببه هو التخلص من الدين عمومًا، والتمسك بمنطق الدين فقط، وليس أمام الشرق إلا أن يسلك مسلك الغرب في ذلك لأنه النموذج الأفضل للتقدم ومواكبة علوم العصر.

وأصبح يتولى عبء الدفاع عن هذه القضية ـ للأسف الشديد بعض المحترفين للكتابة من المسلمين تحت ستار التنوير والمعاصرة واستغلوا الوضع المتردي للمسلمين ليقنعوهم بأن سبب هزائمهم المتكررة هو التمسك بالإسلام، وتناسى هؤلاء أن للعصر أسبابه وللنهضة أسبابها وللهزيمة أسبابها وللتأخر أسبابه وأن إقحام الدين في ذلك تضليل وافتراء، وأن من أهم أسباب التخلف والهزيمة هو ما يسود الشرق من نظم استبدادية[٢].

وأنه عندما وجدت حقيقة الإسلام لدى المسلمين، وصلوا من التقدم ذورته، ومن الحضارة قمتها، تلك الحضارة التي استقت منها أوربا حضارتها، فالدين ليس سبب التخلف وإنما للتخلف أسبابه، ولقيام الحضارات أسبابها، وتلك سنة الله في كونه لا فرق فيها بين أمة مسلمة وأمة كافرة، والدين لا يتعارض مع التقدم، وكل ما هو دين صحيح لابد أن يكون فيه تقدم للبشرية وأمن وأمان لها، حيث يركز على التحضر في السلوك البشرى ليواكب التقدم المادي في الأشياء.

---

(١) د. أحمد محمد جمال: مفتريات على الإسلام، ط٣، دار الشعب، ١٩٧٥، ص١٦٧ .

(٢) د. محمد السيد الجليند : الاستشراق والتبشير، دار نهضة الشروق، جامعة القاهرة ١٩٩٦، ص٦٨ – ٦٩ .

٣ ـ الغزو :

كما كتب « ريتشارد نيكسون » الرئيس الأمريكي الأسبق والمفكر الإستراتيجي في كتابه « الفرصة السانحة » يصور عمق العداء الأمريكي والغربي للمسلمين كتب يقول : « إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين على أنهم غير متحضرين ودمويون وغير منطقيين » وأن سيوف محمد وأتباعه هي السبب في انتشار الدين الإسلامي في آسيا وإفريقيا وحتى أوربا، وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة، حتى بالنسبة للصين الشيوعية في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي. ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليكية متطرفة وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام ضد الغرب وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العداوني للعالم الإسلامي[١].

وتتضح صورة الإسلام المشوهة في الثقافة الغربية للإسلام والمسلمين منذ فجر الإسلام حين نطالع ما كتبه المستشرق الفرنسي اليهودي الأصل « مكسيم رودنسون » [١٩١٥ ـ ٢٠٠٤][٢] حيث بين أن الغرب قد صور العرب والمسلمين باعتبارهم « الوباء الموجع، والشعب الهائج، الذي عرف بالسلب والنهب والتخريب »!!

٤ ـ الوثنية :

وصور الإسلام باعتباره وثنية شرقية، وهرطقة مسيحية، يعبد أهلها الثالوث : محمد .. وترفا جانت .. وأبولو!!

وصور رسول الإسلام ﷺ ساحراً مخادعاً، أباح الاتصالات الجنسية وهو كبير آلهة العرب الذي تصنع ثمينة بأحجام هائلة.

---

(١) نيكسون : الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقي مراد، طبعة دار الهلال ـ القاهرة ١٩٩٢ ص ٢٨ .

(٢) د. محمد عمارة : الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

وهذه الصورة التي شاعت في الثقافة الغربية القديمة وجددتها الإمبرالية الحديثة لشحن جماهير الشعوب الغربية وراء المشروع الأمبريالي الساعي لاحتلال الشرق ونهب ثرواته في العصر الحديث، وتم استخدام كتب الأطفال والأدب الشعبي لإشاعة هذه الصورة.

٥ ـ الاستبداد والحكم الديكتاتوري:

ويدعي كثير من كتاب الغرب أن الإسلام ذاته ضد الحرية والديمقراطية، وضد حقوق الإنسان، وقوانينه لا تقبل التعديل أو التطور، والحكم باسم الشريعة يعني الحكم الديكتاتوري المطلق[١].

ويقول برنارد لويس المعروف كمؤرخ متخصص في شئون الشرق الأوسط: «إن طبيعة الإسلام وتاريخه والعلاقة بين الإسلام والسلطة لا تجعل الإسلام والديمقراطية رفيقين، وإن الإسلام خلال تاريخه لم يعترف أبداً بالمؤسسات النيابية مثلما حدث في اليونان أو في القوانين الرومانية، والدولة الإسلامية دولة ثيوقراطية، ليس بالمعنى الغربي الذي كان يعرف الدولة الثيوقراطية بأنها دولة تحكمها الكنيسة، ولكن في الإسلام الدولة يحكمها الله! ويفهم المسلمون إن الله يحكم بالمعنى الحرفي، ويؤمنون بأن السلطة تأتي من الله وحده وحيث أن الحاكم يستمد سلطته من الله والقانون المقدس وليس من الشعب فإن معارضة سلطة الحاكم هي تحد الله، ومخالفته خطيئة، وحكم الفرد هو القاعدة، ولا تجد مفاهيم التعددية أو النقد أو حق الاختلاف قبولاً من المسلمين..! ولذلك فإن الإسلام ضد حقوق الإنسان![٢].

يقول الأب جيوم رينال: «لا يوجد ما هو أكثر تكبيلا للحرية من الإسلام».

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٩.

ويعلن فيلسوف الغرب الجديد فرنسيس فوكويا ما الأمريكي في كتاب «نهاية التاريخ» الذي ظهر عام ١٩٨٩ أن الإسلام أصبح خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية، وأن هناك تشابه بين الأصولية الإسلامية، والنازية الأوربية[١].

وهكذا يخلطون خلطًا متعمداً بين الإسلام الذي ينص على حرية الإنسان وينبذ العنف ويدعو إلى الحوار ويفشي السلام وينادي بحفظ الدماء والأموال والأعراض وبين الإسلام كما يصوّرونه في جماعاتٍ من العنف والإرهاب أو في حكومات ديكتاتورية تريد تبرير نظم القهر فتدعي أنها تحكم بالإسلام.

وقد استغل الغرب عدوان صدام حسين على الكويت في أغسطس ١٩٩٠ أفضل استخدام كما يقول المستشرق الألماني جيرنوته روتر «ودارت عجلة الإعلام الهمجية في الغرب لتصور هذا العدون على أنه تعبير عن الخطر الإسلامي، ولا تصوره على أنه نوع من الاعتداء السياسي والعسكري يمثل أطماعًا في التوسع وفرض النفوذ.

وتم تصوير صدام على أنه المعبر عن روح الإسلام العدوانية الشريرة التي تعلن غير ما تخفي، وتضمر الشر والعدوان بغير حدود[٢].

وفي محاضرة ألقاها الدكتور برنارد لويس الباحث الأمريكي في جامعة جيفرسون عام ١٩٩٠ تحدث عن المسلمين على أنهم جميعًا أصوليون متشددون وعن الإسلام على أنه خطر قائم.

٦ ـ المرجعية المتحجرة ومعاداة الحداثة:

وينظر في الغرب إلى الإسلام على أنه ظاهرة ثابتة متحجرة عقائديا وثقافيا واجتماعيًا، وأنه دين يعادي الحداثة ورجعي وأنه دين يلغي العقل لأنه أغلق باب الاجتهاد منذ القرن العاشر[٣].

---

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٢. (٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨٨، ٢٨٩.

ويرى هايس ديترفنتز سفير ألماني سابق له خبرة بالإسلام والمسلمين أن الغربيين يرون الإسلام خطراً عليهم حيث يخلطون بين الإسلام السياسي كأيديولوجية والإسلام كدين.

ويشير القائد الأعلى السابق لحلف الأطلنطي جون كلفان إلى الإسلام على أنه الخطر القادم من الجنوب.

يقول في محاضرة ألقاها عام ١٩٩١: «لقد عرف هذا القرن أطول مواجهة بين الغرب والإسلام طالت أكثر من ألف سنة، واشتعلت منذ العصور الصليبية إلي العصر الحديث، وبعد أن انتصر الغرب في الحرب الباردة، يعود الصراع أمام الغرب إلى محوره الرئيس، وهو المواجهة مع الإسلام(١).

٧ ـ الصورة المشوهة للرسول ﷺ:

وفيها اتهم الرسول ﷺ بالذكاء والاحتيال والكذب والتزييف والخداع والإصابة بالصرع.

في عام ١٦٧٤ كتب الأب لويس موريري في القاموس التاريخي الكبير «محمد نبي مزيف عربي الموطن، دفعه الفقر إلى أن يخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة خديجة «كاديج» لدرجة أنه تزوجها وزصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته، وبعد ذلك شارك كل من ما يتراس وهو هرطقي يعقوبي، والأب سرجيوس وهو راهب نسطوري وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع القرآن، وبذلك أصبح ديناً مكوناً من جزء من اليهودية وجزء آخر من أخلام هرطقية، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة(!)(٢).

---

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧ ص ٢٩١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٧٣.

والأغرب من ذلك كلام الأديب الفرنسي بيريبل في القرن الثامن عشر في «القاموس التاريخي والنقدي»: إن الملك جبريل علم محمد وصفة تمنحه قوة فائقة للاستمتاع بالنساء وعندما أكل منها أول مرة هزم أربعين رجلا ومرة أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب.. (!!)(١).

وقبل ذلك كتب أحد المتخصصين في العلوم الإنسانية في فرنسا في عام ١٦٣٢ في كتابه «التاريخ العام للأتراك»: «إن محمداً الغارق في الملذات المنحرفة لم يخجل من أن يقول في قرآنه «إن الله قد حباه بقوة أربعين شخصًا» وبما أن محمداً لم يكن بوسعه أن يقوم بمعجزات الأنبياء فقد استعان بالخداع والخرافة، وكان يحمل الناس ليشاهدوا روح الله تنزل عليه، وكان هناك حمامة مدربة تطير من مكان قرب منكبيه وتلتقط الحب الذي كان يضعه لها في فتحة أذنه موهما العرب أنها كانت تملي عليه كتاب الله وشريعته...»(٢).

ويقول هولباخ في كتاب معروف بعنوان «الأخلاق العالمية»: لقد ظهر محتال في بلاد العرب ارتجل الأكاذيب باسم السماء وساتطاع أن يفرضها على عشريته، وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة، انتشرت بالسلاح في آسيا وإفريقيا وأوربا، إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح وهي تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامي على أنقاضها»(٣).

وفي قاموس الفنون والعلوم تعريف للإسلام يقول: «الإسلام دين أتى به محمد الذي كان شديد الذكاء بحيث تعلم العهد القديم والعهد الجديد وتخيل

---

(١) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٣، وانظر أيضاً: د. محمد ياسين مظهر: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، دار الصحف ١٩٨٨، ص٣٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧١ .

منهما ديانة أقامها نقلا عن ظهر قلب، وقسمها إلى مئة وأربعة عشر فصلا [يقصد سور القرآن الكريم] مليئة بالروايات والأكاذيب(!) والوعد في هذا الكتاب لمن يقرأه ألف مرة حورية في الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح »(١).

ويقول الفيلسوف الفرنسي بونودي كونديلاك أن الرسول ﷺ « كون مشروعه بمحض المصادفة، وبفضل جرأته واحتياله استطاع أن يتمه، لأن الظروف ساعدته على ذلك، وقد كان مصابا بالصرع، وذات يوم فاجأته زوجته في إحدى النوبات وتخيلت أنه في حالة وجد، واستغل محمد سذاجتها، وأكد لها أنه يرى الرؤيا وأن الله يحدثه خلالها عن طريق الملاك جبريل، وقامت زوجته بنقل ذلك لنساء أخريات معلنة أن زوجها نبي، وانتشر الخبر وتراكمت النبوءات واتبعت الجماهير ذلك الرجل الملهم الذي أقنعهم بخصوبة خياله(٢).

وادعى المستشرق اليهودي جولد تسيهر في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » أن محمداً كان كثير الانشغال بالنساء، وأنه وضع القرآن وأنه اكتسب معارفه الإلهية وتشريعاته الدينية من الكهنة والرهبان وأنه استقبل بيت المقدس ارضاءً لليهود(٣).

وقد كانت أباطيل يوحنا الدمشقي وأمثاله من رجال بيزنطة في القرن الثامن مصدراً استقت منه أقطار غرب أوربا معلوماتها الأولية عن الإسلام، فقد عاش في الفترة من ٧٠٠ – ٧٥٤م وادعى في كتابه « حياة محمد » أن النبي اطلع على العهد القديم والعهد الجديد، واتصل بأحد أتباع « أريوس » الذي كان يعتقد بالتوحيد

---

(١) المرجع السابق، نفس الصحفحة.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧١ .

(٣) انظر الرد على هذه المفتريات في كتاب مفتريات على الإسلام لأحمد محمد جمال، طبعة دار الشعب، ط٣، ١٩٧٥، ص ١٢١ – ١٦٣ .

المجرد وأخذ منه دعوته التي أسس الإسلام على أساسها وادعى نزول كتاب عليه وضع فيه فرائض مضحكة على أنها الشريعة. ويوحنا الدمشقي هو القائل بفرية أن النبي عشق زينب بنت جحش وهي تحت زيد بن حارثة عندما رآها في حال أثارت عشقه، وقد فند هذه الفرية كثير من مفكري المسلمين وردوا عليها، وكان يوحنا يجادل بالباطل ويستدل بالإسرائيليات(١).

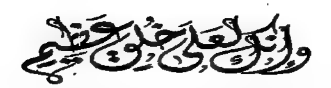
وفي القرن الثاني عشر مع نهاية الحروب الصليبية التي بدأت ١٠٠٢م وانتهت ١٠٩٦ وبعد فشل الأوربيين في هذه الحروب زادت جهودهم لإفساد عقيدة المسلمين، وكتب القس إلجوس قرطبة Elgaus Kordoup ترجمة للنبي ﷺ ذهب فيها إلى أنه كان يخبر أصحابه أنه سيرفع إلى السماء بعد ثلاثة أيام من وفاته فلما مات بقي بدون دفن إلى أن يرفع حتى تعفن جسده وأخذت الكلاب تنهش فيه(٢).

ويبين الكونت هنري دي كاستري في كتابه «الإسلام: خواطر وسوانح» روح العداء السائدة عند الأوربيين والتي لم تقتصر على العصور الوسطى والتي تبرز في الصورة المشوهة التي ينشرونها للنبي ﷺ، فقالوا إن محمداً كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب، وذهبوا إلى أن صوره كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان، وألف بريدو الإنجليزي كتابا سماه «حياة ذي البدع محمد».

وزعم جولد تسيهر أن محمداً ﷺ كان كثير الانشغال بالنساء وشكك كثير من رجال الكنيسة ورجال الاستعمار في صدق الرسول، رغم أن أهل مكة كانوا يسمونه الصادق الأمين، وزعموا أن حالات الوحي التي كانت تعتري الرسول إنما هي حالات مرض وصرع، علماً بأنه لم يلحظ عليه ذلك قبل الأربعين وهو سن

(١) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣.



البعثة ويكذب الطب مزاعمهم حيث يبين أن هناك اختلاف كلي بين أعراض الصرع وأعراض الوحي(١).

وزعموا أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره(٢)، ويرد كارلايل على ذلك بقوله: «لقد كان زاهداً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه، وسائر أموره وأحواله، فكان طعامه عادة الخبز والماء، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم يوقد بداره نار».

واتهم كل من ليوني كايتاني، جولدزيهر، وبندلي جوزي وبرناردلويس الفتح الإسلامي بأنه لم يكن موجهًا نحو المثل الأعلى وحده، بل إن العرب كانوا جياعًا في جزيرتهم فخرجوا يلتمسون الأكل! إثر قحط نزل ببلاده ولم يخرجوا عن عقيدة وإيمان، فكان الحافز على الفتوحات الإسلامية الرغبة في التوسع الاقتصادي أو الحاجة إلى مزيد من الإثراء(٣).

وقالوا إن فقر الرسول دفعه إلى إعلان الثورة على الأغنياء وأن القبائل العربية أسلمت لأسباب اجتماعية واقتصادية وأن الفتوح الإسلامية استعباد وإذلال للأمم الأخرى(٤).

وزعموا أنه ليس نبيا بادعائهم أنه عبقري وبقولهم أنه أحد العظماء العشرة في العالم أو أنه طالب رياسة وزعامة أو مصلح اجتماعي... الخ(٥).

---

(١) أتيين دينيه: محمد رسول الله ترجمة عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٧٩، ص٢٠.

(٢) مسيوها نوتو: الإسلام، ص٦٠.

(٣) انظر الرد على هذه المفتريات في نفس المرجع السابق ص ٥٣ - ٦٦ وانظر: د. محمد ياسين مظهر صديقي الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، دار الصحوة للنشر، ١٩٨٨ ص ٥٨ - ٦٠.

(٤) بندلي جوزي: الحركات الفكرية في الإسلام وانظر رد أحمد محمد جمال في كتاب مفتريات على الإسلام ص ١٦٧ - ١٧٩.

(٥) د. محمد السيد الجليند: الاستشراق والتبشير، دار نهضة الشروق - جامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٩٦، ص٣٤.

٨ ـ تشويه صورة القرآن الكريم :

وكما لم يسلم الإسلام والنبي ﷺ من تشويه صورته لم يسلم القرآن أيضًا من ذلك، وسبب حقدهم على القرآن أنه :

١ ـ اتهم أتباع التوراة والإنجيل بتحريفهما .

٢ ـ ينكر القرآن الأسس الثلاثة التي تقوم عليها المسيحية وهي التثليث والصلب والنداء .

ويدعي أهل الغرب أن القرآن من تأليف محمد ويستدلون بقولهم أن به أخطاء تاريخية متمثلة في قول القرآن لمريم عليها السلام « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء . . . » مع أن بين هارون أخو موسى وبين عيسى عليه السلام ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وقد أبطل واحد منهم وهو المستشرق جورج سيل هذا الادعاء في ترجمته للقرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية قائلاً في الحاشية : « إن ما يعترض به أصحابنا النصارى على ما جاء في هذه الآية ساقط لأن أحدا من المسلمين لم يفسر هارون المذكور بأنه أخو موسى » .

وادعى المستشرق اليهودي جولد تسيهير في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » أن تغيير القرآن بين العهدين المكي والمدني دليل على تأثر محمد في وضعه للقرآن بالظروف الاجتماعية، وأن قصة إبراهيم عليه السلام مفتعلة في القرآن وأن محمداً اقتبس القرآن من الكهنة والرهبان وأن ما ذكر في القرآن من تحريف التوراة والإنجيل وضعه محمد بإيعاز من اليهود والنصارى الذين أسلموا وكان ذلك تملقًا منهم(١) .

وقالوا عن القرآن أنه قليل الرأفة بالنساء .

وادعوا أن القرآن متناقض وذلك لسوء فهمهم لأسلوب القرآن ومعنى آياته وأسباب نزولها .

---

(١) انظر الرد على هذه المفتريات في كتاب مفتريات على الإسلام لأحمد محمد جمال، طبعة دار الشعب، ط٣، ١٩٧٥، ص ١٢١ – ١٦٣ .

وضربوا مثلا لما ادعوه من التناقض بقول القرآن ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

ويقولون أيضًا أن ما هم عليه من العقيدة حق لأن القرآن ضمن لأتباع المسيح عليه السلام العزة والانتصار في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

٩ ـ المرأة عنصر الصورة المشوهة:

وقالوا إن الزوجات المسلمات يعشن كالإماء والبهائم، وأن الطلاق في الإسلام قسوة وظلم للمرأة وجعله في يد الزوج استبداد بالزوجة، وقالوا إن تعدد زوجات الرسول دليل على شهوانيته الطاغية، ونظروا إلى الحجاب على أنه رمز لقهر المرأة ومصدر فجور واستباحة أخلاقية مستترة خلف الحواجز والأسوار(١).

ويقول المستشرق الألماني جيرنوت روتر «تحتل مكانة المرأة في المجتمعات الإسلامية مقامًا متميزًا في برنامج الغرب الخاص بصورة العدو الوهمي، وهذه فكرة نمطية تعود جذورها إلى القرون الوسطى، فقد كتب رئيس كتدرائية مدينة مانتس في ألمانيا ايمبريجو يقول: «إن المسلمين يحتفلون بجميع أشكال الزواج التي تحرمها الشريعة الإلهية، ولأنهم جردوك أيها الطبيعة من حقوقك غصبًا، تسعى المرأة إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله، بل خلافا للتقاليد، يجامع الشقيق شقيقته، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يضاجعها أخوها الشيطان.

(١) انظر الرد على هذه المفتريات: عبد الرحمن العيسوي: لماذا أسلمت... مكتبة وهبة ١٩٨١، ص٦٦ ـ ٦٨، وانظر أيضًا سامي هاشم: صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥، ٢ نوفمبر ٢٠٠٤ ص١١ وانظر أيضًا د. احمد محمد جمال في كتاب مفتريات على الإسلام ص ٧٥ ـ ١١٧.

الأبناء يهتكن عرض أمهم، والبنت تغتصب أباها، وكل ما هو محبب على هذا المنوال كانت الشريعة الجديدة (الإسلام) تحلله(١).

ويبين جيرنوت رونز أنه نظر المثل هذه الكتابات السطحية الوضيعة لا يستطيع المرء أن يتخلص من الإحساس بأن هؤلاء الكتاب قد أرادوا إشباع تخيلاتهم الجنسية الشاذة من ناحية، وسعوا من ناحية أخرى إلى صرف الأنظار عن أوضاع معينة موجودة بالفعل في الغرب المسيحي. ولم يقلل من هذه النظرة ما هو موجود في الغرب من الإباحية الجنسية، وأشار إلى أن هناك فكرة نمطية ثابتة لدى الغرب باضطهاد المرأة في المجتمعات الإسلامية، وهم يريدون من خلال تقديم الزوج المسلم المعتدي على زوجته كقاعدة، أن يجعلوا مثلا من وجود «بيوت النساء» المخصصة للزوجات المعتدى عليهن في الغرب المسيحي نسيا منسيًا(٢).

تطبيقات عملية لمشاعر العداء في أوربا:

وكان لنشر هذه الصورة المشهوة للإسلام أثره في تذكية مشاعر العداء ضد العرب والمسلمين، ويذكر جون اسبوسيتو في كتابه «الخطر الإسلامي أسطورة أم حقيقة» نماذج لمشاعر العداء هذه مثل رفض الحكومة البريطانية تقديم الدعم للمدارس الإسلامية وتقديمه للمدارس الكاثوليكية واليهودية، ومثل ما صدر من قرارات في فرنسا بمنع التلميذات المسلمات من لبس الحجاب(٣).

ويذكر محمد عاكف في كتابه «Introduction to Islam مدخل إلى الإسلام» أن المسلمين المقيمين في دول أوربا يعانون من التعسف، ويعتبرون من الطبقة العاشرة من حيث المعاملة، وليس لهم ما لغيرهم من الحقوق(٤).

---

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧ ص ٢٦٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٣) محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥ ص٢٨٩ .

(٤) Mohamed Akif: Introduction to Islam , Safer International Publishing , Cairo , 2003 , P. P 139 , 140 .

ولا يخفى أن مشاعر العداء هذه كانت وراء تكاتف دول أوربا مع أمريكا في غزو كل من أفغانستان والعراق.

السر وراء حملات التشويه:

١ - إبراز الذات بعد الهزيمة في الحروب الصليبية.

٢ - استمرار الإحساس النفسي بهذه الهزيمة والخوف من تكرارها إذا وصل المسلمون إلى القوة التي تمكنهم من ذلك.

٣ - طبيعة الإسلام وأنه ليس مجرد ممارسات تؤدى داخل دور العبادة مثل المسيحية وإنما هو دين وثقافة وأسلوب حياة وأسلوب تفكير ويؤثر في جميع مجالات الحياة.

٤ - الخوف من تزايد عدد المسلمين بسبب النمو السكاني التي تزداد في البلاد ذات الثقافة الإسلامية وتتراجع في تلك البلدان ذات الثقافة المسيحية.

٥ - المراكز الثقافية والمساجد للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية ويعد ذلك فتحًا جديداً وبرنامجًا للتوسع.

٦ - القلق من وجود جاليات إسلامية كبيرة داخل أوربا.

٧ - القلق من سرعة انتشار الإسلام في أوربا.

٨ - الانزعاج من الجاليات الإسلامية الكبيرة ومن الهجرات الآتية من عالم الإسلام، ومن إمكانية وصول المسلمين إلى السلطة السياسية في الدول الأوربية التي تغطها هذه الجاليات خاصة أوربا الغربية.

٩ - الخوف من الإسلام لقدرته على التوسع والإخضاع ولكون الجهاد فريضة من فرائضه.

ويرجع أصل حملات التشويه من الغرب ضد الإسلام إلى القرن الثامن حيث أباطيل يوحنا الدمشقي وأمثاله من رجال بيزنطية التي انتقلت إلى أقطار غرب أوربا فكونت معلوماتها الأولية عن الإسلام.

ثم ازدادت حملات التشوية بإيعاز من لويس التاسع بعد فشل الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر.

فبعد دخول كثيرمن اليهود والنصارى في الإسلام حمل القس يوحنا الدمشقي حملة شديدة على الإسلام فكان من الذين حملوا راية التضليل والدس على الإسلام.

وقد شهد القرن الثاني عشر مع نهاية الحروب الصليبية التي بدأت ١٠٠٢م وانتهت ١٠٩٦ جهوداً أوربية لإفساد عقيدة المسلمين حيث أوصى لويس التاسع بتكتل هذه الجهود بعد فشل الحروب الصليبية. وكان أول ما صوبوا إليه سهامهم القرآن الكريم فقدم القس بيتر لأربع تراجم قرآنية.

وكان فشل الأوربيين في هزيمة الحضارة الإسلامية الأقوى في الحروب الصليبية سببًا في أن يعمدوا إلى تشويه صورة المسلمين كأسلوب لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم، وقد دفعهم الخوف والقلق من الحضارة الأقوى إلى تعريف الإسلام تعريف ضيقًا، فصوروه على أنه دين يملؤه العنف والشهوة، وقد أثرت هذه النظرة في بعض زعماء الإصلاح الفكري والديني في أوربا حيث قال مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح البروتستي: «إن الإسلام حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح ولا يمكن جلبها للمسيحية لأنها مغلقة أمام المنطق ولكن يمكن فقط مقاومتها بالسيف»(١).

(١) سامي هاشم: صورة الإسلام المفترى عليه في أمريكا، جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥، ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، ص١١.

ويرى كيمون المستشرق الفرنسي أن يخلي وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو وزير خارجية فرنسا الأسبق ـ لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين.

ويقول كيمون في كتابه «باثولوجيا الإسلام»: إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعًا، بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء والإدمان على معاقرة الخمور وارتكاب جميع القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي بعث الجنون في رؤوس المسلمين فيأتون بمظاهر الصرع والزهول العقلي إلى ما لا نهاية ويعتادون على عادات تنقلب إلى طبائع أصله لكراهة لحم الخنزير والخمر والموسيقى.

إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور في اللذات.

ويتابع هذا المستشرق المجنون: أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر[1].

والصورة المغلوطة ضد الإسلام والمسلمين ما زالت المؤسسات السياسية والإعلامية والدينية والاقتصادية تشحن بها الأذهان الغربية باختراع الأغاليط، والأكاذيب والمبالغات في ضوء فلسفات الصراع والصدام والقوة ضد الآخر وبتسليط الأضواء على سلبيات التاريخ ونفاياته. هذه المؤسسات تتخذ الجوانب الصراعية من تاريخ علاقات الغرب بالشرق «فزاعة» تخيف بها شعوبها من الإسلام، ولا تشير من قريب أو من بعيد إلى قرون الغزو الاستعماري للشرق والقهر

(١) عبد الودود يوسف: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة عام ١٩٩٤، ص ٤٢.

الحضاري والسياسي والثقافي والديني، والنهب الاقتصادي من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق . م) وحتى هذه اللحظات[١].

قد دأبت المؤسسة الدينية الكاثوليكية على تأجيج حملات التخوف من الإسلام على أوربا منذ سنوات طوال.

فالمونسنيور «جوزبي برنارديني» يصرح - بحضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني - في سنة ١٩٩٩م فيقول «إن العالم الإسلامي سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى في هذا برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً»[٢].

وفي نفس التاريخ يتحدث الكاردينال «بول بوبار» - مساعد بابا الفاتيكان ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة - إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية - فيقول: «إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوربا والغرب عموماً، وإن المرء لا يحتاج أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية. في مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد عما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما؟ إن التحدي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع أسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة، أمام المجتمع ويتناسون الصيام الذي يفرضه عليهم دينهم وفي الوقت ينبهرون بصيام المسلمين في شهر رمضان[٣].

---

(١) د. محمد عمارة: تركيا المسلمة والنادي المسيحي الأوربي، مجلة الأزهر المحرم ١٤٢٦ هـ ص ٧٣.

(٢) نفس المرجع السابق، نفس الصفحة نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط اللندنية في ١٣/١٠/١٩٩٩.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٧٣ - ٧٤ نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط اللندنية في ١/ ١٠/١٩٩٩.

ونشرت صحيفة العالم الإسلامي في مكة رسالة للكاردينال «جاكوموبيفي» أسقف مدينة «بولونيا» بإيطاليا في ٦/١٠/٢٠٠٠م يدعو فيها إلى استئصال المسلمين من أوربا فيقول: «فإما أن تتحول أوربا إلى المسيحية فوراً وإما ستكون إسلامية مؤكداً».

وقد نشرت مجلة «شئون دولية International Affairs الصادرة في «كمبردج» مجلد ٦٧ عدد يناير ١٩٩١ دراسة عن الإسلام والمسيحية كتبها العالم البريطاني «إدوار مورتيمر Edword Mortimer إن أوربا، التي اعتادت أن تعرف نفسها من خلال تحديد الآخر، كان لا بد من أن تبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوفيتي المعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته، وكان هذا الآخر هو الإسلام(١).

وقد أثار قلق أوربا وجود جاليات إسلامية كبيرة داخل أوربا الغربية.

فيقول ألكسندردي فال وهو خبير في الدراسات الدولية والاستراتيجة في باريس في كتابه Guerres contre L'Europe «التطرف الإسلامي في أوربا»: إن نسبة كبيرة من الأجيال العربية المهاجرة ـ من أصول إسلامية ـ انتهت بأن أصبحت أغلبية في عدد من الأحياء والمدن والضواحي خصوصاً في فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا.. بلغت هذه النسبة في بروكسيل نحو ٥٠٪ بل إن هناك مناطق تسكنها أقلية إسلامية ثم في سنوات قليلة تتحول الأقلية إلى أغلبية.

ويسجل البعض تخوفه من أن الإسلام بهذا المعنى يرسم حدوداً جديدة لأوربا ويستخدم كل إمكاناته للوصول إلى السلطة السياسية. ويبين ألكسندر دي ڤال قائلا: إن الخطير في الأمر أن أمريكا في حربها الضروس ضد أوربا تستخدم هذه

(١) د. محمد عمارة الغارة الجديدة على الإسلام، القاهرة ١٩٩٨ ص ١٥ ـ ٣١.

البؤر بمنظماتها الإسلامية المتطرفة لضرب وحدة أوربا حتى لا تكون القوة المرشحة للوقوف في وجه هيمنتها التي تفرضها على العالم(١).

هذه الأمور زادت من الحساسية الإسلامية في أوربا حيث هناك انزعاج من الجاليات الإسلامية ومن الهجرات الآتية من عالم الإسلام. وظهر هذا الأمر في قضية سلمان رشدي في بريطانيا وفي الخلاف حول الفتيات المسلمات اللاتي يضعن غطاء الرأس في مدارس فرنسا.

هذا بالإضافة لإحساس دول أوربا بخطر القومية العربية الذي يواجهها وهي تسعى للقيام بدور نشيط في الشرق الأوسط وزاد من هذه الحساسية صعود الأحزاب التي تصف نفسها بأنها إسلامية في البلدان القريبة من أوربا.

وهنا بدأ البعث لسلسلة الذكريات الشعبية التاريخية أو شبه التاريخية عن المعارك بين المسلمين والمسيحيين عبر أوربا كلها، وفي هذه الذكريات يظهر المسلمون كغزاة، المغاربة البربر الذين غزوا إسبانيا، والعرب المسلمون الذين أغاروا على فرنسا وإيطاليا، والأتراك على أبواب فيينا، والتتار الذين أخضعوا موسكو.

وغالبًا ما يتم تناسي حقيقة أن الأوربيين غزوا وفتحوا - عمليًا - كل البلاد الإسلامية في وقت أحدث، كما أن مقاومة المسلمين للتسلل الاستعماري التي تمت غالبًا تحت قيادة دينية أو تمت تعبئتها بشعارات دينية تذكر باعتبارها تعصبًا!(٢).

وقد كشفت أجهزة الفكر والثقافة والإعلام الغربية بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ عن الدور الذي تلعبه في إذكاء نيران ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام وحضارته وأمته وعالمه.

---

(١) د. سعيد اللاوندي: «التطرف الإسلامي في أوربا» صناعة أمريكية عرض لكتاب ألكسندر دي فال بنفس العنوان - جريدة الأهرام - ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤ ص ١٠.

(٢) د. محمد عمارة: تركيا المسلمة والنادي المسيحي الأوربي، مجلة الأزهر المحرم ١٤٢٦هـ، ص ٧٦ - ٧٧.

وهو الدور الذي يمثل الامتداد المعاصر لدور التهييج الديني الذي كان يقوم به «بطرس الناسك» (١٠٥٠ ـ ١١١٥) وقساوسة الكنيسة الكاثوليكية إبان الحروب الصليبية القديمة ضد الشرق والإسلام.

وهي في سبيل تحقيق ذلك تنعش ذاكرة الإنسان الأوربي والغربي بما تسميه ذكريات «الخطر الإسلامي» على أوربا فتحيي ذكريات:

ـ الفتوحات الإسلامية الأولى التي حررت الشرق من هيمنة الغرب في القرن السابع الميلادي ـ بعد عشرة قرون من القهر الحضاري ـ الإغريقي والروماني والبيزنطي للشرق.

ـ ذكريات الوجود الإسلامي في الأندلس ـ الذي استمر ثمانية قرون (٧١١ – ١٤٩٢) ـ وهو الوجود الذي كاد يدخل كل جنود أوربا ووسطها في دائرة الإسلام لولا الهزيمة الإسلامية في معركة بلاط الشهداء ١١٤هـ ٧٣٢م.

ـ وذكريات الهزيمة الصليبية أمام الفروسية الإسلامية وفشل الحملات الصليبية في إعادة اختطاف الشرق من الإسلام.

ـ وذكريات المطاردة العثمانية للتحدي الأوربي على أرضه.. وفيها تم فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، ووصول هذه المطاردة إلى أسوار فيينا.

ـ وذكريات السيطرة الإسلامية على البحار الكبرى للكرة الأرضية لأكثر من عشرة قرون كان المسلمون فيها هم «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب.

إلا أنه وسط هذا البحر الزاخر من إثارة العداء ضد الإسلام وتشويه صورته تبدو في وسط الحلكة علامات مضيئة ترفض التشويه وتحق الحق متمثلة في شهادات المنصفين الغربيين، وصدق الله العظيم إذ يقلو «ليسوا سواءً».

المبحث الثاني

شهادات المنصفين من أهل الغرب

ورغم هذه الصورة القاتمة التي ترسم للعالم الإسلامي في ذهن المواطن الأوربي بفعل الميراث التاريخي، والدور الذي تقوم به المؤسسات الفكرية والثقافية الإعلامية في بث ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام وأمته وحضارته كما عرضنا في الفصل السابق إلا أن للإسلام قوة وحيوية بفضل شموله الحياة بأسرها جعل هذه الصورة القاتمة ينبعث منها شعاعان يتمثل أحدهما في عرض الحقيقة نفسها على نفرٍ من ذوي البصيرة والنظرة الموضوعية العلمية، فلم يستطيعوا بما اتضح لهم من أنوار الحق إلا أن يصدعوا بها، وأن ينصفوا الإسلام الإنصاف الذي يستحقه، ويزيحوا الستار الذي أسدله الفكر الأوربي المتعصب على أجمل فترات التاريخ البشري والتي كانت سببًا في نقل مشعل الحضارة إلي أوربا.

أما الشعاع الآخر الذي ينطلق من خلال هذه الصورة القاتمة فيتمثل في أولئك الذين تفتحت عقولهم على المزايا التي يتسم بها الدين الإسلامي فانفعل به وجدانهم فأعلنوا إسلامهم وأصبحوا من المنافحين والمدافعين عن الإسلام ضد هجمات الغرب الشرسة ومن المصححين لما وقع فيه بنو جلدتهم من أخطاء وأكاذيب كاشفين لما ادّعوه على الإسلام من أباطيل.

ولم تستطع هذه الصورة المشوهة التي يحاول المتعصبون الحاقدون رسمها للإسلام أن تطفئ نوره في قلوب من ينظرون إلى الإسلام نظرة تعقل ويعايشون مبادئه، فرغم التهييج ضد الإسلام في المؤسسات الإعلامية والسياسية في الغرب فيما يسمى بالإسلام «فوبيا» خصوصًا بعد ١١ سبتمبر إلا أن الكثيرين منهم

يتحولون إلى الإسلام، فقد اعتنق الإسلام في بريطانيا بعد أحداث ١١ سبتمبر ١٤ ألف بريطاني من الطبقة المثقفة والعليا. ومن كبار ملاك الأرض ومن المشاهير والأثرياء منهم رجال فن ومنهم ابن رئيس وزراء أسبق ومنهم ابن مدير الإذاعة البريطانية «بي بي سي»[١].

ويذكر ألكساندر دي فال في كتابه: "Guerre contre L'europe" التطرف الإسلامي في أوربا «أن هناك ٦٣ شخصًا أوربيًّا يعتنقون الإسلام يوميًّا، ويتوقع البعض أنه في خلال ٢٠ عامًا فإن دولة مثل فرنسا ستصبح جمهورية إسلامية[٢].

وبرغم التشويه المستمر لصورة الإسلام فإن ذلك لم يمنع إسلام العديد من مفكري الغرب على مر العصور. وكما يقول «هانوتو» - وهو وزير خارجية فرنسي سابق ومعروف بعدائه للإسلام - مبينًا قوة هذا الدين وحيويته: «لا يوجد مكان على سطح الأض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر»[٣].

ويقول أشعيا بمان في مقال نشره في مجلة العالم الإسلامي التبشيرية: «إن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام، لهذا الخوف أسباب منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عدديًّا بل إن أتباعه يزدادون باستمرار، ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد[٤]. ويقول لورانس

(١) عبد الوهاب عدس: عيون الشعب، جريدة الجمهورية، ١١ مارس ٢٠٠٤ نقلاً عن صحيفة الصنداي تايمز البريطانية.

(٢) د. سعيد اللاوندي عرض كتاب «التطرف الإسلامي في أوربا صناعة أمريكية لمؤلفه ألكسندر دي فال، الأهرام ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤ ص ١٠.

(٣) عبد الودود يوسف: قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ١٩٩٤. ص ٣٥.

(٤) المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٦.

براون: « ... وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته المدهشة»(١).

نحن في هذا الفصل نبرز الشعاع الأول الذي ظهر وسط قتامة الصورة وهو آراء المنصفين التي اتسمت بالحياد والموضوعية فكانت عاملاً من العوامل التي ساعدت الكثيرين على فهم الإسلام واعتناقه.

١ ـ سير توماس أرنولد (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م): يشيد بسماحة الإسلام وعوامل تفوقه وانتشاره، وهو إنجليزي، قضى عدة سنوات في الهند، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ـ عام ١٩٠٤ ثم اختير عميداً لها، وزار مصر في أوائل عام ١٩٣٠ .

وحاضر عن التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، ومن مؤلفاته «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين (القاهرة ١٩٤٧م) وكتاب (الخلافة) ترجمة جميل معلى (دمشق ١٩٥٠م) كتاب (تراث الإسلام) وترجم بالعربية والفرنسية والأسبانية(٢).

قد برهن في كتابه «الدعوة الإسلامية» على تسامح المسلمين في كل العصور مع مخالفيهم في الدين بالقياس إلى ما فعله هؤلاء المخالفون مع المسلمين، وضرب الأمثلة بالفتح الإسلامي للأندلس ولإفريقيا مبيناً أن التسامح الديني الذي أظهره الفاتحون نحو الديانة المسيحية في الأندلس كان له أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد، وبعد الفتح سمحوا لليهود في هذه البلاد بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وسمحوا لهم بحرية الملكية، وعوضوهم عما ذاقوه من ذل وهوان تحت حكم القوط الغربيين(٣).

(١) المرجع السابق ص ٣٤.

(٢) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية ـ الكويت ص ٨١.

(٣) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرين القاهرة ١٩٤٧ ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

وبيّن سير توماس أرنولد أن هناك عاملين كان لهما الأهمية في استمالة القلوب إلى المسلمين الفاتحين واحترامهم والثقة بهم وإقبال الوثنيين على الدخول في الإسلام، والتخلي عن وثنيتهم مما سهل في تأسيس دولة إسلامية على أنقاض دولة وثنية، هذان العاملان هما نجاح المسلمين الفاتحين نجاحًا دنيويًّا، ثم القدوة الطيبة، فيذكر أن التاجر المسلم إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه الذي هو مظهر من مظاهر النظافة المحببة إلى النفس، هذا إلى الانتظام في أوقات الصلاة والعبادات التي يؤديها بنظام ثابت(١).

وَرَدّ أرنولد كثيراً من مطاعن المستشرقين في الإسلام فرد على جولد تسيهر قوله إن الدين الإسلامي وليد البيئة والظروف المحيطة بها، وإن النبي ﷺ كان يغير خططه وبرامجه تبعًا لتلك الظروف، قائلا إن المثل العليا في بلاد العرب الوثنية وفي المجتمع الإسلامي الذي نشأ بعد ذلك متعارضة تعارضًا تامًّا وقد قضى الإسلام على كثير من العادات البربرية الوحشية وكان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التي كانت سائدة من قبل(٢).

وَرَدّ أيضًا على وليم موير Muir قوله: إن الإسلام لم يقصد به مؤسسة في أول الأمر أن يكون دينًا عالميًّا وأن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد مشيرًا إلى الآيات المكية والمدنية التي تؤيد عالمية الرسالة الإسلامية(٣).

٢ ـ العلاّمة دوزي يشيد بسبق المسلمين في الصناعة والزراعة والتجارة والعلامة دوزي أحد وزراء المعارف السابقين في فرنسا، قال في تاريخه:

«بينما أهل أوربا غارقون في دُجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط، إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية، من علم، وأدب، وفلسفة، وصناعات،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٩.

(٣) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين، القاهرة، ١٩٤٧م ص ٤٨.

... وغير ذلك، حيث كانت مدائن بغداد، والبصرة، وسمرقند، ودمشق، والقيروان، ومصر، وفارس، وغرناطة، وقرطبة، مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونًا عديدة...

وقال في سبقهم في كافة المجالات الإنسانية: وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها بسائر الأوقات ثم لما امتدت سلطتهم من بيرنيه وهي جبال بين فرنسا وأسبانيا إلى جبال همالايا التي بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض، وأما الفلاحة فلا يعلم نظير لهم فيها، وليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة. فسيرتهم في ذلك العامل بها أهل روضة أسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في فلاحتنا الفرنساوية.

وأما الصناعات فإن العرب تعلموا جميعًا لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها وقال في سعة سلطانهم: «قد امتد ملكهم في ظرف مئة سنة من ظهور الإسلام مثلما يمتد عظيم الخلقه فاتحًا ذراعيه لالتقاط شيء فبلغ من أقصى الهند إلى جبال (بيرينيه) الكائنة بين فرنسا وأسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من ١٧٠٠ إلى ١٨٠٠[١] فرسخ ولم تبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية».

٣ـ **الأستاذ سيديو**: أحد أعضاء جميعة العلماء الفرنسية يعترف بأن المسلمين أساتذة الغرب في الحضارة يقول: وبعد ظهور النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة لها مقصد، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج في أسبانيا إلى نهر جاج في الهند ورفعت أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون الوسطى، ثم قال: إنهم

---

(١) هانوتو ص ٧٨ـ ٧٩.

كانوا في القرون الوسطى مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ بكنوزها التي عثروا عليها، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقًا جديدة تذهل العقول في عجائبها(١).

قال سيديو أيضًا: «إن الحركة العلمية عند العرب تتميز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول، والتحقيق الدقيق، في ظواهر السماء، ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت عن طريق الملاحظة الحسية»(٢) ويشهد برجحان عقل العرب قائلاً: «إنه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل صيتهم إلى أوربا النصرانية، هذا حجة على أنهم ـ كما قال غيرنا ونحن نعترف به ـ أساتذتنا ومعلمونا»(٣).

٤ ـ **إسكندر همبولد**: أشاد بتأثير المسلمين الحضاري على غيرهم فقال: «إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات إلى الوادي الكبير بأسبانيا، وبين العلوم وأسباب التحديث، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم، لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً لا يشتبه بغيره، فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني إسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد من الناس، فإنهم خالطوا غيرهم من غير أن يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه، وما أخذت أمة ألمانيا التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم، حيثما حلوا حل معهم. فيبثون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم العربية، وأشعارهم الشهيرة»(٤).

---

(١) هانوتو ص ٧٩.

(٢) أنور الجندي: الإسلام والتكنولوجيا، دار الاعتصام، ١٩٧٧، ص ٧٢.

(٣) سيوهانوتو: الإسلام ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٤) نفس المرجع ص ٨٠.

٥ ـ برناردشو يصف الإسلام بالحيوية والرسول ﷺ بأنه منقذ البشرية :

ويقول الفيلسوف الإنجليزي الساخر في كتابه «الإسلام الصحيح» طبعة سنغافورة، المجلد الأول ١٩٣٦ «إني أُكِنّ كل تقدير لدين محمد لحيويته العجيبة، فهو الدين الوحيد الذي يبدو لي أنه طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة وصالح لكل العصور. لقد درست حياة هذا الرجل العجيب، وفي اعتقادي أنه لو أتيح لرجل مثله أن يتولى منفرداً حكم هذا العالم الحديث لحالفه التوفيق في حل جميع مشاكله بأسلوب يؤدي إلى السلام والسعادة التي يفتقر إليهما العالم كثيراً، وإني أستطيع أن أتنبأ بأن العقيدة التي جاء بها محمد ستلقى قبولاً حسنًا في أوربا في الغد، وقد باتت تجد آذانًا مصغية في أوربا اليوم(١).

٦ ـ أوجين يوج الفرنسي : يصف الإسلام بأنه دين ونهج سياسي حكيم يقول في مؤلفه (يقظة الأسلام والعرب) : «إن الإسلام فضلاً عن أنه دين ونهج سياسي فإنه زبدة مختارة من البساطة والعدل، وهو كذلك، النهج الاشتراكي الذي يمكن للعالم أن يوفق إلى نهج مثله »(٢).

٧ ـ الأديب الفرنسى «فولتير» : يؤكد انتشار الإسلام بالإقناع والأخلاق ويقول : «ليس صحيحًا ما يدعى أن الإسلام استولى بالسيف قهرًا على أكثر من نصف الكرة الأرضية بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس في اعتناقه بعد أن أقنع عقولهم، وإن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية اقتداء بالنبي محمد »(٣).

٨ ـ جوستاف لوبون : يدافع عن تعدد الزوجات وأحكام المواريث في الإسلام، وهو صاحب كتاب « حضارة العرب ». دافع عن تعدد الزوجات في

---

(١) لماذا أسلمنا، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، الدوحة ١٩٦٩، ص ٢٨ .

(٢) حسن الحفناوي : محمد والعقل، دار الشعب ١٩٧٥ ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٢ .

الإسلام قائلاً «إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصًا بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تر الأمم التي انتحلت الإسلام فيه جديداً، ولا تعتقد مع ذلكم وجود ديانة قوية يستطيع أن تحول الطابع فتمنع مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد حق الشرقيين وعروقهم، وفي الغرب حيث الجو والمزاج أقل هيمنة لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة في غير القوانين ولا في الطبائع حيث يندر...

ولا أرى سببا جعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من تعدد الزوجات السري عند الأوربيين، مع أنني أبصر بالعكس ما يجعله أسمى منه، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم»(١).

ويقول دفاعًا عن نظام المواريث في الإسلام:

«ومبادئ الميراث التي نص عليها القرآن الكريم على جانب عظيم من العدل والإنصاف، ويمكن للقارئ أن يدرك ذلك من الآيات التي أنقلها منه، ولم يذكر فيه جميع الأحوال التي عالجها المفسرون فيما بعد، وإن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى أحكامها العامة، ويظهر لي في المقابلة بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات حقوقًا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا»(٢).

٩ - فرتس تشببات يبرز مرونة الإسلام وسماحته ومراعاته للواقع وانتفاء الوساطة فيه «وهو مستشرق ألماني» ولد عام ١٩٢٣ بمدينة كمنتز بألمانيا وهو رائد الاستشراق الألماني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية».

---

(١) جوستاف لوبون حضارة العرب ترجمة المرحوم عادل زعيتر ص ٤٨٣.

(٢) الشيخ محمد أحمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام هدية مجلة الأزهر ص ٣٤.

تولى عمادة معهد العلوم الإسلامية بجامعة برلين الحرة من سنة ١٩٦٩ إلي سنة ١٩٨٨ وتولى الأمانة العامة لجمعية الاستشراق الألمانية، وقضى أكثر من عشر سنوات من عمره في القاهرة وبيروت.

تصدّى لآراء صمويل هنتجتون التي تقول أن الإسلام هو عدو الغرب البديل للشيوعية وأوضح أن الإسلام بطبيعته لا يمكن أن يكون عدوانيًا، وأن مسألة العداوة للغرب يجب أن يفهم داخل السباق التاريخي الذي تعيش فيه شعوب العالم الثالث، إسلامية كانت أو غير إسلامية.

فمن يقترب من الإسلام يلمس بجلاء ما يتسم به من سماحة، وما تتسم به شريعته من مرونة تستوعب كل جديد، واتساع صدره للعديد من التغيرات الخلاقة، والاجتهادات المبدعة، فليس الضعف والتخلف الذي أصاب المسلمين في القرون التي أعقبت ذروة مجدهم ونهضتهم ولازمهم حتى وقتنا الحاضر وليد الإسلام ولا ناشئًا عن شريعته وإنما عن ضعف المسلمين أنفسهم، واغلاقهم باب الاجتهاد الذي هو من سمات دينهم. ويقول إن الإسلام ليس فيه (بابا) وليس فيه (دالاي لاما) ولا مجمع كنسي ولا مجلس مسكوني ـ فالموفقون في ظل الإسلام يتمتعون بحرية واسعة في مجال التفكير والتفسير ما داموا يسعون بإخلاص وصدق ـ للوصول إلى الحقيقة دون إخضاعهم لأي رقابة أو وصاية من سلطة أو جماعة مفروضة من هنا أو من هناك(١).

وفي الفصل الثالث من كتاب الإسلام شريكًا، يقرر «اشتيبات» أن الإسلام بحكم طبيعته لا يتجاهل الواقع، ويقبل دائمًا الدخول مع الغير في حوار، بما نتج عن الشريعة من قواعد تتسم بالمرونة مثل مبدأ الضرورات تبيح المحظورات ومبدأ «التعاليم الشرعية تتغير بتغير الزمن»(٢)، مع التأكيد المستمر بأن الشرع يجب أن يكون في خدمة المصلحة العامة إلى جانب مجموعة كبيرة من مقاصد الشرع،

(١) فرتس تشيبات الإسلام شريكًا ص ٦٦.

(٢) يقصد تغير الفتوى بتغير الزمن.

كحماية الحياة والعقل والملكية والذرية، فالإسلام سمح في كل العصور بالتفكير في مبادئه تفكيراً عقلانيًا لا يتجاهل الواقع.

ويتجلى تعاطفه مع المسلمين وإنصافه لهم في مقال قصير كتبه عام ١٩٨٩ يدعو فيه المسلمين في ألمانيا إلى تكوين تنظيم موحد يجمع شملهم ويقرب الخلافات المذهبية بينهم، حيث أن دينهم دين السلام والإسلام لوجه الله الواحد الذي وجههم لقبلة واحدة. ويلقي الذنب في خيبة أمل المسلمين بعد فشل نظمهم الحديثة في تحقيق تنمية اقتصادية على كاهل الدول الصناعية المتقدمة.

يتحدّث عن عمر بن الخطاب قائلاً إنه جسّد المثل الإسلامي الأعلى في أرض الواقع، وإنه وحد بين العروبة وعالمية الإسلام في كيان واحد، وأنه كان نموذجًا للحفاظ على التراث وتجديده في آن واحد(١).

ويقول إن تطبيق الشرع الإسلامي على أرض الواقع في هذه الدنيا أمر ممكن إذا استطاع المسلمون تحقيق التوازن بين متطلبات الدين والمتطلبات التي تفرضها روح العصر وضروراته وحاجاته المتجددة كل يوم بل كل لحظة(٢) ويدعو المسلمين لوضع نموذج مستقل للتحديث تتحقق فيه الهوية الحضارية الذاتية بغير انغلاق عن الغرب ولاتهالك عليه(٣).

وبين أن أكثر المسلمين يشعرون في عصرنا الحاضر بأنهم مظلومون ومهددون وبين أن هذا الشعور يؤدي إلى ظهور بعض الاتجاهات والتصرفات المتطرفة تجاه الأجانب والسياح بوجه خاص في بعض البلاد العربية، ويبين أن المسئول الأول عن ذلك هو في المقام الأول بعض القوى الغربية التي تهيمن على العالم، وتخون القيم

(١) نفس المرجع ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) نفس المرجع ص ١٦.

(٣) نفس المرجع ص ١٥.

رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا وينشره؟ عجبًا والله!! إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتًا من الطوب » ثم يوضح أن الذي بنى أمة يدين فيها الملايين بهذا الدين لقرون عديدة ولا يزالون لا يمكن أن يكون كاذبًا أبدًا(١).

ويقول أيضًا: « كان عصره وقومه حطبًا يابسًا ميتًا أصابه هذا الشهاب فاشعله واضاء به نارًا مقدسة هادية » ويقول: « الحقيقة الكبرى هي أنه رجل صادق ونبي مرسل ».

ويضيف قائلاً: « وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذبًا متصنعًا متذرعًا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع، وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق ».

وما كلمته إلا صوت حق صادق .... وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، وذلك أمر الله.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(٢).

أحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي، لا يعتمد إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبراً ولا ذليلا، فهو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين، أكاسرة العجم وقياصرة الروم، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة والحياة الآخرة.

وما كان محمد بعاشق قط ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو، فكانت المسائل عنده مسألة حياء وبقاء أما التلاعب بالأقوال، والعبث بالحقائق فماكان من عادته قط.

ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان... كلا وأيم الله، لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس المملوء رحمة وبراً وحنانًا وخيراً ونوراً وحكمة، أفكار غير الطمع الدنيوي وأهداف سامية غير طلب الجاه والسطان.

---

(١) مصطفى محمد الحديدي الطير: نافذة على الإيمان - ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) عبد الرحمن الغيسوي: لماذا أنا مسلم ص ٧٦ - ٧٧.

ويزعم الكذابون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره.

حمق وسخافة وهوس إن رأينا رأيهم.

ويضيف قائلا: «ولم يكن كغيره يرضى بالأوضاع الكاذبة، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة، ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ولما انقادوا لمشيئته، وفي ظني أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي لما استطاع أن يجبرهم على طاعته، كما استطاع هذا النبي في ثوبه المرقع، هكذا تكون العظمة، هكذا تكون البطولة، هكذا تكون العبقرية.

١٣ ـ الكونت هنري دي كاسترو:

وهو فرنسي ألف كتاباً بعنوان «الإسلام» وهو رغم تمسكه بدينة إلا أنه يبين قوة الإسلام في نفوس أتباعه وتمسكهم به واختلافه عن غيره من الأديان حيث يقول «الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يجد فيه مرتدين... ومن العسير بل من المحال أن نتصور دقيقة الحالة النفسية التى يكون عليها المسلم إذا ما حاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية»[١].

ويستدل على صدق الرسول ﷺ بقوله[٢]:

«لسنا نحتاج في إثبات صدقه إلى أكثر مما يأتي»:

١ ـ كان محمدٌ أميًا لا يقرأ ولا يكتب وهو وصف لم يعارض فيه أحد كما لم يسترشد في دينه بمرشد قبله. وكان ينفر من عبادة الأوثان وتعدد الآلهة وكان يحب الله الواحد الأحد بوجدانه فاعتكف وحده في غار حراء يعبد الله.

٢ ـ ومع كونه أميًا جاء ومعه قرآن يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثله، لفظًا ومعنى، ولما تلا «جعفر بن أبي طالب» ما جاء في القرآن عن زكريا ويحيى على النجاشي، فاضت عيناه بالدموع، وفي اليوم التالي طلب منه تلاوة ما جاء

---

(١) عبد الحليم محمود: أوربا والإسلام نقلاً عن كتاب الأبطال لكابرلايل، ص ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) أتيين دينه: محمد ﷺ ص ٣٥٣.

والمثل العليا التي تتشدق بها مثل حق الشعوب في تقرير المصير والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وتطبق معايير مزدوجة تضر بمصالح الشعوب العربية والإسلامية وأقرب دليل على الظلم الواقع على المسلمين والعرب هو مأساة البوسنة ومأساة فلسطين وما نكبتا به من مجازر وتدمير وتخريب وتجويع. وإذا كانت هذه المأساة وأمثالها قد ولدّت ردود الفعل العنيفة عند بعض الحركات الأصولية المتشددة، فلا يجوز أن تدفع الغربيين إلى رسم صورة مشوهة للإسلام كعدو للغرب، بل يجب أن تدفعهم للبحث عن أسباب هذه الحركات المتطرفة وعلاجها وتحثهم على مراجعة موازينهم ومعاييرهم المزدوجة وتقنعهم بتغير مواقفهم المتحيزة ضد المسلمين والعرب تلك المواقف التي ترجع لأسباب قديمة ومعقدة(١).

١٠ ـ الشاعر الفرنسي لامارتين: يمدح الرسول وينفي عنه الخداع ويقول: «إن حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، وأن كل ذلك لدليل على أنه لم يكن يضمر خداعًا أو يعيش على باطل؛ فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع وهادي الإنسان الى العقل ومؤسس دين لا فرية فيه؛ ومنشئ عشرين دولة في الأرض وفاتح دولة روحية في السماء فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك وأي رجل بلغ من مراتب الكمال مثلما بلغ»(٢).

١١ ـ ول دور انت: العالم الأمريكي في مؤلفه «قصة الحضارة» يقول:

إن محمداً ﷺ من أعظم عظماء التاريخ ويقول «وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد

(١) نفس المرجع ص ٨٠ ـ ٨٣.

(٢) لامارتين: أحمد حسن الزيات ص ١٤.

أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألفت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء وقد نجح في هذا الغرض نجاحًا لم يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله..».

«وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق كل ما كان يحلم به واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة وأن تبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»(١).

ويقول وول دور أنت مادحًا الإسلام بصفة عامة: «لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة والنظام وبسط الملك وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والأدب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب والفلسفة(٢).

١٢ ـ توماس كارلايل: وهو من أشهر الكتاب الانجليز ينفي الكذب والخداع عن رسول الله ﷺ ويقول في كتابه «الأبطال»: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب أو أن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة، فإن الرسالة التي أتى بها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير، مدة «اثني عشر قرنًا لنحو مئتي مليون(٣) خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء خدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. ثم يقول: «هل رأيتم قط أن

(١) حسن الحفناوي مرجع سابق ص ١٢١.

(٢) دكتور مأمون ياسين عبد الله أهل الإسلام وأهل الذمة ص ١٠٩.

(٣) هذا الإحصاء منذ نهاية القرن التاسع عشر، وعدد المسلمين الآن يصل تقريبًا إلى ألف مليون نسمة.

فيه عن المسيح ففعل، فعجب الملك لما علم أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه فآمن به.

٣ ـ أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته هذا الكتاب سر من الأسرار لا يدركه إلا من صدق بأنه من عند الله.

٤ ـ ولا ينكر أحد أن ما مظهر محمد كان نبوة فعلاً وما بقي فيه فكر خاص به.

٥ ـ وصفوه بالجنون وهذا باطل، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اختلال في قواه، وليس في الناس من عرفت جميع أحواله مثل محمد، فلقد حصروا شمائله وأحواله، حتى ذكروا عدد الشعر الأبيض في لحيته، ولو كان به جنة لما خفي ذلك على الناس.

٦ـ ما كان محمد يميل إلى الزخارف والاستكبار والبخل، إنه كان يحلب شاته بنفسه ويجلس على التراب، ويرقع ثيابه ونعله بيده، وكان قنوعًا، خرج من الدنيا لم يشبع من خبز الشعير مرة في عمره ولم تكن له حاشية ولا وزير ولا حشم، لم يرغب طول حياته في المال، وكل ما كان يأتيه يتصدق به، وبلغ من السلطان غايته ولم يكن له علامات الملك سوي قضيب.

٧ ـ هدم الوثنية بعزم واحد، ولم يتردد بينها وبين عبادة الواحد الديان .... إلى غير ذلك مما ذكره هذا المنصف الذي ذكر الحقائق بغير تشويه ولا تحريف.

١٤ ـ تولستوي:

تولستوي أديب وكاتب روسيا الأعظم، كان يفكر في تخفيف ويلات الإنسانيةُ في معالجة المرضى،، وفي تسلية البائس، وإطعام الجائع.

ويرد على الحملة الظالمة ضد الإسلام ونبيه.

وحينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ورسوله قال كلمة حق كانت سبب في جرمان البابا له ـ على زعمه ـ من رحمة الله. يقول:

«لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي حكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال».

وقد وجه إليه الشيخ محمد عبده خطابًا يمدحه فيه بقوله:

«لم نحظ بمعرفتك شخصيًا، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في أفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود ليثبت بالعلم ويثمر بالعمل، ولأن تكن ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى ويربى جنسه، وشعرت بالشقاء الديني نزل بالناس، لما انحرفوا عن سنة الفطرة وحينما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم. ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هاديًا للعقول، كنت بعلمك حاثًا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان حالك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء، كان مددًا من عنايته للضعفاء والفقراء، وإن أرفع مجد بَلَغْتَه، وأكبر جزاء نِلْتَه على متاعبك، في النصح والإرشاد، هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم.. كما كنت فارقتهم في عقائدهم.

هذا وإن نفوسنا لمشوقة إلى ما يجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويشوق النفوس إلى التأسي بك في عملك والسلام»(١).

١٥ ـ الدكتور مادريش يدافع عن القرآن الكريم :

الدكتور مادريش مستشرق فرنسي، كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة اثنين وستين سورة من السور الطوال المئين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة سنة ١٩٢٦ .

«أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جل وعلا فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًّا، والحق الواقع أن أكثر الكتاب ارتيابًا وشكًّا قد خضعوا لسلطان تأثيره... وأن سلطانه على الثلاثة ملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب (المبشرين) يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة محققه ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن.

ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جدّ طريف يفض جزالة في اتساق نسق متجانساً مسجعًا لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية، لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع ـ الذي لم يسمع بمثله ـ بلغة أخرى»(٢).

ومن الذين كتبوا عن الإسلام من مفكري وكتاب الغرب وكانت لهم آراء منصفة في الوقت الحاضر ديفيد بالانكس ومايكل فراستوا ودانيال فيتكس وجن أسبوزيتو ولنعطي نبذة عن آراء كل منهم فيما يتعلق بنظرة الغرب للإسلام.

---

(١) د. عبد الحليم محمود: أوربا والإسلام. دار المعارف ـ الطبعة الثانية. ١٩٨٢ ص ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) د. عمر محمد عمر باحاذق: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني. دار المأمون للتراث ١٩٩٤. ص ٣٤٤.

١٦ ـ ديفيد بلانكس ومايكل فراستوا: يقولان أن الأوربيين يشوهون صورة المسلمين لتحسين صورتهم. هما من مؤرخي الغرب صدر لهما كتاب عام ١٩٩٩ عن رؤية الغرب للإسلام في العصور الوسطى يقولان فيه إن جذور رؤية الغرب الراهنة للإسلام والمسلمين تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي الذي شهد بداية الحروب الصليبية والمراحل الأولى لنشأة اليهودية الغربية الحديثة.

ويقول الكاتبان إن الأوربيين في تلك الفترة كانوا محاصرين بحضارة أكثر قوة وتقدمًا وهي حضارة الإسلام وأنهم فشلوا في هزيمة هذه الحضارة خلال الحروب الصليبية، كما رفضوا فهمها، لكنهم شعروا دائمًا بتهديدها الحضارى الدينى لهم ويرى الكاتبان أن الإعلام لعب دوراً شبهاه بـ «نيجاتف» الصورة في تشكل رؤية الأوربي المسيحي المثالية لنفسه، إذ عمد الأوربيون إلى تشويه صورة منافسهم «المسلمين» كأسلوب لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم وبناء ثقتهم في مواجهة عدو أكثر قوة وتحضراً[١].

١٧ ـ دانيال فيتكس: ينقد النظرة الأوربية للإسلام فيرى ـ وهو أستاذ آداب بجامعة ولاية فلوريدا الأمريكية ـ أن نظرة الغرب الحديثة للإسلام ولدت في فترة كانت علاقة أوربا فيها بالإسلام علاقة خوف وقلق، مما دفع الأوربيين إلى تعريف الإسلام تعريفًا ضيقًا كاريكاتوريًا وجعلهم ينظرون إليه على أنه دين يملؤه العنف والشهوة يقوم على «الجهاد العنيف» في الدنيا و«الملذات الحسية الموعودة» في الآخرة. كما نظروا إلى الرسول محمد ﷺ ـ في أحسن تقدير على أنه واحد من اثنين: إما قس كاثوليكي فشل في الترقي في سلم البابوية، فقرر الثورة ضد المسيحية، أو راعي جمال فقير تلقى تعليمه على يد راهب سوري ليشكل ديناً جديداً من قشور العقيدتين المسيحية واليهودية[٢].

---

(١) سامي هاشم صورة الإسلام المفتري عليه في أمريكا: جريدة نهضة مصر، العدد ٢٠٥، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤، ص ١١.

(٢) نفس المرجع ١٢.

كما نظر الأوربيون إلى حياة المسلمين الأخلاقية نظرة مزدوجة، إذ نظروا إلى حجاب المرأة المسلمة كتعبير عن السرية والقهر والفصل بين الرجل والمرأة، وفي الوقت نفسه نظروا إليه على أنه مصدر فجور واستباحة مستترة خلف الحواجز والأسوار(١).

١٨ - جون سبوزيتو:

هو أستاذ دراسات الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جورج تلون الأمريكية، وقد ألف كتابًا بعنوان «التهديد الإسلامي حقيقة أم أسطورة؟» صدر عام ١٩٩٢ .

ويقول في هذا الكتاب: إن الصورة التي كونها الغرب عن الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي صورة مشوهة، هذه الصورة قد انتقلت إلى بعض قادة الإصلاح الفكري والديني في أوربا على رأسهم زعيم حركة الإصلاح البروتستنتي مارتن لوثر الذي نظر إلى الإسلام على أنه «حركة عنيفة تخدم أعداء المسيح، لا يمكن جلبها للمسيحية لأنها مغلقة أمام المنطق ولكن يمكن مقاومتها بالسيف»(٢).

١٩ - سيجريد هونكة: تتحدث عن فضل العرب على الحضارة الغربية وسماحة الإسلام وتحريره للمرآة، وهي مستشرقة ألمانية قدمت الكثير من الدراسات العربية القيمة فالبحث الذي تقدمت به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة برلين كان بعنوان «أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية» ثم ألفت العديد من الكتب أكدت فيها كلها على فضل العرب على الحضارة الغربية خاصة والحضارة الإنسانية عامة وكذلك فعلت في مقالاتها الصحفية وأحاديثها الإذاعية وما أعدّته من تمثيليات للإذاعات العربية والألمانية(٣).

(١) نفس المرجع ص ١٣.

(٢) نفس المرجع نفس الصفحة.

(٣) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق. دار البحوث العلمية الكويت، ١٩٨٠ ص٦٩ - ٧٠.

وقد أكدت في مؤلفاتها على النقاط التالية :ـ

١ ـ سماحة الإسلام وقارنت ـ ضاربة الأمثلة من التاريخ ـ بين سماحة المسلمين حتى مع أعدائهم وأسرى الحرب لديهم وبين التعصب الأعمى للكهنوت النصراني الغربي .

٢ ـ الفهم الغربي الخاطئ للجهاد في الإسلام .

٣ ـ النموذج الإسلامي المتميز لتحرير المرأة وحريتها .

٤ ـ تميز العقل اليوناني بالطبيعة التأملية التجريدية فلم يتخذ من الطبيعة مصدراً للمعرفة ولم يعرف التجريب تميز العقل المسيحي الأدبي في البداية بمعاداة المعرفة واعتبار البحث عنها في غير اللاهوت والإنجيل خطيئة وإلحاد كما رفضت المسيحية الفكر اليوناني وتراثه . بينما قبل العقل الإسلامي المواريث الحضارية وأبدع في العلوم المدنية وأخذ بالمنهج التجريبي فتجاوز بذلك العلم اليوناني ونقل المنهج التجريبي إلى أوربا وتميز بإسلامية العلوم . واتسمت النهضة العربية بالهوية الحضارية الإسلامية، المتميزة دون ما تغريب واغتراب ودونما عزلة انغلاق .

ومن مؤلفاتها « العقيدة والمعرفة » و« الله ليس كذلك » و« قوافل عربية في رحاب القيصر » « الرجل والمرأة » التي أشادت فيه بالإسلام إلا أن أهم مؤلفاتها كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » سنة ١٩٦٠ وترجم الى العربية ١٩٦٤ بعنوان « فضل العرب على أوربا » وهو ثمرة سنين طويلة من الدراسة العميقة والتنقل بين المتاحف ودور الآثار والمكتبات في العالم، والاطلاع على كثير من المصادر، فقرأت ثلاثًا وأربعين مخطوطة لمحمد بن موسى الخوارزمي وحده، وهو واحد من مئات العلماء المسلمين الذين أبرزت جوانب عبقريتهم ونبوغهم، وفضلهم على الإنسانية جمعاء ورصعت هذا الكتاب بالكثير من الرسوم والصور والرسوم للأدوات والأجهزة العلمية التي ابتكرها علماء المسلمين .

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبيرة في ألمانيا وأوربا، وعلقت عليه مئات الصحف والمجلات وهاجم عشرات النقاد المؤلفة والكتاب معًا واتهموها بالتعصب للعرب والتحيز لهم. وانبرى أصدقاء العرب في كل مكان يفندون مزاعم هؤلاء ويردون على افتراءاتهم وأعيد طبع الكتاب وترجم الى عدد من اللغات الأجنبية(١).

وإن كانت قد أشادت بالحضارة العربية وبينت نفعها على الحضارة الأوربية إلا أنها ذكرت في الصفحة الثانية عشرة من هذا الكتاب أن كثيراً من إنجازات هذه الحضارة كان مبعثها الاحتجاج على قواعد الإسلام القديمة وإن كثيراً من صفات العالم الروحي الخاصة كان موجوداً في صفات العرب قبل الإسلام(٢).

٢٠ - إسحاق تيلر: يشيد بأخلاق الإسلام وهو قس شهير ورئيس في كنيسة يقول عن الإسلام «إنه يمتد في إفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من أثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره».

يأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم، وقال فيه أنه يختار «إسلامًا لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر» ثم هو لا يزال منتشراً في الصين وغيرها من أطراف آسيا(٣).

٢١ - أني ماري شيمل تشيد بفضل الإسلام على الحضارة الغربية:

وهي مستشرقة ألمانية من مواليد ١٩٢٢ وحصلت على الدكتوراة من جامعة برلين عام ١٩٤١ وحصلت على دكتوراة أخرى عام ١٩٥١ في علم الأديان وكان مجال اهتمامها الدين الإسلامي والشعر تعلمت العربية في سن الخامسة عشرة على

---

(١) دكتور محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥ ص ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٢) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على العرب، ترجمة كمال دسوقي.

(٣) هانوتو: (الإسلام) ص ٦١.

يد مدرس خاص، وتخصصت في التصوف الإسلامي، ومنحت جائزة السلام المقدمة من رابطة دور النشر الألمانية في فرانكفورت بتاريخ ١٥ / ١٠ / ١٩٩٥ .

وعرفت بتعاطفها الصريح مع الحضارة الإسلامية واهتمامها بالشرق واكتسبت ثقة كبرى في البلاد الإسلامية وكانت أقوالها تحظى لدى علماء الدين أنفسهم بالاحترام والتقدير اعتقد ـ متخصصون وغير متخصصين ـ أنها اعتنقت الإسلام واتهموها بالردة. هذا الاتهام الذي تعده هراء وسخفاً ووجه إليها كثير من النقد لتقديرها قضايا المرأة وحقوق الإنسان في البلاد الإسلامية(١).

وهي تبين فضل الإسلام والعرب على الحضارة الغربية فتقول في الكلمة التي ألقتها بمناسبة تكريمها لحصولها على جائزة السلام. «تابع الغرب بدهشة وذعر إخضاع المسلمين لحوض المتوسط في القرنين الثامن والتاسع، لكنه أخذ في الوقت نفسه عن العرب في الأندلس التي حكمها قرونا طوالا أصول العلوم الطبيعية المعروفة اليوم.

وظلت مؤلفات الرازي وابن سيناء معتمدة في الطب في أوربا حتى مطلع العصر الحديث. وأثمرت كتابات ابن سينا وابن رشد مناقشات في اللاهوت ممهدة الطريق إلى عصر التنوير، وساعدت تراجم طيلطة حيث كان اليهود، والمسيحيون، والمسلمون يتعايشون في سلام، على نقل العلوم العربية إلى بلاد الغرب(٢).

وتتساءل قائلة «أتسطيع حقًّا تشكيل صورة إيجابية عن الحضارة الإسلامية التي ندين لها، وإن كانت غريبة على معظم الأوربيين، بالكثير في حين أنهم يزعمون مرة بعد مرة أنها ما عرفت حركة إصلاحية أو حركة تنوير؟»(٣).

---

(١) هو غوفون غرايفنكلاو: مجلة فكر وفن عدد ٦٣ Internationares عـدد ٦٣، ١٩٩٦ من ٤ ـ ٧ (ألمانية مترجمة بالعربية).

(٢) المرجع السابق ص ١٣ ـ ١٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٤.

وتضيف قائلة: «أنه يكاد يكون مستحيلاً، في عصر الطوفان الإعلامي الغربي الذي تغمرنا فيه نشرات الأخبار المتتالية الموجهة إلينا بطريقة الإعلانات التجارية، التمييز بشكل أكثر دقة والتعرف إلى الألوان الرقيقة المتعددة وإلى الأوجه الإيجابية للإسلام في الحياة اليومية(١).

٢٢ - منتجمري وات:

يشهد بأن القرآن وحي من الله ويشهد بعالمية الإسلام وتفوقه وأنه يشكل دين المستقبل وأن التحريف قد لحق باليهودية والمسيحية.

ومننتجمري وات مؤرخ وباحث إنجليزي ومحاضر في اللغة العربية وآدابها وتخصص في الدراسات الإسلامية الأكاديمية في التاريخ الإسلامي وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة «أدينبرا» من مؤلفاته «عوامل انتشار الإسلام» و«محمد في مكة» (محمد في المدينة) «والإسلام والمسيحية في العالم المعاصر» والإسلام والجماعة الموحدة» و«محمد النبي ورجل الدولة».

وهو يشهد بصدق الوحي الإلهي فيقول:

إن القرآن الكريم ليس بأي حال من الأحوال كلام محمد ولا هو نتاج تفكيره إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد معاصر به، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولاً ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآني عربي مبين، وهناك إشارات في القرآن إلى أنه موجه للجنس البشري قاطبةً، وقد تأكد كذلك عمليًا بانتشار الإسلام في العالم كله، وقَبِلَهُ بشر من كل الأجناس تقريبًا ولأن القرأن من عند الله تحدى أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله وعجزوا لأنه ما كان لبشر أن يتحدى الله(٢).

(١) نفس المرجع ص ١٤.

(٢) مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م ص ٣٤ - ٥٥.

ويقول «لو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم في حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التي ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تماماً كما فعل ورقة بن نوفل (١٢ ق.هـ- ٦١١م). ومن هنا يمكن أن نقول: إن إشارة القرآن الى تحريفٍ لحق اليهودية والمسيحية بصورتهما الموجودة أيامه - قول صحيح»[١].

ويشهد مونتجمري وات هذا العالم النصراني الغربي على ثراء القرآن... وجدته، وأصالته.. وعلى أن جمعه إنما هو جمع إلهي وعلى ثقة في النص القرآني المتداول بين الناس وعلى أن تعدد القراءات لبعض أحرف القرآن لم تؤثر في وحدة معاني النص القرآني وعلى محورية القرآن في الثقافة الإسلامية[٢] وإن لغة القرآن لغة حضارية ثقافية راقية ومتميزة[٣].

وأن القرآن يحظى بقبول واسع لأنه يتناول القضايا الإنسانية، وإن الدين بالنسبة للمسلم يغطي تقريباً كل جوانب الحياة بينما بالنسبة للمسيحي الأوربي العادي لا يغطي إلا جانباً يسيراً منها.

ويرد علي من قال بأن الإسلام مزيج بين اليهودية والنصرانية يقول «لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الآخرين (اليهودية والمسيحية) ويقول عن حق: أنه بالفعل كاد يفوقها أو أنه بالفعل متفوقًا عليها» أو أرقى منهما»[٤].

ويقول: «الإسلام منافس قوي للمسيحية في قيادة عالم اليوم» ويقول «معظم المسيحيين الشرقيين قد تحولوا إلى الإسلام لأنهم وجدوا فيه تعبيراً عن التوحيد أكثر

(١) المرجع السابق ١٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ٦٦ - ١١١.

(٣) المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) المرجع السابق من ص ٦٧ -إلى- ٢٢٦.

ملاءمة لعقليتهم الواعية اكثر مما وجدوا في المسيحية» ويقول: «إن تأثير المسيحية الفعلي في تناقص مستمر رغم محاولات التوسع التي تقوم بها الحركة التبشيرية... إذا رجعنا إلى الإسلام وجدنا زيادة في عدد معتنقيه في نطاق منطقته الجغرافية، بل وظهرت حركات دعوة للإسلام في أوربا(١).

بعض رجالات الدولة الذين قالوا كلمة إنصاف في حق الإسلام:

٢٣ - «رومان هيرتزوج رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية»:

يجيب على الرأي العام الألماني مفاهيمه المغلوطة ضد الإسلام.

يقول «لا شك أن المرء لا يجني على الرأي العام الألماني إذا زعم بأن العديد من الألمان يربطون بين الإسلام وبين مفاهيم مثل «القانون الجنائي غير الإنساني» و«انعدام التسامح الديني» و«اضطهاد المرأة» و«الأصولية العدوانية» أن هذا تبسيط وتضييق ينبغي تصحيحه، دعونا نذكر التنوير الإسلامي الكبير الذي ساد قبل ستمائة أو سبعمائة عام والذي حفظ للغرب المسيحي أجزاء كبيرة من معارف العصور القديمة. علماً بأن هذا التنوير الإسلامي واجه في الغرب فكراً لا شك أنه اعتبره أصولياً ومفتقداً للتسامح إلى حد كبير(٢).

والرئيس الألماني هيرتزوج هو أول رئيس ألماني يدعو إلى حوار مع المسلمين الألمان، ففي ١١ ديسمبر عام ١٩٩٥ دعا ممثلي الإسلام إلى مقره في برلين، وناقش معهم أوضاع المسلمين في ألمانيا، وطرح نظرية هنتجتون عن صراع الحضارات التي يقصد بها صراع الأديان(٣).

---

(١) نفس المرجع من ١٧٩ - إلى - ١٨٨.

(٢) مجلة فكر وفن (الترجمة العربية) عدد ٦٣، Internations ١٩٩٦ ص ٩.

(٣) رجب البنا: الغرب والإسلام، دار المعارف ١٩٩٧، ص ١٥٧ - ١٥٩.

٢٤ ـ الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني وصف الإسلام بالاعتدال والإنصاف والرحمة:

وقف الأمير تشارلز في جامعة أكسفورد عام ١٩٩٣ يدافع عن أهمية العلاقة بين الإسلام والغرب فألقى محاضرة في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية قال فيها: «كثير ما يجادل الناس في الغرب بأن قوانين الشريعة في العالم الإسلامي قاسية ووحية ومجحفة، ويرُوج صحفنا لهذه الأفكار الظالمة.. واعتقادي أن روح الشريعة الإسلامية هي الإنصاف والرحمة»[١].

ويضيف قائلا: وتذكروا أن دولا إسلامية مثل مصر وسوريا منحت المرأة حق التصويت في نفس الفترة التي منحت فيها أوربا المرأة هذا الحق وقبل سويسرا بفترة طويلة، وفيها تتمتع المرأة بالمساواة في الأجور والعمل، والقرآن نص منذ ١٤ قرناً على حق المرأة المسلمة في التملك والإرث وبعض الحماية في حالة الطلاق، وهذا يعني أن الإسلام لا يظلم المرأة»[٢].

ويضيف قائلا: الغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال السياسي ودينهم هو دين الاعتدال» والنبي محمد نفسه كان يمقت التطرف [٣]. علينا أن نتعلم التمييز بوضوح بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين وبين أعمال العنف التي تقوم بها أقلية صغيرة» ويضيف قائلاً: «إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي... أساليب البحث العلمي وعلم الإنسان وآداب السلوك والطب البديل والمستشفيات جاء إلينا من أسبانيا الإسلامية ـ إن الإسلام في العصور الوسطى اتسم بقدر كبير من التسامح، فقد منح اليهود

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٢.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٢.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٨٣.

والمسيحيين حق ممارسة معتقداتهم وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها دول كثيرة في الغرب. . . إن الإسلام جزء من ماضي الغرب وحاضره في جميع مجالات البحث الإنساني، وساهم في إنشاء أوربا المعاصرة، فالإسلام جزء من تراث الغرب وليس شيئًا منفصلاً عنه(١).

(١) المرجع السابق ص ١٨٣ - ١٨٤.

المبحث الثالث

نماذج لمفكرين غربيين أسلموا

رغم المحاولات الدائبة لأهل الكفر من أجل طمس حقائق الإسلام، ورغم الصورة المشوهة التي رسمها الغرب في أذهان الغربيين عن الإسلام من خلال المؤسسات التعليمية والكنسية والإعلامية والكتاب والمفكرين غير المنصفين، تنزل رحمة الله على بعض عباده فيرون من نور الله بصيصًا في ثنايا هذه المحاولات فيبهرهم هذا البصيص، ويتبعوا أصوله ومصادره، فيخرجوا على أقوامهم ويكشفوا أحابيلهم وأضاليلهم ويتبعوا النور الذي أرسل إليهم، والذي يسر لهم دخول هذا النور في قلوبهم هو ما يتصفون به من الحيدة والإنصاف، والنزاهة، والنظرة المتعمقة التي جعلتهم يقارنون بين ما افتراه المفترون وما كتبه المنصفون، ويرجعون إلى دراسة هذا الدين من مصادره الأصلية، ثم اجتمع الفكر عندهم مع التجربة الشخصية مما جعلتهم يتحولون إلى إحساسات ومشاعر ملكت عليهم كيانهم فلم يجدوا مفراً من تحولهم للإسلام.

حدث هذا لرجال ونساء، فلاسفة ومفكرين، رجال دين، ورجال سياسة، وعلماء متخصصين في شتى العلوم، تفتحت قلوبهم لهذا الدين لما أدركوا أنه الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وأنه تتمة للرسالات السابقة، فأسلموا وحسن إسلامهم وصدق إيمانهم بالله فقاموا بتطبيق القليل الذي يعرفونه، وصبروا على أذي قومهم، وأخذوا يدعونهم إلى هذا الدين رأفة بهم وحبًا لهم، لا بغضًا أو حقداً عليهم.

وهذا القليل الذي عرفوه عن الإسلام بهرهم ولمسوا فيه الإنقاذ من الدمار الروحى بسبب غياب الضمير الموصول بالله نتيجة التركيز على التقدم الصناعي وحده، والانخداع بمباهج الحياة، كل واحد من هؤلاء الذين أسلموا جذبه جانب

من جوانب الإسلام لمح فيه جمال هذا الدين وكماله، يرى بعضهم أن كمال هذا الدين في التوحيد، ويرى بعضهم أنه في بساطته وقبول العقول له، ويرى آخرون أنه في الملاءمة بين حقوق الفرد والجماعة، ويقول بعضهم: إنه في تقرير حق المرأة في الملكية وفي فتح فرص الزواج أمام النساء من خلال تعدد الزوجات، ويجمعون على أنه الدين الذي يصل الإنسان بربه دون واسطة أو كهنوت.

ونحن نتعرض في هذا الفصل لبعض النماذج لمن أسلم من مفكري الغرب لنقف على بعض جوانب العظمة في هذا الدين العظيم التي أغرت هؤلاء بالدخول فيه فنزداد بهذا الدين فخراً ونزداد له حبًا ونكون أكثر به تشبثًا.

١ـ البروفيسور عبد الله شيلفر

ولد البروفسور عبد الله شيلفر في نيويورك بأمريكا في منطقة فورست هيلز عام ١٩٣٥م ودرس في جامعة سلفانيا حيث تخصص في الأدب الإنجليزي، ثم درس العلوم السياسية، ثم اتجه في عمله إلى الكتابة والصحافة والشعر وعمل في المجلات الثقافية وسافر إلى المغرب للعمل هناك لمدة عام هو عام ١٩٦٠م وكان مقيماً خلال ذلك العام في مدينة طنجة، وكانت إقامته في المغرب وما شاهده فيها من قيم ومثل، تغاير ما تركه في أمريكا سببًا كبيراً في تقربه إلى الإسلام. وها هو يحكي تجربته مع الإسلام كيف أدى به الأمر إلى إعلان إسلامه فلنراجع معه وعلى لسانه رحلة حياته في الفترة التي قضاها في المغرب إلى أن عاد إلى بلده وأعلن إسلامه لنعرف من خلالها ما هي الدوافع التي جعلته يعتنق الإسلام.

يقول البروفيسور عبد الله شيلفر(١):

«قبل إسلامي كنت أشعر بعدم الرضا عن حياتي، والتي تفتقد القيم الحقيقية إذ كنت أعيش في دوامة مستمرة لا أعرف سببًا لها. كنت أشعر في نفسي بفقدان طعم السعادة، أعني انعدام السعادة الحقيقية كليًا.

(١) مجدي عبد الباقي شريف: الأدلة القاطعة ١٩٩٣م. ص ١٧٣ ـ ١٧٨.

وعندما ذهبت إلى المغرب أقمت في طنجة القديمة حيث يعيش أهلها حسب العادات الإسلامية يومًا بعد يوم وجدت نفسي منبهراً بسلوك المسلمين بتعاملهم ومحبتهم فيما بينهم، وكنت أقارن بين ما أراه من قيم ومثل في المغرب وبين ما عهدناه هناك في أمريكا بلدي، فأجد الفرق شاسعًا جداً. ومن مشاهداتي المتكررة في المغرب رجل عجوز بسيط الحال من قرية أو من مكان بعيد، إذا جاء إلى مقهى مثلاً في المدينة أرى كل الشباب يقدمون له كل المساعدة والاحترام، أما عندنا في المجتمع الأمريكي فالصغير لا يولي الكبير اهتمامًا أو احترامًا، ولا حتى احتمال الجلوس إليه. فبهرتني تلك المشاعر الطيبة من الصغار نحو كبار السن.

وجدت في المغرب المشاركة الوجدانية بين المجتمع والمراعاة لأحاسيس كل فرد هناك... كنت أعيش كل يوم تجربة جديدة من تكافل الناس وتآزرهم مما يزيد عندي اقترابًا من هذا المجتمع المسلم.

وفي مرة كنت جالسًا في أحد المقاهي مع صديق لي مغربي، فمرت مجموعة من الناس يحملون شيئًا خشبيًا ملفوفًا بقماش - أبيض، فنهض الجميع واقفين، فنهضت معهم، وعندما اقتربوا من المقهى تبين أنهم يحملون نعشًا لرجل متوفى.. لقد شاهدت أن كل واحد يتجه نحو النعش... إنه يريد المساعدة في حمله... فقلت لصديقي، لابد أن يكون هذا المتوفى شخصية مهمة، فقال كلا... فأنا لا أعرفه، وهو ليس معروفًا لكثير ممن ترى حولك.. وعندما سألني لماذا تعتقد أنه شخص معروف قلت لأن الجميع هب واقفًا.

فقال صديقي المغربي: إنه من عادة المسلم أن يقف احترامًا للجنازة، فكلنا عبيد الله، ولا فرق بين الغني والفقر، وكلنا في الإسلام سواء، واحترام الجنازة شيء واجب، لأن هذا نهايتنا، والكل صائر إلى الله.

احترام للحي، واحترام للميت، ومشاعر طيبة يعيشها الناس مع أحيائهم ومع أمواتهم وعندما أقارن هذه المشاعر بما يعشيه مجتمعنا في أمريكا، أجد الهوة واسعة.

لقد كنت أتساءل دائمًا لماذا يعيش الناس في المجتمع الإسلامي هكذا ولماذا تسود بينهم مشاعر الود والمحبة والإخاء، فكنت أجد الجواب دائمًا: إن الله أمرنا أن نعمل ذلك، أو إننا نقتدي بسنة رسولنا الكريم ﷺ.

من هنا تبين لي أن كل شيء أحببته في ذلك المجتمع الإسلامي له صلة بالدين.

وهذا ماجعلني أحب الإسلام، وأطلب المزيد من التعرف عليه. والتحدث مع الناس حوله.

لقد أعجبتني العمارة الإسلامية. وخاصة عمارة المساجد فالخطيب فيها لا يحتاج إلى مكبر صوت أثناء الخطبة، ويتردد صوته بأعجوبه في أرجاء المسجد كنت أتوق لسماع الصوت وأنصت إليه بكل حواسي، بالرغم من عدم معرفتي بما يتضمنه من معانٍ رائعة لكنني كنت أشعر أن ذلك الكلام هو رسالة من السماء هدًى للعباد.

إنني أؤكد أن الملايين في أمريكا من غير المسلمين لديهم الإحساس الروحي الذي يجعلهم يتأثرون عند سماع الأذان الذي ينتقل بصورة طبيعية دون مكبر صوت... فينقل إليهم الإحساس الروحي بالرسالات السماوية. هذا النداء الرباني (الأذان) - هذا الأسلوب في الحياة - هذا الترابط الأسري بين المسلمين، كل هذا كان له الأثر الكبير في نفسي مما جعلني أرغب في معرفة المزيد عن الدين الحنيف، وهكذا كانت البداية».

يتحدث البروفيسور عبد الله شليفر عن اللحظة التي صار فيها مسلمًا بعد أن رجع من المغرب وعاد إلى بلاده فيقول:

«بعد أن عدت من المغرب لم أكن نطقت الشهادة ولكن كان قلبي ممتلئًا حبًا للإسلام... لم أكن أعي الحقيقة عن الله سبحانه وتعالي، وأنه سبحانه لا تدركه الحواس والأبصار، ففي الغرب الأطفال يتخيلون عن الله صورة بشرية، معاذ الله، وأقول معاذ الله، وجل الله عن الشبيه، لم أكن أعتقد ذلك وبعد عودتي إلى نيويورك، ركبت الترام وتذكرت ما كنت أشاهد في ا لمغرب عندما كنت أركب الباص؛ المسلم هناك عندما يصعد إلى (الباص) ويكون هناك راكب واحد فإنه يبدأه قائلاً السلام عليكم لأن تحية الإسلام هي السلام، فيرد عليه السلام، وقد يتسامران، أو يتشاركان في العمل، إذا قارنت ذلك بما يجري في الغرب فإنني أجد العكس تمامًا، حيث يجلس كل على أنفراد، ولا يحيّي أحدٌ أحداً، ولا يتحدث إليه.... كل همه هو جمع المادة، ثم يفتقد السعادة بالرغم من كثرة الأموال التي تجري بين أيديهم.

لقد كنت مقتنعًا في نفسي أنه لا يمكن أن تكون حياتنا في الغرب هي الحياة الصحيحة، فالإنسان لا يخلق ليعش هكذا. من هنا أصبحت أقرر أن ما يقوم به المسلمون مما شرعه الله هو الحق، وأن الحياة الإسلامية هي الطريق إلى الحق، وأن المال والقوة والمظاهر الدنيوية التي نعيشها في الغرب بعيدة جداً عن الحق.

كل هذا جعلني أؤمن بأن الإسلام لابد أن يكون دين الحق، وأن الإسلام من عند الله سبحانه وتعالى.

وفي يوم رجعت إلى شقتي في نيويورك وأخذت أطالع ترجمة معاني القرآن، وأقول لك الحق: إنني في البداية لم أستطع استيعاب ما يتضمنه من معاني عظيمة... كنت أشعر بحقيقة وجود الله عز وجل فدعوته سبحانه وتعالى أن يقربني أكثر إلى الإسلام، وأن يشرح صدري لاستيعابه، وفتحت ترجمة معاني القرآن الكريم هذه المرة فوجدت آية كريمة يتأكد معناها في عدة مواضع تحمل نفس المعنى: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فشعرت أني أؤمن بالله عز وجل. وفي تلك اللحظة شعرت بإني أصبحت مسلمًا.

ذهبت إلى المسجد في «مناه» التابع للبعثة الإسلامية في أمريكا والذي كان يشرف عليه الشيخ داود رحمه الله، فدعاني الشيخ داود فقلت له السلام عليكم. فأجاب وعليكم السلام، ثم قال لي هل أنت مسلم؟ قلت له أريد أن أدخل الإسلام.

فرحب بي وأخذني لأتوضأ ثم أدخلني في رحاب المسجد، وطلب مني أن أردد ما يقول، ففهمت أنه سيطلب مني النطق بالشهادتين، فقلت له: إنني لا أعرف عن الإسلام شيئًا، ولم أدرس الإسلام بعد، قال لي: يا سيدي إن أهم شيء في الإسلام أن يسلم قلبك لله أولاً، وأمامك العمر كله لتدرس الإسلام، ونحن لا نعرف متى نموت ولكن المهم أن يسلم قلبك لله عز وجل.

وهكذا أكرمني الله تعالى ورددت معه: أشهد الا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ثم طلب مني أن أصلي ركعتين لله تعالى وقال لي: لا تقلق فسأعلمك ما تقول، كل ما أريده الآن أن تفعل ما أفعل.

لقد قال لي شيئًا لا أنساه في حياتي قال لي: إن الله رقيب على كل ما نفعله لذا عليك أن تكون في صلاتك أجمل ما تكون. وهذه إحدى الروائع التي قربتني إلى الإسلام، جمال في الأخلاق بين المسلمين، جمال في أسلوب حياتهم، جمال في ملابسهم التقليدية، جمال في الهندسة المعمارية الإسلامية، جمال الخطوط العربية، جمال في الأدب الإسلامي.... وقد شدني حديث الرسول الكريم ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال».

وعندما قال لي الشيخ داود: إن الله رقيب عليك فكن في صلاتك أجمل ما تكون، انتظم كل شيء في حياتي، وأحمد الله أن أكرمني وأسعدني بنعمة الإسلام.

بعد أن عشنا مع البروفيسور عبد الله شيلفر وهو يروي لنا قصة إسلامه نستطيع أن نلخص العوامل التي جذبته إلى اعتناق الإسلام فيما يلي:

١ ـ ما يوجد في الإسلام من قيم ومثل تتمثل في:

أ ـ احترام الصغير للكبير، وهذا مأخوذ من قول الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا» ـ ولا تقتصر صفة الاحترام على الأحياء بل تمتد أيضًا لتشمل الأموات.

ب ـ التعاون بين الناس، وهذا نأخذه من قوله تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**.

ج ـ المحبة بين الناس ويدل عليها إفشاء السلام في كل مكان. ويحرض الرسول الكريم ﷺ على ذلك في قوله: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

د ـ المساواة: ويبدو تأثره بهذه القيمة عندما وجد الجمع الغفير يهتم بالجنازة والجالسون يقفون لها وظن أنها جنازة عظيم من العظماء ولكنه أخبر أنها نفس بشرية تقبل على ربها، وكثير من المشيعين قد لا يعرفون صاحبها فكل الناس سواء عند الله.

هـ ـ حرص الإسلام على قيمة الجمال: جمال في الصلاة «خذوا زينتكم عند كل مسجد» ـ جمال في المعمار ـ جمال في الخط العربي جمال في الملابس التقليدية ـ جمال في الأدب الإسلامي قال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال».

٢ ـ الترابط الأسري.

٣ ـ تنزيه الإله عن الشبيه والنظير **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** وإذا قورنت فكرة

المسلمين عن الإله بفكرة الغرب حيث يتخيلون إلهًا مجسداً في صورة بشرية فإننا نجد البون شاسعًا.

٤ ـ وجود القيم والأخلاقيات على أرض الواقع وبروزها في المعاملات بين الناس؛ دعوة إلى الإسلام أقوى من الدعوة باللسان.

٥ ـ النداء للصلاة يؤثر فيمن يسمعه وينقل إليه الإحساس بالرسالات السماوية.

٢ ـ إيتان دينيه (١٨٦١م ـ ١٩٢٩م)

هو واحد من أشهر المستشرقين وكان من أكبر رجال الفن والتصوير الفرنسيين، انحدر من أبوين مسيحيين، وتلقى كالعادة مبادئ المسيحية وعقائدها من تثليث وصلب وفداء وتعميد.

الشك في العقائد المسيحية:

وبعد أن انشقت قدراته بدأ يشعر بالقلق ويشك في بعض المسائل مثل عصمة البابا، والمسيح الذي يقول عنه المسيحيون إنه ابن الله، وأنه هو الله، وهو بشر، ثم صلب ليطهر به البشر من اللعنة، وتساءل: كيف يمكن أن يجتمع كل ذلك في شخص واحد، وراح دينيه يبحث في الإنجيل عن إجابات لما يدور بخلده، فازداد شكًا لأنه وجد أشياء لا تتفق مع العقل في شيء. ولذلك خرج من بحثه بأن الإنجيل أوحى الله به إلى عيسى عليه السلام بلغته ولغة قومه التي هي لغة سامية دون شك، وأنه ضاع واندثر ولم يبق له أثر، أو أنه قد أبيد، وقد عمل المسيحيون تلفيقات أربعًا مشكوكًا في صحتها في نسبتها التاريخية، كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية التي تختلف عن لغة المسيح وقومه[١].

(١) د. محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية بالكويت، عام ١٩٨٠، ص ٧٦.

تلمس عقيدة سهلة:

لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور في نفسه، عندما وقعت في يده نسخة من مجلة إنجليزية، فإذا به يجد فيها جوابًا عن أسئلته إذ قرأ فيها لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين؟ ذلك لأنهم يتلمسون عقيدة سهلة معقولة، عملية في جوهرها، لأننا معاشر الإنجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثًا بالعمل - عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوقون أمام الخالق دون أن يكون بينهما وسيط(١).

أحق هذا، أحق أن الإسلام هو العقيدة الصحيحة؟ أخذ دينيه يسأل نفسه وأخذ يزن الأمور وأخذ يبحث.

دراسة الإسلام من مصادره:

سافر دينيه إلى الجزائر، وتنقل في بلاد المغرب، فخالط المسلمين وعاشرهم، وسمع منهم وناقشهم، وفكر وتأمل، ودرس الإسلام في مصادره فرأي أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فمن الممكن أن يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير، وأعجبته سماحة الإسلام وروعة ما جاء به من التوحيد والأحكام والأخلاق، وهكذا برز له كنور أضاء له الطريق، فتفاعلت به نفسه، قبله عقله فأسلم وتسمى باسم «ناصر الدين»، وحج عام ١٩٢٨ قد أعلن إسلامه رسميًا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧، وطلب أن يدفن في قبره حنيفًا مسلمًا وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بوسعادة) بالجزائر ويقول بأنه لم يسلم لمطمع أو لمغنم (وهو غني موسر) وإنما أسلم إرضاءً ليقينه ولضميره، وتوفي في ديسمبر عام ١٩٢٩ في باريس، ونقل جثمانه في بلدة

(١) محمد رسول الله ﷺ أرتيان دينيه وسليمان ابن إبراهيم دار المعارف ١٩٧٩م من ٣١-٣٧.

(بوسعادة) بالجزائر حسب وصيته[1]. وها هو إليه يحكي ما راقه في الإسلام وما جذبه إلى اعتناقه[2].

عقيدة التوحيد وتنزيه الإله:

يقول إيتان دينيه «الدين الإسلامي» هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريًا أو ما إلى ذلك من الأشكال.

أما في المسيحية فإن لفظ «الله» تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه دلائل الكبر والشيخوخة فمن تجاعيد بالوجه غائرة، إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكر الموت والفناء، ونسمع القوم يصيحون: يحي الله، فلا ترى للغرابة محلاً لقولهم، فإنهم ينظرون رمز الأبدية الدائمة، وقد تمثل أمامهم شيخًا هرمًا، قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه الهلاك ويطلبون له الحياة؟ أما «الله» في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن، فلم يجرؤ أي مصور أن يصوره، لأن «الله» لم يخلق الخلق على مثاله، فهو سبحانه لم تكن له صورة، ولا حدود محصورة، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ثم يقول عن عبادة المسيحيين «إنه ليس في كنيستهم سوى صلاة واحدة قصيرة، يخصون بها الإله - الأب الأزلي الدائم - وأما الابن والأم والصليب وقلب يسوع المقدس، فلها كل الصلوات، وآلاف الصور والتماثيل وكل الاحترام والإجلال وكلها مقدسة عندهم تقديس الوثنيين لأصنامهم التي تمثل معبوداتهم».

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٧٦ - ٧٧.

(٢) مصطفى محمد الحديدي الطير: نافذة على الإيمان ص ٤٧٧ - ٤٨٥.

المساواة في الشريعة الإسلامية:

ويتكلم إيتيان دينيه على المساواة في الإسلام فيقول: «إن الشريعة الإسلامية ساوت بين الناس، ولم تفرق بينهم إلا بعلو الهمة ومكارم الأخلاق، فهذا بلال الحبشي أقامه الرسول مؤذنًا للمسلمين فإذا سمعوه سعوا إلى الصلاة، مع ما عرف عليه العرب من التفاخر بالأنساب والأجداد.

الإسلام حفظ للنفس كرامتها:

يقول دينية: «إن الإنجيل جاء فيه «من لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر، وفي ذلك حط للنفس ونزول بكرامتها، كما أنه تشيع ضمني لأهل السوء أن يظهروا ويسودوا، وذلك المبدأ مأخوذ عن أصل هندي تسكن في طياته الأسباب التي أخضعت الهند الكبيرة إلى انجلترا الصغيرة، وليس عجبًا أن يخرج الإنجليز على أوامر المسيح في عظة الجبل»(*).

الحكم الكامنة في الصلاة:

يقول إتيان دينيه متأثراً بصلاة المسلمين وما تشتمل عليه من طهارة وروحانيات عالية وما تؤدي إليه من صحة البدن:ـ

«إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ونبالة، لم يسبق لها مثيل في صلاة غيرها، كما أنها لا تدعو الوجوه إلى التظاهر والتكلف، ولا العيون إلى الشخوص نحو السماء واستنزال الدموع الكاذبة، مما يفعله المسيحيون أمام صور القدسين تكلفًا، والله أعلم بصدروهم... إن الصلاة في الإسلام تعبير عما في نفوس المؤمنين من تعظيم فوق أنها حركات رياضية تؤدى خمس مرات.

(*) يقصد أن الإنجليز استذلوا الهند بوجود ما يشبه «من لطمك على خدك... إلخ» في ديانتهم الوثنية. وأن هذا النص يحض على عدم المقاومة والسقوط في أيدي الغالب في حين أن الإنجليز وهم مسيحيون لم يجدوا حرجًا في الخروج على مبدأ المصالحة الذي دعا إليه الإنجيل.

يوميًا فتهب الجسم القدرة على الحركة .... وكم من شيخ كبير ورجل سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء مما لا يستطيعه مسيحي في مثل حالته، أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق الصلاة.

تمكن الإسلام من قلوب معتنقيه:

ويعجب دينيه من مدى تمكن الإسلام من قلوب معتنقيه فيقول: «وللإسلام طابع لا يمحى حتى إن الكونت دي كاسترو وهو مسيحي متعصب أيقن بهذه الحقيقة وقال في كتابه الإسلام (ص ٢١١): » إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ليس له مرتدون «واستدرك قائلا» في الحقيقة لا يقام وزن لمن ارتد تحت تأثير العذاب الذي كانت تقوم به محاكم التفتيش الأسبانية في الأندلس، ولا لأولئك الذين تركوه لأغراض مادية دنيئة، كما أنه ليس من فخار المسيحية أن تضم في أعدادها أولئك الذين الذين يباعون من أولاد العبيد واليتامى، الذين ينشأون في مهدهم نشأة مسيحية. أما الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا ـ القرن العشرين ـ من المسيحيين وغيرهم، فهم من الهيئات الاجتماعية الأوربية أو الأمريكية كما إن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه، لأنهم أبعد ما يكونون من الأغراض المادية» انتهى.

العقيدة الإسلامية وحرية الفكر:

يقول دينيه «إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فمن الممكن أن يكون المرء صحيح الإسلام وفي الوقت نفسه حر التفكير[1].

صلاحية الإسلام لكل المدنيات ولكل العقول:

ومما دفع دينيه إلى اعتناق الإسلام صلاحيته لجميع الشعوب والأجناس والعقليات حيث يقول: «وكما أن الإسلام صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات، وأن

(١) دكتور محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص ٧٦ ـ ٧٧.

تعاليم المعتزلة ذات الصلة بتعاليم الصوفية، تجد مكانًا رحبًا، وقبولاً حسنًا ورضًا سهلاً، سواء عند العالم الأوربي، أو عند الزنجي الإفريقي، وهو الذي يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه.

بينما نجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن، حيث مبدأ القوم «الوقت من الذهب»، إذ هو يأخذ بلب ذلك الفليسوف الروحاني.

وكما يتقبله عن رضا - ذلك الشرقي ذو التأملات والخيال، إذ يهواه ذلك الغربى الذي أفناه الفن وتملكه الشعر».

ويقول في آخر كتابه «الحج إلى بيت الله الحرام»:

لو كان الإسلام الحقيقي معروفًا في أوربا لكان من المحتمل أن ينال أكثر من أي دين آخر - من العطف والتأييد من جراء روح التدين التي نجمت عن الحروب الكبرى، فإنه - والحق يقال - يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم، فهو ببساطته المتناهيه، وباشتماله على روح التصوف يهدي علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم. ويرقى بروح ذلك التاجر الإنجليزي رجل الأعمال، الذي يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين.

ويسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر، بل هو سحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم، وبما في الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معًا، وفي وسع حر الفكر - وهو ليس ملحد حتمًا - أن يعتبر الوحي الإسلامي عملا من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها «الإلهام» وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوي على أسرار خفية لا يسبغها العقل.

الإسلام يساير الطبيعة البشرية:

مما أعجب دينيه في الإسلام أنه يساير الطبيعة البشرية ولا يصطدم معها فهو يبيح الزواج بأكثر من واحدة ولا رهبانية فيه بخلاف المسيحية. يبين ذلك في كتابه

(أشعة خاصة بنور الإسلام) فيقول: « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب، وإنما هو يساير قوانينها، ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة، مثل ذلك الفرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة، فهم لا يتزوجون، وإنما يعيشون أغرابًا.

وعلى أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وألا يتمرد عليها، وإنما يُدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقًا في إصلاح ونظام ورضًا ميسور مشكور، حتى لقد سُمي القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير، وخذ مثالاً لذلك إباحة الإسلام تعدد الزوجات ».

مما قاله ناصر الدين دينيه يتضح أن الدافع وراء إسلامه هو :

١ ـ إعجابه بالعقيدة الإسلامية التي تنزه الإله عن التشبيه والتجسيد ومن ثم لا يجرؤ أي مصور أن يصوره لأنه ليس كمثله شيء ولا يحد بحدود معينة، كذلك إعجابه بعقيدة التوحيد في بساطتها، فالله هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

كذلك الإسلام لا يقدس الصور والتماثيل التي يجلها المسيحيون في كنائسهم ويعطونها من التقديس ما يعطيه الوثنيون لأصنامهم.

وهذا ما عابه رسول الله ﷺ عليهم وحذر من أن يقع فيه المسلمون حيث قالت السيدة عائشة رضي الله عنها.

لما مرض النبي ﷺ تذاكر بعض نساء النبي ﷺ كنيسة بأرض الحبشة يقال لها . مارية ـ وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة ـ فذكرتا من حسنها وتصاويرها قالت: [فرفع النبي ﷺ رأسه] فقال: « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة ».

٢ - إعجابه بالعبادات في الإسلام، فالوضوء تطهير للجسد وتطهير من الذنوب، والصلاة بسيطة الحركات وفيها تعظيم للمولى عز وجل وهي موجهة له وحده بينما يوجه المسيحيون أكثر صلاتهم - على حد قوله - إلى الابن والأم والصليب وقلب يسوع المقدس ويؤدون لصلاة واحدة في اليوم للإله الأب الأزلي الدائم، والصلاة في الإسلام يستطيعها الكبير والصغير دونما عناء، ثم هي تقوى البدن بما تحويه من حركات رياضية، وبما يسبق الصلاة من وضوء بما فيه من نظافة وصحة وانتعاش البدن.

٣ - إعجابه بمبدأ المساواة في الإسلام ونبذ المفاخرة بالأحساب والأنساب، وجعل التقوى معياراً للتفاضل بين الناس مما جعل بلالا الذي كان في الأصل عبداً حبشياً يختار مؤذنا لينادي إلى الصلاة وهي أفضل فريضة بعد الشهادتين.

٤ - إعجابه بما في الإسلام من حفاظ على عزة النفس وكرامتها، فإذا كان ما جاء في الإنجيل «من لطمك على خدك الأيمن فحول خدك الأيسر» حط للنفس وتردي بكر منها - كما يرى إتيان دينيه - وهذا يساعد في رأيه أهل السوء أن يظهروا ويسودوا فإن في القرآن من النصوص ما يحفظ للإنسان كرامته مثل قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥ - إعجابه بتمكن الإسلام من قلوب معتنقيه.

٦ - إعجابه بما يتيحه الإسلام من حرية التفكير.

٧ - إعجابه بمرونة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان.

٨ - إعجابه بمراعاة الإسلام للغرائز البشرية وعدم اصطدامه مع الطبيعة البشرية، فهو لا يكبت الغرائز، وإنما ينظمها حيث يشجع على الزواج ويبيح تعدد الزوجات، فلا رهبانية في الإسلام.

٩ ـ اتسام الإسلام بالبساطة والسهولة حيث إن مافرضه على البشر في حدود الطاقة فكما بين القرآن: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ ويبن القرآن هذه الحقيقة أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

١٠ ـ إعجابه بروح التسامح في الإسلام.

١١ ـ إعجابه بالعبقريات العلمية الإسلامية.

حيث يقول في كتابه أشعة خاصة بنور الإسلام «ثم إنهم يفخرون بالعالم باستور الفرنسي» ويجعلونه درة في تاج الحضارات الحديثة، ولكن فاتهم أن «جابراً والرازي» لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه من طرق التقطير ومن الكحول ومن حمض النتريك وحمض الكبرييتيك».

١٢ ـ انتفاء الواسطة بين العبد وربه.

أهم مؤلفاته:

١ ـ أشعة خاصة بنور الإسلام ترجمة صديقه الأستاذ راشد رستم. وقد أشاد في هذا الكتاب بتشجيع الإسلام على حرية التفكير، كما أشاد فيه بالعلماء المسلمين مثل جابر بن حيان والرازي قائلاً إنهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء وأنهما لا يقلان درجة عن لويس باستير الفرنسي الذي يفخرون به ويعتبرونه غرة في تاج الحضارة الحديثة.

٢ ـ كتاب «الشرق كما يراه الغرب» نقله للعربية عمر فاخوري ويبين فيه فضل الشرق على الغرب ومدنيته في علم البحار وعلم الفلك وعلم الطب وعلم الكمياء.

٣ ـ كتاب «محمد رسول الله» وهو يؤرخ فيه لحياة الرسول ﷺ وقد ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد عبد الحليم. وانتقده

المستشرقون بأنه في هذا الكتاب اعتمد على كتب السيرة القديمة مثل سيرة ابن هشام وابن سعد وغيرهم ولم يعول على كتابات المستشرقين في السيرة النبوية. وقد رد عليهم مظهراً ما في كتبهم من التناقض والتخبط؛ دوزي مثلا يرى أن النبي ﷺ كان لا يشبه قومه لأنه كان متديناً بطبعه، و«لامنس» يرى أن ماله من سلطان يكمن في التشابه التام بينه وبين بيئته. و«دوزي» يرى أنه كان يحب العزلة والتنسك و«لامنس» يرى أنه كان يكره العزلة وينفر من التنسك وقد ذكر بعضهم أكثاره من الطعام، وعكس ذلك ذكر بعضهم أنه كان متقشفاً صابراً على الجوع مات من الضعف. وقال بعضهم أن مبادئه إشتراكية وليست دينية، وقال آخرون منهم أن مدار نبوته هو البعث واليوم الآخر.

٣ ـ كتاب «إنك في وادٍ ونحن في وادٍ» وهو رد على القس اليسوعي «لامنس» الذي امتلأت كتبه حقداً على الإسلام.

٤ ـ كتاب «الحج إلى بيت الله الحرام»، ويقول عنه «شكيب أرسلان» في كتابه البعثة النبوية أنه من أروع ما كتب في هذا العصر.

٣ ـ الدكتور عبد الكريم جيرمانوس

هومستشرق مجري معروف وعالم طبقت شهرته آفاق العالم. زار الهند ما بين الحربين، وقد عمل فترة في جامعة تاغور وأخيراً وفد على «الجامعة الملية» بدلهي، وهناك اعتنق الإسلام وهو عالم في اللغات ومرجع في اللغة التركية وآدابها. ومن خلال دراساته الشرقية عرف الإسلام واعتنقه. وقد شغل منصب أستاذ ورئيس قسم الدراسات الشرقية والإسلامية في جامعة بودابست بالمجر وقد كان إسلامه نتيجة لتأثره بعوامل نفسية وعوامل فكرية وها هو يحكي لنا تجربته النفسية في اعتناق الإسلام يقول: «كان ذلك يعاصر يوماً مطيراً وكنت ما أزال في سن المراهقة

عندما كنت أقلب صحائف مجلة مصورة قديمة، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية، بقيت بعض الوقت اقلب الصحائف في غير اكتراث إلى أن وقعت عيني فجأة على صورة لوحة خشبية محفورة استرعت انتباهي، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مستوية تتخللها هنا وهناك قباب مستديرة ترتفع برفق إلى السماء المظلمة التي شق الهلال ظلمتها، وعلى أحد هذه السقوف صورة لرجال يجلسون في صفوف غير منتظمة مرتدين ملابس غريبة الطراز. ملكت الصورة عليّ خيالي، إذ كانت في طابعها تختلف عما تعودنا رؤيته من المناظر في أوربا كان منظراً من الشرق، في مكان ما بالشرق العربي، يمثل رجلاً يقص حكايات خلابة على جمهور من المستمعين يتدثرون بالبرانس. كانت الصورة ناطقة حتى تخليت أنني أستمع إلى صوت الرجل يسلينا بحديثه، وإنني في زمرة المنصتين إليه من العرب على سطح البناء، وأنا الطالب الذي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره الجالس على كرسي وثير في المجر. ثم أحسست بشوق غلاب لا يقاوم إلى معرفة ذلك النور الذي كان يغالب ذلك الظلام في اللوحة.

بدأت أدرس اللغة التركية وسرعان ما لاح لي أن اللغة التركية المكتوبة لا تحتوي إلا على قدر قليل من الكلمات التركية، وأن الشعر التركي يزخر بالكلمات الفارسية وأن النثر يزخر بالأصول العربية فحاولت أن أتمكن من هذه اللغات الثلاث حتى أستطيع خوض هذا العالم الروحي الذي نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشرية.

وفي أجازة صيف كان من حظي أن أسافر إلى البوسنة وهي أقرب بلد شرقي إلى بلادنا. وما كدت أنزل أحد الفنادق حيث سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين في واقع حياتهم، وكانت لغتهم التركمية ما تزال غامضة لي، إذ بدأت معرفتها من خلال الكتابة العربية المعقدة في كتب النحو.

كـان الوقت ليـلاً، فنزلت إلى الشـوارع وكـانت خافـتـة الإضاءة، وسـرعـان مـا وصلت إلى مـقـهى مـتـواضع يجلس فيـه اثنان من أهل البـلاد على كـرسيين قـليلي الارتفاع» يرتديـان السراويل التقليـدية الواسعـة، يمسك بها في الوسط حزام عريض مدجج بالخناجر، فكان منظرهـمـا بما عليهـمـا من لباس غريب، عليه مـسحة من الغلظة والشـراسة فـدخلت المقـهي «قـهـواخـان» Kahwakhane بـقلب مـــرتجـف وجلست منزويا في ركن ناء عنهما في هلع ووجل.

نظر إليّ الرجـلان نظرة عجيـبة مستطلعة، وعندئذ قفزت إلى مخيلتي جميع قصص سفك الدماء التي قرأتها عن تعصب المسلمين، في الكتب المتحيزة غير المنصفة، كانا يتهامسان فيما بينهـما وكان موضوع همسهما ولا شك هو حضورى غير المتوقع. وفي أوهام الأطفال أدركني الهلع، إنهمـا لا شك سيوجهـان طعنات خنجريهما إلى صدر هذا الكافر الوافد عليهمـا، وتمنيت لو أنني استطعت الخروج والخلاص من هذا المأزق الرهيب، غير أن قواي خانتني فلم أستطع الحراك.

وبعد ثوان قليلة أحضر لي الخادم كـأسًا من القهوة يفوح أريجهـا وأشار إلى الرجلين الرهيبين، فـدنوت إليهـمـا بوجه خـائف، فـألقيـا علي السـلام في رفق مع ابتسامة مودة رقيقة، وفي تردد، اصطنعت على شـفتي المرتجفتين ابتسامة باردة، فقام هذان العدوان كما كنت أتخيلهـمـا، وحضرا إلى منضدتي، وساورني شعور عجيب! ترى هل يريدان طردي وإخراجي؟ ولكنهـما ألقيا إلي السلام للمرة الثانية وجلسا إلى جواري. لمحت أن وراء هذا المظهر الخارجي الرهيب أرواحًا طيبة كريمة، فجمعت أطراف شجاعتي وخاطبتهما بلغة تركية ركيكة، ومع ذلك فقد كان حديثي مثل العصا السحرية، فإذا بي أرى في محياهما عواطف الصداقة والمودة، وإذا بهـمـا يفيضان عليّ مشاعر العطف، فيـمـا كنت أحسبهـمـا سينهالان عليّ بأسنان الخناجر.

وكان هذا أول لقاء لي مع المسلمين.

ثم مرت بي سنوات وسنوات في حياة حافلة بالأسفار والدراسات، وكنت مع مرور الزمن تتفتح عيوني على آفاق عجيبة وجديدة. لقد زرت كل بلاد آسيا الصغرى وسوريا، وتعلمت اللغات التركية والفارسية والعربية، وشغلت منصب أستاذ كرسي الدراسات الإسلامية في جامعة بودابست، وقرأت الأبحاث الجافة الدفينة التي ألفت خلال قرون طويلة في آلاف الصفحات من كتب العلماء، قرأت كل ذلك بعين فاحصة ومع ذلك ورغم كل ذلك فقد ظلت روحي ظمأى.

لقد وجدت في الكتب المختلفة شعاعًا هاديًا إلى بعض مراحل العلم، ولكنني كنت مع ذلك تواقًا إلى النعيم المقيم في ظل الحياة الدينية، كان عقلي متخومًا، أما روحي فقد بقيت ظمأى، وكان عليّ أن أتجرد من كثير مما جمعت من المعلومات لأعود فأومن بها من خلال تجاربي الشخصية، خالصة من الشوائب يصهرها في نار الشوق إلى معرفة الحق، كما يعالج الحديد الخام المنصهر بالتبريد المفاجيء فيصبح صلبًا مرنًا.

وفي ذات ليلة رأيت كأن محمداً رسول الله (ﷺ) بلحيته الطويلة المخضبة بالحناء وملابسه البسيطة الأنيقة يفوح منها أريج طيب، تلمع عيناه ببريق قوي مؤثر، وخاطبني في صوت عطوف «لماذا الحيرة، إن الطريق المستقيم أمامك، مأمون ممهد مثل سطح الأرض، سر عليه بخطى ثابتة وبقوة الإيمان».

قلت باللغة العربية في هذا الحلم العجيب: «يا رسول الله إن هذا الأمر سهل عليك، وأنت الغالب، وقهرت كل الأعداء، أما أنا فما زالت أمامي طريق شاقة، ومن يدري متى أجد طمأنينتي؟ فنظر إليّ في صرامة وحزم، وظل لحظة يفكر، ثم عاد يقول في لغة عربية واضحة ترن كل كلمة منها رنين الأجراس الفضية، وكأني بلسانه الشريف الذي استوعب تعاليم ربه، يضغط على صدري حتى جعلت

صدري يتهشم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٦-٩].

قلت في حشرجة وقد أجهدني الألم: «إني لا استطيع النوم، وليس في قدرتي أن أجلو هذا الغموض التي تخفيها الأستار الكثيفة، أرشدني يا محمد، أرشدني يا رسول الله».

وانطلق من حلقي صريخ متقطع، كأنما كنت أختنق من ثقل هذا الكابوس، وكنت أخشى غضب رسول الله ﷺ، ثم شعرت كأنما أهوي من عال إلى أعماق الأعماق، وفجأة استيقظت من هذه الرؤية، اتصبب عرقًا، يكاد الدم يتجمد في عروقي، وما مني عضو إلا يتأذى ألمًا، ثم أحاط بي صمت مثل سكون القبر، وشعرت بالأسى والوحدة.

وفي يوم الجمعة التالية، وقع الحدث العظيم في المسجد الجامع الكبير في دلهي، رجل غريب، شاحب الوجه، وخط الشيب شعره، يشق طريقه مع رجال بارحهم الشباب، بين الجموع المؤمنة التي يزخر بها المسجد كنت أرتدي الثياب الهندية وعلى رأسي قلنسوة رامبور، وعلى صدري الأوسمة التركية التي أهداها إليّ السلاطين السابقون، نظر إلي المسلمون في دهشة وذهول؛ أخذ جمعنا الصغير طريقه في اتجاه المنبر حيث جلس العلماء وذوو المكانة من الشيوخ فتلقوني بالسلام في صوت مرتفع رقيق.

جلست قريبًا من المنبر أتطلع الزخارف الرائعة التي تزين صدر المسجد، وإلى دعائمه الوسطى وقد بني النحل البري فوقها مساكنه يحوم حولها في أمان، ثم نودي بالأذان فجأة، وقد وقف المكبرون في مواضع مختلفة من صحن المسجد حتى يبلغوا الصوت إلى أبعد أركانه، فقام المصلون، وهم يقاربون أربعة آلاف وكأنهم

الجند المجندة، يستجيبون للدعوة الربانية، وقد اصطفّوا صفوفًا متقاربة، وصلّوا في خشوع عميق، وكنت واحداً من هؤلاء الخاشعين، لقد كانت تلك اللحظة عظيمة ومجيدة حقًّا.

وبعد الخطبة أخذ عبد الحي بيدي ليتجه إلى المنبر، وكان عليّ أن أسير في حذر حتى لا أزعج أحداً من الجالسين.

لقد آن وقت الحدث العظيم، فوقفت عند درجات المنبر وسرت حركة بين الجموع الزاخرة، بينما بدت لي آلاف الرؤوس المعممة كأنها حديقة مزهرة، إنهم جميعًا يهمهمون وهم ينظرون إلي - وقفت وقد أحاط بي العلماء بلحاهم الشهباء ينظرون إلي مشجعين، فأشاعوا في نفسي ثباتًا عجيبًا لم أعهده من قبل، وفي غير وجل أو تردد ارتقيت المنبر حتى درجته السابعة واتجهت ببصري إلى الجموع التي خيل إليّ أنها لا آخر لها وكأنما هي بحر يموج بالحياة، وقد اشرأبت الأعناق نحوي، وساحة المسجد كلها حركة، سمعت من قريب أصواتًا تردد «ما شاء الله» ورأيت نظرات يشيع فيها الحب والمودة، فشرعت أقول: «أيها السادة الكرام» «متحدثًا باللغة العربية» لقد حضرت من بلاد بعيدة، بحثًا عن العلم الذي لم أستطع أن أجده في بلادي، أتيت لأنهل مما تتوق إليه روحي، فاستجبتم لي ثم تحدثت عن الدور الذي قام به الإسلام في العالم، وعن المعجزات التي أُيّد بها رسول الله ﷺ وتكلمت عن انحلال المسلمين في العهد الحاضر، وعن الوسائل التي يمكن أن يستعيدوا بها مجدهم المفقود، وأن من المسلمين من يقول إن كل شيء موقوف على إرادة الله، بينما يقول الله في القرآن الكريم! «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وركزت حديثي على هذه الفقرات من آيات كتاب الله ثم عرجت على تمجيد الحياة النقية الطاهرة وعلى ضرورة محاربة التحلل المستشري، ثم جلست. وكنت

مستغرقًا في الحديث بكل مشاعري، وأفقت على هتاف يتردد في صوت مرتفع من كل زوايا المسجد «الله أكبر» كان التأثر والحماس يعمان المكان ولا أستطيع أن أتذكر ماذا كان في ذلك الحين، غير أن «أسلم ناداني من فوق المنبر وشد على يدي وقادني إلى خارج المسجد».

قلت له؟ «لما هذه العجلة»؟

وقف الناس أمامي يتلقونني بالأحضان. كم من مسكين مجهد نظر إليّ في ضراعة، يسألني الدعوات يريد تقبيل رأسي فابتهلت إلى الله أن لا يدع هذه النفوس البريئة تنظر إليّ وكأني أرفع منها قدراً، فما أنا إلا حشرة بين حشرات الأرض أو تائه جاء في البحث عن النور، لا حول لي ولا قوة، مثل غيري من المخلوقات التعيسة.

لقد خجلت أمام أنات وآمال هؤلاء الناس الطيبين، وأحسست كأنني خدعتهم أو سلبتهم شيئًا.

ألا ما أثقل الحمل الملقى على عاتق رجال الدولة والسلطان، يضع الناس فيه ثقتهم ويطلبون منه العون، ويعتقدون أنه يستطيع ما لا يستطيعون أخرجني «أسلم» من أحضان أخوتي الجدد وأجلسني في «تنجا»(*) وذهب بي إلى المنزل.

وفي اليوم التالي وما يليه كان الناس يفدون عليّ في جماعات لتهنئتي ونالني من محبتهم وعواطفهم ما يكفيني زاداً «مدى حياتي»(١).

العوامل الفكرية التي أثرت في إسلامه:

لقد كان إسلام الدكتور جرمانوس نتيجة لعوامل نفسية وعوامل فكرية. فقد جذبه الشرق بطبيعته الساحرة وروحانيته، وما لاقاه من معاملة إنسانية من

(*) تنجا: مركبة خفيفة ذات عجلتين تستعمل في الهند.

(١) د. عبد الكريم جيرمانوس: لماذا أسلمنا، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ـ الدوحة ١٩٦٩ ص ٨٣ ـ ٩٣.

المسلمين، ثم تأثر نفسيًّا بالرؤية التي رأى فيها رسول الله ﷺ، وقد دعم ذلك كله الصورة الحقيقية التي أخذها عن الإسلام من خلال قراءة القرآن الكريم والبحث في الكتب الإسلامية وتوصل إلى عدة نقاط دفعت به مع ما سبق من الظروف النفسية إلى اعتناق الإسلام، ومن أهم هذه النقاط ما يلي[1]:

السعادة في الإسلام بالروحانية والمثل العليا:

يقول في بيان ذلك «خالجني منذ طفولتي حنين -إلى أرض الإسلام وكأنها أرض الميعاد الخيالية، فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة في السرعة وهي طابع الحضارة الأوربية، أبديا لي الشرق الإسلامي، دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الإنسانية.

وإنني الرجل الأوربي الذي لم يجد في بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسيطرة الميكانيكية، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه.

ففي الوقت الذي يمنحنا فيه الغرب كل عام جديد، أداة انتقال أسرع أو أداة إهلاك وتدمير أفتك، يدفعنا إلى حروب استغلال شنيعة يبقى الشرق الإسلامي مستوليًا علي بروحانيته ومثله العالية، فبينما اتجه الأوربيون بملكات الكشف والاختراع إلى استحداث وسائل تدمير الإنسانية حافظ الإسلام على مبادئه الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشري.

وبينما التمس الأوربيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن كفل الإسلام للإنسان راحة نفسية، إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل كسيارة أو طائرة بل في رضا الضمير، وسبيله أن يقوم الإنسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس، فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات اطمئنانًا قلبيًا أطول

---

(١) عبد الرحمن العيسوي: لماذا أنا مسلم، مكتبة وهبة، ١٩٨١م، ص ١١-١٦.

عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير.

الإسلام يؤثر في كل مناحي الحياة:

يبين الدكتور جيرمانوس هذه الحقيقة بقوله:

والحق أن الكنائس الأوربية لا تكاد تفترق تعاليمها الروحية عن الإسلام، إذ أننا لو استبعدنا من المسيحية فكرة التثليث نجد أن أهدافها ومثلها، هي استخلاص القانون الإلهي. هذا القانون الذي يجب أن نطيعه.

أما الفارق القائم بين الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية، فيرجع في الحقيقة إلى الحضارة الأوربية، إذ أن الأوربيين لا يطبقون تعاليم دينهم على أمور حياتهم، بينما استمر الإسلام مؤثراً في كل ما يتصل بحياة المسلمين.

اقتصرت المسيحية على عبادة ساعات من كل أحد، بينما امتلأت بقية الأيام بكفر عظيم، وبكل شيء يتحدي تعاليم المسيح... - أما الإسلام فلا تزال العقيدة المتجددة أبداً، والتي يجب أن يعيش المسلمون طبقًا لقانونها، وليس مجرد تعاليم نظرية فقط:

وَهْمُ من قال: إن الإسلام سبب تخلف المسلمين:

ينفي جيرمانوس عن الإسلام كونه سبب تخلف المسلمين كما يدعي البعض فيقول: - «ولقد تدهورت ثروة المسلمين، واضمحلت معارفهم وضؤلت سلطتهم السياسية، حتى لقد أصبح من العسير بعد الحرب العظمي الماضية أن تجد أمة إسلامية حرة. وقد وهم السطحيون من الناس - حين قارنوا خال الدولة الإسلامية بتزايد نفوذ الدول المسيحية - أن الدين الإسلامي هو علة سقوط دولة المسلمين... ولكن أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد إذ قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة

الإسلام، بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة.

القرآن وحي من السماء ومحمد رسول الله أعظم مصلح:

إن تعاليم القرآن هي أوامر الله وهي مرشد أبدي للبشر، وبعد دراسة د. جيرمانوس للقرآن الكريم وللسيرة النبوية تأكد له أن القرآن نزل من عند الله وتأكدت له نبوة الرسول ﷺ. ولتستمع إليه يقر بذلك حيث يقول: «إنه كتاب ملؤه الصراحة والوضوح لمن صدقت رغبته في تفهمه وإن محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ مؤيد بوحي من عند الله، ونحن مأمورون أن نفهم تعاليمه نطبقها على شئون حياتنا الدنيوية مع الإيمان بأن ما أوحى به إليه إنما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهيا. ولقد أخطأ المسيحيون إذ لم يفهموا الإسلام على حقيقته وبالتالي لم يتشبعوا بروحه»(١).

الإسلام يهتم بالروح ولا يهمل المادة:

ومن الأمور التي جذبت دكتور جيرمانوس الى الإسلام ذلك التوازن بين الروح والمادة حيث لا يهتم بالروح وينسى البدن ولا بالبدن وينسى الروح، وهو يبين هذه الحقيقة فيقول: «إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو إدراكه أن الكون تحكمه قوانين روحية وتُسيّره قوى غير محسوسة.

وهذه الحقيقة هي أساس كل دين ولكنه لا يوجد دين يؤكدها أقوى مثل دين الإسلام الذي يبسط أمام الإنسان طريقًا وسطًا لا تتجرد فيه الروح عن البدن ولا البدن عن الروح، بل يكون وسطًا بين المادة والروح، على أن لا ينسى مطلقًا أنه كائن روحي قبل كل شيء».

---

(١) نفس المرجع ص ١٣ - ١٤.

الإسلام دين المساواة والإخاء والتسامح :

من الأمور التي لفتت نظره أن الإسلام يحقق عملياً المساواة والإخاء ويدعو إلى التسامح ويحافظ على حقوق الإنسان لنستمع إليه يقول :-

وإن من أحجار الزاوية في بناء هذا الدين هي أن الناس أمام الله سواء. من آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته. ويترتب على هذا أنهم أمام بعضهم البعض سواء.

«ليس في تعاليم الإسلام شيء لا يمكن تحقيقه عمليًّا وهو مفخرة عظيمة يتميز بها عن سواه. ويطلب الإسلام من المسلمين أن ينظر أحدهم إلى الآخر كأخ له لما بينهما من صلة الإيمان بالعدل وتقوى الله. ومن حق غير المسلمين من اهتدوا إلى حقيقة الله عن طريق أي كتاب من كتبه المنزلة، أن يعيشوا في هدوء وسلام مع المسلمين.

وفي التاريخ الإسلامي الدليل على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحداً من جيرانهم.

على أن الفوارق القائمة بين المسلم وغير المسلم تسقط بمجرد اعتناق الإسلام، فلا ميزة للمسلم ابن المسلم على المسلم ابن المشرك، ولا فضل لقرشي على حبشي»(١).

وبين سبق الإسلام إلى هذه القيم فيقول «إن أوربا لم تعرف الإخاء بين الناس، إلا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام، ولقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية، ابتكار القرن السابع عشر في أوربا بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته»(٢).

---

(١) عبد الرحمن العيسوي: لماذا أنا مسلم ص ١٥ - ١٦.

(٢) نفس المرجع ص ١٣ - ١٤.

ولم يعترف حكام أوربا بالاشتراكية إلا في السنوات الحديثة، بينما سبقهم الإسلام إلى المؤاخاة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهود ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح واستمتع في ظل نظامه كافة الناس بكافة الحقوق الإنسانية. والاشتراكية / الأوربية تدهورت إلى حضيض الشيوعية المنطوية على حرب رؤوس الأموال، أو إلى الوطنية الألمانية الاشتراكية القائمة على اضطهاد وهمي الليهود وغلو في تطبيق نظرية (الجنس الممتاز) أما الإسلام فقد نسق نظامه الاشتراكي الطبقات والثقافات والأجناس على اختلافها - في عقد اجتماعي مرتكز على حسن التوازن.

الإسلام يحافظ على الصحة:

ولقد حرم الإسلام الخمور وسبق أوربا إلى قوانين الصحة الحديثة بأكثر من ألف عام. ولقد حض على النظافة.

الإسلام ينصف المرأة:

ومما لفت نظر الدكتور جيرمانوس إلى الإسلام موقفه الرائع من المرأة وهو يعبر عن هذا الموقف بقوله: «وإني لأجرؤ على القول بأن الإسلام منح المرأة حقوقًا قانونية أكثر مما كان في المسيحية، وقد أعترف، بإباحته تعدد الزوجات في حدود معقولة، بالأمر الواقع، أي بما تقتضيه غريزة الرجل، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروعة الذي يسود الجماعة الأوربية في هذه الأيام».

الإسلام يخدم الثقافة البشرية:

يبين الدكتور جيرمانوس بقوله: «ولقد تمخض الإسلام في العصور الوسطى عن ثقافة عظيمة صانت الثقافة القديمة من الضياع ونقلتها إلى العصور الحديثة.

بروز الجانب الروحي الإنساني في المسلم:

يشير الدكتور جيرمانوس إلى ذلك بقوله: «المسلم إذا كان صادق العقيدة فهو إنسان متدين روحي، مستنير، ذو حاسة إنسانية من طراز سام، مما يثير التقدير والحب له.

ضرر التقليد الأعمى للحضارة الأوربية على الأمة الإسلامية:

يبين الدكتور جيرمانوس خطورة التعلق بالمظاهر الكاذبة للحضارة الغريبة فيقول: «على أنه من القوانين الطبيعية أن يكن للنجاح والقوة والثروة من التأثير مثل ما للكواكب الكبيرة من الجاذبية علي المذنبات الصغيرة. لذلك لا يجب أن يقع في نفسنا موقع الاستغراب أن تغشى عيون طائفة كبيرة من المسلمين أمام أضواء السيادة السياسة التي ظفرت بها دول أوربا وإن تعلقوا بمظاهر حضارة هذه الدول.

ولقد قررت بعض الدول الإسلامية رسميًّا اصطناع الحضارة الأوربية وما تقضي به من أساليب الحياة وطرائق التفكير اصطناعًا هو التقليد الأعمى بعينه، ولقد كان لهذا التقليد أثر كريه على المسلمين الذين جعلوا يمارسون رذيلة السكر والطيش والاستهتار.

خلاص العالم من التهديد بالاصطدام الاجتماعي:

ويبين الدكتور جيرمانوس أن العالم مهدد بما كان في الجاهلية من نزعة طائفية تؤدي إلى التصادم الاجتماعيّ ولا انفكاك من ذلك إلا بالإسلام الذي يزاوج التقدم المادي بالروحية السامية، يقول في ذلك:ـ

«إن الأمم الإسلامية اليوم معدمة واهنة متخلفة في ميدان الحضارة لكن كنت ولا أزال متعلقًا بالإسلام على الرغم من أنني أوربي خالٍ من كل دم دخيل، وذلك لاعتقادي بأن مستقبل العالم وخلاصه من الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده، لن يكون إلا في المزاوجة السعيدة بين الحضارة الأوربية بدرسها علمها... والروحية السامية التي تنطوي عليها عقائد الدين الإسلامي.

إن عاتق أوربا قد أبهظته أثقال جنونها بالرأسمالية والوطنية الاشتراكية ولا تزال أوربا قادرة على الدفع بالجنس البشري إلى بربرية شبيهة بما كان عليه الناس في عهد الجاهلية الذي علا فيه شأن النزعة الطائفية، حتى أصبحت كل قبيلة تحسب

أن دمها هو وحده الخالي من الشوائب. فتمزقت بفعل هذه النزعة الجماعة الإنسانية.

لقد كانت المادية الصارخة والتشيع للأجداد - أي الإيمان باللحم والدم - هي الدوافع المحركة قبل الإسلام، وكان العنف هو الحكم الأسمى وهنا جاء وحي القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالأنساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس، لن تؤدي إلى صيانة الحياة الإنسانية ولا إلى تحقيق الهدوء والنجاح وأن الطريق إلى ذلك هو تقوى الله والصلاح واتباع قوانين السماء.

لقد وضع الإسلام حداً للنظرية التي كانت تعتبر الإنسان وحدة في قبيلة، أو وحدة في شعب، أو ابنا للغة من اللغات وسما بالأفراد من وهدة الحيوانية إلى أفق إنسانية فسيحة.

وإني لآمل بل أتوقع أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة، وإني لأمد يدي لإخواني المسلمين وأنخرط في صفوفهم، مجاهداً في سبيل الإسلام، باذلاً ما أستطيع من إخلاص وحسن طوية كاشفًا عن الجروح، باحثًا عما يطهرها ويشفيها، متحملاً في سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملاً في النجاة التي كتبت للمتقين».

٤ـ روجيه جارودي

نشأته:

نشأ روجيه جارودي في أسرة فرنسية ملحدة لكنها محافظة في السياسة.

رحلته الفكرية والروحية:

وهو يحكي لنا رحلته الفكرية والروحية التي انتهت به إلى الإسلام عام ١٩٨٦ حتى نعرف من خلالها كيف ولماذا أسلم حيث يقول:

أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية[١] وانتشار الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا[٢].

بدأت أشعر أن الحياة عبثية ولا معنى لها، وقرأت في هذه السن المبكرة لكيرك جارد عن واقعة فداء سيدنا إبراهيم بابنه إسماعيل وتأثرت من تأملات كيرك جارد في إذعان إبراهيم وطاعته لربه وقبوله لكلام الله بلا قيد أو شرط، وقررت في سن الرابعة عشرة اعتناق البروتستانتية، وفي الثانية والعشرين قررت الانضمام إلى الحزب الشيوعي لكنني لم أكن في يوم من الآيام ملحداً، وعندما كنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنساوي كنت في الوقت ذاته رئيسًا للطلاب المسيحيين البروتستانت ودخلت الحزب الشيوعي كمسيحي، وكنت في هذه الأثناء طالب فلسفة وكنت أبحث عن منهج فوجدته في الماركسية، والماركسية لا علاقة لها بالأديان، ومن وجهة نظري أن الدين يضع الغاية القصوى للحياة ويجسد القيمة المطلقة ويجعل للوجود معنى[٣].

وإذا كان كيرك جارد قد أثر في روجيه جارودي من الناحية الروحية مما دفعه إلى اعتناقه البروتستانتية فإن كلا من آدم سميث وكارل ماركس قد أثر في اعتناقه الماركسية كمنهج مع استمرار وجود الدين عنده كغاية قصوى متمثلا في البروتستانتية يبين جارودي ذلك بقوله «اتجهت إلى المسيحية وإن كنت ما زلت أفتقد المنهج وأبحث عن الوسيلة لاتقاء هذه القيم المطلقة، وهو ما وجدته في الماركسية، وكان أمامي في ذلك الوقت اختيارات أن أولهما «لآدم سميث» المدافع عن الرأسمالية والذي يرى أن نشأة الغنى والثروة يتم عن طريق المصلحة الشخصية

---

(١) حدثت عام ١٩٢٩ وبدأت بالولايات المتحدة الأمريكية وكان لها انعكاسها على أوربا.

(٢) بدأت بوصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣.

(٣) رجاء جارودي الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ترجمة دار الغد، دار الغد العربي، القاهرة ١٩٩٦ ص ٢٧٩، ٣٨٠.

والتي يتبعها بالضرورة تحقيق المصلحة العامة وهذه الدعوة من آدم سميث لم يتحقق حتى الآن أما الاختيار الثاني فوجدته في كارل ماركسي الذي من خلاله عرفت أن تركيز الثروة في أيدي الأقلية ينتج أيضا الفقر في أيدي الأغلبية، فهناك فقط ٣٥٠ فردا في العالم يملكون ٢,٥ مليار من ثروة العالم(١).

ويضيف جاروي قائلا: «كنت حتى ذلك الحين لا أرى تناقضا في مساري الروحي بل تكاملا فالدين عندي هو الغاية القصوى والنهاية أما الماركسية فتقدم لي المنهج والوسيلة حتى عرفت الإسلام فوجدت في القرآن دينا شاملا وعادلا»(٢).

لقاؤه الأول مع الإسلام:

أخلاق الإسلام تنقذ حياته:

كان لقاؤه الأول مع الإسلام لقاءً عجيبًا تأثر فيه بالأخلاق الإسلامية التي كانت سببا في إنقاذ حياته وهو يعلن هذه الحقيقة فيقول:

«لقائي الأول مع الإسلام كان ذا طابع عجيب وأدين له بحياتي»(٣).

ويروي الواقعة التي حدثت له في المعسكر الفرنسي الذي كان يخدم فيه في الجزائر عام ١٩٤١حيث اعتقل مع بعض زملائه يقول: «عندما كنت معتقلاً في أحد سجون الجزائر نظمنا اضراباً عام ١٩٤١ وطلب قائد المعتقل فك الإضراب فرفضنا، وعندما تأكد أننا مصرون على الرفض طلب من الجنود أن يطلقوا الرصاص فلم ينفذوا الأمر، وعلمت بعد ذلك أن هؤلاء الجنود جزائريون مسلمون، وأن الدين الإسلامي يمنع المسلم من إطلاق الرصاص على أعزل، وبدأت دراسة الإسلام وبخاصة الإسلام الذي كان سائداً في الأندلس»(٤).

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٠٣.

(٢) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٣) نفس المرجع ص ٣٨٧.

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٠.

ومن هنا بدأ اهتمام جاوردي بالثقافة الإسلامية، فقرأ للقرطبي وابن حزم وابن ماجه وابن طفيل وابن رشد وابن عربي.

لقاؤه الثاني مع الإسلام:

(طرده من الجزائر لثنائه على الثقافة الإسلامية)

يحكي لنا جارودي واقعة طرده من الجزائر بسبب ثنائه على الثقافة الإسلامية فيقول: «لقائي الثاني مع الإسلام كان بعد إطلاق سراحي من معسكرات النازية.. وقد بدأ اهتمامي أولاً بالثقافة الإسلامية وليس بالدين الإسلامي وكان أول أعمالي هو المحاضرة عن دور الثقافة الإسلامية في الثقافة العالمية «عام ١٩٤٦ في مدينة الجزائر... قرر على أثرها الجنرال «ماس» طردي من الجزائر بتهمة «الترويج لدعاية مناهضة لفرنسا».

هل تعرفون لماذا؟ لأني اقتطفت في هذه المحاضرة مقولة ل «أنا تول فرانس» يقول فيها إن أسود عام في التاريخ الأوروبي هو العام الذي حدثت فيه معركة بواتييه التي اندحرت فيها الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية»[١].

اهتمامه أولاً بالثقافة الإسلامية قبل اعتناقه الإسلام:

يقول جارودي «هكذا كان اهتمامي أولاً بالثقافة الإسلامية وكل كتبي التي كتبتها عن الإسلام كتبتها قبل أن أعتنق الإسلام فكتبت «الإسلام يسكن مستقبلنا» وكتبت «وعود الإسلام».... إلى آخره، لم أكن مسلمًا ولكن كان لديّ إلمام كبير بالثقافة الإسلامية وبشكل خاص الفكر الصوفي والصوفيين الأوائل وهو بالفكر الذي استهواني كثيراً ولا يزال يستهويني حتى هذه اللحظة.. إن قرطبة عاصمة الخلافة في أسبانيا أكبر شاهد على هذه الثقافة التي لا تزال تجذب مئات الآلاف إليها كل عام؛ مئة ألف زائر كل عام[٢].

(١) المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٩.

وقد كان إعجاب جارودي بالثقافة الإسلامية التي ازدهرت على أيدي المسلمين وانتقلت من الأندلس إلى أوربا سبباً من أسباب اقترابه من الإسلام يقول: «لقد كانت قرطبة بحق هي عاصمة الثقافة في أوربا، خذ مثلاً الجراحة، لقد عرفت أعظم الجراحين في العمليات الجراحية، والولادة، وعمليات العيون أن كان الأدوات الجراحية التي استعملت فيما بعد في كل جامعات أوربا في لندن وباريس وباليرمو مونيليه اخترعها المسلمون وكتبهم في الطب كانت هي المراجع المعتمدة في كل معاهد الطب في أوربا، ونفس الشيء في الرياضيات والفلك، وكل العلوم وهم الذين بلوروا المناهج والتجارب العلمية..

باختصار الغزو العربي لم يكن غزواً عسكريًّا إنما هو فتح للحضارة والثقافة أو إذا أردت الدقة ثورة ثقافية.. وأنه لمن دواعي سعادتي أنني أسمع ملك أسبانيا الحالي «خوان كارلوس» يردد مقولة «إن فترة الخلافة الإسلامية هي فترة عظيمة في التاريخ الإسلامي» وإن كانت الحقيقة تتطلب القول إنها حقبة عظيمة في التاريخ الأوربي كله..[1].

الإسلام يوظف الثقافة والعلم في خدمة الإنسان وليس في تدميره:

وإذا كان المظهر العلمي والثقافي عاملي جذب لجارودي إلى الإسلام فإن ماجذبه إليه اكثر إن العرب قدموا مفهوماً للعلم يختلف عن مفهوم الحضارة الغربية.. فقد كان البحث العلمي والكشف الفلسفي والمنهج التجريبي الذي كان موجودا في قرطبة في خدمة الإنسان وكان يبحث عن الحكمة في تطور الإنسان بينما على العكس الحضارة الغربية تستخدم العلم لتدمير الإنسان كما في اكتشاف الذرة والقنابل النووية[2].

(١) المرجع السابق ص ٣٩٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩١.

العلم في الإسلام لايقف عند حد السببية:

فالعلم في الإسلام لا ينفصل عن الإيمان، ومقصد العلوم هي اكتشاف قوانين الله في المادة لخدمة البشرية فالاسلام يستجلى حكمة الله وراء القوانين المادية.

وهناك دوائر البحث، وعند دائرة معينة يكون للعقل حدوده التي يتوقف عندها، لأن العلم المطلق عند الله وحده والإيمان الذي يدفع الإنسان للبحث وراء السببية يعطي للعقل دافعًا بدون حدود..

يقول: «الذي يعطي الإسلام تفرده الخلاق هو أن الإسلام يرى أن العلم في بحثه عن السببية.. لم يكن يعطي الأولوية للسببية المادية كما أن الحكمة في بحثها عن الوحي النهائي لم تعتبر نفسها نهائية»..(١).

ديمقراطية الثقافة:

* وما أعجب جارودي في الإسلام أيضًا ما أسماه بديمقراطيته الثقافية حيث ينهى الإسلام عن كتم العلم..(٢).

*يقول بعد اختراع الورق وأخذه عن الصينيين تصنيعه في دمشق ثم قرطبة، فبعد الورق ثم تعميم الثقافة ولم تعد مقصورة على فئة معينة(٣).

الجانب الروحي في الإسلام:

يقول جارودي «الذي جذبني إلى الإسلام هو جانبه الروحي والصوفي» وقد أخذ هذا الجانب عن طريق «رينيه جينو» الذي إعتنق الإسلام أيضًا وفسره بطريقة صوفية ومن خلاله اكتشف جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار وابن عربي والحلاج..

(١) المرجع السابق ص ٣٩١، ٣٦٠، ٣٠٥، ٣٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٢.

يقول: «وهكذا أصبحت مسلماً، تدرجت من الإعجاب بالثقافة الإسلامية إلى «روحية الإسلام» ثم بين تحوله إلى مفهومه عن الإسلام الذي يتميز بالشمول والتجدد ونفي الوساطة بين العبد وربه..(١).

تأثره بالديمقراطية الاجتماعية في الإسلام:

ففي الإسلام نجد أن الفقير له حق في مال الغني فلا يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً إنما كلما ازداد الأغنياء غنى كلما انعكس ذلك على رفع مستوى الفقراء وينتقد جارودى الفكر الليبرالي والرأسمالي قائلاً: «خذ مثلا الشمال والجنوب..إن ٨٠٪ من المصادر الطبيعية موجودة في الجنوب ولكن هذه الثروة مسيطر عليها ومستهلكة من قبل ٢٠٪ فقط من الشمال، والنتيجة الطبيعية لكل هذا أن ٤٥ مليون إنسانًا يموتون من الجوع أو بسبب سوء التغذية.. بينهم ١٥ مليون طفل طبقًا لإحصاءات اليونسيف، هذا يعني أن نموذج النمو الغربي على طريقة آدم سميث والفكر الليبرالى الذي يتبناه الليبراليون يعني أن النمو الغربي يكلف بلدان العالم الثالث «هيروشيما» كل يومين..(٢).

* اعتراف الإسلام بكل الأنبياء:

يقول جارودي «هناك شيء آخر يدهشني في الإسلام، فعندما ترى اليهودية ترفض المسيح نبيًا، ونرى المسيحية ترفض محمداً ﷺ نبيًا، تجد الإسلام يعترف بأنبياء كل هذه الأديان»..(٣).

* النظام المالي في الإسلام ومعنى الخلافة في الأرض:

يقول: في الإسلام الله وحده هو المالك، له ما في السموات والأرض» والإنسان خليفة الله في الأرض مكلف بإدارة هذا الملك في سبيل الله، ولا يجوز للإنسان

(١) المرجع السابق ص ٣٩١، ٣٩٠، ٣٠٥، ٣٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٣.

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٤.

المسئول عن إدارة ملك الله أن يتصرف فيه كما يشاء، فلا يمكن له أن يدمره وفقًا لنزواته أو أن يبدده أو أن يترك الأرض بلا زراعة دون أن يجعلها تثمر بالعمل، ولا يمكن له أيضًا أن يجمع المال ويكنزه، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] وكل تعاليم القرآن تنادي بالزكاه والتي تتمثل في انتقال اجتماعي للثروات، كأحد متطلبات الدين ويحظر الربا، أي كل زيادة في الثروات بلا عمل في خدمة الله، وهي تعاليم تهدف إلى الحيلولة دون تكديس الثروات في أحد قطبي المجتمع وتَفَشِّي البؤس والفقر في القطب الآخر[١].

*** انتفاء الواسطة بين الإنسان وربه:**

ومن الأمور التي جذبت جارودي للإسلام انتفاء الواسطة بين الإنسان وربه يقول: «العلاقة بين الإنسان وربه في الإسلام علاقة مباشرة فلا توجد واسطة بينهما ولا يوجد كهنوت ولا واسطة رجال دين فلا كنيسة ولا قساوسة..»[٢].

*** سماحة الإسلام:** من خلال دراسته لنموذج الإسلام الذي كان سائداً في الأندلس تأثر جارودى بما يتيحه الإسلام من حرية العقيدة والتسامح حيث يقول: كان هناك مناخ رحب للحرية. فإلى جوار المساجد تجد الكنائس والمعابد وإلى جوار الفلاسفة المسلمين تواجد فلاسفة يهود مثل ابن ميمون وساهموا في الحضارة الإسلامية.

*** الإسلام يسمح بالتجديد والتغيير:**

يقول جارودي عن الإسلام: «إنه دين عام وشامل لايحتكر فيه أحد الحقيقة غير الله وحده، هو الذي يعلم وهو الذي يعرف، ومعرفة الله هي المعرفة المطلقة الثابتة، ومعرفة البشر نسبية ومتغيره، والله لم يخلق العالم مرة واحدة إنما هو مستمر

(١) المرجع السابق ص ٣٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٤.

في الخلق. والفقه هو معرفة الفقهاء عن الإسلام، وبالتالي فهي معرفة بشرية متغيرة الزمان والمكان والظروف؛ فقه الشافعي غير فقه أبي حنيفة، هناك فقه قديم وفقه جديد نطالب به، والإخلاص للقدماء لا يعني الحفاظ على رماد القبور، وإنما يعني الحفاظ على شرارة الخلق والإبداع(١).

ويبين الدليل على تشجيع القرآن للإنسان على الاجتهاد فيقول: «وكما يقول صديقي الفيزيائى المسلم عبده سلام: «إن القرآن يحتوي على ثلاثمائة وخمسين مرة الدعوة إلى المبادرة الإنسانية أي أن هناك مغزى وهو تشجيع الإنسان على الاجتهاد وهو الأمر الذي كان معمولاً به خذ مثلاً أبا حنيفة والشافعي؛ هذان العبقريان عاشا في مجتمعات متغايرة، أظهرا كيف يمكن أن يتغير اجتهادهما..»(٢).

ويضيف قائلاً: «وعملنا كمسلمين هو أن نجتهد في تطبيق الشريعة، كما كان يجتهد العباقرة الأوائل كأبي حنيفة أو الشافعي. إن دور المسلم الآن هو تأسيس فكر إسلامي للقرن العشرين أو الحادي والعشرين كما فعلوا هم. إن دورنا هو تقليد القدوة وليس تقليد فتاواهم إننا لا نستطيع أن نجد لديهم حلاً لمشاكل الطاقة النووية ولا إدارة البنوك.. إذن من المبادئ المقدسة يجب أن نجد طريقنا في فهم مجتمع معين ولحظة تاريخية معينة...»(٣).

* الإسلام يحض علي المحبة الإنسانية:

مما جذب جارودي إلى الإسلام أنه دين يحض على المحبة بين البشر يقول: «عندما قرأت صدر الدين الشيرازى تعلمت أن المحبة الألهية في الإسلام تكتسب بالمحبة الإنسانية...»(٤)

(١) المرجع السابق ص ٢٨٣.
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٦.
(٣) المرجع السابق ص ٣٩٦، ٣٩٧.
(٤) المرجع السابق ص ٢٨٥ وهذا الكلام يريده الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين في...».

جارودي وتحليل مغزى العبادات:

في كتابة الإسلام دين المستقبل يحلل جارودي مغزى العبادات تحليلاً عميقًا نلخصه في الأتي:

- إن الصلاة هي مشاركة الإنسان بشكل واع في تسبيحة الحمد التي تربط المخلوق بخالقه.

- والصيام هو انقطاع إرادى في إيقاع الحياة يعتبر تأكيداً على حرية الإنسان تجاه ذاته ورغباته.

- والزكاة نوع من العدالة الداخلية المفروضة بحكم الشرع والانتصار على الأنانية والبخل في قلوب أهل الإيمان، وتذكرهم بأن ثرواتهم - مثل كل شيء - تعود إلى الله تعالى لا يمكن للفرد التصرف فيها على هواه..

- والحج يجسد في أحد معانيه الحقيقة العالمية للأمة الإسلامية ككل..

الأصول الفكرية لجارودي:

قرأ جارودي في باكورة شبابه لكل من آدم سميث في الرأسمالية ولكارل ماركس في الشيوعية متأثراً بصورة أكبر بآراء كارل ماركس حيث وجد أن الرأسمالية تكرس الثروة في يد فئة قليلة مما يؤدي إلى موت الكثرة من الجوع وسوء التغذية ومن ثم انضم للحزب الشيوعي الفرنسي وكان عضواً في لجنته التنفيذية.

وممن أثروا أيضًا في مسيرته الفكرية كريكجارد الذي قرأ له تحليلاً لقصة تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل عليهما السلام وكانت سببًا في اعتناقه المسيحية على المذهب البروتستانتي، وعندما تعرض للاعتقال في الجزائر وقام هو وزملاؤه بالتمرد وأعطى قائد المعسكر الجنود الأمر بإطلاق النار عليهم رفض الجنود الجزائريون المسلحون تنفيذ الأمر لأن الشرف العسكري وأخلاق الإسلام يأبيان إطلاق النار على العُزل من السلاح فتأثر بذلك وبدأ يقرأ في الإسلام، وكان من

شكلوا معلوماته الأولية عن الإسلام من المفكرين المسلمين ابن رشد وجلال الدين الرومي وابن العطار وصدر الدين الشيرازي وابن عربي وقد قدم له هؤلاء دينيه جينو المفكر الفرنسي الذي كان قد اعتنق الإسلام..

بعض أفكار جارودي:

١ ـ وحدة الأديان (العقيدة الإبراهيمية):

يقول جارودي في الجزء الثاني من كتاب «الإرهاب الغربي» وهو أحدث كتبه: «إن الله ليس إلهًا خاصًا للمسلمين والإسلام قائم على أن كل الأديان تعبد إلهًا واحداً منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ، والله يأمر المسلمين في القرآن بالإيمان بأنبياء بني إسرائيل وبالمسيح، ولم يستخدم كلمة «الشريعة» في القرآن إلا مرة واحدة: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾** [الجاثية: ١٨]. قال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** [الشورى: ١٣] وقال تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** [المائدة: ٤٨] «وبهذا المفهوم فإن الأديان لا تتصارع ولكن تجتمع على الله ولكل دين طريق للوصول إلى الله...»(١).

من هنا يذهب جارودي إلى القول بوحدة الأديان إذ يرى الإسلام انفتاحًا شاملاً على كافة الديانات التي ليست في نظره إلا لحظات من الغطاء في الملحمة الإنسانية فهو يرى أن تندرج الأديان السماوية الثلاثة تحت لواء الديانة الإبراهيمية ويصبح لكل دين طريقته تكون الأديان تحت الديانة الإبراهيمية أشبه بالمذاهب الفقهية في الإسلام أي تستوعب الديانة الإبراهيمية الاختلافات كما يستوعب

(١) روجيه جارودي: الإرهاب العربي جـ٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٥٥ ـ ٥٨، محمد عثمان الكاشف، لماذا أسلمت؟ مكتبة القرآن ١٩٨٦ ص ١١٧.

الإسلام المذاهب الفقهيه وقد أسس جارودي المتحف الإسلامي في أسبانيا وافتتحه بندوة عن أبناء إبراهيم وحضره ممثلون عن الأديان الثلاثة(١).

تقول: إنه بعد نزول القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، والنص على عالمية الإسلام فإن الناس جميعًا مطالبون بالإيمان به واتباع طريقته في الوصول إلى الله، قال تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [آل عمران: ٦٧].

٢ ـ لماذا حدث الانكسار للعالم الإسلامي:

يجيب جارودي بتحليل أسباب الانكسار في عدة نقاط(٢).

١ ـ حصر الإسلام على فهم المسلمين له في القرون الأولى حيث كان عالم الإسلام محدوداً، والإسلام دعوة عالمية لكل زمان ومكان.

٢ ـ الشريعة وهي قانون الله أصبحت جامدة عند المتمسكين بالنصوص حرفيًّا دون محاولة الوصول إلى فهم الجوهر. ولم يساير هولاء طبيعة التطور وطبيعة المجتمعات المتنوعة التي ينبغي أن نجذبها للإسلام، وما يردده المتشددون يصور الإسلام على أنه يعطي لأصحاب الدعوة سلطة الحق الإلهي المقدس، ويبدو هؤلاء أمام الغرب على أنهم يطالبون بأن يحكموا دكتاتورياً بادعاء أن أمرهم هو أمر الله وحكمهم هو حكم الله وكلمتهم هي كلمة الله، وبعض الفقهاء فسروا الشريعة بصورة محرفة ومفهوم تطبيق الشريعة عندهم يصطدم مع الفقه، وإذا كنا نرفض

(١) مصطفى حلمي. إسلام جارودي بين الحقيقة والاقتداء، الدعوة اسكندرية ١٩٩٦ ص ٤٥.

(٢) روجين جارودي، الإرهاب الغربي جـ٢، دار الشروق ـ القاهرة ٢٠٠٤، ص ٥٩ ـ ٦٥.

انحطاط ونفاق الغرب ونزعته الاستعمارية فإننا لابد أن نعترف أيضًا بأن الأيديولوجية الإسلامية تعاني من الجمود، وتفسير البعض للشريعة يتعارض مع ضرورة بناء مستقبل جديد للمسلمين، وعلى سبيل المثال فإن القرآن الكريم يذكر في ثمانية مواقف أن الله لا يميز بين الرجال والنساء، وإنما يميز بين من يفعلون الخير ومن يقترفون الشر من الرجال والنساء على حد سواء يري جارودي أن المسلمين إذا أرادوا تحقيق نهضة سياسية وروحية للعالم الإسلامي فعليهم أن يقرءوا القرآن قراءة جديدة في ضوء معطيات العلوم الحديثة والتقدم الحضاري الذي أحرزته البشرية دون رفض أو تصادم مع التجديد والتطور، وفي نفس الوقت يرى أن تحديث العالم الإسلامي يجب ألا يطرح انطلاقًا من أيديولوجية غربية.

٣ ـ العلم والحكمة:

يميز جارودي بين العلم الإسلامي والعلم الغربي، فالعلم الإسلامي له وسائله وله غاياته، والحكمة من غاياته، وهو يبدأ من محاولة فهم الإنسان احتياجاته وأهدافه، وقد نقل الغرب العلم والمنهج التجريبي عن المسلمين ولكنهم نزعوا منه الحكمة فلم ينتبهوا إلى أساس كل معرفة وهو تعليم وحدانية الله ووحدة الطبيعة، والإسلام لا يفصل بين علم الحكمة وحكمة الوحي ولذلك يدعو جارودي إلى تصحيح مناهج التعليم في العالم الإسلامي بما يوائم عقيدة الإسلام(١).

وبين أن مأساة العالم الإسلامي أن ثقافته الممثلة في الإسلام وعقيدته ونظمه تعرضت لحملة اقتلاع من الجذور من خلال الغزو الثقافي الغربي المنظم(٢).

---

(١) د. مصطفى حلمي، إسلام جارودي بين الحقيقة والافتراء، دار الدعوة اسكندرية ١٩٩٦، ص ١٩، ٣٠، ٣١ نقلاً عن جارودي، الإسلام دين المستقبل ص ٩١، ٦٩.

(٢) المرجع السابق: ١٩٩٦ ص ١٤.

٤ ـ العقيدة والسياسية:

يرى جارودي أن الإسلام ينظم العلاقة بين العقيدة والسياسة (علاقة بين بعدين للإنسان) دون أن يخلطها مع العلاقات بين الكنيسة والدولة (العلاقة بين مؤسستين) كما حدث في أوربا وبخاصة فرنسا(١).

٥ ـ السلفية:

تكلم جارودي عن التعصب السلفي معرفًا إياه بقوله: «فالتعصب السلفي يتمثل في تعريف عقيدة دينية أو سياسية أو غير ذلك في الشكل والإطار الثقافي والذاتي الذي كان لها في فترة زمنية سابقة من تاريخها، وربطها بهذه الفترة، أي هي الاعتقاد بحقيقة مطلقة ثم فرضها»(٢)، وهو في ذلك متأثر بأفكار أوجست كونت القائلة بتدرج المجتمعات من الطور الديني إلى الفكر الفلسفي ثم التفكير العلمي الوضعي. وأي رجوع إلى مرحلة سابقة يعد نكوصًا عن المرحلة المتطورة التي بلغتها البشرية. وفات جارودي أن أوجست كونت في نهاية حياته استثنى من قانونه ـ المعروف ـ الإسلام حيث يقول: «يمكن للشرق الإسلامي أن يحقق المرحلة الوضعية النهائية (العلمية) بسرعة فائقة حينما يتجه مباشرة إلى الهدف مختصراً الطريق بالقفز من الحالة الأولى (اللاهوتية) إلى الحالة الثالثة (الوضعية) مستفيداً من تجارب الآخرين مستنداً إلى مميزات ينفرد بها الإسلام لخاصية التسامح وعبقرية الإسلام أي تأكيده المكانة السامية للفكر والعقل في المبادئ الإسلامية(٣).

٦ ـ موقفه من السنة ومن الأئمة الفقهاء:

أشيع أن جارودي طعن في السنة وينال من الأئمة الفقهاء ولكنه نفى هذه الاتهامات المنسوبة إليه حيث قال لجريدة (الشعب) القاهرية: «ينتقدوني

(١) نفس المرجع ص ١٩.

(٢) روجيه جارودي، أصول الأصوليات والتعصبات السلفية، مكتبة الشروق ١٩٩٦ ص ٩.

(٣) أفكار بلا نهاية في حضارة الغرب، إعداد وتقديم سيد أبو دومة، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٩، ص ٥١ ـ ٥٥، د. مصطفى حلمي: إسلام جارودي بين الحقيقة والافتراء، دار الدعوة اسكندرية ١٩٩٦.

ويؤاخذونني بافتراء علي أنني أزرع الشك بحق أبي حنيفة والشافعي في حين أني أقدرهما بشكل خاص كمثال يحتذى به في جميع كتبي ومقالاتي.. يتهمونني برفض السنة، وهذه كذبة أخرى لأني ألومهم على الاستخدام السياسي للسنة».

واتضح أن الحملة ضده تتصل بالمحاكمة التي تعرض لها للمرة الثانية ضمن حملة صهيونية تتهمه بالعداء للسامية بسبب صدور كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) الذي صدر بترجمة دار الغد بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

٧ ـ من أهم مؤلفاته التي تناول فيها الإسلام:

١ ـ حوار الحضارات

٢ ـ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

٣ ـ ما يعانيه الإسلام.

٤ ـ الإسلام دين المستقبل.

٥ ـ أصول الأصوليات والتعصبات السلفية.

٥ ـ رينية جنيو (عبد الواحد يحيى)

هو عالم فيلسوف حكيم صوفي يدوي اسمه في أوربا وأمريكا ويعرفه كل الذين لهم اتصال بالدراسات الفلسفية الدينية.

نشأ رينية جينو في فرنسا من أسرة كاثوليكية ثرية محافظة، نشأ مرهف الحس، مرهف الشعور، مرهف الوجدان، متجهاً بطبيعته إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة، وهاله، حينما نضج تفكيره ماعليه قومه من ضلال، فأخذ يبحث في جد عن الحقيقة.

أين الحقيقة؟ سؤال سأله لنفسه مثل كل الذين اهتدوا من المفكرين الذين أبوا أن يخضعوا للتقليد الأعمى. وبعد فترة الشك والحيرة والألم يأتي عون الله.

فبعد دراسة عميقة وجد أن النص المقدس الذي يمكن أن يعتصم به هو القرآن، حيث لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه. وهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل، لأن الله تكفل بحفظه فقال: «إنا نحن نزلنا الذكر إنا له لحافظون».

فلما درس القرآن غمره الأمن النفسي في رحابه وأحس بما في الإسلام من روحانية عالية لا توجد في المسيحية ولا حتي في التصوف المسيحي المسمى بـ (المستيسزم) فأعلن إسلامه وسمى نفسه عبد الواحد يحيى.. ولما كان رينيه جيو مفكرًا من الطراز الأول حتى إن من كتب عنه من كبار الكتاب جعلوه في المكانة بجوار أفلاطون والإمام الغزالي وأمثالهما، وقال عنه (أندريه جيد) في صراحة لا لبس فيها (إن آراء رينيه جينو لا تنقض) فإن إسلامه كان ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة، فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام، وكانوا جماعات مؤمنة مخلصة، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في الغرب.

وبمجرد إسلامه أصبح جنديًا من جنود الإسلام يدافع عنه ويدعو إليه.

فند في كتابه (رمزية الصليب) الفرية التي تقول إن الإسلام انتشر بالسيف.

كتب في مجلة (كاييه دي سود) في عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعًا عن الروحانية الإسلامية والتصوف الإسلامي، وانتهى إلى أن التصوف المسيحي المسمى بـ(المستيسزم) لا يمكنه أن يبلغ ما بلغ التصوف الإسلامي من سمو ومن جلال.

ولم يشد بالإسلام فحسب بل أشاد في جميع كتبه بالشرق، فبين أن الشرقيين ليسوا كما غرس الاستعمار في نفوسهم أقل إنسانية وأقل حضارة من الغربيين بل إنه منبع النور والهداية، ومشرق الوحي والإلهام.

وقد وقفت منه الكنيسة موقف العداء، فحرمت قراءة كتبه وهي لا تفعل ذلك إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم، بل إنها رأت فيه خطرًا يكبر كل خطر سابق فحرمت حتى الحديث عنه.

ورغم تحريم الكنيسة لقراءة كتبه فقد انتشرت في جميع أرجاء العالم، وطبعت المرة بعد الأخرى، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة.

قد اقتدى به الكثيرون من ذوي البصائر وأسلموا وألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم وعلى الخصوص في سويسرا وفي فرنسا ليكونوا وسط المادية السابغة والشهوات المتغلبة واحات جميلة يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة.

قد ألف عبد الواحد يحيى العديد من الكتب التي تدافع عن الإسلام والشرق منها كتاب (رمزية الصليب) الذي بين فيه أن الإسلام انتشر بالحكمة والموعظة الحسنة والقدوة الطيبة.

ومنها كتاب (أزمة العالم الحديث) الذي بين فيه الانحراف الذي تسير فيه أوربا.

ومنها كتاب (الشرق والغرب) وهو من الكتب التي رد فيها إلى الشرق اعتباره مبينًا أصالته في الحضارة وسموه في التفكير، وإنسانيته التي تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء وعدوانه الذي لا يقف عند حد، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال، ومظهراً في كل صفحاته من صفحته نبل الشرقيين وعلمهم، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ومع أسمي المبادئ الإنسانية.

وقد ترجمت بعض كتبه إلى لغة الهند الصينية، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا (الدالاي لاما) ولم يكن في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان إلا هو على علم بكتابات (رينيه جينو) وإذا كان (رينيه جينو) قد لقي تقديراً كبيراً في حياته متمثلاً في معاداة الكنيسة له وتحريمها كتبه، والحديث عنه، مما أدى إلى إعادة طبع كتبه عدة مرات وترجمتها إلى كثير من اللغات. فإن هذا التقدير قد زاد بعد وفاته فكتبت عنه جميع صحف العالم، وفيها بعض الصحف

المصرية والعربية وقد خصصت له مجلة «فرنسا ـ آسيا» وهي مجلة محترمة عدداً ضخمًا كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين وافتتحته بمقالة لكاتب فرنسا الأكبر «اندريه جيد» الذي أشاد فيه أيما إشادة بـ «رينيه جينو». وخصصت مجلة أبتوديتزا «وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كله لسان التصوف الصحيح، عدداً ضخمًا من أعدادها، كتب فيه كبار الكتاب الغربيين والشرقيين وخصص له الكاتب الصحفي الشهير «بول سيرات» كتاباً ضخمًا تحدث فيه عن حياته وعن آرائه وجعله في منزلة الغزالي وأفلاطون، وكتب عنه الدكتور عبد الحليم محمود تقريراً لإحدى الجامعات المصرية بين فيه مكانته العلمية[١].

ويمكن إيجاز أهم الأسباب التي دفعت بالمفكر «رينيه جيو» إلى الإسلام في الآتي:

١ ـ ما اكتشفه من فساد العقائد المسيحية في التثليث وتجسد الإله، والصلب.

٢ ـ التأثر بالروحانية الموجودة في الإسلام من خلال قراءته لابن رشد وجلال الدين الرومي وابن العطارُ صدر الدين الشيرازي وغيرهم لذلك كان يشيد بالتصوف الإسلامي.

٣ ـ تأثره بالقرآن الكريم وما فيه من روحانيات وأحكام من ناحية وعدم استطاعة أي يد أن تمتد إليه بالتحريف على مدى القرون من ناحية أخرى.

٤ ـ تأثر بأسلوب الإقناع في الدعوة الإسلامية، وما حمله الفاتحون معهم من أخلاق عالية وتصرفات نبيلة.

٥ ـ تأثره بحضارة الشرق وما تحمله من أصالة وإنسانية.

٦ ـ نفوره من المادية السابغة والشهوات المتغلبة التي تسود الحياة في أوربا.

(١) تيين دينية: محمد رسول الله: ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ٢٧ ـ ٣٠.

٦ ـ محمد أسد

كان اسمه ليوبولد فايس. ولد في ليفو بالنمسا (تتبع الآن بولندا) سنة ١٩٠٠م، ولما بلغ عمره اثنين وعشرين عاماً زار الشرق الأوسط، ثم أصبح بعد ذلك مراسلاً أجنبيًا مرموقًا لجريدة « فرانكفور رزنتج » وبعد إسلامه تنقل في العالم الإسلامي عمل فيه من شمال أفريقيا إلى أفغانستان شرقًا وبعد سنوات من الانقضاء لدراسة الإسلام صار علماً من أعلام الإسلام في العصر الحديث. وبعد قيام باكستان اشتغل مديراً لدائرة تجديد الإسلام في البنجاب الغربية ثم صار فيما بعد مندوبًا مناوبًا للباكستان في الأمم المتحدة، وله كتابان هامان هما « الإسلام على مفترق الطرق » و« الطريق إلى مكة » وأصدر جريدة شهرية اسمها: « عرفات » وقام بترجمة معاني القرآن باللغة الإنجليزية، فهو كاتب صحفي ومؤلف سياسي ولأنه كان يعمل مراسلاً لبعض أمهات الصحف الأوربية وتجول في بلاد آسيا وأفريقيا احتك بنظم اجتماعية ونظرة إلى الحياة تختلف اختلافًا أساسيًا مما هي الحال في أورربا الأمر الذي جعله يفكر في الإسلام، كيف اعتنق الإسلام ولماذا اعتنقه؟ لنستمع إليه وهو يحكي لنا تجربته في ذلك يقول(١):

« في عام ١٩٢٢ تركت النمسا بلادي لأتجول في أفريقيا وآسيا بصفتي مراسلاً لبعض أمهات الصحف الأوربية، ومنذ ذلك الحين قضيت كل أوقاتي تقريبًا في الشرق الإسلامي، كان اهتمامي بالشعوب التي احتككت بها في أول الأمر اهتمام رجل غريب، لقد رأيت نظامًا اجتماعيًا ونظرة للحياة أكثر هدوءاً، أو إذا شئت أكثر إنسانية إذا قيست تلك الحياة بطريقة الحياة الآلية العملية في أوربا، ثم قادني هذا الميل إلى أن أنظر في أسباب هذا الاختلاف وهكذا أصبحت شديد الاهتمام

(١) ... مجموعة مقالات النخبة من رجال الفكر عن سبب إسلامهم مكتبة الحرمين للعلوم، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ دار الاعتصام ص ١٢ ـ ١٦.

بتعاليم الإسلام الدينية إلا أن هذا الميل لم يكن في الزمن الذي نتكلم عنه كافيًا لجذبي إلى حظيرة الإسلام، ولكنه كان كافيًا لأن يعرض أمامي رأيًا جديداً في إمكان تنظيم الحياة الإنسانية بأقل قدر ممكن من النزاع الداخلي وأكبر قدر من الشعور الأخوي الحقيقي أن الحياة الإسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيداً جداً عن الإمكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الإسلام، من ذلك مثلاً أن كل ما كان في الإسلام تقدمًا وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخيًا وركوداً وكل ما كان في الإسلام من قبل كرمًا وإيثاراً أصبح اليوم بين المسلمين ضيقًا في النظر وأنانية وحبًا للحياة المهنية.

لقد شجعني هذا الاكتشاف، ولكن الذي حيرني كان ذلك التباعد البين بين الماضي والحاضر من أجل ذلك حاولت الاقتراب من هذه المشكلة البادية أمامي من ناحية أشد صلة، لقد تخيلت نفسي واحداً من الذين يهمهم الإسلام، على أن ذلك كان تجربة عقلية بحتة لكنه كشف لي في وقت قصير عن الحل الصحيح، ولقد تحققت أن ثمة سببًا واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، ذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئًا فشيئًا يتركون اتباع روح التعاليم الإسلامية.

نتج عن ذلك أن الإسلام ظل بعد ذلك موجوداً ولكنه كان جسداً بلا روح ثم إن العنصر الذي خلق قوة الكيان الإسلامي من قبل هو المسئول الآن عن ضعف المسلمين. فإن المجتمع الإسلامي بني منذ أوله على أسس دينية. وضعف هذا الأساس قاد بالضرورة إلى إضعاف البناء الثقافي فيه، وربما كان سببًا لاضمحلاله بالكلية وكنت كلما زدت فهمًا لتعاليم إسلامية من ناحيتها الذاتية، وعظم ناحيتها العملية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقًا تامًا على الحياة الحقيقية، لقد ناقشت هذه المشكلة مع كبير من المفكرين المسلمين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (في الهند) ومن

البسفور إلى بحر العرب، فاصبح ذلك تقريبًا شذى في نفسي طفل في النهاية على سائر أوجه اهتمامي بالعالم الإسلامي من الناحية الثقافية.. ثم زادت رغبتي في ذلك شدة حتى إني وأنا غير مسلم أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقًا على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم.

لم يكن هذا التطور بينا في نفسي، إلى أن كان يوم، وذلك في خريف عام ١٩٢٥ ـ وأنا حينئذ في جبال الأفغان. فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله «ولكنك مسلم» غير أنك لا تعرف ذلك من نفسك لقد أثرت في هذه الكلمات، غير أني بقيت صامتًا ولكن لما عدت إلى أوربا مرة ثانية في عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية الوحيدة لميلي هذا أن أعتنق الإسلام.

هذا القدر من الأحوال التي لابست اعتناقي الإسلام يكفي في هذا المقام: ومنذ ذلك الحين وهذا السؤال يلقى علي مرة بعد مرة؛ لماذا اعتنقت الإسلام، وما الذي جذبك منه خاصة؟ وهنا يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جوابًا شافيًا لم يكن الذي جذبني تعليمًا خاصًا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب، المتراص مما لا تستطيع له تفسيراً. من تلك التعاليم الأخلاقية بالإضافة إلى منهاج الحياة، ولا أستطيع اليوم أن أقول: إن ناحية من النواحي استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة، كل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضًا ويشد بعضها بعضا، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص، ولعل هذا الشعور من أن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد وضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي، وربما كانت مع هذا كله أيضًا مؤثرات أخرى يصعب عليّ الآن أن أحللها، وبالإيجاز لقد كان ذلك قضية من قضايا الحب، والحب يتألف من أشياء كثيرة: من رغباتنا وتوحدنا، ومن أهدافنا السامية وعثراتنا، ومن قوتنا وضعفنا

وبين ذلك في قوله[1]: . . . «فرق آخر بين الإسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة، ذلك أن الإسلام على أنه تعاليم - لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بموارد الطبيعة فيما بين الإنسان وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضاً بمثل هذا التأكيد على الأقل.. للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية، وترتيبًا على ماسبق قرر محمد أسد أن الإنسان يمكن أن يبلغ الكمال في إطار حياته الدنيوية أي وهو يمارس حياته ولا ينعزل عنها ولايشترط لبلوغ الكمال أن يميت المرء شهواته الجسدية، والإسلام بذلك يخلتف عن سائر النظم الدينية يقول في ذلك:

«نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا أن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسيدية ولا هو يبعدنا بسلسلة متلاحقة من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة كما هو الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لايتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم، كلا إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوى في حياته هو[2] ويضيف إلى ذلك قوله: «ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة»[3].

ويبين أن هذه الميزة كانت سببًا في الإقبال على الإسلام وقبوله أينما حل وسببًا في ظهور الإسلام أبان قوته فيقول في ذلك: «لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطًا للنجاة في الآخرة تلك الخاصية الظاهرة في الإسلام

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤ - ٢٥.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨.

تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا، الذي كان في رسالته الدليل الهادي للإنسانية، كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها: في المظهر الروحي والمظهر المادي، وإنه لمن الجهل بالإسلام أن يحاول أحدنا أن يفرق بين أوامر للرسول تتعلق بأمور تعبدية وروحية خالصة وبين غيرها التي تتصل بقضايا المجتمع وقضايا حياتنا اليومية وقضايانا وإن القول بأنا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول، ولكننا لسنا مجبرين على أن نتبع الأوامر المتعلقة بالنوع الثاني إنما هو سطحي، وهو فوق ذلك مناهض لروح الإسلام»(١).

يتحدث محمد أسد بإعجاب عن نظرة الإسلام إلى الإنسان حيث يقرر الإسلام أن الإنسان خلق في أحسن تقويم وأن الأصل في طبيعته الخير على خلاف الهندوكية التي تؤكد أن الإنسان خلق دنسًا أو على خلاف النصرانية التي تقول إن الإنسان خلق خاطئا فالإنسان حسب العقيدة الإسلامية - في الأصل خير طاهر ولكن الجحود وترك الأعمال الصالحات يهدمان هذا الكمال الأصلي؟ قال تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾** [التين: ٤، ٥]. ومن مزايا الإسلام التي يراها محمد أسد أن الإسلام ليس فيه خطيئة أصلية موروثه، فبنوا آدم لايتحملون وزر خطيئة أبيهم آدم حينما عصى وأكل من الشجرة بعد أن سمع نصيحة الأمير الجهنمي للظلمة والمادة (يعني إبليس) لا حاجة إذا لأن يضحي المسيح بنفسه ليفدي البشرية ويخلصها من الخطيئة الموروثة لأنه ليست هناك خطيئة موروثة وفي الإسلام كل مسلم رهين بما كسب(٢) قال تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾** [المدثر: ٣٨] قال تعالى: **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾** [النجم: ٣٩].

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩.

وكذلك كان شأني، لقد هبط عليّ الإسلام كاللص الذي يهبط المنزل في جوف الليل، ولكنه لا يشبه اللص؛ لأنه هبط علي ليبقى إلى الإبد.

ومنذ ذلك الحين سعيت لأتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه: لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لقد درست لغة الإسلام وتاريخ الإسلام، وكثيراً مما كتب عنه، أو كتب في الرد عليه، وقد قضيت أكثر من خمس سنوات في الحجاز ونجد وأكثر من ذلك في المدينة ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه فيها، وبما إن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار فقد تمكنت من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي في أيامنا هذه والدراسات والمقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من جهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال - بالرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخير المسلمين - أعظم قوة ناهضة بالهمم عرفها البشر، هكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد ومن الأمور التي تجعل للإسلام ميزة على غيره من الأديان والتي جذبت محمد أسد إلى الإيمان به أن الإسلام يجمع بين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين العبادة والعمل، وهو منهج للحياة لنستمع إليه يقول: «الإنسان في الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليس ثمة حاجة إلى تقشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى التطهير الروحي، ذلك أمر غريب كل الغرابة عن الإسلام فالإسلام ليس عقيدة صوفية ولاهو فلسفة، ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الواجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية، وإنك لترى هاتين الجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضاً أساسيا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً أمر يؤكده الإسلام، إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة[1].

(١) نفس المرجع السابق ص ١١.

هو السبب على ما أظن لهذا الشكل في الصلاة الإسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية، ويؤكد هذا المعنى قائلاً: إن الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز إلى وحدانية الله وأن الطواف حولها يرمز إلى جهود الحياة الإنسانية ويبين أن العبادة في الإسلام ليست حضوره في طقوس ومراسم معينة ولكن كل الأعمال التي يقوم بها المسلم امتثالاً لأمر الله في إطار الشرع حتى ولو ظهرت على أنها أعمال تافهة تدخل في مسمى العبادة حتى إن أعمال الإنسان كلها تسمى عبادة لله مطبقًا بذلك قول الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾. ولنستمع إليه وهو يؤكد هذه الحقيقة معجبًا بها قائلاً: «يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر» إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخضوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضًا(١).

ويضيف أن تطبيق الأوامر الشرعية في الحياة العملية مقصد من مقاصد الدين وبه تتحق المثل العليا في الوجود والواقع ويؤكد ذلك قائلاً: «إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل.. إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة المتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها، ويعلمنا ثانيًا أن بلوغ هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا ليكون لحياتنا المادية وحياتنا الروحية. يجب أن تقترن هاتين الحياتين في وعينا وفي أعمالنا، لتكون كلا واحداً متسقا، إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في طيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة لحياتنا»(٢).

قد جذب محمد أسد أيضًا إلى الإسلام كونه لايهتم فقط بالعلاقة بين الإنسان وخالقه وإنما يهتم أيضًا بالعلاقات الاجتماعية فينظم علاقة الأفراد بعضهم ببعض

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٤.

١٩٢١م أقمت في القاهرة شهراً زرت أثناءه الأزهر. وإلى جانب اللغة العربية تعلمت اللغة السنسكريتية ولغتي الملاي وجاوه، وفي سنة ١٩٢٧م سافرت إلى جزر الهند الهولندية (وهكذا كان اسمها في ذلك الوقت) لتدريس اللغة الجاوية وتاريخ الثقافة الهندية في إحدى المدارس الثانوية الخاصة بالدراسات العليا في جاكارتا.

تخصصت مدة خمسة عشر عامًا في دراسة اللغة والثقافة الجاوية قديمًا وحديثًا، وفي هذه الفترة كان اتصالي بالإسلام قليلاً، وكنت منقطعًا تمامًا عن اللغة العربية.

قضيت بعد ذلك فترة عصيبة كنت فيها أسير حرب عند اليابنيين وعدت بعدها إلى هولندا ١٩٤٦م حيث التحقت بعمل جديد في المعهد الاستوائي الملكي في أمستردام هنا أتيحت لي الفرصة لمعاودة دراسة الإسلام، بمناسبة تكليفي بكتابة دليل موجز عن الإسلام في جاوه.

شرعت في دراسة عن دولة باكستان الإسلامية الجديدة واختتمت دراستي برحلة إلى باكستان في شتاء سنة ١٩٥٤م-١٩٥٥م، ولما كانت دراساتي السابقة عن الإسلام محصورة فيما كتبه الأوربيون وحدهم، فإنني عندما وصلت إلى لاهور، وجدتني فجأة أمام واجهة أخرى جديدة عن الإسلام فطلبت من أصدقائي المسلمين أن أصحبهم إلى صلاة الجمعة في المساجد، من تلك اللحظة بدأت أكتشف القيم الكبرى في دين الإسلام وبدأت أشعر في قرارة نفسي أنني مسلم منذ طلب إلي أن أخطب الناس في أحد المساجد بلاهور وصاحبت بعدها من الإخوة والأصدقاء الجدد من لا أحصيهم عدداً، وكتبت في تلك المناسبة مقالاً نشرته في مجلة (باكستان كوارترك) في المجلد الخامس رقم سنة ١٩٥٥م، وضمنته السطور التالية:

«ثم زرنا بعد ذلك مسجدا أصغر كثيراً؛ وخطب الجمعة عالم يتكلم الإنجليزية بانطلاق له مركز مرموق في جامعة البنجاب، قال لجموع المصلين إنه تعمد تطعيم خطبته باللغة الأردية بكلمات إنجليزية أكثر من المعتاد، حتى ييسر بذلك فهمها على أخيهم الذي جاء من بلاده البعيدة في هولندا، وبعد الخطبة صلى الحاضرون ركعتين خلف الإمام، وبعدها صلى من شاء ركعات أخرى.

كنت على وشك الانصراف حين التفت إلي «علامة صاحب» الإمام وإشار إلي أن الجموع تنتظر مني أن ألقي فيهم كلمة، وكان عليه هو أن يترجمها إلى الأردية فاتجهت إلى مكان الميكروفون وبدأت الحديث في هدوء ذكرت أنني أتيت من بلاد بعيدة ليس فيها من المسلمين إلا القليل، وإنني أحمل تحياتهم إلى إخوانهم الحاضرين في المسجد الذين كان من حسن طالعهم أن أقاموا دولتهم الإسلامية منذ سبع سنوات تمكنت فيها من قصر المدة من تدعيم مكانتها، وأنها رغم المشاكل والعقبات التي صادفت نشأتها لتنظر في اطمئنان إلى مستقبل مزدهر.

ووعدت المستمعين أن أكون لسان صدق عند عودتي إلى بلادى لما لاقيته من عطف وكرم من جميع قطاعات شعب باكستان المسلم.

ماكاد الجمع يستمع إلى الترجمة الأردية لهذه الكلمات، حتى سرت أثارها فيهم بقوة أذهلتني، وقبل أن أعرف ماذا جرى بينهم رأيت مئات المصلين مسارعين إلي شباباً وشيوخاً يشدون على يدي مهنئين وعلى وجوههم مشاعر المحبة العميقة، غير أن أشد ما أسر قلبي وسلب لبي، كان البريق الهادئ العميق الذي كان يشع من عيون الحاضرين، وفي هذه اللحظة شعرت أنني أصبحت أحد أفراد الأسرة الإسلامية العظيمة، التي تمتد في أرجاء الدنيا، وعندئذ أحسست بسعادة ليس في مقدوري وصفها.

ويرى محمد أسد الإسلام لا يهمل الدنيا وفي ذات الوقت يعلمنا ألا نعلق على الحياة أهمية مغالي فيها والتي تقول بها المدينة الغربية الحاضرة، فالمسلم لايعبد الحياة، ولكنه ينظر إليها على أنها دار ممر ضرورية ولها قيمة عظمى، ولكن يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية فقط إن الإسلام يتخير الطريق الوسط بين آلية الحياة في الغرب الحديث الذي يقول «مملكتي في هذا العالم وحده» وبين احتقار الحياة الذي يجرى على لسان النصرانية: إن مملكتي ليست من هذا العالم»(١) ومن ثم يعلمنا القران الكريم أن ندعوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، فالإنسان في الإسلام مسئول عن كل أعماله جليلة أو ضئيلة سواء كانت هذه الأعمال متصلة بالمطالب الروحية أم المطالب المادية، فيجب مراعاة الحق في كل أعمالنا. ومن محاسن الإسلام التي يراها محمد أسد أنه يجعل كل مسلم مسئولاً عن نشر السعادة فيمن حوله و مسئولاً عن إقرار الحق وإزهاق الباطل في كل زمان وفي كل ناحية(٢)، ويؤيد ذلك بقوله تعالي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولذلك فهو ينظر إلى الفتوحات الإسلامية بهذا المنظار ويفرق بينها وبين المطامع الاستعمارية في نهب ثروات الشعوب يبين أن جهداً من هذا النوع لم يحث عليه حب السيطرة ليس فيه شيء من الأنانية الاقتصادية أو القومية، ولاشيء من الطمع في أن تزيد أسباب رفاهيتنا الخاصة على حساب شعب آخر. ولم يقصد منه في يوم من الأيام إكراه غير المؤمنين على الدخولَ في الإسلام، لقد قصد به دائمًا ما يقصد به اليوم من بناء أطار عالمي لأحسن ما يمكن من التطور الروحي للإنسان، إن الأخلاق في الإسلام تحيا مع المسعاة الإنسانية للعمل على نصرتها في الأرض»(٣).

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٠.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣١.

(٣) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣١.

نخلص مما سبق إلى أن العوامل التي دفعت محمد أسد إلى أن يعتنق الإسلام تتلخص في شيوع النمط الإنساني في الحياة في البلاد الإسلامية الذي يختلف عن النمط الآلي للحياة في الغرب ثم ذلك البناء المتكامل للإسلام الذي يهتم بالروح لا يهمل المادة ويدعو للاستعداد للآخرة ولا يهمل الدنيا - يهتم بالمجتمع ولا يهمل الفرد - يهتم بالعلاقة مع الخالق كما يهتم بالعلاقة مع المخلوق، وهو دين يراعي الطبيعة البشرية فلايميت ما جبل عليه الإنسان من الشهوات لكن يهذبها وينظم طريقة إشباعها وهو دين لا يحتقر الأصول التي بنى عليها الإنسان وفطر، فيجعل الأصل في الإنسان حب الخير، وأصل الخلقة حسن التقويم.. وأنه دين لا يعترف بالخطيئة الموروثة وأن كل فرد يتحمل مسئولية ماجنته يداه لما جناه غيره، وإنه دين يحث كل فرد على أن يعمل من أجل نشر السعادة وإحقاق الحق وإبطال الباطل في كل زمان ومكان وإن مقصد الجهاد في الإسلام ليس نهب الثروات واستذلال الشعوب وإنما نشر الفضائل والأخذ بيد البشرية إلى السمو الخلقي والروحي.

٧ - مستر لال ملما (هولندا)

Mr . R . L . Mellema

عالم في تاريخ الأجناس البشرية كاتب وأديب هولندي عمل رئيسًا للقسم الإسلامي في المتحف الاستواني بأمستردام وله عدة مؤلفات يحكي حكايته مع الإسلام ليبين أجمل ماراقه في الإسلام وما الذي اجتذبه للإيمان به فيقول: «بدأت بدراسة اللغات الشرقية في جامعة ليدن عام ١٩١٩م وحضرت محاضرات البروفسور (س. سنوك هيرجرونج C.Snouck Huyrgronje عالم اللغة العربية المعروف. فتعلمت العربية، وقرأت وترجمت تفسير البيضاوي للقرآن وخواطر الغزالي عن الشريعة، ثم قرأت عن تاريخ الإسلام ومذاهبه في الكتب الصغيرة المتداولة في أوربا وكان ذلك هو الشيء الممكن العادي في ذلك الوقت. وفي سنة

وهكذا علمني شعب باكستان أن الإسلام ليس مجرد علم بتفاصيل الشريعة، وأن الإيمان بالقيم الروحية الإسلامية يأتي في المقدمة وأن العلم واجب للوصول إلى ذلك الإيمان.

والآن نأتي إلى السؤال: «ما هو أجمل ما راقني في الإسلام، وما هو على التحديد ذلك الشيء الذي اجتذبني إلى الإيمان به»؟

سأحاول الإجابة في ايجاز على هذين السؤالين في ست نقاط:

١ ـ الإيمان بالله وحده له السلطان المطلق فكرة تقتنع بها كل العقول المفكرة، وأنه الله الذي يحتاج إليه الخلق جميعًا، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه متصف بأكمل الكمال في الحكمة والقوة والجمال، ليس لبره ورحمته حدود.

٢ ـ الصلة بين خالق الكون ومخلوقاته، التي ميز الله الإنسان عليها، صلة مباشرة، فلا يحتاج المؤمن أى وساطة، كما لا يحتاج الإسلام إلى كهنوت. ومن تعاليم الإسلام أن الصلة بالله ترجع إلى الإنسان نفسه، وإن على الإنسان أن يعمل في حياته الدنيا للحياة الأخرى، وأنه مسئول عن عمله ولن تكفر ذنوبه تضحية نفس أخرى بريئة، وأنه لايكلف الله نفساً إلا وسعها.

٣ ـ مبدأ التسامح في الإسلام، كما يبدو في هذه الكلمات الخالدة ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ وإن المسلم مطالب بالبحث عن الحق حيثما وجده ومطالب كذلك باحترام مافي الأديان الأخرى من خير.

٤ ـ مبدأ الأخوة في الإسلام الذي يمتد ليشمل البشرية عامة، بغير اعتبار للون أو جنس أو عقيدة وينفرد الإسلام بين كل الأديان في أنه الوحيد الذي طبق هذا المبدأ عمليًا، والمسلمون أينما كانوا على سطح هذه المعمورة، ينظر الواحد منهم إلى الآخر نظرة الأخ لأخيه.

والمساواة بين الناس جميعًا أمام الله تتمثل واضحة في لباس الإحرام في الحج.

٥ ـ تقدير الإسلام للعقل والمادة ولقيمة كل منهما، باعتبارهما حقائق قائمة، وأن العقل في الإنسان يسير جنبًا إلى جنب مع احتياجاته الجسدية، وأن على الإنسان أن يسلك في الحياة سبيلاً يهيمن فيه بالعقل على المادة، ويخضع فيه المادة لحكم العقل.

٦ ـ تحريم الخمور والمواد المخدرة، وهذا بالأخص أمر يمكن أن يقال فيه إن الإسلام سبق به زمانه.

المبحث الرابع

الإسلام دين المستقبل

لقد أسفر التقدم المادي فيما أسفر عنه عن الخراب والدمار في كثير من أنحاء العالم وازداد الفقراء فقراً والأغنياء غنى، بسبب ضعف القيم الروحية في المجتمعات الغربية مما أدى إلى عدم العدالة في توزيع الثروة في العالم ودفع الدول الغنية لاستغلال الدول الفقيرة فلم يستفد الفقير من غنى الغني بل أضره ذلك.

وهذه الأزمة ناتجة عن عدم ارتقاء القيم الروحية في عالم الغرب إلى ما ارتقت إليه القيم المادية، وأصبح يعيش في خواء روحي، وما قيم الحرية والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان التي يتشدق بها الغرب إلا ألفاظًا تتخذها بعض الدول ستاراً وراء سعيهم للسيطرة على مقدرات الدول المتخلفة.

والبشرية في حاجة إلى دين يسد حاجتها الروحية، ويعالج ما تعانيه من خواء روحي ويراعي في نفس الوقت الاحتياجات المادية للبشرية.

والإسلام هو الدين المرشح لهذه المهمة لما يتسم به من العظمة وما يشمله من المحاسن التي تغري غير المسلمين بالدخول فيه وتؤهله لكي يكون دين المستقبل في هذا العالم.

ونحن في هذا الفصل نذكر نماذج من هذه المحاسن التي تفوق الحصر.

وقبل أن نبدأ في ذلك يحسن بنا أن نشير إلى الدور البارز الذي يبذله الأزهر الشريف لتوضيح هذه المزايا والمحاسن، وتوضيح حقيقة الإسلام وما يتسم به من البساطة والوضوح والشمول، وذلك من خلال العديد من الكتب الصادرة باللغات الأجنبية ويأتي في مقدمتها كتاب الدكتور عبد الودود شلبي باللغة الإنجليزية بعنوان «الإسلام دين الحياة» "Islam : Religion of life" ذلكم الكتاب الذي

حاول فيه مؤلفه الحديث عن مزايا الإسلام وأصوله ومناهجه، وأثره في الحياة المعاصرة، وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، وقارن فيه بين سماحة الإسلام مع مخالفيه على مر العصور بين التعصب والاضطهاد الذي مارسه الغرب على المسلمين في الأندلس وأثناء الحروب الصلبية[1].

من الجهود المبذولة أيضًا في هذا الإطار ما كتبه الدكتور عبد الشافي عبد اللطيف في كتابه القيم الذي ألفه باللغة الإنجليزية تحت عنوان «ظهور الإسلام» The rise of Islam حيث يوضح فيه أن خمس سكان العالم من المسلمين وهم يعتبرون في المرتبة الثانية من حيث العدد في كثير من بلاد العالم وينشرون مبادئ الإسلام السمحة في كل البقاع ويحظون باحترام وتقدير من يتعاملون معهم رغم ما يثار ضدهم من زوابع وأعاصير[2].

يؤكد المؤلف على قدرة الإسلام على البقاء وعلى الذيوع والانتشار رغم ما يحاك ضده من مؤامرات صليبية وصهيونية لوأده والقضاء عليه.

ويضرب المثل لحيوية الإسلام وقدرته على الانتشار بما حدث من فتوحات وانتشار للثقافة الإسلامية في زمن الأمويين والعباسيين الذين حرصوا على ترجمة الثقافة العالمية إلى لغة الإسلام، اللغة العربية ثم هضموها ونقحوها وأضافوا إليها ووضعوا عليها بصمتهم ونقلوها إلى أوربا حيث بها تأثر الغرب حتى عصر النهضة الأوربية[3].

تلك الحيوية والقدرة على الانتشار السريع وراءها ما يتسم به الإسلام من سمات، وما يبرز فيه من محاسن تؤهله للتأثير في القلوب وغزوها وما سنذكره من محاسن ومزايا هو قطرة من بحر وجزء من كل.

---

(١) عبد الودود شلبي: الإسلام دين الحياة Islam: Religion of life، الأزهر الشريف ١٩٩٢.

(٢) د. عبد الشافي عبد اللطيف: ظهور الإسلام the reise of Islam، سفير، القاهرة ص ٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥٠.

١ ـ وسطية الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

الوسطية تعني المثالية والعدالة والأفضلية وهو المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ «أي أنفعهم وأعدلهم وأصدقهم».

والوسطية تعني أيضًا التوسط بين المادية والروحانية أي أن شريعتها تهتم بالروح وفي نفس الوقت تعطي الجسم حقه وحظه ولا تميت الغرائز بل تهذبها وإذا كانت العبادة في الإسلام مقصدها تطهير الروح فإنها تهدف أيضًا من خلال تطهير الروح إلى إصلاح الجماعة الإنسانية وتطهيرها من أرجاس الأهواء والشهوات والشرور، وتهتم الشريعة الإسلامية بأمري الدنيا والآخرة معًا.

فالوسطية إذن تعني الاهتمام بالروح والجسد، الاهتمام بالفرد والمجتمع، الاهتمام بالدنيا والآخرة، الاهتمام بالعبادة والعمل وتعني أيضًا رفض الغلو في العبادة ورفض الغلو في العقيدة ورفض الغلو في التمتع بالدنيا ومن ثم فإنه لا رهبانية في الإسلام كما قال ﷺ فلو اعتكف كل الناس في الصوامع لتعطلت الحياة.

ولما كان الإسلام حريصًا على تهذيب النفس من غير إهمال الجسم كانت العبادة فيه ليس فيها تعذيب للجسم لتقوية الروح أو تهذيب النفس، إنما الذي اشتمل عليه هو تقوية الإرادة الإنسانية والتحكم في الشهوات، فيقوى الجسم والروح معًا ولتحقق السعادة الحقيقية في هذه الأرض(١).

ولذا عندما رأى رسول الله ﷺ ـ وهو يخطب ـ رجلاً قائمًا فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»(٢).

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم: موقف الإسلام من الدنيا، هجر للطباعة والنشر، ١٩٨٦.

(٢) رواه البخاري.

ومن الآيات التي تبين منهج الإسلام في الاهتمام بكل من الجسد والروح وبالدنيا والآخرة.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

[النساء: ١٣٤]

وقوله تعالي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١-٣-٣٣].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

أما الأحاديث التي تدل على هذا المنهج فمنها:

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً وقال الآخر: وأنا أصوم النهار ولا أفطر أبداً، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا!؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

(١) متفق عليه (البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١).

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال ما شأنك؟! قالت: أخوك أبو الدرداء ليست له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال له: كل فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان قم الآن؛ فصليا جميعا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه فأتي النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

والإسلام يجمع بين العبادة والعمل والعبادة والأخلاق.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٢) رواه مسلم (٩١) ومعنى غمط الناس احتقارهم، ومعنى بطر الحق رده على قائله.

الإسلام يعالج ما نتج عن اهتمام المسيحية بالروح فقط واهتمام المدنية الغربية بالمادية البحتة وما نتج عن ذلك من تعاسة وشقاء.

قد انتبه علماء الغرب إلى خطورة التركيز على الجانب المادي في المدينة الحديثة يقول العالم الفرنسي الدكتور دي بروجبي Dr De Brogbi

«إن الخطر الكامن في المدنية المادية البحتة يمكن تلخيصه في أنه موجه إلى هذه المدنية نفسها هذا الخطر هو الاختلال وعدم التوازن المتوقع حدوثه إذا لم تجد الحياة الروحية لها طريقًا إلى جانب المدنية المادية لتعيد إلى الحياة الإنسانية توازنها الذي تفتقر إليه»(١).

ويقول لوردسنل: «لقد أسسنا بنيانًا ظاهره النبل والتناسق، ولكننا أهملنا المتطلبات الرئيسية الملازمة لتنظيم داخليته، لقد وضعنا التصميم الدقيق للوعاء وزخرفنا ظاهره وبدا جميلاً نظيفًا، أما باطنه فسلب واغتصاب وتطرف؛ إننا لم نستخدم ما عندنا من علم وقوة متزايدين على مر الأيام إلا للمتاع الجسدي، ولكننا تركنا الجانب الروحي ضعيفًا قاصرًا(٢).

فالإسلام إذن دين الوسطية لأنه دين ينظر إلى الحياة من جميع وجوهها فلا يجعل وجهاً منها يطغى على غيره، ولا أن يتضاءل أحدها حتى يتلاشى في سائرها؛ فهو لا يسعى للآخرة دون الدنيا ولا يهتم بالدنيا وحدها دون الآخرة، ولكنه دين ينظر إلى الحياة الإنسانية على أنها وحدة كاملة بكل ما فيها: إن الإسلام يهتم بالحرب كما يهتم بالسلم ويستحسن الزهد المعتدل كما يحث على الأخذ من الدنيا بنصيب وافر يقول الإمام الغزالي: (٤٥٠-٥٠٥هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م) «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر

(٢) لماذا أسلمنا، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ص ٣٥.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦.

الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا فمن كانت جميع أوقاته غارقة بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة فإذن إن نظام الدنيا حتى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين»(١).

وكذلك يوازن الإسلام بين الفرد والمجتمع، فقد ربطت مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع وعُلِّقت كل منهما على الأخرى فلا يضحي الإسلام بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد. يقول الماوردي (٤٦٤ - ٤٥٠هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨م) «اعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما ما ينتظم به أمور جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها، فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا مصاحبة، من صلحت حاله، مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى الله فسادها ويقدح فيه اختلالها لأن منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا ونظام أمورها لم يجد لصالحها ولا لاستقامتها أثر لأن الإنسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح إلا إذا أصلحت له ولا يجد الفساد إلا إذا أفسدت عليه لأن نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره إلى ما يخصه مصروفًا وفكره على ما يمسه موقوفًا(٢).

٣ ـ عموم الرسالة وشمولها:

إن الإسلام ليس دينًا لأمة خاصة ولا دنيا لبلد بعينه ولا دينا يناسب زمنًا واحدًا، إنه دين يتفق مع كل مكان وزمان ويصلح لكل قوم ولكل حال من أحوال المدنية.

(١) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ط القاهرة ـ محمود علي صبيح، ص ١٣٥.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي: أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا تقديم دكتور عبد الحكيم راضي، هيئة قصور الثقافة، سلسلة الزخائر رقم ١٢٧، ٢٠٠٤ ـ ص ١١.

ولذلك يخاطب ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الناس جميعًا على اختلاف أجناسهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ويخاطبهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويخاطبهم قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ويبين سبحانه وتعالى أن محمداً ﷺ مبعوثًا لكل الخلق فيقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] ويقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويقول ﷺ: «كان كل نبي يبعث في قومه خاصة وبعثت للناس كافة».

وكما أنه دين يصلح لكل قوم ولكل زمان وكل مكان لأنه نبيه هو خاتم النبيين ولا نبي بعده، فهو أيضًا دين يشمل جميع مناحي الحياة «فالسياسة والعلم والفلسفة، والإحسان والحرب والتجارة، والزواج، والدولة، والأسرة كلها تنطوي في الإسلام كما تنطوي الجبال والأنهار والأشجار في نور الشمس، فإهمال الإسلام إذن ليس معناه إهمالاً للدين فحسب، بل إهمال للحياة بأسرها»(١).

وبناءً على ذلك فإن أصول الإسلام ومبادئه لا تزال فيها قوة الاستمرار حتى بعد أن ضعف أهله، وذلك لأن الإسلام شُرِع لإحداث إصلاح عام بين البشر، يقول محمد فريد وجدي: «قام الإسلام على مبدأ إصلاح العقول، يلفتها إلى أعلام

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ـ دار الاعتصام ـ ت. ص ١٠.

الكون، عدم الخبط فيما لا تعلم وعلى إصلاح القلوب بتخليصها من العقائد الموروثة، وإقامتها على الفطرة السليمة، وعلى إصلاح المعيشة بحضها على استخراج كنوز الأرض وتخليص الإنسان من جرائم المنكرات الخلقية، وعلى إصلاح الإنسانية قاطبة من جهتها المادية والروحية واعتبارها كلا لا يتجزأ وشُرِع ليكون إصلاحًا لهاتين الجهتين معا(١).

« جاءت الأديان إقليمية وقومية وجاء الإسلام عالميًا للبشرية كلها، خاتمة لها جميعًا ونزل في الأمة العربية بلسانها رابطًا أول الدين بآخره، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعًا من لدن آدم ونوح وهو دين إبراهيم أبي الأنبياء الذي امتد في إسماعيل وإسحاق ومنه جاء موسى وعيسى.

ومن أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار:

١ ـ تطابقه مع الفطرة الإنسانية.

٢ ـ قدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات.

٣ ـ طابعه الإنساني في الإخاء البشري ورفع إصر عبودية الوثنية في الفكر(٢).

ويقول في بيان شمول الإسلام: « أفرغ الإسلام مفاهيمة وتعاليمه ومقاصده التي تشمل مختلف جوانب الحياة من سياسية واقتصادية وأخلاقية وتربوية في صيغة كلية وأصول عامة ثم أطلق لأهل العصور، والبيئات المختلفة حرية الحركة لوضع النماذج التي تتناسب معها.. وليس الإسلام دينًا بمعنى العبادة واللاهوت ولكنه حركة اجتماعية ومنهج حياة وإنما يمثل الدين جانبًا من جانبها ولذلك فإن الشريعة الإسلامية هي شريعة تطبيقية يلزم بها الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي في مختلف المعاملات كالبيوع والإجارة والرهن وأمور المال والاقتصاد والزواج وشئون الأسرة.

---

(١) محمد فريد وجدي: فصول من سيرة الرسول، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط ـ ١٩٩٧، ص ١٤٣.

(٢) أنور الجندي معلمة الإسلام (الإسلام) ص ٤ ـ ٥.

٣ ـ الإسلام دين الفطرة والعقل:

الدليل من القرآن على أن الإسلام دين الفطرة قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

والدليل من السنة قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[١].

فكل مولود يولد على الفطرة وهي دين الله الخالص وهو دين الحق وحده، وإنما أبواه يلقنانه من التعاليم ما هم عليه منها، وهو ما ينافي الإسلام جملة وتفصيلاً، لأنه لا يعتد بدين غير ذلك الفطرة النقية يقول محمد فريد وجدي: الإسلام هو الدين الفطري أو الدين الطبيعي، لأنه لا يكلف الإنسان إلا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده، ولا يـ.ـيئه من العقائد بما يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه ورقيه لأن غرضه الأول تخليص العقائد من تلك الحجب التي أسدلها عليه حفظة العقائد وسدنة المعابد، والزاعمون بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق وليطهر الأفئدة مما ران عليها من آثار الوراثات والتقاليد ومما تراكم على سويدائها من غلف التعصب والجمود[٢].

والإسلام دين العقل، على خلاف ما يقول المستشرقون والعلمانيون من أن الإسلام دين لا عقلي، فالإسلام يطالب باستعمال العقل وأن يتخلى المسلم عن جميع ما ورثه من التقاليد والأوهام، وأن يكون أمام الحقائق كيوم ولدته أمه خالي الذهن من كل صور خياله، أو وراثة تقليدية، ومتى تم له إحداث هذه التخلية، الذهنية طلب بالأخذ بحكم العقل لا بحكم الهوي والوهم. ولذا فإن التفكير

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القرار ٢٦٥٨.

(٢) د. أحمد محمد سالم البربري: الفكر الإصلاحي عند محمد فريد وجدي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت العدد ٥٩ شوال ١٤٢٥ ـ ديسمبر ٢٠٠٤. ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

فريضة إسلامية، وكما يقول العقاد: «فإن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد، وأنه مع العقل الذي يقابل الجمود والعنت والضلال(١).

وكم هي كثيرة تلك الآيات التي تنتهي بقوله تعالى: **﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾**.

وبين الماوردي في كتابه «أدب الدنيا» والدين أن أساس التكليف العقل والشرع فيقول: «وجعل ما تعبدهم به مأخذوا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل، لأن الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل، العقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع، لذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله(٢).

ويبين أحمد زكي أبو شادي في محاضرة ألقيت بندوة الثقافة بالإسكندرية عام ١٩٣٧ «إن تعزيز الإسلام للعقل يمثل جانبًا من جوانب عظمته فيقول نقلاً عن الشيخ عبد العزيز جاويش: أن القرآن الذي هو كتاب دين الفطرة. ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة، أو تغم حكمته على العقول السليمة، ولم يكن ليكلف العقل الإيمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به، أو من يفرض على الإنسان ما ليس في موسوعات فطرته»(٣).

وقد اتفق علماء الخلف على أنه إذا كان هناك من الشرع ما يخالف ظاهره العقل وجب تأويله على حكم العقل(٤).

---

(١) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ص ٢٠، وانظر أيضًا د. محمد عبد المنعم القيعي: الإسلام تعقل واستنباط، دار الشعب ١٩٨٨ ص ٧٣.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي: أدب الدنيا والدين تحقيق مصطفى السقا تقديم د. عبد الحكيم راضي هيئة مصور الثقافي سلسلة الذخائر ١٢٧ بالقاهرة ٢٠٠٤، ص ٧٨.

(٣) أحمد زكي أبو شادي: عظمة الإسلام، مطبعة التعاون ـ الإسكندرية د. ت ص ٧.

(٤) نفس المرجع ص ٦.

فليس هناك تعارض بين العقل والنقل[1]. يبين هذه الحقيقة حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي بقوله: «فإن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والإذاء، ومثلا القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور[2].

٤ ـ بين التقليد والتجديد

الإسلام يرفض التقليد الأعمى ويدعو إلى الاجتهاد والتجديد: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولا يتحقق التجديد إلا من خلال الاجتهاد (فمن أصول الإسلام فتح باب الاجتهاد في الدين إلى يوم القيامة ذلك أن القرآن فيما يختص بالتشريع لا يحتوي إلا على أصول أولية، وقوانين كلية، تاركًا الجزئيات لأهل الاجتهاد، يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والتجديد هو مسايرة التطور وهو كما يقول الشيخ أمين الخولي: «ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتداء إلى جديد بعد إن لم يكن، سواء كان الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا أم بطريق الاجتهاد في استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن»[3].

وهناك من يرى أن التجديد معناه إعادة الدين إلى أصله يوم نشأ عن طريق تنقيته من الأدران والأباطيل التي قد تعلق به بسبب أهواء البشر على مر العصور،

(١) ويشيد «شاخت» بمنهج الإسلام في ذلك فيقول: «وقد جمع القانون الإلهي في الإسلام بين العقل والنقل على نحو «بديع» انظر كتابه أصول التشريع الإسلامي.
The origins of Muhammadian Jurisprudence P.

(٢) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، صبيح، القاهرة د. ت ص ٣٢.

(٣) الشيخ أمين الخولي: المجددون في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢، ص ٣٢-٣٣.

وإعادة الدين إلى أصله ليس معناه الابتعاد عن عصره الذي يعيش فيه وإنما معناه الحكم على العصر الحديث طبقًا لشريعة الله بعد تنقيتها من الأدران والأوهام والأباطيل التي يحاول الضالون إلحاقها بالشريعة[1].

والتجديد في الدين لا يعني تغيير أسسه أو التصرف في أحكامه فتجديد شيء ما لا يعني إزالته، واستحداث شيء آخر مكانه. وتشمل عملية تجديد الدين في الإسلام جوانب متعددة منها الجانب الفكري، والجانب الفقهي والجانب الروحي، ولكنها لا تتجاوز دائرة القطعيات التي فصل فيها الإسلام[2] «والإسلام هو الدين الوحيد الذي أقر شريعة التجديد وعدها سنة من سنن الله الدائمة على مر القرون بسبب كون الإسلام هو خاتم الرسالات وحتى يكون صالحًا لكل زمان ومكان»[3].

وقد أكد الرسول ﷺ هذا الأمر في الحديث الشريف «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها» (رواه أبو داود والحاكم).

وقد جمع الإسلام بين الثبات والتطور فأقام الثوابت في الفرائض والحدود وأباح التغيير والحركة في ا الفروع، كما فتح باب الاجتهاد مما يحقق المرونة والقدرة على مراجعة اختلاف العصور والبيئات[4].

ويري د. طه حسين أن تبعات المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين في مناهضة العلماء والمفكرين الذين أوذوا في ظل المسيحية، فتراهم كثيرين جدًا، ومصدر هذا أن الإسلام حر طليق، لا يأخذ العقل الإنساني بما لا يطيق، ولا يكرهه على الإيمان بما لا يفهم، ولذا فإن الإسلام أشد نصير للتجديد[5].

---

(١) د. محمد رزرمان: فلسفة التجديد الإسلامي، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩٩ م، ص ١٨.

(٢) نفس المرجع ص ١٩.

(٣) د. محمد عمارة: الإسلام والمستقبل. ص ١٠.

(٤) أنور الجندي: معلمة الإسلام (الإسلام) ص ٧.

(٥) د. طه حسين: من بعيد ص ٤٦.

وقد نبه الإسلام إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة، ودعا إلى طلب الدليل المقنع على كل عقيدة، فالإسلام يدعو إلى الدليل على صحة رأي الغير، ولا يأنف المسلم أن يبحث عن الحقيقة ويأخذها ممن يخالفه في دينه ولغته وألا يتعصب لرأي أو مذهب تعصباً يمنعه عن النظر فيما وراء ذلك(١).

٥ ـ الإسلام يدعو إلى وحدة الدين

يبين القرآن الكريم أن الدين عند الله واحد وهو الإسلام: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** فدين الله واحد في جميع العصور، ولذا فإن المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء لأن دينهم جميعاً الإسلام.

يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٨].

ويقول تعالى: **﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٢].

ويقول القرآن الكريم في الرسالة التي أرسل بها سليمان الي بلقيس ملكة سبأ يدعوها إلى الإسلام: **﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾** [النمل ٣٠، ٣١].

ويقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** [يوسف ١٠١].

وقال تعالى: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٦].

---

(١) أنور الجندي: معلمة الإسلام (الإسلام) ص ١٢.

ويرى محمد فريد وجدي أن الإسلام قد بنى دعوته لوحدة الدين على مجموعة من القواعد:

١ - قرر الإسلام إن دين الله واحد في جميع العصور وأنه أوحاه إلى أول رسول أرسله إلى البشر، ثم والى إنزاله على المرسلين في فترات من تاريخ الأمم تجديد لما طمس من معالمه وبيانًا لما غمض من أصوله وتصحيحًا لما حرف من آدابه، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

٢ - إن الدين وضع إلهي غرزه الله في صميم الفطرة البشرية لا تشذ عنه النفس الإنسانية، وإنه في هذا الاعتبار أصبح في حكم جميع الغرائز الجبلة التي لا يختلف فيها اثنان. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

[الروم: ٣٠]

٣ - إن منشأ كل خلاف يشق عصا الناس في أمر الدين يوجب عليهم التفرقة هو إردة البغي، وإهمال العقل، والتقليد الأعمى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧](١).

والإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع الأنبياء وإجلالهم فموسى عليه السلام كليم الله وعيسى عليه السلام روح الله ومحمد ﷺ حبيب الله «لا نفرق بين أحد من رسله».

---

(١) محمد فريد وجدي: مهمة الإسلام في العالم جمع وتقديم محمد رجب البيومي إصدار اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف ط ١ ١٩٨٩ م ص ٨٩.

يقول ناصر الدين دينيه «ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة في حق عيسي. وكذلك لن يقبل أن يدع أحداً يتفوه بمثل هذا في حضرته، حتى وإن كان من يحدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية، وسب المسيح لا شك يعتبر سبًّا للإسلام الذي يأمر باحترامه»(١).

مكانة العلم والعلماء في الرسالة المحمدية:

لا يوجد دين من الأديان ولا نظام اجتماعي ـ من النظم المعروفة قديمًا أو حديثًا ـ يبلغ شأن الإسلام في رفع شأن العلم والتنويه بقيمته، وفي الدعوة إليه والتعويل عليه، فيقول تعالى: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾** [آل عمران: ١٨].

ورفع من قدر العلماء حيث قال: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الزمر: ٩].

وقال تعالى: **﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾** وأول مانزل من القرآن **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** وقال رسول الله ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٢).

ويقول محمد فريد وجدي: «فتح الإسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة، والمعارف الحقة، وأراهم أن طلبها. والسعي في اكتسابها هو مما يعبد به الخالق جل شأنه ولا يعقل أن يعارض الإسلام علمًا أو يصادم حكمه، أما إذا كان هناك تعارض ظاهرى بين نظريات العلم والنصوص القرآنية فإن هذا الإشكال يمكن حله والخروج من هذا التعارض الظاهرى من خلال مبدأ «التأويل»(٣).

---

(١) ناصر الدين دينية (محمد رسول الله) ترجمة عبد الحليم محمود، دار المعارف ١٩٧٩ ص ٣٥٢.

(٢) رواه ابن عبد البر عن أنس.

(٣) محمد فريد وجدي. المدنية والإسلام بمطبعة الترقي، القاهرة ١٩٠١م ص ٦٩.

ولم لا يتفق العلم والدين، ويكون الأول مؤيداً للثاني وناصره، وحاميه من شائبات الشكوك، ومؤازره ما دام العلم منتزعًا من أشياء الكون، والدين وحي من خالقه؟ وهل يعقل أن يكون وحي سماوي مخالف لوضع طبيعي، وكلاهما مستمد وجوده من خالق تتنزه أفعاله عن التناقض، وتتعالى إفاضته عن التعارض(١).

فالشرع لايأتي بما تحيله العقول، ولابما ينقضه العلم الصحيح.. وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكم ثابت لكل زمان ومكان.

وهذه الجمل المختصرة تعرف على وجه التفصيل بالتتبع والاستقراء لجميع الحوادث الكونية وحوادث علوم الاجتماع وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يعرف أنه تبيان لكل شيء وإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها(٢).

«والعلم في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ دليل الإيمان والداعي إليه بل إن العلم والإيمان يأتيان مقترنين متعاضدين لم يأتيا متعارضين أبداً، وأزيد من ذلك نجد أن كلمة علم ومشتقاتها قد ذكرت في القرآن الكريم مئات المرات، أما عن المكانة الرفيعة للعلماء بل وطالبي العلم، فحدث ولا حرج(٣).

* القرآن والمنهج الاستقرائي:

نقد المسلمون المنطق اليوناني، ولم يرضوا عن التفكير النظري المجرد الذي امتازت به الفلسفة اليونانية لأنهم أرادوا التماس طريقة تفيد العلم على وجه أقرب لليقين، فنفذ ابن تيمية والأشراقي وأبو بكر الرازى المنطق اليوناني نقداً منظمًا، وذلك لأنهم علموا أن روح القرآن تتجلى فيها النظرة الواقعية.

---

(١) محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم - مكتبة مصر. القاهرة ٢٠٠٠م.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. من محاسن الإسلام - دار العاصمة الرياض - ١٤٠٩، ص ٣٤.

(٣) د. أحمد شوقي - العلم ثقافة المستقبل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م ص ١٨٠.

ومن ثم أكدوا أن الحس أصل من أصول العلم والاستقراء وهو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين(١) وهكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله لا التفكير النظري المجرد.

قد أخذ هذا المنهج من القرآن الذي يدعو إلى النظر في عالم الحس، والاستشهادية وهكذا يجعل القرآن الطبيعة والتاريخ مصدرين من مصادر المعرفة، يقول الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ويقول: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] والله جل وعلا ذكر للإنسان آيات كثيرة في الكون تتكشف في إدراكه الحسي ويأمرهم بالاعتبار بهذه الآيات.

قال تعالي: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] دعوة للبشر للنظر في ظواهر الكون والبحث فيها لمعرفة بعض مظاهر القدرة الإلهية في القوانين، التي تحكم تلك الظواهر.

يقول محمد إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني في الإسلام»: «الزعم بأن أوربا هي التي استحدثت المنهج التجريبي زعم خاطئ» ويقول «ومن أين استمد روجر بيكون ما حصّله في العلوم؟» من الجامعات الإسلامية في الأندلس والقسم الخامس من كتابه (Cepus Maius) الذي خصصه للبحث في البصريات هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم وكتاب بيكون في جملته شاهد على تأثره بابن حزم»(٢).

(١) علي ساميَ النشار: مناهج البحث عن مفكري الإسلام ص ١٧٧.

(٢) محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام - ترجمة عباس محمود ومراجعة الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ص ١٤٨ - ١٤٩، وانظر أيضًا أنور الجندي: الإسلام والتكنولوجيا، ص ٦١ - ٧٢.

وأخيراً جاء الاعتراف من أوربا بالأصل الإسلامي للمنهج العلمي يقول Brif-fauit في كتابه "Making of Humanity" على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون. في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي»[١].

ويقول إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه فالعالم القديم كما رأينا لم يكن للعلم فيه وجود... أما ما ندعوه الآن «علماً»، فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة، والملاحظة، والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان... وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي[٢]، والقرآن الكريم قد جعل البحث والتجربة والاكتشاف لأسرار الله في الطبيعة والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجربية في مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الديني والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعة هم الأكثر خشية لله سبحانه وتعالى[٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

---

(١) Making Of Humanaty P190 .

(٢) نفس المرجع نفس المكتبة.

(٣) د. محمد عمارة، الإسلام في عيون عربية، دار الشروق ـ القاهرة ٢٠٠٥.

* **الأخوة الإنسانية والمساواة:**

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١].

وقال رسول الله ﷺ: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

ففكرة الأخوة في الإسلام تجعلها أخوة إنسانية لاتعرف التمييز فيما بين الأجناس والألوان والمراتب.

والإسلام ينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة أخوة وتسامح ورفق، وقد عاشت طوائف أصحاب الأديان في ظل مجتمعات المسلمين سعيدة راضية، فقد حفظ لها الإسلام كنائسها وأديرتها وسمح لهم بإقامة شعائرها ونظمها.

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن الأقليات المسيحية واليهودية لم تجد اضطهاداً في ظل حكم العرب المسلمين بينما وجدت الأقليات المسلمة ذلك(١).

وكما يقول الأستاذ أنور الجندي: «أقام الإسلام أصول الأخوة العالمية هادمًا لعبودية العبيد والاستعلاء الطبيعة الخاصة ولاغيًا للرق والسخرة محرراً للعبيد حيث لايقر التفرقة بالعنصر أو التعصب للنساء والأجناس والألوان وتقوم دعواه على المساواة الشاملة والأخوة الإنسانية أمام الدولة وأمام الله والإسلام لايفرض قومية على قومية ولا عرقًا على عرق ولكنه دعوة إلى كل صيغة إنسانية للحضارة. كما دعا الإسلام إلى روح الإخاء الصحيح التي تقرر أن إيمان المرء لا يكتمل حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه(٢).

---

(١) أنور الجندي الإسلام (معلمة الإسلام/ ١) ١٩٧٠م ص ٢٠.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٠.

وقد طبق الإسلام الإخاء بين الناس قبل أن يدعو إليه الغرب بألف عام.

من حيث أقر الإسلام المساواة ومحا الفوارق البشرية فالناس في الإسلام تتكافأ دماؤهم وأموالهم، ويعارض الإسلام وجود جماعة معينة بينها وبين الله عقد خاص للسيادة العالمية أو وساطة للمغفرة.

وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وجعل للرجال على النساء درجة(١).

(حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية):

فللمرأة في الإسلام أن تزاول التجارة والصناعة والزراعة وأن تتولى العقود والمعاملات وأن تملك كافة أنواع الملك واختص الإسلام المرأة بنصيب من الميراث يتكافأ مع مسئوليتها المادية، فجعلها مكفولة العيش قبل الزواج وبعده ومنها حق المهر وشرط الكفاءة رعاية لمنزلتها، فلولي الأمر أن يعترض على زواجها ممن هو أقل منزلة منها رعاية لها وصونًا لكرامتها ومن تكريم الإسلام للمرأة أن أقر بعدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة، كما وضع لها النظم المتعلقة بالطلاق حماية لها وللأسرة، ودعا إلى قدر من الأدب والاحتشام في العلاقة بين الرجل والمرأة مع تسويتهما في الحقوق والواجبات واختلف مفهوم الإسلام للمرأة عن مفهوم الشرائع الأخرى التي تجعل ضعف المرأة عقاباً إلهيًا(٢).

وأباح الإسلام للرجل أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع مع الحث على الاقتصار على واحدة عند خوف الظلم وعدم القدرة على إقامة حدود الله في الزوجية وهذا التشريع يحل كثير من المشاكل في حالة الحروب والمرض، وعدم الإنجاب واستحالة التفاهم ويقضي على اتخاذ الخليلات وفي ذلك مصلحة للطرفين ودفع ضرر الجانبين.

---

(١) نفس المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ١٣، ١٤.

وانظر أيضًا: Mohammad Ali : Islamic law of marriage and Divorse, Lahore. Pakistani 1944, P. P. 50 - 51

* حقوق الطفولة:

راعى الإسلام حقوق الطفولة قبل الميلاد وبعده فأوصى باختيار الزوجة (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) وأوجب على الوالدين حق اختيار اسم الطفل وتعليمه الكتابة وتزوجه إذا بلغ مبلغ الرجال وجعل له على والده حق السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فإن أُمر بمعصية فمصاحبته بمعروف من غير طاعة فيما يغضب الله(١).

* السلم والحرب:

السلم في الإسلام قاعدة، والحرب ضرورة، فالأصل في الحياة السلام ولاتستخدم القوة إلا لرفع الظلم أو التحرر من عدوان أو إصلاح معوج، فالحرب جهاد مقدس في سبيل الدين والحق، ودعوة إلى احترام العهود، والإسلام لايقاتل غير المسلمين إلا إذا حاربوا دعوته وقاوموا فكرته وعمدوا إلى إيذاء أهله. ولا يمتنع من إقامة العلاقات معهم إذا هم لم يحاربوا الإسلام والمسلمين(٢) وقد حرم الإسلام في الحرب قتل الأطفال والشيوخ والنساء والرهبان إلا من اشترك في الحرب فعلاً وأضر بالمسلمين.

*الإسلام وفلسفة التوازن بين الثبات والتطور:

لقد كان القاضي كاردوزا Mr. Justice Cardoza على حق عندما قرر « أن أقصى ما يحتاج إليه وقتنا الحاضر هو فلسفة وسط بين الدعاوى المتصارعة ما بين الجمود والثبات وبين التطور والتقدم، تمد العالم بمبدأ يؤمن نحوه » فالإسلام يقدم للعالم هذه الفلسفة الكفيلة بالتوازن بين الثبات والتطور معًا. وعدم ثبات الحياة والتغير السريع والمتلاحق فيها قد يسبب القلاقل والقلق، كما أنه قد يستجد من

---

(١) المرجع السابق ص ١٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٨.

الظروف ما يسبب العبث، والمشاكل ما لم يكن هناك من التغيير ما يسايره، فالحياة إذاً ليست جموداً بحتا لا يقبل التطور ولا تغييراً شاملاً بمعنى كلمة التغيير، والإسلام نظم حالتي الثبات، والتطور حيث أن تعليم الإسلام الهادية هي من عند الله الذي لايحده زمان، ولا مكان وهي بذلك سواء منها مايتعلق بالفرد أو الجماعة متناسقة مع خواص الطبيعة التي خلقها الله رب العالمين. وهذه التعاليم أزلية باقية غير أن الخالق جل شأنه رسم لنا المبادئ والأصول وترك للإنسان الحرية في كيفية تطبيقها في العصور المختلفة. فيما يتفق مع الروح والظروف القائمة في كل منها فكان «الاجتهاد» هو السبيل التي يترسمها رجال كل عصر لتطبيق هذه الهداية الربانية لمواجهة مشاكل الحياة في زمانهم فتعاليم الهداية الأساسية ثابته لاتتغير. أما وسائل تطبيقها فيمكن أن تتغير طبقًا لاحتياجات الحياة في كل عصر من العصور وفي هذا ما يفسر لنا السر في بقاء تعاليم الإسلام ناضرة مع تجدد اليوم والغد(١).

يقول محمد فريد وجدي (إن القرآن فيما يختص بالتشريع، والأخلاق، وهيئة الاجتماع، لايحتوي إلا على أصول أولية، وقوانين كلية، تاركا الجزئيات لأهل الاجتهاد يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله»(٢).

النظام المالي بين الملكية بالأصاله والملكية بالاستخلاف:

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فنظرة الإسلام إلى المال على أنه مال الله وحده والإنسان مستخلف فيه للانتفاع به وتوجيهه لمصلحته ولمصلحة المجتمع، ولذا قيد الإسلام حق التصرف في هذا المال بمنع الربا والقمار والاكتناز لأن المال وسيلة لا غاية وطريق لا هدف.

---

(١) لماذا أسلمنا، ص ٤٤٣.

(٢) د. محمد فريد وجدي: مقدمة المصحف المفسر، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٧ ص ٣٠٤.

وقد شرع الإسلام الصدقة والزكاة وهي تنمي المال وتطهره وهي نظام التعاون والتكافل بين الغني والفقير من خلالها تزداد الفئة المنتفعة بالمال بما يشيع المحبة بين الناس فلا يحقد الفقير على الغني، ويتم تداول المال فلا يكون حكراً على طائفة خاصة[1]، وينكر الإسلام الاحتكار سواء احتكار التجارة في الأسواق العامة أو احتكار الثروة في طبقة واحدة أو عدد من الأفراد، ويحرم أكل أموال الناس بالباطل، ويفرق بين البيع والربا فقد حرم الربا تحريمًا تامًا وأحل البيع[2] قال تعالي: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

***البساطة والمنطقية والقابلية للتطبيق:**

نلمس في العقيدة الإسلامية البساطة والبعد عن التعقيد، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد.

وهذه العقيدة يفهمها الأمي والمتعلم على حد سواء وهي تختلف عن عقيدة النصارى في الإله حيث أنه عندهم إله واحد في ثلاثة وفهم التوحيد بهذه الكيفية أهم صفة تميز العقيدة الإسلامية والإله أيضًا في الإسلام له طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية وليست له طبيعة بشرية فهو متنزه عن التجسد في صورة البشر وهو «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» وهذا التنزيه يقره العقل والمنطق.

والعبادات في الإسلام أيضًا تتسم بالبساطة واليسر فالذي لا يستطيع الصلاة واقفا يصلي قاعداً وإن لم يستطع فراقداً ومن لم يجد الماء أو وجده وتعذر استخدامه يتيمم، والمريض والمسافر والحامل والمرضع والشيخ الكبير يرخص لهم جميعًا في الإفطار، حُج البيت فقط لمن استطاع إليه سبيلا، و الزكاة على من بلغ النصاب وكان فائضًا عن حاجاته الضرورية ومكث عنده عامًا هجريًا كاملاً وصدق

(١) أنور الجندي معلمة الإسلام (إسلامنا) ٥ب١٩٧ ص ١٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٩.

الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وإذ يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٢].

العبادات في الإسلام تسمو بالروح وترتقي بالحياة الإنسانية:

يقول شيخ الأزهر سيد طنطاوي «والعبادات في الإسلام شرعها الله لتطهير الإنسان والارتقاء بالحياة الإنسانية «فالصلاة مفروضة لكي تنهى عن الفحشاء والمنكر. والزكاة لمساعدة الفقراء، والصيام لتدريب الإنسان على الصبر وقوة الإرادة والإخلاص[١]، والإحساس بالجائع والفقير «والحج بذل للأموال وتحمل للمشقات وتعرض للأخطار والصعوبات طلبًا لرضا الله، والوفادة على الله، والتملق له في بيته وفي عرصاته، والتنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر التي هي موائد مدها الله لعباده ووفود بيته وما فيها من التعظيم والخضوع العام لله، والتذكر لأحوال الأنبياء والمرسلين، والأصفياء والمخلصين، وتقوية الإيمان بهم، وشدة التعلق بمحبتهم، وما فيه من التعارف بين المسلمين، والسعي في جمع كلمتهم. والتقائهم على مصالحهم الخاصة والعامة مما لا يمكن تعداده[٢].

* العدل فريضة إسلامية:

والعدل في الإسلام اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولذلك كان العدل هو الروح السارية في الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، فلقد حرم

---

(١) رجب البنا: الغرب والإسلام دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٣٥.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من محاسن الدين الإسلامي، دار العاصمة؟ الرياض شعبان ١٤٠٩، ص ١٦.

الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ٩٧] ولقد أوجب الإسلام العدل في كل المعاملات حتى مع من يكره ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا﴾ [المائدة: ٨] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية وهي التنوع والاختلاف(١).

ونظرة الإسلام إلى الآخر نظرة عادلة، فهو لا يضع أهل الكتاب مثلاً في سلة واحدة فيميز بين الفرقاء وفق معاييرهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

[آل عمران: ١١٣]

* الأديان وصحة الأبدان:

الإسلام هو الدين الذي يقرن الطهارة - وهي من لوازم صحة البدن - بالإيمان فعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان» (رواه مسلم) والوضوء وهو نظافة الأجزاء الظاهرة من البدن شرط من شروط صحة الصلاة كذلك طهارة الثوب والبدن والمكان. وسن الإسلام غسل الجمعة، وغسل العيدين وأوجب غسل الجنابة.

وقد جعل الإسلام نظافة البدن من سنن الفطرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الفطرة خمس أو خمس من الفطرة - الختان، والاستحداد، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وقص الشارب». [متفق عليه] ولما كان كثير من الأمراض سببها عدم

(١) د. محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وأنصاف العلماء، دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٥ ص ١١.

وانظر محمد عطية الأبراشي: روح الإسلام، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣م ص ٢١٢ - ٢٣٥.

نظافة الأسنان فقد حرص الإسلام على نظافتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة».

[متفق عليه]

والإسلام يحرص علي تطهير البيوت والطرقات وتخليتها من القمامات والفضلات حتى لا تكن مباءة للحشرات، قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولاتشبهوا باليهود». [رواه الترمذي]

وقال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» [رواه مسلم] ونهى رسول الله ﷺ عن التغوط في طريق الناس وظلهم وموارد الماء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين» قالوا وما اللاعنان؟ قال الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم» [رواه مسلم]. عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد.

[رواه مسلم]

والإسلام سبق كل التشريعات الحديثة في الأخذ بمفهوم الحجر الصحي والطب الوقائي الذي لم تعرفه البشرية إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولاتزال تتعثر في تنفيذه إلى اليوم[١] فعن أسامة بن زيد وعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ عندما سئل عن الطاعون قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

[متفق عليه]

وكشف الطب الحديث عن كثير من الأمراض الخطيرة التي يسببها تناول الخمور، وقد نهى الإسلام عن تناولها حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(١) محمد علي البار العدوي بين الطب وحديث المصطفى ر. ت ص ٦٦.

وأمر رسول الله ﷺ بتغطية الأواني التي تحوي الأطعمة حفاظًا على الصحة فقال ﷺ : «غطوا الإناء وأوكئوا السقاء» (رواه مسلم).

* الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي لحقوق الإنسان :

تقر الشريعة الإسلامية للفرد بمجموعة من الحقوق بصفته فرداً أو مجموعة بصفته عضواً له علاقة بالدولة أو الجماعة السياسية.. كما تقر الشريعة حقوقاً لبعض الأفراد والجماعات استناداً لبعض الاحتياجات الخاصة(٢).

* حقوق الإنسان وحرياته بصفته فرداً :

١ ـ الحق في الحياة :

ارتقى الإسلام بهذا الحق إلى الحد الذي اعتبر أن الاعتداء عليه يرقى إلى مرتبة الاعتداء على الناس كافة. قال تعالى: **﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾** [المائدة: ٣٢] وورد النهي عن قتل الإنسان نفسه قال تعالى: **﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** [النساء: ٢٩].

٢ ـ حماية العرض :

فلكفالة هذا الحق قرر الإسلام عقوبات رادعة لمن يعتدى على عرض إنسان فقرر رجم الزاني المحصن وجلد الزاني غير المحصن مائة جلدة وقرر ثمانين جلدة كحد لقذف المحصنات. قال تعالى: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾** [النور: ٢]، وقال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [النور: ٤]، كما نهى الإسلام عن الغيبة والنميمة والتجسس والتنابز بالألقاب.

---

(٢) أحمد الرشيدي، حقوق الإنسان نحو مدخل إلى وعي ثقافي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، إصدارات خاصة ٢٠٠٠ ص ٥١ ـ ٨٩.

٣ ـ كفالة حرية العقيدة:

فالإسلام لايرغم أحداً على الدخول فيه ولكن سبيله إلى ذلك الدعوة والإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة. قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

* حقوق الإنسان من منظور علاقته بالجماعة السياسية:

١ ـ رفض التمييز العنصري وتقرير المساواة بين البشر:

فالنظرية الإسلامية في حقوق الإنسان تنهض على مبدأ مؤداه عدم التميز فيما يتعلق بحقوق المواطنة. كالحقوق المدنية، والحقوق الاقتصادية، والحقوق الاجتماعية، أو غيرها من حقوق الإنسان المسلم وحقوق الإنسان غير المسلم، وذلك كقاعدة عامة(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي الحديث الجامع لرسول الله ﷺ في حجة الوداع «أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى» وتطبيقا عمليا لهذا المبدأ استعمل الرسول ﷺ بلالاً ـ العبد الحبشي الأسود ـ لوظيفة الأذان.

(١) المرجع السابق ص ٦٧.

٢ ـ الحق في حرية الرأي والتعبير:

يؤكد كل من القرآن والسنة على هذا الحق حتى أنه ليرقى إلى مرتبة الواجب. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» ومن منطلق استخدام هذا الحق عملياً راجعت امرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو على المنبر عندما أراد تحديد المهور فقالت له أين أنت من قول الله: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ ؟ فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

٣ ـ حق الملكية:

الشريعة لها خمسة مقاصد وهي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العرض وحفظ العقل وحفظ المال ومن ثم فقد نظر الإسلام إلى حق التملك بوصفه إحدى القيم العليا وكفل الشرع لكل إنسان الحق في حماية ماله وفي الدفاع عنه. قال ﷺ: «من أخذ مال أخيه بيمينه أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة». فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيراً يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «وإن كان عوداً من أراك». وقال ﷺ: «من قُتل دون ماله فهو شهيد».

٤ ـ الحق في الضمان الاجتماعي:

ويعني هذا الحق التزام الدولة تجاه مواطنيها بتقديم العون والمساعدة لمن ليس لهم مورد رزق يضمن لهم حق الكفاية بالذات في حالات المرض والعجز والشيخوخة. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣] والترجمة العملية لكفالة هذا الحق الذي ينص عليه الشرع إنما يتمثل في مؤسسة الزكاة التي من ضمن أهدافها ضمان مستوى معيشي لائق لكل أفراد المجتمع.

الحماية الخاصة لبعض الأفراد والجماعات:

١ ـ حقوق غير المسلمين:

أقر الإسلام بمبدأ الحرية المدنية لغير المسلمين في إطار الدولة الإسلامية قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وأباح الإسلام لهم ما أباحه دينهم من طعام وشراب فلا يقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر(١).

وأمر الإسلام بالإقساط إليهم ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] وأمر بألا تجادلهم إلا بالتى هي أحسن قال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العكبوت: ٤٦](٢).

* حقوق الإنسان في الظروف الاستثنائية (الحروب):

فحماية حقوق المحاربين لم توليها التشريعات الوضعية اهتماماً إلا منذ نحو قرن من الزمان تقريباً أي منذ انعقاد مؤتمرى لاهاى للسلام عامي ١٩٠٧، ١٨٩٩ بينما اهتم بها الإسلام منذ أكثر من ١٥ قرن فمن وصايا الرسول ﷺ لجيش أرسله: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى بركة رسول الله، لاتقتلوا شيخًا فانيًا، ولاطفلا، ولاصغيراً، و لاامرأة، ....». وقال ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً»(٣).

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ ـ ٨٩.

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ ـ ٨٩.

الخاتمة

يتضح لنا من تلك النماذج التي أشهرت إسلامها وما عرضنا من مزايا هذا الدين العظيم أن العالم الغربي الذي يعيش ثمار التقدم المادي لن يجد التوازن النفسي إلا في ظل عقيدة تحترم تقدمه النفسي والمادي وتحقق له الإشباع الروحي الذي يفتقده وتجنبه ويلات الآثار السلبية لهذا التقدم المادي والإسلام هو المرشح للقيام بهذا الدور.

وإذا كان هناك من أهل الغرب من سئموا من الانهماك في الحياة المادية بالدرجة التي أحسوا فيها بالخواء الروحي فإن الأجدر بنا كمسلمين ألا نلهث وراء المادية الغربية مضحين بما لدينا من قيم عليا تحقق للإنسان التوازن المنشود وسط هذه المادية الجارفة.

وعلى الأمة أن تقوم بمسئوليتها نحو تقديم الدين الإسلامي للعالم بصورته الحقيقية بالقدوة وبالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يكشف للعالم عن تلك الجوانب التي تسهم في صلاح البشرية وتحقق لها غاياتها المنشودة.

وتطور وسائل الدعوة وتجديد الخطاب الديني بما يكشف عن القوة الكامنة في الإسلام الدافعة إلى التطور والتقدم وتحقيق المثل العليا في عالم يفتقر إليها أشد الافتقار، والقراءة الواعية للنصوص الدينية في ضوء مقاصد الإسلام وكلياته عامل مهم في تفتح القلوب لهذا الدين والتواصل المستمر بين الأمة وبين هؤلاء الذين جندوا أنفسهم بمجرد إسلامهم للدفاع عن الإسلام وسط بيئة تجتهد ما وسعها في تشويهه أمر من الأهمية بمكان حيث يشعر هؤلاء بأنهم فعلاً جزء من بنيان متكامل يشد بعضه بعضاً.

ويوم أن يأخذ المسلمون بأسباب التقدم التي أخذ بها أجدادهم في إطار القيم والمثل العليا التي فرضها الإسلام على أتباعه ودونما إهمال للمعطيات الإيجابية للتقدم الحضاري العالمي يوم أن يكون الدين الإسلامي مصدر جذب، وتكون الأمة محط الأنظار وموضع الاحترام.

فبعض الذين أسلموا كان من أسباب انجذابهم إلى الإسلام إعجابهم بالثقافة العلمية في إطارها الإسلامي التي كانت سببًا لإخراج أوربا من ظلمات الجهل ودياجير التخلف تلك الثقافة التي نشأت في إطار من السمو الروحي الذي يحكم ما أفرزته الثقافة العلمية من تطبيقات عملية ودارت بوسائلها ومقاصدها في هذا الإطار.

لقد حرصت في بحثي على إجلاء الصورة الرائعة للإسلام كما يجب أن يكون مما حبب لذلك الفريق الجميل ممن دخلوا فيه للمنافحة عنه بكل ما أوتوا من جهد وإخلاص.

ففي المبحث الأول أردت أن يقف القارئ على الصورة المشوهة التي رسمها له أعداء الإسلام مثل جولد تسيهر ولامنسي.

وفي المبحث الثاني عرضت لشهادات المنصفين الذين شهدوا للإسلام بأنه الدين المناسب الذي به تنصلح الدنيا والآخرة وتعرضت لبعض ما أشادوا به في مؤلفاتهم المنصفة من روعة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان.

وفي المبحث الثالث عرضت لنماذج من المفكرين الغربيين الذين تفاعلوا مع الإسلام فأسلموا ودافعوا عن الإسلام وشرحوه وفسروا قضاياه ومن - هؤلاء رجاء جارودي وعبد الواحد يحيى.

وفي المبحث الرابع والأخير تحدثت عن مزايا الإسلام والتي استحق بها أن يكون الدين القائد في كل زمان ومكان.

وفي الختام أرجو أن يكون ما كتبته ـ خالصًا لوجه الله ـ والله من وراء القصد والسلام.

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

الفصل الخامس

منهاج النبوة في الدعوة إلى الله

تمهيد

الحمد لله الذي فتح على قلوب أوليائه أنوار الهدى والبصيرة ، وأمتعهم بنسيم اليقين ولذة العافية ، وجعلهم هداة مهتدين ، ودعاة صالحين. يصلحون إذا فسد الناس ، ويصلحون ما أفسد الناس بما أوتوا من الكتاب والحكمة، وما منحهم الله من كريم الأخلاق وحميد السيرة، وصفاء السريرة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إمام الهدى وقدوة المهتدين ، والرحمة المهداة من رب العالمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد :

فإن الدعوة إلى الله سبيل الأنبياء ، وحلية الأولياء الذين اصطفاهم الله لحمل رسالته، واختارهم للسعي في إصلاح عباده؛ لأنها سبيل لا تخضع للأهواء فتلتبس بها ، ولا للشهوات فتمتزج بها ، ولا للآراء المجردة عن الدليل فتنحرف بها ، بل بنور الله تسير ، ومن منهاج رسول الله ﷺ تستنير. فإذا رأيت انحرافاً في دعوة ، وجنوحاً إلى باطل في دعاة فاعلم أن ذلك انحراف عن نور الله ، وميل عن منهاج رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾**﴾[طه:١٢٣، ١٢٤].

وإذا كانت الدعوة في اللغة تطلق على طلب الإقبال كما في قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وإني ليدعـوني النـدى فأجيبـه وأضرب بيض العارض المتوقد(١)

وعلى أمارات الطلب وأسبابه ودواعيه كما في قولهم لصريخ الخيل في الحروب وما يترك في الضرع من اللبن ليدعو مابعده [داعية] ومنه قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[القمر:٦] والمقصود نفخ الصور من قبل إسرافيل ، وتطلق أيضاً على المسألة ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي: اسألوني. ومنه تسمية السبابة [دعّاءة] لأنه يشار بها إلى التوحيد الذي هو من أعظم أسباب إنجاح المسألة؛ فإن الدعوة إلى الله تشتمل على هذه المعاني فهي طلب إقبال حين تُوَجَّهُ الدعوة مباشرةً إلى المدعو، وهي أمارة لها حين يكون الداعية أسوة صالحة تذكر بالله رؤيته ، وهي أسباب و بواعث حين تقع العظات والعبر، وهي مسألة بالنظر إلى الداعي وتقربه بما يدعو إلى الله تعالى(٢) وسيأتي – إن شاء الله – من النصوص ما يوضح هذه المعاني. وإذاً فالدعوة إلى الله تعالى تعني الدعوة إلى دينه وعبادته ومحبته على بصيرة. ودين الله هو سبيله وهو الصراط المستقيم . والبصيرة هي العلم بالكتاب والسنة وهي الحكمة –كما سيأتي بيانه – فتضمنت أموراً ثلاثة هي لها أركان: داعيًا، ومدعواً ، ومدعواً إليه(٣)، فالداعي : هو رسول الله ﷺ ومن تبعه، والمدعو: سائر الناس، والمدعو إليه: سبيل الله الذي هو دينه فاقتضى ذلك ممن دعا إلى الله أن يكون عالماً بدينه متخلقاً بخلق رسوله عليه الصلاة والسلام مقدماً لما قدم معظماً لما عظم ، فيبدأ بغرس عقيدة

(١) الديوان : (١٨٢) .الندى: السخاء والكرم ، وأضرب : أسرع وأسبق ، وبيض العارض: مطر السحاب والمتوقد: الذي يلمع برقه والمعنى: أني أسبق المطر في البذل.

(٢) انظر هذه المعاني اللغوية في المصادر التالية : القاموس المحيط (١٦٥٥) ط ٢ ، مجمل اللغة (٣٢٢٦ ، ١/٣٢٢٧) ط١ سنة ١٤١٤هـ، المصباح المنير (١٩٤) ، لسان العرب (٢٥٩/ ١٤).

(٣) والشرك : صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله مثل الدعاء والرجاء والاستغاثة والاستعاذة والذبح والنذر والخوف ونحوها.

التوحيد صافية نقية محذراً من الشرك بالله في عبادته فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وليحذر من الشرك الخفي وهو الرياء فإنه محبط ما قارنه من العبادة وليتأدب مع الله عند ملاحظة الأسباب فإذا استفاد مصلحة [ما] من جهة فلا يقل لولا الله وفلان أو الشيء الفلاني ولكن ليقل لولا الله ثم فلان وليحذر أيضاً من الإلحاد في أسمائه وصفاته بتأويل أو تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل بل تمر كما جاءت وتحمل على حقائق معانيها على ما يليق بجلال الله وعظمته ولا يسأل عنها بصيغة كيف فإن ذلك من البدع المحدثة. وما حدث من الخلاف في الأسماء والصفات فمنشؤه من تقديم العقل على النقل وذلك مخالف لهدى الله فإن العقل تابع للشرع وهو خلاف ما عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين. ومما يجب تقديمه الإيمان بأن محمداً عبده ورسوله ﷺ وأنه عبد لا يعبد ونبي لا يكذب بل يطاع ويتبع عليه الصلاة والسلام وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول وروح منه وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ومن ذلك الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون(1).

إن الداعي إلى الله إنسان عرف الله فآمن به وأحبه ، وعرف دينه فرضي به واستمسك به وعرف رسوله ﷺ فآمن به وأحبه واتبعه فهو يطلب رضى الله في دعوته ويبتغي الزلفى لديه بحسن عبادته ويرى في الحرص على نشر دين الله وإصلاح عباده عز الدنيا وكرامة الآخرة. إنني لا أعني أنه معصوم من الخطأ ولكنه لا يصر عليه إذا تبين له. شأنه في ذلك شأن عباد الله المتقين الذين قال الله في حقهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة : (١/١٩٤).

ولا أعني أنه لا يدعو إلى الله إلا أهل العلم دون العامة من المسلمين لأن المهمة أعظم من أن تستطيعها هذه الطائفة من المسلمين ولكن لِيَدْعُ كل بحسب حاله على أن يصدروا عن العلماء وينهوا إليهم ما أشكل عليهم «فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(١)، وقد قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف:٣٠].

إن الدعوة إلى الله تعالى لا تعني الفساد في الأرض بل هي ضده، ولا زعزعة الأمن بل تمكينه وتثبيته لأنها دعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وما أنزل عليه من الكتاب والحكمة والله يقول : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وقال ﷺ : «والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه»(٢) فربط تمام الأمن بتمام هذا الأمر وهو الدين. وقد وقع ما أخبر به ﷺ. وفي هذا العصر تشتد الحاجة للدعوة إلى الله لكثرة ما يتوارد على المسلمين من أنواع التضليل ووسائل الصد المختلفة تستهدف إقصاء الدين عن حياة المسلمين ، وإقصاء المسلمين عن حياة الصالحين. بحيث لا يبقى من الدين إلاّ اسمه ولا من القرآن إلاّ رسمه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١] وقد جعل الله للحق سمة وللباطل سمة لئلاّ يلتبس الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] فرأيت أن أجمع ما تيسر لي من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يتحقق به هذا الغرض ويظهر به الحق على الباطل لأن الباطل إذا عرف هجر ؛ ولأن مثل ذلك يكشف النقاب عن دعاة

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

الضلالة ولِيُعْلَمَ أن الدعاة إلى الله لهم طريق مشروع وعلم مرفوع وقدوة متبعة يصدرون عنها، ويردون إليها ما خفي عليهم في جميع أمورهم وأحوالهم، وليستأنس بها أهل هذا الطريق ممن يحب الخير للناس ويسعى في إيصاله إليهم.

وقد حاولت سلوك سبيل السلف الصالح من علماء هذه الأمة في وضع التراجم وإيراد النصوص متبعاً كل نص بما يوضحه ومردفاً كل فصل بالمسائل المستفادة منه، وجعلته بابين:

الباب الأول : في دعاة الهدى وبيان دعوتهم.

الباب الثاني : في دعاة الضلالة وبيان دعوتهم.

وسميته : «منهاج النبوة في الدعوة إلى الله».

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده، وأن يطرح له القبول في العالمين. فلا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

* * *



الباب الأول

في دعاة الهدى وبيان دعوتهم

المبحث الأول

الدعاة صنفان، دعاة هدى ودعاة ضلالة

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر:٣٨-٤١].

دلت هذه الآيات على أن من الدعاة من دعوته دعوة هدى ورشاد ونجاة من النار، ومن دعوته دعوة ضلالة وغواية من الشرك بالله تعالى وتعدي حدوده، وهي الدعوة إلى النار.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»(١) ولا يكون إماما إلا إذا كان داعية مقتدى به فيما يدعو إليه أو يسعى إلى أن يكون كذلك. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١] وقال في شأن أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»(١) أي يقول أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء ، والمعنى أنهم يهدون الناس بغير أمر الله ويزعمون أنهم يهدون بأمره ، فهم دعاة ضلالة.

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »(٢) ، فبين أن من الناس من يدعو إلى هدى ، ومنهم من يدعو إلى ضلالة.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن»(٣). قلت وما دخنه ؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال : «نعم»، دعاة على أبواب جهنم(٤) من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت : يا رسول الله صفهم لنا. قال: «هم من جلدتنا(٥) ويتكلمون بألسنتنا». قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) دخن : قال الحافظ بن حجر : هو الحقد ، وقيل : الدغل ، وقيل : فساد في القلب ومعنى الثلاثة متقارب.

(٤) دعاة على أبواب جهنم : أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يؤول إليه حالهم قاله الحافظ أيضا.

(٥) من جلدتنا : أي قومنا ومن أهل لساننا وملتنا وفيه إشارة إلى أنهم من العرب قاله الحافظ أيضا.

شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1]. فبين ﷺ أن وجود قوم يهدون بغير هديه أوقع دخناً في ذلك الخير، وأن وجود دعاة على أبواب جهنم وهم الذين يصطادون الناس بالشهوات والشبهات شر عظيم يعقب ذلك الخير، وبان[2] من ذلك كله أن من الناس دعاة خير ومنهم دعاة شر وضلالة ، فدعاة الخير يهدون الناس بأمر الله ودعاة الضلالة على خلاف أمره.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى النجاة من النار لقول العبد المؤمن : **﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾** وقال تعالى : **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾** وهي الدعوة إلى توحيد الله والانقياد له.

الثانية : أن الدعوة إلى الشرك بالله هي دعوة إلى النار، لأنها مآل المشركين ولهذا قال العبد المؤمن **﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾**.

الثالثة : خوف النبي ﷺ على أمته من الأئمة المضلين وأنهم دعاة ضلالة مقتدًى بهم فيها .

الرابعة : وصف من يدعي النبوة بعد رسول الله ﷺ بأنه (دجال كذاب) وبيان عددهم ، وأنه لا نبي بعده ﷺ .

الخامسة : عظم ثواب من دعا إلى الهدى، وجرم من دعا إلى الضلالة.

السادسة : أن الناس قبل الإسلام كانوا في جاهلية وشر من الكفر بالله والقتل والنهب وإتيان الفواحش لقول حذيفة : (كنا في جاهلية وشر) وقد أقره النبي ﷺ على ذلك.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي تبين ووضح.

السابعة : تَحَوُّلِ أمر الناس بالإسلام إلى الخير من الإيمان بالله ورسوله والأمن وصلاح الحال واجتناب الفواحش لقول حذيفة: (فجاءنا الله بهذا الخير) وقد أقره النبي ﷺ على ذلك.

الثامنة : الإخبار بوقوع الشر في هذه الأمة لقول حذيفة : (فهل بعد هذا الخير من شر ؟) وجواب النبي ﷺ بقوله : «نعم».

التاسعة : الإخبار بوقوع دخن في الخير الثاني لوجود دعاة يهدون الناس بغير هدي رسول الله ﷺ ففيه تنبيه على أن الخير والهدى متلازمان وأن من يهدي الناس بغير هدي رسول الله فقد لبس عليهم أمر الحق والهدى وفي ذلك شر عظيم .

العاشرة : عظم الشر الثاني وشدة بلائه لوجود دعاة على أبواب جهنم يدعون الناس إليها.

الحادية عشرة : وصف هؤلاء الدعاة وأنهم «من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» وهذا فيه زيادة تهويل وتحذير من شرهم لما في ذلك من التغرير والمكر بالمسلمين.

* * *

المبحث الثاني

أن من هدي النبيين عليهم الصلاة والسلام تقديم الدعوة إلى توحيد الله تعالى والاهتمام به وأنه أول الواجبات

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] أخبر تعالى أنه أوحى إلى جميع رسله أنه لا إله إلاّ هو، وأنه أمرهم بأن يعبدوه وحده لا شريك له وقد رتب أمره هذا على خبره بأنه لا إله إلاّ هو بحرف (الفاء) التعليلية ليعلم العباد أن تحقيق هذه الكلمة إنما يتم بإخلاص العبادة لله وحده.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦].

الطاغوت: كل ما عُبِدَ من دون الله. وما جاء في هذه الآية هو تحقيق كلمة (لا إله إلاّ الله) فإنها مكونة من نفي (لا إله) وإثبات (إلاّ الله) فهي بمعنى لا معبود بحق إلاّ الله وما جاء في هذه الآية مكون من أمرين أحدهما أمر بفعل فهو بمنزلة الإثبات في كلمة الإخلاص والثاني أمر بترك فهو بمنزلة النفي فيها فبالأول يتحقق ما أثبتته وبالثاني يتحقق ما نفته[1] فعلم من هاتين الآيتين أهمية التوحيد وعظم مكانته عند الله عز وجل.

---

(١) يعني كلمة الإخلاص وهي لاإله إلا الله

قال ابن كثير – رحمه الله – : (فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم . وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد)[1] .

وقال تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:١، ٢] أخبر تعالى عن كتابه الذي هو القرآن أنه أحكم آياته وفصلها بحيث تشمل جميع مصالح عباده الدينية والدنيوية، فأمر ونهى، ووعد وتوعّد، وأنذر وبشّر ، وضرب الأمثال وأتى بالعبر، وقص القصص وقسم البشر، فهذا مؤمن، وذاك منافق، وذا قد كفر، وكلٌ هذا وغيره[2] من أجل أن يعبدوا الله وحده لا شريك له وأن يقيموا هذه العبادة على علم وبصيرة ويكون تحقيقهم لكلمة الإخلاص على أكمل وجه وأتمه فعلم بهذا أن الدين كله مبني على التوحيد لا سيما وقد أكد هذا بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير – رحمه الله – : « أي نزَّل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له »[3] وقد أخبر الله تعالى أن نوحاً وهوداً وصالحاً وشعيباً عليهم الصلاة والسلام كل منهم: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣] وقال تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٦-١٧] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (١٧٦/ ٣).

(٢) حذف الأصل (مما ورد فيه).

تم حذف جملة [وكل هذا وغيره مماورد فيه] ليتضح المعنى وتستقيم العبارة .

(٣) تفسير ابن كثير : (٤٣٥/ ٢).

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٣-١٤].

وقال تعالى في شأن لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وقال تعالى لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩] وهو صريح مفهوم الآية الأولى فكما أوحى إلى جميع الرسل أنه لا إله إلاّ هو أوحى إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ بذلك.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله»(٢).

يستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: عظم أهمية التوحيد وأن الله بعث جميع الرسل للدعوة إليه والنهى عن ضده وهو الشرك.

الثانية: أن الله ما أنزل القرآن محكماً مفصلاً إلاّ من أجل عبادة الله وحده.

---

(١) متفق عليه. فقدم التوحيد

(٢) متفق عليه. فقدم التوحيد

الثالثة : أن الدعوة إلى توحيد الله هي أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الرابعة : أن الواجب أن يعبد الله وحده دون سواه لأنه الخالق الرازق وإليه المرجع.

الخامسة : الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى وبيان أنه عبد الله ورسوله.

السادسة : الرد على اليهود في اعتقادهم ألوهية العزير وزعمهم أنهم على دين موسى وما أرسل موسى إلاّ بالتوحيد.

السابعة : أن التوحيد أساس هذا الدين فالعلم به والاستقامة عليه منهاج الأنبياء عليهم السلام.

الثامنة : أن الشرك ظلم عظيم.

التاسعة : أن تحقيق كلمة الإخلاص يكون بعبادة الله وحده لا شريك له.

العاشرة : بيان أركان الإسلام وأن التوحيد أول هذه الأركان.

الحادية عشرة : بيان أن الدخول في هذا الدين إنما يكون بالتوحيد (أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله).

* * *

المبحث الثالث

فضل من دعا إلى الله عز وجل وعظم ثوابه

قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي – رحمه الله – : «هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن قولاً أي كلامًا وطريقة وحالة (مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ) بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها والحث عليها وتحسينها مهما أمكن ، والزجر عما نهى الله عنه وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه خصوصًا [من هذه](١) الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وغيره : «أئمة يقتدى بنا في الخير»(٣) لينالوا مثل ثوابهم قال ابن كثير وقال غيرهم : «هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابًا وأحسن مآبًا»(٤).

---

(١) ما بين المعكوفين يظهر أنها زائدة وان الأصل ((خصوصاً الدعوة إلى أصل دين الإسلام .....الخ)).

(٢) تفسير ابن سعدي : (٦/٥٧٥).

(٣) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٠).

(٤) المرجع نفسه.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:١٢٥]. قال ابن كثير - رحمه الله - : «أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد . فمن فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس. ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم . ولهذا قال تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وهم «محمد وأتباعه إلى يوم القيامة» ، قال : «والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده عنه راد»[١] وملة إبراهيم هي توحيد الله والدعوة إليه والبراءة من الشرك وأهله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «الحنيفية : هي الاستقامة بإخلاص الدين لله وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يُشرَك به شيء لا في الحب ولا في الذل ، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل وذلك لا يستحقه إلا الله وحده وكذلك الخشية والتقوى لله وحده والتوكل على الله وحده»[٢] فتأمل

(١) تفسير ابن كثير : (١/٥٥٩).

(٢) مجموعة الفتاوى (١٠/٤٦٦).

هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج:٥٠] ولا شك أن من دعا إلى الله على بصيرة مخلصاً لله في دعوته داخل في هذا الوعد لأنهم مهتدون وعملهم هذا عمل صالح بل من أفضل الأعمال الصالحة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية» رواه مسلم. والدعوة إلى الله من باب تعليم العلم النافع.

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا يَنْقُصُ من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا يَنْقُصُ من أوزارهم شيء» رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئًا». رواه مسلم. قال النووي – رحمه الله –: «هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة وتحريم سن الأمور السيئة، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة وأن من سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر من يعمل بها إلى يوم القيامة وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه، أو إلى الضلالة كان عليه مثل آثام متابعيه سواء كان ذلك الهدى هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء

كان ذلك بتعليم علم أو عبادة أو أي أدب أو غير ذلك »[١] ، وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : « من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة »[٢] .

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : فضل من دعا إلى الله تعالى وأنه لا أحد أحسن قولاً منه وتفسير ذلك .

الثانية : فضل الدعوة إلى الله ، وبيان أهمية العمل الصالح لمن دعا إلى الله تعالى .

الثالثة : فضل من جمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح والانتماء إلى المسلمين الذين أسلموا لله بالتوحيد وانقادوا له بالطاعة وخلصوا من الشرك .

الرابعة : فضل رسول الله ﷺ ، فهو إمام كل داع إلى الله تعالى على بصيرة ، ولهذا كان الحسن البصري – رحمه الله – إذا تلا هذه الآية **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾** يقول : « هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا – والله – أحب أهل الأرض إلى الله وأجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين ، هذا خليفة الله »[٣] .

الخامسة : في هذه الآية أيضا معنى قوله تعالى : **﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾** لقوله : **﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾** لأن العمل إذا وافق القول كان تصديقاً .

السادسة : فضل الإمامة في الدين وأن أهلها هم الهداة المهتدون ففيها معنى قوله تعالى : **﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾** .

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي : (١٦/٢٢٦) .

(٢) تفسير ابن كثير : (١/١٦٤) .

(٣) تفسير ابن كثير : (٤/١٠١) .

السابعة : شفقة أهل التقوى على أزواجهم وذرياتهم وحرصهم عليهم وأنه بصلاحهم تقر عيونهم.

الثامنة: حرص دعاة الخير والهدى على استمرار الخير فيمن بعدهم وما ذلك إلا لعلمهم بالله وما يقرب إليه من الطاعات من واجبات ومستحبات من أفعال ومتروكات ولم يكن علمهم هذا مأخوذاً من غير شرع الله لأنه وحده (المرجع في القرب والطاعات والديانات والمستحبات)[1].

التاسعة: أن الإخلاص والمتابعة شرطان في صحة العمل ومنه الدعوة إلى الله تعالى.

العاشرة: بيان المراد بملة إبراهيم وإيضاح معنى الحنيف.

الحادية عشرة: بشارة من دعا إلى الله على بصيرة بزيادة الهدى وهو من الثواب العاجل الذي ينبني عليه زيادة العمل الصالح فيعظم به ثواب الآخرة.

الثانية عشرة : أن الإيمان والعمل الصالح ومنه الدعوة إلى الله من أسباب مغفرة الذنوب والرزق الكريم.

الثالثة عشرة : أن الدعوة إلى الله من العلم النافع الذي يُنْتَفَعُ به بعد الموت فهي من العمل الذي لا ينقطع ثوابه بالموت فتدخل في قوله «أو علم ينتفع به» وتدخل بعض صورها في قوله «من سن سنة حسنة».

* * *

(١) الاستقامة : (٢٤٨/١).



المبحث الرابع

أن الدعوة إلى الله تعالى من لوازم عموم رسالة النبي ﷺ إقامةً للحجة وبياناً للمحجة وكشفاً لشبه الزائغين ورداً لكيد الكائدين

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

قال أبو حيان الأندلسي – رحمه الله – : «أمر الله نبيه بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس كافة والدعاء إلى الإيمان بالله ورسوله وكلماته واتباعه. ودعوة رسوله ﷺ للإنس والجن قاله الحسن وتقتضيه الأحاديث»(١).

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ:٢٨].

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي – رحمه الله –: «يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله إلاّ ليبشر جميع الناس بثواب الله ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك وينذرهم عقاب الله ويخبرهم بالأعمال الموجبة له ، فليس لك من الأمر شيء وكل ما اقترح أهل التكذيب والعناد فليس من وظيفتك إنما ذلك بيد الله تعالى»(٢).

---

(١) البحر المحيط : (٤/٤٠٥).

(٢) تفسير ابن سعدي : (٦/٢٨٢).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

قال ابن كثير – رحمه الله – : «فهذه الآية نص على أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة»(١).

وقال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

قال ابن كثير – رحمه الله – : «في أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر»(٢).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

قال القرطبي – رحمه الله – : «أي ليبين لكم أمر دينكم ومصالح أمركم وما يحل لكم وما يحرم عليكم وذلك يدل على امتناع خلو واقعة عن حكم الله تعالى»(٣).

قال ابن كثير – رحمه الله – : «يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم ما أحل لكم وما حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها: ﴿يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/١٨٨).

(٣) القرطبي: (٥/١٤٧).

﴿قَبْلِكُمْ﴾ يعني طرائقهم الحميدة واتباعهم شرائعه التي يحبها ويرضاها ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. وقوله : ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي يريد أتْباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته»(١).

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» متفق عليه.

وفي حديث أنس رضي الله عنه في الإسراء قال ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة قال فارجع فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجع فوضع شطرها». متفق عليه. وعند البخاري في كتاب «التوحيد»: «فقال : يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك». وفيه فرفعه عند الخامسة فقال : «يا رب أمتي ضعفاء ، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا». فقال الجبار: يا محمد. قال: «لبيك وسعديك». قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب . قال: فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك».

وعن أنس رضي الله عنه: لا يأتي عليكم زمان إلاّ والذي بعده شر منه ؛ حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم. رواه البخاري.

(١) تفسير ابن كثير : (٤٧٩/١).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». متفق عليه.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل من أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل». متفق عليه واللفظ لمسلم.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وفي رواية «أفضلكم». رواه البخاري.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : الأمر بإشهار رسالته ﷺ للناس جميعاً وقد قام النبي ﷺ بهذا الأمر فأعلن ذلك في مجامع الناس على اختلاف أديانهم من يهود ونصارى ومشركين وعن طريق كتبه للملوك والرؤساء وقال للناس: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع». وقال: «بلغوا عني ولو آية». فدخل في ذلك الدعوة إلى الله تعالى.

الثانية : الإخبار بأن رسالة النبي ﷺ لكافة الناس عربهم وعجمهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم لا. يستوي في هذا من كان في عهده ومن جاء بعده إلى يوم القيامة ويتضمن لفظ البشارة والنذارة بيان ما يبشر به من الأعمال والأقوال والمعتقدات وما ينذر عنه من ذلك فدخل في ذلك الدعوة إلى الله تعالى . ففيها معنى قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ**

مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٤-٤٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨] .

الثالثة : أن رسول الله ﷺ خاتم النبيين فلا نبي بعده عليه الصلاة والسلام وإذا كان كذلك فلا بد ممن يحمل رسالته إلى يوم القيامة ولن يحملها على وجهها الصحيح سوى ورثته من أهل العلم بالذكر الحكيم والسنة المطهرة ومن هذا قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلاّ أنه ليس نبي بعدي**» .متفق عليه. وقوله ﷺ : «**إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر**» . رواه الترمذي وابن ماجه .

الرابعة : أن الله إنما أرسل رسله وأنزل كتبه قطعاً للمعاذير وإقامة للحجة ولا يتأتى ذلك إلاّ باستمرار الدعوة إلى الله على منهاج رسل الله عليهم الصلاة والسلام ففيها معنى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠] فأي عذر يكون لمن أهمل هذا الكتاب عملاً به ودعوة إليه بعد هذا البيان .

الخامسة : رحمة الله تعالى بهذه الأمة حيث بين لها ما يحل وما يحرم وأرشدها لسنن الصالحين من أتباع الأنبياء وحذرها من أتباع الشياطين من اليهود والنصارى وذوي الفواحش وأخبرها بمقاصدهم وبين أنه يريد أن يتوب عليها من المآثم والمحارم وأخبر أنه راعى ضعفها فيما شرع من شرائع فخفف عنها فلزم من هذا

نشر ما أراد الله بها من إيضاح الحلال والحرام في العقائد والمعاملات والأخلاق والتحذير ممن حذر منهم حتى تعم هذه الرحمة كافة الناس ففيها معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

السادسة: في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

السابعة: في حديث أنس رضي الله عنه في الإسراء معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾.

الثامنة: أن الحاجة للدعوة إلى الله تعالى تشتد كلما تباعد العهد من النبوة لحديث: «**لا يأتي عليكم زمان إلاّ الذي بعده شر منه**»(١).

التاسعة: فضل أهل العلم وأن وجودهم أمان من الضلال بإذن الله تعالى ولا يكونون كذلك إلاّ إذا قاموا بواجب الدعوة إلى الله تعالى(٢).

العاشرة: إثبات صفة الغيرة لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وفيها التحذير من الفواحش وأنه تعالى يحب المدح ويحب العذر وأن من مقاصد شرعه بيان الطريق لرجوع عباده إليه ففيه معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ومعلوم أن ذلك يتوقف على نشر دينه وتبيينه للناس فيدخل فيه الدعوة إلى الله تعالى.

الحادية عشرة: فضل من تعلم القرآن وعلمه وأنه خير هذه الأمة وأفضلها ولا شك أن ذلك من قواعد الدعوة إلى الله في كل مكان وزمان. وعلى ذلك دأب السلف الصالح رحمة الله عليهم أجمعين.

(١) وكلما زاد الشر زادت الحاجة إلى الإسلام واشتدت الحاجة إلى الدعوة إلى الله.

(٢) وفي هذا تأكيد لواجب تعليم العلم الشرعي ونشره بين الناس حتى لا ينقطع هذا الخير بموت حملته، لأنه لا يحصل هذا إلا إذا أعرض الناس عن تعلم العلم الشرعي من أهله فإذا ماتوا لم يكن لهم وارث في العلم والعمل وحينئذ يتصدر لهذا الأمر العظيم الجهلة من الناس فيفتون الناس بغير علم فيَضلون ويُضلون.

المبحث الخامس

أن دعاة الهدى على صراط مستقيم

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:٧٣] بين سبحانه أنه يدعو الناس إلى صراط مستقيم، وهو ما جاء به من عند الله من الهدى والنور وهو الإسلام كما قال أبو العالية: «عليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١] بين تعالى أن رسول الله ﷺ على صراط مستقيم وأنه هو الذي هداه إليه؛ لأنه ربه ولا رب له سواه، وأن هذا الصراط الذي هدى نبيه إليه دين قيم، وأن إبراهيم عليه السلام كان على ذلك ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومن اتبع النبي ﷺ في دعوته هم على هذا الصراط في دعوتهم وفي أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤] والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الصراط المستقيم، فتبين بهذا أن دعاة الهدى هم الدعاة إلى الخير وهكذا أنبياء الله وأتباعهم وقد جمع الله لهم الخير فيما أعطاهم من الهدى ولهذا جاء في معنى الخير أنه الكتاب والسنة(٢) وما ذلك إلا لانحصار الخير في اتباعهما وهما الصراط المستقيم وإنما يدعون إلى الخير لأنهم من أهله ولهذا أفلحوا فلو لم يكونوا كذلك ما وصلوا إلى هذه النتيجة. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]

(١) الاستقامة: (١/٢٥٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/٣٩٠).

فوصف الله دعوة رسوله ﷺ بأنها دعوة إلى الهدى وما كان لدعوة الهدى أن ترد لولا أن الله قد طبع على قلوبهم بما كسبوا.

قال أبو حيان الأندلسي -رحمه الله- وهذا من العام المراد به الخصوص وهو من طبع الله على قلبه وقضى عليه بالموافاة على الكفر إذ قد اهتدى كثير من الكفرة(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(٢) فتبين بهذا أن أهل الهدى أهل تيسير ورحمة وبر وتقوى لله تعالى وعلم به سبحانه وهذا هو الصراط المستقيم بخلاف دعاة الضلالة. وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن بعض المشايخ أنه إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ولا يشعب قلبه أمره بالصدق(٣) وذلك لأن الصدق يهدي إلى البر كما صح بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ وقال مسروق: «**ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن علمنا قصر عنه**»(٤).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن دعوة النبي ﷺ إلى صراط مستقيم أي طريق لا عوج فيه وهو الإسلام.

---

(١) البحر المحيط: (٦/١٤٠).

(٢) رواه البخاري.

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/١١).

(٤) درء تعارض العقل والنقل: (١/٢٠٨).

الثـانيـة : أن الرسول ﷺ على صراط مستقيم في أقواله وأعماله وعقيدته وحركته وسكونه لقوله تعالى : ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

الثـالثـة : أن الصراط الذي هدي إليه رسول الله ﷺ هو الدين القيم لقوله تعالى : ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي قيماً .

الرابعـة : أن إبراهيم عليه السلام على مثل ذلك لقوله تعالى : ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

الخامسـة : أن هذا الصراط هو التوحيد لقوله : ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

السادسة : أن الإسلام يدعو إلى الخير وهو الهدى والنور وبه يأمر أتباعه عملاً به ودعوة إليه ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ .

السابعة : أن الخير كله في اتباع الكتاب والسنة وهو الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده لتفسير السلف معنى الخير بذلك ومن تأمل فيما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في الأمور المحمودة والمذمومة شرعاً سهل عليه إدراك ذلك إن شاء الله تعالى فإنه قال : (والأمور المذمومة في الشريعة ... هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تُغَلِّب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاسد)(١) فإن هذا الميزان لا تكاد تخرج عنه مسألة من مسائل الدين والدنيا .

الثامنة : الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث نبه عليه مع كونه داخلاً في معنى الخير.

التاسعة : فضل دعاة الخير وأنهم ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة لعموم هذا اللفظ.

---

(١) الاستقامة : (١/٤٦١).

العاشرة : أنه لا يمتنع من دعوة الإسلام إلا من طبع الله على قلبه وفي ذلك تحريض على الدعوة إلى الله لأنه لا يعلم من طبع على قلبه إلا الله فليس كل من امتنع من قبول الحق في وقت مطبوعاً على قلبه مختوماً له بالشقاء .

الحادية عشرة : سماحة دين الإسلام ويسر تعاليمه حيث لا يؤمر أحد إلا بما يطيق ففيه معنى الحديث الآخر : «**عليكم من الأعمال بما تطيقون**».

الثانية عشرة : غضبه ﷺ حين قيل له : «إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله . . .الخ»، منبهاً إلى مسألة عظيمة وهي أن العبد كلما كان بالله أعلم كان له أشد خشية ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ وكان أحرص على اتباع سبيل الهدى .

الثالثة عشرة : أن رسول الله ﷺ أعلم هذه الأمة بالله وأتقاها له سبحانه وتعالى . ففيه تنبيه على ضلال غلاة الصوفية حيث يرون سقوط التكاليف عن العارف بالله(١) وفيه تأويل قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب:٢١] حيث دل الحديث على لزوم المتابعة وهو كالتعليل لهذه الآية الكريمة .

الرابعة عشرة : فيه تنبيه على ضلال من يدعي الهدى مع مجانبته لهدي الكتاب والسنة لقول الصحابة : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله . وما رد به رسول الله ﷺ ، فإنهم قالوا ذلك حين تقالّوا عبادة رسول الله ﷺ وظنوا أن السبب كون الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فأخبرهم أنه أعلمهم بالله وأتقاهم له منبهاً بذلك إلى ضرورة متابعته في هديه وأن ما يعمله هو ما شرعه الله له ففيه معنى قوله ﷺ : «**من رغب عن سنتي فليس مني**» ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «كل علم دين لا يطلب من القرآن فهو ضلال»(٢). وقال :

---

(١) انظر مجموع الفتاوى : (٦٠٥-٦٠٧/١١).

(٢) الاستقامة : (٢١/١).

كانوا – أي الصحابة والتابعون – يجعلون القرآن يحيط بكل ما يطلب من علم الدين[1].

وقال الشعبي : «ما ابتدع قوم بدعة إلاّ في كتاب الله بيانها»[2] وفي الحديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي».

* * *

(١) درء تعارض العقل والنقل : (١/٢٠٨).

(٢) نفس المرجع.

المبحث السادس

في بيان منهج النبوة في الدعوة إلى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] قال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – : (أي ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح بالحكمة أي كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده... فإن انقاد بالحكمة وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها. وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن؛ وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها فإنه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها)(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وهذه الآية كالتعليل للآية السابقة والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام إنما أمر بالدعوة بهذه الصفة لأنه أرسل رحمة للعالمين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (٢٥٤، ٢٥٥/٤).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سعد، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : «والله بعث محمداً بالكتاب والحكمة وجعله رحمة للعباد وهادياً لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له»(٢) ووجّه - رحمه الله - إلى أن على كل أحد أن يأتي من طاعة الله ورسوله بما استطاعه(٣).

وقال – رحمه الله – : «فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل»(٤).

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «ألا أنبئُكم بالفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يؤمنهم مكر الله»(٥).

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) [متفق عليه]. ومن النصح أن تدعوه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة... إلخ وعن زياد بن علاقة قال : (سمعت جرير بن عبدالله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير فإنما يأتيكم الآن. ثم قال: استعفوا لأميركم فإنه كان يحب العفو(*). ثم قال : أما بعد فإني أتيت

(١) تفسير القرطبي : (٣٥٠ / ١١).
(٢) مجمع الفتاوى : (٤٢٨ / ١٠).
(٣) المصدر نفسه : (٤٣٣،٤٣٤ / ١٤).
(٤) المصدر نفسه : (٤٢٨ / ١٠).
(٥) تذكرة الحفاظ : (١٣ / ١).

*كان المغيرة واليا على الكوفة في خلافة معاوية بن أبي سفيان وكانت وفاته سنة خمسين من الهجرة النبوية.

النبي (قلت أبايعك على الإسلام فشرط عليّ، والنصح لكل مسلم «فبايعته على هذا». ورب هذا المسجد إني لناصح لكم ثم استغفر ونزل). [رواه البخاري].

فدعاهم رضي الله عنه إلى جماع الخير وهو لزوم تقوى الله ونبههم على ما يعينهم في ساعتهم وهو لزوم الوقار والسكينة لئلاّ يتسلل إليهم شياطين الإنس والجن فيوقعوا الفتنة بينهم وأخبرهم أنما قاله لهم هو مقتضى النصح الذي بايع عليه رسول الله ﷺ مؤكداً ذلك بيمينه فقد استعمل ﷺ في مقامه هذا، الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولـــى : بيان المنهج الصحيح للدعوة إلى الله وأنه الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

الثانية : بيان البصيرة التي وصفت بها دعوة النبي ﷺ وأنها الدعوة بالحكمة ...الخ.

الثالثة : وجوب التزام هذا المنهج في الدعوة إلى الله تعالى لأن الله أمر به والأمر ظاهر في الوجوب.

الرابعة : فضل رسالة النبي ﷺ وأنها رحمة للعالمين برهم وفاجرهم.

الخامسة : تأكيد هذا المنهج القويم بقيامه على قاعدة النصح لكل مسلم.

السادسة : التزام جرير بما بايع عليه رسول الله ﷺ يمثل أنموذجاً لهذا المنهج الدعوي الجليل.

السابعة : بيان الأصول التي يبنى عليها هذا المنهج النبوي وعلامة الفقه في الدين .

* * *

المبحث السابع

أن دعوة الهدى دعوة إلى الله وإلى سبيله

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦] قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «هذه الأشياء التي وصف بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها»(١) وقوله : ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي «داعياً الخلق إلى عبادة ربهم عن أمره»(٢) وقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

وعن عطاء بن يسار ، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً» . [رواه البخاري]

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس وفي المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكأنهم وجدوا إذ لم

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٦/٢٣١).

(٢) تفسير ابن كثير : (٣/٤٩٧).

يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال ﷺ : « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي، كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ، قال : « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ». قالوا : الله ورسوله أمنّ. قال : « لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ».

[رواه البخاري]

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولىٰ : بيان المهمة التي بعث من أجلها رسول الله ﷺ .

الثانية : وعد الله لنبيه بإظهار دينه على الدين كله .

الثالثة : التنبيه بقوله تعالى بإذنه أي بإذن الله تعالى لى أن كل من دعا إلى الله يجب أن يتقيد بشرعه ففيها معنى قوله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ». [رواه مسلم]

الرابعة : أنَّ دعوة الهدى هي الدعوة إلى الله وإلى سبيله بإذنه ويكون ذلك بالمتابعة والاقتداء بالنبي ﷺ لقوله : ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ**﴾.

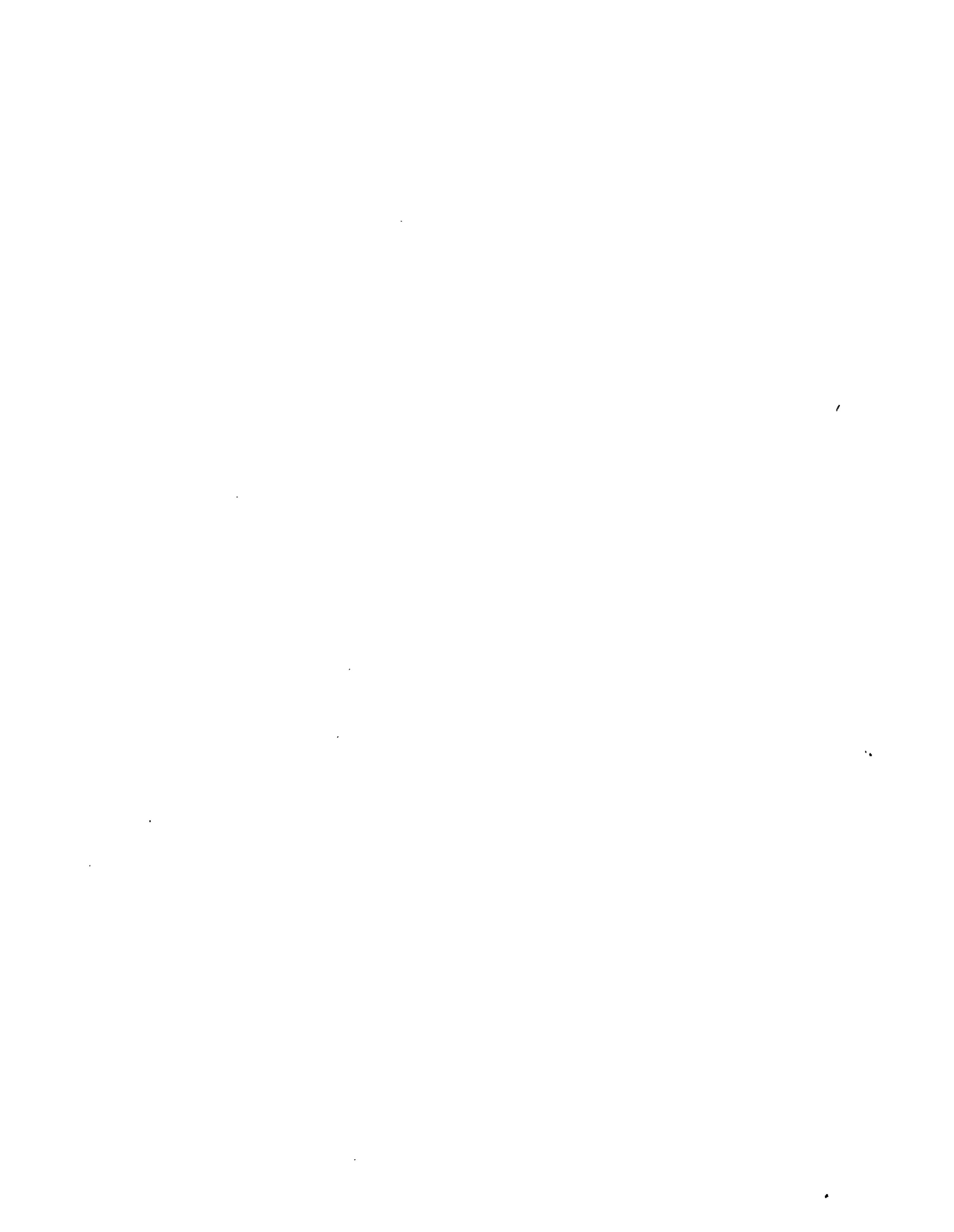
الخامسة : مطابقة صفة النبي ﷺ التي في التوراة لصفته في القرآن ، ففيه معنى قوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾.

السادسة : ما في قوله ﷺ : « **ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي... الخ** » من تأويل الآية الكريمة الأولى ففيها معنى قول عائشة حين سئلت عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » متفق عليه.

السابعة: حكمته ﷺ في تعامله مع المؤلفة قلوبهم ومعالجته لما نجم عن ذلك لدى الأنصار حتى تحول ما يعد محنة إلى منحة يغبطون عليها.

الثامنة: عظم شأن الهجرة عند الله تعالى، وعظم منزلة الأنصار عند رسول الله ﷺ.

* * *



المبحث الثامن

أن من دعوة الهدى استمساك من يدعو إلى الله بهداه الذي أنزله على رسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] أي على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم(١). وهم المتقون ويدخل فيهم الدعاة إلى الله على بصيرة دخولاً أوليًا.

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:١٥].

---

(١) تفسير الطبري: (١/٢٤٩).

وقال تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

قال الشيخ ابن سعدي : يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلْ﴾ للناس ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي طريقي التي أدعو إليها وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي أحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يبعدهم عنه ومع هذا فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني أي على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿أَنَا﴾ وكذلك ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عما ينسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري بل أعبد الله مخلصاً له الدين(١) ولا شك أن من سبيله الاستمساك بهدى الله الذي أنزله عليه كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦].

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣]

وقال تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] واليقين : الموت كما قال سالم بن عبدالله – رحمه الله –(٢).

قال ابن كثير – رحمه الله – : «ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل فإن الأنبياء عليهم السلام وأصحابهم

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٣/٤).

(٢) رواه البخاري في التفسير معلقا بصيغة الجزم.

أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحقه من التعظيم وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة وإنما المراد باليقين ههنا الموت»(١).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء:٤٥] وهو الحكمة وهي البصيرة كما تقدم بيانه.

عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «من القوم أو من الوفد؟». قالوا: ربيعة. قال: «مرحباً بالقوم - أو بالوفد - غير خزايا ولا ندامى». فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة: فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع؛ أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس». ونهاهم عن أربع؛ عن الحنتم(٢)

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٥٦٠).

(٢) والحنتم: هي الجرة ونقل الحافظ في الفتح عن الحربي أنه روى في الغريب عن عطاء: أنها كانت تعمل من طين وشعر ودم والمراد الانتباذ فيها، والدباء هو القرع والمراد الباب منه، والنقير: ما ينقر في أصل النخلة فيتخذ منه وعاء، والمزفت: ما طلي بالزفت، والمقير: ما طلي بالقار. وعن أبي بكرة قال: «وأما الدباء كان أهل الطائف يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت، وأما النقير: كان أهل اليمامة ينقرون أصل النخلة ثم ينبذون الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهدر ثم يموت وأما الحنتم فجرار كانت تحمل إلينا فيها الخمر وأما المزفت فهذه الأوعية التي فيها الزفت» رواه أبو داود الطيالسي في مسنده وحسنه الحافظ في الفتح.

والدباء والنقير والمزفت وربما قال : المقير . وقال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم». متفق عليه. فانظر إلى قوله ﷺ : «احفظوهن . .إلخ». مع قولهم : «فمرنا بأمر فصل ..إلخ» تجد الربط بين القول والعمل».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنهم خرجوا مع رسول الله (في سفر فنزلوا رفقاء. رفقة مع فلان ورفقة مع فلان قال: فنزلت في رفقة أبي بكر وكان معنا أعرابي من أهل البادية فنزلنا بأهل بيت من الأعراب وفيهم امرأة حامل فقال لها الأعرابي: إني لأبشرك أن تلدي غلاماً إن أعطيتني شاة، ولدت غلاماً فأعطته شاة وسجع لها أساجيع قال: فذبح الشاة فلما جلس القوم يأكلون قال رجل: أتدرون ما هذه الشاة؟ فأخبرهم. قال: فرأيت أبا بكر متبرزاً مستقبلاً يتقيأ[1] فانظر هذا الفعل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنك تجد فيه صدق الاستمساك وقوة المتابعة للشرع وشدة الخوف من الله.

وقال أبو الدرداء : إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول: قد علمت فما عملت فيما علمت ؟[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[3] وقال : «ليس لله ولي إلاّ من اتبعه باطناً وظاهراً فصدقه فيما أخبر به من الغيوب والتزم طاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات»[4].

---

(١) رواه أحمد في كتاب الصحابة بسند صحيح.

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي : (٤١).

(٣) مجموع الفتاوى : (٢٧١/١٠).

(٤) المصدر نفسه : (٤٣١/١٠).

وعن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : فعله بعض نسائك فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(١) .

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : إن أهل التقوى هم أهل الاستقامة على هدى الله في الحياة الدنيا وهم المفلحون في الآخرة وأن من دعا إلى الله على بصيرة فهو منهم .

الثانية : إن استمساك الداعي إلى الله بالهدى الذي جاءه من عند الله في غاية الأهمية وتركه تنكب عن الصراط وخروج عن الرشاد الذي هو العمل بالحق وأنه لا يليق بالداعية أن يخالف ما يدعو إليه لأن ذلك ينقص دعوته ويسقط حجته ويعرضه للعقوبة .

الثالثة : أن الدعوة إلى الله سعي في الإصلاح بقدر الاستطاعة ففيه معنى قوله تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ .

الرابعة : أن الدخول في ملة الكفر افتراء على الله وأشده وأعظمه جرماً أن يدخل فيها من كان داعياً إلى الله وإلى توحيده وطاعته .

الخامسة : بيان منهج دعوة النبي ﷺ وأنها الدعوة إلى الله على بصيرة .

السادسة : أن أتباع النبي ﷺ يدعون إلى الله على بصيرة أيضاً .

السابعة : وجوب تنزيه الله عما لا يليق به سبحانه .

الثامنة : أن من أهم صفات الداعية إلى الله ترك الشرك والبراءة من أهله .

التاسعة : وجوب متابعة النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى .

العاشرة : أن الشرك بالله تعالى محبط للعمل موجب لغضب الله مهما كان عامله فليحذر الداعية إلى الله الوقوع في هذا الداء العضال .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٢/ ٤٥٧٧) .

الحادية عشرة: وجوب ملازمة طاعة الله وعبادته حتى الموت وأن القول بخلاف ذلك زندقة وإلحاد بل هو كفر وضلال وجهل.

الثانية عشرة: تحريم الاستغفار للمشركين ولو كانوا من ذوي القربى لأن ما هم عليه يناقض التوحيد الذي يدعو إليه والبراءة من الشرك وأهله واجبة.

الثالثة عشرة : أن النذارة تكون بالوحي لاعتمادها على الخبر وذلك لا يكون إلا بالوحي لأنه من الغيب وكذلك البشارة فهما من باب الوعد والوعيد ومصدرهما الوحي والمقصود أن الدعوة إلى الله لا بد فيها من التزام الوحي فيحذر الداعية أن يحمله اجتهاده على مخالفة الوحي وليأخذ من الأسباب والوسائل ما يندرج تحته دون ما يعارضه فليس في منهج الله كون الغاية تبرر الوسيلة وما يتوهم وجوده فيه فليس منه وإنما هو من باب تغليب المصالح أو تقديم الأهم.

الرابعة عشرة : منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من التقوى حتى تقيأ ما أكله حين علم أنه بوسيلة محرمة وهو مثال يحتذى في الاستمساك بمنهج الله تعالى.

الخامسة عشرة : منزلة أبي الدرداء رضي الله عنه من التقوى حيث يحاسب نفسه ويتخوف من المسألة يوم القيامة وذلك لأهمية العمل بالعلم فالعلم وحده لا يكفي.

السادسة عشرة : أن أولياء الله هم المتبعون لرسوله ﷺ طاعة له فيما أمر وتصديقاً له فيما أخبر واجتناباً لما نهى عنه وزجر ولا يعبدوا الله إلا بما شرع.

السابعة عشرة : قول وفد عبدالقيس (فمرنا بأمر فصل ...الخ) يؤكد ما دلت عليه الآية من لزوم متابعة النبي ﷺ في الدعوة إلى الله.

* * *

المبحث التاسع

أن سبيل الله بمعنى سبله وأن منها صنائع المعروف التي تضمنها صراطه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢] قال الشوكاني – رحمه الله – : «أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الصراط الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه»(١)، وقال أبو حيان: «وأي عذر لنا في أن لاّ نتوكل على الله ﴿وَقَدْ هَدَانَا﴾ فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يوجب عليه سلوكه في الدين»(٢).

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – : «واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم وهذا أكمل ما يكون من التوكل»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا»(٤) قال القرطبي – رحمه الله –: «وهذا يتناول

---

(١) فتح القدير: (٣/٩٨).

(٢) البحر المحيط: (٥/٤١١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (٤/١٣٠).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/٣٦٥/٣٦٤). والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق.

بعموم الطاعة جميع الأقوال»(١) وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله «إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا»(٢).

وقال أبو سليمان الداراني : «ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله»(٣).

وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله حيث وافق ما في قلبه(٤).

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي : «دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية خارجة عن مدرك اجتهاده وتيسر له أمر العلم فإنَّ طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله بل هو أحد نوعي الجهاد الذي لا يقوم به إلاّ خواص الخلق وهو الجهاد بالقول واللسان للكفار والمنافقين والجهاد على تعليم أمور الدين وعلى رد نزاع المخالفين للحق ولو كانوا من المسلمين»(٥).

وقال الضحاك : «مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم»(٦).

---

(١) نفس المصدر. والمعنى أن قوله [طاعتنا] نكرة مضافة إلى معرفة [نا] والنكرة إذا أضيفت إلى معرفة أفادت العموم.

(٢) تفسير القرطبي : (١٣/٣٦٥/٣٦٤). وهذا معنى قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) سورة محمد (١٧) وسعة العلم لا يزيد صاحبه إلا سعادة .

(٣) نفس المصدر.

(٤) تفسير الكريم الرحمن : (٦/١٠٨).

(٥) تفسير ابن كثير : (٣/٤٢٢).

(٦) تفسير القرطبي : (١٣/٣٦٥).

وقال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦] قال ابن جرير الطبري - رحمه الله - سبل السلام طرق السلام ،والسلام هو الله عز ذكره(١)، وقال ابن كثير رحمه الله « أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة »(٢).

وقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] قال الشوكاني رحمه الله : « سبيل الله هو الإسلام »(٣).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » . متفق عليه . قال البخاري رحمه الله « وهو - أي الإيمان - قول وفعل ويزيد وينقص »(٤).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات »(٥) ونقل عن السلف قولهم : « هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان »(٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان

---

(١) تفسير الطبري : (١٠/١٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير : (٢/٣٤).

(٣) فتح القدير : (٣/٢٠٣).

(٤) صحيح البخاري كتاب الإيمان.

(٥) فتح الباري : (١/٤٦).

(٦) المصدر نفسه.

وعمل الجوارح، فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ »[1].

ونقل النووي عن ابن الصلاح أن الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات وحافظات له[2]. فعلم من كل ما تقدم أن سبيل الله بمعنى سبله وأن منها صنائع المعروف من الجهاد والهجرة وتعليم العلم الشرعي وسائر الطاعات التي تضمنها صراطه وهو الإسلام.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن سبيل الله هو ما شرعه لعباده من الجهاد والهجرة وتعلم العلم الشرعي وتعليمه وسائر الطاعات التي تضمنها صراطه فهو بمعنى سبله.

الثانية: أن ما هدى الله إليه أولياءه من الإيمان والعمل الصالح هو سبيلهم وهو السبيل المنجي ولذا أضافوه إليهم وهو - أيضاً - سبيل الله لأنه هو الذي شرعه ولذا أضافه إلى نفسه.

الثالثة: أن «السبل» المضافة إلى الله أو إلى أوليائه يراد بها عموم الطاعات من فعل المأمورات وترك المنهيات.

الرابعة: أن هذا القرآن يهدي من اتبعه طرق السلام في الدنيا وفي الآخرة، فيخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان ويهديهم إلى صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا خطأ.

الخامسة: أن سبيل الله هو الإسلام وهو الصراط المستقيم.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٦٧٢.

(٢) شرح النووي على مسلم: (١/١٤٨).

السادسة: الأمر باتخاذ الوسائل الممكنة من إيصال الهدى إلى قلوب العباد من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وما يتفرع عن ذلك على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

السابعة: أن الإيمان ذو شعب أي خصال وقد جاء في رواية أخرى أن أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . رواه مسلم. والإيمان سبيل الله.

* * *

المبحث العاشر

في أن الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته هي ما أوحي إليه من الكتاب والسنة

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣-٣٩] قال ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس»(٢).

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦].

قال ابن جرير رحمه الله: «اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك فاعمل به وانزجر عما زجرك عنه فيه ودع ما يدعوك إليه مشركوا قومك من عبادة الأوثان والأصنام فإنه لا إله إلا هو. يقول لا معبود يستحق عليك إخلاص العبادة له إلا الله الذي هو خالق الحب والنوى وفالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانًا ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ودع عنك جدالهم وخصومتهم»(٣).

ومما أوحي إليه الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وتدخل الدعوة إلى الله في مطلق الأمر بالمتابعة. ومتابعة الوحي هي الحكمة وهي البصيرة كما سيأتي.

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٢/٣٢).

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : « هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشر ويسر وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين. وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه ولا شر إلا حذرها عنه »(١). ومتابعة الوحي في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وغير ذلك من سائر الطاعات هي من تبليغ الوحي وهذا كله يفيد أن الحكمة المأمور بها في الدعوة هي متابعة الوحي الذي أنزل عليه – عليه الصلاة والسلام –.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: « والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه. أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع دينا لم يأذن به الله »(٢).

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مثل ما بعثني الله به من الهدى(٣) والعلم(٤) كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية(٥) قبلت الماء فأنبتت الكلأ(٦) والعشب(٧) الكثير وكان منها أجادب(٨) أمسكت الماء

(١) تفسير ابن سعدي : (٢/٣٢).
(٢) مجموع الفتاوى : (١٥/١٦١).
(٣) الهدى : الدلالة الموصلة إلى المطلوب.
(٤) العلم : المراد به معرفة الأدلة الشرعية.
(٥) نقية : في رواية طائفة طيبة.
(٦) الكلأ : يطلق على النبت الرطب واليابس.
(٧) العشب : النبت الرطب.
(٨) أجادب : الأرض الصلبة التي لا تنبت.

فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان[1] لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . [متفق عليه]

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : بيان المراد بالحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته وأنها معرفة الحق وقوله والعمل به مما أوحاه الله إليه .

الثانية : أن هذا الدين يأمر بالأخلاق الجميلة وينهى عن الأخلاق الذميمة .

الثالثة: أن اتباع الوحي هو عين الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته لأمره إياه باتباعه ثم أمره باستعمال الحكمة فعلم أنهما بمعنى واحد لا سيما وأن الله أطلقها على أوامره ونواهيه كما سبق.

الرابعة : الأمر بالإعراض عن المشركين إذا كان في الاشتغال بهم مجانبة للشرع[2] ففيها معنى قوله تعالى : **﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾** .

الخامسة : أن الداعي إلى الله إنما هو مبلغ عباد الله ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ فلزم العلم به وهو معنى قوله تعالى : **﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾** .

السادسة : عظم إثم من كتم العلم الشرعي ففيها معنى قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾** .

---

(١) قيعان : الأرض المستوية التي لا تنبت.

(٢) أو لشيء منه أو تفويت مصلحة شرعية عامة أو خاصة أو الوقوع في محظور شرعي.

السابعة: الحرص على تعليم الناس هذا الدين ما استطاع وأن لا يترك ذلك مخافة الناس[1].

الثامنة: انقسام الناس أمام الوحي إلى ثلاثة أقسام وأن خيرها من قبل هدى الله فعلم وعمل وعلم، وأن شرها من لم يقبل هدى الله.

التاسعة: أن في علوم الدين حياة القلوب كما أن بالغيث حياة الأرض[2].

العاشرة: شدة حاجة الناس إلى دين الإسلام ولهذا شبهه بالغيث الكثير.

* * *

(١) من لوم وشتم مما يدخل في دائرة الإستطاعة.

(٢) وفي ذلك بيان لشدة الحاجة إلى العلم الشرعي دعوة وتعلماً وتعليماً.

المبحث الحادي عشر

في أن الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته هي البصيرة التي وصفت بها دعوته

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] وقد أمره الله أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة ... إلخ ، فلن يكون سبيله فيها غير ما أمره الله به.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يقول تعالى لرسوله إلى الثقلين الإنس والجن جميعًا آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسوله (على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي»(١). وإنما يحصل اليقين بالبرهان وهو الحجة الواضحة وذلك لا يكون إلاَّ بما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:١٠٤].

قال أبو جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ: «أي ما تبصرون به الهدى من الضلال والإيمان من الكفر. وهي جمع بصيرة ومنه قول الشاعر :

حملوا بصائرهم على أكتافهم ... وبصيرتي يعدو بها عتد

يعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة.

---

(١) تفسير ابن كثير : (٤٩٥، ٤٩٦/ ٢).

وقال ابن زيد : «البصائر الهدى بصائر في قلوبهم لدينهم وليست ببصائر الرؤوس... وقال إنما الدين بصره وسمعه في هذا القلب»(١). وقال ابن كثير - رحمه الله -: «البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ»(٢)، فحصل بهذا أن الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في دعوته هي البصيرة التي وصفت بها دعوته في الآية الأولى من هذا الباب لأن الحكمة كما تقدم هي ما أوحاه الله إليه والبصيرة كذلك كما دلت عليه آية الأنعام وسواء قلنا إن البصيرة والحكمة صفة للداعي أو للحجة التي يضير بها الداعي كذلك.

وقال تعالى : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤] قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام:٥٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠].

عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله». [متفق عليه]، ولا آمر للنبي ﷺ إلاّ الله سبحانه وتعالى.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق(٣) حتى يكون صديقاً. وإن

(١) نفس المرجع.

(٢) تفسير ابن كثير : (١٦٢/٢). والعقد : الفرس الشديد الشام الحلق، السريع الوثبة، المعد للجري، ليس فبه إضطراب ولا رخاوة . والوآى: الفرس السريع الطويل المفتدر الحلق.

(٣) وفي رواية (ويتحرى الصدق).

الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب[١] حتى يكتب عند الله كذاباً». [متفق عليه]

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء معناه أن الصدق يهدي إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم والبر: اسم جامع للخير كله، وقيل البر الجنة ويجوز أن يتناول العمل الصالح والجنة»[٢] قلت ولا منافاة بين القولين فالجنة طريقها العمل الصالح والعمل الصالح طريق الجنة قال: «وأما الكذب فيوصل إلى الفجور وهو الميل عن الاستقامة وقيل الانبعاث في المعاصي»[٣]. وقال أيضاً: «قال العلماء: هذا فيه حث على تحري الصدق وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه فإنه إذا تساهل فيه كثر منه فعرف به وكتبه الله لمبالغته -أي في الصدق أو الكذب- صديقاً إن اعتاده أو كذاباً إن اعتاده»[٤]، وفي الفتح: «أصل الفجر الشق فالفجور شق ستر الديانة ويطلق على الميل إلى الفساد وعلى الانبعاث في المعاصي وهو اسم جامع للشر»[٥] والمقصود من إيراد هذا الحديث هنا كون هذا الإرشاد من البصيرة لأن الاهتداء لأسباب الخير لا يكون إلاّ بعلم وهو هنا علم الوحي وهو الحكمة وقد تقدم ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض المشايخ من أنه كان إذا خاف على منصوحه النفرة يأمره بالصدق.

وعن أم كلثوم بنت عتبة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيُنْمِي خيراً أو يقول خيراً» متفق عليه. قال النووي - رحمه الله -: «معناه ليس الكذاب المذموم الذي يصلح بين الناس بل هو

(١) في رواية (ويتحرى الكذب).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦٠/١٦).

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) فتح الباري: (٥٠٨/١٠).

محسن»[1] ومعنى (فينمي خيراً) يبلِّغ تقول: نَمَيْتُ الحديث أنْمِيه إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت نميته بتشديد الميم»[2].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال العلماء المراد هنا أنه يخبر بما علمه من الخير ويسكت عما علمه من الشر ولا يكون ذلك كذباً لأن الكذب الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به وهذا ساكت ولا ينسب لساكت قول»[3]. والمعنى أن يذكر لصديقه من الخلال الجميلة التي يعلمها فيه مما هو بها مقر ويعمل على تقريب النفوس بناء على ذلك ولا يذكر من الخصال الذميمة شيئاً.

وقال الطبري: «ذهب طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح... وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة أو ما ليس فيه مصلحة، وقال آخرون: لا يجوز الكذب في شيء مطلقاً وحملوا الكذب المراد هنا على التورية والتعريض... واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أولها وكذا في الحرب في غير التأمين واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار»[4]. والمقصود من إيراد هذا الحديث ما تقدم في الذي قبله وهو بيان أوجه الحكمة والبصيرة في دعوته عليه الصلاة والسلام.

وقد تطلق على السنة كما في قوله تعالى **﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾** [الأحزاب:٣٤] فآيات الله القرآن والحكمة هي السنة المطهرة وقد تضمن هذان الحديثان من التوجيهات السديدة والأوامر الرشيدة ما يشفي العليل ويروي الغليل ويجلب الخير ويدفع الشر وما ذلك إلا لكونهما من الحكمة وهي البصيرة التي وصفت بها دعوة النبي ﷺ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/١٥٧).

(٢) فتح الباري: (٥/٢٩٩).

(٣) فتح الباري: (٥/٢٩٩).

(٤) نفس المصدر.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن البصيرة التي وصفت بها دعوة النبي ﷺ هي الحكمة التي أمر بها النبي ﷺ في الدعوة إلى الله. لقوله تعالى : ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ وقد قال الله له: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ....**﴾ الآية فعلم من ذلك أن البصيرة هي الحكمة التي أمر بها.

الثانية: بيان صفة من يدعو إلى الله بحق وأنه الذي يجمع ثلاث صفات ، السلامة من الشرك، والبراءة من أهله ، والبصيرة في دعوته.

الثالثة: قيام الحجة على الناس بما أنزل الله من البصائر وهي الحجج الواضحات والدلائل البينات فمن أخذ بها فقد أبصر فتبين له الهدى من الضلال والحق من الباطل وفائدة ذلك عائدة إليه لأن بها نجاته ومن أعرض عنها فقد عمي فلا يبصر هدى ولا يعرف حقاً فتلتبس عليه الأمور وإنما وبال ذلك عليه وهو الجاني على نفسه.

الرابعة: وجوب طاعة الرسول ﷺ وأنها طاعة لله لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى.

الخامسة: أن الذي هدى الرسول عليه الصلاة والسلام إلى البصيرة في دعوته هو الله بما أوحاه إليه.

السادسة: أن الرسول ﷺ على بينة من الله في دعوته فهو متبع في جميع شئونه لما يوحى إليه من ربه سبحانه.

السابعة: بيان أن الله أمر رسوله ﷺ بمقاتلة الناس حتى يدخلوا في هذا الدين بأن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ...الخ. ففيه تأويل قوله تعالى : ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال:٣٩].

الثامنة: أن الصدق من أسباب البر الذي هو جماع الخير وأن الكذب من أسباب الفجور الذي هو جماع الشر.

التاسعة: أن دعوة النبي ﷺ قائمة على الصدق والبر والبعد عن الكذب والفجور.

العاشرة: الرخصة في الكذب إذا أنْمى خيراً أو قال خيراً .. بأن كان على وجه الإصلاح وطلب الخير من غير أن يترتب عليه فقدان حق أو إثبات باطل.

الحادية عشرة: ذكر الخلاف في المراد بالكذب المأذون فيه وأن من العلماء من حمله على المعاريض واستعمال التورية ، ومنهم من حمله على السكوت عن ذكر ما يعلمه من الشر والإخبار بما يعلمه من الخير وجواز ذلك في حال الاضطرار اتفاقاً.

الثانية عشرة: أن منْ البصيرة في الدعوة إلى الله توضيح ما يلتبس على الناس مما يظن دخوله في المحظورات وهو ليس منها.

* * *

المبحث الثاني عشر

أن من البصيرة تقديم النقل على العقل وضبط النفس عند الغضب وتقديم الأهم

قال الله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣] ومن الاستمساك به تقديمه على العقل المجرد فإن من قدم العقل على النقل (وهو النص الشرعي) لم يستمسك بالذي أوحي إليه.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم»(١) وقال ابن سعدي رحمه الله «وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق تكون بانياً على أصل أصيل إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور»(٢) وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥].

وقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠] قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ : «أي اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً لا تضجر فيه ولا ملل»(٣) وفسر ابن كثير ـ رحمه الله ـ الهجر الجميل بأنه الذي لا عتاب معه(٤) لأن التضجر والملل يقطعان الطريق على الداعية ويضعفان الهمة

(١) تفسير ابن كثير : (٤/١٢٨).

(٢) تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٦/٦٥٠) .فيجب أن تعلم أنه حق وعدل وصدق .

(٣) تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٨/٤٧١).

(٤) تفسير ابن كثير : (٤/٤٣٧).

ويطمعـان العدو ويحجبـان الرؤية عن مواطن الصواب وهو مع ذلك كله خلاف النقل الذي جاءنا من ربنا من الكتاب والسنة.

وقـال تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٠-٦٣].

قـال شيخ الإسلام ابن تيـميـة ـ رحمـه الله ـ: «ومن هـذه الآيات أنواع من العبر الدالة على ضلال من تحـاكم إلى غيـر الكتاب والسنة ، وعلى نفـاقـه وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب وغير ذلك من أنواع الاعتبار»(١) فدل هذا على أن تقديم العقل المجرد على النص الشرعي ليس من سبيل المؤمنين وبالتالي ليس من البصيرة لأن الله وصف أهله في هذه الآية بالنفاق.

وقـال تعـالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:١٢٥] (٢).

وقـال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٤٨]. فدل هذا على أن توحيد الله تعالى هو أول

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : (١/٥٨).

(٢) سورة الأنبياء : (١٢٥) .فأمر بإفراده بالعبادة ولا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على الشرع . فعلى من يدعو إلى الله تعالى أن يكون جل اهتمامه في بيان حقيقة التوحيد ونواقضه ومايزيد فيه وما ينقصه حتى تقوم دعوته على مثل ماقامت عليه دعوة الرسل عليهم السلام.

ما دعت إليه الرسل وهو أهم فرائض الدين ولهذا قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾** [النساء:٤٨]. فكان لذلك أولى بالتقديم وأجدر بالاهتمام.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله» وفي رواية «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس». [متفق عليه واللفظ للبخاري]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** وكذلك قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كلٌ يقول **﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾** لاسيما أفضل الرسل اللذين اتخذ الله كليهما خليلاً إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام»(١).

وعن أبي وائل قال: كنا بصفين فقام سهل بن حنيف فقال: أيها الناس: اتهموا أنفسكم فإنّا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: «بلى». فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ أنرجع ولماّ يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «ابنَ الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً». فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/٥١).

على عمر إلى آخرها فقال عمر: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: «نعم» متفق عليه. وفي رواية للبخاري: قال سهل بن حنيف: اتهموا رأيكم رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته. وفي رواية له: «اتهموا رأيكم في دينكم».

قال الحافظ في الفتح: «لا تعملوا في أمر الدين بالرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصل من الدين وهو كقول عليٍّ فيما خرجه أبو داود بسند حسن لو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من أعلاه»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله واختياره الهوى على اتباع أمر الله»(٢).

وقال ـ رحمه الله ـ : «إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع»(٣) وقال أيضاً: «أما الشرع فهو في نفسه قول الصادق وهذه صفة لازمة له لا تختلف باختلاف أحوال الناس والعلم بذلك ممكن ورد الناس إليه ممكن ولذا جاء التنزيل برد الناس إلى الكتاب والسنة»(٤).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ : «لا تقتله» فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها فقال رسول الله ﷺ : «لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته». ومعناه أنه يصير معصوم الدم محرمًا قتله محكومًا بإسلامه بعد

(١) فتح الباري: (٢٨٨، ٢٨٩/١٣).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/٥١).
(٣) درء تعارض العقل والنقل: (١/١٣٨).
(٤) المصدر نفسه: (١/١٤٦).

قول لا إله إلا الله كما كنت أنت قبل أن تقتله ، وإنك بعد قتله غير معصوم الدم ولا محرم القتل؛ قصاصًا لا كفراً، كما كان هو قبل قول: لا إله إلا الله لولا عذرك بالتأويل المسقط للقصاص عنك(١). وفيه أهمية ضبط النفس عند الغضب وتقديم الشرع على الرأي.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددت لها »؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله . قال : « أنت مع من أحببت » متفق عليه. قال الكرماني ـ رحمه الله ـ : « سلك مع السائل أسلوب الحكيم وهو تلقي السائل بغير ما يطلب مما يهمه أو هو أهم »(٢). ففيه أن تقديم الأهم من الدين لصرف النبي ﷺ السائل إلى ذلك وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه.

الصرعة : الذي يصرع الناس كثيراً لقوته فالهاء فيه للمبالغة(٣) قال ابن حبان : « أراد لا تعمل بعد الغضب شيئاً مما نهيت عنه »(٤).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: الأمر بالاستمساك بالوحي وأن مبني هذا الدين على النقل لا العقل المجرد.

الثانية: الأمر بالصبر على الأذى والهجر الجميل وبيان معناهما.

الثالثة: أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تقديم الأهم وأن أهم فرائض الدين التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة وأن جميع الرسل دعوا أممهم إلى ذلك وقدموه على ما سواه وأن ذلك من سنة المرسلين.

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم : (٢/١٠٦).

(٢) فتح الباري : (١٠/٥٦٠).

(٣) فتح الباري : (١٠/٥٢٠ ، ٥١٩).

(٤) نفس المصدر. وبذلك يعرف ضبط النفس

الرابعــة: اقتداء النبي ﷺ بمن قبله من الرسل في الاهتمام بالتوحيد وتقديم الدعوة إليه على جميع فرائض الدين «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله»، «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله».

الخامسة: العبرة العظيمة الواردة في حديث المقداد وهي تؤكد المسألة الأولى.

الســادسة: فضل كف النفس عند الغضب وأن الشديد في الحقيقة هو الذي يملك نفسة عند الغضب فلا يعمل شيئاً مما نهي عنه.

السابعة: فضل حب الله ورسوله ﷺ ويتبع ذلك حب الصالحين.

الثامنة: أن الإسلام يجُبُّ ما قبله وأن من دخل في دين الله عصم دمه وماله إلاّ بحقه.

التاسعة: أن الأحكام في هذه الشريعة مبناها على الظواهر وأن توكل السرائر إلى الله.

العاشـرة: عظم كلمة التوحيد وأنها لا ترد بمجرد القرائن لدخول قائلها في الإسلام حكماً بيقين وأن اليقين لا يزول بالشك.

الحـادية عـشـرة: مراعاة الداعية لأحوال الناس وتنبيههم إلى ما هو أجدى وأنفع.

الثـانيـة عـشـرة: حرص الداعية على نفسه وعلى من معه بفعل الصالحات وتأمل قوله ﷺ للسائل عن الساعة «ما أعددت لها».

* * *

المبحث الثالث عشر

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى الاحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة، وأن ذلك من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦](١).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: « يقرر تعالى أنه لا إله إلاّ هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرًّا أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرةً فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوقٍ غيره أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله

---

(١) سورة الرعد : (١٦).المقصود الاحتجاج بالقدر الذي يؤمنون به من الحق على إثبات ماينفونه منه ، فالمشركون يثبتون توحيد الربوبية وينفون توحيد الإلهية وهما متلازمان .

ولا نِدٌّ له ولا عِدْل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك»[1]

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم:٩-١٠].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يخبر تعالى عما دار بين الكفار و بين رسلهم من المجادلة وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أفي وجوده شك فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولةٌ على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليها فلا بد لها من صانع وهو الله لا إله إلاّ هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني في قوله ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير: (٥٠٧/٢).وقوله من مخلوق غيره أي من خلق غيره

أي في ألوهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلاّ هو وحده لا شريك له فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى»(١).

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النحل:٦٠-٦٤].

عن أبي جري جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلاّ صدروا عنه. قلت من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ قلت: عليك السلام يا رسول الله. مرتين. قال: «لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت قل السلام عليك». قال: قلت أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك». قال قلت: اعهد إلي؟ قال: «لا تسبن أحداً». قال فما سببت بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاةً. قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف وارفع إزارك إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٥٢٥).

فإنها من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة وإن امرؤ شتمك وعيرك بما فيك فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه». رواه أبو داود بسند صحيح. وقوله: «لا تقل عليك السلام... الخ» قال الخطابي: هذا يوهم أن السنة في تحية الميت أن يقال له عليك السلام كما يفعله كثير من العامة وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه دخل المقبرة فقال: «السلام عليكم أهل دار مؤمنين»، فقدم الدعاء على اسم المدعو له كهو في تحيته الأحياء وإنما كان ذلك القول منه إشارة إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات إذ كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء وهو مذكور في أشعارهم، كقول الشاعر:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته إن شاء أن يترحما

وكقول الشاعر:

عليك سلام من أمير وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق

والسنة لا تختلف في تحية الأحياء والأموات بدليل حديث أبي هريرة الذي ذكرناه والله اعلم»[1].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وفيه نكتة حسنة وهي أن الدعاء بالسلام دعاء بخير والأحسن في دعاء الخير أن يقدم الدعاء على المدعو له كقوله تعالى ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ وأما الدعاء بالشر فيقدم المدعو عليه على الدعاء غالباً كقوله لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[2].

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية وأن الاحتجاج بإقرار المشركين بذلك على توحيد الله في عبادته من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) عون المعبود: (١١/١٣٨).

(٢) عون المعبود مع شرح ابن القيم: (١١/١٣٨).

الثانية: أنه لا حجة مع المشركين فيما جعلوا مع الله من الشركاء لأنه الخالق وحده فهو المستحق للعبادة لتفرده بالخلق.

الثالثة: احتجاج نبي الله صالح ﷺ على صحة دعواه بما يُقِرُّ بِهِ قومه من توحيد الربوبية ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

الرابعة: أن هذه طريقة رسل الله جميعاً من نوح إلى نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام حيث قالوا جميعاً لأممهم حين قابلوهم بالشك: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

الخامسة: بيان عظم قبح الشرك بالله تعالى وأنه محض افتراء على الله ففيه معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وأن من البصيرة في الدعوة إلى الله التفصيل في ذكر الحجج وبيان وجه الاحتجاج بكل دليل على حده ليكون أوقع في النفوس وأدعى للاعتراف بالحق.

السادسة: بيان عظم شخصية النبي ﷺ كما في حديث أبي جري رضي الله عنه وبيان معرفته بأحوال المدعوين وعاداتهم حيث أنكر على جري أسلوب سلامه لأنهم معتادون على ذلك في تحيتهم للموتى.

السابعة: أن السنة في السلام تأخير المدعوّ له عن الدعاء ولو كان ميتاً وإن ذلك هو الغالب في دعاء الخير وأن ما جاء في هذا الحديث إنما هو من باب التنبيه على العادات حيث وضعت في غير محلها مما يوهم خلاف المقصود. إذ لم يكن مقصود جري الاستخفاف بالنبي ﷺ.

الثامنة: احتجاج النبي ﷺ بتوحيد الربوبية وأن من البصيرة في الدعوة إلى الله ذكر الحجج مع الدعوى ولو لم تطلب.

التـاسـعـة: بيان محاسن هذا الشرع وكيف أن هذا الرجل بمجرد دخوله في الإسلام أخذ يتطلع إلى مطلب الشرع وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أرشده إلى محاسن الآداب ومعالي الأمور.

العـاشـرة: إن من الآداب الحسنة ترك مجازاة السفيه وأن وبال ما يقوله من الشتائم والتعيير عليه هو.

* * *

المبحث الرابع عشر

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله الموعظة الحسنة في الوقت المناسب

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «يقول إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يقول: بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي نزله عليك، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يقول بالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه وذكرهم بها في تنزيله»(١).

وقال القرطبي: «هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة فيبين لها الحق علماً وعملاً فتقبله وتعمل به وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل»(٣).

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: (٧/٦٦٣) ط ١ سنة ١٤١٢هـ ن/ دار الكتب العلمية ـ بيروت توزيع مكتبة الباز.

(٢) تفسير القرطبي: (١٠/٢٠٠). الصحيح أنها ليست منسوخة ولا تعارض بينها وبين آيات القتال.

(٣) مجموع الفتاوي: (١٩/١٦٤).

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «نجا الناهون وهلك الفاعلون ولا أدري ما صُنع بالساكتين»(١) وقال : «أسمعُ اللهَ يقول : ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾»(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[سبأ:٤٦]

قال ابن كثير رحمه الله: «أي تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك»(٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «**يا صباحاه**». فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا : بلى. قال ﷺ : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾». [رواه البخاري]

---

(١) تفسير ابن جرير : (١٩٤/١٩٥/١٣).

(٢) نفس المصدر.

(٣) تفسير ابن كثير : (٥٤٣/٣).

وعن عبدالله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم ثلاث مرات». [رواه أحمد]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي». لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟». قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾. [رواه البخاري]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبدمناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً». [رواه البخاري]

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

- **الأولى**: أن الموعظة الحسنة من البصيرة في الدعوة إلى الله.

الثانية: بيان المراد بالموعظة الحسنة ومتى يحتاج المدعو إليها وعظم فائدتها.

الثالثة: أن الموعظة الحسنة من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى.

الرابعة: خطر السكوت على الباطل وتأملْ قول ابن عباس: «لا أدري ما صُنِعَ بالساكتين».

الخامسة: أن الحق لا يحتاج في التعرف عليه سوى التجرد من الهوى والعصبية.

السادسة: حرص النبي ﷺ على إيصال الحق إلى الناس.

السابعة: من الموعظة الحسنة ضرب الأمثال تقريباً للفائدة إلى الأذهان.

الثامنة: بيان الفرق بين الإيمان والتصديق المجرد فقد أجمعت قريش على صدقه ﷺ ومع هذا كفروا به قال الله: **﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾**.

التاسعة: عظم جهل المشركين بالله تعالى.

العاشرة: أن الأنساب لا تنفع عند الله تعالى إذا لم يكن معها إيمان وعمل صالح ففيه معنى قوله تعالى في شأن إبراهيم وابنه إسحاق: **﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾**.

الحادية عشرة: شدة خوفه ﷺ على أمته من عذاب الله تعالى.

الثانية عشرة: قرب عذاب الله من المشركين وأن الرسل إنما بعثوا رحمة بالناس لينجوا من عذاب الله وسخطه فإن آمنوا نجوا وإن أبوا فقد قامت عليهم الحجة ففيه معنى قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾**.

* * *

المبحث الخامس عشر

أن الدعوة بالموعظة الحسنة من سنة المرسلين عليهم الصلاة والسلام

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «روى ابن أبي حاتم - رحمه الله - حدثنا أبي حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثني عون بن عبدالله بن عتبة أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق. فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون ألا تستحيون تجمعون مالا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون وتأملون مالا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويؤملون فيطيلون فأصبح أملهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً

وأصبحت مساكنهم قبوراً ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين»(١).

وقد وعظ كل نبي قومه وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]. «أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم الغمام وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن من الوعظ الحسن التذكير بنعم الله والتخويف من شدة بأسه.

الثانية: أن الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة من سنن المرسلين وعباد الله الصالحين.

الثالثة: أن سبيل رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله هي سبيل من تقدمه من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

الرابعة: أن الوعظ يقال لجميع الناس ممن يحتاجون إليه وتأمل قول الله لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٣٤١).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٥٢٣).

الخامسة: العبرة مما حصل للأمم الهالكة بسبب رفضهم ما جاءت به الرسل من النذر ولهذا قال صالح بعد هلاك قومه: **﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** [الأعراف:٧٩] وقال شعيب عليه السلام بعد هلاك قومه: **﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾** [الأعراف:٩٣].

* * *



المبحث السادس عشر

أن تخصيص المنافقين بالوعظ من البصيرة في الدعوة إلى الله

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله»(١).

وقال ابن جرير - رحمه الله -: «يقول فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم وعقوبته أن تنزل بدارهم وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يقول: مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعده ووعيده»(٢).

(١) تفسير ابن كثير: (١/٥١٩).

(٢) تفسير الطبري: (٨/٥١٥).

وعن أبي بردة البلوي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**» رواه أبو داود. وقوله (في بيته) «أي ولو كان في بيته مخفيًا من الناس»(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها أو قال في خدورها فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته**» رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن الرغبة عن التحاكم إلى الله ورسوله من صفات المنافقين.

الثانية: أن الخير كله في اتباع شرع الله وأن الشر في مخالفته وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**﴾.

الثالثة: اعتذار المنافقين بحسن النية وبيان أنها لا تنفع مع مخالفة صريح النصوص الشرعية(٢).

الرابعة: أن من النفاق تحريف النصوص إذا خالفت الأهواء.

الخامسة: الأمر بوعظ المنافقين والمبالغة في ذلك لشدة حاجتهم إليه فالدواء يكون على قدر الداء.

السادسة: ذم من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما.

---

(١) عون المعبود: (١٢/٢٢٤).

(٢) الاحتجاج بحسن النية مع الإصرار على مخالفة السنة كذب في الدعوى لأن الله تعالى قال: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ آل عمران: ٣١.

السابعة : التنبيه على أن اغتياب المسلمين من شعار المنافقين[1].

الثامنة : النهي عن تتبع عورات المسلمين والوعيد على ذلك ففيه معنى قوله ﷺ : «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب».

* * *

(١) المصدر نفسه : (١٣/٢٢٤) ، فإنه قال : «فيه تنبيه على أن غيبة المسلم من شعار المنافق لا المؤمن».



المبحث السابع عشر

أن من الموعظة الحسنة التذكير بأيام الله وضرب الأمثال

قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١] قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجى والعقول يعتبرون بها وموعظة يتعظون بها»(١) وإذا كانت الموعظة الحسنة من الأساليب المأمور بها في الدعوة إلى الله فإن هذا نوع من أنواعها.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

قال ابن جرير – رحمه الله –: حدثني يونس ، قال: أخبرني ابن وهب قال : ابن زيد في قول الله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم. خوفهم بها وحذرهم إياها ، وذكرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٧–٢٨]. فأخبر أن الغرض من ضرب الأمثال في القرآن الاتعاظ والاعتبار وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام:٧٠] فعلم بهذا دخول التذكير في الأمر بهذه الوسيلة.

(١) تفسير الطبري: (١٦/٣١٢).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري: (١٦/٥٢٢).

وقـال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣-٧٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها»(١).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: أن من الموعظة الحسنة المأمورِ بها في الدعوة إلى الله التذكيرَ بقصص السابقين لما فيها من الآيات الدالة على قدرة الله وعظيم سلطانه وعلى هذا كان أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

الثانية: التنبيه على ما في قصة يوسف وإخوته من العبر والعظات.

الثالثة: بيان من يستفيد من هذا القصص وأنهم أهل الحجا والعقول.

الرابعة: بيان الغاية من إرسال موسى عليه السلام وأنها إخراج قومه من الظلمات إلى النور وهي الغاية من بعثة كل رسول.

الخامسة: بيان فضل التذكير بأيام الله تعالى وأن ذلك من وسائل إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

السادسة: فضل الصبر والشكر وأن أهل هذين الوصفين هم المستفيدون من التذكير بنعم الله.

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٢٣٥).

السابعة: بيان معنى أيام الله في هذه الآية الكريمة وأنها قد تأتي بمعنى وقائعه بأعدائه وهو المعنى الآخر للآية الكريمة وهو الذي ذكره ابن زيد والأكثر إطلاقاً على النعم وتقدم في الباب الحادي عشر.

الثامنة: بيان الحكمة من إكثار القرآن لضرب الأمثال ؛ وأنها للاتعاظ والاعتبار.

التاسعة: أن ضرب الأمثال من الموعظة الحسنة لما فيها من تقريب المعاني إلى الأذهان.

العاشرة: أن في ضرب الأمثال إقامة لحجة الله على الناس . وهي من مقاصد الدعوة إلى الله.

الحادية عشرة: بيان عجز من يُدْعَوْن من دون الله من الأصنام و الأوثان وغيرها وحقارتها وأن من ضعفها عدم استطاعتها على خلق ذباب واحد وعدم أخذ ما سلبه منها وهو من أضعف مخلوقات الله.

* * *



المبحث الثامن عشر

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله المجادلة بالتي هي أحسن

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] فأرشد إلى مراعاة المقام ومنازل الناس في المجادلة ومع أن أهل الكتاب داخلون في الآية الأولى إلا أن ذكرهم بالتنصيص عليهم يفيد زيادة الاهتمام بهم.

قال ابن العربي رحمه الله: «ليست منسوخة وإنما هي مخصوصة، لأن النبي ﷺ بعث باللسان يقاتل به في الله ثم أمره الله بالسيف واللسان حتى قامت الحجة على الخلق لله، وتبين العناد، وبلغت القدرة غايتها عشرة أعوام متصلة فمن قُدرَ عليه قتل، ومن امتنع بقي الجدال في حقه، ولكن بما يحسن من الأدلة ويجمل من الكلام بأن يكون منك للخصم تمكين وفي خطابك له لين، وأن تستعمل من الأدلة أظهرها وأنورها وإذا لم يفهم المجادل أعاد عليه الحجة وكررها كما فعل الخليل مع الكافر حين قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقال له الكافر: «أنا أحيي وأميت» فحسن الجدال ونقل إلى أبين منه بالاستدلال وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وهو انتقال من حق إلى حق أظهر منه ومن دليل إلى دليل أبين منه وأنور»(١).

(١) أحكام القرآن: (١٤٨٧، ١٤٨٨/٣).

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ . .الآية [الإسراء:٢٥] وتدخل المجادلة بالتي هي أحسن في هذا الأمر.

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم وعداوته ظاهرة بينه ولهذا نهي الرجل أن يشير إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزع في يده أي فربما أصابه بها»(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج:٦٨-٦٩] قال القرطبي – رحمه الله – : «قال مقاتل: هذه الآية نزلت على النبي ﷺ ليلة الإسراء وهو في السماء السابعة لما رأى من آيات ربه الكبرى فأوحى الله إليه «وإن جادلوك» بالباطل فدافعهم بقولك «الله أعلم بما تعملون» من الكفر والتكذيب. فأمره الله تعالى بالإعراض عن محاوراتهم صيانة له عن الاشتغال بتعنتهم ولا جواب لصاحب العناد» وقال «في هذه الآية أدب حسن علمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ألاّ يجاب ولا يناظر ويدافع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه ﷺ»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما الذي أوتيته وحيٌ أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». متفق عليه. قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: «هذا دال على أن النبي لابد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٥).
(٢) تفسير القرطبي: (١٢/٩٤).

من أصر على المعاندة »[1] وقال أيضاً « وليس المراد حصر معجزاته ﷺ فيه [أي القرآن] ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتيه من تقدمه بل المراد أنه [أي القرآن] المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره ؛ لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها غيره تحدى بها قومه وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه »[2].

ووجه الاستشهاد بالحديث أن المجادلة تستلزم إيراد الحجج والبراهين ودل الحديث على أن القرآن هو المعجزة العظمى لرسالة النبي ﷺ كما قال تعالى : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤] فعلم بهذا أن الاحتجاج بالقرآن على الوجه الصحيح من المجادلة بالحسنى.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن المجادلة بالتي هي أحسن حين يستدعي المقام ذلك من البصيرة التي وصفت بها دعوته ﷺ.

الثانية : أن المجادلة المذكورة تكون بما يحسن من الأدلة السمعية والعقلية وما يجمل من الكلام.

الثالثة : أن تكرار الحجج والأدلة والانتقال من الواضح إلى الأوضح في جدال من لم يبلغ درجة العناد والمكابرة من البصيرة في الدعوة إلى الله.

الرابعة : التحذير من نزغات الشيطان وأن من المواطن التي يستغلها المحاورات والمخاصمات والإرشاد إلى استعمال الكلام الحسن الطيب لدفع هذا الشر لقوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

الخامسة : أن من البصيرة في الدعوة إلى الله عدم الاشتغال بجدال أصحاب العناد والتعنت وأنه لا جواب لصاحب عناد إلا ما أرشد إليه رب العباد : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) فتح الباري : (٩/٦).

(٢) فتح الباري : (٩/٦).

السادسة: تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات واختصاص كل نبي بمعجزة تناسب حال قومه.

السابعة: أن معجزة نبينا ﷺ التي اختص بها هي القرآن العظيم ورجاء النبي ﷺ أن يكون أكثر الأنبياء تابعاً وقد أجابه الله إلى تحقيقه فنصف أهل الجنة من هذه الأمة . كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري(١) وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما(٢). بل جاء ما يفيد أن ثلثي أهل الجنة منها فلله الحمد والمنة وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥]

* * *

(١) متفق عليه . رواه البخاري في كتاب الأنبياء وغيره باب قصة يأجوج ومأجوج ح (٣١٧٠) ومسلم في كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه . رواه البخاري في كتاب الرقاق ومسلم في كتاب الإيمان.

المبحث التاسع عشر

أن المجادلة بالتي هي أحسن من سنة المرسلين عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى في شأن موسى وهارون عليهما السلام : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ الآيات [الشعراء:١٦-٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال أهل العلم: إن هذا الملك أتى برجلين قد استحقا في نظره القتل ، فقتل أحدهما وعفا عن الآخر وكان هذا -كما قال ابن كثير- ادعاءً بأن لنفسه : «هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو يحيي ويميت»(١) فجعل

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣١٣).

إبراهيم (هذا الجواب من الملك مقدمة للحجة الدامغة التي بهت بها « أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فائت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي خرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة »(١) . وقد جادل كل رسول قومه كما ذكر الله عنهم في سورة الأعراف ويونس وهود وإبراهيم والحجر ومريم وطه والأنبياء والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت وغيرها وقص الله علينا من ذلك في شأن نبينا ﷺ مع أهل العناد من قومه الكثير كما في سورة النحل والإسراء ، والمؤمنون وغيرها فلله الحمد والمنة .

عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: « كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ » . قالوا: نحممهما ونضربهما . فقال : « لا تجدون في التوراة الرجم؟ » . فقالوا: لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبدالله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فوضع مدراسها الذي يُدَرِّسُها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يحنأ عليها يقيها الحجارة » . متفق عليه وهذا لفظ البخاري في كتاب التفسير .

وفي حديث البراء عند مسلم: « فدعا رجلاً من علمائهم فقال: « أنشدك بالله وبمن أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزنى في كتابكم؟ » . قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد الرجم .

---

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣١٣) .

قال النووي – رحمه الله –: «قال العلماء هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم ولعله ﷺ قد أوحي إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه»[١].

وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: «وقال الباجي ظاهر الأمر أنهم قصدوا في جوابهم تحريف حكم التوراة والكذب على النبي ﷺ إما رجاء أن يحكم بينهم بغير ما أنزل الله وإما لأنهم قصدوا بتحكيمه التخفيف عن الزانيين واعتقدوا أن ذلك يخرجهم عما وجب عليهم أو قصدوا اختبار أمره»[٢] ومعنى نحممهما: نسود وجوههما بالحمم وهو الفحم، (ومدراسها) الذي يدرس كتبهم (ويحنا عليها): ينحني كما جاء مصرحاً به في بعض الروايات. فانظر كيف دخل (في جدالهم وكيف خرج منتصراً فإنه فتح باب الجدال معهم بالسؤال عن الحكم في كتابهم فكان الجواب خلاف الواقع فطلب الدليل: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** فانكشف أمرهم بما صنعوا حين التلاوة من الحيلة وما اعترف به عالمهم حين المناشدة.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن هارون عليه الصلاة و السلام من المرسلين.

الثانية: امتنان فرعون على موسى بتربيته إياه وليداً ولبثه فيهم سنين من عمره وتذكيره إياه بقتل القبطي فكان الجواب عن القتل بأنه عن جهل منبهاً عن المغفرة بذكر ما وهبه له ربه من الحكم والرسالة وأن ما امتن به عليه لا يكافئ استعباده لبني إسرائيل ولا يمكن أن تراعى على حساب هذا الحق العظيم.

---

(١) شرح النووي على مسلم: (١١/٢٠٨).

(٢) فتح الباري: (١٢/١٦٨).

الثالثة: مراعاة المقام في إيراد الحجج فانظر ما بين قول فرعون: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وقول موسى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من التناسب العظيم واستغلال المقام في غاية الحسن.

الرابعة: بيان ضلال أهل الكفر وانقطاع حججهم من أول الطريق واستغلالهم للسلطة بدلاً من المحاجة بالبراهين.

الخامسة: أن تذكير أهل الباطل بما ينبغي أن يسألوا عنه قبل اللجوء إلى استخدام السلطة من البصيرة في الدعوة إلى الله كما فعل موسى عليه الصلاة والسلام.

السادسة: أن من نظر إلى معجزات الأنبياء بلا عصبية ولا هوى هُدي إلى صراط مستقيم كما حدث لسحرة فرعون فإنه رغم تعلق قلوبهم بما وعدوا به من قبل فرعون إلا أن نظرهم إلى معجزة العصا كان مجرداً من الهوى.

السابعة: أن العاقبة للمتقين.

الثامنة: في قصة موسى معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

التاسعة: أهمية الصبر لمن دعا إلى الله وأنه لابد منه في طريق الدعوة إلى الله.

العاشرة: حسن استغلال إبراهيم عليه السلام للموقف في إيراد الحجج بجعله لما يجري على لسان خصمه مقدمة لإيراد حجة لا يستطيع دفعها حتى ولو أراد التمويه.

الحادية عشرة: أن عدم التشاغل بما يورده الخصم من الحجج على سبيل التمويه من البصيرة في الدعوة إلى الله فإن إبراهيم عليه السلام يعلم أن ما ذكره الكافر من كونه يحيي ويميت بالطريقة التي فعلها ليست جواباً على الحقيقة ومع هذا لم يتشاغل إبراهيم بردها على هذا الأساس لكونه يعلم أنه يريد التمويه على

الناس فجعل ما ذكره مقدمة لإيراد حجته الأخرى ولو تشاغل بذلك لما وصل إلى النتيجة التي وصل إليها: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الثانية عشرة: فيه بشرى لأهل الدعوة إلى الله تعالى بأنه يهديهم وأنه لا يهدي عدوهم ففيها معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الثالثة عشرة: أن طلب الدليل من الخصم من المجادلة بالحسنى وكذا مناشدته لبيان الحقيقة.

* * *



المبحث العشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى الرفق بالنفس

قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] قال ابن كثير رحمه الله: «لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات»(١).

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهرٌ دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب»(٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:٧٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/٣٧٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/٥٨١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] عن ابن عباس رضى الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول»(١).

وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي ليس عليك هداهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وارفق بنفسك.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «الوسع هو ما تسعه النفس ولا تضيق عنه ولا تعجز عنه»(٢).

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: «من هذه؟». قالت: فلانة، تذكر من صلاتها. قال: «مه! عليكم من الأعمال بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه». متفق عليه. قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: «أي اشتغلوا من الأعمال بما تطيقون المداومة عليه، فمنطوقه يقتضي الأمر بالاقتصار على ما يطاق من العبادة، ومفهومه يقتضي النهي عن تكلف ما لا يطاق»(٣) قلت بل هذا منطوق أيضاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «مه!» فإنها كلمة زجر، وقال النووي – رحمه الله –: «أي يطيقون الدوام عليه بلا ضرر وفيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق وليس الحديث مختصاً بالصلاة بل عام في جميع أعمال البر»(٤)

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: (١٥/٢١٢).

(٢) الاستقامة: (١/٢٧).

(٣) فتح الباري: (١/١٠٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/٧٠).

وقال أيضاً: «وفي هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط والقلب منشرحاً فتتم العبادة، بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشق فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم»(١) وقال أيضاً: «وفيه الحث على المداومة على العمل وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى وينمو القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة»(٢) وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله». [متفق عليه]

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف»(٣) وعنها - رضي الله عنها - قالت: (ما خير رسول الله بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه). [متفق عليه]

وقوله «بين أمرين» أي من أمور الدنيا يدل عليه قوله: «ما لم يكن إثماً» لأن أمور الدين لا إثم فيها. والأيسر الأسهل. وقوله: «ما لم يكن إثماً» ما لم يكن الأسهل مقتضيا للإثم فإنه يختار الأشد»(٤). قال النووي -رحمه الله-: «فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروها»(٥).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/٧٠).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فتح الباري: (١٠/٤٤٩).

(٤) المصدر نفسه: (٦/٥٧٥).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/٨٣).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى: أن الرفق بالنفس من البصيرة التي وصفت بها الدعوة إلى الله تعالى.

الثانية: أن ملاحظة ما جرت به المقادير من البصيرة في الدعوة ففيها معنى قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ وقوله تعالى : ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾.

الثالثة: أن على الداعي إلى الله أن لا يضيق صدره بكيد أعداء الله فإن الله كافيه ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾.

الرابعة: أن الإعراض عما يقوله الأعداء من السفاهات من البصيرة في الدعوة إلى الله فالله يعلم ما يسرون وما يعلنون وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾.

الخامسة: أن هداية من يهتدي بتوفيق الله وأن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لحكمة بالغة : ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾ ومنها لوازم التكليف ففيها معنى قوله تعالى : ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ وهداية من اهتدى بفضله وضلال من ضل بعدله.

السادسة: أن الاشتغال بما يطاق من الأعمال والمداومة عليه وترك تكلف ما لا يطاق من البصيرة في الدين ومن ذلك الدعوة إلى الله تعالى.

السابعة: فضيلة الرفق وأن الله يحبه وبيان معناه.

الثامنة: أن من هدي النبي ﷺ اختيار أيسر الأمرين المخير فيهما وبيان المراد بذلك.

التاسعة: سماحة هذا الدين ويسر شرائعه ففيه معنى قوله ﷺ : «إن هذا الدين يسر».

العاشرة : حرص النبي ﷺ على إيصال الخير إلى الناس وأن هذا الحرص من البصيرة في الدعوة إلى الله ما لم يصل إلى حد الحزن وإهلاك النفس.

الحادية عشرة: أهمية الرفق في الدعوة إلى الله وذلك يناسب مشقة الطريق وطولها لئلا ينقطع به الطريق ففيها معنى «المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

الثانية عشرة: عناية الله ببيان هذه الدعوة بياناً يشمل غاياتها ووسائلها وأهلها.

الثالثة عشرة: أن الرفق مطلوب في أعمال البر كلها ومن أشرفها الدعوة إلى الله تعالى.

* * *



المبحث الواحد والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى الرفق بالناس

قال الله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «معناه : خذ العفو من أخلاق الناس واترك الغلظة عليهم»(١) وقال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم ، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو أي ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال بالأخلاق . فلا يكلفهم مالا تسمح به طبائعهم بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ولا ينكر على الصغير لصغره ، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره ، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم « وأمر بالعرف » أي بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم أو حثاً على خير من صلة رحم أو بر وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية. ولما كان لا بد من أذية الجاهل. أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله»(٢).

وقال تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥] قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «هذا الصفح الذي لا أذية فيه بل قابل إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران

---

(١) تفسير الطبري : (١٣/٣٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي : (١٣٤/ ١٣٥/ ٣).

لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب فإن كل ما هو آت قريب، ثم ظهر لي أحسن مما ذكرت هنا وهو أن المأمور به هو الصفح الجميل أي الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذيه القولية والفعلية دون الصفح الذي ليس بجميل وهو الصفح في غير محله فلا يصفح حيث يقتضي المقام العقوبة»(١).

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال عمرو بن عبسة السلمي كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرآءٌ عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: «نبي»، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحّد الله ولا يشرك به شيء». قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي فجعلت أتخبرُّ الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة فقالوا: الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الذي لقيتني بمكة». قال: فقلت: بلى. فقلت: يا نبي الله أخبرني عما علمكَ الله وأجهلُه؛ أخبرني عن الصلاة، قال: «صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تُسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي: (١٧٧/ ٣).

تصلي العصر ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار قال: فقلت يا نبي الله فالوضوء حدثني عنه قال: « ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلاّ خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه ، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذي هو له أهل وفرَّغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه ». فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ فقال له أبو أمامة: يا عمرو بن عبسه انظر ما تقول : في مقام واحد يعطى هذا الرجل ؟ فقال عمرو: يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله ولا على رسوله لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبع مرات ما حدثت به أبداً ولكني سمعته أكثر من ذلك. [رواه مسلم]

قال النووي : (معناه لو لم أتحققه وأجزم به لما حدثت به وذكر المرات بياناً لصورة حاله ولم يرد أن ذلك شرط)(١). وعن معاوية بن الحكم السلمي قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أماه ! ما شأنكم تنظرون إليّ. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبى هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن منه فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن». أو كما قال رسول الله ﷺ. [رواه مسلم]،

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : (٦/١١٨).

وقوله: «ما نهرني» : أي ما انتهرني. قال النووي: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل ورأفته بأمته وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه»[١].

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه». [رواه مسلم]

قال الحافظ بن حجر ـ رحمه الله ـ: «المعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده ، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره والأول أوجه»[٢].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير». [رواه مسلم]

قال النووي: «وفي هذه الأحاديث فضل الرفق والحث على التخلق به[٣] وذم العنف. والرفق سبب كل خير»[٤].

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل:

الأولى: الأمر بالرفق بالناس وعدم الغلظة عليهم ففيه معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

الثانية: بيان ما ينبغي أن يكون عليه من يدعو إلى الله عز وجل من مراعاة أحوال الناس وطباعهم.

الثالثة: أن من الرفق بالناس الإعراض عن جاهلهم وأن ذلك كله من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) شرح النووي على مسلم: (٥/٢٠).

(٢) فتح الباري: (١٠/٤٤٩).

(٣) لفظ (به) ساقط من الأصل في النسخ التي لدي ولا تستقيم العبارة بدونه.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/١٤٥).

الرابعة: أن أذى الجاهل متوقع فالواجب نحوه الإعراض عنه ففيه توطين النفس على ذلك.

الخامسة: الاهتمام بسلامة المسلمين من الأعداء ولذا أرجأ (إظهار عمرو بن عبسة لإسلامه إلى ظهور أمره ﷺ وبين له السبب بقوله: «إنك لا تستطيع» واستشهد له بالواقع (ألا ترى حالي وحال الناس ففيه بيان ما عليه دعاة الهدى)[1].

السادسة: أهمية مفارقة المشركين ومخالفتهم ﷺ ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذٍ يسجد لها الكفار) ففيه معنى قوله ﷺ : «من تشبه بقوم فهو منهم».

السابعة: حرص الصحابة على حفظ حديث النبي ﷺ وتثبتهم في قبول الأخبار.

الثامنة: فضل الوضوء والصلاة بعده.

التاسعة: حسن خلقه ﷺ ورفقه بالجاهل وحسن تعليمه.

العاشرة: فضل الرفق وأنه «من حرم الرفق حرم الخير».

* * *

(١) أي الرفق وذلك أن عمر بن عبسة رضي الله عنه لم يكن عشيرة ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم قوة يسطيع إل حمايته فأرشده إلى الرجوع إلى أهله وانتظار ظهور أمرالنبي صلى الله عليه وسلم ...الخ

المبحث الثاني والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله التيسير وعدم التعسير

قال الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] قال قتادة : «فأريدوا لأنفسكم الذي أراد الله لكم »[١]، وفي التعسير على الناس أو النفس من المشقة ما ينافي هذا المقصد الشرعي وهو إرادة التيسير وقال محمد بن صالح بن دينار التمار المدني قال : قلت للقاسم بن محمد : إنا نسافر في الشتاء وفي رمضان فإن صمت فيه كان أهون عليّ من أن أقضيه في الحر قال : قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ما كان أيسر عليك فافعل»[٢] وقد تقرر لدى جمهور الأصوليين : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فيدخل في ذلك الدعوة إلى الله تعالى.

وقال الله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]

قال أبو جعفر الطبري : «يريد الله أن ييسر عليكم »[٣] ومن ذلك التيسير على الناس وعدم التعسير لاسيما وقد ختم هذا الخبر بقوله ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ وذلك كالتعليل للتخفيف وهي عامة فيدخل فيها جميع المدعوين.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره : (٣/٤٧٦).

(٢) تفسير الطبري : (٣/٤٦٩).

(٣) تفسير الطبري : (٨/٢١٥).

وقال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

[النساء:٩٤]

قال أبو جعفر الطبري : ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ يقول فلا تعجلوا بقتل من أردتم قتله ممن التبس عليكم أمر إسلامه فلعل الله أن يكون قد منّ عليه من الإسلام بمثل الذي من به عليكم ، وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان »(١).

وقال ابن عباس – رضى الله عنهما – : « حرم الله على المؤمنين أن يقولوا لمن شهد أن لا إله إلا الله (لَستَ مُؤمِنًا)، كما حرم عليهم الميتة ، فهو آمن على ماله ودمه ولا تردوا عليه قوله »(٢) ولاشك أن من قال لا إله إلاّ الله في مواطن القتال قد يقصد به التخلص من القتل وقد يكون صادقاً والقرينة تشهد برجحان الأول وفي تقديم هذا الرجحان إزهاق نفس بغير يقين في استحقاق ذلك مع منافاته للتيسير ولأن اليقين متعذر حتى في مواطن الأمن فكان مقتضى التيسير أن تجرى الأحكام على الظواهر وتوكل السرائر إلى علاّم الغيوب .

وقال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال تعالى : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون:٦٢]، يستوي في هذا ما يعمله المرء وما يطلبه من غيره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» . [رواه البخاري]

---

(١) تفسير الطبري : (٩/٧١).

(٢) المصدر نفسه : (٩/٨١).

المشادة: المقاواة، والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب[١].

قال ابن المنير: «ليس المراد منع الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة بل منع الإفراط المؤدي الى الملال، والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل»..[٢] وقال الحافظ ابن حجر: «قد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع»[٣] ومعنى «فسددوا وقاربوا وأبشروا» أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط فإن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه وأبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره وأبهم المبشر به تعظيماً وتفخيماً[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا». [متفق عليه]، وفي رواية: «سكنوا ولا تنفروا».

قال الحافظ ابن حجر: «المراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذا الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف يقبل وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضده»[٥] وقال أيضاً: «أمر بالتيسير والمراد به الأخذ بالتسكين تارة وبالتيسير أخرى من جهة أن التنفير يصاحب المشقة غالباً وهو ضد التسكين، والتيسير يصاحب التسكين غالباً وهو ضد التنفير»[٦].

---

(١) فتح الباري: (١/٩٥).
(٢) المصدر نفسه: (١/٩٥).
(٣) فتح الباري: (١/٩٥).
(٤) المصدر نفسه: (١/٩٥).
(٥) المصدر نفسه: (١٠/٥٢٥).
(٦) المصدر نفسه: (١٠/٥٢٥).

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن هذا الدين مبني على التيسير وعدم التعسير وأن ذلك ما أراده الله بهذه الأمة فيما شرعه لهم من الشرائع.

الثانية : بيان السبب في تخفيف الله على عباده وهو قوله : ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾.

الثالثة : أن الحكم على الناس مبني على الظاهر وأما الباطن فيوكل إلى الله وفي ذلك من التيسير ما لا يخفى.

الرابعة : عظم حرمة المؤمن عند الله تعالى وأن مفتاح الإيمان (لا إله إلا الله) فمن قالها حرم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله.

الخامسة : الأمر بلزوم السداد في القول والفعل وأنه الصواب ولا يكون كذلك إلا إذا وقع موافقا للكتاب والسنة المطهرة.

السادسة : التحذير من الغلو والتعمق في الدين وأن ذلك بمنزلة المغالبة للدين ولن يغلبه أحد ولهذا قال النبي ﷺ : «عليكم من الأعمال بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا».

السابعة : أن من حرص على مقاربة الكمال إذا عجز عن بلوغه نال درجُته ما لم يكن عجزه بسبب منه.

الثامنة : الحث على استغلال أوقات النشاط في فعل الطاعات (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[1].

التاسعة : الأمر بالتيسير على الناس والنهي عن التنفير وبيان المراد بهما.

---

(١) المعنى : استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة. والغدوة : سير أول النهار ، والروحه : السير بعد الزوال ، والدلجة سير آخر الليل.

العاشرة : الأمر بتبشير الناس بما أعد الله لعباده من الثواب العاجل والآجل .

الحادية عشرة : الأمر بمراعاة ، أحوال الناس من التيسير والتسكين والتبشير وأن السنة فعل كل واحد في الحال المناسبة له إذا لم يكن الفعل محدداً من قبل الشارع بوقت .

* * *



المبحث الثالث والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تنزيل الناس منازلهم

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] وإذاً فالتسوية بينهم خلاف البصيرة وتنزيل كل شيء في منزلته لاسيما في مجال الدعوة إلى الله تعالى من البصيرة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وفي هذا دليل على تفاوت منازل الناس عند الله بحسب تقواهم لله تعالى وعلى المؤمنين أن يتمسكوا بهذا المنهج لا سيما الدعاة إلى الله وذلك مما يشد من دعوتهم ويقوي في أتباعهم صدق التوجه إلى الله وحسن التنافس في مجال تقوى الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] لأن المساواة بينهم ضرب من الجور والله منزه عن ذلك فعلى الداعية أن يتنبه في مقابلاته وحديثه وسائر معاملاته حتى لا ينتقض عليه أمره فيستريب الناس في دعوته.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] وإذا كان الله لم يجعلهم سواء فعلى الداعية أن يضع كلاً في منزلته التي أنزله الله إياها.

وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠].

قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ: «قل يا محمد لا يعتدل الرديء والجيد، والصالح والطالح، والمطيع والعاصي (وَلَو أَعجَبَكَ كَثرَةُ الخَبيثِ) يقول: لا يعتدل

العاصي والمطيع لله عند الله ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم لأن أهل طاعة الله هم المفلحون الفائزون بثواب الله يوم القيامة وإن قلوا دون أهل معصيته ، وأن أهل معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإن كثروا. . . فلا تعجبن من كثرة من يعصى الله فيمهله ولا يعاجله بالعقوبة فإن العقبى الصالحة لأهل طاعة الله عنده دونهم. . واتقوا الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان بإعجابكم كثرة الخبيث فتصيروا منهم»(١). وفي هذا تنبيه هام جداً للمؤمنين عامة ولمن دعا إلى الله منهم على وجه الخصوص أن يضعوا الطيب من الناس في منزلته والخبيث منهم في منزلته مهما كثر الخبث وألاّ يغتروا بهذه الكثرة وهكذا الشأن في الأعمال والأقوال والمعتقدات(*).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج فقام عبد الله بن حذافه رضي الله عنه فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة». ثم أكثر أن يقول: سلوني، فبرك عمر على ركبتيه ، فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً. فسكت. [رواه البخاري ومسلم] وكان من مراعاة منزلة رسول الله ﷺ أن لا توجه إليه هذه الأسئلة وقد تنبه لهذا الخطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففعل ما فعله ﷺ. وعنه قال : سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فغضب فصعد المنبر فقال : «لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم». فجعلت أنظر يميناً وشمالاً فإذا كل رجل لافّ رأسه في ثوبه يبكي. فإذا رجل كان لاحي الرجال يدعى لغير أبيه ، فقال : يا رسول الله من أبي؟ قال حذافة ، ثم أنشأ عمر، فقال: رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، نعوذ بالله من الفتن ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) تفسير الطبري : (٩٦ ، ٩٧ / ١١).

(*) ولا يخفى أن وضع الطيب في منزلته ، والخبيث في منزلته ومعاملة كل بما يليق بمقامه على الوجه الشرعي من الأمور المهمة التي تساعد على إظهار الحق وإبطال الباطل ونشر الفضيلة بين الناس والتنفير من الرذيلة .

« ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ، إنه صُوِّرَتْ لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط » متفق عليه. قال النووي : « وأما بروك عمر رضي الله عنه وقوله ، فإنما فعله أدبا وإكراماً لرسول الله ﷺ وشفقة على المسلمين لئلا يؤذوا النبي ﷺ فيهلكوا »[١]. وأحفوه : أي أكثروا في الإلحاح والمبالغة فيه. ومعنى قوله (لاحى) من الملاحاة وهي المخاصمة والسباب.

وقال الحافظ ابن حجر : « وفي الحديث.. مراقبة الصحابة أحوال النبي ﷺ وشدة إشفاقهم إذا غضب خشية أن يكون لأمر يعم فيعمهم »[٢].

وروي عن عيسي بن مريم عليه السلام أنه قال : « كن طبيباً رفيقا يضع دواءه حيث إنه ينفع »[٣] وذلك يستلزم معرفة منازل الناس.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » أخرجه مسلم في المقدمة[٤] ومعرفة ما تبلغه عقول الناس يستدعي التعرف على منازلهم ليوضع كل في منزلته.

وقال عروة بن الزبير : (ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه عقله إلا كان ضلالاً عليه). [رواه مسلم] في المقدمة[٥] وقال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –: « حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ». [رواه البخاري][٦].

وقال الزهري : « كان مجلس عمر مغتصاً من القراء شباباً وكهولاً فربما استشارهم، ويقول: لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه فإن العلم ليس على

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : (١٥/١١٣).
(٢) فتح الباري : (١٣/٢٧٠).
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : (١/٤٤٧).
(٤) المصدر نفسه : (١/٥٣٩).
(٥) المصدر نفسه : (١/٥٣٩).
(٦) المصدر نفسه : (١/٥٤٠).

حداثة السن وقدمه ، ولكن الله يضعه حيث يشاء »[1] وفي هذا تنبيه هام على أن تنزيل الناس منازلهم لا يعني رد الحق إذا جاء من الأدنى بل يقبل الحق مهما كان قائله أو فاعله .

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : فضل العلم وعلو منزلة العلماء وأن ذلك متقرر عند ذوي العقول من الناس .

الثانية : أن إنزال العالم منزلته من البصيرة في الدين[2] .

الثالثة : وجود التفاضل في الدنيا بين الناس وأن الآخرة أكبر تفاضلاً ففيه معنى قوله تعالى : ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ .

الرابعة : أن ميزان الكرامة عند الله تقواه فأكرم الناس عنده أتقاهم .

الخامسة : أن الله لا يضع المجرم في منزلة المسلم ولا المفسدين في الأرض منزلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

السادسة : أن الإيمان والعمل الصالح متلازمان فلا إيمان بلا عمل صالح مع الإمكان فمن جمع بينهما لم يصدر منه فساد في الأرض عن قصد وعمد فإن وقع فبجهالة، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] .

السابعة : إطلاق الخبيث على من لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ وأن من يؤمن بالله ورسوله فهو الطيب .

---

(١) المصدر نفسه : (٦١٩/١). ورواه أيضاً عبد الرزاق في مصنفه : (٤٤٠/١١).

(٢) فعلى الداعية مراعاة ذلك في حال نصحهم إن حاد منهم أحد عن الحق أو دعوتهم إن لم يكونوا مسلمين كما في حديث معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن.

الثامنة : التحذير من الاغترار بكثرة الخبيث ، والتنبيه بأن العاقل لا يقبل بذلك .

التاسعة : توقير النبي ﷺ والخوف من غضبه لئلا تنزل عقوبة الله بسبب ذلك .

العاشرة : معرفة عمر بالله ورسوله ﷺ ولذا برك بين يدي رسول الله مناشداً إياه أن يكف مستعيذاً بالله من الفتن وهذا من فقهه رضي الله عنه .

الحادية عشرة : التحذير من سؤال أهل العلم تعنتاً أو في أمر لا يترتب عليه عمل لا سيما إذا كان يترتب عليه فتنة .

الثانية عشرة : دفع كبرى المفاسد بصغراها ، فإن المفسدة الكبرى أن يشك في رسالة النبي ﷺ إذا لم يجب ، والصغرى ما يترتب على الجواب لو خالف ما يعرفه الناس مما عليه ظاهر الأمر ولهذا اشتد غضبه واخذ يقول اسألوني ويقول إن الجنة والنار صورتا له وراء الحائط إشارة إلى عظم الفتنة .

الثالثة عشرة : تشبيه عيسى ﷺ من يعلم الناس الخير بالطبيب الذي يعرف الداء ولا يصرف الدواء إلا حين يعلم أنه ينفع .

الرابعة عشرة : مراعاة عقول الناس وفهمهم فلا يخاطبون بما لا تدركه عقولهم لئلا يحملهم ضعف الفهم على تكذيب بعض ما يعرض عليهم من الحق فيهلكوا .

الخامسة عشرة : أهمية التعرف على الناس ومنازلهم حتى يتمكن الداعية من تنزيلهم منازلهم التي تليق بهم .

السادسة عشرة : تشجيع عمر على إلقاء كلمة الحق وأنه لا يشترط في قبولها سن معين بل تقبل ولو من حديث السن لأن العلم ليس بكبر سن ولا بحداثته ولكنه منحة من الله يضعها حيث يشاء .

السابعة عشرة: فقه الصحابة في الدين والبصيرة في الدعوة إلى الله رب العالمين ؛ ولهذا تأثروا من غضب النبي ﷺ وبكوا خشية لله تعالى فرضي الله عنهم أجمعين .

* * *

المبحث الرابع والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله تقدير المواقف

قال الله تعالى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] وما ذلك إلاّ لما هو فيه من خيلاء الملك وكبرياء السلطة فلو لم يقدر هذا الموقف ما كان لموسى أن يبلغه رسالة الله حتى تقوم عليه الحجة.

قال ابن كثير – رحمه الله – : «هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»(١).

وقال وهب بن منبه: «قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة»(٢).

وقال ابن كثير : «والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع»(٣) وقوله : ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أي يوجد طاعة من خشية ربه.. فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣/١٥٣).

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به ، فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته . [مجموع الفتاوى ٢٤/ ٧].

وقال تعالى : ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣] وذلك أن حال الخصومات من مواطن الزلل التي يحرص عليها الشيطان فأمر المؤمنين أن يقدروا هذا الموقف ليكونوا أشد احترازاً من الزلل منهم في أي موطن آخر ومن يتأمل مواطن الدعوة يعلم أن كثيراً منها يندرج تحت هذا الحكم بل هي أولى.

قال ابن كثير – رحمه الله – : «يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، وعداوته ظاهرة بينة»(١).

وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥] وذلك أن دفع الشر بمثله يزيده إيقاداً فأمر النبي ﷺ بتقدير هذا الموقف بأن يدافع بالإحسان وأخبر الله أن ذلك نافع في كسر شر العداوة وتحويلها إلى ضدها من الموالاة والمحبة.

قال ابن عباس : «أي ادفع بحلمك جهل من جهل عليك»(٢) وقال : «أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم»(٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل: دخل

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣/٤٥).

(٢) تفسير القرطبي : (١٦/٣٦٢ ، ٣٦١).

(٣) نفس المرجع.

إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك. فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر فغط حتى ركض برجله»(١) رواه البخاري وفي رواية له: «فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده. فأُخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر فأتته وهو يصلي فأومأ بيده مهيم. قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر»(٢) وفي رواية أنها قالت: «اللهم إن يمت فيقال هي قتلته فأرسل في الثانية أو في الثالثة»(٣) وعند مسلم «فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام»(٤) فانظر كيف أن الخليل عليه السلام قدر هذا الموقف فاستعمل أخوة الإسلام مكان أخوة النسب من باب التورية تقليلاً للشر.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «اختلف في السبب الذي حمل إبراهيم على هذه الوصية مع أن ذلك الظالم يريد اغتصابها على نفسها أختاً كانت أو زوجة، فقيل كان من دين ذلك الملك أن لا يتعرض إلا لذوات الأزواج كذا قيل

---

(١) كتاب البيوع حديث: (٢١٠٤).

(٢) كتاب الأنبياء حديث: (٣١٧٩).

(٣) كتاب البيوع حديث: (٢١٠٤).

(٤) كتاب الفضائل فضائل إبراهيم.

ويحتاج إلى تتمة وهو أن إبراهيم أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة لكن إن علم أن لها زوجاً في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسه وإضراره بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً فإن الغيرة تكون حينئذ من قبيل الأخ خاصة لا من قبيل الملك فلا يبالي به»[1] قلت القول بأن دين الملك أن لا يتعرض إلا لذوات الأزواج فيه نظر ، لأن في القصة أنه أراد اغتصابها مع أنه قيل له بأنها أخته لكن التتمة يشهد لها ظاهر الوصية.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : «لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب عليّ بينهم كتاباً، فكتب محمد رسول الله ﷺ فقال المشركون : لا تكتب محمداً رسول الله ، لو كنت رسولاً لم نقاتلك. فقال لعلي : «امحه» فقال عليّ : ما أنا بالذي أمحوه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيده وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح فسألوه ما جلبان السلاح فقال القراب بما فيه» . [متفق عليه] وفي رواية «قالوا لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله. فقال : «أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله» . فتأمل كيف تنزل النبي ﷺ مع أهل مكة في الصلح فمحى لفظ «رسول الله» وهي حق تقديراً لموقف القوم إذ هم لا يعترفون بذلك ولو أصر على ذلك لم يتم الصلح وليس فيما أثبته النبي ﷺ ما يناقض دعوته وينافي رسالته.

ويستفاد من هذا المبحث عدة مسائل :

الأولى : أن ملاطفة كبار القوم ذوي الغطرسة والكبرياء لغرض إبلاغهم دين الله من البصيرة في الدعوة إلى الله وذلك من تقدير المواقف.

الثانية : التأمل في كلام ابن كثير رحمه الله على هذه الآية الكريمة .

الثالثة : أن من الملاطفة واللين في الدعوة إلى الله التذكير بعفو الله وسعة رحمته.

---

(١) فتح الباري : (٦/٣٩٣).

الرابعة: بيان معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

الخامسة: أمر الله لعباده في مواقف النزاع والخصام أن يقولوا التي هي أحسن[1].

السادسة: بيان ما ينبغي فعله عند مواجهة الجهل والغضب والإساءة وأن ذلك كله يدفع بالحلم والصبر والعفو.

السابعة: بيان منزلة من تخلق بهذا الخلق الكريم.

الثامنة: أن من هدي الأنبياء تنبيه الأصحاب والأتباع والأهل وسائر الأقارب بما يتوقع تعرضهم له ليستعدوا لذلك بما يناسب المقام.

التاسعة: أن من تقدير المواقف دفع أعظم الضررين بأخفهما وأن ذلك من البصيرة.

العاشرة: منزلة سارة (زوج إبراهيم) من الإيمان وإخلاصها في الدعاء وتقديرها للموقف الذي هي فيه.

الحادية عشرة: مشروعية التوسل إلى الله بالعمل الصالح وكيفيته حيث قالت: (اللهم إن كنت آمنت بك .... إلخ) فاستجاب الله لها.

الثانية عشرة: مشروعية الفزع إلى الصلاة في الملمات وفيها معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وهو ما كان يفعله رسول الله ﷺ.

الثالثة عشرة: قدرة الله على خلقه وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الرابعة عشرة: ضعف ابن آدم وأنه حين تحل به عقوبة الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وتأمل كيف عرف هذا الجبار أن قوته لا تخلصه مما وقع فيه فطلب الدعاء

---

(١) في هذا تنبيه على أن في كل موقف مخرج حسن وأحسن والمطلوب أن يجتهد المسلم والداعية على وجه الخصوص في إختيار الأحسن.

منها وقد أدرك هذا فرعون من بعده فقال ﴿ **السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ** ﴾ .

الخامسة عشرة : جهل الكفار بالله عز وجل ، فهذا الجبار حين حصل له ما حصل أسند ذلك الفعل إلى الشياطين ولم يسنده إلى قدرة الله وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى وقد يكون هذا من قبيل التعمية على الأتباع .

السادسة عشرة : موافقة الرسول ﷺ للمشركين في عدم كتابة لفظ « محمد رسول الله » ووضع مكانها « محمد بن عبد الله » وقوله (أنا محمد رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله) تقديراً للموقف وأن ذلك من البصيرة في الدعوة إلى الله و ليس في ذلك ما ينفي نبوته .

السابعة عشرة : تقديره ﷺ لموقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال : ما أنا بالذي أمحوه حيث لم يكرر عليه الأمر ولم يدخل معه في جدل ولا وجه له لوماً بل تناول الكتاب ومحاه بيده الشريفة تحقيقاً للمصلحة وأن كل ذلك من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى .

الثامنة عشرة : إباحة استعمال المعاريض عند الضرورة (إنها أختي) (وإنك أختي في الإسلام) .

التاسعة عشرة : أن إجابة السائل تكون من حيث الصدق والكذب بحسب توجه السؤال إلى المقصود ولذا سماه الخليل كذباً مع أنه مطابق للواقع نظراً لكونه غير مسئول عنه مع علمه بما يريده السائل لكنه مباح هنا للضرورة بل قد يتعين كما هو الحال هنا لو افترض غير إبراهيم نظراً لعظم مكانة الأنبياء عند الله تعالى وقوة توكلهم عليه .

* * *

المبحث الخامس والعشرون

أن من البصيرة في الدعوة إلى الله الحذر من أن يفتن الداعي عن بعض ما أنزل الله على رسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨] ينهى الله نبيه عن اتباع أهل الكتاب في أهوائهم المخالفة لما جاءه من الحق وفي ذلك تنبيه على أن ما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو من الأهواء الفاسدة فليكن المؤمن على حذر.

قال أبو جعفر الطبري - رحمه الله -: «اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم ولا تتركن العمل بذلك اتباعاً منك أهواءهم وإيثاراً لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي»(١) وقال ابن سعدي - رحمه الله -: «أي لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير»(٢).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: «قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء»(٣).

---

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٨٣).

(٢) تفسير ابن سعدي: (٢/٣٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/٦٦).

وقال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

قال أبو جعفر الطبري رضي الله عنه: «واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوا إليك محتكمين إليك، أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم»[١] وقال ابن كثير -رحمه الله-: «أي واحذر أعداءك اليهود أن يلبسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

قال ابن كثير -رحمه الله-: «ليست اليهود ولا النصارى راضية عنك أبداً فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضى الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين[٣] المستقيم الصحيح الكامل الشامل. وقال على قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ إلخ. فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته »[٤].

---

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٩٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٦٧).

(٣) تفسير بن كثير: (١/١٦٣).

(٤) نفس المرجع.

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : «إن الله عز وجل أنزل **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾**، **﴿... فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**، **﴿... فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** قال ابن عباس أنزلها الله عز وجل في الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا –واصطلحوا– على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو في الصلح فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق ، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد ، دية بعضهما نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك فكادت الحرب تهيج بينهما فاصطلحوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم . ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ فلما جاء رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا فأنزل الله عز وجل : **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** ثم قال : فيهما والله أنزلت ، وإياهم عنى الله عز وجل رواه أحمد ومعنى قوله (لم يظهر) أي لم يظهر من إحدى الطائفتين تعدٍ على الأخرى وقوله (لم يوطئهما) أي لم يوافقهما النبي ﷺ على ما اصطلحا عليه من الدية .

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قال كعب بن أسد وابن صوريا وناس من قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسلداتهم وإنا إنْ اتبعناك اتَّبَعَنا يهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك. فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] فانظر كيف يدخلون أهواءهم ويضعون لها من المبررات ما يشعر بأن القوم على حق وما هم كذلك ولكن الله عصم نبيه.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى: بيان أن ما أنزل الله على رسوله ﷺ هو الحق.

الثانية: النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم من باب أولى.

الثالثة: وجوب العمل بما أنزل الله على رسوله ﷺ والحكم به بين الناس ولو كانوا أهل كتاب وعدم الالتفات إلى مصطلحاتهم المخالفة لأمر الله.

الرابعة: التحذير من فتنة أهل الكتاب لاسيما مع قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

الخامسة: بيان مكر أهل الكتاب في إيقاع الفتنه بدعاة الحق.

السادسة: تصريح بعضهم لبعض بهذه الرغبة أعاذنا الله من مكرهم .

السابعة: التنبيه على أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وذلك أن الحكم بغير ما أنزل الله بين أهل الكتاب مفسدة وإيمانهم واتباعهم لرسول الله ﷺ كما يزعمون مصلحة فقدم النبي ﷺ دفع المفسدة على جلب المصلحة.

---

(١) تفسير الطبري : (٣٩٣/١٠).

الثامنة : التنبيه على تقديم المصالح المحققة على المظنونة.

التاسعة : أن ترك العمل بما أنزل الله بحجة توقع مصلحة عظمى فتنة وليس حكمة.

العاشرة : عناية الله برسوله ﷺ حيث أنزل عليه بيان ما عزم أهل الكتاب عليه قبل وصولهم إليه ففيه معنى قوله: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ**﴾.

الحادية عشرة : أن الله لا يرضى بالجور في الحكم ولو كان المتحاكمان غير مسلمين ففيه معنى قوله تعالى: ﴿**فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

الثانية عشرة : بيان كيف يزين الشيطان لبني آدم سوء أعمالهم فهذا الرهط من يهود يعلمون أنهم ظلمة فيما ألزموا به إخوانهم الآخرين بشأن الديات مع اتفاقهم في الدين والنسب ومع هذا يسعون في تثبيت هذا الظلم وتبريره أمام النبي ﷺ وإغراء النبي ﷺ بالوعود الكاذبة ليحملوه على موافقتهم على هذا الظلم والله لا يحب الظالمين.

* * *

المبحث السادس والعشرون

في بيان أن من البصيرة في الدعوة إلى الله الصبر على الأذى فيها

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج:٥] يأمر الله نبيه بهذا النوع من الصبر في دعوته وهي التي وصفت بالبصيرة فعلم أن الصبر على الأذى من البصيرة. قال القرطبي: «هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله»(١).

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]. قال ابن كثير -رحمه الله-: «تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوته»(٢)، وقال الله عن رسله عليهم الصلاة والسلام أنهم قالوا لقومهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢] وقد أمر النبي ﷺ بالاقتداء بهم.

قال ابن جرير: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ في الله وعلى ما نلقى منكم من المكروه فيه بسبب دعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه من البراءة من الأوثان والأصنام وإخلاص العبادة له»(٣).

وقال تعالى في شأن لقمان ووعظه لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

قال ابن سعدي: «لما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس أمره بالصبر على ذلك»(٤).

---

(١) تفسير القرطبي: (١٨/٢٨٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٥٩٢).

(٣) تفسير الطبري: (١٦/٥٣٩).

(٤) تفسير ابن سعدي: (٧/١٥٩).

وقال ابن العربي: «روى علماؤنا عن مالك: أن لقمان قال لابنه: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها، وقال لقمان: يا بني، ليس غنىً كصحة، ولا نعمة كطيب نفس. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجالس الفجار ولا تماشهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم. وقال: يا بني، جالس العلماء وماشهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم»(١). فقوله: «إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون» يشير إلى سبب الإعراض عن الآخرة وذلك سبب للأذى المتوقع منهم فلا بد من توطين النفس على الصبر ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر»(٢).

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: «إن استطعت أن تعمل بالرضا على اليقين فافعل وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»(٣).

عن قيس بن أبي حازم قال: (سمعت خباباً يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا. فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب وما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله» زاد بيان: «والذئب على غنمه» وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون». [رواه البخاري]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (١٤٩٥،١٤٩٦/٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (٦/١٠).

(٣) المصدر نفسه: (٤٠/١٠).

قال ابن التين : « كان هؤلاء الذين فعل بهم ذلك أنبياء أو أتباعهم » قال : « وكان في الصحابة من لو فعل به ذلك لصبر إلى أن قال : وما زال خلق من الصحابة وأتباعهم ممن بعدهم يؤذون في الله ولو أخذوا بالرخصة لساغ لهم »[1] .

وعن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ قال : بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال : « أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ » . [متفق عليه]

وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب فقال : (من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت . قال: أما إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه ولكنه أبو بكر ، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه وهذا يتلقاه ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول ويلكم: « أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ » ثم بكى عليٌّ ، ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال:عليٌّ والله لساعة من أبي بكر خير منه ، ذاك يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه » [رواه البزار][2]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « ولا تقع فتنة إلاّ من ترك ما أمر الله به فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر فالفتنة إما من ترك الحق أو من ترك الصبر »[3] .

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى : الأمر بالصبر الجميل وبيان معناه .

---

(١) فتح الباري : (٧/١٦٧).

(٢) انظر فتح الباري : (١٦٩، ٧/١٧٠).

(٣) الاستقامة : (١/٣٩).

الثانية: حلم الله على من عصاه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وهو عليهم قادر.

الثالثة: أن الصبر الجميل من البصيرة في الدعوة إلى الله حيث أمر به.

الرابعة: أهمية الاستعانة بالله وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

الخامسة: أن الصبر على الأذى في الله دأب الصالحين من عباد الله.

السادسة: أن الصبر في الله من عزائم الأمور التي لا يقوى عليها إلا أولوا العزم من الرجال.

السابعة: بيان ما لقيه الصحابة من الأذى قبل الهجرة وجواب النبي ﷺ لخباب في هذا الشأن.

الثامنة: تشابه مواقف الكفار من المؤمنين وقوة إيمان هؤلاء الذين ذكرهم النبي ﷺ وعظم صبرهم في الله.

التاسعة: أن العاقبة للمتقين.

العاشرة: شدة ما لاقاه النبي ﷺ من الأذى وصبره على ذلك.

الحادية عشرة: شجاعة أبي بكر الصديق وقوة إيمانه.

الثانية عشرة: فضل أبي بكر الصديق رضى الله عنه وحسن بلائه في الدعوة إلى الله تعالى.

الثالثة عشرة: معرفة الصحابة قدر أبي بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين ولهذا نبه علي رضي الله عنه على فضله ففيه بيان ضلالة من طعن فيه ﷺ ونال من قدره.

الرابعة عشرة: معرفة الصحابة بالله تعالى حيث لا تفاضل عندهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

الخامسة عشرة: عظم رحمة الله بعباده وجميل عدله وسعة فضله حيث أمر بالصبر في الدعوة لتبليغ الناس ولتقوم عليهم الحجة ففيه معنى قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** وقوله تعالى: **﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾**.

* * *

المبحث السابع والعشرون

أن وسائل الدعوة موزونة بميزان الشرع فيما يجوز وما لا يجوز وأن ضبطها بذلك من البصيرة في الدعوة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

قال أبو جعفر الطبري -رحمه الله-: «يعني بذلك: والذين يعملون بما في كتاب الله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ بحدودها، ولم يضيعوا أوقاتها ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فمن فعل ذلك من خلقي فإني لا أضيع أجر عمله الصالح»(١) وفي قوله (يمسكون) قراءتان. الأولى: بالتشديد من مسّك بمعنى تمسّك والثانية بالتخفيف من أمسك قال في الدر المصون: «ولكن أمسك متعد قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ فعلى هذه مفعوله محذوف تقديره «يمسكون دينهم وأعمالهم بالكتاب» فالباء يجوز أن تكون للحال وأن تكون للآلة أي مصاحبين للكتاب أي لأوامره ونواهيه»(٢).

وقال القرطبي: «والقراءة الأولى أولى، لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه فبذلك يمدحون فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لعقل ذلك»(٣)، ومن التمسك بالكتاب الدعوة إلى الله تعالى واستخدام الوسائل الممكنة شرعاً لتحقيق مقاصدها.

---

(١) تفسير الطبري: (١٣/٢١٦).

(٢) الدرر المصون: (٥/٥٠٩).

(٣) تفسير القرطبي: (٧/٣١٣).

وقال تعالى : ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩] وقد جاء في معنى الحكمة أقوال لأهل العلم فروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنها :– المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .وروي عن مجاهد –رحمه الله– أنها الإصابة في القول ، وعنه أيضاً أنها : العلم والفقه والقرآن.

وروي عن أبي العالية –رحمه الله– أنها خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة ، وعنه أيضاً أنها الكتاب والفهم . وعن أبي مالك أنها : السنة .

قال الإمام مالك : «وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بأمر دينه بصيراً به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله» ويرى السدي أنها : النبوة ، حكى ذلك كله ابن كثير – رحمه الله – وقال : «والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة . والرسالة أخص ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع»(١) وقد رجح ابن جرير –رحمه الله – : أن الحكمة هي الإصابة في القول والفعل وقال إن جميع الأقوال داخلة في هذا القول «لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم وعلم ومعرفة»(٢).

وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ**

(١) تفسير ابن كثير : (١/٣٢٢).

(٢) تفسير ابن جرير : (٥/٢٧٩).

كُتب لَهُم به عَمَلٌ صَالحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنين ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَاديًا إِلاَّ كُتبَ لَهُمْ ليَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

قال ابن كثير –رحمه الله– : «يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها ومن أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم **﴿لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾** وهو العطش **﴿وَلا نَصَبٌ﴾** وهو التعب **﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾** وهي المجاعة **﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطئًا يَغيظُ الْكُفَّارَ﴾** أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم **﴿وَلا يَنَالُونَ﴾** منه ظفراً وغلبة عليه **﴿إِلاَّ كُتبَ لَهُم﴾** بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قُدَرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنينَ﴾** كقوله : **﴿إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾** ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله **﴿نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً﴾** أي قليلاً ولا كثيراً **﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَاديًا﴾** أي في السير إلى الأعداء **﴿إِلاَّ كُتبَ لَهُم﴾** ولم يقل ههنا به؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال: **﴿ليَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية حظ وافر ونصيب عظيم وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة»[1] فانظر كيف اعتبر آثار الوسائل التي استخدمت في سبيل الله أعمالاً صالحة مع أنها ليست داخلةً في قدراتهم وفي ذلك من الترغيب والتحريض على استخدام الوسائل المؤدية إلى تحقيق إعلاء كلمة الله تعالى والصبر على ما يلحق المؤمن من المشقة ما فيه فسبحانه من إله كريم جل جلاله وعظم سلطانه ولا إله غيره. أما نفس الوسائل فقد كتبها في سبيله، بل جعل مثل هذا كله لمن عجز عن المشاركة

(١) تفسير ابن كثير : (٢/٤٠٠).

ونفسه متعلقة بذلك فعن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه قال: «كنا مع الرسول ﷺ في غزاة فقال: «إن في المدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتكم وادياً إلاّ كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية «إلاّ شركوكم في الأجر» رواه مسلم وعن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلاّ وهم معنا حبسهم العذر». [رواه البخاري]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٧-١١٠]، قال أبو جعفر الطبري – رحمه الله – : «كان أصحاب مسجد الضرار قد أتوا وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ! فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل». أو كما. قال ﷺ : «ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه». فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن دخشم فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ! فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله

فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ونزل فيه من القرآن ما نزل»(١) وقال أيضاً فتأويل الكلام : والذين ابتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفراً بالله لمحادتهم بذلك رسول الله ﷺ ويفرقوا به المؤمنين ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول : وإعداداً له لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما وقاتل رسول الله ﷺ مِن قَبْلُ (يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد). وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب يعني حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه فيما ذكر عنه ليصلي فيه فيما يزعم إذا رجع ففعلوا ذلك وهذا معنى قول الله جل ثناؤه ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٢).

وقال ابن كثير – رحمه الله – : (كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وقد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير فلما قدم الرسول ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وسار للإسلام كلمة عالية وأظهره الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحبار العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين... وكان رسول الله دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد فدعى عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته

---

(١) تفسير الطبري : (١٤/٤٦٨).

(٢) المصدر نفسه : (١٤/٤٦٩،٤٧٠).

هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك»[١] . . . إلخ .

وقال القرطبي -رحمه الله - : «قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كان المسجد الذي يتخذ للعبادة وحض الشرع على بنائه فقال : «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاه بنى الله له بيتاً في الجنة» يهدم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره فما ظنك بسواه بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم»[٢] فانظر إلى شياطين الإنس كيف عمدوا إلى وسيلة هي في الأصل من أفضل القرب وأقوى أسباب جمع الكلمة وألفة القلوب ووضعوها في غير موضعها لتحقيق عكس مقاصدها الشرعية من تفريق الكلمة وتشتيت القلوب وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله فكشف الله سترهم وفضح أمرهم وأزال كيدهم فله الحمد والمنة وهكذا ينبغي أن ينظر في الوسائل الشرعية في عينها وكيفية وضعها ومكانها فقد تستقيم في عينها وكيفيتها وتنحرف في مكانها كالقراءة في السجود والركوع فإنه لا يجوز مع كونه في الأصل من أفضل القرب في موضعها .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥] والوسيلة : القربة في قول أكثر المفسرين[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٢/٣٨٧،٣٨٨).

(٢) تفسير القرطبي : (٨/٢٥٥).

(٣) انظر تفسير الطبري : (١٠/٢٩٠،٢٩١).

وقيل المحبة ، قاله ابن زيد وقرأ قوله تعالى : **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾** [الإسراء:٥٧](١) والقول بأنها القربة أعم.

وفي حديث جابر بن عبدالله –رضي الله عنهما– : أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » . [رواه البخاري]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني –رحمه الله – : « الوسيلة هي ما يتقرب به إلى الكبير يقال: توسلت . أي تقربت وتطلق على المنزلة العلية ووقع ذلك في حديث عبدالله بن عمر وعند مسلم بلفظ « فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله » . . . الحديث . ونحوه للبزار عند أبي هريرة . ويمكن ردها إلى الأول بأن الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله فتكون كالقربة التي يتوسل بها »(٢) . ومن لا حظ الأمر بالتقوى والجهاد عرف صحة ما قاله الحافظ وعليه فتدخل كل قربة في هذا الأمر من الوسائل والمقاصد .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول: « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك » . [متفق عليه]

قال النووي: « وأما هذه الطائفة فقال البخاري هم أهل العلم ، وقال أحمد بن حنبل إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم . قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد أهل الحديث قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم

---

(١) نفس المرجع.

(٢) فتح الباري : (٢/٩٥).

محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض .وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث»[١] وصدق –رحمه الله– فإنه ما زال ظاهراً إلى يومنا هذا وسيظل حتى يأتي أمر الله.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات». رواه أبو داود . وفيه دليل على وجوب ابتعاد المؤمن عن أصحاب الشبهات إذا لم يكن لديه من الفقه في الدين والعلم بالكتاب المبين والسنة المطهرة ما يقيه الوقوع في حبائلهم وأما خصوص الدجال فهو واجب على الكل لعظم فتنته واليأس من هدايته وقد جاء الأمر لعموم المؤمنين فيؤخذ على عمومه وفيه مشروعية التحذير من أصحاب الشبهات حماية للدين ووقاية للمؤمنين ، والله المستعان.

وعن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوي والزبير بن العوام وكلنا فارس قال : «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعه إلى المشركين». فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتاب. فقالت : ما معنا كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجنّ الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ، وهي محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال النبي ﷺ : «ما حملك على ما صنعت؟».

(١) شرح النووي : (١٣/٦٦،٦٧).

قال حاطب : والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلاّ له من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال النبي ﷺ : «صدق، ولا تقولوا له إلاّ خيراً» فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم. [رواه البخاري]

فتبين بهذا أن الوسائل ليست توقيفية فقد أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وصاحبيه رضي الله عنهم بالانطلاق ولم يحدد لهم الوسيلة فأشار علي رضي الله عنه إليها بقوله «وكلنا فارس» وأخبرهم ﷺ بوجود الكتاب مع هذه المرأة ولم يحدد لهم كيفية الحصول عليه منها ففعلوا من الوسائل ما توصلوا به إلى المطلوب وتدرجوا من السهل إلى الأشد وهددوا بارتكاب ما هو محظور لدفع ما هو أشد حضراً ، وأن الوسائل إذا لم تكن مباحة لم يجز استخدامها إلاّ لدفع ما هو أشد ولهذا أبطل الله الوسيلة التي استخدمها حاطب، ووقى المسلمين شرها واعتبرت زلة غفرها الله لمكانه في غزوة بدر.

قال ابن العربي – رحمه الله – : «إن دلسة حاطب على النبي ﷺ بما كتب به إلى أهل مكة من جملة المعاصي الكبائر والذنوب الفواحش لكنها لم تخرجه من الإيمان لما كانت من معاصي الأعمال وكان قلبه خالصاً لكنه توهم أمراً عصى بفعله لأجله وكان في كتابه تعظيم الإسلام فإنه قال فيه إن رسول الله ﷺ وارد عليكم بجنود كالسيل في الليل»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حين أراد حنيناً : «منزلنا غداً –إن شاء الله– بخيف بني كنانة ، حيث تقاسموا على الكفر» رواه

(١) عارضة الأحوذي : (١٢/١٩٢).

البخاري في المغازي ورواه في الحج من طريق الأوزاعي وفيه : « قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر وهو بمنى : « نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر » يعني ذلك المحصب وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أو بني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ . قال أبو عبدالله (يعني البخاري) بني المطلب أشبه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « قيل إنما أختار النبي ﷺ النزول في ذلك الموضع ليتذكر ما كانوا فيه فيشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم وتمكنه من دخول مكة ظاهراً على رغم أنف من سعى في إخراجه منها ومبالغة في الصفح عن الذين أساءوا ومقابلتهم بالمن والإحسان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »(1). وقال عن اختلاف الروايتين : « ويحتمل التعدد »(2) ولاشك أن في ذلك إظهاراً لما أنعم الله به عليه من النصر وحسن العاقبة وذلك من الشكر كما أن فيه تذكيراً بتحقيق وعد الله ليزداد الذين آمنوا إيماناً . وصفحاً جميلاً عمن أساء إليه فما نزل في هذا المنزل إلاّ نزول الشاكرين الكرماء عليه الصلاة والسلام.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى : فضل التمسك بكتاب الله وأن من التمسك به الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم واستخدام وسائلها ولهذا قال الله : ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إذ كلها مأمور بها في الكتاب أصالة أو تبعاً.

الثانية : التنويه بشأن الصلاة لعظم شأنها وأهميتها من الدين.

الثالثة : فضل الحكمة وبيان معناها . وتأمل قول الإمام مالك رحمه الله.

---

(1) فتح الباري : (8/15).

(2) المرجع السابق.

الرابعة: أن الوسائل لها أحكام المقاصد وأنها تشرف بشرف مقاصدها وأن الله يثيب عليها وعلى آثارها المترتبة عليها ولو لم تكن في مقدور فاعلها . وتأمل في أقوال النبي ﷺ في أصحاب الأعذار.

الخامسة: أن الوسيلة تقبح بقبح مقصدها فانظر إلى مسجد الضرار كيف تحول إلى منكر تجب إزالته حين كان لقصد تفريق المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﷺ وفي ذلك عظة عظيمة وتنبيه هام على أهمية الفقه في الدين حتى يستطيع المؤمن التمييز بين الوسائل المشروعة والوسائل غير المشروعة وربط ذلك بمقاصدها وأن الوسيلة ولو كانت في الأصل مشروعة فإنها إذا وضعت في غير موضعها الذي شرعت له تنقلب إلى الضد.

السادسة: الأمر بالتقرب إلى الله عز وجل بما هو أهله من فعل الطاعات وترك المنهيات ويدخل في ذلك فعل الوسائل المؤدية لعمل الطاعات وترك الوسائل المؤدية إلى معاصيه سبحانه وتعالى.

السابعة: بيان معنى الوسيلة الواردة في قوله تعالى : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

الثامنة: الإخبار بقيام طائفة من أمته بأمر الله وظهورهم على من خالفهم فيدخل في ذلك استخدام كل وسيلة تمكنهم من الظهور على عدوهم في حدود القيام بأمر الله تعالى مما لا معارضة فيه لشرعه ، ففيه التنبيه على قيد المتابعة وهو معنى قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

التاسعة: مشروعية الابتعاد عن مواطن الفتن بل وجوب البعد عنها لاسيما لمن قل علمه وضعف فقهه في دين الله تعالى .

العاشرة: عظم فتنة الدجال وأنه يجب البعد عنه ما أمكن يستوي في ذلك العالم فمن دونه ففيه أن السلامة في الدين مقدمة على ما سواها.

الحادية عشرة: أن المقاصد الشرعية إذا لم تحدد وسائلها تخير المكلف من الوسائل أفضلها ولا يأخذ بوسيلة محظورة إلاّ عند العجز عن استعمال المباح وترتب على تركها فوات مصلحة أعظم أو حصول مفسدة أشد، وإنما تعرف المصالح والمفاسد من الشرع وفي ذلك يقول العز بن عبد السلام – رحمه الله –: «وأما مصالح الآخر ومفاسدها فلا تعرف إلاّ بالنقل»[(١)] وقال أيضاً: «أما مصالح الدارين وأسبابها ومفاسدها فلا تعرف إلاّ بالشرع فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح»[(٢)] وقال: «فكل مأمور به ففيه مصلحة الدارين أو إحداهما وكل منهي عنه ففيه مفسدة فيهما أو في إحداهما فما كان الاكتساب محصلاً لأحسن المصالح فهو أفضل الأعمال وما كان محصلاً لأقبح المفاسد فهو أرذل الأعمال»[(٣)].

الثانية عشرة: أن مقاصد الشرع منها ما حددت وسائلها ومنها ما لم تحدد. فما حدد لم يجز إحداث شيء سواه كوسائل الصلاة لتوقفه على الشرع وما لم يحدد فليس بتوقيفي كما في قصة حاطب ابن أبي بلتعة.

الثالثة عشر: حرص النبي ﷺ على إظهار نعم الله عليه والتذكير بصدق موعوده وإظهار الحق في المكان الذي أظهر فيه الباطل ليزداد إيمان المؤمنين حين يذكرون صولة الباطل وكيف زالت شوكته وعاد أكثر أهله مع المسلمين أنصاراً لدين الله تعالى فللّه الحمد والمنة.

* * *

---

(١) قواعد الأحكام لابن عبدالسلام ص: (٨، ١٠).

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع.

الباب الثاني

في دعاة الضلالة وبيان دعوتهم

المبحث الأول

بيان دعوة الضلالة وأنها الدعوة إلى مخالفة أمر الله

قال الله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الآيات [الأعراف:١٩-٣٦] فانظر كيف دعاهما إلى مخالفة أمر الله.

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يذكر الله تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام وزوجه حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلاّ شجرة واحدة ...فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن»(١) وقال تعالى في معرض الحديث عن إبليس لعنه الله وأعاذنا منه ومن حزبه: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧].

قال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني الحق(٢) وقال ابن عباس في قوله ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢٠٥/٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢٠٤/٢).

دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أُشهِّي لهم المعاصي(١) وقال ابن جرير: «فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمر الله أن يسلكوه وهو ما وصفنا من دين الله دين الحق فيأتيهم من ذلك من كل وجوهه من الوجه الذي أمر الله به فيصدهم عنه»(٢). وعن سبرة بن أبي قاسم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر مثل الفرس في الطِّوَلْ. قال فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهد النفس والمال فتقاتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: «فعصاه فجاهد» فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

[رواه أحمد والنسائي بسند صحيح]

وعن المسيب بن حزن قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة قال: رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يا عم قل لا إله إلاّ الله كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلاّ الله فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرنّ لك مالم أنه عنك». فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾ الآية. [متفق عليه] فتأمل دعوة هذين

(١) المصدر نفسه (٢/٢٠٤).

(٢) تفسير الطبري: (١٢/٣٤١).

الرجلين لعم النبي ﷺ إلى مخالفة أمر النبي ﷺ تجدها تسير على نفس الخط الذي يسير عليه الشيطان وسار عليه في الوقيعة بأبينا آدم عليه الصلاة والسلام .ومن هذا الباب ما نقل عن بعض دعاة النصرانية أنه قال: «إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»(١). وقال آخر «إن عدونا الأول في العالم هو الإسلام»(٢) فانظر إلى أي شيء يدعون الناس؟ !إنها الدعوة إلى مخالفة أمر الله عز وجل.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن الحسد والسعي بالمكر والخديعة من صفات دعاة الباطل.

الثانية: أن دعوة أهل الباطل مخالفة لشرع الله وبذلك يعرفها علماء الشرع فيردونها ولهذا أرشد الله إلى سؤالهم ﴿ فَاسأَلُوا أَهلَ الذِّكرِ إِن كُنتُم لاَ تَعلَمُونَ﴾.

الثالثة: أن من مكر دعاة الباطل تصوير أوامر الشرع بصور تنفر منها نفوس الناس ليتمكنوا منهم فيضلونهم.

الرابعة: أن من مكر دعاة الباطل تظاهرهم بالنصح حين يدعون الناس إلى مخالفة أمر الله وتأكيد دعواهم بالأيمان الكاذبة.

الخامسة: أن دعاة الباطل يأتون إلى الناس من يأبي الشهوات والشبهات وبذلك يتمكنون من صد كثير من الناس عن الهدى(٣).

---

(١) أثر الإسلام في تكوين الشخصية الجهادية للفرد والجماعة: ص١٢.

(٢) أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية: ص١١.

(٣) يجب على المسلم والداعية على وجه الخصوص أن لا يغتر بما يلقه أهل الباطل من الألقاب التي يلصقونها بأعمال المسلمين أو أقوالهم أو عقيدتهم ، فإنهم يهدفون من ورائها إلى تنفير الناس من شريعة الله وهدي رسوله ﷺ ونع هذا يجب عرض الأعمال والأقوال والمعتقدات على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما كان الأمر قد ثبت به أو النهي عنه فإمتثال خير وصلاح وبر وإحسان ولا وجه لما يطلقونه ، وما لم يثبت ولم يكن له أصل منها يحمل عليه ترك فالحق أحق أن يتبع وإن كنا نجزم أن أهل الباطل لا يريدون للمسلمين خيراً.

السادسة : بيان السبب في حرص الشيطان على غواية ابن آدم وأنه الكبر والحسد.

السابعة : قعود الشيطان في جميع طرق الحق ليصد الناس عن دين الله.

الثامنة : فضل من خالف دعوات الشياطين من الإنس والجن فتمسك بالحق الذي أنزله الله على رسوله عليه الصلاة والسلام.

التاسعة : أن من خداع ومكر دعاة الباطل التشكيك والتلبيس على الناس في أمر دينهم وترغيبهم في الدنيا على وجه يخالف شرع الله تعالى.

العاشرة : أن من مكر دعاة الباطل تزيين المعاصي للناس ودفعهم إليها.

الحادية عشرة : أن دعاة الباطل لا مكان لهم مع وجود علماء الشريعة الربانيين وإنما يقوم سوقهم عند ذهاب هؤلاء العلماء حساً أو معنى(١).

الثانية عشرة : حرص دعاة الباطل على باطلهم حتى في أصعب الحالات مثل حال أبي طالب واستخدام الأساليب المؤثرة.

الثالثة عشر : إدراك أعداء الإسلام أن مكمن القوة للمسلمين في هذا الدين، وحرصهم على إبعادهم عنه حتى يستطيعوا السيطرة عليهم.

* * *

(١) ذهاب العلماء (حساً) بأن يموتوا ولم يكن لهم من يرث منهم العلم والعمل، ومعنى بأن يمنعوا من قول الحق ونشر العلم.

المبحث الثاني

بيان دعاة الضلالة وما هو فيه من العمى والغواية

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] فهذه الأفعال الثلاثة (الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء، وقتل الذين يأمرون بالقسط) تدل على تخبط القوم في الضلالة.

كما قال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فإن جحد آيات الله مع وضوحها وقتل الأنبياء وهم قادة الإصلاح وأئمة الهدى في كل أمة وقتل من يأمر بالعدل لا يفعله إلا من يعيش في العمى والغواية .

قال ابن كثير – رحمه الله –: «هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج:٨-١٠] فأخبر أن جدالهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهذا غاية الجهل والضلال.

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٥٥).

قال ابن كثير– رحمه الله –: «أي بلا عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الرأي والهوى»(١).

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» رواه الترمذي وتقدم بيانه في القسم الأول .وإنما وصفوا بهذا الوصف لأنهم على ضلالة عمياء ويدعون الناس إليها(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من إمارة الصبيان» قالوا وما إمارة الصبيان؟». قال: «إن أطعتوهم هلكتم -أي في دينكم- وإن عصيتموهم أهلكوكم». (أي في دنياكم بإزهاق النفس أو بإذهاب المال أو بهما). [رواه ابن أبي شيبة](٣) وهذا لا يحصل إلاّ من أهل الضلال ولا يفعل ذلك من كان على بصيرة من دينه ويحصل بذلك من الحرج لمأشار إليه الحديث. وفي كتاب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم: «أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين». [رواه البخاري] وذلك انه على ضلالة فبقاؤه على حاله يعني إصراره على الضلالة. والناس -كما قيل- على دين ملوكهم فيهلكون بسببه ويكون عليه مثل آثامهم. قال الخطابي :«أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداًله، لأن الأصاغر أتباع الأكابر»(٤) قال الحافظ بن حجر: ط«قلت وفي الكلام حذف دل المعنى عليه وهو: فإن عليك مع إثمك إثم الأريسيين، لأنه إذا كان عليه إثم الأتباع بسبب أنهم تبعوه على استمرا ر الكفر فلأن يكون عليه إثم نفسه أولى»(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٢٠٨).

(٢) إن كلمة "أئمة "تشير إلى عظم البلاء الذي يحصل للناس لهم من تزعمهم لطريق الباطل وصدهم عن سبيل الله كثيراً وإخراجهم الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل.

(٣) انظر :فتح الباري: (١٣/١٠).

(٤) المصدر نفسه (١/٣٩). (٥) المصدر نفسه: (١/٣٩).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي ، وعيينه بن بدر الفزاري ، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب ، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ قال «إنما أتألّفهم» . فأقبل رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناتئ الجبين ، كث اللحية محلوق، فقال: اتق الله يا محمد! فقال: «من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني! فسأله رجلٌ قَتْلَه - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه فلما ولَّى قال: «إن من ضئضىء هذا - أو من عقب هذا - قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» . [متفق عليه]. قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «قوله: (لا يجاوز) يحتمل أنه لا تفقهه قلوبهم ويحملونه على غير المراد ويحتمل أن يكون المراد أن تلاوتهم لا ترتفع إلى الله ، وقوله «يمرقون من الدين» إن كان المراد به الإسلام فهو حجة لمن يكفر الخوارج ويحتمل أن يكون المراد بالدين الطاعة فلا يكون فيه حجة وإليه جنح الخطابي»(١) وقال في كتاب المغازي: «قوله (يمرقون من الدين) في رواية سعيد بن مسروق «من الإسلام وفيه رد على من أوَّل الدين هنا بالطاعة، وقال: إن المراد أنهم يخرجون من طاعة الإمام كما يخرج السهم من الرميَّة وهذه صفة الخوارج الذين كانوا لا يطيعون الخلفاء. والذي يظهر أن المراد بالدين الإسلام كما فسرته الرواية الأخرى وخرج الكلام مخرج الزجر وأنهم بفعلهم ذلك يخرجون من الإسلام الكامل»(٢) وقوله: (فسأَلَهُ رجلٌ قَتْلَه) أي أن يأذن له في قتله. وقوله: أحسبه خالد بن الوليد. وفي رواية: فقال عمر.

(١) انظر :فتح الباري : (٦/٦١٨).

(٢) المصدر نفسه: (٨/٦٩).

قال ابن حجر – رحمه الله –: «لا ينافي قوله في تلك الرواية (فقال خالد) لاحتمال أن يكون كل منهما سأل في ذلك»[١].

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: الوعيد الشديد لمن كفر بآيات الله وقتل الأنبياء والآمرين بالعدل من أتباعهم.

الثانية: عظم جرم هذه الفئة من الناس لما ينشأ عن فعلهم هذا من تثبيت الباطل ومنع الحق أن يصل إلى الناس وتثبيت الجهل.

الثالثة: تفسير ابن كثير للآية الأولى وبيان أنها ذم لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتعم[٢].

الرابعة: بيان أن دعاة الضلالة يقيمون جدالهم على مجرد الرأي والهوى لا يعتمدون على عقل صحيح ولا نقل صريح.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أمته من الأئمة المضلين[٣].

السادسة: استعاذة النبي ﷺ من إمارة الصبيان وبيان العلة في ذلك.

السابعة: التنبيه على أنه لا يأمر بمعصية الله وهو يعلم أنها كذلك إلا سفيه لأن الخير كل الخير في طاعة الله ولهذا وصفوا «بالصبيان».

الثامنة: التنبيه على أن الصبا قرين السفه في الغالب ولذا فسر إمارة الصبيان بهذا التعريف.

التاسعة: أن هذا التفسير يدل على أن المراد بالصبي صغير السن وصغير القدر كما نبه على ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح[٤].

---

(١) المصدر نفسه: (٦/٦١٨).

(٢) فتعم كل من اتصف بصفاتهم التي ذكرت في الآية.

(٣) وإنما ذلك لعظم البلاء بهم.

(٤) المصدر نفسه: (١٣/٩).

العاشرة: عظم المسئولية على الأئمة وأن عليهم إثم أتباعهم إن كانوا ضالين كما أن لهم مثل أجورهم إن كانوا صالحين كما تقدم.

الحادية عشرة: بيان تخبط أهل الضلال في ضلالهم من أهل الفرق الضالة (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) ومع هذا يزعمون أنهم يدعون إلى الله وينصرون دينه.

* * *

المبحث الثالث

في كون أهل النفاق من دعاة الباطل وبيان بعض صفاتهم

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] فأخبر أن المنافقين يتخذون الكافرين أولياء بمعنى أعواناً وأنصاراً وإنما ذلك ضد الحق وأهله فيما يفعلون من المكايد وما يبثونه من الإشاعات وما يقومون به من كشف عورات المسلمين لأعدائهم.

قال القرطبي: «تضمنت المنع من موالاة الكافرين وأن يتخذوا أعواناً على الأعمال المتعلقة بالدين»(١).

وقال ابن كثير: «وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نحن مستهزءون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة» ثم قال: «المقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»(٢).

وقال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧] فهذا منهجهم وهذه دعوتهم أمر بالمنكر ونهي عن المعروف .

---

(١) تفسير القرطبي : (٥/٤١٦).

(٢) تفسير ابن كثير : (١/٥٦٦).

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله»(١).

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كالشاة العائرة بين غنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» رواه مسلم .ففيه بيان لبعض صفاتهم كما قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ [النساء:١٤٣]

قال النووي: العائرة المترددة الحائرة لا تدري لأيهما تتبع ومعنى تعير أي تردد وتذهب»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الآية[آل عمران:١٨٨](٣) [متفق عليه]

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: الوعيد الشديد للمنافقين والسخرية بهم من قبل الله رب العالمين حيث استعمل في الوعيد لفظ البشرى على سبيل التهكم والسخرية.

الثانية: بيان السبب الذي استحق به المنافقون هذا الوعيد وهو اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٦٨).

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٧/١٢٨).

(٣) نص الآية: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨].

الثالثة : تحقير هذا الفعل من المنافقين وتسفيه أحلامهم.

الرابعــة : تنبيه القرطبي رحمه الله على مسألة الاستعانة بالكفار في أمور الدين.

الخامسة : التهييج على طلب العزة من الله تعالى والترهيب الشديد من طلب ذلك من غير الله .

السادسة : أن المنافقين على خلاف صفات المؤمنين فيما يأمرون به وما ينهون عنه.

السابعة : تشبيه النبي ﷺ المنافقين بالشاة العائرة ، ففيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ [النساء:١٤٣].

الثامنة : إن من صفات المنافقين أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بخلاف المؤمنين فإنهم يعملون ويخافون ألاّ يقبل منهم.

* * *

المبحث الرابع

في بيان بعض دعاة الضلالة وأن طريقهم عمياء

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:٨-٩] فانظر إلى حال هؤلاء الناس في جدالهم: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ فلا عقل صحيح ينظرون به ولا نقل صريح يعتمدون عليه وإنما هو الهوى واتباع الظنون مع هذا كله يتكبرون ويتعالون على الحق إذا عرض عليهم بحججه.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». [رواه مسلم]

فإذا انتصب الجاهل للفتوى فقد دخل الضلال من أوسع أبوابه دعوة وعملاً فهلك وأهلك غيره فدل هذا الحديث أن من دعاة الضلالة الذين يفتون الناس بغير علم.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن دعاة الباطل لا يعتمدون في دعوتهم على عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الهوى واتباع الظنون (وتقدم).

الثانية: ما عليه دعاة الباطل من الكبر والتعالي على الحق.

الثالثة : أن من أفتى بغير علم فقد ضل وأضل غيره .

الرابعـة : أن الفتوى لا تغير حكم الله وإنما هي من باب الخبر عن الله ورسوله ﷺ فإن كانت بعلم فنعما هي وإلاّ فويل له من الله .

* * *

المبحث الخامس

أن دعاة الضلالة يتعمدون الكذب على الله ويختارون الضلالة ويؤثرون الدنيا

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٧-٧٨] ﴿ **يَلْوُونَ** ﴾ يعني يحرفون. فأخبر أنهم يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً وهي عروض هذه الدنيا الفانية وأنهم يحرفون الكتاب الذي أنزل عليهم بقصد إيهام الناس أنه من عند الله وأنهم يتعمدون الكذب على الله فهذه ثلاث صفات لهؤلاء القوم وهي وان كان ظاهرها في أهل الكتاب إلاّ أن السلف الصالح كانوا يحتجون بالآية الأولى على كل من كتم شيئاً من الحق طمعاً في شيء من حطام الدنيا أخذاً بعموم اللفظ.

يقو ل ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة: ﴿ **أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها: ﴿ **وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أ ي برحمة منه لهم يعني لا يكلمهم الله كلام لطف ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ **وَلا يُزَكِّيهِمْ** ﴾ أي من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[١] ومعنى يعتاضون: يتخذونه عوضاً.

(١) تفسر ابن كثير: (١/٣٧٥).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف يمين صبر ليقتطع منها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان». فأنزل الله تصديق ذلك ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ إلى آخر الآية. قال: فدخل الأشعث بن قيس وقال: ما يحدثكم أبو عبدالرحمن؟ قلنا. كذا وكذا. قال: فيّ أُنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي قال النبي ﷺ: «بينتك أو يمينه». فقلت: إذاً يحلف يا رسول الله. فقال النبي ﷺ: من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر لقي الله وهو عليه عضبان». [رواه البخاري] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل إن من تعمد الكذب على الله واختار الضلالة إيثاراً للدنيا على الآخرة يدخل في هذا العموم من باب أولى.

وعن عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة أن امرأتين كانتا تخرزان(١) في بيت وفي الحجرة، فخرجت إحداهما وقد انفذ بإشفى(٢) في كفها فادعت على الأخرى فرفع أمرها إلى ابن عباس، فقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم». ذكّروها بالله واقرءوا عليها: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ** ﴾ فذكّروها فاعترفت فقال ابن عباس: قال النبي ﷺ «اليمين على المدعى عليه». [رواه البخاري ومسلم]

قال الحافظ ابن حجر: «فيه إشارة إلى العمل بما دل عليه عموم الآية لا خصوص سبب نزولها»(٣).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: إن دعاة الباطل يؤثرون الدنيا على الآخرة ويتركون الحق والهدى مع علمهم به طمعاً في حطام الدنيا ولذاتها.

---

(١) تخرزان: تخيطان.

(٢) بإشفى: مثل المسلة (الإبرة) له مقبض يخرز به.

(٣) فتح الباري: (٨/٢١٤).

الثانية : أن من صفات أهل الباطل التلبيس على الناس وإظهار الباطل في صورة الحق ، وتزيين الشر، والكذب على الله وتحريف شرعه[1] .

الثالثة : تفسير قوله تعالى : ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ الآية وأن المراد تحريف ما أنزل الله عليهم من الكتاب والتلبيس بذلك على الناس وأنهم يفعلون ذلك طمعاً في الدنيا.

الرابعة : الوعيد الشديد لمن فعل ذلك بأن ﴿لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الخامسة : بيان سبب نزول هذه الآية وأنها فيمن حلف يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم واليمين الصبر هي الفاجرة.

السادسة : استدلال ابن عباس -رضي الله عنهما- بالآية اعتباراً بعموم اللفظ وتنبيه الحافظ ابن حجر على ذلك.

السابعة : أن الذكرى ينتفع بها المؤمن ولهذا اعترفت هذه المرأة لما ذكّرت بهذه الآية ففيها معنى قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ .

الثامنة : عظم حرمة المؤمن عند الله تعالى حيث جاء الوعيد الشديد لمن اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه الفاجرة وما جاء في الآية الكريمة من الوعيد .

التاسعة : أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه وأن هذه القاعدة فيها عصمة لدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

* * *

(١) ومن ذلك ما يفعله بعضهم من بتر النصوص حيث يحذفون من النص ما يثبت به الحق ويذكرون منه ما يوافق هواهم لما يحصل من الحذف من تغيير المعنى ، وكذلك تحريف النصوص وصرفها عن معانيها المقصودة لغة وشرعاً إلى معان لا تتفق مع النصوص لا لغة ولا شرعاً ، بغية التضليل.



المبحث السادس

أن دعاة الضلالة يأمرون بالفحشاء وينهون عن المعروف ويحذرون منه

قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

قال أبو جعفر الطبري – رحمه الله –: «﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ أيها الناس بالصدقة وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ يعني ويأمركم بمعاصي الله عز وجل وترك طاعته»(١).

وقال الشوكاني(٢): «﴿ يَعِدُكُمُ﴾ معناه: يخوفكم الفقر أي بالفقر لئلا تنفقوا وقال: ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾: الخصلة الفحشاء وهي المعاصي والإنفاق فيها والبخل عن الإنفاق في الطاعات والمغفرة: الستر على عباده في الدنيا والآخرة. والفضل: أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم أرزاقهم وينعم عليهم في الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦] والصد عن سبيل الله أشد أنواع النهي عن المعروف.

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] فأنكروا على شعيب

---

(١) تفسير الطبري: (٥/٥٧١).

(٢) فتح القدير: (١/٢٨٩).

أمره إياهم بتوحيد الله تعالى ونهيه إياهم عن التطفيف في الكيل والميزان وأن يبخسوا الناس أشياءهم وأن يعثوا في الأرض مفسدين وهو بعينه منهج الشيطان الذي تقدم في الآية.

قال ابن كثير: «﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن يجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ رواه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان في صحيحه.

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن دعاة الضلالة على عكس ما عليه دعاة الهدى.

الثانية: أن من أساليب دعاة الضلالة التخويف من فعل الخير.

الثالثة: أن من أساليب دعاة الضلالة الأمر بالفحشاء وبيان معناها.

الرابعة: أن دعاة الهدى على خلاف ما عليه دعاة الضلالة فهم يعِدُون على فعل الخير بمغفرة من الله لذنوبهم وفضل منه عليهم وبيان معناها.

الخامسة: أن دعاة الضلالة يسترخصون الأموال في الصد عن سبيل الله وطاعته ويستكثرونها إن كانت في طاعة الله.

السادسة: سوء عاقبة دعاة الضلالة الذين ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله وعظم ما ينتظرهم عند الله من العذاب.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/٤٥٦).

السابعة: القاعدة العظيمة في تمييز عمل الشيطان من عمل الملك فيما ينتاب الإنسان من الخواطر عند فعل الخير وهكذا ينبغي أن يفعل المؤمن حين يلتقي بدعاة الهدى والضلالة أو تبلغه دعوتهم أن يميز بينهم بهذه القاعدة.

* * *

المبحث السابع

في بيان أن اتباع المتشابه من الكتاب وترك المحكم من أحوال أهل الزيغ

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس أنعكس»(١) قال أبو جعفر الطبري – رحمه الله –: «حدثنا أبو حميد: قال حدثنا سلمه عن محمد بن إسحاق قال حدثني محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ فيهن حجة الرب، وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق»(٢).

وقال أبو جعفر أيضاً: «وأما المحكمات فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتن حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام وما

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٤٤).

(٢) تفسير الطبري: (٦/١٧٧).

أشبه ذلك » وقال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم ، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم. وإنما سماهن ﴿أُمَّ الْكِتَابِ﴾ لأنهن معظم الكتاب وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه »[1].

قال ابن كثير: «إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وبقوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله »[2].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية إلى قوله ﴿إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ قالت :قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله ، فاحذروهم ». [رواه البخاري]. قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: « والمراد التحذير من الإصغاء إلى الذين يتبعون المتشابه من القرآن وأول ما ظهر ذلك من اليهود كما ذكره ابن إسحاق في تأويلهم الحروف المقطعة وأن عددها بالجمل مقدار مدة هذه الأمة ثم أول ما ظهر في الإسلام من الخوارج حتى جاء عن ابن عباس أنه فسر بهم الآية وقصة عمر في إنكاره على ضبيع لما بلغه أنه يتبع المتشابه فضربه على رأسه حتى أدماه .أخرجه الدارمي وغيره »[3].

---

(١) المصدر نفسه : (١/١٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير : (١/٣٤٥).

(٣) فتح الباري : (٨/٢١١).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: بيان المراد بالمحكم والمتشابه في الآية الكريمة.

الثانية: أن المحكم هو معظم الكتاب ويرد إليه المتشابه عند أهل الحق.

الثالثة: بيان السبب في اختيار المتشابه وأنه زيغ القلب عن الحق.

الرابعة: أن دعاة الضلالة يختارون المتشابه يقصدون بذلك الفتنة وإيهام أتباعهم بأنهم يتبعون القرآن وإنما يتبعون أهواءهم.

الخامسة: الفرقان بين أهل الزيغ والفساد وبيان أهل الحق والهدى في متابعة القرآن.

السادسة: بيان الحكمة من وجود المتشابه وأنه ابتلاء من الله للعباد.

السابعة: اعتبار هذا الموقف من أهل الزيغ قاعدة يعرفون بها فيحذرون.

الثامنة: بيان ابن كثير لكيفية اتباع المتشابه بما ضربه من المثل وكذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني.

* * *

المبحث الثامن

أن دعاة الضلالة يعتمدون على الدعوى المجردة في دينهم وسائر سلوكهم

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٥] فأخبر تعالى أن قولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ كذب وافتراء عليه وأن هذه الفرية غرتهم في دينهم فصاروا يعتمدون عليها فيما يقعون فيه من المخالفات الشرعية .

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنه ، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم»(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ «أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلاّ أياماً

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٥٥).

معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ولم ينزل الله به سلطاناً »(١).

عن المقدام بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وان ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله ». [رواه الترمذي وابن ماجه] فهذا الرجل بنى قوله على دعوى أن الكتاب يغني عن السنة وأنه لا حاجة إليها وهي دعوى ينبني عليها ترك كثير من أمور الدين مما لا يمكن فهمه إلاّ عن طريق السنة.

وقال علي رضي الله عنه: إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فهم فيه ولا قراءة لا تدبر فيها » وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه أو يفتقر إلى ما عنده وستجدون أقواماً يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم. عليكم بالعلم وإياكم والبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق » رواه الدارمي .وذلك أن البدع مبناها على الدعوى المجردة من الدليل فنجد أهل البدع عندهم من الحرص عليها والاجتهاد فيها مالا يوجد له مثيل عند غيرهم وكل ذلك مبني على دعوى نسجوها من تلقاء أنفسهم أو نسجت لهم والواقع ما قال الله تعالى في شأن أهل الكتاب **﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** وقد قال النبي ﷺ: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ».

[رواه مسلم]

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: اعتماد أهل الضلالة فيما يعتقدون على الظن والأوهام ففيه معنى قوله تعالى عنهم: **﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾**.

---

(١) المصدر نفسه: (١/٣٥٦).

الثانيـة : أن أهل الكتاب كذبوا على الله وخدعوا أنفسهم حين قالوا : ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾.

الثالثة : أن الأخبار الشرعية مبناها على النقل دون زيادة أو نقصان فإن كان صحيحاً فهي صحيحة وإلاّ فلا، وأن من أُخبر بثواب أو عقاب على عمل أو أشخاص دون أن يعتمد على نقل صحيح فقد كذب على الله وظلم نفسه ومن اقتدى به ففيه معنى قوله تعالى ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**﴾

[النحل:١١٦]

الرابعة : الوعيد الشديد على من كذب على الله ففيه معنى قوله تعالى ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ**﴾

[الزمر:٣٢]

الخامسة : عظم مكانة السنة من القرآن وأن من اعتمد على القرآن – بزعمه – وترك السنة لا يكون بمنجاة من عذاب الله إذا ارتكب مخالفة سنة رسول الله ﷺ في أمره ونهيه.

السادسة : أن ما حرم رسول الله ﷺ في سنته مثل ما حرم الله في كتابه وأنه يجب الأخذ بالسنة ولو لم يرد لما ذكرته من الأحكام شيء من القرآن ، ففيه معنى قوله تعالى : ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [لنساء:٨٠] وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾

[الحشر:٧]

السابعة : بيان منهج دعاة الضلالة وأنهم لا يحبون السنة ويتعللون بالأخذ بالقرآن وحده وليسوا على شيء.

الثامنة: قول علي رضي الله عنه: «لا خير في عبادة لا علم فيها ...الخ» وما بعده فيه بيان للمنهج الصحيح في العبادات والقراءة وتلقي العلوم.

التاسعة: تحريض ابن مسعود على طلب العلم وبيان السبب في ذلك وتحذيره من دعاة الضلالة وكشف النقاب عن زيف دعوتهم وأن دعواهم التمسك بكتاب الله من باب التمويه والتعمية على الناس أو من باب الجهل المركب.

* * *

المبحث التاسع

أن من وسائل التضليل لدى دعاة الضلالة نسبة بعض الصالحين إليهم

قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٠] فأخبر سبحانه أن نسبتهم إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية إنما هو من باب التضليل وكتمان الشهادة ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥]

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:٦٥] فاحتج عليهم بالتاريخ إذ كيف يكون يهوديا أو نصرانياً والتوراة التي عليها اليهود والإنجيل الذي عليه النصارى فيما يزعمون ما أنزلتا إلاّ بعده بزمن طويل جداً.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾

[النساء:١٢٣-١٢٥] فأخبر تعالى أن الجزاء عنده دائر بين الفضل والعدل فمن يعمل سوءاً يجز به أياً كان نسبه ومن يعمل صالحاً فلا يظلم شيئاً بل يضاعف له الجزاء كرماً وإحساناً وأن إبراهيم ليس على ما عليه أهل الكتاب والمشركون من اليهودية أو النصرانية أو الشرك بل هو إمام يقتدى به في الإخلاص لله وعدم الإشراك به والمتابعة لله في أمره ونهيه.

وقال تعالى عن أنبيائه ورسله ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام:٨٣-٩٠] فأخبر تعالى أن أنبياءه بما فيهم موسى وعيسى عليهم السلام لم يكونوا معتمدين في دينهم على الأماني والانتساب إلى الأخيار من الأباء والأجداد بل كل منهم مهتدٍ بهدى الله الذي أنزله إليه محسن فيما يتقرب به إلى الله تعالى وبهذا يتميز دعاة الضلال من دعاة الهدى والرشاد.

وقال البخاري - رحمه الله -: «قال موسى (يعني ابن عقبة) حدثني سالم بن عبدالله - ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر - أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلِّي أن أدين بدينكم فأخبرني. فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ

بنصيبك من غضب الله. قال زيد ما أفر إلاّ من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلاّ أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله فقال :لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلاّ من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنّى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً قال: وما الحنيف قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم» وقد دل هذا الأثر على أن اليهود والنصارى حين قالوا عن إبراهيم بأنه يهودي أو نصراني كان ذلك منهم محض افتراء وأنهم يعلمون أنه لم يكن كذلك.

قال الطبري – رحمه الله –: ﴿حَنِيفًا﴾ يعني متبعاً أمر الله وطاعته، مستقيماً على محجة الهدى التي أمر بلزومها. ﴿مُسْلِمًا﴾ يعني خاشعاً لله بقلبه متذللاً له بجوارحه مذعناً لما فرض عليه وألزمه من أحكامه»(١).

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: دعوى اليهود والنصارى والمشركين أن إبراهيم كان على دينهم وأنها دعوى باطلة.

الثانية: أن هذه الدعوى قائمة على قصد التمويه والتضليل فهم يعلمون أنه ليس كذلك وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

الثالثة: إبطال هذه الدعوى بنفيها وإثبات ما عليه إبراهيم من الدين المغاير لما عليه اليهود والنصارى والمشركون.

---

(١) تفسير الطبري: (٦/٤٩٤).

الرابعة: بيان فائدة التاريخ وأن الله أحتج به على إبطال هذه الدعوى ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾ فكيف يكون على دين اليهود والنصارى ولم يكن لها وجود في عهده ولا قبله.

الخامسة: أن الله حكم عدل ﴿لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.وأنه لا قيمة للأماني المبنية على الدعاوى الباطلة وأن الجزاء من جنس العمل.

السادسة: بيان ما عليه أنبياء الله من التوحيد وصلاح العمل وأن اليهود والنصارى على خلاف ذلك ففيها إبطال كونهم على ما جاءت به رسلهم من الهدى.

السابعة: بيان حقيقة دعوى اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وأنهم يعلمون أنه على خلاف ذلك ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ولهذا أرشدوا زيد بن عمرو بن نفيل إلى دين إبراهيم وأنه الحنيفية.

الثامنة: تفسير الطبري لكلمتي: الحنيف والمسلم.

* * *

المبحث العاشر

أن من وسائل التضليل لدى دعاة الضلالة الدخول في الإسلام ثم الخروج منه لتسمع دعواهم فيه بالباطل

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قال ابن كثير - رحمه الله -: هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين»(١). وقال العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا»(٢).

عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لعن الله من كمه أعمى عن السبيل» وفي رواية «ملعون من كمه أعمى عن الطريق». [رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان. وقال الساعاتي: سنده حسن] ومعنى (كمه): عمى عليه الطريق وأضله. فإذا كان هذا في شأن التضليل عن الطريق الحسي مع إمكان وجود من يصحح مساره فيكتشف الخطأ ويصل إلى الصواب فكيف بالتضليل لأعمى البصيرة بسبب

(١) تفسير ابن كثير: (١/٣٧٣).

(٢) نفس المصدر.

الجهل حتى يوهمه أنه على هدى وليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام:١٤٤]

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: إمعان دعاة الضلالة من أهل الكتاب في الصد عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران ٩٩].

الثانية: أن من سمات دعاة الضلالة المكر والخداع والحيل بضعفاء الناس ليصدوهم عن سبيل الله.

الثالثة: أعمال الحيل الظاهرة والباطنة في دفع ما جاءت به الرسل.

الرابعة: الإقرار بالحق ليتوصلوا به إلى دفعه. وهذه والتي قبلها من مسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله[1].

الخامسة: أن الدعاوى لا تقبل بدون بينة وأن الحق إنما يعرف بدليله.

السادسة: خطر التقليد الأعمى وكيف يستغله دعاة الضلالة.

السابعة: أن دعاة الضلالة يستغلون ما لهم من مكانة عند ضعفاء الناس في صدهم عن الحق وإشباع رغباتهم بخلاف دعاة الهدى فإنه لا يزيدهم تقدير الناس إياهم إلاّ نصحاً لهم وسعياً في مصالحهم ودفع الأذى عنهم وخوفاً من الله فيهم.

الثامنة: لعن رسول الله ﷺ: «من أضل الأعمى عن الطريق» فمن أضله عن الحق كان أولى وعمى البصيرة أشد من عمى البصر قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦].

---

(١) مسائل الجاهلية من مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب: (١/٣٤٤).

المبحث الحادي عشر

أن من سمات دعاة الضلالة عدم استمرار العلم الصحيح في قلوبهم وعدم ظهوره على جوارحهم وإن تشدقوا به وظهروا في صور العلماء بألسنتهم

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦] فانظر كيف يسألون هذا السؤال وهم من ضمن الحاضرين وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣] فأخبر تعالى أن الفعل بما يخالف القول ممقوت عنده سبحانه فإذا كان ذلك بقصد التضليل كان أولى بالمقت (والمقت شدة الغضب) نسأل الله العافية.

قال ابن كثير – رحمه الله –: (إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به)(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:٦١].

قال ابن كثير: «هذه صفة المنافقين منهم (أي أهل الكتاب) أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر»(٢).

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/٣٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٧٤).

قال ابن كثير: «لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه»[1].

وقال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. «أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة»[2] وما كان لهم أن يفعلوا ذلك ولا أن يقبل منهم لولا أنهم يظهرون بمظهر العالم الناصح فيحصل للعامة اغترار بأقوالهم فيقعون في الهلاك وذلك بترك الحق والأخذ بالهوى وتأمل في قوله: ﴿يَأْمُرُونَ﴾ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾.

عن أبي عثمان النهدي قال: إني لجالس تحت منبر عمر وهو يخطب الناس فقال في خطبته: سمعت رسول الله ﷺ يقول إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة (وفي لفظ على أمتي) كل منافق عليم اللسان. رواه أحمد وقال المنذري ورواته محتج بهم في الصحيح، وقال الهيثمي رجاله موثوقون. قال الساعاتي: «أي كثير علم اللسان جاهل القلب والعمل، أتخذ العلم حرفة يتأكل بها ذا هيبة وأبهة يتعوذ بها ويتعاظم بها، يدعو الناس إلى الله ويفر هو منه»[3].

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: أن مخالفة الفعل للقول ممقوت عند الله أشد المقت وعداً كان أو غيره.

الثانية: أن هذا ليس من صفات المؤمنين ولهذا شدد النكير على فاعليه وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان».

الثالثة: وجوب الوفاء بالوعد.

(١) تفسير ابن كثير: (٤/٣٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٣٦٨).

(٣) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني للشيخ أحمد البنا: (١٩/٢٣٢).

الرابعة : أن من أهل الكتاب منافقين يقولون مالا يعتقدون.

الخامسة : تفنن أهل النفاق في مخاطبة المؤمنين وتعزيز قولهم بأنواع المؤكدات مبالغة في خداع المؤمنين وإيهامهم بأنهم صادقون **﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾**.

السادسة : أن من أبرز صفات دعاة الضلالة من المنافقين كونهم على خلاف طريق المؤمنين فلا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر .بل على العكس من ذلك وهذا مخالفة في الفعل لما يقولونه من دعوى الإيمان ففيه معنى قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾**.

السابعة : أن العلم إذا لم يتخذ للعمل كان خطراً على الناس أيما خطر ووبالاً على صاحبه.

* * *



المبحث الثاني عشر

أن من دعاة الضلالة من يرى في الخروج على ولاة الأمر فضيلة وفي طاعتهم ذل ومهانة وأنهم على خلاف منهاج النبوة المطهرة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩].

وهذه الآية هي الأصل في السمع والطاعة لولاة الأمر. قال ابن العربي – رحمه الله –: «والصحيح عندي أنهم (أي أولي الأمر) الأمراء والعلماء، أما الأمراء فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم، وأما العلماء فلأن سؤالهم واجب متعين على الخلق، وجوابهم لازم وامتثال فتواهم واجب»(١) وقال ابن كثير – رحمه الله –: «والظاهر– والله أعلم – أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء»(٢).

عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». [متفق عليه] والمراد: لا سمع ولا طاعة في المعصية وعدم الطاعة في المعصية لا يلزم منه الخروج على الإمام ولا يبرره فلزوم الجماعة باق مع ذلك.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية». [متفق عليه]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (١/٤٥٢).

(٢) تفسري ابن كثير: (١/٥١٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه» رواه مسلم. والعمية: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه»(1) وقوله: «مات ميتة جاهلية» أي على صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم»(2) فهذا منهاج النبوة في هذا الباب فيما يجب وما يحرم. ودعاة الضلالة على خلافه.

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:47-48] وقوله ﴿إِلاَّ خَبَالاً﴾ أي فساداً بتخذيل المؤمنين فهؤلاء على خلاف منهاج النبوة فإن التخذيل والإسراع بالنميمة وطلب الفتنة كل ذلك مما حرمه الله على المؤمنين.

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى –: «﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة» وقال في قوله ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ «أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة»(3).

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقين:8] يعنون بذلك رسول الله ﷺ. قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله – في مسائل الجاهلية بأنهم يرون «مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة وأن السمع والطاعة له ذل ومهانة فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على

---

(1) شرح النووي على مسلم: (2/238).

(2) المصدر نفسه.

(3) تفسير ابن كثير: (2/361).

جور الولاة وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة وغلظ في ذلك وأبدى فيه وأعاد»[١] وقال أيضاً: «أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه» وقال: «إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً»[٢].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنه لا إسلام إلاّ بجماعة ، ولا جماعة إلاّ بأمارة ، ولا أمارة إلاّ بطاعة». [رواه الدارمي]. وقوله: «لا إسلام إلاّ بجماعة» المقصود – والله أعلم – عند وجود الجماعة لأنه قد جاء في حديث حذيفة «فإن لم يكن إمام ولا جماعة قال: اعتزل تلك الفرق كلها» ولما تقدم في هذا الباب من الأحاديث.

وقال فروة بن نوفل – وكان من الخوارج –: «والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً»[٣] لأنه كان تحت راية عمية. ولما طلب أهل الكوفة من عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يعزل سعيد بن العاص فأبى أن يعزله خرج الأشتر النخعي من ليلته في نفر، فسار عشراً إلى الكوفة واستولى عليها وصعد المنبر وقال: هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن السواد بستان لأغيلمة من قريش، والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم فمن كان يرى عليه لله حقاً فلينهض إلى الجرعة ، فخرج الناس فعسكروا بالجرعة فأقبل سعيد حتى نزل العذيب، فجهز الأشتر إليه ألف فارس مع يزيد بن قيس الأرحبي وعبدالله بن كنانة العبدي فقال: سيروا وأزعجاه وألحقاه بصاحبه فإن أبى فاضربا عنقه، فأتياه فلما رأى الجد رجع .وصعد الأشتر منبر الكوفة وقال: يا أهل الكوفة ما غضبت إلاّ لله ولكم وقد وليت أبا موسى الأشعري صلاتكم ، وحذيفة بن اليمان فيئكم ثم نزل وقال: يا أبا موسى اصعد. فقال ما كنت لأفعل، ولكن هلموا فبايعوا لأمير المؤمنين وجددوا البيعة في رقابكم

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب : (١/٣٣٥).

(٢) المصدر نفسه : (١/٣٩٤).

(٣) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك : (٥/١٣٤).

فأجابه الناس وكتب إلى عثمان بما صنع فأعجب عثمان بما صنع وولاه على الكوفة(١) فانظر كيف استثار الناس بالكذب وادعى على سعيد ما لم يقله ليصل إلى مراده من إثارة الفتنة والخروج على سلطان المسلمين فأطفأ الله الفتنة بهذا الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل :

الأولى : وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية الله ورد ما تنوزع فيه إلى الكتاب والسنة وأن ذلك مقتضى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

الثانية : بيان المراد بولاة الأمر وأنهم الأمراء والعلماء .

الثالثة : أن عدم طاعة ولي الأمر في المعصية لا يعني الخروج عليه ولا يبرره ففيه معنى قول أبي هريرة في شأن معاوية – رضي الله عنهما –: «أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله» . [رواه مسلم]

الرابعة : وجوب الصبر على ولاة الأمر لما في ذلك من المصالح الشرعية العظيمة الدينية والدنيوية ففيه معنى قوله ﷺ : «إذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فأكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة» . [رواه مسلم]

الخامسة : الترهيب من الخروج على السلطان.

السادسة : الترهيب من القتال تحت راية عمية وبيان معنى ذلك.

السابعة : الترهيب من عدم مراعاة حقوق أمة محمد ﷺ .

الثامنة : أن طاعة ولاة الأمر من تمام الاجتماع في الدين وأنه لا يرغب في الخروج على ولاة الأمر إلاّ ذو جاهلية وهي الضلالة.

التاسعة : حرص دعاة الضلالة على الوقيعة بالمسلمين.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء) ص٣٤١ .

العاشرة : أن من أهل النفاق من يرى نفسه أعز من ولي أمر المسلمين تكبراً عليه واستنكافاً عن طاعته.

الحادية عشرة : التشديد على قضية الجماعة لما فيها من حفظ هيبة المسلين وحقن دمائهم وقوة شوكتهم ففيه معنى قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم» . [رواه مسلم]

الثانية عشرة : العبرة من فتنة الأشتر النخعي وما صاحبها من الكذب والخداع من أجل استثارة الناس ضد ولي الأمر ثم موقف الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ثم موقف الخليفة الراشد رضي الله عنه .

* * *

المبحث الثالث عشر

أن من دعاة الضلالة من يتتبعون أخطاء العلماء -ولو تقولاً- للنيل منهم وصد الناس عن الاستفادة منهم

قال تعالى في شأن موسى عليه السلام وفرعون لعنه الله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٨-٢١] فذكر أنه قام بتربيته وليداً وأن موسى لم يرع حق النعمة بل قابل ذلك بما فعله من القتل جاحداً نعمته عليه وكل ذلك من أجل التعريض به إظهاراً لعيوبه وصداً للناس عنه قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً وجحدت نعمتنا عليك ولهذا قال ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الجاحدين»(١).

عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: ياللأنصار! وقال المهاجري: ياللمهاجرين! فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبدالله ابن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٣٣٢).

ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر، فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه». لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». [متفق عليه] ومعنى كسع: ضرب دبره وعجيزته. فانظر كيف يتتبع هذا المنافق عورات المسلمين مبتغياً الفتنة مدعياً لنفسه وقومه العزة ولرسول الله ﷺ والمهاجرين الذلة قبحه الله.

وعن عثمان بن عبدالله بن وهب قال: جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا بن عمر! إني سائلك فحدثني ، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها ؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبين لك ، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه. وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة لبعثه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده وقال: «هذه لعثمان». ثم قال ابن عمر : اذهب بها الآن معك». [رواه البخاري] فهذا الرجل جاء في هذا المكان الطاهر وعمد إلى حلقة ابن عمر في المسجد الحرام وبث سمومه على وجه لو نجح فيه لقام ذلك المجلس المبارك بحمل فتنته والاصطلاء بنارها ولكن الله سلم بما وفق له هذا الحبر العظيم والعالم الجليل عبدالله بن عمر حيث أبطل كل دعاويه واحدة واحدة وحولها إلى فضائل لذلك الرجل الكريم المبشر بالجنة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وعن مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ وذكر الفتن فقربها فمر رجل مقنع في ثوب فقال: «هذا يومئذ على الهدى» فقمت إليه فإذا هو عثمان بن

عفان . قال : فأقبلت عليه بوجهه فقلت : هذا ؟ قال : نعم . [رواه الترمذي وابن ماجه]، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . فتأمل هذه التزكية من رسول الله ﷺ ، وقابلها بقصة المصري وما دار بينه وبين عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - يتبين لك ما عليه القوم من الباطل .

وقال زرعة بن البرح – وهو ممن خرج على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه – : « أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك اطلب بذلك رحمة الله ورضوانه »(١) وهو يعلم أن علياً ممن شهد لهم رسول الله بالجنة وأنه يحب الله ورسوله ، وهو أعلم منه بالله ورسوله ﷺ واتقى، وعند علي ومعه من المهاجرين والأنصار من فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر، ولكنه الهوى والجهل بالله تعالى . أعاذنا الله من ذلك.

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع قال : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لاتؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله » . [رواه الترمذي] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط » . [حديث حسن صحيح رواه أبو داود] . وعلي رضي الله عنه ممن اجتمعت فيه هذه الخصال ولكن القوم لا يعظمون الله في واقع أمرهم وإن ادعوا ذلك .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعزله ، واستعمل عليهم عماراً فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي . فأرسل إليه فقال :يا أبا إسحاق ، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن

(١) البداية والنهاية (٧/٢٨٥).

تصلي. قال أبو إسحاق: أما والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها، أُصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الأخريين. قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق. فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجداً إلاّ سأل عنه ويثنون معروفاً حتى دخل مسجداً لبني عبس فقال رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة قال: أمّا إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير فينا بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية. قال سعد والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعرّضه للفتن .وكان بعد إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد.

قال عبدالملك: «فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن» رواه البخاري وفي رواية له: قال عمر لسعد: «لقد شكوك في كل شيء حتى الصلاة».

ويستفاد من هذا الفصل عدة مسائل:

الأولى: تذكير فرعون لموسى بخطئه حين قتل القبطي لينال منه ولهذا قال: ﴿وأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

الثانية: استغلال عبدالله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين لفعل المهاجري بالأنصاري وقوله: فعلوها... !الخ.

الثالثة: تتبع أهل الزيغ لعورة أمير المؤمنين عثمان بن عفان للنيل منه رضي الله عنه وكيف فرح هذا المصري بجواب ابن عمر على أسئلته بنعم ظنا منه أنه قد أوصل مهمته لهذا الجمع من الناس في حرم الله، من التشهير بالخليفة والتنقص به ولكنه باء بالفشل حين بين له ابن عمر الأسباب وأنها تحولت إلى فضائل لو أن القوم يهتدون بهدى الله فيسألون إذا لم يعلموا.

الرابعة: عظم فقه ابن عمر ودقة حكمته حيث استدرج هذا المصري حتى عرف أهدافه ثم كر عليه بإبطال ما توهمه وقوله: (اذهب بها الآن معك).

الخامسة: الفائدة العظيمة فيما ورد في شأن عثمان من الطعون التي وجهها أعداؤه وما خاض فيه بعض المؤرخين وأنها كلها باطلة وأن الرجل على الهدى بشهادة رسول الله ﷺ وفيها العبرة في كشف حبائل أهل الزيغ وأنهم لا يتورعون في إلصاق النقائص بأهل العلم والفضل مهما كانت منزلتهم.

السادسة: وقاحة الخارجي وهو يهدد أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه من أجل قضية التحكيم مع أنها قضية اجتهادية وما كان كذلك فإنه لا يبرر الخروج من الجماعة ولا إهانة ولي الأمر بالتهديد والتشهير به بين العامة كما فعل الخوارج قبحهم الله.

السابعة: عظم ضلال هؤلاء الخوارج حيث يطلبون رحمة الله بما يسخطه ففيه معنى قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**.

الثامنة: فضل علي رضي الله عنه حيث اتسع صدره لمثل هذا الكلام حرصاً منه على إطفاء الفتنة وإقامة الحجة وهو بذلك يأخذ بأسباب النصر وقد نصره الله.

التاسعة: فضل من أكرم ذا الشيبة المسلم ... الخ وأن ذلك من إجلال الله تعالى.

العاشرة: عظم الفرية التي قذف بها الرجل العبسي سعداً رضي الله عنه لينال منه بالوشاية به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الحادية عشرة: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأن عمر لم يعزله لتهمة لقوله: «هذا الظن بك يا أبا إسحاق».

الثانية عشرة: أن سعداً من مجابي الدعوة وأن الله قد استجاب له في هذا الظالم ففيه معنى قوله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» الحديث.

الثالثة عشرة: أن من أساليب دعاة الضلالة النيل من العلماء وافتراء الكذب عليهم لصد الناس عنهم فكم من خير حرمه أهل الكوفة بسبب هذه الفرية وقد قال له النبي ﷺ: «لعلك أن تعمر فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون».

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الثالث

فهرس الموضوعات